مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّانِي والخَمسُون

سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَة التَّفْسِيرِ البَلاغِيّ

المُجَلَّدُ الثَّانِي والخَمسُون

سورة غَافِرٍ من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ غَافِرٍ

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: 77]

عنـدَ العلم بالحقائق يقعُ الضّيق، ولا علاجَ له إلّا الصَّبرُ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذُكِرَ في الآياتِ السّابقة ما يكون للمجادلين المكذِّبين في نار الجحيم، وخُتمتْ بتقريع المجادلين في آيات اللّه المكذِّبين بكتابه، بأنْ أمَرَهم بدخول أبواب النّار خالدين فيها؛ ناسَبَ أن يرجعَ السّياقُ إلى مبدإ الكلام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ مخاطبًا الرَّسول ﷺ؛ ليقعَ الاعتبارُ والاتِّعاظ من إنزال تلك الآيات، وهو تصبيرُ المصطفى عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على ما يُلاقي من قومه المشركين، فالآياتُ السّابقة واقعةٌ بين الدّعوة إلى النّظر والتّأمُّل لِما يصدُرُ عن المشركين، وبين الأمر بالصَّبر لِما يصدُرُ عنهم، فمَن علم أصابَهُ الضّيق، وليس للضّيق إلّا الصَّبرُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُرِيَنَّكَ﴾: أراه إراءً: جعله يَرَى، وهي في البَصَريَّة ذاتُ مفعولين، وفي القَلْبيَّة ذاتُ ثلاثةٍ، أرى اللّه بفلان: نكل به، لا تُقال إلّا في الشّر[1]، فـ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ معناه: نُطلِعُك على ما نُنْزِلُه بهم مِن العقوبة الدّنيويَّة، ونَشفي بذلك صدرَكَ قبل أن نقبِضَك إلينا.

2) ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: الوافي: الَّذي بلغ التّمام. يقال: درهمٌ وافٍ، وكيلٌ وافٍ، وأوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ. قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 35]، وفَى بعهده يَفي وفاءً، وأوْفَى: إذا تمَّمَ العهد ولم ينقُضْ حِفْظَهُ، واشتقاقُ ضدّه - وهو الغدر - يدلّ على ذلك وهو التّرك،

(1) رضا، معجم متن اللغة: (رأى).

والقرآن جاء بـ(أَوْفَى). قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، وقال تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النَّجم: 37]، وتَوْفِيَتُهُ أنَّه بذَلَ المجهودَ في جميعِ ما طولِبَ به، وتَوْفِيَةُ الشّيء: بَذْلُهُ وافيًا، واسْتيفاؤُهُ: تناوُلُه وافيًا. قال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [آل عمران: 25]، وقد عُبِّرَ عن الموت والنَّوم بالتَّوَفّي، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزُّمر: 42]، ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: 46][1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الصبرُ سبيلُ تحقيقِ الأهدافِ الدَّعويَّةِ والعقديَّة

تُخاطبُ الآية الكريمة النّبيَّ ﷺ، وتأمرُهُ بالصَّبر على ما صدَرَ عن المشركين؛ أي: فاصبر؛ إنَّ الله تعالى مُنجزٌ لك ما وعدك، وتَرَقَّبْ ما سينزله بالكافرين من أنواع العقوبات. وقد يَمُدُّ الله تعالى في عمرِكَ الدُّنيويِّ فتَقَرُّ عيناك برؤيةِ بعضِ ما سيَحِلُّ بهم في الدّنيا من العذاب؛ فيَشْفي بذلك أحزانَك، وإلّا فأين يهربون؟ إنَّ مصيرهم إلى الله تعالى لا إلى سِواه، وهناك في الآخرة يُقِرُّ سبحانه عينيك برؤية عقابِهم العقابَ الأكبرَ الأبقى.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

احتمالُ الفاء للاستئناف والتّفريع وأنْ تكونَ فصيحة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ استئنافيَّة، تستأنف توجيهًا إلهيًّا للرَّسول ﷺ، ثمَّ لكلِّ داعيةٍ يواجَهُ مِن أعداء الدّين بمثلِ ما ووجِهَ به ﷺ من جدالٍ بالباطل، وتكذيبٍ للحقّ. وتحتملُ أن تكون تفريعيَّةً؛ حيث فرَّعَتْ أَمْرَهُ ﷺ بالصَّبر عن تقديم الوعيد الحقِّ للمشركين المكذِّبين، وهو وعيدٌ لا يتخلَّفُ مهما بدا زمانُ حصوله مُتطاوِلًا؛ فوعدُ الله حقٌّ. وتحتملُ أن تكونَ فصيحةً؛ أي: إذا علمتَ ما سيكون للمشركين المجادلين بالباطلِ فاصبرْ.

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (وفى).

دلالةُ التَّعبير بالصَّبر:

الرّسولُ ﷺ قدوةُ الصّابرين وإمامُ الثّابتين

استعمَلَ النَّظم الكريم مفردةَ الصّبر ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما عليه مِن مواجهة المشركين يحتاج إلى صبرٍ، و"الصَّبرُ: الثّباتُ على تَحمُّل المكروهِ والمَشاقِّ"[1]، وحبْسُ النَّفْسِ على احتمال الأذى الحسّيِّ والمعنويِّ؛ بغرضِ الوصول إلى غايةٍ ساميةٍ، ولا أسمى من بذل العمر في طاعة اللّه تعالى، والدّعوة إلى توحيده.

غرضُ الأمرِ ودلالتُهُ البلاغيَّة:

التَّعريضُ بحصولِ النَّصرِ للمؤمنين والعقابِ للكافرين

الأمرُ بالصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ مستعمَلٌ في غرضِ المواساة والمؤانسة له ﷺ[2]، ثمَّ لكلِّ داعيةٍ يُعاني مثلَ ما عاناه من كفّار قريش، ويَدعَمُ غرضَ المواساةِ وتطييبِ الخاطر في هذا الأمر ما سَبَقه من وعيد الكفار، وما لَحِقَهُ من تأكيدِ حلول الوعيد بهم ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

كذلك في هذا الأمرِ توصيةٌ بالصَّبر[3]، وطلَبٌ للمداومة عليه[4]؛ أي: دُمْ على الصَّبر؛ فلمّا كان الصَّبرُ مُرًّا ثقيلًا على النّفوس، وكان الرَّسول ﷺ قد صَبَرَ صبرًا طويلًا، وعانى أشدَّ المعاناةِ من عَنَتِ كفّار قريش، وتكذيبِهم إيّاه، وعدمِ تركه لينشرَ دينَ اللّه تعالى؛ إذ لم يتقبَّلوا الإيمان؛ لمّا كان الأمرُ ذلك كان توجيهُهُ ﷺ إلى مداومةِ التّسلُّح بالصَّبر في حاجةٍ إلى دعم روحِهِ ومواساةِ نفسِهِ بتقديم بعضِ الوعيد المقرَّرِ إنزالُهُ بمُناوِئيه.

وإلى ذلك فقد جاءَ أمرُه ﷺ بالصَّبر "تعريضًا بالانتصار له؛ ولذلك فرَّع على الأمر بالصَّبر الشّرطَ المردَّدَ بين أنْ يُريَه بعضَ ما توعَّدَهم اللّه تعالى به، وبين ألّا يراه، فإنَّ جواب الشّرط حاصلٌ على كلتا الحالتين، وهو مضمونٌ؛ فإلينا يُرجَعون"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 14/ 300.
(2) أبو حيان، البحر المحيط في التّفسير: 9/ 274.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 12/ 312.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 12/ 313.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 208.

تعيينُ مرجعِ ضميرِ المخاطب:

المخاطبُ المأمور بالصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ هو الرَّسول الكريم ﷺ؛ لأنَّه المخاطبُ الأوَّل بهذا الكتاب العزيز، ثمَّ هو بعدُ خطابٌ لكلِّ موحِّدٍ احتمَلَ عبْءَ الدّعوة إلى اللّه تعالى، بل هو خطابٌ لكلِّ مَن يتأتّى له الخطابُ.

القرآنُ الكريم خطابٌ للرَّسول ﷺ أوّلًا، ثمَّ لكلِّ النّاس مِن بَعْدِه

نكتةُ حذفِ متعلّقِ الصّبر:

لم يُقيِّدِ الأمرُ بالصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ بل جاء مطلقًا، فلم يَقل: فاصبر على أذى الكفار[1] وتكذيبهم؛ للتّنبيهِ إلى عظمة الصّبر عمومًا، والدَّلالةِ على جَدْواهُ في كلِّ مقام يقتضي الصّبرَ، ولو ذُكِرَ متعلّقٌ معيَّنٌ للصَّبر لاقتَصَرتْ ثمرةُ الصَّبر عليه، ولَعَلَّقَ ذهنُ المتلقّي جدوى الصَّبر بالمذكور المحدَّدِ دون سواه، ولكنْ ليست ثمرةُ الصَّبر بمقصورةٍ على مصبورٍ عليه معيَّن؛ لذلك أطلَق النّظم الكريم، ولم ينصَّ على الصَّبر على أذى الكفّار وتكذيبهم فقط؛ ليعطيَ تلك الإشارةَ.

الصَّبر نافعٌ في كلِّ مقامٍ يقتضي الثَّبات لتحقيقِ الغاية

علّةُ فصلِ الجملةِ عمّا قبلَها:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ عن جملةِ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾؛ لِما بينهما من شبهِ كمال الاتّصال؛ لأنّها تعليلٌ لجملةِ الأمر.

ووعدُ اللّه تعالى هو أنَّه "سينصرُهُ، ويُعِزُّ المؤمنين الَّذين آمنوا به، ويُمكِّنُ لهم في الأرض، وأنَّه سبحانه سيُخزي الضّالّين المكذِّبين، ويوقعُ بهم البلاءَ في الدّنيا، والعذابَ الشّديد في الآخرة"[2].

التّعليلُ بعد الأمرِ تحقيقٌ للطُّمأنينةِ وترسيخٌ للقناعةِ

غرضُ التَّوكيدِ وبلاغتُه:

كان كفارُ قريشٍ يُشَكِّكون في نُصرة اللّه تعالى رسولَه ﷺ، والتَّمكينِ لدينه الحقِّ، فاقتضى ذلك توكيدَ وعدِه تعالى بنصرِ الحقِّ، ونصرِ رسوله ﷺ.

لِثِقَلِ الصَّبرِ تَحسُنُ إحاطتُهُ مِن حَوالَيْهِ بما يُلَطِّفُ وقْعَ الأمر به

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 215.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1271.

ثمَّ إنَّه لمّا كان الأمرُ بالصّبر ثقيلًا على النّفس كان توكيدُ الجملة المطِّفة له بعده مطلوبًا؛ تخفيفًا لِثقله وتهوينًا من وقْع الأمر به.

وإلى ذلك فقد قالوا: "إنَّ النّبيّ ﷺ والمؤمنين استبطَؤوا النَّصرَ، كما قال تعالى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 214]، فنُزِّلوا منزلةَ المتردِّد فيه - أي: في التَّصديق بأنَّ وعدَهُ تعالى حقٌّ - فأكَّدَ وقوعَ وعدِهِ بحرفِ التّوكيد"(1).

نكتةُ استعمالِ مفردةِ (الوعد):

لفظُ (الوعدِ) يُحيلُ الحُزْنَ تفاؤلًا، والهمَّ هِمَّةً وثباتًا

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ لفظ (الوعد) في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ ليشملَ نصرَ المؤمنين وإذلالَ الكافرين، وليَدْعَمَ تلطيفَ أجواء الحُزن الَّتي كان يعانيها الرَّسول الكريم ﷺ مِن صُدودِ المشركين وصدِّهم غيرَهم عن اعتناق الدّين الحقِّ والاستسلام للّه ربّ العالمين، فجاء التَّعبيرُ بالوعد ليُحيلَ الحُزنَ والهمَّ تفاؤلًا ورجاءً، وليَشْحنَ النَّفْسَ الكريمة طاقةً إيمانيَّةً وهمَّةً وثباتًا.

دلالةُ إضافةِ (الوعدِ) لِلَفْظِ الجلالة:

لا وعْدَ أوْثَقُ وأوفى مِن وعد الله تعالى

ممّا يُعلي مِن قيمةِ الوعد أنَّه أُضيف إلى الاسم الجليل في المسندَ إليه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ وإذا كان مطلقُ الوعد يبعث على التّفاؤل ويُطَمْئِنُ النَّفسَ فإنَّ إضافته إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى تَزيدُه قدرًا، وتُفعِمُ الموعودَ به طمأنينةً واستبشارًا، وأيُّ (وعْدٍ) يَعدِلُ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ تعالى تحقيقًا؟ وأيُّ واعدٍ غيرِ اللّه تعالى يقدرُ على الوفاء بوعده على الوجهِ الأتمِّ؟

والإضافةُ بمعنى (مِن)؛ أي: وعدٌ من اللّه تعالى نازلٌ في القرآن.

نكتةُ حذفِ متعلِّق المُسنَدِ إليه:

كلُّ وعدٍ مِن الله تعالى حقٌّ

حُذِفَ متعلِّق الوعدِ من جملة ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، والتَّقدير: إنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 208.

وعدَ اللّه بنصرِكَ[1]، وإظهارِ أمرك[2] وهلاكِ الكافرين[3] حقٌّ، ونكتةُ حذفِهِ إفادةُ عموم الحُكم، والقطعُ بأنَّ كلَّ وعدِ اللّه تعالى حقٌّ لا يتخلَّف، بل هو الحقُّ الواقعُ لا محالةَ، ويدخلُ فيه دخولًا أوليًّا الوعدُ بالنَّصرِ وإقامةِ الدّين.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حَقّٞ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

اللّـهُ تعالى لا يُسأل عمّا يَفعَلُ؛ فوعدُهُ محقَّقٌ لا محالة

الإخبارُ عن ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بـ ﴿حَقّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ يدلُّ على الجزم بتحقُّقه والقطعِ بِحصوله، وإثباتِ أنه وعدٌ ﴿حَقّٞ﴾ كائنٌ[4] لا محالةَ.

وجاء استعمال مفردةِ الحقّ لا مفردةِ الصِّدقِ؛ لتضمُّنِ الحقِّ لمعنى الصّدق، مع ما فيه من التّأسيَةِ والتَّسْليةِ في هذا المقام.

ونُكِّر لفظُ ﴿حَقّٞ﴾ ليوحي بعظمتِه، وأنَّ مُتلقّيَهُ جديرٌ بالاستبشارِ والتَّفاؤلِ بهذا الوعد؛ وحُقَّ له ذلك؛ فهو ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ ممّا يدعمُ الثّقةَ في نفسه ﷺ، ويُثبِّت الهمَّةَ في نفس كلّ داعيةٍ يلقى عَنَتًا من مدعوّيه. يُضافُ إلى ذلك أنَّ تعريفَهُ يُكسِبُهُ معنى الحصرِ، فيَنفي أن يكونَ وعدُ غيرِ اللّه حقًّا، وليس هذا هو المرادَ في هذا المقام.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

تفريعُ إراءةِ النَّصرِ أو الوفاةِ على الصَّبر

(الفاءُ) في جملةِ ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ فاء التّفريع، حيث تُفرّع احتمالَيْ بقائه ﷺ حتّى يَرى بعضَ عقوباتهم في الدّنيا، أو انتقالِهِ إلى الرّفيق الأعلى ليَرى ما يحلُّ بهم هناك في الآخرة؛ فهي تُفرِّع هذين الاحتمالين على أمره ﷺ بالصَّبر، وعلى ذلك تكونُ جملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ اعتراضًا سيقَ لتخفيفِ وقْعِ الأمر بالصَّبر، وتحتملُ أن تكون عاطفةً على جملة الأمرِ بالصَّبر.

(1) الواحدي، التّفسير الوسيط: 4/ 22.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 570.

(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 5/ 64.

(4) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 215.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة باستعمالِ (إمّا):

الدّاعيةُ يبذُلُ أسبابَهُ، ويَكِلُ النَّتائجَ إلى اللهِ تعالى

(إمّا) في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مركَّبةٌ من (إنْ) الشّرطيَّة، و(ما) الَّتي أفادت توكيدَ معنى الشّرط، ومعنى (إنْ) الشّرطيّة افتراضُ احتمالين؛ **الأوَّلُ**: بقاؤُهُ ﷺ في هذه الحياة الدّنيا حتّى يَرى ما سيحلُّ بهم من عذابهم الدّنيويِّ، والتَّقدير: (فإنْ نُرِكَ[1] بعضَ عذابهم في الدّنيا). **والثّاني**: ارتقاؤه ﷺ إلى الرّفيق الأعلى قبل حلول عذابهم الدّنيويِّ بهم، والتَّقدير: (وإنْ نتوفَّك قبلَ أن ترى ذلك). والمعنى: (إنّا لَنَنْتَقِمُ لك منهم، إمّا في حياتك وإمّا في الآخرة)[2]. واستُعمِلَتْ (إنْ) لأنَّ أحد الأمرين غيرُ يقينيِّ الوقوع، فقد يقعُ الأوَّل أو الثّاني، والمناسبُ لذلك استعمالُ (إنْ).

دلالةُ استعمالِ مفردة (الإراءة):

إبصارُ بعضِ الموعود لا يكونُ إلّا بإذنِ المعبود

استعمالُ مفردةِ الإراءةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ للدّلالةِ على الإراءة البصريَّة، فمَن أهلكه اللّه تعالى من الكفّار في حياةِ الرَّسول ﷺ رآهُ الرَّسول ﷺ رؤيةَ عينٍ، مثل قتلى بدر وقد أُلقوا في القليب، واستعمالُ هذه المفردةِ لبيانِ أنَّ رؤية بعض النّصر إنّما يكون بتوفيق اللّه تعالى، كما أفاد ذلك إسنادُ الإراءةِ لضمير العظمة.

دلالةُ التّعبير بصيغةِ المضارع:

أسبابُ الإراءةِ تُصنَعُ برعايةِ الله وعنايته

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع في جملةِ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾؛ لاستحضارِ مشهدِ هؤلاء الكفّار وقد حلَّ بهم بعضُ ما توعَّدهم اللّه تعالى به؛ "من العذاب في الدّنيا، وهو القتلُ والهزيمة"[3]، وللإيماءِ إلى أنَّ أسبابَ الإراءة تُصنع برعاية اللّه تعالى وعنايته، وأنّها دَنَتْ من التَّحقُّق.

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 5/ 64.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 334.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 215.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الإراءة إلى ضميرِ العظمة:

أُسنِدَ فِعْلُ الإراءةِ إلى ضمير العظمة في جملة ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ تقريرًا لقدرته ﷻ على إراءته ﷺ إهلاكَ الكافرين في حياته؛ فهو سبحانه العظيم الَّذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون؛ وفي ذلك مواساةٌ له ﷺ.

في إسنادِ الأفعالِ إلى ضميرِ العظمة تقريرٌ وتأكيدٌ لتَحَقُّقها

دلالةُ توكيدِ فعلِ الإراءة:

في توكيدِ فعل الإراءة في جملةِ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ بنون التّوكيد الثّقيلة دلالةٌ على أنَّ اللّه تعالى يُقِرُّ عينَ أوليائه في حياتهم بتنفيذِ بعض ما توعَّدَ به أعداءَهم من عذاب، فجاءت نون التّوكيد لتُبشِّره ﷺ بوقوع بعضِ ذلك في حياته - وقد كان - وقرَّبت احتمال وقوعها، ودَعَمَتْ حصولها، فقد "أكَّده بـ (ما) والنّون، ومَظهرُ العَظمة لإنكارهم لِنُصرته عليهم ولِبَعثِهم"[1].

اللهُ تعالى يُقِرُّ عينَ أوليائه في حياتِهم تعجيلًا للمسرَّة

غرضُ استعمالِ لفظِ ﴿بَعۡضَ﴾:

في النَّصِّ على البعضيَّة في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ دلالةٌ على أنَّ عقوباتِ كفّار قريش الَّذين أصرّوا على الكفرِ حتّى خرجوا من الدّنيا عليه عقوباتٌ لا تنتهي، وأنَّ ما يحلُّ بهم في الدّنيا مهما كان مستفظَعًا إنَّما هو ﴿بَعۡضَ﴾ ما أُعِدَّ لهم من العذاب، فغرضُ ذِكْرِ البعضيَّة من شأنِه أن يَبُثَّ الفزعَ في نفوس الكفّار، وفي الوقت ذاته يبُثُّ البشرى والتَّفاؤُلَ في نفس الرَّسول ﷺ وورثتِهِ من الصّالحين، الدّاعين إلى الخير والهدى.

ما يحلُّ بالمكذِّبين من عقوباتٍ دنيويَّةٍ بعضُ ما أُعِدَّ لهم من العذاب

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

آثر النّظم الكريم إضافةَ ﴿بَعۡضَ﴾ إلى الاسم الموصول في قوله: ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الموصول يُشير إلى وعدٍ معهودٍ مذكورٍ في القرآن، وهو نزولُ العذاب عليهم في الدّنيا والآخرة، ولذلك لم يقل: (نرينَّك بعضَ عقابِهم، أو بعض عذابِهم)؛ لأنَّ ذكرَ الفعل

الإشارةُ إلى وعيدٍ معهودٍ

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 119.

(نَعِدُ) ودلالةَ المضارعة فيه، وإسنادَه إلى ضمير الجلالة كلُّ ذلك كان سيغيبُ، ويغيبُ ما تحته من دلالاتٍ، وما يؤدّيه مِن تهديدٍ وزجرٍ ووعيدٍ لو استُعمِلَ غيرُ الاسمِ الموصول في هذه الجملة.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الوعد إلى ضمير العظمة:

نزولُ الطّمأنينة في القلوبِ دافعٌ للصّبرِ والعمل

في إسناد الفعل ﴿نَعِدُهُمْ﴾ إلى ضمير العظمة مزيدُ طَمْأنةٍ لقلب الرّسول ﷺ ولقلوبِ حاملي لواء الدّعوة إلى اللّه تعالى إلى آخر الزّمان؛ وذلك لِما في ضمير العظمة من الدّلالة على القدرة على محاسبة المجرمين، ومعاقبة الكافرين المحاربين لدينه ولرسله عليهم السلام، المناوِئين لدعاته القائمين على نشر دينه وتبليغ دعوته، والمعنى: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ "بما لنا من العظمة ما يَسرُّك فيهم من عذابٍ أو متابٍ قبل وفاتك، فذاك إلينا وهو علينا هيِّنٌ"[1]؛ فضمير العظمة يَنشُر على أولياء اللّه تعالى العزَّة، ويدعمُهم ويساندُهم بعظمة اللّه تعالى الملحوظةِ في هذا الضّمير.

نكتةُ حذفِ العائدِ على الموصولِ مع تعيين ضمير المفعول في ﴿نَعِدُهُمْ﴾:

قَصْدُ الاختصارِ؛ لسرعةِ تحقُّقِ وعدِ الله

ضميرُ المفعول في جملة ﴿نَعِدُهُمْ﴾ يرجع إلى الكفارِ، السّابقِ ذِكرُهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ فما بعده.

وفي حذفِ العائد على الموصول دلالةٌ على قصد الاختصار في الكلام، إشارةً إلى سرعة تحقُّقِ وعد اللّه تعالى، والتَّقدير: نُرينَّكَ بعض الَّذي نعدُهم إيّاه من عذاب الدنيا.

نوعُ ﴿أَوْ﴾ ودلالتُها:

تفصيلُ الأمرِ بينَ إراءةِ النَّصرِ أو الوفاة

﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ تفيدُ التّفصيل، والمعنى: إمّا أنْ يطولَ بك العمر فيُشفى صدرُك بما سيحلُّ بهم ممّا تَوعّدهم اللّه تعالى به، وإمّا أن تستوفيَ عمرَك

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 119.

ويحينَ أجَلُكَ قبل نزول العقاب بهم فترى عقابَهم الأخرويَّ الحتميَّ بعد رجوعهم الأكيدِ إلينا.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ الوفاةِ:

التّعريضُ برغبةِ المشركين، والوعدُ بالأمر اليقين

المقصودُ بالوفاة في جملةِ ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ حلولُ أجَلِ الإنسان، ونزولُ الموت به، والمعنى: "وإمّا أن تموت قبل ذلك فإلى أمرنا وتعذيبنا يصيرون ويرجعون"[1]، وفي إيثار النّظم الكريم مفردةَ الوفاة هنا إشاراتٌ بارعة؛ منها اكتمالُ العمر وتمامه، وذلك يتَّسق مع قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34]، وقد ورد أنَّ "أهلَ مكة كانوا يتمنَّون موتَ النَّبيّ ﷺ ويسعَون فيه، فالله تعالى ردَّ عليهم بذلك مجاراةً لهم؛ ليُفْهِمَهُم أنَّ موت محمَّدٍ لا يُعفيهم من العذاب الموعود"[2]، فالمقصودُ بخطابِ الرَّسولِ إذًا كفّارُ قريش، وإنْ كان المخاطبُ في الظّاهر هو الرَّسولَ ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

ذكرُ الموتِ ديدنُ الصّالحين ومَسلَكُ المؤمنين

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارع في فعل (نتوفَّى) من جملة ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ لإفادةِ الحال والاستقبال، فتستحضرُ فعل الوفاة الَّذي حثّ الدّين على أن يكون العبد على ذُكر منه أبدًا، وفي ذلك اتّساقٌ مع الحديث الشّريف «أَكْثِروا مِنْ ذِكْرِ هادِمِ اللَّذّاتِ»[3]؛ فينبغي للعبد أن يكون على ذُكر من الموت أبدًا، وهكذا تُشعر المضارعة في الفعل ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وفيها إشارةٌ عظيمةٌ للمؤمنين أن ينتبهوا لأنفسِهم، فينظروا إلى اقتراب موعد موتها، فليسوا هم بأكرمَ على الله من نبيِّه وحبيبه.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 570.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 667.

(3) ابن الأثير، الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، حرف الميم، الكتاب الأوَّل: في المواعظ والرقائق: 11/ 14، برقم: (8476).

غرضُ استعمالِ نون التّوكيد:

المـوتُ حتمٌ على أشـرفِ الخلقِ فما دونه

في توكيدِ فعل التّوفية في جملةِ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ بنون التّوكيد الثّقيلةِ تذكيرٌ بحتميَّةِ الموت لجميع الأحياء وانتهاءِ أعمارهم، كلٌّ بحسب أجَله المؤجَّل له، وأنَّ الرَّسول ﷺ وغيرَه من النّاس في ذلك سواءٌ، فسبحان الحيِّ الَّذي لا يموت!

نكتةُ إسنادِ فعل (التّوفّي) إلى ضمير العظمة:

أمـرُ المـوتِ بيدِ اللهِ تعالى وحده دون غيره

وفي إسنادِ فعل التّوفية إلى ضمير العظمة في جملةِ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ إقرارٌ بالعظمة الإلهيَّة في سياقِ ذكر الموت، وأنَّ الأمرَ للّه وحده دون سِواه، ففي الإسنادِ معنى الاختصاص.

فائدةُ تقديم ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ على ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

تبشيرُ المخاطبين بـرؤيـةِ بشائرِ النَّصرِ لتعجيلِ المسرَّة

ترتيبُ جملتَي الشَّرط المتعاطفتين: ﴿نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يُبَشِّر رسول اللّه ﷺ، كما يُبَشِّر كلَّ الدّعاة بالبقاء أحياءً حتّى يَرَوا بعض عقوبات اللّه تعالى الدّنيويَّةِ للمجادلين في الحقِّ، المكذِّبين بالدّين، وهذا الَّذي حدث للرَّسول ﷺ، فأقرَّ اللّه تعالى عينيه بِنُصرة دينه، والانتقام من الكفّار يومَ بدر، وهذا ما يقعُ للدُّعاة الصّادقين غالبًا، فيُقِرُّ اللّه تعالى أعيُنَهم برؤيةِ الحقِّ يزدهرُ والباطلِ يندحرُ، وذلك من رحمة اللّه تعالى بالمؤمنين؛ فلا يدِبُّ اليأسُ دبيبَهُ في نفوسِ ضعفاء الإيمان.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

حتميَّةُ رجـوعِ المـكـذِّبـين إلى الـلـه؛ لإيـقـاعِ العقاب الموعود بهم

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾، وهي مؤدّيةٌ غرضَ الرَّبطِ بين فعل الشَّرط وجوابه.

نكتةُ حذفِ المُسنَدِ إليه:

قولُه تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ واقعٌ موقعَ الخبرِ لمبتدإٍ محذوفٍ، وتقدير الكلام: فهُم إلينا يرجعون، وحُذِف المسندُ إليه المبتدأ (هم)

لِفهمه مِن التّركيب؛ إذ هم المتوعَّدون، ولِتوفير عناية المتلقّي على التِقاطِ دلالاتِ تقييدِ إرجاعهم بالقيد (إلينا)، ودلالاتِ تقديمه.

توجيهُ الأنظارِ إلى المُسنَدِ حين يكونُ المقصودَ بالكلام

دلالةُ استعمالِ الحرف (إلى):

(إلى) في القيد بالجارّ والمجرور (إلينا) تدلُّ على انتهاء الغاية؛ وأنَّه لا غايةَ للكافرين المكذِّبين بالدّين يأوون إليها، وتنتهي عندها حياتُهم الدّنيويَّة إلّا إليه ﷻ، ولا طريقَ لهم يعبُرون مِن خلاله إلّا الطّريقُ المؤدّي (إلينا).

الرَّحيلُ إلى الله تعالى نهايةُ الأحياء جميعًا

نكتةُ تقديمِ القيدِ (إلينا) على عامله:

لمّا كان المصيرُ المحتوم واحدًا لا ثانيَ له، وكان المُنتهَى إلى اللّه تعالى وحده لا إلى سِواه جاءَ القيد بالجارِّ والمجرور (إلينا) مقدَّمًا على عاملِه ﴿يُرۡجَعُونَ﴾، والمعنى: "فإلينا لا إلى غيرِنا يرجعون يوم القيامة، فنُجازيهم على أعمالهم ونعذِّبُهم أشدَّ العذاب"[(1)]، وبهذا التّقديم تَضيقُ على الكافرين الآفاقُ، وتُغلَقُ في وجوههم المهاربُ؛ ولا يجدون ملجأً ولا مَنْجًى من اللّه تعالى إلّا إليه؛ فلعلَّهم بهذا يَزدَجِرون عن الكفر، ويعودون إلى الحقِّ، مع ما فيه مِن رعايةِ الفاصلةِ والاهتمامِ بالمعنى[(2)].

إلى اللهِ مصيرُ المكذِّبين، ولا ملجَأ ولا مَنْجى لهم مِن دون الله

دلالةُ استعمالِ مفردةِ (الرّجوع):

دلَّ استعمالُ مفردةِ الرُّجوعِ في قوله تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ النّاس يُرجعون إلى حيث كان مجيئُهم، بالعودة إلى المكان الأوَّلِ الَّذي كانوا فيه قبل الآن؛ ممّا يدلُّ على أنَّ هذه الدّنيا ليست مكانَ الإنسان الأصليَّ، وأنَّها مجرَّدُ مُستَراحٍ يمرُّ به خلالَ رحلته إلى دار المستقَرِّ؛ فما أجدرَهُ ألّا يركنَ إليها!

الرُّجوعُ حقيقيٌّ، وهو المكانُ الَّذي خُلِقَ فيه آدمُ عليه السلام

كما أنَّ هذه المفردةَ تومئُ إلى الرُّجوع الحقيقيِّ، فالإنسانُ في

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 667.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 209.

الأصلِ خُلِقَ من تراب، وأبوه آدمُ أُسكِنَ الجنَّةَ، وكلَّمَهُ اللّه تعالى، ثمَّ أهبَطَهُ إلى الأرض، وليس بعدَ الموت إلّا الرّجوع إلى المكانِ الَّذي خُلق فيه آدمُ عليه السلام؛ للحساب والجزاء.

صيغةُ المضارَعةِ تُسهِمُ في تقريبِ تصوُّرِ الأحداث المستقبليَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

جاء التّعبير بصيغةِ المضارع في فعل ﴿يُرۡجَعُونَ﴾؛ ليدلَّ على الاستقبال؛ لاستدعاءِ لحظةِ إرجاع الكافرين لتكونَ حاضرةً في أذهانهم، ماثلةً في نفوسهم، كأنّهم يرونها رأيَ العين، فيهزُّهم هذا الخبر ويخيفهم وإن كابروا ومثّلوا أنَّهم ثابتون، وكذلك تدلُّ صيغة المضارع على "التَّجدُّد، فيُشعر بأنَّه رجوع إلى اللّه تعالى في الدّنيا"[1].

يُرغَم الإنسانُ على الرُّجوعِ إلى الله تعالى إرغامًا

دلالةُ بناءِ فعل ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ للمفعول:

بناءُ الفعل المضارع ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ للمفعول يدلُّ على أنَّهم يُرغَمون على الرّجوع إلى اللّه تعالى إرغامًا، ويُضطَرّون إلى ذلك الرّجوع اضطرارًا، وأنَّ قوَّةً جبّارةً تأخذُهم أخذًا، وتُرجِعهم إلى اللّه تعالى؛ ليعاقِبَهم العقابَ الدّائم الَّذي لا ينقطع، وأنَّهم لا يُمكِنُهم مقاومةُ الإرجاع أبدًا.

ترهيبُ المشركين بتعيين المَرجِع المبُين

بلاغةُ التَّعريضِ في جملةِ الفاصلة:

في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ تعريضٌ مخيفٌ بعقاب لا يُحاطُ بمعرفة تفاصيله، والمعنى: "أنَّهم غيرُ مُفلِتين من العقابِ"[2] الَّذي "يدلُّ على شِدَّتِه الاقتصارُ على ذِكر الرُّجوعِ في هذا المَعرِضِ"[3] المخيف.

مُطلَقُ الوعيد يَستلزِمُ التَّهديدَ الشَّديد

نكتةُ حذفِ أداةِ العطفِ ومعطوفِها على فعلِ الرُّجوع:

سياقُ النَّظمِ يَستدعي معطوفًا على قوله تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾؛ إذ تمامُ التَّركيب: "فإلينا يُرجَعون يومَ القيامة فننتقمُ منهم أشدَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 208.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 340.

الانتقام"[1]، و"نُذيقُهم العذابَ الشّديد في الآخرة"[2]، و"نريك فيهم فوقَ ما تُؤمِّلُ مِن النُّصرة المتضمِّنة لتصديقِكَ وتكذيبِهم، وإكرامِك وإهانتِهم"[3]، وفي حذفِ هذا المعطوفِ تهديدٌ ووعيدٌ بِرُجوعِهم إلى اللّه تعالى فقط، وذلك يتضمَّنُ ترهيبًا شديدًا ممّا وراءَهُ مِن أنواع العقوبات الَّتي تنتظرهم وقد كذَّبوا بالكتاب المجيد، وآذَوُا الرَّسول ﷺ.

توجيهُ المتُشابِهِ اللَّفظيِّ:

المتُشابِهُ اللَّفظيُّ في القرآن الكريم يوَفّي السّياقاتِ حقَّها مِن الدَّلالات

قال اللّه تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: 46].

وقال تعالى في سورة الرّعد: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرَّعد: 40].

وقال تعالى في سورة الزّخرف: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُّخرف: 41 - 42].

وقال اللّه تعالى هنا في سورة غافر: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

وقد تشابهتْ هذه الآياتُ كلُّها أو بعضُها في بعضِ تراكيبِها، ووراءَ كلِّ ذلك اعتباراتٌ سياقيَّةٌ نظميَّةٌ؛ تدلُّ على وفاءِ ذلك المتشابِهِ بحقِّ السّياقِ في كلٍّ منها على النَّحو الآتي:

في موضع الزُّخرف "صرَّح بجوابِ الشّرطين، أمّا في غافر فقال الزّمخشريُّ: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ متعلّق بقوله: ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجزاءُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوفٌ، تقديرُهُ: فإمّا نرينَّك بعضَ الَّذي نعدُهم من العذاب - وهو القتلُ يومَ بدرٍ - فذاك، أو أنْ نتوفينَّك قبلَ يومِ بدرٍ

(1) النسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 222.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 158.
(3) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 120.

فإلينا يرجعون يوم القيامة، فننتقمُ مِنهم أشدَّ الانتقام"[1]. وقال البيضاويُّ: "ويجوزُ أن يكون ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ جوابًا لهما جميعًا، بمعنى: إنْ نُعَذِّبْهم في حياتك أو لم نعذِّبْهم فإنّا نعذِّبُهم في الآخرة أشدَّ العذاب"[2].

و"في سورة يونس ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: 46]، وفي سورة غافر ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾، والمخالفة بين الآيتين تَفَنُّنٌ؛ ولأن ما في يونس اقتضَى تهديدَهم بأن اللّٰه تعالى شهيدٌ على ما يفعلون؛ أي: على ما يفعله الفريقان من قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ [يونس: 42] وقولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ [يونس: 43]، فكانت الفاصلةُ حاصلةً بقوله: ﴿عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ٤٦﴾ [يونس: 46].

وأما هنا في غافر فالفاصلةُ معاقبةٌ للشَّرطِ، فاقتَضَتْ صَوْغَ الرُّجوع بصيغة المضارع المختَتَم بِواوٍ ونون، على أنَّ ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: 46] في يونس معرَّفٌ بالإضافة؛ فهو مُشْعُر بالمرجع المعهود، وهو مرجعهم في الآخرة، بخلافِ قوله: ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ المشعرِ برجوعٍ متجدِّدٍ"[3].

و"قولُهُ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [الروم: 60] [غافر: 55، 77] عِدَةٌ للإنجاز والنَّصر، وهو الَّذي همُّه - عليه السلام - وهمُّ المؤمنين معقودٌ به لمقتضى هذا السّياق؛ فينبغي أن يقدَّر (فذاك) هناك، ثمَّ جيء بالتَّقدير الثّاني ردًّا لِشماتتهم، وأنه منصورٌ على كلّ حالٍ؛ وإتمامًا للتَّسلّي.

وأمّا مساقُ الَّتي في الرّعد فلِإيجابِ التّبليغِ، وأنَّه ليس عليه غيرُ ذلك كيفما دارت القضيَّة، فمَن ذهَبَ إلى إلحاق (ما) هنا بـ (ما) في الرّعد ذهب عنه مغزى الزَّمخشريِّ"[4].

بلاغةُ فنِّ الاحتباك:

قال البقاعيُّ: "والآية مِن الاحتباك؛ حيث ذَكَر الوفاةَ ثانيًا دليلًا على حذفِها أوَّلًا،

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التّفسير: 9/ 274.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 5/ 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 209.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 340.

وذَكر الرُّؤيةَ أوَّلًا دليلًا على حذفِها ثانيًا"[1]؛ وبهذا الاحتباكِ يتحقَّقُ للتَّركيبِ التَّواثُقُ، وتتعانقُ فيه العباراتُ، وبمجموعِها يحصُلُ التَّكاملُ الدَّلاليُّ الأمثلُ.

الاحتباكُ يُحَقِّقُ التّواثُقَ؛ ليحصلَ التَّكامُلُ الدَّلاليّ

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المرجعُ والمصير:

المرجعُ: انقلابُ الشّيءِ إلى حالٍ قد كان عليها. والمصير: انقلابُ الشّيءِ إلى خلافِ الحالِ الَّتي هو عليها، نحوُ مصيرِ الطّينِ خَزَفًا، ولا يقالُ: رجَعَ الطّين خزفًا؛ لأنه لم يكن قبلُ خزفًا.

المرجعُ انقِلابُ الشّيءِ إلى ما كان عليه، والمصيرُ انقلابُهُ إلى خلافِ ما كان عليه

فإن قلتَ: يُنافي هذا الفرقَ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ [الصافات: 67 - 68] مع أنَّهم لم يكونوا قبلُ في الجحيم.

قلتُ: قد رويَ أنَّ أهلَ النّار يورَدون الحميمَ لِشُربه وهو خارجٌ من الجحيم، كما تورَدُ الإبلُ الماءَ، ثمَّ يُرَدّون إلى الجحيم، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن: 44][2].

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 120.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 492.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ۝٧٨﴾ [غافر: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

العلاقةُ بين الأمر بالصَّبر، والتَّسلية بقصص النَّبيّين، وعقاب المعاندين

لَمّا قُسمَ لرسولِ ﷺ الحال إلى إصابتِهم أو وفاتِه ﷺ ، وكان قد بقيَ ممّا هو أقرُّ لعينهِ وأشْفَى لصدرِه، أن يُريَهم في حياتِه آيةً تُلجِئهم إلى الإيمان، وتحملُهم على الموافقةِ والإذعان، فيزولُ النِّزاعُ بحُسْنِ الاتِّباع؛ قال عاطفًا على ما تقديرُه في تعليلِ الأمرِ بالصَّبر: (فلقد أرسلناكَ إليهم، ولَنُنْفِذَنَّ أمرَنا فيهم، وأمّا أنت فما عليكَ إلّا البلاغ)، ولقد أرسَلْنا رُسُلًا من قبلِكَ إلى أُمَمِهم، منهم من قَصَصْنا عليك أخبارَهم، ومنهم من لم نقصُص عليك، وما كان لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ، إلّا بإذنِ اللهِ وأمرِه، فإذا جاءَ أمرُ اللهِ المحيطِ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا؛ قُضيَ بأمرِ اللهِ القادر، على أيسرِ وجهٍ بالحقِّ الثّابتِ الَّذي تقدَّمَ الوعدُ به، وحكمَ بثبوتِه، من إهلاكِ أناسٍ كافرين، وإنجاءِ آخرين مؤمنين(1).

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَصَصْنَا﴾: (قصّ) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تتبُّعِ الشَّيء، من ذلك قولُهم: اقتصَصْتُ الأثَرَ؛ إذا تتبَّعتُه، قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤﴾ [الكهف: 64]، ومن ذلك اشتقاقُ القِصاصُ في الجِراح، وذلك أنَّه يُفعَلُ به مثلُ فعلِه بالأوَّل، فكأنَّه اقتصَّ أثرَه، ومن

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 120، 121.

الباب: القِصَّةُ والقَصَصُ، وهي الأخبارُ المتتبَّعة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسُف: 3]، كلُّ ذلك يُتتبَّعُ فيُذكر[1]، و"قد اقتصصتُ الحديث: رويتُه على وجهه، وقد قصَّ عليه الخبر قصصًا، والاسم أيضًا القَصَص بالفتح، وُضِعَ موضعَ المصدر حتّى صار أغلبَ عليه، والقِصص بكسر القاف: جمع القِصَّة (العريضة) التي تُكْتَب"[2]، وقولُه تعالى: ﴿قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي: أنبأناكَ بأخبارِهم، وما لَقوه من قومِهم[3].

2) ﴿وَخَسِرَ﴾: خَسِرَ في البيعِ يَخْسَرُ خُسْرًا وخُسْرانًا، وخَسَرَ الشَّيءَ نَقَصَه، يَخْسِرُهُ وأخْسَرَهُ، والخُسْرُ والخُسْران: انتقاصُ رأسِ المال، ويُنسَبُ ذلك إلى الإنسان، فيُقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل، فيُقال: خسِرَتْ تجارتُه، وقد تكون الخسارةُ في الإيمان والعقلِ والصِّحَّةِ والثَّواب، ومعنى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: تَبَيَّن لَهُم خُسرانُهم لمّا رَأوا العَذاب، وإلّا فَهُم كانوا خاسِرين في كُلِّ وقْت، ومن لم يطع اللّه خاسر[4].

3) ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: (بطل) أصلٌ واحد، وهو ذهابُ الشيءِ وقِلَّةُ مُكْثِه ولُبْثِه، يقال: بَطَلَ الشَّيءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وبُطولًا، وبُطْلانًا، وأبْطلَه غيرُه، وسُمّيَ الشَّيطانُ الباطل؛ لأنَّه لا حقيقةَ لأفعاله، وكلُّ شيءٍ منه فلا مَرْجوعَ له ولا مُعوَّلَ عليه، والباطلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عند الفَحْصِ عنه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحجّ: 62]، وقد يقالُ ذلك في الاعتبارِ إلى المقالِ والفِعال، قال ﷻ: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: 118]، وقال تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71]، ويقالُ للمستَقِلِّ عمّا يعودُ بنفعٍ دنيويٍّ أو أُخرويٍّ: بطّال، وهو ذو بِطالٍ، بالكسر[5]، وقولُه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: المعانِدونَ الَّذين اقترَحوا الآياتِ عنادًا[6].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يقولُ تعالى مُسلّيًا ومُثبِّتًا رسولَه ﷺ: إنَّنا أرسلْنا رُسُلًا من قبلك، فهُم مَن أوْحَينا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (قصص).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (قصص).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 658.
(4) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(5) ابن فارس، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (بطل).
(6) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 222.

نُصرةُ الرُّسلِ وخسارةُ المعاندين من عدل الله القويم

إليك خبرَهم وقَصَصَهم مع قومِهم، كيف كذَّبوهم، ثمَّ كانت للرُّسلِ العاقبةُ والنُّصرةُ، ومنهم مَن لم نقصُصْ عليك خبرَهم، وهم أكثرُ ممَّن ذُكِرَ بأضعافِ أضعاف، ولم يكن لواحدٍ من الرُّسُلِ أن يأتيَ قومَه بخارقٍ للعادات إلّا أن يأذنَ اللّهُ له في ذلك، فيدلَّ ذلك على صِدقِه فيما جاءهم به، فإذا جاء عذابُ اللّهِ ونَكالُه المحيطُ بالمُكذِّبين؛ قُضيَ في قضاءِ اللّهِ بالحقِّ، فيُنجّي المؤمنين، ويُهلك الكافرينَ المُعاندين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾:

ملمح التَّوطئة الأمثل؛ لبيانِ حقيقةِ إرسالِ الرُّسُل

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ استئنافيَّةٌ؛ توطئة للمرادِ من الجملةِ الَّتي أعقبَتْها[2]، والغاية من السّياق: تأكيد الإرسال للرُّسل، على قانون الاصطفاء والخصوصيَّة للعدد الكبير من الأنبياء، الَّذين اصطفى منهم رسلًا مبشِّرين ومُنذِرين.

معنَى (اللّام) و(قدْ) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

اللّامُ في (لقد) واقعةٌ في جوابِ القسم المحذوف، و(قد) حرفُ تحقيق، تُفيدان تأكيدَ ما وراءَهما مِن معنًى، أي: واللّهِ حقًّا وصِدقًا لقد أرسَلْنا رُسُلًا[3].

دلالة تتابع المؤكِّدات على أمرٍ مقرَّر:

ملمح تأكيدِ عمومِ إرسالِ الرُّسُل، وردُّ مُجادليهم خائبين

تتابعتِ المُؤكِّداتُ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾، وهي اللّام و(قد) كمقدِّمةٍ للمقصود؛ لتأكيدِ العموم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، وهو مع ذلك يفيدُ بتقديمه معنًى مستقلًّا من ردِّ مجادلتِهم، فإنَّهم كانوا يقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 79.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 210.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 210.

﴿شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: 91]، ويقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]، فدُمِغتْ مزاعمُهم بما هو معلومٌ بالتَّواترِ، من تكرُّرِ بِعْثةِ الرُّسُلِ في العصورِ والأُممِ الكثيرة[1].

نُكْتَةُ إسنادِ الإرسالِ إلى ضميرِ العَظَمة (نا):

أهميَّةُ إرسالِ الرُّسلِ، في إقامةِ الحُجَّةِ على المعاندين

أسندَ النَّظمُ الكريمُ الإرسالَ إلى ضميرِ العظَمة في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ للدَّلالةِ على أهمّيَّةِ هذا الإرسال، وبيانِ تبعاتِه، وأهمُّها: تنفيذُ أمرِ اللّهِ فيمن خالفَ المرسلين بالكفرِ والعنادِ، مع طولِ مدَّةِ البلاغِ والإمهال، أي: فلقد أرسلناكَ إليهم، ولَنُنْفِذنَّ أمرَنا فيهم، وأمّا أنت فما عليكَ، إلّا البلاغ[2].

نُكْتَةُ تنكير ﴿رُسُلٗا﴾:

كثرةُ الرُّسلِ المُصطَفين من اللهِ تعالى، دليلٌ على تفاقم الكفر

جاء تنكيرُ ﴿رُسُلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾؛ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّكثير، أي: أرسَلْنا رُسلًا عددُهم كثيرٌ وشأنُهم عظيمٌ[3]، وقد قيل: إنَّ عدد الأنبياء مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفًا، ورويَ أنَّه تعالى بعث ثمانية آلاف نبيٍّ، أربعةُ آلاف نبيٍّ من بَني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر النّاس"[4]، "ولعلَّ الأصحَّ أنَّ عددهم لا يعلمه إلّا اللّه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [إبراهيم: 9]"[5].

فائدةُ ذِكرِ الظَّرفيَّة ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

بيان أنَّ إرسال الرُّسُل، هو تمهيدٌ موصولٌ ببعثةِ محمَّد ﷺ

لَمّا كان الإرسالُ إنَّما هو في بعضِ الزَّمانِ الماضي، وإن كان بلوغُ رسالةِ كلٍّ لِمَن بعدَه موجبةً لانسحابِ حُكم رسالتِه إلى مجيءِ الرَّسولِ الَّذي يَقْفوه؛ أثبتَ الجار والمجرور - المُعبِّر عنِ الظَّرفيَّة -

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 210.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 120.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 340.
(4) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 44، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 164.
(5) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 44.

لإرادةِ الحقيقة، فقال: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾، أي: إلى أُمَمِهم ليُبلِّغوا عنّا ما أمرناهم به(1).

معنَى (مِنْ) في ﴿مِنۡهُم﴾:

بيانُ حكمة الله في قَصِّ خَبرِ بعضِ الرُّسُلِ على نبيِّه دونَ سواهم

(مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡهُم﴾ تبعيضيَّة، أي: مِنَ الرُّسُلِ، منهم مَن أعلمَ اللهُ بهم نبيَّه ﷺ، ومنهم مَنْ لم يُعلِمْه بهم؛ إذْ لا كمالَ في الإعلامِ بمن لم يُعلِمْه بهم، ومنهم مَنْ أعلمَه بهم في القرآن، ومنهم من أعْلَمَه بهم بوحيٍ غيرِ القرآنِ، في بعضِ الآثارِ الصَّحيحةِ بتعيينٍ أو بدونِ تعيينٍ(2).

دلالةُ الضَّمير في قوله: ﴿مِنۡهُم﴾:

بيانُ أنَّ التَّنكير والتَّعريف باعتبار المعنى أصحُّ وأظهر

الضَّمير في قوله: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا﴾، عائد على قوله: ﴿رُسُلٗا﴾، وقد اختُلِف فيه، فقيل: هو نكرة؛ لأنَّ مدلولَه كمدلول المرجوع إليه النَّكرة، فوجب أيضًا أن يكون الرّاجع نكرة؛ إذِ التَّنكير والتَّعريف باعتبار المعنى، والصَّحيح أنَّه معرفة؛ لأنَّ الهاء في قولك: (جاءني رجل وضربته)، ليست شائعة شياع رجل؛ لأنَّها تدلُّ على الرَّجل الجائي خاصَّة، لا على رجلٍ، والدَّليل أنَّك تقول: (جاءني رجلٌ)، ثمَّ تقول: (أكرمني الرَّجلُ)، ولا تعني بالرَّجل سوى الجائي، ولا خلاف في أنَّ الرَّجل معرفة، فوجب أن يكون الضَّمير معرفةً أيضًا؛ لأنَّه بمعناه(3).

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿مِنۡهُم﴾:

اختصاصُ الرُّسُلِ بأعظم مهمَّة إبرازٌ لمكانتهم

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾؛ للاهتمام بالرُّسُلِ واختصاصِهم بالفَضْلِ، فيما أُسنِدَ إليهم مِن أعظمِ مهمَّةٍ تُسنَدُ إلى البشر، وهي مهمَّةُ البلاغِ عنِ اللهِ تعالى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 120.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 210.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 522.

نُكْتَةُ استعمال الأداة ﴿مَّن﴾ في السّياق:

تحديد مُفاد الإخبار عن حصول بعضِ قَصصِ الرُّسُلِ يقينًا

﴿مَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّن قَصَصۡنَا﴾ اسم موصول بمعنى (الَّذي)، وهو مبتدأٌ مؤخَّرٌ للخبرِ المقدَّم ﴿مِنۡهُم﴾[1]، يفيدُ التَّأكيدَ والمبالغةَ في هذا القَصَصِ للأنبياءِ والمرسلين مع أقوامِهم، وما ينتجُ عنه من دروسٍ وعِبَرٍ بليغة؛ "لتقف على ما وفَّينا لهم من وعد النَّصر إيّاهم في الدُّنيا، ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾، أي: لمكان الطّول، مع أنَّ في نبئهم ما يُشاكل نبأ المذكورين، والشَّيءُ يُعتَبر بشكله"[2].

نُكْتَةُ الصِّلة في قوله: ﴿قَصَصۡنَا﴾:

الصِّلةُ مفيدةٌ تأكيدَ أنباء الرُّسُل، وإخبارِ الرَّسول الخاتم بها

قولُه تعالى: ﴿قَصَصۡنَا﴾ صلةٌ لـ ﴿مَّن﴾ اسم الموصول[3]، تفيدُ تحقُّقَ ما قصَّه اللّهُ من أخبارِ الرُّسُلِ على رسولِه محمَّدٍ ﷺ؛ تسليةً له عمّا يُلاقيه من قومِه من الأذى والعناد، وتثبيتًا له على إبلاغِ رسالةِ ربِّه على الوجهِ الأكمل.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ القَصِّ إلى ضميرِ العظَمة:

الدَّلالة على أنَّ الله بعظَمتِه قد قصَّ أخبارَ من شاء من رسله

إسنادُ فعلِ القَصِّ إلى ضميرِ العظَمةِ، في قوله تعالى: ﴿قَصَصۡنَا﴾؛ للدَّلالةِ على عظَمةِ اللّهِ في إحاطةِ علمِه بكلِّ شيءٍ، ومنه أخبارُ الرُّسُلِ وأخبارُ أُمَمِهم، وتكذيبِهم وعنادِهم للحقِّ[4].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمِنۡهُم﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم﴾ عطفٌ على الجملةِ الأولى: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا﴾، وهي نعتٌ لـ﴿رُسُلٗا﴾، ويجوزُ أن تكونَ ﴿وَمِنۡهُم﴾ مستأنفة[5].

معنى الحرف الجارّ (مِنْ) في ﴿وَمِنۡهُم﴾:

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ تبعيضيَّة،

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 500.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 328.
(3) درويش، إعراب القرآن: 8/ 521.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 121.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 521.

أي: ومِنَ الرُّسُلِ مَنْ لم يُعلِم اللّهُ نبيَّه بهم، قال الآلوسيُّ: "وهم أكثرُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام"[1].

نُكْتَةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ (مِنْهُمْ):

جاء تقدُّم الجارِّ والمجرور (مِنْهُمْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾؛ للاهتمام بتخصيص عددٍ من الرُّسل بعدم ذكرِهم وقَصِّ أخبارِهم على رسول اللّه ﷺ لحكمة إلَهيَّة اقتضت ذلك.

دلالة ﴿مَّن﴾ الموصولة في السّياق:

﴿مَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾ اسْمُ موصولٍ بمعنَى (الَّذي)، تُفيدُ التَّعريفَ على سبيلِ المبالغةِ، في أنَّ كثيرًا همُ الرُّسُلُ الَّذين لم نقصُصهم عليك، و﴿مَّن﴾ هنا مبتدأٌ مؤخَّر[2].

دلالة قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَقْصُصْ﴾:

أثرُ الموصول وجملةِ الصِّلة في استيعاب المعنى المراد

جملةُ: ﴿لَّمْ نَقْصُصْ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿قَصَصْنَا﴾، وهي صلة الموصولِ لا محلَّ لها من الإعراب[3]، والمعنى الَّذي يُفيده السّياق: أنَّ المرسلين من قبلك "مِنهُم مَن قَصَصنا قَصَصَهم عَلَيكَ في كتابك هذا، ومِنهُم مَنْ لم نَقصُصْ عَلَيكَ، ولم نذكر قِصَّتهم في كتابك"[4].

دلالة التَّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَّمْ نَقْصُصْ﴾:

نفيُ عدمِ قَصِّ أخبارِ كثيرٍ من الرُّسل، لا يلزم منه استمرارُ النَّفي

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ المنفي ﴿لَّمْ نَقْصُصْ﴾ لا يلزم منه استمرارُ عدمِ القَصِّ، لأنَّ النَّفي بـ ﴿لَّمْ﴾، وهي على الصَّحيح تقلب المضارعَ ماضيًا، فالمنفيُّ هو القَصُّ في الماضي، ولا يلزم من ذلك استمرارُ النَّفي، فيجوز أن يكون قد قُصّوا عليه، ﷺ جميعًا بعد ذلك، ولم ينزل ذلك قرآنًا[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 340.
(2) النَّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 32، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 500.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 521.
(4) علوان، الفواتح الإلهيّة: 2/ 270.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 340.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿قَصَصۡنَا﴾ على ﴿لَّمۡ نَقۡصُصۡ﴾:

تقـديمُ المثبتِ عـلى المـنـفـيِّ موافقٌ للحكمةِ الإلهيَّة العليا

في تقديمِ قوله تعالى: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ تقديمٌ للمُثبَتِ على المَنفيِّ، فقد أعلمَ اللّهُ نبيَّه ﷺ بعددٍ منهم؛ تسليةً لرسولِ اللّه ﷺ، وتثبيتًا له، ومنهم مَن لم يُعلِمه بهم؛ إذ لا كمالَ في الإعلامِ بمَن لم يُعلِمْه بهم، وفي كلا الأمرين: في الإعلامِ وعدمِه حكمةٌ ربّانيَّةٌ جليلةٌ[1].

بلاغةُ الطِّباقِ بين ﴿قَصَصۡنَا﴾ و ﴿لَّمۡ نَقۡصُصۡ﴾:

الإخبارُ بقصَصِ بـعـضِ الـرُّسُـلِ وعدمِه، موافق لـمـراد الـلـه في البلاغ

ما بين قولِه تعالى: ﴿قَصَصۡنَا﴾ وقولِه تعالى: ﴿لَّمۡ نَقۡصُصۡ﴾ معنًى دقيقٌ، يتمثَّلُ في حكمةٍ ربّانيَّةٍ جليلة، وهي أنَّ اللّهَ بحكمتِه وإحاطةِ علمِه، وكمالِ عظمتِه، قصَّ على رسولِه محمَّد ﷺ من أخبارِ الرُّسُلِ مع أقوامِهم ما يكونُ بُلْغَةً له في تسليَتِه وتثبيتِه في مواجهةِ قومِه له بالأذَى والعنادِ والاستكبارِ، عن قَبولِ دعوة الحقِّ، وهو أيضًا سبحانه وتعالى لم يقصَّ على رسولِه ﷺ أخبارَ كثيرٍ من الرُّسلِ مع جليلِ عظمتِه وإحاطةِ علمِه بكلِّ شيءٍ مع الحكمةِ الَّتي اقتضتْ حَجْبَ هذه الأخبارِ عن رسولِه ﷺ ؛ "إذ لا كمالَ في الإعلامِ بمَن لم يعلمْه بهم"[2].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾:

إفـادةُ الجملةِ معـنًى عظيمًا مستقلًّا عن غيرِه

صُدِّرَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ بالواوِ العاطفة دون الفاء؛ لإفادةِ استقلالِ هذه الجملةِ بما فيها من معنًى عظيمٍ حقيقٍ بألّا يكونَ تابعًا لغيرِه، ويُكْتَفَى في الدَّلالةِ على ارتباطِ الجملتَيْن بموقعِ إحداهما من الأُخْرى[3].

دلالة الفعلِ المنفي ﴿وَمَا كَانَ﴾ في السّياق:

لا يتأتّى لرسول أن يأتيَ بآيةٍ إلَّا بإذنِ الله تعالى

دخولُ فعلِ الكَوْنِ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 210.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 210.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 121، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 210.

﴿بِـَٔايَةٍ﴾؛ لإفادةِ معنى: ما صحَّ وما استقامَ لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلّا بإذنِ اللّه، وخبرُه المقدَّمُ - على توجيه - ﴿لِرَسُولٍ﴾ و﴿أَن﴾ وما في حيِّزها اسْمُه المُؤخَّر[1]، والمعنى المتوخّى بقوله: إنّا قد أرسلنا كثيرًا من الرَّسل، وما كان لواحد منهم أن يأتي بآية إلّا أن يشاء اللّه تعالى، ويأذن في الإتيان بها[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ (رسولٍ):

الرُّسلُ يُناط بهم البلاغُ لا التَّصرُّفُ في الآيات

جاءَ تنكيرُ (رسولٍ) لإفادةِ العموم، أي: أيُّ رسولٍ ليس له أن يأتيَ بآيةٍ إلّا أن يشاءَ اللّهُ ذلك، وفيه المبالغةُ بنفي قدرةِ الرَّسولِ على ذلك، أي: ما كانَ لرسولٍ أصلًا أن يأتيَ بآية[3]، "فإنَّ المعجزاتِ عطايا، قسمها اللّهُ تعالى بينهم، على ما اقتضته حكمتُه، كسائر القِسَم، ليس لهم اختيارٌ في إيثار بعضها، والاستبدادِ بإتيان المقترح بها؛ لأنَّهم عبيد مربوبون"[4].

فائدةُ تقديمِ خبرِ ﴿كَانَ﴾ على اسْمِها:

جاء قولُه تعالى: ﴿لِرَسُولٍ﴾ خبرَ ﴿كَانَ﴾ مقدَّمًا على اسْمِها، وهو جملةُ ﴿أَن يَأۡتِيَ﴾؛ لإفادةِ تحقُّقِ حصرِ النَّفْيِ عنِ الرَّسولِ في قدرتِه، أو أنَّ من شأنِه أن يأتيَ بأيِّ آيةٍ إلّا بإذنِ اللّهِ وأمرِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَأۡتِيَ﴾:

أتى النَّظمُ الكريمُ بالمضارعِ ﴿يَأۡتِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾؛ للدَّلالةِ على دوامِ نفيِ الإتيانِ وتجدُّدِه من قِبَلِ الرَّسولِ، بأيِّ آيةٍ من ذاتِ نفسه، وإنَّما هو بإذنِ اللّهِ وأمرِه سبحانه.

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 8/ 521.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 222.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 121.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 12/ 216.

دلالة حرف (الباء) في قولِه: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ باءُ التَّعديةِ لفعلِ ﴿أَن يَأۡتِيَ﴾، أي: إتيانُ الرَّسولِ بآيةٍ لا يكون إلّا بإذنِ الله، أو لا يكونُ لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلّا بأمرِ اللّهِ، بإعطائه هذه الآية[1]، وما كانَ لِرَسولٍ أن يَأتيَ بمعجزة إلّا بِإذنِ اللّه، أي: بأمره وإرادته، ليس لهم اختيار في إتيان بعضها والاستبداد بإتيان المقترح بها[2].

الرَّسـول بشر يتلقّى الأوامـرَ مـن جـلال الله الآمر

نُكتةُ تنكيرِ (آيةٍ)، وإضافةِ الإتيان إليها:

الآيةُ: المعجزةُ، وتنكيرُها لإفادةِ العموم، أي: جنسِ الآياتِ الَّتي هي الأمرُ الخارقُ للعادةِ الَّتي يجعلُها اللّهُ علامةً على صدقِ الرَّسول، وربط الإتيان بكونه لآيةٍ، في قولِه تعالى: ﴿أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾؛ للدَّلالةِ على تحدّيهِ قومَه، بأنَّ اللّهَ سيؤيِّدُه بآيةٍ بعينها، مثلِ قولِ صالحٍ عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ [الأعراف: 73]، وقولِ موسى لفرعون: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [الشُّعراء: 30][3].

لا تـكـون الآيـة الَّـتـي يـتـحـدَّى الـرَّسـولُ بها قومَه إلّا من الله

دلالة الاستثناء في قولِه: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ استثناءٌ مفرَّغ؛ إذ دخلتِ الباءُ في قولِه: ﴿بِإِذۡنِ﴾ على مستثنًى من أسبابٍ محذوفةٍ في الاستثناءِ المُفرَّغ، فالمستثنى ليس من جِنْسِ المستثنَى منه، أي: ما كان لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ بسببٍ من الأسبابِ، إلّا بسببِ إذنِ اللّهِ تعالى[4]، "وقد شاء أن تكون الآية العظمى تنزيلَه، الأكبر من كلِّ آية، والأعظم من كلِّ خارقة، فهو خيرُ الآيات وأحسنُها، وأقومُ المعجزات وأمتنُها"[5].

الاستثناءُ المفرَّغُ مبيِّنٌ عن المعنى المراد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 212.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 8/ 277.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 212.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 212.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 321.

إسناد الإتيان بالآيات إلى ربِّ العالَمين، إبطالٌ لمقترحاتِ المشركين

بلاغةُ القصرِ في السّياق الحكيم:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، "ردٌّ لمقترحهم وتعنُّتهم، في طلب ما قصَّ عنهم من آية: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، بأنَّ الإتيان بذلك مَردُّه مشيئةُ اللّه تعالى وإرادته به"[1]، وفي السّياق قصرُ إتيانِ الآيةِ على إذنِ اللّهِ، دونَ أن يكونَ لأيِّ رسولٍ إذنٌ أو أمرٌ في هذا الشَّأن، فهو قصرٌ حقيقيٌّ مضافٌ إلى اللّهِ تعالى دون سواه، ومنه إبطالٌ لما يتورَّكُ به القومُ من المقترحاتِ والتَّعِلّات؛ مماحكةً ومعاجزةً، لا طلبًا واقترا حًا بقصدِ الإيمان والإذعانِ للحقِّ عند ظهورِه[2].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ باءُ السَّببيَّة، دخلتْ على مستثنًى من أسبابٍ محذوفةٍ في الاستثناءِ المفرَّغ، أي: ما كان له أن يأتيَ بآيةٍ بسببٍ من الأسبابِ إلّا بسببِ إذنِ اللّه تعالى[3].

الأمرُ التّكوينيُّ بخوارقِ العاداتِ لا يكونُ إلّا من اللّه

سرُّ إضافةِ الإذنِ إلى اسم الجلالة:

إذنُ اللّه: "هو أمره التّكوينيُّ بخَلْق آية وظهورها"[4]، الَّذي يخلُقُ اللّهُ به خارقَ العادةِ، ويظهرُه؛ ليجعلَه علامةً على صدقِ الرَّسول، فهذا الإذنُ هو من اللّهِ لا من غيره تعالى، وخاصَّةً في أمرٍ يتعلَّقُ في نصرِ اللّهِ لرُسُلِه، وتأييدِهم بالمعجزاتِ الخارقةِ، لما أَلِفَهُ النّاسُ في شؤون حياتِهم.

كلُّ ما يجري بقدرته، إنّما هو بأمرِ اللهِ وعِلْمِه ورحمته

بلاغةُ الالتفاتِ من التَّكلُّمِ إلى الغَيْبة:

لمّا كان الإرسالُ من اللّهِ تعالى لمِن اصطفاهم من الرُّسُلِ، وكان بلوغُ رسالةِ كلٍّ لَمن بعدَه موجبةً لانسحابِ حكمِ رسالتِه إلى مجيءِ

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 321.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 212.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 212.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 212.

الرَّسولِ الَّذي يَقْفوهُ، مع ما قصَّه من أخبارِهم مع أقوامِهم وما لم يقصُصْه؛ عبَّر بيانُ اللهِ عن هذه الحقيقةِ بأسلوبِ التَّكلُّم مع إيرادِ نونِ العظَمةِ الدّالَّة على إحاطةِ علم اللهِ وقدرَتِه بكلِّ شيء، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، و﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ﴾، وصُرِفَ الكلامُ عن هذا المظهرِ بصيغةِ التَّكلُّم المشيرِ إلى القَهْرِ والقدرةِ والعظمةِ الإلهيَّة، إلى ما فيه من الإكرام، فقال: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: بأمره وتمكينه، فإنَّ له سبحانه الإحاطةَ بكلِّ شيء، انتقل بعد ذلك إلى أسلوبِ الغَيْبةِ، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ﴾ إلى آخرِ الآية، مُشعِرًا في قوله: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ باستحضارِ صفاتِ الجلالِ والإكرام، وثباتِ ما أرادَ ولزومِه، وليس ذلك لأيِّ رسولٍ من رُسُله، فقال - بصيغة المجهول - بغايةِ السُّهولة: ﴿قُضِيَ﴾ ما أرادَ، وأمرَ، على أيسرِ وجهٍ وأسهلِه بالحقِّ الثّابت، وفي كلا الأسلوبين تقريرُ عظَمةِ اللّه، وأنَّ شيئًا لن يكونَ إلّا بأمرِه وقدرتِه وعلمِه[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

التَّـعـريـض بالوعيدِ لمقترحي الآيات عِنادًا

في التَّعبيرِ بـ ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ دون غيرِه، من نحو: ظهر الحقُّ، ترشيح لما في قوله: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ من التَّعريض بأنَّه أمر انتصاف من أولئك المكذِّبين المقترحين للآياتِ معاندةً ومكابرةً، لا بقصدِ الإيمانِ والإذعان، ولذلك عطفَ عليه بخسارةِ المبطلين الَّذين يجادلونَ بالباطلِ؛ ليُدحِضوا به الحقَّ[2].

نُكْتَةُ الشَّرط بـ (إذا) دون (إنْ):

الجزم بمجيء الوعيدِ بعد الإمهال إثرَ لجاجِ أهلِ العِناد والضَّلال

جاءتْ جملةُ الشَّرطِ مصدَّرةً بـ (إذا)، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾، ولم تأتِ مُصدَّرة بـ (إنْ)؛ للدَّلالة على الجزم بوقوع الوعيد في الزَّمن المستقبل، عقيبَ اقتراحِ الآياتِ من

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 122.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 438، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 213.

المعاندين، ثمَّ التَّكذيبِ بها وبدعوةِ الرَّسول ﷺ [1]، وأمّا (إنْ) فهي لربطِ جوابِ الشَّرطِ بفعلِه، مع عدم جزم المتكلِّم بوقوع الشَّرط في الزَّمن المستقبل.

دلالة التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿جَآءَ﴾:

في التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ دلالةٌ على تحقُّقِ مجيءِ أمرِ اللّه بالعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ[2].

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ المجيءِ إلى الأمر:

التَّعريضُ بإيقاعِ العقابِ لمعاندي رسالةِ محمَّد ﷺ

قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، أي: قضاؤه وتقديرُه، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، وهو الحدَثُ القاهرُ للنّاس، وهذا الأمرُ ليس أمرًا حسّيًّا حتَّى يجيءَ، أو يأتيَ، وإنَّما هو على سبيلِ المجازِ المرسَلِ، بغرضِ التَّعريضِ بإيقاعِ العقابِ على المقترحين للآياتِ، بقصدِ المماحكةِ لا الإيمان، و"بأنَّ ما سيُظهِرُه اللّهُ من الإذنِ لمحمَّدٍ ﷺ ، هي آياتُ عقابٍ لمعانديه"[3].

نُكْتَةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ للفظِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

إظهارُ مزيدِ الخوفِ والرَّجاء، والحذر من عذاب مَن لا منْهُ منجى

في الإظهارِ دون الإضمارِ لاسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ تعبيرٌ عنِ ازديادِ الأمرِ عِظَمًا لمزيدِ الخوفِ والرَّجاء، فإنَّ اللّه تعالى هو المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا، وأمرُه تعالى ما توعَّدَ به من العذابِ عنِ العنادِ بعد الإجابةِ إلى المقترح، ومن القيامةِ وما فيها[4].

نُكْتَةُ العدولِ عن مجيءِ الإذنِ إلى الأمر:

في العدولِ عن مجيءِ: (إذنِ اللّهِ) إلى ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، تعريضٌ بأنَّ ما سيُظهِرُه اللّهُ من الإذنِ لمحمَّدٍ ﷺ ، هي آياتُ عقابٍ لمعانديه،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 438، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 121.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 286.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 213.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 121.

فمنها: آيةُ الجوعِ سبعَ سنين حتَّى أكلوا الميْتة، وآيةُ السَّيفِ يومَ بَدْرٍ؛ إذِ استأصلَ صناديدَ المكذِّبينَ من أهلِ مكَّة، وآيةُ السَّيفِ يومَ حُنَيْنٍ؛ إذِ استأصلَ صناديدَ أهلِ الطّائف، وآيةُ الأحزابِ الَّتي قال اللّهُ عنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: 9] إلى أن قال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25][1].

التَّعريضُ بآياتِ العقابِ للمُكذِّبين بآياتِ ربِّ الأرباب

دلالة قوله تعالى: ﴿قُضِيَ﴾:

جملةُ ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنَّها جوابُ شرطٍ غيرِ جازمٍ[2]، ومعنى ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾: "بإنجاءِ المُحقِّ وإثابتِه، وإهلاكِ المُبطلِ وتعذيبِه"[3].

نُكْتَةُ تكريرِ الاسمِ الأعظم (الله):

أثرُ السّياقِ في استحضارِ عظمةِ اللهِ وجليلِ صفاتِه

تكريرُ الاسمِ الأعْظم (اللّه)، في قولِه تعالى: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ لتعظيمِ المقام - فإنَّه مقامُ الإتيانِ بآياتِ اللّه، وعقابِ مَن كذَّبَ بها - باستحضارِ ما له ﷻ من صفاتِ العظَمةِ والجلالِ والكمالِ[4].

نُكْتَةُ بناءِ الفعلِ ﴿قُضِيَ﴾ إلى المفعول:

بُنِيَ الفعلُ ﴿قُضِيَ﴾ للمفعول؛ لثباتِ ما أرادَ سبحانَه ولزومِه بالقضاء، وللإشعارِ بغايةِ السُّهولة، أي: قُضيَ بأمرِه على أيْسرِ وجهٍ وأسْهلِه[5].

بلاغةُ ذِكْرِ ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ دونَ غيرِه:

التَّعريضُ بأمرِ الانتصافِ من المكذِّبين وخسارتِهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ إيرادَ ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالذِّكرِ دونَ غيرِه، من

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 213.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 522.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 286.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 121.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 122.

نحوِ (ظهرَ الحقُّ)، أو (تبيَّنَ الصِّدْقُ)؛ ترشيحًا لما في قوله تعالى: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ من التَّعريضِ بأنَّه أمرُ انتصافٍ من المكذِّبين، ولذلك عطفَ عليه قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، أي: خسرَ الَّذين جادَلوا بالباطلِ؛ ليُدْحِضوا به الحقَّ[1].

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

إظهارُ آيةٍ مؤيِّدةٍ للرَّسولِ إظهارٌ لصدقِه، وتأكيدٌ لمِصداقيَّته

الباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ للإلصاق المعنويِّ[2]، أو للالتباس، أي: حال كونه ملتبسًا بالحقِّ[3]، أي: فإذا جاءَ أمرُ اللهِ بإظهارِ الرَّسولِ آيةً؛ ظهرَ صدقُ الرَّسول، وكان ذلك قضاءً من اللهِ تعالى لرسولِه بالحقِّ على مكذِّبيه[4].

دلالة(أل) في لفظ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الحقُّ المُطلقُ يُظهِرُ صِدقَ الرِّسالة بتأييدٍ من اللهِ ذي الجلالة

(أل) في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ جنسيَّة للمبالغة والكمال[5]، أي: الحقِّ الكاملِ البالغ غايةَ الكمال، المقضيِّ به بأمر الله تعالى، أي: "فإذا جاء أمرُ الله بإظهار الرَّسول آيةً، ظهر صدقُ الرَّسول، وكان ذلك قضاءً من الله تعالى لرسوله بالحقِّ على مُكذِّبيه"[6].

نُكْتَةُ حذفِ الظَّرفيَّةِ (بينَهم):

التَّعريضُ بإظهارِ أمرِ اللهِ بآياتِ عقابٍ للمكذِّبين

أصلُ القضاءِ أن يكونَ بين طرفَيْن أو خَصمَيْن، أحدُهما على حقٍّ، والثَّاني على باطل، لكنَّ قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ لم يذكر فيه تلك البَيْنِيَّة، فلم يقل: (قُضيَ بينهم بالحقَّ)؛ لأنَّ الحقَّ واضح، فاللهُ هو الحقُّ، وقضاؤه حقٌّ، ورُسُلُه حقٌّ، وآياتُه حقٌّ، فهو هنا ليس بين طرفَيْن، تنزَّه اللهُ أن يكون طرفًا في خصومةٍ أو نزاعٍ، وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿أَمۡرُ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 213.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1683.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 506.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 212.
(5) قباوة، المفصل، ص: 1683.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 212.

﴿ٱللَّهِ﴾، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما سيُظهرُه اللّهُ من الإذنِ لمحمَّدٍ ﷺ، هي آياتُ عقابٍ لمعانديه، وأمرُ اللّهِ انتصافٌ من المُكذِّبين، ولذلك عطفَ عليه قولَه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، أي: خسرَ الَّذين جادلوا بالباطلِ؛ ليُدحِضوا به الحقَّ، فخسارتُهم مؤكَّدةٌ لا تحتاجُ إلى تسويةٍ بين طرفَيْن، أو فصلٍ بين متنازعَيْن[1].

معنَى الواو في قولِه: ﴿وَخَسِرَ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ﴾، حرفُ عطفٍ على أمرِ الانتصافِ من المكذِّبين، والجملة معطوفة على جواب الشَّرط لا محلَّ لها من الإعراب[2]؛ "أي: خسر الذين جادلوا بالباطلِ ليُدحِضوا به الحقَّ"[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي (خَسِرَ):

تحقُّقُ خسارةِ المعاندين، يُعبِّرُ عنها السّياقُ بيقين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن المكذِّبين بالفعلِ الماضي (خسِرَ)؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ خسارتِهم وتبيُّنِها بالمشاهدةِ - لا محالة - وكيف لا؟ وهم في غايةِ المعاندةِ لرُسلِ اللّه، والتَّكذيبِ بآياته ﷻ[4]، وسيطال الخُسران "الَّذين افترَوا على اللّه الكذبَ، وجادلوا في آياته، وزعموا أنَّ له شركاء"[5]، وقد عبَّر السّياقُ عن ذلك بالفعل المباشر الدّالِّ على ضياع الفائدة، وانعدام الرِّبح، من الحرمان الَّذي سوف يذوقه أولئك المعاندون الكفرة، والمفترون الفجرة، وهو ما يناسبه لفظ (خسر)، دونَ غيرِه من الألفاظ المُعبِّرة.

بلاغةُ الاستعارةِ في فعلِ الخسارة:

هلاكُ المكذِّبين في دينِهم ودنياهم، نتيجةٌ حتميَّةٌ لاتِّباعهم هواهم

في إيرادِ الخسارةِ بصورةِ الفعلِ الماضي (خَسِرَ) "استعارةٌ لحصولِ الضُّرِّ لمن أرادَ النَّفع، كخسارةِ التّاجرِ الَّذي أرادَ الرِّبح،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 213.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1683.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 213.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 122.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 97.

فذهبَ رأسُ مالِه، كما في قولِه تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: 16]"؛ وذلك بعد قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16][1]، وهي هنا استعارةٌ للهلاكِ وتحقُّقِ الفوات، ونفاقهم في دينِهم ودنياهم، أي: خسروا الدُّنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخُسرانُ المبين[2].

بيان بُعد خسارتهم في المكانِ والزَّمان، وفي تكذيبِهم للآيات

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيد:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿هُنَالِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: "للإشارةِ إلى أنَّ المبطلين من قريشٍ ستأتيهمُ الآيةُ في مكانٍ بعيدٍ من الأرض"[3]، أو لبُعدِ خسارتِهم في تكذيبِهم للآيات، وشدَّةِ انغلابِهم القاطع لحُجَّتِهم وإخزائهم، أو أنَّ خُسرانَهم سيكونُ يومَ القيامة، وهو بعيدٌ بالنِّسبة لمنظورِهمُ البشريِّ.

بلاغةُ استعارةِ اسمِ الإشارةِ المكانيِّ للظَّرفِ الزَّمانيّ:

في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، استُعيرَ استعمالُ اسمِ الإشارةِ المكانيِّ، إلى الظَّرفِ الزَّمانيِّ؛ إيذانًا بغايةِ الثَّباتِ، والتَّمكُّنِ في الخسارةِ تمكُّنَ الجالسِ في جلستِه[4].

الإشـــارةُ إلى عظَمةِ الوقتِ بعظَمةِ ما ينالُهم فيه من الخسارة

نُكتةُ تقديمِ ﴿هُنَالِكَ﴾ على الفاعل:

تقدَّمَ اسمُ الإشارةِ ﴿هُنَالِكَ﴾، على الفاعلِ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، دون أن يقال: (وخسرَ المبطلونَ هنالكَ)؛ للإيماءِ إلى ذلك الوقتِ العظيم بعظَمةِ ما أنزَلْنا فيه[5]، وبما سينالُهم فيه من خسارةٍ شديدةٍ؛ بسببِ عنادِهم وتكذيبِهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 213.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 122، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 341.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 214.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 122.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 122.

معنَى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ جنسيَّة للاستغراق الحقيقي[1]، أي: كلُّ مَن يلزم الباطلَ ويعاند باقتراح الآيات فهو خاسر[2]، وهمُ "المنسوبون إلى إيثارِ الباطلِ على الحقِّ، إمّا باقتراحِ الآياتِ مع إتيانِهم بما يُغنيهم عنها، وتسميتِهم لها سحرًا، أو بغيرِ ذلك، وإمّا بإدحاضِ الحُججِ والحُكْمِ عليهم بالغَلَبِ، ثمَّ النّارِ ولو بعد حين"[3].

المنسوبون إلى إيثارِ الباطلِ على الحقِّ، هم الخاسرون

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

المبطِلون: المنسوبونَ إلى إيثارِ الباطلِ على الحقِّ، فهو نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عند الفحصِ عنه؛ لذهابِه وقلَّةِ مُكثِه ولُبْثِه، والمبطِلون: جمعُ مُبطِل: اسمُ فاعلٍ من أبْطَلَ[4]، والمبطِلُ: هو من ماتَ مُصِرًّا على الباطل، ولذلك تحقَّقتْ خسارتُهم يومَ القيامة في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[5].

مَنْ ماتَ مُصِرًّا على الباطلِ، فهو الخاسر في العاجل والآجل

نكتةُ تقديمِ القضاءِ على الخسارة:

تقدَّمَ القضاءُ على الخسارةِ، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ ترشيحًا لما في قوله: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، من التَّعريضِ بأنَّه أمرُ انتصافٍ من المكذِّبين، ولذلكَ عطفَ عليه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، أي: خسِرَ الَّذين جادَلوا بالباطل؛ ليُدحِضوا به الحقَّ، وفي استعارة الظَّرف المكانيِّ إلى الزَّمانيِّ نُكْتَةٌ بديعيَّة، وهي الإيماءُ إلى أنَّ المبطلِينَ من قريشٍ، ستأتيهم الآيةُ في مكانٍ من الأرض، وستكونُ خسارتُهم هذه بقضاءِ اللهِ وأمرِه؛ بسببِ عنادِهم وتكذيبِهم لرسولِ الله ﷺ وآياتِ الله[6].

تعريضٌ بأمرِ الانتصافِ من المكذِّبين وخسارتِهم

(1) قباوة، المفصل، ص: 1683.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1683.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 122.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (بطل).
(5) الشَّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 98.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 213.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإذن والأمر والمشيئة والإرادة:

إذنُ اللهِ مفهومٌ عامٌّ يتناولُ الأمرَ والمشيئةَ والإرادةَ، والإرادةُ أخصُّها

الإذنُ: أذِنَ بالشَّيء، علمَ به، وفعلَه بإذني: بعلمي، وأذِنَ له في الشَّيءِ إذْنًا وأذينًا: أباحَهُ به له، وأذِنَه الأمرَ وبه: أعْلَمه، والأذانُ: الإعلامُ مطلقًا، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التَّوبة: 3]، وهو الإعلامُ على وجهٍ مخصوص، وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64]، أي: بإرادته وأمرِه أو بعلمِه، لكنَّ الإذْنَ أخصُّ من العلم، ولا يكادُ يُستعمَلُ إلّا فيما فيه مشيئةٌ، ما ضامَه الأمرُ، أو لم يُضِمّه، فإذنُ اللّهِ إرادتُه وأمرُه ومشيئتُه[1].

والأمرُ في الحقيقة: هو المعنَى القائمُ بالنَّفْسِ، فيكونُ قولُه: (افْعَلْ) عبارةً عنِ الأمرِ المجازيِّ؛ تسميةً للدّالِّ باسم المدلول[2].

والإرادةُ: هي العزمُ على الفعل، أوِ التَّرك بعد تصوُّرِ الغايةِ المترتِّبةِ عليه من خيرٍ أو نفعٍ أو لذَّةٍ ونحو ذلك، والإرادةُ متى حصلَتْ؛ صدَرَ الفعلُ - لا محالة - وتكونُ لما يتراخَى وقتُه، ولما لا يتراخَى، وهي مَيْلٌ اختياريٌّ، وقد يريدُ الإنسانُ ما لا يشتهيه، كالأدويَةِ الشَّنيعةِ النّافعةِ الَّتي يريدُ الإنسان تناولَها لما فيها من النَّفع، وإرادةُ اللّهِ ﷻ للشَّيءِ نفسُ إيجادِه له، وإرادةُ الإنسانِ شَوْقٌ متأكِّدٌ إلى حصولِ المراد، وأمّا المشيئةُ لما لم يتراخَ وقتُه، تقولُ: فعلتُ كذا، شاءَ زيدٌ أو أبَى، وهي ابتداءُ العزم على الفعل، فنسْبتُها إلى الإرادةِ نسبةُ الضَّعفِ إلى القوَّة، والظَّنِّ إلى الجزم، فإنَّك ربَّما شئتَ شيئًا، ولا تُريدُه لمانعٍ عقليٍّ أو شرعيٍّ، فالإرادةُ أخصُّ من المشيئة[3].

---

(1) الكفويّ، الكلِّيّات، ص: 72، والرّاغب، المفردات: (أذن).

(2) الكفويّ، الكلِّيّات، ص: 177، 178، والرّاغب، المفردات: (أمر).

(3) العسكريّ، الفروق، ص: 35، 36، والكفويّ، الكلِّيّات: 1/ 105، والجرجانيّ: التَّعريفات، ص: 216.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: 79 - 81]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الرَّبط بين دلالة آيات اللهِ على وحدانيَّتِه، وكون منكرها متكبرًّا لدودًا

لَمّا كان المبطِلونَ ليسوا أشدَّ نفرةً، ولا أقْوَى من بعضِ الحيواناتِ العُجْم؛ دلَّ على ما أخبرَ به من نافذِ نُصرتِه فيهم، مُذكِّرًا لهم بنعمته، مُسْتعطِفًا إلى طاعتِه، دالًّا على التَّوحيدِ بعد تَلْيينِهم بالوعيد، مُظهرًا الاسمَ الجامعَ؛ إشارةً إلى أنَّ في هذه الآيةِ من الدَّلالات ما لا يُحصَى، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ الآيات، فكيف مع ما يروْنَه من آياتِ اللهِ الظّاهرة وعظيمِ قدرتِه الباهرةِ، ينكرونَ وحدانيَّتَه وجلالَ خلْقِه وكمالَ فضلِه وإحسانِه[1]؟ وهو يسائلهم قائلًا: "أخبروني أيَّ دليل منها تنكرون، وهي مِن الوضوح بحيثُ لا ينكرها مَن له أدنى عقل؟"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَنْعَٰمَ﴾: (نعم) فروعُه كثيرة، وهي على كَثْرتِها راجعةٌ إلى أصلٍ واحد، يدلُّ على ترَفُّهٍ وطيِّبِ عَيشٍ وصلاح، ومن هذه الفروع النَّعَمُ: وهي الإبلُ؛ لما فيها من الخيرِ والنِّعمة، والنَّعَمُ ذَكَرٌ لا يُؤنَّث، فيقولون: هذا نَعَمٌ وارِدٌ، وتُجمَعُ أنعامًا، والأنعامُ: البهائمُ، وهو على ذلك القياس، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [النَّحل: 66]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: 142][3]، وقولُه تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 704.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نعم).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾، أي: الإبلَ خاصَّة[1]، ويجوز أن يُراد: الإبلُ والبقرُ والغنمُ والخيل، وغيرُ ذلك من البهائمِ الَّتي يقتنيها أهلُ الإسلام لمركَبٍ أو لمَطْعَم[2].

2) ﴿مَنَٰفِعُ﴾: (نفع) كلمةٌ تدلُّ على خِلافِ الضُّرِّ، ونَفَعَهُ يَنْفَعُهُ نَفعًا ومَنفعةً، وانتفعَ بكذا[3]، والنَّفعُ: ما يُستعانُ به في الوصولِ إلى الخيرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخيرِ، فهو خير، فالنَّفعُ خيرٌ، وضِدُّه الضَّرُّ، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188][4]، ونَفعه نفعًا أفادَهُ، وأوصل إِلَيْهِ خيرًا، فَهوَ نافِع ونفّاع، و(انتفع) بِهِ: حصل مِنهُ على مَنفَعَة، و(استنفع) فلانًا: طلب نَفْعَه، و(المَنفَعَة): كلُّ ما ينتَفع بِهِ، وجمعها مَنافِع[5]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾، أي: منافعُ أُخرى غير الرُّكوبِ والأكل، كألبانِها وأوبارِها وجلودِها وأصوافِها وأشعارِها، وغير ذلك[6].

3) ﴿حَاجَةً﴾: حاجَ يَحوجُ: احتاجَ، والحاجةُ إلى الشَّيء: الفقرُ إليه مع محبَّتِه، قال تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف: 68]، وحاجَ الرَّجلُ: احتاج، وأحوجَهُ غيرُه، وأحوجَ بمعنَى احتاج، والحَوجاءُ: الحاجة[7]، وقولُه تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً﴾، أي: حاجةً في صدوركم، لم تكونوا بالغيها لولا هي، إلّا بشقِّ أنفُسِكم[8]، وذلك بحملِ أثقالِكم من بلَدٍ إلى بلد[9].

4) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: (فلك) أصلٌ صحيحٌ، يدُلُّ على استدارةٍ في شيء، من ذلك: فَلْكَةُ المِغْزَلِ بفتحِ الفاء، سُمّيَتْ لاستدارتِها، ومن هذا القياسِ فَلَكُ السَّماء، وهو مجرَى الكواكب، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: 40]. والفُلْكُ: السَّفينة، يُستعمَلُ ذلك للواحدِ والجمع، ولعلَّها تُسمَّى فُلْكًا؛ لأنَّها تدارُ في الماء، قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى

---

(1) النَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 32، والزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 438.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 420، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفع).
(4) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(5) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (نفع).
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 29، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 659.
(7) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس: (حاج).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 420.
(9) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 29.

﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ [البقرة: 164]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾[1]، وقيل: الفَلَك جمعه أفلاك، وذُكِر الفُلْك بِضَم الفاء وسُكون اللّام، وهي السَّفينَة، وقيل: هوَ جمع واحِدها فَلَك، وقيل: لَفظه في الواحِد والجمع فَلَك[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

امتنانُ اللهِ على عبادِه بآياتٍ دالَّةٍ على وحدانيَّتِه وقدرتِه

امتنَّ اللّهُ على عبادِه بأنواعِ الأنعامِ الَّتي لا تُحصَى، ومنها: الإبلُ والبقرُ والغَنَمُ، الَّتي منها رَكوبُهم، ومنها يأكلون، فالإبلُ تُركبُ، وتُؤكَلُ، وتُحلَبُ، ويُحمَلُ عليها الأثقالُ، ويكون عليها الارتحال، والبقرُ والغنَمُ تؤكَلُ، ويُشرَبُ لبنُها، والجميعُ تُجَزُّ أصوافُها وأشعارُها وأوبارُها، فيُتَّخَذُ منها الأثاثُ والثّيابُ والأمتعةُ، وعلى السُّفُنِ في البحر تُحملونَ، وتنتقلون من مكانٍ إلى آخر، وهذه الآياتُ كلُّها وغيرُها يريكُم ربُّكم إيّاها في الآفاقِ وفي أنفُسِكم، باعتبارِها دلالات جليَّة على كمالِ قدرتِه ووحدانيَّته، فإنَّها كلَّها من الظُّهورِ والجلاء، بحيثُ لا تقدِرونَ على إنكارِ شيءٍ منها، إلّا أن تُعاندِوا، وتُكابِروا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآيتَينِ عن سابقتيهما:

الانـتـقـالُ من امـتـنـانٍ إلى امتنان، مفيدٌ في الإفصاح والبيان

جاء فصلُ الآيتَين عن سابقتيهما انتقالًا من الامتنانِ على النّاس، بما سخَّرَ لأجلِهم من نظامِ العوالمِ العُليا والسُّفلَى، وبما منحَهم من الإيجادِ، وما في ذلك من الألطافِ بهم، وما أدمَجَ فيه من الاستدلالِ على انفرادِه تعالى بالتَّصرُّفِ - فكيف ينصرفُ عن عبادتِه الَّذين أشركوا به آلهةً أُخرى؟ - إلى الامتنان بما سخَّرَ لهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (فلك).

(2) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (فلك).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 79، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 659.

من الإبلِ لمنافعِهمُ الجَمَّةِ خاصَّةً وعامَّة، فالجملةُ استئنافٌ بهذا الانتقالِ من امتنانٍ إلى امتنان[1].

دلالة الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾:

الإخبارُ بعظيمِ نِعَمِهِ ومِنَنِه، هي منتهى الدَّلالة على عظمته

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ خبرٌ للمبتدأ، وهو اسمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾[2]؛ تعبيرًا عن عظمةِ اللهِ في جليلِ خَلْقِه وعظيم نِعمِه على عبادِه، عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه، في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذه الآية، بما صُدِّرت به من اسمِه الجليلِ، المُظْهَرُ فيها من الدَّلالاتِ على وحدانيَّتِه تعالى، بما خلقَه من النِّعمِ العظيمة، ومنها نعمةُ الأنعام، وما فيها من أنواعِ المِنَنِ الرَّبّانيَّة، بتذليلِ الأنعامِ وتسخيرِها، بالرُّكوبِ ونقلِ الأثقال، والاستفادةِ من ألبانِها ولحومِها وأصوافِها وأشعارِها، إلى غيرِ ذلك ممّا يدلُّ على عظمةِ اللهِ في خَلْقِه، لما يحقِّقُ مصالحَ العبادِ في ملكِه[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿جَعَلَ﴾ دون (خَلَقَ):

تهيئةُ الأنعامِ للعبادِ، لتحقيقِ مصالِحِهم، وتحفيزِ توحيدِهم خالقهم

الجَعْلُ: الوضعُ والتَّمكينُ والتَّهيئة، فيُحمَلُ في كلِّ مقامٍ على ما يناسبُه، وهنا مقامُ الامتنانِ على العبادِ، بأن هيَّأ لهم هذه الأنعامَ بأنواعِها؛ ليركَبوا منها، ومنها يأكُلونَ، ولينقُلوا أثقالَهم عليها من بَلَدٍ إلى بَلَد، وذلك لتقريبِ نفوسِهم من التَّوحيد؛ لأنَّ شأنَ أهلِ المروءةِ الاستحياءُ من المُنعِم[4].

دلالة (اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَكُمُ﴾:

خلقَ اللهُ الأنعامَ للبشر، مسخَّرةً للنَّفعِ لا للضَّرر

اللّامُ في قولِه: ﴿لَكُمُ﴾ لامُ التَّعليل، أي: خلقها لأجْلِكم ومصلحتِكم[5]، "مسخَّرة لِتَرْكَبوا مِنها، ومِنها تَأْكُلونَ، ولَكُم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 214.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 523.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 214.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 29.

فيها مَنافِعُ من الجلود والأوبار والأصواف، ولِتَبلُغوا عَلَيها حاجَةً في صُدورِكُم"[1].

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ على المفعول:

الامـتـنـانُ على العـبـادِ بخَـلْـقِ الأنـعـام، تذكيرٌ بعطائه الممدود على الدَّوام

تقدَّم الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾؛ لإفادةِ الامتنانِ على العبادِ بهذه الخصوصيَّة، فهو امتنانٌ مُجمَلٌ يشملُ بالتَّأمُّلِ كلَّ ما في الإبلِ لهم من منافع، وهم يعلمونَها؛ إذا تذكَّروها، وعدّوها[2].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾:

الأنعامُ المعهودةُ الباديَةُ، مسخَّرة لأهل الحاضرة والباديَةِ

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ لتعريف ماهيَّة الجنس[3]، وقيل: إنَّها للعهد، أي: الأزواجِ الثَّمانيةِ المعهودةِ بالتَّذليلِ والتَّسخير[4]، قال ابن عاشور: "والأنعام: الإبل والغنم والمَعِز والبقر، والمراد هنا: الإبل خاصَّة، لقوله: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾، وكانت الإبل غالبَ مكاسبهم"[5].

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿لِتَرۡكَبُواْ﴾:

ديـمـومـةُ اسـتـخـدامِ الأنـعـامِ لـلـرُّكـوب، تقليدٌ لدى كلِّ الشُّعوب

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارع ﴿لِتَرۡكَبُواْ﴾ دلالةً على تجدُّدِ هذه المنفعةِ واستمرارِها؛ لأهمّيَّتها لهم وعدمِ استغنائهم عنها؛ إذ يستعملونها للسَّفر من صِقع إلى صقع، ومن قطر إلى آخر، وهي لما لها من خُفٍّ مُفَرْطح أنسبُ حيوانٍ للسَّير في رمال الصَّحراء، ومِن ثَمَّ قالوا: (الجمل سفينة الصَّحراء)، وقد كانت من أهمِّ سبل المواصلات في الأزمنة الغابرة في البَرِّ، كما كانت السُّفنُ كذلك في البحر[6].

دلالةُ (مِن) في شبه الجملة: ﴿مِنۡهَا﴾:

بعضُ الأنعامِ لا تُركَب، والرُّكوبُ للإبلِ خاصَّة

(مِن) في قوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾ للتَّبعيض، تتعلَّق بصفة

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 321.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 214.
(3) قباوة، المفصل، ص: 1683.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 214.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 98.

محذوفة للمفعول المقدَّر، أي: شيئًا كائنًا منها[1]؛ إذْ ليس كلُّ الأنعام تُركَب[2]، ويجوزُ أنْ تكونَ لابتداءِ الغايةِ، أي: ابتداءُ الرُّكوبِ والأكلِ منْها، أي: تعلُّقهما بها[3]؛ إذِ المرادُ بالأنعامِ شيءٌ خاصٌّ، وهي الإبل؛ لأنَّه لم يُعهَدْ للرُّكوبِ غيرُها[4].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَمِنۡهَا﴾:

بيانُ الحالِ في كونهم يأكلون من الأنعام

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ حاليَّة، أي: والحالُ أنَّكم من بعضِها تأكلون، أو عطفٌ على المعنى من جملة: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾؛ لأنَّها في قوَّةِ أن يُقال: تركبون منها، على وجهِ الاستئنافِ؛ لبيانِ الإجمالِ الَّذي في جملة: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾، وهي على الاعتبارَينِ في حيِّزِ ما دخلت عليه لامُ (كي)، فمعناها: ولتأكلوا منها[5].

دلالة الحرف (مِنْ) في ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾:

بيانُ أنَّ بعض الأنعامِ تُؤكل، وبعضها لا تُؤكَلُ

(مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ لابتداء الغاية المكانيَّة، وتتعلَّق بـ(تأكل)[6]، ويمكن أن تكون للتَّبعيض[7]؛ إذ ليس كلُّها يُؤكَلُ على التَّوسُّعِ في أنواعِ الأنعام، كالخيلِ والبغالِ والحمير، ويجوزُ أن تكونَ لبيانِ الجِنْس؛ لأنَّ الخيلَ منها، ولا تُؤكَلُ[8].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ (مِنْها):

حصْرُ الاقتياتِ في الأنعام تذكيرٌ بمظاهر الإنعام

في قولِه تعالى: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾، معنَى حصرِ الاقتياتِ من الأنعام - لمّا كان الاقتياتُ منها في عظيم نَفْعِه وكثرتِه وشهوتِه بحيثُ لا يناسبُه غيرُه - عُدَّ الغيرِ عدمًا، فقال: (مِنْها)، أي: من الأنعامِ كُلِّها تأكلون[9].

(1) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 571، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 500، 501.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 286.
(4) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 501.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 215.
(6) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.
(8) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 501.
(9) النَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 32، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 571.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تَأۡكُلُونَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارع ﴿تَأۡكُلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأكلَ من الأنعامِ متجدِّدٌ مستمرٌّ، وللتَّنبيه على امتيازِه عنِ الرُّكوبِ في كونِه من ضروريّاتِ الإنسانِ، وفيه قِوامُ حياته[1].

نُكْتَةُ تقديمِ الرُّكوبِ على الأكل:

ركـوبُ الأنـعـام أهـمُّ منافعِها، وأظهرُها في واقع الاستعمال

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الرُّكوبَ على الأكلِ في قوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الرُّكوبَ ببلوغِ الأماكن الشّاسعةِ هو المقصودُ منها بالذّات، وهو الَّذي اقتضَى تركيبَها على ما هي عليه، فنشأَتْ منه منفعةُ الأكل، وتبِعَتْها أخواتُها من المنافع[2].

بلاغةُ الإدماجِ في الآيةِ الكريمة:

امتـنـانٌ مُجمَلٌ شاملٌ رائـع؛ لما في الأنـعـامِ من منافع

في الآيةِ الكريمة كما لا يخفَى امتنانٌ جليلٌ من اللهِ تعالى على عبادِه، لتقريبِ نفوسِهم من التَّوحيد؛ لأنَّ شأنَ أهلِ المروءةِ الاستحياءُ من المنعِمِ ﷻ، وقد أُدمِجَ في الامتنان استدلالٌ على دقيقِ الصُّنعِ، وبليغِ الحكمة، كما دلَّ عليه قولُه من بعدُ: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: في ذلك كلِّه، فقولُه: ﴿لَكُمُ﴾، أي: لأجلِكم، وهو امتنانٌ مُجمَلٌ يشمَلُ بالتَّأمُّلِ كلَّ ما في الإبلِ من منافع لهم، وهم يعلمونها؛ إذا تذكَّروها، وعَدّوها، ثمَّ فصَّلَ ذلك الإجمالَ بعضَ التَّفصيلِ، بِذِكْرِ المُهِمِّ من النِّعم الَّتي في الإبل بقوله: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾، إلى قوله: ﴿تُحۡمَلُونَ﴾، فجاء بذكرِ الرُّكوب لراحةِ الأبدان، ثمَّ الأكل، فقالَ في موضعِ الحالِ من الأنعام: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ على وجهِ الاستئنافِ؛ لبيانِ الإجمالِ الَّذي في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾، فكلُّ مَنفعةٍ نَشأَتْ من سابقتِها، وتبِعَها أخواتُها من المنافع، ولكلٍّ من الرُّكوب والأكلِ اختصاصٌ من سائرِ المنافعِ، مع كونها تحقِّقُ الحِكَمَ الرَّبّانيَّةَ الجليلةَ من خَلْقِ الأنعام[3].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 342.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 342، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 215.

المنافعُ المجعولةُ في الأنعامِ لتحقيقِ مصالحِ العباد

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾، عَطفتْ جملتَها على جملةِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، وهي بمعنَى التَّعليل، كأنَّه قيل: ولِتَجتَنوا منافعَها المجعولةَ لكم[1]، والمعنى: "﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أُخَرُ غير الرُّكوب والأكل، من الوبر والصّوف والشَّعر، والزُّبد والسَّمن والجبن، والدَّرِّ والنَّسل، وغيرِ ذلك"[2].

دلالة حرف اللّام في قوله: ﴿وَلَكُمْ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ﴾ للاختصاص[3]، أي: خلقَ لكم الأنعامَ؛ لِتَجْتَنوا منافعَها المملوكةَ المجعولةَ لكم، لتحقيقِ مصالحِكمُ المعتبرةِ فيها[4].

نُكْتَةُ تغييرِ أسلوبِ التَّعليلِ في قوله: ﴿وَلَكُمْ﴾:

غيَّر النَّظمُ الكريمُ أسلوبَ التَّعليل في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ عمّا قبلَه، تفنُّنًا في الكلام، وتنشيطًا للسّامعِ؛ لئلّا يتكرَّرَ حرفُ التَّعليلِ تكراراتٍ كثيرةً[5].

إجمالُ المنافعِ في الأنعامِ، وأهمّيّتُها للأنام

نُكْتَةُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿وَلَكُمْ﴾، وموقعُها النَّحويُّ:

لَمّا كان التَّصرُّفُ في الأنعامِ غيرَ منضبطٍ، أجْمَلَه السّياقُ القرآنيُّ، بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾، أي: كلِّها، مُقدِّمًا لشِبهِ الجملةِ على ما حقُّه أن يتقدَّم عليها، في قوله: ﴿مَنَٰفِعُ﴾، وفي ذلك تنبيهٌ على ما خصَّ اللهُ به الأنعامَ الَّتي خلقَها من منافعَ كثيرةٍ عميمةٍ للعباد[6]، وقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، متعلّقان بخبرٍ مقدَّمٍ للمبتدأ ﴿مَنَٰفِعُ﴾، أي: لكم منافعُ قائمةٌ أو موجودةٌ فيها[7].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 215.

(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 12/ 217.

(3) قباوة، المفصل، ص: 1684.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 215.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 215.

(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.

(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 523.

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾:

المبالغةُ في وجودِ المنافعِ وكثرتِها، مبينة عن المراد

أفادتِ الظَّرفيَّةُ ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ المبالغةَ في تحقُّقِ وجودِ هذه المنافع في الأنعام، وأنَّها كثيرةٌ بغيرِ ما تقدَّم ذِكْرُه من الرُّكوبِ والأكلِ، وذلك في الدَّرِّ والوَبَرِ والصّوف، وما يُصنَعُ منها من أثاثٍ وغيره[1]، ولَمّا كانتِ المنافعُ ليست منحصرةً في أجزاءِ الأنعام، جيء بمتعلَّقِها بحرف (في)، دونَ (من)؛ لأنَّ (في) للظَّرفيَّةِ المجازيَّة بقرينةِ السّياق، فتشملُ كلَّ ما يُعَدُّ كالشَّيء المَحوي في الأنعام[2]، وقولُه: ﴿فِيهَا﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان بخبرٍ مقدَّم محذوف[3].

نُكْتَةُ التَّقديمِ بين أشباهِ الجُمَل:

أهمّيَّة التَّدرُّج مـن الـخـاصِّ إلى العامِّ، بما تقتضيه حاجةُ العِباد

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾، مع تصديره بشِبْهِ الجملة ﴿وَلَكُمۡ﴾؛ لبيانِ أنَّ المنافعَ في هذه الآيةِ أُريدَ بها ما قابلَ منافعَ تقدَّمَتْها، صُدِّرتْ جُمَلُها بأشباهِ الجُمَل، من قوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾، وقوله: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾، فالمنافعُ شاملةٌ للرُّكوب، وشاملةٌ للأكل، ثمَّ منافعُ أوبارِها وألبانِها وأثمانِها وأعواضِها في الدّيّاتِ والمُهور، وجلودِها باتِّخاذها قِبابًا وغيرها، وبالجلوسِ عليها والانتفاع بجمالِ مرآها في العيون، في المَسْرَحِ والمَراح، فجاءتِ المنافعُ شاملةً لما تقدَّمها بأشباهِ الجُمَل تعميمًا بعد تخصيص، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18]، بعد قولِه: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ [طه: 18]، فذكر النَّظمُ الكريمُ هنا الشّائعَ المطروقَ عندهم، ثمَّ ذكر مثيلَه في الشُّيوع، وهو الرُّكوب، ثمَّ الأكلَ منها، ثمَّ عاد إلى عموم المنافع، ثمَّ خصَّ من المنافعِ الأسفارَ، فإنَّ اشتداد الحاجةِ إلى الأنعامِ فيها تجعلُ الانتفاعَ بركوبِها للسَّفَر في محلِّ الاهتمام، فعاد

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 216.
(3) دعّاس، إعراب القرآن: 3/ 166.

إلى ما ذكرَه أوّلًا، وهو الرُّكوب، فكان في هذا التَّرتيبِ بين أشباهِ الجُملِ سابقًا ولاحقًا تدرُّجٌ من الخاصِّ إلى العامِّ، حسبَ ما تقتضيه اشتدادُ حاجةِ العباد، مع جامعِ الاهتمامِ في كلِّ واحدةٍ منها[1].

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿مَنَٰفِعُ﴾:

بيانُ كثرةِ منافعِ الأنعامِ وتنوُّعِها، مفصحٌ عن المراد

جاء قولُه تعالى: ﴿مَنَٰفِعُ﴾ نكرةً؛ للإشارةِ إلى كثرةِ هذه المنافعِ، بغيرِ ما وردَ في الآية، فهي متعدِّدةٌ متنوِّعة، في الرُّكوبِ والأكلِ، ومنافعِ الألبانِ والأوبارِ، والأثمانِ والجُلودِ واستعمالاتِها، وجمالِ مرآها في المسْرَحِ والمَراح[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة بعد الجُملِ الفعليَّة:

منافعُ الأنعامِ ثابتةٌ، لا تتعطَّل قوانينُ تسخيرها

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الاسميَّة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾؛ إشارةً إلى ثباتِ هذه المنافعِ وإجمالِها وعدمِ تخلُّفِها[3]، وهي في ثبوتها متعدِّدة، منها: منافع الرُّكوب عليها، والحمل، ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشُّرب من ألبانها، ومنها: منافع الدِّفء، واتِّخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع"[4].

معنى الواو في قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ﴾:

بيانُ عظيمِ منفعةِ بلوغِ حاجةِ العبادِ بالأنعامِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ﴾ عاطفةٌ على ما تقدَّمها من المنافع، وفيها بيانُ عظيمِ تلك المنفعة، فبُلوغُ الأماكنِ الشّاسعةِ عليها في أقربِ مدَّةٍ لنيلِ الأمورِ الهائلةِ عظيمُ الجَدْوى جدًّا، فجاءَ التَّفصيلُ بعد إجمالِ المنافعِ لأهمّيّتِه في تحقيقِ الغرض[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 215، 216.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 29، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 743.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 123.

دلالةُ حرف اللّام في قوله: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ﴾ لامُ كي للتَّعليل، أي: كي تبلغوا الحاجةَ في مكانٍ بعيدٍ يطلبُها صاحبُها، وفيها بيانُ الغَرَضِ والقَصْدِ لتحقيقِ الحاجةِ والمراد[1].

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المضارع (تَبْلُغوا):

استمرارُ حاجةِ العبادِ للأنعامِ في السَّفر وبلوغِ المرام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارع (تَبْلُغوا) عن عظيمِ منفعةِ الأنعام لسدِّ حاجةِ العبادِ المستمرَّةِ في عدمِ استغنائهم عنها، في أسفارِهم من بلدٍ إلى بلد[2]، وبلوغُ الحاجة هنا يكون بالوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصولِ السُّرور بها، والفرحِ عند أهلها[3].

نُكْتَةُ تعديَةِ فعلِ البلوغِ بحرفِ الاستعلاء:

المِنَّـةُ بتذليلِ اللهِ للأنعامِ، وتسخيرِها لخدمةِ الأنامِ

عدَّى النَّظمُ الكريمُ فعلَ البلوغِ بحرفِ الاستعلاءِ (على)، في قولِه تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى الاستعلاءِ عليها، أي: مُستعلين عليها، وهي في غايةِ الذُّلِّ والطَّواعيَة، ولولا تذليلُ اللّهِ لها لخدمةِ الإنسان - مع قوَّتِها في غريزتِها الحيوانيَّة - لما قَدَرَ على تطويعِها؛ ليَرْكَبَها، أو يبلغَ عليها حاجتَه في نقلِ الأثقالِ والأحمالِ من بلدٍ إلى بلد[4]، "وإنَّما قال: ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾، ولم يقل: (في الفلك) للمزاوجة وتغيير النَّظم في الأكل؛ لأنَّه في حيّزِ الضَّرورة؛ لأنّه يُقصد به التَّعيُّشُ وهو من الضّروريّات، والتَّلذُّذُ والرُّكوب والمسافرة عليها قد يكون لأغراض دينيَّة واجبة أو مندوبة، أو للفرق بين العين والمنفعة"[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 216.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 342.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 743.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 124.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 64.

نُكْتَةُ تقديم شِبْهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡهَا﴾:

تقدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ﴾؛ للاهتمام بالعبادِ بما يقضي حاجاتِهم، وإبلاغِهم تحقيقَ أغراضِهم ومقاصدِهم من هذه الأنعام[1].

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿حَاجَةٗ﴾ في السّياق:

سدُّ حاجاتِ العبادِ من الأنعامِ، نعمةٌ من ذي الجلال والإكرام

أوردَ السّياقُ القرآنيُّ كلمةَ ﴿حَاجَةٗ﴾ نكرةً، في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ﴾؛ لإفادةِ جِنْسِ الحاجة، أي: أيَّ حاجةٍ من الحاجاتِ الدُّنيويَّة الَّتي فيها تحقيقُ مصلحةٍ لكم، وفي هذا التَّعبيرِ تنبيهُ العبادِ على نقصِهم وعظيم نعمةِ اللّهِ ومِنَّتِه عليهم[2]، ولفظُ ﴿حَاجَةٗ﴾ مفعولٌ به للفعلِ (تَبْلُغُوا)[3].

فائدةُ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي صُدُورِكُمۡ﴾:

تعظيمُ قدرةِ اللهِ في إظهارِ ما يُضمَرُ في الصُّدور

في إفادةِ قولِه تعالى: ﴿فِي صُدُورِكُمۡ﴾ الظَّرفيَّة، إشارةٌ إلى أنَّ حاجةً واحدةً ضاقتْ عنها قلوبُ الجميع، حتَّى فاضت منها، فملأت مساكنَها، وفي ذلك إظهارُ القُدرةِ الإلهيَّةِ في مقامِ التَّعظيم لنِعَمِ اللّهِ ومِنَنِه، وواسعِ علمِه في إظهارِ جميعِ ما يُضمَرُ في قولِه: ﴿صُدُورِكُمۡ﴾[4].

بلاغةُ الكنايةِ عنِ القلوبِ بالصُّدور:

المبالغةُ في أهمّيَّةِ المعنى المراد؛ لبيان المدلول المستفاد

إطلاقُ الصُّدورِ على القلوب من بابِ الكنايةِ، في إطلاقِ الكلِّ وإرادةِ الجُزء، فإنَّ الصُّدورَ محلُّ القلوب، وهي أوسعُ منها، والقلوبُ جزءٌ منها؛ للمبالغةِ في أهمّيَّةِ المعنى المراد، وهو أمرٌ متعارَف، فلفظُ الصُّدورِ أُطلِقَ على العقولِ اتِّباعًا للمُتعارَفِ الشّائع، كما يُطلَقُ لفظُ القلوبِ على العقول[5].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 342.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 124.
(3) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 166.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 124.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 216.

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾:

المبالغةُ في معرضِ الإنعام والامتنان مُعيَّنةٌ على البيان

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ عطفَتْ جملتَها على ما قبلَها بجامعِ الاستعلاء في كلٍّ، وإذا كان الاستعلاءُ يقتضي أن يكونَ على أعلى شيء، فإنَّه يكونُ هنا في البَرِّ على ظهرِ الأنعام لحملِ الأمتعة، وحملِ الإنسانِ نفسِه، كما تقدَّمَ في الرُّكوب؛ اشتراكًا بين السّابقِ واللّاحقِ، للمبالغةِ في مَعرِضِ المنَّةِ على العباد[1]، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ اعتراضيَّة، أي: قولُه: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ تمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾؛ تكريرًا للمِنَّة[2].

نُكْتَةُ تقديم ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ على فعلِ الحمْلِ:

الاهتمامُ بمنفعةِ الأنعامِ في الحمْلِ في كلِّ الأحوال

تقدَّمَ شِبْهُ الجملةِ ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ على فعلِ الحَمْلِ، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾؛ للاهتمامِ في كونِ الأنعامِ مهيَّأةً للحَمْلِ في البَرِّ، وفيه كذلك توطئةٌ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾؛ ليجمعَ بين سفائنِ البَرِّ وسفائنِ البحر، فكأنَّه قيل: وعليها في البَرِّ، وعلى الفُلكِ في البحرِ تُحملون، فلا تكرار، ويمكنُ أن يكونَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ لمراعاةِ الفواصل، كتقديمه قبلُ، فيجتمعَ التَّوجيهان، يُقوّي أحدُهما الآخر[3].

نُكْتَةُ تقديمِ الحمْلِ على الأنعامِ على الحمْلِ على الفُلك:

مناسبةُ الحمْلِ في كلٍّ من الفُلكِ والأنعام، دليلٌ على دقَّة السّياق

تقدَّمَ الحَمْلُ على الأنعامِ على الحَمْلِ على الفُلكِ، لمناسبةِ قولِه تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمۡ﴾، فقال: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾، وهو انتقالٌ من الامتنانِ بجعلِ الأنعام، إلى الامتنانِ بنعمةِ الرُّكوبِ في الفُلكِ في البحارِ والأنهار[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 124.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 216.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 342.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 216.

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾:

الانتقالُ من مِنَّةِ الحَمْلِ على الأنعامِ، إلى مِنَّةِ الحَمْلِ على الفُلك

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾، أي: وعلى الأنعام؛ لأنَّ السّياقَ في مَعرِضِ بيانِ بعضِ مِنَنِ اللّهِ تعالى على عبادِه، وهو هنا انتقالٌ من الامتنانِ بجعلِ الأنعامِ مطيَّةً، إلى الامتنانِ بنعمةِ الرُّكوبِ على الفُلكِ في البحارِ والأنهارِ، فالمقصودُ هو قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[1].

معنَى (أل) في ﴿ٱلْفُلْكِ﴾:

بيانُ جِنسِ الفُلكِ، أو أنَّه نوعٌ خاصٌّ منها

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ للجنس، أي: المَراكِبِ الَّتي تَمْخُرُ ماءَ البحارِ على اختلافِ أحجامِها وأغراضِها، ويمكنُ أن تكونَ للعهدِ، بما يناسبُ السّياق، والمرادُ: المراكبُ المعهودةُ في نقلِ الرُّكّابِ وأمتعتِهم وأثقالِهم من بلدٍ إلى بلدٍ دونَ غيرِها، ممّا يختلفُ الغرضُ من استخدامِه.

نُكْتَةُ تعديَةِ الحَمْلِ في الفُلكِ بـ (على):

بيانُ نُكتةِ المُشاكَلةِ لما سبق، مع قصدِ الظّاهرِ المنطوق

عدَّى النظمُ الكريمُ الحَمْلَ في الفُلك بـ (على)، ولم يقل: (وفي الفُلك)، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: 65]؛ للمُزاوجةِ والمُشاكلةِ مع ﴿وَعَلَيْهَا﴾، وإنَّما أُعيدَ حرفُ (على) في الفُلك؛ لأنَّها هي المقصودةُ بالذِّكر، وكان ذِكْرُ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ كالتَّوطئة لها، فجاءت على مثالِها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تُحْمَلُونَ﴾:

التَّسخيرُ لحملِ أمتعةِ العبادِ من البيانِ المستفاد

المرادُ بقوله تعالى: ﴿تُحْمَلُونَ﴾، أي: تَحمِلُ لكم أمتعتَكم، فإنَّ حمْلَ الإنسانِ نفسه تقدَّم بالرُّكوب، وعبَّر النَّظم الكريم بصيغة ﴿تُحْمَلُونَ﴾ بالبناء للمفعول؛ للإشارة إلى أنَّه سخَّرَ ذلك تسخيرًا عظيمًا لا يحتاجُ معه إلى علاجٍ في نفسِ الحَمْلِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 216.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 217.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 124.

نُكْتَةُ إسنادِ الحملِ إلى النّاس في ﴿تُحۡمَلُونَ﴾:

إسنادُ الحَمْلِ إلى العبادِ تغليبًا، ممّا يُفيد في استكناه المراد في السّياق

لَمّا تقدَّمَ حمْلُ الأثقالِ على الإبلِ في قوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ [النَّحل: 7]، وجاء قولُه هنا: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾؛ دلَّ على أنَّ إسنادَ الحَمْلِ إلى ضميرِ النّاسِ في ﴿تُحۡمَلُونَ﴾ من بابِ التَّغليب[1]، وفي النَّحل: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ [النّحل: 14]، ومُفادُه: وترَى السُّفنَ والمراكبَ تَمْخرُ في البحر العجاج الهائل بمُقَدَّمها، حتّى تسلكَ فيه من قُطْرٍ إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقَهم، وأمتعتَهم وتجاراتِهم الَّتي يطلبون بها الأرزاقَ، وفضلُ اللّه في رزقه النّازلِ بتقديره عليهم[2].

نُكْتَةُ التَّقديم والتَّأخيرِ بين منافعِ الأنعام:

بيانُ دلالة التَّعميم بعد التَّخصيص، وذِكْرُ الشّائعِ ومثيله

المنافعُ: جمعُ منفعة، وهي مَفْعَلَةٌ من النَّفع، وهي: الشَّيءُ الَّذي يُنتفَعُ به، أي: يُستَصلَحُ به، فالمنافعُ في هذه الآيةِ أُريدَ بها ما قابلَ منافعَ أكلِ لحومِها، في قوله: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾، مثلَ الانتفاعِ بأوبارِها وألبانِها وأثمانِها وأعواضِها في الدّيّات والمهور، وكذلك الَّذي في قوله: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾، فذِكْرُ المنافعِ بعد قولِه تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18]، بعد قوله: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ [طه: 18]، فذكَرَ هنا الشّائعَ المطروقَ عندَهم، ثمَّ ذكرَ مثيلَه في الشُّيوع، وهو الأكلُ منها، ثمَّ عادَ إلى عمومِ المنافع، ثمَّ خصَّ من المنافعِ الأسفارَ، فإنَّ اشتدادَ الحاجةِ إلى الأنعامِ فيها تجعلُ الانتفاعَ برُكوبِها للسَّفرِ في محلِّ الاهتمام[3].

نُكْتَةُ تتابعِ تقديمِ أشباهِ الجُمَل:

يُلحظ تقديمُ أشباهِ الجُملِ ﴿لَكُمُ﴾، ﴿مِنۡهَا﴾، ﴿فِيهَا﴾، ﴿عَلَيۡهَا﴾،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 216.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 437.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 216.

الاهتمامُ بالمُنْعَم عليهم، والمنعم به، هو الغرضُ الأساس

في السّياق؛ إذ تقديمُ المجروراتِ في قوله: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾، وقولِه: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾؛ لرعايةِ الفاصلةِ مع الاهْتمام بما هو المقصودُ في السّياق، وتقديمُ ﴿لَكُمُ﴾ على الأنعام في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ - مع أنَّ المفعولَ أشدُّ اتِّصالًا بفعلِه من المجرورِ - ؛ لقصدِ الاهتمام بالْمُنْعَم عليهم، وأمّا تقديمُ المَجرورَين في قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾؛ فلِلاهتمام بالمُنْعَم عليهم، والمُنعِم بها؛ لأنَّه الغرضُ الأوَّلُ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾[1]، فإنَّ تلك ذُكرتْ في مَعرِضِ الامتنانِ تذكيرًا بالشُّكر، فنبَّه هنا على أنَّ تلكَ المِنَنَ آياتٌ دالَّةٌ على ما يجبُ للّهِ من الوحدانيَّةِ والقُدرةِ والحِكْمة.

نُكْتَةُ ما يفيد التَّذييل في قوله: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

بيانُ إراءةِ الآياتِ في مُجمَلِ ما ذُكِر من النِّعم المتجلّيات

قولُه: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مُفيدًا مفادَ التَّذييل، لما في قوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ من العموم؛ لأنَّ الجمعَ المعرَّفَ بالإضافةِ من صيَغ العموم، أي: يريكُم آياتِه في النِّعَمِ المذكوراتِ وغيرِها من كلِّ ما يدُلُّ على وجوبِ توحيدِه وتصديقِ رُسُلِه، ونَبذِ المُكابرةِ فيما يأتونَهم به من آياتِ صدقِهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بجملة ﴿وَيُرِيكُمۡ﴾:

إرادةُ الآياتِ بصريَّةٌ مُتجدِّدةٌ، دالَّةٌ على وحدانيَّةِ الله وقدرته

الإراءةُ في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بصريَّةٌ، عبَّرَ بها عن العِلْم بصفاتِ اللّه؛ إذْ كان طريقُ ذلك العِلْم هو مشاهدة تلك الأحوالِ المختلفة، فمن تلك المشاهدةِ ينتقلُ العقلُ إلى الاستدلال، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ دلالةَ وجودِ الخالقِ ووحدانيَّته وقدرته، برهانيَّةٌ تنتهي إلى اليقينِ والضَّرورة، وقد جيءَ في جانبِ إرادةِ الآياتِ بالفعلِ المضارعِ لدلالتِه على التَّجدُّد؛ لأنَّ الإنسانَ كلَّما انتفعَ بشيءٍ من النِّعم؛ علمَ ما في ذلك من دلالةٍ على وحدانيَّةِ خالقِها وقدرته وحِكْمته[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 217.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 217، 218.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 218.

بيانُ مفعولَيِ الرُّؤية في سياق الآية:

مفعولا الرُّؤيةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الضَّميرُ المتَّصلُ (الكافُ مع ميم الجمع)، و﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ المفعولُ به الثّاني[1]، أي: يُريكم دلائلَهُ الدّالَّةَ على كمالِ شؤونه ﷻ[2].

نُكْتَةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمة:

لَمّا كانت آيةُ الأنعامِ عظيمةً؛ جعلَها ﷻ مشتملةً على آياتٍ كثيرةٍ، وأسندَها إلى ذاتِه القدسيَّةِ العظيمة، فعَظمتُها من عظَمةِ مَن خلقَها، وجعلَها مُهيَّئةً للعباد، إضافةً إلى آياتٍ أُخرى، أي: يُريكم في أيِّ لحظةٍ آياتِه الكثيرةَ الكبيرةَ فيها، وفي غيرِها من أنفُسِكم ومن الآفاق[3].

عظَمةُ الآياتِ من عظَمةِ خالقِها المبدعِ لها

فائدةُ عطفِ الآياتِ على ما تقدَّمَها:

في عطفِ الآياتِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إفادةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ جميعَ الآياتِ صالحةٌ للدَّلالةِ على وحدانيَّةِ اللّهِ وقدرتِه لا مَساغَ لادِّعاءِ خفائها، وأنَّهم لا عُذْرَ لهم في عدمِ الاستفادةِ من إحدى الآيات[4].

جميعُ آياتِ اللهِ دالَّةٌ على وحدانيَّته بوضوحٍ ساطعٍ، وبيانٍ ناصعٍ

معنَى الفاء، ودلالةُ إسقاطِ تاءِ التَّأنيث في قوله: ﴿فَأَيَّ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَيَّ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أفادت التَّعقيبَ المباشرَ في إنكارِ شيءٍ من آياتِ اللّه، وهم يَرَوْنَها، ويشاهدونَها بأُمِّ أعيُنِهم، ودَلَّ إسقاطُ تاءِ التَّأنيث - كما هو المستفيض - على كثرةِ الآياتِ وعظَمتِها[5].

التَّعقيبُ المباشرُ على إنكارِ شيءٍ من آياتِ اللهِ الكثيرةِ العظيمة

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 524.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 343.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 124.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 218.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 124.

إنكارُ إنكارِهم ما دلَّتْ عليه الآياتُ دليلٌ على السُّخفِ والطَّيش

عليهم؛ من أجلِ إنكارِهم ما دلَّتْ عليه الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1]، فإنَّ كلًّا منها منَ الظُّهورِ بحيثُ لا يكادُ يجترئُ على إنكارِها مَن له عقلٌ[2]، ولكنَّ النُّفوس اللَّئيمة تأبى إلّا أن تجحد الواضح الجليَّ، وكأنَّها تنكر ضوءَ الشَّمسِ في رابعة النّهار.

دلالةُ (أيَّ) وموقعُها النَّحْويُّ:

لا يمكنُ إنكارُ شيءٍ من آياتِ اللهِ؛ لكونها معجزة قاهرة

(أيَّ) في قوله تعالى: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ اسمُ استفهام، يُطلَبُ به تمييزُ شيءٍ عن مشارِكه فيما يُضافُ إليه (أيّ)، وهو هنا مُستعمَلٌ في إنكارِ أن يكونَ شيءٌ من آياتِ اللّهِ يُمكن أن يُنكَرَ دونَ غيرِه من الآيات، فيفيد أنَّ جميعَ الآياتِ صالحٌ للدلالة على وحدانية اللّه وقدرته[3]، و(أيَّ) منصوبٌ بـ ﴿تُنكِرُونَ﴾، وقُدِّم وجوبًا؛ لأنَّ له صدرَ الكلامِ[4].

نُكْتَةُ إضافةِ الآياتِ إلى اسم الجلالة:

تربيةُ المهابةِ في القلوب بتعظيم علّامِ الغيوب

إضافةُ الآياتِ إلى الاسم الجليلِ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ في النُّفوسِ، وتهويلِ إنكارِ الآيات، وهي من خَلْقِ اللّهِ تعالى[5].

وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لزيادة التَّنويه بها، والإرشاد إلى إجادة النَّظر العقلي في دلائلها.

نُكْتَةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

التَّنويهُ بعظَمةِ اللهِ في آياتِه تأكيدٌ لقدرته على كلِّ منكرٍ كفور

إظهارُ اسمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (آياته) بعد ما تقدَّمَ قولُه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ لزيادةِ التَّنويه بها والإرشادِ إلى إجادةِ النَّظرِ العقليِّ في دلائلِها، وأمّا كونُها جائيةً من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 218.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 286.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 218.
(4) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 501، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 343.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 343.

لدن اللّه، وكونُ إضافتها من الإضافة إلى ما هو في معنى الفاعل؛ فذلك أمر مُستفاد من إسناد فعل (يريكم) إلى ضميره تعالى[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿تُنكِرُونَ﴾:

إنكارُ الحقائقِ مع ظهورِها متجدِّدٌ باطِّراد لدى المعاندين

الإنكارُ ضدُّ العِرفان، يقال: أنكَرْتُ كذا، ونَكَرْتُ، وأصْلُه أن يَرِدَ على القلب ما لا يتصوَّرُه، وذلك ضربٌ من الجهل، وقد يُستعمَلُ ذلك فيما يُنكَرُ باللِّسان، وسببُ الإنكارِ باللِّسانِ هو الإنكارُ بالقلب، لكن ربَّما ينكرُ اللِّسانُ الشَّيءَ، وصورتُه في القلب حاصلة، ويكونُ في ذلك كاذبًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النَّحل: 83][2].

وهذا هو حالُ أولئك الَّذين جاء الاستفهامُ الإنكاريُّ التَّوبيخيُّ في حقِّهم في إنكارِ آياتِ اللّه، بل هم مستمرّون على إنكارِهم، وإنكارُهم متجدِّدٌ على ألسنتِهم كفرًا وعنادًا - كما عبَّرتْ عنه صيغةُ الفعلِ المضارع ﴿تُنكِرُونَ﴾ - مع الظُّهورِ وعدمِ الخفاءِ لتلك الآيات، بحيثُ لا يُنكِرُها مُنكِرٌ، ولا يجحدُها جاحد[3].

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

القلوبُ والصُّدور:

كلاهما جارحة، والصُّدور محلُّ القلب، فهي أعمُّ منه دلالةً

القَلْبُ: اسمٌ للجارحة، وسُمّيَ بذلك؛ لأنَّه وُضِعَ في موضعِه من الجَوْف مقلوبًا، والقلب عُمدَةُ البَدَن، وهو الجارحةُ الَّتي تتقلَّبُ بالأفكارِ والعُزوم، وقَلْبُ كلِّ شيءٍ: خالصُهُ، وقد يُعبَّرُ بالقلبِ عنِ العقل، وسُمّيتِ المُضغةُ الصَّنوبريَّةُ المودَعةُ في الجانبِ الأيسرِ من الصَّدرِ قلبًا؛ لكونِه أشرفَ الأعضاءِ، لما فيه من العقلِ على رأي، وسرعةِ الخواطرِ والتَّلوُّنِ في الأحوال، وهو أعظمُ الأشياءِ الموصوفةِ بالسَّعةِ من جانبِ الحقِّ، ومَعدنُ الرّوحِ الحيوانيِّ المتعلِّقِ للنَّفْسِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 218.
(2) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 659.

الإنسانيِّ، ومنبعُ الشُّعَبِ المنبثَّةِ في أقطارِ البَدَنِ الإنساني، بل في سائرِ الحيوانات التّامَّةِ الخِلْقة[1].

والصَّدْرُ: الجارحةُ، وهو محلُّ الإسلام ومحلُّ الوَسواس، قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥﴾ [طه: 25]، والقلبُ في الصَّدْر، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحجّ: 46]، ثمَّ استُعيرَ لمقدَّمِ الشَّيءِ لصدرِ القناة، وصدرِ المجلسِ والكتابِ والكلام[2].

الإنكارُ والكَذِب:

الكذِبُ أعمُّ من الإنكار، وكلاهما خُلُقٌ مذمومٌ في الأعراف والشَّرائع

الإنكارُ: خِلافُ الاعتراف، وأصلُه أن يَرِدَ على القلبِ ما لا يتصوَّرُه، وذلك ضربٌ من الجهل، ونكرَ الشَّيءَ، وأنكره: لم يقبلْه قلبُه، ولم يعترفْ به لسانُه، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النَّحل: 83][3].

والكَذِبُ: خلافُ الصِّدقِ، وتلخيصُه: أنَّه لا يبلُغُ نهايةَ الكلامِ في الصِّدق، والكذِبُ يُقالُ في المقالِ والفِعال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النَّحل: 105]، وما جاءَ في القرآنِ ففي تكذيب الصّادق، قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: 25][4].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 433، والكفويّ، الكُلِّيّات، ص: 703، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 178.
(2) الرّاغب، المفردات: (صدر)، والكفويّ، الكُلِّيّات، ص: 704.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (كذب).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: 82 - 83]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

راعَى النَّظمُ الكريمُ ترتيبًا لطيفًا في هاتين الآيتَين الكريمتَين، وذلك أنَّه لَمّا ذكرَ ما تقدَّمَ من دلائلِ الإلهيَّةِ، وكمالِ القدرةِ والرَّحمةِ والحِكمةِ في خَلْقِ الأنعام، ومنافعِها للإنسان؛ أَرْدفَه بالتَّهديدِ والوعيد، مُبيِّنًا أنَّ عاقبةَ المتكبِّرينَ المتمرِّدين الَّذين باعوا الآخرة بالدُّنيا - فسخَّروا ما وهبَهمُ اللّهُ من النِّعَم لمحادَّةِ اللّهِ ورُسُله - ليست إلّا الهلاكَ والبَوارَ، مع أنَّهم كانوا أكثرَ عددًا ومالًا وجاهًا من هؤلاءِ المُتأخِّرين، فكيف يكونُ حالُ هؤلاءِ الفقراءِ المساكين؟[1].

لَمّا يَسكَرُ المُنعَّمونَ بالنِّعَم، ويَنْسَونَ المُنعِمَ؛ يحيق بهم ما حاق بمَن قبلَهم

۞ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: عاقبَ يُعاقِبُ مُعاقبَةً وعُقوبةً وعِقابًا، وإنَّما سُمّيتْ عُقوبةً؛ لأنَّها تكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْب، ذلك أنَّ أصلَ مادَّةِ (عقب) يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه، على ما قالَهُ الخليل: كلُّ شيءٍ يعقُبُ شيئًا؛ فهو عقيبُه[2]، والعاقبةُ إطلاقُها يختصُّ بالثَّواب، نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]، وقولهم: ليس له عاقبة، أي: ليس له نسل، وكلُّ شيء جاء بعد شيء؛ فقد عاقبه، وعقَبَه تعقيبًا، وعاقبةُ كلِّ شيء آخرُه[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 535.
(2) الخليل، العين: (عقب).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (عقب).

2) ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾: شدَّ عَضُدَه: قوّاه، شدَّهُ، وأوْثَقه، يَشُدُّهُ، ويَشِدُّهُ بالضمِّ والكسرِ شَدًّا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: 152]، أي: قوَّته، والشَّدُّ: العَقْدُ القويُّ، يقال: شَدَدْتُ الشَّيءَ: قوَّيتُ عَقْدَهُ، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28]، والشِّدَّةُ تُستعمَلُ في العَقْد، وفي قوى النَّفس، وفي العذاب، وفي البَدَن، قال تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44][1]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾، أي: أكثرَ منهم عددًا، وأقْوَى منهم أجسادًا، وأوسعُ منهم أموالًا، وأظْهرُ منهم آثارًا في الأرض بالعمائر والمصانع والحرث[2].

3) ﴿وَءَاثَارًا﴾: أثَرَ يُؤثِرُ، وأثَّرَ يُؤَثِّرُ، والجمعُ: الآثار، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الرّوم: 50]، وأثَرُ الشَّيءِ: حصولُ ما يدلُّ على وجودِه، يقالُ للطَّريقِ المُستَدلِّ به على مَنْ تقدَّم: آثار، كما قال تعالى: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ [طه: 84]، ومنه يقال: سمنَتِ الإبلُ على أثارةٍ، أي: على أثَرٍ من شَحم، وأثَرْتُ العِلْمَ: رَوَيتُه، آثُرُهُ أثْرًا وأثارةً وأُثْرَةً، وأصلُه: تتبَّعتُ أثَرَه، قال تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: 4][3]، وآثار الأعمال: ما بقي منها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23]، أي: سُنَنِهم في الدّين[4].

4) ﴿يَكْسِبُونَ﴾: كَسَبَ واكْتسبَ بمعنى، والكَسْبُ: ما يتحرّاهُ الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، ككسبِ المال، وقد يُستعمَلُ فيما يَظنُّ الإنسانُ أنَّه يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلَبَ به مضرَّةً، والكَسْبُ يقال فيما أخذَه لنَفْسِه ولغيرِه، والاكتسابُ لا يُقالُ إلّا فيما استفدتُه لنَفْسِك، فكلُّ اكتسابٍ كَسْب، وليس كلُّ كسبٍ اكْتسابًا، قال تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: 267]، وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، فقد خصَّ هنا الكَسْبَ بالصّالح، والاكْتسابَ بالسيِّئ، ويمكن أن يكونَ الاكتسابُ فيهما، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النِّساء: 32][5].

5) ﴿وَحَاقَ﴾: حاقَ، وبابُه باعَ، وحاقَ به الشَّيءُ: أحاطَ به، ونزلَ، وأصاب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، وحاقَ بهمُ العذابُ: أحاطَ بهم، ونزل، وحاقَ

(1) الرّاغب، الأصفهانيّ، والفيروزاباديّ، القاموس: (شد).
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 659.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (أثر).
(4) الحميري، شمس العلوم: (الأثر).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (كسب).

بهِم الأمْرُ: لَزِمَهُم، ووَجَبَ عليهِم، ونَزَلَ، وبِه فُسِّرَ قَوْلُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وأحاقَ اللّٰهُ بهِم مَكْرَهُم: أحاطَ، قالَهُ اللَّيثُ، أو أنْزَلَه، قالَه ثَعْلَبٌ، وقالَ اللَّيْثُ: الحَيْقُ: ما يَشْتَمِلُ على الإنسانِ من مَكْروه فِعْلِه، من مَكْر، أو سوءِ عَمَلٍ يَعْمَله، فيَنْزِلُ بِهِ ذلِكَ[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أي: أحاطَ بهم جزاءُ استهزائهم[2].

6) ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: (هزأ): كلمةٌ واحدة، يُقال: هزِئَ واسْتهزَأ؛ إذا سخر[3]، والهُزْءُ: مَزْحٌ في خُفْية، وقد يقالُ لما هو كالمَزْح، فمِمّا قُصِدَ به المزحُ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ﴾ [المائدة: 58]، والاستهزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤِ، وإن كانَ قد يُعبَّرُ به عن تعاطي الهُزْء، كالاستجابةِ في كونِها ارتيادًا للإجابة، وإن كان قد يجري مجرَى الإجابة، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التّوبة: 65][4]، وقولُه تعالى: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: يسخرونَ من رُسُلِهم باستعجالِ العذاب[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّٰهُ تعالى عنِ الأُمَمِ المكذِّبةِ بالرُّسُلِ في قديم الدَّهر، وماذا حلَّ بهم من العذابِ الشَّديدِ، مع شدَّةِ قواهُم، وما أثَروه في الأرضِ، وجمعوه من الأموال، فما أغْنَى عنهم ذلك شيئًا، ولا ردَّ عنهم ذَرَّةً من بأسِ الله؛ وذلك لأنَّهم لَمّا جاءتهمُ الرُّسُلُ بالبيِّنات، والحُجَجِ القاطعات، لم يلتَفِتوا إليهم، ولا أقْبلوا عليهم، واستغنَوا بما عندهم من العِلْمِ في زعمِهم، عمّا جاءتْهم به الرُّسُل، فأحاطَ بهم ما كانوا يُكذِّبونَ، ويَستبعِدونَ وقوعَه من العذاب[6].

القوَّةُ والعلمُ بغيرِ إيمانٍ مَئِنَّةُ الطُّغيانِ، وهلاكِ النّاسِ والأوطانِ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 25/ 212.
(2) الرّاغب، المفردات: (حاق)، والرّازي، مختار الصّحاح: (حيق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (هزؤ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 423.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 79، 80.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآياتِ عن الآيةِ السّابقة:

مَـنْ يستهزئ بآياتِ الاستدلالِ والامْـتـنـان؛ يُصِبْه الوعيدُ بالخُسران

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، الآيتان تفريعٌ مساوقٌ للتَّفريعِ الَّذي قبلَه، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، فهو انتقالٌ عَقِبَ آياتِ الامتنانِ والاستدلالِ بنِعَمِ اللّهِ على وحدانيَّتِه ﷻ، وفي هذا الانتقالِ تذكيرٌ وتهديدٌ ووعيد، وهو يُشيرُ إلى أنَّهم إن لم يكونوا ممَّن تَزَعُهُمُ النِّعمُ عن كُفْرانِ مُسْديها، كشأنِ أهلِ النُّفوسِ اللَّئيمة، فَلْيضعوا أنفُسَهم، حيث يختارونَ من إحدى الخُطَّتَيْن[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾:

الإنكارُ على مَنْ يرى آياتِ الله، ويُصِرُّ مُستكبِرًا كأن لم يرها

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اسْتفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ تعجُّبيٌّ، وهو منصبٌّ على عدمِ النَّظرِ والاعتبارِ بما يرون من عواقب الأممِ المستأصلة[2]، فالسَّيْرُ المستَفْهَمُ عنه بالإنكارِ على تركِه هو سَيْرٌ تحصُلُ فيه آياتٌ ودلائلُ على وجودِ اللّه ووحدانيَّته، وهو تذكيرٌ وتهديدٌ ووعيدٌ لمن تمتَّعوا بنعَمِ اللّهِ ومنافعِها، وكفروا المُنعِمَ بها عليهم، وهو اللّهُ ﷻ، فكانوا من أصحابِ النُّفوسِ اللَّئيمةِ، الَّتي آثَرتِ النُّكرانَ والكُفرانَ على الشُّكرانِ والإيمان[3].

دلالة الفاءِ على الجملةِ المحذوفة:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ للتَّفريع؛ لوقوعِها بعدَ ما يصلُحُ لأن يُفرَّعَ عنه إنكارُ عدمِ النَّظرِ في عاقبةِ الَّذين من قبلِهم، بخلافِ نظيرِها الَّذي قبلَها؛ فقد وقعَ بعد إنذارِهم بيومِ الآزفة[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَسِيرُواْ﴾ و ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

تـجـدُّدُ سـفـرِ المشركين في بلادِ الأمـمِ السّالـفةِ الكافرة

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يَسِيرُواْ﴾ و﴿فَيَنظُرُواْ﴾؛ لتجدُّدِ سيرِهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 219.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 219.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 219.

واستمراره، فإنَّ هؤلاء المجادلينَ في آياتِ اللّهِ من مشركي قومِك يا محمَّدُ ﷺ هم في سفرٍ دائمٍ إلى الشّامِ واليمن، وهم ينظرون في عاقبةِ المكذِّبين قبلَهم، وهو دلالةٌ على ديمومةِ سيرِهم ونظرِهم، لكن دون جَدوى، أي: دون اعتبارٍ بما حلَّ بمَن قبلِهم من العذاب(1).

نُكْتَةُ تعديَةِ فعلِ السَّيْرِ بـ ﴿فِي﴾:

تحقُّقُ دخولِ المشركينَ في بلادِ الأممِ البائدة

تعديةُ فعلِ السَّيرِ بـ ﴿فِي﴾، في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإفادةِ دخولِهم في بلادِ الأممِ السّالفةِ دخولًا تامًّا مُتحقِّقًا، وليس مجرَّدَ عبورٍ عارضٍ لا يتحقَّقُ منه الاعتبارُ لمن أرادَه، وتفكَّرَ في أسبابِ ما أصابَ أهلَ هذه البلادِ، من دمارِ بيوتِهم ومصانعِهم، واستئصالِ شأفتِهم(2).

فائدةُ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

رؤيةُ المشركين لآثارِ الأممِ المكذِّبةِ في الأرضِ مُفضٍ إلى الإيمان

استعمالُ النَّظمِ الكريمِ للظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على رؤيةِ ما خلَّفوه من عظيمِ آثارِ قوَّةِ أبدانِهم وممالكِهم في المباني والأفعال، ممّا لا يقدرُ عليه كفّارُ قريشٍ والعربُ قاطبةً، فلم يُغْنِ عنهم كسبُهم ولا حالُهم ولا قوَّتُهم حين جاءهم عذابُ اللّهِ وأَخْذُه(3).

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

بيانُ تحديدِ الأرضِ المعهودةِ المعروفةِ لكفّارِ قريش

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للعَهد، أي: الأرضِ في نواحيها وأطرافِها وداخلِها الَّتي عُرِفَتْ بأصحابها القاطنين فيها، فيما مضَى من الزَّمان، من قوم هودٍ وصالحٍ ولوطٍ ﷺ، وقد كان مشركو قريشٍ يعرفونها في أسفارِهم، في رحلتَي الشِّتاءِ والصَّيفِ إلى الشّام واليمن، كما في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ [قريش: 1 - 2](4).

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 421، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 343.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 421، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 659.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 571.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 421، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 571.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة[1]، أي: السَّيرُ في أرضِ الأمم الهالكةِ سببٌ لنظرِ العِظَةِ والاعْتبارِ، بما حلَّ بهم وبأرضهم من الدَّمار[2].

دلالة قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾:

جملةُ: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به للفعلِ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ المضمَّنِ معنَى العِلْمِ المعلَّقِ بالاستفهام[3].

بلاغةُ الاستفهامِ في السّياق الرّائع الإحكام:

تحذيرُ المشركينَ مِن عاقبةِ المكذِّبين

قولُه تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ استفهامٌ تحذيريٌّ، أي: حتَّى يعتبروا بما يَرونَ من آثارِ عذابِهم، ودمارِ دورِهم، واستئصالِ شأفَتِهم؛ بسببِ مخالفتهم لأنبيائهم ورُسُلِهم، وحرصِهم على الدُّنيا ومَلذّاتِها، فينزجروا عنِ التَّكذيب، ويُصدِّقوا رسولَهم في دعوتِه إلى عقيدةِ التَّوحيد.

نُكْتَةُ تذكيرِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾:

كان عذابُ المكذِّبينَ أليمًا باعتبارِ عاقبة أمرهم الخاسرة

الفعلُ ﴿كَانَ﴾ في القرآنِ الكريمِ يفيدُ الاستمراريَّة، وهو هنا إشارةٌ إلى ما كان من عاقبةٍ لأولئك المكذِّبين الأقدمين، وقد جاء مُذكَّرًا؛ حملًا على معنَى ﴿عَٰقِبَةُ﴾، وهو العذاب، أي: العذابُ الَّذي أصابَ جميعَ الأممِ السّابقةِ المعاندةِ لأنبيائها ورُسُلِها على مرِّ الدُّهورِ وكرِّ العصور[4].

دلالة الاسمِ الموصولِ وصلته ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ

(1) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 524.
(3) الخرّاط، المجتبَى: 3/ 1114.
(4) السامرائي، معاني النَّحو: 2/ 65.

وصفُ المعاندين فيما حلَّ بهم من عقابِ الله المهين

﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ لوصفِ حالِ الَّذين عاندوا أنبياءَ اللّهِ ورُسُلَه، وكذّبوا دعوتَهم في عبادةِ اللّهِ وحدَه لا شريكَ له، في آخرِ أمرِهم، وهو العقابُ الَّذي نزلَ بساحتِهم واستأصلَهم[1]، وجملةُ صلةِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، لا محلَّ لها من الإعراب، أي: الَّذين من قبلِهم من الأُمَمِ المهلَكة[2].

دلالة الحرف ﴿مِن﴾ في السّياق:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ تنبيهٌ على ما تيسَّر ممّا يستطيعون رؤيتَه من آثارِ الأقدمين المُكذِّبين؛ وذلك أنَّهم لا يَقدِرونَ على استغراقِ نظرِ جميعِ الأرضِ وآثارِ جميعِ أهلِها[3].

فائدةُ ذِكرِ الظَّرفيَّةِ ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

التَّنبيهُ على قُرْبِ الزَّمانِ والمكان؛ لإبراز ما يُتاح من البيان

في ذكرِ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، تنبيهٌ على قربِ الزَّمانِ والمكان، لو أنَّهم ما كانوا معتمدين في مغالبةِ الرَّسولِ ﷺ ومجادلتِه بالباطلِ في الآياتِ الظّاهرةِ على كثرتِهم وقوَّتِهم، وقلَّةِ أصحابِه مع ضعفِهم[4].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾:

بيانُ ما كان عليه أسلافُهم من النِّعَمِ، ثمَّ ما حلَّ بهم من النِّقَم

قولُه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ مبادي أحوالِهم وعواقبِها[5]، وما كانوا عليه من الكثرةِ والقوَّةِ في مصانعِهم، واتِّخاذِهمُ من الجبالِ بيوتًا، ممّا تَشهد عليه آثارُهم الَّتي يراها المشركون، ويَرَون ما أصابهم لمّا استهزؤوا برسُلِ اللّهِ وأنبيائه، وعاندوهم، وآذَوهم، وآذَوا المؤمنينَ بهم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 125.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 343، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 524.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 125.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 125.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.

نُكْتَةُ دخولِ الفعلِ (كانَ):

دخولُ فعلِ الكَوْن في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على حدوثِ عاقبةِ المكذِّبين آخر أمرهم - لا محالة - وهو العذابُ الَّذي ألمَّ بهم عن بِكْرَةِ أبيهم، فلم يُبقِ منهم أحدًا أبدًا[1].

تحقُّق نزول العذاب بالمكذِّبين، أمرٌ محقَّق لا ريب فيه

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿أَكۡثَرَ﴾ و ﴿وَأَشَدَّ﴾:

كلمتا: ﴿أَكۡثَرَ﴾ و﴿وَأَشَدَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ﴾، الأولى: خبرٌ لـ ﴿كَانُوٓاْ﴾، والثّانية: معطوفةٌ على ﴿أَكۡثَرَ﴾[2]، ومُفادُ ذلك أنَّهم "كانوا أكثَرَ منهُم عددًا، وأشَدَّ قوَّةً في الأبدان والأموال، وأشدَّ آثارًا في الأرضِ، أي: تركوا آثارًا كثيرة بعدهم من الأبنية والقبور والمصانع، فكانوا أشدَّ منهم، وقيل: هي آثار أقدامهم في الأرض؛ لِعظَم أجرامهم"[3].

مقارنة الكثرة والشِّدَّة مفيدةٌ في الدَّلالة على المراد

معنَى حرف (مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

(مِنْ) في قوله: ﴿أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾ بيانيَّة، أي: أكثرَ عدَدًا بأضعافٍ مُضاعفةٍ من مشركي قريشٍ والعرب، ولا سيَّما قومَ نوحٍ ﷺ، وقوم هودٍ وصالحٍ ﷺ بنحت البيوت في الجبال، وبقوَّة أبدانهم، وعِظَم عقولهم واحْتيالهم، وما بَنَوا من المصانع لنجاتِهم حين جاءهم أمرُنا؛ بل كانوا كأمس الذّاهب[4].

بيانُ كثرة أعدادِهم دليلٌ على صدق المقارنة بين ماضٍ وحاضر

معنَى الواو في قوله: ﴿وَأَشَدَّ﴾:

الواوُ العاطفةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ﴾ أثبتت للأُمَم السّالفةِ الأشدّيَّةَ؛ مبالغةً وتأكيدًا لمضمونِ الخبر في أنَّه لا أمرَ لأحدٍ مع أمرِه ﷻ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 125.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 524.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 156.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 126، 127.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَأَشَدَّ﴾:

صيغةُ التَّفضيل مبالغةٌ في شدَّةِ القوَّة وعظمتها في أوانها

التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَأَشَدَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ بصيغةِ التَّفضيل، ضارَعَ المعرفةَ، في أنَّه لا تدخلُه الألفُ واللّام، فأُجريَ مجراها، فأفاد المبالغةَ في معنى القوَّةِ بإضافتِه إليها[1]، فقد "كان هؤلاء السّالفون أكثر قوَّة من قريش، وأبقى أثرًا في الأرض، وأكثرَ عددًا، فلم ينفعهم كلُّ ذلك، ولم يُغنِ عنهم شيئًا من بأس اللّٰه حينما جاءهم"[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿قُوَّةً﴾ في السّياق:

إثباتُ القوَّةِ للأممِ السّالفةِ وكثرتها، تعبيرٌ عن المراد المستفاد

في تنكيرِ لفظ ﴿قُوَّةً﴾ إثباتُ القوَّةِ وكثرتِها في المُكْنة بالمالِ والرِّجالِ والأبدانِ والسِّلاح، ولكنَّها لم تُغْنِ عنهم لَمّا كفروا بمَن وهبَهم هذه القوَّة، وخالفوا رُسُلَه، وكذَّبوهم، وقابلوهم بالإيذاء الشَّديد، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥﴾ [فصِّلت: 15][3].

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (القوَّة):

بـيـانُ ملـمح المبالغة في إثباتِ قوَّتِهم، وتأكيدِ أخذِهم بأمرِ الله

في ذِكْرِ لفظِ القوَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ كنايةٌ عن المبالغة، وذِكْرُها مضمومةً إلى الشِّدَّةِ تأكيدٌ لمضمونِ الخبر، في إعطائهم تلك القوَّة، وفي تأكيدِ أمرٍ آخر، وهو أنَّه لا أمرَ لأحدٍ مهما بلغ من القوَّةِ، مع أمرِ اللّٰهِ ﷻ[4].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَءَاثَارٗا﴾:

المبالغةُ في أنَّ آثارَهم الدّالَّةَ على قوَّتِهم، لم تُغنِ عنهم شيئًا

جاءتِ الواوُ العاطفةُ في قوله تعالى: ﴿وَءَاثَارٗا﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ وجودِ آثارٍ ظاهرةٍ في الأرض، للنَّظرِ بأعْيُنِ الاعتبارِ في الآثار، من المساكنِ والدّيار، لمن مضى من الأشرار، ولمّا أخبر عن كثرتهم

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 12/ 315.
(2) حومد، أيسر التّفاسير: 4094.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 126.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 126.

وقوَّتهم وآثارهم الدّالَّةِ على مُكْنتِهم؛ سبَّبَ عنه شرحَ حالِهم، الَّذي أدَّى إلى هلاكِهم واغتيالهم[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿وَءَاثَارًا﴾:

وجودُ آثارِ القومِ بكثرةٍ ومُكْنة، دليل على البأس والقوَّة

جاءَ تنكيرُ لفظ ﴿وَءَاثَارًا﴾؛ بيانًا لوجودِ هذه الآثارِ بكَثرة، ودليلًا واضحًا على مُكْنتهم، وأنَّها لم تكنْ لتكون؛ لولا ما أعطاهمُ اللّهُ من أسبابٍ وأدواتٍ ومعارفَ مكَّنَتْهم من إقامةِ تلك الدّورِ والمصانع[2].

فائدةُ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

الآثارُ القائمةُ في أرضِ الأممِ السّالفة، شاهدةٌ على ما أصابَهم

لَمّا كانت آثارُهم مَرئيَّةً، بنحتِ البيوتِ في الجبالِ، وبناءِ المصانعِ والقِلاعِ والمدائن الحصينة، وكلُّ ذلك في أرضِهم الَّتي كانوا يعيشون عليها، وهي معروفةٌ لقريشٍ والعرب؛ عبَّر عن ذلك كلِّه بقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3].

معنَى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الأرضُ المعهودةُ للأقوامِ السّابقين أثرٌ لما شهدته حضارتهم

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد، أي: الأرضِ الَّتي أنتم تعرفونَ مكانَها، وتسافرونَ إليها، وترَوْنَها، وآثار القومِ فيها باديةٌ ظاهرة، قوله: ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: كانوا أظهر منهم في العمران والحضارة والغنى[4]، والآثارُ الباقية دالَّةٌ على التَّفوُّق والقوَّة.

موقعُ (ما) في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾:

نفيُ الإغناءِ أو الاستفهامُ عنه مفيدٌ في الدّلالة عن المراد

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ نافيةٌ شرطيَّة، أو استفهاميَّةٌ في معنى النَّفي، منصوبةٌ بـ﴿أَغْنَىٰ﴾[5]، أي: "حين جاءهم أمرُ اللّه، فلم تغنِ عنهم قوَّتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصَّنوا بحصونهم"[6].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 659.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 315.
(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 12/ 316.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 276.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 743.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ في السّياق:

كـثرةُ الـنِّـعَـم لا تـدفـعُ عـنِ الكافرين النِّقَم

﴿أَغۡنَىٰ﴾ مشتقٌّ من الفعل (غَنِيَ)، يقالُ: غَنَيْتُ بكذا غِنْيانًا وغِناءً، واستَغنيْتُ وتَغَنَّيْتُ، وتَغانَيْتُ، قال تعالى: ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦﴾ [التّغابن: 6]، وأغناني كذا، وأغنَى عنه كذا: كفاه، قال تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ [الحاقّة: 28]، وغَنَى في مكانِ كذا؛ إذا طالَ مقامُه فيه مُستغنيًا به عن غيرِه بغنًى، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ [الأعراف: 92][1]، و﴿أَغۡنَىٰ﴾ صيغةُ تفضيل[2]، وهي هنا في سياقِ النَّفي في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، يعني: (أيّ شيءٍ أغْنَى عنهم مَكسوبُهم أو كَسْبُهم)[3]، أي: لم يُغْنِ عنهم، فلم تنفعْهم، أو تكفِهم كثرةُ أعدادِهم وأموالِهم وقوَّتِهم من شيءٍ؛ لّمّا كفروا بآياتِ اللّه، وحادّوا اللّهَ ورُسُلَه[4].

نُكْتَةُ تعديةِ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ بالحرف (عن):

عدمُ نفعِ القوّةِ مع عذابِ الله، دليلٌ على مطلق قدرة الله

لّمّا أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن كثرةِ السّالفينَ الكافرين، وقوَّتِهم وآثارِهم الدّالةِ على مُكْنَتِهم؛ سبَّبَ عنه شرحُ حالِهم الَّذي أدَّى إلى هلاكِهم واغتيالِهم، فقال معبِّرًا عن عدمِ كفايةِ ذلك كلِّه في ردِّ عذابِ اللّه، وأمرِ اللّه لجنودِه في الأرضِ والسَّماء بأخذِهم واستئصالِ شأفتِهم، بتعديةِ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ بـ (عن) المفيدة للمجاوزة الحقيقية[5]، دون غيرِها من الحروف الَّتي لا تُحيطُ بذلك المعنَى العميقِ والمشهدِ الدَّقيقِ[6].

دلالة الأداة الموصولة ﴿مَّا﴾ وصلتها:

ما أغْنَى عنِ الكافرين كسبُهم الَّذي حازوه

﴿مَّآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، موصولةٌ بمعنَى

(1) الرّاغب، المفردات: (غنى).
(2) الأشمونيّ، شرح ألفيَّة ابن مالك: 2/ 300.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.
(5) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.

(الَّذي) في محلِّ رفع فاعل[1]، أي: الَّذي كانوا يكسبون، أو مصدريَّةٌ مرفوعة، يعني: (أيّ شيءٍ أغنَى عنهم مكسوبُهم أو كسْبُهم)[2]، وجملةُ ﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ صلةُ الموصول، لا محلَّ لها من الإعراب.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ الفعل ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

جلبُ المنفعةِ مع الكفرِ جلبٌ للمضرَّة الأكيدة

الكَسْبُ: تحرّي ما فيه جلبُ نفعٍ وتحصيلُ حظٍّ، وقد يكونُ ما يظنُّه الإنسانُ منفعة، فإذا به مضرَّة[3]، وهكذا كان حالُ الأُمم السّالفة، فقد كانوا مستمرّين على إعمارِ دنياهم بإشادةِ البُنيانِ، والتَّعالي بقوَّتِهم، وعدمِ الإيمان بدعوةِ رُسُلِهم لعبادة الأحدِ الدَّيّان، فأهلَكهمُ اللهُ، ولم يُبقِ منهم أحدًا، ومُفادُ ذلك أنَّه "كان مَن قبلهم أكثرَ منهم عددًا، وأشدَّ منهم قوَّةً وآثارًا في الأرض، فما دفع عنهم عذابَ الله ما كسبوه من مال أو قوَّة أو سلطان"[4].

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ الكَسْب:

حَذْفُ المتأخِّر لدلالةِ المتقدِّم عليه مفيدٌ في البيان المراد

حُذِفَ مفعولُ الكَسْبِ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ لدلالة ما تقدَّمَ عليه، أي: ما كانوا يكسبونَ من كثرتِهم وقوَّتِهم وآثارِهمُ الدّالَّةِ على مُكْنتِهم، والَّذي أدَّى إلى هلاكِهم واغتيالِهم[5]، أي: إنَّ هؤلاءِ الغابرين، عند ما حلَّ بهم عذابُنا، لم تُغْنِ عنهم شيئًا كثرتُهم أو قوَّتُهم أو أموالُهم، بل أخذناهم أخْذَ عزيز مقتدر في زمنٍ يسيرٍ[6].

بلاغةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ مع الآية (21) من هذه السّورة:

إنكارٌ وتوبيخٌ لمن يرى دلائلَ إهلاكِ المُكذِّبين فلا يعتبر

في هذه الآية تشابهٌ لفظيٌّ شديدُ الصِّلةِ، في بعضِ الجوانب مع الآية (21) من نفس السّورة، في قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ

(1) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 182.
(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب: 704.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 316.

﴿مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾ [غافر: 21]، وهذا التَّشابهُ في أمور عديدة، **أوّلُها:** أنَّ السَّيْرَ المستفهَمَ عنه في الآيتَيْن هو سيرٌ تحصُلُ فيه آياتٌ ودلائلُ على وجودِ اللّهِ ووحدانيَّته، وفيها تذكيرٌ بعبرةِ آثارِ الأُمَمِ الَّتي استأصلَها اللّهُ تعالى لـمّا كذَّبتْ رُسُلَه، وجحدَتْ آياتِه ونِعَمَه. **ثانيها**: تكريرُ الإنكار في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ [غافر: 21]، وهو إنكارٌ محمَّلٌ ممزوج بالتَّقريعِ والتَّوبيخ. **ثالثُها**: جاءَ الانتقالُ عَقِبَ آياتِ الإنذارِ والتَّهديد، وكان الانتقالُ هنا عقِبَ آياتِ الامتنانِ والاستدلال، وفي كلا الانتقالَيْن تذكيرٌ وتهديدٌ ووعيد، وهو يشيرُ في كلا الحالَيْنِ إلى أنَّهم إنْ لم يكونوا ممَّن تَزَعُهُمُ النِّعمُ عن كُفرانِ مُسْديها، كشأنِ أهلِ النُّفوسِ الكريمة؛ فليكونوا ممَّن يَردَعُهمُ الخوفُ من البَطْشِ، كشأنِ أهلِ النُّفوسِ اللَّئيمة، فَلْيَضَعوا أنفُسَهم حيثُ يختارون من إحدى الخُطَّتَيْن. **رابعُها**: في كلتا الآيتَيْنِ بيانٌ لما ارتكزَ عليه الكفّارُ والمكذِّبونَ لدعوةِ الرُّسُلِ من كثرتِهم وشدَّةِ مُكْنتهم، وحَذاقتِهم في إشادةِ أبنيتِهم، ممّا تشهدُ له آثارُهم؛ ليكونَ عِبرةً وعظةً لمن بعدَهم، حيث لم يُغْنِ عنهم ذلك في ردِّ عذابِ اللّهِ، حينما نزلَ بساحتِهم. **خامسُها**: جاء العطفُ في الآيةِ الثّانية مخالفًا للآية (21)؛ إذ العطفُ في جملة: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ بالفاءِ للتَّفريع، لوقوعِها بعد ما يصلُحُ لأن يُفرَّعَ عنه إنكارُ عدمِ النَّظرِ في عاقبةِ الَّذين من قبلِهم بخلافِ نظيرِها، فقد وقعَ بعد إنذارِهم بيومِ الآزفة[1].

دلالة الأداة (لَمّا) في السّياق المُحْكم:

في (لَمّا) معنَى التَّوقيت، وقد أفادتْ معنًى: أنَّ اللّهَ لم يُغيِّر ما بهم من النِّعَمِ العُظْمَى، حتَّى كذَّبوا رُسُلَه، فاستحقُّوا عقابَ الإهلاكِ والاستئصال[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

لَمّا كانتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ الآية، مفرَّعةً على جملة: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾ الآية، الَّتي أخبرَتْ أنَّ كثرتَهم وقوَّتَهم وآثارَهم الدّالَّةَ على مُكْنتهم سبَّبتْ عنه شرحَ حالِهم في تكذيبِ رُسُلِهم، الَّذي أدَّى إلى هلاكِهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 219، 220.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 220.

لَمّا اغترَّ المكذِّبونَ بقوَّتِهم، فكذَّبوا رُسُلَهم؛ أهلكَهُم الله

واغتيالِهم؛ جاء جوابُ (لَمّا) الشَّرطيَّة، مبيِّنًا أنَّ الَّذين أرسَلْناهم إليهم - وهم منهم - يعرفون صِدقَهم وأمانتَهم بالبيِّناتِ الدّالَّةِ على صِدقِهم - لا محالة - فرحوا، أي: القومُ الموصوفون بما عندهم من العلم من نحتِ البيوتِ في الجبال، وجَرِّ الأثقال، وهندسةِ الأبنية، وإرصادِ الكواكبِ لأجلِ معرفةِ أحوالِ المعاش، وغيرِ ذلك من ظواهرِ العلومِ المؤدّيةِ إلى التَّفاخرِ والتَّعاظمِ والتَّكاثر، وقوفًا مع الوهم من علم ظاهرِ الحياةِ الدُّنيا، وقناعةً بالفاني، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الرّوم: 7]، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ [الزُّمر: 49]، وكان ذلك كلُّه مع استهزائهم بالرُّسُلِ ودعوتِهم سببًا في هلاكِهم واستئصالهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيء في السّياق:

حكمةُ اللهِ أن يكون الرُّسُلُ مُصطَفَينَ من اللهِ من نفسِ أُمَمِهم

دلَّ فعلُ المجيء في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ على أنَّ الرُّسلَ كانت تأتي من بين ظهرانيهم، بأمرِ اللّهِ واصطفائه لهم، فهُم منهم، ويعرفونَهم بأشخاصِهم، ويعرفون صِدقَهم وأمانتَهم، كما في قولِه تعالى: ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: 21]، وقولِه تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: 61]، وقولِه تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [هود: 84][2].

نُكْتَةُ إضافةِ الرُّسلِ إلى الضَّميرِ (هم):

الرُّسلُ من أقوامِهم بمكانٍ، خُلُقًا وشرفًا وأمانةً

إضافةُ الرُّسُلِ إلى ضميرِهم، في قولِه تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الَّذين أرسلْناهم إليهم، هم يعرفونَ صِدقَهم - لا محالة - وفي ذلك إقامةُ الحُجَّةِ عليهم؛ إذ كيف يُكذِّبون من كانوا على يقينٍ من صِدقِه؟[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 128، 129.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.

معنَى الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

يجيء الرُّسُلُ ومعهُمُ المعجزات؛ لإبلاغ المخاطَبين بالآيات

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للمصاحبةِ[1]، أو للملابسة[2]، أي: جاءَتْهم رسُلُهم مُصْطحِبينَ معهم البيِّناتِ، مؤيَّدين بها من اللّهِ تعالى، أي: المعجزاتِ الواضحةِ الدّالَّةِ على صِدقِهم وأمانتِهم[3]، "من الكتب الإلهيَّة، والخوارق العظيمة، والعلم النّافع المبين للهدى من الضَّلال، والحقِّ من الباطل"[4].

دلالة (أل) في لفظ (البيِّنات):

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: (البيِّناتِ) للعَهد، أي: البيِّنات الَّتي عُهِدَ تأييدُ الأنبياء والرُّسُلِ بها، ممّا وردَ ذكرُها في كتابِ اللّهِ وسُنَّةِ رسولِ اللّه ﷺ.

دلالة شبه الجملة: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

كون الجملة حالًا أو صفةً مبين في دلالته عن المُراد

قولُه تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، متعلِّقانِ بالفعل ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾، وهي في محلِّ نصب حال، أي: جاءَتْهم رسُلُهم حالَ كونِهم مؤيَّدينَ أو مصحوبينَ بالمعجزات[5]، ويمكنُ أن تكونَ صفةً لموصوفٍ محذوف، تقديرُه: بالآياتِ البيِّنات.

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ بالفرح:

بيانُ حال ازدهاء المكذِّبينَ، بإعراضِهم عن دعوةِ الرُّسُلِ الأكرمين

الفَرحُ في قولِه تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ مُكنًّى به عن آثارِه، وهي الازدهاء[6]، أي: أظهروا الفرحَ بذلك، وهو ما لهم من العقائدِ الزّائغةِ والشُّبهِ الدّاحضة[7]، فهو كناية عن تمسُّكِهم بما هم عليه، فالمعنَى: أنَّهم جادلوا الرُّسُلَ، وكابَروا الأدلَّةَ، وأعرضوا

(1) ابن عثيمين، شرح ألفيَّة ابن مالك: 6/ 41.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 743.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 525.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 287.

عنِ النَّظر، وما عندهم من العلم هو معتقداتهم الموروثة عن أهل الضَّلالة من أسلافهم[1].

بلاغةُ فنِّ التَّهكُّم في السّياق المحكم:

المخاطَبة بلفظ الإجلال في موضع التَّحقير، هو غاية الاستهزاء والازدراء

في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ الآية، فنُّ التَّهكُّم، وهو في اصطلاح البيانيّين: الاستهزاء والسُّخرية من المتكبِّرين؛ لمخاطَبتهم بلفظ الإجلال في موضع التَّحقير، والبشارة في موضع التَّحذير، والوعد في موضع الوعيد، والعلم في موضع الجهل؛ تهاونًا من القائل بالمقول له واستهزاءً به[2]، قال الزَّمخشريُّ: "أراد العِلْم الوارد على طريق التَّهكُّم في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النَّمل: 66]، وعلمهم في الآخرة أنَّهم كانوا يقولون: (لا نُبعث، ولا نُعذَّب)، وكانوا يفرحون بذلك، ويدفعون به البيِّنات، وعلمَ الأنبياء"[3].

معنَى الباء في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾:

فَرَحُ الضّالّينَ بسبب ما ورثوه من معتقداتٍ باطلة دليلٌ على سفههم

الباءُ في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ للسَّببيَّة، أي: فرحوا بسببِ ما عندَهم من العلم بمعتقداتِهمُ الموروثةِ عن أهلِ الضَّلالةِ من أسلافِهم[4]، والمقصود هنا "فَرِحوا بِما عِندَهُم مِنَ العِلْم، أي: الخالي عن نور الهداية والوحي، ورَضوا بها عن قبول هداية الرُّسل ومعارفهم، واستهزؤوا برسلهم؛ لاستصغارهم بما جاؤوا به، في جنب ما عندهم من العلم الوهميِّ"[5].

معنَى (ما) وموقعُ الجملة بعدها:

بيانُ أنَّ جملة الصِّلة مزيلةٌ للإبهام، مبينةٌ عن المراد

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنَى

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 526.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 182.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 24/ 221.

(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 322.

(الَّذي)، تُفيدُ المبالغةَ في وصفِ ما انطوتْ عليه نفوسُهم من الكِبر؛ إذ اعتقدوا أنَّ ما يقومون به من أعمالِ البناء واتِّخاذ المصانع، وما امتلكوه من قوَّةٍ إنَّما هو العلمُ الحقيقيُّ، وليس لهم في حياتِهم من غرضٍ إلَّا التَّفاخرُ والتَّعالي بما هم عليه، دونَ إسنادِه إلى اللّهِ المنعِم عليهم بذلك كلِّه، والجملةُ بعدَه صلةُ الموصولِ، لا محلَّ لها من الإعراب[1].

فائدةُ الظَّرفيَّة بشبه الجملة ﴿عِندَهُم﴾:

العلمُ القائمُ على الكفرِ أو التَّفاخرِ هالكٌ أصحابُه لا محالة

أفادتِ الظَّرفيَّةُ في قوله تعالى: ﴿عِندَهُم﴾ مُلكيَّةَ ما ورثوه عمَّنْ سبقهم في الكفر من معتقداتٍ باطلةٍ ساروا على نَهْجِها فرحين[2]، أو ما حازوه من هندسة الأبنية، وإنباطِ المياه، وجَرِّ الأثقالِ، ومعرفةِ الأقاليم، وإرصادِ الكواكبِ، لأجلِ معرفةِ أحوالِ المعاش[3].

معنَى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بمعنَى بَدَل، أي: بما عندهم من الدُّنيا بدَل العِلْم[4]، ويجوزُ أن تكون للتَّبيين، أي: ما هم عليه من مهارةِ البناءِ والقوَّةِ وغيرِ ذلك هو العلمُ.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾:

العلمُ عندهم علمُ الضَّلالِ الَّذي عهدوه عمَّن قبلَهم

(أل) في ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾ للعهد، أي: ما عهدوه من علمٍ نقلوه، أو توارثوه عنِ الأُمم السّابقة، وهو العلمُ القائمُ على الكفرِ والضَّلال، أو أنَّ المراد به العلمُ الَّذي أثْرَوا به تلكَ الآثارَ الدّالَّةَ على مُكْنتهم وشِدَّةِ قوَّتِهم، في نحتِهم من الجبال بيوتًا لهم، واتِّخاذِهمُ المصانعَ، وغيرِ ذلك من ظواهرِ العلوم المؤدّيةِ إلى التَّفاخُرِ والتَّعاظُم والتَّكاثر، وقوفًا مع الوهم، وإنكارًا للعلم الحقيقيِّ، والإيمانِ باللّهِ والبعثِ بعد الموت، فآثروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقية[5].

(1) الخرّاط، المجتبى: 3/ 1115.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.
(4) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 503.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 128.

نُكْتَةُ إسنادِ العِلْمِ لهم وفَرَحِهم به:

التَّهكُّمُ بهم في إثباتِ جهلِهم، من البيان المفصح عن الدَّلالة

في ظاهرِ قوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، إيهامٌ بأنَّهم أهلُ علم، وأنَّهم فرحونَ بما عندهم منه، وليس الأمر كذلك، إنَّما هو أسلوبُ القرآنِ الكريم هنا في التَّهكُّمِ بهم، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النَّمل: 66]، وعلمُهم في الآخرة أنَّهم كانوا يقولون: لا نُبعَثُ، ولا نُعذَّب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصّلت: 50]، وكانوا يفرحون بذلك، ويدفعون به البيِّناتِ وعلمَ الأنبياء، كما قال : ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الرّوم: 32]، ويجوزُ أن يوضعَ قولُه: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ - ولا علمَ عندهمُ البتَّةَ - موضعَ قوله: (لم يفرحوا بما جاءهم من العلم)؛ مبالغةً في نَفْيِ فرحِهم بالوحيِ الموجبِ لأقْصَى الفرحِ والمسرَّةِ، مع تهكُّمٍ بفرْطِ جهلِهم، وخلوِّهم من العلماء[1].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ عاطفة، للمبالغةِ في إحاطةِ العذابِ بهم على وجهِ الشِّدَّة، أي: أتيناهم بما أزالَ فرحَهم، وأطَلْنا غمَّهم وترَحَهم، وأحطْنا العذابَ بهم، فلا مفرَّ لهم[2].

دلالةُ التَّعبير بلفظ (حاقَ) في السّياق:

تحقُّقُ إحاطةِ العذاب بالمكذِّبين دونَ مَفَرٍّ لهم من الحال المهين

حاقَ بهم: أحاط، يقال: حاقَ يَحيقُ حَيْقًا؛ إذا أحاط، وقولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: نزلَ العذابُ مُحيطًا بهم إحاطةَ السِّوارِ بالمِعْصَم، لا مَفرَّ لهم منه، وجاءتْ صيغةُ الماضي في الفعلِ (حاقَ)؛ للدَّلالة على تحقُّقِ إحاطةِ العذابِ بهم، وإصابتِه لهم دون خروجِهم منه[3].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 128.
(3) الرّاغب، المفردات: (حاق)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

شدَّةُ تكذيبِهم، لم تَدَعْ لهم مخرجًا من الحالِ المأزوم، والمصيرِ المحتوم

قولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ مستعارٌ للشِّدَّةِ الَّتي لا تَنْفيسَ بها؛ لأنَّ المحيطَ بشيءٍ لا يدعُ له مَفْرَجًا[1]، ذلك أنَّهم "لم يلتفتوا إلى الرُّسل، ولم يأخذوا بما أتَوْهم به، واستَغنَوا عمّا جاءهم به الرُّسلُ، بما عندهم من العقائد الزّائفة، والشُّبه الدّاحضة، وهم يظنّونها عِلْمًا نافعًا، ففرحوا بها، فنزل بهم عذابُ اللّه، وأحاط بهم من كلِّ جانب، وهذا العذاب هو ما كانوا يسخرون منه، ويستهزِئون به"[2].

دلالة (الباء) في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿بِهِم﴾ للإلصاق الحقيقيِّ[3]، أي: حاقَ بالكافرين جزاءُ جهلِهم واستهزائهم[4]، أو حاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَسْتَهزِئونَ من الجزاءِ والعقابِ[5].

نُكْتَةُ تعديةِ (حاقَ) بالباء:

ملابسةُ العذابِ للأُممِ حتَّى تمامِ إهلاكِهم، قدرٌ لا مَفرَّ منه

عدَّى النَّظمُ الكريمُ الفعلَ (حاقَ) بالباء في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ لملابسةِ إحاطةِ العذابِ على وجهِ الشِّدَّةِ بأشخاصِهم وأجسادِهم، فلم يغادرْهم حتَّى استأصلَهم، فأصبحوا أثَرًا بعد عَيْنٍ، هم وما كانوا يتفاخرونَ به من مصانعِهم وأبنيتِهم ومُكْنتِهم[6].

سرُّ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿بِهِم﴾:

تقدُّمُ شِبْهِ الجملةِ ﴿بِهِم﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى وجهِ الشِّدَّةِ في العذابِ الَّذي أحاطَ بهم، وعظَمةِ الأَخْذِ الَّذي استأصلَ شأفتَهم[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(2) حومد، أيسر التفاسير، ص: 4095.
(3) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 440.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 17/ 128.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 17/ 128.

المبـالـغـةُ في شـــدَّةِ عــذابِ المسـتـهـزئـين، مفيدٌ لبيان المراد

دلالةُ ﴿مَّا﴾، وأثرُ موقعِ الجملة بعدَها:

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ اسْمُ الموصول، وهو فاعلُ الفعل (حاقَ)؛ وذلك للمبالغة في بيانِ شدَّةِ ما أحاط بهم من العذابِ جزاءَ استهزائهم[1]، والجملةُ بعده صلةُ الموصولِ لامحلَّ لها مِن الإعراب[2].

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكَون ﴿كَانُواْ﴾:

في دخولِ فعلِ الكَون في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الاستهزاءَ بوعيدِ الرُّسُلِ كان طبيعة وديدنًا لهم، واسْتدراجًا لإيقاعِ العذابِ بهم والاسْتئصال[3].

دلالة حرف الباء في ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

توَعُّدُهم بسببِ اسـتـهـزائـهـم تـأكـيـدٌ لـسوء عاقبتِهم

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ للإلصاق المعنويِّ[4]، أي: حاق بهم العذابُ الذي كانوا به يستهزئون؛ لأنَّهم كانوا في الدُّنيا يستهزئون؛ إذا خوِّفوا بعذاب اللّه، ويقولون: متى هذا الوعد؟[5] أو: حلَّ، ونزل، وأصابهم ما كانوا يستهزئون به ممّا جاءتهم به رسلُهم[6].

نُكْتَةُ تقديم ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

خطورةُ استهزاءِ الأُمـــمِ بـالـحـقِّ اليقين، جعلَ ما دونه كالعدَم

لَمّا كان استهزاؤهم بالحقِّ عظيمًا جدًّا؛ عدَّ استهزاءهم بغيره عَدَمًا، وأشارَ إلى ذلك بتقديم الجارِّ والمجرور؛ لإفادة الحصر، فقال: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[7].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

هَزَأ وهزِئَ يَهزَأُ هُزْءًا وهُزُؤًا واستهزأ: سَخِرَ، والهُزْءُ: السُّخرية،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 17/ 128.
(2) درويش، إعراب القرآن: 8/ 525.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(4) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(5) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 223.
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: 1/ 475.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 128.

والاستهزاءُ: ارتيادُ الهُزْءِ[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ الأُمَمَ كانت تسخرُ من رُسُلِ اللّهِ في دعوتِهم إلى عبادةِ اللّهِ وحده، والتزامِ شريعته تعالى، وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أي: نزل بهم عقوبةُ استخفافهم بالحقِّ، وتعظيمهم واغتباطهم بالباطل[2]، والإتيانُ بالفعلِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ مضارعً لإفادة تكرار استهزائهم.

تكرارُ سُخريةِ الأُمَمِ من رُسُلِها، تأكيدٌ لاستفحال الظّاهرة

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الفَرَحُ والمَرَح والسُّرور والحُبور:

الفَرَحُ: انشراحُ الصَّدرِ بلذَّةٍ عاجلة، وأكثرُ ما يكونُ ذلك في اللَّذّاتِ البدنيَّةِ الدُّنيويَّة، فلهذا قال تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: 23]، والفَرَحُ قد يكون بحقِّه، فيُحمَدُ عليه.

المَرَحُ شدَّةُ الفرحِ، ولا يكون إلّا بالباطل، والسُّرورُ فَرَحٌ بنَفع، والحُبورُ أشَدُّه

والمَرَحُ: شدَّةُ الفرحِ والتَّوسُّعُ فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ [الإسراء: 37][3]، والمَرحُ لا يكونُ إلّا بالباطل، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ [غافر: 75]؛ إذ قيَّد الأوَّل، وأطلقَ الثّاني.

والسُّرور: ما ينكتِمُ من الفرح، قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١﴾ [الإنسان: 11]، وقال في أهلِ النّار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾ [الانشقاق: 13] تنبيهٌ على أنَّ سرورَ الآخرةِ يُضادُّ سرورَ الدُّنيا، والسُّرورُ لا يكونُ إلّا بما هو نفعٌ أو لذَّةٌ على الحقيقة، وقد يكونُ الفرحُ بما ليس بنفعٍ ولا لذَّة، كفرحِ الصَّبيِّ بما يُتعبُه، ويُؤذيه، ولا يُسمَّى ذلك سرورًا، ونقيضُ السُّرورِ الحُزْنُ الَّذي يكون بالمَرازي، ونقيضُ الفرحِ الغمُّ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (هزأ).
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 157.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 492، 493، والرّاغب، المفردات: (فرح) و(مرح).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 277، والرّاغب، المفردات: (سرر).

والحُبور من الحِبْر: وهو الأَثَرُ المُستَحْسن، ويعبَّرُ به عن لونِ الإنسانِ وهيئته، ويُطلَقُ على الجمالِ والبهاءِ وأثَرِ النِّعمة، والحُبورُ: السُّرورُ الَّذي يظهرُ في الوجه أثرُه، وحَبَرَهُ يَحْبُرُهُ: سرَّهُ يَسُرُّه، ويقال: حَبْرَةً بالفتح، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الرّوم: 15]، أي: يُسَرّون، ويُنعَّمون، ويُكرَمون، ويفرحونَ حتَّى يظهرَ عليهم حِبارُ نعيمهم، أي: أثرُ نعيمِهم، والحُبورُ: أشدُّ السُّرور، ولذا خاطبَ اللّهُ سبحانه أهلَ الجنَّةِ بقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزُّخرف: 70][1].

الكَسْبُ والكَدْح والعَمل والفعل والصُّنع:

الكدحُ أخصُّ من الكَسْب، والصُّنعُ أخصُّ من الفعلِ والعمل، والفعلُ أعمُّ، والعملُ أوسطُهما

الكَسْبُ: الفعلُ العائدُ على فاعلِه بنفعٍ أو ضرٍّ، أو هو ما وقعَ بمِراسٍ وعِلاج، أو هو ما فُعِلَ بجارحة.

والكَدْحُ: الكَسْبُ المُؤثِّرُ في الخِلال، قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق: 6]، وفلانٌ يكدحُ لدُنياه، ويَكدحُ لآخرتِه، أي: يجتهدُ لذلك[2].

والعملُ: كلُّ فعلٍ يكونُ من الحيوانِ بقصد، فهو أخصُّ من الفعل؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصد، وقد يُنسبُ إلى الجمادات، والعملُ قلَّما يُنسَب إلى ذلك، والعملُ يُستعمَلُ في الأعمالِ الصّالحةِ والسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 277]، وقال سبحانه: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: 123]، وأصلُ العملِ في اللُّغة: الدُّؤوب[3].

والفعلُ: التَّأثيرُ من جهةِ مؤثِّرٍ يكونُ عن سبب، وهو عامٌّ لما كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادة، ولما كان بعلمٍ أو غيرِ علم، وقصدٍ أو غيرِ قصد، ولما كانَ من الإنسانِ والحيوانِ والجمادات.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 277، والرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (حبر).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 449، 453، والرّاغب، المفردات: (كسب) و(كدح).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 377، والرّاغب، المفردات: (عمل).

والصَّنعُ أخصُّ من العملِ والفعل، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 197][1]، والصُّنعُ: إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنعٍ فِعل، وليس كلُّ فعلٍ صُنعًا، ولا يُنسَب إلى الحيواناتِ والجمادات، كما يُنسَبُ إليها الفعلُ، قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النّمل: 88]، وقال سبحانه: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 38]، والصُّنعُ: ترتيبُ العملِ وإحكامُه على ما تقدَّمَ العِلْمُ به، وبما يوصِلُ إلى المرادِ منه، ولذلك قيلَ للنَّجّارِ: صانع، ولا يقالُ للتّاجرِ: صانعٌ؛ لأنَّ النَّجّار قد سبقَ علمُه بما يريدُ عملَه من سريرٍ أو باب، وبالأسبابِ الَّتي توصِلُ إلى المرادِ من ذلك، والصُّنعُ مضمَّنٌ بالجَوْدَة، ولهذا يقال: ثوبٌ صَنيع، وفلانٌ صنيعةُ فلانٍ؛ إذا استخصَّه على غيرِه، وصنعَ اللّهُ لفلان، أي: أحسَنَ إليه، وكلُّ ذلك كالفعلِ الجيِّد[2].

والصَّنعُ يكونُ بلا فكرٍ؛ لشرفِ فاعلِه، والفعلُ يكون بلا فكرٍ لنقصِ فاعله، والعملُ لا يكونُ إلّا بفكرٍ لتوسُّطِ فاعلِه، فالصُّنعُ أخصُّ المعاني الثَّلاثة، والفعلُ أعمُّها، والعملُ أوسطُها، فكلُّ صُنعٍ عمل، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعل، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[3].

(أحاطَ) و(حاقَ):

أحاطَ أعمُّ من حاقَ، وفي (حاقَ) خصوصُ النُّزولِ والإصابة

حَوَطَ يَحوطُ حَوْطًا، والحَوْطُ من حاطَه حَوطًا، والحَوْطُ: شيءٌ مستديرٌ تُعلِّقُهُ المرأةُ على جبينِها من فضَّة، والحائطُ: الجدارُ الَّذي يَحوطُ بالمكان، والإحاطةُ تقالُ على وجهَيْن، أحدهما: في الأجسام، نحو: أحَطْتُ بمكان كذا، أو تُستعملُ في الحفظِ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصّلت: 54]، أي: حافظٌ له من جميعِ جهاته، وتُستعمَلُ في المَنعِ نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66]، أي: إلّا أن تُمنَعوا،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 80، والرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 321، 322، والرّاغب، المفردات: (صنع).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 322، 323.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: 81] هو من بابِ الاستعارة، والحوْقُ يقرُب من الحَوْط[1]. والثّاني: في العلم، نحو قولِه تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطَّلاق: 12]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾ [آل عمران: 120]، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود: 84][2].

وحاقَ به الشَّيءُ: أحاطَ به، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، أي: لا ينزلُ، ولا يُصيب[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوط) و(حوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوط)، والرّاغب، المفردات: (حيط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوق)، والرّاغب، المفردات: (حاق).

﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [غافر: 84 - 85]

❁ مُناسَبةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لَمّا اعتدَّ الكفّارُ بقوَّتِهم، واستهزؤوا برُسُلِهم، لم يُقبَلْ إيمانُهم عند نزول العذاب

لَمّا ثبتَ عنادُ الأُممِ وغِلظتُهم، وقوَّتُهم في لَدَدِهم واشتدادِهم، ومقابلةُ رُسُلِهم بالاستهزاءِ والمناكفةِ عن قَبولِ الحقِّ في عبادةِ اللهِ وحدَه دون سواه؛ حاقَ بهمُ العذابُ الَّذي لا مفرَّ منه، قال تعالى مبيِّنًا لما أجملَ من الحَيِّق مُسبَّبًا عنه، لافتًا القولَ إلى مظهرِ العظَمةِ ترهيبًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾، أي: عايَنوا عذابَنا الشَّديدَ على ما له من مجامعِ العظَمة، ومعاقدِ العِزِّ ونفوذِ الكلمة، كما ظهرَ في هذا البأسِ من غيرِ إشكالٍ ولا إلباس، وأكَّدوا ذلك، نافينَ لما كانوا فيه من الشِّرك، بقولِهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾، وزاد تأكيدُهم بقولهم: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾، ولَمّا كان الكفرُ بالغيبِ سببًا لعدمِ قبولِ الإيمانِ عند الشَّهادة، قال: ﴿فَلَمۡ يَكُ﴾ يصحُّ، أو يُقبَلُ إيمانُهم عند الإلجاءِ والاضطرار، وهي سنَّةُ اللهِ الَّتي خلتْ في عبادِه الَّذين كذَّبوا رُسُلَه، وخسرَ الكافرونَ، وتحقَّقَ هلاكُهم حينَئذٍ، ولاتَ ساعةَ مندَمٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَأۡسَنَا﴾: بَئِسَ بُؤْسًا، فهو بائِسٌ، وقد بَؤُسَ يَبْؤُسُ، و﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ [الأعراف: 165]، أي: شديد[2]، وبَئِيسٌ اسمٌ وُضِعَ موضعَ المصدر، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأساءُ: الشِّدَّةُ والمكروه، والعذاب، إلّا أنَّ البُؤسَ في الفقرِ والحربِ أكثر، والبأسَ والبأساءَ في النِّكاية، كما في قوله

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132، 133.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 202.

تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النّساء: 84]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: 42][1]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾، أي: عايَنوا عذابَنا النّازلَ بهم[2].

2) ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾: (سنن) سَنَّ يَسُنُّ سَنَنًا، والسَّنَنُ: الطَّريقة، وهي جمع سُنَّة، يقال: استقامَ فلانٌ على سَنَنٍ واحد، وتنحَّ عن سَنَنِ الطَّريقِ وسُنَّته وسِنَنِه، وسُنَّةُ الوجه: طريقتُه، وسُنَّةُ النَّبيِّ ﷺ: طريقتُه الَّتي كان يتحرّاها، وسُنَّةُ اللّهِ تعالى: طريقةُ حِكمته، وطريقة طاعته، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح: 23][3]، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ [الأحزاب: 38] أي: حُكْمُ اللّه[4].

3) ﴿خَلَتۡ﴾: (خلو) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تعرّي الشَّيءِ من الشَّيء، يقال: هو خِلْوٌ من كذا؛ إذا كان عِرْوًا منه، وخَلَتِ الدّارُ وغيرُها تَخْلو، والقرونُ الخاليةُ: المواضي، والخُلُوُّ يُستعمَلُ في الزَّمانِ والمكان، لكن لمّا تُصوِّرَ في الزَّمانِ المضيُّ؛ فَسَّرَ أهلُ اللُّغة: خلا الزَّمان، بقولِهم: مضَى الزَّمانُ، وذهب، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: 144]، وقال سبحانه: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ [البقرة: 141][5]، وقولُه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ﴾ [الفتح: 23]، أي: قد مضت[6].

4) ﴿عِبَادِهِۦۖ﴾: (عبد) أصلانِ صحيحان، كأنَّهما متضادّان، والأوَّلُ من ذَيْنِكَ الأصلَيْن يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ، والآخرُ على شِدَّةٍ وغِلَظٍ. فالأوَّلُ: العَبدُ، وهو المملوك، والجماعةُ العبيد، وثلاثةُ أَعْبُدٍ، وهمُ العباد، إلّا أنَّ العامَّةَ اجتمعوا على تفرقةِ ما بين عبادِ اللّهِ والعبيدِ المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، ولم نسمَعْهم يشتقّونَ منه فعلًا، ولو اشتُقَّ؛ لقيل: عَبُدَ، أي: صارَ عبْدًا، وأقرَّ بالعبودَة، ولكنَّه أُميتَ الفعلُ، فلم يُستعمَل، وأمّا عَبَدَ يعبُدُ عبادةً؛ فلا يُقالُ إلّا لَمَن يعبُدُ اللّهَ تعالى، يقالُ منه: عَبَدَ يعبُدُ عبادةً، وتَعبَّدَ يتعبَّدُ تعبُّدًا، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63]، والعُبوديَّةُ:

(1) الرّاغب، المفردات: (بؤس)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (بأس).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 424، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 660.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (سنن).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 80.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلو)، والرّاغب، المفردات: (خلا).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 424.

إظهارُ التَّذلُّلِ، والعبادةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، والنّاسُ كلُّهم عبادُ اللّه، بلِ الأشياءُ كلُّها كذلك، لكنَّ بعضها بالتَّسخيرِ وبعضها بالاختيار، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو مُسترَقٌّ: عَبيد، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو العابدُ: عِباد، فالعبيدُ - إذا أُضيفَ إلى اللّهِ - أعمُّ من العِباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: 29][1].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

عـنـد نــزولِ العذابِ، لا ينفعُ النَّفس عندئذٍ الإيمان ولا المتاب

يخبرُ اللّهُ تعالى أنَّ الأممَ لَمّا عاينَتْ وقوعَ العذاب بها؛ وحَّدوا اللّهَ ﷻ، وكفروا بالطّاغوت، ولكنْ حيثُ لا تُقالُ العثرات، ولا تنفعُ المعذِرة، وهذا كما قال فرعونُ حين أدركَه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]، قال اللّهُ ﷻ: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس: 91]، أي: فلم يقبلِ اللّهُ منه؛ لأنَّه قد استجابَ لنبيِّه موسى عليه السلام دعاءه حين قال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: 88]، وهكذا هنا، حَكمَ اللّهُ في جميعِ مَن تابَ عند مُعاينةِ العذابِ أنَّه لا يُقبَلُ، ويصيبُه الخُسرانُ بكُفرِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى حرف (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

بيانُ أنَّ الإيمان لا جدوى منه عقيبَ رؤيةِ العذاب

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ للتَّعقيبِ في وجه، حيثُ جعلَ ما بعدها تابعًا لما قبلَها واقعًا عقيبَه، أي: جعل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ مترتِّبًا على قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ الآية، تابعًا له؛ لأنَّه بمنزلةِ (فكفروا)، إلّا أنَّ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾ الآية، بيانُ كفرٍ مفصَّلٍ مشتملٍ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 80.

على سوءِ معاملتِهم وكفرانِهم بنعمةِ اللّهِ تعالى العُظمَى من الكتابِ والرَّسولِ، فكأنَّه قيل: فكفروا، فلمّا رأوا بَأسَنا؛ آمنوا[1].

حين رؤيتهم العذابَ، أعلنوا إيمانَهم بعد النُّكران والغِلاب

دلالة الأداة (لَمّا) في السّياق:

(لَمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾، أفادَتْ معنَى التَّوقيت، وهو يثيرُ معنَى توقيتِ انتهاءِ ما قبلَها[2]، وفيه "حكى حالةَ بعضِهم، ممَّن آمن بعد تلبُّس العذاب بهم، فلم ينفعهم ذلك، وفي ذِكْر هذا حَضٌّ للعرب على المبادرة، وتخويفٌ من التَّأنّي لِئَلّا يدركَهم عذابٌ، لا تنفعهم توبةٌ بعد تلبُّسه بهم"[3].

الاستمرارُ في دعوةِ الرُّسُلِ، مع استمرار تكذيبهم حتَّى مجيء وقتِ العذاب

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

عبَّرَتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ عنِ ارتباطِ وثيقِ الصِّلةِ بما قبلَها، أي: دامَ دُعاءُ الرُّسُلِ إيّاهم، ودامَ تكذيبُ أُممِهم واستهزاؤهم بهم، إلى أن رَأوا بأسَنا، فلمّا رأوا بأسَنا؛ قالوا: آمنّا باللّه وحدَه، فكان هذا الإيمانُ في وقتٍ لا ينفعُ أصحابَه، وهو نزولُ العذابِ الشَّديدِ بهم[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿رَأَوۡاْ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿رَأَوۡاْ﴾؛ دلالةً على تحقُّقِ رؤيتِهمُ العذابَ، أي: لَمّا شاهدوا العذابَ؛ لم ينفعْهم الإيمانُ؛ لأنَّه إيمانُ اضطرارٍ، وليس إيمانَ اختيار، واللّهُ تعالى لا يقبلُ الإيمانَ عند نزولِ عذابِه[5].

نُكْتَةُ إضافةِ البَأْسِ إلى ضميرِ العظَمة:

في إسنادِ البأسِ إلى ضميرِ العظَمةِ، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 31، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 344.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 572.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 345.

﴿بَأۡسَنَا﴾، زيادةٌ في التَّرهيبِ من عذابِ اللّه، وتحذيرٌ من الكفرِ باللّه، فإنَّ مصيرَ أهلِه إحاطةُ العذابِ بهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ على تأكيدِ نفيهم لما كانوا فيه من الشِّرك، وتحقُّقهم بالإيمانِ الَّذي نَبذوه من قَبْلُ[2].

معنَى الباء في قولِه: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

آمـنـوا إيـمـانًـا ملصقًا المأمورينَ به بالإيمان

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ للإلصاقِ المعنويِّ أوِ المصاحبة، أي: آمنّا إيمانًا بما يريدُه اللّهُ ويرضاه من الإيمان، أو: مصاحبًا للإيمان باللّه، أي: قائمًا على أساسِ الإيمانِ الحقِّ الَّذي تأمرُنا به الرُّسُل، لا كما هم فيه من قبل[3].

بلاغةُ الالتفات في الضَّمائر:

فرحوا بقوَّتهم؛ فـلـمّـا رأوْا العذابَ؛ أعلنوا إيمانَهم، ونَفَوا كفرَهم

لَمّا ثبتَ عنادُ الأُمَم وغِلظتُهم واعتدادُهم بقوَّتِهم فرحًا وبطرًا؛ قال تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، ثمَّ بيَّن جهلَهم وذُلَّهم؛ لَمّا عاينوا عذابَ اللّه، فجاء البيانُ لما أُجمِلَ من الحَيْق مسبَّبًا عنه، لافتًا القولَ إلى مظهرِ العظَمة ترهيبًا، فقال بصيغةِ الغائب: ﴿رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾، أي: شاهدوا بوارقَ العذابِ الشَّديد، ثمَّ لَمّا جاءَ بيانُ حالِهم عند نزولِ العذابِ - لا محالة - ذكرَ النَّظمُ الكريمُ موقفَهم حينئذٍ، فقال بصيغةِ المتكلِّم عنهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾، وأكَّدَه بقولهم: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾؛ لأنَّنا علِمْنا أنَّه لا يُغني من دونِ اللّهِ شيءٌ[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.

(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439، 440، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَحۡدَهُۥ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾؛ تأكيدًا للإيمانِ الجازمِ باللّه وتوحيده، ونفيًا لما كانوا فيه من الشِّرك[1].

معنَى الواو في قوله: ﴿وَكَفَرۡنَا﴾:

زيادةُ التَّصريحِ بكُفرِهم بما أشركوا به وقتَ رؤيةِ العذاب

دلَّتِ الواوُ العاطفةُ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرۡنَا﴾ على انحلالِ عُرَى ما كانوا به يتفاخرون، ووَهْيِ قواهم الَّتي كانوا بها يتعالون؛ لَمّا رأوا بَأسَ اللّه، بزيادةِ التَّصريحِ في قولِهم: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ بعد قولِهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾؛ لأنَّهم علموا أنَّه لا يُغني من دونِ اللّهِ شيء[2].

بلاغةُ الطِّباقِ في الجمعِ بين الإيمانِ والكفر:

الكفرُ بالمُنعِم لا يمحوه الإيمانُ وقتَ نزولِ العذاب

صرَّحوا بالإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾، مترتِّبًا على قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ الَّذي جاءَ مترتِّبًا على قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ الآية، تابعًا له؛ لأنَّه بمنزلةِ (فكفروا)، إلّا أنَّ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾ الآية، بيانُ كفرٍ مفصَّلٌ مشتمِلٌ على سوءِ معاملتِهم وكفرانِهم بنعمةِ اللّهِ تعالى العُظمَى من الكتابِ والرَّسول، فكأنَّه قيل: فكفروا، فلمّا رأوا بأسنا؛ آمنوا، ثمَّ جاءَ العطفُ على ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾؛ دلالةً على عدمِ نفعِ إيمانِهم مع تأكيدِهم بقولِهم: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾؛ لأنَّه إيمانُ اضطرارٍ وقتَ نزولِ العذاب، لا إيمانَ اختيار[3].

دلالة الباء في قولِه: ﴿بِمَا كُنَّا﴾:

عبادةُ الأصنامِ باطلة، تنتهي إلى النَّدمِ والحسرة

الباءُ في ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ للإلصاقِ المعنويِّ، أي: ألصَقْنا كُفرَنا بما كنّا به مشركين، ويجوزُ أن

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 344، والمطعنيّ، خصائص التَّعبير القرآني: 2/ 416، 417.

تكون للتَّعديَة، بمعنى: للمصاحبة، أي: كفَرْنا مصاحبينَ الَّذي كنّا بسببِه مشركينَ من عبادةِ الأصنامِ وغيرِها(1).

معنَى (ما) وموقعُ الجملةِ بعدَها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ اسمُ موصولٍ بمعنى (الَّذي)، أي: وكفرْنا بالَّذي كنّا به مشركين، وفيها معنى المبالغة في تبرُّئهم من شِركِهم لمـّـا نزل بهمُ العذاب، وجملةُ: ﴿كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ صلةُ الموصول، لا محلَّ لها من الإعراب(2).

تبرُّؤ مشركي الأُمَمِ من شركِهم لمّا رأوا عذابَ الله واقعًا بيقين

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكَوْن ﴿كُنَّا﴾:

في دخولِ فعلِ الكَونِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾، دلالةٌ على أنَّ ما مضى من كفرِهم، إنَّما كان جِبلَّةً وطبعًا، وهذا تعليلٌ لكفرِهم لإعذارِهم مضطرّين لَمّا رأوا عذابَ اللّه(3).

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾:

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ للسَّببيَّة، أي: وما كنّا بسببِه مشركينَ من الأصنامِ أو سائرِ الآلهةِ الباطلة(4)، والجارُّ والمجرور متعلِّقان باسم الفاعل ﴿مُشۡرِكِينَ﴾.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

في تقديمِ شبهِ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ تأكيدُ انحلالِ عُراهم ووَهْيِ قواهم، بزيادةِ التَّصريحِ ببراءتِهم من شِركِهمُ الَّذي كانوا عليه(5).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُشۡرِكِينَ﴾ في السّياق المبين:

الشِّركةُ والمشاركةُ: خَلْطُ المِلكَيْن، وقيل: هو أن يوجَدَ لاثنَيْن

شِرْكُ الأُمَمِ في عبادةِ اللهِ، ثابتٌ لهم في عبادتهم سواه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 525.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 344.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.

فصاعدًا، عَيْنًا كان ذلك الشَّيءُ أو معنًى، يُقالُ: شَرَكْتُه، وشارَكْتُه، وتشاركوا، واشتركوا، وأشْرَكتُه في كذا، كما قال تعالى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 32][1]، وقد دلَّ ذلك على أنَّ الأُمَمَ أشركوا باللّه، فجعلوا معه تعالى غيرَه في العبادة، من الأصنام أو سائرِ آلهتِهم الباطلة[2]، وجاءت كلمةُ ﴿مُشۡرِكِينَ﴾ اسمًا ووسمًا لهم بإشراكِهم مع اللّه، وخبرًا عن صفةِ الإشراكِ الثّابتةِ لهم الَّتي تبرَّؤوا منها لَمّا رأوا بأسَ اللّه.

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمۡ يَكُ﴾:

لا ينفعُ الإيمانُ عقيبَ رؤيةِ العذاب والهوان

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ﴾ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ مع البيانِ والتَّفسير، بعد قولِهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾؛ وذلك أنَّ تصريحهم بالإيمانِ في عدم وقتِ الإعذارِ، لا ينفعُ صاحبَه، حيثُ جاءَ بعد معاينةِ العذاب، فكان قولُه: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ﴾ تابعًا لإيمانهم؛ لَمّا رأوا بأسَنا[3].

نُكْتَةُ التَّخفيفِ في الفعل ﴿يَكُ﴾:

مـن لـم ينتفع بإيمانه هجره كل شيء

وقع التَّخفيفُ في الفعل ﴿يَكُ﴾ بحذفِ النّون جريًا على مفهوم المخالفة، فكما أنَّ زيادةَ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى، فكذلك فإنَّ نقصَ المبنَى يدلُّ على نقصِ المعنَى، وذلك أنَّ المقامَ مقامُ إعلامٍ وبيانٍ بعدمِ فائدةِ الإيمانِ ونفعِه وقتَ نزولِ العذاب، فهو مقامُ اختصارٍ لا مقامُ إطنابٍ[4].

دلالةُ المضارعِ المنفي في ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ﴾:

لا يُقبَلُ على وجهِ الاستمرارِ إيمانُ الاضطرار

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَكُ﴾ و﴿يَنفَعُهُمۡ﴾؛ لأنَّه بمعنَى: لم يصحَّ، ولم يَستَقِمْ، فدُخولُ حرفِ النَّفيِ على الكون، لا

(1) الرّاغب، المفردات: (شرك).

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 344.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 440، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 277، 278.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.

على النَّفي؛ لأنَّه يؤدّي إلى نَفْي الصِّحَّة، أي: لم يصحَّ، ولم يستقم، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: 35][1]، فهُم لم يكونوا لفواتِ الوقتِ مؤمنين بما طُلِبَ منهم، فلم يتجدَّدْ لهم نفعُ إيمانِهم؛ لأنَّه إيمانُ إلجاءٍ واضطرار، لا إيمانُ طواعيةٍ واختيار[2].

نُكْتَةُ العدول إلى قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾:

تقريرُ نفي فعلِ الكونِ، تقريرٌ لنفي ثبوتِ النَّفع

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عنِ القول: (فَلَم ينفعْهُم) إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾؛ لدَلالةِ فعلِ الكَونِ على أنَّ خبرَه مُقرَّرُ الثُّبوتِ لاسمه، فلمّا أُريدَ نفيُ ثبوتِ النَّفعِ إيّاهم بعد فواتِ وقتِه؛ اجتلبَ كذلك نفيَ فعلِ الكونِ الَّذي خبرُه ﴿يَنفَعُهُمْ﴾، والمعنى: أنَّ الإيمانَ بعد رؤيةِ بوارقِ العذابِ لا يُفيدُ صاحبَه[3].

نُكْتَةُ إضافةِ الإيمانِ إلى ضميرهم ﴿إِيمَٰنُهُمْ﴾:

حالُ إيمانِهم قائمٌ على الإلجاءِ لا الاختيار

في إضافةِ الإيمانِ إلى ضميرهم، في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ إيحاءٌ على أنَّه إيمانٌ اضطراريٌّ لا اختياريٌّ، بسبب معاينةِ العذابِ، فنُسِبَ إليهم تعبيرًا عن حقيقةِ إيمانِهم في ذاك الوقت، وهذه الحقيقةُ لا يعلمُها على وجهِ اليقينِ إلّا اللّهُ تعالى، ولذلك لم ينفعْهم إيمانُهم، ولم يُقبَلْ[4].

دلالة ﴿لَمَّا﴾ في السّياق المُحكَم:

وقتُ معاينةِ العذابِ لا يُتاح قَبولُ الإيمان

قولُه: ﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾، يفيدُ معنَى الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّة، وهو الوقتُ الَّذي يُعايَنُ فيه نزولُ العذاب؛ لأنَّه في ذلك الوقت يصيرُ المرءُ مُلجَأً إلى الإيمان، فذلك الإيمانُ لا ينفعُ صاحبَه؛ لأنَّه لا يكون إيمانًا مختارًا بل مضطرًّا[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 277، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 536، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 536.

تحقُّق رؤيةِ العذاب صدمةٌ تصيبُ المشركين بالخيبة

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿رَأَوۡاْ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿رَأَوۡاْ﴾؛ للدَّلالةِ على نزولِ العذاب، وتحقُّق رؤيتِهم له[1]، وأنَّ إيمانَهم عند رؤية العذابِ لا طائلَ منه؛ لأنَّ الإيمانَ لا يتحقَّقُ، ولا يُتصوَّرُ إلّا مع الغيب، وأمّا عند الشَّهادة؛ فقد كشفت سريرتُه، على أنَّه قد فاتت حقيقته[2].

التَّرهيبُ والتَّحذيرُ من عذابِ اللهِ، والتَّبصُّر بأسباب حصوله

نُكْتَةُ إضافةِ البأسِ إلى ضميرِ العظَمة:

في إضافةِ البأس إلى ضميرِ العظَمةِ، في قولِه تعالى: ﴿بَأۡسَنَاۖ﴾ زيادةٌ في التَّرهيب، وإيحاءٌ بأنَّ بأسَ اللهِ إذا جاءَ؛ لا يُؤخَّرُ عنِ القوم المجرمين، وفيه تحذيرٌ للأُمَم من محادَّةِ اللهِ ورُسُلِه، واتِّخاذِ الهوَى إلهًا من دون اللهِ في عبادةِ ما لا يضرُّ، ولا ينفع[3].

الإيمانُ لا ينفعُ صاحبَه حينَ مشاهدةِ العذاب

غرضُ إعادةِ رؤيةِ البأس:

لَمّا رأى القومُ بأسَ اللهِ؛ علموا أنَّه العذابُ الَّذي أُنذِروه، وفُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾؛ لبيانِ المقصد المراد، وهو أنَّ مشاهدةَ العذابِ لا ينفعُ معها الإيمان؛ لأنَّ اللهَ لا يقبلُ الإيمانَ عند نزولِ عذابه.

لا ينفعُ الكافرَ الإيمانُ ولا النَّدمُ، وقتَ نزولِ العذاب المؤلم

نُكْتَةُ فصلِ قولِه: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾:

جملةُ: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وهي في محلِّ نصب حالٍ من الضَّمير المتَّصل بـ ﴿يَنفَعُهُمۡ﴾[4]، جوابًا لسؤال مَن يسألُ: لماذا لم ينفعهمُ الإيمانُ، وقد آمنوا؟ فالجوابُ: أنَّ ذلك تقديرٌ قدَّرَه اللهُ للأُمم السّالفة، أعلمَهم به، وشَرَطَه عليهم، فهي قديمةٌ في عبادِه، لا ينفعُ الكافرَ الإيمانُ إلّا قبلَ ظهورِ البأس، ولم يَسْتثْنِ من ذلك إلّا قومَ يونُس، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(4) قباوة، المفصل، ص: 1685.

﴿إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: 98][1].

نوعُ الإضافةِ في قولِه: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾:

إضافةُ اسْمِ المصدرِ إلى فاعلِه، والتَّحذيرُ من العذاب

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ من باب إضافةِ اسم المصدرِ المؤكِّدِ إلى فاعلِه، والتَّقديرُ: سَنَّ اللّهُ ذلك سُنَّةً، فانتصابُ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ على النّيابة عنِ المفعولِ المطلق؛ لأنَّ سُنَّةَ اسْمُ مصدرِ السَّنِّ، وهو آتٍ بدلًا من فعلِه، فالجملةُ في ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ جوابٌ لسؤالِ مَنْ يسأل، لماذا لم ينفعْهمُ الإيمانُ، وقد آمنوا؟[2] ويجوزُ انتصابُ ﴿سُنَّتَ﴾ على التَّحذير، أي: احذَروا سُنَّةَ اللّهِ الَّتي قد خلَت في عبادِه[3].

بلاغةُ الالتفاتِ من التَّكلُّمِ إلى الغَيْبة:

الإمهالُ في زمنِ الاختيار، ولا نفعَ لذلك في زمنِ الاضطرار

لَمّا أظهرَ النَّظمُ الكريمُ ما فيه زيادةٌ في التَّرهيب، في قوله تعالى: ﴿بَأۡسَنَاۖ﴾ بأسلوبِ التَّكلُّم بعد الغَيْبةِ، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾، مبيِّنًا أنَّ الإيمانَ لا ينفعُ وقتَ الإلجاءِ والاضطرار، ثمَّ عادَ لأسلوبِ الغَيْبةِ في قوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾، أي: سنَّةَ اللّهِ الملكِ الأعظمِ المذكورِ باسمِه الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ تحقيقًا لما هو مقرَّرٌ في سنَّتِه تعالى، أنَّ الإيمانَ بعد كشفِ الغطاءِ لا ينفعُ صاحبَه، بل سيهلِكُ، ويخسرُ بكفرِه، وفي هذا الالتفاتِ دلالةٌ على تمامِ قدرتِه تعالى، وأنَّ سنَّتَه ماضيةٌ مع مَن هُيِّئَت له أسبابُ الهدايةِ، فكفر باختيارٍ ثمَّ آمنَ - حالَ نزولِ العذابِ - باضطرار، وهذا عَيْنُ الخُسران[4].

دلالة الاسمِ الموصولِ وصلتِه:

التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ بالاسم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 278، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(3) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 504.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.

تخويفُ المشركين ممّا حلَّ بالمكذِّبين الأوَّلين، مسلكٌ في الوعظ مبين

الموصولِ وصلتِه، بغرضِ تخويفِ اللّهِ المشركينَ من الانزلاقِ في مَهواةِ الأوَّلين، بأنَّ سُنَّةَ اللّهِ في عبادِه الإمهالُ، ثمَّ المؤاخذة، ثمَّ الخسارةُ الفادِحَة، لا ينفعُ في ردِّها إيمانُ المؤمنين، أو شفاعةُ الشّافعين، فكان في ذلك كلمةٌ جامعةٌ في ختامِ الآيةِ للغَرَضِ المبين[1].

نكتةُ التّأكيدِ بحرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾:

تحقيقُ سُنَّةِ اللهِ على مرِّ الدُّهورِ أمرٌ واقعٌ لا محالة

التّأكيدُ بـ ﴿قَدۡ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ تحقيقًا لإمضاءِ سنَّةِ اللّهِ في الأُممِ المُكذِّبةِ إلى يوم الدّين، في إهلاكِ مَن كفرَ باللّهِ مع إيرادِ المعجزاتِ والدَّلائلِ الواضحة، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ هذه السُّنَّةَ، هي من اللّهِ الملكِ الأعظمِ المحيطِ علمًا وقدرةً في الدُّهورِ السّابقةِ واللّاحقة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَلَتۡ﴾ في السّياق:

تحقُّقُ سُنَّةِ اللهِ الماضيةِ في العبادِ إلى يوم المعاد

الخُلُوُّ: تعرّي الشَّيءِ من الشَّيء، وخلَتِ الدّارُ وغيرُها تخلو، أي: هي خِلْوٌ من أهلِها، والخُلُوُّ يُستعمَلُ في الزَّمانِ والمكان، لكن لَمّا تُصوِّرَ في الزَّمانِ المضيِّ؛ جاءَ قولُهم: خلا الزَّمانُ، بمعنَى: مضَى، وذهب[3]، ولَمّا كانتِ القُرونُ الخاليةُ بمعنَى القرونِ الماضية؛ كان قولُه تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ﴾، أي: قد مضت، أي: في الأمم السّابقة، ولَمّا جاءتْ كلمةُ ﴿خَلَتۡ﴾ بصيغةِ الماضي؛ دلَّتْ على تحقُّقِ هذه السُّنَّةِ في العبادِ، سَلَفِهم وخَلَفِهم، وهي عدمُ نفعِ الإيمانِ وقتَ نزولِ العذاب؛ لأنَّه إيمانُ اضْطرارٍ لا اخْتيار[4].

دلالةُ الظَّرفيَّةِ المجازيَّة:

السُّنَّةُ الماضيةُ في العبادِ تعذيبُ المارقين واستئصالُهم

جاء لفظُ: ﴿فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 224.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلو)، والرّاغب، المفردات: (خلا).
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 31.

﴿خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ للظَّرفيَّةِ المجازيَّة، أي: سُنَّةَ اللّهِ الَّتي قد مضتْ في زمنِ عبادِه السّالفين - الَّذين ضلّوا طريقَ الحقِّ، فأرسلَ اللّهُ إليهمُ الرُّسُلَ إرشادًا للحقِّ وإعزازًا بهم - هي تعذيبُ من كذَّبهم، واستهانَ بهم، باستئصالِهم وقَطْعِ نَسْلِهم(1).

سرُّ الإضافةِ إلى ضميرِ العظَمة في ﴿عِبَادِهِۦۖ﴾:

تشريفُ العبادِ بإضافتِهم إلى الله، يستلزم إيمانَهم لا كُفرانَهم

إضافةُ العبادِ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِه تعالى: ﴿خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾؛ لبيانِ أنَّ عدمَ قَبولِ الإيمانِ حالَ اليَأْسِ سُنَّةُ اللّهِ المطَّردةُ في كلِّ الأُمم، وهم عبادُه الَّذين شرَّفَهمُ اللّهُ بالعبوديَّةِ له، ولذلك أرسلَ إليهمُ الرُّسُلَ إرشادًا لطريقِ الحقِّ، يُعِزُّ مَنْ يتَّبعهم، ويعذِّبُ مَنْ يُكذِّبُهم(2).

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَخَسِرَ﴾:

المقصدُ الأساسُ الخَتْمُ للكافرينَ بالخُسرانِ المبين

جاءتِ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ﴾ عطفًا على ما تقدَّمَها، وكانت مع جملتِها في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ كالفَذْلكةِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾، وبذلك آذنت بانتهاءِ الغَرَضِ من السّورة، وأعطتِ النَّتيجةَ المتوخّاةَ من السّياقِ الَّذي خُتِمَتْ به(3).

بلاغةُ الاستعارةِ في فعلِ الخسارة:

خسارةُ الإيمانِ أعظمُ من خسارةِ الأموالِ والأعيان

استُعيرَ فعلُ الخسارةِ الَّتي تكونُ في الأمورِ الماديَّةِ كالبيعِ والشِّراءِ، إلى الخسارةِ المعنويَّةِ في أعظم قضيَّة، وهي قضيَّةُ الإيمان والكُفر؛ ليَدلَّ على عِظَم تلك الخسارةِ الحقيقيَّة، وغايةِ تمكُّنِها من صاحبِها، فهي لا تُعوَّضُ بالمالِ أو غيره من أمورِ المعاش؛ لأنَّ الخسارة الحقيقيَّةَ، تكونُ في يومِ المَعاد(4).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 278.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 536، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 223.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ المكان:

بيانُ مآل الخسران في بُعْد ما كانوا عليه من الكفران

استُعمِلَ قولُه: ﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة للمكان البعيد؛ للدَّلالةِ على بُعدِ ما هم فيه من الكفر؛ إذ آمنوا؛ لَمّا رَأوا عذابَ اللهِ نازلًا بساحتِهم - لا محالة - فلم ينتفعوا بالإيمانِ في حالِ الاضطرار، ولو أنَّهم آمنوا في حالِ الاختيارِ والإمهالِ؛ لانتفعوا[1]، ولكن غلبت عليهم شقوتُهم، فلم يستبينوا الحقَّ في أوانه، وأضاعوا فرصة التَّوبة المتاحة، يومَ جاءهم الرُّسل بالبلاغ، ونزل عليهم الوحيُ بالهدى والتَّوحيد، فأنكروا الوحيَ، وانشغلوا عن الحقِّ الصَّميم، بالباطل الذَّميم، فآبوا إلى النَّدم والحسرة.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عن الزَّمانِ بالمكان:

الخسرانُ وقتَ رؤيةِ البأس، وانقطاع الرَّجاء في التَّوبة

في قولِه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، استُعيرَ ﴿هُنَالِكَ﴾، وهو اسمُ إشارةٍ إلى المكان؛ للإشارةِ إلى الزَّمان، أي: وخَسِروا وقتَ رؤيتِهم بأسَنا؛ إذِ انقضتْ حياتُهم وسُلطانُهم، وصاروا إلى ترقُّبِ عذابٍ خالدٍ مُستقبَل[2]، وذلك أنَّه لَمّا كان المكانُ لا ينفكُّ عنِ الزَّمان؛ استُعيرَ ظرفُه له، وليدُلَّ على غايةِ التَّمكُّن، وعظيمِ الشَّأنِ وخُطورتِه[3].

نُكْتَةُ تقديمِ الإشارةِ على الفاعل:

تَحقُّقُ خسارة الكافرين، أمرٌ لا مَفرَّ من وقوعه

في تقديمِ الإشارةِ على الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فلم يقل: (وخَسِرَ الكافرونَ هنالك)؛ للدَّلالةِ على هلاكِ الكافرين، وتحقُّقِ أنَّهم خسِروا - لا محالةَ - في ذلك الوقتِ العظيم الشَّأن، بما كانَ فيه، وكانَ من العذابِ الشَّديدِ بعد الكُفرِ الشَّديد[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 278.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 536.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

(أل) التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للعهد، أي: العريقون في هذا الوصف، فلا انفكاكَ بينَهم وبينَه[1]، فهو صبغتُهُمُ الملازمةُ لهم.

نُكْتَةُ العدولِ عن لفظِ (الشِّركِ) إلى (الكفر):

إعـذارُ مشركي قـريـش، وإعـطـاؤهـم فرصةً للعَودة إلى الحقِّ

في العدولِ عن ضميرِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ [غافر: 21] إلى الاسم الظّاهر، وهو ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، إيماءٌ إلى أنَّ سببَ خسارتِهم هو الكفرُ باللّٰه، وذلك إعذارٌ للمشركينَ من قريش، حتَّى لا يحلَّ بهم ما حلَّ بسالفِهم من المكذِّبين، وإمهالٌ لهم، لعلَّهم يرعوونَ، ويعودونَ إلى الرَّشاد[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العذاب والبأس:

العذابُ، البأسُ مـع الألـم المستمرِّ

العذابُ: هو الألمُ المستمرُّ والإيجاعُ الشَّديد، وأصلُ الكلمةِ: الاستمرار، ومنه يقال: ماءٌ عذبٌ لاستمرائه في الحَلق، ويقال: عذَّبَه تعذيبًا، أكثرَ حبسَه في العذاب، قال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ [النَّمل: 21][3].

والبَأسُ والبُؤسُ والبَأساءُ: الشِّدَّةُ والمكروه، إلّا أنَّ البُؤسَ في الفقرِ والحربِ أكثر، والبَأس والبَأساء في النِّكاية، نحو: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177]، والبأسُ يجري على العدَّةِ من السِّلاح وغيرِها، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: 25]، ويُستعمَلُ في موضعِ الخوْفِ مجازًا، فيُقال: لا بأسَ عليك، ولا بأسَ في هذا الفعل، أي: لا كراهةَ فيه[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 223.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 354، والرّاغب، المفردات: (عذب).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 89، والرّاغب، المفردات: (بؤس).

العباد والعبيد:

العبيدُ أعمُّ من العباد، وكلاهما لفظ قرآنيٌّ

العبدُ: هو المملوك، والجماعةُ العبيد، وثلاثةُ أَعْبُد، وهمُ العباد، والعامَّةُ يفرِّقون ما بين عبادِ اللّهِ والعبيدِ المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، وعبَدَ يعبُدُ عبادةً، فلا يُقالُ إلّا لمن يعبُدُ اللّهَ تعالى، ويقال للمشركين: عَبَدَةُ الطّاغوتِ والأوثان، وللمسلمين عُبّادٌ يعبُدونَ اللّهَ تعالى، وهم عبادُ الرَّحمنِ الَّذين قالَ اللّهُ عنهم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، وعبادُ اللّه: الملائكةُ والإنسُ والجنُّ، بلِ الأشياءُ كلُّها كذلك، لكنَّ بعضَها بالتَّسخيرِ وبعضَها بالاختيار، وجمعُ العَبدِ - الَّذي هو مُسترَقٌّ - عَبيد، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو العابدُ: عباد، فالعبيدُ - إذا أُضيفَ إلى اللّهِ - أعمُّ من العباد، ولهذا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: 29][1].

الكُفْر والشِّرك:

الكُفرُ جُحودٌ في الدّين، وجُحودٌ في النِّعمة، والشِّركُ أكبرُ وأصغرُ

الكفرُ: سَترُ الشَّيء، ووُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ لسَترِه الأشخاص، والزُّرّاعُ لسَترهمُ البَذرَ في الأرض، وكفرُ النِّعمة وكُفرانُها: سَترُها بتركِ أداءِ شُكرِها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، والكفرُ ضربان: كفرٌ بالدّين، وكفرٌ بالنِّعمة، وأعظمُ الكفرِ: جُحودُ الوحدانيَّةِ أو الشَّريعة أو النُّبوَّة، والكُفرانُ في جحودِ النِّعمةِ أكثرُ استعمالًا، والكُفرُ في الدّين أكثر، والكُفورُ فيهما جميعًا، قال تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: 99]، والكافرُ على الإطلاقِ: متعارَفٌ فيمَنْ يَجْحَدُ الوحدانيَّةَ، أو النُّبوَّةَ، أو الشَّريعةَ، أو ثلاثتَها[2].

والشِّركُ في الدّين على ضربَيْن، أحدهما: الشِّركُ العظيمُ: وهو إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، يقال: أشركَ فلانٌ باللّه، وذلك أعظمُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عبد)، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 350.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 454، 455، والرّاغب، المفردات: (كفر).

الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: 48]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النِّساء: 116]. والثّاني: الشِّرك الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ اللّهِ معه في بعضِ الأمور، وهو الرّياءُ والنِّفاقُ المشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 190]، والشِّركُ خَصلةٌ واحدة، وهو إيجادُ إلهٍ مع اللّهِ، أو دونَ اللّه، ثمَّ كَثُرَ حتَّى قيل لكلِّ كُفرٍ شِركٌ على وجهِ التَّعظيم له، والمبالغةِ في صفتِه، ونقيضُ الكُفرِ الإيمانُ، ونقيضُ الشِّركِ في الحقيقةِ الإخلاصُ، ثمَّ لَمّا استُعمِلَ في كلِّ كُفرٍ؛ صارَ نقيضه الإيمان[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 455، والرّاغب، المفردات: (شرك).

سُورَةُ فُصِّلَتْ

سُورَةُ فُصِّلَت

❁ التَّعريف العامُّ بالسّورة

سورة فُصِّلت كلُّها مكّيَّة بالاتِّفاق[1].

ترتيبُ النُّزولِ وترتيب المصحف وعدُّ الآي:

هي السّورة الحادية والأربعون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، جاءت بين سورتي غافر والشّورى، وهي الحادية والسُّتّون في ترتيبها النُّزوليِّ، نَزَلَتْ بين السّورتَيْن السّابقتَيْن[2]، فسورة الزُّمر والحواميم السَّبعة بعدها قد تتابعت في ترتيبها المصحفيِّ وفي ترتيبها النُّزوليِّ كذلك.

وهي خَمْسونَ وآيتان في البَصريِّ والشّاميِّ، وثَلاث وخمسون في المدنيِّ والمكّيِّ، وأربع وخمسون عند الكوفيّين[3]، وسبب اختلافهم في عددها هو اختلافهم في تحديد فواصل آيتَيْن منها.

فضائل السّورة:

السّورة من المثاني، الَّتي قال عنها الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[4].

أسماءُ السّورة ومناسبة تسميتها:

وردت تسميتها بسورة (فُصِّلت) و(حم السّجدة) في كتب السُّنَّة والتَّفسير، فقد ذكر البخاريُّ تسميتها بذلك[5]، وذكر

سورةُ فُصِّلت اشتهرت بهذا الاسم، وذكروا أنّها تُسمّى (حم السَّجدة)

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 228.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 228، ودروزة، التّفسير الحديث: 4/ 404.

(3) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 220.

(4) أخرجه أحمد في المسند، الحديث رقم: (16982)، والطّبراني في المعجم: 22/ 76، الحديث رقم: (187)، والبيهقيّ في شعب الإيمان: (2415)352.

(5) البخاريّ، صحيح البخاريّ: باب: تفسير سورة حم السّجدة: (فصّلت): 4/ 1815.

التَّرمذيُّ تسميتها بسورة السَّجدة[1]، ولعلَّ السَّبب في ذلك؛ لأنَّها تميَّزَتْ عنِ السّورِ المُفتتَحَةِ بحروفِ (حم) بأنَّ فيها سَجْدَة من سُجود القُرآن[2]، وذكر بعضهم تسميتها بسورة (المصابيح)؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: 12][3]، وسورة (الأقوات)؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[4]، وسجدة المؤمن قصدًا لتمييزها عن (ألم السَّجدة)[5]، ولم يثبت شيءٌ في ذلك.

وأمّا تسميها سورة (فصّلت)؛ فلافتتاحها بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

وقد حاول البقاعيُّ الرَّبط بين أسمائها ومقصودها، فقال: "ومقصودها: الإعلام بأنَّ العلم إنَّما هو ما اختاره المحيط بكلِّ شيء قدرةً وعلمًا من علمه لعباده، فشرَّعه لهم، فجاءتهم به عنه رُسُله، وذلك العلم هو الحامل على الإيمان باللّه، والاستقامة على طاعته، وعلى ذلك دلَّ اسمها (فصِّلت) بالإشارة إلى ما في الآية المذكورة فيه هذه الكلمة من الكتاب المفصَّل لقوم يعلمون، و(المصابيح) بالإشارة إلى اعتبار ما فيها من لطف الصُّنع، فتكون هدًى للباطن، كما أنَّها هدًى في الظّاهر، و(السَّجدة) بالإشارة إلى ما فيها آيتها من الطّاعة بالسُّجود الذي هو أقرب مقرَّب من الملك الدَّيّان، والتَّسبيح الذي هو المدخل للإيمان"[6].

ويمكن أن يُضاف إلى ذلك بأنَّ تسميتها بسورة فُصِّلت إنَّما جاء مرتبطًا مع محورها العامِّ الذي يجمع آياتها، فمحورها يقوم على بيان أثر الاستجابة للوحي الإلهيِّ في تحقيق استقرار الوجود وصلاح الخلق، ولذا فإنَّ مدارَ الأمر حول ضرورة الامتثال لما جاء في القرآن الكريم من توجيهات وإرشادات، تكفل للبشريَّة تحقيق السَّعادة في الدّارَيْن، وبالتّالي فإنَّ تسميتها بسورة فصِّلت - والمراد به تفصيل آيات الكتاب - إنَّما كان مرتبطًا بمحور السّورة ارتباطًا مباشرًا.

(1) التّرمذي، سنن التّرمذيّ: بابٌ: وَمِنْ سورَةِ السَّجْدَةِ: 5/ 375.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 227.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 227.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 227.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 228.
(6) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/ 443 - 444.

بيانُ أثرِ الاستجابة للوحي الإلهيِّ في تحقيق استقرار الوجود

المحورُ العام للسّورة:

إنَّ محورَ سورة فصِّلت يقوم على بيان أثر الاستجابة للوحي الإلهيِّ المتمثِّل بالكُتُبِ الَّتي أنزلها اللّه تعالى على أنبيائه، وعلى رأسها القرآن، في تحقيق الاستقرار الوجوديِّ للكون والإنسان، وفي تحقيق سعادة الدّارَيْن: الدُّنيا والآخرة.

من أجل ذلك فقد اقتضى هذا المحور أن تعتني السّورة بذكر أمور منها:

أوَّلًا: العناية بذكر القرآن ووجوب اتِّباعه.

ثانيًا: بيان عاقبة المكذِّبين بالوحي الإلهيِّ المنزل عليهم.

ثالثًا: الرَّبط بين وحي اللّه المسطور وكتاب الكون المنظور في أكثر من موضعٍ، فقد وصف الأرض بأنَّها خاشعة، وهو وصفٌ للمؤمنين حال سماعهم القرآن.

رابعًا: بيان بعض الصّوارف الَّتي تمنعهم من الاستجابة لهذا الوحي الإلهيِّ، ولعلَّ من أهمِّها: تعطيلهم لأدوات العلم ونوافذ المعرفة، وعدم اعتبارهم بمصارع الغابرين، واتِّباع تزيين المعاصي لهم من قبل قرناء السّوء من الإنس والجنِّ.

خامسًا: الكشف عن طبيعة الإنسان وتقلُّباته.

سادسًا: بيان جزاء المعرضين عنه في الآخرة.

التَّنويهُ بالقرآن وضرورة الامتثال لما يقتضيه من أحكام

موضوعات السّورة وخصائصها:

موضوعُ هذه السّورة التَّنويهُ بِالقرآن والإشارةُ إلى عَجزِهم عَن معارضَتِه، وذِكرُ هَديِه، وأنَّه مَعصومٌ من أن يتطَرَّقهُ الباطل، وتَأييدهُ بما أُنزِلَ إلَى الرُّسلِ من قَبلِ الإسلام، وتلقّي المُشرِكين له بالإعراض وصَمِّ الآذان، وإبطالُ مَطاعِنِ المُشرِكينَ فيه وتذكيرهم بِأنَّ القرآنَ نَزَلَ بِلغَتهم، فلا عذرَ لهم أصلًا في عدم انتِفاعِهم بهديِه، فجاءت مضوعاتها على التفصيل الآتي:

أوَّلًا: ابتدأت السّورة بوصف القرآن العظيم بأنَّه المُنزَّل من عند اللّه بلسان عربيٍّ مبين، والذي يبيِّن أدلَّة قدرة اللّه وتوحيده، وكونه المبشِّر المنذر، والَّذي يثبت صِدقَ النَّبيِّ محمَّد ﷺ فيما جاء به من عند ربِّه.

ثانيًا: أبانت عن موقف المشركين وإعراضهم عن تدبُّره، وقرَّرت حقيقة الرَّسول ﷺ، وأنَّه بشر خصَّه اللّه تعالى بالوحي المتضمِّن إعلان وحدانيَّة اللّه ﷻ، وإيضاح جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين الَّذين عملوا الصّالحات.

ثالثًا: أنكرت على المشركين الكفر، وأقامت الأدلَّة على وحدانيَّة اللّه من خلق السَّموات والأرض، وأنذرتهم بإنزال عقاب مماثل لعقوبة الأمم الغابرة، كعاد وثمود الَّذين أُهلكوا، ودُمِّرت ديارهم بسبب تكذيب رسل اللّه، ولكن بعد إنجاء المؤمنين المتَّقين.

رابعًا: حذَّرت من حساب القيامة، وأخبرت بأنَّ أعضاء الإنسان تشهد عند الحشر على أصحابها، وأنَّ قرناء السّوء زيَّنوا لهم أعمالهم، وأنَّهم صدّوا عن سبيل اللّه ودينه، وقالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26]، وطلبوا إهانة من أضلّوهم؛ ليكونوا من الأسفلين.

خامسًا: أشادت السّورة بأهل الاستقامة، وبشَّرتهم بالجنَّة والكرامة، وأوردت أدلَّة أخرى كإيجاد العالم العلويِّ والسُّفليِّ على وجود اللّه ووحدانيَّته وقدرته، وبيان إحكام القرآن وكونه كتابَ هدايةٍ وشفاء ورحمة، وأنَّ مَن عمل صالحًا؛ فلنفسه، ومَن أساء؛ فعليها دون جور ولا ظلم.

سادسًا: أعقب ذلك التَّعريف بعلم اللّه المحيط بكلِّ شيء، والإشارة لعظيم قدرته، والكشف عن طبع الإنسان من التَّكبُّر عند الرَّخاء، والتَّضرُّع عند الشِّدَّة والعناء.

سابعًا: خُتِمت السّورة بوعد اللّه أن يطلع النّاس في كلِّ زمانٍ على بعض أسرار الكون، والتَّعرُّف على آيات اللّه في الآفاق والأنفس الدّالَّة على الوحدانيَّة والقدرة الإلهيَّة، ثمَّ ذكرتْ أنَّ المشركين يشكّون في البعث والحشر، ولكنَّ اللّه محيط بهم وبكلِّ شيء، وذلك ردٌّ حاسم عليهم(1).

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 180 - 181.

لـلـسّـورة مزيّة تفضيل

الخصائصُ الموضوعيَّة لسورة فُصِّلت:

تميَّزت السّورة الكريمة بموضوعات لم ترد في غيرها مِنَ السّور، مثل:

أوَّلًا: الحديث عن تفاصيل خَلْقِ الأرض والسَّماوات، فكان خَلْقُ الأرض وما عليها في أربعة أيّام، فخَلْقُ الأرض في يومَيْن، وخَلْقُ ما عليها مِن رواسٍ وتقدير لأقواتها في يومَيْن، ثمَّ استوى إلى السَّماء - وهي دخان - فقضاهنَّ سبعًا في يومَيْن.

ثانيًا: أنَّ السَّماوات والأرض أتيا طائعين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

ثالثًا: أنَّ جلودَ الكافرين تشهد عليهم يوم القيامة.

رابعًا: أنَّه قُيِّض للكافرين قرناء يُزيّنون لهم المعاصي.

خامسًا: تكلَّمت السّورة عن خشوع الأرض.

سادسًا: نبَّهت السّورة على فرضيَّة جعل القرآن أعجميًّا.

الخصائص الأسلوبيَّة لسورة فُصِّلت:

تفرَّدت السّورة الكريمة بأنساق تعبيريَّة فريدة كثيرة خاصَّة بها، ولعلَّ منها:

أوَّلًا: تكرَّرت فيها كلمة (جلود) ثلاثَ مرّاتٍ من أصل سبعة مواضع في القرآن كلِّه(1).

ثانيًا: وردت لفظة (القرآن) بلفظها الصَّريح ثلاث مرّات(2)، فضلًا عن لفظة (الذِّكر) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصّلت: 41]، والكتاب في قوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(1) المواضع: النّساء: 56، والنّحل: 80، والحجّ: 20، والزّمر: 23، فصّلت: 20، 21، 22.
(2) الآيات: 3، 26، 44.

ثالثًا: وكذلك تكرَّر فيها الحديث عن السَّآمة في موضعين من أصل ثلاثة في القرآن كلِّه(1)، وكلُّ ذلك مرتبطٌ بمحورها العامِّ.

رابعًا: تفرَّدت السّورة الكريمة بصيغ واشتقاقات لم ترد في غيرها من السّور، مثل: ﴿أَقْوَاتَهَا﴾، و﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ [فصلت: 17]، و﴿طَآئِعِينَ﴾، و﴿نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: 16]، و﴿وَقَيَّضْنَا﴾ [فصلت: 25]، و﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ [فصلت: 22]، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت: 23]، و﴿يَسْتَعْتِبُواْ﴾ [فصلت: 24]، و﴿ٱلْمُعْتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت: 24]، و﴿يَسْـَٔمُ﴾ [فصلت: 24]، و﴿يَسْـَٔمُونَ ۩ ٣٨﴾ [فصلت: 38]، و﴿ٱلْأٓفَاقِ﴾ [فصلت: 53]، و﴿قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: 25]، و﴿عَرِيضٍ ٥١﴾ [فصلت: 51]، و﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ [فصلت: 47]، و﴿ٱئْتِيَا﴾، و﴿وَٱلْغَوْاْ﴾ [فصلت: 26]، و﴿تَسْجُدُواْ﴾ [فصلت: 37]، وغيرها.

بيانُ المناسبة بين سورة فُصِّلت وما قبلها:

سورة فُصِّلت متَّصلة تمامًا بسورة غافر مضمونًا وأسلوبًا

تتوافق سورة غافر وسورة فُصِّلت في التَّركيز على عاقبة المكذِّبين برسالة اللّه، حيث تستعرض سورة غافر قصص فرعون وقومه كأمثلة على مَن عاندوا الحقَّ، ولقوا عذاب اللّه، بينما تؤكِّد سورة فُصِّلت أهمّيَّةَ الإيمان بآيات اللّه ونتائج التَّكذيب بها، ممّا يُبرز ضرورة الاستجابة للدَّعوة الإلهيَّة والتَّحذير من عواقب الكفر(2).

ومِن أوجه المناسبة بين سورة فُصِّلت وما قبلها:

أوَّلًا: افتتاح كلتيهما بوصف الكتاب الكريم، وهو القرآن العظيم.

ثانيًا: التَّأكيد على الرِّسالة الإلهيَّة: كلتا السّورتين تُبرز أهمّيَّة الرِّسالة النَّبويَّة والتَّوحيد.

سورة غافر تركِّز على تأكيد رسالة النَّبيِّ محمَّد ﷺ وبيان عاقبة المكذِّبين، في حين تُسلِّط سورة فُصِّلت الضَّوء على آيات اللّه وأدلَّته على التَّوحيد.

(1) البقرة: 282، فصّلت: 38، 49.

(2) الغرناطيّ، البرهان، ص: 294 - 296.

ثالثًا: عرْضُ نماذج من الكفّار: في سورة غافر، يتمُّ ذِكر قصَّة فرعون، وكيف كذَّب برسالة موسى وأخذ عاقبة كفره، بينما كشفت سورة فُصِّلت كِذب المشركين في مكَّة.

رابعًا: التَّرابط بين الدَّعوة والعقاب: تُظهر السّورتان أنَّ الدَّعوة إلى اللّه وتلقّيها بكلِّ إخلاص مقابلها عواقب للَّذين يكذِّبون، وهذا يعكس فكرة أنَّ الرِّسالات تأتي مع دلائل، وعندما يرفضها النّاس، فإنَّ النَّتيجة تكون العذاب[1].

(1) الزّحيلي، التّفسير المنير: 24/ 179.

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤﴾ [فصلت: 1 - 4]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

التَّلويحُ بالعقاب عند ذكر آثار الهالكين وتعليق سبل النَّجاة بذكر الكتاب

لمّا ذكر الله تعالى في أواخر سورة غافر: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [غافر: 82]، إلى أن قال: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [غافر: 85]، عاقبةَ الَّذين كفروا في الدُّنيا، وضمَّن فيها كذلك وعيدًا وتهديدًا وتقريعًا لقُريش؛ ناسب أن تبدأ هذه السّورة الكريمة بذكر تنزيل الكتاب المتضمَّن مزيدًا من التَّقريع والتَّوبيخ والتَّهديد، فذكر أنَّه أنزل كتابًا مُفَصَّلًا آياته، بشيرًا لمن اتَّبَعَه، ونذيرًا لمن أعرض عنه، وأنَّ أكثر قريش أعرضوا عنه، ثُمَّ ذكر قُدرته على إيجاد العالم العلويِّ والسُّفليِّ[1]، ففي آخر سورة غافر جاء التَّنبيه على سنن الله تعالى في الأمم السّابقة، وفي مطلع هذه السّورة جاء التَّنبيه على المنقذ من الهلاك والعقاب؛ ليقع الانتفاع والارتداع عن الغيِّ والكفر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُصِّلَتۡ﴾: أصلُ التَّفصيلِ: من الفَصْل، وهو: قطعُ الشَّيء وإبانَتُه وتفريقُهُ عمّا سواه؛ ليتميَّزَ، ويستقلَّ، ويَبِينَ من غيره، فالتَّفصيل هو التَّبيِين[2]، والتَّفصيلُ ضدُّ الإجمالِ، وأصلُ (فصل):

(1) الغرناطيُّ، البحر المحيط: 9/ 283، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 294.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فصل)، والحمويّ، شمس العلوم: (التَّفصيل).

يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ وإبانتِه[1]، ومعنى فَصَّلَ اللّه آياتِ هَذا القُرآنِ، أي: بَيَّنَها، وأوضَحَ فيها ما يحتاجُ إلَيهِ الخَلْقُ مِن أُمورِ دينِهم ودُنياهُم[2].

2) ﴿بَشِيرًا﴾: (بشر) أصلُه ظهورُ الشَّيءِ معَ حُسنٍ وجمالٍ، والبشير هو فاعلُ (التَّبشيرِ)، وهو الإخبار بما يؤثِّر في البَشَرةِ (ظاهرِ الجلدِ) تغيُّرًا، وغلبَ استعمالُه في الإخبار بما يَسُرُّ، ويُفرِح، فهو ضِدُّ النَّذير[3]، ومنه جاءت البِشارةُ، ولا تكونُ البِشارةُ عندَ إطلاقِ الكلام إلّا بالخَيرِ، وقد تُقيَّدُ، وتُحمَلُ على الشَّرِّ[4]، والمُراد بالبشير هُنا: أنَّه يُخبرهم بالوعد السّارِّ لأوليائه بالجَنَّة والنَّعيم المُقيم؛ إن داوموا على العمل بما فيه من أوامر ونواهٍ[5].

3) ﴿وَنَذِيرًا﴾: النَّذير، مِن (نذر)، وهو أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف، ومنه الإنذار: الإعلامُ بالشَّيءِ الَّذي حذَّر منه في مدَّةٍ تتَّسع للاحتراز منه، فإن لم يكن في مدَّةٍ تَسَع التَّوقّي منه، فهو مجرَّد إخبارٍ وإبلاغٍ بوقوع المكروه، وليس إنذارًا منه[6]، المعنى هنا: ومُحذِّرًا ومُخوِّفًا لكم من عذاب اللّه؛ إن كفرتم به، وعصيتموه[7].

4) ﴿فَأَعْرَضَ﴾: أصلُ كَلِمَةِ الإعراضِ مِنَ العَرْضِ، وهوَ الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيءُ، وعَرِضَ يَعْرِضُ ويَعْرَضُ عَرْضًا، أي: ظَهَرَ، وبَرَزَ[8]، وقيلَ: أصْلُها مِنَ العَرْضِ، وهوَ: خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: اعتَرَضَ الطَّريقَ؛ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفْضُ إعراضًا؛ لأنَّ الرّافِضَ أظْهَرَ خِلافَ الشَّيءِ، أو لأنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وجْهِ الشَّيءِ[9]، والإعراض، الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، تقولُ: أعرَضَ عَنهُ، أي: صَدَّ، وتَوَلَّى عنهُ، والمُعْرِضُ: المُتَوَلّي، ويُطلَقُ الإعراضُ بِمَعنَى: الانصرافِ عَنِ الشَّيءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإعراضِ: الإقبالُ والانقيادُ والطّاعَةُ[10]، والمقصود بالإعراض في الآية: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ.

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 390، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 339.
(2) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 3.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (بشر).
(4) الطَّبري، تفسير ابن جرير: 2/ 482، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 69.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بشر)، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 105.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر)، والمصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 71.
(7) السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 463، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 85، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 302.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرض).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عرض).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ خصائصِ القرآنِ في الإعجاز والتَّنزيل والتَّفصيل والدَّعوة

ابتدأتِ السّورة الكريمة بالأحرف المقطَّعة، وهي تُشير إلى إعجاز القرآن[1]، وقد بيَّنتِ الآيات الكريمة أنَّ هذا القرآنَ تنزيل من عند اللّه الرَّحمن الرَّحيم، الَّذي شَملَت رحمته كُلَّ شيء[2]، وهو كتابٌ بيَّنَ اللّه فيه آياته بيانًا واضحًا كاملًا بلسانٍ عربيٍّ مُبين؛ ليَصِلَ إلى قلوب قومٍ يعلمون هذا اللِّسان، فيستطيعون فهْمَ معانيه وتأمُّله والاستفادة منه[3]، وقد اشتمل كونه مبشِّرًا للمؤمنين الصّالحين بالخير والرَّحمة، ومحذِّرًا للكافرين الَّذين يعملون السَّيِّئاتِ مِن العذاب والنِّقمة، ومع هذا التَّبشير والإنذار فإنَّ أكثر النّاس أعرضوا عن الاستماع إليه وتدبُّره، فهُم لا يسمعونه سماعَ قَبولٍ واستجابة[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ بالأحرف المقطَّعة:

الحُروفُ المُقطَّعة مفاتيح الإعجاز وحُجَّة البيان

كلُّ سورة افتُتحت بالحروف المقطَّعة؛ جاء بعدها ذِكْرُ الكتاب إلّا سورة مريم الَّتي جاء بعدها قوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾ [مريم: 2]، ولكن يلحظ أن سورة مريم تكرر في أثنائها ذكر الكتاب من ختام قصة زكريا ويحيى عليهما السلام، ثم مطلع كل قصة بدءا من قصة مريم عليها السلام، واختتاما بقصة إدريس عليه السلام.

ولعل في ورود لفظ الكتاب مباشرة هنا إشارة أنَّ هذه الحروف تحمل دلالة على الإعجاز القرآنيِّ؛ إذ إنَّ ذِكْرَ الكتاب بعد هذه الحروف يُبرز كونه الحُجَّة الباقية الَّتي تتحدَّى الإتيان بمثلها[5]،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/ 160، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 206.
(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 744.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 8/ 324، والسّعدي، تفسير السّعدي، ص: 744.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 338، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 142، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 5.
(5) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصلت)، ص: 16.

فمِثل هذا الافتتاح "مفادُهُ الإعجاز والتَّحدّي، فإنَّ القرآن العظيم هو من جِنْسِ هذه الأحرف، وهو يتحدَّى الجِنَّ والإنس بإعجازه وبيانه وروعته وسُموِّه"[1].

إثـارةُ انتبـاه السّـامعين لما سيُذكر في السّـورة من أحكام

والافتتاح بـ﴿حمٓ﴾ جاء بقصد إيقاظ السّامع وإثارة انتباهه إلى ما سُيلقى عليه من الأمور العظام - المُشتملة عليها هذه السّورة - وعلى خَطَرِ ما يُذكر في السّورة من أحكام[2]، وليكونَ أوَّل ما يقرع الأسماع من هذه السّورة مشتملًا على نوع من الإعجاز، وعلى صِدْقِ رسالة النَّبي ﷺ، فإنَّ النُّطق بأسماء الحروف مختصٌّ بمن خَطَّ، ودَرَسَ، فأمّا مِنَ النَّبيِّ الأمّيِّ الَّذي لم يُخالط الكتاب؛ فمستبعدٌ خارق للعادة، فهذه الحروف إذًا مسوقة للتَّنبيه، أو لتأكيد إعجاز القرآن، أو لتحدّي المُشركين[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿تَنزِيلٌ﴾:

التَّعبيرُ بالمصدر يحمل دلائل المَهابة وجلائل الإعجاز

جاء التَّعبيرُ بالمصدر ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ للدَّلالة على المُبالغة في تحقيق هذا الوصف، كما يُقال: فلانٌ عَدْلٌ وفلانٌ صَوْمٌ؛ إذ يُراد به المُبالغة في كونه عادلًا وصائمًا[4]، والتَّعبير بالتَّنزيل يُضفي مهابةً وعظمةً على الحدث؛ ليُشْعِرَ القارئَ أو السّامع أنَّه ليس كأيِّ نزول آخر، بل هو تنزيل من عند الرَّحمن الرَّحيم، يحمل دلائل الرَّحمة والهداية وجلائل الإعجاز والعظمة، فَصيغَ هذا المصدر؛ ليجعل القارئ يشهد في كلِّ حَرْفٍ منه أثَرَ عظمة الحدث وكماله، حيث يُعلن التَّنزيل عن ذاته كآيةٍ على القدرة الإلهيَّة والحجَّة القاطعة على صِدْقِ الوحي وعظمة الرِّسالة، وليرفع المعنى من مُجرَّد الإخبار عن حدث وقَع، إلى تصويره كحقيقة قائمة بذاتها مشحونة بالعظمة والجلال.

(1) حموش، التَّفسير المأمون، ص: 94.
(2) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 24/ 183.
(3) الهاشميّ، التَّفسير الميسّر، ص: 409، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 24/ 4866.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 348، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 321.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بالمصدر عن اسم المفعول:

فعلُ التَّنزيل من اللّه وحده بلا شريكٍ أو مُعينٍ

في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، جاء التَّعبير بـ"تنزيل"، وهو المصدر، بدلًا من اسم المفعول "المنزَّل"، من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشُّعراء: 192 - 193]، في صورة من صور المجاز المُرسل المشهورة بعلاقة المصدريَّة، كما يُقال: هذا الدِّرهم ضَرْبُ السُّلطان، أي: مضروب، والتَّعبيرُ بالمصدر لا يقف عند حدِّ الإخبار عن التَّنزيل، بل يحمل في طيّاته مبالغةً عظيمةً تُبرز أنَّ فعل التَّنزيل هو فعلُ اللّه وحده، بلا شريك أو مُعين؛ تحقيقًا لكونه وحيًا خالصًا مُنزَّلًا من لدن حكيم عليم، منزَّهًا عن كلِّ ادِّعاء بأنَّه مُقتبس أو منقول من صحف الأوَّلين[1].

دلالةُ وصف الكتاب بأنَّه ﴿تَنزِيلٌ﴾:

العناية الإلهيَّة تُحيط بالكتاب من مَصدَرِ إنزالِه إلى محلِّ قراره

كَثُرَ في القرآن وصف الكتاب العزيز بأنَّه (تنزيل)، والمرادُ من كون القرآن "تنزيلًا" إثباتُ المصدريَّة الإلهيَّة، فإنَّ اللّه تعالى هو الذي أنزله، وفي هذا إثباتُ العُلوِّ للّهِ تعالى، ووجْهُ ذلك: الإخبارُ بنزولِ الأشياءِ من عِندِه سبحانَه[2]، وأنَّه كتبه في اللَّوح المحفوظ، ثُمَّ أمر جبريل عليه السلام أن يحفظ تلك الكلمات المُقدَّسة، وينزل بها إلى النَّبيِّ محمَّد ﷺ؛ ليُبلِّغها للنّاس، ولمّا كانت هذه الكلمات تُفهم، وتُبلَّغ بوساطة نزول جبريل، سُمّي تنزيلًا، في إشارة إلى العناية الإلهيَّة الَّتي تحيط بالكلام من مصدره إلى وصوله للنَّبيِّ الكريم، فهذا الوصف يُمثِّل الحدثَ الأعظم، والتَّنزيل الأجلَّ الَّذي يختصر في ذاته كُلَّ مراحل الإعجاز الإلهيِّ: من الكتابة في اللَّوح المحفوظ، إلى وحي جبريل الأمين، إلى التَّبليغ الكامل للنَّبيِّ ﷺ، فجاءت الكلمة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 230، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 460.

(2) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 5/ 164.

بليغة المعنى، تحمل في حروفها مشهدًا كاملًا من العظمة الإلهيَّة، بدءًا من اللَّوحِ المحفوظ، وانتهاءً بتفهيم النَّبيِّ ﷺ؛ لتكون دليلًا على صِدق الرِّسالة وسُموِّ مَصدرها[1].

غرضُ تنكير لفظ ﴿تَنزِيلٌ﴾:

عظمةُ القرآن مكتسبةٌ من شرف مصدره

نُكِّر لفظ ﴿تَنزِيلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لإفادة التَّعظيم؛ إذ يُبرز عظمة هذا الحدث الفريد، في نوعه ومصدره ونتائجه، كيف لا؟ وهو القرآن الكريم العظيم، الَّذي لا يُضاهيه كلام، ولا يُماثله كتاب[2]، واكتسب التَّنكير معنى العظمة من سياق الكلام، فقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ مؤكِّد؛ لما أفاده التَّنوين من الفخامة الذَّاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة[3].

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

بيانُ مصدر التَّنزيل وتأكيد عظمته

حرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ابتدائيَّة تُظهر المصدر الأجلَّ الَّذي جاء منه هذا التَّنزيل، وتُجلّي للسّامع أنَّ عَظمة التَّنزيل تُستمَدُّ من عظمة من أنزله، فهو من الرَّحمن الَّذي وسعت رحمته كُلَّ شيء، ونِسبة التَّنزيل إلى الرَّحمن الرَّحيم تعدُّ إشارة بليغة تُبيِّن أنَّ القرآن الكريم هو محور المصالح الدّينيَّة والدُّنيويَّة، وأنَّه واقع بمقتضى الرَّحمة الإلهيَّة؛ إذ إنَّ المُنزَّل من قبل الرَّبِّ الَّذي اتَّصف بالرَّحمة الشّاملة الكاملة، لا بدَّ أن يكون مصدرًا للخير والمصالح كُلِّها[4].

نكتةُ خُلوِّ الخَبَرِ من المُؤكِّدات:

تقريرُ أمرِ الوحي دون الالتفات إلى المنكرين

الخبرُ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ خبرٌ عن

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 537، وحقّي، روح البيان: 8/ 225، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 321.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 230، ومدرس، مواهب الرحمن، ص: 25.

(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 300.

(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 160.

القرآن بأنَّه وحيٌ مُنزَّل من عند الله الرَّحمن الرَّحيم، وقد جاء هذا الخبر خاليًا من المُؤكِّدات مُجرَّدًا من أدوات التَّوكيد - مع أنَّ المقام مقام إنكار وجحود لهذا التَّنزيل من قِبَلِ كُفّار قُريش - إذ نُزِّل الخَبَرُ منزلة الأخبار المُؤكَّدة الَّتي لا تُنكَر؛ نظرًا لِتحقُّقه ووجود الأدلَّة والبراهين الَّتي تُصَدِّق ذلك، فلا ينبغي لمثل هذا أن يُنكر؛ كما نَزَّل النَّظم الكريم المُنكِر منزلة غير المُنكِر لعدم الاعتداد بإنكاره؛ لأنَّه لا دليل له على إنكاره[1].

براعةُ الجمع بين صفتي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

الــدّلالــةُ على سَعَة رحمة الله تعالى وتنوُّعها في الدُّنيا والآخرة

جمع النَّظم الكريم بين صفتي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الرَّحمة صفة ذاتيَّة للّه تعالى، وأن مُتعلِّقها منتشر في المخلوقات؛ إذ إنَّ الرَّحمة الإلهيَّة في حقيقتها تتوزَّع بين رحمة عامَّة شاملة للمخلوقات جميعها، وهذا ما يدلُّ عليه اسم اللّه الرَّحمن، ورحمة خاصَّة للمؤمنين في الدُّنيا والآخرة، وفيها من الرِّفق والعناية والرِّعاية الإلهيَّة ما فيها، وفي ذلك إيماءٌ إلى استحماق الَّذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنَّهم أعرضوا عن رحمته، وأنَّ الَّذين اهتدوا به هم أهل المرحمة لقوله بعد ذلك: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فُصِّلت: 44][2]، وبهذا يَتَّسِعُ المعنى بالجمع بين الرَّحمة العامَّة والخاصَّة، وهو ما يُؤكِّدُ عظمة الرَّحمة وتنوُّعها.

توجيهُ تخصيص صفتَي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بالذِّكر:

الرَّحمة الإلهيَّة هــي جــوهــر التَّنزيل لإنقاذ العالمين

آثر النَّظمُ الكريم صفتي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على سائر الصِّفات العليَّة بالذِّكر؛ لبيان أنَّ مناط تنزيل الكتاب هو الرَّحمةُ الإلهيَّة الَّتي جاءت لإخراج النّاس من ظُلمات الجهل والضَّلال إلى نور الهُدى

(1) أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 87.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 230.

والإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [العنكبوت: 51][1]، ذلك أنَّ الخلقَ بدون القرآنِ مرضى، "والقرآن مشتملٌ على كُلِّ ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وعلى كُلِّ ما يحتاج إليه الأصحّاء من الأغذية، فكان أعظم النَّفع مِنَ الله على هذا العالم إنزال القرآن النّاشئ عن رحمته ولطفه بخلقه"، فالرَّحمة الإلهيَّة هي جوهر هذا التَّنزيل[2].

دلالةُ صيغة فعلان وفعيل في الاسمين الجليلين:

رحمةُ الله تعالى دائـمـةٌ، وهي جوهر العناية الرَّبّانيَّة

لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بمعنى عظيم الرَّحمة؛ لأنَّ فَعلان صيغة مُبالغة في كثرة الشَّيء وعَظَمَتِه، أمّا صيغةُ (فعيل) في اسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فتُستعمل في الصِّفات الدّائمة ككريم، فالقرآن المنزَّل من الله تعالى العظيم الرَّحمة الدّائمة[3]، فهي رحمةٌ سرمديَّة دائمةٌ لا تبلغها صفات رحمة البشر، كما أنَّ الكلمتين مُتقاربتان في التَّركيب الصَّوتي والمعنى، مِمّا يُضفي تناغمًا وتلاؤمًا على نظم الآية، ومِمّا زاد من جماليَّة هذا النَّظم مجيئهما مُتتاليتين دون فاصل، وفي هذا ما فيه من لَفْتٍ للانتباه؛ لما ذُكِرَ من التَّنزيل وما سيُذكر من التَّفصيل، وكُلُّ هذا يعكس براعة الأسلوب القرآنيِّ وتَناسقه.

علَّةُ فصل الجملة عن السّابقة:

احـتـمـالُ كـون الجُملة الثّانية بَـدَلًا عن الأولى أو استـئـنـافًا بيانيًّا

جاء فصل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ عمّا قبله، وهو قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ وذلك لأنَّ هذه الجُملة جاءت بدلًا من الجُملة السّابقة بَدَلَ كُلٍّ من كُلٍّ، أي: هذا الَّذي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 230.
(2) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 12/ 324.
(3) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 12/ 324.

نُزِل من الرَّحمن الرَّحيم، هو كتاب فُصِّلت آياته قُرآنًا عربيًّا[1]، وجاءت جملة البدل لتوفية المعنى المُراد؛ إذ المقام يقتضي الاعتناء بهذا التَّنزيل؛ لكونه عظيمًا بالغًا من الكمال غايته، فالفصل لكمال الاتِّصال بين الجملتين، ويصحُّ عدُّ الثّانية استئنافًا بيانيًّا، أي: شبه كمال اتِّصال، وذلك على أن يكون السُّؤال عن حال التَّنزيل، فيأتي الجواب بأنَّه كتابٌ ثابتٌ لما فيه من تفصيل الآيات.

غرضُ تنكير لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

الإشـــارةُ إلى عظمة القرآن الكريم ومقامه السّامي

نُكِّر لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ لإفادَةِ التَّعْظيم والتَّفخيم للقرآن الكريم، وذلك باعتبار السّياق، فلمّا كان الكفّار في مقام شكٍّ وتكذيب؛ فلازم ذلك إشعار المخاطَبين بالمكانة العالية للقرآن الكريم عند الله ﷻ؛ إذ يُفصح هذا التَّنكير عن منزلة عظيمة ومقام سامٍ، يثير في النَّفس رهبةً وإجلالًا، ويدعو العقل للتَّأمُّل في قُدسيَّة ما في هذا الكتاب العظيم[2].

بلاغةُ الجمع بين لفظي ﴿كِتَٰبٌ﴾ و﴿قُرۡءَانًا﴾:

الجمع بين قوَّة العلم وقوَّة الانتشار والاستظهار

آثر النَّظم الكريم ذكرَ لفظِ الكتاب، ثُمَّ بَيَّنه بأنَّه قرآنٌ عربيٌّ، في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، ولم يقل ابتداءً: (قرآنٌ فُصِّلت آياته عربيًّا)؛ وذلك للجمع بين المكتوب والمقروء، وأنَّ موضع العَجَب عند الأمّيّين أن يكون مكتوبًا، ثُمَّ يوضِّح المكتوب بأنَّه مقروء، وهذا وإن ظَهر أنَّه إطناب، لكنَّه عند التَّدقيق إيجازٌ، وذلك أنَّ الكتاب قد يُظَنُّ فيه أنَّه نُزِّل؛ ليُحفظ، ويوضع في قراطيس محفوظة عند أصحابه، كما هو الشَّأن عند أهل الكتاب، لا سيَّما اليهود، فجاء ذكر لفظ ﴿قُرۡءَانًا﴾ لدفع هذا الأمر، وبيان أنَّه كتابٌ جامعٌ بين الكتابة التَّدوينيَّة والقراءة السَّماعيَّة، فهو يجمع بين قوَّتين: قوَّة العلم، وقوَّة الانتشار والاستظهار.

---

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 12/ 1280.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 230.

بلاغةُ الكناية في لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

الإيـمـاءُ إلى وجـوب كتابة القـرآن الكريم وجمعه

في تسمية القرآن الكريم أنَّه ﴿كِتَٰبٌ﴾ دلالةٌ على أنَّه تجب كتابته، وجَمْعُ صفحاته في مصحف محفوظٍ من التَّغيير والتَّحريف، وهو ما تحقَّق بفعل النَّبيِّ ﷺ وخيرة أصحابه من قادة المُسلمين، فالكتابُ كنايةٌ عن الأمر بكتابته، والإخبار عن الحفظ والصّيانة، وأنَّه سيُكتب فيما بعد، وهو ما يُؤيِّد البدء به قبل ذِكْرِ أنَّه قرآن[1].

بلاغةُ اختيار مُفرَدَة ﴿فُصِّلَتْ﴾ دون (بُيِّنت):

تفصيلُ البيانِ القـرآنيّ بإبراز مـعـانـيـه في المفاصل والمقاطع الجزئيَّة والكلّيَّة

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿فُصِّلَتْ﴾ دون (بُيِّنت)؛ وذلك لأنَّ التَّفصيل يدلُّ على البيانِ وزيادة، فالتَّفصيل هو بيانٌ لآيات الكتاب، بتمييزها لفظًا بفواصل ومقاطع، ومُيِّزت معنى، ففُسِّرت دلائله، وحُججه بحسب النَّظم والمعنى، فجُعِلت تفاصيل في أساليب مُختلفة، ومعانٍ مُتغايرة، من أحكام وقصص ومواعظ وأمثال، ووعد ووعيد[2]، وفصِّلت آيات القرآن أيضًا، فهي واضحة في مقاصدها، ولا يمكن أن يلتبس فهمها إلّا على مَن يصرُّ على تجاهل دلالتها الصَّريحة، فتتنوَّع معاني الآيات وتفاصيلها حسب اختِلافِ فُنونِ المَعاني الَّتي تَشْتَمِلُ عَلَيها، كما أنَّ آيات القرآن جاءت بلغة غنيَّة بالمعاني المُختلفة، خاليةٍ من أيِّ لَبْسٍ في الدَّلالة أو غموضٍ في الكلمات، ورغم تنوُّع معانيه، إلّا أنَّها لا تتناقض بل يُكمِّل بعضها بعضًا في تناغم، مِمّا يجعل القرآن الكريم مثلًا على البلاغة والبيان، فمعانيه مفصَّلة، وألفاظه غير مُشكلة[3]، كما فُصِّلَتْ آيات الكتاب في التَّنزيل، أي: نَزَلَ نُجومًا، لم ينزل مرَّة واحدة[4]، فاختيار

(1) الميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 462.

(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 184، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 538، وجمال، التَّفسير الفريد، ص: 2757.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 161، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 231.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 3.

لفظ ﴿فُصِّلَتۡ﴾ يُبرز معاني الدِّقَّة، الإحكام، والتَّفصيل في نظم القرآن ونزوله، وهذا المعنى أشمل من البيان.

غَرَضُ بناء ﴿فُصِّلَتۡ﴾ للمفعول:

توجيهُ الأنظارِ لما في الآيات من تفصيلٍ لا يقوى عليه إلّا منزِّل الكتاب

بُني فعل ﴿فُصِّلَتۡ﴾ للمفعول؛ وذلك لتحقُّقِ العلم بمن فَصَّل الآيات، وهو الَّذي أنزلها ﷻ، فالمقصود هو توجيه النَّظر لتدبُّر تفصيل الآيات، وما فيه من إعجازٍ بيانيٍّ، وترابط عجيب بين آياته، وما تضمَّنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب، جاء موَضَّحًا في آيات أُخَر، مُبيِّنًا فيها أنَّ اللّه فَصَّلَهُ على عِلْمٍ منه، وأنَّ الَّذي فَصَّلَهُ حكيم خبير، وأنَّه فَصَّلَهُ؛ ليهدي به النّاس، ويرحمهم، وأنَّ تفصيله شامل لِكُلِّ شيءٍ، وأنَّه لا شَكَّ أنَّه مُنَزَّل من اللّه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: 52]، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1][1].

توجيهُ تخصيص الآيات بالذِّكْرِ دون السّور:

ذِكرُ الآيةِ يشملُ السّورةَ دون العكس

آثرتِ الآيةُ الكريمة ذِكرَ تفصيل الآيات في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، دون أن يقول: (فصِّلت سوره)؛ وذلك ليعمَّ الآيات والسّور، فالتَّفصيل شاملٌ للآيةِ الواحدة، وللسّورة الكاملة، وذِكر الجزء يشملُ الكلَّ بخلافِ العكس.

دلالةُ النَّصبِ والمصدريّة في لفظ ﴿قُرۡءَانًا﴾:

عظمةُ القرآنِ وجلاله في الذّات والبيان الدّائم في الألفاظ والعبارات

جاءت كلمة "قرآنًا" مصدرًا منصوبًا، ولم تأتِ مرفوعة، كما في كلمة "كتاب"؛ لأنَّ النَّصب هُنا يحمل دلالة عظيمة، فهو على الاختصاص أو على المدح بالإشارة إلى هذه الميزة الفريدة الَّتي تميِّز بها عن سائر الكُتُب الدينيَّة الأخرى[2]؛ إذ لا يُمكن الإحاطة بجمال

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 66، والمغراويّ، التَّدبر والبيان: 30/ 7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 231.

وصفِ كونِه ﴿قُرۡءَانًا﴾، وجمالِه وعظمته ودلالاته، أو على المصدريَّة، أي: يقرؤه قرآنًا؛ إذ تُعبِّر اللَّفظة عن مصدر الفعل (قرأ)، ممّا يعني أنَّ القرآنَ هو كلام مقروءٌ باستمرار، يُتعبَّد بتلاوته في الصَّلوات، ويُتلى في المحاريب، وفي بيوت المؤمنين، وهو ذِكْرٌ دائمٌ يَذكُر به العباد ربَّهم وخالقهم في كُلِّ أحوالهم: قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبهم[1].

فائدةُ وصف القرآن الكريم بكونهِ عَربيًّا:

الاتِّســاق بين الألفاظ لتقوية المعاني وتعاضد المقاصد

وصفُ النَّظم الكريم القرآن بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾، وقد جاءت هذه الكلمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ في سياق حافل مهيب يفيض بالتَّقدير والتَّعظيم والتَّنويه، وهي ترتبط ارتباطًا بديعًا بكلمة ﴿فُصِّلَتۡ﴾؛ إذ تشتركان في الدَّلالة على البيان والإيضاح، فكلمة ﴿فُصِّلَتۡ﴾، تعني: البيان والتَّوضيح، و﴿عَرَبِيًّا﴾ مأخوذة من مادَّة (أعرب) الَّتي تُفيد الإظهار والإبانة، وقد سُمّيت اللُّغة العربيَّة بهذا الاسم؛ لأنَّها أبلغ اللُّغات وأبينها وأظهرها، بل أشرفها وأكملها وأعمقها غَورًا، وحسبك بهذا الشَّرف، وقد جاء ذكرها في هذا المقام، ومن المعروف أنَّ الصِّفة تَستمِدُّ قدرها من قدر موصوفها[2].

الامــتــنــانُ على الأمَّة بيُسر قراءة القرآنِ وفهمه

كما أنَّ وصف القرآن بكونه عربيًّا مَقروءًا باللِّسان العربي، فيه امتنان بسُهولة قراءته وفهْمه؛ لنزوله بلسان مَن نَزَلَ بَينَ أظهُرهم مع ما فيه من تكريم اللّه ﷻ للأمَّة العربيَّة، وتنويه بمكانتها، ورحمة إلهيَّة اختُصَّت بها؛ إذ كانت هذه المأدبة ممدودة للعرب في ساحتهم، وكانوا هم أهلها، والدّاعين إليها[3].

وفي هذا الوصف أيضًا إيذانٌ بتعليم اللُّغة العربيَّة للوقوف على معاني القرآن العظيم، فيجب على كُلِّ مُسلمٍ ومُسلمة أن يَتعلَّمها؛ لأنَّ القرآن لا يُقرأ إلّا بها[4].

---

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 224، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 320.
(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 321.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1281، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 8/ 280.
(4) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 2/ 1.

نوع اللّام ودلالتها:

إفادةُ التَّخصيص والاهتمام بالمقصودين في سياق البيان والإرشاد

المقصود بقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ العرب الَّذين نزل بلغتهم؛ ليفهموه، ويُفهموه غيرهم، وقيل: المُراد بالقوم أهلُ العلم أو النَّظر[1]، وعليه فاللّام يجوز أن تتعلَّق بقوله: ﴿تَنزِيلٞ﴾، أو بقوله: ﴿فُصِّلَتۡ﴾، أي: تَنزيلٌ من الله لأجلهم، أو فُصِّلت آياته لأجلهم، وبُيِّنت لهم؛ لأنَّهم هم المنتفعون بها، وإن كانت مفصَّلة في نفسها لجميع النّاس[2]، أو تكون (اللّام) مُتعلِّقة بمحذوف صفة ثانية لـ ﴿قُرۡءَانًا﴾، أي: كائنًا لقوم عرب[3]، وعلى هذا فاللّام تُفيد التَّخصيص والاهتمام بهم في سياق البيان والإرشاد، وليس المرادُ بالعربِ جنس العرب فحسب، بل العالم بالعربيَّة، فهُم الَّذين يعلمون اللِّسان، وإن كانوا في الأصل عجمًا.

بلاغةُ استعمال مفردة (قوم):

قيامُ الأمم لا يكون إلّا بالعلم، ولا يزدان إلّا بالمعرفة

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ كلمة (قوم) دون أن يقول: (للعالمين) ونحوه، وذلك للإيماءِ إلى أنَّ القوم إنَّما يقومون بالعلم، فهو أصلُ وجودِهم، وسرُّ إيجادهم، وأنَّه لا قائمة لأحد على الحقيقة إلّا بالعلم، ففي لفظ (قوم) إشارةٌ إلى القيام، وفي لفظ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ بيانٌ لعلَّة القيام وسببه.

توجيهُ تخصيص وصف القوم بالعلم:

تشريفُ العلماءِ بذكرهم في الخطاب

خَصَّ الله تعالى من يَعۡلَمُ في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ بالذِّكر؛ لأنَّهم هم المُنتفعون بتفصيله، كما خصَّهم بتفصيل الآيات في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: 5]، وفي سورة الأنعام في قوله تعالى:

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 66، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 337.
(2) الزَّمخشريّ، الكَشاف: 4/ 184، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 6/ 55.
(3) الزَّمخشريّ، الكَشاف: 4/ 184، والجاويّ، مراح لبيد: 2/ 357.

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ [الأنعام: 97] إلى غير ذلك من الآيات[1]، فاللّه تعالى فصَّل القرآن الكريم للَّذين يعلمون الأشياء، ويعقلون الدَّلائل، فكأنَّه فُصِّل لهؤلاء؛ إذ هم ينتفعون به، فخُصّوا بالذِّكر تشريفًا، ومن لم ينتفع بالتَّفصيل، فكأنَّه لم يفصِّل له[2]، وتفصيل الآيات لا يكون إلّا لمن يعلم القول، وأمّا مَن لم يعلم، أو مَن لم يطلب العلم؛ فاستوى وجوده وعدمه.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

الإيحـاءُ إلى تحقُّقِ العلم في العرب بما يقومون به في قابل أيّامهم

جاء فعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مُضارعًا في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ إشارةً إلى قابليَّتهم لاستمرار العلم وتَجَدُّد الفهْم بفضل ما يتميَّزون به من سلامة الفطرة، وسُرعة الاستجابة لحُجَجِ العقل والنَّقل، وحِدَّة الذِّهن، وفصاحة اللِّسان[3]، ويكمن في ثنايا هذا التَّعبير إيحاءٌ لطيف يحمل بشارة خفيَّة بأنَّهم سيذعنون يومًا للحَقِّ، وينقادون لِما جاءهم به رسول اللّه ﷺ، وسيُصبحون على دراية مُستفيضة بما أنزل اللّه، وسيتولَّون تبليغ رسالة النَّبيِّ ﷺ، الَّتي بلَّغها عن ربِّه سُبحانه، وستغدو معرفتُهم بالوحي الإلهيِّ أساسًا مَتينًا تقوم عليه علوم هذه الأمَّةِ، وترجع إليه الأجيال عَبْرَ الأزمان، وهذا ما كان، ووقع[4].

توجيهُ حذْفِ مفعول فعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

فـي الحـذف اتِّساعٌ في الدَّلالة مع روعة الإيجاز

حُذِفَ مفعولُ فعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، فلم يُعيَّن ما يعلمون؟ وذلك من بلاغة الاتِّساع في المعنى؛ إذ يُترك المحذوف؛ ليشمل كُلَّ ما يُمكن أن يدلَّ عليه السّياق؛ فهُم يعلمون هذا اللِّسان العربيِّ علمًا واسعًا، وهو العلم الأنفذ والأشمل والأدقُّ الَّذي تميَّزوا به، وفاقوا غيرهم فيه، وما داموا على دراية بهذا اللِّسان، وقد تجدَّد فهمهم له، فإنَّهم لا

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 4.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 284.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 137.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 137، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 322.

شكَّ يدركون عظمة هذا الكتاب المُنَزَّل، الَّذي فُصِّلَت آياتُه ببيانٍ لا مثيل له، ومن كانت هذه حاله، لا يمكن أن تخفى عليه الآية الباهرة والحُجَّة القاطعة الَّتي أنزلها اللّه إليهم[1].

ويحتمل أن يكون من باب تنزيل الفعل المتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازم، وذلك لبيانِ أنَّ مِن شأنهم أن يعلموا، وأنَّهم مؤهَّلون بفطرتهم للعلم بما أودعه اللّه في كتابه العزيز، ففيه تبكيتٌ لهم في كَونِهم لا ينظرون مَحاسنه؛ كي يهتدوا بها[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة المُبالغة:

بلـغَ الـقـرآنُ الكريم الغايةَ والـكـمـال في اتِّصافه بالبشارةِ والنِّذارة

دلَّ وصْفُ الكتابِ في قوله ﷻ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ على المعنى العميق لكلمتَي ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، والمعنى إمّا بشيرًا لمن آمن بالثَّواب والجنَّة ونذيرًا لمن كفر بالعقاب والنّار[3]، فالتَّصوير البلاغيُّ هُنا يرتقي بالمعنى من خلال استعمال صيغة المُبالغة (فعيل)؛ إذ جَعَلَ الكتابَ نفسَه هو المُبَشِّرُ والمُنذر؛ ليُبرز كمال الصِّفة فيه[4]، فهو الفاعل للتَّبشير والإنذار، وهذا الأسلوبُ التَّشخيصيُّ يُظهر عظمته في أداء وظيفتَي التَّبشير والإنذار؛ إذ إنَّ القرآن بلغ الغاية والكمال في اتِّصافه بهاتين الصِّفتين، فجاء المعنى بهذه الصّورة أبلغَ وأعمق، ممّا يجعل إدراك المعنى أظهر وأقوى.

بلاغةُ التَّشبيه البليغ:

تشبيهُ المعاني بـالـشُّـخـوصِ دالٌّ على وظيفة البيان

يحتمل أن يكون البشيرُ اسمًا للمُبَشِّر في قوله وتعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وهو المُخبِر بخبرٍ يَسُرُّ المُخبَر، والنَّذيرُ كذلك الَّذي يُخبر بأمرٍ مخوف، فيكون في الكلام تشبيه بليغ؛ إذ شُبِّه القرآن الكريم بالبَشير لما يحتويه من آيات تُبشِّر المؤمنين الصّالحين بالخير

(1) البقاعيّ، نَظم الدُّرر: 17/ 137.
(2) البقاعيّ، نَظم الدُّرر: 17/ 137، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 322.
(3) السّيواسيّ، عيون التّفاسير: 4/ 62.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 17/ 98.

والثَّواب، وبالنَّذير لما يتضمَّنُه من وعيد للكافرين وأهل المعاصي[1]، وتشبيه المعاني بالشُّخوص يدلُّ على وظيفة المعاني في البيان عن المقاصد، فذِكْرُ المشبَّه - وهو القرآن - والمشبَّه به - وهو البشير - وحذف وجه الشَّبه وأداته على سبيل التَّشبيه البليغ.

بلاغةُ المجاز العقليِّ:

القرآنُ مشحونٌ بالأسباب والأوصاف الَّتي تحصل بها البشارة والنِّذارة

يحتمل كذلك لفظ البشارة والنِّذارة في قوله وتعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ما يكون في العاقبة من الخير والشَّرِّ، أو يُقال: البشارة هي الدُّعاء إلى ما يوجب لهم من الحسنات والخيرات في العاقبة، والنِّذارة هي الزَّجر عمّا يوجب لهم من السَّيِّئات والمكروهات في العاقبة، والنِّذارة هي الزَّجر، وكلُّ هذا حاصل في وصف القرآن الكريم بكونه بشيرًا ونذيرًا، فمع كونه جاء بشيرًا بالثَّواب العاجل والآجل، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل؛ ذَكَرَ أيضًا الأسباب والأوصاف الَّتي تحصل بها البشارة والنِّذارة[2]، فهو يُبَشِّر بالأعمال الصّالحة، ويُغري بها، ويُنذر من الرَّذائل والمفاسد، ويردع عنها، فيكون على هذا المعنى مجازًا عقليًّا؛ إذ أسند النَّظم الكريم البشارة والنِّذارة إلى القرآن؛ لأنَّه سَبَبٌ لهما.

نُكتة تقديم ﴿بَشِيرًا﴾ على (نذيرًا):

مقتضى الرَّحمةِ الإلهيَّة تبشير العباد، فإن أعرضوا؛ حصل الإنذار

قُدِّم لفظُ البشارة على النِّذارة في قوله وتعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ ليوافق السّياق في وصف القرآن بأنَّه تنزيلٌ من الرَّحمن الرَّحيم، فإنَّ شأن الرَّحمن الرَّحيم أن يُبشِّر عبادَه، فإن أعرضوا؛ أنذرهم، وليدفع عن الأذهان وهْمَ أنَّ التَّنزيل جاء لعقاب المُخالفين فقط، بل ليؤكِّد أنَّ الغاية الأولى من إنزال القرآن هي دعوة النّاس إلى الخير وترغيبهم في طاعة الله، فجاءت البشارة أوَّلًا؛ لتفتح أبواب الرَّحمة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 232.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 9/ 59، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 897.

والرَّجاء، فإن أعرضوا، ولم يستجيبوا؛ جاءت النِّذارة لتُحذِّرهم من عذاب اللّه، وتخوِّفهم من عاقبة كُفرهم، وهكذا التَّرتيب بَيْنَ التَّرغيب والتَّرهيب يعكس منهج الرَّحمة الإلهيَّة.

بديعُ الطِّباق في لفظَي ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾:

التَّقابلُ بين الصِّفات منادٍ على جميل الامتنان

في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ محسِّنُ الطِّباق؛ تحقيقًا لوصف اللّه تعالى كتابه بصفتَي النِّذارة والبشارة، فهو بشير لمن آمن واتَّقى، ونذير لمن أعرض، وتولّى، فكون القرآن ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يُشيرُ إلى أنَّ الاحتياج إليه مِن أعظم الضَّرورات، وأهمُّ المُهمّات؛ إذ به يُعرف السَّبيل إلى الثَّواب الأبديِّ، ويُجتنَب العقاب السَّرمديُّ، فإذا أدرك المُخاطَبون هذه المنافع العظيمة، ثُمَّ أعرض أكثرهم عنه، ولم يصغوا إليه سماع قَبول؛ دَلَّ ذلك على أنَّ المهديَّ من هداه اللّه، ومن يضلله؛ فلا هادي له[1].

دلالةُ العطف بين الحالين المتقابلين:

بشارةُ الطّائعين ونذارة العاصين تصريحًا وتعريضًا بهم

العطفُ في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يحتمل أن يجمع بَيْنَ حالَين مُتقابِلَيْنِ، أي: بشيرًا لقوم ونذيرًا لآخرين[2]، ويحتمل أن يكون جامعًا للحالين في طائفةٍ واحدةٍ تصريحًا وتعريضًا، أي: بشيرًا للطّائعين تصريحًا، ونذيرًا لهم تعريضًا؛ لئلّا يقعوا فيما وقع فيه العاصون، ونذيرًا للعاصين تصريحًا، وبشيرًا لهم تعريضًا؛ كي يُقبلوا على الإيمان، فينالهم ما نال المؤمنين[3]، وهذا هو الأولى في الكلام.

نوع الفاء ودلالتها في ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾:

تصويرُ حال المُعرضين في تغافلهم عن الحقِّ المُبين والهدي المُستبين

الفاء في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾؛ لتفريع الجملة على السّابق، أي: فأعرض أكثر هؤلاء عمّا في القرآن من الهدى، فلم يهتدوا، ومن البشارة، فلم يعنوا بها، ومن النِّذارة فلم

(1) النَّيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن: 6/ 48.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 232.
(3) البقليّ، عرائس البيان: 3/ 242.

يحذروها، فكانوا في أشدِّ الحماقة؛ إذ لم يعنوا بخير، ولا حذروا الشَّرَّ، فلم يأخذوا بالحيطة لأنفسهم[1]، وهي تدلُّ على التَّعقيب؛ لأنَّه حديث عن الأحياء من الكفّار؛ إذ ذُكِّروا، فأعرضوا عقيب ما ذُكِّروا، وكان مُنتظرًا منهم أن يُؤمنوا، فهذه الفاء تُفيد أنَّهم أعرضوا فور نزول هذا عليهم من غير مُراجعة وتدبير، وتُفيد السَّببيَّة على خلاف الغَرَضِ؛ لأنَّ ما قبله سَبَبٌ للقَبول، وهؤلاء جعلوه سَبَبًا للإعراض لفساد شكيمتهم، إنَّهم أعرضوا، والإعراض يعني الانصراف والرَّفض من غير نَظَرٍ، وليس هذا هو موقف العُقلاء من هذا الأمر الجَلَل[2].

دلالةُ التَّعبير بلفظ (أكثر):

إضـفـاءُ معـانٍ مخصوصة على بعض الألفاظ؛ إيقاظًا للهمم، وتـصـحـيـحًـا للموازين

لقد وظَّف القرآن الكريم لفظ (الكثرة) في سياقات تدلُّ - في الغالب - على التَّقريع والذَّمِّ، فقد ذُكِرت في مواطن الكفر والسّوء والاستخفاف والاستهزاء؛ ليصوِّرها لا بوصفها فضيلةً يعتدُّ بها، فالكافرون والمجرمون والطّاغون والضّالون والمُفسدون والجاحدون والفاسقون كثيرون، وهي كثرة الهباء المنثور الَّذي لا تقوم له قائمة أمام سُلطان الحَقِّ القيّوم، تدبُّرًا في هذه الآية الكريمة ونظائرها في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾ [المائدة: 66]، وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحج: 18]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الرّوم: 8]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٧١﴾ [الصافات: 71]، فالبلاغة القرآنيَّة تتجلَّى في ربط الكثرة بمعاني الباطل والضَّلال في سياقات الكفر والمُعاندة والانصراف عن الحقِّ، وتأتي "القِلَّة" في بيانه عنوانًا للرَّشاد والحقِّ والسَّير إلى الخير، لا يضيرها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 232 - 233.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 116، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 322 - 323.

قِلَّة عددها، في مشهدٍ يعلو فيه الحقُّ، ولو قَلَّ أتباعه، ويزهق فيه الباطل، مهما كثرت جموعه، وفي هذا إضفاءٌ لمعانٍ مخصوصة على بعض الألفاظ؛ إيقاظًا للهِمَم، وتصحيحًا للموازين.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

الإعراضُ صادرٌ عن معظم القوم المكلَّفين

يرجعُ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ على القومِ المذكورين في الآية السّابقة، أي: أكثر المُكلَّفين المأمورين من عنده سُبحانه بامتثال ما فيه من الأوامر والنَّواهي والأحكام والَّذين بلَّغهم الرَّسول ﷺ ما أنزل عليه من القرآن المجيد في البلد الأوَّل لدعوته، وهو مكَّة المكرَّمة[1]، فقيَّد الأكثر؛ لأنَّ بعض القوم - وهم المؤمنون - يقبلون إليه بشراشره؛ فالضَّمير راجعٌ إلى القوم، ولو رجع إلى الكُفّار المذكورين حُكْمًا؛ لأشكل قيد الأكثر[2].

بلاغةُ الكناية باختيار مفردة الإعراض:

ذِكــرُ دليـلِ التَّكذيبِ أبلغُ في تقبيح المكذِّبين

ذِكرُ الإعراضِ في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ كنايةٌ عن صفةِ التَّكذيب والكُفر؛ إذ ذُكِرَ الإعراضُ؛ ليشير إلى حالهم تجاه الحقِّ دون التَّصريح المُباشر بالكفر أو التَّكذيب، فالمُعرض ينصرف بفكره وحواسِّه عمّا يوجَّه له[3]، وهذا ما يُضفي على المعنى عُمقًا بلاغيًّا في إبراز موقفهم وحالهم في صدودهم عن اتِّباع الحَقِّ، وذِكر الإعراضِ دون الكفر أو التَّكذيب من باب ذِكر الدَّليل على المطلوب، وبيان أبشع ما في الكفر من الإعراض عن الحقِّ المبين.

نوعُ الفاء ودلالتها:

بيانُ شِدَّةِ صُدود المعرضين بتعطيل حواسِّهم عن سماع الحَقِّ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ تفريعٌ بديعٌ على الإعراض، يُبَيِّنُ شِدَّة صدودهم، فهُم لا يُلقون بأسماعهم للقرآن

---

(1) الجيلانيّ، تفسير الجيلانيّ، ص: 189.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 116.
(3) الميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 462.

أصلًا ناهيك عن تَدبُّره والتَّفكُّر فيه، فجاءت الفاء لتجمع بين ذِكر الإعراض والتَّعطيل الكامل لحواسِّهم(1).

غرضُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ المنفيِّ:

القصد إلى تقوية حكم الإعراض وتأكيده

جاء النَّظم الكريم بتقديم المسند إليه (هم) على المسند الفعليِّ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ دون أن يقول: (فلا يسمعون)، وذلك لإفادة تقوية الحكم وتأكيده(2)، فالجملة مُؤكَّدة بتقديم المسند إليه (هم) على الخبر الفعليِّ ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾، فهي تؤكِّد إعراضَهم ونفيَ سماعهم، وإنَّما كان التَّوكيد؛ لأنَّه أمرٌ مستغرب؛ لأنَّ المُنزَل قرآن عربيٌّ لقوم لهم عِلمٌ بهذا اللِّسان يألفون سماعه، ويحسنون تذوُّق الكلام الجيِّد، وقد خالفوا مألوف عاداتهم، كما أنَّ تقديم المُسند إليه هُنا يُفيد الحصرَ في هؤلاء المُعرضين والنَّفيَ لعموم الأوقات وهكذا كان شأنُهم وحالهم في صدودِهم وإعراضهم حالًا ومآلًا، كما أوضحه النَّظم الكريم في هذه السّورة بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26](3).

بلاغةُ الكناية ودلالتُها:

نفيُ الانتفاعِ بالخيرِ دليلُه جحدُ آثارِ نِعَمِ الله تعالى

في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ كنايةٌ بديعة عن عدم الطّاعة والقبول؛ إذ عُبِّر عن انتفاء الاستجابة بنفي صفة السَّمع عنهم؛ لأنَّ مَن لم يسمع القرآن؛ فهو كالأصمِّ الَّذي لا يسمع، فجاء نفي السَّمع؛ ليشير بدلالته إلى غياب الانتفاع والامتثال، وهي كنايةٌ تجمع بين المعنى ودليله(4)، مع ما تحويه من ذمِّهم في وصفٍ كنائيٍّ يُراد منه التَّعريض بعدمِ انتفاعهم بنعمة اللّه تعالى الَّتي أودعهم إيّاها، وهي نعمة السَّمع.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 24/ 233.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 24/ 233.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 116، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 322 - 323.

(4) محمد صالح العليانيّ، سورة فصّلت دراسة بيانيّة، ص: 391 - 392.

تصويرُ حالِ أهل الكفر المُمْعِنِ في الجُحود والصُّدود

بلاغةُ الاستعارة التَّصريحيَّة:

لا يُقصد بنَفْي السَّماع في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ انتفاء السَّمع الحسّيِّ، بل نفي سماع التَّدبُّر والاتِّعاظ النّافع الَّذي يُعتدُّ به[1]؛ إذ إنَّهم يسمعون بآذانهم خطاب الرَّسول ﷺ وأصحابه، لكن قلوبهم غُلْفٌ، وعقولهم خاوية من إدراك معانيه، فجاء النَّفي تصويرًا لحالهم؛ إذ جعل سماعهم الظّاهري بمنزلة عدم السَّماع؛ لأنَّ أثره مفقود، فصار وجوده وعدمُه سواء، في مشهد يجسِّد قسوة قلوبهم وجحودهم للحَقِّ[2]، ففي قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾ إشارةٌ بلاغيَّة عميقة، تعني: أنَّهم لا يقبلونه، رغم سماعهم له بآذانهم، ففي الكلام استعارة تصريحيَّة تبعيَّة دقيقة؛ إذ شُبِّه عدم القبول بعدم السَّماع لجامع غياب التَّأثُّر بالحَقِّ[3]، وهي تُصوِّر حالَهم المُمْعِنَ في الجُحود والصُّدود، ففي الجملة استعارةٌ وكنايةٌ، كما بُيِّن في النُّكتة السّابقة.

بيانُ ذمِّ الكفر بذكرِ سببِه والمداومة عليه

براعةُ اجتماعِ الكنايات:

في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ كنايتان: الكناية الأولى: كنايةٌ عن الكفر في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ تلمح إلى صُدودهم عن الحقِّ وإنكارهم له، والكناية الثّانية: كنايةٌ عن الإصرار على الكفر في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، والكنايتان بالغتان مَبلغًا عظيمًا في الذَّمِّ والقدح لصنيعهم[4]، والكنايتان متعاضدتان في بيان الكفر ابتداءً، وذكر سببه ثانيًا، والإيماء إلى استمراره ثالثًا.

حُسْنُ الفاصلةِ في توافق المبنى مع المعنى

دلالةُ حذفِ مفعول: ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

حُذِفَ مفعول فعل ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾، والمعنى: لا يسمعون القرآن، وهو من باب أصغيت إليه، أي: أُذني، فالمعنى: أنَّ له مفعولًا معلومًا، ولكنَّه حُذِفَ[5]،

---

(1) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 126، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 4.

(2) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 12/ 326.

(3) أطفيش، تيسير التَّفسير: 12/ 395.

(4) أطفيش، هميان الزّاد، ص: 189.

(5) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 323 - 324.

وإذا أنعمنا النَّظر في الآية الكريمة؛ نجد فيها مشهدين متكاملين: الأوَّل إعراض المشركين وانقطاعهم عن القرآن الكريم، والثّاني يُفهم من الحذف في قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾؛ إذ إنَّ الحذف يحمل في طيّاته معنى الانقطاع، فكان الانقطاع اللَّفظي تعبيرًا عن الانقطاع المعنويِّ، وهكذا يتجلّى الإعجازُ البيانيُّ بأبهى صوره في توافق نسق المبنى مع المعنى.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التَّفصيل والبيان:

التَّفصيلُ لأمورٍ متعدِّدة والتَّبيين لأمرٍ واحد

التَّفصيل: جعْلُ الشَّيءِ فصولًا متمايزة، ومنه المُفَصَّل من القرآن سُمّي به لكثرة فصوله، أي: سوره[1]، ويُطلق، ويُراد به التَّبْيينُ[2]، ويُطلق على تمييز الشَّيءِ من الشَّيءِ وإبانته عنه[3]، وهذا الأصل ومنه الفاصل، وهو الحاجز بين الشَّيئين، قال تعالى: ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الأنعام: 55]، أي: نأتي بها مُتَفَرِّقَة شيئًا بعد شيء[4]، وكقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ [الأعراف: 133]، أي: بَين كلِّ اثنتين فَصْلٌ، تمْضي هَذِه، وتأْتي هَذِه، بينَ كلِّ اثنتينِ مُهْلَةٌ[5]، وهذا التَّفصيل موجود في القرآن، حيث يذكر صفة أهل الطّاعة مثلًا، ويتبعها بصفة أهل الإجرام، فليس الموضوع واحدًا، وإنَّما يذكر أمورًا متعدِّدة من الحياة، فهذا تفصيل.

بينما يُطْلَق التَّبيين على توضيح أمرٍ واحد كتبيُّن الكلمة الواحدة، أو تبيُّن المسألة الواحدة، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]، فاستعمل ﴿نُبَيِّنُ﴾ [المائدة: 75]، أي: نوضِّح، فالتَّفصيل هنا غير التَّبيين مع أنَّ كلَّها إيضاحٌ.

(1) المناويّ، التَّوقيف، ص: 104.
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (فصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 154.
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (فصل).

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ [فصلت: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ من وصـف إعـراض الـكـافـرين إلى ذِكرِ أقوالهم في الصُّدود

لمّا أخبرتِ الآيات السّابقة عن إعراض الكُفّار عن القرآن الكريم وعدم سماعهم له؛ ناسب زيادة بيان حالهم بأقوالهم الَّتي صدرت عنهم، فكَشَفَ النِّقاب في هذه الآيةِ عن مدى نُفرتهم ومُباعدتهم، فأخبر تعالى عنهم بالمقالة الدّالَّة على امتناع قلوبهم، فجاء تصريحهم شاهدًا على حالهم؛ إذ قالوا بلسان العناد والجحود: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾، فأظهروا بهذا القول استغراقهم في الصُّدود والإعراض[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَكِنَّةٖ﴾: جمع كِنٍّ، وهو الغطاء، يقال: كنَّ الشَّيء يكنُّه كنًّا، وكنونًا، وأكنَّه، وكننه: ستره وغطّاه[2]، وكَنَّ أَمۡرَه عَنۡهُ كَنًّا: أخفاه، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[3]، والكنان: وقاء كلِّ شَيء وستره[4]، ومعنى أكنَّة هُنا: أغطيةٌ[5].

2) ﴿وَقۡرٞ﴾: الوَقْرُ: ثقلٌ في الأذن، تقول: وقَرَتْ أذني عن كذا تَقِرُ وقْرًا، أي: ثَقُلت عن سمْعِهِ[6]، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيء[7]، والمعنى هُنا: صَمَمٌ وثِقَلٌ يمنعنا من استماع قولك[8].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 540، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 285.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والراغب، المفردات: (كنن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كنن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كنن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 197، والسَّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 57.
(6) الفراهيديّ، العين، والراغب، المفردات: (وقر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقر).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 197، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 540.

3) ﴿حِجَابٌ﴾: سِترٌ، وكلُّ شيءٍ مَنَعَ شَيئًا من شيءٍ، فقد حَجَبَه حَجْبًا، أي: ستره[1]، والحجب سَتْرٌ للشَّيء بحائل قويٍّ يحجز غيره عنه[2]، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ مِن الوُصولِ[3]، والحجاب ما يَستُرُ المطلوبَ، ويَمنَعُ مِن الوُصولِ إليه[4]، والمعنى هُنا: سِتْرٌ مانع يمنعنا من التَّواصل إليك[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـوائقُ القلـوب والآذان وحواجز الجحود تجسِّد إعراض المكذِّبين عن الحقِّ

تُبيِّن الآية الكريمة ما قاله المعرضون عن القرآن؛ إذ نطقوا بحال قلوبهم بأنَّها مغلَّفة بأغطية تحجب إدراكَ القرآن، وفي آذانهم ثِقلٌ يمنعها من السَّماع، فلا يستطيعون إدراك ما يُدعون إليه، وهناك حاجزٌ يفصل بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ، يمنعهم من رؤيته، ثم خاطبوا رسول الله ﷺ: فاعمل - يا مُحمَّد - بما تراه في دينك، فإنَّنا مُتمسِّكون بديننا الَّذي اخترناه لأنفسنا، ولن نَتَّبِعَك فيه[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

تفصيلُ أقـوال الـكـافـريـن في الإعــراض بعد وصف أحوالهم

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ هو عطفٌ على ﴿فَأَعۡرَضَ﴾، أو حالٌ من ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾، أو عطفٌ على ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾ في الآية السابقة، أو حالٌ من الضَّمير في ﴿فَهُمۡ﴾، والمعنى: أنَّهم أداروا ظهورهم مُصَرِّحينَ بعدم الاكتراث، ومتَّخذين موقفًا صارمًا بالجفاء والعداء، وهذا العطف تفصيلٌ للإعراض عمّا وُصِفَ به القُرآنُ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي شأنُها أن تُقَرِّبَهم إلى تَلَقّيه، لا أن تباعدهم عنه، وتزيدهم في

(1) الفراهيديّ، العين: باب الحاء والجيم والباء معهما: حجب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (حجب).
(2) مُحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حجب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حجب).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 360.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 330.
(6) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 7/ 161، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 8/ 325، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 744.

الرَّفض والصُّدود، وقد جاء هذا التَّفصيل في أقوالهم الَّتي منعتها من الانتفاع بالقرآن، كلمةً كلمةً؛ إذ كانت تلك الأقوال حواجزَ وحُجبًا حالت دون أن يصلوا إلى فهْم معانيه والاهتداء بهديه، فالآية السّابقة حديث عن أفعالهم وهذه الآية حديث عن أقوالهم، وأنَّهم رفضوا التَّنزيل فِعْلًا وقولًا[1].

نكتةُ ذِكر القلوب قبل الآذان:

كَونُ القلوب مَحَلَّ المعرفة وسلطان البدن وموطن الإيمان والكُفْرِ

في الآية السّابقة قال تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، فالَّذي يظهر أنَّ ما يُناسبه البدء بذكر الآذان لا القلوب في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، لكنَّه بدأ بذكر القلوب، فالآذان على لسان الكافرين، ونُكتة ذلك أنَّ القلوب مَحَلُّ المعرفة وسلطان البدن، والسَّمعُ والبصر هما الآلتان المُعينتان لتحصيل المعارف، والسَّماع كناية عن الاستجابة - كما سبق - فبدأ القول بذكر العِلَّة ثُمَّ نتيجتها[2]، ويُلفتنا ابتداؤهم بذكر قلوبهم، وكأنَّهم يعلمون أنَّ هذا التَّنزيل قاصدٌ إلى قلوبهم؛ لأنَّها موطن الإيمان والكُفْرِ وموطن التَّغيير وأنَّ النُّفوذ إليها هو رسالة الأنبياء والمُصلحين والمُربّين، وأنَّهم كانوا يضنّون بما فيها مِمّا كان عليه آباؤهم، ويروعون بها عن سماع كُلِّ ما يؤدّي إلى مُراجعة المكنون فيها من مألوف عاداتهم وما ترسَّخ من عقائد وعوائد[3].

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفيَّة دون حرف الاستعلاء:

تصويرُ شِدَّة الرَّفض والإعراض في النُّفوس والقسوة في القلوب

الشّائعُ في التَّعبير أنَّ الغطاء والسَّتر يكون فوق الشَّيء المكنون المستور، ولا يكون المكنون في الأكنَّة إلّا على سبيل المبالغة في تصوير السَّتر والاحتجاب، فالقلوب هنا لم تكن تحت الغطاء، بل دخلت

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 233.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 541، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 285.
(3) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 324.

فيه، واستكنَّت داخله، مِمّا يعكس شِدَّة الحَجْبِ وتَمَكُّن الغِلاف، فحرف الظَّرفيَّة ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ جاء ليُشير إلى هذا المعنى، وليظهر شدَّة الرَّفض والمبالغة في الإعراض، فالظَّرفيَّة تُفيد استيعاب الأكنَّة القلوب؛ لأنَّ الأكنَّة لا بدَّ مِن تجاوز أطرافها على المظروف، فكأنَّهم قالوا: الأكنَّة محتوية على القلوب ساترة من جميع جوانبها، وليس هذا حاصلًا في حرف الاستعلاء؛ لأنَّ الأكنَّة حينئذٍ ساتر سطحها، فلا يلزم من هذه الاحتواء من كلِّ جانب، وإذا تأمَّلنا في هذا، نجد أنَّ القلوب لم ترفض فقط بعد السَّماع والنَّظر، بل إنَّها من البداية غُلِّفت، وغُطّيت، فلم يكن هناك سماع أو نظر، فحرف الظَّرفيَّة في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ مُستعار استعارة تصريحيَّة تبعيَّة لتَمَكُّن هذا الكِنان أو الغطاء من قلوبهم حتَّى كأنَّ قلوبهم مظروفة فيه، ففيه تشبيهٌ للأكنَّة بالظَّرف والقلوب بالمظروف وهذا من أدلِّ الأدلَّة على القَسوة العظيمة[1]، فالمقام في الآية مقام إخبار عن موقفهم من التَّنزيل، وأنَّهم قد بلغوا كُلَّ مَبْلَغٍ في رفضه وكراهيَّته، فجاء ذلك عن طريق التَّصوير لحالهم في أسلوب يتناسب مع المقام في أوفى بيان.

بلاغةُ الاستعارة في مفردة الأكنَّة:

تصويرُ حيلولةِ وصول الدَّعوة إلى عقولهم

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ شَبَّهَ قلوب الكفرة بالشَّيء المحويِّ المحاط بالغطاء المحيط به بحيثُ لا يصيبه شيءٌ من خارج من حيثُ نُبُوُّها وتباعدها عن إدراك الحقِّ واعتقاده، ووجه الشَّبه حيلولة وصول الدَّعوة إلى عقولهم، كما يحول الغطاء والغلاف دون تناول ما تحته، وهذا على طريق الاستعارة المكنيَّة[2].

(1) الطِّيبي، حاشية على الكشّاف: 13/ 563، والعليانيّ، سورة فصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 383.
(2) زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 7/ 359، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 233.

وهذه الاستعارة تُبيِّن هذا الموقف المُتعنِّت العجيب، عن طريق تصوير المانع والحاجز المعنويِّ، الَّذي بينهم وبين دعوة الرَّسول ﷺ في صورة غطاء كثيف مانع، غلَّف قلوبهم، وغطّاها، فلا يصل إليها الحقُّ.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

تصويرُ الرَّفض النَّفسيِّ لقَبول الدَّعوة إقامةٌ للحجَّة على المشركين

وردت آيات مُشابهة للآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ [الأنعام: 25]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ [الإسراء: 45 - 46]، فاستعمل في الآيتين حرف الاستعلاء، وذلك أنَّه إخبارٌ من الله تعالى بعدم نفاذ الحقِّ إلى أسماع الكافرين، وعدم إشراق نور الهداية على قلوبهم، وهذا يكفي فيه جعل الأكنَّة مُستعليةً على القلوب دالَّة على أنَّها أغطية تحول دون وصول الهداية إليها، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ فقد جاءت على ألسنة المشركين، مكتسبة ثوبًا من المبالغة في رفض الاستماع، مُؤكِّدين أنَّ حرفًا واحدًا من كلام الرَّسول ﷺ لن يصل إلى آذانهم، فالقلوب مُحاطةٌ بأغطية كثيفة، بل شملتها كما يُشمل الظَّرف بالمظروف؛ إمعانًا منهم في تضخيم الموانع والحواجز، فأعلنوا أنَّهم قد أقاموا حجابًا عظيمًا يحول دون وصول صوت الرَّسول ﷺ إليهم؛ لذا كان حرف (في) هو الأنسب؛ للدَّلالة على احتواء الأكنَّة للقلوب وإحاطتها بها في هذا السّياق البلاغيِّ[1].

نُكتةُ تنكير لفظ ﴿أَكِنَّةٍ﴾:

السّياقُ أصلٌ في بيان معاني التَّنكير

معنى قوله تعالى: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾، أي: أغطية عظيمة لا ينفذها بصر ولا شيء، ولا يخرقها[2]، فالتَّنكير في لفظة ﴿أَكِنَّةٍ﴾

(1) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجَرِّ في الذِّكر الحكيم، ص: 59 - 60، سورة فصّلت دراسة بيانية، ص: 385.
(2) أطفيش، تيسير التّفسير: 12/ 396.

يُفيد التَّعظيم؛ لأنَّ هذه الحُجُب ليست عاديَّة، أو يسيرة يمكن اختراقها، بل هي أغطية عظيمة وشديدة تمنع بشكل كامل وصول نور الهداية إلى قلوبهم، كما يرون هم في حديثهم عن أنفسِهم، فاكتسب اللَّفظ معنى التَّعظيم من السَّياق.

نوعُ (مِنْ) ودلالتها:

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا﴾ للابتداء، أي: مُبتدئة تلك الأغشية وناشئة من الأمر الَّذي تَدْعونا إليه[1].

نكتةُ استعمال الموصول (ما):

الاستهزاءُ بالدَّعوةِ وكتابها ورسولها

في جُملة: ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ تتجلَّى بلاغة الاحتياط في التَّعبير؛ لأنَّهم لمّا قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾؛ أفادوا أنَّهم لم يستوعبوا شيئًا، ولم يُحَصِّلوا شيئًا مِمّا يدعوهم إليه، ثُمَّ أحجموا عن تسمية الدَّعوة أو وصفها، في استعمال الموصول (ما) دون أن يُقال: (من دعوتك)، فاختاروا عبارة مُبهمة تُحيل إلى ما يدعوهم إليه دون تحديده، مُبالغين في التبرُّؤ منه، ومُظهرين رفضًا مُطلقًا له، وهذا الإبهامُ في العبارة يتماهى مع موقفهم الموغِل في الجحود؛ إذ يجمع بين نفي الإدراك التّامِّ لما يُدعون إليه، وتجنُّب الاعتراف الضِّمني بمصدر الدَّعوة، ففيه إيماءٌ إلى كبرهم في التَّغاضي عن تسمية المقصود، فهو قريبٌ من استعمال اسم الإشارة بغرض الاستهزاء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ [الفرقان: 41].

براعةُ التَّعبيرِ بصيغة المُضارع ﴿تَدۡعُونَآ﴾:

الدَّلالةُ على استمراريَّة الدَّعوة وثبات النَّبيِّ ﷺ عليها

في التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿تَدۡعُونَآ﴾ دلالةٌ على الاستمراريَّة والتَّجدُّد في الدَّعوة؛ إذ يوحي المُضارع بأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكتفِ بدعوتهم المرَّة والمرَّتين، أو في موقف عابر فحسب، بل إنَّ دعوته

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 142.

مُتواصلة ومتكرِّرة قائمة في كُلِّ حين، فلا مجال للكُفّار ادِّعاء عدم سماعها أو فهمها، وفي هذه الصّيغة أيضًا كنايةٌ عن ثبات النَّبيِّ ﷺ وصبره في أداء مهمَّته رغم المواجهة والمعاندة والمُعارضة.

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفيَّة:

تمامُ الإغلاقِ في الآذان كمال الإغراق في الإعراض

يحملُ حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ معاني المبالغة في تمكُّن الصَّمم وإحاطته، وذلك أنَّ الأذنَ توصف بأنَّها صمّاء، ولا توصف بأنَّ فيها صممًا إلّا على وجه المُبالغة، وهذا التَّعبير يُبرز حالة الانغلاق التّامِّ الَّتي تُبيِّن شِدَّة إعراض المشركين، ولو قيل: (على آذانِنا وقرٌ)؛ لم يكُن بتلك المُبالَغةِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ الأصمِخةَ قد سُدَّت، فلا يَدخُلُ فيها الهواءُ، فضلًا عن الكلامِ[1].

بلاغةُ استعمال مفردة الوقر:

الأذنُ هي الطَّريق الموصل إلى القلوب، فإذا سُدَّت؛ سُدَّ الفهم والإدراك

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة الوقر في قوله سُبحانه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، والوقر معناه الصَّمم والثِّقل، من قولهم: أوقر ظهره، أي: أثقله؛ لأنَّ الوقر الَّذي هو الصَّمم مصدر، ووراء ذلك من حِدَّة الرَّفض وتأكيده ما وراءه، فلم يكتفِ المُشركون بادِّعاء أنَّ قلوبَهم مغلَّفة بالأكنَّة الَّتي تحجبها عن الفهم، بل زادوا على ذلك الإصرار في الإعراض بأنَّ الطَّريق الواصل إلى القلوب - وهو الأذن - قد أصابه الوَقر، فكانت الآذان مُصابة بصمم يعزلها تمامًا عن استقبال دعوة الحقِّ، وهذا يُبرز صورة بلاغيَّة تفوق في شِدَّتها عبارة: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾؛ لأنَّه إذا انقطع السَّمع، الَّذي هو الوسيلة الرَّئيسة لبلوغ القلوب، فإنَّ وصول الهداية يصبح مُستحيلًا، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ [لقمان: 7]، فجاء هذا العطف على وجه التَّقرير والتَّوكيد لما سبق[2].

(1) الطِّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 13/ 564.
(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 325.

بلاغةُ الاستعارة في مفردة الوقر:

تَمثيلُ إعراض المشركين عن اتِّباع الحقِّ

وردت جملة: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ مورد التَّمثيل لطغيان المشركين وفجورهم، فقد كانت حواسُّهم سليمة، ولم يكن في آذانهم صمم حقيقيٌّ، ولا على قلوبهم حُجُبٌ وأغطيَّة حسيَّة، ولكنَّهم لطغيانهم وجحودهم؛ أصبحوا لا يفهمون كلام اللّه، ولا يتدبَّرونه، فكأنَّ قلوبهم وأسماعهم قد طُمِسَ عليها، فهي لا تسمع، ولا تفقه، وهذه واردة بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة لاستثقال آذانهم ما يسمعونه، من جوامع البيان، وقوارع القرآن، وفيها التَّمثيل لإعراضهم عن اتِّباع الحقِّ، بمن غَطَّت الحجب والحواجز على قلبه وسمعه[1].

بلاغةُ المجازِ المرسل في مُفردة ﴿وَقۡرٞ﴾:

ذِكرُ السَّببِ بيانٌ لحالة الصَّمم المانعة من وصول الحقِّ

استعمالُ الوقرِ بمعنى الصَّمم في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ علاقته السَّببيَّة، وفيه تأكيدٌ للمعنى، فقد أُطلِقَ لفظُ السَّبب، وهو الوقر، وأريد به المُسَبَّب، وهو عدمُ السَّماع البتَّة، وهذا يوحي بأنَّ الإعراض ليس مُجرَّد غفلة أو عدم إدراك، بل هو حالة من الصَّمم مانعة من وصول كلامه إليهم[2].

نوعُ (مِنْ) ودلالتها البيانيَّة:

تقويةُ معنى الحجاب وكماله في المانعيَّة عن التَّواصل

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا﴾ للابتداء، فهو دالٌّ على أنَّ الحِجاب مُبتدأ بينهم وبينه، فالحجاب ابتدأ من البينيَّة الَّتي كانت بين الفريقين، وهو ما يدلُّ على قوَّة الحِجاب في كونه مانعًا عن التَّواصل، وذلك لأنَّ البين بمعنى المسافة المتوسِّطة بين المتكلِّم والمخاطَب وإضافته إلى المُتكلِّم تدلُّ على إرادة الطَّرف الَّذي يلي المتكلِّم من تلك المسافة، وكذا إضافته إلى المُخاطَب تدلُّ على أنَّ المُرادَ طرفها الَّذي يليه، فلو قيل: بيننا وبينك حجاب؛ لكان المعنى

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 411، والصّابوني، الإبداع البيانيّ، ص: 287.

(2) العليانيّ، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 388.

مُجرَّد حصول الحجاب في المسافة المُتوسِّطة بينهم وبينه بخلاف ما لو قيل: (من بيننا)، فإنَّه يُفهم منه أنَّ مَبْدأ الحجاب طرفه الَّذي يلي المُتكلِّم، ففيه من الدَّلالة على قوَّة الحجاب وكماله في المانعيَّة عن التَّواصل ما فيه[1]، وفيه مع تقوية معنى الحجاب بَيْنَ الطَّرفين أيضًا تَمَكُّن لازمه الَّذي هو بُعد المسافة الَّتي بَيْنَ الطَّرفين[2].

نُكتةُ ذِكر (مِنْ) في النَّظم:

المسافة المتوسِّطة بين الطَّرفين مُستوعَبةٌ بالحِجابِ

آثرَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ حرف (مِنْ) في قَولِهِ تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ دون حذفها، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [الإسراء: 45]؛ للدَّلالةِ على أنَّ حِجابًا ابتدَأ مِنّا، وابتدَأ مِنكَ، فالمسافةُ المتوسِّطةُ لِجهتِنا وجِهَتِك مُستوعَبةٌ بالحِجابِ بحيث لا يبقى جزء منها فارغًا عن هذا الحجاب؛ لكونه قد سَدَّ ما بينهما، وبتَقديرِ حَذفِها يَصيرُ المَعنى: إنَّ الحِجابَ حاصِلٌ في المَسافةِ بيْنَنا وبيْنَه[3].

دلالةُ العطف بين الطَّرفين:

في عطف (بينك) على ﴿بَيۡنِنَا﴾ تأكيدٌ للمُقابلة بين طرفَي الحجاب، فالحاجزُ ليس مُقتصرًا على جانب واحد فقط، بل هو حاجب يشمل كلا الطَّرفين[4].

بلاغةُ الاستعارة في مفردة الحجاب:

تصويرُ استغلاقِ القلوب بأسباب مادّيَّة

في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ تصويرٌ بليغ لعُمق القطيعة بين المتكلِّمين وبين النَّبيِّ ﷺ، بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّمثيليَّة؛ إذ شبَّهوا حالهم وحال النَّبيِّ ﷺ بمَن حالَ بينه وبين

---

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 66، وزاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 7/ 360.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 234.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 185، وأبو حيّان: 9/ 285، والأنصاريّ، فتح الرَّحمن، ص: 504، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 3.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 235.

الآخر حجابٌ عظيم ساتر، يحجب كلَّ سبيل للتَّواصل أو التَّخاطُب، فلا تلاقي ولا ترائي، فالحجاب هُنا لا يقتصر على كونِهِ حاجزًا عاديًّا، بل هو حجاب شاملٌ يملأ المسافة بَيْنَ الطَّرفين، فلا يترك فراغًا بينهما، وهذا التَّصويرُ يُبرِز مدى استغلاق قلوبهم وابتعادهم عن النَّبيِّ ﷺ، ومُبالغتهم في النُّفور من دعوته المُباركة[1]، فأخرجوا الكلام مخرجَ الدَّلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، وجوامع البيان، فكأنَّهم من شِدَّة الكراهية له قد صُمَّت أسماعهم عن فهمه، وقلوبهم عن علمه[2].

غرضُ تنكير لفظة ﴿حِجَابٌ﴾:

تعظيمُ الحِجاب بغرضِ استحالة التَّلاقي

صوَّر المشركون حالَهم مع رسول اللّٰه ﷺ بصورة شيئين حالَ بينهما حجابٌ عظيم وحاجز منيع، لا سبيل لأحدهما إلى الآخر، ولا مجال للوصول أو الوفاق بينهما، وجاء تنكيرُ ﴿حِجَابٌ﴾؛ ليُضفي على هذا الحاجز معنى التَّعظيم، مشيرًا إلى شدَّة المانع وقوَّته، وكأنَّ هذا الحجاب صار رمزًا للعزلة التَّامَّة والانفصال المُطلق، في تأكيدٍ بليغ على استحالة التَّلاقي بينهم وبَيْنَ النَّبيِّ ﷺ ودعوته[3].

براعةُ ترتيب ذِكر القلوب فالأسماع فالأبصار:

القلبُ أصلُ القَبول، والسَّمعُ أداة إيصال الوحي، والبصر أداة استبانة الدَّعوة والدّاعي

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾، جاء ترتيبُ ذِكر القلوب فالآذان فالحجاب الحائل بين الأبصار، وهي ثلاثُ استعارات تمثيليَّة؛ لبيان نبوِّ قلوب المشركين عن إدراك الحقِّ وقَبولِهِ، ومجِّ أسماعهم له، وامتناع مواصلتهم وموافقتِهم للرَّسول ﷺ، وهذه الخصوصيّات هي الَّتي دلَّت على فرط الرَّفض وفرط البغضاء وفرط العناد،

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 118، والعليانيّ، سورة فصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 142.

(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 411.

(3) زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 7/ 361، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 25/ 304.

وأرادوا بكلِّ ذلك إقناطه ﷺ عن اتِّباعهم إيّاه حتّى لا يدعوهم إلى الصِّراط المستقيم(1)، وهذه الآية الكريمة فيها من البلاغة والمُبالغة ما لا يليق أن ينتظمَ إلّا في دُرر الكتاب العزيز، فإنَّها اشتملت على ذكر حُجُبٍ ثلاثة متوالية، كُلُّ واحدة منها كافٍ في فنِّه، فأوَّلها الحجاب الحائل الخارج، ويليه حجاب الصَّمَم، وأقصاها الحجاب الَّذي أكنَّ القلب - والعياذ بالله - فإذا كانت هذه الثَّلاثة محجوبة؛ كان ذلك أقوى ما يكون من الحجاب، فلم تدع هذه الآية حجابًا مُرتخيًا إلّا أسبلته، والهدف من التَّصوير في الآية هو إظهارُ موقف المُعرضين عن القرآن الكريم، إظهارًا حسنًا يظهر مدى ما وصلوا إليه من الإعراض والتَّعنُّت، فيا لحسرتهم عند اللّه(2)! فابتدأت الآية بِذكر القلوب باعتبارِها أصل الانتفاع، ثمَّ الآذان لبيان طريق إيصال الوحي، ثم البصر الَّذي هو طريق التَّمام والكمال في فهْمِ الدَّعوة واستبانة حال الدّاعي.

نوعُ الفاء ودلالتها:

ترتيبُ التَّحدي والاستفزاز على التَّكذيب والإعراض

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ فصيحةٌ ترتِّب قولهم: (اعمل) على كلامهم السّابق، والمعنى: إن عرفت ما قلناه لك، ووعيته، فاعمل؛ لأنَّه لا قيمة لعملك ولا فائدة منه، ويَستوي عندنا أن تعمل، وأن تسكت، فمجيء الفاء الفصيحة، تعني: مزيدًا من التَّحدي والإصرار والسَّفه في نفي أيِّ أثرٍ لعمله(3).

غرضُ الأمر ومقصده الدَّلالي:

تنوُّعُ أغراضِ الأمر بحسب السّياق الوارد فيه

الأمرُ في قوله: ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾، أي: على دينك أو في إبطال أمرنا: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك(4)، والغرضُ اعمل على

(1) الصّافي، الجدول: 24/ 285.

(2) الطِّيبي، حاشية على الكشّاف: 4\185، والهرريّ، حدائق الرَّوح والريحان: 25/ 304.

(3) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 530، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 326.

(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 8/ 281.

دينك، ونحن على ديننا، فالمقصودُ التَّعجيز والمتاركة في الدّين، أو أن يكون مستعملًا في معنى التَّسوية، والكلام على الأوَّل مُتاركة وتقنيط عن اتِّباعه، من أجل المُبالغة في نفي أيِّ قيمة لعمله - كما زعموا - فأمروه بأن يعمل، أو ندبوه؛ لأن يعمل؛ لأنَّه يعمل في غير ما يُفيد، كما تقول لمن تعارضه: قل ما شئت، أو افعل ما شئت؛ فلن تجد أثرًا لقولك ولا لفعلك، وعلى الثّاني مُبارزة بالخلاف والتَّحدّي[1]، كما أنَّ في فعل الأمر (اعْمَلْ) تمهيدًا للإخبارِ عن عنادِهم في الإخبار عن عملهم.

نُكتةُ حذف المفعول:

بيـانُ العـنادِ والـتَّـحـدي باقتراف الأعمال المطلقة

في جملة: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ حُذِف فيها مفعول فعل (اعمل) ومعمول اسم الفاعل المجموع ﴿عَٰمِلُونَ﴾، وغرضُ حذف المفعول إطلاقُ الفعل في كُلِّ ما يسمح المقام بتصوُّره مفعولًا لذلك الفعل دون النَّصِّ على اسم بعينه، فهذا الحذفُ وقع؛ ليعمَّ كُلَّ ما يمكن عملُهُ، كُلٌّ مع الآخر ما يُناسبه[2]، كأنَّه قيل: اعمل ما شئت من الأعمال، ونحن نعمل ما نشاء، ذهابًا في التَّحدي والعناد.

بلاغةُ الفصل في جملة التَّوكيد:

تعليلُ المطالبةِ بـالـعـمـل من جنس المطلوب

جاءت جملةُ التَّوكيد: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ في مقام التَّعليل لفعل الأمر ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾، والمعنى: فاعمل على دينك ومذهبك، فإنَّنا عاملون على ديننا ومذهبنا[3]، فهذه الجملة تُبرز عِلَّة الطَّلب في سياقٍ بيانيٍّ بديع؛ إذ إنَّ النَّفسَ في مقام الأمر والنَّهي تتطلَّع دائمًا لمعرفة السَّبب والدّافع وراء ما أُمِرَت به، أو نُهيت عنه، فجاء الاستئناف تعليلًا؛ ليُلبّي هذا التَّطلُّع بدقَّة ووضوح، واستُهلَّت الجُملة بـ (إنَّ) التَّوكيديَّة

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 4، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 236، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 326.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 236.

(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط، ص: 420.

لتعزيز المعنى وإحكامه؛ مُراعاةً لحال النَّفس الَّتي قد تكون في موضع تساؤلٍ أو ترقُّبٍ بعد الجملة الأولى، ممّا يُضفي على الخطاب قوَّةً وتأثيرًا يتناسبان مع المقام(1).

بلاغةُ توكيدِ الخبر:

الإصــرارُ على قطع الرَّجاء في الاتِّباع وإعلان المواجهة والصُّدود

جملة: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ تحمل أبعادًا بلاغيَّة عميقة، فقد أكَّدوا عَملهم بمؤكِّدين، هما: (إنَّ) واسميَّة الجُملة، ممّا يُبرز دلالة الثُّبوت والدَّوام، في مُقابلة التَّجدُّد والحدوث المستفاد من قولهم: ﴿فَٱعْمَلْ﴾، وتُفصح هذه الجُملة المؤكَّدة عن احتشادهم الكامل، وعزْمِهم الرّاسخ في مواجهة دعوة النَّبيِّ ﷺ؛ إذ لم يكتفوا بمجرَّد رفضها في أنفسهم، فقطعوا ذلك الرَّجاء بالتَّأكيد بأداته، وزادوه بالنّون الثّالثة والتَّعبير بالاسميَّة، فقالوا: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾، أي: مُعاندون، فأعلنوا عداءهم الصَّريح، واستعدادهم لمحاصرة دعوته من جميع الجهات، فجاءت هذه الجملةُ إعلانًا للمواجهة العامَّة، وصرخة تحدٍّ تُبرز بلوغهم ذروةَ الرَّفض والمحادة، من خلال حرب مفتوحة لإحباط الدَّعوة وإطفاء نورها، فهو خبر مؤكَّد مُستعمَلٌ في التَّهديدِ(2).

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القلبُ والفؤادُ:

القـلـبُ اسم علم على المودع في الصُّدور، والفؤاد ملحوظٌ فيه جانب التَّوقُّد

الفُؤادُ: ألطفُ ما في الجسَدِ على الإطلاقِ، ولذا يُعبَّر بهِ عَن جميعِ البدَنِ؛ لكونِه أشرفَ ما فيهِ، كَما قال تَعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، وهو أشدُّ تألُّمًا بأدْنى أذًى يلحقُهُ، فالأفئدة توصَف بالرِّقَّة(3)، والفؤاد فيه معنى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد؛ إذ إنَّه مبعث الإرادات، وآلة الإدراك، ومُستقرُّ العلم(4).

---

(1) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 286، والعلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2104.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 143، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 236، وأبو موسى، آل حم، ص: 327.

(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 433.

(4) السَّمين، الدُّر المصون: 5/ 110.

أمّا القلبُ؛ فهو الاسم العلم على هذه القطعة المودعة في الصَّدر، فلَيسَ مَدارُ الحديثِ عَنهُ في القُرآنِ الكَريمِ مِن حيثُ رِقَّتُهُ وسُرعةُ تأثُّرِهِ بما يطرَأُ عليه، بل يَرِدُ وصفُهُ بالقساوةِ وضدِّها، كما قالَ تَعالَى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: 22]، وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: 23].

فالقَلبُ مَوطِنُ القوَّةِ والجَلَدِ، ولذا يُعَبَّر به في المواطِنِ الدّالَّة على القوَّةِ والتَّعقُّلِ[1]، وأمّا الفؤاد؛ فمثل القلب، لكن يُقال له: فؤاد؛ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد[2].

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللُّغوية، ص: 106 - 112.

(2) المناوي، التَّوقيف، ص: 265.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾ [فصلت: 6 - 7]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

العنيدُ البليد يركب متنَ حماقته، ويصعد سُلَّم خسارته

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة موقفَ المُشركين بما نطقت به ألسنتهم، من الرَّفض التّامِّ لقَبول الدَّعوة، وقد علَّلوا ذلك بعدم فهْمِهم لِما يدعو إليه النَّبيُّ ﷺ، ولمّا حشدوا أسباب عدم الإيمان، وبالغوا في كذبهم على أنفسِهم؛ ناسب أن تُذكِّر الآيات الَّتي بعدها الرَّدَّ عليهم، فجاء أمْرُ اللّه تعالى له بأن يُجيب عن قولهم بجوابٍ يوَضِّحُ أنَّهم مُعاندون لا باحثون عن الحقِّ.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على اعتِدال الشَّيء واستوائِه، يُقال: قامَ الشَّيءُ، واستَقامَ: اعتدَل واستَوى، وأقمتُ الشَّيءَ، وقوَّمتُه فقامَ، بِمَعنى استقام[1]، والاستقامةُ: ضِدُّ الاعوِجاجِ، وهي جعْلُ الشَّيء قويمًا، أي: غير ذي عوج، وتُستعمل كثيرًا في معنى الثَّبات على الحقِّ والرُّشدِ؛ لأنَّهُ شاعَ تَشبيهُ الضَّلالِ والفَسادِ بالاعوِجاج والالتِواءِ، وهي مُستعارةٌ لصلاحِ العملِ الباطِنيِّ: وهو الاعتِقادُ، والظّاهريِّ: وهو الأفعالُ والأقوالُ تَشبيهًا للعَمَلِ بِخَطٍّ مُستقيم تَشبيهَ مَعقولٍ بِمَحسوسٍ[2]، والمعنى: اسلكوا المسلك القويم، لا تميلوا عن سبيله[3].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 273، و24/ 238.

(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 580، والسَّخاوي، تفسير القرآن العظيم، ص: 269، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 24/ 4869.

2) ﴿وَوَيۡلٌ﴾: المعنى المحوريُّ لـ(وَيْل) يدورُ على إعلانٍ بإيقاع عاقبةٍ مهلكةٍ لعملٍ أو تَصَرُّفٍ: وعيدًا أو نُدبةً واستغاثةً أو تحذيرًا أو ما إلى ذلك، والويلُ يأتي بمعنى الحُزْنِ والهلاكِ والمشقَّةِ من العذابِ، فيقصدُ بالكلمةِ في الوعيد حلولُ الشَّرِّ، وكلُّ مَن وقع في هَلَكة يستحقُّها دَعا بالوَيْل، ويُقصدُ به في النُّدبةِ وغيرِها الحُزنُ[1]، و(ويلٌ) في الآيةِ يدلُّ على الحزنِ والثُّبور ومُرِّ العذاب[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

أمر اللّه تعالى رسولَهُ ﷺ أن يُجيب المشركين بالجواب الَّذي يَردُّ به عليهم بأن يقول لهم: إنَّما أنا إنسانٌ مثلكم في الجنس والصِّفات البشريَّة، لا أتميَّز عنكم في الطَّبيعة أو الهيئة، يوحى إليَّ بأنَّ معبودَكم واحد لا شريك له، ولا يستحقُّ العبادة سواه سُبحانه، فالزموا الطَّريق المستقيم المؤدّي إلى اللّه بإخلاص العبادة له وحده، واطلبوا منه أن يغفر لكم ذنوبَكم، ويتجاوز عن سيِّئاتكم، وهلاك وعذاب شديد ينتظر من يُشرك باللّه، ويعبد معه غيره، فلا يطهِّرون أنفسهم بالإيمان باللّه والعمل الصّالح، ولا يُقدِّمون الزَّكاة المفروضة عليهم، وهم في الوقت ذاته يُنكرون الآخرة، فلا يُؤمنون بالبعث والحساب بعد الموت[3].

ليس للرَّسول ﷺ إلّا أداءُ الرِّسالة تحذيرًا ووعيدًا

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ وبلاغته:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو تلقينُ جوابٍ لقولهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا

حُسْنُ المضمون وسموُّ الأسلوب سِمةُ إجابة الجاحدين

(1) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 4، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 562.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 378، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 340، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 8/ 325، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 744.

عَٰمِلُونَ﴾، المفرَّع على قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ إلى آخره جواب المتبرِّئ من أن يكون له حول وقوَّة؛ ليعمل في إلجائهم إلى الإيمان لّما أبوه؛ إذ ما هو إلّا بَشَرٌ مثلهم في البشريَّة، لا حول له على تقليب القُلوب الضّالَّة إلى الهدى، وما عليه إلّا أن يبلِّغهم ما أوحى اللّه إليه[1]، فهذه الآية تُعَدُّ مِفصلًا من مفاصل البيان الفارق بين كلامين مُتباينين أشَدَّ ما يكون التَّباين، فقد سمع مقالتهم السّابقة، وما تحمله من رفضٍ وجهالةٍ، وما تحمله أيضًا من بغضاء ومُحادَّة ومُنابذة، فجاء التَّلقين الرَّبّانيُّ ينضح حكمةً ورُقيًّا، وكان الجواب صورةً بالغة في الأدب والرُّقّي الَّذي يعكس الأسلوب الأمثل في الدَّعوة إلى اللّه[2].

بلاغةُ القصر بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾:

توكيدُ المعاني المعلومة توطئةً لتقرير المعاني المُمارى فيها

آثَرَ النَّظمُ الكريم القصرَ بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، والقصرُ بها هو يكون للأخبار الَّتي لا يجهلها المُخاطَب، ولا يدفع صحَّتها، أو لِما يُنَزَّل هذه المنزلة[3]، واختيار هذا الأسلوب لتوكيد خبر واضح وثابت يُبرز دقائق بلاغيَّة تحتاج إلى تدبُّر؛ إذ جاء التَّأكيد لتقرير حقيقة جليَّة لا تقبل الشَّكَّ، وهي بشريَّة النَّبيِّ ﷺ، والخبر الواضح الثّابت الَّذي ليس مثارًا للشَّكِّ والإنكار[4]؛ وذلك ليكون توطئةً لذكر الوحي، وبيان أنَّ البشريَّ من شأنه أن يكون نبيًّا رسولًا من اللّه تعالى، فهو إثبات أمرٍ معلومٍ للمخاطَب؛ لتقرير أمرٍ وقع فيه النِّزاع.

نوعُ القصر وبلاغته:

بيانُ حكمة الرِّسالة وتفنيد أوهام المشركين حول بشريَّة الرُّسل

القصرُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 236.

(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 327.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 330.

(4) العليانيّ، سورة فُصِّلت دراسة بيانيَّة، ص: 258.

قصْرُ موصوفٍ على صِفَةٍ قصرًا إضافيًّا، وغرضُ القصر بيانُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مقصورٌ على البشريَّة دون التَّصرُّف في قلوب النّاس[1]، فهو بشرٌ كباقي البشر، لا يختلف عنهم إلّا في كونه يتّصف بصفةٍ هي الفارقة بينه وبينهم، وهو أنَّه يوحى إليه، وهو ما جعل غرض القصر على البشريَّة بيانًا في كون الوحي يكون في البشر، لا كما زعم المشركون ضرورة أن يكون ملائكيًّا، فهو ينقض التَّصوُّرات الباطلة لدى المشركين، فقد ظنّوا أنَّ الرِّسالة ينبغي أن تكونَ من اختصاص الملائكة أو الجِنِّ، وعدّوا البشريَّة حِجابًا مانعًا من تصديق الرَّسول ﷺ، فجاء هذا القصر رَدًّا لهذا الاعتقاد، فهو قصر قلب، فقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ معناه إن كنتم لا تقبلون نبيًّا ولا رسولًا إلّا إذا كانت له طبيعة غير طبيعة البشر، فما أنا إلّا بشر مثلكم، آكل ممّا تأكلون منه، وأشرب ممّا تشربون، وأتزوَّج النِّساء، ويجري عليَّ نظير ما يجري على سائر البشر، فجاء هذا القصر مُبيِّنًا أنَّ البشريَّة ليست نقيضًا للرِّسالة بل هي مُقتضى الحكمة الإلهيَّة؛ إذ إنَّ البشرَ لا يُمكنهم أن يتلقَّوا الرِّسالة من غير جنسهم[2].

نكتةُ توجيهِ صفة البشريَّة بالذِّكر:

قلبُ الحُجَّة على المشركين بذكر البشريَّة؛ لتكونَ دليلَ صدق الرِّسالة

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ من باب قلب الحُجَّة على المُخالفين، فهو رَدٌّ على تمسُّكِ المشركين ببشريَّته ذريعةً لرفض نبوَّته، فما يعتقدونه حُجَّة ضِدَّ نبوَّته هو ذاته ما يُؤكِّدُ حقيقتها؛ إذ إنَّ حكمةَ اللّهِ تقتضي أن يكون الرَّسول من جنس المُرسَل إليهم؛ ليتمكَّنوا من التَّلقّي عنه والفهم منه، ولا يحسن في الحكمة أن يُرسَل مَلَكٌ إليهم، فكون الرَّسول من البشر هو الأولى والأحكم، فهو ليس مَلَكًا ولا جنّيًّا، وإنَّما بشرٌ مثلهم، فكيف يقولون: إنَّ بيننا وبينك حجاب؟ والحجاب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 237.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 237، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 531، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 466.

المانع عن التَّفاهم، وهو يُعقل لو كان النَّبيُّ من جنس آخر، أو يتكلَّم بلغة أخرى لا تُفهم، وكيف يقولون: إنَّ قلوبَنا في أكنَّة من هذه الحقيقة، وفي آذانِنا وقْرٌ، فلا نسمعها؟ فبهذا القلب البديع يَنتقل الخطاب من دفع شُبهة إلى إقامة حُجَّة، ومن ذريعة للإعراض إلى دليل يسَتوجِب الإيمان، مِمّا يجعل تَمسُّكهم ببشريَّة النَّبيِّ حُجَّة عليهم لا لهم، ويكشف غلوَّهم في الإعراض بدليل قاطع وبُرهان ساطع[1].

تفويضُ الأمر لصاحبِ الأمرِ في الدُّنيا والآخرة

غرضُ الكناية وبلاغتها:

في وصفه ﷺ بأنَّه ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مثلُهم في البشريَّة لا حول له على تقليب القلوب الضَّالَّة إلى الهُدى، وما عليه إلّا أن يُبلِّغهم ما أوحى الله إليه، وهذا الخَبَرُ يُفيد كنايةً عن تفويض الأمر في العمل بجزائهم إلى الله تعالى، كأنَّه يقول: وماذا أستطيع أن أعمل مَعكم، فإنّي رسول من الله، فحسابكم على الله[2].

إذا تقاربت الصِّفات؛ بانت الدَّلالات

بلاغةُ التَّشبيه بلفظ (المِثْلِ):

استعمل النَّظم الكريم لفظ (مثل)؛ للتَّشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾، وهو أوسع الألفاظ دلالةً على المشابهة؛ إذ يشمل كلَّ وجوه التَّشابه بين الأشياء، أيًّا كان المعنى الَّذي يقع فيه التَّماثل، فهو يتجاوز حُدودَ المُصطلحات الأخرى المحدودة بدلالاتها الخاصَّة، فأتت لفظة المِثْلِ هُنا؛ للدَّلالة على المُساواة والمُطابقة في الجنس[3]؛ لتكون المماثلة في البشريَّة سواءً بسواء، فيقع التَّماثل في الصِّفات، فتقوم الحجَّة عليهم في البيان والإفهام.

دفعُ تلقُّفِ الاستدلال الباطل من حكمة الخطاب ولطف البيان

بلاغةُ الاحتراسِ بالوصف:

جاءت صفةُ الوحي في قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ للاحتراس، فهي بيانٌ لما تميَّز به عنهم على وجه الاحتراس من أن يتلقَّفوا قوله: ﴿إِنَّمَآ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 350، وحجازيّ، التَّفسير الواضح: 3/ 325.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 237.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 481.

﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، تلقفَ من حصل على اعتراف خصمهِ بنهوض حجَّته، بما يثبت الفارق بينه وبينهم في البشريَّة، وتتجلّى بلاغة الاحتراس؛ إذ يبرز الفارق الجوهريُّ بَينَ النَّبيِّ ﷺ وقومه، فيمنعهم من استغلال قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كذريعة لإبطال رسالته، والاحتراس هو مضمون جملة: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، فهي ليست مُجَرَّد توضيح، بل هي شهادة فاصلة تُسجِّل عليهم الحقيقة العظمى: أنَّ الفارق ليس في الطَّبيعة البشريَّة، بل في اتِّصال النَّبيِّ ﷺ بالوحي الإلهيِّ، فهذا الاحتراس البليغُ هو للتَّسجيل عليهم إبطال زعمهم المشهور المكرَّر أنَّ كونَهُ بشرًا مانع من إرساله من اللّه تعالى[1].

دلالةُ التَّعبير بالمبني للمفعول:

الرِّسالةُ إلهيَّة في مصدرِها وتَفَضُّلٌ من الله تعالى على بعض العبادِ

جاءت صيغةُ فعل الإيحاء مبنيَّة للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: إليَّ دونكم، فصرت بالوحي نبيًّا، ووجب عليكم اتِّباعي لا حول لي فيه، ولم أطلبه، ولم أسعَ إليه، وإنَّما هو فضل تَفَضَّل اللّه به عليَّ، فالفاعل معلومٌ للمخاطَب، وعدم ذكره لتسليط الدَّلالة على معنى الوحي؛ إذ مناط الكرامة بالوحي، وبه نال ﷺ المكانة العظيمة، فهو مزيَّة عالية، وفضل بالغ، يعلو به قدره على النّاس، فالرِّسالة ليست مَقامًا يُدّعى، بل هي عطاءٌ سماويٌّ يرفع اللّه به مَن يشاء[2].

نوعُ القصر وبلاغته:

تقريرُ التَّوحيد الخالص ومحق الشِّرك الباطل

في جملة: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قصر بأداة القصر ﴿أَنَّمَآ﴾، وهو قصرُ صفةٍ على موصوف، فهو قصرُ صفةِ الإلهيَّة على إلهٍ معبود واحد، ومعلوم من سوابق التَّنزيل أنَّ هذا الإلهَ المعبود الواحد هو ربُّ العالمين، فهو بربوبيَّته لعباده له وحده حقٌّ أن يعبدوه، ولا يشركوا بعبادته أحدًا[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 238.
(2) الميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 466، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 328.
(3) الميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 467.

بلاغةُ فنِّ الإدماج:

قيمةُ الهداية حاضرةٌ في السّياق القرآنيِّ مؤثِّرة في مسار المعاني

قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إدماجٌ للدَّعوة إلى الحقِّ من خلال الجواب حرصًا على الهَدْي، فالسّياقُ في الرَّدِّ على المشركين ما قالوه، فأدمجَ ذِكر التَّوحيد بأسلوب القصر؛ لبيان قيمة الهداية، وإظهار أصل العبوديَّة الحقَّة، فقد جاء هذا الإدماج لتقريب الحقيقة الَّتي يدعوهم إليها، فهي ليست بعيدةً عن مداركهم ولا غريبة عن ثقافتهم، فما زال فيهم بقيَّة من دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ولا يزال البيت الحرام في مركز حياتهم، يحجّون إليه، ويوقِّرونه باعتباره بيت اللّه، وحتى أوثانهم الَّتي يعبدونها، يقرّون بأنَّها ليست معبودةً لذاتها، بل يدَّعون أنَّها وسائل تُقرِّبهم إلى اللّه، وبينهم مَن أدرك ضلال الوثنيَّة، وسعى إلى الدّين الحقِّ، كورقة بن نوفل وغيره مِمَّن رفضوا هذه العبادات الباطلة، فجاء هذا الإدماج؛ ليُعيدَهم إلى أصل المِلَّة الحنيفيَّة، ويوقظ فيهم حقيقة التَّوحيد الخالص، وكذلك التَّفريع بقوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، فإنَّه إتمامٌ لذلك الإدماج بتفريع فائدته عليه؛ لأنَّ إثبات أنَّ اللّه إلهٌ واحدٌ إنَّما يُقصد منه إفراده بالعبادة ونبذ الشِّرك[1].

نوعُ الفاء ودلالتها:

الرَّبطُ بين الأصول وفروعها والعقائد وآثارها

تتجلَّى دِقَّةُ التَّعبير وحكمة التَّوجيه الإلهيِّ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾؛ إذ يرتبط فعل الاستقامة بفاء التَّرتيب، مُباشرةً بالإيمان بوحدانيَّة اللّه؛ لتُبيِّن أنَّ التَّوحيد ليس مُجرَّد اعتقاد، بل يجب أن يُثمر في سلوكٍ قويمٍ يتوافق مع الفطرة السَّليمة والمنطق الحقِّ، ولمّا كانت الاستقامة في العمل متفرِّعة على التَّوحيد؛ إذ لا يعتدُّ العمل الصّالح بدونه؛ فرَّع عليه بالفاء، فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، من إيحاء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 238، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 329.

الوحدانيَّة، فإنَّ ذلك موجبٌ لاستقامتهم إليه تعالى بالتَّوحيد، والإخلاص في الأعمال[1].

فالآية تُقرِّر قاعدةً جليلةً: أنَّ الإيمان الصّادق يقتضي سلوكًا مستقيمًا يعكس أثرَ التَّوحيد في حياة المؤمن، وأنَّ الفصل بين العقيدة والعمل من أعظم الأخطاء في تاريخ النّاس، تمامًا كالفصل بين النَّظريَّة والتَّطبيق في مجالات السُّلوك كافَّة[2].

بلاغة التَّضمين:

إضفاء معنى التَّوجُّه الكامل في فعل الاستقامة الحقَّة

تعدّى فعل الاستقامة في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بحرف الجَرِّ (إلى) بدلًا من اللّام، فلم يقل: (فاستقيموا له)، وذلك ليُشرِبَ الاستقامة معنى التَّوجُّه الكامل؛ لأنَّ التَّوحيد توجُّه، أي: صرف الوجه إلى اللّٰه دون غيره، في تصوير بليغ يجعل الإيمان بكلمة التَّوحيد "لا إله إلا اللّٰه" انقيادًا مطلقًا للّٰه وحده، فكلمة التَّوحيد الَّتي هي أسمى ما نطق به الأنبياء، وكلمة التَّقوى الَّتي توحِّد القلوب، تقتضي ممَّن يقولها ألّا يكونَ له وجهة أو مقصد إلّا وجه اللّٰه، وأن يكونَ توجُّهه للّٰه وإخلاصه له هو الغاية الكبرى الماثلة في كلِّ تصرُّفٍ وسلوكٍ، علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا، ويصحُّ أن يُضمن فعل الاستقامة معنى الإنابة، أي: أنيبوا إليه[3].

براعةُ تقديم الأمر بالاستقامة على الاستغفار:

الاستغفارُ عين الاستقامة، فهو الدّافعُ للذُّنوب والمطهِّر من المعاصي

قُدِّم ذِكر الأمر بالاستقامة على الاستغفارِ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، وما يقتضيه الظّاهرُ هو تقديم الاستغفار على الاستقامة، فالاستغفارُ تخلية والاستقامة تحلية، والتَّخلية مقدَّمة على التَّحلية، ونكتة التَّقديم أنَّ الاستقامة لا

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 121، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 3، والهرريّ، الرَّوح والرَّيحان: 25/ 305.

(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 329.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 286، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 238.

تكون كاملةً، فقد يشوبها شيءٌ من المعاصي العالقة أو الحاضرة أو المستقبليَّة، فكان ذِكر الأمر بالاستغفار بعد الأمر بالاستقامة؛ لبيان أنَّ شأنَ العبد المستقيم أن يستغفر؛ إذا حلَّت المعاصي ببابه، والاستغفار حينئذٍ يكون عين الاستقامة.

دلالةُ عطف الاستغفار على الاستقامة:

الدَّعوةُ إلى طلب الغفران من التَّقصير بعد العلم والعمل

لمّا كان أعظم ما يُقصد من الوحي هو العلم والعمل، وكان رأس العلم توحيد اللّه ومعرفته؛ جاء الأمر بالتَّوحيد والاستقامة عليه، ثم أتبعه رأسَ العمل، وهو ما أنبأ عن الاعتراف بالعجز مع الاجتهاد، فقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، ففي هذا الاستغفار دعوةٌ إلى طلب الغفران من التَّقصير بعد العلم والعمل[1]، والوصل بين الجملتين: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ﴾ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾؛ للاتِّفاق في الإنشائيَّة لفظًا ومعنًى، كما اتَّحدتا في بعض الجُزئيّات، فقد اشتركتا في المسند إليه، وهم المأمورون بذلك من كفّار قريش، كما أنَّ الجمل فعليَّة، وليس هناك مانع من العطف، فهو توسُّط بين الكمالين[2].

مناسبةُ عطف الاسميَّة على الفعليَّة:

جزاءُ المعاندين على الباطل مصاحبة أهل الباطل في النار

بعد أن بيَّن النَّظم الكريم أنَّ جوهر الوحي يكمن في العلم والعمل؛ ناسب أن يذكر حال المشركين، فقال: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ إذ إنَّ التَّوحيد هو أساس العلم، والاستغفار والتَّوبة من الذُّنوب هما دعائمهما في العمل، بعد ذلك توجَّه بالتَّهديد لأولئك الَّذين يشركون باللّه، ويغفلون عن تطهير أنفسهم من دنس الشُّحِّ والبخل، وينكرون البعث والحساب، وهؤلاء الَّذين ينغمسون في لذائذِ الدُّنيا، ويغفلون عن مصيرهم الأبديِّ، فقد حكم عليهم اللّه بعاقبةٍ شديدة على

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 145.
(2) العلياني، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 363.

انصرافهم عن الحَقِّ[1]، فعطف جملة الوعيد الاسميَّة على الفعليَّة؛ لبيان ثباتهم - إن أصرّوا على عنادِهم - في نار جهنَّم، فجزاء الثّابتين على الباطل الثَّباتُ في مصاحبة أهل الباطل في المآل.

بلاغةُ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

التَّهديدُ الضمنيُّ أزجـرُ وأردعُ وأوقعُ في دائرة القبول

جاء قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ عدولًا عن أسلوب الخطاب المباشر الَّذي جاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، إلى أسلوب غير مباشر؛ إذ جاء التَّهديد في قوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ ليحمل في طيّاته تهديدًا عامًا شاملًا لكلِّ مَن أتى بالشِّرك، وصار تهديدهم مدلولًا عليه بالدَّلالة التَّضمُّنيَّة[2]، فلم يأتِ التَّهديد مباشرًا في الخطاب كي لا يحصل لبسٌ بين الأمر بالاستقامة والاستغفار والوعيد للمشركين، ولحثِّ المأمورين على أن يكونَ في زمرة المشركين، فينالوا ما سيناله هؤلاء المشركون، فهذا العدول يعمِّق التَّأثير النَّفسي على المخاطَبين، ويُؤكِّد أنَّ التَّهديد شامل لجميع المشركين، فيظهر في صورة تحذير عامٍّ، لا يتعلَّق بشخص مُعيَّن، ممّا يوسِّع دائرة الخوف والوجل لدى المُخاطَبين مع استمالة قلوبهم للاستجابة والتَّوبة.

نكتةُ تنكير لفظ (ويل):

تهويلُ الوعيد وتعظيم العُقوبة

الويل: كلمة تُستَعمل في العذاب والهلاك، وقد نُكِّرَ هذا اللَّفظ في قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لتهويلِه وتعظيمه، وهذا ما يشيع في النُّفوس إحساسًا مهيبًا بالهلاك والعذاب المحتوم، فالتَّنكير يحمل في طيّاته تهويلًا وتعظيمًا للعقوبة، ويجعلها مجهولة المقدار شديدة الأثر، وفي هذا من الإنذار من الشِّرك والضَّلال ما فيه[3].

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 106.

(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 331.

(3) حبنّكة، معارج التّفكر ودقائق التدبّر: 12/ 466، والعليانيّ، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 63.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول:

الامتناعُ عن أداء الزَّكاة من أسباب العناد على الكفر

استعمل النَّظمُ الكريم الاسمَ الموصول في جُملة: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو ذمُّهم في منع الزَّكاة وكفرهم بالآخرة؛ إذ يَظهر في ذلك التَّشنيع والتَّشهير بهم عَبْرَ التَّعريف بالاسم الموصول المفيد في كون هؤلاء معروفين بأنَّهم يمتنعون عن أداء الزَّكاة، وامتناعهم هذا هو من أسباب عنادهم على الشِّرك، وبقائهم في الكفر.

توجيهُ استشكال ذِكر الزَّكاة في مكَّة:

بيانُ مكانةِ الزَّكاة عند الله تعالى وأنَّها إعانةٌ على التَّوحيد

ذِكرُ الامتناع عن إيتاء الزَّكاة قد يُشكل باعتبار أنَّ الزَّكاة فُرضت في السَّنة الثّانية من الهجرة إلى المدينة والآية مكّيَّة، وقد قيل في دفع الإشكال كلام كثير، أظهرُهُ أنَّ المُراد بالزَّكاة المفروضة الَّتي هي أخت الصَّلاة، فالزَّكاة كانت موجودة بين أهل مكَّة، وكانت خصلة باقية من دين سيِّدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما الصَّلاة والسَّلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: 54 - 55]، فالزَّكاة فريضةٌ قديمة في كلِّ دين، ومعنى أنَّها فُرِضت فيما بعد الهجرة أنَّ الإسلام أقرَّ فريضتها، وبيَّن أنصبتها، وفصَّل مقاديرها من كلِّ نوع من أنواع الأعمال، وإنَّما ذُكِرت بينَ الشِّرك وإنكار البعث للإشارة إلى أنَّها عند اللّه بمكان[1]، وأنَّها معينة على التَّوحيد، فإنَّ مَن يُزكّي أمواله، فإنَّما يتقرَّب إلى اللّه تعالى بأعزِّ ما عنده، ومن يمتنع عن أدائها، فإنَّما يُقدِّمها على رضا الرَّحمن، بما يبلغ به الكفر الصَّريح، والشِّرك الفاضح.

دلالةُ استعمالِ مفردة الإيتاء دون مُرادفاتها:

خُصَّ دفْعُ الأموالِ بفعل ﴿يُؤۡتُونَ﴾ دون (يدفعون) أو (يعطون)

(1) الباليسانيّ، حسن البيان، ص: 2208، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 333.

الإيماءُ إلى أنَّ مدْحَ المزكّين يكون في المُطاوعة مع الرِّضا

أو (يؤدّون)؛ لأنَّ فعلَ الإيتاءِ يُستعملُ في الدَّفع والإعطاءِ الحِسّيِّ، فضلًا عن دلالته على الإعطاء بسلاسةٍ ومطاوعةٍ مع الرِّضا والقَبول والرِّفقِ بالعطاء، فهذه الصّيغة تُبرز أبعادًا معنويَّةً لا تُحقِّقها بقيَّة الألفاظ، ممّا يعكس روح العطاء الممزوجة باللّين والقَبول[1]، وفي هذا من بَعثٍ للمُؤمِنينَ على أداءِ الزَّكاةِ ما فيه[2].

بلاغةُ التَّعبير بالمضارع المنفيِّ:

تجدُّدُ أحوال احتياج الفقراء والمساكين لا يشفع عند البخلاء القساة في بذل المال

جاء استعمالُ المضارع المنفيِّ في التَّعبير عن عدم إيتاء الزَّكاة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ عدمَ إيتائها مُتجدِّد فيهم، فهُم يبحثون على الدَّوام عن أسباب الامتناع عن الزَّكاة، فهُم مهما شاهدوا من صور احتياج الفقراء، وأحوال ضعف المساكين، فلا يتحرَّكون تجاههم برحمة، ومهما جاءتهم الأوامرُ الإلهيَّة، فلا يستجيبون لها بخضوع واستسلام، فلمّا كانت أسباب إيتاء الزَّكاة متجدِّدة؛ ناسب نفي تجدُّد الامتناع عن إيتائها، فهو يوحي بأنَّ امتناعهم عن إيتاء الزَّكاة ليس حادثًا عارضًا، بل هو حالةٌ مُستمرَّة ومُتجدِّدة تدلُّ على استغراقهم في البخل والجحود[3].

نوعُ الواو ودلالتها:

الإشعارُ بعِلَّة منع الزَّكاة والإيماء إلى قوَّة الطُّغيان

الواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ إمّا أن تكون معطوفة على الصِّلة، وإمّا أن تكون واو الحال، فيكون عدمُ إيتائهم الزَّكاةَ مقيَّدًا بهذه الحال، وهو كفْرُهم بالآخرة، والحاليَّة هنا مُشعرة بأنَّ امتناعهم عن الزَّكاة لاستغراقهم في طلب الدُّنيا وإنكارهم للآخرة[4]، فهي إشارةٌ إلى علَّة امتناعهم، وبهذا يتضاعف توبيخهم

(1) الراغب، المُفردات: (أتى).
(2) الشّربينيّ، تفسير الشَّربينيّ: 3/ 504.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 306.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 67، وبهجت، إعراب القرآن الكريم، ص: 12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 239.

وتبكيتهم؛ إذ اجتمع فيهم كفرهم بالآخرة مع مَنْعِهم الزَّكاة وكفرهم باللّه وكتابه، وكلُّ هذا يُضاعف استحقاقَهم للذَّمِّ والعقاب[1].

نكتةُ قرنِ منعِ الزَّكاة بالكفرِ بالآخرة:

الـزَّكـاةُ برهـانُ الإيـمـان بالله واليوم الآخر

قرنَ النَّظمُ الكريم منعَ الزَّكاة بالكفرِ بالآخرة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ ليُبرز دلالةً عميقة في الارتباط، ذلك أنَّ المالَ هو أحبُّ ما يتعلَّق به الإنسانُ، فهو شقيقُ روحه، فإذا جادَ به في سبيلِ اللّه؛ كان ذلك أصدقَ برهانٍ على صدقِ إيمانه، ونقاءِ سريرته، واستقامةِ طريقته، وما لانت قلوبُ المُؤلَّفة قلوبُهم إلّا بيسيرٍ من المال، فلانت شكيمتهم، وزالت عصبيَّتهم، كما أنَّ ما أوقع بني حنيفة في الرِّدَّة بعد رسول اللّه ﷺ، كان منعَهم للزَّكاة؛ إذ فضَّلوا أموالَهم على دينهم، فعرَّضوا أنفسَهم لحروبٍ طاحنةٍ، وقبلوا الطَّعنَ والضَّربَ حفاظًا على أموالهم، ولو كان الثَّمن أرواحَهم ومُهجَهم وقرن - أيضًا - عدم إيتائهم للزَّكاة بكفرهم بالآخرة؛ لأنَّ الصِّفات الذَّميمة لا تتعلَّق إلّا بالكفرة، ولولا كُفرهم بها؛ لما أشركوا، ومنعوا الزَّكاة[2].

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

بـيـانُ استـمـرار الـكُـفْـرِ وذَمِّ التَّعنُّت فيه

في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، لَمّا كانَ النَّظَرُ إلى بيان كذبهم وتكذيبهم؛ بولِغَ في تأكيد المعنى، فجاءَ المبتدأ (هم) مُخبَرًا عنه بجملة اسميَّةٍ ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وعَبَّرَ بالضَّميرِ (هُم)؛ للإيذان بأنَّ الإخبار هو عن المذكورين بصفاتهم المعلومة في أذهان السّامِعين، وللإشعار بأنَّهُم مستمرّون بضمائرهم وظواهرهم في الكفر بالآخرة، فأفادت الاسميَّة التَّقرُّر في التَّعليل وتأكيده، وبهذا تأتي الجُملة كالشَّهادة القاطعة على

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 24/ 4869، وأحمد، التّفسير الواضح، ص: 1197.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 306.

استمرارهم في الكفر وتعنُّتهم في إنكار الآخرة، مِمّا يُبرز شِدَّةَ ذَمِّهم والتَّوبيخ الموجَّه إليهم[1].

فائدةُ تقديم شِبْهِ الجُملة:

أشنعُ ما كفر به المشركون البعث والحساب

قُدِّمت شبه الجملة ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على مُتعلِّقِها، وهو ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ لإفادة الاهتمام، فلمّا كان تكذيبهم بالآخرة شديدًا، وأراد أن يُؤكِّد المعنى، ويكون لهم اختصاص بمزيد كفرٍ، فالكفر بالآخرة هو أشنع ما اقترفه المكذِّبون، كما أنَّه لا يحسن مجيئه على أصل الكلام بأن يُقال: (وهُم هم كافرون بالآخرة)، فلمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرور؛ حَسُنَ النَّظمُ، وقوي المعنى[2].

فائدةُ استعمال ضمير ﴿هُمۡ﴾ وتكراره:

تأكيدُ الذَّمِّ للكافرين جاء إبرازًا لِشِدَّة تعنُّتهم وجحودهم

ضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، لا يُفيد إلّا توكيد الحكم، ويشبه أن يكون هنا توكيدًا لفظيًّا، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ في الأعراف ويوسف، وفائدته تأكيد الذَّمِّ لهؤلاء الكافرين إبرازًا لِشدَّة تعنُّتهم وجحودهم[3]، وكُرِّر (هُمْ) على جهة تأكيد تعيين أنَّهُم (هُمُ الكافرونَ) بِالآخرةِ، واختصاصهم به على معنى الاختصاص الادِّعائي حتَّى كَأنَّ كُفْرَ غيرِهم غَيْرُ معتدٍّ به بالنِّسبة إلى عظيم كُفْرِهِم، فالمجيءُ بضمير الفَصل - على هذا المعنى - لقصد الحصر[4].

نكتةُ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل:

بيانُ رسوخِ الكافرين في الكفر واستمرارهم عليه

لمّا أخبرتِ الآية عن الكافرين بصيغة المشتقِّ ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ أفادَ أنَّهم عريقون في وصفِ الكُفْرِ، حتّى صارَ صفةً لازمةً مِن صِفاتِهِم، وأضحى ذلك سمة ثابتة لهم، فالكفر أمرٌ مستمرٌّ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 122، والهرريّ، الرَّوح والرَّيحان: 25/ 306.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 24/ 240.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 240.
(4) الهرريّ، الرَّوْح والرَّيحان: 25/ 306.

عندهم، فهُم منكرون للآخرة بما فيها من الحساب والجزاء، جاحدون لها حالًا ومآلًا[1].

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

التَّمييز بين الآيتين في تأكيد الحكم بحسب المقام والمُناسبة

جاء قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ في هذه السّورة، كما أنَّها جاءت في سورة الأعراف: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف: 45] بحذف (هُمْ)، وذكر ﴿هُمۡ﴾ توكيد يقوّي الحُكْمَ، ويُثبِّته، وذلك لأنَّ المَقام هُنا مقام تسجيل إنكارهم للبعث الَّذي دَفَعَهُم لمنع الزَّكاة، مِمّا يُشير إلى عظيم الويل والعقابِ الَّذي توعَّدَهم اللّه به، ففي هذا السّياق حكى عنهم ما يَتناسب مع الحال في التَّأكيد والوعيد، في حين أنَّ ما جاء في سورة الأعراف في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف: 45]، فهو حكاية عن قوم دخلوا النّار، وقد ظَهَرَ عِقابهم، فكان لزامًا أن تُنقل حكاية الأشهاد بما يتلاءم مع المقام دون زيادة في التَّوكيد؛ إذ يتعيَّن أن تكون الحكاية مُناسبة لما جَرى[2].

(1) الهرري، الرَّوْح والرَّيحان: 25/ 306.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/ 34، و24/ 240.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

[فصلت: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن ذِكرِ حالِ أهلِ الكُفرانِ ووعيدِهم إلى ذِكرِ حالِ أهلِ الإيمانِ ووَعْدِهم

لمّا ذكر اللّه تعالى الكافرين ووعيدهم؛ أردفه بذِكر حال المؤمنين ووصفِهم وجزائِهم، وما لهم من الوعد الكريم، وهذه الآية الكريمة والّتي قبلها تَتَّصلان اتِّصالًا ظاهرًا بقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1]، فلمّا ذكر أهل الوعيد المستحقّين للنِّذارة؛ أتبعه بذكر أهل الوعد المستحقّين للوعد، فهو من باب التَّفصيل لما جاء مجملًا من حالَي البشارة والنِّذارة، وفي ذلك تحقيقُ أنَّ القرآن مَثانٍ، تُثَنَّى فيه المعاني المتقابلةُ، فإذا ذُكِرَ ثوابُ المجرمينَ؛ ذُكِرَ ثوابُ المتَّقينَ، وإذا ذُكِرَت الجنَّةُ؛ ذُكِرَتِ النّارُ، وإذا ذُكِر التَّرهيب؛ ثُنّيَ بعده بالتَّرغيب، وهَلُمَّ جَرًّا؛ مِن أجلِ أن يكونَ الإنسانُ في سيره إلى اللّه تعالى بَيْنَ جناحي الخوف والرَّجاء، مُقبلًا على طاعة ربِّه بإخلاص، خائفًا من عقابه، طامعًا في رحمته[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَمۡنُونٖ﴾: مَقطوعٍ، وأصلُ (منن): يدُلُّ على قَطعٍ، يُقالُ: مَنَنْتُ الحَبْلَ: قَطَعْتُهُ، والمَنون المَنِيَّةُ؛ لأنَّها تَنْقُصُ العَدَدَ، وتَقْطَعُ المَدَدَ[3]، والمعنى: غير مقطوعٍ ولا منقوص[4]، وقيل: غير ممنون عليهم[5]، فهُم في كرامةٍ عن سماع المَنِّ عليهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 147، وابن عثيمين، تفسير سورة فصّلت، ص: 50، وقاسم، عقد الجمان، ص: 1025.

(2) العثيمين، تفسير سورة فصّلت، ص: 53، والزُّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 188.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (منن).

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 477، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 420، والواحديّ، التَّفسير البسيط، ص: 422.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 432.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ والعمل الـصّـالـح ركنا الإقبال والقبول

يُثني اللّه تعالى على أهل الإيمان الَّذين صدَّقوا بما يجب عليهم الإيمان به، وأخلصوا في أداء الأعمال الصّالحة، واتَّبعوا فيها ما شرعه لهم، فلهم جزاء دائمٌ وثواب مُستمِرٌّ لا ينقص، ولا ينقطع[1]. فالآية تُبيِّن ركن العلم، وهو الإيمان، وركن العمل، وهو عمل الصّالحات، وأنَّ القبول يوم القيامة في نيل الأجر الثابت، والجزاء الدّائم لا يكون إلّا بهما، فهما قرينا الإقبال على اللّه تعالى وأصل القبول.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية الكريمة عن سابقتها:

ذِكـرُ حـالِ أهل الإيـمـان تكميل لبيانِ شؤم أهل النّيران

لمّا ذَكَرَ تعالى ما للكافرين مِن وعيد؛ ذَكَرَ ما لأضدادهم من وعد وتبشير، فقال تعالى مُجيبًا لمن تَشَوَّق لذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّه لمّا توعَّد الكافرين، وأخبر عن مآلِهم؛ كان موضع أن يُسأل عن حال المؤمنين؟ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فجاءت هذه الجُملة استئنافًا بيانيًّا، لأنَّ النُّفوس إذا سمعت بحكم الأشقياء؛ تَطَلَّعت إلى معرفة حكم السُّعداء، وهذا الفصل يُبرز الفرق الشّاسع بَيْنَ مصير أهل الطّاعة ومصير أهل العصيان[2].

بلاغةُ توكيد الخبر:

تـأكـيـدُ ثـواب المؤمنين إغـراءٌ بالإيمان وحضٌّ عـلـى الـعـمـل الصّالح

التَّعبيرُ بـ ﴿إِنَّ﴾ يحمل في طيّاته توكيدًا قويًّا لمعنى الآية؛ إذ يُبيِّن بيقين لا ريب فيه أنَّ الَّذين اجتمع فيهم شرف الإيمان، وحُسن العمل الصّالح، وخضوعهم وإخباتهم للّه تعالى، هم أهل الجنَّة الَّذين خُلِّد لهم نعيمها دارًا ومقامًا، والسِّرُّ وراء هذا التَّوكيد يكمن في أنَّ السّورة نزلت في مرحلة مُبكِّرة من الدَّعوة؛ إذ كانت

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 341، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 164، والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 744.

(2) الشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 600.

الحاجة ملحَّة لتثبيت المؤمنين وتسليتهم في مواجهة الشَّدائد، فجاء الخبر المليء المُتضمِّن للبشرى والوعد الحسن، مُؤكَّدًا بـ ﴿إِنَّ﴾؛ ليغرسَ في قلوبهم يقين الثَّبات، ويشدَّ من عزائمهم للاستمرار على الإيمان والعمل الصّالح، وفي الوقت ذاته يحمل تعريضًا وتعاسة لمن خالفهم؛ إذ يُحرَمون من هذا الفضل العظيم، فلذلك جاء التَّوكيد، فهو بمنزلة المقابلة بعد أن قال: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾، كأنَّه قال: (طوبى للمؤمنين)، فجاء التَّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ تحقيقًا لوعد الله، وإظهارًا لكرامته لأوليائه في مقابل الويل لأعدائهم[1].

نكتةُ استعمال الاسم الموصول:

بيانُ عللِ الجزاء معينٌ على الثَّبات وحسن البقاء

التَّعبير بالاسم الموصول الجمعيِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يحمل إشارة بليغة إلى علَّة بناء الخبر؛ إذ إنَّ الإيمان المقرون بالعمل الصّالح هو الأساس الَّذي قامت عليه الهداية، وهو السَّبب المستوجب لدخولهم جنّات النَّعيم، فالاتِّصاف بتلك الصِّفات الجليلة من الإيمان والعمل الصّالح هو ما أوجب لهم هذا الجزاء الكريم، وجعلهم أهلًا للثَّناء الإلهيِّ والتَّكريم الرَّبّانيِّ، فكأنَّه قيل: لأنَّهم آمنوا، وعملوا الصّالحات، فلهم أجر غير مقطوع، وليُقابل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

غرضُ تقديم المُسنَد إليه:

تشويقُ السّامع لتلقّي الخبر وتوطئة للجزاء

قُدِّم المسند إليه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ - وهو الأصلُ في التَّركيب - لأنَّه يُحدث تشويقًا في نفوس السّامعين؛ إذ تتشوَّف نفوسُهم لمعرفة الحكم الذي سيُسْنَد إليهم، لا سيَّما بَعد ذِكْرِ حالِ الكافرين وذِكر جزائهم، ممّا يُضفي

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 351، وحموش، التّفسير المأمون، ص: 99، والعليانيّ، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 260.

على النَّصِّ الكريم تأثيرًا قويًّا، ففيه من التَّهْيِئَةِ والتَّوطئةِ لِتَلَقّي نَوعِ الجزاءِ لَدَى السّامِعِ ما فيه.

نكتةُ التَّعبير بالفعل الماضي:

الإشــارةُ إلى الـرُّسـوخ في الإيمانِ والعمل الصّالح والعراقة فيهما

عَبَّر النَّظم الكريم عن الإيمان والعمل الصّالح بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ الإيمان هو حقيقة ثابتة في القلب، والعمل الصّالح المرتبط به كذلك مستقرٌّ وثابت، فهُما أمران مُتحقِّقان ومُستقرّان في النُّفوس الفائزة بثواب ربِّها، فالفعلان يرمزان إلى الرُّسوخ في الإيمان والعمل الصّالح والعراقة فيهما، كما أنَّ صيغة الماضي في الفعلين تُحيل على الاستقرار والدَّوام المفضي إلى الفوز الدّائم[1].

دلالةُ تقديم الإيمانِ على العَمَلِ الصّالِحِ:

تقديمُ القوَّة العلميَّة على العمليَّة والسَّبب على الثَّمرة

المُتتبِّع للنَّظم القرآنيِّ يلفت نظره تقديم فعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ على (عملوا) مع ارتباط أحدهما بالآخر، فقد وردت هذه الصّورة ثلاثًا وسبعين مرَّة في القرآن الكريم، في غالبيَّتها العظمى قُدِّم ذِكرُ الإيمان على العمل؛ وذلك لأنَّ الإيمان قوَّةٌ نظريَّةٌ، وكَمالُها يَتحقَّقُ في المعرفة الرَّبّانيَّة، والغاية الأولى الَّتي خُلِق البشر من أجلها هي الإيمانُ باللّه أوَّلًا، وترْكُ كلِّ ما كانوا يعبدون، مُتوجِّهين بقلب صادق مؤمن بوحدانيَّة اللّه تعالى، لا شريك له، والعمل الصّالح لا يكون بمكان، ولا يكون له أيُّ أجر أو معنى، إن لم يكن صاحبه مؤمنًا باللّه، ومن هُنا قُدِّم الإيمان على العمل الصّالح، وأمّا العمل؛ فهو قوَّةٌ عمليَّة، وكمالها يتحقَّق في الأفعال الخيريَّة، فلمّا كانت معرفةُ اللّه تعالى مُقدَّمة على تنفيذ أوامره العمليَّة بالشَّرف والرُّتبة والفضل؛ وجب تقديمها[2]، كما أنَّ تقديم الإيمان

(1) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 12/ 328.
(2) الرّازي، تفسير الفخر الرازيّ: 213/ 17.

على العمل الصّالح هو مِن باب تقديم السَّبب على النَّتيجة، فإنَّ العمل الصّالح ثمرة من ثمار الإيمان[1].

العـلاقـةُ بين العمل والإيمان علاقة تكامليَّة بنسيجٍ واحد

دلالةُ عطف العمل الصّالح على الإيمان:

عُطِفَ العمل الصّالح على الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لبيان أهمّيَّة العمل، فالعمل الصّالح من كمال الإيمان، والعطف جاء للدَّلالة على عميق الارتباط بينهما، فالعمل من جنس الإيمان لا يكتمل إلّا به، ولا يتحقَّق الإيمان الحقيقي دون أن يُثمر في حياة المؤمن عملًا صالحًا دالًّا على صِدق الإيمان، ولذلك كثُر التَّعاطف بينهما في القرآن الكريم، حتى أصبح قاعدة ذهبيَّة لا يغفل عن بريقِها إلّا أعشى، ولا يغمض عن دلالاتها إلّا أعمى.

الاهتمامُ بأهل الإيمان، وبيان أحقيَّتهم بهذا الأجر

نكتةُ تقديم الخبر على المبتدأ:

قُدِّم الخبرُ على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ للأهمّيَّة، فالحديث عنهم (هم) وعن أجرهم الَّذي ينتظرهم لقاء إيمانهم، وعملهم الصّالحات، ولذلك قُدِّم الضَّمير الدّالُّ عليهم، وهو ﴿لَهُمْ﴾ على الأجر؛ لأنَّ الأساس هو الاهتمام بهم، وبيانُ أحقّيَّتهم بهذا الأجر[2].

تعظيمُ ثواب أهـل الإيـمـان وتفخيم الأجر

فائدةُ تنكير لفظ ﴿أَجْرٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿أَجْرٌ﴾ في الإخبار عن ثواب الَّذين آمنوا إيمانًا صَحيحًا كامِلًا، وعملوا الصّالحات الدّالّات على صِحَّة إيمانهم؛ ليُفيد التَّعظيم والتَّفخيم فهو أجرٌ عظيم شامل، وإن كان يتنوَّع، ويتفاوت بحسب الأعمال الصّالحة[3].

بلاغةُ التَّعريض:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ داخلٌ في التَّهديد والوعيد؛ لأنَّ

(1) مُحمَّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3523/ 7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 240.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 67، والمكيّ، المعين، ص: 477.

أصحاب الويل من المشركين يسوؤهم أن يروا الَّذين آمنوا في أجر غير ممنون[1]، فهو تعريضٌ بالمشركين.

بلاغةُ ذِكر مفردة ﴿مَمْنُونِۭ﴾:

التَّعريضُ بإهانة السّادة للنّاس بذكر كرامة المؤمنين

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿مَمْنُونِۭ﴾ دون (كريم)، والمراد بالممنون في الآية على أظهر التَّفاسير أنَّه غير ممنون عليهم بالعطاء والأجر والثَّواب، وهذا هو موضع الكرامة في ثواب المؤمنين، ونكتةُ ذلك أنَّه قد جرت العادة عند النّاس في الجاهليَّة بالمنِّ في العطاء ممَّن له السّيادة على النّاس، فأرادت الآية بيان أنَّ هذا لن يكون في الآخرة في حقِّ المؤمنين، بل لهم الكرامة العالية، والثَّواب الكريم، وذِكر المنِّ للتَّعريض بصنيع النّاس في الجاهليَّة، وبيان كرامة المؤمنين عند ربِّ العالمين.

براعةُ الاحتباك:

ذِكرُ أجر المؤمنين لكرامتهم وحذف ذكر عقاب الكافرين لمزيد ترهيبهم

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ فنُّ الاحتباك، والتَّقدير: إنَّ الَّذين كفروا، وعملوا الطالحات، لهم عذاب غير مقطوع، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾، الّذين يؤتون الزَّكاة، وهم بالآخرة هم مؤمنون، فحذف ما للكافرين من العذاب زيادة في التَّرهيب، وذكر ما للمؤمنين من الأجر زيادة في الكرامة، كما أنَّه ذكر عدم إتيان الزَّكاة والكفر بالآخرة لبيان علَّة العذاب، وحذف ذكر إتيان الزَّكاة والإيمان بالآخرة؛ لأنَّه ملحوظ في الجملة المذكورة.

(1) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 336.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأجر والثَّواب والجزاء:

الأجـرُ أخـصُّ مِـنَ الـثَّـواب والـجـزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير

الثَّواب يُستعمل في الجزاء بالخَيرِ غالِبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ؛ فهو المقابلة على الخَيرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمل إلّا في النَّفع دون الضُّرِّ، ويتضمَّن معنى المعاوضةِ.

فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء، فَهُما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأجرِ والجزاء، فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنيويَّة والمنافع الأُخرَويَّة[1].

(1) داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، والدّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيِّ، ص: 164 - 166.

﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩﴾ [فصلت: 9]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن بيان مواقف النّاس من الحقِّ إلى بيان أدلَّة الحَقِّ

لَمّا أمَرَ اللّه نبيَّه الكريم مُحمَّدًا ﷺ في الآيةِ الأولى أن يقولَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ﴾، وأتبعه بالوعيد العظيم للمُشركين، ثُمَّ بالوعد الكريم لأهل الإيمان من الثَّواب الدّائم؛ عَقَّبَ كُلَّ ذلك بمُعاودةِ إرشادِهم إلى الحَقِّ، فشَرَعَ في ذِكرِ الأدِلَّةِ على قُدرة اللّه تعالى، فبيَّن كمال قدرته وحكمته العظيمة في خلق السَّماوات والأرض بإبداعٍ وإتقانٍ في فترة وجيزة، بما يدُلُّ على أنَّه لا يجوزُ إثباتُ الشَّرِكةِ بيْنَه تعالى، وبيْنَ تلك الأصنامِ الخَسيسةِ في الإلهيَّةِ والمعبوديَّةِ[1]، فهو انتقال من بيان موقف النّاس من الحقِّ، إلى بيان أدلَّة الحقِّ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَندَادًا﴾: أمثالًا ونظراء وشركاء، وحقيقة النِّدِّ: المِثْلُ المناوئ المُخالف، وأصله من قولهم: ندَّ؛ إذا نفر، وشرد[2]؛ ولهذا يُقال للضِّدِّ: نِدٌّ، ثُمَّ استعمل في المِثْلِ، وإن لم يكن هناك مُخالفة[3]، والمعنى هنا: نظراء وأمثالًا تعبدونها معه[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

توبيخُ المُشركين بسبب كفرهم باللّه مع تجلّي دلائل قدرته وعظمته

يأمرُ اللّهُ تعالى نبيَّه الكريم ﷺ، أن يوجِّه للمُشركين خطابَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 543، والبقاعيّ، نَظمُ الدُّرر: 17/ 148، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 241.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ند).
(3) الراغب، المفردات: (ند)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 43.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 165، والواحديّ، البسيط: 2/ 230.

التَّوبيخ والتَّبكيت؛ لينبِّههم إلى دلائل قُدرته وعظمته، بأن يقول لهم: كيف تجرؤون على الكفر باللّٰه الَّذي خلق الأرض على سَعَتِها وعظَمَتِها مِنَ العَدَمِ في يَومَينِ بإتقان، وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تتَّخِذونَهم آلهةً معه، تساوونهم بربِّ العالمين في العبادة؟ ذلك العَظيمُ الَّذي خلق كلَّ ذلك هو ربُّ الكون المدَبِّرُ لجَميعِ المخلوقاتِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عن سابقتها:

الانـتـقـالُ بين المـعـاني يوجب الـفـصـلَ بين الجمل

انتقلَ الكلام إلى بيان البُرهان القاطع الَّذي يقرّون به، وهو قاطع في الدَّلالة على الوحدانيَّة الَّتي هي رأس الأمر في السّورة، والكلام استئناف ابتدائيٌّ بقوله سُبحانه لنبيِّه صلوات اللّٰه وسلامه عليه: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾، وهو تقريرٌ للألوهيَّة عن طريق الاستدلال بمظاهر القدرة والعظمة في الخلق والتَّعجيب والتَّجهيل لمن يكفر بالَّذي هذا صُنعه[2]، وقد فُصِلَ بَينَ هذه الجُملة وسابقتها لاختلاف الجُملتين خَبرًا وإنشاءً.

غرضُ الأمر ودلالته:

الـحـقُّ أبـلـجُ يـصدعُ الباطلَ الأهوج

الأمر في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ﴾؛ لإرشادِ النَّبيِّ ﷺ إلى ما يقوله للمشركين، مبلِّغًا ما جاء في الآية؛ إذ التَّنزيل الوارد في السِّباق في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يجب الالتزام به بلاغًا صادعًا، وأنَّ هذا الَّذي يتلوه علينا صلوات اللّٰه وسلامه عليه هو التَّنزيل، وأنَّ شرح هذه الحقائق وبيان هذه الأدِلَّة هي من رحمة الرَّحمن الرَّحيم[3]، ودلَّ الأمر على وجوب إظهار ما عليه الكفّار من كفر باللّٰه وشرك به، ويتفرَّع على ذلك تحريم المُداهنة معهم؛ إذ

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 342، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 165، 166، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 745.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، 24/ 241، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 337.

(3) القنوجيّ، فتح البيان: 6/ 150، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 328.

المُداهنة خضوعٌ مذموم، وسكوتٌ آثم عن معصية العاصي، بما يوهم الرِّضا أو القبول، وذلك مِمّا لا يليق بمقام التَّوحيد والإيمان(1).

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

من أشكال الإشكالات إنكارُ المسلَّمات

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ استفهامُ إنكار وتوبيخ وتهديد، للمشركين بالله وقُدرته في هذا الكون الَّذي يمثِّل دلالة الاستحقاق للألوهيَّة، وتضمَّن الغرضُ الإنكاريُّ التَّعجُّب والتَّوبيخ لصنيعهم في حقِّ ربِّهم وخالقهم، فالآية فيها احتجاج من الله تعالى على فساد قولهم، بأنَّ مَن خَلَقَ الأرض في يومين، وأتمَّ منافعها في يومين، والسَّماوات في يومين، كيف يُعقَل الكفر به، وإنكار قدرته على الحشر وبعثة الأنبياء؟ وكيف يُعقَل جعل هذه الأصنام الخسيسة ندًّا له؟(2).

دلالةُ التَّوكيد ونُكتة إدخال الاستفهام عليه:

الإشعارُ بأنَّ كُفرَ المشركين مِن البُعدِ بحيثُ يُنكِرُ العُقَلاءُ وُقوعَه

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ أداتي تأكيدٍ، وهي (إنَّ) واللّامُ؛ لِتَأكيدِ الإنكارِ، لا لإنكارِ التَّأكيدِ، فتقديم الهمزة؛ لأنَّ حقَّها الصَّدارة، فالتَّوبيخ المُستفاد من الاستفهام مُسَلَّطٌ على تحقُّقِ كُفرهم بالله، والتَّوكيد جاء لِلإشعارِ بأنَّ كُفرَهم مِن البُعدِ بحيثُ يُنكِرُ العُقَلاءُ وُقوعَه، فيَحتاجُ إلى التَّأكيدِ وذلك من البلاغة بالمكانة العليا(3).

دلالةُ التَّعبير بصيغة المُضارع:

تجدُّدُ الكفر يزداد شناعةً عند تجدُّدِ سطوع الأدلَّة

جاء التَّعبير بصيغة المضارع لفعل (تَكفُرونَ)؛ للإشارة إلى استمراريَّة كُفرهم وتجدُّدِه يومًا بعد يوم بعد اجتماع الأدلَّة وتكاثف البراهين، فرغم وضوح الأدلَّة السّاطعة الَّتي تستوجب التَّوبة

(1) العُثيمين، تفسير سورة فُصِّلت، ص: 58.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 544، والمنصوريّ، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 506، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 241.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 4، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 123، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 241، 242.

والإقلاع عن الكفر، فهُم يُعاندون باستمرار، ممّا يجعل توبيخهم أمرًا أشدَّ استحقاقًا وأبلغ وقعًا، فصيغة المضارع فيها مزيد استهجان وإنكار؛ لأنَّ معناه أنَّ كُفرهم يتجدَّد، والأدلَّة القاطعة ببطلانه تحت أعينهم تتجدَّد[1].

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول:

تشنيعُ الكفر بالخالق المستوجب للعبادةِ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ دونَ الاسمِ العَلَم، فلم يقل: (لتكفرون باللّه)؛ وذلك لاستِعظام كُفرِهم بالخالق المربّي الرّازق، ولِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ التَّوبيخ؛ لأنَّ الَّذي خَلَقَ الأرضَ هو المُستَحِقُّ لِلعِبادةِ[2]، فالاسم الموصول فيه إلزامٌ بالدَّليل؛ وذلك لأنَّ الصِّلة لا بدَّ أن تكون أمرًا معلومًا عند المُخاطَب حتى يتمَّ بها التَّعريف، ومعنى هذا أنَّهم يعلمون أنَّه سبحانه خلق الأرض، ومُقرّون بذلك بدليل قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزُّمر: 38]، وهذا يجعل الإنكار أوقعَ وأعجبَ، ويجعل الدَّلالة على مُجافاة المنطق وما تقتضيه الفطرة أظهر وأبْيَنَ[3].

بلاغةُ فنِّ الإدماج:

التَّلويحُ بغباوة أهل الكُفر وجهالتهم بتناقضهم في معتقداتهم

ذكرت الآية الكريمة حالَ أهل الكفر، وأنَّهم يكفرون به مع إقرارهم بكونه ﷻ خالقًا للعوالم، ومعنى الكفر به إنكارُ تفرُّده بالألوهيَّة؛ إذ لمّا أشركوا معه آلهةً أخرى، وقعوا في نَقْضِ حقيقته الإلهيَّة؛ لأنَّ التَّعدُّد يُنافي جوهر الألوهيَّة ذاتها، فلمّا أنكروا صفات ذاته؛ أنكروا وجودَه؛ إذ تصوَّروه على غير كُنهه، وقد أُدمج في هذا الاستدلال بيانُ نشأة خَلْقِ هذه العوالم، فجاء موضع الاستدلال متجلّيًا في صلة الموصول، أمّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 241، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 338.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 4، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 243.
(3) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 338.

ما تعلَّق بها؛ فهو إدماجٌ بديعٌ في سياق البيان، وفي هذا الإدماج تلويحٌ بغبائهم بالطَّريق البُرهانيِّ؛ لأنَّهم كفروا بالخالق العظيم الَّذي له في كلِّ شيءٍ آية تَدُلُّ على أنَّه الواحد[1].

علَّة تقديمِ ذِكر خلق الأرض:

البدءُ بالاستدلال بالأقربِ من العيون والأدنى للمنافع

قُدِّم ذِكرُ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ على ذكر السَّماوات؛ لأنَّ المراد التَّعريفُ بالصّانع القادر المالك الباسط المهيمن الذي يستحقُّ أن يُعبد دون سواه، وأظهر ما يدلُّ على هذا المعنى، وأقرب ما يكون هو ما تحت عيون النّاس من الأرض ورواسيها التي من فوقها، وأقواتها ومرعاها التي يعيشون عليها، فعرَض خَلْقَ الأرض أوَّلًا لقُربهِ من الحِسِّ وظُهورِه عندهم؛ لتكون الحُجَّة أشدَّ وضوحًا وأسبق نهوضًا؛ إذ إنَّ آثار خلق الأرض أقربُ إلى العيان وألصق بحياة الإنسان، فهي مَدار معيشته ومحلُّ تنعُّمه، وجاء التَّقديم لبيان النِّعمة وعظمتها، بما تحتويه الأرض من خيرات لا غنى لهم عنها، ممّا يجعل الكفر بالخالق - الَّذي أبدعها - أبشع وأشدَّ قبحًا، فيظهر بذلك جحودُ المشركين في أشنع صوره[2].

بلاغةُ الكناية في الظَّرف:

قِصَرُ مُدَّة خلق الأرض دليل كمال القدرة والحكمة في بيان الأسباب

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ كنايتان من جهتين مُتقابلتين؛ كِنايَةٌ عن قِصَرِ مُدَّة خلقِ الأرض في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾؛ إذ يَدُلُّ هذا الظَّرف على أنَّها خُلِقت في مُدَّة وجيزة، فكيف يُعقَلُ الكُفر باللّه تعالى، وهذا أمره وخلقه وصنعه[3].

والأخرى كناية عن الحكمة من خَلْق الأرض وجَعْلِها في ﴿يَوۡمَيۡنِ﴾، وإنْ كان اللّه تعالى قادرًا على خلق كُلِّ شيءٍ في أَقَلَّ مِن لمحِ البصرِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 242.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 123.
(3) الباليسانيّ، حُسن البيان، ص: 2210.

بلا تحديد ولا توقيت؛ لأنَّ هذا أدَلُّ على الاختيارِ، وأدخلُ في الابتلاءِ والاختبارِ؛ ليُضِلَّ به كثيرًا، ويَهديَ به كثيرًا، فيكونَ أعظمَ لأُجورِهم؛ لأنَّه أدَلُّ على تسليمِهم[1]، ولأنَّ اللّٰه تعالى رَبَطَ الأسبابَ والمُسبَّبات، وجَعَلها تتفاعلُ شيئًا فشيئًا؛ حتَّى تنتهيَ، وفي هذا تعريفه ﷻ للخلق وتعليمهم الأناة في الأمور وترك الاستعجال فيها[2].

بلاغةُ المجاز المرسل في لفظ اليوم:

اعتبارُ ما سيكون ملحوظٌ في نظم القرآن لبيان المعاني وتوكيد الألفاظ

اليوم المعهود عند المُخاطَبين هو عبارة عن زمان كون الشَّمس فوق الأرض، ولا يُتصوَّر ذلك قبل خلق الأرض والسَّماء والكواكب، وعلى هذا ففي قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ مَجاز مُرسلٌ يَظْهَرُ في تسمية المُدَّة باليوم، ولم يكن هناك وجود لليوم؛ لأنَّ طُلوع الشَّمس وغروبها إنَّما هُما بالنِّسبة إلى الأفق، ولا أفق قبل تحقُّق الأرض، وعلاقة هذا المجاز اعتبار ما سيكون، وسرُّه بيان مقدار المدَّة الَّتي خلق اللّٰه فيها ذلك دلالة على القدرة العظيمة الخارقة، وذلك كان في مجال تذكير المعرضين بعظيم قدرة اللّٰه تعالى ووحدانيَّته، فهو المُستحِقُّ بأن يُعبد وحده لا شريك له[3]، ويجوز أن يُراد خلْقُ الأرض في يومين، أي: في نوبتين، على معنى أنَّ ما يوجد في كلِّ نوبةٍ يوجد بأسرع ما يكون، فيكون اليومان مجازًا عن دفعتين، على طريق ذِكْرِ المَلزوم وإرادة اللّازم[4].

دلالةُ العطف في بيان المعاني وتقويتها:

تفسيرُ الكفر بجعل الأنداد لله تبشيعٌ وتقبيحٌ وبيانٌ لسببِ الكفر

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾، جاءت عاطفةً فعل الجعل على قوله تعالى: ﴿لَتَكۡفُرُونَ﴾، وهو من عطف التفسير؛

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 151، 152.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 9/ 62، والأنصاريّ، فتح الرَّحمن، ص: 260، والشِّربيني، تفسير الشِّربيني: 3/ 506.

(3) زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 364، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 04/ 06.

(4) حقِّي، روح البيان: 8/ 231، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 307.

ليوضِّح أنَّ المُراد بالكُفر هو الشِّرك بجعل الأنداد له تعالى؛ إذ لم يكن كفرُ العرب جحودًا لوجود اللّه، بل كان إقرارهم به مصحوبًا بزعم أنَّ أصنامهم تقرِّبهم إليه، ومن هُنا كانوا أقرب أهل الشِّرك إلى التَّوحيد، وأفاد عطف ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ التَّهويل والتَّفظيع؛ لعطف الجناية على الجناية، وهما الكفر وجعل الأنداد، فزاد ذلك في فظاعة فِعلهم وشِدَّة جُرمهم[1]، ويحتمل العطف أن يكون من باب عطف السَّبب على المسبَّب[2]؛ إذ اتِّخاذ تلك الأصنام الخسيسة آلهةً سببٌ مُباشر في الكفر والشِّرك باللّه تعالى، وفيه أيضًا تبشيعٌ لهذا الفعل وتشنيعٌ على فاعله، ولا مانع من اجتماع معنيي التَّقبيح وبيان علَّة الكفر، وهو الشِّرك.

علَّةُ الإضمار بدل الإظهار:

جاء التَّعبيرُ بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾، باعتباره الأصل، ولمراعاة الإيجاز في الكلام.

نكتةُ جمع ﴿أَندَادٗاۚ﴾ وتنكيرها:

ملاحظةُ الواقع أصلٌ في بناء المعاني وتوجيه المراد

جمْعُ الأندادِ في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾، باعتبار الواقع الَّذي كان عليه المشركون، فجعلوا للّه تعالى أنواعًا من الأنداد من الإنس والجنِّ والملائكة وسائر المخلوقات، أي: وتجعلون له أندادًا من الملائكة والجنِّ وغيرهم، والحال أنَّه لا يمكن أن يكون له سُبحانه نِدٌّ واحد[3]، ففيه مزيدُ تشنيعٍ وتقبيح لصنيعهم.

عِلَّةُ فصل جُملة الفاصلة:

الاستئنافُ ببيانِ الحقِّ الأبلج، لصدور المؤمنين أثلج

جُملة: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بُنيت على القطع والاستئناف، وذلك دالٌّ على شِدَّة العناية بمضمونها، فلمّا ذكر فساد الاعتقاد

---

(1) أطفيش، هيميان الزّاد، ص: 193، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 338.

(2) الصّاوي، حاشية على الجلالين: 3/ 402.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 4، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 352، والصّاوي، حاشية على الجلالين: 3/ 402.

الَّذي صوَّرته الآيات السّابقة؛ ضرب هُنا عنه صَفْحًا، واستأنف ببيانِ الحقِّ الأبلج الَّذي لا يجوز لصاحب العقل أن يتجاوزه(1).

غرضُ الاعتراض بجُملة الفاصلة:

تنبيهُ الغافلِ وتحريك السّاكن لمعاني الجلال والبهاء

جاءتِ الجملةُ المستأنفة: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في موقعٍ بديعٍ من الاعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لتُلفت الانتباه إلى معنى جَليل عظيم، وهو أنَّ اللّه ﷻ وحده، لا شريك له هو المستحقُّ وحده للألوهيَّة الحقَّة بخلق الأرض في يومين، فكيف جعلتم له أندادًا؟ وقد زاد على ذلك بإرساء الرَّواسي، وتقدير الأقوات، ومباركتها، ثم باستوائه إلى السَّماء ليحكم صنعتها، وكلُّ واحدة من هذه الأفعال تجعله وحده الحقيق بالألوهيَّة، فالمُعجز قليله ككثيره في الدَّلالة، وهذا فيه من زيادة التَّشهير بما هم عليه ما فيه(2).

نُكتةُ استعمالِ اسم الإشارة للبعيد:

أبلغُ الحججِ ما أُشرِبت توبيخ الخصم وتبكيت الألدِّ

جاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إشارةً إلى الموصول في قوله: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، باعتِبارِ اتِّصافِه بما في حَيِّزِ الصِّلةِ، وقد أُضيف إلى الإشارة معنى البُعد رغم قُرب العهد بالمشار إليه؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في العَظَمةِ(3).

كما أنَّ اسم الإشارة الذي يُشير إلى أنَّ معناه ظاهر ظهورًا كأنَّ العين تراه، والأصابع تُشير إليه، وأنَّ مَنْ خلق الأرض في يومين لا يختلف أحد في أنَّه رَبُّ العالمين يحمل توبيخًا ضمنيًّا لبلادة رأيهم؛ إذ لم يدركوا أنَّ الَّذي خلق الأرض هو ربُّ العالمين، وأنَّ رُبوبيَّته المطلقة توجب انتفاء النِّدِّ والشَّريك، فجاء التَّعبيرُ بديعًا جامعًا بَينَ التَّنبيه على عظمة الخالق ﷻ، وبين الإنكار على

(1) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 243، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 331، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 353.

ضلالهم وتوبيخهم على جهالتهم، في سياق يجمع بين الحُجَّة والتَّوبيخ ببلاغة رفيعة[1].

توجيهُ اتِّساق عنوان الرُّبوبيَّة بعد ذِكْرِ الخلق:

بيانُ تناقضِ المشرك في معتقداته بين الإثبات والنَّفي

تقدَّم ذِكر صفة الخالقيَّة في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾، ثمَّ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: موجدهم ومُربّيهم ومصلحهم، وذلك يَدُلُّ قطعًا على جميع ما له من صفات الكمال، فذِكرُ الرَّبِّ دلالة على الرِّعاية والإصلاح للخلق، وفيه أيضًا إشارة إلى الرَّحمة المذكورة في أوَّل هذه السّورة الكريمة: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]، والجمع بين الخالقيَّة والرُّبوبيَّة مع تضمُّن الرُّبوبيَّة لها، للتَّعريف الجليل الواضح، بأنَّ الخالق الَّذي تقرّون به، هو الرَّبُّ المستحقُّ للعبادةِ، فكيف تغفلون عن هذا الاستحقاق مع الاعتراف بأدلَّتِه؟.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 4، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 243، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

(2) النَّسفيّ، التَّيسير في التّفسير: 13/ 152، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 150.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهٗا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١﴾

[فصلت: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ من بدائع الصُّنع في الأرض إلى شواهد القدرة في السَّماء

لمَّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة خلْقَ الأرض في يومين، وأبان سبحانه عَمّا أقرّوا به من عظيم إبداعه في خلق الأرض؛ أتبع ذلك بذكر ثلاثة أصناف من صنائعه العجيبة وأفعاله البديعة، شاهدةً بقدرته القاهرة وحكمته البالغة، فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، ثم لَمّا شَرَح كيفيَّةَ تَخليقِ الأرضِ وما فيها؛ أَتْبَعَه بكيفيَّةِ تَخليقِ السَّماواتِ[1]، فهو انتقالٌ استدلاليٌّ من الأرض الَّتي يحيا عليها النّاس، إلى السَّماء الَّتي يستظلّون بظلِّها، ويهتدون بنجومها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: ثوابِتَ، (رسو) أصلٌ يدُلُّ على ثَباتٍ[2]، والجبالُ الرَّواسي والرّاسيات: هيَ الثَّوابت الرَّواسخ[3]، والمعنى هُنا: الجبال الثَّوابِتُ الرواسخ في الأرْضِ[4].

﴿وَقَدَّرَ﴾: التَّقْديرُ: الجَعْلُ والصُّنْع[5]، وأصل التَّقدير ضَبْطُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 544، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 150.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات: (رسا).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصِّحاح: (رسا).
(4) السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 239، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 384، والباليسانيّ، حسن البيان، ص: 2211.
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (قدر).

الشَّيءِ القابل للتَّسيُّبِ أو الانبساط وحَكْمه وامتساكه على وضع أو كمٍّ أو مسافة معينة، فلا يتسيَّب، ولا يسترسل[1]، والمعنى هُنا: ضَبَطَ، وحَدَّدَ في الأرض مَقادير أرزاقِ جميع من يعيش على ظهرها[2].

2) ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾: (قوت) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى إمساكٍ وحِفظٍ وقُدْرَةٍ عَلى الشَّيءِ، والقوتُ ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ[3]، وقاته يقوته قوتًا أطعمه قوته[4]، وإنَّما سُمّيَ قوتًا؛ لأنَّهُ مِساكُ البَدَنِ وقوَّتُهُ[5]، والمعنى هُنا: أرزاق أهلها ومعايشهم وما يُصلِحُهم[6].

3) ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾: الاستواء: العلوُّ والارتفاع، يُقال: استوى الرَّجل على ظَهْرِ دابَّته، أي: علا، واستقرَّ[7]، وكَذا استوى قصد، يُقال: فَرَغَ الأميرُ مِن بَلَدِ كَذا، ثمَّ استَوى إلى بَلَدِ كَذا، مَعناه قَصَدَ[8]، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ[9]، واستَوى في هذا المَوضعِ بمعنى: عَمَدَ، وأقبَلَ، وقَصَد[10].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

آياتُ الجمال في خلق الأرض والسَّماء ودلائل الجلال في استسلام الكائنات

يُخبر رَبُّنا ﷻ أنَّه خَلَقَ الأرض، وأرسى فوقها جبالًا شامخات رواسخ، مِن فَوقِ ظَهْرِها، وجعل فيها البركات بما خَلَق فيها مِن المنافِعِ والخَيراتِ الكثيرةِ الدّائِمةِ لأهلِها، وخلق أرزاق أهلها من النّاس والدَّواب بحكمة وإحسان، وكان ذلك في يومين آخرين، فاستوت أيّام خلق الأرض بما

(1) محمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدر).
(2) الغزنويّ، باهر البرهان: 2/ 1271، والمكيّ، المعين، ص: 477.
(3) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (قوت).
(4) الراغب، المفردات: (قوت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوت).
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 188، وابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 238.
(7) الجوهريّ، الصِّحاح: (سوا).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سوى).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوى).
(10) وابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 238. 238، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 255، وابن عادل، اللُّباب: 17/ 107.

فيها أربعةً تامَّةً لا تزيد، ولا تنقص، وقد جاء هذا تفصيلًا وبيانًا لمن سألَ: في كَم خُلقت الأرض وأرزاقها؟.

ولمّا بيَّن اللّه تعالى صنعة الأرض، وما حوت من عجائب الإبداع؛ أعقب ذلك بِذِكْرِ إحكامه في خلْقِ السَّماوات، فأخبر سُبحانه أنَّه علا، وارتفع قاصدًا إلى خلق السَّماء، وهي إذ ذاك دخانٌ مبسوط، فأمر السَّماء والأرض قائلًا: استَجيبا لأمْري، وانقادا لِطاعَتي اختيارًا أو جَبرًا، فجاءتا خاضعتين مستسلمتين، وقالتا: أتينا طائعين، فلا نخالِفُ إرادتَك رَبَّنا(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

جعل الـرَّواسي مـن تـمام بيان قـصَّـة خـلـق الأرض

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ عطفٌ على فعل الصِّلة السّابق: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: خلق الأرض، وجعل فيها رواسي؛ لتكون أوتادًا رواسخ أن تميد بأهلها، وقيلَ: هو عطفٌ على مقدَّرٍ، أي: خلقَها، وجعلَ فيها رواسي، وقيلَ: هو كلام مستأنف(2).

نكتةُ استعمال الجعل دون الخلق:

الخلقُ إيجادٌ من العدم، والجعل تحويل وتصيير للموجود

الجعلُ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ صِلةٌ ثانيةٌ في المَعنَى؛ جيءَ بفِعلٍ آخَرَ غَيرِ فِعلِ ﴿خَلَقَ﴾؛ لأنَّ هذا الجَعْلَ تَكوينٌ آخَرُ حَصَلَ بَعدَ خَلقِ الأرضِ، وهو خَلْقُ أجزاءٍ تَتَّصِلُ بها، إمّا من جِنسِها كالجبالِ، وإمّا مِن غَيرِ جنسِها كالأقواتِ؛ ولذلكَ أعقَبَ بقَولِه: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ بَعدَ قَولِه: ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾(3)، فالخلق إيجاد من العدم، وكلُّ ما في الأرض من مادَّة خَلَقَ مع الأرض، ثُمَّ كانت التَّفاصيل والوظائف لهذه المادَّة بعد

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 384، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 342، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 126، 127، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 745، والشّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 13.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 4.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 4، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 243.

الخلق، والجعل تحويرٌ وتبديل في نفس الشَّيء، فكان الخلق بالأرض أولى، وكان الجعل بالرَّواسي أنسب[1].

دلالةُ استعمال حرف الظرفيَّة:

الإشـارةُ إلى الأصل المغروز في الأرض للجبال وبيان إحكام الصَّنعة الإلهيَّة

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بهذا التَّركيب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾، دون أن يقول: (وجعل رواسي فوقها)، فأُتي بهذا الظَّرف ﴿فِيهَا﴾؛ ليُشير إلى أنَّ الرَّواسي ليست مُجَرَّد معالم بارزة على سطح الأرض، بل هي مغروزة في أعماقها، ثابتةٌ في باطنها كما هي ظاهرة فوقها، فتلك الجبال الَّتي نراها شامخة، خَفيَ أصلها المغروز في الأرض؛ ولذا سُمّيت أوتادًا؛ لأنَّ الوتد منه ما يظهر، ومنه ما يستتر، في تشبيه دقيق لبيانِ إحكام الصُّنع وإبداع التَّكوين[2].

براعةُ استعمال مُفردة الرَّواسي دون الجبال:

الـرَّواسي تُمثِّل الجبال الشامخة ووظيفتها الراسخة

في تسمية الرَّواسي بهذا الاسم وجهان: أوَّلُهما: لعُلوِّ قِمَمِها وارتفاع رؤوسها، وثانيهما: الدَّلالة على رُسوِّ الأرض واستقرارها بها؛ إذ بها تثبت الأرض، وتستقيم فلا تميد بأهلها، فهذه اللَّفظة تجمع بَيْنَ العُلوِّ والشُّموخ من ناحية وبين الثَّبات والرُّسوخ من ناحية أخرى، وهذا كُلُّه شاهد على إتقان الخالق العظيم في جميل خلقه وجليل صُنعه، فهي تدلُّ في الجملةِ على معناها وحالها، وعلى الوظيفة الَّتي لأجلها جعلها اللّه فوق الأرض.

سرُّ حذف الموصوف:

لفتُ الأنظار إلى وظيفة الرَّواسي تحريكٌ للاعتبار

الرَّواسي: هي الثَّوابت الرّاسخة، وصفٌ خَصَّ اللّه به الجبال دون غيرها؛ إذ الجبال حجارة مهيبة مُستقرَّة لا تنتقل، على خلاف الرِّمال المُتحرِّكة والكثبان المُتغيِّرة، فلمّا عُلِمَ هذا؛ حُذِفَ المَوصوفُ (جِبالًا)؛

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 326، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 125، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

لِدَلالةِ الصِّفةِ عليه[1]، ولتقوية الالتفات إلى أنَّ الصِّفة هي المقصودة في النَّظم، وللإيجاز في المبنى التّابع لما ذُكِرَ من المعاني المهيبة.

براعةُ دخول حرف ﴿مِن﴾ على الظَّرف:

تحقيق الواقع المشهود لأنواع تلك الجبال وتنوُّعها وظهور منافعها

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾، ولم يقل: (وجعل فيها رواسي فوقها)، فأتى بحرف ﴿مِن﴾ الدّال على الابتداء، أي: "مرتفعةً عليها لتكونَ منافعها معرَّضة لأهلها، ويظهرَ للنظّارِ ما فيَها من مراصد الاعتبار، ومطارحِ الأفكارِ"[2]، فذكر هذا الحرف لتوجيه الأنظار إلى تأمُّل هذه الجبال ابتداءً من فوقِها إلى آخرها علوًّا، ففيه استحضار الصّورة البديعة لجبالٍ شامخة، بعضها مُكَلَّلٌ بالخُضرة والزُّهور، وبعضها مكسوٌّ بالثُّلوج البيضاء، وبعضها أسود مهيب المنظر، كجبال البراكين، فضلًا عمّا يُثيره هذا الحرف من الوقوف على أسرار خلق الجبال، بما يُتيحه علم الجبال والجيولوجيا ضمن أدوات علميَّة قاطعة بمضامين العلم، لا بفرضيّات المعرفة الباهتة.

دلالةُ تقديم ذِكْرِ البركة على تقدير الأقوات:

البركةُ سرُّ تجلي صفة الرَّحمة الإلهيّة بالخلائق كلِّها

ذُكِرَ قولُه تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بعد ذِكر خلقِ الأرض؛ لأنَّ البركة أوَّل ما يكون بعد الخلق والإيجاد، فهي أساسُ النَّماء والدَّوام، وجاء ذكرها قبل التَّقدير؛ ليكون التَّقدير مقرونًا بالبركة، فيفيض بالخير المستمرِّ الَّذي لا ينقطع، وإنَّما قُدِّمت البركة على التَّقدير؛ لتُهيِّئَ الأرض لاستقبال الأقوات المودَعة فيها، فتأتي نافعة دائمة العطاء، ظاهرًا وباطنًا، فالأرض باركها الله بعد أن خلقها؛ ليكون تقدير الأقوات مبنيًّا على بركتها، فالبركة أصلُ تقدير الأقوات، لا العكس، وبه يُعلم أنَّ الله تعالى جعل الأرض مباركة؛ لتكون البركة مهادَ تقديرِ الأقوات، وإنَّما نطلب رزقنا بالبركة، وهذا هو سرُّ العطاء

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 243.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 4.

الرَّبّانيِّ الَّذي لا يتخيَّله العقل البشري، إلّا بعطاءات الوحي المتدفِّقة، المنبئة عن الرَّحمة الإلهيَّة.

دلالةُ صيغة المفاعلة:

إفـادةُ المُبالغة في عظم البركة وامـتـدادهـا واستمرارها

البركة - في معناها - تُفيد كثرة الخير ووفرة النَّفع، وقد جاء التَّعبير عنها بصيغة المُفاعلة في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾؛ دلالةً على المُبالغة في عِظَمِ هذه البركة، واستغراقها لكلِّ شبرٍ من الأرض؛ إيذانًا باتِّساعها وامتدادها، فلا تُحصَر في موضعٍ دون موضع، ولا تُحدُّ بظاهرٍ دون باطن، فهي نعمةٌ غامرة، على وجه الأرض وباطنها، توزَّعت بين برِّها وبحرها، وعمَّت نباتها وحيوانها، حتى صار كلُّ مظهرٍ من مظاهرها شاهدًا على العطاء الإلهيِّ، وجاءت هذه الصّيغة بما تحمله من إيحاء الاستمرار؛ لتدلَّ على أنَّ البركة الَّتي بثَّها اللّه في الأرض ليست عطاءً عابرًا يزول، بل هي نعمةٌ مستمرَّة دائمة، لا تنقطع، ولا تنفد، يتجدَّد نفعها، وتتضاعف آثارها مع الزَّمان، بل تتضاعف آثارها، ويتجدَّد نفعها، شاهدةً على إحكام الخالق وحكمته، وواسع جوده وعظيم إحسانه.

دلالةُ استعمالِ مُفردةِ (قدَّر):

الإيماءُ إلى نهاية عـمـر الأرض بانتهاء تقدير الأقوات فيها

تقديرُ الشَّيء هو تحديد مقادير ذاته و صفاته، و تدبيره قبل إيجاده، وتقدير أقوات الأحياء والأشياء في الأرض، وهو جعْلُ مقاديرها وافية بحاجاتها على توالي أزمان بقاء الأرض والأحياء والأشياء فيها إلى يوم القيامة، فدلَّ لفظُ التَّقدير على نهاية العالم؛ لأنَّ التَّقدير له بداية ونهاية، وأنَّ هذه الأقوات مقدَّرةٌ بحسب عمر الأرض والبشر الَّتي عليها، وفي استعمال لفظ (التَّقدير) في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، يتجلَّى عظيمُ التَّقدير الإلهيِّ؛ إذ جعل اللّه في الأرض أقواتًا موزونةً بقَدَرٍ معلوم، قَسَّمَها بين جهاتها على نحوٍ مُتقنٍ بديع، فجعل لكلِّ

جهةٍ من جهات الأرض قسطًا من الأرزاقِ والقوت، يختلف في غيرها؛ ليُقيمَ بين العباد سُنَّة التَّكامل والتَّبادل.

بلاغةُ الإيجاز وبراعةُ الاختزال:

استيعابُ معاني تدبير الأقوات في الأماكن كلِّها والأزمان جميعها

الإيجازُ وسَعة المعنى وعُمقه وإعجازه يظهر في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾؛ إذ أودع البارئ جلَّ شأنه في الأرضِ طاقاتٍ عجيبةً، وقدراتٍ مُدهشةً تُنتجُ أقواتَ مَن يعيشُ عليها مِن إنسانٍ وحيوانٍ وطيرٍ، حتَّى ديدان الأرض تجد رزقَها في باطنِها، وحيتان البحر تجد في البحر أقواتها، فهي ثلاثُ كلماتٍ موجزات جَمعت من الفعل والخلق في البَرِّ والبحر ما لا يُحاط به، فهذا إعجازٌ ظاهر لا يُجارَى، ولا تبلغه فصاحةُ العربِ ولا بلاغتُهم، ثمَّ إنَّ البركةَ الَّتي أودعها اللّهُ في الأرضِ، وتقديرَ أقواتِها، ليست لزمنٍ أو جيلٍ واحد، بل هي عطيَّةٌ ممتدَّةٌ عبرَ الأزمان، متعاقبةٌ على الأجيال، كُلَّما جدَّ النّاسُ في استثمارِها، واستخرجوا خيراتِها؛ أمدَّتهم الأرضُ بالمزيد، فجادت عليهم بعطائها، لا تضِنُّ بخيرِها على العاملِ، مُسلمًا كان أو كافرًا[1].

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ دون خيراتها:

قــوتُ الأرضِ كقوت الإنسان دائم مكنوز

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾؛ لبيان أنَّ ما قدَّره اللّه تعالى فيها هو خير دائم، فشبَّه ما فيها من أرزاق بالقوتِ الَّذي يمتاز بطول الأمد، وأنَّه مكنوز مخزون في الأرض، مع ما فيه من الإشارة إلى أنَّ هذه الأقوات لها وقت تُخرَج فيه للنّاس، وأنَّ اللّه تعالى بنى الأرض على الأقوات طويلة الأمد، لا على الخيرات العاجلة، ففيه إيماء إلى أنَّ الأقوات مستمرَّة إلى انتهاء عمر هذه الأرض، وبفناء الأقوات يفنى العالم وما فيه.

بلاغةُ التَّعبير المجازيّ:

أُضيف لفظُ الأقوات إلى الضَّمير العائد على الأرض في قوله

(1) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

تعالى: ﴿أَقۡوَٰتَهَا﴾ على المجاز بحذف المضاف إلى الضَّمير، والتَّقدير: أقوات أهلها، أو تكون الإضافة مجازيَّة للاختصاص، ولا معنى لاختصاص القوت بالأرض[1]، أو أن يكون الضَّمير على سبيل المجاز المرسل، أي: أقوات الأرض، والمراد أقوات من يقطن الأرض، فذكر الأرض الَّتي هي المحلُّ، وأراد الحالَّ فيها، وهم أهلها.

عظيمُ تدبير الخالق في تقديره أرزاق أهل الأرض

نُكتة جمع الأقوات مُضافًا إلى ضَميرِ الأرضِ:

جَمْعُ الأقواتِ مُضافًا إلى ضَميرِ الأرضِ يُفيدُ العُمومَ، أي: جَميعَ أقواتِها، وعُمومُه باعتبارِ تَعدُّدِ المُقتاتينَ، فهذا الجمعُ لا يقتصر على فئة واحدة من المخلوقات، بل يشمل جميع الأحياء، فما من كائنٍ يسكن الأرض إلّا وقد قدَّر اللّٰه سبحانه له فيها رزقه، فللدَّوابِّ رزقها، وللطَّير رزقها، وللحيوانات المُفترسة رزقها، وللزَّواحف رزقها، وللحشرات رزقها، وكلٌّ من هذه المخلوقات يجدُ في الأرض ما يتغذَّى به، وفي هذا عظيم تدبير اللّٰه سُبحانه؛ إذ جعل للإنسان من هذه الأقوات ما تستطيب نفسه، ويفيض عليه من نِعَم اللّٰه ما يُعينُه على قضاء حاجاته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، فكلُّ شيءٍ في الأرض مُقدَّرٌ له رزقه، لا يُغادر من جُملته شيء، بل يسير وفق تقديرٍ حكيم[2].

إفادةُ العموم في الأقوات والمُقتاتين جميعًا

توجيهُ تخصيص الرَّواسي والبركة وتقدير الأقوات بالذِّكر:

تخصيصُ الأرض بتلك الأنواع الثَّلاثة العظيمة: الرَّواسي الَّتي تُمسكها، والبركة الَّتي أودعها فيها، وتقدير الأقوات الَّتي تسوق إليها، هو اعتناء من الخالق العظيم بالمُخاطَبين، وتدبيرٌ من حكيم خبير لما يصلح شأنهم، فقد بسطَ لهم في خِطابه مظاهرَ الرَّحمةِ والرَّأفة، مُظهرًا ما هيَّأه لهم من أسبابِ المعايش، فأعدَّ الأرضَ لهم

الاعتناءُ من الخالق العظيم بالمُخاطَبين في سياق الامتنان المبين

(1) الشِّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 297، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 244.

قرارًا، وأودعَ فيها البركات، ووزَّع الأقوات، وأقامَ من فوقها رواسيَ شامخاتٍ تحميها، وتثبِّتُها، فقد جعل لهم من الأرض ما يُعينهم على العيش، فالأرض قد زوِّدت بأسباب الرِّزق والثَّبات، ورتَّب لهم مبادئَ الرِّزقِ قبل أن تُنفخ أرواحُهم في أجسادِهم، وأُعطيت من البركة ما يعمُّها، ويغمرها، وقُدِّرَ فيها من الأقوات ما يفي بحاجات البشر والحيوان على السَّواء، وكلُّ ذلك شاهدٌ ناطقٌ يدعو العقولَ إلى الإيمانِ، ويزجر النُّفوسَ عن الكفرِ والطُّغيانِ، فما أبلغَه من خطابٍ! وما أعظمَ ما اشتمل عليه من عظةٍ وبيانٍ! فكان الأولى بهم أن يقابلوا هذا الإنعامَ بالشُّكر، لا أن يواجهوه بالكفر(1).

بلاغةُ الفذلكة ودلالتها:

الـدَّلالـةُ على أنَّها كانت أيّامًا كـامـلـة بـغير زيادة ولا نقصان

قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ فذلكة لمدَّة خلق الأرض وما فيها، كأنَّه قال: كلُّ ذلك في أربعة أيّام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان، وهُنا يتبادر إلى الذِّهن سؤال: لِمَ لم يقل: (في يومين)، والأرض قد خُلِقت في يومين، وما جعله فيها من الرَّواسي والبركة، وتقدير الأقوات في يومين آخرين، فما فائدة هذه الفذلكة؟.

والجواب: أنَّه لمّا قال: في أربعة أيام، وقد ذَكَرَ أنَّ الأرض خُلِقَت في يومين، عُلِم أنَّ ما فيها خُلِق في يومين، فبقيت المُخايرة بَينَ أن يُقال: (في يومين) أو (في أربعة أيام سواء)، فكانت في قوله: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ﴾ فائدةٌ ليست في أن يُقال: (في يومين)، وهي الدَّلالة على أنَّها كانت أيّامًا كاملة بغير زيادة ولا نقصان، وعدل إلى ما جاءت عليه الآية للإيجازِ، واعتمادًا على اللَّحاق من قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، فلو كان اليومان اللَّذان قضى فيهما خلْقَ السَّماوات زائدين على ستَّة أيّام انقضت في خلق الأرض وما عليها؛ لصار مجموع الأيّام ثمانية، وذلك ينافي الإشارة إلى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 5، والزُّحيلي، التَّفسير المنير: 24/ 194.

عدَّة أيّام الأسبوع، فإنَّ اليوم السّابع يوم فراغ من التَّكوين، وحكمة التَّمديد للخلق أن يقع على صفة كاملة متناسبة(1).

دلالةُ لفظ ﴿سَوَآءَ﴾:

الأيّام الأربعة الَّتي خُلقت فيها الأرض، وقُدِّرت فيها الأقوات كاملة مُتساوية

كلمة ﴿سَوَآءَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءَ﴾ يُبيِّن أنَّ هذه الأيّام الأربعة تشمل يومين خُلِقَت فيهما الأرض، ويومين جُعِلت فيها الرَّواسي، وبورك فيها، وقُدِّرت أقواتها، والمعنى: أربعة أيّام كاملة، متساوية الأجزاء، ليس فيها نقص أو تفاوت؛ للدَّلالة على أنَّ تلك الأيّام الأربعة كانت مُتساوية غير مُختلفة، ولو جاء البيان بالتَّفريق، يعني: خلق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي، وبارك فيها، وقدَّر فيها أرزاقها في يومين؛ لاحتمل الكلام أنَّها ليست كاملة؛ لأنَّك تقول فعلت هذا في يومين؛ إذا فعلته في أكثر اليومين من غير استغراق لوقتها كاملًا(2).

بلاغةُ اختيار مُفردة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾:

التَّنوُّع الدَّلالي والتَّجاوب البيانيُّ للألفاظ والمعاني

لفظة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ تتضمَّن وُجوهًا من المعاني البليغة؛ إذ تتنازعها أفعالٌ ثلاثة: (جعل) و(بارك) و(قدَّر)، فقد أُلحِقَت بكلٍّ منها، ودلَّت على بيانٍ شافٍ لمقاصد مُختلفة، فإن تعلَّقت بفعل (جعل) أو (بارك)؛ كان المعنى أنَّ هذا البيان الإلهيَّ موجَّهٌ إلى جمع السّائلين، أي: الطّالبين للمَعرفة والمتشوِّقين لفهْم دقائق خلق الأرض، وما أودع فيها، وإن تعلَّقت بفعل (قدَّر)؛ دلَّت على أنَّ المُراد بالسّائلين الطّالبون للقوت، أولئك الَّذين جَعَلَ اللّٰه لهم أرزاقًا موزونةً بعنايةٍ بالغة، تفي بحاجاتهم، وتسدُّ مؤنتهم، فالسّائل هُنا هو كلُّ طالبٍ في شتَّى صور طلبه، ويجوز أن تُقدَّر الجملة بفعلٍ محذوفٍ، بأن يُقال: (بيَّنّا ذلك للسّائلين)، أي: لمن أرادوا استيضاح مُدَّة خَلْقِ الأرض

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 188، وحقّيّ، روح البيان: 8/ 234، والسيرافيّ، التَّقريب، ص: 133.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 545، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

وتفصيل ما فيها، فيكون هذا الإحكام في اللَّفظ جامعًا لِكُلِّ المعاني، دالًّا على رحمة الله بعباده في إجابة السّائلين عن حاجاتهم العلميَّة أو المادّيَّة، بما يظهر من شموليَّة العطاء الإلهيِّ وتمام الحكمة[1].

دلالةُ الوصل بالعطف بَينَ الجُمل الفعليَّة الثَّلاث:

ترصيفُ جواهر البيان في إبراز مظاهر الإتقان

جاء النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ بهذه الجُمل الفعليَّة المُتعاقبة، فوصل بينها بواو العطف تفصيلًا لمظاهر القدرة، وإتقان الصُّنع، فجاءت الأفعال: (جعل)، و(بارك)، و(قدَّر) في صيغة الماضي؛ إشارةً إلى تَحقُّقها وثباتها، ودلالةً على وضوحها لمن ألقى السَّمع، وأبصر بقلبٍ متفكِّرٍ، واتِّحاد هذه الجمل في كونها خبريَّة لفظًا ومعنًى، وفي المسند إليه وهو الذّات العليَّة، يزيد المعنى رُسوخًا، ويبرز عظمة البيان الإلهيِّ، فعطف بعضها على بعض، وهذا ما يُعرَف في البلاغة بالتَّوسُّط بين الكمالين[2].

نوعُ حرفِ التَّراخي ودلالتُه:

خلْقُ السَّماء جاء متراخيًا زمانًا ورتبةً عن خلْقِ الأرض

جاء العطف بحرف التَّراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾، ولمّا كان خلقُ الأرضِ أوَّلًا، ثمَّ خلْقُ السَّماء، ثم دحو الأرض بعد ذلك؛ فإنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هُنا للتَّراخي الزَّمانيِّ، فذكر أنَّه خلق الأرض أوَّلًا؛ لأنَّها كالأساس، والأصلُ أن يُبدأ بالأساس، ثُمَّ بعده بالسَّقف، كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 29][3].

وتحتمل أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبي؛ لما بينَ الخَلْقَين من التَّفاوت؛ لِقَولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: 30]، أي:

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 188، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 67، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 288، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 245.
(2) العليانيّ، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 361.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 165.

خلق الأرض أوَّلًا ثمَّ السَّماء، ثم دحا الأرض، وهي تدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ أهَمُّ مَرتَبةً مِن مَضمونِ الجُملةِ المَعطوفِ عليها، فإنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ أعظَمُ مِن خَلقِ الأرضِ، وعَوالِمَها أكثَرُ وأعظَمُ، فجيءَ بحَرفِ التَّرتيبِ الرُّتبيِّ بَعدَ أن قُضيَ حَقُّ الاهتِمامِ بذِكرِ خَلقِ الأرضِ؛ حتَّى يوفَّى المُقتَضَيانِ حَقَّهما، وتَرقّيًا مِن الأدْنى إلى الأعلى؛ لأنَّ الكلامَ مع المُعانِدينَ المُتمرِّدينَ، وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ لِتَرتيبِ الخبَرِ على الخبَرِ؛ أخبَرَ أوَّلًا بخلْقِ الأرضِ، ثمَّ أخبَرَ بخلْقِ السَّماءِ[1]، ولا مانع من أن تكون للتَّراخي الرُّتبي والزَّماني بحسب الاعتبار في كلِّ معنى.

بلاغةُ فنِّ الاكتفاء:

الإيمـــاءُ إلى مكانة السَّماء وشرفها

خصَّ النَّظم الكريم الذِّكر في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ بالسَّماء، والخِطاب المُترَتِّب عليه مُتوَجِّهٌ إليها وإلى الأرض مَعًا، كما قال تعالَى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾، وهذا من باب فنِّ الاكتِفاء بذِكرِ تَقديرِها وتَقديرِ ما فيها، كأنَّه قيلَ: فقال لها ولِلأرضِ الَّتي قَدَّرَ وُجودَها ووُجودَ ما فيها: ائتيا طوعًا[2].

بلاغةُ التَّضمين:

تعدّى فعل ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ بحرف ﴿إِلَى﴾ لتضمينه معنى القصد، أي: لَمّا خلق تعالى الأرض؛ قصد إلى خلق السَّماء[3].

بلاغةُ التَّشبيه في لفظ ﴿دُخَانٌ﴾:

التَّشـبـيـهُ في الواقع الغيبيِّ لا يسلم من القيل والقال

الدُّخان: ما ارتفع من لهب النّار، يُستعار لِما يُرى من بخار الأرض في حال جدبها واحتباس مائها، وقوله تعالى: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ هو من باب التَّشبيه البليغ الصّوريِّ؛ إذ شُبِّهت السَّماء في أوَّل أمرها

---

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 67، والطِّيبيّ، حاشية على الكَشّاف: 13/ 577، 578، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 245.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 5، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 582.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 48، 745، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 347.

بالدُّخان؛ لأنَّ صورتها صورة الدُّخان في رأي العين[1]، فلمّا كانت السَّماء أوَّل حدوثها مُظلمة؛ صحَّت تسميتها بالدُّخان تشبيهًا لها به، من حيثُ إنَّها أجزاء مُتفرِّقة غير متواصلة، عديمة النّور كالدُّخان، فإنَّه ليس له صورة تحفظ تركيبه[2]، وقال بعضهم: وهي دخان، أي: دخان مرتفع من الماء، والمراد بالدُّخان البخار الَّذي تتشكَّل منه الطَّبقات الهوائيَّة[3]، وهذا التَّوجيه البلاغيُّ يُستحسن عدم القطع به في أمر الغيب، فإنَّ تحقيق الأمر بشكلٍ قاطع لا يكاد يسلم من القيل والقال، وهي أقوال بيانيَّة، وحقيقة الأمرِ عند صاحب الأمر سبحانه.

توجيهُ الاستعارةِ والتَّمثيل في لفظ الإتيان:

احتمالُ الألفاظ لأنواعِ الاستعارات سَعةٌ تقبل جميع الأفهام

لفظُ الإتيان في قوله تعالى: ﴿ٱئۡتِيَا﴾، أصله: المجيء والإقبال، ولمّا كان معناه الحقيقيُّ غير مراد؛ لأنَّ السَّماء والأرض لا يُتصوَّر أن يأتيا، ولا يُتصوَّر منهما طواعيَّة أو كراهيَّة؛ إذ ليستا من أهل العقول والإدراكات، ولا يُتصوَّر أنَّ الله يكرههما على ذلك؛ لأنَّه يقتضي خروجهما عن قدرته بادئ ذي بدء؛ تعيَّن الصَّرف عن المعنى الحقيقيِّ، وذلك بأحد وجهين لهما من البلاغة المكانة العليا:

الوجه الأوَّل: أن يكون الإتيان مستعارًا لقبول التَّكوين، كما استُعير للعصيان الإدبار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢﴾ [النازعات: 22]، فمعنى ﴿ٱئۡتِيَا﴾: امتثلا أمر التَّكوين، وهذا الامتثال مستعار للقَبول، وهو من بناء المجاز على المجاز، وله مكانة في البلاغة، والقول على هذا الوجه مستعارٌ لتعلُّق القدرة بالمقدور، كما في قوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82].

وقوله: طوعًا أو كرهًا كناية عن عدم البُدِّ من قَبول الأمر، وهو

(1) السَّمين، الدّر المصون: 6/ 58، والصّافي، الجدول: 24/ 291.

(2) حقي، روح البيان: 8/ 236.

(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 367، والهرري، حدائق الرَّوح والريحان: 25/ 347.

تمثيل لتمكُّن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة اللّه تعالى فكلمة: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ جارية مجرى الأمثال، و﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مصدران وقعا حالين من ضمير ﴿ٱئْتِيَا﴾، أي: طائعين أو كارهين.

الوجه الثّاني: أن تكون جملة: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مستعملةٌ تمثيلًا لهيئة تعلُّق قدرة اللّه تعالى؛ لتكوين السَّماء والأرض لعظمة خلقهما، بهيئة صدور الأمر من آمر مطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاقٍّ، فلا قول ولا مقول، وإنَّما هو تمثيل، ويكون طوعًا أو كرهًا على هذا من تمام الهيئة المشبَّه بها، وليس له مقابل في الهيئة المشبَّهة، والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإلهيَّة ونفوذها في المقدورات دقَّت، أو جلَّت[1].

نكتةُ التَّخيير في الإتيان:

الدَّلالةُ على نهاية الكمال في الهيمنة والمُلْك والاقتدار

الأمرُ بالإتيان ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هو من الكلمات الرَّبّانيَّة الصّادرة عن عِزِّ الألوهيَّة، الَّتي لا يمكن أن تصدرَ عن نفس بشريَّة، وخطاب السَّماء والأرض وقول الحقِّ: ﴿ٱئْتِيَا﴾ لا يصدر إلّا عن سلطان قادر قاهر، فإذا أُضيفت إليه كلمتا ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ دلَّ ذلك على نهايات الكمال في الهيمنة والملك والاقتدار وعزِّ الرُّبوبيَّة[2].

بلاغةُ التَّعريض بلفظ الكره والطَّوع:

التَّهديدُ وكمال الإذعان للتَّنبيه على تأثير القوَّة وشمول السُّلطان

كلمة ﴿كَرْهًا﴾ أدلُّ على المقصود من كلمة ﴿طَوْعًا﴾، وفيها بيان تأثير قُدرته ﷻ فيهما، وأنَّ امتناعهما عن قدرته محال، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلنَّ هذا شئت أو أبيت، ثم إنَّ لفظة ﴿كَرْهًا﴾ تحمل شَوْبًا من التَّهديد للَّذين قالوا: قلوبنا في أكنَّة[3]، فهي تعريضٌ بالمشركين الَّذين لم يقبلوا دعوة التَّوحيد لا طوعًا ولا كرهًا.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 247.

(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 346.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 164، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 346.

بلاغةُ الكناية في لفظَي الطَّوع والكره:

الخضوع والانقياد وعدمُ البُدِّ مِن قبولِ الأمْرِ

قوله تعالى: ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ كناية عن استحالة امتناعهما على قُدرته تعالى، وأنّهما لا تملكان إلّا الانقياد والخضوع، فالكنايةُ هنا كناية عن صفة الخضوع والانقياد وعَدَم البُدِّ مِن قَبولِ الأمْرِ، وتَمَكُّنِ القُدرةِ مِن إيجادِهما على وفقِ إرادةِ اللَّهِ تَعالى(1).

بديعُ الطِّباق ودلالته:

شمولُ الخضوعِ الكامل والانقياد التّامِّ لجميع المخلوقات

بين اسمَي السَّماء والأرض، وكلمتَي ﴿طَوۡعًا﴾ و﴿كَرۡهًا﴾ محسِّن الطِّباق، وفيه دلالة على الخضوع والانقياد التّامِّ من السَّماء والأرض، وأنَّهما لا تملكان غير ذلك، فلم يكن منهما إلّا الامتثال والإذعان لقدرة العظيم الجبّار(2)، ودلَّ الطِّباق على الشُّمول والاستيعاب لكلِّ المخلوقات الَّتي تشملهما السَّماء والأرض، وأنَّها خاضعة في كلِّ الأحوال.

خطابُ الله تعالى للسَّماء والأرض بَيْنَ الحقيقة والمجاز:

الخطاب الإلهيُّ للمخلوقات يُحمل على حقيقته لدلالة العقل والنَّقل عليه

ذهبَ العلماء مذاهبَ شتَّى في الكشفِ عن حقيقةِ الخطابِ ومجازِهِ في خطاب اللّه تعالى للسَّماء والأرض، والصَّواب حمل الآية على ظاهرِها، فإنَّ اللّهَ ﷻ خاطبَ الأرضَ والسَّماءَ خطابًا حقيقيًّا، فامتثلتا أمرَه، وقالتا: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾؛ إذ لا يقاسُ حالُ الخلقِ مع خالقِهم بحالِهم مع المخلوقين، فإنَّ الأمرَ الإلهيَّ ينفذُ إلى الجبالِ والطَّيرِ، كما في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ [سبأ: 10]؛ إذ رجَّعت الجبالُ والطَّيرُ تسبيحًا مع داوودَ ﵇، وكما في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 44]، فما المانعُ أن تُخاطِب الأرضُ والسَّماءُ ربَّها خطابًا حقيقيًّا يُناسبُ مقامَهما مع خالقِهما(3)، وهذا يعني أنَّ لغيرِ العاقلِ إرادةً؛ لأنَّ الطّائِعَ له إرادةٌ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 189، 190، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 68، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 290، وأبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 8/ 5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 247.
(2) العليانيّ، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 399.
(3) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 346.

ومَن يُتصَوَّرُ إكراهُه، فلَه إرادةٌ أيضًا، وإرادةُ كلِّ شَيءٍ بحَسَبِه، وقد ورَدَ أنَّ الصَّحابةَ كانوا يسْمَعون تسبيحَ الطَّعام، وهو يُؤكَلُ، ولا تَسبيحَ إلّا بعدَ إرادةٍ، وثَبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في أُحُدٍ: «يُحِبُّنا ونُحِبُّه»[1]، والمَحبَّةُ أخَصُّ مِن الإرادةِ، وعلى هذا فهذه الجَماداتُ لها إرادةٌ وتُسَبِّحُ اللّهَ ﷻ، ولكن لا نَفْقَهُ تَسبيحَها[2].

عِلَّةُ فصل جملة المحاورة:

الـتَّـشـويـق لمعرفة الجواب يستدعي الفصل في جمل المحاورة

فصل قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ عن الجُملة الَّتي قبله؛ لأنَّه بمنزلة الجواب عن السُّؤال المُتبادر للذِّهن بعد سماع الأمر الإلهيِّ الموجَّه إلى السَّماء والأرض في قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾، كأنَّ سائلًا سأل: فما كان جوابهما؟ فجاء الجواب، فالفصل لشبه كمال الاتِّصال بين الجملتين، وفيه بيان المبادرة إلى الامتثال وسرعة الاستجابة من كلٍّ منهما، وهذه الصّورة في سرعة الاستجابة فيها مِن التَّقريع للَّذين قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ وردِّهم بذلك داعي اللّه، فجاءت هذه الآية؛ لتُبيِّن أنَّ الأرض والسَّماء ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾، وهذا هو المُناسب لمواجهة غطرسة المُستكبرين؛ لأنَّنا لا نرى في خَلْقِه أعظم وأجل من الأرض والسَّماء، وكلُّ مخلوقٍ مهما عظم جرمُهُ؛ فهو في قبضة خالقه[3].

نكتةُ صيغة جمع الجماد بجمع العقلاء:

تـنـزيـلُ غـيرِ الـعـاقـل منزلة الـعـاقـل عند اتِّصافه بصفات العاقل تعريضًا ببعض العقلاء

جاءت صيغة جمع ﴿طَآئِعِينَ﴾ على صيغةِ جَمعِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ العادةَ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ أنَّه إذا وُصِفَ غيرُ العاقِلِ بصِفة تختَصُّ بالعاقِلِ؛ أُجريَ عليه حُكمُه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ

(1) الحديث: أخرج البخاريّ ومسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ، ينظر: البخاريّ، صحيح البخاريّ، كِتابُ الجِهادِ والسِّيَر، بابُ فَضْلِ الخِدْمَةِ في الغَزْوِ، برقم: (2889)، ومسلم، صحيح مسلم، كِتابُ الحَجِّ، باب: "أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ"، برقم: (1393).

(2) تفسير ابن عثيمين - سورة فصّلت، ص: 77.

(3) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 345.

﴿عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]، فلَمّا كان السُّجودُ في الظّاهِرِ مِن خَواصِّ العُقَلاءِ؛ أجرَى حُكمَهم على الشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ؛ لِوَصفِها به، ووَجهُ تذكيرِ الجَمعِ في قوله تعالى: ﴿طَآئِعِينَ﴾ أنَّ السَّمواتِ والأرضَ تأنيثُها غيرُ حَقيقيٍّ، أو قد يكون المعنى: (أتَيْنا بمَن فينا طائِعينَ)، فيكونُ فيه تغليبُ العاقِلِ على غَيرِه[1]، وفي هذا الجمع تعريضٌ بهؤلاء الَّذين ضلَّت عقولهم، فتردَّت بهم سفاهتهم في هوَّة الشِّرك والغواية، فكأنَّ الآية الكريمة تُجَسِّدُ المفارقة الواضحة بين تلك الجمادات الَّتي لا تملك إلّا الطّاعة والانقياد المُطلق لجبروت الخالق ﷻ، وبين هؤلاء الملاحدة من بني البشر (العُقلاء) الَّذين تَعَطَّلت عُقولهم، فانغمسوا في حمأة المعصية بين إشراك به واقع، وإعراض عن آياته ودلائل قدرته مُتوقَّع.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإكراه والإجبار:

الإجبارُ، حمْلُ الإنسانِ غيرَه على الفعل مع الإيعاد على تركه، والإكراه أعمُّ

الإكراه: خلاف الرِّضا والمحبَّة، ويُقال في حمْلِ الإنسان على ما يكرهه[2]، قسرًا وجبرًا، فمعنى الإكراه لغةً يدور حول المشقَّة والشِّدَّة، وعدم الرِّضا والمحبَّة وعدم الاختيار، وحمل الآخر على ما يكرهه بالوعيد الشَّديد والإلزام والإجبار على ما يكرهه الإنسان طبعًا أو شرعًا[3]، والمقصود بالإكراه في الدّين إجبار الإنسان على اعتناق دين جبرًا عنه، بأيِّ نوع من أنواع الجبر والقهر.

ويُعرَّف الإجبار لغة بالقهر والإكراه، يقال: جبر الرَّجل على الأمر يجبره جبرًا وجبورًا، وأجبره: أكرهه[4].

(1) الشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 204، 205، وابن الشَّجري، الأمالي: 2/ 47 - 49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كره).
(3) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 50.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والجوهريّ، الصِّحاح: (جبر).

فالإكراهُ في اللُّغة يساوق الإجبار - كما عرَّفه اللُّغويون - إلّا أنَّ بعض المحقِّقين جعله أعمَّ منه؛ إذ ذهب إلى أنَّ الإجبار هو حمّلُ الإنسان غيره على الفعل مع الإيعاد على تركه، بينما قد يصدق الإكراه بالحمل على الفعل من دون إيعاد على تركه، كما إذا طلب منه أبوه أو أمُّه أو زوجته فعلًا، ولم يكن مجبرًا عليه، إلّا أنَّه يريد إرضاءهم وعدم مخالفتهم، كما أنَّ في الإجبار معنى الاستعلاء[1].

(1) التَّهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/ 549.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾

[فصلت: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفسيرُ كيفيَّةِ خَلقِ السَّماء بعد إبهامِه، وتبيينُه بعد إجمالِه

بعد أن شرعتِ الآية السّابقة في الكلام عن خلق السَّموات، وكان الكلام فيها - أي: في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: 11] - مُبهمًا مجملًا، جاءت هذه الآية: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾؛ لتفسِّرَ هذا المبهمَ، وتفصِّلَ هذا المُجمَلَ؛ لا أنَّ هذا القضاءَ فعلٌ مترتِّب على تكوينها(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: (قضي) أصل يَدُلُّ عَلى إحكام أمرٍ وإتْقانِه وإنفاذِه لِجِهَتِه، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، أي: أحْكَمَ خَلْقَهُنَّ(2)، والقَضاءُ: فصل الأمر، قولًا كان كما في قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، أي: أمر بذلك أو فعلًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ [غافر: 20]، والمراد بالقضاء هنا كما مرَّ: الإحكام والإتقان.

2) ﴿وَأَوۡحَىٰ﴾: (وحي) أصلٌ يدلُّ على إلقاء عِلمٍ في إخفاء أو غيره إلى غيرك، والوحي: الإشارة السَّريعة، ولتضمُّن السُّرعة قيل: أمرٌ وحيٌ(3)، والوحي يُطلَق، ويراد به: الكتاب والرِّسالة، ويطلق أيضًا على ملك الوحي جبريلَ عليه السلام، باعتباره المَلَك المكلَّف به، والوحي أيضًا: عبارةٌ عن التَّكوينِ كالأمر، وهو المعنى الملائمُ لقوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وحى).

﴿فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾، أي: (خلقَ في كلٍّ مِنْها ما فيها من الملائكة والنَّيِّراتِ وغيرِ ذلك ممّا لا يعلمه إلّا اللّه تعالى)[1].

3) ﴿أَمْرَهَاۚ﴾: (أمر) أصولٌ خمسة: الشَّأنُ، وضِدُّ النَّهي، والنَّماء والبَرَكَة، والمَعلَم، والعَجَب[2]، وجمع أمرٍ: أُمور، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، ويقال للإبداع: أمر، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، ويختصُّ ذلك باللّه تعالى دون الخلائق، وقد حُمِل على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [فصلت: 12][3].

4) ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: (صبح) أصلٌ واحد مطَّرِد، وهو لون من الألوان، وأصله الحُمرة، وسُمّي الصُّبحُ صُبحًا لحُمرته، كما سُمّي المصباح مصباحًا لحمرته؛ ولذلك يقال: وجهٌ صبيح، والصَّباح: نور النَّهار[4]، والمِصْباحُ: مقرُّ السِّراج، والمَصابيحُ: أعلام الكواكب[5]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5]، وقال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، والمراد: النُّجوم والكواكب.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تفصيلُ أطوار خلقِ السَّماوات السَّبع، وإظهارُ قدرةِ الباري بذلك

الآيةُ شروعٌ في تفصيل كيفيَّة بناء السَّماوات السَّبع، فيَصِف اللّهُ نفسَه العليَّةَ بأنَّه أتمَّ خَلْقَ السَّماوات سبعًا في يومَين، وأوجد في كلِّ سماءٍ ما أُعدَّت له، واقتضَتْه حكمتُه، وزيَّن السَّماء القريبةَ من الأرض بالنُّجوم المُنيرة كالمصابيح، وحفظ بهنَّ أخبارَ الملأِ الأعلى مِن استماع الشَّياطين لها، وختم الآيةَ ببيان أنَّ ذلك الخلقَ المُتقَن إنَّما هو تدبيرُ العزيزِ الَّذي لا يُغلب، المحيطِ علمُه بكلِّ شيءٍ[6].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، 6.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(3) الراغب، المفردات: (أمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبح).
(5) الراغب، المفردات: (صبح).
(6) جماعة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 708.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطف الآية بالفاء:

أمرُ السَّماوات بالانقياد بعد إتمامِ خلقِها وتكوينِها

الفاء عاطفةٌ مرتِّبةٌ ما بعدها - وهي جملة القضاء: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ - على قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا﴾ [فصلت: 11]، وهو ترتيبٌ في الذِّكر[1] لا في الوجود؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ [فصلت: 11]، هو في الوجود بعدَ خلق السَّماوات والأرض، لا قبلَه، وهذا التَّرتيبُ يُفهَم بتقدير لفظٍ متروكٍ يدلُّ عليه الظّاهر، كأنَّه قيل: (فأوجدها، وأتقنها، وأكمل أمورها، وحينئذٍ قال لها وللأرض: ائتيا طَوْعًا أو كَرْهًا)[2]، فالتَّرتيب الَّذي دلَّتْ عليه الفاء هو من باب ترتيب التَّفسيرِ على المفسَّر، والتَّفصيلِ على المجمل، والتَّمييزِ على المُبهَم، لا من باب ترتيب اللّاحِق على السّابِق[3].

سرُّ إيثارِ فعل القضاء مادَّةً وصيغةً:

خلقَ اللهُ تعالى السَّماوات على أبدعِ وجهٍ، وأحكمِ نظام

الفعل (قضى) في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ يفيد معنى الخلق على أتمِّ وجهٍ وأبدعِه، كما في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، أي: مُبدِعُهما، فالقضاء هو الإيجاد الإبداعيُّ؛ لأنَّ فيه معنى الإتمام والحُكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع[4]، أي: "(خلقهنَّ خلقًا إبداعيًّا، وأتقنَ أمرَهنَّ حسبما تقتضيهِ الحكمة)"[5]، وأوثر التَّعبير بالفعل (قضى) ماضيًا؛ لتحقُّق حصول خلقها على أكملِ وجهٍ شاءَ اللّه لها أن تكون عليه.

عَودُ الضَّمير في فِعل القضاء:

خلق الله تعالى السَّماوات على أبدع وجه وأحكم نظام

الفعل (قضى) في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ يفيد

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 135.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 7.
(3) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 348.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 248.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5.

معنى الخلق على أتمِّ وجه وأبدعه؛ لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، أي: مبدعهما، والمعنى: "خلقهنَّ خلقًا إبداعيًّا، وأتقنَ أمرَهنَّ حسبما تقتضيهِ الحكمة"(1)، فالقضاء هو الإيجاد الإبداعيُّ؛ لأنَّ فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع(2).

ضمير المفعولِ المؤنَّث في فعل القضاء من قول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ يعود إلى (السَّماوات) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 29] على اعتبار تأنيث لفظها، وهو من التَّفنُّن، وإنَّما جُمع باعتبار المعنى الَّذي صارت إليه، وهو أنَّها سبع سماوات، أو لأنَّ لفظ السَّماء مُرادٌ به الجنس، فجاز كونُ الضَّمير جمعًا(3)، ويجوز أيضًا أن يكون الضَّميرُ مُبهَمًا، مفسَّرًا بسبع سماوات(4).

نكتةُ التَّعبيرِ بالقيد:

خلقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّة أيّام

قُيِّد القضاءُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ بشِبهِ الجملة: ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، أي: في يومينِ من الأيّام السِّتة الَّتي تمَّ فيها خلْقُ السَّماوات والأرض وما بينهما، وقد نُصَّ على تمام العدد في كثيرٍ من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الأعراف: 54].

توجيهُ العطف بالواو:

خلْقُ السَّماوات وإيحاءُ أمرِها حَصَلا في اليومَينِ المذكورين

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ عاطفةٌ جملةَ الوحيِ على جملة القضاء: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، بقصد الجمع بين الخلق والتَّقدير في نفس اليومين، والمعنى: (فقضاهنَّ وأوحى في كلِّ واحدةٍ منها أمرَها، بأن خَلَقَ في كلٍّ منها ما فيها من

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 248.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 135.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 190، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 248.

الملائكة والنَّيِّراتِ وغيرِ ذلك ممّا لا يعلمه إلّا اللّه تعالى)، فالوحيُ عبارةٌ عن التَّكوينِ، كالأمر، وهو مقيَّدٌ بما قُيِّد به المعطوفُ عليه من الوقت، وهما اليومان[1].

دلالةُ فعلِ الوحي مادَّةً وصيغةً:

أوحى اللّه إلى السَّماء تقاديرَ كونِها، وأوحى فيها بأوامرِ أهلِها

أصلُ الوحيِ هو إلقاءُ عِلمٍ في خفاءٍ، ويُطلَق على الإشارةِ السَّريعة[2]، وعلى التَّكوين كالأمر[3]، وعلى إلهامِ اللّه مخلوقاتِه، وعلى تسخيرِه إيّاها لأمره، وهو في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ يقع على جميع هذه المعاني من استعمال اللَّفظ في حقيقته ومجازاته: فاللّه ﷻ أوحى في السَّماوات بتقاديرِ نظم جاذبيَّتِها، وتقاديرِ سَيرِ كواكبها، وأوحى فيها بخلق الملائكةِ فيها، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقَّونه من الأمر بما يعملون[4]، فقيل في معنى الإيحاء هنا: (ألقى أمرَ السَّماءِ إليها بطريقٍ خفيٍّ، وحَكمَ بثبوتٍ قويٍّ)[5]، وقيل: (أوحى إلى أهلِ السَّماء بأوامرِه)[6]، وقيل: (حَمَل السَّماءَ على أمرِها اختيارًا أو طبعًا)، والوحي على التَّقدير الأخير من باب المجاز؛ لأنَّ الوحيَ مستلزِمٌ للحمل عَلى الموحى إليه[7]، فهو مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقة اللُّزوم.

معنى ﴿فِي﴾:

(في) للظَّرفيَّة الحقيقيَّة أو المجازيَّة

حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهي الظَّرفيَّةُ المجازيَّة؛ إن كان المعنى: (ألقى إلى أهل كلِّ سماء أوامرَه، وكلَّفهم بما يليق بهم من التَّكاليف)[8]، أو

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، 6.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وحى).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، 6.
(4) ابن عاشور: 24/ 248.
(5) الشربيني، السراج المنير: 3/ 509.
(6) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 372.
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 68، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 136.
(8) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 317.

هي الظَّرفيَّة الحقيقيَّة؛ إن كان المعنى: (خلقَ في كلٍّ مِنْها ما فيها من الملائكة والنَّيِّراتِ وسائر المخلوقات)[1].

دلالةُ ﴿كُلِّ﴾ مضافًا إلى السَّماء:

في كـلِّ سماءٍ مخلوقاتٌ، وتكاليفُ، ووظائفُ خاصَّةٌ بها

عُبِّر في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ بـ﴿كُلِّ﴾ مُضافًا إلى السَّماء؛ للدَّلالة على العموم، أي: (أودع في كلِّ سماءٍ من السَّماوات ما شاء سبحانه من مخلوقاتٍ تخصُّها، ومن تكاليفَ موجَّهةٍ إلى أهلها)، فلكلِّ سماءٍ أهلٌ، ووظائفُ، وهذا سرُّ القيد المذكور.

سرُّ تقديم شبه الجملة:

بيانُ طلاقةِ القدرة الإلهيَّة في كيفيَّة خلق السَّماء

السِّرُّ في تقديم شِبه الجملة: ﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ﴾ على المفعول ﴿أَمۡرَهَاۚ﴾ هو إفادة الاختصاص، أي: اختصاص كلِّ سماءٍ بما أودِعَ فيها من أسرارٍ ومهامَّ وقوًى ومخلوقاتٍ، وأيضًا لإفادةِ الاهتمام بتقديم ذِكر السَّماء؛ لأنَّ مناطَ الحديث هو عن طلاقة القدرة في كيفيَّة خلقها.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الأمر:

للـه تعالى في كلِّ سماءٍ شأنٌ وأوامرُ

المرادُ بالأمر في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾، هو واحد الأمور، فيكون الأمر بمعنى الشَّأن، أو الإبداع والخلق؛ إذ يقال للإبداع: أمر، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، أو الأمرُ هنا واحدُ الأوامر، أي: التَّكاليف والتَّوجيهات الإلهيَّة لسكّان هذه السَّماوات.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الأمر:

شأنُ كلِّ سماءٍ وأوامرُها تخصُّها دون غيرها

الضَّمير المضافُ إليه الأمرُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ يعود إلى السَّماء، وغرَضُ الإضافة هو إفادة الاختصاص، والمعنى: وخصَّ كلَّ سماءٍ بالأمرِ المضاف إليها)[2]، ففي كلِّ سماءٍ أمرٌ من أوامرِ اللّه وأمور تخصُّها على الوجه اللّائق بها، كما أراد لها ربُّها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، 6.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 549.

دلالةُ واوِ ﴿وَزَيَّنَّا﴾:

الاهتمام بالسَّماء الدُّنيا لقربها، ولعِظَم آياتها

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ عاطفةٌ، عطفت الجملةَ بعدها على جملة الوحي: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ بمَلحَظ الالتفات[1] من الغَيبة إلى التَّكلُّم، ويحتمل أن تكونَ الواوُ للاستئناف، والجملةُ بعدها مستأنَفة، فتكونَ مفصولةً عن سابقتها، والغرضُ من هذا الاستئناف تخصيصُ السَّماء الدُّنيا بالذِّكر بعد دخولها في عموم السَّماوات؛ إشارةً إلى تشريف الإنسان الموالي لها، وتنبيهًا على ما في هذه السَّماء من الآيات العظيمة[2].

سرُّ إيثارِ فعل التَّزيين:

لفتُ أبصارِ العُقلاء إلى بديعِ صُنعِ السَّماء

أوثِر التَّعبير بفعل التَّزيين في قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، أي: تزيين السَّماء بالنُّجوم والكواكب دون غيرها - كالخلق ونحوه - لأنَّ المقصد هو لفت أنظار المخاطَبين إلى بديع تصويرها وجمالِ نظامها، وأمّا مسألة خلقها؛ فهي داخلة في خلق السَّماء وجزءٌ منها.

غرضُ الإسنادِ إلى ضمير العظمة:

ما يُسنَد إلى العظيمِ عظيمٌ

أُسنِد التَّزيينُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ إلى ضمير العظمة لإبراز مزيد العناية به[3]، وللدَّلالة على عظمة هذا الفعل الَّذي لا يقدِر عليه بهذا الإبداع المُبهِر المُعجِز إلّا العظيمُ، وهو اللّه تعالى المستحقُّ للتَّوحيد.

بلاغةُ الالتفاتِ:

بديعُ خلقِ السَّماء الدُّنيا محطُّ عنايةٍ ومَثارُ إعجابٍ

في قول اللّه سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ التفاتٌ إلى التَّكلُّم بعد طريق الغَيبة الَّتي طال استعمالها فيما مضى، والسِّرُّ

(1) صافي، الجدول: 24/ 290.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 157، والشربيني، السراج المنير: 3/ 509.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 538.

في هذا الالتفات - فضلًا عن الغرَض العامِّ لأسلوب الالتفات - هو تطريَة الكلام وتنشيط السّامعين بعدَ طول استعمال طريق الغَيبة ابتداءً من قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 9]، هو إظهارُ العناية بتخصيص هذا الصُّنع الَّذي ينفع النّاسَ دينًا ودُنيا، فذِكرُ خَلْقِ النُّجوم والشُّهُب الدَّقيقة تخصيصٌ من بين عموم قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾؛ فما السَّماء الدُّنيا إلّا مِن جُملة السَّماوات، وما النُّجوم والشُّهب إلّا من جملة أمرها[1].

سرُّ تكرارِ لفظ السَّماء مُفرَدةً مُعَرَّفة:

دنوُّ السَّماء الدُّنيا منّا لمشاهدة دلائل القدرة الظّاهرة فيها

السِّرُّ في إظهار اسم السَّماء في قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ دون إضماره (وزَيَّنّاها)؛ ردًّا على سَبْقِ ذكرها بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾، هو أنَّ السَّماء في سياق الإيحاء مرادٌ بها عمومُ السَّماوات، وأمّا الَّتي في سياق التَّزيين؛ فهي السَّماء الدُّنيا فقط، وهي واحدة من جملة السَّماوات، فيكون من باب ذكر الخاصِّ بعد العامِّ، وسرُّ هذا التَّخصيص بالذِّكر هو كَونُ هذه السَّماء الدُّنيا هي القريبة منّا، المشاهَدة لنا بقبَّتها الزَّرقاء، ومصابيحها النَّيِّرات الَّتي تزيِّن فضاءها.

نكتةُ وصف ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

وُصفتِ السَّماءُ بالدُّنيا لقُربها منها

﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، هي السَّماء الَّتي تعلو هذه الأرضَ، وهي السَّماء الأولى، وفوقَها بقيَّة السَّماوات السَّبع[2]، وكلمة الدُّنيا من الدُّنوِّ بمعنى القرب، ووُصِفت بها السَّماء الأولى لقربها منّا[3] بالمشاهدة والنَّظر - سواءً بالعين المجرَّدة أو المكبِّرات العملاقة - وبإمكانيَّة اختراق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 251.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1295.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 251.

بعض كواكبها بمركَّبات الفضاء، والاطِّلاع على خصائصها فيما هو معروف الآن.

معنى باءِ ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾:

الباءُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ للملابسة والإلصاق، أي: (لابَست هذه النُّجومُ والكواكب تزيينَ السَّماء وحِفظَها، وصاحَبتْهما في الخلق).

علَّةُ إيثار لفظ المصابيح:

النُّجوم مصابيحُ تُنيرُ السَّماء

لفظُ المصابيح في قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمعُ مِصباحٍ، وهو في الأصل ما يوقَد بالنّار في الزَّيت للإضاءة، وهو مشتقٌّ من الصَّباح؛ لأنَّه يُجعَل في ظُلمَة اللَّيل خَلَفًا عن الصَّباح، واستعمالُه هنا من باب الاستعارة، فالمراد بالمصابيحِ في الآية: الشَّمس والقمر والكواكب والنُّجوم، استُعير لها المصابيحُ لِما يبدو من نورها[1]، والاستعارة هنا تصريحيَّة، حُذِفَ فيها المُشَبَّه من النُّجوم والكواكب وصُرِّح بالمُشبَّه به (المصابيح)، ووجه التَّشبيه أنَّها تَظهر ليلًا، فتبدو لسطوع نورها معالِمَ زينةٍ في هذا السَّقف المُطِلِّ على العالَم الأرضيِّ[2].

دلالةُ عطفِ الحِفظِ بالواو:

الحفظُ إتمامٌ للتَّزيين ودوامٌ له

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ عاطفةٌ؛ لإفادة معنى الجمع بين تزيين السَّماء وحِفظِها بوساطة الكواكب، والمراد بالحفظ هنا حِفظُ السَّماء من الشَّياطين، وهو ما تقوم به هذه الأجرامُ من حراسة السَّماء من الشَّياطينِ؛ إذا أرادوا التَّسَمُّعَ لِما في في الملأ الأعلى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: 5][3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 157.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1295.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 38، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1295.

تأكيدُ كونِ السَّماء محفوظةً من الشَّياطينِ بالكواكب

سرُّ التَّعبير بالمفعول المطلق:

قول الله تعالى: ﴿وَحِفۡظٗاۚ﴾ في الآية الكريمة: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ مصدرٌ منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ، معطوفٍ على قوله: ﴿وَزَيَّنَّا﴾، والتَّقدير: (وحَفِظْناها بالثَّواقب من الكواكِبِ حِفْظًا)[1]، والغرَض من التَّعبير بالمصدر على الصّورة المذكورة: تأكيدُ كونِ السَّماء محفوظةً من الشَّياطين بواسطة هذه الكواكبِ الَّتي أودع الله تعالى فيها إمكانَ تتبُّع الشَّياطين وحَرقها، ويجوز نصبُ (حفظًا) مفعولًا لأجله على المعنى، والتَّقديرُ: (خلقنا الكواكبَ زينةً وحِفْظًا)، وهو تقديرٌ فيه بُعدٌ وتكلُّف[2].

إيجازُ الحذفِ مع إبداعِ السَّبك

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ فيه احتباكٌ، وهو من أنواع الحذف؛ إذ حُذِف فِعلُ الحفظ بدلالة المصدر (حفظًا)، وحُذف مصدر الزّينة بما دلَّ عليه من فعلها (زيّنا)[3]، فحُذِف من كلِّ جملة ما دلَّ عليه المذكورُ في الجملة الأخرى، والتَّقدير: (زيَّنّا السَّماء زينةً، وحفظناها حفظًا).

سرُّ تقديم التَّزيين:

قُدِّم التَّزيينُ على الحفظ في قول الله سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾؛ لأنَّ الحفظَ من جملة التَّزيين، لا سيَّما الحفظ عن الآفات[4].

خَلقُ السَّماء والأرض أمرٌ رفيعٌ، وشأنٌ بديعٌ

وجهُ التَّعبير بـ﴿ذَٰلِكَ﴾:

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة الموضوعِ للبعيد في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ للإشعار بأهمّيَّة المُشار إليه، وهو ما

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 513، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 7.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 513.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 157.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 136.

مضى تفصيلُه، بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ [فصلت: 10]، إلى قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾، والمعنى: (ذلك الأمرُ الرَّفيع والشَّأن البديع - الَّذي مضى تفصيله - تقديرُ العزيز العليم)[1].

ظهورُ القُدرة الرَّبّانيَّة في التَّقديرات الكونيَّة

وَجهُ الإخبار بالمصدر:

التَّقدير في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ مصدرُ (قَدَّرَ) المضاعف؛ إذا جعلَ شيئًا أو أشياءَ على مقدارٍ مُعيَّنٍ مُناسبٍ؛ لما جُعل لأجله[2]، والتَّعبير بالمصدر مفيدٌ للتَّأكيد، فهو تقديرٌ لا يوجَد مثالُه، ولا يُقدر على غراره.

لا قادِرَ على كمال تقدير النَّواميس الطَّبيعيَّة إلّا الله تعالى

دلالةُ تعريف الخَبرِ بالإضافة:

دلَّ تعريف الخبر بالإضافة في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ على الاختصاص، فما يجري من قوانينَ طبيعيَّةٍ في هذا الكون إنَّما هو مِن تقديره سبحانه وحده، وهو تقديرٌ موسومٌ بكمال المُلكِ والقدرة، وتمام العلم والحكمة.

اللهُ سبحانه هو الغالب لكلِّ شيءٍ، المحيطُ علمًا بكلِّ شيء

سرُّ إيثار لفظَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾:

في اختصاص ختم الآية بالاسمين ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ إشارةٌ إلى مناسبة معناهما؛ لوصف نظام سَيرِ الكواكب؛ فالعزَّة تُناسِب تسخيرَ هذه الكواكبِ لِما أراده اللّه منها، فالعزيز هو الَّذي لا يغالَب، ويَغلِب كلَّ شيء، ويقهره، ويسخِّره؛ والعلمُ يناسب النِّظامَ البديعَ الدَّقيق[3].

قهَرَتْ عِزَّتُه كلَّ شيء، وبلَغَ علمُه كلَّ شيء

بلاغةُ صيغةِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾:

الاسمانِ الأجَلّانِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ و﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾، وردا على طريقة المبالغة في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، فكلاهما على وزن

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 157، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 251.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 252، و28/ 315.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 21.

(فَعيل)، إحدى صيَغِ المبالغة، والهدف من ورود الاسمين الجليلين - وكذا سائر أسمائه سبحانه وصفاته - على طريقة المبالغة هو الدَّلالة على التَّناهي في معنى الصِّفة بما يليق بجلاله سبحانه وكمالِه، وعلى كثرةِ متعلّقاتهما ومفعولاتهما، وهذا هو الشَّأن في توجيه معنى المبالغة في صفات اللّه تعالى[1].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القضاء والقَدَر والحُكم والأمر:

تأتي مادَّةُ القضاء على معانٍ شتّى: منها القضاء بمعنى الحكم والفصل، ومنها الانقضاء بمعنى الذَّهاب والانتهاء والاستيفاء، فيُقال: قضى الشَّيء يقضي؛ إذا قطعه، وأزاله[2]، وقول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ هو من القضاء بمعنى الحكم والخلق والتَّقدير.

القـضـاءُ هو الإرادة الأزليَّة للأشياء، والتَّقدير إيجادُها على مُقتضاها

والقَدَر: إيجادُ الأشياءِ على صفةٍ مقصودة، وهو مشتقٌّ من القَدْر، وهو الكمّيَّة المحدَّدة المضبوطة[3]، أو يُقال في تعريف القدَر: تعلُّقُ الإرادة بالأشياء في أوقاتها، وهو تفصيلُ قضاء اللّه السّابقِ في إيجادها في الموادِّ الجزئيَّة المسمّاة بلوح المحو والإثْبات[4]، فالقضاء هو الإرادة الأزليَّة المتعلِّقة بالأشياء على ما هي عليه، والقَدَر عبارةٌ عن إيجاده إيّاها على تقديرٍ مخصوص معيَّن[5]، وفقَ الإرادة الأزليَّة الَّتي هي القضاء.

القـضـاء يُبنى على اليقين، والحُكم على النَّظر في الشَّواهِد

والحكم: هو فَصلُ الأمر على الأحكام بما يقتضيه العقل والشَّرع؛ فإذا قيل: حكم بالباطل؛ فمعناه أنَّه جعل الباطلَ موضِعَ الحقِّ، ويُستعمل الحكمُ في مواضعَ لا يُستعمل فيها القضاء، كقولك: حُكم هذا كحُكم هذا، أي: هما متماثلان في السَّبب أو العلَّة أو نحو ذلك[6].

---

(1) الزركشي، البرهان: 2/ 507.

(2) الراغب، المفردات: (تفث).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 42.

(4) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 174.

(5) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 174.

(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 431.

وبهذا يظهر أنَّ التَّعبير بالقضاء أبلغ من التَّعبير بالحكم؛ لأنَّه يُبنى على اليقين الَّذي يُفضي إلى الفصل التّامِّ، ولذا وصف اللهُ سبحانه بالحقِّ قضاءَه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [غافر: 20]، بخلاف الحكم فإنَّه يُبنى على النَّظر في الشَّواهد على مقتضى الشَّرع والعقل.

الأمرُ لفظٌ عامٌّ لجميع الشُّؤون، والقضاءُ خاصٌّ بما اقتضاه السّياق

الأمر: هو الشَّأن، وجمعه أُمور، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[1]. فالتَّعبير الأنسبُ في قول الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ هو التَّعبير بالقضاء؛ لتضمُّنِه معنى الخلق والتَّصيير، ودلالتِه على الاستيفاء.

التَّزيين والتَّحليَة:

التَّحلية نوعٌ من أنواع الزّينة

التَّزيين من لفظِ الزّينة، وأصل مادَّته يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[2]، وهي ثلاثٌ: زينةٌ نفسيَّة كالعلم والاعتقاداتِ الحسنة، وزينةٌ بدنيَّة كالقوَّة وطول القامة، وزينةٌ خارجيَّة كالمال[3].

والتَّحلية لُبسُ الحُليِّ للتَّزيين، كالذَّهب والفضَّة، كقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [الكهف: 31][4]، وهو نوعٌ من الزّينة، فبَين اللَّفظَين - الزّينةِ والحُليِّ - عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، فكلُّ حُليٍّ زينةٌ، وليس كلُّ زينةٍ حُليًّا.

فالتَّعبير بالتَّزيين في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ هو الأنسب؛ لأنَّه أعمُّ من التَّحلية، فيشملها، ويشمل معها غيرَها من المعاني المضمَّنة فيه كالتَّحسين ونحوه.

---

(1) الراغب، المفردات: (أمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) الراغب، المفردات: (زين).
(4) الراغب، المفردات: (حلى).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾

[فصلت: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد ظهور الحُجَج القاطعة على التَّوحيد لا عُذرَ لمُعرِضٍ مُعانِد

بيَّن الله تعالى في الآيات السّابقة دلائلَ ألوهيَّته وربوبيَّته بما ساقه من مظاهرِ قدرته سبحانه المطلَقة، وبما عرضه من حُجَجٍ لا تَقبَل المعارضة، بما يقطع بكونه الإله الحقَّ الَّذي يجب أن تَتَّجه إليه القلوبُ بصدق، ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ لأنَّ وظيفةَ الحجَّة قد تمَّت على أكملِ الوجوه، فإن أصرّوا على الكفر؛ لم يبقَ حينئذٍ إلّا إنزالُ العذاب عليهم، كما أُنزل على عادٍ وثمودَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَٰعِقَةً﴾: (صعق) أصلٌ يدلُّ على شِدَّةِ صوت، ومنه الصّاعقة، وهي الوَقع الشَّديد من الرَّعد[2]، والصّاعقة أيضًا: جسمٌ ناريٌّ مشتعِلٌ يسقط من الماء في رعدٍ شديدٍ، والصّاعقة في قول الله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ هي عذابٌ شديدُ الوقعِ كأنَّه صاعقة، فهي استعارةٌ للعذاب القاتل[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تهديدُ المكذِّبين بجزاءٍ مثلِ جزاءِ المكذِّبين مِن قبلِهم

يأمرُ الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمكذِّبين المُصرّين على الإعراض وعدم الإيمان بعد أن سيقت لهم الحججُ، وبان لهم الحقُّ: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، أي: عذابًا شديدًا قاتلًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 551.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعق).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صعق).

فاتكًا مُهلِكًا، كذاكَ العذابُ الَّذي أهلَكَ اللّهُ تعالى به عادًا وثمودَ هلاكَ استئصال، بحيث لم تقُم لهما بعدَه قائمة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فاءِ ﴿فَإِنۡ﴾:

التَّحذيرُ بعد الإعراض من وسائلِ التَّنبيه والتَّخويف

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ على الأظهرِ عاطفةٌ ما بعدها على قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 9]، على معنى: (فإن أعرضوا عن التَّدبُّرِ فيما ذُكِرَ من عظائم الأمورِ الدّاعيةِ إلى الإيمانِ، أو عن الإيمانِ بعدَ هذا البيانِ: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ﴾[1]، وقيل: الفاء استئنافيَّة، وما بعدها "كلامٌ مستأنَفٌ على طريقِ الالتفات، مَسوقٌ لتحذيرِهم بعد إعراضهم"[2].

بلاغةُ الالتفات في الآية:

الإعراضُ جزاء الإعراض

في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ التفاتٌ من ضميرِ الخطاب في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ [فصلت: 9] إلى ضمير الغَيبَة؛ إعراضًا عن خطابهم، بعدَ أن قد ذُكِّروا بما يقتضي إقبالَهم وإيمانَهم مِنَ الحُجَجِ الدّالَّة على الوحدانيَّة والقدرة الباهرة[3]، فلمّا لم يأبَهوا لخطاب اللّه سبحانه، ولم يستوعبوا نُصحَه؛ التفت الخطابُ من المقابلة إلى الإعراض جزاءً لإعراضهم؛ ليَصِحَّ التَّلاؤُم، ويناسِبَ اللَّفظُ المعنى؛ وهذا الالتفاتُ من أرفعِ أنواعِ البلاغة وأرقاها[4].

وجهُ التَّعبير بـ(إنْ) الشَّرطيَّة:

تنزيلُ حالهم بعدَ الحِجاج منزلةَ من لا يملك الإعراض واللَّجاج

عُبِّر في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ بـ(إن) الشَّرطيَّة الَّتي تأتي في مقامِ عدم الجَزم بالوقوع؛ تنزيلًا لحالهم بعد ظهورِ الدَّلائل

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 7.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 540.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 293.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 543.

والحجج أمامَهم منزلةَ من لا يَملِك أمامَها إلّا التَّسليمَ والإذعان، فجيء في جانبه بحرف (إن) الَّذي الأصلُ فيه أن يقع في الموقع الَّذي لا جزم فيه بحصول الشَّرط(1)، بحيث إنَّهم بعد الحجاج لا مكانَ لديهم للإعراض واللَّجاج، والمعنى: (فإن حصل على سبيل الفرض أن طُمست بصائرُهم، فاستمرّوا على إعراضهم، وعَميَت أبصارُهم عن رؤية الشَّمس في رابعة النَّهار؛ ﴿فَقُلۡ﴾ لهم حينئذٍ مخوِّفًا ومحذِّرًا ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإعراض:

كـفْـرُهـم ليس عن عدمِ اقتناع، بل إعـراضًـا عن سماع الحقِّ

في التَّعبير بالإعراض دون غيره في قول الله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾، دلالةٌ على أنَّ سبب عدم نفوذ نور الإيمان إلى قلوبهم هو إعراضهم، وليس لأنَّهم لم يقتنعوا، فالواقع أنَّهم لم يَمنحوا أنفُسَهم وقتًا للتَّدبُّر، وإلّا لآمنوا؛ فأبوا سماع القرآن، وقال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26]، وجاء في أوَّل السّورة أيضًا: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ [فصلت: 5]، فكانوا مصرّين على الإعراض وإقامة حجابٍ بينهم وبين القرآن، وهذا سرٌّ من أسرار إيثار لفظ الإعراض على غيره.

دلالةُ مجيء الفعل ماضيًا مجموعًا:

لـهـم عـقـول لا يـفـقـهـون بـهـا، فهُم مجتمعون عـلـى الإعـــراض وعدم الإيمان

عُبِّر بالفعل الماضي مجموعًا في قول الله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾؛ تنويهًا بأنَّهم حالَ إعراضهم مجتمعون كالقطيع، يقوده بعضهم، وأكثرُهم ينساقون خلفَه، والمراد بالإعراض هنا التَّحقُّقُ والاستمرار عليه؛ لأنَّهم في الأصل معرضون، والمعنى: (فإن استمرّوا على الإعراض والمكابرة بعد ما هديتُهم بالدَّلائل البيِّنة)، فالفعل مستعمَلٌ في معنى الاستمرار، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136](2).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 252.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 252، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 137.

سرُّ التَّعبير بالقول جوابًا للشَّرط:

رحـمـةُ الله سَبقَت عذابَهُ

الفاء الدّاخلةُ على فعلِ القول في الآية الكريمة: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط، وهو الإعراض، وجُعِل الأمرُ بالقول الدّالِّ على المجاهرة ورفع الصَّوت هو الجواب: للدَّلالة على حرص النَّبيِّ ﷺ - بأمر الله - على دعوتهم وتحذيرهم من التَّمادي في الإعراض، عسى أن يستجيبوا، ويستفيقوا، فجزاء الإعراض هو العذاب نفسه، وليس القول والتَّحذير، لكن من رحمة الله بعباده الإنذارُ والإمهال.

دلالةُ فعل الإنذار ماضيًا:

أوثرَ التَّعبيرُ بفعل الإنذار ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ﴾، وعُدل عن المضارع المستقبل؛ للدَّلالةِ على تحقُّق الإنذار المنبئ عن تحقُّق المنذَرِ به[1]، وتحقُّقه لا مندوحة عنه.

نكتةُ إيثارِ لفظ الصّاعقة نكرةً:

عـذابٌ من يَكفر ويُكابر مَهول

أوثِر التَّعبيرُ بلفظ الصّاعقة نكرةً في قول الله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ﴾؛ تهويلًا لشأنها، فهي صاعقةٌ هائلة عظيمة، لا تُبقي، ولا تَذَر، وفي الكلام مضافٌ محذوف، والتَّقدير: (أنذرتكم حلولَ صاعقةٍ)، مهيَّأةٍ لمن كُشِف له الأمرُ، فعاند، فإنَّ وظيفةَ الحجَّة قد تمَّت على أكمل الوجوه[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الصّاعقة:

الـصّـاعـقـة اسـتـعـارةٌ للعذاب الشَّديد المُهلِك

الصّاعقة في الأصل صوتٌ شديد، فهي الوقع الشَّديد من الرَّعد[3]، والمراد بها في قول الله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ﴾: العذاب الشَّديد المُهلِك[4]، وليس الصَّوت، فاستعمال

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 7، والجمل، حاشية على الجلالين: 7/ 13.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 159.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعق).
(4) الشربيني، السراج المنير: 3/ 509.

الصّاعقة في معنى العذاب الشَّديد استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّة؛ إذِ الصّاعقة قصفةُ رعدٍ هائلٍ معها نارٌ، لا تمرُّ عَلَى شيء إلّا أتت عليه، من الصَّعق، وهو شدَّة الصّوت، وعذابُ هَؤُلاء المهلَكين ليس بهذا بعينه في الأكثرين[1].

علَّةُ الوصف بـ﴿مِّثۡلَ﴾:

التَّخويف بما تسهُل مشاهدةُ مثلِه أوقعُ أثرًا في النَّفس

كانت قريشٌ تمرُّ في طريقها إلى الشّام على ديارِ عادٍ وثمودَ، وكانت تعرِف ما حصل للقبيلتين من هلاك ودَمار، ولذلك خوَّفهم اللّه تعالى بمصيرٍ يُماثل مصيرَهم، فقال تعالى: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾؛ لأنَّ التَّخويفَ بما يُشاهَد مثلُه أوقعُ في النَّفس[2]، ثمَّ إنَّ التَّعبيرَ بالمِثل دون أداة التَّشبيه الكاف - فلم يقل: (كصاعقةِ عادٍ وثمود) - يدلُّ على المماثلة والمشابهة التّامَّة بين العذابين: العذابِ الَّذي وقع لعادٍ وثمودَ - وقد كانوا يمرّون على ديارهم، ويشاهدون آثارَه - والعذابِ الَّذي ينتظرهم، بخلاف ما لو عبَّر بالكاف، فقد يفيد المشابهةَ من وجهٍ، أو من بعض الوجوه، دون إفادةِ المشابهة المطلَقة.

سرُّ تكرار لفظ الصّاعقة:

تكرارُ ذِكر العقوبة يقرِّر في النَّفس الرُّهب

السِّرُّ في تكرار لفظ الصّاعقة في قول اللّه تعالى: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾، هو أن يقرَع اللَّفظُ آذانهم أكثرَ من مرَّة؛ ليتقرَّر معناه في أذهانهم، فيعظُمَ الخوفُ في قلوبهم، وتتضاعف الرَّهبة فيها، فالشَّيء إذا تكرَّر؛ تقرَّر.

وجه إضافة الصّاعقة:

استعمالُ لفظ الصّاعقة في معنيَيه الحقيقيِّ والمجازيِّ

حقيقةُ الصّاعقة نارٌ تخرج مع البرق، تحرِق ما تصيبه، وتُطلَق على الحادثة المُبيرة السَّريعة الإهلاك، ولمّا أُضيفت الصّاعقة إلى

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 137، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صعق).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 159.

عادٍ وثمودَ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾، - وثمودُ فقط أُهلِكوا بالصّاعقة، أمّا عادٌ؛ فلم تُهلِكْهم الصّاعقة، وإنَّما أهلكهم الرّيحُ - تبيَّن أنَّ استعمالَ الصّاعقة هنا في حقيقته ومجازه، أو هو من عموم المجاز، والمقتضي لذلك على الاعتبارين: قصد الإيجاز، وليقعَ الإجمالُ ثمَّ التَّفصيل من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[1].

سرُّ عطفِ ثمودَ بالواو:

اختصاص القبيلتَين بالذِّكر من بين الأُمَم المُهلَكة لقُرب المشاهدة

عُطِفت ثمودُ على عادٍ بالواو في قول اللّه تعالى: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾؛ ليجمع بينهما؛ إذ إنَّ قريشًا كانت تعرف أمرَ القبيلتين من خلال المرور عليهما في سفرِهم إلى الشّام للتِّجارة، ولذا خصَّهما دون غيرهما من القبائل[2].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإعراضُ والتَّولّي والصَّدُّ:

معنى كلٍّ من التَّولّي والصَّدِّ يؤول إلى مادَّة الإعراض

الإعراض عن الشَّيء هو الصَّدُّ والتَّولّي عنه، ويُقال في الأجسام، فيفيد إذا ما قيل: أعرض عن كذا، متعدّيًا بـ(عن)، أي: نأى عنه ببدنه، وأعطاه عُرضه، وإذا ما قيل في المعاني متعدّيًا بـ(عن) أيضًا؛ كان معناه التَّولّي والانصراف والنَّأي بالقلب، والإعراض في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾، معناه: الكفر وعدم الإيمان، فهو من الإعراض القلبيِّ.

والصَّدُّ ليس بعيدًا عن هذا المعنى، فالصَّدُّ في الأصل هو المَيل إلى أحد الجانبين، ثمَّ يُقال: صددت فلانًا عن الأمر؛ إذا عدلته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 510.

عنه[1]، فالصَّدُّ هو أيضًا: الإعراضُ، والعدول عن الشَّيء حسًّا ومعنًى كذلك، والانصراف عنه.

وليس بعيدًا عنهما التَّولّي: إذا ما تعدّى بـ(عن) كذلك، فإنَّ معناه الإعراض، بخلاف إذا ما تعدّى بـ(إلى)؛ فإنَّ معناه القرب، وعندما يُطلَق التَّولّي في القرآن بلا إظهارٍ لحرفِ الجرِّ الَّذي يتعدّى به، فإنَّه ينصرف إلى معنى الإعراض، وهو الشّائع في استعمال اللَّفظ في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ [النجم: 33]، فيؤول استعمالُ مادَّة التَّولّي في القرآن إلى معنى الإعراض عن الإيمان والهدايةِ إذا تعدّى بـ(عن) صراحةً أو ضمنًا؛ ولا ينصرف عن هذا المعنى إلّا حالَ التَّعدّي بـ(إلى)، وقيل في الفرق بينهما: التَّولّي يكون بالجسم، والإعراضُ بالقلب[2].

وبهذا يظهر مدى التَّقارب الدَّلاليِّ بين الألفاظ الثَّلاثة، وأنَّ ثلاثتَها قد تدلُّ على معنًى حسّيٍّ بدنيٍّ أو قلبيٍّ، غيرَ أنَّ الَّذي يُمَيِّز لفظ الإعراض أنَّ معنى كلٍّ من التَّولّي والصَّدِّ يؤول إليه، فكان هو الأصل في الدَّلالة على الانصراف عن الإيمان والعدول عنه، ولذا أوثِر في الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ دونهما.

الإنذارُ والتَّحذير والتَّخويف:

الإنذارُ فيه إعلامٌ بالمخالفة وجزائها، وهو أنسب للتَّحذير والتَّخويف

الإنذار معناه التَّحذيرُ من مكروهٍ سيقع، وبمعناه جاء سائر ما وقع من التَّركيب في القرآن بصيَغِه المتنوِّعة[3]، والفرق بينه وبين التَّخويف أنَّ الإنذارَ تخويفٌ مع إعلامِ موضع المخافة، من قولك: نذرت بالشَّيء؛ إذا علمته؛ فاستعددت له، فإذا خوَّف الإنسانُ غيرَه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صد).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/ 17.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نذر).

وأعلمه حالَ ما يخوِّفه به؛ فقد أنذره، وإن لم يُعلِمْه ذلك؛ لم يقل: أنذره، والإنذار إحسانٌ من المُنذِر، وكلَّما كانت المخافةُ أشدَّ؛ كانت النِّعمة بالإنذار أعظمَ؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ أعظمَ النّاس مِنَّةً بإنذاره المشركين عقابَ اللّه تعالى[1].

والتَّحذير من الحَذَر، وهو احترازٌ من مُخيف، قال ﷻ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9][2]، أي: يخافها، ويخشاها، فيكون التَّحذير هو التَّخويف من سوء العاقبة.

والتَّعبير بالإنذار في الآية هو الأنسبُ، لما فيه من إعلام بالمخالفة وجزائها؛ كي يَحذَرَها المخاطَبون، ويخافوها، وهو من تمام المِنَّة عليهم.

المِثلُ والنَّظير والشَّبيه:

المُبالغةُ في التَّخويف بذكر المماثلة بين المُشاهَدِ القريب والعذاب المَوعود

المُماثلَة تَثبُت بالاشتراك في جَميع الأوصاف، ومن هنا فالمثِل أخصُّ الألفاظ الثَّلاثة؛ لأنَّ المُماثلَة تَستَلزِم المشابهة وزيادَة، والشَّبيه أعمُّ من المثِل، وأخصُّ من النَّظير، والنَّظير أعمُّ منهما؛ إذِ المشابهة لا تَستَلزِم المماثلة، فقد يكون شبه الشَّيء غيرَ مماثلٍ لَهُ، والنَّظير قد لا يكون مشابهًا، والحاصِل أنَّ المُماثلَة تَقتَضي المُساواة من كلِّ وجه، والمشابهة تَقتَضي ذَلِك في الأكثَر، والمناظرة تَكفي في وجه[3].

ومن خلال هذا العرض يظهر المشترك والتَّقارب الدَّلاليُّ بين هذه الألفاظ الثَّلاثة، كما تتبيَّن الفروق الدَّقيقة بينها، وإيثار القرآن الكريم لفظَ المِثل في قول اللّه تعالى: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾؛ لدلالته اللُّغويَّة على المماثلة، الَّتي تقتضي المشابهة التّامَّة وزيادةً بَينَ حالهم وحال عاد وثمود، كي يحذروا أن يؤولَ أمرُهم إلى ما آل إليه أمرُ هاتَينِ القبيلتَينِ من هلاكٍ واستئصال.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 78.

(2) الراغب، المفردات: (حذر).

(3) الهيتمي، الفتاوى الحديثية، ص: 136.

﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾ [فصلت: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلٌ لما جرى لـعـادٍ وثـمـودَ بعد التَّنويه به وإجماله

بعد أن تُوُعِّدَ كُفّار قريشٍ في الآية السّابقة بعذابٍ يستأصلهم كالعذابِ، الَّذي استأصلَ عادًا وثمودَ، فصَّلت هذه الآياتُ ما جرى لهم، وأخبرت عن حالهم مع رسلهم، فقالت: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ إلى آخر الآيات، فهي تفصيلٌ بذكر المسبَّب بعد الإجمال.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ (يدي) أصلٌ يُطلَق على الجارحة المعروفة في الإنسان وغيره، ويُستَعار في المِنَّة، فيقال: له عليه يدٌ، ويُجمَع على: الأيادي واليديِّ، واليد أيضًا: القوَّة، ويُجمَع على الأيدي[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص: 45]، إشارةً إلى القوَّة الموجودة لهم[2]، ومعنى قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، مِن جهة أيديهم، أي: أمامَهم، تمثيلًا لحرص الأنبياء على هدايتهم[3]، أو المراد ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، "أي: مِن قَبلِهم، يعني: الرُّسُلَ الَّذين أُرسِلوا إلى آبائهم"[4].

2) ﴿خَلۡفِهِمۡ﴾ (خلف) يدلُّ على أصولٍ ثلاثة، أحدُها: أن يجيءَ شيءٌ بعد شيء يقوم مقامَه، كما يُقال: فلان خَلَفُ صِدقٍ من أبيه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يد).
(2) الراغب، المفردات: (يد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 318، 319.

وخَلَفُ سَوْءٍ من أبيه[1]، فالمُراد به في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، أي: ومِن بَعدِ الرُّسل الَّذين أُرسلوا إلى آبائهم، والمقصود هودٌ وصالحٌ، فهما الرُّسل الَّذين أُرسِلوا إليهم[2]، ويدلُّ الخاء واللّامُ والفاء أيضًا على أصلٍ آخرَ هو خلاف قُدّام[3]، فيكون معنى قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، أتَتْهم رسلُهم من أمامِهم ومِن خلفِهم؛ تمثيلًا لحرص رسولٍ كلٍّ منهم على هداهم، بحيث لا يترك وسيلةً يتوسَّل بها إلى إبلاغهم الدّينَ إلّا توسَّل بها[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ حال قوم عادٍ وثمودَ، من تكذيبهم الرُّسُلَ، وسببِ تكذيبهم

أرسل اللّه تعالى إلى عادٍ وثمودَ رُسُلًا مُتَوالين يَتبَع بعضُهم بعضًا، فأتَوهم مِن كلِّ جانب، واجتهدوا في هدايتهم، فلم يرَوا منهم إلّا العتوَّ والإعراض، وكانت دعوتُهم جميعًا واحدةً: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾، أي: يأمرونهم بالإخلاص للّه، وينهَونَهم عن الشِّرك، فرَدّوا رسالتَهم، وكذَّبوهم، و﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، أمّا أنتم؛ فإنَّما أنتم بشرٌ مثلنا، ثمَّ أكَّدوا عليهم إعراضَهم، وقالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهذه الشُّبهة لم تزل متوارَثةً بين المكذِّبين من الأمم، وهي من أوهى الشُّبَه، فإنَّه ليس من شرط الإرسال أن يكون المُرسَل مَلَكًا، وإنَّما شرط الرِّسالة أن يأتيَ الرَّسول بما يدلُّ على صِدقه[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآية:

التَّعليل والتَّفصيل لتقريب الاعتبار، وزيادةِ الإنذار

قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ جملةٌ تعليليَّة؛ لما ذُكر في الآية السّابقة من التَّوعُّد بصاعقةٍ مثلِ صاعقةِ عاد وثمود، وهي

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 319.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 746، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 329.

أيضًا جملةُ بدايةِ تفصيلٍ؛ لما أُجمِل في الآية السّابقة من التَّوعُّد المذكور، ولهذين السَّببين - التَّعليلِ والتَّفصيل - فُصِلتِ الجملةُ عمّا سبقها، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ، وتعليلُ الوعيد في الآية السّابقة، مع تفصيلِ ما أُجمل فيها: أدعى إلى الخوف والحذر، والعِظة والاعتبار.

دلالة ﴿إِذۡ﴾:

تكذيبُ الرُّسلِ وقتَ مجيئهم علَّةُ لحُلول العذاب

﴿إِذۡ﴾ في قول الله تعالى ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ ظرفٌ للماضي في الآية السّابقة، متعلِّقٌ بالصّاعقة الثّانية، والمعنى: (أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقتِهم حينَ جاءتْهُمُ الرُّسل)[1]، وظرفيَّة ﴿إِذۡ﴾ لا تنافي عليَّةَ جملتِها لما سبق؛ لأنَّ الزَّمان الطَّويل يجوز نسبة ما وقع في جزء منه إليه[2].

سرُّ إيثار المجيء:

تحقيقُ بلوغ الدَّعوة للأمم السّابقة

أوثِر التَّعبير بالمجيء دون التَّعبير بالإتيان في قول الله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾؛ للتَّأكيد على حصول مجيء الرُّسل إلى أقوامهم وإنذارهم، فالإتيان قد يُقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء إنَّما يُقال اعتبارًا بالحصول[3].

دلالةُ صيغةِ ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾ وعودُ الضَّمير فيه:

أبلغتِ الرُّسُلُ دعوةَ ربِّهم إلى أفرادِ قومهم

الضَّميرُ في قول الله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ يعود إلى ﴿عَادٖ وَثَمُودَ﴾ في الآية السّابقة، وجمعه إنَّما هو باعتبار عددِ كلِّ قبيلة منهما[4]، وعُبِّر بفعل المجيء ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّق مجيئهم، مضمَّنًا الفعل معنى التَّبليغ؛ والمعنى أنَّهم جاؤوهم، وأبلغوهم رسالة ربِّهم.

سرُّ جمع الرُّسل وتعريفِه بـ(أل):

دعوةُ الرُّسُل إلى التَّوحيد واحدة

جُمِعَ لفظُ الرُّسل في قول الله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾، مع أنَّ الكلام عن قبيلتَي عادٍ وثمودَ، والَّذي جاءهم رسولان فقط، هما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 510.
(3) الراغب، المفردات: (جاء).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.

هودٌ وصالحٌ عليهما السلام، فـ(أل) في الرُّسل عهديَّةٌ، راجعةٌ إليهما، ويجوز إطلاقُ صيغة الجمع على الاثنين، كما في قول الله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: 4](1)، وعلَّة الجمع هنا أنَّ مجيء رسولٍ واحد كأنَّه مجيءٌ لجميع الرُّسل، وتكذيب رسولٍ واحد تكذيبٌ لجميع الرُّسل، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾ [الشعراء: 123]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٤١﴾ [الشعراء: 141]، فرسالةُ المرسلين واحدةٌ مع اختلاف أعيانهم وأزمانهم، فجميعهم جاؤوا بالتَّوحيد آمرين به داعين إليه، ولذلك كان من أركان الإيمان الإيمانُ بجميع الرُّسل، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285].

معنى ﴿مِنۢ بَيْنِ﴾:

تحذيرُ المخاطَبين ممّا حاق بمَن قَبلَهم لمّا أعرضوا عن المرسَلين

﴿بَيْنِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ ظرفُ مكانٍ، وقد استُعير هنا للزَّمان(2)، والمعنى: (مِن قَبلِهم)؛ وذلك لأنَّ النَّذيرَ الأوَّل نذيرٌ لكلِّ مَن أتى بعده، بأنَّه إن واقع ما واقعه؛ أتاه ما عُذِّب به، فتضمَّن ذلك تحذيرَهم ممّا حاق بالَّذين من قَبلِهم حين خالفوا الرُّسل، ودخول حرفِ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ عليه، الدّالِّ على ابتداء الغاية، عِلَّته أنَّ الرُّسل إنَّما أتت بالفعل في بعض الزَّمان(3).

نكتةُ التَّعبير بالأيدي مجموعًا:

جميعُ أفراد القبيلتَين يعرفون ما حلَّ بمَن قَبلَهم من العذاب

عبَّر بلفظ الأيدي مجموعًا في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ عن جميع أفراد القبيلتَين، فالمرادُ بقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: مِن قَبلِهم، "يعني: الرُّسلَ الَّذين أُرسلوا إلى آبائهم"(4)، وقد علموا أخبارهم، واطَّلعوا على ما حلَّ بهم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 138.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 362.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 159.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 318، 319.

جرّاءَ التَّكذيب والمعاندة، فكان شأنهم حاضرًا بين أيديهم، وخبرُهم معلومًا، حتّى لكأنَّهم شاهدوا عذابهم بأعينهم.

سرُّ الإطناب في الآية:

إرادةُ معنيَيِ الجلاء والخفاء علَّةُ اصطفاء التَّعبيرين

لم يُعبَّر بالأمام بدلَ قولِ اللّه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لأنَّ الأمامَ يدلُّ على الحاضر المشاهَد، وعلى القادم الَّذي يمكن دَرَكُه، وليس هذا هو المقصود، وإنَّما المقصود الكنايةُ عن الجلاء والظُّهور، في مقابل التَّعبير بالخلف ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ للكناية عنِ الخفاء، وكذلك التَّعبير بالخلف وإيثاره على غيره كـ(وراء)، أو (بعد)؛ إذ ليس المقصودُ منه الخلفَ الَّذي هو مقابل للأمام، ولكنَّه الَّذي خفيَ عنهم من أخبار السّابقين المعاندين للرُّسل، وكيف كان عذابهم، بحسب ما تفيده الكناية في التَّعبير بالخلف.

وجه العطف بالواو:

استنفذَ الرُّسلُ كُلَّ سبلِ الإرشاد، ودَعَوا قومَهم إلى الإيمان بالله ورُسُله

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عاطفةٌ للجملة بعدَها على الجملة الَّتي قبلها - وهي جملة: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ - للجمع بينهما، لدلالتهما معًا على استنفاذ جميع الجهات والسُّبل المبذولة في سبيل دعوتهم إلى الدّين الحقِّ، أو المراد استغراق الزَّمان الماضي ما يعلمونه منه، وما لا يعلمونه، وكذلك الزَّمن المستقبل، ووجه مجيء الرُّسل إلى عادٍ وثمودَ مِن بَعدهم: أنَّ هودًا وصالحًا جاءاهم داعيَين إلى الإيمان بهما وبجميع الرُّسل الَّذين جاؤوا من قَبلِهم، وبجميع الرُّسل الَّذين يأتون من بعدهم، فكأنَّ الرُّسلَ جميعًا قد جاؤوهم(1).

بلاغةُ الكناية في الجملة:

جاءتهم رسلٌ يعرفونهم وآخرون كثيرون

في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ كنايةٌ، وذلك أنَّه لمّا كان حُضور الأخبار كأنَّها مشاهدةٌ؛ قيل: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ كنايةً عن الجلاء والظُّهور، وقيل: ﴿وَمِنۡ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 191.

خَلۡفِهِمۡ﴾؛ كنايةً عن الخفاء[1]، أي: ما لا يعرفونه من أنواع العذاب الأخرى الَّتي حلَّت بسابقيهم، أو حلَّت بغيرهم ممَّن لا يعرفونهم، كالأمم الَّتي كانت بعيدةً عنهم، ولم يطَّلعوا على أخبارهم.

جاءتهم رسلٌ مِن قَبلِهم ومن بعدِهم

ويحتمل أن يكونَ المراد بالَّذين (من خلفهم): مَن سيأتون مِن الرُّسل بعدُ في المستقبل، في مقابلِ الَّذين ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: الرُّسل الَّذين مَضَوا في الزَّمن الماضي.

جاءتهم رسلٌ فبَلَغوا أقصى الجُهدِ في دعوتهم

ويحتمل أن يكونَ مجموعُ التَّركيب: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ بجهتَيهِ المذكورتين كنايةً عن جميع الجهات، والمرادُ بإتيانهم من جميع الجهات: بذلُ الوُسع في دعوتهم على طريق الكناية[2].

بلاغةُ الاستعارة في الجملة:

لم يترُكِ الرُّسُل السّابقون ولا اللّاحقون وسيلةً لهدايةِ قومهم

يحتمل التَّركيب: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أن يُخَرَّج كذلك على الاستعارة التَّصريحيَّة، بأن يكون قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مستعارًا للزَّمن الماضي، وقوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ مستعارًا للزَّمن المستقبل، بجامع أنَّ كلَّ حادثٍ محتاجٌ إلى الزَّمان والمكان[3]، أو هي استعارة تمثيليَّة، فيها تمثيلٌ لحرص رسولِ كلٍّ منهم على هداهم، بحيث لا يترك وسيلةً يَتوسَّل بها إلى إبلاغهم الدّينَ إلّا توسَّل بها، فمثَّل ذلك بالمجيء إلى كلٍّ منهم تارةً من أمامه، وتارةً من خلفه، لا يترك له جهة، كما يفعل الحريص على تحصيل أمرٍ أن يتطلَّبه، ويُعيد تطلُّبَه، ويستوعب مظانَّ وجوده أو مظانَّ سماعه، وهذا التَّمثيل نظيرُ الَّذي في قوله تعالى حكايةً عن الشَّيطان: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: 17][4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 159، والشربيني، السراج المنير: 3/ 510.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 362.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 139.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.

توجيهُ المتشابِهِ في ذِكرِ الجهات:

اقتُصِر في هذه الآية على جهتين، وهما الأمام والخلف في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، ولم تُستوعَب الجهاتُ الأربعُ، كما جاء في تمثيل وسْوَسة الشَّيطان: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: 17]؛ لأنَّ المقصودَ هنا مجرَّد تمثيل الحرص، وقد حصل هذا المقصود؛ أمّا في الأعراف؛ فالمراد تمثيلُ الحرص مع التَّلَهُّف؛ لإثارة بغض الشَّيطان في نفوس النّاس، وليحذروه، ويتَّخذوه عدوًّا[1].

الاقـتـصـارُ على مـا يـحـصُل به مقصودُ الآية

دلالةُ ﴿أَلَّا﴾:

الأرجح في (أن) من قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أن تكونَ مفسِّرَةً لمجيئِهم؛ لأنَّ مجيءَ الرُّسُل إليهم يتضمَّن معنى القول، أي: جاءتهم مخاطبةً، و(لا) ناهيةٌ، والجملة بعدها هي جملة النَّهي، أي: إنَّ رسالةَ جميعِ الرُّسُل واحدةٌ، وهي نَهيُ من أُرسِلوا إليهم عن عبادة غيرِ اللّه تعالى، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: 36][2].

دعوةُ الرُّسُل إلى البشر واحـدةٌ، وهـي أمـرُهـم بتوحيد الله في عبادته

دلالةُ المضارِعِ المجزوم:

صيغَةُ الفعل المضارع المجزوم بـ(لا) النّاهية في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ تدلُّ على استمرارِ النَّهيِ عن عبادة غيرِ اللّه تعالى، فهو حقُّ اللّه على عباده مدى حياتِهم، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: 99].

توحيدُ الله حقٌّ دائم على عباده

فائدةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أداة حصرٍ،

لا معبودَ بحقٍّ إلّا الله تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 515، 516، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.

والجملة حصرٌ وقصرٌ، والحصر بالنَّفي والاستثناء هو أقوى طرقِ القصر، وحُقَّ له أن يكون هو الأثير هنا لخطورة الموضوع، وهو النَّهي عن عبادة أحدٍ غيرِ اللّه تعالى، وقصرُ العبادة عليه وحده سبحانه.

سرُّ التَّصريح باسم الجلالة:

أوثِر التَّعبير باسم الجلالة في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ دونَ غيرِه؛ لِما له من مهابةٍ وجلال، في موقفٍ لا يحتمل إلّا هزَّ القلوب الجاحدةِ وتخويفَها من تقديم عبادة غير اللّه وإيثارها عليها.

الحديث عن العبادة يَستَلزِم التَّأثير، ويستدعي التَّخويف

نكتةُ فصلِ الجملة:

النُّكتة في فصلِ جملة القول عن سابقتها: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ هو كونُها مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: (فماذا قالت عادٌ وثمودُ حين جاءتهم الرُّسُل؟)، فكان الجواب: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، فبَينَ الجُملتَينِ المفصولتين شِبهُ كمالِ اتِّصال.

الفصل للاستئناف البيانيّ

فائدةُ التَّعبير بـ﴿قَالُواْ﴾:

في إيثار التَّعبير بفعل القول مُسنَدًا إلى ضمير الجمع: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ إشعارٌ بأنَّ المدعوّين من عادٍ وثمودَ - على اختلافِ وجودهم زمانًا ومكانًا - كانوا على مستوًى واحدٍ في ضعف التَّفكير والنَّظر في الأدلَّة، وأنَّ أفرادَ كلِّ قبيلةٍ منهما كانوا على قلبِ رجلٍ واحدٍ في إنكار الرِّسالة ومعارضة المرسَلين، وأنَّ هذا قد أدَّى إلى توحيدِ قولهم، فكأنَّهم قالوا بلسانٍ واحد: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾.

اشتراك أهل الكفر والضَّلال في عقم التَّفكير وضعف النَّظر في الأدلَّة مهما اختلفوا زمانًا ومكانًا

سرُّ التَّعبير بـ﴿لَوۡ﴾:

﴿لَوۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ حرفُ شرطٍ غيرِ جازم، يدلُّ على امتناعِ وقوع الجزاء لامتناع وقوع الشَّرط، فهو هنا يدلُّ على امتناع وقوع إنزال الملائكة لامتناع مشيئة الإرسال، والمعنى على زعمِهم: (لو شاءَ اللّه إرسالَ الرُّسُلِ؛ لأَنْزَلَ ملائكةً)[1].

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 516.

قياسُ المكذِّبين للرُّسل فاسدٌ، واحتجاجُهم بالأدلَّة العقليَّة باطل

أي: (لكنَّه لم يشأ)، فتضمَّن كلامُهم قياسًا استثنائيًّا[1]، تركيبُه: (لو شاء ربُّنا أن يُرسِل رسولًا؛ لأرسل ملائكةً يُنَزِّلهم من السَّماء، لكنَّه لم يُنَزِّل إلينا ملائكةً، فهو لم يشأ أن يُرسِل إلينا رسولًا)[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بفِعلِ المشيئة:

التَّعبير بالمشيئة أقوى؛ لأنَّها تتعلَّق بما جاء وقتُه بلا تراخٍ

أوثِر التَّعبير بالمشيئة دون الإرادة في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾؛ لأنَّ المشيئةَ إنَّما تتعلَّق بما جاء وقتُه بلا تراخٍ في حصوله، بخلاف الإرادة فإنَّها تحتمل التَّراخيَ، فالإرادَة تكون لِما يتراخى وقته، ولما لا يتراخى، والمشيئة لما لمْ يتراخَ[3]، وعلى هذا فالمشيئة تقتضي الوجودَ، ولذا يُقال: ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، بخلاف الإرادة فقد لا تقتضيه.

بلاغةُ حذفِ مفعولِ المشيئة:

زعمَ المكذِّبون بتكبُّرٍ وعنادٍ أنَّ الله لو كان مُرسِلًا إليهم؛ لأنزل ملائكةً رُسُلًا

مفعولُ المشيئة في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ محذوفٌ لدلالة السّياق عليه[4]، وقد قدَّره الزَّمخشريُّ: (لو شاء ربُّنا إرسالَ الرُّسُل؛ لأنزل ملائكة)[5]، في حين قدَّره أبو حيّان: (لو شاء ربُّنا إنزالَ ملائكةٍ بالرِّسالةِ منه إلى الإنسِ؛ لأنزَلهم بها إليهم)، وهذا أبلَغُ عنده في الامتناع من إرسالِ البشرِ؛ إذ عَلَّقوا ذلك بإنزال الملائكة، وهو لم يَشَأْ ذلك، فكيف يشاء ذلك في البشر؟[6] ورجَّح السَّمين تقديرَ الزَّمخشريِّ، وذكر أنَّه أوقَعُ معنًى، وأخلصُ من إيقاع الظّاهرِ موقعَ المُضمرِ؛ إذ يَصيرُ التَّقديرُ: (لو شاءَ إنزالَ ملائكةٍ؛

---

(1) القياس الاستثنائي: ما يكون عين النَّتيجة أو نقيضها مذكورًا فيه بالفعل، كقولنا: إن كان هذا جسمًا فهو متحيّز، لكنَّه جسم، ينتج أنّه متحيّز، وهو بعينه مذكور من القياس، أو يقال: إن كان هذا جسمًا، فهو متحيز، لكنَّه ليس بمتحيّز، ينتج أنَّه ليس بجسم، الجرجاني، التعريفات ص: 181.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 255.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 255.

(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 192.

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 294، والسمين، الدر المصون: 9/ 517.

لأنزلَ ملائكةً)[1]، ولمّا كان تقدير الزَّمخشريِّ هو الأثير عند العلماء - مع مخالفته للقاعدة في حذف فعل المشيئة - بيَّن ابنُ عاشور محلِّلًا ومعلِّلًا أنَّ هذا حذفٌ خاصٌّ غيرُ حذف مفعولِ فعل المشيئة الشّائع في الكلام؛ لأنَّ ذلك فيما إذا كان المحذوفُ مدلولًا عليه بجواب (لو) كما في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: 149]، ونكتتُه الإبهام ثمَّ البيان، وأمّا الحذف في آية فصِّلت؛ فهو للاعتماد على قرينة السّياق والإيجاز، وهو حذفٌ عزيزٌ لمفعول فعل المشيئة[2].

وجهُ إيثار اسمِ الرَّبِّ مُضافًا:

أوثِر التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾؛ لما يقتضيه إنزال الملائكة - لو حصل - من إبرازِ معاني الرُّبوبيَّة، الَّتي من جملتها التَّربيةُ، وهي من مهامِّ بعْثِ الرُّسل، أو إنزالِ الملائكة حسبما زعموا، وإنَّما أضافوا اسمَ الرَّبِّ إلى ضميرهم الجمعيِّ؛ إيهامًا منهم بأنَّهم غيرُ معاندين لفكرة اتِّباع المرسَلين، وأنَّهم حريصون على ذلك، لكنَّ مجادلتَهم كامنةٌ في عدم قناعتهم بأنَّ اللّه يُرسِل رسولًا من البشر، فلو أنَّهم أُنزِلوا على شرطهم - أي: أن يكون المرسَلون من الملائكة - لسارعوا إلى الإيمان بهم، وهذه الدَّعوى سنَّةٌ متَّبعة عند أهل الكفر، قد عبَّر عنها القرآنُ، وردَّ عليها في عددٍ من آياته، منها قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 94 - 95]

تعلُّل الكفّارِ كاذبٌ في عدم تصديق المرسَلين من البَشَر

---

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 517.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 255.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الإنزال ماضيًا:

حتميَّةُ تحقُّق الإنزال بالمشيئة الرَّبّانيَّة

أوثِرَ فعلُ الإنزال في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّق الإنزال وفقَ المشيئة، فلو شاء اللّهُ إرسالَ رسولٍ إلى البشر؛ لتحقَّق ذلك بإنزالِ مَلَكٍ بالرِّسالة؛ "لأنَّ إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرِّسالة"[1]، فهذه فِريَتُهم الَّتي اعتادوا سَوقَها والتَّعلُّلَ بها؛ لتسويغ كفرهم، وقد ردَّها القرآن مرارًا.

وجهُ تنكيرِ ﴿مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ وجمعِه:

تعظيمُ قدرِ الملائكة منبئٌ عن تعظيم قَدرِ الرِّسالة

السِّرُّ في تنكير مفعولِ الإنزال في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ هو تعظيمُ قدرِهم، المنبئُ عن تعظيم قدر الرِّسالة، على معنى: (لو شاء اللّهُ إرسالَ رسالةٍ إلى خلقهِ؛ لكانت رسالةً عظيمةَ الشَّأن، ولاختارَ لها ملائكةً لا بشرًا)؛ تعظيمًا لشأن الملائكة، وانتقاصًا من شأن البشر، وجُمِع لفظُ ﴿مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ باعتبار أفراد الرُّسل؛ وأمّا إفراده في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]؛ فلأنَّه أُريدَ به نبيٌّ واحدٌ، هو محمَّدٌ ﷺ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالإنزال:

استقرارُ علوِّ مكانةِ الملائكة في عقول البشريَّة

جاء التَّعبير في قول اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ بإنزال الملائكة دون إرسالهم، لِما هو مستقِرٌّ في العقول والأذهان - حتّى عند هؤلاء الكفّار - بأنَّ الملائكةَ إنَّما تكونُ في السَّماء، وإرسالُها يقتضي الإنزال، وهذا ما لم يُنكِره القرآن عليهم؛ إذ قال حكايةً لدعواهم وردًّا عليها: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 94 - 95]، فلم

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 551.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 141.

يُنكِر عليهم دعوى الإنزالِ حين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، ولكن أنكَر عليهم أن يكونَ المُرسَل إليهم من الملائكةِ لا من البشر.

كفرُهم - في زعمهم - نتيجةُ قياسٍ عقليٍّ

معنى فاءِ ﴿فَإِنَّا﴾:

الفاء في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فصيحةٌ؛ للإشارَة إلَى النَّتيجة، كأنَّه قيل: (لو شاء ربُّنا إرسالَ رُسُل؛ لأنزلَ ملائكةً، لكنَّه لم يُنزِل ملائكةً، فينتج أنَّه تَعالَى لم يشأ ذلك، فضلًا عن إرسال الرُّسل من البشر)[1]، على طريقة القياس الاستثنائيِّ.

التَّوكيدُ علامةُ إصرارِهم على التَّكذيب

سرُّ توكيدِ الجملة:

سرُّ توكيدِهم النَّتيجةَ: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ - الَّتي ساقوها بناءً على قياسهمُ الفاسدِ - بـ(إنَّ) والجملةِ الاسميَّة: هو الدَّلالة على إصرارهم على الكفر، متعلِّلين بما ظنّوه دليلًا على كذِب الرُّسُلِ من البشر، عليهم السلام.

توجيهُ عَودِ الضَّمير:

الضَّميرُ (نا) في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يعود إلى عادٍ وثمودَ باعتبار أفرادِ القبيلتَين، فأوثِر ما يدلُّ من الضَّمائر على الجمع؛ ليَشمَلَ مجموعَ أفرادهم، ويلوِّح إلى اجتماعهم.

مِن شِدَّة جحودِهم أن كفروا بمضامين الرِّسالة، بل أنكروا الإرسالَ نفسَه

سرُّ إيثار الموصول الاسمي (ما) دون (الذي):

(ما) في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي)، وسبب إيثارِه في التَّعبير على (الذي) إفادتُه العمومَ مع الاختصار؛ فـ(ما) يُعَبَّر بها عن كلِّ شيءٍ دونَ تعيين، بخلاف (الذي)، فإنَّه يدلُّ على مُعيَّن، والمعنى: (فإنّا كافرون بكلِّ ما جئتم به)، من الدَّعوة إلى التَّوحيد، وإفرادِ اللّٰه بالعبادة، وما يتبع ذلك من الشَّرائع، إلى آخرِ ما تتضمَّنُه الرِّسالاتُ الإلهيَّة في تصحيح

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 140.

مسار الاعتقاد، وفي شأن تنظيم العلاقات بين البشر، وإذا أعلنوا كفرَهم بمضمون الرِّسالة، فهو كفرٌ بالرِّسالة نفسِها، وقيل: بأنَّ (ما) هنا مصدريَّة، أي: (فإنّا بإرسالكم كافرون)، وقولَه: ﴿بِهِۦ﴾ توكيدٌ لذلك المصدر المؤوَّلِ بإرسالِكم، فالضَّمير المجرورُ عائدٌ إليه[1]، وعلى هذا يكون ذلك إعلانًا منهم بالكفر بأصل الإرسال.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإرسال:

التَّـهـكُّـم والاسـتـهـزاءُ بـحـكـايـة كـلامِ الأنبياء مبالغة في التَّكذيب

جاء التَّعبيرُ بفعل الإرسال مبنيًّا للمفعول في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، لا لأنَّهم مقرّون بأصل الرِّسالة، وأنَّهم رسلٌ، لكنَّهم ليسوا مرسَلين من الله كما قيل[2]، بل لحكاية كلام الرُّسل، أو على سبيل الاستهزاء، ومثلُه قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧﴾ [الشعراء: 27][3]، وفي التَّعبير بالإرسال مُبالَغَةٌ في الإنكار والتَّكذيب، حيث أثبَتوا عَلَى زعمهم عدمَ المشيئة في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، ثم فرَّعوا عَلَى ذلك قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهذا أبلغ في الإنكار من مجرَّد قولِهم: (فإنّا بكم كافرون)[4].

توجيهُ ضمير الخطاب:

تغليبُ الحاضر عـلـى الـغـائـب أدخـلُ في بيان قلَّةِ أدبهم

ضمير الخطاب في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ هو لهودٍ وصالحٍ عليهما السلام ومن دعا من الأنبياء إلى الإيمان، وغُلِّب الخطابُ على الغَيبة على نحو قولك: أنت وزيدٌ تقومان[5]، ففيه تغليبٌ للمخاطَب الحاضر - وهما هود وصالح عليهما السلام - على الغائب غيرِ الحاضر من بقيَّة الرُّسل الَّذين كانوا قبلَهم، الَّذين يشمَلهم وصفُ الرُّسل في قوله سبحانه: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾، فكأنَّهم قالوا: إنّا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295، والسمين، الدر المصون: 9/ 517.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 161.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 552.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 140.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.

كافرون بكما، وبِمَنْ دعوتمونا إلى الإيمان به مِنَ الرُّسل سِواكُما[1]، وهذا التَّغليب "أدخلُ في بيان قلَّة أدبهم"[2].

بشريَّة الرُّسل علَّة إنكار الرِّسالة ومضامينها في زعم المكذِّبين

دلالة ﴿بِهِۦ﴾:

الباء من ﴿بِهِۦ﴾ في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ للملابسة والمصاحبة، وعلى أنَّ (ما) مصدريَّةٌ، فالجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ توكيدٌ لإنكار كونِهم مرسَلين من الله؛ لأنَّ الله - في زعمهم - لا يُرسِل بشرًا، وإنَّما يُنزل ملائكةً، فالضَّميرُ عائدٌ على المصدر المؤوَّلِ بالإرسال، والمعنى: (فإنّا بإرسالكم به كافرون)[3]، أي: (نحن كافرون بما تزعمون خاصَّةً، من أنَّكم أُرسِلتم إلينا، لا بغير إرسالكم من إنزال الملائكة مثلًا؛ لأنَّ قياسنا قد دلَّ على أنَّه تعالى لم يشأِ الإرسال، فأنتم لستم بمرسَلين عنه؛ لأنَّكم بشرٌ لا ملائكة)[4].

وعلى أنَّ (ما) هنا موصولةٌ بمعنى (الّذي)، فالهاء في ﴿بِهِۦ﴾ ضميرٌ عائد على (ما) لربط الصِّلة بالموصول، أي: (نحن كافرون بالَّذي أُرسلتم به)، وقيدُ كفرِهم بالموصول وصِلَتِه لتأكيد موقفهم من تكذيب مضامينِ الرِّسالة، من الأمر بالتَّوحيد والتَّحذير من الشِّرك وسائر الشَّرائع والأوامر والنَّواهي، وإذا كانوا كافرين بمضامين الرِّسالة، فإنَّما ذلك لكفرهم بالإرسال نفسه.

زعموا أن لو أنزل اللهُ ملائكةً رُسُلًا؛ لآمنوا بهم، ولصدَّقوهم

سرُّ تقديم أشباهِ الجُمَل:

تقديمُ قولِهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ على الخبر ﴿كَٰفِرُونَ﴾ للاختصاص، فالمعنى: (إنّا كافرون بما تزعمون خاصَّةً - من

(1) صديق خان، فتح البيان: 12/ 235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 161.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 161.

إرسال اللّه بشرًا - لا بغير ما أُرسِلتم به، من إنزال ملائكةٍ مثلًا)[1]، مع ما في هذا التَّقديم أيضًا من رعاية الفواصل.

دلالةُ اسمِ الفاعل:

إصرارٌ على التَّكذيب الأقبح، وكفرٌ ثابتٌ لا يتزحزح

دلَّ إيثارُ التَّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعل من الكُفْر في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على إصرارهم على الكفر، وأنَّهم ثابتون عليه وراسخون، بحيث لا يتزَحزَحون عنه؛ لما استقرَّ في نفوسهم مِن أنَّ الرُّسُلَ يجب أن يكونوا ملائكةً لا بشرًا.

دلالةُ الاسمِ المجموع:

اتِّفاقُ كلمتِهم على الكُفر

يدلُّ إيثارُ الجمع في اسم الفاعل من الكفر في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على أنَّهم كانوا مُجمِعين على هذا القول، فإنَّه - ولو اقتصرت حقيقةُ القول على بعضهم، من الزُّعماء والرُّؤساء المتبوعين مثلًا - حَظي هذا الرّأي بموافقة الجميع، فنُسِب القولُ إلى مجموعهم، وكأنَّه وقعَ من كلِّ فردٍ.

بلاغةُ الكناية في الجملة:

بعد قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ - وهو قياسٌ استثنائيٌّ تضمَّن تكذيبَ الرُّسُل - جاء التَّصريحُ بالكفر، والإصرارُ على الجحود في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهو أيضًا كنايةٌ عن التَّكذيب[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المجيءُ والإتيان:

مجيءُ الرُّسُل إلى قوم المكذِّبين مقرونٌ بالشِّدَّة

يدلُّ لفظُ المجيء على الشِّدَّة، بخلاف الإتيان، فهو مجيء كذلك، ولكن بسهولة[3]، فالتَّعبيرُ بالمجيء يدلُّ على أنَّ المعبَّرَ عنه به هو أمرٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 161.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 255.
(3) الراغب، المفردات: (جاء).

شديدٌ صعب، أو هو أصعبُ ممّا يكون التَّعبير فيه بالإتيان[1]، وفي هذا الفرق تعليلٌ لإيثار التَّعبير بالمجيء دون الإتيان في قول اللّٰه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ سياق الكلام عن قوم عادٍ وثمودَ الَّذين كذَّبوا رسولَيهما هودًا وصالحًا عليهما السلام؛ فلشدَّة كفرهم ومعارضتهم للرَّسولَين، ولشدَّة ما نالهم من عقاب الصّاعقة الَّتي استأصلتهم؛ كان التَّعبيرُ بالمجيء أنسبَ.

تحقُّقُ إرسالِ الرُّسل يناسبه لفظُ المجيء

والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول والتَّحقُّق، في حين يُعبَّر بالإتيان اعتبارًا بالقصد، وإن لم يكن منه الحصول[2]، والرُّسُل في قول اللّٰه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قد تحقَّقَ إرسالُهم، وهو ما يناسبه لفظُ المجيء.

الإرسال والبعث:

الرسولان هودٌ وصالحٌ (عليهما السلام) كانا محمَّلين برسالة إلهيَّة إلى قوميهما

التَّعبير بالإرسال يقتضي تحميلَ رسالةٍ أو خبرٍ، تقول: أرسلت فلانًا إلى فلان؛ إذا حمَّلته برسالة إليه، أو حمَّلته خبرًا وما أشبه ذلك، وأمّا التَّعبير بالبعث؛ فإنَّه لا يقتضي ذلك بالضَّرورة[3]، ويبدو من تتبُّع مفردةِ البعث مع الرُّسُل في الكتاب العزيز أنَّها تُستَخدم حين يريد القرآنُ التَّعبيرَ عن تكليف رسولٍ برسالة بعد فترةٍ متطاولةٍ من الرُّسل السّابقين؛ ولذلك تُعضَّد أحيانًا بـ(ثمّ) الدّالَّة على التَّرتيب والتَّراخي، وبكلمة (بعد)، كما في قول اللّٰه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: 103]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: 74]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [يونس: 75]، ففي ذلك إيحاءٌ وإيماءٌ إلى ما ذُكِر، كما توحي بذلك أيضًا مفردةُ

(1) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 97.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289.

البعث في استعمالها خارجَ هذا السّياق إلى سياق البعث بعد الموت، فإنَّه يكون بعثًا من رُقاد، كما يُعبِّر عنه قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، وفي إخبار القرآن عن رقاد أهل الكهف في كهفهم أكثرَ من ثلاثمئة سنةً: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾ [الكهف: 12]، ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الكهف: 19].

فالتَّعبيرُ بالإرسال دون البعث في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ توجيهُه أنَّ الرَّسولَينِ الكريمين هودًا وصالحًا عليهما السلام كانا محمَّلَينِ برسالةٍ إلهيَّةٍ إلى قومَيهما عادٍ وثمودَ، ولم يكنِ الغرضُ من الآية الإخبارَ عن فترةٍ دونَ وحيٍ قبلهما، وهذا ما سوَّغ التَّعبيرَ بالإرسال وإيثارَه على التَّعبير بالبعث.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥﴾ [فصلت: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ القول عمّا يخصُّ كلَّ طائفةٍ

بعدَ أن نصّت الآيةُ السّابقة على ما جمع بين قوم عادٍ وقوم ثمودَ من الكفر المُطلَق والجحودِ البَيِّن، أفردت هذه الآيات كلَّ طائفةٍ منهما بذكرِ ما يخُصُّها من الجنايات والمعاصي المؤسَّسةِ على الكفر[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خلاف الصِّغَر، يُقال: هو كَبير وكُبار وكُبّار، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: 22][2]، والكِبرُ والتَّكَبُّرُ والاستِكبارُ تتقارب: فالكِبر الحالة الَّتي يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسانُ نفسَه أكبرَ من غيره، وأعظَمُهُ التَّكبُّرُ على اللّه بالامتناع من قَبول الحقِّ والإذعان له بالعبادة، ومعنى قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: (فتعظَّموا فيها على أهلِها من غير استحقاق)[3].

2) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: (جحد) أصلٌ يدلُّ على قِلَّة الخير، يُقال: عامٌ جَحِدٌ، أي: قليل المطر، ورجلٌ جَحِدٌ، أي: فقير، وقد جحد وأجحد، فالجحد من كلِّ شيءٍ: القلَّة[4]، والجُحود: نفيُ ما في القلب إثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نفيُه، يُقال: جَحَدَ جُحودًا وجَحْدًا، قال ﷻ:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 162، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 8.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 69.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحد).

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: 14]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، أي: يُنكِرونها مع علمهم بأنَّها حقٌّ[1].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الآية شروعٌ في تفصيل ما حصل لقوم عادٍ بعد أن أُجمِل القول عنهم فيما مضى، فذكرتِ الآيةُ الكريمة أنَّ عادًا كانوا - مع كفرهم بالله، وجَحدِهم بآيات الله، وكُفرِهم برُسُله - مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوَّتُهم، فاغترّوا بها، واستعانوا بها على ظُلم العباد: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾، فقال الله تعالى؛ ردًّا عليهم بما يعرفه كلُّ أحد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ﴾؟ فلولا خلقُه إيّاهم؛ لم يوجَدوا، فلو نظروا إلى هذه الحال نظرًا صحيحًا؛ لم يغترّوا بقوَّتهم[2].

جحدت عادٌ بالآياتِ، واستكبروا على خلق الله، مغترّين بقوَّتهم المَوهوبة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف بالفاء:

الفاء في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ تفصيليَّةٌ تفريعيَّةٌ؛ لِتُفَرِّعَ التَّفصيلَ على الإجمال[3]، أي: بعد أن أُجمِلَ الكلامُ فيما مضى عن القبيلتين المذكورتين؛ شُرِعَ هنا في تفصيل ما يخصُّ كلَّ قبيلةٍ منهما.

بعد إجمال الكلام، جاء تفصيلُ الكلام

بيانُ التَّعبير بـ(أمّا):

(أمّا) حرفُ تفصيلٍ وشرطٍ، فمجيئها في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ يعضُد معنى التَّفصيل المستفادِ من الفاء العاطفة؛ ليَدُلّانِ على الشُّروع في تفصيل مُجمَل ما كان في الآية السّابقة، ويظهر معنى الشَّرط من جملة الجواب بعده: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾،

تحقيقُ مضمونِ استكبار قومِ عادٍ، والعنايةُ بخبرهم

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 69.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 746.
(3) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 393.

والمجيء هنا بأداةِ التَّفصيل المتضمِّنة معنى الشَّرط دلَّ ذلك على مزيد اهتمام المتكلِّم بذلك التَّفصيل، مع تحقيق مضمونه[1].

بلاغةُ الحذف في ﴿عَادٌ﴾:

قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ هو على تقدير: (فأمّا قبيلةُ عادٍ)، أو (قومُ عادٍ)، فحُذِف المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه مَقامَه، وفيه تحقيقٌ للإيجاز والاختصار، مع عدم الإخلال.

سرُّ البدء بقِصَّة عادٍ:

بُدِئ بقصَّة عادٍ قبل ثمود، فقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾، وسرُّ هذا التَّرتيبِ هو كون عادٍ أسبقَ زمانًا[2]، فالتَّرتيب وجوديٌّ.

وجهُ التَّعبير بالفعل (اسْتَكْبَروا):

الإجماعُ على شرِّ الطِّباع دليلٌ على سوء السَّجايا وخُبثِ النّيّات

أوثِر التَّعبيرُ بصيغة الماضي لفعل الاستكبار في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوع ذلك منهم، وأنَّهم بالفعل كانوا قد اغترّوا بقوَّتهم، واستطالوا على الخلق، وكانوا في ذلك مبالغين جدًّا، وهذا سرُّ التَّعبير بالاستكبار دون التَّكبُّر، فلم يقل: (فتَكَبَّروا)، "فالسّين والتّاء فيه للمبالغة، مثل: استجاب"[3]، أو هما زائدتانِ للطَّلب، أي: إنَّهم "طلبوا الكبر، وأوجدوه"[4]، ولأنَّهم كانوا جَميعًا مُطبِقين على هذه الخصلة الذَّميمة، متآزرين في التَّخلُّق بها، والتَّعدّي بآثارها على العِباد؛ عُبِّر بالجمع: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، وإنَّما خُصَّ من مساوئهم الاستكبارُ بالذِّكر دون غيره؛ لأنَّ تكبُّرَهم هو أصلُ مساوئهم، وهو الَّذي صرفهم عن اتِّباع رسولهم، وعن الحذَر من عقاب الله[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 364.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 296.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.
(4) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 511.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.

معنى ﴿فِي﴾:

انتَشرَ الفسادُ في الأرض بسبب استكبارِهم عليها

حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للظَّرفيَّة المجازيَّة؛ تشبيهًا لدلالة اللَّفظ باحتواءِ الظَّرف - فلا يُقصَد التَّبعيضُ الموهِم للإنقاص من ذات الشَّيء - وكأنَّ الأرض كلَّها صارت ظرفًا لاستكبارهم؛ مبالغةً في الفعل، ويجوز أن تكونَ ظرفيَّةً حقيقةً، والمراد سُكناهم.

وجهُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

موطنُ استكبارِهم الأرضُ الَّتي سكَنوها وملَكوها

تعريف الأرض بـ(أل) في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يحتمل أن يكون للجنس، بقصد المبالغة في تفخيم استكبارهم، على معنى أنَّه لو وُزِّع على الأرض جميعًا؛ لوَسِعها، وقيل: هي للعهد، وهو أظهر، والمراد أرضهم المعهودة الَّتي كانوا يسكنونها[1]، أي: "الَّتي كانوا فيها بالفعل وغيرها بالقوَّة، أو في الكلِّ بالفعل؛ لكونهم ملكوها كُلَّها"[2].

معنى الباء:

الباءُ في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ للمصاحبة، والمعنى: أنَّ الباطِلَ صاحَبَ استكبارَهم، فلم يكن علوُّهم وكِبرُهم بالحقِّ.

سرُّ إيثارِ لفظ الغيريَّة:

استكبارُ الكافرين في الأرض بغيرِ استحقاقٍ

أوثِرَتْ كلمةُ (غير) على كلمة (دون) ونحوها في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الدَّلالةُ على تعاظُمهم النّاتج عن تكبُّرهم، فكلمة (غير) تدلُّ على مُطلَق المُغايَرة، سواءً بالاستعلاء أو بالدّونيَّة، بخلاف (دون)، فهي مُشعِرةٌ بالمغايرة، لكن مع مصاحبة معنى الدّونيَّة، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 511.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: فتعظَّموا فيها على أهلِها، واستعلَوا فيها، واستولَوا على أهلِها بغير استحقاقٍ للتَّعظُّم ولا للولايةِ[1].

معنى القَيدِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

ليس للإنسان الضَّعيف أن يستكبر في الأرض

تقييد الاستكبار في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بكونه ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ هو قيدٌ مطابقٌ للواقع؛ إذِ استكبارُ الخلقِ لا يكون أبدًا بحقٍّ، بل بادِّعاءٍ باطل، وإنَّما نصَّ عليه مع كونه في الواقع لا يكون إلّا كذلك زيادةً في تشنيع استكبارهم، فجميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسُّلطان والقوَّة وغير ذلك لا تبلغ الإنسانَ مبلغَ الخلوِّ عن النَّقص، وليس للضَّعيف النّاقص حقٌّ في الكِبْر[2].

دلالةُ العطف بالواو:

ذِكرَ قولُهم المُنكَر لبيان مَنشَأِ التَّكبُّر

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ عاطفةٌ للجملة بعدها على جملة: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، والجملة المعطوفة بيانٌ للمعطوف عليها، أي: هذا القولُ بيانٌ لاستكبارهم[3]، فاغترارُهم بقوَّتهم كان سببَ استكبارهم في الأرض، وفي هذا العطف بالواو - المقتضي المغايرةَ مع كون الجملة الثّانية بيانًا للأولى - إشارةٌ إلى استقلال قولهم هذا بكونه موجبًا للإنكار عليهم؛ لأنَّ قولهم ذلك هو بمفرده منكَرٌ من القول، فلذلك عُطِف على فعل الاستكبار بالواو؛ لِما يقتضيه العطف من المغايرة بينهما[4].

دلالةُ صيغةِ فعلِ القول:

تحقُّقُ صدورِ القول من الجميع فعلًا أو موافقةً

عُبِّر بفعل القول ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؛ لتحقُّق وقوع ذلك القول منهم، وصُدوره عنهم، ودلَّت واو

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 8، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 374.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 141.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.

الجماعة فيه على إطباقهم عليه، وكأنَّهم جميعًا قالوا بصوت واحد: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ وإنِ احتمل أن يكون صدورُه قد وقع من الزُّعماء فقط، فالَّذي لا ريب أنَّ بقيَّتَهم كانوا موافقين عليه.

بلاغةُ الاستفهام بـ﴿مَنۡ﴾:

من كِبْرِهم نفَوا أن يكون أحدٌ أشدَّ منهم قوَّةً

﴿مَنۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ اسمُ استفهام يُسأل به عن العاقل، وهو هنا استفهامٌ إنكاريٌّ، متضمِّنٌ معنى النَّفي، أي: إنكارَ الوقوع، والمراد: (لا أحدَ أشدُّ منّا قوَّةً)، وهذه الجملة المحكيَّة: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ تطوي وراءها قدرًا من الغضب[1] الَّذي واجهوا به نبيَّهم هودًا عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحدَه، وحذَّرهم من وقوع العذاب المُهلِك بهم.

سرُّ إيثارِ الوصفِ بـ﴿أَشَدُّ﴾:

سببُ الإيغال في الاغترار عِظَمُ الخلق، وشِدَّة البطش

أوثِرت مادَّة الشِّدَّة على البأس في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؛ للعموم والشّيوع المستفادِ من الوصف بالشِّدَّة، الَّتي تعني الصَّلابة في كلِّ شيء، سواء في الحرب أو غيرها؛ أمّا لفظُ البأس؛ فإنَّه يكون في النِّكاية[2] والحرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177]، وعادٌ إنَّما قالوا ذلك القولَ؛ اغترارًا بما أعطاهم اللهُ من عِظَم الخلق، وشدَّة البطش[3]، فقد حُكي أنَّه "بلغَ من قوَّتهم أنَّ الرَّجلَ كان ينزعُ الصَّخرةَ من جبل، فيقتلعها بيده"[4]، وإيغالًا في هذا الاغترار عبَّروا بصيغة (أفعلَ) التَّفضيل، الَّتي تدلُّ على الكثرة والأفضليَّة على المقابل.

فائدة التَّعبير بشِبهِ الجملة ﴿مِنَّا﴾:

عُبِّر بشِبهِ الجملة ﴿مِنَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا

(1) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت دراسة في أسرار البيان القرآني، ص: 365.

(2) الراغب، المفردات: (بؤس).

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 8.

﴿قُوَّةً﴾ وتقديمِه على ﴿قُوَّةً﴾؛ لإفادة الاختصاص، ولتأكيد إعجابهم بذواتهم، فما استكبروا إلّا لاغترارهم بما منحهم اللّه إيّاه من القوَّة في البدن والشِّدَّة.

علّة تنكيرِ ﴿قُوَّةً﴾:

العلَّة في تنكيرِ ﴿قُوَّةً﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ هو التَّفخيمُ من شأنها وتعظيمُ أمرها، وللإشعار بأنَّه قد اجتمعت لهم كلُّ أسباب القوَّة، مهما اختلفت أنواعها، وتعدَّدت مظاهرها؛ فالمراد بالقوَّة هنا الحقيقيَّة والكنائيَّة والمجازيَّة: فاللَّفظُ مستعملٌ في حقيقته تصريحًا وكنايةً، وفي مجازه كذلك؛ لما عندهم من وسائل تذليل صِعاب الأمور لقوَّة أجسامهم، وقوَّة عقولهم[1].

اجتمعت لهم كـلُّ أسـبـابِ الـقـوَّة، على اخـتـلاف مـظـاهـرها، وتنوُّعِ صوَرِها

بلاغةُ الاستفهام بالهمزة:

الاستفهام بالهمزة في قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ هو استفهامٌ تعجُّبيٌّ، لتعجيب رسول اللّه ﷺ وغيرِه من حال هؤلاء الحمقى[2] الَّذين بالغوا في الاغترار بقوَّتهم الممنوحة لهم من خالقهم، أو هو استفهامٌ إنكاريٌّ؛ لإنكار جهلِهم بأنَّ اللّهَ أشدُّ منهم قوَّة، فلم يكُ استكبارُهم لعدم علمهم ذلك، وإنَّما أعرضوا عن رسالة رسول ربِّهم، وعن إنذاره إيّاهم، إعراضَ من لا يكترثُ بعظمة اللّه تعالى[3].

ما أعجبَ حالَ من لا يقدُر الله قَـدرَه، فاغترَّ بقوَّته، وتكبَّر على عبادة ربِّه!

دلالةُ الواوِ في ﴿أَوَلَمۡ﴾:

الواو من ﴿أَوَلَمۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ اعتراضيَّة، أو عاطفةٌ على مقدَّر - والتقدير: (أأغفلوا، ولم يروا) - والمعطوف والمعطوف عليه مجموعُهما

مقتضى العقل إدراكُ عظمةِ الخالق، وأنَّه أشدُّ قوَّةً من الخَلق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 257.
(2) الجمل، حاشية على الجلالين: 7/ 15.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 257.

اعتراضٌ[1]، على مذهب الزَّمخشريِّ في مثل هذا التَّركيب: (أولم) و(أفلم)؛ تفاديًا لتنازُع الصَّدارة بين واو العطف وهمزة الاستفهام، وفي هذه الجملة المعترِضة إفحامٌ لهم، وإخمادٌ لجذوة استكبارهم؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ اللّه هو الَّذي خلقهم، وهم كغيرهم من الكفّار لم يُنكِروا ذلك، فكان ينبغي عليهم أن يَعلَموا ضرورةً أنَّ مَن خلقهم هو أشدُّ منهم قوَّةً.

نكتةُ إيثار فعل الرُّؤية:

قـوَّةُ العـلـم الفِطريِّ بعظمة الخـالِق كالأمر المشاهَد بالعَين

الرُّؤية في قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ هي الرُّؤية العلميَّة، والمعنى: (أولم يعلموا علمًا لا يُشَكُّ في مثله أنَّ اللّه الَّذي خلَقهم هو أشدُّ منهم قوَّة؟)، والتَّعبير بالرُّؤية عن العلم أسلوبٌ شائع في القرآن الكريم، ويُقصَد به عادةً أنَّ المعلوم المقصودَ في الكلام هو - من قوَّة العلم به - كالأمر المشاهَد بِالعَين.

سرُّ التَّوكيد بـ﴿أَنَّ﴾ ووجه التَّصريح باسم الجلالة:

تتابعَت المؤكّداتُ لمـواجـهـة سـوءِ مـا قـالـوا ومـا اعتقدوا

أُكِّد الكلام في قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ بـ﴿أَنَّ﴾، وباسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي يُلقي المهابةَ في القلوب: لمواجهة كلامهم السّابق ونقضه، وهو قولهم: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾، فهُم مُنكِرون لوجود أيِّ قوَّةٍ يُمكِن أن تجابههم، ولو كانت قوَّةَ اللّه تعالى، ولو أنَّهم قالوا: (مَن أشدُّ منّا قوَّةً في الأرض)؛ لكان أخفَّ ممّا قالوا، لكنَّهم استطالوا بهذا الكلام حتّى بلغوا به تحدّيَ قوَّة خالقهم سبحانه؛ ردًّا على هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أمرَهم بعبادة اللّه وحده: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾، فجاء هذا الرَّدُّ المؤكَّدُ لزلزلة أركانهم وهزِّ قلوبهم.

فائدةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

الخالقيَّة دليلٌ على أنَّ الخالِقَ أقوى منهم

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾، وإيثارُه على غيره في قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ يدلُّ على

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 393.

أنَّهم مُقِرّون بأنَّ اللّه تعالى خالِقُهم؛ "لأنَّ الصِّلَةَ يجب أن تكون معلومةً لدى المخاطَب حتّى يصِحَّ التَّعريفُ بها"[1]، فهُم كانوا يعلمون يقينًا أنَّ اللّه تعالى خالقُهم، وهذا العلمُ كافٍ "في الدَّلالة على أنَّه سبحانه أشدُّ منهم قوَّةً، وأنَّه حقيقٌ بأن يَحسَبوا لغضبه حسابَه، فينظروا في أدلَّة صِدق رسوله إليهم"[2].

دلالةُ فعلِ الخلق الماضي:

ورد فعلُ الخلق في قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ﴾ بصيغة الماضي؛ لكَونِهم يُقرّون به، ولا يُنكِرونه، فهو يحاكمهم إلى ما يعترفون به من أدلَّة القدرة الإلهيَّة، وهو عندهم بمنزلة البَديهيّات.

بلاغةُ عَودِ الضَّمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾:

كيف يتكبَّرون بقوَّتهم على اللّه، وهو خالِقُهم؟.

خُصَّ في حَيِّز الصِّلة من قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ﴾ ذِكرُ وقوع الخَلق على أنفسهم، لا على السَّماوات أو الأرض أو غيرهما من مخلوقات الكَون؛ لادِّعائهم الشِّدَّة في القوَّة، ففي تخصيصهم بالذِّكر ضربٌ من التَّهكُّم بهم[3].

نكتة إقحامِ ضميرِ الفصل:

أُقحِم ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ﴾؛ لإفادة "تقويَة الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكمُ محقَّقًا؛ كان عدمُ علمهم بمقتضاه أشنعَ، وعذرُهم في جهله منتفيًا[4].

(1) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت ص: 366.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 257.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 364.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 257.

قـوَّةُ الله تعالى واسعةٌ مُطْلَقة، لا شـريـك يـشـاركـه في الاتِّصاف بها

توجيهُ استخدامِ أفعل التَّفضيل:

استُخدِمت صيغةُ أفعل التَّفضيل من شِدَّة القوَّة في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾، وهي صيغة تجري بين شيئَين، لأحدهما مع الآخر فضلٌ وتميُّز، والتَّفضيلُ على بابه باعتبار القَدرِ المُشتَرك بين القوَّتَين في اللَّفظ والمعنى، مع ما بينهما من التَّبايُنِ في الأوصاف والخصائص، فكما يوصَف الله بالعلم، فكذلك الإنسانُ يوصف بالعلم[1]، أوِ التَّفضيلُ هنا ليس على بابه، باعتبار أنَّ قوَّةَ العبد متناهيةٌ، وقوَّةَ الله لا نهايةَ لها، والمتناهي لا نسبةَ له إلى غير المتناهي، فالله تعالى أشدُّ قوَّةً بلا أدنى نظرٍ إلى أيِّ قوَّةٍ أخرى، كما يُقال: الله أكبر، ولا كبيرَ سواه[2].

الله أشدُّ قوَّةً من كُلِّ متكبِّرٍ يدَّعي شِدَّة القوَّة

سرُّ التَّعبير بشِبه الجملة:

الضَّميرُ المجرور بـ(مِن) في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ يعود إلى قوم عاد، فالكلام عنهم، والرَّدُّ إنَّما كان على قولهم مستكبرين: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾، فجاء الرَّدُّ مطابِقًا لمقتضيات دعواهم، فقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنۡهُمۡ﴾، أي: ومن غيرهم، لكن لأنَّه لم يجتَرِئْ أحدٌ بمثل ما اجترؤوا عليه في هذه الدَّعوى، ولأنَّ سياقَ الكلام فيهم، خُصّوا بالكلام في الجُملة.

دلالةُ الواو:

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ عاطفةٌ للجملة بعدها على جملة: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، كجملة: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾، وما بينهما اعتراضٌ للرَّدِّ على كلمتِهم الشَّنعاءِ[3].

الجحودُ طبعٌ وسجيَّة فيهم

دلالةُ فعلِ الكَينونة:

يدلُّ التَّعبيرُ بفعل الكينونة في التَّذييل: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 552، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 374.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 8.

على أنَّ الجحودَ فيهم طَبعٌ، وأنَّ التَّكذيبَ متأصِّل فيهم[1]، فلفظة (كان) في كثير من الاستعمال تُشعِر بالمداومة[2]، والمداومة على الشَّيء تكسبه تجذُّرًا في الطبع، فقومٌ عادٍ لكثرة تكذيبهم بآيات اللّه؛ صار هذا الجحودُ فيهم أصلًا وطبعًا.

سرُّ التَّعبيرِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

جَحَدوا بآياتِ الوحيِ الجليلة، وآيـاتِ الـكَـون العظيمةِ

الآياتُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ يُمكِن حملُها على الآيات التَّنزيليَّة أو الآيات الكونيَّة، والجمع بينهما أولى، فالمراد بالآياتِ هنا التَّنزيليَّةُ الَّتي فيها الخطاب الإلهيُّ الَّذي جاء به الرُّسُل، والكونيَّةُ الَّتي هي دلائلُ وحدانيَّةِ اللّه تعالى وقدرته؛ وهذا يفسِّر مجيئَها مجموعةً، وأمّا إضافتُها إلى ضمير العظَمة الإلهيَّة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ فإنَّها دالَّةٌ على عظَمتها وشرَفها، فالمضافُ إلى العظيم عظيم.

نكتةُ إيثارِ الفِعلِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾:

أظهروا التَّكذيبَ والـعِـنـادَ والـعُـدوان، وأبطَنوا اليقينَ بأنَّه الحقُّ من ربِّهم

الجُحود هو نفي ما في القلب إثباتُه، وإثبات ما في القلب نفيُه[3]، ومعناه في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ إظهارُ خلاف المعتقَدِ الكائن في القلب، بتكذيبِهم بآيات اللّه، وظلمِهم لرسولهم عَلَيۡهِ السَّلَامُ، حين قالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ [هود: 53]، فقد كانوا موقِنين بباطلهم وبأنَّهم جاحدون غيرُ مُحِقّين فيما أظهروه من تكذيبٍ وعدوان، وأوثِر التَّعبير عن جحودهم بصيغةِ المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ الجحود منهم كان متكَرِّرًا متجدِّدًا[4]، وأمّا مجيئُه مجموعًا؛ فإنَّه دالٌّ على أنَّ جميعَهم كانوا جاحدين، ولذا عاقبهم اللّه جميعًا بهلاك الاستئصال.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 258.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 259.
(3) الراغب، المفردات: (جحد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 258.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القوَّةُ والقُدرةُ والتَّمكينُ والاستطاعة:

القوَّة خلافُ الضَّعف[1]، وتكون في البدن، وتكون في القلب، أي: بإمكان حملها على القوَّة البدنيَّة، أو على القوَّة المعنويَّة، ومعناها في قول قوم عادٍ: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ قوَّةُ البدن؛ إذ بها يتمكَّن الحَيُّ من مزاولة الأفعال الشّاقَّة.

القـوَّةُ أنسبُ لمقام الاغترار والاستكبار، وأليقُ بوصف الملِك الجبّار

ومن لازم القوَّةِ القدرةُ، فهي أخصُّ من القوَّة، فناسبَ استعمالُ القوَّةِ في الآية لِتَضَمُّنِه القُدرةَ، لا العكس.

وأمّا الاستطاعة؛ فهي من الطّاعة بمعنى الانقياد، فيقال: طاعتْ جوارِحُه للفعل، أي: انقادت له، ولهذا لا يوصَف الله تعالى بها[2]، فلا يُقال: إنَّه مستطيع، في حين يوصف بأنَّه قويٌّ، وأنَّه قادر.

والتَّمكين مأخوذٌ من الفعل (مكن) بمعنى القرار في المكان، ومنه المُكُنات، وهي: أوكارُ الطَّير[3]، وهو معنًى أضيَقُ من معنى القوَّة، كما أنَّه يُشعِر بأنَّه لا يتحصَّل على التَّمكين إلّا بمُغالَبَةٍ ومساعدة؛ إذ يُقال: تمكَّن من كذا، أي: سَيطَر عليه مغالَبةً لخصمه، أو مكَّنتُه من كذا: إذا ساعدته للحصول عليه، وكلا المعنيين غيرُ مُرادٍ في لفظَي (قوة) الواردِ في الآية مرَّتَين.

فالتَّعبير الأنسبُ بالمقام والسّياق هو التَّعبير بلفظِ القوَّة محمولًا على القوَّة البدنيَّة في وصفِ قومِ عادٍ، وعلى القوَّةِ الإلهيَّة المُطلَقة في الجملة الثّانية.

الجَحدُ والإنكار:

الجَحدُ أخصُّ من الإنكار، وذلك أنَّ الجحد إنكارُ الشَّيء

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوي).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 47.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكن).

الـجُـحـودُ إنـكـارٌ أمـرٍ ظـاهـرٍ عـن يـقـينٍ وعـلـمٍ وإصرارٍ

الظّاهر، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾؛ إذ جعل الجَحدَ ممّا تدلُّ عليه الآيات، ولا يكون ذلك إلّا ظاهرًا، وقال تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: 83]، فجعل الإنكار للنِّعمة؛ لأنَّ النِّعمةَ قد تكون خافيةً، ويجوز أن يُقال: إنَّ الجحدَ هو إنكارُ الشَّيءِ مع العلم به، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: 14]؛ إذ جعل الجحد مع اليقين، والإنكار يكون مع العلم وغير العلم[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 157.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾ [فصلت: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَـنِ استكبرَ في الأرض، وجحَدَ بآيات الله؛ كَسَرَه الله بالاستئصال المُهين

بعد أن أظهرت الآيةُ السّابقة ما يخصُّ عادًا من استكبارهم في الأرض بغير الحقِّ، ومن تحدّيهم كلَّ القوى حتّى قدرة اللّٰه تعالى، فكانوا بذلك جاحدين؛ جاء دور الإخبار عن عقابهم الدُّنيويِّ الَّذي حاقَ بهم؛ بسبب ما كان منهم من استكبارٍ وتكذيب وجحود، دونَ ما ينتظرهم من خِزيِ الآخرة وعذابها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرۡصَرٗا﴾: (صرّ) أصلٌ يدلُّ على معانٍ، منها البَردُ الشَّديد مقابلَ الحرِّ، أو الحرُّ الشَّديد مقابلَ البرد، يُقال: أصاب النَّبْتَ صِرٌّ؛ إذا أصابه بردٌ يضُرُّ به، والصِّرُّ: صِرُّ الرّيح الباردة، والصّارَّةُ: شِدَّةُ حرِّ الشَّمس[1]، ومن معاني (صرَّ) كذلك: شِدَّة الصَّوت، ومن ذلك: الصَّرَّةُ شِدَّةُ الصّياح، ويقال: صرَّ الجندبُ صريرًا، وصرصر الأخطب صرصرة، والصراري: الملاح، ويمكن أن يكون لرفعه صوته[2]، ومعنى ﴿رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾، أي: عاصفةً تُصَرْصِرُ بمعنى تصوِّتُ في هبوبها، مِنَ الصَّرير، أو باردةٌ تُحَرِّق بشدَّة بَردِها[3].

2) ﴿نَّحِسَاتٖ﴾: (نحس) أصلٌ يدلُّ على خلاف السَّعد[4]، والنُّحاس: اللهيب بلا دخان، وذلك تشبيه في اللَّون بالنُّحاس، وأصل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صر).
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 231.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحس).

النَّحس أن يحمَرَّ الأُفُقُ، فيصيرَ كالنُّحاس، أي: لَهَب بلا دُخان، فصار ذلك مثلًا للشُّؤم، قال اللّه تعالى: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾ [القمر: 19]، وقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾، قيل: معناه مشؤومات، وقيل: شديدات البَرْد[1].

3) ﴿ٱلۡخِزۡيِ﴾: (خزي) أصلان، يدلُّ أحدهما على السّياسة، فيقال: خَزَوْتُهُ؛ إذا سُسْتَهُ، والآخر على الإبعاد، يقال: أخزاه اللّه، أي: أبعده، ومقته، والاسم الخزْي[2]، وخَزيَ خَزايَةً: استَحى، فهو خَزْيان[3]، وخَزيَ الرَّجل: لحِقَه انكسار، إمّا من نفسه، وإمّا من غيره، فالَّذي يلحقه من نفسه هو الحياء المُفرِط، ومصدره الخَزايَة، والَّذي يلحقه من غيره، يقال: هو ضربٌ من الاستخفاف، ومصدره الخِزْيُ[4]، فمعنى ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾: عذابُ الذُّلِّ والاستكانة[5].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

جـزاءُ المستكبِر عذابُ الخزي في الدُّنيا، وعـذابٌ أخزَى في الأُخرى

قال اللّه ﷻ في بيان عذاب الدُّنيا الَّذي أصاب قومَ عادٍ، دون الَّذي ينتظرهم من عذاب الآخرة: فَأرسَلنا عَليهِم ريحًا عظيمة في قوَّتها وشدَّتها، لها صوتٌ مُزعِج كالرَّعد القاصف، سخَّرها اللّه عليهم سَبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّامٍ نَحِسات مشؤوماتٍ، فدمَّرتهم، وأهلكتهم، فأصبحوا لا يُرى إلّا مساكنُهم، من أجل أن يُختزَوا بهذا العذابِ، ويُفتضَحوا به بين الخليقة، وأمّا العذابُ الَّذي ينتظرهم في الآخرة؛ فهو أخزى منه، ولا يُمنَعون من عذاب اللّه، ولا يَنفعهم أحدٌ[6].

(1) الراغب، المفردات: (نحس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزو).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (خزي).
(4) الراغب، المفردات: (خزي).
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 193.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 746.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف بالفاء:

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ عاطفةٌ لترتُّب ما بعد الفاء على ما قبلها وتسبُّبه عنه، فعِقابهم الَّذي حلَّ بهم[1] مُسَبَّبٌ عن استكبارهم وكفرهم وجحدهم، وفيه دلالة على أنَّهم هم مَن ظلَموا أنفسَهم باستجلاب هذا العقاب.

دلالةُ الفعلِ (أرْسَلْنا):

التَّعبيرُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾، بالإرسال للرّيح العاتية شديدةِ الصَّوت والبرد، فيه تنزيلٌ للرّيح منزلةَ رسولٍ يُكلَّف بأمرٍ لإبلاغه، فيقوم بما كُلِّف به خيرَ قيام، فالرّيح مأمورةٌ بما فَعلَت؛ لأنَّ أمرها بيَدِ خالقها ومُرسِلها مَن له العظمة والجلال، ولذلك أُسنِد الإرسالُ إلى ضمير العظَمة؛ لبيان عظَمة المُرسِل سبحانه، وعظَمةِ المُرسَل، وهو الرّيح الَّتي جاء وصف عِظَمِها في آياتٍ أخرى، منها قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف: 24 - 25].

الـرّيـحُ جـنـدٌ من جـنـودِ اللّه العظيمةِ

دلالة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

(على) في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ معناها الاستعلاء، والضَّميرُ المجرور به عائدٌ إلى قوم عاد، والتَّعبير بأداة الاستعلاء هنا دالٌّ على صَغارهم وحقارتهم[2].

سرُّ تنكيرِ الرّيح:

دلَّ تنكيرُ الرّيح في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ على تعظيمها، فهي ريحٌ عظيمةٌ بلغت من قوَّتها أنَّها دمَّرتهم تدميرًا، كما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 258.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 163.

قال تعالى عنها: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: 24 - 25].

لطيفةٌ في إفرادِ الرّيح:

رياحُ الرَّحمة لطيفةٌ نافعة، وريحُ العذاب عاصِفٌ عقيم

أفرد الرّيح في قول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ دون اختلافٍ بين القرّاء؛ لأنَّ الغالبَ في القرآن أن يُفرَدَ ريحُ العذاب بلا خلاف - كما في قول الله تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 24]، وفي هذه الآية - وأن تُقرَأ ريحُ الرَّحمة بالجمع، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: 48]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: 46]، ويمكن أن يُقال في تعليل ذلك أنَّ رياحَ الرَّحمة مختلِفةُ الصِّفات والماهيّات والمنافع، وإذا هاجت منها ريحٌ؛ أُثير لها من مقابلها ما يكسر سَورَتها، فينشأ من بينهما ريحٌ لطيفةٌ تنفع الحيوان والنَّبات، فكانت في الرَّحمة (رياحًا)؛ وأمّا في العذاب، فإنَّها تأتي من وجهٍ واحد، ولا معارضَ ولا دافعَ[1].

سرُّ الوصف بـ﴿صَرْصَرًا﴾:

تضعيفُ الكلمةِ يدلُّ على المُبالغة في معناها

وُصِفَتِ الرِّيح في قول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، والمرادُ به بيانُ شِدَّة بَردِها وصَوتِها وعُصوفِها، فتَقتطع القلبَ بصوتها، وتقهر شجاعته، وتحرق بشدَّة بردها كلَّ ما مرَّت عليه[2]، واللَّفظ إمّا مأخوذٌ من الصِّرِّ بمعنى البرد الشَّديد، أو من الصَّرَّةِ، وهي الصَّيْحَةُ[3]، أي: الصَّوت الشَّديد، وعلى كليهما فمعنى الشِّدَّة ملحوظٌ في الكلمة، ولأجل هذا ضُعِّفت، فقيل: (صَرْصَر) بتكرار جزأيها؛ للدَّلالة على المبالغة في معناها، كما هو الحال أيضًا في كلمات: (زلزل) و(سلسل) و(كبكب) ونحوها ممّا يُعرف

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 10.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 163.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.

عند علماء اللُّغة بـ(المضعَّف الرُّباعيِّ)؛ وبعضُ اللُّغويّين المعاصرين يُطلِقون عليها: (الألفاظ الاهتزازيَّة)؛ لِما تدلُّ عليه من معاني الحركة والاهتزاز.

سرُّ التَّقييدِ بشِبهِ الجملة:

من المبالغة في الخِزي نزول العذابِ عليهم نهارًا

حرفُ الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ للظَّرفيَّة الزَّمانيَّة، والمقصودُ باليوم هنا هو ما يقابل اللَّيلة، وأوثِر التَّعبيرُ بالأيّام دون اللَّيالي - مع تضمُّنِ الأيّام لها - تحقيرًا لشأنهم، ومبالغةً في خِزيهم، أن يكونَ عذابُهم في وضَح النَّهار الفضّاح، لا في جُنحِ اللَّيل السَّتّار.

سرُّ وصفِ الأيّام بالنَّحسات:

وُصِفت بالنَّحسات لشؤم العذاب المُخزي الَّذي حلَّ فيها بالقَوم

النَّحس هو الشُّؤم، ووُصِف اليوم بالشُّؤم في قول الله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾؛ لسوء ما وقع فيه من أحداثٍ مُؤلِمة ومُخزية، فالمراد أنَّها كانت نحساتٍ لقوم عادٍ بسبب ما وقع عليهم فيها من العذاب المُخزي، لا أنَّ الأيّام نفسَها مَشؤوماتٌ على عموم البشر، ففي هذا الوصف مجازٌ عقليٌّ؛ إذ أُسند النَّحس إلى الأيّام من باب إسناد الشَّيء إلى زمانه[1].

وربَّما كان اختيار هذا الوصف؛ ليُناسِبَ معتقدَهم في الشُّؤم؛ ولا يُفهَم منه أنَّ له وجودًا في الحقيقة، فالشَّرع الحنيف أبطل الشُّؤم، وجاء في الحديث الصَّحيح: «لا طيَرَةَ، وخَيرُها الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصّالحة يَسمَعُها أحدُكم»[2].

دلالةُ صيغةِ الجمع السّالم:

استئصالهم العذابُ المُهلِك في بضعةِ أيّام

دلَّ وصفُ الأيّام بـ﴿نَّحِسَاتٖ﴾ على صيغةِ جمع السَّلامة في قول الله تعالى:

(1) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 3/ 156.
(2) صحيح البخاري، حديث رقم: (5754) وقوله ﷺ: "لا طيرة" نفي لما كانوا يعتقدونه في الجاهلية، وأصله أن يعتبر حال الطائر، إذا طار، فإن تيامن، فعلوا، وإن تشاءم، تركوا، واعتقدوا أن ذلك مشؤوم، ثم أُطلق على كل ما يتشاءم به، وابن حجر العسقلاني، فتح الباري: 1/ 151.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ على أنَّها أيّامٌ قليلات[1]، فلم تكن إلّا ثمانيةً، كما حدَّدها قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾ [الحاقة: 6 - 7].

دلالةُ المضارعة:

أوثِر التَّعبير عن الإذاقة بصيغة الفعل المضارع، في قول اللّه تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾؛ لتتهيَّأ للسّامع صورةُ العذاب الأليم الَّذي حلَّ بهم.

بلاغةُ الاستعارة في فِعل الإذاقة:

تشبيهُ العذابِ بطعامٍ هُيِّئَ لهم مغزاه التَّهكُّم، ومآلُه التَّهويل

في قول اللّه تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ استعارةٌ مكنيَّة، فقد شُبِّه العذاب بطعام هُيِّئَ لهم على وجهِ التَّهكُّم، ثم حُذِف المشبَّهُ به، ورُمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإذاقة، والإذاقة تخييلٌ من ملائمات الطَّعام المشبَّه به[2]، ولا شكَّ أنَّ التَّعبير بالإذاقة أكثرُ تهويلًا من التَّعبير بالإصابة، فلو أنَّه قيل: (لِنُصيبَهم بالعذاب) أو (لِيُصيبَهم العذابُ) ما قاد إلى هذا التَّهويل المفهومِ من التَّعبير بالإذاقة.

بلاغةُ إضافةِ العذابِ إلى الخِزي:

أذلَّ اللهُ المكذِّبين بالعذاب المُخزي في الدُّنيا قبل الآخرة

العذابُ هو الإيجاع الشَّديد[3]، والخزي هنا الذُّلُّ والاستكانة[4]، وقولُ اللّه تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ بإضافة العذاب إلى الخزي هو من باب إضافة الموصوف إلى الصِّفة، فالخِزيُ في الواقع هو صفةٌ للعذاب، من باب الصِّفة بالمصدر أو اسم المصدر، بدليل مقابلته بقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾، أي: أشدُّ خِزيًا من خزي عذاب الدُّنيا، وفي الوصفِ بالمصدر مبالغةٌ في الاتِّصاف[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 164.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 261، وعفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 3/ 156.
(3) الراغب، المفردات: (عذب).
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 193.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 261.

معنى وصفِ العذابِ بالخِزي:

تعدّى الذُّلُّ والهوانُ من المُعذَّب إلى العذاب نفسِه لِفَرط شِدَّته

وُصِفَ العذابُ بالخِزي في قول الله تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾؛ لأنَّ الإضافة هنا إضافةُ موصوفٍ إلى صفته، والخِزْي مصدَرُ (خَزِيَ)، بمعنى: ذلَّ، واستكان، وانكسر، فوُصِف العذاب بالمصدر للمبالغة، كأنَّه جُعِلت صِفةُ الخِزي بمنزلة شخصٍ آخَرَ يُضاف إليه مَوصوفُ العذاب[1]، والمعنى: (لِنُذيقَهم عذابًا ذليلًا مُهانًا)، ووصفُ العذابِ نفسِه بالذُّلِّ والهوان من الإسناد المجازيِّ، وهو أبلغُ مِن وصفِ المُعَذَّبين به، كما يُقال: له شِعرٌ شاعِر، فهذا أبلغُ من القول: هو شاعر[2]، ووَجهُ البلاغةِ في العدولِ عن وصف صاحب العذاب بالخِزي إلى وصف العذاب نفسِه به: أنَّ فيه إشعارًا بسَرَيان الخزي - لِفَرطِ شِدَّتِه - إلى ما يتعلَّق به، وهو العذاب[3]، وهذا أبلغُ من مجرَّد وصف مَن وقع عليه العذابُ بالخزي، ويحتمل مصدرُ الخِزي في هذه الإضافة أن يكون بمعنى الإخزاء، أي: (لِنُذيقَهم عذابًا مُخزيًا)، فاجتمعت في إضافة العذاب إلى الخزي في هذه الآية مُبالغتان: مبالغة الوصف بالمصدر، ومبالغة إضافة الموصوف إلى الصِّفة[4].

سرُّ التَّعبير بالظَّرفيَّة:

إذلالُهم في محلِّ استكبارهم هو تحذيرٌ لكلِّ ظالمٍ مستكبِرٍ في الأرض

حرف ﴿فِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ مفيدٌ للظَّرفيَّة المحدِّدة؛ لكون هذا العذاب المنصوص عليه هو عذابهم في الدُّنيا؛ لأنَّ هنالك عذابًا أقسى ينتظرهم يوم القيامة، وفي التَّنصيص على وقوع هذا العذاب شديدِ الخزي والهوان في الحياة الدُّنيا إشارةٌ إلى إذلالهم في مكانٍ كانوا قد عَلَوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 261.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 296، والتفتازاني، حاشية على الكشاف: 6/ 517.
(3) التفتازاني، حاشية على الكشاف: 6/ 517.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 261.

فيه عُلوًّا كبيرًا، باستكبارهم في الأرض بغير الحقِّ، فيذلّون عند من تعظَّموا عليهم، في الدّارِ الَّتي اغترّوا بها، فاستكبروا فيها[1]، وفيه تحذيرٌ لكلِّ ظالم مستكبِر في الأرض أن يناله عذابٌ غيرُ بعيدٍ، بمقت اللّه وغَضَبِه وانتقامه.

معنى الواو:

قـويـل عـذابَ الـدُّنيـا بـعـذاب الآخرة لتخويف المستكبِرين

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ هي واو الاستئناف[2]، والجملة بعدها مستأنَفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وهدف الاستئناف هو الفصل بين العذابَين: عذابِ الدُّنيا بالرّيح الصَّرصَر، وعذابِ الآخرة ببيان أنَّه أقسى وأخزى؛ ليرتَدِعَ كلُّ مستكبِرٍ جبّار.

ويمكن حملُها على العطف، بأن تكونَ الواوُ عاطفةً لهذه الجملة على ما سبقها، للجمع لهم بين العقابين: عقابِ الدُّنيا بالرّيح المُرسَلةِ وعقاب الآخرة، وهو أخزى[3]، وهو من عطف المعنى على المعنى؛ لأنَّها لا تقعُ مَوقِعَ المُفرَدِ من كلام قبلها، فهي تُخبِر عن عذاب الآخرة، وهو ليس مُرتَبِطًا بإرسال الرّياح[4].

معنى اللّام:

لا جَرَمَ أنَّ عذابَ الآخرة أخزى من عذابِ الدُّنيا

اللّام الدّاخِلةُ على كلمة العذاب في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ هي لامُ الابتداء، وفائدتُها التَّأكيد، أي: تأكيدُ كَونِ عذاب الآخرة أخزى، لا تأكيد وقوع العذاب، فإنَّ وقوعَه مُحَتَّمٌ لا يفتقر إلى تأكيدٍ في الإخبار به، وأُكِّد الخبرُ لإنكار المكذِّبين له[5]، فإنَّه لا يقول أحدٌ مثلَ قولهم: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾، ويستكبر مثلَ استكبارهم، إلّا وهو غير آبِهٍ بعذاب الآخرة.

---

(1) الشربيني، السراج المنير: 3/ 511.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل: 24/ 277.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 261.
(4) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 372.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 166.

فائدةُ إضافةِ العذابِ:

عُرِّف لفظُ العذاب في قول الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ بإضافته إلى الآخرة؛ ليتميَّز بهذه الإضافة عن عذاب الدُّنيا - وهي إضافة تعريف - وليكونَ مقابِلًا له، وفي المقابلة بين الحياة الدُّنيا وعذابِ الآخرة مُحسِّنُ الطِّباق.

سرُّ التَّعبير بصيغة التَّفضيل:

عذابُ الآخرة أشدُّ إخزاءً وإهانةً وإيلامًا من أشدِّ عذابٍ في الدُّنيا

جاء التَّعبيرُ باسم التَّفضيل في قول الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾؛ جريًا على غيرِ قياس، وقياسُه أن يُقال: (أشدُّ إخزاءً)؛ لأنَّه لا يُقال: خزاه بمعنى أخزاه، أي: أهانه[1]، وغرض التَّفضيل هنا بيانُ أنَّ عذابَ الآخرة أشدُّ إخزاءً وإهانةً وإيلامًا من عذاب الدُّنيا.

أو هو مجازٌ عقليٌّ بإسنادِ الخزي إلى العذاب، الَّذي هو في الحقيقة وصفٌ للمعذَّب، فالتَّفضيل على هذا الوجهِ قياسيٌّ، والمعنى: (ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ خِزيًا)، وُصِف به العذاب لحصول الخزي بسببه[2].

بلاغةُ الاحتراسِ في الآية:

دفعُ توهُّم قُصورِ العذابِ على ما مضى وقوعُه في الدُّنيا

إذا كان قول الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ معطوفًا على الجملة السّابقة، فهي احتراسٌ؛ لئلّا يحسبَ السّامعون أنَّ حظَّ أولئكَ من العقاب هو عذابُ الإهلاك بالرّيح، فعُطِف عليه الإخبارُ بأنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ خِزيًا، أي: لهم ولكلِّ من عُذِّب عذابًا في الدُّنيا بغضبٍ من الله[3].

معنى الواو في ﴿وَهُمۡ﴾:

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ عاطِفةٌ للجملة بعدَها على جملةِ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾، وهو من عَطفِ الجُمَل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 261.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 324.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 261.

بعضِها على بعض، ويجوز أن تكونَ واوَ الحال، أي: أصابهم عذابُ الدُّنيا وسيُصيبهم عذابُ الآخرة، والحال أنَّهم لا يُنصرون(1).

سرُّ التَّعبير بالضَّمير:

مَن ينصرِ الله؛ ينْصُرْه

جاء المبتدأُ ضميرَ جمعٍ في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ للتَّأكيد بالقصر على أنَّهم لا يجدون من يدافع عنهم في الآخرة، ويشفع لهم، فهُم لم يَنصُروا اللّهَ في الدُّنيا، فما لهم يومئذٍ ﴿مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾ [الطارق: 10]، بخلاف المؤمنين الَّذين نصروا اللّه في الدُّنيا، فإنَّهم في الآخرة يجدون اللّهَ تعالى ناصرًا لهم ووليًّا، ورسولَهم لهم شافعًا.

وجهُ النَّفي بـ ﴿لَا﴾:

نفيُ حصولِ النّاصر لهم في الدُّنيا والآخرة

أوثِر النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على نفي وقوع النَّصر لهم في المستقبل، أي: يوم القيامة، ومِن النُّحاة من يرى أنَّ (لا) تكون لنفي الحال والاستقبال، وهي هنا أوقعُ لكونهم لا يجدون لهم ناصرًا من عذاب اللّه، فيدفعه عنهم، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

سرُّ إيثارِ فعل النَّصر:

عند حلول العذاب تَعلو الأصواتُ بالاستغاثة ولا ناصرَ لهم

السِّرُّ في إيثارِ التَّعبير بفعل النَّصر في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ هو البناء على ما يعلمه اللّه منهم، وما يتوقَّعُه المخاطَبُ من حالهم، أنَّهم عندَ حلول العذاب بهم في الدُّنيا قد استغاثوا لعلَّهم أن يجدوا لهم من عذاب اللّه دافعًا؛ وكذلك حالُهم في الآخرة، فإنَّ انقطاعَ الرَّجاء في وقوع النَّصر لهم أشدُّ وأقوى، ففيه تيئيسٌ لهم ولأمثالهم حتّى لا يبقى لهم أملٌ في دفْعِ عذاب اللّه عنهم، مهما استغاثوا، واستنصروا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 166.

نكتةُ صيغةِ الفعلِ ﴿يُنصَرُونَ﴾:

عُبِّر بالمضارع في قول الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ لنفي وقوع النّاصر لهم حالًا واستقبالًا، بأيِّ وجهٍ من الوجوه، أي: (لا يجدون، ولن يجدوا نصرًا؛ مهما تجدَّد استنصارُهم)[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

النَّصر والتَّمكين والظَّفر:

لا يَجدون عند العذاب من يُعينهم على بلوغ الفوز والغلَبة على أعدائهم

أصل النَّصر يدلُّ على إتيانِ خيرٍ وإيتائه، يُقال: نصر الله المسلمين، أي: آتاهم الظَّفرَ على عدوِّهم[2]، والنَّصر والنُّصرة: العَون[3]، ويختصُّ النَّصر بمعنى المعونة على الأعداء، ويدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51]، وقوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: 3]، وقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٦﴾ [الصافات: 116]، فإنَّ مَساقَ الآياتِ الإخبارُ عن ظَفَر الأنبياء ﷺ، ونصرتِهم على أعدائهم، إمّا بالغلَبة، أو بالحُجَّة[4].

والتَّمكين مأخوذٌ من الفعل (مكن) بمعنى القرار في المكان[5]، والتَّمكين إعطاءُ ما يصحُّ به الفعلُ - كائنًا ما كان - من الآلات والعُدَد والقوى[6]، وهو معنًى يُشعِر بأنَّه لا يتحصَّل على التَّمكين إلّا بمغالبةٍ أو مساعدة؛ إذ يُقال: تمكَّن من كذا، أي: سيطر عليه مغالبةً لخصمه، أو مكَّنته من كذا؛ إذا ساعدته للحصول عليه.

والظَّفَر: هو الفَلَجُ والفوز بالشَّيء[7]، وأصله من: ظَفِرَ عليه، أي:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(3) الراغب، المفردات: (نصر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 540.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكن).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 142.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظفر).

نشب ظُفُرُهُ فيه[1]، والظَّفَر: العُلوُّ على المُناوِئ المُنازِع، قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الفتح: 24]، وقد يُستعمل في موضع الفوز، فيُقال ظفر ببُغيَتِه، أي: فاز بها، وأصلُه نيل الحظِّ من الخير[2].

والتَّعبير بنفي النَّصر في قول الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ أولى من التَّعبير بنفي التَّمكين أو نفي الظَّفَر؛ إذ إنَّ معناه: (لا يجدون من يُعينهم على بلوغ الفوز في هذا اليوم، والغلبةِ على أعدائهم الرُّسل والمؤمنين في هذا اليوم)، وهذا المعنى متناغِمٌ مع تعبير القرآن في آياتٍ أخرى بنفي الوليِّ والنَّصير، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ [الشورى: 8].

(1) الراغب، المفردات: (ظفر).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 340.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ ما حلَّ بقومِ ثمودَ إثرَ تفصيلِ ما حلَّ بقومِ عادٍ

لمّا تعرَّضتِ الآيةُ السّابقة لتفصيلِ ما وقع لقومِ عادٍ من إرسال الرّيح الصَّرصَر عليهم، فأهلكتهم، وأبادتهم؛ جزاءً على تكذيبهم المذكورِ واستكبارهم؛ جاءت هذه الآيةُ لِتُفَصِّلَ إعراضَ قوم ثمودَ وكفرَهم، وما جوزوا به مِن صعقٍ وإهلاكٍ كذلك، فقومُ ثمودَ شركاءُ لقومِ عادٍ في جَحدِ الحقِّ وعدمِ الإيمان ومعاداةِ المرسَلين وتكذيبهم، وفي كثيرٍ من المواضعِ في الكتاب العزيز يَقرِن اللّهُ تعالى بين قِصَّتَيهِما؛ لأنَّ حالَهما واحدٌ من حيثُ عدم قبولهما الإرشادَ من جانب اللّه تعالى، وأنَّهما استحبّا العمى على الهدى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟﴾: (حبب) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعِ الدَّقيق أو اللَّطيف مكتنِزًا معًا، فمنه الحُبُّ ضدُّ البغض، فيه معنى التَّجمُّع والتَّلازُم؛ إذ هو تعلُّقُ القلب بما يراه، أو يظنُّه خيرًا، وملازمتُه إيّاه مادّيًا أو فكريًّا[2]، وحقيقة الاستحباب: أن يتحرّى الإنسانُ في الشَّيء أن يُحِبَّه، واقتضت تعديتُه بـ(على) معنى الإيثار، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[3]، أي: آثَروه عليه.

2) ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾: (عمي) أصلٌ يدلُّ على سَترٍ وتغطية، من ذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 262.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حبب).
(3) الراغب، المفردات: (حب).

العَمَى: ذهاب البصر من العينين كلتيهما، ولا يقع هذا النَّعت على العين الواحدة[1]، والعمى يُقال في افتقاد البصر والبصيرة، فيُقال في الأوَّل: أعمى، وفي الثّاني: أعمى وعَمٍ، ومعنى قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: اختاروا الضَّلالةَ على الهدايةِ[2].

3) ﴿ٱلْهُونِ﴾: (هون) أصلٌ يدلُّ على سكونٍ أو سكينة أو ذلٍّ، ومن ذلك الهَون: السَّكينة والوقار، قال اللّه سبحانه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، والهونُ: الهوان، قال ﷻ: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ [النحل: 59][3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾، أي: العذاب الموصوف بالهون، أي: المُهينُ المُخزي[4].

4) ﴿يَكْسِبُونَ﴾: (كسب) أصلٌ يدلُّ على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابة، ومنه الكَسْب[5]، وهو ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلابُ نفع، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال، والكَسْبُ يقال فيما أخذَه لنفسه ولغيره، ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولين، فيقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكتِسابُ لا يقال إلّا فيما استفدتَهُ لنفسك، فكلُّ اكتِسابٍ كسب، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا، وقد يُستعمل الكَسْبُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنَّه يجلب منفعة، ثمَّ استجلب به مضرَّة، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[6].

المَعنى الإجماليُّ:

العـذابُ المُهين جـزاءُ مَـن يُنكر الحقَّ المستبين

في هذه الآية الكريمة يفصِّل اللّه تعالى مصيرَ قوم ثمودَ، فيقول: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، أي: فأرشدناهم إلى الحقِّ بنصب الآيات التّكوينيَّة، وبيَّنّا لهم طريق النَّجاة بإرسال الرُّسل إليهم، وإنزال

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 9.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 167.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).
(6) الراغب، المفردات: (كسب).

الآيات الشَّريفة، فالهداية المذكورة هي هدايةُ البيان، وقد تمَّت بآيَةٍ باهرة، رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آيةً مبصرة، فلهذا خصَّهم بزيادة البيان والهدى، ولكنَّهم بسبب ظلمهم وشرِّهم استحبّوا الكفرَ والضَّلال على العلم والإيمان، فأخذَتْهُم نارٌ نازِلةٌ من السَّماء، كانت لهم عذابًا مُهينًا، فأهلكتهم، وأحرقتهم، وكلُّ ذلك بسبب ظلمهم الدّائم المستمِرِّ لأنفسهم، لا ظلمًا من اللّه لهم(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل بالواو:

تـشـابُـهُ حـالِ الـقـبـيـلـتـيـن كـفـرًا بـالـلـه، وتكذيبًا بآياته، واستكبارًا على خلقه

أوثِر العطفُ بالواو بين جملتي التَّفصيل، فقول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ معطوفٌ على جملة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ لِما بين القصَّتين من تشابُهٍ، من حيث إنَّ كلتا القبيلتين قد كفرت باللّه، وعاندت رُسُلَهُ، واستكبرت على اللّه تعالى وعلى خلقِه، فالعطف هنا هو مِن عطف القصَّة على القصَّة؛ لما بينهما من التَّشابُه والاشتراك المذكور.

دلالةُ (أمّا) والفاءِ:

مِـن لُـطـفِ الله بـعـبـاده أن بيَّن لـهـم سـبـبَ إهلاكِ المكذِّبين

(أمّا) في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ حرفُ تفصيل وشرط، فهذه الآية والَّتي قبلها شروعٌ في تفصيلِ مُجمَلِ ما كان في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ [فصلت: 13 - 14]، وتظهر إفادتُه للشَّرط من جملة الجواب: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، فالفاء هي الواقعة في جواب (أمّا) التَّفصيليَّة المتضمِّنة معنى الشَّرط، والمجيء بأداة التَّفصيل المتضمِّنة معنى الشَّرط يدلُّ على مزيد اهتمام المتكلِّم بذلك التَّفصيل، فأفاد تقويَةَ الكلام والاهتمامَ به؛ للدَّلالة على أَنَّ مضمونَه محقَّقٌ، ولولا ذلك؛ لَما اهتمَّ به(2).

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 746، والهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 326.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 364.

إرسالُ الرُّسل من أهمِّ دعائم هدايةِ الدَّلالة والإرشاد

دلالة مادَّةِ فعل الهداية:

الهدايةُ المرادة في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ هي هدايةُ الدَّلالة الَّتي تتحقَّق بنَصبِ الحُجَج، وبإرسال الرُّسل[1]، وتأييدِهم بالمعجِزات الباهرات، وهي الهداية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: 10]، والمنسوبةُ إلى الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: 52]، وليست هي هدايةَ التَّوفيق والمعونة، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، ويرى فريقٌ من العلماء أنَّ استخدام الهداية في معنى الدَّلالة والبيان هو من باب المجاز، وأنَّ الحقيقة فيها هو حصول الهداية وتحقُّق وجودها[2]، فيكون لفظُ الهداية في قوله تعالى: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ مُستَعارًا للدَّلالة المجرَّدة؛ تشبيهًا لها بالدَّلالة الحقيقيَّة، من حيث إنَّها مكَّنتهم من الاهتداء، فلم يَبقَ لهم بعدَها عذرٌ ولا عِلَّة، فسُمّيت هدايةً؛ لكونها سببًا موصِلًا إلى الهداية الحقَّة[3]، وفي ذلك جوابٌ لمن يسأل: كيف حُكِم عليهم بالهداية، وهم لم يهتدوا؟

أعظمُ نِعَمِ الله على خلقه بيانُ الطَّريق إليه

دلالةُ صيغةِ فعل الهداية:

عُبِّر عن فعل الهداية بصيغة الماضي في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾؛ لوقوع ذلك الإرشاد والدَّلالة بالفعل، بإرسال الرُّسل، كما دلَّ عليه قولُه تعالى فيما سبق: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وأُسنِد الفعلُ إلى ضمير العَظَمة؛ للإشعار بامتنان الله عليهم بهذه الهداية، وبعظمة ما ساقه اللهُ إليهم من دلائلَ بيِّناتٍ واضحاتٍ، من شأنها أن تَقود الأسوياء إلى الإيمان بالله والاهتداء بهُداه.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 69.

(2) ابن المنير، الانتصاف: 4/ 194، والتفتازاني، حاشية على الكشاف: 6/ 518، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 591.

(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 377.

عَودُ ضميرِ المفعول:

ضميرُ المفعولِ في فعل الهداية من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، يعود إلى ثمودَ باعتبار القبيلة، وهو مفعولٌ أوَّل، والمفعول الثّاني محذوفٌ، والتَّقدير: (هديناهم إلى طريق الإيمان)، أو (إلى الصِّراط المستقيم)، بحسب ما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6]، وحُذِف للعلم به.

معنى فاءِ ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ﴾:

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ عاطفةٌ للجملة بعدها على جملة: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، واختيار الفاء واسطةً لهذا العطف؛ لما تفيده من التَّرتيب والتَّعقيب، والمعنى: (دللّناهم على طرق الإيمان، فسارعوا دون تردُّدٍ إلى اختيار بديله، وهو الكفر والطُّغيان، فلم يمنحوا أنفسهم وقتًا للتَّروّي والتَّفكير؛ ليكون اختيارهم مبنيًّا على تعقُّل وقناعة).

مـن أفعـالِـهـم السَّيِّئة التَّعجُّل وعدمُ الرَّويَّة في إيثار الكفر على الإيمان

دلالةُ الفِعل (استَحَبّوا) متعدّيًا بـ﴿عَلَى﴾:

فِعلُ الاستحباب في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ معناه المحبَّة، أي: (أحبّوا العمى)، ومحبَّةُ الشَّيء تُقذَف في النَّفس، ولا تكون بالاختيار، لكن أُسند الفِعلُ إليهم باعتبار اختيارهم واكتسابهم للعمى، والإسناد إلى الكاسب هو إسناد حقيقيٌّ[1]، فالاستحباب هنا متضمِّنٌ معنى التَّفضيل والإيثار والاختيار، أي: (اختاروا الضَّلالة على الهدى)[2]، بدليل اقتران الفعل (استَحبّوا) بالسّين والتّاء المفيدِ للمبالغة - لأنَّ المبالغة في المحبَّة تستلزم التَّفضيل على بقيَّة المحبوبات - وبدليل تعديته بالحرفِ (على)[3].

اشترَوا الضَّلالةَ بـالـهـدى، فما ربِحَتْ تجارتُهم، ومـــا كـــانـــوا مُهتَدين

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 145.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 71.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 262.

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡعَمَىٰ﴾ معرَّفًا:

أغرَقوا في الضَّلال بكلِّ أنواعِه

يُطلَق العمى على عمى البصر أو البصيرة، وهو في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ مستعارٌ للضَّلال استعارةً تصريحيَّة، ولمّا كان المرادُ هنا الإخبارَ عن كونهم مُغرِقين في الضَّلال بكلِّ أنواعه؛ أوثِر تعريف العمى بـ(أل) الجنسيَّة؛ ليَشمَل كلَّ أنواع الضَّلالِ في الرَّأي.

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ معرَّفًا:

الهدى في الآية طريقٌ واحد، هو طريقُ الإيمان لا غير

المرادُ بالهدى في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ طريقُ الهداية، وهو الإيمان لا غير، فـ(أل) هنا هي العهديَّة، الَّتي لا ينصرِف المعرَّف بها إلّا على معهودٍ بعينه، بخلاف (أل) في كلمة العمى، فهي الجنسيَّة؛ لأنَّ طُرُقَ الضَّلال متشعِّبةٌ متعدِّدة، وطريق الهداية واحد، وهذا من أسرار توحيد النّور وجمع الظُّلمات في مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257].

بلاغةُ الاستعارةِ في الجُملة:

الكفرُ ضلالٌ عن القصد، والإيمانُ رشادٌ إلى القصد

في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ استعارتان تصريحيَّتان، شُبِّه في الأولى الكفرُ بالعمى، وفي الثّانية شُبِّه الإيمانُ بالهدى، فوجه التَّشبيه في الاستعارةِ الأولى أنَّ الكافرَ ضالٌّ عن القصد، متعسِّفُ الطَّريق كالأعمى، وفي الثانية أنَّ المؤمن مهتدٍ إلى محجَّة القصد، وسواء السَّبيل، ثمَّ حُذِف المُشبَّهُ في كليهما، وأُثبِت المُشبَّهُ به[1].

بلاغةُ الطِّباق في الآية:

قوبِل بين النَّقيضَين للمبالغة في التَّشنيع على سوءِ اختيارهم

بين العمى والهدى في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ طباقٌ معنويٌّ، مبنيٌّ على تأويلِ العمى بالكفر، والهدى

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 544.

بالإيمان؛ ليؤولَ المعنى إلى مقابلة الكفر بالإيمان، وفيه تشنيعٌ عليهم؛ لكونهم آثروا ما يضرُّهم، ولا ينفعهم، وهو الكفر، على ما ينفعهم في العاجل والآجل، وهو الإيمان.

وجهُ التَّعبير بالفعل (أَخَذتْهم):

أَخَذهم اللهُ بالصّاعقةِ أخْذَ استئصالٍ، فلم يُغادِرْ منهم أحدًا

يدلُّ لفظُ الأخذ على معنى حَوزِ الشَّيء وقهره والاشتداد عليه[1]، ومعناه في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾، (أخذَتْهم أخذًا شديدًا قويًّا شاملًا أَخْذَ قَسرٍ وذلٍّ وهوان[2]، لا يفلت منه أحدٌ منهم)، وقد جاء وصف أَخْذِ اللّه تعالى للقرى، وهي ظالمة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾ [غافر: 5]، وهي في كلِّها مستعارٌ للإصابة المُهلِكة، ووَجهُ الشَّبهِ بينهما هو الاتِّصالُ بالمُهلَك، والإزالةُ من الحياة، فصار الإهلاكُ كأنَّه أخذٌ باليد[3].

وفي التَّعبير مجازٌ عقليٌّ بإسناد الأخذ إلى الصّاعقة، وإنَّما اللّهُ هو أخَذهم بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]، وعبَّر عنه بالماضي؛ لكونه قد وقع بالفعل، وبضمير الجمع الَّذي يعود على ثمودَ باعتبار القبيلة؛ لكونه كان عذابَ استئصالٍ لجميعهم.

سرُّ تعريف الصّاعقة بالإضافة:

صاعقةٌ من عذاب الله، وليست من جنسِ الصّواعقِ المعتادة لدى النّاس

عُرِّف لفظُ الصّاعقة في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾، بإضافته إلى العذاب الموصوف بالهون، وهي إضافةُ تعريفٍ، فائدتُها المبالغةُ في بيانِ أنَّ هذه الصّاعقةَ ليست

(1) الراغب، المفردات: (أخذ).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 167.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 263.

ككلِّ الصَّواعقِ المعتادة لدى النّاس، ولكنَّها صاعقةٌ محمَّلةٌ بالعذاب، بل هي صاعقةُ العذابِ المُهين، فإنَّ أصل معنى الإضافة أنَّها بتقدير لام الاختصاص، فالتَّعريف بالإضافة يفيد أنَّ المضافَ لا يُعَرَّف إلّا عن طريق اختصاصه بالمضاف إليه، فهي صاعقةٌ خارقةٌ لمعتاد الصَّواعق، صاعقةٌ مسخَّرة من اللّه لإهلاك ثمودَ واستئصالهم(1).

ووجهٌ آخرُ لإفادة هذه الإضافةِ المبالغةَ في شِدَّة وقعِ الصّاعقة وقوَّتِها: أنَّها إضافةُ نوعٍ إلى جنسٍ، بتقدير (مِن)، والمعنى: (فأخذتهم صاعقةٌ من جنس العذاب البالغِ في الإهانة به)(2)، فهي صاعقةٌ ليست من جنس الظّواهر الطَّبيعيَّة الَّتي اعتادَتْها النّاس، وعرفوها، بل صاعقةٌ من جنس عذابِ العزيزِ الجبّارِ المتكبِّر، الَّذي يَنتقِم به من المجرمين، ويُهين به المستكبرين.

بلاغةُ وصفِ العذاب بالهون:

هو عذابٌ بالغُ الإهانة، شديدُ الإخزاء لكلِّ من أُخِذَ به

وُصِفَ العذابُ بالهون في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾، وهو من النَّعت بالمصدر، فالهون مصدرٌ بمعنى الهوان، وهذا الوصف إمّا بحذفِ مضافٍ، والمعنى: (صاعقةُ العذابِ ذي الهونِ)، أو من باب الوصف بالمصدر للمبالغة(3)، وفيه مجاز عقليٌّ بوصف العذاب نفسِه بالهوان، وإنَّما هو وصفٌ للمعذَّبين به، لكنَّ العذاب لَمّا كان سببًا للهوان، وكان من شدَّة اتِّصافِه بالإهانة؛ صارَ كأنَّه هو نفسُ الهون والذُّلِّ والحقارة.

دلالةُ التَّركيبِ:

أُهلِكت عادٌ بالطّاغية

حصلتِ المبالغةُ في شدَّة الإهلاك وتمام الاستئصال وبالغ الإهانة في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ بعدَّةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 263.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 377.
(3) الشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 139.

عواملَ، منها: اختيار مادَّة الأخذ، واستعارةُ لفظِ الصّاعقة للعذاب، وإضافةُ الصّاعقة إلى العذاب، ووصفُ العذاب بالهون[1].

معنى الباء:

الباء الدّاخلةُ على (ما) في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هي باء السَّببيَّة، أي: (نالهم ما نالهم مِنَ العذاب المهين؛ بسبب كَسبِهم واختيارِهمُ الضَّلالَ، مُؤثرين إيّاه على الهدى).

دلالةُ الفعلِ ﴿كَانُواْ﴾:

الـضَّـلالُ خُـلَّـةٌ فيهم لا تفارقهم

دلَّ إقحامُ فعلِ الكَينونة في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ على أنَّ كَسبَهم الضَّلالَ إنَّما هو طَبعٌ فيهم لا يفارقهم، وسجيَّة راسخةٌ لا تنقطع عنهم، ودلَّ جمعُ الفاعلين، بإسناد الفعلِ إلى ضمير الجمع المتَّصِلِ العائد على قومِ ثمودَ، على أنَّ هذا الطَّبعَ هو طبعُهم جميعًا، فلذلك استَحقّوا به، وبما نتج عنه من الكفر والفسوق أن أُخِذوا بالعذاب المُهين.

وَجهُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

حِـرصُ الإنسان وتـحـرّيـهِ مواقعَ الـضَّـرر إخـلالٌ بقيـمة العقل الَّـذي ميَّزه الله به

يُطلَق لفظ الكَسْب على كلِّ ما يتحرّاه المرء ممّا فيه اجتلابُ نفع، ككسب المال ونحوه[2]، ويُطلق تهكُّمًا على ما يحصله الإنسان ممّا فيه مضرَّة لا نفع؛ مراعاةً لكون الأصل أنَّ الإنسان لا يفعل إلّا ما يجلب له نفعًا، ويكسب به مصلحة، لكن أن يتحرّى مواضعَ الضَّرر ومحالَّه، فهذا ما لا يليق فعلُه بالعاقل، فإطلاق الكسب على ضلالهم في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هو من باب التَّهكُّم بهم، وفي التَّعبير عن الكسب بصيغة المضارع دلالةٌ على تجدُّد كسبهم وتكراره، وفي إسناد الكسب إلى ضمير الجمع المتَّصل دلالةٌ على أنَّ ذلك شأنُهم جميعًا.

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 377.
(2) الراغب، المفردات: (كسب).

نكتةُ حذفِ متعلِّق الفعل:

جميعُ أعمالِهم السَّيِّئةِ كانت سببًا لأخذهم بالعذاب المُهلِك

حُذِف متعلِّقُ فعلِ الكَسبِ في قول الله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ اختصارًا للعلم به؛ إذِ المقصود ما يكسبونه من الكفر والضَّلال والأعمال السَّيِّئة المتولِّدة عنهما، وحذْفُه أدعى لإطلاقِ محتملات الكسب العديدة.

سرُّ الاكتفاءِ بذكر العذابِ الدُّنيَويِّ:

تماثُل عادٌ وثمودُ في الكفر والعذاب

اكتفتِ الآيةُ الكريمة في الإخبار عن عذابِ قومِ ثمودَ بما حاقَ بهم في الدُّنيا: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾، دون التَّعرُّضِ لذكر ما ينتظرهم من عذاب الآخرة، كما ذكر ذلك مع قومِ عادٍ، وذلك من باب مُحَسِّنِ الاكتفاء، فإنَّه اكتُفيَ بالنَّصِّ عليه في خبرِ قومِ عاد، في قوله سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾، الَّذي يدلُّ على أنَّ لثمودَ أيضًا عذابًا في الآخرة، لتماثُلِ الأمَّتين في الكفرِ سببِ العذاب المُخزي المؤبَّد، والاكتفاءُ مُحَسِّنٌ يرجع إلى الإيجاز[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الهدايةُ والإرشاد:

أحقِّيَّةُ الله تعالى بالعبادة مثبَتةٌ بالبراهينِ الدّالَّة والمُرشِدة

أصل معنى الهداية الدَّلالة بلطف، وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه: الهداية الَّتي عمَّ بجنسها كلَّ مكلَّف من العقل، والفطنة، والمعارف الضَّروريَّة، والهداية الَّتي جَعل للنّاس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك - وهذان النّوعان هما من هداية الدَّلالة والإرشاد - وهداية التَّوفيق الَّذي يختصُّ به من اهتدى، والهداية في الآخرة إلى الجنَّة[2]، وهذان النَّوعان هما من هداية المعونة والتَّوفيق.

وأمّا الرَّشَدُ والرُّشْدُ؛ فيُستَعمل استعمالَ الهداية، وهو خلاف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 263.
(2) الراغب، المفردات: (هدى).

الغيِّ، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256][1]، والإرشاد إلى الشَّيء هو التَّطريق إليه والتَّبيين له، فهو من هداية الدَّلالة؛ أمّا الهداية في أصلها؛ فهي التَّمكُّن من الوصول إليه، على سبيل الحقيقة[2]، فكلُّ إرشادٍ هدايةٌ، وليس كلُّ هدايةٍ إرشادًا.

وعُبِّر في الآية الكريمة بلفظ الهداية على إرادة معناها الموازي لمعنى الإرشاد، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾، أي: دللّناهم، وأرشدناهم بما نصبناه لهم من الأدلَّة والحجج على أحقّيَّته سبحانه وحدَه بالعبادة دون سواه، وبإرسال الرُّسل وما أنزلناه معهم من الآيات التَّنزيليَّة، فهذه المعاني جميعُها تتجاوز حدودَ الإرشاد، ولا تبلغ حدود حصول الهداية الحقيقيَّة، فهي في منزلة بينهما؛ وذلك أنَّه لمّا كانت لكثرتها ولوضوحها دافعةً إلى الإيمان والاهتداء؛ أوثِر التَّعبيرُ عنها بالهداية دون الإرشاد.

---

(1) الراغب، المفردات: (رشد).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 42.

﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾ [فصلت: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من إنذارِ الكافرين إلى بشارة المؤمنين

لمّا أتمَّ الله تعالى الخبرَ عن الكافرين من الفريقَين؛ أتبعه الخبرَ عن المؤمنين منهما؛ بشارةً لمن اتَّبع النَّبيَّ ﷺ، ونذارةً لمن صدَّ عنه، فقال: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[1]، فتكون الآياتُ قد تكلَّمت عن مصير الكافرين ومصير المؤمنين، وهذه عادةُ القرآن أن يجمع في الإخبار بين الوعد والوعيد؛ ليتحقَّق التَّبشيرُ للمؤمنين، والإنذار والتَّحذير للكافرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَجَّيۡنَا﴾: (نجو) أصلٌ يدلُّ على خلوصِ الجِرْمِ أو نفاذِه مرتفعًا من بين ما يحيط به، أو يجاوره، كالأرض المرتفعة، وكالأغصان تمتدُّ من ساق الشَّجرة، فالنَّجوَةُ والنَّجاةُ: المكان المُرتفِع المنفصل بارتفاعه عمّا حوله، وقيل: سُمّي بذلك؛ لكونه ناجيًا من السَّيْل[2]، وكلُّ ما في القرآن من نحو قوله تعالى: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: 25]، و﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾ [الأنعام: 64]، فهو بمعنى الخلوص من خطرٍ محدق أو عذاب أو غرق أو كرب[3]، ومعنى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: خلَّصناهم من تلك الصّاعقة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تخليصُ المؤمنين وإنجاؤُهم من الهلاك الَّذي حلَّ بالظّالمين

أخبر الله تعالى بإنجائه المؤمنين من هلاك الاستئصال الَّذي حلَّ بأقوامهم بعدَ غضب الله عليهم، فقال: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 167.
(2) الراغب، المفردات: (نجو).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نجو).

﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، أي: إنَّه حين أخذ العذابُ هؤلاءِ المكذِّبين الضّالين؛ نجّى الله الَّذين آمنوا، وكانوا يتَّقون الله، ويخشون بأسَه، فلم يُصِبهم من هذا المكروه شيءٌ، بل خلَّصهم ربُّهم من الصّاعقة الَّتي أهلك بها الظّالمين.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف بالواو:

جـزاءُ المؤمنين مـن كـلِّ قـومٍ معذَّبٍ أن يُنَجّى فلا يُمسَّ بسوء

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ عاطفةٌ جملةَ الإنجاء على جملة الأخذِ بالعذاب[1]، فعلَّة العطف والوصل بالواو ما بين الجملتين من تضادٍّ، فجزاءُ الكافرين كان أخذًا بالصّاعقة، وجزاء المؤمنين إنجاء منها.

أو الواوُ للعطف على التَّفصيل في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، وما عُطِف عليه من قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ الجملةَ المتضمِّنةَ إنجاءَ المؤمنين من العذاب جاءت بعدَ ذِكرِ عذاب عادٍ وعذاب ثمودَ، ممّا يشير إلى أنَّ المعنى إنجاءُ الَّذين آمنوا من قوم عاد وقوم ثمود[2].

دلالةُ صيغةِ الفعل (نَجّينا):

الإنجاءُ العظيم للمؤمنين من الإهلاك العظيم الَّـذي استأصَل الكافرين

دلَّت صيغةُ الماضي في فعل التَّنجيَة من قول الله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على تحقُّق وقوع الإنجاء الإلهيِّ للمؤمنين من هلاك الاستئصال الَّذي أباد الكافرين، ولأنَّ هذا الإهلاك كان عظيمًا، فقد كان الإنجاء منه عظيمًا كذلك، وهذا سرُّ إسنادِ فعل الإنجاء إلى ضمير العَظَمة.

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 24/ 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 264.

سرُّ التَّعبيرِ بالموَصول:

الإيمان والتَّقوى شرطٌ للنَّجاة

عُبِّر باسم الموصول في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للتَّنبيه إلى ما في حَيِّز الصِّلة مِن وصْفِهم بالإيمان؛ لبيان أنَّ سبب إنجائهم هو إيمانهم، وما عُطف عليه من وصفهم بالاستمرار والمداومة على التَّقوى في قوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

دلالةُ المضيِّ في فعل الإيمان:

حقَّقوا الإيمان، فأنجز اللهُ لهم موعودَ النَّجاة

جاء التَّعبيرُ عن فعل الإيمان في جملة الصِّلة من قول اللّه تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقهم بوصف الإيمان وقت الإنجاء؛ تمييزًا لهم من الكافرين الَّذين هلكوا.

وجهُ العطفِ بالواو:

الإيمانُ والتَّقوى شرطانِ في النَّجاة

الواو من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ عاطفةٌ جملةَ التَّقوى على جملة الإيمان؛ للتَّنبيه على أنَّهم مع تحقُّقهم بالإيمان كانوا حريصين على مراقبة اللّه تعالى وتقواه في سائر أمورهم، فالإيمان يقينٌ في القلب، والعملُ يصدِّقه.

دلالةُ الفعل (كانوا):

المؤمن الحقُّ يُرى حيث أمرَ الله، ويُفتَقد حيث نَهى

دلَّ إقحامُ فعلِ الكينونة مسندًا إلى ضمير الجمع في جملة: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ على أنَّ حِرصهم جميعًا على مراقبة ربِّهم وتقواه كان سجيَّةً فيهم وطبعًا، فلا يُرَون إلّا حيث أمر اللّه، ويُفتقَدون حيثُما نهى.

دلالةُ صيغةِ الفعل ﴿يَتَّقُونَ﴾:

المؤمنُ يجدِّد لكلِّ موقفٍ تقوًى تناسبه

ترسيخًا لما أفاده إقحام الفعل (كان) في الجملة: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، من التَّأكيد على طبع التَّقوى في قلوبهم وظهورها في أفعالهم؛ جاء أيضًا الفعل ﴿يَتَّقُونَ﴾ مضارعًا ومُسنَدًا إلى ضمير الجمع العائدِ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لبيان أنَّهم مع رسوخ الإيمان في قلوبهم كانوا يجدِّدون لكلِّ موقف من الطّاعة والمعصية ما يناسبه

من تقوى اللّه ورضاه فعلًا أو تركًا، فقوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾، أي: (يتجدَّد لهم هذا الوصفُ في كلِّ حركةٍ وسكون)[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

النَّجاة والخلاص والإنقاذ:

الإنــجــاءُ مــتــمــحِّــضٌ لــلــدَّلالــة على الــتَّــخــلــيــص مــن أذًى كـبـير ومكروهٍ مُهلِك

النَّجاة هي الخلاص من المكروه[2]، يُقال: نجّاه من كذا؛ إذا خلَّصه منه، شريطةَ أن يكون هذا المخلَّصُ منه مكروهًا وأذًى، بخلاف الخلاص من الشَّيء، فقد يكون من تعقيدٍ، وإن لم يكن فيه أذًى[3]، فظهر الفرق بين الإنجاء والتَّخلُّص في كون النَّجاة لا تكون إلّا مِن أذًى، فلا يُقال لمن لا خوفَ عليه أنَّه ناجٍ[4]، وأمّا التَّخلُّص؛ فأعمُّ منه؛ إذ لا يُشترَط فيه أن يكونَ من أذًى.

والإنقاذُ هو التَّخليصُ من ورطَةٍ[5]، كالبليَّة بعد الإغراق فيها، أوِ الوقوعِ فيما لا مَخْلَصَ منه[6]، كما قال سبحانه: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران: 103]، فالمعنى: (كنتم أشفيتم، وقاربتم حفرةً من النّار، أو كنتم واقعين فيها؛ لولا أن منَّ اللّهُ عليكم بالإسلام)[7].

فبين هذه الكلماتِ تقاربٌ دلاليٌّ واشتراكٌ في بعض المعاني، غيرَ أنَّ أنسبَها هو التَّعبير بالإنجاء؛ لأنَّه متمحِّضٌ للدَّلالة على التَّخليص من أذًى كبيرٍ ومكروهٍ مُهلِك لا غير؛ ولذلك يستعمله القرآنُ في إنجاء الأنبياء والمؤمنين ممّا أصاب الكفّارَ من الفتك والهلاك المستأصِل،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 167.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 523.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 532.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 532.
(5) الراغب، المفردات: (نقذ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورط).
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 2/ 447.

وهو كثير في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس: 102 - 103].

﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾ [فصلت: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ جزاءِ السّابقين من الكافرين فيه عِبرةٌ وتحذيرٌ لكلِّ أعداء الدّين

لمّا بيَّن اللّه تعالى فيما سبق كيفيَّةَ عقوبة أولئك الكفّار من قوم عادٍ وثمودَ في الدُّنيا؛ أردفه ببيان كيفيَّة عقوبتهم في الآخرة؛ ليحصلَ منه تمامُ الاعتبار في الزَّجْر والتَّحذير[1]، فيعتبرَ بذلك كلُّ من كان على شاكلتهم، وبالأخصِّ كفّار مكَّة الَّذين عَتَوا في كفرهم كعتوِّ مَن سبقهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحۡشَرُ﴾: (حشر) أصلٌ يدلُّ على الجمع والسَّوْق والبعث والانبعاث؛ لأنَّ الحشر هو الجمع مع سَوق، وكلُّ جمعٍ حشر[2]، ولا يُقال الحشر إلّا في الجماعة، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: يُجمَعون بكثرةٍ، بأمرٍ قاهرٍ[3]، وذلك يوم الحشر، وهو يوم القيامة، سُمّي يومُ القيامة يومَ الحشر، كما سمّي يومَ البعث والنَّشر[4]؛ لأنَّ الخلائق تُجمع فيه كثيرةً محشورة.

2) ﴿يُوزَعُونَ﴾: (وزع) أصلٌ يدلُّ على كفٍّ عن الانتشار تجاوُزًا للجماعة أو تخطّيًا ومفارقة[5]، يُقال: وزَعتُه عن الأمر: كففته، وقال اللّه سبحانه: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾ [النمل: 17]، أي: يُحبَسُ أوَّلهم على آخرهم[6]، والوازع في الحرب: الموكَّل بالصُّفوف، يزَعُ مَن تقدَّم منهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 555.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 168.
(4) الراغب، المفردات: (حشر).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وزع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزع).

بغير أمره، فيُرتِّبهم، ويُسَوّيهم، ويَصفُّهم للحرب، فكأنَّه يكفُّهم عن التَّفرُّقِ والانتشار[1]، وقول الله تعالى هنا: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ هو وزْعٌ على سبيل العقوبة[2]، ومعناه: يُدفعون، ويُرَدُّ أوَّلُهم على آخرهم، ويُزجَرون زجرَ إهانة، ويُجمع إليهم من شذَّ منهم[3].

المَعْنى الإجماليُّ:

افتضاحُ أمرِهم جميعًا أمامَ الأشهاد، بحشرِهم وسَوقِهم وإهانتهم

يقول تعالى في تبيين عذاب أعدائه الكافرين يومَ القيامة: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، أي: واذكر يا رسولنا لقومك الكفّار ما يكون من حشرٍ لأعداء الله يوم القيامة؛ إذ يجمعهم الله تعالى الأوَّلين منهم والآخرين، ويسوقهم إلى النّار سوقًا عنيفًا، لا يستطيعون امتناعًا، ولا يَنصُرون أنفُسَهم، ولا هم يُنصَرون، فيجيء أوَّلهم على آخرهم؛ ليتمَّ إلزامُ الحجَّة عليهم بين جميعهم، فلا يَبقى لهم مقال[4]، وفي هذا فضْحٌ لجميعهم أمامَ جميعهم وأمامَ الأشهاد.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَيَوۡمَ﴾:

عذابُ الآخرة أشدُّ وأخزى من عذاب الدُّنيا

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ تحتمل أن تكونَ عاطفةً للجملة بعدها على قوله تعالى: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً﴾، والتَّقدير: (وأنذرهم أيضًا يومَ حشرِ أعداءِ الله إلى النّار)[5]، وعلى هذا يكون سرُّ الوصل بينهما بالواو هو قصد الجمْعِ لهم بين الإنذارين بالعذابين - عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرة - كي لا يَتوَهَّم المُنذَرون - وهم كفّار مكة ومَن على شاكلتهم - أنَّ عذابَ الدُّنيا الَّذي حلَّ بعادٍ وثمودَ مغنٍ لهما عن عذاب الآخرة، فيَهونَ الأمرُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وزع).
(2) الراغب، المفردات: (وزع).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 168.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 330، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 747.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 264.

في نظرهم، لا سيَّما وقد كانوا يعتقدون أنَّ الموتَ نهايةُ النِّهايات، وأنَّه لا حياة أخرى بعده، ولذلك سهُل عليهم أن يقولوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]، أي: عجِّل لنا بانقضاء حياتنا، فهو أهون علينا من ترك دينِ الآباء.

ويحتمل أن تكونَ الواوُ للاستئناف[1]، والجملةُ بعدها مستأنفة، وغرض الاستئناف تحذيرُ المنذَرين من عذاب الآخرة الَّذي يُنكِرونه، بعدَ أن سلَّموا بعذاب الدُّنيا؛ لأنَّهم يعرفون أخبارَ الأمم من قبلهم، وخاصَّةً عادًا وثمودَ.

وجهُ حذفِ عاملِ النَّصب:

يومُ الحشرِ يومٌ مَهولٌ، فذَكِّر بالقرآنِ مَن يَخاف وعيدي

نُصِب لفظُ اليوم في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، ويحتمل أن يكون ظرفًا منصوبًا بفعل دلَّ عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، والتَّقدير: (يُساق النّاسُ يومَ يُحشر أعداء اللّٰه إلى النّار)، أو: (يُمنعون يومَ يُحشر)، ويحتمل المنصوبُ أن يكون مفعولًا به لفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: (اذكر)، أي: (اذكر يوم يُحشر أعداء اللّٰه)[2].

دلالةُ صيغةِ فِعلِ الحَشرِ بقراءتَيه:

يحشرُ اللّٰهُ النّاسَ إلى يومٍ شديدِ الهَول، جديرٍ بالخَوف

قُرِئَ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بقراءتين، فقد قرأ نافعٌ ويعقوب الفعلَ بالنّون ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ أَعۡدَآءَ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، بالبناء للفاعل، وبنصبِ ﴿أَعۡدَآءَ﴾ على المفعوليَّة[3]، والفاعلُ ضميرٌ مقدَّرٌ مرادٌ به اللّٰهُ تعالى، أي: (نحشر نحن أعداءَ اللّٰه)، فهو إخبارٌ من اللّٰه عن نفسه بذلك، والحجَّة فيه: أنَّه معطوف على قوله تعالى:

(1) الفارسي، الحجة: 6/ 118، وأبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 380.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 520.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 366.

﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فحسُن أن يكون المعطوفُ وفْقَ المعطوف عليه في لفظ الجميع، ويقوّيه أيضًا قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥﴾ [مريم: 85]، وقوله: ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ [الأنعام: 111].

وقرأ الباقون: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾ بالبناءِ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه، ورفعِ ﴿أَعۡدَآءُ﴾ على أنَّه نائبُ فاعل، وحجَّتُهم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كلامٌ قد تمَّ، فلمّا تمَّ الكلامُ؛ استأنفوا، ولم يعطِفوا على التَّنجية(1)، وعُدِل في هذه القراءة عن ذكر الفاعل - وهو اللّه ﷻ - للعلم به، فمِن باب الاختصار لم يحسُنِ التَّصريح، وبُنيَ لما لم يُسمَّ فاعلُه للاهتمام أيضًا بالحشر، ولَفتِ النَّظر إلى موضوعه، فالحَشرُ مِحوَرُ الحديث ومُرتَكَزُه؛ لكون المخاطَبين من كفّار قريشٍ يُنكِرونه، ويكذِّبون به، وعُبِّر بصيغة المضارع - على القراءتين - لدلالته على الاستقبال، فإنَّ الحَدَثَ كائنٌ يومَ القيامة.

سرُّ إيثارِ لَفظِ الأعداءِ جمعًا مُضافًا:

المشركون باللهِ هُم أعداءُ الله، ومشركو قريشٍ داخـلــــون في العموم

جاء التَّعبيرُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، بصيغة جمعِ الأعداء، مع إضافته إلى الاسم الأعظم؛ للدَّلالة على العموم، فالجمع المضاف هو من صيَغِ العموم؛ فأعداء اللّه تعالى - وهم المشركون به، المُعرِضون عن توحيده - كُثُر، في كلِّ زمان، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، وعلى القول بإرادة عموم المشركين أكثرُ المفسِّرين، وقيل: ﴿أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾ هم مشركو قريشٍ؛ لأنَّهم أعداءُ رسوله ﷺ، كما قال تعالى عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]، يعني المشركين، لقوله بعده: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ [الممتحنة: 1](2)، والقول بالعموم يشمل مشركي قريش وغيرَهم.

(1) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 6/ 118.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 264.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾:

زيادةُ توبيخِهم والتَّشنيعِ على عَداوتِهم

نكتةُ إضافة لفظِ الأعداء في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى الاسمِ الأعظم - الَّذي يُشعِل نارَ المهابةِ والخشية في القلوب - هي المبالغة في ذمِّهم، وزيادةُ التَّوبيخ لهم، والتَّهجين لفعلهم، والتَّخسيس لعقولهم؛ إذ كيف يُعادون اللّهَ الملِكَ الأعظم؟[1].

معنى ﴿إِلَى﴾:

بئسَ مصيرُ أعداءِ الله

الحرف ﴿إِلَى﴾ موضوعٌ لانتهاء الغاية، فهو يدلُّ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ على أنَّ غايةَ أعداءِ اللّه تنتهي بهم في النّار، مصيرًا محتومًا، وجزاءً وفاقًا لسوء معتقدهم، ورديِّ أفعالهم.

نكتةُ إيثارِ لفظِ النّار مُعَرَّفًا:

يُحاسَب أعداءُ اللهِ أشدَّ الحساب، ثُمَّ يَصيرون إلى أشدِّ العذاب

قد يكون المرادُ بالنّار في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ موقفَ الحساب؛ إذ هناك تتحقَّق الشَّهادةُ الآتية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، والتَّعبير عن موقف الحساب بالنّار، إمّا للإيذان بأنَّ النّارَ عاقبةُ حشرهم، وأنَّهم على شرف دخولها، وإمّا لأنَّ حسابَهُم يكونُ على شفيرِها[2]، ولا مانِعَ من إبقاء اللَّفظِ على ظاهره[3]، بأن يكون المراد به النّارَ المعهودةَ الَّتي هي مصيرُ الكافرين في الآخرة، فالتَّعريف للعهد.

معنى الفاء:

احتلاطُ المحشورين تستلزم التَّصفيف

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ حرفُ عطفٍ وتفريعٍ على الحشر في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 168.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 9.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 366.

لأنَّ الحشر يقتضي الوَزْعَ، وهو من لوازمِه عُرفًا؛ إذِ الحشر يستلزم كثرةَ عدَدِ المحشورين، وكثرةُ العدد تستلزم الاختلاطَ وتداخُلَ بعضهم في بعض، فلا غنًى لهم عن الوزع لتصفيفهم، وردٍّ بعضهم عن بعض[1]، فجملةُ الوَزعِ مرتَّبةٌ على جملة الحشر، ومبيِّنةٌ لها، ومن تمام معناها، فكأنَّ هذه الآيةَ كلَّها جملةٌ واحدة[2].

سرُّ التَّعبير بمادَّة الوَزْع:

يـــوزَعُ أعــداءُ الـلـه للحساب والـعـذاب، كما يُفعل بالأنعام الكثيرة

جاء التَّعبيرُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ بمادَّة الوَزْع، الَّتي معناها الكَفُّ، أي: (يُكَفّون عن التَّشرُّد وفوضى السَّير)؛ لأنَّهم لكثرتهم يتفرَّقون، ويشذُّ بعضهم عن بعض، فيسبق بعضُهم، ويتأخَّر آخرون، فيكون حالهم كالماشية، يراعيها راعيها، ويسوقها مرتَّبة حتّى لا تندَّ، وفي التَّعبير إهانةٌ لهم؛ إذ إنَّهم يخضعون لِوازِعٍ يرتِّب صفوفَهم، ويردع شارِدَهم كالأنعام، واللَّفظ يدلُّ بطريق الكناية على كثرة أهل النّار، فلا يوزَع إلّا الجمع الكثيرُ جدًّا، يُحبَس أوَّلُهم انتظارًا لمجيء آخرهم[3].

سرُّ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

تـصـويـرُ إهـانـةِ أعـداءِ الله يومَ الحَشر

فائدة تقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ هو تأكيد صورة حشرهم الَّتي حرصت الآية على رسمها، وهي حشْرُهم على كثرتهم، وسَوقُهم إلى الموقف أو إلى النّار مع إهانتهم بوجود من يزَعُهم، ويرتِّب عمليَّة سيرهم.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الحَشْرُ والجَمعُ والبَعثُ:

لفظ الحشر لا يُقال إلّا لجمعٍ، فلا يُقال: حشرت فلانًا إلى كذا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 265.
(2) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 382.
(3) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 395.

يُحشَر أعداءُ الله إلى موقفِ الحساب بإهانةٍ وإذلالٍ

ولكونه مخصوصًا بالجمع؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يكون مع سَوقٍ وترتيب، فالحَشرُ هو الجمع مع السَّوق، وقد أُكِّد هذا المعنى في الآية بقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1].

وأمّا البعث؛ فهو سابقٌ لعمليَّة الحَشر؛ إذِ البعث هو الإخراج من القبور، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، ثمَّ بعدَ إخراجهم من القبور يُساقون إلى الموقف للحساب، وهذا هو الحشر[2]، وأوثِرت مادَّة الحَشر في الآية على البعث؛ للإشارة إلى كثرة أعداء اللّه المجموعين المُساقين إلى الحساب سوقًا مُهينًا.

العدوُّ والخَصم والغريم والمناوئ:

بالغوا في عدم إيمانهم حتى صوِّروا بأنَّهم أعداء الله

لفظُ العَدوِّ هو من العَدْو بمعنى التَّجاوُز ومنافاة الالتئام، وهو تارةً يُعتبر بالقلب، فيقال له: العَداوَةُ والمُعاداةُ، وتارةً بالمشي، فيقال له: العَدْوُ، وتارةً في الإخلال بالعدالة في المعاملة، فيقال له: العُدْوانُ[3]، ومعنى العُدوان والظُّلم هو الَّذي يظهر في كلمة العَدو، فالأعداء في الآية هم المتجاوِزون في حقِّ اللّه تعالى بعدم إيمانهم به.

وأمّا الخَصْمُ؛ فهو مصدرُ خَصَمْتُهُ، أي: نازعته خَصْمًا، وأصلُ المُخاصَمَة: أن يتعلَّق كلُّ واحدٍ بخَصمِ الآخر - أي: جانِبه - وأن يَجذِبَه[4]، فالمخاصمة منازَعةٌ على شيءٍ ما، قد ترتقي إلى مستوى العداوة، فيكون الخصم عدوًّا، وقد تهبط إلى مستوى المجادلة؛ لانتزاع الغلَبة في شيءٍ ما، كالخلاف في مسألةٍ علميَّة ونحوها والمجادلةِ حولها، أو حول قضيَّةٍ ما، فالمتقاضيان خصمان، فالخصم إذًا إنَّما يكون في مستوى خصمه كالفرد من بني الإنسان مع آخر، لكن لا يُقال فيمن يعرض عن الإيمان خَصمٌ، فلا مساواةَ بين الإله والبشر.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 888.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 103، والراغب، المفردات: (حشر).
(3) الراغب، المفردات: (عدا).
(4) الراغب، المفردات: (خصم).

وأمّا الغريم؛ فهو من الغُرم، بمعنى الدَّين، ورجلٌ غارم: عليه دين[1]، والغريم حرفٌ من الأضداد، فالغَريم الَّذي له الدَّين، والغريم الَّذي عليه الدَّيْن[2].

وعلى هذا فليس في لفظ الغريم معنى العداوة، إلّا أنَّه قد يكون سببًا من أسبابها.

وأمّا المناوئ؛ فهو من النَّأْي بمعنى البُعد[3]، وغايةُ ما تدلُّ عليه المادَّة في استعمال القرآن: معنى الإعراض، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: 83].

فلفظ العداوة مناسبٌ لسياق الآية أكثر من الألفاظ الأخرى؛ تعبيرًا عمَّن يُحشرون إلى النّار، وهم يُساقون إليها بإهانةٍ وتهَكُّم؛ لكونهم بالَغوا في عدم الإيمان، حتّى صوِّروا بالأعداء.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (غرم).

(2) الأنباري، الأضداد، ص: 203.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نأى).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ [فصلت: 20]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ الغاية من إهانتهم بالوَزْع

لَمّا بيّنَتِ الآيةُ السّابقة إهانتَهم بالوَزْع؛ بيَّنت هذه الآيةُ الغايةَ منها[1]، فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِدَ﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلام، ومِن ذلك الشَّهادةُ، لجَمعِها هذه الأصولَ الثَّلاثة[2]، يُقال: شَهِدت المجلس، أي: حضرته، فأنا شاهِدٌ وشَهيدٌ أيضًا[3]، ومعنى ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الآية: أنَّ اللّهَ تعالى يُنطِق جوارِحَهم بالشَّهادة عليهم[4].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

إقامةُ الحُجَّة على الكافرين بشهادة جوارحهم عليهم بما عملوا

يصف اللّهُ حالَ أعدائه يومَ الحَشر، بعدَ أن يُساقوا بإهانة وإذلالٍ، حَتَّى إذا ما جاؤوا إلى النّار، بعد أن يكشف اللّه تعالى قبائحهم أمامَ الخلائق؛ فإنَّهم يبالغون في إنكار المخالفاتِ الَّتي ووجهوا بها، حينئذٍ يُنطِق اللّهُ جوارِحَهم؛ لِتَشهد عليهم، فيَشهد سَمْعُهُم بأنَّهم سمعوا الحُجَجَ، فأعرضوا عنها، وسمعوا الشُّبَهَ، فاتَّبعوها، وسمعوا الفواحِشَ، فاستحسنوها، وتشهد أبصارُهم بأنَّهم رأَوُا الآياتِ، فلم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (شهد).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 10.

يعتبروها، ورأوُا القبائِحَ، فاختاروها، وتشهد جُلودُهُم بأنَّهم باشروا المعاصي، فيشهد كلُّ عُضوٍ وجزءٍ بِما كانوا يَعْمَلونَ في الدُّنيا(1)، فلا يملكون بعدَ ذلك إنكارًا.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الابتداءِ بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

حالُ الكافرين بينَ انتهاءِ حَشرِهم وابتداءِ حسابِهم

استهلَّتِ الآيةُ الكريمةُ بحرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾، "وهي مفيدةٌ لمعنى الغاية، فهي حرف انتهاءٍ في المعنى، وحرف ابتداءٍ في اللَّفظ، أي: إنَّ ما بعدها جملةٌ مستأنَفة"(2)؛ وهي هنا غايةٌ لهذا الحشر المذكور، على معنى انتهاء مرحلة الحشر والوَزْع؛ لتبدأ بعد ذلك مرحلةٌ جديدة، وهي مرحلةُ الإشهادِ للحساب.

وجه التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾:

أحوالُ الآخرة واقعةٌ لا ريبَ فيها

عُبِّر بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ) في قول اللّٰه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾؛ لِما فيها من دلالةٍ على التَّحقُّق، بخلاف (إن) الَّتي تفيد التَّوقُّع، فإنَّ أمر مجيئهم إلى النّار مُحقَّقُ الوقوع، وكائنٌ لا محالة، وهذا من وظائف (إذا) الدَّلاليَّة.

بلاغةُ التَّوكيدِ بـ﴿مَا﴾:

شهادةُ أعضائهم يومَ القيامة حاصلٌ لا محالة

﴿مَا﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ حرفٌ مؤكِّدٌ، فلو أنَّه قيل: (حتّى إذا جاؤوها) بدون ﴿مَا﴾؛ لصحَّ المعنى دون أن يحصُلَ من التَّأكيد ما هو حاصلٌ مع وجودها، فقد أكَّدت "ترتُّبَ الجواب على الشَّرط"(3)، ولَما حصل تمامُ تصوير مَشهَدِ مفاجأتهم بشهادة أعضائهم وجوارحهم عليهم، فوجود ﴿مَا﴾ في الآية أضاف فائدةً زائدةً، وهي تأكيد حصول شهادة أعضائهم عند مجيئهم لا

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 5/ 10.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 266.

(3) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 283.

محالة؛ زيادةً على ما تفيده الظَّرفيَّةُ في ﴿إِذَا﴾ من حصول الشَّرط من غير تأخُّر[1].

وعلَّة وقوعِ هذا التَّأكيد إنكارُ المشركين أن تشهَدَ عليهم جوارحُهم بما فعلوا[2]، وقد يكون الإنكارُ المذكور هو إنكارهم صدورَ المعاصي عنهم، فيكون في الكلام حذفٌ، والتَّقدير: (حتّى إذا ما جاؤوها، سُئلوا عن معاصيهم، فأنكروا، فشهد عليهم بعد ختمِ أفواههم سمْعُهم وأبصارُهم وجلودُهم)[3]، وأمّا في حال عدم وجودِ علَّةٍ للتَّأكيد؛ فإنَّه يُستغنى عن إقحام (ما)، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: 71]، فلا مجالَ هنا لإنكارِ ما رأتْهُ أعيُنُهم، ولا حاجةَ إذًا إلى التَّأكيد بـ(ما).

سرُّ إيثارِ فعلِ المجيء:

شِـدَّةُ مجيئهم النّـارَ جاؤوها سَوقًا لا شَوقًا

عُبِّر بالمجيء في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ دون الإتيان؛ لأنَّه أخصُّ من المجيء، فهو يدلُّ على مجيءٍ بسهولة[4]؛ ولذلك لم يُعَبَّر بالإتيان في موطنٍ آخَرَ ذُكِرَ فيه السَّوق، وهو قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: 71]، ثمَّ إنَّ الإتيانَ قد يُقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصولُ، وأمّا المجيءُ؛ فلا يُقال إلّا اعتبارًا بالحصول[5]، ومجيئُهم حاصلٌ متحقِّقٌ لا مناص منه.

(1) قال أبو حيان: "ولا أدري أنَّ معنى زيادة: (ما) بعد: (إذا) التَّوكيدُ فيها، ولو كان التَّركيب بغير: (ما)، كان بلا شكّ حصول الشَّرط من غير تأخُّر، لأنَّ أداة الشَّرط ظرف، فالشَّهادة واقعة فيه لا محالة"، يُنظر: أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 298، وقد أجاب الشّهاب بأنَّ هذا ممّا لا تعلُّق له بالنَّحو حتّى يضرَّ فيه أنَّ النُّحاة لم يذكروه، كما شنع به أبو حيان، يُنظر: الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 395، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 367.

(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 395.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 147.

(4) الراغب، المفردات: (أتى).

(5) الراغب، المفردات: (جاء).

هَولُ المَشهَدِ عند مجيئهمُ النّارَ

دلالةُ فعلِ الشَّهادة الماضي:

جملةُ: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ يحتمل أن تكونَ جوابَ قولِ اللّه تعالى: ﴿إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾، فتكونَ جملةَ جوابِ شرطٍ غيرِ جازم[1]، ويحتمل أن يكونَ في الجملة إيجازُ حذفٍ، والأصل: (إذا ما جاؤوها؛ سُئلوا عن معاصيهم، فأنكروا، فشهد عليهم بعد ختم أفواهِهم سمْعُهم وأبصارهم وجلودُهم)، ثمَّ اكتُفيَ عنه بذكر الشَّهادة؛ لاستلزامها ما ذُكر[2]، أو جوابُ ﴿إِذَا﴾ محذوفٌ للتَّهويل - وحذفُ مثلِه كثيرٌ في القرآن - وجملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، نشأ عن مفاد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ من الغاية؛ لأنَّ السّائل يتطلَّب ماذا حصل بين حَشرِهم إلى النّار وبين حضورِهم عند النّار، فأُجيب بأنَّه ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾[3].

مِنَ الإنذارِ التَّرهيبُ بقوَّة المراقبة

وَجهُ التَّعبير بالقَيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

عُبِّر بـ(على) المفيدة للاستعلاء في قول اللّه تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أعمالَهم مُحصاةٌ عليهم ومعدودةٌ بكلِّ دِقَّة مِن قِبَلِ الملائكة المكلَّفين بذلك، واللّهُ رقيبٌ عليهم، وكفى به سبحانه رقيبًا، فكيف إذا أُضيف إليه أن تَنطِقَ الجوارحُ الَّتي كانت آلةَ هذه الأفعالِ بما فعلت، وشهادتُها لا تُرَدُّ؟ فهل يستطيعون التَّهرُّبَ ممّا فعلوا، أو إنكارَه بعد هذه الشَّهادة، ومِن قَبلِها الإحصاء عليهم؟.

تشهدُ عليهم أسماعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بجميعِ أعمالهم

دلالةُ اصطفاءِ بعضِ الجوارح:

ذُكر في قول اللّه تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ ثلاثةٌ من أنواعِ الحواسِّ الخمسة، الَّتي هي السَّمع والبصر والشَّمُّ والذَّوق واللَّمس، وعلَّة اختصاص هذه الثَّلاثة بالذِّكر دون بقيَّة

(1) الخطيب وآخران، التفصيل: 24/ 383.
(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 395، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 298.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 266.

الخمسة: أنَّ الذَّوق داخِلٌ في اللَّمس من بعضِ الوجوه؛ لأنَّ إدراكَ الذَّوقِ إنَّما يتأتّى بأن تصيرَ جِلدَةُ اللِّسان والحَنَك مماسَّةً لجِرم الطَّعام، فكان داخلًا فيه، وبقي حِسُّ الشَّمِّ، وهو حسٌّ ضعيف في الإنسان، وليس للّه فيه تكليفٌ، ولا أمر ولا نهي[1]، فاقتُصِر على هذه الَّتي جاء فيها التَّكليف[2].

سِرُّ إضافةِ الحواسِّ إليهم:

يكفي في الشَّهادةِ على المَرءِ شهادةُ أعضائِه الخاصَّة به

أُضيف السَّمعُ والبصرُ والجلودُ إلى ضميرِ أهل النّار في قول اللّه تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾؛ لتقوى الحجَّةُ عليهم؛ إذ يكون الاحتجاجُ عليهم بما هو منهم وفيهم، فكلٌّ من هذه الثَّلاثِ المذكورة إنَّما هي خاصَّةٌ بهم لا بغيرهم، وهي الَّتي قامت بفعل ما سُجِّل عليهم.

نكتةُ إفرادِ السَّمع:

العادةُ في القرآن إفرادُ السَّمع على إرادة المصدر، فالمصادِرُ غالبًا لا تُجمَع

أُفرِد السَّمعُ دون الأبصارِ والجلودِ في قول اللّه تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾؛ لأنَّ السَّمعَ مصدرٌ، والمصادرُ لا تُجمع، وأمّا البصر والجلد؛ فهما اسمان، فجُمِعا، كما أنَّ (فَعْل) - ساكنَ العَينِ صحيحَها - لا يُجمَع على (أفعال) غالبًا، وليس له جمعُ تكسير، فاكتُفِيَ بدلالة الجنس على الجمع[3].

وسِرُّ اختيار السَّمعِ مصدرًا دون الآخَرين أنَّ السَّمعَ قوَّةٌ واحدة، ولها محلٌّ واحد، وهو الأذن، ولا اختيار لها فيه، فإنَّ الصَّوت مِن أيِّ جانب كان يصل إليه، ولا قدرةَ للأذن على تخصيص السَّمع بإدراك البعض دونَ البعض، وأمّا الإبصار؛ فَمحلُّه العين، ولها فيه اختيار، فإنَّها تتحرَّك إلى جانب المَرئيِّ دون غيره[4]، وأُفرِد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 7/ 556.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 298.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 358.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 15/ 479.

السَّمعُ أيضًا لتقارُب النّاس فيه، وجُمعت الأبصارُ والجلودُ لِعَظَمِ التَّفاوُتِ فيها[1].

وهي عادةٌ قرآنيَّة، فحيثُما ذُكِر السَّمعُ؛ ذُكِرَ غالبًا غيرُه من الأبصار والقلوب والأفئدة والجلود، وخولِف بينها جمعًا وإفرادًا، فإنَّ الإفراد يكون للسَّمع دون غيره، وهو لم يَرِد في القرآن إلّا مُفرَدًا.

معنى الجُلود:

تشهدُ عليهم يومَ الحساب جميعُ جوارِحِهم بما كتمَتْه ألسنتُهم

نُقِل عن بعضِ السَّلف أنَّ المقصودَ بالجلود في قول اللّه تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ هي الفروج[2]، أي: على سبيل الكناية، فهو على هذا كنايةٌ عن موصوف، كُنِّيَ عن الفروج بالجلود، والأظهرُ أنَّ المرادَ بلفظ الجلود حقيقتُها[3]، فالجلود هي عمومُ الجوارح، والعطف من عطف العامِّ على الخاصِّ، وليس في الكلام كناية[4].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بـ(ما):

تَشهَدُ جوارحُ أعداءِ اللهِ بجميع أعمالِهم السَّيِّئة

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ هي الموصولة، والتَّعبير بـ(ما) الموصولة يُؤثَر على التَّعبير بـ(الَّذي) عندما يُراد العمومُ وعدمُ التَّعيين، فالتَّعبير بـ(ما) أجمعُ للمعنى وأخصرُ من (الَّذي)، ويحتمل أن تكون (ما) هنا هي المصدريَّة المؤوَّلة مع ما بعدها بمصدر، أي: (شَهِدَ عَلَيهِم سَمعُهُم وأبصارُهُم وجُلودُهُم بعَمَلِهم).

دلالةُ الفِعل ﴿كَانُواْ﴾:

اعتادوا العملَ السَّيِّئَ حتّى صار طَبعًا لهم

أُقحِم فِعلُ الكَونِ الماضي المُسنَدُ إلى ضمير جمعهم في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أعداءَ اللّهِ كانوا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 169.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 49.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 267، واعتراضه على جعل الجلود كناية عن الفروج شديد، قال: ومن غريب التفسير قول من زعموا أنَّ الجلود أريد بها الفروج، ونسب هذا للسدي والفراء، وهو تعنُّت في محمل الآية لا داعي إليه بحال.

(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 549.

مطبوعين على ما أوجَبَ لهم النّارَ من الأعمال السَّيِّئة[1]، وفي إسناد الفعلِ إلى ضمير الجمع إشعارٌ بأنَّهم جميعًا كانوا كذلك على طَبعٍ واحدٍ من الكفر وفعل المعاصي.

سرُّ إيثارِ الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حِرْصُهم على فعلِ المعاصي وتكريرها وتجديد النَّشاط لارتكابها

أوثِر التَّعبيرُ بفِعلِ العملِ مضارعًا في قول اللّه سبحانه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على حرصهم على المداومة على المعاصي وتنوُّعِها وتجدُّدِ النَّشاط في سبيل إحداثها وإيقاعها، كما أنَّ اختيارَ التَّعبيرِ بالعمل دون غيره - كالفعل ونحوه - مرجعُه إلى أنَّ العمل هو ما يكون عن قصدٍ وإدراك، بخلاف الفعل، فقد يكون بغير قصد؛ ولذلك فإنَّ ما يُنسَب إلى الحيوانات هو فعلٌ، وليس عملًا[2]، ولا شكَّ أنَّ ما وقع منهم من الكفر والمعاصي هو مقصودٌ لهم.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العمل والفعل والكسب:

العـمـل هو مـا يكون عن قصد وإدراك، ويُستَعمَل في المَنفعةِ والمَضَرَّة

العمل هو ما يكون عن قصد وإدراك، بخلاف الفعل، فقد يكون بغير قصد، ولذلك فإنَّ ما يُنسب إلى الحيوانات هو فعلٌ، وليس عملًا[3]. والفعل أيضًا يُطلَق على ما يمرُّ سريعًا، وينقضي، ولا يكون له أثرٌ، أمّا العمل؛ فيُقال لِما يكون له أثر[4]، كالعَمَلِ باليد من زراعة وتلقيح وسقي[5].

وقد لوحِظ في استعمال القرآن الكريم أنَّه إذا كان المقامُ مقامَ تعبيرٍ عن ممارسةِ دنيءِ الأخلاق؛ فإنَّه يُؤْثَر التَّعبيرُ بلفظ الفعل، كما هو الشَّأنُ في آيةِ سورةِ هود: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 169.
(2) الراغب، المفردات: (عمل - فعل).
(3) الراغب، المفردات: (عمل - فعل).
(4) أبو حيان التوحيدي، المقايسات، ص: 280، والراغب، المفردات: (عمل).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عمل).

[هود: 87]، فالفِعلةُ المرادةُ هي بَخْسُ النّاسِ أشياءَهم، والنَّقصُ في الكَيلِ والميزان، وهي من أحطِّ الخصال، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ [الأعراف: 28].

أمّا الكَسْبُ؛ فهو ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفع، وتحصيلُ حظٍّ، كَكَسْبِ المال، وقد يُستَعمَل فيما يَظنُّ الإنسانُ أنَّه يجلب منفعة، ثمَّ استجلب به مضرَّة[1]، ولأنَّ الأصلَ في الكسب إنَّما يُنظَر فيه إلى الرِّبح في الأموال والتِّجارة، فإنَّه إذا استُعمِل خارجَ هذا المعنى - أي: تعبيرًا عن مُطلَقِ العمل - فإنَّه يكون استعمالًا مجازيًّا؛ تشبيهًا للعمل بالكسب، وكذلك لمّا كان الأصلُ فيه الرِّبحَ لا الخسارةَ؛ كان استعمالُه في الخسارة استعمالًا مجازيًّا، كما في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، فقد استُعمِل الكَسبُ تعبيرًا عن حُسنِ العمل مجازًا، واستُعمِل للاكتساب تعبيرًا عن سوء العمل مجازًا أيضًا.

وأوثِر التَّعبيرُ بالعمل في قول الله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لِما فيه من دلالةٍ على القصد، فهو أخصُّ من الفِعل، وهو أيضًا أدقُّ من استعمال الكَسب؛ لأنَّه تعبيرٌ بالحقيقة لا المجازِ.

(1) الراغب، المفردات: (كسب).

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ [فصّلت: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد الإخبارِ عن شهادةِ الجوارحِ إخبارٌ عن لومِ أصحابها لها

لمّا أخْبَرَ بِهَذا الَّذي يُفَتِّتُ الحِجارَةَ، وهو شهادةُ جوارحِ المشركين عليهم؛ أخْبَرَ أنَّهُم لاموا جوارحَهم على أداءِ الشَّهادةِ التي تُلْزِمهمُ الحُجَّة، وسألوا جلودَهم عن سببِ شهادتها عليهم، فقالوا لهم على جهةِ اللَّومِ والمؤاخذة والتَّوبيخ والتَّعجُّب: ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِجُلُودِهِمۡ﴾: (جلد) أصلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ وصلابةٍ، فالجِلْدُ مَعروفٌ، وهو ظاهرُ البَشَرة، فهوَ أقوَى وأصلَبُ مِمّا تحتَهُ مِنَ اللَّحم، والجِلْدُ: قِشرُ البَدَنِ[2]، أي: قِشْرةٌ رقيقةٌ تُغَطّي جسمَ الإنسانِ والحيوان، وهي حمايةٌ له من عادياتِ الطَّبيعة، وبها مراكزُ الحِسِّ[3]، وقد يُكنّى بها عن الأيدي والألسنِ والأرجل[4]، والمرادُ بالجلودِ هنا: إمّا الجلودُ المعروفة، أي: بَشَراتهم، أو المراد: الجوارحُ تشهدُ على أهلها، وقيل: هو كنايةٌ عن الفروج[5].

2) ﴿شَهِدتُّمۡ﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[6]، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ؛ إذا حَضَرَهُ، وعايَنَهُ، وتُطلَقُ بِمعنى الإخبارِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 298، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 169، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 329.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير: (جلد).

(3) عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (جلد).

(4) السمين، عمدة الحفّاظ: (جلد).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 452، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 130، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 170، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 342.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).

والإعلام، يُقالُ: شَهِدَ بالأمرِ؛ إذا أَخْبَرَ بِهِ، وأَعْلَمَ غَيْرَهُ بِهِ[1]، فالشَّهادَةُ: إِخْبارٌ عن عِلْمٍ يَحْصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤْيَةِ ونَحوِ ذلك[2]، ومعنى ﴿شَهِدتُّمْ﴾ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: أخبرْتُم، وأَعْلَمتُم بما حصل.

3) ﴿أَنطَقَنَا﴾: أصلُ (نطق) كَلامٌ أو ما أَشْبَهَهُ، ونطَقَ الشَّخصُ بكذا: تكلَّمَ بصوتٍ وحروفٍ تُعرفُ بها المعاني[3]، والنُّطْقُ إنَّما يكونُ لَمن عبَّر عن مَعْنًى، فمَنْ فَهِمَ مِن شيءٍ؛ فهو ناطِقٌ بالنِّسبةِ إليه، وإنْ كان صامتًا بالنِّسبةِ إلى غيره، والنُّطْقُ في التَّعارُف: الأصواتُ المُقَطَّعةُ التي يُظْهِرُها اللِّسانُ وتَعيها الآذانُ، ولا يكادُ يُقالُ إلّا للإنسان، ولا يُقالُ لغيره إلّا على سبيلِ التَّبع[4]، ومعنى ﴿أَنطَقَنَا﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: جعلنا اللّهُ نتكلَّمُ بالصَّوتِ المسموعِ المفهومِ[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

حــــوارٌ بين أصحابِ النّار وجلودِهم يومَ القيامة حين شَهِدوا عليهم

قالَ هؤلاء الذين يُحشرون إلى النّارِ من أعداءِ اللّهِ سبحانه عِتابًا لجُلودِهم، وإنكارًا عليهم حينَ شَهِدَتْ عليهم شَهادةَ تَكذيبٍ وافتِضاحٍ: لم شَهِدْتُم علينا بما كُنّا نَعمَلُهُ مِنَ السَّيِّئاتِ في الدُّنيا؟ فأجابتهم جلودُهم اعتذارًا لهم: أنطَقَنا اللّهُ الَّذي أنطقَ كُلَّ شيءٍ حيٍّ بقُدرتِه، وهو خَلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ، وإليه تُرجَعونَ بعدَ مَوتِكم إلى ما ينتظركم من العذاب[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ عدمِ فَصْلِ الآيَةِ عمّا قبلَها، ودلالَةُ العَطْفِ فيها:

حوارُ أهلِ النّار مع جلودِهم تكملةٌ لِما جرى بعد شهادتِهم عليهم

لم تُفصَلْ آيةُ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ﴾ عمّا قبلَها على الاستئنافِ

(1) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (شهد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 152.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نطق).
(4) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (نطق).
(5) السمين، عمدة الحفّاظ: (نطق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 452، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 268.

البيانيِّ، فتُنزَّلُ منزلةَ جوابٍ عن سؤالٍ نشأ عمّا قبلها، يكون تقديرُهُ: ماذا قالوا لجلودهم بعد أنْ شهدَتْ عليهم؟ لأنَّ إثارةَ هذا السُّؤال من سماعِ الجملةِ الأولى غيرُ متوقَّع؛ لأنَّ السَّمعَ والبصرَ والجُلود لم يَعْتَدِ النّاسُ مخاطبتَها، فكيف تتصوَّرُ النَّفسُ هذا السُّؤال الغريبَ؛ غرابةَ نُطقِ الجلودِ نفسِها، ولذلك عُطفتِ الجملةُ، ولم تُفصَلْ[1]، فأتى بالعطفِ تكملةً لِما سيحدثُ يومَ القيامةِ بين أهلِ النّار وجوارحهم الَّتي تشهدُ عليهم، ممّا يُخبرُ اللّهُ تعالى به تحذيرًا وتهديدًا واتِّعاظًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَقَالُواْ﴾:

لَمّا كانتِ القيامةُ واجبةَ الوقوعِ؛ جعلَ اللّهُ أحداثَها المستقبليَّةَ كالماضي

أتى التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ﴾، مع أنَّ هذا القولَ من أهلِ النّار لجلودهم سيكونُ يومَ القيامة، أي: لم يقعْ بعد، وإنَّما سيكونُ مستقبلًا؛ وذلك حكايةً لِما سيكون، وتنبيهًا على تحقيقِ وقوعِ هذا القولِ وتقرُّرِه منهم، حتّى كأنَّهم قد قالوه بالفعل، إذِ القيامةُ لَمّا كانَتْ واجبةَ الوقوعِ؛ جعلَ اللّهُ مستقبلَها كالماضي.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُسنَدِ إليه في ﴿وَقَالُواْ﴾ والمراد به:

صدورُ القولِ عن مجموعِ أهلِ النّارِ دلالةٌ على كثرتِهم واستنكارِهم جميعًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ تعودُ إلى الكفّارِ الذين يُحشرون إلى النّارِ من أعداءِ اللّه[2]، الواردِ ذِكْرُهم في الآياتِ السّابقة في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾ [فصّلت: 19]؛ ولهذا جاءَ التَّعبيرُ بالفاعلِ واو جماعة؛ إذِ الآياتُ تتحدَّثُ عن جماعةِ أصحابِ النّار، وعن محاورتهم مع جوارحِهم وجلودِهم حين تشهدُ عليهم يومَ القيامة بما كانوا يعملون، وفي التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ دلالةٌ على كثرتهم، وعلى أنَّ القولَ والسُّؤالَ صدرَ من مجموعهم، وفي هذا الاستنكارِ والحوارِ من المجموعِ أثرٌ في زيادةِ تفعيلِ الصّورةِ، وإظهارِها بما تحملُ من تأثيرٍ على النَّفس قد بلغَ غايتَهُ.

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 11.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 452.

فـي بيـانِ أنَّ شهادةَ الجُلودِ تـكـونُ عـلى أصحابِها تحذيرٌ من مثلِ حالهم

الغرضُ مِن الإضافة في ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾:

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الجلودَ إلى ضميرِ أهلِ النّار (هم) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ﴾؛ لبيانِ أنَّ مَن يشهدُ عليهم هم جلودُهم الخاصَّة بهم، وليستْ أيَّ جلودٍ أُخرى، فهذه الجلودُ تشهدُ على أصحابها عند استشهادِ اللّهِ إيّاها؛ إذا هم أنكروا الأفعالَ التي فعلوها في الدُّنيا بما يُسخِطُ اللّهَ، وفي هذه الإضافةِ تحذيرٌ من مثلِ حالهم، وما نزلَ بهم من الفضيحةِ بشهادةِ جوارحهم عليهم بما كان من فواحشهم، ولم يكنْ عندَهم في ذلك أكثرُ من هذا القولِ الذي لا ينفعهم.

الجُـلـودُ بمرأى مـن أصحابها، وعـذابُـها أعـمُّ، وشـهـادتُـهـا أعظمُ وأعجبُ

بلاغةُ الكناية في جلودهم، وسِرُّ تخصيصها بالعتاب:

الجلودُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ﴾ كنايةٌ عن مَوصوفٍ - على القولِ بأنَّ المرادَ بالجُلودِ الفُروجُ خاصَّةً - فقد كَنَّى عنِ الفُروجِ بالجلُودِ، وهذا أنسَبُ بتَخصيصِ السُّؤالِ بها في الآية، فإنَّ ما تَشهَدُ به مِنَ الزِّنى أعظَمُ جِنايةً وقُبحًا، وأجلَبُ للخِزْيِ والعُقوبةِ مِمّا يَشهَدُ به السَّمعُ والأبصارُ مِنَ الجِناياتِ المُكتَسَبةِ بتَوسُّطِهما[1]، وعلى القولِ بأنَّه أرادَ بالجُلودِ الجَوارِحَ عامَّةً، فقد قالوا ذلك لِجُلودِهم دونَ أنْ يَقولوهُ لِسَمْعِهم وأبصارِهم؛ لأنَّ الجُلودَ مواجِهةٌ لهم يَتَوَجَّهونَ إليها بالمَلامة[2]، فهي بمرأى منهم بخِلافِ السَّمعِ والبصرِ، فوجَّهوا العتابَ لجلودهم الَّتي يرونها ممثَّلةً لبقيَّةِ الأعضاء، أو لأنَّ الجلودَ أعجبُ؛ إذ ليس من شأنها الإدراكُ بخِلافِ السَّمعِ والأبصار، أو أنَّه من بابِ الاكتفاء[3]، أو لأنَّ عَذابَ الجِلْدِ عامٌّ يَشملُ الجَسَدَ كلَّه، لكِنَّ عَذابَ السَّمْعِ والبَصَرِ خاصٌّ بالسَّمْعِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 195، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 298، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 10،9، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 549.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 267.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 148.

والبَصَرِ، أو لأنَّها هي مُدْرِكةٌ للعذابِ بالقوَّة المودعةِ فيها، كما يُشعِرُ به قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾ [النّساء: 56][1]، فالجُلودُ هي التي تَشْعُرُ بالعذابِ، وتُحِسُّ به، وتتألَّم، فهي محلُّ إذاقةِ العذاب، فكان السُّؤالُ منطقيًّا للجُلودِ، فكأنَّما يقولون: فهمنا السَّمعَ والبَصرَ، لكنْ أنتِ يا جلودُ لِمَ شَهدتِ علينا؟ وعذابُنا عذابٌ لكم، ألم تفكّري في نفسك؟.

الغرضُ من التَّعبير بالاستفهام ﴿لِمَ﴾:

سـؤالُ توبيخٍ وإنـكـارٍ من أصحابِ النّار لجلودهم؛ لشهادتهم عليهم

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ مُستعمَلٌ في المَلامةِ والتَّوبيخِ والتَّعَجُّبِ من هذا الأمْرِ، وهم يَحسَبونَ أنَّ جُلودَهم - لِكَونِها جُزءًا منهم - لا يَحِقُّ لها شَهادَتُها عليهم؛ لأنَّها تَجُرُّ العَذابَ إليها، فاستفهامُهم عن العِلّةِ جاءَ هنا في معرضِ التَّوبيخ[2]، أو لأنَّ التَّعجُّبَ يكونُ فيما لا يُعلَمُ سَببُه وعِلّتُه؛ فالسُّؤالُ عن العِلّةِ المُستلزم لعدَمِ مَعرفتِها، جُعِلَ كِنايةً عن التَّعجُّبِ، فقد قيل: إذا ظهَرَ السَّببُ؛ بطَلَ العجَبُ، فكأنَّه قيل: ليْس نُطقُنا بعَجَبٍ مِن قُدرةِ اللّهِ تعالى الذي أنْطَقَ كلَّ شَيءٍ[3]، وهو استفهامُ إنكارٍ كذلك؛ لأنَّه سؤالٌ عن السَّببِ، والسُّؤالُ عن الشَّيءِ يقتضي عدمَ مشاهدتِه، وعدمُ مشاهدتِه تقتضي عدمَ وجودِه، فكَنّوا بعدمِ وجودِ السَّببِ عن إنكارِ المسبَّبِ، وهو الشَّهادةُ عليهم، وهذا من الكناياتِ اللَّطيفة، والإنكار فيها للواقع[4].

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿شَهِدتُّمۡ﴾:

شـهـادةُ جلودِ أهلِ النّارِ على أصحابها يومَ القيامةِ واقعٌ متحقّقٌ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾، مع أنَّ شهادةَ جلودِهم عليهم ستكونُ يومَ القيامة، أي: لم

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة فصّلت، ص: 231.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 195، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 299، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 267، 268، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 547.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 368.
(4) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 11.

تقعْ بعدُ، وستكونُ في المستقبل؛ وذلك للتَّنبيه على تحقيقِ وقوعِ هذه الشَّهادةِ وتقرُّرِها من جلودِهم، حتّى كأنَّها وقعَتْ، وانقضَتْ؛ إذِ القيامةُ لَمّا كانَتْ واجبةَ الوقوعِ؛ جعلَ اللّهُ مستقبلَها كالماضي، وهذا فيه من التَّهديدِ والوعيدِ والتَّخويف ما فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بضمير المخاطَب ﴿شَهِدتُّمْ﴾:

في توجيهِ الخطابِ للجُلودِ تصويرٌ لحوارٍ دائرٍ بين عقلاء

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن قولِ أصحابِ النّار لجلودهم وسؤالهم لهم بضميرِ المخاطَب، وكأنَّهم بمنزلةِ العاقلِ الَّذي يعقلُ ما يوجَّهُ له مِن خطاب، فوجَّهوا سؤالَهم لهم مباشرةً بقولهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؛ ليُصوِّرَ لنا الحالةَ والمحاورةَ التي دارَتْ بين أهلِ النّارِ وجلودِهم بعد أنْ شهِدوا عليهم بما كانوا يعملون.

معنى (على) ودلالتُها في ﴿عَلَيْنَا﴾:

جلودُ أهلِ النّار تشهدُ ضدَّهم يومَ القيامة

(على) في قوله تعالى: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ حرفُ جرٍّ، وقد استُعمِلَتْ هنا فيما فيه مضرَّةٌ؛ لأنَّها جاءَتْ مع الفعل ﴿شَهِدتُّمْ﴾، ففعلُ (شهد) إذا عُدّيَ بـ(على)؛ يُستعملُ فيما فيه مَضرَّة، وإذا عُدّي باللّام (شهد له)؛ يُستعملُ فيما فيه منفعةٌ، وقد دلَّ هنا قوله: ﴿شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أنَّ جلودَ أهلِ النّار شهدَتْ ضدَّهم، أي: شهدَتْ بما يُثْبِتُ وجوبَ العذابِ عليهم في النّار.

دلالةُ التَّعبير بالضَّمير (نا):

حـوارٌ بين جماعةِ المُعذَّبين وجلودهم يومَ القيامة يحملُ تحذيرًا وتخويفًا

التَّعبيرُ بالضَّمير (نا) - وهو ضميرُ جمعُ المتكلِّمين - في قوله تعالى: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؛ لأنَّ المتكلِّمين جماعةٌ، وهم أصحابُ النّار، يُخاطِبون جلودَهم مباشرةً، يسألونهم مستنكرين: لم شهِدْتُم علينا، فالحوارُ دائرٌ بين جماعةِ المُعذَّبين وجلودِهم يومَ القيامة، فالجُلودُ تشهدُ على أصحابها بما يُثْبِتُ استحقاقَهم للعذاب، وفي هذا مِن التَّحذيرِ والتَّخويف ما فيه.

موقعُ جملة ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا﴾ ممّا قبلها، ودلالتُها:

جوابُ الجُلودِ عن السُّؤالِ الموجَّه لها من أصحابها

فُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلها؛ إمّا لأنَّها جوابُ السُّؤالِ المذكور، أي: بين الجملتَين كمالُ اتِّصال، أي: لَمّا سألوا جلودَهم سؤالَ توبيخٍ وتعجُّبٍ من شهادتهم عليهم، جاءَ قولُ الجلود: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ جوابًا لهم، واعتذارًا عمّا صدرَ منهم، وإمّا لأنَّها جوابٌ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ عن الأولى، حاصلُه: ماذا قالَتْ لهم جلودُهم؟ أي: بينهما شِبهُ كمالِ اتِّصال، والأوَّلُ أرجحُ؛ لأنَّ ما لا يحتاجُ إلى تقديرٍ أولى ممّا يحتاجُ إلى تقدير، وهذه قاعدةٌ مطَّردة[(1)].

دلالةُ التَّعبير بضمائر الجمع في خطابِ الجُلود وفي جوابهم:

لَمّا شهدتِ الجُلودُ على أصحابها نُزِّلَتْ منزلةَ العقلاء

إجراءُ الضَّمائرِ في قوله: ﴿لِجُلُودِهِمۡ﴾، و﴿شَهِدتُّمۡ﴾، و﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا﴾، بصيغَةِ ضَميرِ جَمعِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ شهادةَ الجُلودِ على أصحابها، والتَّحاوُرَ معها صَيَّرَها بحالةِ العُقَلاءِ يَومَئِذٍ، أي: فعلتْ فِعلَ العقلاء - وهو الشَّهادة - فخاطبوها مخاطبتَهم[(2)]، ولوُقوعِها في مَوقِعِ السُّؤالِ والجَوابِ المُختَصَّيْنِ بالعُقَلاءِ[(3)].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَنطَقَنَا﴾:

وقوعُ النُّطقِ من الجُلودِ يومَ القيامة أمرٌ متحقَّقٌ لا مجالَ للشَّكِّ فيه

أتى التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿أَنطَقَنَا﴾ توافقًا مع صيغِ الأفعالِ في الآية ﴿وَقَالُواْ﴾، ﴿شَهِدتُّمۡ﴾، ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ ولأنَّ الكلامَ جاءَ على صورةِ حكايةٍ عن محاورةٍ بين أهلِ النّارِ وجلودِهم يومَ القيامة، وإنْ كانَتْ هذه المحاورةُ لم تقعْ بعدُ، فهي في المستقبل، إلّا أنَّه عبَّرَ بالماضي؛ لإفادةِ تحقُّقِ وقوعِ تلكَ الأفعالِ يومَ القيامة، وكأنَّها وقعَتْ، وانقضَتْ، فلا مجالَ للشَّكِّ فيها.

---

(1) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1691، والمطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 11.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 170.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 299، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 267، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 547.

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيم في تلقّي المخاطَب بغير ما يترقَّبه:

جـوابُ الجلـودِ يُـنـبـئُ عـن حـكـمـتـهـا في الإجابةِ، وسؤالُ أصحابِها يُنبئُ عن غبائهم

يتمثَّلُ الأسلوبُ الحكيمُ في الآيةِ في إجابةِ الجُلودِ للمُعذَّبين في قولهم: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ إذ عدلوا عن الجوابِ عمّا يقتضيه الظّاهرُ؛ لأنَّهم سألوا عن السَّببِ الَّذي جعل الجلود تشهد، وكان الظّاهرُ أنْ يُقالَ في الجواب: إنَّ اللّهَ أمرنا أنْ نشهدَ عليكم، فعدلَ عن هذا الجوابِ إلى ما عليه النَّظمُ، وهو قولُه: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾، وهو جوابٌ لسؤالٍ آخرَ حاصلُه: كيف صدرَ منكم النَّطقُ، والجُلودُ ليسَتْ أهلًا للنُّطق؟ وسرُّ العدولِ إلى خِلافِ مقتضى الظّاهر أعمُّ فائدةً مِن المعدولِ عنه؛ لأنَّه أفادَ أمرين: أنَّ اللّهَ أقدرهم على النُّطق، وأنَّه سبحانه الآمرُ لهم بالشَّهادة، فأُدْمِجَتِ الإجابةُ الثّانية - وهي المسؤولُ عنها - في الأولى، وهي المُجابُ بها، وسرُّ ذلك أنَّ أهوالَ القيامةِ غيرُ المعهودة جعلتهم مسلِّمين بأنَّ الجُلودَ تنطق؛ لذلك لم يُنكروا بأنَّها كيف نطقَتْ، بل لأيِّ سببٍ من الأسبابِ نطقَتْ بالشَّهادةِ ضِدَّهم[1]، فكان الجوابُ: إنَّنا ما نطقنا باختيارنا، فلا نستحِقُّ التَّوبيخَ؛ إذِ التَّوبيخُ على ما فُعِلَ باختيار، هذا بناءً على أنَّ السُّؤالَ للتَّوبيخ[2]، وقيل: لا قصدَ هنا للسُّؤال أصلًا، وإنَّما القَصدُ إلى التَّعجُّبِ ابتداءً؛ لأنَّ التَّعجُّبَ يكونُ فيما لا يُعلَمُ سببُهُ وعِلَّتُه، فكأنَّه قيل: ليس نطقُنا بعَجَبٍ من قدرةِ اللّه تعالى الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ[3].

الغرضُ مِن تقديم المفعولِ بهِ على الفاعل ﴿ٱللَّهُ﴾:

إنـطـاقُ الجُلـودِ مـحـلُّ اهـتـمـامٍ وتشويقٌ للقادرِ سبـحـانه الَّـذي أنطقهم

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ المفعولَ به - الضَّميرَ (نا) - في ﴿أَنطَقَنَا﴾ على الفاعلِ، وهو ﴿ٱللَّهُ﴾؛ اهتمامًا بالمُقدَّم، وهو إنطاقُ الجُلودِ التي لم يَسبِقْ لها أن نَطقَتْ في الدُّنيا، وهو أمرٌ عجيب، وكذلك للتَّشويق للفاعل، وهو ﴿ٱللَّهُ﴾ الَّذي أنطقهم،

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 11 - 12.

(2) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على البيضاويِّ: 17/ 148.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 368.

ممّا يدلُّ على قدرةِ اللّهِ تعالى على كلِّ شيءٍ، فلا عجبَ حينَئذٍ من شهادتها، وهذا التَّقديمُ يتناسبُ مع عُدولِ الجُلودِ عن الإجابةِ عن سؤالِ أصحابها ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ إلى الإجابةِ بالأهمِّ، وهو أنَّهم نطقوا بقدرةِ اللّه.

سرُّ التَّعبيرِ بالفاعل بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

اللهُ الجامعُ لكلِّ صفاتِ الأُلوهيَّة قادرٌ على إنطاقِ الجلود

في التَّعبيرِ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ - الجامعِ لصفاتِ الكمالِ والجلالِ والقدرةِ، في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ - تربيةٌ للمهابةِ في النُّفوسِ، فهو سبحانه المُتفرِّدُ بالأُلوهيَّةِ والقُدرةِ، فاللّهُ تعالى الذي لا يُخالَفُ، ولا يُمانَعُ، له مجامِعُ العِزِّ على وجهٍ لم نَقدِرْ على التَّخلُّفِ عنه، أنطقنا قهرًا[1].

سرُّ وصفِ الاسم الجليل بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾:

في توكيدِ قدرةِ اللهِ تعالى وتقريرِها على الإنطاقِ تبكيتٌ للعُصاةِ وتعريضٌ بهم

في وصفِ الاسمِ الجليلِ بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾؛ لِما في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى التَّوكيدِ وزيادةِ التَّقرير لقدرةِ اللّهِ على إنطاقِ الجلود، وفي هذا تبكيتٌ للعُصاةِ وتعريضٌ بهم، بأنَّهم لم يقدروا اللّهَ حقَّ قَدْرِهِ في الدُّنيا، فلحِقَهم الخِزيُ في الآخرة، ولو كانوا قد عرفوا اللّهَ فيها لما أُهينوا في الآخرة، كما أنَّ الاسمَ الموصول يُشعرُ بعِلّيَّةِ تعظيمِ اللّهِ وقدرتِهِ في إنطاقِ كلِّ حيٍّ نطقَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَنطَقَ﴾:

إنطاقُ اللهِ لكلِّ حيٍّ في الدُّنيا أمرٌ واقعٌ مشاهَدٌ يدلُّ على قدرةِ اللهِ تعالى

التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿أَنطَقَ﴾؛ لإفادةِ تحقُّقِ وقوعِ إنطاقِ اللّهِ لكلِّ شيءٍ نطقَ، وهذا أمرٌ واقعٌ مشاهَدٌ للكفّارِ في الدُّنيا، يدلُّ على قُدرةِ اللّهِ تعالى، بما يُؤكِّدُ قدرتَه سبحانه على إنطاقِ الجلودِ يومَ القيامة، شاهدةً على أصحابها، وفي هذا تعريضٌ بالكافرين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 170.

لكفرهم وعدمِ إيمانهم باللّهِ القادرِ، الذي أنطقَ كلَّ شيء نَطقَ في الدُّنيا، وهم كانوا يرون هذا، ويشاهدونه.

سرُّ التَّقييد بالمفعول به ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾ مضافًا:

إنطاقُ كلِّ شيءٍ مخصوصٌ بما لهُ نُطْقٌ

أضافَ البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿كُلَّ﴾، الَّتي هي مِن أقوى صيغِ العموم إلى لفظة ﴿شَيۡءٖ﴾، التي أفادتِ العمومَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾، على أنَّ المَعنى: الَّذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ له نُطقٌ مِنَ الحَيَوانِ، واختِلافُ دلالةِ أصواتِها على وِجدانِها، فعُمومُ كلِّ شَيْءٍ مَخصوصٌ بالعُرفِ[1].

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ﴾:

القـادرُ على الخَلقِ أوَّلَ مـرَّةٍ قـادرٌ على الإنطاقِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملةُ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾، فكلتا الجُملتَين من تَمامِ ما أجابَ به جُلودَهم، أي: لَمّا كان حالُ الكفّارِ دائمًا دائرًا بين غباوةٍ وعِنادٍ؛ أقامتِ الجُلودُ لهم على ذلك دليلين شُهوديَّين[2]، وهما: إنطاقُ اللّهِ لكلِّ شيءٍ نطقَ في الدُّنيا، وخَلْقُ اللّهِ لهم أوَّلَ مرَّةٍ، فهاتان الجُملتان من الجُلودِ كانتا تَشهيرًا بخَطَئِهم في إنكارِهمُ البَعثَ والمَصيرَ إلى اللّهِ؛ تبكيتًا لهم لوقوعِ الحُجَّةِ عليهم فيما كفروا به من الإيمانِ بالإعادةِ بعد البداية؛ لِزيادةِ التَّنديمِ والتَّحسيرِ عليهم[3].

ويَجوزُ أن تَكونَ الواو اعتراضيَّةً، والجُملةُ وما بَعدَها اعتراضًا بين جُملة: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: 19]، وجُملة: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾، وهو كَلامٌ موَجَّهٌ من جانِبِ اللّهِ تعالى إلى المُشركِينَ الأحياءِ؛ لِتَذكيرِهم بالبَعثِ عَقِبَ ذِكرِ حالِهم في القيامةِ؛ انتِهازًا لِفُرصةِ المَوعِظةِ السّابِقةِ عِندَ تَأَثُّرِهم بسَماعِها،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 268.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 170.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 268.

وهو استِدلالٌ على إمكانِ البَعثِ[1]، "والمرادُ على كلِّ حالٍ تقريرُ ما قبلَهُ؛ بأنَّ القادرَ على الخَلقِ أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ على الإنطاق"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾:

في التَّوكيدِ إنزالٌ للعصاةِ مَنزلةَ المُنكِرِ للخَلقِ الأوَّل

في التَّعبير بالجملة الاسميَّة توكيدٌ وتقريرٌ، بعد توكيدٍ وتقريرٍ بإنزالِ العصاةِ منزلةَ المنكرِ لصفاتِ اللّهِ الحُسنى؛ لأنَّ جهلَهم وجهالتَهم ألهَتْهُم في الدُّنيا عن التَّفكيرِ في قدرةِ اللّهِ وآياته في الكون، حتّى لكَأنَّهم كانوا ينكرونَ أنَّ اللّهَ هو الَّذي خلقهم، وحالُهم في الآخرة تَشْهَدُ على ذلك، فلو كانوا تنبَّهوا بأنَّ اللّهَ خلقهم أوَّلَ مرَّةٍ؛ لاستدلّوا به على الخَلْقِ الثّاني والبعث.

نُكتَةُ التَّعبير بالماضي ﴿خَلَقَكُمۡ﴾:

خَلْقُ اللهِ للعُصاةِ أمرٌ مُتحقِّقٌ، والعِلْمُ القَطعيُّ به حاصِلٌ عندهم

لَمّا كان الخَلقُ شيئًا واحدًا منه سبحانه؛ عبَّر عنه بالماضي[3] في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، وفيه تنبيهٌ بأنَّ خلْقَ اللّهِ لكم - أيُّها العصاة - أمرٌ متحقِّقٌ واقعٌ، والعِلمُ القطعيُّ حاصلٌ عندكم بأنَّكم كنتُم عدمًا، ثمَّ نُطَفًا لا تقبلُ النُّطقَ في مجاري العادات بوجهٍ، ثمَّ طَوَّركم في أدوارِ الأطوارِ كذلك، إلى أنْ أوصلَكم إلى حيِّزِ الإدراكِ، فقسَركم على النُّطقِ بحيثُ لو أردْتُم سلبَهُ عن أنفسِكم ما قَدَرتُم[4]، وكذلك في التَّعبيرِ بالماضي توافقٌ مع الأفعالِ الَّتي جاءَتْ في الآيةِ بصيغة الماضي.

سرُّ التَّقييد بالمفعول به في ﴿خَلَقَكُمۡ﴾:

تقييدُ الخَلقِ بالمخاطَبين العصاةِ أبلغُ في تبكيتهم وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم

التَّعبيرُ بالمفعول به ضميرِ الخطاب (كـ) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ﴾، مع أنَّه سبحانه خلقهم، وخلقَ غيرَهم، فلم يقلْ: (وهو خلقَ كلَّ شيءٍ أوَّلَ مرَّةٍ)، كما في قوله تعالى قبلَهُ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 268.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 368.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 170.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 170.

شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ الحوارَ دائرٌ بين جماعةِ المُعذَّبين وجلودِهم، وجوابُ الجُلودِ موجَّهٌ للمُخاطَبين العُصاة، فالأنسبُ أن يوجَّهَ الخطابُ إليهم؛ ليكونَ أبلغَ في تبكيتهم وإقامةِ الحُجَّة عليهم، فعِلمُهم بأنَّ اللّهَ خلقهم أمرٌ قطعيٌّ، فكان مِن الأجدرِ بهم أنْ يوصلَهم عِلمُهم بأنَّ اللّهَ خلقهم أوَّلَ مَرَّةٍ إلى أنَّه سبحانه سيبعثُهم ليحاسبَهم.

سرُّ التَّقييدِ بالظَّرف ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، وسرُّ التَّعبيرِ به مضافًا:

تذكيرُهم بالخَلقِ الأوَّل تسفيهٌ لعقولهم المُنكِرة للخَلْق الثّاني

في التَّقييدِ بالظَّرفِ والتَّعبيرِ به مضافًا في قوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ كنايةٌ عن الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ مِن العصاةِ مَن كان يُنكرُ الخَلقَ الثّاني بعد الموت، وكانتِ الرُّسلُ تستدلُّ لهم بالخَلقِ الأوَّل على إمكانِ الخَلقِ الثّاني (البعث) عقلًا، فهم لا ينكرون أنَّ اللّهَ خلقَهم أوَّلَ مرَّةٍ، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزّخرف: 87]، فأوثرَ تذكيرُهم بما لم ينكروه مِن قبلُ، وعُدِلَ عن تذكيرِهم بالخَلقِ الثّاني؛ لأنَّه حقيقةٌ واقعةٌ[1]، فكان في تقييدِ خَلْقِهم بأوَّل مرَّةٍ وتذكيرِهم به توبيخٌ لهم وتسفيهٌ لعقولهم، فلو أعملوا عقولَهم؛ لاستدلّوا على أنَّ الَّذي خلقهم أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ على الخَلقِ الثّاني والبعث.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

مَن قَدَرَ على الخَلقِ أوَّلَ مرَّةٍ وعلى الرَّجعِ والإعادةِ قادرٌ على الإنطاق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليها جملة: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، والمرادُ تقريرٌ لِما قبله، بأنَّ مَن قَدَرَ عَلى خَلْقِكم وإنشائِكم أوَّلًا وعلى إعادَتِكم ورَجْعِكم إلى جَزائِهِ ثانيًا، لا يُتَعَجَّبُ مِن إنْطاقِهِ لِجَوارِحِكُم، فهذه الجُمْلَة كالتَّذييل لِما قبلها[2].

الغرضُ مِن تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل:

المرجعُ إلى اللهِ وحدَه لا إلى غيره

تَقديمُ الجارِّ والمجرور (إليه) على الفعل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ في قوله

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 12.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 10، والقونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 149.

تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، وذلك بتقديمِ ما حقُّهُ التَّأخيرُ، أي: ترجعونَ إليه وحدَهُ لا إلى غيره، إذ لو وردتِ الآيةُ من غير تقديم، وقيل: (وترجعون إليه)؛ لاحتملَ إيقاعُ المَرجع إلى غيرِ اللّه، وهذا مُحال، ويفيدُ كذلك الاهتمامَ ورِعايةَ الفاصِلة[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

استحضارُ حالةِ رجوعِهم إلى اللهِ، وإلى ما ينتظرُهم مِنَ العذاب

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ دون الماضي في قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فإذا كانَ الخِطابُ يومَ القيامةِ، وكان رجوعُهم بمعنى البعث؛ فإنَّه قد مضى بالنِّسبةِ لوقتِ إحضارهم عند جهنَّم، فالمراد بالرَّجْع ليس مجرَّدَ الرَّدِّ إلى الحَياةِ بالبعث، بلْ ما يَعمُّه وما يَترتَّبُ عليه مِن العذابِ الخالِدِ المُرتقَب عِندَ التَّخاطُب على تَغليبِ المتوقَّع على الواقِعِ، أي: الرُّجوعُ إلى ما ينتظرهم مِنَ العذاب، فالعذابُ مستقبَلٌ بالنِّسبةِ لمقالتهم، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعبيرُ بالمضارع لاستحضارِ حالتهم ولحكايةِ الحال، فإنَّهم ساعَتَئِذٍ في قَبضةِ تَصَرُّفِ اللّهِ مُباشَرة، مع ما في هذا التَّعبيرِ من مراعاةِ الفواصلِ[2]، وكذلك لما فيه مِن تذكيرهم بما كان يُقالُ لهم في الدُّنيا تبكيتًا لهم وتنديمًا[3]، وإذا كان الخطابُ في الدُّنيا ومن اللّه تذكيرًا لهم بالبعث؛ فإنَّ فعلَ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ مستعمَلٌ في الاستِقبالِ على أَصْلِه[4]، وكذلك إذا كان الرُّجوعُ تارةً بالحِسِّ وتارةً بالمعنى، وكان الذي بالمعنى كثيرَ التَّعدُّدِ بكثرةِ التَّجدُّد؛ جاء التَّعبيرُ بالمضارع[5].

نُكْتَةُ بناءِ الفعل للمفعولِ في قولِه: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

الرُّجوعُ إلى اللهِ بإرادته وحدَه سبحانه، والإنسانُ في غايةِ العجز

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المبني للمفعول دونَ المبني للفاعل في قوله:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 269.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 368، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 269.
(3) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 12.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 268.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 171.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للتَّركيزِ على الحَدَث، وهو الرُّجوعُ إلى الله، وللإشارةِ إلى أنَّ رجوعَكم في كلِّ حين، بقَسْرِكم بأيسرِ أمرٍ على كلِّ ما يريدُ سبحانه، من أوَّلِ ما خُلِقتم إلى ما لا نهايةَ له، فهو سبحانه لا يُخالَفُ، ولا يُمانَعُ، فلو كان لكم نوعُ علم؛ لكفاكم ذلك واعظًا في الدُّنيا، تعلمونَ به أنَّكم في غايةِ العَجز، وأنَّ له العظَمةَ والكِبرَ والقدرةَ والقَهْر[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 171.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾ [فصّلت: 22]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تكريرُ الجُلودِ للوعظِ والزَّجرِ بعد اعتذارها الـذي حمـلَ الوعظَ والتَّنبيه

لَمّا اعتذَرتِ الجُلودُ بما يُعدُّ وعظًا وتنبيهًا للمُعذَّبين في هَذِهِ الدُّنيا، وفي الآخِرَةِ تَوبيخًا وتَنديمًا، بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ قالتِ الجُلودُ مُكرِّرَةً لِلوَعْظِ والزَّجْر: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾: (ستر) أصلٌ يدُلُّ على الغطاءِ، وسَتَرْتُ الشَّيءَ أَسْتُرُه؛ إذا غَطَّيْته، فاسْتَتَر، وسَتَرَ يَسْتُرُه: أخفاه، والسُّتْرَةُ: ما استَتَرْت بِه، كائنًا ما كانَ[2]، وسَتَرَ الشَّيءَ سَتْرًا: خلافُ أبداه[3]، وتستَّرَ الشَّخصُ: تَخفَّى، واحتجب، وتغطّى[4]، والسِّتْر: الخَوْفُ، يُقال: فلانٌ لا يَسْتَتِر من اللهِ بسِتْر، أي: لا يَخْشاه، ولا يَتَّقيه، وهوَ مَجازٌ، ويُقال: ما لِفلانٍ سِتْرٌ ولا حِجْرٌ، فالسِّتْر: الحَياءُ[5]، ومعنى: ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ في الآية: تتكلَّفون السِّترَ عند المعاصي، وتَستَخْفون، أو تتَّقون، أو تظنّون[6].

2) ﴿ظَنَنتُمۡ﴾: (ظَنَّ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى مَعنَيَينِ مُختَلِفَينِ: يَقينٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ستر).
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (ستر).
(4) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ستر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ستر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 453 - 454، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 269.

وشَكٍّ، ومنَ الأوَّل قولُهم: مَظِنَّةُ الشَّيءِ: مَعلَمُهُ ومَكانُه، ومن الثّاني قولُهم: الظِّنَّةُ: التُّهمةُ[1]، ويدورُ معنى الظَّنِّ على توقُّعِ وجودِ شيءٍ مُهمٍّ لأمارَةٍ أو دليلٍ قويَّينِ[2]، فمتَى قَويت هذه العلامَةُ؛ أدَّتْ إلى اليقين والعِلم، ومتى ضَعُفَتْ جدًّا؛ لم يتجاوزِ الظَّنُّ حدَّ التَّوهُّم[3]، وقد وردَ الظَّنُّ في القرآن على أربعة أوجه: بمعنى اليقين، وبمعنى الشَّكِّ، وبمعنى التُّهَمة، وبمعنى الحُسْبان[4]، ومعنى ﴿ظَنَنتُمْ﴾ في الآية: حَسِبْتُم[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

حكايةٌ لِما سيُقال للمشركين يومَ القيامة بطريق التَّوبيخ تقريرًا لجوابِ الجُلود

وما كُنتُم في الدُّنيا تتكلَّفون السِّترَ، وتَستَخْفونَ بتَرْكِ الكُفرِ والمعاصي؛ مخافةَ أن يَشهَدَ عليكم سَمعُكم وأبصارُكم وجُلودُكم يومَ القيامةِ، ولكِن ظَنَنتُم أنَّ اللّهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا ممّا تَعمَلونَ من أعمالكم الخبيثةِ[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾:

التَّهديدُ بالمواجهةِ منه سبحانه أشدُّ وأكثرُ إيقاظًا للإصغاء

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ التِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخطاب، على القول بأنَّ الخطابَ هنا مِنَ اللّه تعالى للمعذَّبين، فما سبقَ إخبارٌ مِنَ اللّهِ تعالى عن الحوارِ الدّائرِ بين أهلِ النّار وجوارحهم، ثمَّ التفتَ هنا إلى مخاطبةِ أهلِ النّار مباشرة، وفي هذا الالتفاتِ إيذانٌ باقتِضاءِ حالِهم أنْ يُهدَّدوا، ويوبَّخوا بالمواجهة والتَّصدّي لبيانِ شرِّهم؛ إذِ التَّهديدُ بالمواجهة أشدُّ مِن التَّهديدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظنن).
(3) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 425، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 545.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 454.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 454.

بالغَيبة، وللإيماءِ بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه، إضافةً إلى ما في الالتفات من كونِهِ أحسنَ تطريةً لنشاطِ السّامع، وأكثرُ إيقاظًا للإصغاء؛ لطولِ استعمالِ طريقِ الغَيبة فيما سبقَ مِن آيات.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَمَا كُنتُمۡ﴾:

عطفٌ واعتراضٌ يحملُ توبيخًا للكافرين بعد شهادةِ جوارحِهم عليهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ بتَمامِها إمّا مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، فتكونُ مَشمولةً للاعتراضِ، مُتَّصِلةً بالتي قبلَها، أو معطوفةً على جُملةِ: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: 19]، ويجوزُ أنْ تكون الواوُ اعتراضيَّةً، والجملةُ مُعتَرِضةً بين تلك الجُملةِ وجُملةِ: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾، ومُناسَبةُ الاعتِراضِ: ما جَرَى مِن ذِكرِ شَهادةِ سَمعِهم وأبصارِهم وجُلودِهم عليهم، فيكونُ الخِطابُ لجَميعِ المُشركينَ الأحياءِ في الدُّنيا، أو لِلمُشركينَ في يَومِ القيامةِ[1]، والجملةُ حكايةٌ لِما سيُقال لهم يومَئِذٍ من جهتِهِ تعالى، بطريقِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ تقريرًا لجوابِ الجُلودِ[2].

إيثار النَّفي بـ (ما):

تأكيدُ نفيِ استتارِ الكافرين عند مباشرتِهم الفواحشَ

آثرَ البيانُ الإلهيُّ النَّفي بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾؛ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكَدُ مِن (ليس) ومِن (لم)[3]، وكذلك فإنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلامٍ أو ما نُزِّلَ هذه المنزلةَ، وقد جاءَتْ في هذه الآيةِ ردًّا على كلامِ المُعذَّبين المُنكِرين على جلودهم أن يَشهدوا عليهم بما فعلوهُ مِن الموبقات.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي المنفي:

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿كُنتُمۡ﴾ بصيغة الماضي المنفي في قولهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 269.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.

(3) لأنّها تقع جوابًا للقسم، تقول: (والله ما هو بمنطلق) بخلاف: (ليس) وبخلاف: (لم).

المبالغةُ في بيانِ عدمِ استتارِ الكافرين في عملِ المعاصي تأكيدٌ لشدَّةِ طغيانهم

تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾، ولم يقل: (وما تستترون)؛ للدَّلالة على أنَّ عدمَ الاستتارِ مِن الكافرين كان في الدُّنيا عند مباشرتِهم الفواحشَ[1]، وللمبالغةِ في بيانِ استمرارِ الكافرين في عدمِ استتارِهم عند ارتكابهم للمعاصي والفواحش، وفي هذه المبالغةِ في النَّفي تأكيدٌ على عنادِهم وشدَّةِ طغيانهم؛ لأنَّ النَّفيَ بهذه الصّيغة أشدُّ ممّا لو قيلَ: (وما تستترون)؛ لأنَّ فعْلَ الكونِ يُفيدُ الدَّوامَ والاستمرارَ، والماضي يدلُّ على التَّحقُّقِ والوقوع.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾، وسِرُّ صوغِه مضارعًا:

تصويرٌ لعدمِ تخفّي الكافرين عند ارتكابِهم المعاصي ولو تكلُّفًا

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ دون (تستخفون)؛ لكون ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ أبلغَ وأوسعَ دلالةً؛ فقد دلَّ لفظُ ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ على معنى التَّخفّي والاحتجاب[2]، والوقايةِ والخوفِ والحياء[3]، لا مجرَّدَ معنى الإخفاء الذي هو مقابلُ الإبداء والإعلان والإظهار والجهر[4]، وقد جاء التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ دون (تسترون)؛ زيادةً في المبالغة في عدم التَّخفّي، فلم يَقلْ: (وما كنتم تسترون أنفسكم)؛ لكون الفعلِ المُضعَّف أبلغَ في التَّعبير، أي: ليُشيرَ إلى عدمِ السِّترِ ولو تكلُّفًا، والمعنى: وما كنتم تتكلَّفون السِّتْرَ عِندَ المَعاصي[5]، ويمكن أن يكون فعلُ ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ مُستعملًا في حقيقته ومجازِه، أي: تستترون بأعمالكم عن سمعِكم وأبصاركم وجلودكم، وذلك توبيخٌ؛ كنايةً عن أنَّهم ما كانوا يرونَ ما هم عليه قبيحًا حتّى يستتروا منه[6]، أو كنايةً عنِ الاتِّقاء، أي: ما كنتم تتَّقون في الدُّنيا أنْ تشهدَ عليكم جوارِحُكم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 410.
(2) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ستر).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (ستر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خفي).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 271.

في الآخِرَة، فتتركوا المعاصي خوفًا مِن هذه الشَّهادة[1]، وفي صَوْغِهِ مضارعًا مبالغةٌ في عدمِ تستُّرهم؛ إذ عدمُ استتارِهم متجدِّدٌ منهم، بالإضافةِ إلى ما تدلُّ عليه المضارعة من تصويرِ هذا الحَدَث.

سِرُّ التَّعبير بواو الجماعة في ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾:

خطابُ جماعةِ المعذَّبين إشارةٌ إلى اجتماعهم على عدمِ استتارهم

أتى النَّظمُ الكريم بالفاعل ضميرًا دونَ الاسم الصَّريح في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ الأسلوبَ أسلوبُ المخاطَبِ، والتَّعبيرُ بواو الجماعة؛ لأنَّ الخطابَ لجماعةِ المُعذَّبين، وللإشارة إلى اجتماعهم على عدمِ التَّستُّر في الدُّنيا عند مباشرتِهمُ الفواحشَ؛ مخافةَ أنْ تشهدَ عليهم جوارِحُهم بذلكَ، كما كانوا يستترون من النّاسِ مخافةَ الافتضاحِ عندهم، وكذلك أتى بالجمعِ تناسبًا مع السّياقِ الذي وردَتْ فيه صيغُ الجمع.

نُكْتَةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يَشۡهَدَ﴾:

في تأكيدِ تجدُّدِ شهادةِ جوارحهم عليهم دلالةٌ على شدَّةِ طغيانهم

آثرَ البيانُ الحكيم التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّل ﴿أَن يَشۡهَدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ﴾، الذي جعلَ الكلام صالحًا لدخولِ الفعلِ المضارع على الجملة بما أعطاها من التَّجدُّد والحدوث؛ تقويةً للمعنى، وتأكيدًا على تجدُّدِ شهادةِ جوارحهم عليهم عند ارتكابِ الفواحش، وتصويرًا لحالةِ شهادةِ سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم، بما يدلُّ على شدَّةِ ضلالهم وطغيانه.

بلاغةُ الحذف في الآية:

في الحذفِ المفهومِ من السّياقِ بلاغةٌ قرآنيَّة

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ﴾ لا بدَّ من تقديرِ محذوفٍ يُفهَم مِنَ السّياق حتّى يستقيمَ المعنى، والمحذوفُ إمّا (مِن)، وهو حرفُ جرٍّ يتعدّى به فعلُ ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ إلى ﴿أَن يَشۡهَدَ﴾، وهو محذوفٌ على الطَّريقةِ المشهورة في حذفِ حرف الجرِّ مع (أنْ)،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 352.

والمعنى: ما كنتُمْ تستترونَ من شهادةِ سمعكم وأبصاركم وجلودكم، وما كنتم تتَّقون شهادتها؛ إذ لا تحسبون أنَّ ما أنتم عليه ضائر؛ إذ أنتم لا تؤمنون بوقوعِ يوم الحساب[1]، وإمّا أنْ يكونَ المحذوفُ هو مفعول لأجله، والتَّقدير: ما كنتُم تستترونَ في الدُّنيا عند مباشرتِكم الفواحشَ مخافةَ أنْ تشهدَ عليكُم جوارِحُكُم بذلكَ[2]، كما أنَّ الحذفَ في الآيةِ يتناسبُ مع لفظِ التَّستُّر الوارد في الآية.

فائدةُ الإطناب بإعادة ذِكْرِ السَّمع والأبصار والجُلود:

تأكيدُ نفي تستُّرهم عن سمعهم وأبصارهم وجلودهم مبالغةٌ في زجرهم

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بذِكرِ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾، مع أنَّها ذُكِرتْ في آيةٍ سابقةٍ، فلم يقلْ: (أنْ يشهدوا عليكم، أو أنْ نشهد عليكم)؛ لكون المَقصودِ هو المبالغة في الزَّجر، وأطنبَ كذلك بتكريرِ حرف النَّفي (لا) ثلاثَ مرّاتٍ؛ تأكيدًا لنفي التَّستُّر[3]، فالأبصارُ تشهدُ بما رأتْ، والآذانُ تشهدُ بما سمعَتْ، والجُلودُ بما لامسَتْ[4].

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على الفاعل ﴿سَمۡعُكُمۡ﴾:

شهادةُ سمعهم وأبصارهم وجلودهم مختصَّةٌ بأنَّها ضدُّ أصحابها

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على الفاعل ﴿سَمۡعُكُمۡ﴾ يفيدُ الاختصاص، أي: أن يشهدَ سمعُكم وأبصارُكم وجلودُكم عليكم دونَ غيركم، وهذا أدعى في إقامةِ الحُجَّة عليهم يومَ القيامة، وأبلغُ في تخويفهم في الدُّنيا؛ ليتَّعظوا، ويعودوا عن كفرِهم، كما أنَّ تقديم الجارِّ والمجرور أكثرُ تناسبًا؛ كي تكونَ تعديةُ الفعل (شهد) بالحرف (على) - الذي يفيدُ معنى الشَّهادة ضدَّهم - دون فاصلٍ بينهما.

دلالةُ العطف في ﴿وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾:

عطَفَ البيانُ القرآنيُّ الأبصارَ والجلودَ على السَّمع في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 270.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 151.

اشتراكُ جميع جوارحِ الكفّار في شهادتها عليهم دليلُ جرأتهم في ارتكابِ الفواحش

تعالى: ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾؛ لإفادةِ اشتراكِ جوارحهم في الشَّهادةِ عليهم يومَ القيامة، بما يدلُّ على زيادةِ إقامةِ الحُجَّة عليهم، ومِن ثَمَّ زيادةُ تبكيتهم وتوبيخهم، بأنَّهم لشِدَّةِ كفرهم بالبعثِ والحساب لم يستتروا من جوارحهم عند مباشرتِهم الفواحش.

لطيفةُ تقديم السَّمع على الأبصار والجُلود:

السَّمعُ أسبقُ في الإحساسِ بالأشياءِ من البصرِ والجوارح

تقديمُ السَّمعِ على البصرِ والجلودِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ من بابِ التَّشريف[1]، فحاسَّةُ السَّمعِ أنفعُ وأفضلُ فائدةً لصاحبها، ولأنَّ السَّمعَ أسبقُ في الإحساسِ بالأشياءِ من البصرِ والجوارح، فالسَّمعُ أوَّلُ الإدراكات، والتَّقديمُ مُؤذِنٌ بأهمّيَّة المُقدَّم.

الغرضُ من الإضافة في المعطوفات:

في بيانِ أنَّ الَّذي يشهد على الكافرِ جُزءٌ منه تخويفٌ وتحذير

الإضافةُ في المعطوفات، وهي قوله: ﴿سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ إضافةٌ بيانيَّةٌ، تبيِّنُ أنَّ الشُّهودَ على الكافرين هي بعضٌ منهم، فهي أسماعُهم وأبصارهم وجلودُهم تخرجُ عليهم، وتشهدُ ضدَّهم، مستجيبةً لربِّها طائعةً مستسلمة، تروي عنهم ما حسبوه سرًّا، وتفضحُ ما حسبوه مستورًا عن الخَلقِ أجمعين وعن اللّهِ ربِّ العالَمين، بعد أنْ جعلَ اللّهُ ألسنتَهم معقودةً لا تنطقُ، وقد كانَتْ تكذبُ، وتفتري، وتستهزئ، وفي بيانِ أنَّ شهادةَ هذه الجوارح تكون على أصحابها تخويفًا وترهيبًا وتحذيرًا.

معنى الواو في ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ﴾:

عطفٌ أفادَ تعليلَ عدمِ استتارِ الكفّارِ عند ارتكابهم الفواحش

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ عاطفةٌ[2]، عطفتِ الجملةَ على جملة: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾،

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 254.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 548.

وقد أفادَ هذا العطفُ تعليلَ عدمِ استتارِهم عند ارتكابِهم الفواحشَ، وهو ظنُّهم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا يعملون.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَلَٰكِن﴾:

﴿وَلَٰكِن﴾ استدراكٌ ممّا فُهِم من الكَلام، أي: ما ظننتم أنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ ما فعلتُم، وإنْ يكُ مثقالَ حبَّةٍ من خَردلٍ، أو تكونوا في صخرةٍ، أو في السَّماوات أو في الأرضِ، فيُنطق أعضاءَكم، ولكن ظنَنْتُم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ كثيرًا، وهو ما تفعلون خفيةً من وراءِ الحجاب، فلذلك بالغتُم في الاستتار عن أعينِ النّاس لا مِن علّامِ الغيوب، ولا تخافون أنَّه تعالى يُنطِقُ الجوارح[1]، أي: لم تتحفَّظوا من شهادةِ سمعكم وأبصارِكم وجلودِكم؛ لأنَّكم لم تبالوا بشهادتها، ولم تظنّوا أنَّها تشهدُ عليكم، وإنَّما استترْتُم؛ لأنَّكم ظنَنْتُم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا تعملون[2].

لم يكن استتارُهم خوفًا من شهادةِ جوارحهم عليهم، وإنَّما لظنِّهم بعدمِ علمِ اللهِ لِما يعملون

بلاغةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿ظَنَنتُمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالظَّنِّ في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ أسبابَ الضَّلالِ في العقائدِ كُلِّها إنَّما تأتي على النّاسِ من فَسادِ التَّأمُّلِ، وسُرعةِ الإيقانِ، وعَدَمِ التَّمييزِ بينَ الدَّلائِلِ الصّائبةِ والدَّلائِلِ المُشابِهةِ، وكُلُّ ذلك يُفضي إلى الوَهمِ المُعبَّرِ عنه بالظَّنِّ السَّيِّئِ أو الباطِلِ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «إيّاكم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث»[3]، فالظَّنُّ نوعان: ظنٌّ مُنجٍ، وظُنٌّ مردٍ، والمراد هنا الظَّنُّ المُرْدي[4]، ولعلَّ الأنسبَ أنْ يرادَ بالظَّنِّ مَعْنًى مجازيٌّ يعمُّ معناهُ الحقيقيَّ، وما هو فوقَه من العِلم، وما يَجري مَجراه من الأعمالِ المُنبئةِ عنْهُ، كما في قولِه تعالى:

أسبابُ الضَّلالِ في العقائدِ كُلِّها إنَّما تأتي على النّاسِ مِن فَسادِ التَّأمُّل

(1) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على البيضاويِّ: 17/ 150.

(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 240.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 273.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 557.

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣﴾ [الهمزة: 3]؛ ليَعُمَّ ما حُكي من الحالِ جَميعَ أصنافِ الكَفَرةِ(1).

وقد أتى الفعلُ ﴿ظَنَنتُمۡ﴾ بصيغةِ الماضي على حقيقته؛ إذ هو ماضٍ بالنِّسبةِ للزَّمن الذي يتمُّ فيه هذا الخطاب، وللدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الظَّنِّ المُردي منهم وانقضائه، بما يُؤكِّدُ استحقاقَهم للعذاب.

تحقُّقُ وقوعِ الظَّنِّ المُرْدي منهم يُؤكِّدُ استحقاقَهم للعذاب

دلالةُ التَّعبير بـ﴿أَنَّ﴾ واسميَّة الجملة:

جاءَ التَّعبيرُ بـ﴿أَنَّ﴾ التي تُفيدُ التَّوكيدَ في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ ظنَّهم بأنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا يعملون كان مؤكَّدًا جدًّا، كما أنَّ اسميَّةَ الجملةِ دلَّتْ على ثباتِ هذا الظَّنِّ ودوامِهِ منهم، ممّا استحقّوا عليه التَّردّي والهلاكِ في النّار، والجملةُ الاسميَّة من ﴿أَنَّ﴾ وما بعدَها سدَّتْ مسدَّ مفعولي ﴿ظَنَنتُمۡ﴾.

ظنُّ أهلِ النّار ظنٌّ مؤكَّدٌ وثابتٌ بأنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا يعملون

سرُّ التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

في التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ الجامعِ لكلِّ صفاتِ الكمالِ والجلالِ والقدرةِ والعِلم، في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، دلالةٌ على وقاحةِ الكفّارِ وجُرْأتهم في ظنِّهمُ الفاسدِ باللّهِ علّامِ الغيوب، الذي لا يخفى عليه شيءٌ، فكيف يُظنُّ بالذي يتَّصفُ بكلِّ صفاتِ الأُلوهيَّة هذا الظَّنَّ الرَّدي؟.

الظَّنُّ الفاسدُ بمَنْ يتَّصفُ بكلِّ صفاتِ الأُلوهيَّة جرأةٌ تستحِقُّ العذاب

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يَعۡلَمُ﴾:

أفادَ صوغُ الفعل ﴿لَا يَعۡلَمُ﴾ بصيغةِ المضارع المنفي جُرأةَ الكافرين على اللّه، وشدَّةَ كفرهم، فقد ظَنّوا تجدُّدَ عدمِ عِلمِ اللّه تعالى لِما يعملون واستمرارَهُ؛ ممّا دفعهم إلى فعلِ الفواحشِ والاستمرارِ عليها.

ظنُّ الكافرين باستمرارِ عدمِ عِلمِ اللهِ لِما يعملون جرأةٌ وإصرارٌ على الكفر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 587.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿كَثِيرًا﴾:

ظَنُّهم بأنَّ الله لا يعلمُ شيئًا ممّا يعملون جَعَلَهم يُكثِرون من الأعمالِ القبيحة

لا يُرادُ بلفظ ﴿كَثِيرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ مفهومُ المخالفة، وإنَّما المرادُ أنَّهم ظنّوا أنَّ اللّهَ لا يعلمُ شيئًا ممّا يعملون، ولكنَّ البيان القرآنيَّ الحكيم عبَّرَ بلفظ ﴿كَثِيرًا﴾؛ للإشارةِ إلى كثرةِ الأعمالِ القبيحة الَّتي كانوا يعملونها قولًا وفعلًا، والمعنى: ولكن ظنَنْتُم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ الذُّنوبَ الكثيرة التي تعملونها.

معنى (مِنْ) ودلالتُها في ﴿مِّمَّا﴾:

بيانٌ لظنِّهم بعدمِ علمِ اللهِ لأعمالهم القبيحةِ الكثيرة

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لبيانِ أنَّ ظنَّهم بأنَّ اللّهَ لا يعلمُ كثيرًا هو مِن الذي يعملونه مِن الأعمالِ القبيحةِ، وقد أفادتْ (مِنْ) إضافةً إلى ذلك تكثيرَ المعنى، والدَّلالةَ على التَّعليلِ مضمومًا إليه دلالةُ الابتداء التي هي الأصل في معنى (مِنْ)، والمعنى: ولكن ظنَنْتُم أنَّ اللّهَ لا يَعلمُ شيئًا منذُ ابتداءِ ما تعملون إلى آخره.

معنى (ما) ودلالتُها في قوله: ﴿مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

لشدَّةِ كفرِهم ظنّوا أنَّ الله لا يعلمُ كلَّ الذي يعملونه

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ اسم موصولٌ يُفيدُ العموم؛ لتشملَ عمومَ ما يعملون، والمعنى: ولكنْ ظنَنْتُم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ كلَّ الذي تعملونه، ممّا يدلُّ على شدَّةِ كفرِهم، ويحتملُ أنْ تكون مصدريَّة، والمعنى: ولكن ظننتم أنَّ اللّه لا يعلمُ كثيرًا من عملكم.

الغرضُ من التَّعبير بالمضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

تصويرٌ لحالهم المنكرة من خلال تجدُّدِ أعمالهم السَّيّئة واستمرارِها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالمضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ولم يقل: (عملتم)؛ للدَّلالةِ على حكايةِ حالهمُ المنكرةِ، بما يُصوِّرُ قُبحَ أعمالِهم من الأقوال والأفعال، وللدَّلالةِ على تكرارِ ما عملوا من القبائح وتجدُّدِها واستمرارِها، أي: ممّا تجدِّدون عملَهُ مُستمرّين عليه، وهو ما كنتم تَعُدّونه خَفيًّا، فهذا هو الذي جرَّأكم على ما فعلتم[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172، والهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 151.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السِّتر والإخفاء:

السِّترُ أبلغُ من الإخفاءِ وأوسعُ دلالةً

السِّترُ أبلغُ من الإخفاء، فسَتَّرَ الشَّيءَ، وسَتَرَهُ: بالغَ في تغطيته وإخفائه، وتَسَتَّرَ الشَّخصُ: تخفَّى، واحتجبَ، وتغطّى[1]، والسِّتر: الخَوفُ، يُقال: فلانٌ لا يَسْتَتِرُ من اللّه بِسِترٍ، أي: لا يَخْشاه، ولا يَتَّقيه، وهوَ مَجاز، ويُقال: ما لِفلانٍ سِتْرٌ ولا حِجْرٌ، فالسِّتْرُ: الحَياءُ[2]، والمعنى المحوريُّ للسِّترِ: هو تغطيةُ الشَّيء ما وراءَه[3].

وأمّا الإخفاءُ؛ فهو مقابلُ الإبداءِ والإعلانِ والإظهار والجَهْر[4]، ومن هنا كان استعمالُ لفظ ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ أنسبَ مِن لفظ (تستخفون)؛ لكون لفظ ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ أبلغَ وأوسعَ دلالةً، فقد دلَّ على معنى المبالغة في التَّخفّي والاحتجاب والوقاية والخوف والحياء، أي: لم تستتروا، ولم تتَّقوا، ولو تكلُّفًا.

---

(1) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ستر).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ستر).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ستر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خفي).

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [فصّلت: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقاصُ من الإلَهيَّةِ يقتضي الغضبَ من اللهِ العظيم والرَّبِّ المُنعِمِ

لَمّا كان ذِكْرُ المعصيةِ وما جرَّأ عليها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، يقتضي انتقاصًا يقدحُ في الإلَهيَّة؛ بيَّن أنَّه الموجبُ للغَضبِ من اللّهِ العظيم والرَّبِّ الذي طالَ إحسانُه إليكم، فقال: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾، أي: هو ظنُّكم العظيمُ في القباحة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَنُّكُمُ﴾: ذكرنا معنى (الظَّنِّ) في الآيةِ السّابقة، وأنَّه ظنّانِ: ظنٌّ مُنجٍ، وظنٌّ مُردٍ، والمراد بـ﴿ظَنُّكُمُ﴾ هنا: الظَّنُّ المُردي الفاسد، وهو ظنُّهم باللّهِ تعالى أنَّه لا يعلمُ كثيرًا ممّا يعملون[2].

2) ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾: (ردي) أصلٌ يَدُلُّ على رَمْيٍ أو تَرامٍ وما أشْبَهَ ذلك، والرَّدَى: الهلاكُ والموتُ، يُقالُ: رَدِيَ يَرْدَى؛ إذا هَلَكَ، وأرداهُ اللّهُ: أهْلَكَهُ، وأرداهُ اللّه، ورَدّاه فتَرَدَّى: قَلَبَه، فانقلب، والتَّرَدّي: التَّهَوُّرُ في المَهوى، يُقالُ: رَدِيَ في البِئْرِ، كما يُقالُ: تَرَدَّى[3]، ورَدُؤَ الشَّيءُ يَرْدُؤ رَداءَةً، وإذا أصابَ الإنسانُ شَيئًا رَديئًا؛ فَهوَ مُرْدِئٌ، وكذلكَ إذا فَعَلَ شَيئًا رَديئًا[4]، ويُستعمَل الإرداءُ في الضُّرِّ الشَّديد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 173.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 456، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 556، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ردى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ردأ).

مَجازًا أوِ استِعارةً، ومعنى ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ هنا: أهلككم، وطرحكم في النّار[1].

3) ﴿ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: (خسر) أصلٌ يدلُّ على النَّقْص، يُقال: خَسَرْتُ الميزانَ، وأخسَرْتُهُ؛ إذا نَقَصْتَهُ[2]، وخَسِرَ التّاجِرُ: وُضِعَ في تِجارَتِه أو غُبِنَ، والأوَّلُ هو الأصل، وصفقةٌ خاسرةٌ: غير رابحة، وكَرَّةٌ خاسِرةٌ: غيرُ نافِعةٍ، والخَسارُ والخَسارة: الضَّلالُ والهَلاكُ[3]، ومعنى ﴿ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: الهالكون، أي: قد غُبِنتُم ببيعكم منازلَكم من الجنَّة بمنازلِ أهلِ الجنَّة من النّار[4].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ سوءِ عاقبةِ الاعتقادِ الفاسدِ للكافرين باللهِ سبحانه

يقولُ تعالى ذكره: وهذا الَّذي كان منكم في الدُّنيا من ظنِّكم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا تعملون من قبائحِ أعمالِكم ومساويها، هو ظنُّكم الذي ظنَنْتُم بربِّكم في الدُّنيا أرداكم، يعني: أهلككم؛ لأنَّكم مِن أجلِ هذا الظَّنِّ اجترأتُمْ على محارمِ الله، فقدِمتُم عليها، وركبتُمْ ما نهاكم اللّهُ عنه، فأصبحتُم اليومَ مِن الهالكين، قد غُبِنتُمْ ببيعِكُمْ منازلَكم مِن الجنَّة بمنازلِ أهلِ الجنَّة من النّار[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾:

عطفٌ يُنبِئُ عن عقوبةِ ظَنِّهمُ الفاسدِ وأنَّه سببُ هلاكهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾ عاطفةٌ[6]، والمعطوفُ عليه قولُه: ﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، بجامعِ أنَّ الجُملتين وما قبلَهما هو خطابٌ للمُعذَّبين على سبيلِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 456، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 332.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خسر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 475.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 475.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 548.

التَّوبيخ والتَّقريع، فبعدَ أن أخبرَ عن ظنِّهمُ الفاسدِ، وهو أنَّ اللّه لا يعلمُ كثيرًا ممّا يعملون؛ عطفَ عليه نتيجةَ ظنِّهم هذا وعقوبتَهُ، وأنَّه أرداهم في النّار، فأصبحوا مِنَ الهالكين.

الغرضُ مِنَ التَّعبير باسم إشارةٍ للبَعيد، وبميم الجمع:

ظنُّ الكافرين باللهِ بلغَ بهم مبلغًا عظيمًا في القباحةِ والشَّناعةِ

الإشارةُ في قوله: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾ إلى الظَّنِّ المَأخوذِ مِن جُملة: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ويُستَفادُ مِنَ الإشارةِ إليه تَمييزُهُ أكمَلَ تَمييزٍ، وأنَّه قد بلغَ الغايةَ في الظُّهورِ والبيانِ، حتّى صار كأنَّه مُدرَكٌ بالحواسِّ، ويُستفادُ كذلك تَشهيرُ شَناعَتِه؛ لِلنِّداءِ على ضَلالِهم[1]، وما في الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ بغايةِ بُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرِّ والسّوءِ[2]؛ إذ إنَّ هذا الظَّنَّ قد بلغَ بهم مبلغًا عظيمًا في القباحة[3]، حتّى كان سببًا في خسارتهم، وفي هذا مبالغةٌ في ذمِّهم، كما أنَّ في التَّعبيرِ بالميم الدّالَّةِ على الجمعِ وتكرارِها إيحاءً بالنَّدمِ والحسرةِ والأنينِ والتَّوبيخ، وفيها توكيدُ كونِ ظنِّهمُ السَّيِّئَ قد أهلكهم؛ لأنَّ (ذَلِكُمۡ) تُستعملُ في القرآن في مقامِ التَّوكيد والتَّوسُّع والجمع، وتُستعمل (ذلك) في الأمورِ الأقلِّ توكيدًا والمفردة[4].

دلالةُ التَّعبير بالبَدل ﴿ظَنُّكُمُ﴾:

بيانُ أنَّ الظَّنَّ المُرْدي هو ما فيه انتقاصٌ لمقامِ الإلَهيَّة

أتْبَعَ البيانُ القرآنيُّ اسمَ الإشارةِ بالبَدَلِ بقولِه: ﴿ظَنُّكُمُ﴾؛ لِزيادةِ بَيانِه؛ لِيَتَمَكَّنَ ما يعقُبُه مِنَ الخَبَرِ، والخبَرُ هو فِعلُ ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾، وما تَفَرَّعَ عليه ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[5]، أي: تسبَّبَ عن هذا الظَّنِّ الذي فيه انتقاصٌ لإلهيَّة اللّه بشكلٍ خاصٍّ أنَّه أهلككم[6]، "وهذا نصٌّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 271.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 173.
(4) الهلال، التّفسير الثّريّ: 24/ 152.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 272.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 173.

صريحٌ في أنَّ مَنْ ظَنَّ باللّهِ تعالى أنَّه يخرجُ شيءٌ من المعلوماتِ عن عِلمه؛ فإنَّه يكونُ من الهالكين الخاسرين"[1]، ويجوزُ أن يكونَ قولُه: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرين للمبتدأ (ذلكم)[2]، وفي ذلك من التَّوكيد ما فيه.

سرُّ التَّقييد بالصِّفة ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم﴾ اسمًا موصولًا:

عـلَّـةُ هـلاكِ الكافرين ظنُّهمُ الـفـاسـدُ باللهِ سبحانه

الإتيانُ بالمَوصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ دونَ الاسمِ الصَّريح؛ لِما في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وجهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ وما تَفَرَّعَ عليه، والمعنى: الذي ظَنَنتُم برَبِّكم ظَنًّا باطِلًا أرداكم، وجعلكم مِنَ الخاسرين[3]، أي: ذلكم ظنُّكم الفاسدُ ذاتُه الَّذي ظنَنْتُم بربِّكم، تسبَّبَ عنه خاصَّةً أنَّه أهلكَكُم.

نُكتَةُ حَذْفِ مفعولَي ﴿ظَنَنتُم﴾:

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَي فعلِ (الظَّنِّ) في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾؛ إذِ التَّقديرُ: ذلكم ظنُّكم الَّذي ظنَنْتُموه كائنًا بربِّكم، فالمفعولانِ محذوفان اختصارًا، فقد دلَّ عليهما السِّياق.

العُدولُ عنِ اسمِ (اللهِ) العَلَمِ إلى قوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾:

ظنُّهم السَّيّئُ بـخـالـقِـهـم المُحسنِ إليهم دلـيـلٌ على ضلالهم

العُدولُ عنِ اسمِ (اللهِ) العَلَمِ إلى اسمِ الرُّبوبيَّة ﴿بِرَبِّكُمْ﴾؛ للإيماءِ إلى ضَلالِ ظنِّهم وقُبْحِه؛ إذ ظنّوا خَفاءَ بَعضِ أعمالِهم عن عِلْمِه سبحانه، مع أنَّه رَبُّهم وخالِقُهم، وهو الَّذي طالَ إليهم إحسانُه، ويعلمُ حالهم، فكيف يَخلُقُهم، وتَخفَى عنه أعمالُهم[4]؟ ويُشيرُ إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14][5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 557.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 272.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 173.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 272.

ظَنُّ المشركين السَّيِّئُ بخالقهم ومُربّيهم دليلٌ على استحقاقهم التَّوبيخَ

سرُّ الإضافةِ في قوله: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾:

إضافةُ لفظِ (ربِّ) إلى ضميرِ الخطاب في قوله: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾؛ توبيخًا للضّالّين؛ إذ إنَّ ظنَّهمُ السَّيِّئَ كان بخالقهم ومربّيهم بعامِّ أفضالِهِ وإحسانه والنّاظرِ في مصالحهم؛ لأنَّ في الرُّبوبيَّة معنى الرَّحمةِ والتَّربية، والإشعارِ باللُّطفِ والإحسانِ والعطاء.

في الاستعارةِ والمجازِ إظهارٌ لسوءِ حالةِ الكافرين الظّانّين باللهِ ظَنَّ السَّوء

الاستعارةُ والمجازُ في قوله: ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾:

الإرداءُ: الإهلاك، والإرداءُ في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ مستعارٌ للإيقاعِ في سوءِ الحالةِ، بحيثُ أصارَهم مثلَ الأموات، فإنَّ ذلك أقصى ما هو متعارفٌ بين النّاس في سوءِ الحالة[1]، وفي قوله: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقتُه السَّببيَّة، فالفعلُ (أردى) مسنَدٌ إلى ضميرِ الظَّنِّ، وهو سببٌ فقط، والفاعلُ الحقيقيُّ هو اللّهُ تعالى[2].

ما أهلكَ الكافرين إلّا ظنُّهم أنَّ الله لا يَعلَمُ أعمالَهم

دلالةُ التَّعبير بالخبر جملةً فعليَّةً ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ الإتيانُ بالمُسنَدِ ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ فِعلًا إفادةُ قصرٍ، أيِّ: ما أرداكم إلّا ظنُّكم ذلك، وهو قَصرٌ إضافيٌّ، أي: لم تُرْدِكُم شَهادةُ جَوارِحِكم حتّى تَلوموها، بلْ أرداكُم ظَنُّكم أنَّ اللّهَ لا يَعلَمُ أعمالَكم، فلم تَحذَروا عِقابَه[3].

كمالُ خُسْرانهم تفرَّعَ عن سوءِ ظَنِّهم الذي أهلكهم

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ عاطفةٌ تفريعيَّة، أي: تفرَّعَ للمُعذَّبين من سوءِ استدلالِهم وفسادِ قياسهم في الأمور الإلَهيَّة، وقياسِهم الغائبَ على الشّاهد، تلكَ الأصولُ التي استدرجتْهُم في الضَّلالة، فأحالوا رسالةَ البشرِ عن اللّهِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 272.
(2) العليانيّ، سورة فصّلت دراسة بيانية، ص: 290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 272.

ونفوا البعثَ، ثمَّ أثبتوا شركاء للّه في الإلَهيَّة، تفرَّعَ لهم من ذلك كلِّه كمالُ خسرانِهم بقَطْعِ نظرِهم عمّا وراء الحياةِ الدُّنيا، وأمنِهم من التَّبِعاتِ في الحياة الدُّنيا[1]، ويجوزُ أن تكون عاطفةً فيها معنى السَّببيَّة، والتَّقدير: فَأصبَحْتُم بسببِ ذلكَ الظَّنِّ السَّيِّئ الَّذي أهلكَكُم من الخاسرين[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾:

لَمّا كان الصَّباحُ مـحـلَّ رجـاءِ الأفراحِ، كان شرُّ الأتـراحِ ما كان فيه

﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ بمعنى: فصرتُم[3]؛ لأنَّ (أصبحَ) يكثرُ أنْ تأتيَ بمعنى: صار، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ آثَرَ لفظَ ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ دون (صرتم)؛ للإشارةِ إلى شدَّةِ خُسْرانِهم ووضوحِهِ، وأنَّه لا شَكَّ فيه، ولا ريب؛ لأنَّ الإصباحَ يدلُّ على شدَّةِ الوضوح، ويكون بعدَ الظَّلام، أي: قد كنتُم غارقين في ظلامِ الكفرِ والضَّلالِ، فأصبحتُم ترونَ الحقيقةَ يومَ لَنْ ينفعكم ذلك، وذلك عينُ الخُسران، ولأنَّ الخُسرانَ في الصَّباحِ أشدُّ منه في المساء؛ لأنَّ الصَّباح محلُّ رجاءِ الأفراح، فكان شرُّ الأتراحِ ما كان فيه، وهو خسارتُهم، فالمعنى: أنَّه إذا صار حالُكم حالَ مَن أصبح كذلك؛ لم يكنْ للرِّبحِ وقتٌ يُتدارَكُ فيه، بخلافِ ما لو وُجِدَ ذلك عن المساء، فإنَّه كان ينتظرُ الصَّباحَ للسَّعي في الرِّبح، ويومَ القيامةِ لا يومَ بعدَه يُسْعَى فيه للرِّبح[4].

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

بظنِّهمُ الفاسدِ بربِّهم أصبحوا كاملين عريقين في الخسارة

اللّامُ في قوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ هي لامُ الكمال التي تُفيدُ المبالغة، فهو خسرانٌ كامل، وهم الكاملونَ في الخُسران، العريقون في الخسارة، المَحكومُ بخسارتِهم في جميعِ ذلك اليوم[5]، وهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 272.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.

(3) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 150.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 174.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 173.

الَّذين خَسَروا أنفسَهم وأهليهم يومَ القيامة، وهذا هو الخُسْران المُبين[1]، وهم الَّذين صارَتْ أبدانُهم التي أُعطوها ليُعْمِلوها في السَّعادةِ سببًا للشَّقاوة.

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

عاقبةُ الكافرين هلاكُهم وخسارتُهم للجَنَّة

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ لكونه أوسعَ دلالةً؛ إذ مِن معانيه الضَّلالُ والهلاك[2]، ولكون الجملة: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جاءَتْ تمثيلًا لحالهم؛ إذ يحسبون أنَّهم وصلوا إلى معرفةِ ما يَحِقُّ أنْ يعرفوه من شؤونِ اللّهِ، ووَثِقوا من تحصيلِ سعادتهم، وهم ما عَرَفوا اللّهَ حَقَّ معرفتِه، فعامَلوا اللّهَ بما لا يَرضاهُ، فاستحَقّوا العذابَ من حيثُ ظَنّوا النَّجاةَ، فشَبَّه حالَهم بحالِ التّاجرِ الذي استعدَّ للرِّبح، فوقعَ في الخسارة[3]، أي: فصِرتُم من جُملةِ مَن خَسِرَتْ تجارتُه؛ لأنَّكم خَسِرتُم الجَنَّة.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التَّرَدّي والهلاك:

تردّي الكافرين هو سقوطٌ مادّيٌّ لهم في النّار، يَلزمُ عنه الهلاك

التَّرَدّي: هوَ الرَّمي والسُّقوطُ والانقلابُ والتَّهوُّر في مَهْواةٍ، ويُستعملُ في الضُّرِّ الشَّديد، وغالبًا ما يُؤدّي إلى الموتِ والهلاك، فالتَّرَدّي هو سقوطٌ مادّيٌّ يَلْزَمُهُ الهلاك[4].

وأمّا الهلاكُ؛ فهو إفسادُ الشَّيء، أو الموتُ والإفناءُ والإبادة والزَّوالُ التّامُّ دونَ تَرْكِ أثرٍ، أو العذاب[5]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ دون (أهلككم)؛ لكونِ التَّرَدّي أنسبَ للسّياق، وأبلغَ

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 571.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خسر).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 272.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّازيّ، مختار الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردى).

(5) الرّاغب، المفردات، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (هلك).

في التَّصوير، فدَلَّ على أنَّه سبحانه طرحهم في النّار، فنتجَ عن ذلك وقوعُهم في المَهْلكةِ والعذابِ، وفي هذا تصويرٌ لسقوطهم في النّار حقيقةً، وذلك أوقعُ على النَّفسِ، وأشدُّ مِن التَّعبيرِ بلفظِ الهلاكِ فقط.

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصّلت: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد تـردّي الـكـافـرين في النّارِ إخبارٌ عن تيئيسهم من الخروجِ منها

بعد أنْ أخبرَ سبحانه في الآيةِ السّابقة عن ظنِّهِمُ السَّيّئِ بربِّهم، الَّذي كان سببًا في تردّيهم في النّار وخسارتهم؛ أتبعَهُ بالإخبار عن حالهم وإقامتِهم في النّار، التي صارتْ مثوًى لهم، فلا ينفعهم حينَها صبرٌ ولا جَزَعٌ، ولا طَلَبٌ للرِّضا ولا الاعتذار، فقال: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ﴾، وفي هذا تيئيسٌ لهم من الخروجِ من النّار؛ زيادةً لهم في التَّهديد والوعيد.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثۡوًى﴾: المثوى مَفْعَلٌ مِنْ (ثوى)، والأصلُ فيهِ الإقامَةُ، وزادَ بعضُهُمُ الاستقرارَ على الإقامَة، وهو اسمُ مَكانٍ أو اسمُ الموضِع، والثّاوي مَنْ طالَتْ إقامَتُهُ، ويجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا لا اسمَ مكانٍ[1]، وقيل للمنزلِ والمسكنِ: مثوًى؛ لأنَّ صاحبَه يقيمُ فيه[2]، وهو المقصودُ بالمثوى في الآية، والمعنى: النّارُ مسكنٌ لهم ومنزلٌ ومقام[3].

2) ﴿يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾: أصلُ (عتب) يَرْجِعُ إلى أمرٍ فيه بَعضُ الصُّعوبَةِ من كَلامٍ أو غَيرِه، من ذلكَ العَتَبَةُ، وهيَ أُسْكُفَّةُ البابِ[4]، يُقال: أعْتَبْتُ فلانًا، أي: أبرَزْتُ الغِلْظَةَ الَّتي وُجِدَت له في الصَّدْرِ[5]، والاستِعْتابُ: طَلَبُكَ إلى المُسيءِ الرُّجوعَ عَن إساءَته، والتَّعَتُّبُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (ثوي).
(2) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 155.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 458، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 118.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتب).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (عتب).

والتَّعاتُبُ والمُعاتَبَةُ: تَواصُفُ المَوجِدَة[1]، يُقالُ: عَتَبَ عليه عَتْبًا، أي: لامَهُ في تَسَخُّطٍ، والعُتْبَى: الرِّضا بَعدَ الغَضَبِ[2]، ومعنى ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾، أي: إن يسألوا العُتبى والرِّضا والعفو ويُبْدون الأعذار، أي: الرُّجوعَ عمّا أساؤوا به، وهي الرَّجعةُ لهم إلى الذي يحبّون بتخفيفِ العذابِ عنهم[3].

3) ﴿ٱلْمُعْتَبِينَ﴾: أصله من (عتب) وقد ذكرنا المعنى اللُّغوي للعتب في شرحِ مفردة ﴿يَسْتَعْتِبُواْ﴾، و﴿ٱلْمُعْتَبِينَ﴾: المُجابون إلى ما يطلبون[4]، ومعنى ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾، أي: لا يُقبل منهم اعترافُهم واعتذارهم، فليسوا بالقوم الذين يُرجَعُ بهم إلى الجنَّة، فيُخَفِّفُ عنهم ما هم فيه من العذاب[5].

المَعنى الإجماليُّ:

النّارُ محلُّ إقامةٍ أبديَّةٍ للكفّار، فلا ينفعهم صبرُهم ولا طلبُهمُ الرِّضا

فإن يَصبِرْ أولئكَ الكُفّارُ الذين يُحشرون إلى النّار على النّارِ، فالنّارُ مَسكَنٌ لهم ومُستَقَرٌّ، ولا مَخرَجَ لهم منها أبدًا، وإن يَطلُبوا مِنَ اللّهِ الرِّضا عنهم وقَبولَ توبتِهم ومَعذرِتهم، فلن يَرضَى عنهم، ولنْ يَقبَلَ تَوبتَهم ومَعذِرتَهم، ولن يُخرِجَهم مِنَ النّار، أو يَطلُبوا الرُّجعى لهم إلى الَّذي يُحبّون بتخفيفِ العذابِ عنهم، فليسوا بالقوم الَّذين يُرجَعُ بهم إلى الجنَّة، فيخفِّفُ عنهم ما هم فيه من العذابِ[6].

(1) الجوهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عتب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عتب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 458، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 274، ودروزة، التّفسير الحديث: 4/ 413.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 119.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 458، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 274، ودروزة، التّفسير الحديث: 4/ 413.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 458، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 177.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَإِن﴾:

تفريعٌ وجوابُ شرطٍ ينبئُ عن حاصلِ أمرِ الكافرين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ تفريعيَّةٌ، والجملةُ تَفريعٌ على جَوابِ (إذا) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ [فصلت: 20]، أو تَفريعٌ على جُملةِ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾، أو هي رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، والجملةُ جَوابُ (إذا)، وما بَيْنَهما اعتِراضٌ، على حَسَبِ ما يُناسِبُ وُجوهَ التَّفسيرِ، والمَعنى على جَميعِ الوُجوهِ: أنَّ حاصِلَ أمْرِهم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النّارِ، فإنْ صَبَروا، واستَسلَموا، فهُم باقونَ في النّارِ، وإنِ اعتَذَروا لم يَنفَعْهمُ العُذْرُ، ولم يُقبَلْ منهم تَنَصُّلٌ[1].

فائدة الالتفات من التَّكلُّمِ إلى الغَيبة في ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾:

سوءُ حالِ الكافرين يقتضي الإعراضَ عنهم وإبعادَهم عن حيِّزِ الخطاب

في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ التِفاتٌ من التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لِلإيذانِ بشدَّةِ الغضبِ عليهم، وإشارةٌ إلى أنَّهم لَمّا وصلوا إلى ما ذُكِرَ من الحالِ؛ أعيا عليهم المَقال، فلم يقدروا على نُطقٍ بلسان، ولا إشارةٍ برأسٍ ولا بنان[2]، وللإيذانِ باقتِضاءِ حالِهم أن يُعرِضَ عنهم، ويَحكي سوءَ حالِهم لِغَيرِهم، ولِلإشعارِ بإبعادِهم عن حَيِّزِ الخِطابِ، وإلقائِهم في غايةِ دَرَكاتِ النّارِ[3]، فما أعظمَهُ من أسلوبٍ يُشعِرُ بالتفاتِ الخطابِ عنهم أنَّهم في عدادِ المعدومين المحرومين، الذين سينسونَ في نارِ جهنَّم خالدين فيها، لا يُلتَفَتُ إليهم أبدًا إلّا ما شاءَ ربُّك.

سرُّ التَّقييد بـ(إنْ) الشَّرطيَّة:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾، بحرفِ الشَّرط (إنْ)، التي لا يكونُ التَّعليقُ بها إلّا في مشكوكٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 273.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 174.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.

فيه، دون (إذا) التي تُفيدُ التَّحقُّق؛ للإشارةِ إلى أنَّ صبرَهم في أسفلِ دركاتِ النّار غيرُ مؤكَّد، فهُم قد تُرِكوا في النّار يصطرخونَ فيها، ويصارعون فيها الأهوال.

صَبْرُ أهلِ النّار فيها غيرُ مؤكَّد

سرُّ التَّعبير بفعل الشَّرط مضارعًا ﴿يَصۡبِرُواْ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بفعلِ الشَّرط بصيغةِ المضارع التي تُفيدُ التَّجدُّد الحدوثيَّ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مهما استمرَّ منهم الصَّبرُ، وتجدَّدَ؛ فلنْ ينفعهم، وهذا مبالغةٌ في تيئيسِ هؤلاءِ المُعذَّبين مِنَ الفَرَجِ.

مبالغةٌ في تيئيسِ هؤلاءِ المُعذَّبين مِنَ الفَرَجِ

مناسبةُ جوابِ الشَّرطِ لفعلِ الشَّرطِ، ودلالةُ التَّعبير بها اسميَّةً:

مُناسَبَةُ جَوابِ الشَّرطِ لفعلِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ تَيئيسُ المُعذَّبين مِنَ الفَرَجِ، وقد تخفى مُناسبَتُهُ؛ إذ إنَّ الإنسانَ يَتوقَّعُ أنْ يَكونَ الجَوابُ خِلافَ ذلك؛ لأنَّ ظاهِرَ الحالِ أنْ يَقولَ: فإنْ يَصبِروا؛ فالفَرَجُ قَريبٌ مَثلًا، لكنَّه قال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾، أي: فلنْ يَتخلَّصوا منها[1]، أي: "لم ينفعهمُ الصَّبرُ، ولم ينفكّوا بِهِ مِن الثّواءِ في النّار"[2]، والتَّعبيرُ بجملةِ جوابِ الشَّرط اسميَّة - على القولِ بأنَّها جوابُ شرط - تُفيدُ الثَّباتَ والاستمرار؛ للدَّلالة على كونِ النّار محلَّ ثواءٍ وإقامةٍ أبديَّةٍ لهم، بحيثُ لا براحَ لهم منها[3]، ويجوزُ ألّا تكونَ جوابَ شرطٍ، وإنّما هي دليلٌ على جوابِ شرطٍ مقدَّر؛ لأنَّ كونَ النّار مثوًى لهم ليس مسبَّبًا على حصولِ صبرهم، والتَّقدير: فإنْ يصبروا؛ فليس صبرُهم بنافعهم[4]، أو لا يسعُهم إلّا الصَّبرُ؛ لأنَّ النّارَ مثوًى لهم[5].

تيئيسُ المُعذَّبين مِنَ الفَرَجِ أمرٌ إلهيٌّ ثابتٌ وحُكمٌ قاطعٌ

---

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة فصّلت، ص: 127.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 196.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 174.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 273.

لا ينفعُ الكافرين يومَ القيامة صبرٌ ولا جَزَعٌ

بلاغةُ الحذف في قوله: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾:

على تقديرِ أنَّ المرادَ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ هو: (فإنْ يصبروا، أو لا يصبروا؛ فالنّار مثوًى لهم)، يكون في الآية حذفٌ، وقدِ اقتُصِرَ على ماذُكر، وهوقوله: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾؛ لدلالةِ الظّاهرِ على ما تُرِكَ[1]، والمعنى: لا ينفعهم صبرٌ ولا جَزَعٌ[2]، كقوله تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [الطّور: 16][3].

النّـارُ معهودةٌ معـروفـةٌ فهي مثوًى للكافرين

معنى التَّعريف في قوله: ﴿فَٱلنَّارُ﴾:

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ عهديَّةٌ، تدلُّ على أنَّ النّار معهودةٌ ومعروفةٌ لدى الكافرين، فهي دارُ الجزاءِ والعذاب، وهي جهنَّم، والعهدُ فيها إمّا ذهنيٌّ، فليس في الآخرة إلّا نارُ جهنَّم المعهودة، أو حضوريٌّ ذِكريٌّ يعودُ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ [فصّلت: 19 - 20].

عِـظَـمُ مكـانِ الإقامةِ في النّار وطـولُ البـقاء فيها يـدلُّ على شدَّة العذاب

الغرضُ من تنكير الخبر ﴿مَثۡوٗى﴾:

أفادَ تنكيرُ لفظ ﴿مَثۡوٗى﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ تعظيمًا وتهويلًا لمكان إقامتهم في النّار، وشدَّة عذابِهم فيها، وهذا التَّهويل يتناسبُ مع ما تحملُه كلمةُ المثوى من طولِ الإقامةِ والاستقرارِ عليها[4]، فهي "محلُّ استقرارِهم، وإقامتُهم لا خروجَ لهم منها"[5].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 12.

(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 48.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 300.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (ثوي).

(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 587.

معنى اللّام في ﴿لَّهُمۡۖ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوَى لَّهُمۡۖ﴾ لامُ المُلكِ أوِ الاختصاص، فالنّارُ مثوًى خاصٌّ بهم، ممّا يعني: أنَّ النّارَ هي المكانُ الذي يُخصَّصُ لهم، فهي مصيرهم وموطنهم، ومحلُّ ثَواءٍ وإقامةٍ أبديَّة لهم، بحيثُ لا براحَ لهم منها[1].

النّارُ محلُّ إقامةٍ أبـديَّـةٍ خـاصٌّ بـالـكـافـريـن، لا براحَ لهم منها

دلالة العطف في ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾:

من محسِّنات الوصلِ بين قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾، وقوله: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوَى لَّهُمۡۖ﴾ استواءُ الجملتين المعطوفتين في التَّقييد بالشَّرطِ، وتكاملهما في تيئيسِ الكافرين المُعذَّبين في النّارِ، فلا ينفعهم صبرٌ ولا جَزَعٌ، فالنّارُ مثواهم الأبديُّ، وليس لهم خروجٌ منها، ولا يُقبَل منهم أيُّ عذر.

تكاملُ الجملتين فـي تـيـئـيـسِ الـكـافـريـن المُعذَّبين في النّار

سرُّ التَّقييد بـ(إنْ) الشَّرطيَّة دون (إذا):

تقييدُ الجملةِ الشَّرطيَّة بحرفِ الشَّرط (إنْ) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ سؤالهم العُتْبَى - وهو الرُّجوعُ إلى ما يحبّونَهُ - للجزع الذي هُم فيهِ، وطلبُهم الرِّضا بزوالِ العَتبِ غيرُ متحقّقِ الوقوعِ منهم، كما أنَّهم يتوقَّعون عدمَ قبولِ ذلك منهم، وفي هذا إشارةٌ إلى شدَّةِ يأسهم، وكذلك في التَّقييد بحرف (إنْ) تحقيقُ التَّناسبِ بين الجملتين.

عـدمُ تـحـقُّـقِ طلبِ المُعذَّبين خروجَهم من النّار، إشارةٌ إلى شدَّةِ يأسهم

سرُّ التَّعبير بفعل الشَّرط مضارعًا، ودلالةُ التَّعبير بالزّيادة:

التَّعبيرُ بفعل الشَّرط ﴿يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مهما تجدَّدَ في الآخرة طلبُهم الرِّضا أو اعتذارُهم أو استغاثتُهم أو استقالتهم أو جزَعُهم؛ فما هُم مِنَ المُعتَبين، أي: فما هم مِن المَرضيِّ عنهم، أو المَعذورين، أو

مهما تجدَّدَ في الآخرة طلبُهم الرِّضا فلن يُرضى عنهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 370.

المُغاثين، أو المُقالين، أو الآمنين[1]، وفي ذلك دلالةٌ على شدَّة خزيهم وما يتعرَّضون له من عذابٍ حِسّيٍّ ونفسيٍّ، والسّين والتّاء في قوله: ﴿يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ للطَّلبِ؛ لأنَّ المَرءَ لا يسألُ أحدًا أنْ يعاتبَه، وإنَّما يسأله ترْكَ المعاتبة، أي: يسألهُ الصَّفحَ عنه[2].

سرُّ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة اسميَّةً منفيَّة ﴿فَمَا هُم﴾:

انتفاءُ قبولِ اعتذارِ الكافرين في الآخرة أمرٌ ثابتٌ مؤكَّدٌ، وحُكمٌ من اللهِ قاطعٌ

جملةُ جوابِ الشَّرط: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ جملةٌ اسميَّة؛ إذ (ما): نافيةٌ تَعمَلُ عَمَلَ (ليس)، واسم (ما) هو: (هم) مَبنيٌّ على السُّكونِ، و﴿مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ جارٌّ ومجَرورٌ متعلِّقانِ بالمَحذوفِ خبر (ما)؛ وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ المجيءَ بها اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على أنَّ انتفاءَ قبولِ اعتذارِ الكافرين في الآخرة أمرٌ ثابتٌ، وحُكمٌ من اللهِ قاطعٌ ودائمٌ ماضيًا وحالًا، وفيه إقناطٌ عن الخلاص، وتيئيس من الخروج من النّار، فقد فاتَ الأوانُ، فالنّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ، وكُلُّ إنسانٍ مأواه النّارُ، فلا حَظَّ له في الجَنَّةِ، فهُم "إن يستقيلوا؛ لا يُقالوا، وإن اعتذروا؛ لا يُعذَروا"[3].

دلالةُ التَّعبير بـ(ما) النّافية:

تشديدُ عذابِ الكافرين بدوامِ عذابهم وعدمِ تحقيقِ مُرادِهم

أفادتْ (ما) نفيَ الحالِ والاستقبال، فالمُعذَّبون في النّار ليسوا من المُجابين لِما يطلبونَ من الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، أو ليسوا من المعذورين أو المُغاثين أو المُقالين؛ ليدلَّ النَّفيُ على دوامِ عذابهم وعدمِ خروجهم من النّار أبدًا، مع العذابِ النَّفسيِّ في عدمِ تحقُّقِ ما أرادوا من الخروجِ منها، فما عادَ هناك عتابٌ، وما عادَ هناك متابٌ، وقد جرتِ العادةُ أنَّ الَّذي يطلبُ العتابَ يطلبُ من ورائِهِ الصَّفحَ والرِّضا بعد إزالةِ أسبابِ الجفاء، فاليومَ يُغلَقُ البابُ في وجهِ العتابِ، فلا صفحَ ولا رِضًا.

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 274.
(3) التّستريّ، تفسير التّستريّ، ص: 137.

دلالةُ التَّعبير باسم (ما) ضميرًا:

مبالغةٌ في إقناطِ الكافرين من الخروجِ من النّارِ والعودةِ إلى الدُّنيا

﴿هُم﴾ اسم (ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾، وهو ضميرُ فصلٍ يُفيدُ المبالغة في توكيدِ انتفاءِ قَبولِ اعتذارِ الكافرين في الآخرة، وتوكيدِ عدمِ خروجهم من النّار وعودتهم إلى الدُّنيا، بما يدلُّ على تشديدِ العذابِ عليهم.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

في زيادةِ تأكيدِ إبقاءِ المُعذَّبين في النّار زيادةُ ترهيبٍ للمخاطَبين ليتَّعِظوا

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ حرفُ جرٍّ للتَّوكيد، والتَّقدير: (فما هم مُعتبين)، أي: أكَّد التَّعبير بها انتفاءَ قبولِ اللّهِ لاعتذارهم، أو قبولِ طلبهم بأنْ يُخرِجَهمُ اللّهُ من النّار إلى الدُّنيا؛ ليؤمنوا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾، كقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥﴾ [الجاثية: 35]، وفي هذا التَّأكيدِ زيادةُ ترهيبٍ للمخاطَبين؛ ليتَّعِظوا.

دلالةُ التَّعبير باسم المفعول ﴿ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾:

في تأكيدِ ثبوتِ عدمِ قَبولِ عتبِهم تأكيدٌ لاستقرارِهم في النّار

أتى التَّعبيرُ باسمِ المفعول عن الفعلِ المستقبلِ في قوله تعالى: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾، فإنَّ ما تُخْبِرُ به الآيةُ يحدثُ يومَ القيامة، كما أنَّ اسمَ المفعول يتضمَّنُ معنى الفعلِ الماضي، وهذا يتناسبُ مع أحداثِ يوم القيامة، الَّذي كثيرًا ما يُعبَّر عنها بالفعلِ الماضي، فدلَّ اسمُ المفعول على التَّحقُّقِ والثُّبوتِ والاستقرار، ممّا أعطى مزيدًا من التَّأكيدِ على عدمِ قَبولِ عتبهم واعتذارِهم، ثُمَّ تأكيدِ ثبوتِهم واستقرارِهم في النّار وعدمِ خروجهم منها، وهذا يتلاءَمُ مع التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة.

۞ الفروقُ المُعجَميَّة:

المثوى والمأوى:

المثوى هو مكانُ الإقامةِ، والمأوى هو مكانُ اللُّجوءِ والحِماية

المثوى: هو مكانُ الإقامة؛ إذِ الأصلُ فيه الإقامَةُ، وزادَ بعضُهُمُ

الاستقرارَ على الإقامَةِ، والثّاوي مَن طالَتْ إقامَتُهُ[1]، وقيل للمنزلِ والمسكن: مثوًى؛ لأنَّ صاحبَهُ يُقيمُ فيه[2].

وأمّا المأوى؛ فهو مكانُ اللُّجوءِ والحماية؛ إذ أصلُهُ يدلُّ على التَّجمُّعِ والإشفاقِ، والمأوى هو الملجأُ والمأمَنُ ممّا يُخشَى منه[3]، ومأوى الرَّجلِ: منزلُهُ الذي يميلُ إليه، ويُقيمُ فيه[4]، وقد ناسبَ التَّعبير بلفظ ﴿مَثۡوَى﴾؛ لكون السّياق عن أهلِ النّار وطولِ إقامتهم واستقرارهم فيها، فهي ليست أمانًا ولا حمايةً لهم.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (ثوي).

(2) العسكريّ، الوجوه النّظائر، ص: 155.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أوى).

(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 86.

﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥﴾ [فصّلت: 25]

۞ مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استحقاق الكافرين للعذابِ لاستماعهم لوسوسةِ قرناءِ السّوء

لَمّا ذَكَر اللّهُ تعالى الوَعيدَ الشَّديدَ في الدُّنيا والآخِرةِ على كُفرِ أولئك الكُفّارِ؛ أردَفَه بذِكرِ السَّبَبِ الَّذي لأجْلِه وقَعوا في ذلك الكُفرِ[1]، فقال: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾، أي: جاءتِ الآيةُ تعليلًا لِما صاروا إليه من المصيرِ السَّيِّئِ[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿۞وَقَيَّضۡنَا﴾: أصلُ القَيضِ: القِشْرَةُ العُليا اليابسَةُ على البَيْضَةِ[3]، وقَيَّضَ اللهُ لَهُ كَذا، أي: قَدَّرَهُ، وقايَضْتُهُ بِهِ: عاوَضْتُهُ عَرَضًا بِعَرَضٍ[4]، وقيَّض اللهُ فلانًا لفلانٍ: جاءَ به، وأتاحه له، وتقيَّض له: تقدَّر، وتسبَّب[5]، و﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ [الزّخرف: 36]، أي: نُتِحْ، ليَستوليَ عليه استيلاءَ القَيضِ على البيضِ، وهو القشرُ الأعلى[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾، أي: يسَّرنا، وهيَّأنا، وقدَّرنا، وسلَّطنا، فبعثنا لهم نُظراءَ مِنَ الشَّياطين[7].

2) ﴿قُرَنَآءَ﴾: جمع قرين، وأصله من (قرن)، ويدلُّ على جَمعِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 557.
(2) دروزة، التّفسير الحديث: 4/ 413.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (قيض).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (قيض).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 316.
(6) الرّاغب، المفردات: (قيض).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 458، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 274، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 124.

شَيءٍ إلى شَيءٍ، قَرَنْت الشَّيءَ بالشَّيء؛ إذا وصَلْتَه، وقَرينَةُ الرَّجُلِ: امرَأَتُه[1]، وقَرينُكَ: صاحِبُك الَّذي يُقارِنُكَ ويُلاصِقُك ويتَّصِلُ بك[2]، والقَرينُ يَكونُ في الخَيْرِ والشَّرِّ، فقَرينُ الإنسانِ مُصاحِبُهُ مِن المَلائكَةِ والشَّياطين وكلِّ إنسانٍ[3]، والمرادُ بالقرناء في الآية: المُلازِمونَ لَهُم في الضَّلالَةِ، أي: نُظراء مِنَ الشَّياطين[4].

3) ﴿فَزَيَّنُواْ﴾: (زين) أصلٌ يَدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[5]، والمعنى المحوريُّ له: زيادةٌ محبَّبَةٌ تعلَقُ بظاهِرِ الشَّيء، ناشئةٌ عمّا يَزخرُ به باطنُهُ[6]، والزِّينَةُ: جامعٌ لكُلِّ ما يَتزيَّنُ به النّاسُ، والزَّيْنُ: نقيضُ الشَّيْنِ، وزَيَّنَهُ؛ إذا أظهرَ حُسْنَهُ[7]، والتَّزْيينُ: تَصييرُ الشَّيءِ زَيْنًا، فهو تَحسينُ الشَّيءِ المُحتاجِ إلى التَّحسينِ، وإزالَةُ ما يَعتَريهِ مِنَ القُبحِ أوِ التَّشويه؛ ولِذَلِكَ سُمّيَ الحَلّاقُ مُزَيِّنًا[8]، والمقصودُ بالتَّزيين في الآية: تَحسينُ ما لَيسَ بِحَسَنٍ بَعْضِهِ أو كلِّهِ، والمرادُ بالتَّزيين في الآية: التَّحسين، والمعنى: زيَّنوا لهم ما يعملونه في الدُّنيا من فسادٍ وقبائح أعمال، فحسَّنوا ذلك لهم، وحبَّبوه إليهم حتّى آثَروه على أمرِ الآخرة[9].

4) ﴿وَحَقَّ﴾: (حقَّ) أصلٌ يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[10]، يُقال: حَقَّ الشَّيءُ يَحَقُّ حَقًّا؛ إذا ثَبَتَ، ولَزِمَ[11]، ويأتي الحَقُّ بِمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[12]، وتحقَّقَ الأمرُ؛ إذا صَحَّ، ومعنى ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾: وجبَ لهم، وثبتَ، وتقرَّرَت عليهم كلمةُ العذابِ، وتحقَّقَ موجبُها ومِصداقُها[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (قرن).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قرن).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قرن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 458.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (زين).
(7) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، (زين).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 179.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 458، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 275.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(11) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حق).
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 459، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 275.

5) ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾: القولُ هو الكلامُ على التَّرتيب، أو اللَّفظ الموضوع لمعنى[1]، و"القولُ مِنَ النُّطقِ، يُقالُ: قالَ يقولُ قولًا، والمِقوَلُ: اللِّسانُ، ورجلٌ قوَلَةٌ وقوّالٌ: كثيرُ القولِ"[2]، ويُطلقُ القولُ على الكلامِ أيضًا[3]، وهناك استعمالاتٌ أخرى للقولِ كالاعتقاد، والدَّلالةِ على شيء، والعنايةِ الصّادقة بالشَّيء، وكذلك الحَدُّ والإلهام، ومِن أظهرِ استعمالاتِ القول: "أنْ يكون للمُركَّب من الحروف المُبرَز بالنُّطق، مفردًا كان أو جملة"[4]، والمُرادُ بالقول في الآية: كلمةُ العذاب، والقضاءُ المُحكم بأنَّهم معذَّبون، ووعيدُ اللهِ إيّاهم بالنّارِ على الكفرِ[5].

6) ﴿خَلَتۡ﴾: فعلٌ ماضٍ جَذرُهُ اللُّغويُّ من (خلو)، وأصله يدلُّ على تَعَرّي الشَّيء مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: هو خِلْوٌ مِن كذا؛ إذا كان عِرْوًا منه، والخَليُّ: الخالي مِنَ الغَمِّ، وامرأةٌ خَليَّةٌ: كنايةٌ عَنِ الطَّلاقِ؛ لأنَّها إذا طُلِّقَتْ؛ فقد خَلَتْ عَنْ بَعلِها[6]، وخلا الشَّيءُ: مَضَى، وذَهَبَ، فخلا منه المكانُ والزَّمانُ الَّذي كان يشغله[7]، والخُلُوُّ يُستعملُ في الزَّمان والمكان، لكن لـمّا تُصوِّرَ في الزَّمان المُضيُّ؛ فسَّر أهلُ اللُّغة: خلا الزَّمان، بقولهم: مضى الزَّمان، وذهب[8]، ومعنى ﴿خَلَتۡ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: مضَتْ[9].

7) ﴿خَٰسِرِينَ﴾: (خسر) أصلٌ يدلُّ على النَّقْصِ، يُقال: خَسَرْتُ الميزانَ وأخْسَرْتُهُ؛ إذا نَقَصْتَهُ[10]، وخَسِرَ التّاجِرُ: وُضِعَ في تِجارَتِهِ أو غُبِنَ، والأوَّل هو الأصل، وصفقةٌ خاسرةٌ: غيرُ رابحةٍ، وكَرَّةٌ خاسِرةٌ: غيرُ نافِعةٍ، والخَسار والخَسارة: الضَّلالُ والهَلاكُ[11]، ومعنى ﴿خَٰسِرِينَ﴾: مغبنون ببيعِهم رضا اللّه ورحمته بسَخَطِهِ وعذابِهِ[12].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قول).
(4) الرّاغب، المفردات: (قول).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 459، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 234، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 301، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 275.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (خلو، خلى).
(8) الرّاغب، المفردات: (خلا).
(9) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خسر).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 459.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إخبارٌ عن الأسبابِ المُؤدّيَةِ إلى وجوبِ العذابِ على الكافرين

يقولُ تعالى مُبيِّنًا الأسبابَ الَّتي أدَّت إلى سوءِ عاقبةِ الكافرينَ: وقَدَّرْنا، وسَبَّبْنا، وبعثنا للكُفّارِ نظراءَ سوءٍ من شياطين الجنِّ وغواةِ الإنس، فحَسَّنوا لهم الحياةَ الدُّنيا وشَهَواتِها المحرَّمةَ، حتَّى افتَتَنوا بها، وآثَروها على الآخِرةِ، وحَسَّنوا لهم التَّكذيبَ بالبَعثِ والجَزاءِ، فحَقَّ عليهم هذا المصير، ووَجَب عليهم عذابُ اللهِ كما حقَّ على أمثالهم مِن قبلهم من كُفّارِ الجنِّ والإنس في أُمَمٍ قد مضَتْ قَبْلَهم، وكانوا خاسرين في النِّهاية[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَقَيَّضْنَا﴾:

عطفُ جمعَ بين مصيرِ الكافرين في الآخِرةِ وسَبَبِ ضَلالِهِمُ الذي أرداهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩﴾ [فصّلت: 19]؛ وذلك أنَّه ذُكِر مَصيرُهم في الآخِرةِ بقَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصّلت: 19]، ثمَّ عُقِّبَ ذلك بذِكرِ سَبَبِ ضَلالِهِمُ الَّذي نَشَأَتْ عنه أحوالُهم بقَولِه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾، وتَخلَّلَ بيْنَ ما هُنالِكَ وما هنا أفانينُ مِنَ المَواعِظِ والدَّلائِلِ والمِنَنِ والتَّعاليمِ والقَوارِعِ والإيقاظِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّقييضُ أنسبُ للمقامِ وأدلُّ على ضعفِ كيدِ الشَّيطان

آثَرَ البيانُ الحكيم لفظَ ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ دونَ غَيرِه مِن نَحوِ: (يسَّرنا، وهيَّأنا، وقدَّرنا، وسلَّطنا، وسبَّبنا، وقرنّا)[3]، في قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾؛ لكون التَّقييضِ أنسبَ للمقام؛ إذ معنى تقييضِ القُرناء - من الشَّياطين أو دُعاةِ الكُفرِ وأئمَّته - للكافرين: تَقديرُهم لهم، أي: خَلَقَ سبحانه المُناسَباتِ الَّتي يَتسَبَّبُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 458، ودروزة، التّفسير الحديث: 4/ 413.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 274.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 25/ 357.

عليها تَقارُنُ بَعضِهم مع بَعضٍ؛ لِتَناسُبِ أفكارِ الدُّعاةِ والقابلِينَ، فالتَّقييضُ بمَعنى التَّقديرِ عِبارةٌ جامعةٌ لِمُختَلِفِ المُؤَثِّراتِ والتَّجَمُّعاتِ الَّتي توجِبُ التَّآلُفَ والتَّحابَّ بيْنَ الجَماعاتِ، ولِمُختَلِفِ الطَّبائِعِ المُكَوَّنةِ في نُفوسِ بَعضِ النّاسِ، فيَقتَضي بَعضُها جاذبيَّةَ الشَّياطينِ إليها، وحُدوثَ الخَواطِرِ السَّيِّئةِ فيها[1]، كما أنَّ التَّقييضَ فيه معنى الاستيلاءِ، أي: نُتِحَ له؛ ليَستوليَ عليه استيلاءَ القَيضِ على البيضِ، وهو القِشرُ الأعلى[2]، وفيه مع ذلك ضعفٌ إذا ما جوهِد؛ لأنَّ أصلَ القَيْضِ: القِشْرَةُ العُليا اليابسَةُ على البَيْضَةِ[3]، وجاءَتْ صيغة ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾ بالماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقِ هذا التَّقييضِ لهؤلاءِ الكافرين، فهو سُنَّةٌ إلَهيَّةٌ في الابتلاءِ لا تتخلَّف.

سرُّ الإسناد إلى الضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم:

قـدرةُ اللـهِ علـى كـلِّ شيءٍ وعظمته تستدعي الاستعاذةَ من شرِّ القُرناء

مجيءُ الضَّميرِ الدّالِّ على التَّعظيم في قوله: ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾؛ للتَّناسبِ مع سياقِ التَّفخيم والتَّعظيم لقُدرةِ اللهِ سبحانه، أي: جئنا، وأتَحْنا، وبعثنا، وسبَّبنا، ووكَّلنا، وهيَّأنا بعظَمتنا، ولتصويرِ هذا الفعل الإلهيِّ في صورةٍ يكسوها الجلالُ والمهابةُ، الَّتي تستدعي أنْ يَلوذَ الإنسانُ بالله للنَّجاةِ من كيدِ الشَّيطان، وألّا يغفلَ عن ذِكرِ اللهِ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾ [الزّخرف: 36]، كما أنَّ في ضميرِ العظَمةِ إشارةً إلى أنَّ التَّصرُّفَ في القلوبِ أمرٌ عظيمٌ جدًّا[4].

الغرضُ مِن تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول به:

القُرناءُ خاصّون بمَن غفلَ عن اللهِ، مُقيَّضون لهم بشكلٍ مُحدَّدٍ

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ الجارَّ والمجرور على المفعول به في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 274، 275.
(2) الرّاغب، المفردات: (قيض)، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 25/ 357، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (قيض)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 174.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 174.

تعالى: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾؛ لإفادةِ الاختصاص، فهؤلاء القرناءُ هم خاصّون بالكافرين المتحدَّث عنهم في الآياتِ السّابقة، وأنَّ القرناءَ مُقيَّضون لهم بشكلٍ مُحدَّدٍ، وهذا يُعزِّزُ من فكرةِ أنَّ هناك ارتباطًا وثيقًا بين هؤلاء القرناءِ والأشخاصِ المذكورين، لا بدَّ أن ينتبهَ إليه المتلقّي للخطاب، كما أنَّ التَّقديمَ يُشعِرُ بأنَّ اللّهَ تعالى قدِ اعتنى بهؤلاء الأشخاصِ بما يستدعي اللّوذَ به لا الإعراضَ عنه سبحانه والاستمرارَ في الغفلةِ عن ذِكْره.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿قُرَنَآءَ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿قُرَنَآءَ﴾ دون غيره من الألفاظ كـ (أصحاب) مثلًا؛ للإشارةِ إلى الشَّبَهِ بين القرناءِ والكافرين في الأوصافِ والأخلاقِ، وملازمةِ وإحاطةِ القرناءِ والتصاقِهم بهم، كما يدلُّ المعنى اللُّغويُّ للقرين[1]، وأيضًا فإنَّ لفظَ القرينِ أعمُّ منَ الصّاحبِ الذي يختصُّ بالآدميِّ والانتفاعِ منه[2]، والمعنى: قيَّضنا لهم أشخاصًا أمثالَهم في الأخلاقِ والأوصافِ أقوياءَ، وهم مع كونهم شديدي الالتصاقِ والإحاطة بهم، إلّا أنَّهم في غايةِ النَّحسِ والشِّدَّةِ في اللُّؤمِ والخُبثِ واللَّجاجة، فيما يكونُ به ضيقُ الخيرِ واتِّساعُ الشَّرِّ من غواةِ الجنِّ والإنس[3].

غــــواةُ الــجـنِّ والإنـسِ لا يأتي منهم إلّا الضُّرُّ

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَزَيَّنُواْ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ عاطفةٌ تُفيدُ التَّعقيبَ، بما يدلُّ على سُرعةِ قرناءِ السّوءِ من الجنِّ والإنسِ في تحسينِ الباطلِ وتزيينه وإغواءِ الكافرين.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قرن).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 283، 284.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 174.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿فَزَيَّنُواْ﴾:

تـزيـينُ قـرنـاءِ السّوءِ للغاوين أمرٌ واقعٌ لا شكَّ فيه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله: ﴿فَزَيَّنُواْ﴾ بصيغةِ الماضي، رغمَ أنَّ قرناءَ السّوءِ لا يزالونَ في كلِّ شيء يزيّنونهُ، ويُلِحّونَ فيه، ويُكرِّرونه حتّى يُقْبَلَ، فإنَّ التَّكريرَ مقرونٌ بالتَّأثير(1)، فأتى بالماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ التَّزيينِ من قرناءِ السّوءِ للغاوين، "أي: حَسَّنوا لهم أعمالَهم في الماضي، وبالنِّسبةِ إلى المستقبلِ، فلم يَروا أنفسَهم إلّا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧﴾ [الزّخرف: 36 - 37]"(2).

سرُّ تكرارِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُم﴾:

تـأكـيـدٌ يحملُ تـحـذيـرًا من الوقوعِ في الكفرِ

في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ كرَّرَ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُم﴾، فقد ذكرَ في الجملة قبلها: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾؛ وذلك للإشارةِ إلى استقلالِ كلِّ فعلٍ، وأنَّه مختصٌّ بهم، فتقييضُ القُرناءِ كان خاصًّا بهم دونَ غيرِهم، وكذلك تزيينُ القرناءِ كان لهم دونَ غيرهم، فيكون ذلك تأكيدًا للسَّببِ الذي لأجْلِه وقَعوا في ذلك الكُفرِ؛ ليكونَ ذلك أدعى للحَذَرِ من الوقوع فيما وقعوا فيه.

معنى ﴿مَّا﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مَّا بَيۡنَ﴾:

حِـرْصُ قـرنـاءِ الـسّـوءِ على الـتَّـزيـين للكافرين بشتّى الوسائل

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ اسمُ موصول بمعنى (الذي)، يفيدُ التَّشويقَ بما يتضمَّنهُ من الإبهام، ويفيدُ العمومَ بما يدلُّ على مدى حرصِ هؤلاءِ القرناءِ على التَّزيين لهؤلاء الضّالّين؛ إذ لم يتركوا وسيلةً من الوسائلِ إلّا افتعلوها، وحملوها للإغراءِ والإفسادِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 175.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 174.

تصويرٌ لحرصِ القرناءِ على الإغواءِ يبرزُ شدَّتَهُ والإلحاح على تفعيله

عاقبةُ الكافرين نتيجةَ تزيينِ قرناءِ السّوءِ لهم هو وجوبُ العذابِ عليهم

الإخبارُ بحقّيّةِ العذابِ على الكافرين تهديدٌ وتخويفٌ لهم

الحُكمُ بثبوتِ العذابِ ودوامِ الخُسرانِ خاصٌّ بالكافرين

الغرضُ من الإطناب بذكر (﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾، ﴿خَلۡفَهُمۡ﴾):

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بقوله: ﴿مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، ولم يكتفِ بقوله: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾؛ تصويرًا لحرصِ القرناءِ من شياطين الجنِّ والإنس على تزيينِ الباطلِ للكافرين وكثرته، وإلحاحِهمُ المستمرِّ في التَّزيين، تارةً من أمامهم، وتارةً من خلفهم، كما يفعلُ الحريصُ على تحصيلِ أمرٍ، بأنْ يتطلَّبه، ويُعيدَ تطلُّبَه، ويستوعبَ مظانَّ وجودِه، فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم من جرائمِ الدُّنيا، وما خلفَهم من التَّكذيبِ بالمَعادِ وإنكارِ البعث، وهذا التَّصويرُ لحرصِ القرناءِ على الإغواء يُبرِزُ شدَّته والحرصَ على تفعيله.

معنى الواو في ﴿وَحَقَّ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ عاطفةٌ[1]، والمعطوفُ عليه محذوفٌ بعد قوله: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، تقديره: (فلم يدعوا قبيحةً حتّى ارتكبوها)، أي: وجبَ، وثبتَ عليهم القولُ بدوامِ الغضبِ[2]، فالعطفُ هنا بيَّن عاقبةَ كفرِهم وارتكابِهمُ الفواحشَ نتيجةَ تزيينِ قرناءِ السّوءِ لهم، بأن وجبَ عليهم العذاب.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿وَحَقَّ﴾:

التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾، يدلُّ على أنَّ حُكمَ اللّهِ بخسارةِ الكافرين ودوامِ غضبِ اللّه عليهم قد وجبَ، وثبتَ، وتمَّ، وانتهى، وأنَّه لا رجعةَ فيه ولا تبديلَ، وفي هذا من التَّهديدِ والتَّخويفِ والتَّحذير ما فيه.

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل:

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شِبهَ الجملة ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾؛ تخصيصًا للكافرين بهذا الحُكمِ بثبوتِ العذاب عليهم ودوامِ الخسران

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 548.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 175.

لهم، وتخويفًا لهم، وتركيزًا لانتباهِ المتلقّي على هؤلاء الأشخاص وما حقَّ عليهم، وتشويقًا للمُؤَخَّر، وهو القولُ الَّذي حقَّ عليهم، وهذا التَّركيزُ يُؤَكِّدُ خطورةَ هذا الحُكمِ وأهمّيَّتَهُ بالنِّسبةِ لهم.

دلالة (على) في قوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾:

عـــذابُ الـلـهِ مـتـمـكِّـنٌ من الـكـافـريـن فلا يُفلتُ منه أحدٌ

أفادَ حرفُ الجرِّ (على) الذي عُدّي به الفعل (حقَّ) في قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ الوجوبَ والإلزامَ والاستحقاق، أي: وجبَ العذابُ عليهم؛ لاستحقاقهم له بسببِ كفرهم وفعلهمُ الفواحش، فهُم مُلزمون بتحمُّلِ تبعاته، كما أفادَ الاستعلاءَ المجازيَّ المُكَنّى به عن تمكُّنِ القولِ، وهو امتلاءُ جهنَّم بالكافرين؛ لأنَّ المستعلي يتمكَّن من المُستعلى عليه.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾:

وعـيـدٌ معـهـودٌ مِن اللهِ إيّاهم بعذابِ النّارِ على الكُفر

التَّعريفُ في القولِ في قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ لِلعَهدِ، وهو ذهنيٌّ، أي: هو وعيدُ اللّهِ إيّاهم بعذابِ النّارِ على الكُفر، وفي هذا العَهدِ إجمالٌ؛ لأنّه وإن كانَ قد ورَدَ في القُرآنِ ما يُعهَدُ منه هذا القَولُ، مِثلُ قَولِه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الزُّمَر: 19]؛ فإنَّه يُمكِنُ ألّا تَكونَ الآياتُ المَذكورةُ قد سَبَقَتْ هذه الآيةَ[1].

معنى ﴿فِيٓ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾:

مبالغةٌ في وصفِ عذابِ الكافرين بـأنَّـهـم من جملةِ المعذَّبين الخاسرين

﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ ظرفيَّةٌ مَجازيَّةٌ، وهي بمعنى التَّبعيض، أي: هم بعضٌ من أُمم قد خلَتْ مِن قَبلهم، حقَّ عليهم القولُ، وهي حالٌ مِن ضَميرِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾، أي: حَقَّ عليهم حالةَ كَونِهم كائنين مستغرَقين في جملةِ أُمَمٍ أمثالِهم قد سَبَقوهم[2]، وفي هذا مبالغةٌ في وصفِ عذابهم، بأنَّهم ليسوا وحدَهم، بل حقَّ عليهم العذابُ في جملةِ المُعذَّبين وفريقِ الخاسرين،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 275.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 197، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 276.

ويمكن أنْ تكونَ بمعنى (مع)، والمعنى: وجبَ عليهم العذابُ بكفرِهم مع أُممٍ مضَتْ قبلهم من الجنِّ والإنس[1].

دلالةُ الجمعِ والتَّنكير في لفظ ﴿أُمَمٖ﴾:

المُكذِّبون برسول اللهِ أدعى للهلاكِ والعذابِ كما هلكَتْ أممٌ كثيرةٌ قبلهم

دلَّ الجمعُ والتَّنكير في لفظ ﴿أُمَمٖ﴾ على التَّكثير والتَّنويع والإبهام، فالأممُ الدّاخلةُ النّارَ كثيرٌ عددُها، أي: حقَّ على المُكذِّبين العذابُ في جملةِ أممٍ كثيرةٍ متنوِّعة قد خلَتْ مِن قبلهم مِن الجنِّ والإنس، واليهودِ والنَّصارى والمشركين والمنافقين، وستنتهي حالُهم إلى ما انتهَتْ إليه هذه الأمم السّابقة من النَّكارةِ والإبهام، بما يدلُّ على التَّحقيرِ لهم، والتَّسليةِ للنَّبيِّ ﷺ[2]، بإيذانه بأنَّ اللّهَ ناصرُه على مُكذِّبيه، ومُهلكُهم كما أهلكَ الأممَ الكثيرة قبلَهم، الَّتي ما كانَتْ تُغني عنهم من اللهِ شيئًا حين استكبروا، وكفروا بالله، والتَّهديدِ والوعيد لكلِّ متلقٍّ لهذا الخطاب.

سرُّ التَّقييد بالصِّفة:

مُضيُّ الأممِ وهلاكُها من الأمورِ الحادثةِ، وحالُها يدعو للاتِّعاظ والاعتبار

أوثِرَ وصفُ ﴿أُمَمٖ﴾ بجملةٍ فعليَّةٍ فعلُها ماضٍ في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾، ولم يقل: (في أممٍ خاليةٍ قبلكم)؛ لتدلَّ على الحدوثِ وعدمِ الثُّبوتِ، فمُضيُّ الأممِ وهلاكُها من الأمورِ الحادثةِ عبرَ العصور، وهذا أدعى للاتِّعاظِ والاعتبارِ بحالِ الأممِ الَّتي مضَتْ، وهلكَتْ على مرِّ الزَّمن، ولو أتى بالوصفِ اسمًا؛ لدلَّ على الثُّبوتِ، وهذا لا يتناسبُ مع حالِ الأمم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿قَدۡ﴾، ودخولُها على فعلٍ ماضٍ ﴿خَلَتۡ﴾:

تحقيقُ دخولِ جَماعاتٍ كثيرة يوجبُ الحَذرَ من سلوكِ سبيلها في الدُّنيا

في التَّعبير بـ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾ توكيدٌ للجملة الفعليَّة - التي فعلُها ماضٍ - وتقوية

(1) الواحديّ، الوجيز، ص: 954، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 131، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 175.

لَها، فَفيهِ تحقيقُ دخولِ جَماعاتٍ كثيرة ومتنوِّعة مِنَ الجنِّ والإنسِ النّارَ، وفي هذا تحذيرٌ للمخاطَبين من سلوكِ سبيلِ هذه الأمم الكافرةِ في الدُّنيا، حتّى لا يُصيبَهم ما أصابها في الآخرة.

نُكْتَةُ تأنيث فعل ﴿خَلَتْ﴾:

عدمُ اتِّعاظِ الأممِ بحالِ بعضها دليلٌ على ضَعفِ عقلها

أنَّثَ البيانُ الحكيم المسندَ ﴿خَلَتْ﴾ بضميرِ التَّأنيث؛ تحقيرًا للمعذَّبين، وإعلامًا بضَعْفِ عقولِهم ورقَّتِها، وسَفَهِ أحلامهم؛ حيثُ اقتحموا ما كان فيه خَسارَتُهُم الأبديَّةُ، ولم تتَّعظْ أمَّةٌ بأخرى[1].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن قَبْلِهِم﴾:

حقيَّةُ العذابِ على الأممِ الكافرة ممَّن سبق أمرٌ مؤكَّد

أفادَ دخولُ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ على ﴿قَبْلِهِم﴾ في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ توكيدَ المعنى وتقويتَهُ، وهو الدَّلالَةُ الغالِبَةُ على ﴿مِن﴾ المُقتَرِنَةِ بـ(قَبْلُ) و(بَعْدُ)، وأفادَ كذلك الاحتراسَ مِن دخولِ مَن آمَنَ في الزَّمَنِ الماضي في نظمِ الآية[2].

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها في ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾:

بيانُ شمولِ العذابِ الضّالينَ كلِّهم وبيانُ شمولِ إضلالِ القرناء

﴿مِّنَ﴾ في قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بَيانيَّةٌ، فيَجوزُ أنْ تكونَ بَيانًا لـ﴿أُمَمٍ﴾، أيْ: مِن أُمَمٍ مِنَ البَشَرِ ومِنَ الشَّياطينِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ بَيانًا لـ﴿قُرَنَآءَ﴾، أي: مُلازِمينَ لهم مُلازَمةً خَفيَّةً، وهي مُلازَمةُ الشَّياطينِ لهم بالوَسوَسةِ، ومُلازَمةُ أئِمَّةِ الكُفرِ لهم بالتَّشريعِ لهم ما لم يَأذَنْ به اللهُ[3]، وفي المعنيين بيانٌ لشمولِ العذابِ الضّالّين كلِّهم، سواءٌ كانوا جِنًّا أم إنسًا؛ إذ عِلَّةُ العذابِ هي الضَّلال.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ في ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾:

عظيمُ قدرةِ الله وحُكمِه شملتا الثَّقلين

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: الجنُّ والإنس، وهو مِن طباقِ الإيجابِ في الأسماء؛ للإشارةِ إلى عظيمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 176.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 176.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 276.

قدرةِ اللّهِ وحُكمه اللَّذين شملا الثَّقلَين من كفّارِ الإنسِ والجنِّ، بإدخالهم نارَ جهنَّم.

نُكْتَةُ تقديم ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على (الإنس):

الجِنُّ أعرقُ في الكفرِ، وآصلُ في الإغواء، وأسبقُ خَلقًا وتكليفًا

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ ذِكرَ الجنِّ على الإنسِ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ﴾، من باب تقديمِ الأقوى والأغربِ والأعجب؛ لِتُفهمَ القُدرةُ عليه القُدرةَ على ما دونَه مِن بابِ الأولى، فإنَّ الإنسَ كانوا يَعُدّونَ أنفُسَهم دونَ الجنِّ، فيَعوذونَ بهم[1]، وفي هذا مناسبةٌ لحالِ الجاهليَّةِ من تعظيمِهم الجنَّ، ولكونِ الجنِّ أعرقَ في الكفرِ، وأسبقَ خَلقًا وتكليفًا، أي: من بابِ التَّقديمِ بالزَّمان، ولكونِ تقديمِ الجنِّ على الإنسِ هي عادةُ القرآن؛ إذ قُدِّمتِ الجنُّ على الإنس في أغلبِ مواضع القرآن الكريم.

موقعُ جملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ ممّا قبلَها، ودلالتُه:

بيانٌ أو تعليلٌ يُنبئُ عنِ استحقاقِهمُ العذابَ لكونهم خاسرين

يَجوزُ أن تكونَ جُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ بَيانًا لِلقَولِ في قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ﴾، مِثلَ نَظيرَتِها: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١﴾ [الصّافات: 31][2]، أو تَعليلًا لاستِحقاقِهمُ العَذابَ، والضَّميرُ للأوَّلينَ والآخِرينَ[3]، أي: فصلَ البيانُ القرآنيُّ بين جملةِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ وما قبلها؛ لكمال الاتِّصال بينهما، ويَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ مُستَأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن جُملةِ: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ﴾، أي: وكأنَّ سائلًا قد سأل: ما هو هذا القولُ، ولماذا حقَّ عليهم؟ فكان الجواب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾، والمَعنيانِ مُتَقارِبانِ[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 276.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 197، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 276.

دلالة التَّوكيد بـ(إنَّ):

أتى البيانُ القرآنيُّ بحرف (إنَّ) في جملةِ التَّذييل؛ لتأكيدِ خسارتهم، وتخصيصهم بها، وإسنادها إليهم، فهُم عريقيون في الخسارةِ ثابتون عليها، متحقِّقةٌ منهم، فيندفع أيُّ شكٍّ في أنَّهم كانوا خاسرين هالكين مستحقّين للعذاب.

تأكيدُ خسارتهم وتخصيصهم بها لاستحقاقهم العذابَ

سرُّ التَّعبير بخبر (إنَّ) جملةً اسميَّةً مُصَدَّرة بـ(كان):

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أتى البيانُ الإلهيُّ بخبرِ (إنَّ) جملةً اسميَّةً مصدَّرة بالفعلِ ﴿كَانُواْ﴾، ولم يقل: (إنَّهم خاسرون)؛ تهويلًا لخسارتهم، فأفادتِ الجملةُ توكيدَ ثباتهم ومداومتِهم على الخسارة، وتحقُّقها منهم، فاستحقّوا العذابَ على ذلك.

لتحقُّقِ خسارتهم وثباتهم عليها استحقّوا العذابَ

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القرين والصّاحب:

المقارنةُ تكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، فهي أعمُّ من الصُّحبة، وقرينُ الإنسانِ مُصاحِبُهُ من المَلائكَةِ والشَّياطين وكلِّ إنسانٍ[1]، فالمقارنةُ تُفيدُ قيامَ أحدِ القرينين مع الآخر، ويجري على طريقته، وإنْ لم ينفعه، بينما الصُّحبةُ تفيدُ انتفاعَ أحدِ الصّاحبين بالآخر، ولهذا يُستعملُ في الآدَميّين خاصَّة[2]، كما أنَّ المقارنة في أصلها تدلُّ على مجرَّدِ جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[3]، وأمّا الصُّحبةُ؛ فتدلُّ على الملازمةِ والمرافقةِ والاقترانِ والمعاشرة وطولِ اللَّبث[4]، واستعمالُ لفظِ القرناء في الآية أنسبُ؛ لكونِ المقصودِ بالقرناء يعمُّ القرناءَ مِنَ الإنس والجنِّ، ولكونِ أصحابِ النّار لم ينتفعوا بقرنائهم، بل كانوا قرناءَ في الشَّرِّ، تسبَّبوا لهم في دخولهِمُ النّارَ.

القرينُ أعمُّ من الصّاحبِ الَّذي يختصُّ بالآدميِّ والانتفاعِ منه

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قرن).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 283، 284.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (قرن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صحب).

الخُلُوُّ ذهابُ الشَّيء وزوالُه بشكلٍ كاملٍ، فهو أبلغُ من المُضي

الخُلوُّ والمُضيُّ:

الخُلُوُّ أبلغُ من المضيِّ وأوسعُ دلالةً، فالخُلُوُّ هو المُضيُّ مع بقاءِ المكانِ أو الزَّمان خاليًا، فأصلُهُ يدلُّ على تَعَرّي الشَّيء مِنَ الشَّيءِ[1]، وخلا الشَّيءُ: مَضَى، وذَهَبَ، فخلا منه المكانُ والزَّمانُ الّذي كان يشغله[2]، فكأنَّ الخُلُوَّ هو ذهابُ الشَّيء وزوالُه بشكلٍ كامل، وأمّا المُضيُّ؛ فهو خلافُ الاستقبال، ولذا يقال: ماضٍ ومستقبل[3]، وأصلُ المُضيِّ يدلُّ على النَّفاذِ والمرور[4]، والتَّعبيرُ بلفظ ﴿خَلَتۡ﴾ أبلغُ في العِظةِ والاعتبارِ بحالِ مَن زيَّنَ لهم قرناؤهم من الجنِّ والإنس، وقد مضوا، وذهبوا، وزالوا جميعًا، وخلا منهم الزَّمانُ والمكان، وهذا أنسبُ مع السّياقِ، ولا سيِّما مع لفظِ الخاسرين.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو - خلى).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 306.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مضى).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

وجهٌ آخَرُ من إعراضِ الكافرين عن دعوةِ النَّبيِّ ﷺ

حِكايةٌ لِحالٍ أُخرى مِن أحوالِ إعراضِ الكافرين عن دعوةِ النَّبيِّ ﷺ، فبَعدَ أن وصَفَ إعراضَهم في أنفُسِهم؛ انتَقَلَ إلى وصْفِ تَلقينِهمُ النّاسَ أساليبَ الإعراضِ[1]، أي: حكى عنهم شبهةً أخرى[2].

مِن آثارِ تزيينِ قرناءِ السّوءِ تواصي الكافرين بالإعراضِ عن القرآنِ

لَمّا وصفَ اللّهُ حالَ الكافرين وتزيينَ قرناءِ السّوءِ لهم؛ أعقبَ ذلك بذِكرِ آثارِ هذا التَّزيين، وهو قولُ المشركين لبعضهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡمَعُواْ﴾: أصلُ (سمع) هو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمْعًا، والسَّمْعُ: الذِّكْرُ الجميل، يُقالُ: قَد ذَهَبَ سِمْعُهُ في النّاسِ، أي: صيتُهُ، ويُقالُ: سَمَّعْتُ بالشَّيْءِ؛ إذا أشَعْتُهُ؛ ليُتَكَلَّمَ بِهِ[4]، والسَّمْعُ: قوّةٌ في الأُذنِ به تُدرَك الأصوات، وفِعله يُقالُ له السَّمْعُ أيضًا، ويُعبَّرُ تارةً بالسَّمعِ عن الأُذُن، وتارةً عن فعلِهِ كالسَّماع، وتارةً عن الفهم، وتارةً عن الطّاعة[5]، ومعنى ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾: لا تنصتوا لقارئ هذا القرآنِ؛ إذا قرأه، ولا تُصغوا له، ولا تطيعوا، ولا تتَّبعوا ما فيه، فتعملوا به[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 277.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 558.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 276.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).

(5) الرّاغب، المفردات، ص: 424، والسمين، عمدة الحفّاظ: 2/ 221.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 460، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 125.

2) ﴿وَٱلۡغَوۡاْ﴾: (لغو) وله أصلان، أحدهما: يدلُّ على الشَّيءِ لا يُعْتَدُّ بِهِ، والآخَرُ: على اللهجِ بِالشَّيءِ[1]، واللَّغوُ: الشَّيءُ المُسقَطُ المُلْقَى المَطروح، واللَّغوُ من الكلام: ما لا يُعتدُّ به، وهو الَّذي يوردُ لا عن رويَّة وفِكر، فيجري مجرى اللَّغا، فهو كلامٌ لا يحصلُ منه فائدةٌ ونفعٌ، ولا ثمرةٌ له، وقد يُسَمّى كلُّ كلام قبيحٍ لغوًا[2]، ولَغا يَلْغو لَغْوًا، أي: قال باطلًا[3]، ومعنى ﴿وَٱلۡغَوۡاْ﴾: الغَطوا بالباطل، وشوِّشوا عليه بِلَغْوِ الكلام والتَّخليطِ من القول، فقولوا أقوالًا لا معنى لها، أو تكلَّموا كلامًا لا فائدةَ منه[4].

3) ﴿تَغۡلِبُونَ﴾: (غلب) أصلٌ يدُلُّ على قوَّةٍ وقَهرٍ وشدَّةٍ[5]، والغَلبةُ: الظُّهورُ والاستيلاءُ[6]، والـمُغَلَّبُ: الَّذي يَغلِبُه أقرانُه فيما يُمارس[7]، والَّذي غَلَبَ خَصمَهُ أو قِرنَهُ، كأنَّه غَلَبَ على خَصمِهِ، أي: جُعِلَت له الغَلَبَةُ[8]، فهو من الأضداد، وسائرُ ما في القرآن من هذا التَّركيب هو من الغَلَب، أي: القهر[9]، ومعنى ﴿تَغۡلِبُونَ﴾: لعلَّكم بفعلكم ذلك تصدّون مَن أرادَ استماعَهُ عن استماعه، فلا يسمعه، أو لعلَّكم تَطْمِسونَ أمرَهُ، وتُميتونَ ذِكْرَهُ[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تـواصي الـكفّارِ بصَدِّ النّاسِ عن سـماعِ الـقرآنِ والتَّشويش عند قراءته لينصرفوا عنه

يَحكي اللّٰهُ تعالى ما تَواصَى به المشركونَ فيما بينَهم، فيقولُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لغو).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (لغا).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لغو).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 460، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 277، ودروزة، التّفسير الحديث: 4/ 414.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غلب).
(6) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 143.
(7) الخليل، العين: (غلب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غَلَبَ).
(9) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلب).
(10) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 302.

وقال كُفّارُ قُرَيشٍ للَّذين يطيعونهم مِن أوليائهم من المشركين - خَوفًا مِن تأثيرِ القُرآنِ - لا تسمعوا لقارئِ هذا القُرآنِ؛ إذا قرأه، ولا تُصغوا له، ولا تتَّبعوا ما فيه، فتعملوا به، وعارِضوه بما لا يُفهَمُ مِن التَّصفيقِ والصَّفيرِ وباطِلِ الكَلامِ؛ لعَلَّكم تَغلِبونَ بذلك محمَّدًا وأتْباعَهُ، بأنْ تصدّوا مَن أرادَ استماعه عن استماعِه، فلا يسمعه، وإذا لم يسمعه، ولم يفهمه؛ لم يتَّبِعْهُ(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

عطفٌ يحكي حالًا أُخرى للكافرين نَتَجَتْ عن تزيينِ قرنائهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ إمّا عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصّلت: 5]، عطفَت القِصَّةَ على القِصَّة، ومُناسَبةُ التَّخَلُّصِ إليه: أنَّ هذا القَولَ ممّا يَنشَأُ عن تَزيينِ قُرَنائِهم مِنَ الإنْسِ، أو المعطوفُ عليه جُملةُ: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، بكونه حكايةً لحالٍ أخرى من أحوالِ إعراضهم عن الدَّعوةِ المُحمَّديَّة(2)، والتَّقدير: فزيَّنوا لهم، فأعرضوا، وقالوا(3)، ويجوزُ أنْ تكونَ الواو استئنافيَّةً، والكلامُ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ حالِهم ومُكابَرَتِهم عِندَ قِراءةِ القُرآنِ(4).

دلالةُ التَّعبير بالماضي (قالَ):

تحقُّقُ وقوعِ نَهيِ الكفّارِ عن سماعِ القرآن دليلٌ على شدَّةِ ضلالهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالفعلِ (قالَ) ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ القولِ منهم، وهو النَّهيُ عن سماعِ القرآنِ الكريم وتواصيهم باللَّغوِ فيه، ممّا يدلُّ على إصرارهم على الكفر، وفي هذا ذمٌّ لهم.

الغرضُ من التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن الكافرين بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 461.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 276 - 277.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 178.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 550.

الاسمِ الظّاهر أو الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فلم يقل: (وقال الكافرون أو وقالوا)؛ لِما في الإبهامِ الذي يتضمَّنُهُ الاسمُ الموصول من الذَّمِّ والتَّحقيرِ لهم، والتَّشهير بهم، ولإفادةِ تحقُّقِ الكُفرِ منهم بمجيء صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا، وللتَّنبيهِ على الوصفِ الَّذي أوجبَ إعراضَهم وتواصيهم بالإعراض[1].

تنبيهٌ على الوصفِ الَّذي أوجبَ إعراضَهم وتواصيهم بالإعراض

نُكْتَةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

تحقُّقُ الكفرِ في الكافرين وتشعُّبهم منه سببُ صدِّهمُ النّاسَ عن سماعِ القرآن

جيءَ بجملةِ الصِّلةِ فعلًا ماضيًا؛ للإشعارِ بحدوثِ الكفرِ وتحقُّقه فيهم وتشعُّبِهم منه، وهذا ما دفعهم لصَدِّ النّاسِ عن سماعِ القرآن، ونلحظُ أنَّه قد تكرَّرَ هذا الوصفُ في عدَّة مواضع من السّورة، منها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، و﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾، و﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ وغير ذلك[2].

بلاغةُ حذفِ متعلّق الكُفر في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾:

عمومُ كفرهم مُؤْذِنٌ بفظاعةِ فعلهم

حُذِفَ المتعلِّقُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والتَّقدير: كفروا باللّه أو بربِّهم؛ وذلك للاختصارِ ولدلالةِ الكلامِ عليه، وحَذْفُهما شائعٌ في القرآن الكريم، ويدلُّ حذفُهما كذلك على العموم، الَّذي يدلُّ على فظاعةِ فِعلهم، فَكُفْرُهم يتناولُ كلَّ متناوَل، فقد كفروا باللّه، وكفروا بآياتهِ الدّالَّة عليه، وكفروا بآلائه، وكفروا بما في أنفسِهم من دلائلِ القدرةِ الباهرة.

الغرضُ من التَّعبير بالنَّهي في مقول القول ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾:

من شأنِ دعاةِ الضَّلالِ والباطلِ التَّحذيرُ من سماعِ القرآن

غرضُ التَّعبير بالنَّهي في قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ هو تَحذيرٌ واستِهزاءٌ بالقُرآن، وهذا من شأنِ دعاةِ الضَّلالِ والباطلِ أنْ يَكُمّوا أفواهَ النّاطقين بالحَقِّ والحُجَّة، بما يستطيعون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 178.

(2) وأيضًا: سورة فصّلت، الآية: 41، و 50.

من تخويفٍ وتسويلٍ، وترهيبٍ وترغيبٍ، ولا يَدَعوا النّاسَ يتجادلون بالحُجَّة ويتراجعون بالأدلَّة؛ لأنَّهم يوقنونَ أنَّ حُجَّةَ خصومِهم أنهضُ، فهُم يسترونها، ويُدافعونها لا بمثلها، ولكن بأساليبَ مِنَ البهتانِ والتَّضليل، بأن عدلوا إلى لَغوِ الكلام، ونفخوا في أبواقِ اللَّغوِ والجَعْجَعَة؛ لعلَّهم يَغلبون بذلك على حُجَجِ الحَقِّ[1].

الغرضُ مِنَ الإسناد إلى واو الجماعة:

اتِّفاقُ الكافرين على الصَّدِّ عن القرآنِ دليلٌ على شدَّةِ عداوتِهم

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾ وفعلَ ﴿وَٱلۡغَوۡاْ﴾ إلى واو الجماعة في تواصيهم بالصَّدِّ عن سماعِ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾؛ للإشارة إلى اتِّفاق الكافرين على مضمونِ النَّهي والأمر في الآية، وأنَّه صدرَ من الجميع، ممّا يدلُّ على شدَّة عنادهم وعداوتهم للنَّبيِّ ﷺ ولما جاء به، كما أنَّ واو الجماعة في لفظ ﴿وَٱلۡغَوۡاْ﴾، يدلُّ على دعوتهم للإكثار من الخرافات والهَذَيانات، واللَّغوِ في حال تلاوة القرآن[2].

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿لِهَٰذَا﴾:

القـرآنُ هو المخصوصُ بعدمِ الاستماعِ إليه

اللّام في قوله: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ حرفُ جرٍّ يفيدُ الاختصاصَ والتَّخصيص، أي: إنَّ هذا القرآنَ هو المقصودُ بعدم الاستماعِ إليه، فاللّامُ تُخصِّصُ هذا الأمرَ بالقرآن الكريم دونَ غيره من الكتب، وتَعديةُ فِعلِ ﴿تَسۡمَعُواْ﴾ باللّام؛ لِتَضمينه معنى: تَطمَئِنّوا، أو تَرْكَنوا[3]، أو أن يكون التَّقدير: لا تسمعوا شيئًا من مُطلقِ السَّماعِ لهذا القرآن[4].

الغرضُ من التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على القُرب:

اسمُ الإشارةِ (هذا) الموضوعُ للقريب مُستَعمَلٌ في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 277.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 178.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 277.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 178.

تحقيرُ الكافرين لشأنِ القرآنِ؛ لكونِ كلِّ مَن استمعَ له صبا إليه

﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ للتَّحقيرِ، أي: أرادوا تحقيرَ شأنِ القرآنِ الكريم، ولتعيينِه وتمييزه بالإشارةِ الحِسّيَّة؛ احترازًا مِن غيره مِن الكُتُبِ القديمة كالتّوارة، وذلك لأنَّ هذا القرآنَ يغلبُ القلوبَ، ويسلُبُ العقولَ، وكلُّ مَن استمعَ له صبا إليه[1].

دلالةُ التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

القرآنُ معهودٌ لدى الكافرين، فهو يتحدّاهم أن يأتوا بمثلِهِ فيعجِزون

تَسميةُ الكافرين لكتابِ اللّهِ بلفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ هو حِكايةٌ لِما يَجري على ألْسِنةِ المُسلِمينَ مِن تَسميَتِه بذلك[2]، فاللّامُ في لفظِ القرآنِ للعهدِ الذِّهنيِّ، أي: لا تسمعوا لهذا القرآنِ المعهودِ المعروف، فهُم يسمعونَ تلاوته، ويُعاينون آثارَه في إيمانِ المؤمنين، ويتحدّاهم أنْ يأتوا بمثله، فيَعجِزون.

دلالةُ العطف في ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾:

العطفُ بيانٌ لحالِ مَن استولى عليهم الإنكارُ ودامَ على العداوةِ فيهم الإصرارُ

جملة: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ في محلِّ نصب، وهي معطوفةٌ على جملة: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، التي محلُّها نصبُ مقولِ القول، ومن هنا يتَّضحُ أنَّ العطفَ للتَّشريك في الحُكم الإعرابيِّ، والمناسبةُ بين الجُملتين واضحةٌ، فكلتاهما جملةٌ إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنًى، وكلتاهما مقولُ قولِ الكافرين والتَّواصي فيما بينهم بأن يجمعوا بين عدمِ الاستماعِ والإكثارِ من اللَّغوِ واللَّغطِ عند قراءته، وهذا يدلُّ على أنَّه قدِ "استولى على قلوبهم الجَحْدُ والإنكارُ، ودامَ على العداوةِ فيهم الإصرارُ، فاحتالوا بكلِّ وجهٍ"[3].

الغرضُ من الأمر في ﴿وَٱلۡغَوۡاْ﴾:

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أمرٌ حقيقيٌّ من الكفّار باللَّغوِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 178.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 277.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 326.

والجَعْجَعةِ، لعلَّهم يغلبون بذلك على حُجَجِ الحقِّ، وقد اجتمعَ الأمرُ مع النَّهي في هذه الآية: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾، وهذا يُفيدُ اهتمامَ الكافرين وحرصَهم على تنفيذِ ما طُلِبَ، وهو عدمُ سماعِ القرآن، والأمرُ باللَّغو فيه؛ إذ فيه دلالةٌ على توكيدِ النَّهي عن السَّماعِ، فاللَّغو درجةٌ أفصَحُ من عدمِ السَّماع، تدلُّ على جحودِهم وإصرارهم على العداوةِ للقرآن الكريم والنَّبيِّ الكريم عليه أفضلُ الصَّلاة والتَّسليم.

توكيدُ النَّهي عن سماعِ القرآن باللَّغوِ واللَّغطِ فيه للصَّدِّ عنه

معنى (في) ودلالتُها في قوله: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾:

لَمّا كان المقصودُ بتَخلُّلِ أصْواتِهم صوتَ القارئِ حتَّى لا يَفقَهَهُ السّامِعونَ؛ عُدّيَ اللَّغوُ بحَرفِ (في) الظَّرفيَّة؛ لإفادةِ إيقاعِ لَغوهم في خِلالِ صَوتِ القارئِ، وُقوعَ المَظروفِ في الظَّرفِ، والمعنى: اجعلوه ظرفًا للَّغْوِ، بأنْ تُكثروا من الخرافاتِ والهذياناتِ واللَّغْوِ بالمُكاءِ والتَّصديَة، أي: الصَّفيرِ والتَّصفيقِ وغيرِهما في حالِ تلاوتِه؛ ليَقعَ تاليه في السَّهوِ والغَلَط[1]، وأُدخِلَ حَرْفُ الظَّرفيَّةِ على اسمِ القُرآنِ دونَ اسمِ شَيءٍ مِن أحوالِه - مِثلَ صَوتٍ أو كَلامٍ - ليَشملَ كُلَّ ما يُخْفي ألفاظَ القُرآنِ، أو يُشَكِّك في مَعانيها، أو نَحوَ ذلك، وهذا نَظمٌ له مَكانةٌ مِنَ البَلاغة[2]، ويجوزُ أنْ تكونَ (في) بمعنى الباء، مِنْ لَغي بكذا، أي: رَمى به، والمعنى: ارموا به، وانبذوه[3].

في الظَّرفيَّة إشارةٌ إلى الإكثارِ من لغوهم في القرآن؛ مبالغةً في الصَّدِّ عنه

نُكْتَةُ فصلِ جملة التَّرجّي عمّا قبلها:

فَصلَ البيانُ الإلهيُّ جملةَ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ عمّا قبلَها، ولم يأتِ بينهما بعاطفٍ؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصال؛ إذِ الجُملةُ فيها معنى التَّعليل لِما قبلَها؛ لأنَّ (لعَلَّ) تَرَجٍّ فيه معنى التَّعليل، ولكنَّها توِمئُ إلى أنَّ غلبتَهم أمرٌ يتطرَّقُهُ احتمالُ التَّخلُّفِ، والمعنى: لكي

غرضُ الكافرين من النَّهي عن سماعِ القرآنِ واللَّغوِ فيه طمسُ أمرِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 178.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 277 - 278.
(3) السمين، الدّرّ المصون: 9/ 532.

تَصُدّوا عنه، فلا يحصلَ غرضُهُ مِنَ التَّفهيم والإرشاد، وتطمسوا أمرَه، وتُميتوا ذِكْره[1].

الغرضُ من التَّعبير بـ(لعلَّ):

في ترجّي الكافرين إيماءٌ بأنَّ غلبتهم أمرٌ يتطرَّقهُ احتمالُ التَّخلُّفِ

(لعلّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ للتَّرجّي مِن قِبَل الكافرين، بمعنى: لا تسمعوا لهذا القرآن، والغوا فيه؛ ليكونَ حالكم حالَ من يُرجى له أن يغلبَ، ويظفرَ بمرادهِ في أن يميلَ إليه أحدٌ، أو يسكتَ، أو ينسى ما كان يقول، أو بصرفِ من يتوقَّعُ أنْ يتبعه؛ إذا سمعَ قراءته، وهذا مشعرٌ بأنَّهم كانوا عارفين بأنَّ مَن سمعَهُ، ولا هوى عنده؛ مالَ إليه، وأقبلَ بكلّيَّته عليه، وأنَّهم يجدون القرآنَ غالبَهم؛ إذ كان الَّذين يسمعونه يُداخِلُ قلوبَهم، فيؤمنون، أي: فإنْ لم تفعلوا؛ فهو غالبُكم[2]؛ لأنَّ التَّرجّي ارتقابُ شَيء لا وُثوقَ بحصوله، والرّاجي ليس مُطمَئِنًّا مُتَيَقِّنًا بحصولِ ما يرجو، بل تُخالِجُهُ درجةٌ من تَوَقُّعِ الحرمان، ولهذا يُستعملُ بمعنى الخوف[3]، وقد فَضَحوا أنفسَهم بهذا فضيحةً لا مِثلَ لها؛ وذلك لأنَّهم تُحُدّوا أنْ يأتوا بشيءٍ من مثله ليُعَدّوا غالبين، فلم يجدوا شيئًا يترجّون به الغَلَبَ إلّا الصَّفيرَ والتَّصفيق ونحوَه من اللَّغوِ في معارضة[4].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَغۡلِبُونَ﴾:

رجاءُ الكافرين تجدُّدَ غَلَبتِهم؛ دلالةً على خوفهم من قوَّة حُجَّةِ القرآن

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا يترجّون حصولَ الغلبةِ في المستقبل، وتجدُّدَ غَلَبَتِهم على قراءةِ القرآن أو إماتةِ ذِكْره، وهذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 302.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 278.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 73، والفيوميّ، المصباح المنير، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجو)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 468.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 278.

يدلُّ على الخوفِ الذي في قلوبهم من تأثيرِ القرآنِ في القلوب، وهم يرونَ النّاسَ يدخلون الإسلامَ بمجرَّدِ سماعِ القرآن، بالرَّغمِ مِنِ اتِّباعِ الكافرين كلَّ وسائلِ الصَّدِّ عنه؛ وذلك لأنَّه من أعلى ذُرى الكلامِ إلى حيثُ لا مطمعَ ولا مرام.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصّلت: 27 - 28]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تهديدٌ شديدٌ للكافرين بعد إعراضهم عن القرآنِ وصدِّهم عنه

لَمّا ذَكَرَ إعراضَ الكُفّارِ عن القُرآنِ وتواصيَهم بذلك ظُلمًا منهم وعِنادًا، لم يَبْقَ فيهم مَطمَعٌ للهدايةِ، فلم يَبْقَ إلّا عَذابُهم ونَكالُهم؛ لهذا قال تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[1]، أي: جاءتِ الآيةُ تهديدًا للكافرين المُعرِضينَ عن القرآنِ، الذين يَصدّون النّاسَ عنه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾: (ذوق) أصلٌ واحد، وهو اختبارُ الشَّيءِ من جهةِ الطَّعْم، وأمرٌ مُستذاقٌ، أي: مُجرَّبٌ معلومٌ[2]، والذَّوقُ: هو وجودُ الطَّعم بالفَم، وأصلُه فيما يقلُّ تناولُه دونَ ما يكثر منهُ[3]، والذَّوقُ يكون فيما يُكْرَهُ، ويُحْمَدُ، ومعظمُ ما جاءَ في القرآن الكريم من تركيب (ذوق) مجازيٌّ: ذوقُ عذابٍ، أو ذوقُ نعمةٍ ورحمةٍ[4]، ومعنى إذاقتِهمُ العذابَ: تعذيبُهم، استُعيرَ له الإذاقةُ على طريقِ المكنيَّةِ والتَّخييليَّةِ[5].

2) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: (جزي) قيامُ الشَّيءِ مَقامَ غيرِهِ ومُكافَأَتُهُ إيّاهُ[6]، وجزى يجزي جزاءً، أي: كافأ بالإحسانِ وبالإساءةِ[7]،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 748.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (ذوق).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذوق).
(5) وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 279.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(7) الخليل، العين: (جزي).

فالجزاءُ يكونُ ثوابًا، ويكونُ عِقابًا[1]، والجزاءُ: الغِناءُ والكِفايةُ، وهوَ ما فيهِ الكِفايةُ من المقابلة، إن خَيرًا؛ فخَيرٌ، وإن شرًّا؛ فشَرٌّ[2]، والمعنى المحوريُّ له: هو تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تناوُلِ شيءٍ أو معالجتِه، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ؛ فهو مِنَ الجزاءِ بمعنى المكافأةِ على الشَّيءِ في الخيرِ والشَّرِّ، ويَصدقُ في الثَّوابِ والعِقابِ، ومنه جَزَيْتُهُ حقَّهُ: قضيتُه[3]، والجزاءُ هنا في العقاب، وهو العذابُ الشَّديد.

3) ﴿أَسۡوَأَ﴾: (سوأ) أصلٌ يدُلُّ على القُبْحِ، وسُمّيَتِ النّارُ سوءَى؛ لِقُبْحِ مَنْظَرِها[4]، وساءَ الشَّيءُ: قَبُحَ، والسّوءُ نَعْتٌ لكلِّ شيءٍ رَديءٍ، وهو اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ[5]، وهوَ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّة، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القبيحةُ[6]، والمراد بـ﴿أَسۡوَأَ﴾: أقبحُ جزاءٍ، وأعظمُ عقوبةٍ على أسوأ أعمالهم الَّتي عملوها في الدُّنيا[7].

4) ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾: هي دارُ الآخِرَة؛ لبقاءِ أهلها فيها، من إضافةِ الدّارِ إلى الخُلد، فالخُلْدُ: دَوامُ البَقاءِ في دارٍ لا يَخرُجُ مِنها، وخَلَدَ يَخلُدُ خُلدًا وخُلودًا: بَقيَ، وأقام، والخُلد: اسمٌ مِن أسماءِ الجَنَّةِ[8]، وأصلُ (خلد) يَدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازَمَةِ، والخلودُ هو المُكْثُ الطَّويلُ، وقد قالوا: أخلَدَ الرَّجلُ إخلادًا؛ إذا أبطأ عنه الشَّيبُ[9]، والمقصود بـ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ في الآية: النّارُ لهم فيها دارُ المُكْثِ واللُّبْثِ والبقاءِ المُؤَبَّد، إلى غيرِ نهايةٍ ولا أمدٍ[10].

5) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: (جحد) أصلٌ يدلُّ على قلَّةِ الخيرِ[11]، فيُقال: رجلٌ جَحِدٌ، أي: قليلُ الخير، والمعنى المحوريُّ للجذر: جفافُ الباطنِ ويُبْسُهُ على ما يتجمَّعُ فيه من قوًى، فلا تنبسطُ إلى ما يُتَوَقَّع منها، كالأرضِ الجَحْدَةِ يُتوَقَّع أنْ تَنْبُتَ ككلِّ أرضٍ، لكنَّ باطنَها يَبِسَ خيرُه وجَمُد، ومن ذلك الجحود؛ فإنَّ الإنسانَ إذا جَحَدَ: أنكرَ مع عِلم قلبهِ حقّيَّةَ ما ينكرُه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزى).
(2) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوأ).
(5) الخليل، العين: (سوأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 461، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 234.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (خلد).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 461، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 279.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).

ومن ذلك جحودُ النِّعمة: كُفرانها[1]، فالجُحودُ: الإنكارُ مع العِلْم[2]، وهو نَفي ما في القَلْبِ إثباته، وإثباتُ ما في القَلْبِ نفيه[3]، ومعنى ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ في الآية: ينكرون عنادًا، أو يَلْغون[4].

المَعنى الإجماليُّ:

تهديدٌ ووعيدٌ مِنَ العظيمِ للكافرين بأسوأ جزاءٍ مِنَ العذابِ والخلودِ في النّار

يَرُدُّ اللّٰهُ تعالى على مِن استخفّوا بالقرآن، وتواصَوا بعدم سماعه وباللَّغو فيه مُهدِّدًا لهم، فيقولُ: فلَنُذيقَنَّ أولئك الَّذين كَفَروا باللّٰهِ من مشركي قريش الَّذين قالوا هذا القولَ عَذابًا شديدًا في الآخرة، ولنثيبنَّهم على فِعلهم ذلك وغيرِه من أفعالهم بأسوأ جزاءٍ على أسوأ ما كانوا يعملون، وذلك العذابُ هو جزاءُ أعداء اللّٰه، ثمَّ ابتدأ جلَّ ثناؤُه الخبرَ عن صفةِ ذلك الجزاء، وأنَّه النّار، لهم فيها دارُ الخُلودِ الدّائمِ إلى غيرِ نهايةٍ ولا أمَدٍ جزاءً بسَبَبِ كُفْرِهم وتكذيبِهم بآياتِنا[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾:

إذاقةُ اللهِ العذابَ الشَّديدَ للكافرين مُفرَّعٌ على ما سبقَ من كفريّاتهم

دلَّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ على أنَّ ما بعدها مُفرَّعٌ عمّا قبلها، فإمّا أنْ يكونَ تفريعًا على آخرِ ما تقدَّم، وهو قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، وإمّا أن يكونَ مُفرَّعًا على جميعِ ما تقدَّمَ ابتداءً من قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصّلت: 5] الآية، وقوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ [فصّلت: 13] الآيةَ، وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصّلت: 19] الآية، وقوله: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ الآيةَ، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ﴾[6].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جحد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جحد).
(3) الرّاغب، المفردات: (جحد).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 71، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 336.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 461.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 278.

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾:

في لامِ القَسَمِ توكيدٌ لوعيدِ اللهِ للكافرين تخويفًا وتهديدًا لهم

لامُ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ موطِّئةٌ للقَسَم، والجملةُ الفعليَّة جوابٌ لقَسَم محذوف، تقديره: وعِزَّتي لَنُذيقَنَّ الذين كفروا، والقَسَمُ يُفيدُ التَّوكيدَ، أي: توكيدَ وعيدِ اللهِ للكافرين بالعذابِ الشَّديد، "أي: لَنُعذِّبَنَّهم عَذابًا يَذوقونَ ألَمَهُ"[1]؛ تخويفًا وتهديدًا للمخاطَبين.

دلالةُ التَّعبير بالمستقبل مُؤكَّدًا باللّام والنّون:

صرامةٌ في التَّوعُّدِ وتأكيدٌ على قوّته وتجدُّده، بما يَهزُّ نفوسَ الكافرين هَزًّا

ممّا يُلْمَسُ في عنصرِ التَّرهيب في السّورةِ استخدامُ صيغةِ المضارع المُؤكَّدِ بلامِ التَّوكيد والنّون الثَّقيلة في الفِعْلَين: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ و﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وهي صيغةٌ تحملُ الصَّرامةَ في التَّوعُّد والتَّوكيدِ له، وذلك بعد قولهم الذي حكاه القرآنُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، وذلك بما تحمله صيغةُ المضارع من تجدُّدِ إذاقتِهم العذابَ، وتجدُّدِ جزائهم بأسوأ العذاب، وبما تحملهُ لامُ التَّوكيد من ذلك، وبما تُحْدِثُه من جرسٍ قويٍّ وضغطٍ عند النُّطق بها، حيثُ تُصَوِّرُ لنا القوَّةَ والشِّدَّةَ في هذه الآيات، والإيقاعُ فيها واضحٌ يَهزُّ النُّفوسَ.

سرُّ التَّعبير بالإذاقة في قوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾:

تجسيدٌ وتصويرٌ لشدَّةِ معاناةِ الكافرين في العذاب

الذَّوقُ للطَّعْم، تقول: ذاقه ذَوقًا وذواقًا ومَذاقًا، أي: اختبرَ طعمَهُ[2]، وقد جسَّدَ القرآنُ بتعبيره بلفظِ الإذاقة في قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ العذابَ، وجعلَ ما لا يُذاقُ في الطَّبعِ والجِبلَّة في صورةِ شيءٍ يُذاقُ كالطَّعام، فكَلِمةُ الإذاقة تُجَسِّمُ للبصرِ شدَّةَ إحساسِهم بالعذاب؛ لأنَّ حِسَّ الذّائقِ أقوى لإدراكِ ما

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة فصّلت، ص: 149.

(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 23.

يَذوقه، ويالَهُ من تصويرٍ يبعثُ على التَّهويل والتَّخويف والتَّهكُّم بهم، وهذه الصّورةُ بكلِّ ما تُلقي من إيحاءاتٍ توقِعُ في النَّفس أقصى طاقاتِ التَّأثير، وفي هذا التَّعبير استعارةٌ مَكنيَّة؛ إذ شَبَّه الإحساسَ بالعذابِ بما يُذاقُ كالطَّعام، وحذفَ المشبَّهَ به، وهو الطَّعام، ورمزَ له بشيءٍ من لوازمه، وهو الذَّوق.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بالمفعول اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكفرُ باللهِ عِلَّةُ إذاقةِ العذابِ الشَّديد

التَّعبيرُ بالمفعول اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ إذ لم يقُل: (فَلَنُذيقَنَّهم)، إظهارٌ في مَقامِ الإضمار؛ لِقَصْدِ ما في المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من الإيماءِ إلى علَّةِ إذاقةِ العذابِ الشَّديد، أي: بكفرهم المَحْكي عنهم فيما تَقدَّمَ[1]، ولإفادةِ تحقُّقِ الكفرِ منهم بمَجيءِ صلةِ الموصول فعلًا ماضيًا، ولتنبيهِ المخاطَب؛ لأنَّ الكلامَ إذا كان على نَسَقٍ واحدٍ بضَمائرِه ومُظْهَراتِه؛ فإنَّ الإنسانَ لا يَنْتَبِهُ، ولإفادةِ العموم، فلو قال: (فلَنُذيقَنَّهم)؛ صارَ هذا الوعيدُ خاصًّا بالَّذين قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فلمّا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ صارَ عامًّا لهم ولغيرِهم[2]، ويَدخُلُ فيه هؤلاء اللّاغون والآمِرونَ لهم باللَّغوِ دُخولًا أوَّليًّا[3].

الغرضُ من تنكير ﴿عَذَابًا﴾:

العذابُ الذي توعَّدَ اللهُ به الكافرين عذابٌ عظيمٌ لا يُقادَرُ قَدْرُهُ

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ العذابِ في قوله تعالى: ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ لإفادةِ التَّهويل الشَّديدِ لأمرِ هذا العذاب؛ إذ سيكون عذابًا مَهْولًا لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، ولا يَعلم كُنْهَهُ إلّا اللّهُ[4]، ولإفادةِ العموم بما يشملُ عذابَ الدُّنيا وعذابَ الآخرة، والمعنى: (عذابًا شديدًا في الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 278، 279.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179، وابن عثيمين، تفسير سورة فصّلت، ص: 149، 318.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 198، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 600، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12.

بالحِرمان وما يتبعُه من فنونِ الهَوان، وفي الآخِرة بالنّيران)[1]، وفي هذا التَّهويلِ والعموم مزيدُ تهديدٍ ووعيدٍ للكافرين.

سرُّ وصْفِ العذاب بالشِّدَّة، وإيثارُه دونَ (الأليم):

وَصْفُ العذابِ بالشَّديد دليلُ كمالِ شدَّتِه واستحقاقِهم له

الشِّدَّةُ: الصَّلابَةُ، يُقال: حَجَرٌ شَديدٌ، أي: صُلبٌ[2]، ومن ثَمَّ فإنَّ تقييدَ العذابِ بهذه الصِّفة جسَّمَ لنا العذابَ؛ إذ أصبحَ له صلابةٌ، فنُقِلَ معنى العذابِ من معنًى مجرَّد إلى شيءٍ ذي صلابة، وفي هذا تجسيمٌ للمعنى؛ إذ أبرزَ المعنى الذِّهنيَّ، وهو ما يكون فيه من شدَّةٍ وقوَّةٍ في صورةِ المحسوسِ الملموس، كما أنَّ التَّعبيرَ بالشَّديد دونَ الأليم يناسبُ شدَّةَ ذنبِهم الَّذي لم يكن مُجرَّدَ الإعراضِ عن القُرآنِ، بل تواصَوا بذلك ظُلمًا منهم وعِنادًا، فلَفْظُ الشَّديدِ يُراعَى فيه اعتبارُ وصْفِ شدَّة العذاب، بينما العذابُ الأليم يكون باعتبار المعَذَّب، فهو مؤلِمٌ للمُعذَّبِ بهذا العذاب، ومن ثَمَّ فشِدَّةُ العذابِ تعادِلُ شدَّةَ الذَّنب، فلمّا تشدَّدوا في كُفرِهم، وأصرّوا على شِركهم؛ ناسبَ أنْ يُذْكَرَ العذابُ الشَّديدُ الَّذي لنْ يفلتوا منه.

نُكْتَةُ التَّعبير باسم التَّفضيل ﴿أَسۡوَأَ﴾، ودلالةُ إضافته:

مُبالَغةٌ في بيانِ سوءِ أوزارِهم بما يقتضي شدَّةَ عذابهم

﴿أَسۡوَأَ﴾ اسمُ تَفضيلٍ، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إمّا على حقيقتِه بأن يكونَ المرادُ بالأسوأِ هو الكفر؛ فإنَّه أسوأُ العمل، والكفرُ يُبطِلُ كلَّ أعمالِهم، وجزاؤُه أسوأُ الجَزاء[3]، أو أنَّه مَسلوبُ المُفاضَلةِ فيها، وإنَّما أُريدَ به السَّيِّئُ - على قولٍ في التَّفسير - فصيغَ بصيغةِ التَّفضيلِ لِلمُبالَغةِ في بيانِ سوءِ أعمالِهم[4]، وسوءِ ما يترتَّب عليها من عذابٍ، وأنَّه شديدٌ عظيمٌ، وهذا أدخلُ وأعظمُ في ترهيبِ الكافرين والمشركين بما سينتظرهم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدد).
(3) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على البيضاويِّ: 17/ 155.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 279.

ولأنَّ مَن قَدَرَ على الأغلظِ قَدَرَ على ما دونَه، والمعنى: ولنجزينَّهم جزاءَ أسوأ العملِ الذين كانوا مواظبين عليه(1)، وإضافَتُه إلى ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مِن إضافةِ البَعضِ إلى الكُلِّ، وليس مِن إضافةِ اسمِ التَّفضيلِ إلى المُفَضَّلِ عليه(2).

فائدة الجَمْع بين الفعل الماضي والمضارع:

مـواظـبـةُ الكافرين على أعمالِ الكفرِ أوجبَتْ لهم النّارَ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ عبَّرَ عن أعمالهم السَّيِّئة بفِعلِ (الكَون) الماضي، وبالفعل المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم فعلوا ذلك سابقًا، وتحقَّق منهم، وأنَّهم مستمرّون ماضون على أفعالِ الكفرِ وما يتبعها من أوزارٍ من الكافرين(3)، وفي هذا إشارةٌ إلى إصرارهم على الأعمالِ السَّيِّئة، فقد كانوا مَطبوعينَ على الأوزارِ التي أوجَبَتْ لهم النّارَ، والمعنى: الذي كانوا يَعْمَلونَ بما هو لهم كالغرائزِ مواظِبين عليه(4).

موقعُ جملة ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ﴾ ممّا قبلَها، ودلالتُه، وتنوُّعُ إعرابِه:

بيانٌ لموجِبِ ما ذُكِـرَ من عذابٍ شديدٍ أعدَّهُ اللهُ للكافرين

فصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ﴾ عن الجملة قبلَها: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، ولم يَرْبِطْ بينهما بالواو، لِما بينَهما من كمالِ اتِّصال؛ إذ جملةُ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ﴾ بيانٌ لمُوْجِبِ ما ذُكِر من عذابٍ شديدٍ أعدَّهُ اللهُ للكافرين، ولذا فإنَّ التَّقديرَ على وجْهَي إعراب ﴿ذَٰلِكَ﴾ - الذي هو اسمُ إشارةٍ لما تقدَّم - يدلُّ على ذلك، وهما: **الوجه الأوَّل**: أنَّه مبتدأٌ و﴿جَزَآءُ﴾ خبرُه، "كأنَّه تفسيرٌ للجزاء"(5)، **والوجه الثّاني**: أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك، و﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ جملةٌ مستقلَّةٌ مبيِّنَةٌ للجُملةِ قبلَها(6).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 279.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179.
(5) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 507.
(6) السمين، الدّرّ المصون: 9/ 524.

الغرضُ مِن التَّعبير بالمسند إليه بلام البُعْد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

جَزاءُ أعداءِ الله جـزاءٌ مَهولٌ وعظيمٌ جدًّا

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ﴾ استعملَ البيانُ القرآنيُّ اسمَ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، الذي يُشارُ به إلى البعيدِ مع أنَّ المشارَ إليه قريبٌ؛ لتهويلِ المُشار إليه، أي: الجزاءُ الأسوأُ العظيم جدًّا[1]، وهذا التَّهويلُ ناسبَهُ أن تكونَ الجملةُ اسميَّةً تدلُّ على ثبوتِ المعنى، وأنَّه واقعٌ - لا محالة -[2] وليُؤذِنَ كذلك بالفَرْقِ بين الجَزاءَين، والبَونِ بَيْنَ الكَفرتَين، وهما الاستخفافُ بكتابِ اللّٰه تلويحًا بقوله: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾، والاستخفافُ به تصريحًا بقوله: ﴿كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾[3].

علَّةُ إظهارِ ما حَقُّهُ الإضمارُ في قوله: ﴿أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾:

في الإظهارِ ذَمٌّ لأعداءِ اللهِ، وتلويحٌ باستحقاقهم أسوأَ العذاب

وضعَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ موضعَ الضَّمير (هُمْ) في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ﴾، فلم يقل: (ذلك جزاؤهم)؛ ذمًّا لهم وتشهيرًا بهم، وتلويحًا باستحقاقِ الكافرين أسوأَ العذاب[4]، أي: بيانُ علَّةِ ما يَحيقُ بهم مِن ألوانِ العذاب[5]، وهو كونُهم أعداءَ اللّٰه.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بالإضافة ﴿أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾:

أعداءُ اللهِ هم كفَّارُ قريش، أو كلُّ من كَفرَ باللهِ سبحانه

الإضافةُ في قوله: ﴿أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ للعهدِ إذْ تقدَّم ذِكرُهم وهم مشركو قريش[6] الذين كَفَروا، فقد أعرضوا عن دينِ اللّٰه، وتواصَوا بعَدمِ سماعِ القرآن، وباللَّغوِ فيه، وهم ذاتُهم مَن تتحدَّثُ عنهم الآياتُ التي ابتدأتْ بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 180.
(2) العليانيّ، سورة فصّلت دراسة بيانية، ص: 295.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 601.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 601.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 9.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 461.

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾ [فصّلت: 19]، ويحتملُ أيضًا أنْ تكونَ للجنس، فتشملَ جميعَ أعداءِ اللّه.

الغَرضُ مِن التَّعبير بالمضاف إليه بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

عداوةُ الكافرين للمَلِكِ الأعظمِ يقتضي استحقاقَهم العذابَ الشَّديد

في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ﴾ أُضيفَ لفظُ ﴿أَعۡدَآءِ﴾ إلى الاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ تهويلًا لأمرِهم بكونِهم أعداءً للّهِ المَلِكِ الأعظم، وبيانًا لشِدَّةِ كفرِهم؛ بأنَّهم ما كانوا يفعلون ما دون الأسوأِ إلّا عَجْزًا عنه؛ لأنَّ جبلَّتَهم تقتضي ذلك[1]، ومِن ثَمَّ لتأكيد استحقاقِهم العذابَ الشَّديد، وهو النّار.

فَصْلُ قولِه: ﴿ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ﴾ عمّا قبلَها:

بيانُ جزاءِ أعداءِ اللهِ يومَ القيامة

فصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَهُ تعالى: ﴿ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ عن الجملةِ الَّتي قبلَها: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾، ولم يربط بينهما بالواو، إمّا لِما بينهما من كمالِ اتّصال؛ لأنَّ جملة: ﴿ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ﴾ عطفُ بيانٍ لِلجزاء؛ إذ جاءَتْ بيانًا له، فأفادتِ الإيضاحَ، فكلمةُ النّارِ مُبيِّنةٌ للجزاءِ؛ إذ كان في الأولى نَوعُ خفاءٍ اقتضى المقامُ إزالتَه[2]، أو لِما بينهما من شبهِ كمالِ اتّصال؛ إذ إنَّه لمّا أخبرَ أنَّ ما تقدَّم هو جزاءُ أعداءِ اللّه، كأنَّ سائلًا قد سأل: وما هو؟ فقال: هو النّار، فالنّارُ بيانٌ عن الجزاء، وترجمةٌ عنه، وهي مرفوعةٌ بالرَّدِّ عليه[3].

موقعُ جملةِ ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ ممّا قبلَها، ودلالتُه:

خبرٌ أو حالٌ مُقرِّرٌ لمصيرِ أهلِ النّارِ والبقاءِ فيها

جملة: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾، إمّا خبرٌ عن ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ على إعرابها مبتدأ، أو حالٌ منها، أو الجملةُ مستأنفةٌ مستقِلّةٌ مقرِّرةٌ لِما قبلَها[4]، وعلى كلِّ الوجوه أفادتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 180.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 279.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 461.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 390، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 551.

الجملةُ التَّأكيدَ والمبالغةَ لبيانِ مصيرِ أعداءِ اللّه، وهو الإقامةُ في النّار لا انتقالَ منها.

الغرضُ من التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

المبالغةُ في تأكيدِ ثبوتِ أهلِ النّار فيها ودوامِهم للتهديد والوعيد لهم

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن مصيرِ أعداءِ اللّه بالجملة الاسميَّة: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾؛ مبالغةً في تأكيدِ ثبوتِ مصيرهم ودوامِهم في النّار، فدارُ الخُلدِ هي دارُ البقاء الَّتي لا خروجَ منها، ومعنى الخُلدِ: الثُّبوتُ والمُلازمة، فالتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة الدّالَّة على الثُّبوتِ والدَّوام زادَ هذا المعنى تأكيدًا، وهذا فيه من التَّهديدِ والوعيدِ ما فيه.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بأسلوب التَّجريد في ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾:

الانتزاعُ من النّار مثلها مبالغةٌ أفادت التَّهويل لأمرها

التَّجريدُ هو أن ينتزعَ من أمرٍ ذي صفةٍ أمرًا آخرَ مثلَهُ في تلك الصِّفة؛ مبالغةً في كمالها فيه[1]، ويظهرُ أسلوبُ التَّجريد في قوله تعالى: ﴿فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾، فإنَّه يقتضي أنْ تكونَ ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ غيرَ النّار، وليس الأمرُ كذلك، بل النّارُ هي نفسُها دارُ الخُلْد، وأُجيبَ عن ذلك بأنَّه قد يُجْعَلُ الشَّيءُ ظَرْفًا لنفسه باعتبارِ متعلَّقه على سبيلِ المبالغةِ، كأنَّ ذلك المتعلِّقَ صار مستقَرًّا له، وهو أبلغُ مِن نسبةِ المتعلِّقِ إليه على سبيلِ الإخبارِ به عنه، أي: انتزعَ من النّار مثلَها مبالغةً، وجُعِلَ مُعَدًّا فيها للكفّار؛ تهويلًا وتعظيمًا لأمرها، فجاءَ بالظَّرفيَّة بتنزيلِ النّارِ مَنزلةَ ظَرفٍ لـ ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾، وما دارُ الخُلْد إلّا عَينُ النّارِ، وهي دارُهم، وهم خالدون فيها؛ ليُفيدَ مُبالَغةَ مَعنى الخُلدِ في النّارِ، فالنّارُ لَمّا بَلَغتْ في كونها دارَ الخُلد بالنِّسبةِ إليهم مرتبةً عاليةً؛ صحَّ معها أنْ يُنْتزَعَ منها أُخرى مثلُها في تلك الصِّفة[2].

الغرضُ من التَّقديم في ﴿لَهُمۡ﴾:

تقديمُ الخَبرِ ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾؛ لإفادةِ الاختصاص

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 198، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 302، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 279، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 552.

إن كان التَّوعُّد في الآية لكلِّ أعداءِ اللّه، وهم كلُّ كافر، بما يدلُّ على أنَّ العُصاةَ من المؤمنين غيرُ مُخلَّدين في النّار، ولكنَّ الذي يُفْهَم من السّياق غيرُ ذلك، وأمّا إن كان المقصود بأعداءِ اللّه هم المشركون، كما يُفهم من السّياق، فلا يكونُ التّقديم للاختصاص؛ لأنَّ مشركي قريش غيرُ مختصّين بالخُلْدِ في النّار دونَ غيرِهم من الكَفَرة والملاحِدة، ومِن ثَمَّ يكون التّقديم هنا لمُجرَّد التّوكيد والتّهويلِ للعذابِ المنتظر[1].

اختصاصُ الخُلودِ في النّار بكلِّ كافرٍ، أو تهويلُ عذابِ المشركين

الغَرضُ مِن الإضافة في ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾:

الخُلْدُ: طولُ البَقاءِ، وأُطلِقَ في اصطِلاحِ القُرآنِ على البَقاءِ المُؤَبَّدِ الَّذي لا نِهايةَ له[2]، ودارُ الخُلْدِ هنا: النّارُ، وهي مِن إضافةِ الموصوف إلى الصِّفة، فالدّارُ موصوفٌ والخُلْدُ صفةٌ أُضيفَتْ إليها، وقد عَرَّفتْ هذه الإضافةُ لفظة ﴿دَارُ﴾ - إذ هي نكرة - وبيَّنت أهمَّ خصائصِها وما تتَّصفُ به، وهو البقاءُ الأبديُّ فيها، ولا خروجَ منها، وفي هذا من التَّهويلِ والتَّخويفِ ما فيه.

من أهمِّ صفاتِ النّارِ البقاءُ الأبديُّ فيها

الموقعُ الإعرابيُّ لـ﴿جَزَآءَۢ﴾، ودلالتُه:

انتصبَ ﴿جَزَآءَۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، إمّا "بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: يُجزون جزاءً، أو بالمصدرِ السّابق، فإنَّ المصدرَ ينتصبُ بمثله"[3]، والمعنى: ذلك جزاءُ أعداءِ اللّهِ النّار جزاءً، وإمّا لأنَّه مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ من النّار[4]، وعلى كلِّ الوجوه فقد أفادَ مجيءُ ﴿جَزَآءَۢ﴾ التّأكيدَ والمبالغة، فلمّا أبلغَ سبحانه في التّرهيب من عقابهم؛ زادَ في تعظيمه وتفضُّله لَمن أرادَ هدايتَهُ من عباده؛ لطفًا بهم، وإقامةً للحُجَّةِ على غيرهم[5].

في التّأكيدِ بالمصدرِ مبالغةٌ في التّرهيبِ، وإقامةٌ للحُجَّةِ على الكافرين

(1) العلياني، سورة فصّلت دراسة بيانية، ص: 313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 390.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179.

جزاءُ الخُلودِ في النّار سببُهُ الجُحودُ بآياتِ الله

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِمَا كَانُواْ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ للسَّببيَّة متعلِّقةً بـ ﴿جَزَآءَۢ﴾، والمعنى: (جزاءً بسببِ ما كانوا يجحدون بآياتنا)[1]، فجزاءُ الخلودِ في النّار سببُهُ جُحودُهم المستمرُّ بآياتِ اللّه.

جحودُهم بآياتِ الله أودى بهم إلى الخلودِ في النّار

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿بِمَا كَانُواْ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ مصدريَّةٌ، أي: جزاءً بكونهم يجحدون بآياتنا[2]، وقد أفادَ التَّعبيرُ بـ(ما) المصدريَّةِ أنَّ جحودَهم هو الَّذي أودى بهم إلى هذا الجزاء، ويمكن أنْ تكونَ موصولة، والمعنى: (جزاءً بالذي كانوا بآياتنا يجحدون)، أي: إنَّ خلودهم في النّار كان بسببِ الذي جحدوه بآياتِ اللّه.

استحقّوا الخلودَ في النّار على كفرِهم وتكذيبِهم بآياتِ الله

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ حرفُ جرٍّ متعلِّق بـ﴿يَجۡحَدُونَ﴾، وهي باءُ التَّعدية، فقد عُدّيَ بها فِعلُ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ لِتضمُّنِه مَعنى: يُكَذِّبونَ[3]، أو يكفرون[4]، والمعنى: (جزاءً بما كانوا بآياتنا يكذبون، ويكفرون).

الاهتمامُ بالآياتِ كونها سببًا في النَّجاة أو الهلاك

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور على عامله:

تَقديمُ المجرور ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على عامله ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾[5]؛ للاهتِمامِ بالآيات، وللتَّركيزِ على أنَّها سببٌ في النَّجاةِ أو الهلاك، وكذلك لِمراعاة الفاصِلة، والتَّقدير: بسببِ ماكانوا يجحدونَ بآياتِنا الحَقَّةِ أو يَلْغون فيها[6].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 179.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 390.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.

نُكْتَةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضمير العظَمة ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

جاءت إضافةُ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ الآيات؛ إذ أُسنِدَتْ إلى مَن أنزلها وأمرَ بها سبحانه، صاحبُ العظَمة المطلقة، والحكمةِ البالغة، وفي هذا التَّعظيمِ مزيدُ اهتمامٍ بالآيات، ومِن ثَمَّ مزيدُ توبيخٍ لَمن جحدَ بها، ولم يؤمنْ بها، ويعمل بموجبها.

الآياتُ المنزلةُ من العظيم سبحانه جديرةٌ بالإيمانِ بها والعملِ بموجبها

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

استُعمِلَ لفظُ الجُحود في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾؛ لمناسبتِه للسّياق، واتِّساعِ دلالته، فالمُرادُ بـ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ هو لَغْوهم في القراءة، وإنَّما سمّاه جُحودًا؛ لأنَّهم لَمّا علموا أنَّ القرآنَ بالغٌ إلى حدِّ الإعجاز، خافوا من أنَّه لو سمعه النّاسُ؛ لآمنوا به، فاستخرجوا تلكَ الطَّريقةَ الفاسدة، وذلك يدلُّ على أنَّهم علموا كونه معجزًا إلّا أنَّهم جحدوا للحسد[1]. فالجُحْدُ هو إنكارُ الشَّيء مع العِلم به[2]، كما أنَّ تعديةَ الفعل ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ بالباءِ ضمَّنه مَعنى: يُكَذِّبونَ[3]، أو يَكْفرون[4]، وجميعُ هذه المعاني تَصْدقُ على الكفّارِ، فهُم يُكَذِّبون، ويكفرون بالآيات، وينكرونها عِنادًا وحَسَدًا، ويَلْغون عند قراءتها، والتَّعبيرُ بصيغة المُضارِعِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ لحكايةِ حالهم في تَجَدُّدِ الجُحودِ حينًا فَحينًا وتَكَرُّرِه[5]، ممّا يُشيرُ إلى إصرارهم على هذا الجُحودِ ودوامِهم عليه، ولا سيَّما وقد جمعَ بين الفعل المضارع ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ والفعل الماضي ﴿كَانُواْ﴾، فدلَّ على أنَّهم فعلوا ذلك سابقًا، وتحقَّقَ منهم، وهم مستمرّون على هذا الجُحود.

في تجدُّدِ جحودهم وإنكارهم وكذبهم ولَغْوهم إصرارٌ منهم على الكفر

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 559.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جحد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 390.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.

بلاغةُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ:

في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ نَوعٌ مِن أنواعِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ إذ معنى الآية: (جَزاءً بما كانوا يَلْغون فيها)، فذَكَر الجُحودَ الَّذي هو سَبَبُ اللَّغوِ[1]؛ لما بيَّنَ قَولِهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾، وبيْن قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ مِنَ التَّوافُقِ المَعنويِّ؛ لأنَّ مَن يَستَهزِئُ بالقُرآنِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ جاحِدًا[2].

مَن يَلغو في القرآن ويَستهزئُ به لا بدَّ أنْ يكونَ جاحدًا

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الجَحْدُ والإنكار:

الجَحدُ أخصُّ من الإنكار، وذلك لأنَّ الجَحْدَ إنكارُ الشَّيءِ الظّاهر، والشّاهدُ قولُه تعالى: ﴿يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 26]، فجَعَل الجَحْدَ لما تدلُّ عليه الآيات، ولا يكون ذلك إلّا ظاهرًا، وأمّا الإنكارُ فيكون للنِّعمة؛ لأنَّ النِّعمةَ قد تكونُ خافيةً، قال تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النّحل: 83]، ويجوزُ أنْ يقالَ: الجَحْدُ هو إنكارُ الشَّيءِ مع العِلم به، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، فجعل الجَحْدَ مع اليقين، وأمّا الإنكارُ؛ فيكون مع العِلم وغيرِ العِلْم[3]، فالجَحْدُ: الإنكارُ مع العِلْم[4]، فإنَّ الإنسانَ إذا جحدَ؛ أنكرَ مع عِلم قلبه حقِّيَّةَ ما يُنكره[5]، وأمّا الإنكارُ؛ فهو خِلافُ الاعْتِراف، وأنكرَ الشَّيءَ لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ، ولَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسانُهُ[6]، واستعمالُ الجَحْدِ في الآية أنسبُ؛ لأنَّه أخصُّ من الإنكار، ولتعلُّقِه بالآيات، وهي شيءٌ ظاهر، فقد أنكروها مع العِلم بحقِّيَّةِ ما أنكروه، فاستحقّوا الخلودَ في النّار.

الجَحْدُ أخصُّ من الإنكارِ، فهو إنكارٌ مع العِلْمِ بحقيَّةِ ما أُنكر

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 198، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 71.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 198، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 601، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 302، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 46.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (جحد).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جحد).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ٢٩﴾ [فصّلت: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد المودَّة والمخادنة والوسوسةِ والتَّزيين طَلَبُ التَّشفّي من المُضلّين

لما بيَّن تعالى في الآيةِ السّابقة أنَّ الَّذي حَمَلَ المُعذَّبين على الكُفْرِ الموجِبِ للعِقابِ الشَّديدِ هو مُجالَسَةُ قُرَناءِ السّوءِ؛ بيَّن أنَّ الكُفّارَ عِندَ الوُقوعِ في العَذابِ الشَّديدِ يُلِحّون في التَّشفّي ممَّن أضلَّهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرِنَا﴾: (رأي) أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة[2]، والرُّؤية بالضَّمِّ: إدراكُ المَرئيِّ، وذلك أضرب، الأوَّل: النَّظرُ بالعينِ التي هي الحاسَّةُ وما يجري مجراها، والثّاني: بالوهم والتَّخيُّل، والثّالثُ: بالتَّفكُّر، والرّابع: بالقلبِ، أي: بالعقل[3]، والرُّؤْيَة: النَّظرُ بالعينِ والقلب، والرُّؤْيَةُ بالعين يتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلم يتعدّى إلى مفعولين[4]، والمقصودُ بالرُّؤيةِ في الآية: الرُّؤيةُ بالعين، أي: أبصرنا اللَّذَيْنِ أضَلّانا[5]، والمراد: أعْطِناهُما[6]، أو عَيِّنْ لَنا؛ كنايةً عن إرادةِ انتقامِهم منهم[7].

2) ﴿أَضَلَّانَا﴾: (ضلل) أصلٌ يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهابِهِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 559.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(3) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأي).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 362.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.

في غيرِ حَقِّهِ، وكلُّ جائرٍ عن القَصْدِ ضالٌّ[1]، والضَّلَلُ: ضِدُّ الهدى والرَّشاد، وفَقْدُ ما يوَصِّل إلى المطلوب، والضَّلالُ يُقال لِكُلِّ عُدولٍ عن الحَقِّ، وعن الطَّريقِ المُستَقيم، عَمْدًا كانَ أو سَهْوًا، يَسيرًا كان أو كثيرًا[2]، وضلَّ الشَّيءُ: خفيَ، وغابَ[3]، والإضْلالُ في كَلام العَرَبِ: ضِدُّ الهدايةِ والإرشادِ، يُقالُ: أضْلَلْتُ فُلانًا؛ إذا وجَّهتَهُ للضَّلالِ عن الطَّريق، فلم تُرشِدْهُ[4]، ومعنى ﴿أَضَلَّانَا﴾ في الآية: حَمَلانا على الضَّلال، وسنّا لنا الكفرَ والمعصية بالتَّسويلِ والتَّزيين[5].

3) ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾: أصْلُ (سفل) ما كانَ خِلافَ العُلوِّ[6]، وسَفُلَ فهو سافِلٌ، والأسفلُ ضِدُّ الأعلى، وقد قوبِل بـ(فَوْق) في قوله: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ [الأحزاب: 10]، والسَّفِلَةُ مِنَ النّاس: النَّذْلُ، نحو الدّونِ[7]، ويأتي بمعنى الخُسرانِ لأهلِ العقوبة: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصّافات: 98]، أي: الأخسرين في العقوبة[8]، والمَقصودُ بـ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ هنا، أي: ليكونا في أشدِّ العذاب في الدَّركِ الأسفل مِنَ النّار[9]، فهما أشدُّ حقارةً من حقارةِ هؤلاء الذين كفروا[10]، فيكونا مِنَ الأذَلّين المُهانين[11].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يَحكي اللّٰهُ تعالى بعضَ أقوالِ الكافرين الَّتي يقولونَها وهم في النّارِ؛ حِنقًا على مَن أضلَّهم، فيقولُ: وقال الَّذين كَفَروا باللّٰهِ ورسوله يومَ

حَنَقُ المخدوعين وتَحَرُّقُهم على الانتقام وسؤالُهم تضعيفَ عذابِ مَن أضلَّهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضلل).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/ 342.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 362.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).
(7) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(8) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 158.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 463.
(10) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 281.
(11) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 362.

القيامة بعد ما أُدْخِلوا جهنَّم: يا رَبَّنا أرِنا اللَّذَين أضلّانا عن الحَقِّ مِن خَلْقِك من جِنِّهم وإنسِهم نجعَلْهُما تحتَ أقدامِنا؛ لِيكونا دونَنا وأشَدَّ مِنّا في العذابِ، في الدَّرْكِ الأسفلِ من النّار، فنَشْتَفيَ منهما[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَقَالَ﴾:

إتمامُ بيانِ حالِهم في العذابِ أو حَنقِهم على جُلودِهم والمُضلّين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه إمّا جملةُ: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾، أي: ويَقولونَ ذلك في جَهنَّم[2]، أو جملة: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ﴾؛ إذ إنَّهم لمّا تَراءى لَهُم أنَّ الَّذي أوْجَبَ لَهم هَذا السّوءَ جُلودُهم بالشَّهادَةِ عَليهِم، وقُرَناؤُهم بإضلالِهم لَهم، وكانَ التَّباغُضُ والعَداوَةُ قَد وقَعَ بَينَ الجَميعِ، فَصارَ تَمَنّي كُلٍّ لِلآخَرِ السّوءَ زيادَةً في عَذابِهم، وكانَت مَساءَةُ جُلودِهم مَساءَتَهُم؛ خَصّوا القُرَناءَ بِإرادَةِ الانتقامِ مِنهُم، فَحَكى سُبحانَهُ قَولهم بِقَولِه عَطفًا على خِطابِهم لجلودِهم، أو عَلى ما تَقديرُهُ: (فَعَلِموا حينَئذٍ أنَّهم كانوا عَلى ضَلالٍ لِتَقصيرِهِم في النَّظَرِ وتَقليدِهِم لِغَيرِهِم).

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي (قال):

في تأكيدِ وقوعِ حَنقِ الكافرين على المُضلّين لهم دعوةٌ للحَذرِ منهم في الدُّنيا

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ (قال) بلفظِ الماضي، والمراد المستقبل[3] - إذِ المرادُ حكايةُ حالِهم يومَ القيامة، وهم يُعذَّبون في النّار - للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ قولِ الكافرين، وهم في النّار بطلبِ رؤيةِ الَّذين أضلّوهم؛ لكي يدوسوهم بأقدامِهم انتقامًا منهُم أو يجعلوهما في الدَّركِ الأسفلِ في النّار[4]، وفي هذا تخويفٌ وتحذيرٌ شديدٌ للكافرين المُخاطَبين من قُرناءِ السّوءِ ودعوةٌ لتركِهم والتَّبرّي منهم في الحياةِ الدُّنيا قبلَ فواتِ الأوان.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 462.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 357.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.

الغرضُ مِن التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

صـدورُ الـخَـنـقِ وطَـلـبُ الانتقامِ مــن جـمـيـع الكافرين يُؤكِّدُ دعوتَهم للتَّوبةِ

لو عبَّر البيانُ الحكيمُ بالاسم الظّاهر، فقال: (قال الكفار: ربَّنا أرنا)؛ لَما أعطتنا الآيةُ العمومَ الَّذي يدلُّ عليه الاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فالقولُ قد صدرَ من جميع الكافرين المُعذَّبين في النّار، وفي هذا تخويفٌ شديدٌ للمخاطَبين يُؤكِّدُ دعوتَهم للتَّبرّي من صلةِ الوسوسة والإغواءِ، والتَّعلُّقِ بصِلةِ النُّصح والولاء، ولأنَّ في ذِكْرِ الاسمِ الموصول إظهارًا لِما هوفي موضعِ الإضمار، فلم يقل: (وقالوا)، وذلك لكونِ هذا القَول مغايرًا للقول الأوَّل من جهةِ المكان[1]؛ إذ إنَّهم قالوا هذا القول، وهم في النّار.

الغرضُ مِن العدولِ عن التَّعبير بالمستقبل إلى التَّعبير بالماضي:

الـكـفـرُ مـمَّـن في الـنّـارِ قـد وقـعَ وتحقَّق وأصرّوا عـلـيـه، فـكـان سـبـبَ مـا هـم عليه

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن المضارع المستقبل إلى الماضي في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾، ولم يقل: (وقال الذين يكفرون)؛ لكونِ الحديثِ عن أمرٍ مضى، وعن حالٍ منهم قد تحقَّق، وللتَّأكيدِ على تحقُّقِ وقوعِ الكفرِ منهم في الدُّنيا وإصرارِهم عليه، حتّى حَلّوا بسببِهِ في النّار، رغمَ النُّذُر الَّتي لم تنقطِعْ من اللهِ سبحانه.

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب النِّداء، وسرُّ حَذفِ حرفِ النِّداء:

المُعذَّبون في نارِ جهنَّم مقهورون لا يـكـونُ منهم إلّا الخضوعُ للهِ والتَّعظيمُ له

حُذِفَ حرفُ النِّداء (الياء) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا﴾؛ ليُصَوِّرَ لنا قُرْبَ المُنادى ﴿رَبَّنَآ﴾ سبحانه، وقوَّةَ سلطانِه على كلِّ شيءٍ؛ إذ إنَّ معنى الرَّبِّ هو المُربّي والسَّيِّد والمالك، وهو بهذه المعاني مِن شأنه أن يكونَ قريبًا حاضرًا لا يحتاجُ في ندائهِ إلى وسائط، وقد كَثُرَ حذفُ الياء في نداءِ الرَّبِّ سبحانه؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّنزيه؛ لأنَّ النِّداءَ يتشرَّبُ معنى الأمر، وبالحذفِ يزولُ معنى الأمر، ويتمخَّضُ التَّعظيمُ والإجلال[2]، ولأنَّ كلمة (ربّ) أكثرُ

(1) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على البيضاويِّ: 17/ 156.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 213.

استعمالًا من غيرِها في الدُّعاء؛ فروعيَ فيها من جهاتِ التَّخفيف ما يجعلُها أطوعَ في الألسنةِ، وأسهلَ في مجاري الحديث[1].

الغرضُ من الإضافة في ﴿رَبَّنَآ﴾:

استعطافُ الكافرين للهِ سبحانه أنْ يجيبَ دعوتهم

تشيرُ الإضافةُ في قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾ إلى استعطافِ الكافرينَ للّهِ سبحانه أنْ يجيبَ دعوتَهم، والمعنى: أيُّها الَّذي لَم يَقْطَعْ قَطُّ إحسانَهُ عَنّا[2]، وفيها إلحاحٌ إلى إقرارِهم ومعرفتهم يقينًا بأنَّه سبحانه هو الرَّبُّ المالكُ المُحسنُ إلى عباده.

إيثارُ التَّعبير بفعل ﴿أَرِنَا﴾ دونَ غيره:

إيجازُ اللّفظِ واتِّساعُ المعنى بلاغةٌ قرآنيَّة

الفعل (أرِ) في قوله تعالى: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ فعلُ أمرٍ، ماضيه (رأى)، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ به دونَ (أبْصِرنا) أو (أعْلِمنا) أو (عَيِّن لنا) أو (أعْطِنا)؛ لكونِ (أرِنا) تشملُ المعاني الأربعةَ، وهذا من بابِ الإيجاز بأنْ يُعبَّر بفعلٍ حاملٍ معانيَ مطلوبةً في الآية، ويكون الَّذين كفروا قد طلبوا في النارِ أنْ يُبَصِّرَهمُ اللّهُ المُضلّين، وأن يُعْلِمَهم بهم، وأن يُعَيِّنَهم لهم، وأن يُعطيَهم إيّاهم باعتبار قراءة (أرْنا).

غرضُ الأمر في الفعل ﴿أَرِنَا﴾:

توسُّلٌ وتَضَرُّعٌ يُظْهِرُ سوءَ حالِ المُعَذَّبين في النّار

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، وغَرضُه: الاستعطافُ والتَّضرُّعُ والتَّوسُّلُ، بما يُظْهِر سوءَ حالِ المُعَذَّبين في النّار، فالكافرون في النّار يتوسَّلون، ويتضرَّعون إلى ربِّهم طالبين أنْ يُبَصِّرَهم المُضِلّين، وأنْ يُعْلِمَهم بهم؛ ليَتَشفَّوا منهم.

توجيهُ القراءات في الفعل ﴿أَرِنَا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿أَرِنَا﴾ قراءتان[3]، فقد قَرَأ ابْنُ كَثيرٍ وابْنُ عامرٍ

(1) المطعني، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/ 8.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 181.
(3) ابن الجزريّ، شرح طيبة النّشر، ص: 186.

ويَعْقوبُ وشُعبة (أرْنا) بالسُّكون لِلاستِعْطاءِ، والمعنى: أَعْطِنا، أو مَكِّنّا اللَّذين أضَلّانا، نَدوسُهُما تَحْتَ أقْدامِنا انتِقامًا مِنهُما، وقرأ الباقون: ﴿أَرِنَا﴾ بالكَسرِ لِلاستِبْصارِ، والمعنى: أَبْصِرْنا اللَّذينِ أضَلّانا نَدوسُهُما تَحْتَ أقْدامِنا[1]، والجَمعُ بين الاستعطاءِ والاستبصارِ بيانٌ لمدى حنقِ الكافرين وتحرُّقهم للانتقامِ ممَّن أضلَّهم من الجنِّ والإنس.

الجمعُ بين الاستعطاء والاستبصار بيانٌ لمدى حَنقِ الكافرين وتَحرُّقِهم للانتقام

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعول به اسم موصول مثنى ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن المفعولِ به في قوله تعالى: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ باسمِ موصولٍ مثنًّى مراد به الجنسُ لا الواحد ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾ دون الاسم الظّاهر، فلم يَقل: (أرِنا الصِّنْفَيْنِ المُضلَّين لنا)؛ للإيذانِ بعِلَّةِ استحقاقِ هذَين الصِّنفين لهذا الجَعْلِ، تحتَ الأقدام والتَّحقير والإهانةِ لهما من قِبَلِ السّائلين لذلك، وهي إضلالُهم[2]، وللتَّشويق لما بعدَه، ولإفادةِ العموم أيضًا، أي: أرنا كلَّ مُغْوٍ لنا من هَذَين النَّوعَين، باعتبارِ لام الجنِّ والإنسِ جنسيَّةً[3]، وأمّا باعتبارها عهديَّةً؛ فالمقصودُ منهما إبليسُ وقابيلُ، كما ورد عن عليٍّ رضي الله عنه[4]، وعن السُّدّيِّ قال: "ما مِن كافرٍ يَدخلُ النّارَ إلّا وهو يَلْعنُ إبليسَ؛ لأنّه أوَّلُ مَن سَنَّ الكفرَ، وما مِن عاصٍ يدخلُ النّارَ إلّا ويَلْعَنُ قابيلَ؛ لأنَّه أوَّلُ مَن سَنَّ المعصية"[5].

في الموصوليَّة إيذانٌ بعِلَّةِ استحقاقِ المُضلّين للدَّوسِ بالأقدامِ والتَّحقير

دلالةُ التَّعبيرِ بجملة الصِّلة فعلًا ماضيًا ﴿أَضَلَّانَا﴾:

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿أَضَلَّانَا﴾ دونَ المضارع؛ لأنَّ الحديثَ عن أمرٍ قد وقعَ، ومضى، وتحقَّق في الماضي؛ إذ تزيينُ ارتكابِ السّوء خفيةً وجَهرًا، والإضلالُ كان في الدُّنيا، وفيه كذلك

الوسوَسةُ والإغراء والإضلالُ من شياطينِ الإنسِ والجِنِّ أمرٌ ماضٍ محقَّقٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 302، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 281.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 181.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 14.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 462، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 302.
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 7/ 172.

التَّأكيدُ على تحقُّقِ وقوعِ الإضلالِ من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، وهذا يبعثُ على الحَذَرِ والانتباهِ من الوقوعِ في إغواءِ الإنسِ والجنِّ.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾:

في التَّبعيضيَّة دلالةٌ على كَثرةِ المُضلِّين، وفي البيانيَّةِ بيانٌ لأوَّلِ من سَنَّ الضَّلالة

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ للتَّبعيض، والمعنى: أرِنا الصِّنفَين المضلَّين مِن بعضِ الجنِّ والإنس، ويمكن أنْ تكونَ بيانيَّة عند مَن فسَّر الجنَّ بإبليسَ والنَّاس بقابيل[1]، والمعنى: أرِنا اللَّذينِ أضلانا؛ وهما إبليسُ وقابيلُ؛ لأنَّهما أوَّلُ مَن سنَّ الضَّلالةَ.

بلاغةُ الطِّباق في قوله: ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾:

كثرةُ إضلالِ بني آدمَ وإغوائِهم باجتماعِ شياطينِ الجنِّ والإنسِ على ذلك

من طباقِ الإيجاب في الآية الجَمْعُ بين لفظَي ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وغَرَضُهُ: الإشارةُ إلى كَثْرةِ الوسوسةِ والإغواء والإضلال لبني آدمَ باجتماع شياطين الجنِّ والإنس، وكذلك الإشارةُ إلى عظيم قُدرةِ اللّٰه في إذلالِهِ للمُضلّين مِنَ الثَّقلين بإدخالهم النّار، وقَهْرِهم بالعذاب.

الغرضُ من البَدءِ بالجِنِّ:

تقديمُ الجنِّ لكونه أقدمَ خَلْقًا، وأسبقَ غوايةً، وأكثرَ مناسبةً

البَدءُ بالجنِّ، وتقديمُه على الإنس؛ لأنَّ خَلْقَ الجنِّ أقدمُ، وأغربُ وأعجبُ، وأدلُّ على القدرة الإلَهيَّة، ولأنَّ الجنَّ أسبقُ في الإضلال، فقد كان بَدءُ الإغواء من إبليس لأبينا آدمَ في الجنَّة، كما أنَّه أنسبُ لمقامِ الإذلالِ للكافرين الذين كان من حالهم تعظيمُ الجنِّ واستعاذتهم بهم، وكذلك لمراعاةِ عادةِ القرآن الأغلبيَّةِ في تقديم الجنِّ على الإنس.

دلالةُ التَّعبير بجواب الطَّلب بالفعل ﴿نَجۡعَلۡهُمَا﴾:

سَعةُ معاني الجَعلِ تُناسبُ شِدَّةَ حَنَقِ الكافرين وتفنُّنهم في إهانةِ المُضلّين

التَّعبيرُ بلفظِ الجعل، وهو قوله تعالى: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا﴾ دون غيره؛ لاتِّساع دلالته، فهو لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ مِنْ: فَعَلَ وصَنَعَ وسائرِ أخواتها، فهو يشملُ الوطءَ بالأقدام والرَّفس، أي: نجعل آحادَهم تحتَ

(1) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على البيضاويِّ: 17/ 157.

أقدام آحادِ جماعتنا انتقامًا منهُما[1]، ويشملُ الجَعْلُ الوضعَ تحتَ الأقدام في النّار؛ ليكونا مباشرين للنّار، ويكونا وقايةً بيننا وبينها، فتُخفَّف عنّا حرارتها نوعَ خِفَّةٍ[2]، أو نجعلهما في الدَّركِ الأسفلِ مِنَ النّار[3]، وهذا التَّعبير بهذه المعاني يتناسبُ مع إرادةِ انتقام المُعذَّبين وتشفّيهم ممَّن أضلّوهم، وجعلوهم تحتَ أمرِهم.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بالكناية في ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾:

إرادةُ الكافرين وضْعَ مَن أضلَّهم، وأغواهم تحتَ أقدامِهم في قوله تعالى: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ كنايةٌ تُفيدُ عدَّة معانٍ، وهي: الاستخفافُ، والاحتقارُ، والسَّيطرة، والقهر، والاستعلاء، والتَّعالي، والانتقامُ، والانتصار، والتَّحقيرُ، والإهانة، والإذلال[4]، وطلبُ أشدِّ العذاب لهم، أي: في أسفلِ طبقةٍ من النّار، وهي درَكُ المنافقين[5]، وهذه المعاني تُعزِّزُ مِن قوَّةِ التَّعبيرِ وتأثيره، وتدلُّ على مدى حَنَقِ الكافرين يومَ القيامة ممَّن أضلَّهم، وهي رسالةُ تحذيرٍ وتخويفٍ للكافرين في الدُّنيا من أنْ يصيبَهم هذا إنْ لم يعودوا إلى رُشدِهم، ويؤمنوا بربِّهم.

الجَعْلُ تحتَ الأقدام كنايةٌ بليغةٌ عن الاستخفافِ والاحتقارِ والانتقامِ والانتصارِ

الغرضُ مِن الإضافة في ﴿تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾:

إضافةُ ﴿تَحۡتَ﴾ إلى ﴿أَقۡدَامِنَا﴾ يُرادُ بها التَّحقيرُ والاستهانةُ بهؤلاء الذين سيُجعَلون تحتَ أقدامهم، وكذلك تخصيصُ هذا الجَعْلِ تحتَ أقدامهم، فهي ليسَتْ مجرَّدَ أقدام عامَّة، بل هي أقدامُهم بشكلٍ محدَّدٍ.

في الإضافةِ مزيدُ تحقيرٍ واستهانةٍ مِن الكافرين بمَن أضلَّهم

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿لِيَكُونَا﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا﴾ للتَّعليل،

في التَّعليل توطئةٌ لاستجابةِ الله لطلبِ المُعذَّبين باستذلالِ المُضلّين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 280.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 363.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 12.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 280.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 303.

والتَّعليلُ تَوطِئةٌ لاستِجابةِ اللّهِ تعالَى لهم أنْ يُريَهُما؛ لأنَّهم عَلِموا مِن غَضَبِ اللّهِ عليهم أنَّه أشَدُّ غَضَبًا على الفريقَيْنِ المُضِلَّيْنِ، فتَوَسَّلوا بعَزْمِهم على الانتِقامِ منهم إلى تَيسيرِ تَمكينِهم مِنَ الانتِقامِ منهم[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها في ﴿مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾:

في التَّبعيضِ دلالةٌ على كَثرةِ المُضِلّين والمُغوين

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ حرفُ جرٍّ للتَّبعيض، ودخولُها على لفظِ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ يُفيدُ كونَ هؤلاءِ المُضِلّين من الجِنِّ والإنس من هذه الزُّمرة، زُمْرةِ الأسفلين، وهذه الصّيغة ﴿مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ من قبيلِ الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيء بإثباتِ مَلزومِه، وهي أبلغُ من التَّصريح.

الغرضُ مِن صيغة (أفعل) التَّفضيل، والجمع في ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾:

في التَّفضيل توكيدٌ لطلبِ زيادةِ العذابِ للمُضِلّين

التَّعبيرُ بصيغة (أفعل) التَّفضيل ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾؛ للدَّلالة على طلب زيادةِ العذاب للمُضِلّين، أي: ليكونا في أسْفَلِ طَبَقَةٍ مِنَ النّارِ، وهي أشَدُّ عَذابًا، وهي دَرْكُ المُنافِقينَ[2]، أو طلبِ زيادةِ التَّحقيرِ والإذلال لهما، أي: ليكونا في أدنى مقام في مقابلِ ما كان لهم من مقام ومكانةٍ عُليا في الحياة الدُّنيا، والتَّعبيرُ بصيغةِ الجمع ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على كثرةِ المُضِلّين ممَّن يستحقّون أن يكونوا في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النّار.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

أسفل وتحت:

المُضِلّون لغيرهم في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النّار، وهم من الأذَلّين المُهانين

يشتركُ اللَّفظان في معنى الإشارة إلى الجهةِ والانخفاض، فأصلُ لفظ (سفل) في اللُّغة ما كانَ خِلافَ العُلُوِّ[3]، والأسفلُ ضِدُّ الأعلى[4]، ولفظُ (تحت) نقيضُ (فوق)، وهي إحدى الجهات السِّتِّ المحيطةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 281.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 303.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).

(4) الرّاغب، المفردات: (سفل).

بالجِرْم[1]، إلّا أنَّ لفظَ (أسفل) بالإضافة إلى معنى الجهة فيه، فإنَّه يُعبِّرُ أيضًا عن معنى الدّونيَّة والانحطاطِ، والنَّذالةِ والخِسَّة، فسَفَلَةُ النّاس: الأنذال[2]، ويأتي بمعنى الخسرانِ لأهلِ العقوبة: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصّافات: 98]، أي: الأخسرين في العقوبة[3]، وكذلك يتميَّز لفظ (أسفل) بأنَّه يُستعملُ في وصفِ شيءٍ متَّصل بعضُه ببعض، بينما لفظُ (تحت) يُستعملُ في المنفصلِ أو ما يمكن انفصالُهُ، فيقالُ: أسفلُ البئرِ، ولا يُقالُ: تحت البئر[4].

ومن هنا كان استعمالُ لفظ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾؛ لاتِّساعِ دلالةِ اللَّفظ، ولمناسبته للسّياق، فهُم أسفلُ النّار، وهي شيءٌ متَّصلٌ غيرُ منفصل، ومن ثَمَّ تضمَّن لفظُ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ عدَّةَ معانٍ، فدلَّ على كونِهم الأخسرين في العقوبة[5]، فهُم في أشدِّ العذابِ في الدَّرْكِ الأسفل من النّار[6]، وهُم مِنَ الأذلّين المُهانين[7]، وهم أشدُّ حقارةً من حقارةِ هؤلاء الذين كفروا[8].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (تحت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسمين، عمدة الحفّاظ، وعمر، معجم اللّغة العربيّة: (سفل).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 158.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 61، والرّاغب، المفردات: (تحت).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 158.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 463.
(7) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 362.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 281.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾

[فُصّلت: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذَكر الأعداء، وقرنهم بالنِّذارة؛ أتبعه ذِكرَ الأولياء، وحباهم بالبشارة

يُظهر الحقُّ سبحانه التَّبايُنَ العميق بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين، فقد ذكر حال الكافرين، وما سيجري عليهم من العذاب، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: 29]؛ إظهارًا لمدى اليأس والغضب الذي سيسيطر عليهم حين يُحشرون يوم القيامة بسعيهم إلى الانتقام ممَّن أضلَّهم في الدُّنيا، ثمَّ أتبعه بذِكْرِ بشارة المؤمنين الذين آمنوا بالله ربِّهم، ثمَّ استقاموا على طريق الحقِّ، فبيَّن حالهم القابل للإعراض، وثمراتِه بما أنعم عليهم[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على اعتدال الشَّيء واستوائه، يُقال: قامَ الشَّيءُ، واستقامَ: اعتدل واستوى، وأقمتُ الشَّيء، وقوَّمته، فقامَ، بمعنى: استقام[2]، والاستقامةُ يُقالُ في الطَّريق الَّذي يكون على خطٍّ مُستوٍ، وبه شُبِّه طريقُ المُحِقِّ، نحو: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، واستقامةُ الإنسان: لزومُه المنهجَ المستقيم[3]، والاستقامةُ أيضًا: ضِدُّ الاعوِجاجِ، والمُراد بها في الآية عدمُ الاعوجاج

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 182.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (قوم).

والمَيْلِ، ويشمَلُ معنى الوفاءِ بما كلِّفوا به، وأوَّلُ ما يشمَلُ من ذلكَ: أن يثبُتوا على أصل التَّوحيدِ، أي: لا يُغيِّروا، ولا يرجعوا عنه(1).

2) ﴿وَأَبْشِرُواْ﴾: (بشر) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيء مع حُسنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهرُ جِلْدِ الإنسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لظُهورهم، والبَشيرُ: الحَسَنُ الوَجهِ(2)، والبِشارَةُ المُطْلَقَةُ لا تكونُ إلّا بالخَير، وإنَّما تكونُ بالشَّرِّ؛ إذا كانَت مُقَيَّدَةً؛ كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21](3)، والبُشرى: الخَبر الَّذي يُغيِّر البَشَرة مِن حُزْنٍ أو سرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكون إلّا بالخبر الأوَّل(4)، والمُرادُ بالبِشارة في الآية: كلُّ خبرِ صِدقٍ وخيرٍ، تتغيَّر به بَشَرَةُ الوجهِ نحوَ الأحسن والأجمل.

3) ﴿تُوعَدُونَ﴾: (وعد) أصلٌ يدُلُّ على تَرْجيةٍ بقولٍ، يُقالُ: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْدًا، ويكونُ ذلك بخيرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوعيدُ؛ فلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ(5)، والوَعْدُ: هو الإخبارُ بأمرٍ مُستَقبَلٍ(6)، والمَوعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ(7)، والمقصودُ بالوعد في الآية: الإخبارُ عن فِعْلِ المُخْبِرِ، وهو تَذْكيرهم بما وُعِدوا في الدُّنيا من الثَّوابِ(8).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستِقامةُ على الحَقِّ أساسُ الأعمالِ الصّالحةِ

يُبيِّن اللّه تعالى في الآية الكريمة حُسْنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقول سبحانه: إنَّ الَّذين قالوا نُطقًا بألسِنَتِهم، واعتِقادًا بقُلوبِهم: ربُّنا اللّهُ وحْدَه، ثمَّ استَقاموا على تَوحيدِه سبحانه، وامتِثالِ أوامِرِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 282.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بشر).
(4) النّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 267، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 184.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وعد).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وعد).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 157.

واجتِنابِ نَواهيه، وداوَموا على طاعتِه بإخلاصٍ له، وموافَقةٍ لِشَرعِه، أولئك هم المُؤمِنونَ المُستَقيمونَ، تَتنَزَّلُ عليهم الملائكةُ بألّا تخافوا ممّا يُستَقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مَضى، وأبشِروا بالجَنَّةِ الَّتي كُنتُم توعَدونَ بدُخولِها في كُتُبِ اللّهِ وعلى ألسِنةِ رُسُلِه؛ جَزاءَ إيمانِكم باللّهِ، واستِقامتِكم على دينِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ هذه الآيةِ الكريمة عمّا قبلها:

تشوُّفُ السّامعِ إلى معرفةِ حظِّ المؤمنين بعد ذِكرِ عذابِ الكافرين

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ الآية، مفصولٌ عمّا سبقَه من كلام؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ ناتج عمّا سبق من قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: 19]، إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: 29]، بعد أن تناولت الآياتُ الحديثَ عمّا أصاب الأممَ السّابقة من المشركين المُكذِّبين من عذابٍ في الدُّنيا، وما هو مُعَدٌّ لهم من عذاب في الآخرة - وقد كان في ذلك عِبرةٌ للمشركين الذين كذَّبوا محمَّدًا ﷺ - يتشوَّق السّامع إلى معرفة حظِّ المؤمنين، ووصف حالهم، فجاءت الآيةُ بيانًا للمُترقِّب، وبُشرى للمُتطلِّب[2].

دلالةُ افتتاحِ الجملةِ بحرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾:

في توكيد الخبر تصديقٌ بالموعودِ الإلهيِّ لعبادِهِ المُوحِّدين المُستقيمين

افتتح الحقُّ ﷻ الجملةَ بحرف التَّوكيد والنَّصب المُشبَّه بالفعل ﴿إِنَّ﴾، في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ للإشارة بقوَّةٍ إلى صدقِ الموعود المُبشَّر به، مع طرافته وغرابته وجزيلِ كرامته، ولأنَّه من باب الجزاء على اليسير الَّذي لم يكن إلّا بمعونته وهدايته وتثبيته وإقداره بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهو ليس محضَ تأكيدٍ فحسب، بل هو تأييدٌ للمؤمنين، وتعضيدٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 427، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 177، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 182، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 748.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 281، 282.

للثَّبات على دينهم والإقامة عليه، رغمَ ما يَلْقَون في ذات اللّه من تعذيبٍ يُزهِقُ الأنفسَ، ويُرهق الألباب، ولتهوين بطش الكافرين وتوهين كيدهم، وللإغراء بهذه العاقبة الحميدةِ، والخاتمة الفائقة رَباحًا وفَلاحًا، للحذو حذوهم.

دلالةُ تعريف المُسنَدِ إليه بالموصوليَّة ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

سـببُ ثبوت الإيمان للمسند إليه، وأنَّ تنزُّل الملائكة عليهم مسـبَّبٌ عن قولهم ذاك

تعريفُ المسند إليه بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ دونَ الاسم الظّاهر، بأن يقول: (إنَّ القائلين: ربُّنا اللّهُ، المستقيمين)، فيه تعزيزُ معنى الصِّلة، والإيحاءُ بأنَّ هذا التَّصريح بالإيمان هو السَّبب وراءَ ثباتِهم على الحقِّ، فقد أيقنوا أنَّ خالقهم ورازقهم هو إلههم المستحقُّ للعبادة وحدَه دونَ سواه، والتَّعبير بهذا الشَّكل يُشير إلى أنَّ تنزُّل الملائكة عليهم بالكرامة هو نتيجةٌ مباشرة لقولهم ذاك، واستقامتهم في الدّين، فإنَّ الاعتقاد الحقَّ، والإقبالَ على العمل الصّالح هما مِفتاحُ الفوز والنَّصر والفلاح[1].

توقُّعُ الطُّمأنينة والبشارة للمؤمنين قبلَ النُّطق بها

وتعريف المُسنَد إليه بالموصوليَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، يُضفي على النَّصِّ عُمقًا بلاغيًّا ومعنًى يسبق النُّطق بالخبر نفسه، فهذه التَّهيئةُ النَّفسيَّة للسّامع تجعله يكاد يعرف الخبرَ قبل أن يُذْكَر[2]، فإنَّ إذعان المؤمنين وإقرارَهم بتوحيده تعالى وبربوبيَّته إيماءٌ إلى أنَّهم موعودون وعدَ خيرٍ وبشارةٍ، يُؤيِّدُه تَنزُّل الملائكةِ عليهم بالأمن والطُّمأنينة، ونفي الخوفِ والحُزنِ، فكأنَّ السّامعَ يتوقَّع ذلك قبلَ حصوله، بموجب ما كان من أمر الصِّلة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 283.
(2) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 197.

دلالةُ التَّعبير بالقول مادَّةً وصيغةً:

تحقيقُ القول نطقًا باللِّسان، والإذعان به بالجنان، والتَّصديق لداعي المَلِك الدَّيّان

في التَّعبير بمادَّة القول وصيغته الماضويَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ القولَ ينتظم عملَ اللِّسان: وهو هنا الشَّهادة والإعلان والتَّصريح، وعملَ القلب: وهو التَّصديق والاعتقاد، وعملَ الجوارح: وهو أداءُ التَّكاليف والشَّعائر، وشواهد ذلك من القرآن والسُّنَّة كثيرةٌ، وفيه تصديقٌ لدعوة اللّه المَلِك في هذه الدُّنيا بتواضع وإخباتٍ، فأصلُ الكمالات النَّفسيَّة يتجسَّد في يقينٍ مُصْلِح، وعملٍ صالح، ومعرفةِ الحقِّ لذاته، والعملِ للخير[1].

دلالةُ جملة: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾:

صَدَعوا بالتَّوحيد، ولم يَخْشَوا أحدًا، وصرَّحوا بإيمانهم العميق واعتقادِهم الرّاسخ

تدلُّ جملة: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ على شجاعتهم في إعلان التَّوحيد، والصَّدعِ به دونَ خشيةٍ من أحد؛ إذ كان قولُهم هذا تعبيرًا صادقًا عن إيمانهم العميق، واعتقادِهم الرّاسخ، فهذا التَّصريح يعكس ما في قلوبهم من يقين[2]، فالأصلُ في الكلام هو الصِّدق، وهو مطابقةُ القول الخبريِّ للواقع والحقيقةِ الخارجيَّة[3].

بلاغةُ أسلوب القَصْر في قوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾:

الاعتراف بالتَّوحيد يُزيل العقباتِ أمامَ تصديق الرَّسول ﷺ

تتجلّى بلاغةُ القرآن الكريم في جملة مقولِ القول الابتدائيَّة: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فأَوْرَدَ طرفَيْها مُعرَّفتَيْن؛ لإفادة الحصر بتعريف المُسنَد إليه والمُسنَد[4]، في إشارة إلى أنَّه لا ربَّ لهم سوى المولى سبحانه، ممّا يعكس جوهرَ الاعتقاد الحقِّ، فالاعترافُ بالتَّوحيد يُزيل العقباتِ أمامَ تصديق الرَّسول ﷺ فيما جاء به؛ إذ إنَّ المشركين لم يمنعهم عن الإيمان برسالة النَّبيِّ ﷺ سوى أمرِه لهم بنبذ عبادة غيرِ اللّه تعالى، فضلًا عن أنَّ إنكار البعث جاء من دعوات الشِّرك[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 282.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 1/ 61.
(4) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 398.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 282.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الرُّبوبيَّة ﴿رَبُّنَا﴾ مع اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

جمعٌ فريدٌ بين الإحسان الرَّبّانيّ والتَّوحيد الخالص؛ لإظهار كمال الصِّفات الإلهيَّة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ باسمي الرُّبوبيَّة والجلالة في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فاسمُ (الرَّبِّ) يعني المُحسنَ إلينا، والمُتكفِّلَ بكلِّ احتياجاتنا، والاسمُ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ يحمل في طيّاته الصِّفاتِ الفريدةَ للجلال والعظَمة والإكرام[1]، لا يشاركُهُ فيها أحدٌ، وهذا الجمعُ الفريد بين الإحسان الرَّباني، والتَّوحيد الخالص يُبرز كمالَ صفات الله تعالى.

سِرُّ تقديم الرُّبوبيَّة على اسم الجلالة:

الرُّبوبيَّة تأسيسٌ، والألوهيَّة بنيانٌ

قُدِّم توحيد الربوبية على توحيد الألوهية في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة تُشير إلى الاعتراف بأنَّ الله تعالى هو الخالق والمُدبِّر والمُربّي، وهذا الاعتراف يُعدُّ الأساس الأوَّل الذي ينطلق منه الإنسانُ في رحلته الإيمانيَّة، فإذا قال الإنسان: "ربّي الله؛ اعترف بأنَّه مالكُه ومُدَبِّرُ أمرِه ومُربّيه، وأنَّه عبدٌ مربوبٌ بين يدي مولاه"[2]؛ فيبدأ الإنسانُ بتثبيت عقيدته في ربِّه ومُدبِّر أموره، ثمَّ يأتي بعد ذلك الإقرارُ بأنَّه تعالى هو المعبود الواحد الذي لا شريكَ له.

دلالةُ الجمعِ بين الرُّبوبيَّةِ والأُلوهيَّة والاستقامة:

الكمال الإسلامي كائنٌ في التَّوحيد والاستقامة في الأعمال الصّالحة

في جملة: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ برهانٌ على جمعها لأصلَين من أصول الكمال الإسلاميِّ، فقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يُشير إلى الكمال النَّفسيِّ، وهو معرفة الحقِّ للاهتداء به، ومعرفة الخير من أجل العمل به، فالكمالُ هو العلم اليقينيُّ والعمل الصّالح، ومعرفةُ الله هي أساس العِلْم اليقينيِّ، أمّا قولُه: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ فيشير إلى أساس الأعمال الصّالحة، وهي الاستقامة على الحقِّ، أي: أن يكون الإنسان متوسِّطًا غيرَ مائلٍ إلى طرفَي الإفراط والتَّفريط، وكمالُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 182.

(2) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 398.

الاعتقاد راجعٌ إلى الاستقامة، فالاعتقادُ الحقُّ لا يتوغَّل في جانب النَّفي إلى أن ينتهيَ إلى التَّعطيل، ولا في جانب الإثبات إلى أن ينتهيَ إلى التَّشبيه والتَّمثيل، بل يسير على الخطِّ المستقيم الفاصل بين التَّشبيه والتَّعطيل[1].

سرُّ التَّعبير بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ دون غيره من حروف العطف:

الوصولُ إلى الاستقامة يحتاج إلى جهد وعمل دؤوب وتوفيق من الله بعدَ الإيمان

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ بيانُ أهمّيَّة الثَّباتِ على التَّوحيد وتصحيحِ العقيدة حتّى الممات، وهو أمرٌ ذو رتبةٍ عالية، ومنزلة سامية، ولا يمكن الوصول إليه إلّا بتوفيق اللّه ﷻ[2]، واستعمالُ أداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ يشير إلى أنَّ الوصول إلى الاستقامة فيه يحتاجُ إلى الجهد والتَّوفيقِ منه سبحانه بعد الإيمان به، ويوضِّح أنَّ الإيمانَ به وتوحيدَه ما هو إلّا بداية الطَّريق، أمّا الاستمرارُ فيه، والثَّباتُ عليه حتّى النِّهاية؛ فإنَّه يتطلَّب نعمةً منه ﷻ وعملًا دؤوبًا لا ينقطع.

الاستقامة رتبةٌ زائدةٌ على التَّوحيد، وهي دليلٌ على الإيمان الرّاسخ والعمل الصّالح

والتَّعبير بحرف التَّراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ يُظهر تأخيرًا زمنيًّا ورُتبيًّا؛ إذ يضع الاستقامة في مرتبة زائدة على الإقرار بالتَّوحيد، فالاستقامة تشمل الثَّبات على التَّوحيد، والعملَ بما يقتضيه، ممّا يجعلها أسمى وأعمق، وهذا الثَّبات برهان على أنَّ قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ لم يكن كلامًا حسب، بل هو تعبيرٌ حقيقيٌّ عن اعتقادٍ راسخ، وإيمان صادقٍ ينبعث من أعماق ضمائرهم ومعرفتِهم الحقيقيَّة[3].

بين الإقرار والاستقامة تراخٍ زمانيٌّ لنضوج الإيمان

ويجوز أن يكون التَّعبير بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ مع فعل الاستقامة مُستعمَلًا للتَّراخي الزَّمانيِّ، فهو يشير إلى أنَّ الاستقامةَ تأتي بعد مُدَّةٍ من وقت الإقرار بالرُّبوبيَّة والأُلوهيَّة[4]، ممّا يعني أنَّ هناك مدَّةً زمنيَّة بين الإقرار والعمل بمقتضياته، وهو يعكس الفهمَ العميق

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 560.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 183.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 283.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 372.

لتطوُّر الإيمان والعمل به، إذ يبدأ الإنسانُ بالإقرار بأنَّ اللّه هو ربُّه ومولاه، ثمَّ ينتقل إلى مرحلة الاستقامة والثَّبات على هذا الإيمان، فالإيمان الحقيقيُّ يتطلَّب وقتًا لنضوجه وتجذُّره في القلب، ثمَّ ظهوره على الجوارح.

دلالةُ التَّعبير بالاستقامة في قوله: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الـثَّـبـاتُ على الإيـمـان وإخلاصُ العمل وأداءُ الفرائض بيان لجزئيّاتها

التَّعبير بالاستقامة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ واردٌ على معنى الثَّبات على الإيمان والرُّسوخ فيه، وإخلاصِ العمل، وأداءِ الفرائض بجزئيّاتها، مثلما أوجبها الحقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ[1]، واستعمالُ الصّيغة الماضويَّة في فعل الاستقامة يدلُّ على تحقُّق الاستقامة وثباتها حتّى الممات، حينما قال النّاس كلمةَ التَّوحيد، ثمَّ كفر كثيرٌ منهم، "فمَن مات عليها؛ فهو مِمَّن استقام"[2].

دلالةُ السّين والتّاء في ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾:

المـبـالـغـة في التَّقوُّم والثَّبات في طريق الحقِّ، وعدمُ الانحراف عنه

في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أورد الاستقامة مُقترنةً بالسّين والتّاء للمبالغة في التَّقوُّم والثَّبات، ممّا يشي بأنَّ المعنى الحقيقيَّ للاستقامة هو الوقوف بثبات واستقامة دون ميل أو انحناء[3]، كما أنَّ زيادتهما تُفيدان معنى التَّشبُّث والتَّلبُّث والمُكث فيما تدلُّ اللَّفظة عليه من الإقامة بما يُعطي معنى البقاء والمداومة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: 102].

الاسـتـقـامـةُ مطلب عظيم يـتـمُّ بتوفيق إلـهـيٍّ في الطّاعات وترك المنكرات

ولَمّا كانت السّين والتّاء تدلّان غالبًا على الطَّلب في معاني الأبنية الصَّرفيَّة العربيَّة المزيدة[4]، فيجوز أن يكون التَّعبير بصيغة (الاستفعال)؛ للإشعار بأنَّهم لم يألوا جهدًا في طلب الاستقامة، فهي مطلب عظيم لا يحصل إلّا لَمَن وفَّقه الحقُّ سبحانه؛ ولذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 13.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 464.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 282.
(4) ابن جنّي، المنصف، ص: 77.

قيل: "إنَّ أعظم كرامةٍ هي التَّوفيق لفِعْل الطّاعات، وتَرْكِ المنكرات، والاستقامةِ على فعل الخيرات"[1].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾:

الجمعُ بين حُسن العمل وطريق الحقِّ والوفاء بالتَّكاليف الشَّرعيَّة والثَّبات على التَّوحيد

فِعْلُ الاستقامة مُستعملٌ هنا على معنى الاستعارة الجامعة بين معاني حُسْن العمل، والسَّير على طريق الحقِّ والصِّدق، ومنه قولهم: استقامت البلاد للمَلِك؛ إذا أطاعته، ففي قوله: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ إشارةٌ إلى الوفاء بكلِّ ما كُلِّفوا به من التَّكاليف الشَّرعيَّة، وأظهر ما يكون من ذلك الثَّباتُ على أصل التَّوحيد من غير تغيير ولا تراجع، معَ الالتزام المستمرِّ بالحقِّ، والعمل الصّالح[2].

بلاغةُ الإيجاز في جملة: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾:

الإقرارُ بالألوهيَّة والرُّبوبيَّة ثمَّ الاستقامةُ تلخيصٌ لجوهر الإسلام كلِّه

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ كلام مشتمل على إيجاز بالغ، وهو يحمل المعاني العظيمة؛ إذ ورد عن سفيان بن عبد اللّه الثَّقفيِّ أنَّه قال: "قلت يا رسول اللّه، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك - وفي رواية - غيرَك، فقال النَّبيُّ ﷺ: «قل: آمنت باللّه، ثمَّ استقم»[3]، فكأنَّ هذه الكلمات قد لخَّصت الإسلام كلَّه، وأشارت إلى جوهره برمَّته، وقد قيل: إنَّ الاستقامة أساس الكرامة وعينُها[4].

أثرُ التَّعبير بالاستقامة على الأعمال الصّالحة للمؤمن:

لزومُ المنهج المستقيم وإخلاصُ العمل وأداءُ الفرائض ونحوها

للتَّعبير بالاستقامة أثرٌ على الأعمال الصّالحة؛ لأنَّ الاستقامة معناها أنَّهم ثبتوا على الإقرار بقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، ومقتضياته: بألّا تزلَّ قدمُهم عن طريق العبوديَّة قَلْبًا وقالبًا، ولا تتخطّاه، وفيه تندرج كلُّ العبادات والاعتقادات، واستقامةُ الإنسان لزومُه للمنهج المستقيم، وإخلاصِ العمل، وأداءِ الفرائض ونحوِها[5].

(1) السّبكيّ، الإبهاج: 1/ 137.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 282.
(3) صحيح مسلم، برقم: (38).
(4) رضا، تفسير المنار: 12/ 139.
(5) حقّي، روح البيان: 8/ 254.

بلاغةُ الإيجاز في التَّعبير بالاستقامة:

تتَّسعُ الاستقامةُ لتشملَ العقائدَ والعبادات والأخلاق والمعاملات

قولُه تعالى: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ فعلٌ جامع موجزٌ لصنوف المعاني، بشُموله الاستقامةَ في العقائد، كمثال للإلهيّات: يتوسَّط المؤمن بين التَّشبيه والتَّعطيل، ممّا يحفظ العقلَ من الانحراف، ويشمل الاستقامةَ في الأعمال، وذلك بقيام المؤمن بوظائف العبادات دون تفريطٍ أو إفراط يؤدّي إلى فقدان الحقوق، ويتضمَّن الاستقامة في الأخلاق؛ إذ يتوسَّط المؤمنُ بين نقيضَيْن، كالجود الذي يقع بين الإسراف والبُخْل، ممّا يجعله داخلًا في العمل[1].

التَّعبيرُ بالاستقامة بعد الإقرار بالرُّبوبيّة والأُلوهيَّة احتراسٌ:

الاستقامة تمييز للإيمان الحقيقيِّ من نفاق القلوب

التَّعبيرُ بالاستقامة في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ بعد الإقرار بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة يندرج تحت باب الاحتراس، فقد أقرَّ المنافقون بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة، لكنَّهم لم يستقيموا على ذلك الطَّريق[2]، فالاستقامة تمييزٌ للمؤمنين الحقيقيّين عن المنافقين؛ لأنَّها تعني الثَّبات على الإيمان، والعمل بمقتضياته دونَ انحراف أو تردُّد.

بلاغةُ التَّعبير بالاستقامة:

التَّعريضُ باليهود والنَّصارى في عدم استقامتهم على دينهم

التَّعبير باستقامة المؤمنين الذين لم يكتفوا بالإقرار بربوبيَّة الله تعالى وتوحيده حسب، بل استقاموا على هذا الإيمان بكلِّ ما فيه من التزام بالشَّرائع والأحكام، يحمل تعريضًا باليهود والنَّصارى[3]؛ لعدم استقامتِهم على دينهم، وعدمِ التزامهم بذلك بشكلٍ مستمرٍّ وصحيحٍ.

دلالةُ التَّعبير بالتَّنزُّل مع الملائكة دون غيره من الأفعال:

التَّنويهُ بشأن المؤمنين ومكانتهم العظيمة عند الملائكة بخلاف الكافرين

في ذِكْر فعلِ التَّنزُّل دونَ غيره، كالإرسال ونحوه في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، إشادةٌ بالمؤمنين، وتنويهٌ بشأنهم وعَظَمتهم؛ فالملائكةُ تتنزَّل من عُلويّاتِها لأجلهم؛ إظهارًا لمدى

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 158.
(2) حقّي، روح البيان: 8/ 255.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 363.

تكريمهم، أمّا أعداء اللّه من الكافرين؛ فإنَّهم يواجهون الملائكةَ في يوم الحشر، وهم يُقتادون، وليس هناك تنزُّل خاصٌّ بهم، فاللّهُ تعالى يمنح المؤمنين كرامةً ومكانةً مُشابهةً لكرامة الأنبياء والمرسلين، بأن تتنزَّل عليهم الملائكةُ؛ لتُبشِّرَهم، وتُثبِّتَهم، في تعبير رائع عن التَّكريم الإلهيِّ والثَّواب الرَّبّانيِّ[1].

بلاغةُ التَّعبير بالتَّنزُّل في قوله: ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ دون (تنزَّل):

تَنزُّلُ الملائكةِ المستمرُّ رمزٌ للدَّعم الإلهيِّ والرِّعاية الرَّبّانيَّة للمؤمنين

الفعل في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تنزُّلٌ مُتَّصفٌ بالتَّدريج المُتَّصل، وهذا مُتَّسقٌ مع التَّنزُّل المُستمرِّ منذ أن نُفِخَ الرّوحُ فيهم إلى أن تنتهيَ أعمارُهم، ويموتوا، ثمَّ دخولهم الجنَّةَ باطنًا فظاهرًا[2]، يرمز إلى الدَّعم الإلهيِّ المتواصل للمؤمنين؛ إذ تتنزَّل الملائكةُ تباعًا لتهدئة قلوبهم، وإزالةِ الخوف والحُزن عنهم، وفي ذلك إظهارٌ لمدى العناية الإلهيَّة والرِّعاية الرَّبّانيَّة التي يحظى بها المؤمنون.

كثرةُ التَّنزُّل واستمرارُه في مَدِّ المؤمنين بما يحتاجونه من الأمور الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ

وعلى مبدأ زيادة المباني يصحبه غالبًا زيادةٌ في المعاني[3]، فإنَّ التَّنزُّل بتاءَيْن دالٌّ على زيادة المعنى بكثرة التَّنزُّل وتطاول زمنه والتَّمهُّل فيه[4]، وعلى عمق المعنى واستمراريَّة حدوثِه عبرَ الزَّمن، فإنَّ الملائكة تستمرُّ في مدِّ المؤمنين بما يحتاجونه من الأمور الدّينيَّة والدُّنيويَّة، فتشرحُ صدورَهم، وتدفع عنهم الخوفَ والحزن بواسطة الإلهام الإلهيِّ[5].

سرُّ تخصيص التَّنزُّل بالملائكة دون غيرهم:

الحفظة من الملائكة هي مَن تتنزَّل على المؤمنين حاملة معها البُشرى

أسند النَّظمُ الكريم فعلَ التَّنزُّلِ للملائكة، وخصَّهم به دون غيرهم في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لأنَّ الملائكة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 284.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 183.

(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 11.

(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 159.

(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 350.

الحَفَظَةَ هم الذين يتنزَّلون على المؤمنين من السَّماء يوم القيامة؛ لما للحَفَظَة من مكانةٍ خاصَّةٍ عند الله تعالى، ثمَّ يُقابل المؤمنون الملائكةَ الذين كانوا يسجِّلون أعمالهم في الدُّنيا في لحظة مليئة بالرَّهبة والفَرح، فيخاطبُ المَلَكُ المؤمنَ قائلًا: أتعرفني؟ وعند ردِّ المؤمن بالنَّفي، يُبشِّره المَلَكُ قائلًا: أنا الَّذي كنتُ أكتبُ عملك، وأُبشِّرك بالجنَّة[1].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

إظهارُ مدى خصوصيَّة المؤمنين وتفرُّدهم بهذا التَّكريم الإلهيِّ

لَمّا أراد السّياقُ القرآنيُّ الكريمُ إكرامَهم غايةَ الإكرام والحبورِ والسُّرور، قدَّم الجارَّ والمجرور بقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وكأنَّ ذلك التَّنزُّلَ مخصوصٌ بهؤلاء المؤمنين؛ لما يُعطيه التَّقديمُ منَ الاختصاص[2]، وليُظهرَ مدى خصوصيَّتِهم وتفرُّدِهم بهذا التَّكريم الإلهيِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

نزولُ الملائكة من عَلٍ تكريمٌ ربّانيٌّ وإشارةٌ إلى رِفعة قدرِ المُتنزَّل عليهم

الأصل في (على) في كلام العرب أنَّه حرف دالٌّ على الاستعلاء[3]، واستعمالُه في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يدلُّ على عُلوِّ المكانةِ وسُموِّها الَّتي يتمتَّع بها المؤمنون عند ربِّهم، فَفِعلُ التَّنزُّلِ من الملائكة يُشير إلى رِفعةِ قدْرِ المؤمنين وتكريمهم، وفيه تجسيدٌ لمدى العناية الإلهيَّة، والاحترام الَّذي تحظى به فئةُ المؤمنين.

دلالة (أن) في قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾:

تنزُّلُ الملائكةِ يمنع الخوفَ والحُزن

يشتمل قولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ على (أن) والفعلِ المَنفيِّ (لا تخافوا)، و(أن) هنا دالَّةٌ على التَّفسير، وهي بمعنى: (أي)، فهي مُخفَّفةٌ من الثَّقيلة، والتَّقدير: (بأنه لا تخافوا)، والهاء ضمير

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 226.

(2) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/ 173.

(3) ابن السَّرّاج، الأصول في النّحو: 3/ 176.

الشَّأن، ويجوز أن تكون صلة على معنى: (قائلين لا تخافوا)، فتنزُّل الملائكةِ ذو شأنٍ مانعٍ من الخوف والحزن، أو أنَّ حالهم دالٌّ على قولٍ ينفي خوفهم وحزنهم(1).

سِرُّ حذفِ القولِ في قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾:

تَـنـزُّلُ الملائكـةِ لتثبيت المؤمنين وإشـــاعـــةِ الطُّمأنينـةِ في لحظاتِ الخوفِ والحزنِ

حُذِفَ القولُ من قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾؛ لتضمُّن فِعْلِ التَّنزُّل معنى القَول، والتَّقدير: (يقولون: لا تخافوا، ولا تحزنوا)(2)، في تعبير عن مدى الاهتمام بالمؤمنين، وتقديمِ الطُّمأنينة لهم في لحظات الخوف والحُزن، فالتَّنزُّل هنا ليس مجرَّدَ نزولٍ، بل هو نزولٌ يحمل معانيَ تثبيتٍ وتشجيعٍ للمؤمنين، مُؤكِّدًا أنَّ اللّه تعالى معهم، وألّا يخافوا، أو يحزنوا من أمر الدُّنيا أو الآخرة.

دلالةُ الخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾:

طُمأنينةُ المؤمن في مـواجـهـة الأهـــوال نـفـيٌّ مُـطلَقٌ للخوف والحُزن

المشهور في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ هو أنَّ هذا الخطاب يَحدُث عند الموت، وفي القبر، وعند البعث، وفي هذا الخطاب بيانٌ بأنَّ المؤمنَ في هذه الأحوال الثَّلاثة لن يكون مُفزَّعًا من الأهوال والخَطْب الشَّديد، بل سيكون مُطمئنَّ القلب، هادئَ الصَّدر؛ لأنَّ ذاك القولَ يفيد نفيَ الخوفِ والحُزن بشكل مطلق(3).

التَّـنـزُّلُ الملائكيُّ الخفيُّ طمأنينةٌ لـلـمـؤمـنـين وتـذكـيرٌ بنعيم الجنَّة للمُتَّقين

والتَّنزُّلُ الملائكيُّ في الدُّنيا قد يكون خفيًّا تُعرف آثاره في نفوس المؤمنين، والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ واردٌ بمعنى بثِّ الطُّمأنينة في قلوبهم، وإلقائها في روعِهم، عكسَ وسوسةِ الشَّياطين المقرونة بالتَّزيين، فتُلقي الملائكةُ في نفوس المؤمنين مشاعرَ تَصرِفُهم عن الخوف والحُزن، وتُذكِّرهم بالجنَّة التي أُعدِّت للمتَّقين، فتسكنُ قلوبُهم، وتنشرحُ صدورُهم بالثِّقة بحلولها(4).

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 284.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 561.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 284.

دلالةُ النَّهي عن الخوف في ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾:

(لا) في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ دالَّةٌ على النَّهي، وهو أحد معانيها المشتهرة في كلام العرب، وقد نهاهم هنا عن الخوف والحزن، والتَّعبير بالنَّهي مقصودٌ به النَّهيُ عن سبب الخوف، وهو توقُّعُ الضُّرِّ، كأن يقال: لا تظنّوا أنَّ الله يعاقبكم، فكان النَّهيُ في هذا السّياق كنايةً عن تأمينهم من جانب المولى سبحانه، فإذا ما تحقَّق لهم الأمنُ؛ انزاحَ الخوفُ من قلوبهم، وهذا يُعبِّر عن تطمينِ الملائكة لنفوس المؤمنين[1].

نهيٌ عن سبب الخوف، وتأكيدٌ للأمان الإلهيِّ، وتطمينٌ لهم من الملائكة

سِرُّ التَّرتيب بالنَّهي بين الخوف والحُزن في قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾:

لَمّا نهاهم عن الخوف قصدًا إلى أسبابه؛ أردفه بأن نهاهم عن الحُزن في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾، وسرُّ هذا التَّرتيب: أنَّه نهاهم عمّا يُقدِمون عليه من المَخوف؛ إذ هو غَمٌّ يلحقهم لتَوقُّع المكروه، ثمَّ نهاهم عن أن يحزنوا على ما خلَّفوا؛ إذ إنَّه غمٌّ يلحقهم؛ لوقوعه حُزنًا على ما فاتهم من أمرٍ نافعٍ أو حصول ضررٍ[2]، فبدأ بالقادم، وانتهى بالفائت.

ترتيبُ النَّهي من مواجهة الخوف إلى توديع الحُزن

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَأَبۡشِرُواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ مُستعملةٌ للعطف، فقد عطفَتْ فعلَ البشارة على ما قبله من فعل النَّهي عن الخوف والحُزن[3]، في إظهار للتَّكامل بين النَّهي والبشارة؛ إذ يُمنَع المؤمنون من الخوف والحُزن، ثمَّ يُبشَّرون بالجنَّة، وهذا العطفُ يضيف لمسةً من التَّآزر والتَّناغم بين الأوامر الرَّبّانيَّة في النَّهي عن مُسبِّبات الأتراح، وتبشيرًا بموجبات الأفراح.

تناغمُ الأوامر الرَّبّانيَّة عطفًا، نهيٌ عن الأتراح وبشارةٌ بالأفراح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 285.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 199.

(3) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم: 8/ 560.

سرُّ التَّعبير بالبشارة في قوله: ﴿وَأَبۡشِرُواْ﴾:

إعلانُ الجنَّة للأتقياء تعيينًا، إخبارٌ بنفعٍ عظيمٍ يُعَدُّ بشارةً

والجملة من قوله تعالى: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ خبرٌ سُمّي بشارةً، وسببُ ذلك: أنَّ المؤمن يعلم بأنَّ مَن كان مؤمنًا تقيًّا؛ فالجنَّةُ مصيره، ولكنَّه لم يسمع أبدًا أنَّه من أهل الجنَّة على وجه التَّعيين، فعندما يسمع هذا الكلامَ من الملائكة، يكون ذلك إخبارًا بنفعٍ عظيم لم يكن يعلمه من قبلُ؛ لذا فإنَّ هذا الإعلانَ يُعَدُّ بشارةً عظيمة كونه يحمل الخيرَ والأمل[1].

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿وَأَبۡشِرُواْ﴾:

إلحاقُ البشارة بالتَّأمين، فالنَّعيم واقعٌ موقعَ السُّرور إن عُدِمَ توقُّعُ المكروه

الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ دالٌّ على تعزيز الطُّمأنينة ببشارةٍ عظيمة بأنَّهم أهل الجنَّة، فعندما يقترن الأمانُ بالبشارة يَنْزِلُ نعيمُ الجنَّة في النَّفس بأقصى درجات السُّرور، غيرَ مشوبٍ بتوقُّعِ أيِّ مكروهٍ[2]، وهذا الجمع بين الأمانِ والبشارة يُظهِر مدى الرَّحمة والعناية الإلهيَّة بالمؤمنين، ويزيدُهم ثقةً في موعوده ﷻ.

دلالةُ ذِكْر البشارة بعد النَّهي عن الخوف والحُزن:

الأولَويَّة في دفع الضَّرر بالنَّهي عن الخوف والحزن، ثمَّ جلب المنافع بالفوز بالجنَّة

في دلالة ذِكْر البشارة بعد ذِكْر النَّهي عن الخوف والحُزن في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ ينبع من مبدأ أنَّ دفعَ الضَّرر أَوْلَى بالعناية من جَلْب المنفعة، ففي هذه الجملة يُبيِّن الحقُّ تعالى عن طريق الملائكة أنَّ أوَّل ما يُخبَر به المؤمنون أنَّه لا خوفٌ عليهم من أحوال القيامة المقبلة، ولا حزنٌ على ما فات من أمور الدُّنيا، ثمَّ بعد ذلك يُبشِّرونهم بحصول المنافع كالفوز بالجنَّة[3]، هذا التَّرتيب يُظهر الحِكمة الإلَهيَّة في تقديم دفع المضارِّ على جَلْب المنافع.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 561.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 285.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 560، 561.

سرُّ ذِكْرِ الوعدِ في قوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾:

تـأكـيـدُ فـضـلِ المـوحّـديـن المؤمنين بالغيبِ

من معالم إيمانِ أهل الاهتداء من المؤمنين الأتقياء إيمانُهم بالغيب، وهؤلاء المؤمنون كانوا من أولي الرُّسوخ في ذلك، فصدَّقوا موعودَ اللّه بالجنَّة والثَّواب على العمل الصّالح، فكان تذكيرهم بإيمانهم هذا بالغيب مما يُعجِّل لهم مِن البشارةِ الباعثة للقلب على الارتياح، وللصَّدر على الانشراح، وذلك الفرحُ السّافر بالفوز الباهر.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تُوعَدُونَ﴾:

تـكـرارُ الـوعـد الإلـهيّ وتثبيته بـمـوجب تـكـرُّر أعـمـالـهـم الصّالحة

ذِكْرُ فعلِ الوعد بصيغة المضارع في قوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾ يدلُّ على إظهاره بشكل مستمرٍّ ومتكرِّر ومتجدِّد في كلِّ حين[1]؛ ليُفاد أنَّ وعود اللّه تعالى لعباده تأتي دومًا مؤكِّدة أنَّ أعمالهم الصّالحة لن تذهب سُدًى، وهذا الوعدُ المُتجدِّد يظهر في كلِّ مواضع التَّذكير والتَّبشير[2]، ممّا يُعزِّز الثِّقةَ في موعود المولى سبحانه، ويزيد الأملَ في قلوب المؤمنين بأنَّ نعيم الجنَّة ليس بعيدًا، بل هو حقيقة يتكرَّر الوعدُ بها، ويترسَّخ في النُّفوس.

دلالةُ حذف متعلّق ﴿تُوعَدُونَ﴾:

إطـلاقُ الـوعـد بالجنَّة دالٌّ على شموليَّة النِّعم وعمق البشارة

حَذْفُ متعلِّقِ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ يُضفي على العبارة طابعًا من التَّوسُّع والإطلاق، فهذا الحذفُ يجعل الوعدَ بالجنَّة شاملًا لكلِّ النِّعم التي يمكن أن تكون موضوعًا للوعد، بدلًا من تحديد مُتعلِّقٍ واحد، ويُتيح الحذفُ للقارئ أن يتصوَّر جميعَ أنواعِ النِّعم والبركات التي وُعِدَ بها المؤمنون، ممّا يُعزِّز من شموليَّة البشارة وعمقِها، ويوحي بأنَّ الجنَّة تتضمَّن كلَّ ما يمكن أن يتمنّاه المؤمنُ، ويتطلَّع إليه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 184.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 285.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فُصّلت: 31]

بشاراتُ الملائكة للمؤمنين طمأنينةٌ وأمانٌ في الدُّنيا، ووعدٌ بجنّاتِ الخُلْد في الآخرة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا أقرَّ الملائكةُ لهؤلاء الموحِّدين المُستقيمين بالخير، وأزالوا عنهم الخوفَ والهَمَّ بقولهم: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أتبَعوا ذلك بحُسْنِ التَّعليل بأن قالوا: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾، أيْ: نحن الأكثر قُربًا لكم، فإنَّنا نفعل من أجلكم ما يفوق ما يمكن أن يفعله القريب في الدُّنيا، نجتلب لكم المسرّات، ونُبْعِد عنكم المضرّات، ونسعى جاهدين لكم لتحصيل الخيرات في الحياة وبعدَ المماتِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾: (ولي) أصلٌ يدُلُّ على قُرْبٍ، يُقالُ: تباعد بعد ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يليني، أي: يُقاربُني، وفي الحديث الشَّريف: «وكُلْ مِمّا يَليكَ»[2]، أي: ممّا يُقاربُكَ[3]، والوَليُّ: المَطَرُ يجيءُ بعد الوَسْميِّ، سُمّيَ بذلك؛ لأنَّه يليه[4]، فالوَليُّ: الشَّيءُ القريب التّالي، دونَ فاصلٍ مادّيٍّ أو زمانيٍّ، فهو ليس التصاقًا، وفي أسماء اللّه تعالى: الوَليُّ هو النّاصِرُ، وقيلَ: المُتَوَلّي لأُمور العالَم والخَلائِق، القائمُ بها[5]، قالَ ابنُ الأثير: "وكأنَّ الوِلاية تُشعِرُ بالتَّدْبير والقُدْرة والفِعل، وما لَمْ يجتمع ذلك فيها؛ لم يَنطلق عليهِ اسمُ الوالي"[6]، والوَليُّ معناه في الآية: النّاصرُ والمُعينُ والقريبُ والحليفُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 184.

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: 5376، ومسلم في صحيحه، برقم: 2022.

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ولي).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).

(6) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).

2) ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾: أصلُ (شهو) كلمةٌ واحدةٌ، وهي الشَّهْوَةُ، ومعناها: تَشَوُّقُ النَّفسِ إلى ما يَلَذُّ لها، يُقالُ: شَهيَ الشَّيءَ، وشَهاهُ، يَشْهاهُ، شَهْوَةً، واشتَهاهُ، وتَشَهّاهُ؛ إذا أحبَّه، ورَغِبَ فيه[1]، والشَّهوانُ: الشَّديدُ الرَّغبَةِ في الشَّيءِ، وشَيءٌ شَهيٌّ، أي: لَذيذٌ مَحْبوبٌ، والتَّشَهّي: اقتراحُ شَهوةٍ بعد شَهوةٍ[2]، والاشتهاءُ: افتِعالٌ من الشَّهوَةِ، الَّتي هي مَحَبَّةُ نيلِ شيءٍ مرغوبٍ فيه من محسوساتٍ ومعنويّاتٍ، والمُرادُ بالشَّهوَةِ في الآية: الرَّغبةُ في تحصيلِ شيءٍ مرغوبٍ[3].

3) ﴿تَدَّعُونَ﴾: (دعو) أصلٌ واحدٌ، وهو أن تُميلَ الشَّيءَ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ، تقولُ: دَعَوتُ أدعو دُعاءً[4]، ومنه الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللّهَ، أدْعوهُ، أي: سَألْتُهُ[5]، والدُّعاءُ أيضًا: العِبادةُ والضَّراعة[6]، والادِّعاءُ: أن تَدَّعيَ حقًّا لكَ أو لغيرِكَ[7]، تقولُ: ادَّعَى حقًّا، أو باطلًا، والادِّعاءُ كذلك: الاعتزاء في الحَرْب؛ لأنَّهم يتداعَون بأسمائهم[8]، والمُراد بالادِّعاءِ في الآية: الطَّلبُ والتَّمنّي، أي: ما تُريدونَ، وتَطلُبونَ، وتَتَمَنَّونَ، وقيل المُراد بـ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾: ما تقولون: إنَّه لكم، فهو لكم بحُكم ربِّكم[9].

المَعنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ الحقُّ سبحانَه مَنزِلةَ الَّذين يقومونَ بالدَّعوةِ إلى الحقِّ، فيقولُ: نحن أعوانُكم في أمور دنياكم، نُلهمُكم الحقَّ، ونُرشدُكم إلى ما فيه خيرُكُم وصلاحُكُم في دنياكم، وكذلك نكون معكم في

الملائكةُ حَفَظَةٌ للمؤمنين في الدُّنيا وأولياءٌ لهم في الآخرة

(1) ابن سيده، المحكم: (شهو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سيده، المُحكَم: (شهو).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 231، و27/ 295.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (دعو).
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/ 3644.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(8) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المُحكَم، والرّاغب، المفردات: (دعا).
(9) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 704.

الآخرة، نُؤمِّنُكُم من الوَحشة في القبور، وعند النَّفخة في الصّور، ويومَ النُّشور، ونُجاوِز بكم الصِّراطَ المستقيم، ونوصلُكم إلى جنّات النَّعيم، ولكم في الحياةِ الآخِرةِ ما تَشتَهيه أنفُسُكم من صنوف اللَّذّات وأنواعِ النِّعم والخيرات، ولكم فيها ما تَطلُبونَه، وتتَمَنَّونَه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

خطابٌ مُستأنَفٌ مـن الـحـقِّ سـبـحـانـه، أو مـوجَّـهٌ مـن ملائكـتِهِ للمؤمنين

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ عمّا قبله، ولم يُعْطَف على ما سبق؛ لأنَّ الكلام هنا يبدأ بداية جديدةً مُستقلَّةً، وهو ابتداءُ خطابٍ استئنافيٍّ من الحقِّ تعالى، أو أن يكون من كلام الملائكة للمؤمنين[2]، في رسالة قويَّة منه سبحانه تُظهِرُ عنايتَه بهم، وليُشْعِرَ المؤمنَ بأنَّها رسالةٌ مُستقلَّةٌ مليئةٌ بالرَّحمةِ والعنايةِ الإلهيَّةِ، أو أنَّ الملائكة يتوجَّهون بالكلام إلى المؤمنين في إعلانٍ مباشر وواضح قائلين: نحن مَن كنّا نتولّاكم في الحياة الدُّنيا، وسنتولّاكم في الآخرة.

لَمّا أثبتوا لهم الـخـيـر، ونـفـوا عنهم الضَّير؛ علَّلوه بولايتهم للمؤمنين

ويجوز في هذا الفصل أن يكونَ مُؤسَّسًا على أنَّ الملائكة بعدما أثبتوا للمؤمنين الخيرَ العظيم الذي سيحصلون عليه في الجنَّة، ونَفَوا عنهم أيَّ أذًى أو شرٍّ، جاؤوا؛ ليعلِّلوا ذلك بقولهم: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾[3]، أي: نحن الذين كنّا معكم في الدُّنيا، نَرعاكم، ونحفظُكم من كلِّ سوءٍ، وسنكون كذلك في الآخرة.

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿نَحۡنُ﴾:

الملائكـةُ أقـربُ الأقـربـاء إلى المؤمنين، تفعل معهم كـلَّ ما يمكن أن يفعله القريب

التَّعبير بالضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾ يحمل في طيّاته معانيَ عميقةً من القُرب والمودَّة، فكأنَّ الملائكة

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 132، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 359، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 177، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 129.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 330.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 184.

تقول للمؤمنين: نحنُ أقربُ الأقربين إليكم، ونقوم بكلِّ ما يمكن أن يفعلَهُ القريب[1]، فلا تفصِلُنا عنكم مسافةٌ، ولا يُقيِّدنا زمانٌ أو مكانٌ، فكما أنَّ القريب يدافع عنكم، ويحفظُكم، ويُرشدُكم، كذلك نحن معكم في كلِّ لحظة، نُرشدكم إلى الخير، ونَحميكم من الشَّرِّ، ونصاحبُكم في رحلة حياتكم من الدُّنيا إلى الآخرة.

تعظيمُ المؤمنين وتشريفهم، مُكتَسَبٌ من تعظيمِ الملائكةِ

ومن معاني التَّعبير بالضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾ الإشارةُ إلى تعظيم الملائكة[2]؛ إذ يُظهرهم في مقامٍ رفيعٍ يعكسُ عظَمةَ مكانتِهم في عالَم الغَيب، وهذا التَّعظيمُ لا يَقتصِر على الملائكة وحدَهم، بل يَمتدُّ؛ ليُنعشَ قلوبَ المؤمنين، فكأنَّهم عندما يسمعون هذا التَّعبيرَ يشعرون بأنَّهم تحتَ رعايةٍ عظيمة، من كائنات تتَّسمُ بالكمال والرِّفعة، ومن كان مولاه بهذه العظَمة؛ اكتسب تلك الصِّفةَ منه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأولياء:

اتِّصالٌ وثيقٌ، ورعايةٌ مستمرَّةٌ في علاقةِ الملائكةِ بالمؤمنين

إيثارُ استعمالِ لفظ (الأولياء) على لفظ (النُّصراء) في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾؛ لما تحمله لفظةُ (الوَليّ) من دلالةٍ أعمقَ وأوسع من لفظة (النَّصير)، فـ(الوليُّ) يُشير إلى العلاقة الوثيقة والدّائمة التي تتَّسِمُ بالحُبِّ والرِّعاية المستمرَّة، فهو من أقرب المُقرَّبين إليه، ويفعل أفعالَه[3]، أمّا (النَّصير)؛ فيقتصر على المساعدة في حالات الشِّدَّة فقط، فالتَّعبير بالأولياء أليقُ؛ لأنَّ الملائكةَ لا تقتصر على مساعدة المؤمنين في لحظات الحاجة؛ بل هم رعاةٌ دائمون لهم، يهتمّون بهم، ويُرشدونهم في مراحل حياتهم كلِّها، وبعد مماتهم.

دلالةُ التَّعبير بالجمع ﴿أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾:

لَمّا كانت الملائكةُ هي مَن تتولّى عمومَ أمورِ المؤمنين، فتكونُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 184.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 24/ 160.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 517.

سمعَهم وبصرَهم وجميعَ قِواهم وجوارحِهم في الحياة الدُّنيا[1]؛ كان من تمام البلاغة أن يُعبِّر عنهم بالأولياء جمعًا؛ إذ إنَّ الوليَّ لا يقف عند حَدِّ الإعانة أو المساعدة المؤقَّتة، بل هو الَّذي يتولّى الأمرَ بجميع جوانبِه برعايةٍ لا تنقطع، وفيه إظهارُ معنى الاستمراريَّة والتَّكامل، واتِّساعُ هذه الرِّعاية؛ لتشملَ كلَّ جوانبِ حياةِ المؤمن، ومِن ثَمَّ كان التَّعبيرُ الجَمعيُّ في غاية المناسبة؛ لبيان شموليَّةِ هذه العنايةِ الإلَهيَّة.

تـتـولّى الملائكةُ عـمـومَ أمـورِ المـؤمـنـين، فتكونُ سمعَهم وبـصـرَهـم وجـمـيـعَ جوارحِهم

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾ أضاف الأولياء إلى ضمير المؤمنين؛ لتكتسبَ هذه الإضافة تشريفًا عظيمًا، في إيماء إلى أنَّ الحقَّ ﷻ قد رفع المؤمنين مقامًا عليًّا ودرجةً سامية، وكأنَّهم في حضرة الرِّعاية الإلَهيَّة المتمثِّلة في الملائكة؛ ليشعروا بالتَّكريم الخاصِّ، ويعلموا أنَّه تعالى قد خصَّهم بأولياءَ يتعهَّدونهم بالرِّعاية والعناية، فتكون هذه الإضافة علاقةَ محبَّة وتكريم، لا تنفصل عن حياتهم في الدُّنيا والآخرة.

تـكـريـمٌ إلـهـيٌّ لـلـمـؤمـنـين في مـقـام الـرِّعـايـة والرِّفعة

وفي الإضافة إيناسٌ للمؤمنين بالملائكة في أوَّل لقاء لهم بهم، وكشفٌ عن علاقةِ ولاءٍ تامٍّ كانت خفيَّةً عليهم في الدُّنيا، فكأنَّ الملائكة كانوا أولياءَ لهم طوالَ حياتهم، يتولَّون أمرَهم، ويرعونَهم دونَ أن يشعروا، فكانت بينهم وبين المؤمنين صلةٌ تجمعهم، يتشابكون في العبادة، ويتداخلون في الرِّعاية، حتّى إنَّ الملائكة كانوا يستغفرون لهم[2].

إيناسُ المؤمنين بـالمـلائـكـة، وكشفُ العلاقة الـخـفـيَّـة من الـولاء والرِّعاية بينهما

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾:

بات من المُقرَّر في معاني الجملة الاسميَّة أنَّها دالَّةٌ على الثُّبوت والدَّوام[3]، فالتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾ جارٍ في هذا السّياق من الثَّبات والطُّمأنينة، فالعلاقة

استمرارُ الرِّعاية الإلهيَّة وثباتُها لـلـمـؤمـنـين من الدُّنيا إلى الآخرة

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 278.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1314.
(3) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 133.

بينهم ليست مُجرَّدَ علاقةٍ مؤقَّتة، بل هي وعدٌ مُستمرٌّ يُشير إلى رعاية دائمة لا تنقطع، فكأنَّ الملائكة تُعلن للمؤمنين: نحن معكم، نحن أولياؤكم في الدُّنيا وفي الآخرة، لا نفارقكم، ولا نترككم، بل نكون معكم حتّى تبلغوا جنَّة النَّعيم(1).

الأثرُ النَّفسيُّ لقول الملائكة: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾ على أهل الاستقامة:

في تعريف الملائكة بأنفسهم تأنيسٌ للمؤمنين، وطمأنينةٌ في لقاء الآخرة

قول الملائكة للمؤمنين: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ تعبيرٌ بديعٌ عن تعريفهم بأنفسهم للمؤمنين؛ ليمنحوهم أُنسًا وطمأنينةً في لحظات قدومهم، وكأنَّهم يقولون: نحن الرُّفقاء الذين كنّا معكم في الدُّنيا، فيزداد قلبُ المؤمن انشراحًا، وتزولُ عنه دهشةُ اللِّقاء؛ فالعلمُ بوجود رفيق قديم في لحظة جديدة يُخفِّف عن الإنسان رهبةَ الموقف، ويُزيل عنه وحشةَ الغُربة، ويمنحُه راحةً في الضّيافة، وكأنَّ الملائكة تُعلن لهم: نحن الذين كنّا نكتب حسناتكم، ونشهدُ صلواتِكم للّه تعالى(2)، فها نحن نرافقكم اليومَ في الآخرة؛ لنظلَّ معكم كما كنّا في الدُّنيا في أمان اللّه ورعايته.

دلالة التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

استغراقُ تولّي الملائكةِ لهم جميعَ الأزمنةِ والأمكنة

تُقرِّر الآيةُ: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حُسْنَ صحبةِ الملائكةِ المؤمنينَ بما يستغرق الزَّمان والمكان كلَّه في الحضر والسَّفر واللَّيل والنَّهار، وهذا مُقتضٍ أنَّ شهادة الملائكة لهم مُؤسَّسَةٌ على عِلْمٍ بهم، واطِّلاعٍ على شؤونهم وأحوالهم، والتَّنصيص على الظَّرفية هنا ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه تنبيهٌ إلى أنَّ كلَّ أحدٍ حياتُه بحسب أجله، وأنَّ الأجل محدود، فالدُّنيا هيِّنة وزائلة، فليَتَثبَّت فيها المؤمنُ، فإنَّ الذِّكر والأجر يُستَحَقُّ بموقفٍ يَقفُهُ المؤمنُ للّه، ثمَّ قد يوجب له ذلك جِنانًا ورضوانًا، وهو معنًى في ضمنه الإشادةُ بهم أنَّهم ترفَّعوا على

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 285.

الدُّنيا، وخرجوا من ضيقها إلى فُسحَة صدورهم، بإيمانهم بربِّهم حتى تَقَضّى ما هم فيه، وأورثهم رَوْحًا وريحانًا وجِنانًا.

بلاغةُ الاعتراض بجملة: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

وعدٌ إلهيٌّ ينبض بالفرح، ويسعى لزيادة سعادة المؤمنين، ويُؤكِّد عنايتَه المستمرَّة

لَمّا كان الحديثُ في الآية السّابقة قد انصبَّ على وصف الجنَّة التي أعدَّها الله للمتَّقين؛ جاء قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ جملةً اعتراضيَّة بين تلك الصِّفات، وبين وصفه تعالى بأنَّها جنَّة لهم فيها ما تشتهي أنفسُهم، ولهم فيها ما يدَّعون؛ لِتُؤكِّد للمؤمنين أنَّ بشارتهم بالجنَّة ليست مجرَّدَ وعدٍ عابر، بل هي بشارةٌ من مُحبٍّ يفرح لفرحهم، ويسعى إلى زيادة سعادتهم[1]؛ لتجعلَ المؤمنين يشعرون أنَّ الجنَّة ليست وعدًا إلهيًّا فحسب، بل هي ثمار رعاية مستمرَّة من أولياء الله الذين كانوا معهم في الدُّنيا، يرعونهم، ويهتمّون بهم.

بلاغة المقابلة بين ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾، ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾:

تأثيراتُ الملائكة والشَّياطين في الأرواح، إلهاماتُ اليقين مقابلَ وساوسِ الباطل

قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾ واردٌ في باب المقابلة مع قوله تعالى: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: 25]، فالأوَّل بشارةٌ للمؤمنين في سياقٍ بلاغيٍّ بديع، إذ يُبشِّر المؤمنين بأنَّهم في رعاية خاصَّة من الملائكة، بينما يُحذِّر المشركين من قرنائهم الشَّياطين، ومعنى كونِ الملائكة أولياءَ للمؤمنين، أنَّهم لا يقفون فقط عند حدود الرِّعاية الظّاهرة؛ بل يمتدُّ تأثيرُهم إلى الأرواح البشريَّة، فيَمْنَحونَها الإلهاماتِ والمكاشفات التي تُنير دروبَ اليقين، ويرتفعون بها إلى المقامات الحقيقيَّة التي تفتح أمامَ المؤمنين آفاقًا من الحقيقة والإيمان، وفي المقابل فكما أنَّ الشَّياطين لهم تأثيراتٌ خفيَّةٌ على الأرواح بإلقاء الوساوس وتزيين الباطل، فإنَّ الملائكة تؤثِّر في أرواح المؤمنين بتوجيهاتٍ صادقة، تتناغم مع فطرتهم، وتُرشدهم إلى الحقِّ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 285، 286.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 561، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 286.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ (الدُّنيا):

في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ وصَفَ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بصفة ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، في إشارة إلى دناءة ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وهذه الحياةُ هي المرحلة المؤقَّتة التي يمرُّ فيها الإنسان، وهي لا تُساوي عند الله تعالى شيئًا، كما جاء في الحديث الشَّريف: «ولَو كانَتِ الدُّنْيا تَزِنُ عِندَ اللهِ جَناحَ بَعوضَةٍ ما سَقَى كافِرًا مِنها قَطرَةً أبدًا»[1]؛ لذلك كان من المناسِب أن يُذْكَر وصْفُ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ مع ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾؛ لتأكيد دناءتِها وحقارتها في نظر اللّه تعالى[2].

المــؤمــنــون أحيـاءٌ بدينهم وقـيَـمِـهـم، ومُترفِّعون على الدَّنايا

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ حرفُ عطف[3]، فقد جاء عطفُ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾؛ ليُؤكِّدَ استمراريَّةَ ولايةِ الملائكة للمؤمنين في جميع مراحل حياتهم، من ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، والعطفُ هنا يُفيد أنَّ ولاية الملائكة للمؤمنين لا تنتهي بانتهاء مرحلة ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لكنَّها مستمرَّةٌ حتّى في ﴿ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ إذ يجد المؤمنون رعايةً وإرشادًا لا ينقطع، فبينما تكون ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ مليئةً بالابتلاءات والتَّحديات التي تتطلَّب الرِّعاية الإلهيَّة من الملائكة، فإنَّ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ بما فيها من نعيم دائم وراحة أبديَّة تتطلَّب أيضًا رعايةً مستمرَّة من الملائكة؛ لتُرافِقَ المؤمنين في رحلة الخلود الأبديِّ.

العـطـفُ بين الدُّنيا والآخرة في رعاية الملائكة لـلـمـؤمـنـين اسـتـمـراريَّـةٌ للولايَةِ الإلهيَّة

سِرُّ حذفِ الموصوف في قوله: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

لَمّا كانت ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ليست بحاجة إلى أن يُذكر معها لفظ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾؛ لأنَّ هذا اللَّفظَ مقترنٌ بالتَّوقيت والتَّغيير والانقطاع، و﴿ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ هي الخلود الأبديُّ، لا يوجد بها تغييرٌ أو تحوُّل كما في ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، وفي

لا حاجةَ لذِكْر الـحـيـاة في النَّعيم والخُلودِ الأبديِّ

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، برقم: (4109).
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 237.
(3) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2116.

﴿ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ النَّعيم الأبديُّ للمؤمنين، فهو مستمرٌّ غيرُ منقطعٍ ولا زائل، ممّا يجعل ذِكْرَ الموصوفِ مع ﴿ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ غيرَ مناسبٍ، فالآخرةُ ليست بحاجة إلى حياة بالمعنى الزَّمنيِّ الذي نعرفه في ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، بل هي بقاءٌ دائمٌ في الجنَّة أو في النّار، وهو ما لا يحتاج إلى وصفٍ، يدلُّكَ على هذا قولُه تعالى، وتقدَّس: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، ولأنَّ المؤمنين سيكونون أيضًا في حالةٍ من الاستقرار والخلود الَّذي لا يتأثَّر بالزَّمن.

سرُّ عدم تكرار قوله: ﴿أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾ مع الآخرة:

الولاية الرَّبّانيَّة تستغرق الرِّعاية في الدُّنيا، حتّى استقلالِ النَّعيم في الآخرة

عندما صرَّح النَّظمُ الكريم بذِكْر الولاية في الحياة الدُّنيا، أضمرها مع لفظ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ بقوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، وهو إضمارٌ دالٌّ على أنَّ الملائكة كانوا مع المؤمنين في الدُّنيا، في رعايةٍ وتثبيت لهم في مواجهة الابتلاءات والشَّدائد، أمّا في الآخرة؛ فالأمر مختلفٌ حيثُ النَّعيمُ الأبدي، والرّاحةُ المُطلَقَة، فليست بالمؤمنين تلك الحاجة إلى الرِّعاية والتَّوجيه الإضافيِّ، فهُم في أعلى درجات الرّاحة والبُعد عن الشَّقاء، وهُم مُستغنون عن الولاية بمعنى الرِّعاية والحفظ؛ لأنَّهم في أمان اللّه التّامِّ، فيكون النَّعيم في الآخرة مُستقلًّا بذاته، فلا حاجة إلى تكرار ذِكْر الولاية.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَكُمۡ﴾:

الـتَّـوازي بين الوعد بالجنَّة والوعد بنعيمها

الواو في جملة: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ عطفت هذه الجملة على جملة: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾، وما بينهما جملةٌ اعتراضيَّة[1]، ممّا يخلق توازيًا بين الوعد بالجنَّة، وبين ما فيها من نعيم، والعطف هنا يحمل التَّأكيد على أنَّ الجنَّة ليست مجرَّد وعد بالخُلود، بل هي أيضًا وعدٌ بالنَّعيم الَّذي يُرضي أعلى الرَّغبات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 286.

لدى المؤمنين، فالبشارة بالجنَّة تتبعها بشارةٌ أخرى بالنَّعيم الذي سيتحقَّق في الآخرة.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِيهَا﴾:

تخصيصُ النَّعيم واتِّصاله بلحظات الآخرة، وطمأنينةُ اليقين في وعد الله

التَّعبير بالظَّرفية ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾، تأكيدٌ للتَّخصيص والتَّمكين، فإنَّ هذه اللَّذّات التي تشتهيها الأنفسُ لن تكون في مكان آخر، فإنَّ المؤمنين لا ينتظرون هذا النَّعيم في مكان مجهول أو بعيد، وإنَّما في الجنَّة فقط، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ النَّعيم الذي وعَد اللهُ به المؤمنين ليس فقط في الجنَّة بعد دخولها، بل هو أيضًا متَّصل بكلِّ لحظة من لحظات الآخرة، بما في ذلك لحظات الحشر والحساب[1]، ممّا يُعزِّز من شعور المؤمنين بالطُّمأنينة واليقين في وعد الله.

سِرُّ التَّعبير بالإضمار عن الجنَّة في قوله: ﴿فِيهَا﴾:

تعظيمٌ وقُدسيَّةٌ في مقام المكافأة الكبرى

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ راجعٌ إلى الجنَّة[2]، وفي هذا الإضمار وعدم ذِكرِ لفظ (الجنَّة) مباشرةً إشعارٌ بالقُدسيَّة والتَّعظيم؛ فإنَّ الجنَّة هي أعظمُ المكافآت، وأسمى الأُمنيات لدى المؤمنين، فتكون الإشارةُ إليها بالضَّمير بدلًا من ذِكْرِها صراحةً دالَّةً على تعظيمها ورِفعتها في قلوب المؤمنين.

دلالة التَّعبير بـ﴿مَا﴾:

الشُّمول لأنواع اللَّذّات والخيرات التي أعدَّها اللهُ للمؤمنين في الجنَّة

التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ في موضعي الاشتهاء والادِّعاء دالٌّ على أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى يُعِدُّ للمؤمنين كلَّ ما تشتهيه أنفسُهم، وما يطلبونه من غير تحديد أو تقييد، فإنَّ ﴿مَا﴾ في لسان العرب تعبِّر عن العموم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 184.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 88.

والشُّمول، أي: إنَّها تشمل جميعَ أنواعِ اللَّذّات والمُتَع والكرامات[1] التي قد يتصوَّرُها قلبُ المؤمن، أو تشتهيها روحُه الطّاهرة، ويزيل أيَّ حدودٍ أو قيود عن الخيرات التي سيحصُل عليها المؤمنون.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾:

تلبيةُ الرَّغبات في الجنَّة تشمل الرَّغباتِ الحسّيَّة وإشباعَ الاحتياجات الفعليَّة

عبَّر بفعل التَّشهّي في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ دونَ التَّمنّي أو الحُبِّ؛ لأنَّه أراد ما يشتهونه ممّا يقع في دائرة الحِسِّ[2]؛ ليُبيِّن أنَّ النَّعيم الذي سيحصُل عليه المؤمنون في الجنَّة ليس مجرَّدَ رغباتٍ وهْميَّة، أو أمانٍ بعيدة، بل هو ما تشتهيه النَّفس من الملذّات الحسّيَّة التي تُلامس حواسَّهم، وتُحقِّق إشباعًا فعليًّا لرغباتهم، فهو يتناسب مع الواقع الملموس في الجنَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾:

خلودٌ وتجدُّدٌ في الشَّهية، فلا نعيم ينقضي، ولا رغبة تنطفئ

استُعمِل الفعلُ ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾ بصيغة المضارع في الآية؛ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في النَّعيم الذي سيحصل عليه المؤمنون في الجنَّة، في عدم اقتصاره على اللَّحظة الحاليَّة فقط، بل يشير إلى أنَّ الرَّغبة ستظلُّ مستمرَّةً على الدَّوام، فهذا شأنُ الخُلود الأبديِّ في الجنان؛ إذ لا ينقضي النَّعيم، ولا تنطفئ الرَّغبات.

فائدةُ حذفِ مفعول: ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾:

نَعيمُ اللهِ للمؤمنين غيرُ محدود، بل يشمل أوسع الشَّهوات وأدناها

حُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾؛ ليُعبِّر عن شموليَّة النَّعيم وعمومه، الذي سيحصُل عليه المؤمنون في الجنَّة، فهو واسعٌ، ويشمل جميعَ أنواعِ الشَّهوات حتّى أدناها[3]، حتّى تلك التي قد لا تكون محدَّدةً أو معروفة؛ ليُحقِّق للإنسان أقصى درجات اللَّذَّة.

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 185.

دلالة التَّعبير بـ﴿أَنفُسُكُمۡ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَنفُسُكُمۡ﴾ جمعٌ يدلُّ على القِلَّة، وزنُه (أَفْعُل)[1]، وهو اختيارٌ بلاغيٌّ دقيق يتناسب مع سياق الآية، فقد كان المقصودون في الآية مُقلّين في شهواتهم في الدُّنيا، مانعين لها[2]، يحدّون من رغباتهم، ويمنعون أنفسَهم عن التَّمادي في الملذّات الدُّنيويَّة؛ لأنَّهم على يقين بما وعدهم ربُّهم من النَّعيم العظيم الذي سيجدونه في الآخرة.

المؤمنون يتجنَّبون ملذّات الدُّنيا إيمانًا بما وعدهم ربُّهم من نعيم الآخرة الأبديِّ

سِرُّ تكرارِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِيهَا﴾:

تكرار الظَّرف ﴿فِيهَا﴾ غرضُه أنَّ النَّعيم الذي وعد اللَّهُ به المؤمنين في الجنَّة مستمرٌّ ومتَّصل داخلَ الجنَّة نفسها، كما أنَّ التَّكرار يعكس عمومَ النَّعيم وتفصيلَه، وجاء ليتناسبَ مع الغاية العُليا التي تُشير إليها الآية، وهي الجنَّة ثمرةُ الاستقامة والعمل الصّالح، فالجنَّةُ هي الجزاءُ للمؤمنين الذين استقاموا على طاعة اللّه، وعملوا الصّالحات، بما ينسجم مع الختم الذي ذُكِر من المغفرة والرَّحمة[3].

نعيمُ الله ﷻ لعبادِهِ المؤمنين دائمٌ لا يزول

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿تَدَّعُونَ﴾:

استُعمل الفعل ﴿تَدَّعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ دون ما (تتمنّون) أو (تطلبون)؛ ليُعبِّر عن الاستحقاق، فالفعل يحمل في طيّاته معنى الادِّعاء على أنَّ ما يطلبه المؤمن في الجنَّة هو حقٌّ له، وأنَّه مُقَرٌّ له به وفقًا لوعد اللّه وحُكمه، وكأنَّ الحقَّ سبحانه يقول: ما تدَّعونه هو لكم بحقٍّ، فكلُّ ما تطلبونه في الجنَّة مُؤكَّدٌ، ومُصادَقٌ عليه بحُكم اللّه ﷻ[4].

ما تدَّعونه أيُّها المؤمنون في الجنَّة هو مُستحَقٌّ لكم بحُكمِ الله ووعده

---

(1) الأستراباذيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/ 266.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 185.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 185.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 304.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿تَدَّعُونَ﴾ وقبل ذلك ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾:

في فعل الاشتهاء إشارةٌ إلى الجنَّة الجسمانيَّة، وفي الادِّعاء إشارةٌ إلى الجنَّة الرّوحانيَّة

لَمّا ذَكَر تعالى فعلَ الاشتهاء؛ أعقبه بفعل الادِّعاء في قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ﴾ إشارةٌ إلى نعيم المؤمنين الجسمانيِّ في الجنَّة؛ إذ تُلبّى رغباتُهم الحسّيَّة بكلِّ ما تشتهيه أجسادُهم من مَلذّاتٍ وطعام وشراب، أمّا في قوله: ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾؛ فالإشارةُ هنا إلى النَّعيم الروحانيِّ الَّذي يتجاوز حدودَ الحواسِّ المادّيَّة؛ إذ تتحقَّق الرّاحةُ النَّفسيَّة والرّوحيَّة للمؤمنين؛ فيجدون في الجنَّة ما يُلبّي أعمقَ رغباتِهم الرّوحيَّة، من سلام داخليٍّ وطمأنينة، كما يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: 10][1].

دلالةُ صيغة الافتعال في ﴿تَدَّعُونَ﴾:

دعاء المؤمنين ينبع من أعماق أنفسهم، ويعكس رغبتَهم الصّادقة

التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ فعلٌ وارد على صيغة (الافتعال)، وهو دالٌّ على الطَّلب الذي ينشأ عن شدَّة الرَّغبة والشَّهوة الدّاخليَّة، ممّا يُشير إلى أنَّ ما يدَّعونه في الجنَّة ليس مجرَّدَ طلبٍ عابر، بل هو دعاءٌ ينبع من أعماق أنفسهم، ويعكس رغبتَهم الصّادقة، وتَوَقُّهُمُ العميقَ لما يتمنَّونه[2]؛ ليكون نعيمًا روحيًّا يتناغم مع أعمق رغباتهم، وأسمى أمانيهم.

الكثرةُ والوفرة في نعيم الجنَّة، واستجابةُ كلِّ دعوةٍ للمؤمنين

ويجوز أن يكون الفعل في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ دالًّا على الكثرة والوفرة، فإنَّ كلَّ ما يطلبه المؤمنون في الجنَّة من النَّعيم مهما كان عددًا أو تنوُّعًا، فهو مُتحقِّق لهم بلا حدود، فالفعل في صيغة (الافتعال) يُظهر أنَّ الدُّعاء والطَّلب في الجنَّة ليس مقصورًا على شيء واحد، أو نوعٍ معيَّن من النَّعيم؛ بل يشمل كلَّ ما يخطر على بال المؤمنين من المَلذّات، والنَّعيم الرّوحي والجسديِّ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 562، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 59.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 185.

دلالةُ حَذْفِ متعلِّق ﴿تَدَّعُونَ﴾:

ذِكْرُ الفعل ﴿تَدَّعُونَ﴾ من غير أن يُذْكَر متعلِّقُه - وهو افتعال من الدُّعاء بمعنى الطَّلب - يوسِّع دائرةَ المعنى، ويُظهر أنَّ الطَّلب في الجنَّة ليس محصورًا في الملذّات الحسّيَّة فحسب، بل يشمل كلَّ ما يطلبه المؤمنون من النَّعيم الرّوحي، والفضائل العِلْميَّة والمعرفيَّة(1).

الجنَّةُ جامعةٌ بين النَّعيم الحسّيِّ والفضائلِ الرّوحيَّةِ والمعرفيَّة

سرُّ عدم ذِكْر الأنفُس مع ﴿تَدَّعُونَ﴾ كما سبق مع التَّشهّي:

لم تُذْكَر (الأنفس) مع الفعل ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ لأنَّه فعل لا يتطلَّب الإشارةَ إلى رغباتها بشكل مباشر، فهو يشير إلى الطَّلب العامِّ الَّذي قد يشمل جميع أنواع الرَّغبات والشَّهوات، سواء أكانت حسّيَّةً أم روحيَّة أم فضائلَ علميَّة، أم حاجاتٍ أخرى؛ ليعكسَ اتِّساعَ المعنى، وتنوُّعَ الطَّلبات في كلِّ ما يقع تحتَ الحِسِّ، وما تتمنّاه الأنفسُ، وكلُّ ما يخطر على البال، أو ما يجول في الخيال(2).

الجزاءُ الأُخرويُّ يتجاوز الشَّهويَّة الحِسّيَّة، إلى الآمال الرّوحيَّة والمعرفيَّة

دلالةُ التَّرتيب بين ما يشتهون ويدَّعون:

التَّرتيب بين الفعلَيْن ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾ و﴿تَدَّعُونَ﴾ واردٌ من باب عطف العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ الثّاني أعمُّ من الأوَّل، فكلُّ مطلوبٍ لا يلزم أن يكون منزعًا للشَّهوة النَّفسيَّة الجسديَّة، وهو ما استُعمِل معه الفعلُ ﴿تَشۡتَهِيٓ﴾؛ لجواز أن يكون من الفضائل الرّوحانيَّة، والكمالات النَّفسانيَّة، وهو ما استُعمل معه الفعل ﴿تَدَّعُونَ﴾(3).

نعيمُ الجنَّة يتنوَّع في تناغمٍ بين الشَّهوات الجسديَّة والفضائل الرّوحانيَّة

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التَّشهّي والتَّمنّي:

التَّمنّي معنًى في النَّفس يحصل عند فوات فعلٍ للتَّمنّي في وقوعه

(1) حقّي، روح البيان: 8/ 256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 385.

التَّمنّي رغبةٌ عابرة قد تكون مستحيلةَ التَّحقُّق، والتَّشهّي رغبةٌ مستمرَّة ومتجدِّدة

نفعٌ، أو يحصل في زواله ضررٌ، مستقبلًا كان ذلك الفعل أو ماضيًا[1]، وقد يكون رغبةً مستحيلةَ التَّحقيق، أو صعبةَ المنال، يعني: قد تكون أو لا تكون[2]، وهو مرتبطٌ بفكرة النَّقص والحاجة.

أمّا التَّشهّي؛ فيدلُّ على رغبة مستمرَّة ومتجدِّدة، تدلُّ على كمال اللَّذَّة وتمام النَّعيم، فمثلًا: في الجنَّة لا يتمنّى المؤمنُ شيئًا، بل يشتهيه؛ لأنَّ كلَّ ما يشتهيه موجودٌ فيها، وكلَّ ما يطلبه متحقَّق، في تصوير الجنَّة كأنَّها عالم مثاليٌّ؛ إذ تتلاقى الرَّغبات الإنسانيَّة مع الواقع، وتتحقَّق الأحلام والأماني.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 142.

(2) الهرويّ، الغريبين: 6/ 1782.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فُصّلت: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بداية النَّعيم للمؤمنين بشارةُ النُّزلِ والضّيافة الإلهيَّة في انتظار المزيد

عندما يُعطى المؤمنون ما يَشتهون، وما يطلبون في الجنَّة، يُشير الحقُّ ﷻ إلى أنَّ كلَّ هذا شيءٌ يسير إزاءَ ما يُعدُّ لهم بعدَ ذلك، فإيرادُ كلمة ﴿نُزُلًا﴾ فيها تنبيهٌ إلى أنَّ ما يُقدَّم لهم في البداية هو بمنزلة الضّيافة الأولى التي تُقدَّم للضَّيف عادةً عند قدومه، إلى أن يُهيَّأ له المزيدُ من النِّعَمِ العظيمة والدّائمة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُزُلًا﴾: (نزل) أصلٌ يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه، يُقال: نَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّماءِ نُزولًا، ومكانٌ نَزِلٌ: يُنزلُ فيه كثيرًا، ووجَدْتُ القَوم على نَزِلاتهم، أي: منازلهم[2]، والنُّزُلُ مُشتَقٌّ من النُّزول، فيُطلَقُ على ما يُعَدُّ للنَّزيلِ من العطاءِ والقِرى، قال الزَّمخشريُّ: "النُّزُلُ عطاءُ النّازلِ، ثمَّ صارَ عامًّا، أي: يُطلقُ على العطاءِ، ولو بدونِ ضيافة"[3]، وعليه فالمُرادُ بالنُّزُلِ في الآية: ما يُعَدُّ للنّازلِ من الزّادِ، ويُهيَّأُ للضَّيفِ.

المَعنى الإجْماليُّ:

اللـه سبحانه يُعطي الجزيلَ في مقابل العمل القليل

هذا الثَّواب الجزيلُ والنَّعيم المُقيم المُعدُّ لكم في الآخِرة، تُعطَونَه ضيافةً وإكرامًا مِنَ اللهِ الغَفورِ السّاترِ لذُنوبكم، المُتجاوزِ عن عُقوبتكم، الرَّحيمِ بكم، الَّذي مِن رَحمتِه أن وفَّقكم لطاعته، وقَبِل حَسَناتِكم[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 185.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 513، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 428، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 185، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 748.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿نُزُلًا﴾ دون (ثوابًا):

رزقٌ مُنزَلٌ من ربِّ العِزَّة تشريفًا وتكريمًا

في قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، يحمل النُّزُلُ معنى الرِّزق أو الضّيافة، وهو مأخوذ من الإنزال[1]، ممّا يعكس التَّكريمَ والتَّشريفَ الذي يلقاه المؤمنُ من الله ﷻ، فالإنزال هنا يدلُّ على أنَّ هذا الرِّزقَ أو النَّعيم ليس مجرَّدَ هبةٍ عابرة، بل هو نعمةٌ مخصَّصة من ربِّ العِزَّة سبحانه.

النُّزُلُ الإلهيُّ هو ضيافة الجليل، وسِرُّ السَّعادات الرّوحيَّة في الجنَّة

والنُّزل هو رزق الضَّيف، وهو ما يُقدَّم له من ضيافة كريمة، فقد قال العارفون: إنَّ هذه الآيةَ تُشير إلى أنَّ كلَّ النِّعَم الموصوفة في الجنَّة تجري مجرى النُّزُلِ الذي يُقدَّم للضّيوف، فإذا مَنَحَ الجليلُ هذا النُّزُل، فلا بدَّ أن يتبعَه إهداءُ الخُلَعِ النَّفيسة، وهذه الخُلَعُ لا تكون إلّا السَّعاداتِ العظيمة التي يحصل عليها المؤمنون عند التَّجلّي الإلهيِّ لهم، والكشفِ التّامِّ عن الحقيقة، فينالونَ من النَّعيم الرّوحيِّ ما يفوق كلَّ تصوُّرٍ؛ ليكونوا في أسمى درجات السَّعادة[2].

ضيافةٌ كريمة ونعيمٌ أبديٌّ يفوق حدودَ المكافأةِ المحدودة

والتَّعبير بلفظ (النُّزُل) بدلًا من (الثَّواب)؛ للإشارة إلى نوعيَّة العطاء الإلهيِّ الذي يتَّسم بالتَّكريم والضّيافة، وهو أرقى من مجرَّد ثوابٍ أو جزاءٍ عن عمل، والنَّعيمُ في الجنَّة ليس مجرَّدَ مكافأةٍ على الأعمال، بل هو عطاءٌ مستمرٌّ، ورعايةٌ إلهيَّة كريمة، يشمل كلَّ ما يَسرُّ المؤمنين، ويُحقِّق لهم الرّاحةَ التّامَّة، وفيه إشارةٌ إلى الاستقبال اللّائق من الله سبحانه لعباده المؤمنين، فيما يكون الثَّوابُ إيحاءً بمكافأة محدودة.

دلالةُ التَّنكيرِ والتَّنوينِ في قولِهِ: ﴿نُزُلًا﴾:

التَّنكير والتَّنوين في قوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ يُضيف إلى الكلمة قوَّةً

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 80.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 562.

وتفخيمًا؛ لتدلَّ على عظَمة هذا العطاء الإلهيِّ وشمولِه واتِّساعه[1]، وكأنَّها تُعطي انطباعًا بأنَّ الضّيافة التي سيحظى بها المؤمنون في الجنَّة ليست مجرَّدَ هبةٍ أو جُعْل، بل هي نِعمةٌ عظيمةٌ تفوق كلَّ تصوُّر، تُقدَّم من الرَّحمن الرَّحيم، فيظهر أنَّ هذا النُّزُلَ هو ثوابٌ عميم، ونعيمٌ مقيم لا ينقطع، فضلًا عن كونه نزلًا وضيافةً من ربِّ العالَمِين[2].

نُــزُلُ الـغـفـورِ الرَّحـيـم عطاءٌ إلـهـيٌّ عظيمٌ، ونعمةٌ واسعةٌ منه سبحانه

سِرُّ نَصبِ ﴿نُزُلًا﴾، وأثرُ ذلك على المعنى:

ورد لفظ ﴿نُزُلًا﴾ في الآية الكريمة منصوبًا على الحاليَّة من جملتي: ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾، و﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ في الآية السّابقة؛ ليُبيِّن أنَّ ما يُعطى للمؤمنين في الجنَّة ليس مجرَّدَ منحة، بل هو عطاءٌ مُهيَّأ ومُفصَّل على حال الضّيافة الكريمة، وكما يُعطَى النُّزُلُ للضَّيف إكرامًا[3]، يُمنَح المؤمنون نعيمَ الجنَّة في أعلى درجات الرِّعاية والاهتمام، بما يتناسب مع كرم المولى وعطاياه اللّامحدودة.

عـطـاءُ الـجـنَّـة في أبـهـى صـورِ الضّيافة الإلَهيَّة

وفي كون النُّزُل حالًا من فعل الادِّعاء إشارةٌ إلى أنَّ ما يُعطَى للمؤمنين في الجنَّة من النَّعيم العظيم، ليس مجرَّدَ تلبيةٍ لرَغَباتهم أو أمانيهم، بل هو عطاءٌ عظيم يُقدَّم لهم، كما يُقدَّم النُّزُل للضَّيف[4] من أرقى أنواعِ الضّيافة والكرامة، يكون النَّعيمُ في الجنَّة أسمى وأكرم ممّا يتخيَّله المؤمنون، أو يتمنَّونه.

مـا يـتـمـنّـاه الـمـؤمـنـون بـالـنِّـسـبـة إلى ما يُعطَون من عظائم العطايا كالنُّزُل للضَّيف

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿نُزُلًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ لفظٌ مُعبِّرٌ عن الضّيافة الكريمة التي تُقدَّم للضَّيف، واشتقاقُه من النُّزول، وهو ما يُهيَّأ للنَّزيل من القِرَى والكرامة، مثلما يُعَدُّ للضَّيف نُزُلٌ خاصٌّ يُظْهِر الاهتمامَ والاحترام، فإنَّ هذا اللَّفظَ واردٌ موردَ الاستعارةِ؛ ليَصفَ ما يُقدَّم للمؤمنين من نعيم الجنَّة،

مـا يُـعـطـاه الـمـؤمـنـون من الـرَّغـائـب كـأنَّـه مُهيَّأٌ لهم قبلَ الاشـتـهـاء أو التَّمنّي

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 373.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 749.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.

(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 176.

سواء كان رزقًا أو غيرَه من الرَّغائب والأعطيات، ووجهُ الشَّبهِ بينهما سُرعةُ إحضارِه، كما لو أنَّه مُهيَّأٌ مسبقًا[1]، فيُمْنَح المؤمنون ما يشتهونه، ويتمنَّونه من غير تأخير أو معاناة، ممّا يعكس الرِّعايةَ الإلَهيَّة، وكأنَّ كلَّ رغباتِهم قد فُرِغ من إعدادها قبلَ أن يَشتَهوا، أو يَتمنّوا.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ دون (عند):

منبعُ النُّزل الإلهيِّ هو عطاءُ غفورٍ رحيم لا يتقيَّد بمكانٍ أو زمانٍ

من المعاني المُشتهرة لحرف الجَرِّ ﴿مِّنْ﴾ دلالتُه على الابتداء، حتّى ادَّعى جماعةٌ أنَّ أكثر معانيه راجعةٌ إلى هذا المعنى[2]، وهي هنا ابتدائيَّة، وتُشكِّل مع مدخولَيْها صفةً للنُّزُل[3]، فاستعمالُ ﴿مِّنْ﴾ هنا يُشير إلى المصدر أو المنبع الذي يصدر منه النُّزل، فالمغفرةُ والنَّعيم الذي يُعطَى للمؤمنين في الجنَّة من صفات اللّه نفسِه، مِن غفرانه ورحمته، وهذا التَّعبير يُظهِر أنَّ النُّزُل ليس مَحضَ عطاءٍ يأتي من مكان أو زمان بعيدين، بل هو عطاءٌ إلهيٌّ مباشِرٌ صادرٌ عن جوهر رحمة اللّه وغُفرانِه، أمّا التَّعبيرُ بالعنديَّة هنا؛ فيُقلِّل من شموليَّة هذا العطاءِ الإلهيِّ وعظَمته، بكونه منبعًا دائمًا ومستمرًّا.

سِرُّ إيثارِ وصْفَي ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ دونَ غيرِهما من الصِّفات:

اللّهُ غفورٌ حتى لأكثرهم ذنوبًا، وما تابوا منه فرحيمٌ بهم

أوثِرت صِفتا ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ في الآية؛ لتُبيِّنَ عمومَ رحمةِ اللّه وسَعَتَها، فغفر اللّه تعالى لعباده ما تعاقبوا عليه من ذنوب، ثمَّ تابوا، ورحمَهم؛ لَمّا توجَّهوا إليه بالإيمان والخوف والحبِّ ونُصرة دينه[4]، وما كانوا يفعلون في السِّرِّ والجهر من إعزاز دينه، وتعلُّقِ قلوبِهم بالطّاعة، فجاءت الصِّفتان دلالةً على الفيض الرَّحمانيِّ للمؤمنين في جنّات النَّعيم.

دلالةُ التَّنكير في ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾:

جاء الوصفان ﴿غَفُورٍ﴾ و﴿رَّحِيمٍ﴾ نَكِرتَين؛ للإشارة إلى عِظَم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 419.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.

مغفرة اللّه ورحمته، من غير اقتصار على صفة محدودةٍ أو مقيَّدة، فالنَّكرةُ في هذا السّياق تفيدُ التَّوسُّعَ، ممّا يعكس أنَّ مغفرة اللّه ورحمتَه غيرُ قابلةٍ للحَصْر أو التَّحديد، بل هي شاملةٌ لكلِّ الذُّنوب والخطايا، وتدوم بلا نهاية، كما أنَّ النَّكرة تُظْهِر عَظَمة هذه الصِّفات، وتُبرز تفرُّدَ الحقِّ سبحانه في مغفرته ورحمته.

مـغـفـرةُ الـلـه ورحمتُه عظيمةٌ وشــامــلــةٌ كــلَّ الــذُّنــوبِ والخطايا

سرُّ تقديم ﴿غَفُورٍ﴾ على ﴿رَّحِيمِ﴾:

قُدِّم وصفُ (الغفور) على (الرّحيم) في الآية؛ ليعبِّرَ عن أولويَّة المغفرة على الرَّحمة؛ إذ إنَّ المغفرة تتعلَّق بما هو أساسٌ وضروريٌّ للإنسان، فهي السَّلامة من الذُّنوب والآثام، فيجب أن تكون مُتقدِّمة قبل الرَّحمة التي تعني الغنيمةَ والفضل، فالسَّلامةُ مطلوبة قبلَ الغنيمة[1]، ثمَّ الرَّحمةُ أعمُّ من المغفرة، فهيَ تشمل البشرَ والحيوانَ وأضرابَهم، وآية ذلك قولُه ﷺ من حديث طويل: «فَمِن ذَلِكَ الجُزءِ تَتَراحَمُ الخَلائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدّابَّةُ حافِرَها عَن ولَدِها خَشْيَةَ أن تُصيبَهُ»[2].

المغفرةُ سلامة، وهـي مطلوبة قبلَ الرَّحمة؛ كونُها غنيمةً وتَـعُـمُّ البشرَ وسواهم

سرُّ التَّعبير بوصفَي ﴿غَفُورٍ رَّحِيمِ﴾:

استعمال الصِّفتين الكريمتين ﴿غَفُورٍ رَّحِيمِ﴾ يشير إلى أنَّ المغفرة والرَّحمة الإلهيَّة هما اللَّذان أوصلا المؤمنين إلى هذا المقام الرَّفيع من النَّعيم، أمّا الإيمان والأعمال الصّالحة؛ فهي الوسائل التي يتقرَّب بها المؤمنون إلى الحقِّ سبحانه، ساعين إلى مرضاته[3]؛ لتكون المغفرة والرَّحمة غايتين تُحقِّقُهما تلك الوسائلُ، يؤيِّده قولُ الرَّسول ﷺ : «لَن يُدخِلَ أحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ»، قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللّه؟ قالَ: «لا، ولا أنا، إلّا أن يَتَغَمَّدَني اللّه بِفَضلٍ ورَحْمَةٍ»[4].

المغفرةُ والرَّحمة الإلهيَّة مفتاحا الــوصــول إلى أسمى درجات النَّعيم

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 212، 213، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 171.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2752).
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1315.
(4) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (5349).

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فُصّلت: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

السّعادة باكتساب الإنسان الصِّفات التي تجعله كاملًا في نفسه، فينتقل إلى تكميل غيره

مراتب السَّعادة نوعان: التّامُّ، وفوق التّامِّ، أمّا الأوَّل؛ فهو ما يكتسبه الإنسان من الصِّفات الفاضلة التي تجعله كاملًا في ذاته، وعندما يتحقَّق هذا ينتقل إلى المرحلة الثّانية التي هي فوق التّامِّ، وهي مرحلة تكملة النّاقصين من الخلق، ورفعهم إلى درجات الكمال، فلمّا كانت الآيات السّابقة تُشير إلى المرتبة الأولى التي تتمثَّل في كمال النَّفس؛ انتقل في هذه الآية إلى المرتبة الثّانية، حيثُ يُكرِّس جهودَه في دعوة الخَلْق إلى الدّين الحقِّ، ليُكملَ بذلك مهمَّة إكمالِ النّاقصين في إيمانهم وحياتهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡسَنُ﴾: (حسن) أصلٌ واحِدٌ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبْح، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ، وامرَأةٌ حَسناءُ، وحُسّانَةٌ[2]، والحَسَنُ: الجَيِّدُ، وضِدُّهُ: القَبيحُ والسَّيِّئُ[3]، والـمُحْسِنُ: الـمُتْقِنُ الـمُجيدُ لِعَمَلِهِ[4]، والإحسان أن يعطي أكثرَ ممّا عليه، ويأخذ أقلَّ ممّا له، فالإحسان زائدٌ على العدل، فتحرّي العدل واجبٌ، وتحرّي الإحسان ندب وتطوُّع[5]، والمقصودُ بالإحسانِ في الآيةِ: الـمُعاملَةُ بالحُسنى مِمَّن لا يلزمُه إلى مَن هو أهلُها[6].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 562.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 255.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (حسن).
(5) الرّاغب، المُفردات: (حسن).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 255.

2) ﴿دَعَآ﴾: (دعو) أصلٌ يدلُّ على إمالةِ الشَّيءِ إليك بصوتٍ وكلام يكون منك، ومنه سُمّيت الرَّغبةُ إلى اللّه ﷻ دُعاءً، تقولُ: دعَوتُ فلانًا، دُعاءً ودَعْوَةً، أي: ناديْتُه[1]، والدَّعوةُ: المرَّةُ الواحدةُ من الدُّعاءِ[2]، ويأتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقالُ: دعوْتُ اللّه، أدعوه، أي: سألتُه[3]، والدُّعاءُ أيضًا: العبادةُ والضَّراعةُ[4]، ويُطلَق على الحثِّ إلى الشَّيءِ والتَّرغيبِ فيه، فيُقال: دعا قومَه إلى اتِّباعِه، أي: حَثَّهُم ورَغَّبَهُم[5].

3) ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: (سلم) أصلٌ يدلُّ على الانقيادِ؛ لأنَّهُ يَسلَمُ من الإباءِ والامتِناعِ[6]، والإسلامُ: الاستِسلامُ لأمرِ اللّهِ والانقيادُ لطاعَتِه، وهو دين الأنبياء جميعًا، يُقال: سَلَّمْنا للّهِ رَبِّنا، أي: استَسْلَمْنا له، وأسلَمْنا، ويُقالُ: فُلانٌ مُسلِمٌ، وفيه قَولانِ: أحدهما: هو المُستَسلِمُ لأمر اللّه، والثّاني: هو المُخْلِصُ للّه العبادَةَ، مِن قَولِهم: سَلَّمَ الشَّيءَ لِفُلانٍ، أي: خَلَّصَهُ، وسَلِمَ لَهُ الشَّيءُ، أي: خَلَصَ لَهُ[7]، والمقصود بالمسلمين في الآية: المُنقادون الخاضعون لدين اللّه.

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

لا أحدَ أعظمُ منزلةً ممَّن دعا غيرَه إلى طاعة الله

يقول اللّه سبحانه: ولا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دعا النّاسَ إلى توحيدِ اللّهِ وطاعته، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ للّه، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه، وقال: إنَّني من المُستَسلِمينَ للّهِ، المُقِرّينَ بوَحدانيَّته، الخاضِعينَ له، المُنقادينَ إليه؛ ليكون قولُهم مطابقًا لفعلهم، حتّى يكونوا قدوةً لغيرهم، وقد نهانا اللّهُ تعالى عن المخالفة بين القول

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (دعا، دعو).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (دعو).
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/ 3644.
(5) الأمير، التَّحبير: 4/ 5.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).

والعمل، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: 2 - 3][1]، وينبغي للمُسلم أن يكونَ عزيزًا بدينِه؛ وأن يُعْلِنَ به، وأن يقولَ: إنَّني مِنَ المُسلِمينَ، وألّا يَستحي، إذا قيلَ: إنَّه مسلمٌ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ﴾:

اللَّـه تعالى يُزكّي نبيَّه ﷺ ومُتَّبعيه عبرَ القرون

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾ استئنافيَّةٌ تفصل بين الجملتَيْن، فالآية تزكيةٌ للنَّبيِّ ﷺ وللمُؤْتَسين به من أمَّته، ولكلِّ مَنْ دعا إلى اللّه تعالى؛ تفريعًا عليهم بجامع الاندراج تحتَ الوصف إلى أن يرث اللّهُ الأرضَ ومَنْ عليها، وكذلك المؤمنون الذين يتَّبعونهم في الدَّعوة إلى الحَقِّ وطاعته[2]، وقد جاء هذا التَّعبير؛ ليشملَ الدَّعوة في كلِّ العصور.

الدّاعون إلى التَّوحيد أسمى النّاس قولًا وأعظمُهم عملًا

ويجوز أن تكون الواو عاطفة[3]، فبعد ما ذكر اللّهُ تعالى في الآية السّابقة قولَ المؤمنين: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ جاء ذِكْرُ مَن يدعو إلى هذه السَّبيل؛ ليؤكِّد أنَّ أرفعَ النّاس قولًا، وأعظمَهم شأنًا هو مَن يدعو إلى توحيد اللّه تعالى، ويعمل الصّالحات، فليس هناك مَن هو أسمى قولًا وأعظمُ عملًا من هذا الدّاعي المُخْلِص، الَّذي يجمع بين الدَّعوة إلى الحقِّ، والعمل الصّالح[4].

ذوو الإيمان الصّادق في أعلى مراتب الكمال قولًا وعملًا

ويجوز في الواو أن تكون لإفادة الحال، فتبيَّن أنَّ هؤلاء الذين نطقوا بالإيمان باللّه سبحانه، كانوا في حالٍ من حُسن القول

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 429، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 15، 16، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 360.
(2) ابن عطيّة، المُحَرّر الوجيز: 5/ 15.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 561.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 305.

والعمل[1]؛ إذ لا يوجد أرفعُ أو أفضلُ منهم في الأقوال والأفعال، وأنَّهم في أعلى درجات الكمال قولًا وعملًا.

دلالةُ التَّعبير بالاستفهام في قوله: ﴿وَمَنۡ﴾:

ليس أسمى قولًا ولا أعظمُ عملًا من الدَّعوة إلى التَّوحيد والعملِ الصّالح بمقتضاه

قد يَرِدُ الاستفهام في اللُّغة على غير بابِه، فيكون مُرادًا به النَّفي[2]، ومنه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ومعناه: أنَّه لا أحدَ أسمى وأعظمُ قولًا من هذا الفريقِ الذي يدعو إلى توحيد المولى سبحانه، والعملِ صالحًا بمقتضى ذلك التَّوحيد، ومثلُ هذا المعنى ورد أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النّساء: 125][3].

التَّعجيب من معارضة المشركين لدعوة الحقِّ، وتأكيدُ صدقِ القول ورِفعته

ويجوز أن يُراد بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من المشركين الذين عارضوا دعوةَ الرَّسول ﷺ، مع ما كان يلقاه من اللَّغو والتَّكذيب في تلاوته القرآن الكريم، وفي ذلك تأكيدٌ على أنَّه لا قولَ أصدقُ ولا أرفعُ من قوله، ولا أحقُّ بالاتِّباع من دعوته إلى اللّه تعالى؛ إذ لا تُهَمَةَ تُنسب إليه، وهو يدعو إلى الحقِّ، ويعمل بما يقول، ويُظهر دينَ الإسلام، الذي هو دينُ أبيه إبراهيم عليه السلام[4].

سرُّ التَّعبير بالاستفهام دون النَّفي في ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ﴾:

أفضل الأقوال وأسمى الأعمال دعوةٌ إلى الله وعملٌ صالحٌ وانتماءٌ للإسلام

ورد الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾؛ ليحمل معنى الخبر لا السُّؤال[5]، فالغرضُ هنا ليس الاستفهام عن الأحسن، بل هو إعلانٌ جليٌّ بأنَّه لا أحد يتفوَّق في القول من بين النّاس على مَن دعا إلى اللّه، وعملَ صالحًا، وأعلن انتماءَه للإسلام، في تعبير عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 288.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 76.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 288.
(4) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 7/ 386.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 12/ 1315.

تفضيلٍ مُطلق لهذا النَّوع من الدَّعوة؛ إذ تجمع بين النِّيَّة الصّافية والعمل الصّادق، في سعيٍ نحو إحقاقِ الحقِّ، ونَشْرِه بين النّاس.

دلالةُ توجيه الخطاب في قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ﴾:

ثناءٌ إلهيٌّ على المستقيمين، وتأكيدٌ استحقاقهم، وتحذيرٌ للمشركين وقمعُهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾ خطابٌ موجَّهٌ من الحقِّ ﷻ لِمَن استقاموا على طريقه، وهو تكميلٌ لثنائه عليهم، وتوجيهٌ يُظْهِر استحقاقهم أسمى المعاملةِ وأشرفَها، كما يشتمل على قَمْع للمشركين الذين تُخالِفُ أقوالُهم وأفعالُهم هذا التَّوجُّهَ؛ إذ يقرعُ اللهُ تعالى آذانَ المشركين، مُعلِمًا إيّاهم بأنَّ الذين قالوا أحسنَ القولِ، وعملوا أحسنَ العملِ، قد نالوا من الله تعالى أرفعَ المراتبِ، وحُقَّ لهم أن يكونوا بتلك المنزلة[1].

دلالةُ التَّعبير بالحُسن دون غيره:

أحسن الأقوال ما كان وسيلةً إلى معرفة الله وطاعتِه، وهي أحسنُ الأحوال

التَّعبير بالحُسْنِ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ﴾ واردٌ في سياق بيانِ الفضيلة العُليا لهذا القول، الذي يتوجَّهُ إلى القلوب بالحُبِّ والتَّأثير، ويَجذبُها نحوَ الله وطاعته، وما يحمله القولُ من معانٍ عميقةٍ تنبِّهُ النّاسَ إلى آيات الله وعظيم رُبوبيَّته، وهو وسيلةٌ حيَّةٌ تُفضي إلى المعرفة بالله، وهي أحسنُ الأحوال وأرفعُها[2]؛ لأنَّها تثمر في القلب الإيمانَ والتَّقوى، وتفتح للإنسان أبوابَ الهداية والطُّمأنينة.

دلالةُ التَّعبير بأفعل التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾:

الدَّعوة إلى الله أعظمُ الأعمال، وهي واجبةٌ على المؤمنين

التَّعبير باسم التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾ يدلُّ على أنَّ الدَّعوة إلى الله هي أعلى الأعمال وأفضلُها، ممّا يقتضي أنَّها واجبة، فكلُّ ما كان أحسنَ الأعمالِ يكون واجبًا؛ لأنَّ ما هو واجب في الأصل هو أسمى من غيره، فإذا كانت الدَّعوةُ إلى الله هي أحسن الأعمال؛ فإنَّ ذلك يقتضي أن تكون واجبةً على كلِّ مسلم، فيُستَنتَج أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.

(2) الطّوفيّ، الإشارات الإلهيّة، ص: 558.

الدَّعوة إلى اللّٰه ليست فقط من أسمى الأعمال، بل هي واجبةٌ وفرضٌ على المسلمين[1].

سرُّ الثَّناءِ بحُسْن القول في ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾:

المـؤمـنـون مستَحِقّون للثَّناء على توحيدِهمُ الله وإفرادِ رُبوبيَّته ثمَّ استقامتهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾ تنويهٌ بمدح المؤمنين الذين نطقوا بلسانهم بأسمى قولٍ وأصدقِه، وهو قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، ثمَّ استقاموا على هذا القول[2]، الَّذي يُعبِّر عن توحيد اللّٰه وإفرادِ رُبوبيَّته، فهو أسمى ما يمكن أن يَنطِقَ به الإنسانُ، ولا قولَ أرفعُ ولا أصدقُ منه، ولذلك أثنى عليهمُ اللّٰهُ ﷻ به، فهو أحسنُ القولِ الذي لا يَعْدِلُه شيءٌ.

دلالةُ قولِه تعالى: ﴿قَوۡلٗا﴾، وإيثارُ تنكيره:

توسيعُ آفاقِ التَّعبير عن الحقِّ قولًا وخطابةً وكتابةً ونحوَها

استُعْمِل لفظُ القول دونَ الحديث مُنكَّرًا في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾؛ ليفتحَ بذلك المجالَ لعموم المعنى، فيشملَ كلَّ وسيلةٍ من وسائل التَّعبير والنَّشر، سواء كان قولًا شفهيًّا أو خطابةً أو كتابةً[3]؛ ليعكسَ سعةَ نطاقِ الدَّعوة إلى اللّٰه تعالى، وشموليَّتها الأساليبَ التي يمكن بها نَشْرُ الحَقِّ.

بلاغةُ ذِكْر هذه الآية بعد قول الكفّار: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

ثَمَّة تبايُنٌ جوهريٌّ بين المؤمنين والمشركين

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾ ثناءٌ عظيم على المؤمنين، جاء بعد ذِكْر مَذمَّة المشركين، وعقابهم على قولة السّوء منهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [فصلت: 26]؛ ليبيِّن أنَّ بين الفريقين فرقًا شاسعًا، طرفاه الأحسنُ المبيَّن في قول المؤمنين، والأسوأُ المفهوم بالمقابلة من كلام المشركين، فهما في تباين تامٍّ، فلا يستوي مَن قالوا أحسنَ القولِ، وفعلوا أصلحَ العمل، مع مَن قالوا أسوأَ القولِ، وفعلوا أسوأ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 563.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1316.

(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 162.

العمل[1]، في دلالة واضحة على الفرق الجوهريِّ بين الفريقين في القول والعمل.

تـوبيـخٌ للمشركين، وتأكيدٌ على عظَمة دعوةِ الرَّسول وفضلِها

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾ توبيخٌ بليغ للمشركين الذين كانوا يَعيبون على القرآن، ويستغربون من دعوة النَّبيِّ ﷺ، ويطعنون في رسالته، فإنَّ أرفع النّاس قولًا، وأسمى مَن يدعو إلى اللّه، ويعمل صالحًا، لَهو النَّبيُّ ﷺ الذي حمل أسمى دعوة، وأعظمَ رسالة للبشريَّة جمعاء[2].

دلالة التَّعبير بـ(مَنْ) في قوله: ﴿مِّمَّن﴾:

الـدّاعـون إلى اللـه مُتفرِّدون في حُسنِ القولِ والعمل

قوله: ﴿مِّمَّن﴾ مركَّبٌ، الأصل فيه حرفُ الجرِّ (مِنْ)، والاسم الموصول (مَنْ)، ثمَّ حصل فيهما إدغامٌ؛ ليتحقَّق المعنى التَّفضيليُّ الذي ينسجم مع السّياق، فـ(مَنْ) تحمل دلالةَ التَّفضيل للاسم ﴿أَحۡسَنُ﴾[3]؛ ليُظهرَ أنَّ مَن يدعو إلى اللّه تعالى مُتفرِّدٌ لا يُقارن بغيره من البشر في حُسْن القول والعمل.

لا أحدَ أحسنُ ممَّن قام بالدَّعوة إلى المولى سبحانه

الاسم الموصول في اللُّغة على نوعين: **الأوَّل**: نصَّ على الموصول كـ(الذي) و(التي)، **والثّاني**: نوع مشترك يشير إلى العموم، ويشمل كلَّ شيء[4]، فضلًا عن خروجه عن الموصوليَّة إلى الاستفهام والشَّرط وغيره، مثل: (مَنْ) و(ما)، وفي قوله تعالى: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وردت (مَنْ) على هذا النَّحو المشترَك؛ لتشملَ كلَّ مَن تحقَّق له مضمونُ هذه الصِّلة[5]، وهي الدَّعوة إلى اللّه تعالى، أي: لا أحدَ أحسنُ ممَّن قام بالدَّعوة إلى اللّه تعالى؛ لتكونَ الدَّعوةُ هي المعيار الذي يُحدِّد الموصوفَ بهذه الصِّفة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 360.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 287.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 228.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 288.

فائدة توحيد الضَّمير في فعل الدَّعوة:

الدُّعاة إلى الله والمصلحون نادرون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أورِدَ الضَّميرُ في فعل الدَّعوة مُفردًا؛ إشارةً إلى قلَّة هذا الصِّنف من النّاس في كلِّ زمان ومكان[1]، وهم الدُّعاةُ والمصلحون الذين يتفرَّدون في دعوتهم إلى المولى سبحانه، فإنَّهم يقومون بعمل عظيم في نشر الحَقِّ والهداية، ممّا يعكس عَظَمَة مهمَّتِهم، ونُدْرتَها في مواجهة التَّحديّات.

دلالة التَّعبير بالدَّعوة في ﴿مِّمَّن دَعَآ﴾:

الدَّعوةُ إلى توحيد الله، وإعلانِ الإيمانِ وتجسيدِ رسالة محمَّد ﷺ

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يتجلّى معنى الدُّعاء في كونه أمرًا موجَّهًا إلى غيرك بالإقبال على شيءٍ مُعيَّن، والدَّعوة إلى اللّٰه تمثيلٌ لحالة الآمر الذي يوجِّهُ النّاسَ إلى توحيد اللّٰه سبحانه وتركِ الشِّرك، كما يفعل مَن يدعو أحدًا للإقبال على شخصٍ أو أمرٍ ما، هذه الدَّعوة تُمثِّل حالَ المؤمنين حين أعلنوا توحيدَه تعالى، فالدَّعوة إلى التَّوحيد كانت أساسًا لرسالة المؤمنين الذين كانوا يَدعون المشركين إلى الإيمان باللّٰه، وسيّد الدّاعين هو النَّبيُّ محمَّد ﷺ، الذي حمل رسالةَ التَّوحيد، ودعا إليها بكلِّ إخلاص[2].

التَّوجُّه الخالص إلى الله تعالى، والنَّجاةُ من مواقف الضَّلال

ومن معاني الدَّعوة إلى اللّٰه هنا هو التَّوجُّهُ الخالص إلى المولى سبحانه، بأن يدعوَ الإنسانُ نفسَه إلى ربِّه، ويسعى بها إلى الخلاص من مواقف الضَّلال، وأجواءِ الجهل، وهذا المعنى يتجلّى بوضوح في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصّافات: 99][3]، في تعبير صادر عن عزمٍ راسخ على السَّير في طريق الحقِّ، مع خلوصِ النّيَّة، وطلبِ الهداية.

دلَّ قولُه سبحانه: ﴿دَعَآ﴾ على تشبيه المَعنيِّ بهداية النّاس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 288.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1316.

في التَّعبير بالدَّعوة الرِّفقُ بالمَدعوين، وإرادةُ إكرامِهم وتأليفِ قلوبهم

بالدّاعي إلى مأدُبة، فهو يَرفُقُ، ويتلطَّفُ حرصًا منه ليُجابَ، وهو يدعو النّاسَ لإكرامهم، لا استشرافًا إلى نيل دُنيا منهم، وهكذا نجدُ كلَّ آدابِ الدَّعوةِ قد مَثُلَت في هذا اللَّفظ المنتقى العجيب.

سرُّ التَّعبير بالماضي دونَ المضارع ﴿دَعَآ﴾:

دعوةُ الخلق إلى الدّين الحقِّ أمرٌ ثابت متحقِّق لا ينقطع حتّى قيام السّاعة

التَّعبيرُ بالماضي دون المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يحمل دلالةَ ثباتِ الدَّعوة إلى المولى سبحانه ورسوخِها؛ إذ إنَّ الماضي يُشير إلى تحقُّق الفعل من غير شكٍّ، بخلاف المضارع الذي قد يوحي بالحدوث المؤقَّت أو الانقطاع، فدعوةُ الخَلْقِ إلى الدّين الحقِّ لا تنتهي، ولا تتوقَّف حتّى قيامِ السّاعة.

دلالة حذف متعلّق ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

تحقيق الإيجاز في التَّفضيل بين القول الصّادر عن الدّاعي إلى الله والقول الآخر

جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ محذوفًا من المضاف، تقديره: (من قول مَن دعا إلى اللّه)[1]، وهو مستعملٌ لتحقيق الإيجاز والتَّنويع في التَّعبير، فالسّياقُ يُبيِّن المعنى المقصودَ دونَ الحاجة إلى تكرار المضاف، فالمعنى هو التَّفضيل بين القول الصّادر عن الدّاعي إلى اللّه والقولِ الآخر، غيرَ أنَّ الحذف هنا يُبرِز جمالَ الاستغناء عن التَّكرار، ويُعطي النَّصَّ قوَّةً وتركيزًا.

دلالةُ تعدية الفعل ﴿دَعَآ﴾ بـ﴿إِلَى﴾:

الدُّعاة إلى الله مُحتسبون يَرجون مثوبةَ الله وحْدَه

لمّا كانت ﴿إِلَى﴾ تفيد انتهاءَ الغاية، وكان الدُّعاة إلى اللّه لا يرجون من أحد جزاءً ولا شُكورًا، وكان تطلُّعُهم في أجرهم وثوابهم إلى اللّه تعالى وحْدَه يوم لقائه جلَّ وعزَّ؛ جاءت ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ هنا؛ لتدلَّ على أنَّهم محتسبون في دعوتهم؛ إذ يرجون هداية النّاس دونَ تطلُّعٍ إلى شيء ممّا في أيديهم.

سرُّ التَّعبير بـ﴿إِلَى﴾ دونَ اللّام:

استُعمل حرفُ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ دونَ اللّام؛ لأنَّ الحرف المستعمَل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 288.

هنا يدلُّ في لغة العرب على انتهاء الغاية[1]، والدَّلالة على الوجهة أو المقصد نحو غايةٍ معيَّنة، أي: إنَّ الدَّعوة ليست مُجرَّدَ دعوةٍ إلى موضوعٍ عامٍّ، بل هي دعوةٌ موجَّهة نحو الله تعالى، وهي دعوةٌ حيَّة نحو الانتقالِ الرّوحيِّ من الضَّلال إلى الهداية، وهي دعوةٌ مستمرَّةٌ ومتجدِّدة، وليست جامدةً أو محدودة.

دعـوةٌ غايتُها الحقُّ سبحانه، في انتقال روحيٍّ من الضَّلال إلى الهداية

دلالةُ التَّعبير باسم الجلالة:

آثَر السّياقُ الكريم استعمالَ الاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه سبحانه هو الذي شَمِلَ بكمالاته جميعَ الخَلْق، وهو الذي استحقَّ أن يُدعَى إليه بكلِّ صفاته، فَبِذِكْر هذا الاسم تُسْتَدعَى القلوبُ جميعًا متوجِّهةً إليه[2]، فهو المُستجمع لصفات الكمال التي لا تقتصر على صفة أو خصلة معيَّنة، بل تشمل كلَّ ما يليق بجلاله وعَظَمته، فيُستجلَبُ بهذا الاسم الكريم كلُّ مَن يعرفه، ويُحبُّه.

الله يستدعي القلوبَ بصفات كمالِه الشّاملة التي تَعَرَّف بها إلى خَلْقه

وذَكَر اسمَ الجلالةِ بقوله تعالى: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ ليُبيّنَ أنَّه سبحانه هو الواحد الأحد الفرد الصَّمد، الذي لا شريكَ له في أُلوهيَّته ولا في ربوبيَّته، المتفرِّدُ بالكمال في ذاته وصفاته، والمستقلُّ عن كلِّ شيء[3]، الذي لا تكتمل الموجودات إلّا به، ولا يثبت الاستمرارُ إلّا بقدرته.

الله هو المُتفرِّد بالوجود والدَّيموميَّة

دلالة الواو في قوله: ﴿وَعَمِلَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ دالَّةٌ على الحال والاقتران، أي: "والحالُ أنَّه قد عمل صالحًا"[4]، فلم يقتصر على القول، بل كان عملُه مُطابقًا لتلك الأقوال، أي: إنَّه قد جمع بين الإيمان القلبيِّ،

المؤمنُ يدعو إلى الله تعالى بلسانه حالَ كونِه قد عمل صالحًا

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 380.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 186.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 278.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 186.

والعمل الصّالح في الواقع، فالإيمانُ الصَّحيح يقتضي العملَ الصّالح، والعملُ الصّالح لا يصدر إلّا من إيمان صادق.

التَّرابطُ الوثيق بين القول والعمل

ويجوز أن تكون الواو واردةً على معنى العطف[1]، عطفت جملةَ العملِ الصّالح على جملة الدَّعوة إلى اللّه تعالى؛ بيانًا للتَّرابط الوثيق بين القول والعمل في الإسلام، فالدَّعوة إلى اللّه ليست محض كلماتٍ تُقال، بل هي دعوةٌ تقتضي أن يكون القول متَّسقًا مع الفعل، وأنَّ الدَّعوة إلى اللّه تتطلَّب استقامةَ الأفعال لتكملتها وتحقيقها.

دلالةُ التَّعبير بالماضي في ﴿وَعَمِلَ﴾:

دعوةٌ عمليَّة تتكامل مع الفعل؛ لتقريب القلوب إلى الله

ذِكْرُ العملِ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بصيغة الماضي؛ لتحقُّقِ وقوعه وظهوره مرئيًّا للمَدْعوّين، وهو يُشير إلى أنَّ الدّاعيَ إلى اللّه تعالى ينبغي أن يكون قدوةً عمليَّة في دعوته، فيُظهر صِدقَ دعوته، ويجعل النّاسَ أقربَ إلى قبولها، وأشدَّ استعدادًا للاستجابة لها[2]، وبذلك يتكامل القولُ مع الفعل، ويصبح العملُ الصّالحُ شاهدًا على صِدق الدَّعوة، وقوَّتِها وتأثيرها.

سرُّ الوصف للعمل بالصَّلاح: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾:

العمل الصّالح توازنٌ بين الدُّنيا والآخرة، وتحقيقٌ لصلاح العبد في دينه ودنياه

وصفُ العملِ بالصَّلاح في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّه يُحقِّق صلاح العبد في دينه ودنياه، فيكون خاليًا من كلِّ فساد، ويجري وفقَ ما أمر به الدّين، فصلاحُه في الدُّنيا لا يقلُّ عن صلاحه في الدّين، ويكتمل عندما يسير العبد على هدى اللّه تعالى، ويستقيم على الطَّريق الموصِل إليه سبحانه، كما جاء في وصف المؤمنين الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[3]؛ إذ يُجسِّدون بذلك العملَ الصّالح الذي يتناغم مع الحقِّ الإلهيِّ، ويُحقِّق التَّوازنَ بين الدُّنيا والآخرة.

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 451.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 374.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 288.

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿صَٰلِحٗا﴾:

من المُقرَّر عند اللُّغويّين أنَّ النَّكرة تدلُّ على العموم والشُّيوع[1]؛ ولذا جاء وصف العمل بالصّالح نكرةً على سبيل التَّعميم والتَّوسيع، فالنَّكرة هنا تُشير إلى أيِّ عمل صالح، كبيرًا أو صغيرًا، ظاهرًا أو باطنًا؛ لأنَّها تشمل جميعَ الأعمال التي تُطابق شرعَ اللّه، وتؤدّي إلى مرضاته؛ فكلُّ عملٍ صالح في طاعة اللّه يُعدُّ مُكمِّلًا ومُؤَكِّدًا للدَّعوة دونَ تقييد أو تحديد.

رحمةُ الله تعالى تتَّسِعُ لقَبول كلِّ عمل صالح مهما كان نوعُه أو حَجْمُه

دلالةُ تقديم القول على العمل في الآية الكريمة:

في تقديم الدَّعوة إلى اللّه على العمل الصّالح في قوله تعالى: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، إشارةٌ عميقة إلى أنَّ الدَّعوة الحقيقيَّة إلى اللّه التي هي جوهر الإيمان، لا تُثْمِر ثمارَها الطَّيّبةَ إلّا إذا كانت مقرونةً بالعمل الصّالح[2]، فالدَّعوةُ إلى اللّه ليست محضَ كلماتٍ تُقال، بل هي فعلٌ مستمرٌّ يتطلَّب التزامًا عمليًّا.

الدَّعوةُ جوهرُ الإيمانِ، لا تكتمل إلّا بالعمل الصّالح

سرُّ عدم وصفِ القولِ بالصَّلاح، كما وصف العمل:

عدمُ وصفِ القول بالصَّلاح كما وُصِف العمل، يَكْمُن في أنَّ الدَّعوةَ إلى الحقِّ سبحانه لا تحتاج إلى قيد من حيثُ صلاحُ القولِ، بل يكفي أن يكون القولُ صادقًا؛ لأنَّه يدعو إلى التَّوحيد والإيمان، أمّا العملُ الصّالح؛ فيتطلَّب موافقةً للشَّرع وأحكامه؛ لأنَّه يتجسَّد في الفعل الذي يترجِم الدَّعوةَ إلى واقعٍ عمليٍّ؛ كي يُؤتيَ ثمراتِه في الدُّنيا والآخرة.

القولُ في الدَّعوة يحتاج إلى الصِّدق والوضوح، والعملُ يُشترَط فيه الصَّلاح

بلاغةُ الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾:

﴿صَٰلِحٗا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، أي: عملَ عملًا صالحًا[3]، وسرُّ الحذف هنا؛ ليكون عملًا في ذاته،

فتْحُ آفاق المعنى وتوسيعُ دائرته في شموليَّة العمل الصّالح

(1) الفارسيّ، الإيضاح العضديّ، ص: 275.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1316.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 374.

شاملًا جميعَ أنواعِ الأعمال الصّالحة، سواء كانت في النّيَّة أم في القول أم في الفعل، وسواء كانت سرًّا أم علنًا؛ فحُذِفَ الموصوفُ هنا دَرءًا لتقييد العمل الصّالح بجانبٍ محدَّد، ولغنى المعنى بذِكر ﴿دَعَآ﴾ الذي يفتح المجالَ لفهم شامل للعمل الصّالح من جميع جوانبه، دونَ حصرِه في الأفعال الظّاهرة فقط[1].

دلالةُ الجمع بين القول والعمل في الآية:

لا أوضحَ طريقةً ولا أكثرَ ثوابًا من التَّكامل بين الدَّعوة والعمل الصّالح

الجمعُ بين القول والعمل الصّالح يعكس التَّكاملَ بين العقيدة والسُّلوك في الإسلام، فالمسلمُ الحقُّ مَن يُجَسِّد إيمانَه في عمله، ويكون قولُه مطبَّقًا في أفعاله، فكلُّ مَن جمع بين دعوة العباد إلى ما شرَّعه الله، وبين العمل الصّالح في تأدية ما فرضَه اللهُ عليه، مع اجتناب ما حرَّمه عليه، وكان من المسلمين في دينه، لا من غيرهم، فإنَّه لا شيءَ أسمى ولا أرفعُ من ذلك، ولا أظهرُ طريقةً، ولا أكثرُ ثوابًا[2]، فقد حقَّق بذلك أسمى درجاتِ الإيمان والإحسان، وجمع بين القول والعمل في أكمل صورةٍ، مستحِقًّا بذلك أعلى مراتبِ الفضل، والجزاءِ الأوفى من الثّواب، وإذا تلاقى الإيمانُ بالله والعمل الصّالح، فقد تلاحمت أركانُ الخير في قلب المؤمن، وتمسَّك بالعروة الوثقى الَّتي لا انفصام لها[3].

دلالةُ التَّعبير بالواو في ﴿وَقَالَ﴾:

إعلانُ الثَّبات والإيمان، وتأكيدُ الالتزام بتوحيد الله تعالى

الجملة من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفة على ما سبقتها[4] من جملة: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لتكون تأكيدًا على التزامه بالإيمان وتوحيدِ الحقِّ سبحانه، وتوضيحًا لموقفه الثّابت أمامَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 186.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 591.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1316.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 452.

كلِّ المخالفين والمُؤيِّدين[1]، وهي تعبيرٌ عن اعتزازه بدينه، ورفضِه لأيِّ محاولةٍ للمساومة أو التَّحريف في معتقداته، ولتقطع الطَّريقَ أمامَ كلِّ مَن يحاول التَّشكيكَ في إيمانه، أو إفسادَ دعوته.

يـقـينٌ وثـبـاتٌ في الإيــمــان، وابـتـهـاجٌ عميقٌ واعـتــزازٌ فـائـق بهذا الانتماء

دلالة التَّأكيد بـ(إنّ) في قوله: ﴿إِنَّنِي﴾:

أكَّد النَّظمُ الكريم جملةَ الانتماء إلى الإسلام بحرف التَّوكيد (إنَّ) بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لتعميق يقين القائل، وثباتِه في إيمانه، وإظهارِ ابتهاجه العميق، واعتزازه الفائق بهذا الانتماء العظيم[2]، فهو ليس محض تأكيد لفظيٍّ، بل هو تعبير عن قوَّة الإيمان، وصدقِ الاعتراف بالهويَّة الإسلاميَّة، ويعكس افتخارًا صادقًا، وتفانيًا في التَّمسُّك بالدّين.

إثـبـاتُ رسـوخِ المــؤمــن في الإسلام واعتزازِه به

دلالةُ التَّعبير بالاسميَّة ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

لَمّا أقرَّ بالقول بعد الدَّعوة إلى اللّه تعالى والعملِ الصّالح، أوردَ صفةَ الإسلام بالصّيغة الاسميَّة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ ليشيرَ بذلك إلى رسوخِ إيمانِه، وثباتِه في هذه الصِّفة العظيمة[3]، مؤكِّدًا على استمراريَّتِه في التَّمسُّك بالإسلام، ركيزةً ثابتةً لا تتزعزع، ومُعَبِرًا عن إيمانه الرّاسخ الذي لا يتأثَّر بالتَّقلُّبات أو الشُّكوك.

إنَّــنــي لمِــنَ الــذيــن لـهـم الـقَـدَحُ المُعلّى في الـتَّـسـلـيـم والتَّفويض

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

أفاد قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دون (مسلم) شمولًا للمعنى وامتدادًا له، فلا يقتصر على القول المجرَّد، بل يتجاوز ذلك ليكون بمنزلة التَّذييل الذي يوضِّح الانتماءَ الكامل، كقولك: (زيد من العلماء)؛ للإشارة إلى مكانته المرموقة في العلم، فكأنَّما أراد أن يقول: إنّي من أولئك الذين هم في قمَّة التَّسليم والتَّفويض للّه ﷻ[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 187.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 24/ 162.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 187.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 607.

إنَّ ثمرة الإيمان باللّه والعمل الصّالح في التَّفاعل الحيِّ مع المجتمع والنُّموِّ المشترك في الخير لا تقتصر على الإنسان وحدَه، بل تتجلّى آثارُها في المجتمع الإنسانيِّ؛ إذ يُثْمِر هذا الإيمانُ في العطاء والأخذ بين النّاس، فالإيمانُ والعملُ الصّالح إذا اعتزل بهما الإنسانُ عن مجتمعه، واحتفظَ بهما في نفسه، دونَ أن يشاركَ الآخرين في ثمار هذا الخير، يصبح كما لو أنَّه احتفظ بهما في مكان مغلق، لا ينمو، ولا يزدهر[1]، فتعبيرُه ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قائمٌ على الشُّعور بالانتماء لهذه المجموعةِ والتَّفاعل معها، وعدمِ الانعزال عنها، ومشاركتِها أفراحَها وأتراحَها.

بلاغةُ ختام الآية بقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

ثـناءٌ على المسلمين في اعتزازهم بالإسلام وافتخارِهم به أمامَ المشركين

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يُعَدُّ ثناءً على المؤمنين الذين اعتزّوا بدينهم، وجعلوا من الإسلام فخرًا لهم، فلم يتوارَوا، أو يتخَفَّوا، أو يتَسَتَّروا به[2]، بل أعلنوا عن إيمانهم بكلِّ شجاعة أمامَ المشركين، مُظهرين عِزَّةَ الانتماء إلى هذا الدّين العظيم، في تعبير عن اعتزازهم وإصرارهم على الثَّبات على مبدأ الإسلام في مواجهة الشِّرك.

دلالةُ ذِكْر الاعتزاز بالدّين من بينِ الأعمال الصّالحةِ:

الاعتزازُ بالدّينِ وإظهارُ عِزَّة الإسلام في وجه الكافرين وإغاظتِهم

إن كانت الأعمالُ الصّالحة كثيرةً ومتنوِّعة، إلّا أنَّ الاعتزاز بالدّين جاء هنا مذكورًا على وجه التَّخصيص في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنَّ المقصود منه إغاظةُ الكافرين، وإظهارُ عِزَّةِ الإسلام والمسلمين[3]، كما كان الحالُ في يوم أُحُدٍ عندما جاء أبو سفيان - وكان يومَئذٍ على الشِّرك - فقال: اعْلُ هُبَل،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1316.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 288.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 288، 289.

فقال رسولُ اللّه ﷺ : «قولوا: اللّهُ أعلى وأجَلُّ»، فقالوا: اللّهُ أعلى وأجلُّ، فقال أبو سفيان: لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال رسول اللّه ﷺ: «قولوا: اللّهُ مولانا، والكافرون لا مولى لهم»[1]؛ ليُظهِرَ المسلمون عِزَّةَ دينِهم، وظهوره على كلِّ ما سواه، ويُثبتوا ولاءَهم للّه تعالى دون أدنى تردُّدٍ أو تراجع.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الحُسْن والجَمال:

الدَّعوة بالقول من الجمال الظّاهريّ إلى الحُسْن الباطنيّ

الجمال هو ما يشتهر، ويرتفع به الإنسانُ من الأفعال والأخلاق، ومن كثرة المال والجسم، وليس هو من الحُسن في شيء، ألا ترى أنَّه يُقال لك: في هذا الأمر جَمالٌ، ولا يُقال لك: فيه حُسْن[2]، فالجَمال متعلِّق بالأفعال وكثرة المال ونحوه، والحُسْن متعلِّق بالصِّفات، فإنَّ الحُسْن يرتبط بالصِّفات الحميدة، والأفعال القويمة.

القول والحديثُ:

القول والحديث مترادفان، يستعمل أحدُهما بموضع الآخر

يُلْحَظ في الحديث أنَّه مُنتهًى إليه مُحَدَّثٌ به، ولا يلزم مثلُ ذلك في القول، فلذا جاء: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [المجادلة: 8]، وكما في الآية التي معنا هنا: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، فليس فيها قوله ذلك لأحد، ولا هو بلازم، فيمكن أن يقوله لنفسه؛ تجديدًا لعهده، واستحثاثًا لهِمَّتِه، أو ذِكْرًا لنعمة اللّه عليه ونحوه، والحديثُ يُؤدّى بالتَّحدُّث خاصَّة، والقول يؤدَّى به وبغيره، كالإشارة المُفْهمة التي فعلتها الصِّدّيقةُ مريمُ البتول أُمُّ عيسى على نبيِّنا وعليهما السلام، فقد جاء في التَّنزيل العزيز أنَّه قيل لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (4414).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 165، 166.

قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ
سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي
ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم 26 - 29]، فأُدّيَ القولُ هنا بالإشارة المُفهمة، ويُؤدّى كذلك بغير ما وسيلة، كالكُتُب والرَّسائل ونحوِها.

العمل والفعل:

الفـعـل يـكـون بقصد أو من غير قصد، والعمل الـصّـالـح وعـيٌ مقصودٌ، وإرادةٌ مدروسة

العمل: هو إيجاد الأثر في الشَّيء، ويأتي بمعنى الإحداث[1]، وذلك أخصُّ من الفعل من جهة أهله، وأعمُّ منه من جهة نفسه؛ لأنَّ الفعل قد يشمل أفعالَ الحيوان التي لا تدلُّ على قصدٍ أو إرادةٍ[2]، فالعملُ إذًا يحمل دلالةً على فعل مقصود ومدروس، وهو ما يتَّفق مع معنى الإيمان العميق، والأعمالِ الصّالحة التي يطلبها اللّهُ تعالى من عباده.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عمل).

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فُصِّلت: 34]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكْر محاسن الأعمال بين العباد بعد ذِكْرها بين العبد وربِّه

بعد أن أبان المولى سبحانه جليلَ الأعمالِ الصّالحة التي تجمع بين العبد وربِّه، أتى على ذكرِ محاسن الأعمال بين النّاس؛ ليكونَ هذا إلهابًا وتهييجًا للنَّبيِّ الكريم ﷺ على الصَّبر حيالَ أذى المشركين، ومقابلةِ إساءتهم بالإحسان، فإنَّ الحسنة التي تُرضي اللّه، ويُمنح عليها الجزاء، لا تستوي مع السَّيِّئة التي يَكرهُها، ويجازي عليها بالعقاب، ولا تستوي دعوةُ الرَّسولِ إلى طريق الحقِّ، والصَّبر على أذى المشركين وسفاهتهم، وتركِ الانتقام منهم[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَسۡتَوِي﴾: (سوي) أصلٌ يدُلُّ على استقامةٍ واعتِدالٍ بَيْن شيئَيْن، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادلُه، وفلانٌ وفلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمرِ، أي: سَواءٍ[2]، والتَّسويَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَة، وتأتي بِمعنى العَدْلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيتُ بين الشَّيئَين؛ إذا عَدَلتُ بَينَهُما[3]، وهي أيضًا: تَقويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُه، تقولُ: سَوَّيتُ الشَّيءَ فاستَوَى، أي: قَوَّمتُه، فاستَقامَ[4]، والمقصود بالمساواة في الآية: جَعْلُ الأشياءِ متساويةً.

2) ﴿ٱدۡفَعۡ﴾: (دفع) أصلٌ يدلُّ على إزالَةٍ وتنحيَةٍ، تَقول: دَفَعَني فُلانٌ، أي: أزالَني مِن مَكاني بِشِدَّةٍ[5]، والدَّفْعُ: دَفعُك الشَّيءَ عَن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 368.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوا).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (عدل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفع).

نَفسك، وكلُّ شَيءٍ أزلتَه عَنْك فقد دَفعتَه[1]، والدَّفْعُ: الإسراعُ والتَّتابُعُ في السَّير، يُقال: دَفَعَتِ الخَيْلُ، أي: سارَت[2]، وأُطلِقَ في الآية على الوِقايةِ، أي: ادفع أثرَ السَّيِّئة بالخَصْلة التي هي أحسن.

3) ﴿حَمِيمٌ﴾: (حمم) أصلٌ يدلُّ على الدُّنوِّ والحُضورِ[3]، والحَميمُ القَرابةُ، يُقالُ: مُحِمٌّ مُقْرِبٌ، والحامَّةُ خاصَّةُ الرَّجل من أهله ووَلَدِهِ وذي قَرابَتِهِ[4]، وقيل: هو القَريب المُشْفِق الَّذي يحتَدُّ حِمايةً لِذَويه[5]، وهو أيضًا الَّذي يَوَدُّك، وتَوَدُّه[6]، والجمعُ: أحمّاءُ، وقد يكون الحَميمُ للواحِد والجميع والمؤنَّث بِلَفْظ واحِد[7]، والمُراد به في الآية: القَريبُ والصَّديقُ[8].

المَعنى الإجْماليُّ:

انتِفاءُ تَساوي الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ بَعضِها ببَعضٍ

يُرشِدُ اللهُ تعالى إلى ما يُؤدّي إلى إشاعةِ المَحبَّةِ، فيقولُ: ولا تستوي الخَصلة الحَسَنة والخَصلة السَّيّئة في الآثار والأحكام، فإذا أساءَ إليك مسيءٌ؛ فادفَعْ - يا مُحمَّدُ - ﷺ سَيِّئَةَ النّاسِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ، فأحسِن إلى مَن أساء إليك، وادعُهم بالحِكمةِ والرِّفقِ، واللّينِ وحُسْنِ الخِطابِ، واحلُم عليهم، واصفَح عنهم، واصبِر على أذاهم، فإنَّك إن فعَلْتَ ذلك؛ صار مَن هو عدوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ المحبَّةِ لك، وفي الآية دليلٌ على أنَّه نُدِبَ إلى الإحسانِ إلى المُسيءِ؛ لِتأتلِفَ الأُمَّةُ، ولا تَفترِقَ، ولا تَتباغَضَ[9].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (دفع).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (دفع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حمم).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (حمم).
(6) الخليل، العين: (حم).
(7) ابن سيده، المحكم: (حم).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 432، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 564، 565، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 306، والقصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 4/ 77.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو بين العطف والاستئناف في قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي﴾:

إزالةُ التَّردُّد وتأكيدُ فضلِ الدَّعوة إلى الله في انتفاء المساواة بين الحسنة والسَّيِّئة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ استئنافيَّة، فبعد أن ذكر الله ﷻ الدَّعوةَ إلى الله تعالى، وهي من أعظم الطّاعات، إلّا أنَّ الصَّبر على سفاهة الكافرين والمشركين، وما يصاحب ذلك من إهانة وشدَّة، قد يُثير في النُّفوس بعض التَّردُّد أو الإحباط؛ ولذلك جاء هذا التَّوكيد الإلهيُّ؛ ليُطَمْئِنَ المؤمنين في انتفاء المساواة بين الحسنة والسَّيّئة[1].

والاستئناف هنا مسوقٌ لتوضيح محاسنِ الأعمال التي يتبادلها العبادُ فيما بينهم بعد أن انتهى من بيان محاسن الأعمال المقرونة بعلاقة العبد بربِّه سبحانه، وفي الآية ترغيب له ﷺ في الصَّبر على أذى المشركين، ومقابلة إساءتهم بالإحسان[2].

عطفُ الجملةِ على الجملةِ تكملةٌ له لبيان التَّفاوت الجوهريِّ بين الفريقين

ويجوز أن تكون الواو عاطفةً هذه الجملة على جملة: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فهما جملتان تشتركان في الغرض ذاته، وتُعَدُّ هذه الجملة تكملةً لتلك؛ إذ إنَّ المعطوف عليها تضمَّن الثَّناءَ على المؤمنين بعد وعيد المشركين وذَمِّهم، غيرَ أنَّ هذه الجملةَ توضِّح التَّفاوتَ الواضحَ بين مرتبة المؤمنين وحالة المشركين، فالحسنة كونها اسمًا منقولًا من الصِّفة تُشير إلى حالة المؤمنين، بينما السَّيّئة تُمثِّل حالةَ المشركين[3].

تخفيف الضِّيق عن قلبه ﷺ في مواجهة إصرار الكافرين على الضَّلال

ويجوز أن تكون عطفًا على جملة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26] الواقعة بعد جملة: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: 5] إلى قوله:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 564.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 14.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 289، 290.

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ [فصلت: 5]، فإنَّ ذلك كان يُشعر النَّبيَّ ﷺ بالضَّجر من إصرار الكافرين على ضلالهم، وعدمِ تأثُّرهم بدعوته إلى الحقِّ، فكان بحالٍ من تضييق طاقة صبره على سفاهة أولئك المكذِّبين؛ فعطف هذه الجملة دفعًا لذلك الضّيق عن نفسه ﷺ؛ لتكون من باب عطف القصَّة على القصَّة[1].

دلالةُ النَّفي بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي﴾:

لا تستوي الحسنة والسَّيِّئة في عموم الأحوال والأوقات

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ استُعمِل حرفُ النَّفي (لا)؛ للدَّلالة على النَّفي المطلق؛ إذ إنَّ (ما) إذا دخلت على الفعل المضارع؛ كان نفيها مقيَّدًا بالوقت والمكان، ممّا يجعلها تقتصر على الحال[2]، فيكون النَّفيُ جزئيًّا ومؤقَّتًا، أمّا (لا)؛ فهي نفيٌ شاملٌ يتجاوز الحدودَ الزَّمانيَّة والمكانيَّة، فيؤكِّد أنَّ استواء الحسنة والسَّيِّئة يستحيل على الإطلاق، وفي جميع الأوقات والأحوال[3]، فلا مجالَ للمساواة بينهما في أيِّ حال من الأحوال.

دلالةُ التَّعبير بنفي الاستواء في قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي﴾:

تفضيلُ الحسنةِ على السَّيِّئة، فلا تتساويان في الفضل والأثر

نَفيُ الاستواءِ بين شيئَين يُقصد به غالبًا التَّفضيلُ الواضح لأحدهما على الآخر، وذلك بناءً على دلالة السّياق الذي يحدِّد معايير المفاضلة؛ إذ لا يمكن التَّساوي في الفضل أو الأثر بين الحسنة والسَّيِّئة وآثارِهما وعاقبتِها، كالوارد في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ [السَّجدَة: 18][4].

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ دون غيرها:

المؤمنون أحسنوا في قولهم وإجابتهم الدَّعوة، والكافرون أساؤوا وكذَّبوا

لَمّا قال الذين آمنوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، فقد أظهروا إيمانًا صادقًا، وأحسنوا في قولهم وإجابتهم لله، فاستقاموا على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 290.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 191.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 162.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 291.

طاعته، ولبّوا دعوتَه بأفعالهم وأقوالهم، فاستُحِقَّ أن يُسمَّى قولهم: (حسنة)، ولمّا قال الذين كفروا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26]، فقد أظهروا تكذيبًا وجحودًا، وتمادَوا في محاربة الحقِّ، فسمّاها اللّه تعالى (سيِّئة)؛ فاختلفت أحوالهم، وهي كذلك عند اللّه تعالى[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾:

جنسُ الحسنات متفاوتٌ في الحُسْن، وجنس السَّيّئات متفاوتٌ في السّوء

(أل) في الاسمين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ دالَّةٌ على الجنس والاستغراق[2]؛ إذ تشير إلى جنس الحسنات والسَّيّئات عمومًا، فالحسنات ليست متساويةً في الدَّرجة، بل هي متفاوتة في درجات الكمال والجمال، فبعضها أرفع وأسمى من بعض، وكذلك السَّيّئات، فليس كلُّها على درجة واحدة، بل بعضها أسوأ وأخبثُ من بعض[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإفراد فيهما دون الجمع:

لا تستوي الحسناتُ ولا السَّيّئات لتفاوتها في أنفسها

﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في الآية دالّتان على الجنس والاستغراق، والجنس يقتضي الشُّمول والعموم؛ لذلك كان من الأنسب أن تأتيَ الكلمةُ مفردة؛ لتُعبِّر عن التَّفاوت في نوعيهما، فيصبح المعنى بذلك: "ولا تستوي الحسنات، إذ هي متفاوتة في أنفسها، ولا السَّيّئات؛ لتفاوتها أيضًا"[4].

دلالةُ تقديم ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ على ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾:

الحسنةُ تنبع من مقام العقل، وهو مُقدَّم، والسَّيّئة تنبع من النَّفس، وهي مُؤخَّرة

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾، فالحسنة تنبع من مقام العقل الذي يرفع صاحبه إلى الجنَّة، ويُقرِّبه من ملائكة الرَّحمن، بينما السَّيّئة تنبع من مقام النَّفس التي تجرُّ صاحبها إلى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 470.
(2) السمين، الدّرّ المصون: 9/ 223.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 278.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 306.

النّار، وتُدنيه من الشّياطين[1]، ولأنَّ العقل هو المُقدَّم على النَّفس في توجيه الإنسان نحو الخير، فقد قُدِّمت الحسنة على السَّيّئة في هذا الموضع؛ لتُبيِّن عِظَم تأثير العقل السَّليم في توجيه الإنسان نحو الفضيلة والخير.

الحسنةُ دعوتهم إلى الدّين وهي سابقة، والسَّيّئة ما أظهروه من المخالفة، وهي لاحقة

والحسنة هنا هي الدَّعوة إلى الدّين القويم الّتي تحمل في طيّاتها النّورَ والهداية، والصَّبرَ على جهالتهم وسفههم، وتركَ الانتقام منهم، والسَّيّئة ما كان من إظهارهم المخالفةَ والعناد[2] الَّتي يقود أصحابه إلى الضَّلال، والدَّعوة إلى الحقِّ تسبق في قوَّتها وأثرها ما كان من فعلهم.

دلالة تكرار (لا) في قوله: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

تحقيقُ التَّفاوتِ الجوهريِّ بين الحسنة والسَّيِّئة وتوكيدُه

إذا عُلم أنَّ (لا) الدّاخلة على لفظة ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ تفيد النَّفي[3]، فإنَّ تكرارها بدخولها على لفظة ﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ واردٌ لتقوية المعنى وإفادةِ التَّوكيد، على معنى: (ولا تستوي الحسنة والسّيّئة)[4]؛ لأنَّ فعْلَ الاستواء يقتضي وجودَ طرفَيْن، ولا يكتفي بواحدٍ[5]، ففي (لا) الثّانية تحقيقُ التَّفاوت الجوهريِّ بين الحسنة والسَّيّئة، وآثارِهما على النَّفس والمجتمع.

التَّفاوت بين الحسنات والسَّيّئات في نفي التَّساوي وبيانِ تفاوت الأثر

ويجوز أن تكون (لا) الثّانية مُؤسِّسَةً، وليست مُؤكِّدة[6]، فالمقصودُ هو نفي تساوي الحسنات مع بعضها، وتأكيدُ التَّفاوتِ بينها، وكذلك نفْيُ تساوي السَّيّئات مع بعضها، وإثباتُ تفاوتها، بمعنى أنَّ بعض الحسنات قد تكون أرفعَ وأعظم من غيرها، كما أنَّ بعض السَّيّئات قد تكون أقبحَ وأشدَّ ضررًا من غيرها[7].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 340.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 386.
(3) صافي، الجدول: 12/ 310.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 386.
(5) ابن يعيش، شرح المفصّل: 5/ 76.
(6) السمين، الدّرّ المصون: 9/ 527.
(7) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 163.

بلاغةُ الاحتباك في قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

تأكيدُ نفي المساواة بين الحسنات والسَّيِّئات، وتوضيحُ استحالةِ تداخلِهما

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ واردٌ مورد اللَّفظ القليل، الحاوي على المعاني الجَمَّة، فإنَّ التَّقدير هنا: "ولا تستوي الحسنة والسَّيِّئة، ولا السَّيِّئة والحسنة، فحُذِف اختصارًا"[1]، فمُراد الأوَّل: نفيُ أن تتساوى فضائلُ الحسنات مع مساوئ السَّيِّئات، والمُراد بذلك: نفي أن تُلحَق السَّيِّئةُ بشرف الحسنة، وهذا هو الاستواء في الخصائص، وفي هذا تأكيدٌ وتقوية لنفي المساواة؛ ليُؤَكِّدَ أنَّه نفيٌ تامٌّ[2]، لا يقبل التَّداخلَ بين الحسنات والسَّيِّئات، وهو من باب الاحتباك.

بلاغةُ المجاز بالحذف في ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

لا تستوي الخصلةُ الحسنةُ والخصلةُ السَّيِّئةُ في الجزاء وحُسْن العاقبة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ مجازٌ بالحذف، فإنَّ الحسنة والسَّيِّئة وصفان لموصوف محذوف، تقديره: الخصلة الحسنة، والخصلة السَّيِّئة، وهما في سياق النَّفي، أي: لا تستوي الخصلة الحسنة، والخصلة السَّيِّئة في الجزاء وحُسْن العاقبة[3]، وغرضُ الحذفِ: التَّنبيهُ على وصفهما ترغيبًا حالةَ كونِها حسنةً، وتبعيدًا حالةَ كونِها سيِّئةً، وأنَّ موصوفَ كلٍّ مهما استترَ، وخفي، فإنَّ الأثر لصفته يُظهِره، ويقيمه.

دلالةُ المجاز في نفي استواء ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾:

الحسنةُ الإيمانُ بالله وما يُؤدّي إليه، والسَّيِّئة الشِّرك بالله وما يفضي إليه

للحسنة والسَّيِّئة في الآية دلالاتٌ مجازيَّة كثيرة، ذَكَرَها كثيرٌ من المفسِّرين، ومن دلالات الحسنة: الإيمانُ باللّٰه تعالى، والعملُ بطاعته، والعفوُ والصَّفح، وكلمة التَّوحيد لا إله إلّا اللّٰه، والمداراةُ والصَّبر، والإيمانُ والعفو والحِلْم، وحبُّ آلِ رسول اللّٰه ﷺ، ومن دلالات السَّيِّئة: الشِّركُ باللّٰه تعالى، والعملُ بمعصيته، وما يكون بين

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 291.
(3) حقّي، روح البيان: 8/ 262.

النّاس - كالشَّتم والبغضاء - والغلظةُ، والنُّفورُ، والفحشُ، وبغضُ آلِ رسول اللّه ﷺ[1].

ومِنَ الدَّلالات المجازيَّة في الآية: أنَّ ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ إذا اجتمعت مع العمل الصّالح، فإنَّها تكون سببًا لاستحقاق التَّعظيم في الدُّنيا، والجزاءِ العظيم في الآخرة، بينما ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ بما تحمله من معانٍ مخالفة تجرُّ صاحبَها إلى عواقبَ وخيمةٍ، فتكون عاقبتُه غضبَ اللّه وعقابَه[2]، وبذلك ينفي اللّهُ تعالى تساوي العاقبة بين الحسنات والسَّيّئات[3]، ويُؤكِّد بجلاء أنَّ لكلٍّ منهما أثرًا لا يُشْبِهُ الآخر.

شتّان بين عاقبة الحسنات وبين عاقبة السَّيِّئات

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾:

تباينٌ جوهريٌّ بين النَّقيضين في القيمة والأثر في الدُّنيا والآخرة

بين ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ يظهر الطِّباقُ بوضوح، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ يهدف إلى بيان التَّباينِ الجوهريِّ بين النَّقيضَيْن، فالطِّباقُ هنا يعكس التَّفاوتَ الكامل بين الحسنة والسَّيِّئة في القيمة والأثر، وأنَّهما على طرَفَي نقيض، وأنَّ كلًّا منهما يُفضي إلى نتيجة مختلفة تمامًا في الدُّنيا والآخرة.

سرُّ فصل قوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

ردُّ الإساءة بما هو أحسن أبلغُ في التَّأثير وأعظمُ في الأجر

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ يخرِّج مخرجَ الجوابِ عن قول القائل: كيف أصنع مع مَنْ يسيء إليَّ؟[4] فكان الجواب هو الأسمى من التَّصرُّفات، ويُبيِّن كيفيَّة التَّعامل مع الإساءة؛ إذ يُؤمَر المسلمُ أن يدفع السَّيّئة بالتي هي أحسن، أي: أن يَرُدَّ الإساءةَ بما هو أرقى وأسمى من العفو، كالإحسان إلى مَن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 471، وابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 153، ومكّي القيسيّ، الهداية: 10/ 6524، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 182، والعِزّ بن عبد السّلام، تفسير القرآن العظيم: 3/ 131.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 564.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 162.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 200.

أساء إليه، وهذا أبلغُ في التَّأثير، وأعظمُ في الأجر[1]؛ ليتحقَّقَ بذلك أعظمُ الأثرِ في تهذيب النَّفس، وتربيةِ المجتمع على فضائل الأخلاق.

الدَّفعُ بالأحسن نتيجةٌ لما يواجِهُ الإنسانَ من العوارض التي تُعكِّر صفوه

ولمّا كان في الحَثِّ على الإقبال على الحَسَن، والإعراضِ عن السّيّئ إشارةٌ إلى تفاوت الجزئيّات واختلافِ الدَّرجات بينهما، وأنَّ الإنسان لا بدَّ أن يواجِهَ من العوارض ما يُعكِّر صفوَه، سواء من النّاس أم من نفسه؛ كان لا بدَّ له من دفع تلك العوارض وتجاوزها، فجاءت الكلمة الإلهيَّة: ﴿ٱدۡفَعۡ﴾[2]، فما تقدَّم سببٌ، وهذه نتيجةٌ، وما مضى مُقدِّمةٌ، وهذا مقصدٌ، وهذه الجملة ناشئة من مضمون تلك[3].

بلاغةُ التَّعبير بجملة: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بعد الجملة السّابقة عليها:

الدَّفعُ بالإحسان إرشادٌ إلهيٌّ لرسوله وأمَّته للتَّخلُّق بمكارم الأخلاق

وقوع جملة: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بعد جملة: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ تخلُّصٌ بديع من غرض التَّفضيل بين الحسنات والسَّيّئات، فينتقل إلى أمر عمليٍّ يرتقي بالإنسان نحو الخُلُق الرَّفيع، وهو دفع السَّيّئة بالحسنة، فذلك الدَّفعُ هو ثمرةُ تفضيل الحسنة، وهو إرشادٌ من الحقِّ تعالى لرسوله وأُمَّته إلى ضرورة التَّخَلُّق بهذا الخُلُق العظيم[4]، الذي يتجسَّد في التَّجاوز عن الإساءة، والرَّدِّ بالإحسان؛ ليرتقيَ المؤمنون إلى أعلى مراتب الأخلاق.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ﴾ دون (ادرأ) مادَّةً وصيغةً:

الأمـرُ مباشر منه سبحانه في ردِّ السَّيِّئة بالحسنة ردًّا قويًّا سريعًا

لم يَستعملِ النَّظمُ الكريم رَدَّ المساءةِ بالإحسان بفعل الدَّرْء، وهو الفعل الدّالُّ على الرَّدِّ بسرعة، بل استَعْمَل فعلَ الدَّفع لدلالته على القوَّة والسُّرعة في ردِّ السَّيّئة بالحسنة، وبالعفوِ والصَّفْح، ودفعِ الذَّمِّ بالمدح، والجَهْلِ بالعِلْم، والتَّسرُّعِ بالحِلْم والصَّبر[5]، ولمّا أرادها دعوةً مباشرةً من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 14.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 291.
(5) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 163.

اللّه تعالى للمؤمنين؛ ليكونوا نماذجَ في ردِّ الإساءة بالإحسان، وتوجيهًا لهم نحوَ أعلى درجات الأخلاق؛ أورد الفعل بصيغة الأمر، فقال: ﴿ٱدۡفَعۡ﴾.

سِرُّ حذف مفعول ﴿ٱدۡفَعۡ﴾:

لمّا كانت الحسنة مدفوعًا بها؛ تعيَّن المدفوعُ وهو السَّيِّئة

حُذِف مفعولُ الفعل ﴿ٱدۡفَعۡ﴾؛ ليظلَّ المعنى محصورًا بين السَّيِّئة والحسنة، فحينما أمر الحقُّ سبحانه أن تكون الحسنة هي المدفوع بها؛ تعيَّنَ أنَّ المقصودَ بالمدفوع هو السَّيِّئة، وبهذا التَّقدير يصبح المعنى: (ادفع السَّيّئة بالتي هي أحسن)، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرّعد: 22]، وهذا الحذف يحمل في طيّاته إشارةً بلاغيَّة دقيقة تدلُّ على أنَّ المقابل الوحيد للسَّيّئة هو الحسنة.

سرُّ التَّعبير باسم الموصول (التي):

تحقيق عنصرِ التَّرقُّب والتَّشويق في التَّعريف هو بيانٌ بعد إبهام

في التَّعبير بالاسم الموصول (التي) في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي﴾ يتجلّى عنصرُ التَّشويق والانتظار؛ إذ يأتي الكلامُ على مرحلتَيْن؛ الأولى: تتمثَّل في ذِكر الاسم الموصول مع إبهامه، وحُقَّ له ذلك، فهو مِن المُبهمات[1]، ممّا يثير في النَّفس شوقًا وترقُّبًا لمعرفة مقصوده، والثّانية: تتَّضح من خلال جملة الصِّلة: ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾، التي تبيِّن المقصودَ، فتجعلُ المعنى أكثرَ وضوحًا وثَراءً، وهذا الأسلوب البلاغيُّ يُحَسِّن توجيهَ الانتباه، ويُشْبِعُ الذِّهن بالتَّركيز على الفعل المطلوب؛ إذ يتحقَّق البيانُ من خلال التَّدرُّج من الإبهام إلى التَّوضيح.

دلالةُ التَّعبير بالضَّمير ﴿هِيَ﴾ عن الحسنة:

دفعُ السَّيّئة مبدأٌ مُنحصرٌ بما هو أحسن

التَّعبير بالضَّمير ﴿هِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ للإشارة إلى التَّوكيد والتَّمكين للمعنى المطلوب، وهو دفعُ السَّيّئة بالأحسن من الحسنات، فالتَّعبيرُ بالضَّمير هنا يُظهر أنَّ الدَّفع يجب أن يكون مرتبطًا بشكل حصريٍّ بما هو ﴿أَحۡسَنُ﴾[2].

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 178.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 306.

دلالةُ التَّعبير بصيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾:

مَـنِ اعـتـاد دفـعَ السَّـيّئة بالأحسن يَهون عليه الدَّفعُ بما هو أدون

سرُّ استعمالِ صيغة التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ يكمن في إضفاء مزيدٍ من القوَّة والبلاغة على المعنى المقصود، فلو قيل: (ادفع بالتي هي حسنة)؛ لكان المعنى قدِ اقتصر على مجرَّد الدَّفع بالحُسن، أمّا التَّعبير بالأحسن؛ ففيه رفْعُ الفعل إلى أعلى درجات الكمال، بدفع السَّيّئة بأفضل ما يمكن من الحُسْن، ليصلَ المؤمنُ إلى أعلى مراتب الإحسان مع الآخَرين، وأبلغِ درجات التَّفوُّق في الرَّدِّ؛ إذ مَنِ اعتاد الدَّفع بالأحسن؛ هانَ عليه الدَّفعُ بما هو دونها[1].

مبالغةٌ في الحَثِّ على دفع السَّيّئة بأحسن ما يكون

ويجوز أن يكون التَّعبير بصيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾ واردًا على سبيل المبالغة في الحثِّ والتَّوجيه، ولفتِ النَّظر إلى عِظَم أهمّيَّة هذا الفعل، والعنايةِ القصوى به، ويُشير إلى أنَّ دفْعَ السَّيّئة بأحسن ما يمكن من الحُسْن ليس مجرَّدَ خيارٍ، بل هو ضرورةٌ عظيمة تعود على فاعلها بالسَّكينة في قلبه، وتزيل شرورَ العِداء، وتَثْبُتُ على دَرْب الخير، فتكسبُ رضا الله، وتُبعِدُ الشَّيطان، وتقود إلى الجنَّة[2].

دعـوةٌ للسُّموِّ فـوقَ دوافـع الـنَّـفـس وانتقامها

وإنَّما جاء بها على صيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾؛ ترغيبًا في دفع السَّيّئة بالحسنة، وذلك لأنَّ دفْعَ السَّيّئةِ لا يكون إلّا بالعزيمة القويَّة على مخالفة مقتضيات النَّفس وطِباعها؛ إذ إنَّ الغضب النّاتج عن سوء المعاملة من طبع الإنسان، فيثير فيه الرَّغبةَ في الانتقام، فكان الأمرُ الإلهيُّ لرسوله ﷺ بالجزاء الحسن على الإساءة إشارةً إلى فضل هذا الفعل العظيم[3].

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

مِن شيم المؤمن الحقِّ الثَّباتُ والدَّوامُ على خصلة الإحسان

التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ يُشير إلى الثَّبات والدَّوام، وفيه الإشارةُ إلى الخصلة الحسنة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 200.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 340.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 292.

التي هي أسمى الحسنات، ويقترن ذلك بالإحسان؛ لتحديد أعلى مراتبِ الحُسْن، وهذا يدفع الدَّعوةَ إلى استمرارٍ في العمل بها، حتّى تصبحَ سِمةً ثابتة في الشَّخصيَّة، فتستقيمَ النَّفسُ على جادَّة العدالة الإلهيَّة، ويظهر أثرُ الإحسانِ في كلِّ تصرُّف[1].

فائدة ذِكْر الدَّفعِ بالأحسن:

الإحسانُ لِمَن أساء يُدنيهِ من الصَّداقة أو يُكسبُه إيّاها

من فوائد ذِكْر الدَّفع بالأحسن أنَّ الإحسان إلى مَن أساء لا يقتصر على مجرَّد ردِّ الإساءة، بل يتعدّاه إلى جَلْب المودَّة والسَّكينة، فقد يكون الإحسانُ سببًا في تقريب القلوب، بل يؤثِّر في النُّفوس؛ فيُؤدّي إلى تحوُّل العِداء إلى صداقة[2].

بلاغةُ الجِناس في الحسنة والأحسن:

تماثلٌ بين الحسنة وما هو أسمى منها وهو الأحسن

في الآية جناسُ المماثل بين ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ و﴿أَحْسَنُ﴾[3]، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ يُعزِّز المعنى، ويُضفي جمالًا على النَّصِّ، فالجناسُ هنا لا يقتصر على التَّماثل الصّوتيِّ فحسب، بل يُبرز التَّفاوتَ بين لفظين: ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ التي هي من جملة الصِّفات الطَّيِّبة، و﴿أَحْسَنُ﴾ التي ترفع الفعلَ إلى أعلى درجات الكمال، فالرَّدُّ على السَّيِّئة لا يكون فقط بالحَسَن؛ بل بالأحسن الذي يفوق كلَّ ما سواه.

دلالةُ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَإِذَا﴾:

ثمرةُ التَّخلُّق بخُلُقِ الدَّفع بالأحسن أن يصير عدوُّك المُشاقُّ مثلَ الوليِّ الشَّفيق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ عاطفةٌ للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة[4]، وهذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وفيها تعقيب على نتائج الإحسان في معالجة العداوة، وبيانٌ لما في دفع السَّيِّئة بالأحسن من التَّوفيق والصَّلاح؛ تنبيهًا للمؤمنين على التَّخلُّق بهذا الخُلُقِ القويم،

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 278.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 404.
(4) د، قباوة، المفصّل في تفسير القرآن، ص: 1697.

بجَعْلِ النَّفس مصدرًا للإحسان وتوابعه، ولأنَّ صلاح الآثارِ يدلُّ على صلاح منشئها، ثمَّ لَمّا أمر الحقُّ سبحانه بأن يُدْفَع بالتي هي أحسن؛ أردفَه بذِكْر بعضِ محاسنِ خُلُق الدَّفع بالأحسن[1]؛ إذ يُبيِّن أنَّ مَنْ يعامل السَّيِّئة بالحسنة، ويصبرُ على أذى المخالفين، يُؤتيه اللّهُ من بركات الإحسان ما يُغيِّر قلوبَ الأعداء، فيصبحون كما لو كانوا أصدقاءَ مُقرَّبين، فيغدو عدوُّكَ المُشاقِقُ لك كالوليِّ الشَّفيق عليك[2].

إذا قابلتَ الإساءةَ بالإحسان؛ تحوَّل العِداءُ إلى مودَّةٍ وموالاةٍ

ويجوز أن تكون الفاء في الجملة فصيحة؛ إذ إنَّها تُفيد جوابًا لشرطٍ مُقدَّرٍ؛ إذ يكون التَّقدير: (إذا دفعتَ بالتي هي أحسن؛ صار الذي بينك وبين خصمك من العداوة، كأنَّه وليٌّ حميم)[3]، ففي الفاء إظهارُ النَّتيجة المباشرةِ المترتِّبة على الفعل؛ لتُؤكِّدَ أنَّ الإحسان في مواجهة الإساءة يُؤدّي إلى تحوُّلٍ جوهريٍّ في العلاقات، حتّى يصبحَ العَدوُّ كما لو كان الوليَّ الحميم.

سرُّ التَّعبير بـ(إذا):

الدَّفع بالَّتي هي أحسن يجعلُ من العدوِّ اللَّدود صديقًا حميمًا

استعمال كلمة (إذا) في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ يفيد المفاجأة، ويُعبِّر عن السُّرعة المُدْهِشة في ظهور أثر الإحسان؛ إذ ينقلب العِداءُ إلى صداقة وودٍّ، فيتحوَّل العدوُّ إلى صديق قريب، كما لو كان وليًّا حميمًا[4].

سرُّ العُدول إلى الاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ﴾:

في التَّنكير بيانُ النَّوع وهو الأصل، فيشمل العداوةَ القويَّةَ وما كان دونها

عدل الحقُّ ﷻ عن ذِكْر العدوِّ مُعرَّفًا بلام الجنس إلى ذِكْره باسم الموصول في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾؛ لأنَّ تنكير العداوةِ مُبيِّنٌ لنوعها، وهو أصل التَّنكير، فينطبق المعنى على العداوة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 292.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 14.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 561.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.

الشَّديدة، والعداوةِ الأقلِّ حِدَّة[1]، فالتَّنكيرُ هنا يفتح المجال لتنوُّع الفهم في قوَّة العِداء أو ضعفِه، ويعكس مرونةَ المعنى وشموليَّتَه.

دلالة التَّعبير بالظَّرف ﴿بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ﴾:

بالإحسان تستحيل العداوةُ إلى صداقة ومودَّة

استُعمِل الظَّرفُ في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ﴾؛ ليُفيدَ أنَّ العداوة حاصلة بين الطَّرفيْن، وليست من جانب واحد، فكلٌّ واحد منهما عدوٌّ للآخر[2]، وهذه الإشارةُ إلى العداوة المتبادلة تعمِّق الفهمَ بأنَّ التَّوتُّر والتَّصادم بين الطَّرفين واقعٌ، ممّا يجعل فعلَ الدَّفع بالتي هي أحسن أكثرَ تأثيرًا وأهمّيَّةً بتحوُّل هذه العداوة إلى صداقة ومودَّة بموجب الإحسان.

المبالغةُ في العداوة النّاشئة من القوى البهيميَّة

ودلالةُ استعمالِ الظَّرف في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى المبالغة في العداوة[3]؛ إذ إنَّها عداوةٌ متواصلة تنبع من القوى البهيميَّة لدى أحدِ الطَّرفَيْن، حتّى تملأ ما بينه وبين الطَّرف الآخر، وكأنَّها صراع لا يتوقَّف، ومع ذلك جاء الأمرُ الإلهيُّ بالدَّفع بالتي هي أحسن؛ ليكشفَ عن قدرة الإحسانِ على إزالة هذه العداوةِ وتحويلِها إلى مودَّة[4]، ممّا يعكس سموَّ الأخلاقِ ورفعةَ النَّفسِ التي تتجاوز ردودَ الفعل الطَّبيعيَّة.

دلالةُ التَّعبير بالخطاب في ﴿بَيۡنَكَ﴾، والغيبة في ﴿وَبَيۡنَهُۥ﴾:

عداوةٌ استحكمت بين الطَّرفين فملأت ما بينهما

في التَّعبير بالخطاب في ﴿بَيۡنَكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمن، أو إلى النَّبيِّ ﷺ، أمّا الغَيبة في ﴿وَبَيۡنَهُۥ﴾؛ فهي تشير إلى الطَّرف الآخر، هذا التَّفاوت بين الخطاب والغَيبة يعكس طبيعةَ العداوةِ التي ملأت الفجوةَ بين الطَّرفين[5]، فتحوَّلت إلى حالة شاملة تملأ المسافة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 409.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 375.
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 278.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 188.

بينهما، وأنَّ العداوة قدِ استحكمت بين الطَّرفين، ممّا يجعل الدَّفعَ بالتي هي أحسنُ أكثرَ ضرورةً؛ لإزالة هذه العداوةِ وتحقيقِ التَّغيير.

سرُّ تقديم ﴿بَيۡنَكَ﴾ على ﴿وَبَيۡنَهُۥ﴾:

ذِكْـرُ النَّبي ﷺ أو المؤمن مُقدَّمٌ عـلى ذِكْــرِ مَـنْ سواهم

قُدِّم ﴿بَيۡنَكَ﴾ على ﴿وَبَيۡنَهُۥ﴾؛ لأنَّ المخاطَب هو النَّبيُّ ﷺ، أو المؤمنُ هو محور الحديث، بينما جاء الغائب مُؤخَّرًا؛ للإشارة إلى الطَّرف الآخر - وهو الخصم أو العدو - بشكل غير مباشر، فضلًا عن التَّقديم هنا بدأ فيه بالأقرب، وهو المخاطَب، وانتهى بالأبعد، وهو الغائب.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿عَدَٰوَةٞ﴾ مُنكَّرةً دون (بُغْض) ونحوه:

مهما عظُمت الـعـداوةُ؛ فإنَّ الإحسان مُزيلٌ لها

سِرُّ التَّعبير بـ﴿عَدَٰوَةٞ﴾ مُنكَّرةً يكمن في إبراز عَظَمَة هذه العداوة وعمقها[1]، فالتَّنكيرُ هنا لا يقتصر على تحديد العداوة فحسب، بل يوحي بأنَّها عداوةٌ شديدة وقويَّة، ولو استُعمل لفظُ البُغض أو غيرُه من الألفاظ المحدَّدة؛ لضاق المعنى، وانحصر في نوع معيَّن من العداوة، أمّا التَّنكير؛ فهو يشمل كلَّ ما هو عظيم وشديد في العداوة.

بلاغةُ تركيب جملة: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ﴾:

تأثيرُ الإحسان في اقتلاع العداوات عـلى تـفـاوت درجاتها

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ﴾ يجسِّد تمامًا قوَّةَ تأثيرِ الإحسان في إزالة العداوة؛ إذ يعكس شموليَّة الإحسانِ في اقتلاع العداواتِ؛ مهما تفاوتت قوَّتها وضعفُها، وهو تركيب بلاغيٌّ يُظهر أنَّ الإحسان يتناسب مع شدَّة العِداء، وأنَّه كلَّما كانت العداوة أعظمَ، كان الإحسانُ أكثرَ تأثيرًا في تحويلها إلى مودَّة وصفاء، وهو ما يتماشى مع القول المشهور بأنَّ النُّفوس مجبولةٌ على حبِّ مَن أحسن إليها[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 188.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾:

المُعادي يُحسِّن ظاهرَه ليُشبهَ الوليَّ الحميم

تشبيهُ العدوِّ بالوليِّ الحميم في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ تشبيهٌ مُرسلٌ بحذف وجهِ الشَّبَهِ[1]؛ إشارةً إلى أنَّ الإحسان يُغيِّر جوهرَ العداوةِ، ويُحوِّلها إلى مودَّة، فالتَّشبيهُ هنا يرسم صورةَ تفاعلِ العِداء مع الإحسان؛ إذ لا يكون العَدوُّ وليًّا حميمًا حقيقةً إلّا بتأثير الإحسان الذي يُحَسِّن ظاهرَه، فيُشْبِهُ الوليَّ الحميم[2]، فوجْهُ الشَّبه يكمن في المصافاة والمقاربة، وهو تصوير يعكس تفاوتَ التَّأثيرِ النَّفسي للإحسان؛ إذ لا تتساوى القلوبُ في استجابة واحدة، فالعلاقةُ بين العدوِّ والمُحبِّ قد تتفاوت بحسب قوَّة العداوة السّابقة، ومع ذلك لا يصل العدوُّ إلى مرتبة الوليِّ الحميم بسهولة، فذلك أمرٌ نادرٌ[3].

بلاغةُ التَّشبيه بـ(كأنَّ) دون الكاف:

بين الظَّنِّ واليقين في وصف تحوُّل العدوِّ إلى وليٍّ حميم

يتجلّى الفرقُ بين استعمال (كأنَّ) و(الكاف) في التَّشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، أنَّ (كأنَّ) هنا تُستعمل للتَّعبير عن التَّشبيه الحاليِّ غير المؤكَّد، فهي تُشير إلى احتماليَّةٍ وظنٍّ وتوقُّعٍ، أكثرَ من كونها تشبيهًا مُؤكَّدًا، لا سيَّما إذا لم يكن خبرُها اسمًا جامدًا[4]، بل هو وصف كالوارد في الآية، أمّا (الكاف)؛ فهي للتَّشبيه المُطلق الذي يربطُ بين شيئَيْن دونَ تردُّد أو شَكٍّ، فيكون التَّشبيهُ هنا ثابتًا متحقِّقًا، ولَمّا كانت صيرورةُ العدوِّ وليًّا حميمًا ليست حقيقةً ثابتة، والعدوُّ "لا يستلزم أن يصير وليًّا مخلصًا بالمرَّة"[5]، بل هو مقترن مستند إلى الإحسان؛ استعمل أداةَ الظَّنِّ والشَّكِّ (كأنَّ).

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 226.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 293.
(4) السّبكيّ، عروس الأفراح: 2/ 73، والسّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 486.
(5) النّسفيّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 5/ 426.

سرُّ التَّعبير بـ﴿وَلِيٌّ﴾ مُنكَّرًا دونَ غيره:

الـوليُّ الحقيقيُّ هـو مَـن كـان حـليفًا نـاصـرًا لـكَ في مواجهة عدوِّك

جاء اشتقاق (الولي) من الولاية، ومعناه: مَن كان حليفًا ناصرًا لك، وهو ضدُّ العدوِّ[1]، وقد أوردَه نكرةً لزيادة العموم، فيشمل كلَّ مَن قد يتحوَّل من عدوٍّ إلى صديق، من غير تحديد نوعيَّة الوليِّ، أو تعيينِ شخصيَّتِه.

دلالةُ الجمع بين ﴿وَلِيٌّ﴾ و﴿حَمِيمٌ﴾:

كِلتا خصلتَي الولاية والقرابة لا تجتمعان مع العداوة

جمع السّياقُ القرآنيُّ بين (الولي) و(الحميم)؛ ليُعبِّر عن حالةٍ نادرةٍ تتجاوز العداوةَ إلى أعلى مراتب القُرْب والوُدِّ، فـ(الوليّ) يُشير إلى الإخلاص في الوُدِّ والعناية، و(الحميم) يُشير إلى القُرْب الشَّديد الذي يتعدَّى إلى حرارة الحُبِّ والاهتمام، ووجهُ الجمعِ بين هاتَين الصِّفتين: أنَّهما لا تجتمعان مع العَداوة[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾

[فُصّلت: 35]

لا يجد فضلَ خصلةِ دفعِ الإساءة بالإحسان إلّا الصّابرون المحظيّون عند ربِّهم

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا كان من أمره تعالى أنَّه حثَّ على خصلة عظيمة بأن يُدْفَع بالَّتي هي أحسن، فهي من الخصال الجامعة لمصالح الدّين والدُّنيا؛ أشار هنا إلى عظيم فضلها، وبديع نُبْلِها، حاثًّا على الاستظلال بجميع ظِلّها، مُنبِّهًا على مخالفتها لجِبلَّة الإنسان، ثمَّ حثَّ على الرَّغبة في طلبها من واهبها الحقِّ سبحانه، ثمَّ أخبر بأنَّه لا يجد هذه الخصلة الحميدة إلّا مَنِ اتَّصف بالصَّبر، وكان ذا نصيبٍ وبَختٍ جليلٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: (لقي) أصلٌ يدلُّ على اللِّقاء والاستقبال[2]، واللِّقاء: مصادفةُ الشَّيء للشَّيء ومقابلتُه له معًا، وتَلَقّاه: استَقْبَلَهُ، وفُلانٌ يَتلقّى فُلانًا، أي: يَستَقبِله[3]، فالتَّلقّي معناه: التَّعرُّض للقاء الشَّيء، ولَمّا كان الاستقبال للشَّيء تعرُّضًا للقائه؛ قيل له: تَلَقٍّ، ويُقالُ: لَقِّيْتُه الشَّيءَ، فَتَلَقَّى، أي: عرضته لأن يراه، فتعرَّضَ له، فَلَقَّيْتُه من (لقى)، مثلُ: رَأَيْتُه من (يرى)، ثمَّ صار التَّلقّي بمعنى الأخذ؛ لأنَّ الإنسان إنَّما يستقبل ما يحرص عليه، فكلُّ كلام استقبلتَه، فأنتَ مريدٌ أخذَه، وإلّا أعرضتَ عنه، وجميع أهل اللُّغة والمعاني فسَّروا (التَّلقّي) هاهنا بالأخذ والقَبول[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 188، 189.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والواحديّ، التّفسير البسيط: 2/ 402، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).

2) ﴿صَبَرُواْ﴾: (صبر) أصلٌ يدلُّ على الحَبْسِ، يُقالُ: صَبَّرتُ نفسي على ذلك الأمرِ، أي: حبستُها[1]، وهو أيضًا: الإمساك في ضيقٍ، والصَّبْرُ لفظٌ عامٌّ، وربَّما خولِف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النَّفس لمصيبة؛ سُمّي صبرًا لا غير، ويُضادُّهُ الجَزَع، وإن كان في محاربة؛ سُمّي شجاعةً، ويُضادُّه الجُبن، وإن كان في نائبة مُضجِرة؛ سُمّي رَحْبَ الصَّدرِ، ويُضادُّه الضَّجر، وإن كان في إمساك الكلام؛ سُمّي كِتمانًا، ويضادُّه المَذَلُ[2]، وقد سمَّى اللّٰهُ تعالى كلَّ ذلك صبرًا[3]، والصَّبْرُ في الآية معناه: الثَّباتُ على تَحَمُّلِ المَكْروهِ والمَشاقِّ[4].

3) ﴿حَظٍّ﴾: (حظّ) أصلٌ واحدٌ، وهو النَّصيبُ من الفضل والخَيْر، وجمعه: حظوظ، وفُلان ذو حَظٍّ وقِسْم من الفضل[5]، والحُظوةُ والحِظوَةُ والحِظَةُ: المكانة والمنزلة للرَّجل من ذي سُلْطان ونحوِه، تقول: حَظي عِندَه يحظى حظوة[6]، والمُرادُ به هنا: النَّصيبُ الوافر من الخَير.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخُلُقُ مُنتهى كمالِ البَشَر

لا يُعطَى هذه الخَصلةَ الشَّريفةَ، ويعمل بها، وهي دفع السَّيِّئة بالحَسَنة، إلّا الَّذين صبروا على كَظْم الغَيظ، واحتمالِ المكروه، والصَّبرُ شاقٌّ على النُّفوس، فمَن يُعْطَ هذه الخصلة؛ فهو ذو نَصيبٍ وافرٍ مِنَ الخَيرِ، فإذا صَبَّرَ الإنسانُ نَفْسَهُ، وامتَثَل أَمْرَ رَبِّه، وعَرَف جَزيلَ الثَّوابِ، وعَلِم أنَّ مُقابلتَه للمُسيءِ بجِنسِ عَمَلِه لا تُفيدُه شيئًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).
(2) المَذَلُ: الضَّجَرُ والقَلَقُ، مَذِلَ مَذَلًا فهو مَذِلٌ، والأُنْثَى مَذِلَةٌ، يُنظر: ابن سيده، المحكم: 10/ 75.
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (صبر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/ 518.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حظّ، حظو).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (حظّ، حظو).

ولا تَزيدُ العَداوةَ إلّا شِدَّةً، وأنَّ إحسانَه إليه ليس بواضِعٍ قَدْرَه، بل مَن تواضَعَ للّه؛ رفَعَه؛ هان عليه الأمرُ، وفعَل ذلك مُتلذِّذًا مُستَحْليًا له[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾:

رَبْطُ الصَّبرِ بالمعاملة الحَسَنة، وتحوُّلُ العداوةِ إلى صداقة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ عاطفة؛ إذْ عطفت هذه الجملة على الجملة من قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]، فيتكشَّف لنا أنَّ الصَّبر ليس مجرَّدَ تحمُّلٍ، بل هو أساسٌ في تحقيق المعاملة الحسنةِ التي تتحوَّل معها العداوةُ إلى صداقة، وتصبح العاقبةُ الطَّيّبة من نصيب مَن يلتزم بهذا الخُلُقِ العظيم.

الثَّواب الجزيل ثمرة المقابلة بالإحسان

ويجوز في الواو هنا أن تكون استئنافيَّةً تفصل بين الجُملتَيْن؛ بيانًا لذاك الفعل الكريم والخصلة الشَّريفة والسَّجيَّة العالية، ألا وهي مقابلة الإساءة بالإحسان[3]، فهو هنا كلامٌ جديد دالٌّ على استقلاله وأهمّيَّته؛ ليؤكِّدَ أنَّ فعل الإحسان وسيلةٌ لتصفية القلوب، وتعميق معاني الرَّحمة والتَّسامح، وأنَّ ثمرته الثَّوابُ الجزيلُ والجنَّة.

المعاملةُ الحَسَنة والمدافعةُ الأحسن لا يُحْسِنها إلّا أولئك الصّابرون

ويجوز في الواو هنا أن تكون حاليَّةً، أي: حالًا من الجملة في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فإنَّ هذه المعاملةَ الحسنة، والمدافعة التي هي الأحسن، لا يُحسنها إلّا أولئك الذين امتازوا بالصَّبر، فإنَّ الحسنات قد يوفَّق إليها غيرُهم[4]، غيرَ أنَّ الصَّبر هو الَّذي يُميِّز الذين يُلاقون هذا الثَّوابَ الجزيل، والجزاءَ العميم.

سِرُّ التَّعبير بـ(ما) دون (لا) في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾:

النَّفي بـ(ما) نفيٌ مظروفٌ بالزَّمان والمكان، واردٌ على الحال

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 434، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 200، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 49.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 455.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.

متى دخل على مضارع، ولا كذلك النَّفيُ بـ(لا)، التي تُشيعُ النَّفيَ في مدخولها زمانًا ومكانًا دونَ قيدٍ، والأمرُ الَّذي تحدَّث القرآنُ الكريم فيه هنا يُحَبِّبُه، ويُرغِّبُه، ليس ممّا يُؤتاه خليقةً إلّا ذوو النُّفوس الكبار، وممّا يوضِّح ذلك جليًّا الآتي بَعْدُ في سورة (الشّورى): ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى: 43]، فهي غاياتٌ بعيدةُ المَرْمى، عزيزةُ المنال، صُعُدًا في الكمال؛ لهذا كان اقتضاء المقام النَّفي بـ(ما) لتَشْعُر بنُدْرةِ المقام وبُعْدِ الغاية، وحاجةِ الطّامح للتَّرقّي إليه بعون من اللّه وتوفيق.

التَّأهُّل لعزائم الأمور ومعاليها نادرٌ، والمُصْطَفون لها صفوتُهم

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾:

استُعمِل الفعلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ دون غيره؛ لأنَّه يعكس معنى التَّلقّي الذي يتطلَّب استعدادًا نفسيًّا، وعزيمةً قويَّة، فهذه الخصال لا تُنال إلّا بعد رياضة شديدة، ومرونةٍ نفسيَّة في التَّغلُّب على الهوى والرَّغبة في الانتقام، وفيه تنويهٌ بفضيلة الصَّبر، الذي يُعدُّ مُفتاحًا لهذه الفضيلة العظيمة وثوابها الجزيل[1]، فالصَّبرُ خصلة حميدة تتطلَّب مجاهدةً للنَّفس؛ لنيل الفوز العظيم في الدّارين.

لا بدَّ من الاستعداد والعزيمة في الصَّبر والتَّغلُّب على الهوى

والفعل ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ مُشتقٌّ من الإلقاء، وهو فعلٌ يُحيل إلى العُلوِّ والرِّفعة؛ ليُشيرَ بذلك إلى عُلوِّ منزلةِ خصلةِ الدَّفع بالَّتي هي أحسن، فتلك الفضيلةُ لا تُمنَح، ولا توهَب إلّا لأولئك الَّذين صبروا[2]، فبلغوا منازلَ عظيمةً في مجاهدة النَّفس، وجعلوا الصَّبر سجيَّةً لهم، فاستحقّوا بفضل صبرهم هذا الشَّرفَ العظيم.

الإلقاء مِن عُلوٍّ دليلٌ على رفعة منزلة الدَّفع بالأحسن، التي لا تنال إلّا بالصَّبر

سِرُّ بناء الفعل المضارع للمفعول ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾:

لَمّا كانت خصلة: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ جامعةً مصالحَ الدّين والدُّنيا كافَّة؛ نَبَّهَ على عظيم فضلها، وبديعِ نُبْلِها، داعيًا إلى الاستظلال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 294.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 164.

خصلةُ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسنُ، جامعةٌ لمصالح الدّين والدُّنيا

بجميع ظِلِّها، مُشيرًا بالبناء للمفعول في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ إلى أنَّها العمدةُ المقصودة بالذّات، على الرَّغم من مخالفتها للطَّبع البشريِّ؛ ليحثَّ النّاسَ على الرَّغبة في طلبها من واهبها[1]، فكلَّما كانت صعبة على النَّفس؛ كانت أرفعَ منزلةً وأعظمَ أجرًا.

دلالةُ الإضمارِ في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾:

تعظيمُ خصلةِ الإحسان، فلا يُلقّاها إلّا أصحابُ الصَّبر والجَلَد

الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ قد يكون من باب التَّعظيم، "أي: ما يُلقَّى هذه الخصلةَ والسَّجيَّة التي هي مقابلةُ الإساءة بالإحسان"[2]، إلّا أولو الصَّبر والجَلَد، ممّا يُشير إلى شَرفِ هذه الفضيلة ورِفْعتِها، ويَعكس عَظَمَة مَن يتحلّى بها[3]، فهي لا تُنال إلّا بتجرُّدٍ من هوى النَّفس ونزعاتها.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾:

لا يقدر على حمل خصلة الإحسان إلّا الذين امتلؤوا بالصَّبر والجَلَد

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ من باب الاستعارة، فمن الفعل قولُهم: رجلٌ مُلقًّى، أي: الذي يَكْثُر عليه البلاءُ والمكاره، فيُعبَّر عن الإنسان الذي يتحمَّل المَشاقَّ والمصاعب بعبارة "مُلقًّى"، كأنَّما هو مُحمَّلٌ بتلك الأعباء[4]؛ فلا يقدر على حملها، والقيام بها إلّا أولئك الذين امتلؤوا بالصَّبر والجَلَد، كما يحمل الرَّجل الَّذي تكثر عليه الأعباء.

تحصيل الشَّيء بعد المعالجة والتَّخلُّق يُشبه السَّعيَ لملاقاة أحدٍ فيَلقاه

والفعل ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ مُستعارٌ للسَّعي الحثيث في تحصيل هذه الخصلة الكريمة، فكما أنَّ لقاء أحد يتطلَّب السَّعيَ والمثابرةَ والمعالجةَ للوصول إليه ولُقْياه[5]، فإنَّ تحصيلَ هذه الفضيلةِ العظيمة بعد المعالجة والمجاهدة يُشبِهُ السَّعيَ للاقتراب من شخص؛ إذ لا يبلغها إلّا مَنْ كان قويَّ العزيمةِ، ثابتًا في صبره ومثابرته.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 188.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 14.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 189.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 13/ 184.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 295.

فضيلة الصَّبر في تحويل العِداء إلى مودَّة

الدَّلالة على الجزاء والثَّواب إشارةٌ إلى عَظَمَة الأجر المرتبط بذلك الفعل

ثمرةُ التَّوحيد لا ينالها إلّا الذين صبروا على المكاره والأذى في سبيل الله

دفعُ السَّيِّئة بالأحسن مقصورٌ على الصّابرين وذوي النَّصيب الكبير

معنى الضَّمير في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾:

الضَّميرُ (ها) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعود إلى ذلك الخُلُق العظيم، الذي يتمثَّل في دفع السَّيِّئة بالحسنة[1]، فالتَّعبيرُ بالضَّمير هنا يُشير إلى هذا الفعلِ النَّبيل الذي لا يُتقنُهُ إلّا الصّابرون الذين يتميَّزون بالقدرة الفائقة على مواجهة المكاره، وتحويلِ العِداء إلى مودَّة.

ويجوز أن يكون معنى الضَّمير (ها) هو ما يُلقّى من جزاءِ ذلك الفعل وثوابِه[2]، وهو مقابلةُ السَّيِّئة بالحسنة، فيكون الضَّمير هنا قد عاد على ما يترتَّب على الفعل من أجر عظيم ونتائجَ مباركة؛ تناسبًا مع عظمة الفعل وسُموِّ المقصد.

ويجوز أن يكون معنى الضَّمير (ها) هو ما يُلقّى من ثمرة كلمة التَّوحيد (شهادة أن لا إله إلّا اللّه)، التي لا ينالها إلّا أولئك الذين صبروا على المكاره والأذى في سبيل اللّه، فلا يُلقّاها إلّا مَن كان له نصيبٌ عظيمٌ من الأجر في الآخرة[3].

بلاغةُ أسلوب القَصْرِ في الموضعَيْن في الآية:

ورودُ أسلوبِ القَصْر في الجُملَتَيْن من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، يُظهر بوضوحٍ أهمّيَّةَ الصَّبرِ وكونَه من خصال الخير العظيمة، فالآيةُ تستعمل أسلوبَ القَصْرِ، بالتَّأكيد على أنَّ هذه الخصلةَ العظيمة من دفع السَّيِّئة بالأحسنِ لا تُعطَى لكلِّ النّاس؛ بل تُمنح فقط للصّابرين، وللَّذين يمتلكون حظًّا عظيمًا ونصيبًا وافرًا من الخير والفضل[4].

سِرُّ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

استُعمِل الاسمُ الموصول في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 18، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 16.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 386.
(3) القيسيّ، الهداية: 10/ 6526.
(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 1/ 46.

صبرُ المؤمنين باعثٌ لهم على التَّخلُّق بخُلُق دَفْعِ السَّيِّئة بالأحسن

﴿صَبَرُواْ﴾؛ إشعارًا لعلَّة بناء الخبر على الصِّلة، وإن كان الخبر متقدِّمًا بموجب القَصْر، والمعنى: أنَّ ذلك أحرى بكم أن تلاقوا جزاءَ دفعِكم السَّيِّئةَ بالحسنة ومثوبتها بما كان من صبرِكم، فهو باعثٌ لكم على تلك الخصلةِ الحميدة، والخُلُق الفاضل.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ دون (الصّابرون):

وُجِدَت منهم هذه الحقيقةُ، ورُكِزَت في طباعهم، فكظموا الغيظَ، واحتملوا المكاره

استعمل النَّظمُ الكريم عبارةَ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بدلًا من (الصّابرون)؛ لأنَّه أراد أن يُسلِّط الضَّوءَ على الأفراد الذين تجلَّت فيهم حقيقةُ الصَّبر، وأصبحت جُزءًا لا يتجزَّأ من شخصيّاتهم، هؤلاء الذين استمرّوا في كظم غيظهم، وتحمُّل المكاره بجَلَدٍ وثبات[1]، فالصَّبرُ عندهم ليس مُجرَّد صفةٍ عَرَضيَّة، بل هو فضيلةٌ راسخةٌ في نفوسهم، تنبثق من أعماق إيمانهم، وتنعكس في سلوكهم اليوميِّ.

الاستغراقُ والتَّفرُّد في صبر الذين صبروا

ويجوز أن يكونَ هذا الاستعمالُ واردًا؛ ليُؤكِّدَ عُمقَ صبرِ هؤلاء الأفراد وتفرُّدهم، وأراد بذلك أن يجعل الموصولَ دالًّا على استغراق صبرهم وتحمُّلهم[2]؛ إذ يُعبِّر عن استمرارِ هذه الفضيلةِ وثباتِها، ممّا يعكس قوَّةَ إيمانِهم وثباتَهُم في مواجهة المِحَن.

ويجوز أن يكون عدولُ السّياق الحكيم عن استعمال الاسم الظّاهر (الصّابرون) إلى الاسم الموصول وصلته: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الصَّبر خُلقٌ متأصِّل فيهم، وهو العون في معاملة المُسيء بالحُسنى، ولأنَّه أراد التَّأكيدَ على أنَّ الصَّبر سجيَّةٌ راسخة في نفوسهم، ومركوزةٌ في طباعهم[3].

سرُّ التَّعبير بـ﴿صَبَرُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

استعمل النَّظمُ الكريم مادَّةَ (الصَّبر) في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 189.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 375.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 295.

وهو تعبير عنِ احتمال ما يُؤذي في الظّاهر، لكنَّه يجلب النَّعيمَ في الباطن[1]، واختيارُ صيغةِ الفعل الماضي؛ للدَّلالة على أنَّ الصَّبر خُلُقٌ راسخ فيهم، وهو العونُ لهم في معاملة المسيء بالحسنى[2]، فالصَّبرُ ليس ردَّ فعلٍ مؤقَّت، بل هو صفةٌ متجذِّرة، وأسلوبُ حياة.

عمقُ الصَّبرِ وأثرُه الباطن في تجسيد الإيمان والثَّبات في مواجهة الأذى

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾:

ما يُلقّى ثوابُ الدَّفعِ بالأحسن إلّا مَن هو صابرٌ أو ذو حظٍّ عظيم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ متضمِّنةٌ معنى (أو)؛ إذ تشير إلى أنَّ مَن يُلْهِمُه اللّهُ تعالى دفْعَ السَّيّئة بالحسنى، لا يكون إلّا فردًا صابرًا، أو ذا حظٍّ عظيم، فالتَّحلّي بالحُلُم والتَّسامح هو منحةٌ إلَهيَّة، لا توهَب إلّا لِمَن يمتلك صبرًا جليلًا، أو حظًّا وافرًا عظيمًا[3].

تكرارُ العاطف تأكيدٌ إضافيٌّ على أهمّيَّة الصَّبر والحظِّ العظيم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ نجد أنَّ إعادة فعلِ التَّلقّي دونَ الاكتفاء بحرف العطف، يُظهر مزيدًا من الاهتمام بهذا الخبر، بحيثُ لا يختبئُ أيُّ جزءٍ من معناه الصَّريح تحت العاطف[4]، ويجوز أن تكون الواو عاطفةً تعطف جملةَ الذين اتَّصفوا بصفة الحظِّ العظيم، على جملة الذين اتَّصفوا بالصَّبر[5]، فالعلاقةُ وثيقةٌ بين الصَّبر والحظِّ العظيم، وأنَّ هذه الصِّفات السّاميَةَ ليست منفصلةً بل تتكامل في شخصيّات المؤمنين.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ دون (يَلْقاها):

إظهارُ مدى الشِّدَّةِ والمبالغة في مَنْحِ هذه الفضيلةِ العظيمة

استعمل النَّظمُ الكريم الصَّيغةَ الفعليَّة المضعَّفة ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾، بدلًا من المُجرَّدة (يلقاها)، فجعلها لاقيةً للخَصْلة التي هي مقابلةُ الإساءَةِ بأحسنِ الحَسَنِ، وهو الإحسانُ الذي يتجاوز العفوَ والصَّبرَ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11027.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 295.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 18.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 295.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 562.

والاحتمال، وهذه الصّياغةُ البليغة تُظهر مدى الشِّدَّةِ والمبالغة في منح هذه الفضيلة العظيمة[1]، الَّتي تتطلَّب جَهْدًا وإرادةً قويَّةً لاحتضانها والتَّمسُّك بها في مواجهة التَّحدّيات والإساءات.

مدحُ الصّابرين ووعدُ أصحابِ الحَظِّ العظيم

سرُّ تكرار جملة: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾:

لَمّا بيَّن تعالى أنَّ هذه الفضيلةَ العظيمة لا يُلقّاها إلّا مَن تَحلّى بالصَّبر، واحتمل المكاره؛ أعاد ذِكْرَ جملة: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ مشفوعةً بوصف: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ ليؤكِّدَ عَظَمَةَ هذه المنزلةِ، الَّتي ترتقي بصاحبها إلى أعلى مراتب الأخلاق، فكان قولُه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ مدحًا للصَّبر، وثناءً على أهله، وقولُه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وعْدًا بأعظم الجزاء، وأجَلِّ الثَّواب لِمَن كان له نصيب وافرٌ من الصَّبر والتَّحمُّل[2].

تعظيمُ الفضيلة، وتأكيدُ مراتبِ أصحابها واستقلالِ كلٍّ منهم

فائدة تكرار حرف النَّفي مع الفعل ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾:

التَّكرار في نفي تلقّي هذه الفضيلة: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ للدَّلالة على تعظيم شأنها، وإظهارِ زيادةِ أهمّيَّتها، وهذا التَّكرارُ يعكس أيضًا أنَّ أصحاب هذه الخصلة العظيمة هم على مرتبَتَين، وكلُّ واحدةٍ منهما لها مقصود بنفسه[3]، الأولى: هي مرتبة الصَّبر التي تُعَدُّ أساسًا لهذه الفضيلة، والأُخرى: هي مرتبة الحظِّ العظيم التي تعكس أعلى درجات التَّوفيق والجزاء.

دعوةٌ مستمرَّةٌ لتحقيق الفضيلة والسَّعي نحو الإحسان

دلالة المضارع ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ في الموضعَيْن:

جيء بـ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ بصيغة المضارع في الموضعين؛ إشارةً إلى أنَّ المأمور بالدَّفع مأمور أيضًا بتحصيل هذا الخُلُق الكريم في المستقبل[4]، وهو دعوة مستمرَّة ومتجدِّدة للعمل بها في كلِّ وقت،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 189.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 565.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 189.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 295.

فيستمرُّ الإنسانُ في السَّعي لتحقيق هذا الخُلُقِ النَّبيل، والتَّأمُّلِ في كيفيَّة دفع الإساءة بالحسنى كأمرٍ مستقبليٍّ يتطلَّب اجتهادًا دائمًا.

سرُّ التَّعبير بـ﴿ذُو﴾ دونَ (صاحب):

الحَظُّ العظيمُ ليس محضَ صفةٍ عارضة، بل سجيَّةٌ ومَلَكَة راسخة في صاحبها

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظ ﴿ذُو﴾، ولم يعبِّر بـ(صاحب)؛ ليدلَّ ذلك على أنَّ الحظَّ العظيم من الخير ليس محضَ صفةٍ عارضة، بل هو سجيَّةٌ ومَلَكة راسخة في صاحبها[1]، فإضافةُ هذا اللَّفظ إلى الحظِّ العظيم تحقيقٌ بأنَّ هذا الحظَّ جُزءٌ لا يتجزَّأ من شخصيَّته، وأنَّه متأصِّل في طبعه وكيانه.

إضفاءُ المكانة الرَّفيعة والمبلغِ السّامي على الموصوف بأنَّه ذو الحظِّ العظيم

واستُعمِل لفظُ ﴿ذُو﴾؛ لأنَّه أشرفُ وأبلغ في الثَّناء والمقصد من (صاحب)، فلفظُ ﴿ذُو﴾ يُضاف إلى التّابع، كما في قولنا: (ذو النّون)، أمّا (صاحب)؛ فيُضاف إلى المتبوع، كما في قولنا: (صاحب الحوت)، والتّابعُ أرفعُ وأسمى من المتبوع[2]، ممّا يُضفي على الموصوف باقترانه بالحظِّ العظيم مكانةً رفيعة، ومبلغًا ساميًا لا يحظى به كلُّ أحد.

سرُّ اختلافِ التَّعبير في قوله: ﴿إِلَّا ذُو﴾ عن سابقتها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾:

المرتبةُ السّامية من دفع السَّيِّئة بالأحسن مقصورةٌ على قِلَّة مختارة من خَلْقِه

اختلف التَّعبيرُ في النَّظم الكريم، فورد أوَّلًا بصيغة الجمع في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، ثمَّ تحوَّل إلى صيغة الإفراد في قوله: ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾، في إشارة بليغة إلى قلَّةِ مَن يستقيم على هذه الخصلة الرَّفيعة ونُدْرته[3]، فصيغةُ الإفراد تُظهر أنَّ بلوغ هذه المرتبة السّامية من الإحسان ليس بالأمر اليسير، بل هو مقصورٌ على قلَّةٍ مختارة ممَّن تميَّزوا بحظٍّ عظيم من التَّوفيق والفضل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 295.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 17/ 87، و24/ 47.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 189.

سرُّ التَّعبير بـ﴿حَظٍّ﴾ منكَّرًا دونَ نصيب:

هو الثَّواب العظيم، أو هو الجنَّة، ولا أعظمَ حظًّا من الجنَّة

اختيرَ لفظُ (الحظِّ) في قوله تعالى: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ بدلًا من (النَّصيب)؛ إشارةً إلى الحظِّ الكبير المترتِّب على الثَّواب العظيم، أو ما يمثِّله من نعيم الجنَّة[1]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة التَّنكير لتعظيم هذا الحظِّ، وإبرازِ جلالِه، وهو ما أكَّدَهُ وصْفُه بالعظيم، ممّا يوحي بأنَّه حظٌّ لا يُضاهيه أيُّ حظٍّ آخر، والحظُّ يُطلق على النَّصيب عمومًا، لكنَّه يُستعمل غالبًا للدَّلالة على النَّصيب من الخير على وجه الخصوص، وهو المعنى المقصود هنا، ويتَّضح ذلك إمّا من خلال السّياق الذي يقتضي الخيرَ والجزاء، أو مِن خلال دلالة اللَّفظ ذاتِه، التي تُشير إلى ما هو محمود ومطلوب[2].

دلالةُ وصف ﴿حَظٍّ﴾ بـ﴿عَظِيمٍ﴾ منكَّرًا دون (كبير):

مَنْ كان حظُّه الجنَّة فلا أعظمَ ولا أفخمَ من ذلك

لَمّا ذَكَر الحظَّ بقوله تعالى: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ وصَفَهُ بالعظيم مُنكَّرًا، ولم يَقل: (كبير)؛ لأنَّ (العظيم) يحمل في طيّاته دلالةً أسمى وأعمق، تُشير إلى الجنَّة وما فيها من النَّعيم المقيم[3]، وجاء التَّنكيرُ هنا؛ ليُضفي على هذا الحظِّ مزيدًا من التَّعظيم والتَّفخيم؛ إذ لا حظَّ أعظمُ من الجنَّة ونعيمِها الأبديِّ.

دلالةُ ذِكْر ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ بعد الصَّبر في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾:

في الصَّبر والحَظِّ العظيم تكاملُ الفضائل؛ لتحقيق دفعِ السَّيّئة بالحُسْنى

لذكر ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ بعد الصَّبر في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ دلالةٌ؛ فإنَّ التَّحلّي بالصَّبر يُعدُّ شرطًا أساسيًّا لامتلاك فضيلة دفعِ السَّيِّئة بالحُسنى، غيرَ أنَّ الصَّبر ليس الشَّرطَ الوحيدَ لتحقيق هذه الفضيلة؛ بل وراءَه شروطٌ أخرى تتكامل لتشكِّلَ ما عَبَّر عنه النَّصُّ بالحظِّ العظيم، وهذا الحظُّ العظيم يشمل مجموعةً من الأخلاق

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 200.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 295.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 472، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 14.

الفاضلة التي لا ينفكُّ الصَّبرُ عن كونها جُزءًا منها، لكنَّه - أي: الحظُّ العظيم - في الوقت نفسه أوسعُ وأشمل من مجرَّد الصَّبر[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾:

ثبوتُ قِسْمِ السَّعادة له عَطاء من الله مُقدَّرًا أزلًا

جاء اختيارُ الجملةِ الاسميَّة في قوله: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ للتَّعبير بالوصف الثّابت له، دونَ أن يكون للأسباب شأنٌ فيه، فهو القَدَرُ الأعلى الذي اختير له اصطفاءً من اللّه، فهو ثابتٌ له ثبوتَ الانتجابِ للانتخاب، وأُجريَ له إثرَ مواقفَ في كظمِ الغيظ والعفو عن النّاس والصَّبر، ومقابلةِ السَّيّئة بالَّتي هي أحسن، وذلك متربِّعٌ على عرش الحلْم والرِّفق، على حدِّ ما جاء في الإرشاد النَّبويِّ المُطهَّر: «اعملوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له»[2]، فكان ما نزعوا إليه من العمل مُعلمًا برفيع رتبتِهم وثبوتِ مزيَّتِهم، وأنَّهم مختارون انتقاءً لنيل هذا الحظِّ البالغ في العَظَمة أوجَ الاستقصاء.

حاصلُ دلالةِ الجُملتَين:

الصَّبر مفتاح الحظِّ العظيم في ترابط الفضائل وعُلوِّ المراتب

حاصل الجُملتين الكريمتين من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يتلخَّص في بيان أنَّ كلَّ مَن يتحلّى بالصَّبر هو المُؤهَّل لنيل هذه الفضيلة، وكلَّ مَن ينالها فهو بلا شَكٍّ ذو حظٍّ عظيم[3]، ومن هذا التَّرابط المنطقيِّ ينشأ المعنى البديع: أنَّ كلَّ صابر هو ذو حظٍّ عظيم، وهذه النَّتيجة تتوِّج صاحبَها بأرفع درجات الكمال الأخلاقيِّ، وجليل الثَّواب الرَّبّانيِّ، ويجوز أن يكون حاصل الجُملتين أنَّ مَن يوفَّق لنَيْل هذه الفضيلة العظيمة - التي هي دفع السَّيّئة بالحُسنى - ليس إلّا مَن تحلَّى بالصَّبر، وامتلك حظًّا عظيمًا من الأخلاق والفضائل، فهي ليست أمرًا هيِّنًا يدركه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 295.

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (1362)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2647).

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 375.

الجميع[1]، بل هي خصلةٌ لا يُلقّاها إلّا مَن كان أهلًا لها ممَّن تميَّز بالثَّبات والصَّبر.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الحَظُّ والنَّصيب:

النَّصيب يحصل في المحبوب والمكروه؛ لذلك يُعبَّر بالقول: وفّاه اللّهُ نصيبَه من النَّعيم أو من العذاب، ولا يُعبَّر بالحظِّ؛ لأنَّ أصل الحظِّ هو ما يمنحه المولى سبحانه لعبده من الخير، فالحظُّ يَرِد على جهة المدح، فيُقال: لفلان حظٌّ، وهو محظوظ[2]، والحظُّ يُشير إلى ما يمنحه اللّهُ تعالى لعبده من النِّعمة والرِّزق، وهو مرتبطٌ بالفضل الإلهيِّ والكرم الرَّبّانيِّ، أمّا (النَّصيب)؛ فيُشير إلى المقسوم والمُقَدَّر، وقد يكون خيرًا أو يكون شرًّا، فيليق أن يوصفَ من نال نعيمَ الجنَّة بأنَّه ذو حَظٍّ موصوفٍ بأنّه عظيم.

النَّصيبُ يحتمل المحبوبَ والمكروه، والحَظُّ ما يمنحه اللهُ تعالى من خير ورزق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 296.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 540، 541.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فُصّلت: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الاستعاذةُ من شرِّ الشَّيطان ونَزْغِه تتميمٌ لما كان من صفات المؤمنين

بعد أن بيَّن المولى سبحانه ما يفعله رفقاءُ السّوء من جَذْب النّاس نحو المعاصي؛ انتقل إلى وصف حال أضدادهم الذين يوجِّهون النّاسَ نحو توحيد اللّه وطاعته، فكشف اللّهُ عن آدابهم الرَّفيعة، وأوصافِهم الحميدة؛ إذ يتَّسمون بمقابلة السَّيِّئة بالحسنة، ويَلْجؤون إليه تعالى طالبين الحمايةَ من شرِّ الشَّيطان ونَزْغِه، ويستعينون به؛ لِيَثْبُتوا على أحكام ربِّهم الشَّرعيَّة، عندما يحاول الشَّيطانُ صرْفَهم عن سبيل اللّه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: (نزغ) أصلٌ يدُلُّ على إفسادٍ بين اثنين، ونزَغَ بين القوم: أفسَدَ ذاتَ بينِهم[2]، والنَّزْغُ: الكَلامُ الَّذي يُغْري بَيْنَ النّاسِ، ونَزَغَه: حَرَّكه أدنى حَرَكَةٍ، ونزَغَ الشَّيطانُ بينَهم ينزَغُ ويَنزِغُ نَزْغًا، أي: أفسد، وأغرى، ونَزْغُ الشَّيطانِ: وساوِسُه ونَخْسُه في القَلْبِ بما يُسَوِّلُ للإنسان من المعاصي[3]، والمُراد به هنا: وسْوَسَةُ الشَّيطان وكيدُه للإنسان، ويجوز أن يكونَ المُرادُ بالنَّزْغِ هنا: النّازِغُ - وهو الشَّيطانُ - وُصِفَ بالمصدر للمُبالغة[4].

2) ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾: (عوذ) أصلٌ يدُلُّ على الالتِجاءِ إلى غَيْرِه والاعتِصام به، ثمَّ يُحْمَلُ عليه كلُّ شيءٍ لَصِقَ بشيءٍ، أو لازَمَه، قال

---

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 228.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزغ).
(3) ابن سيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفّاظ: (نزغ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 297.

الخليلُ: تقولُ أعوذُ باللّه؛ أي: ألجأُ إليه، عوذًا أو عياذًا، وذَكَرَ أيضًا أنَّهُم يَقولونَ: فُلانٌ عياذٌ لَكَ، أي: مَلجَأٌ[1]، وضدُّ العَوْذِ: اللَّوْذُ، وهو طَلَبُ الخيرِ[2]، والمقصودُ بالعَوْذِ في الآية: اللَّجَأُ إلى ما يَعْصِمُ، ويَقي مِن أمْرٍ مُضِرٍّ، والمُراد به: طَلَبُ العَوْذ بِاللّه مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُرشِدُ اللّهُ سبحانه عبادَه إلى ما يَعصِمُهم مِن الشَّيطانِ، فيقولُ: وإنْ وجَدْتَ مِنَ الشَّيطانِ وسوَسةً في نَفْسِك - يا مُحمَّدُ - ليُفسِدَ بينَك وبينَ غَيرِك، فيُغريَكَ بعَداوتِه، والإساءةِ إليه والانتِقامِ منه؛ فالتَجِئْ إلى اللّه سبحانه، واطلُبْ منه أن يَعصِمَك منه، ويَحفَظَك مِن كَيدِه وشَرِّه، فإنَّ اللّهَ تعالى الَّذي تَستعيذُ به مِن نَزْغِ الشَّيطانِ، هو السَّميعُ لكُلِّ قَولٍ، ومِن ذلك استِعاذتُك به؛ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُلقيه الشَّيطانُ في نَفْسِك، فلا يَخفَى عليه كَيدُ عَدوِّك، وهو يَتولَّى أمْرَه وجَزاءَه، فكلَّما ازداد العَبدُ في تبَرِّيه مِن حَولِه وقوَّتِه، وأخلَصَ بينَ يَدَي اللّهِ بتضَرُّعِه واستِعانتِه واستِعاذتِه؛ زاد اللّهُ في حِفظِه، ودَفَع الشَّيطانَ عنه[4].

لا يتخلَّصُ العبدُ مِن نَزَغاتِ الشَّيطانِ إلَّا بصِدقِ الاستِعانةِ وصِدقِ الاستغاثةِ

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ معطوفٌ على جملة: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، فبعدَ أن أرشدَنا تعالى إلى ما يُعين على تحصيل هذا الخُلُق العظيم من دفع السَّيِّئة بالحسنة، وبيَّنَ فائدةَ العملِ به في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ

نَزَغاتُ الشَّيطانِ العقبةُ الكبرى أمامَ فضيلةِ دَفْعِ السَّيِّئةِ بالحُسْنى

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 275.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 435، والقشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 332، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 181، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.

وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾؛ جاء ليَصرفَ العنانَ نحوَ التَّحذيرِ من العوائق التي قد تعترض هذه الفضيلةَ، والَّتي تتعدَّد، وتتكاثر في صورة نزغات الشَّيطان[1]، التي تزرع في النُّفوس أحقادًا، وتُفسِد ما تستشرفه القلوبُ من معاملة حسنة.

سِرُّ التَّعبير بـ(إمّا) دونَ غيرها:

فَرْضُ المُحالِ في نَـزْغِ الشَّيطانِ النَّبيَّ ﷺ رفعًا لمقامه

(إمّا) في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ مُركَّبةٌ من (إن) الشَّرطيَّة، و(ما) الصِّلةِ الدّالَّةِ على التَّوكيد[2]؛ لربطِ الشَّرط بجوابه لا لتحقيق الشَّرط؛ لذلك كُتبت مُدمجةً على هذه الصّورة غيرَ مفصولةٍ، وفي إدغام (إن) الشَّرطيَّة في (ما) دلالةٌ على توكيد الشَّرط ليُؤكِّد ما بعدها، والمعنى: أنَّ الشَّيطان إنِ اجتهد بشدَّة وقوَّة في محاولة النَّزغ والإغواء - وهو مصدر هذه الوسوسة[3] - فإنَّما هو اختبار لطبيعة النَّفس البشريَّة وصمودها أمام ذلك التَّحدّي، وجاء الشَّرطُ مع (إن) المُؤذِنة بعدم الجزم بوقوع الشَّرط؛ ترفيعًا لقدر النَّبيِّ ﷺ ، فنَزْغُ الشَّيطانِ للنَّبيِّ ﷺ لا يُحتمل وقوعُه إلّا فَرَضًا، كفرض المُحال[4]، فالحقُّ سبحانه يرفع شأن نبيِّه عن أن يقع في قلبه أيُّ نَزْغٍ أو وسْوَسةٍ، وقدِ اختيرت أداةُ الشَّكِّ (إن)؛ للإشارة إلى طبيعة الإنسان بوصفه مخلوقًا ضعيفًا في مواجهة نَزَغات الشَّيطان، مع توضيح أنَّ الشَّيطان رغمَ علمِه بعصمة النَّبيِّ ﷺ ، يظلُّ متوهِّمًا قدرتَه على التَّأثير فيه، مُتعلِّقًا بآماله الواهية، ولذا جاء هذا التَّعبير مؤكَّدًا؛ ليبرزَ عظمةَ مقام النَّبيِّ ﷺ ، وليُظهِر كيف أنَّ نزْغَ الشَّيطان له لا يعدو كونَه محلًّا للإنكار والرَّفض المُطلق[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 296.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 165.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/ 3044.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 229، 4/ 297.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 189.

سرُّ التَّعبير بالنَّزغ دون المَسّ في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾:

النَّزْغُ أشدُّ وأعمقُ من المَسِّ؛ لأنَّ المسَّ يدلُّ على الوسوسة أو مَبْدَئها

استُعمِل فعلُ (النَّزغ) في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ الذي يَحمل في معناه النَّخسَ والغَرْزَ، وذلك بأن تُمسكَ بشيء، وتضعَ طرفَه في جسد الآخر[1]، وهو كذلك إدخالُ شيءٍ في شيء بقَصْد إفساده، وهو معنًى يقترب من (الفسخ) بالسّين، الذي يُشير إلى الغَرْز بإبرة، أو ما شابهها للوَشْم[2]، ولم يُستعمل (المَسُّ) بدلًا منه؛ لأنَّ المَسَّ يدلُّ على الوسوسة أو بدايتها[3]، في حين أنَّ النَّزغ يُعبِّر عن تأثيرٍ أشدَّ وأعمقَ من المَسِّ، وإن كانت جميعُ هذه المعاني تأتي في إطار المجاز، ولَمّا كان الخطاب موجَّهًا إلى الرَّسول ﷺ على رأي كثير من المُفسِّرين[4]؛ فقد عُبِّر بالنَّزغ المفتَرض بدلالة (إن) الدّالَّة على الشَّكِّ وانتفاءِ الوقوع لعصمته ﷺ، ولم يُعبَّر بالمَسِّ الواقع فعلًا، فقد ثبت أنَّ المُتَّقين المؤمنين قد يَمَسُّهم طائفٌ من الشَّيطان[5] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾:

محاولاتُ الشَّيطان الدَّؤوبة في النَّزغ، تتطلَّب الالتجاءَ الدّائمَ إلى الحقِّ سبحانه

التَّعبيرُ بالنَّزغ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾، يُفيض دلالةً على التَّجدُّد والاستمرار، مُشيرًا إلى أنَّ نزغات الشَّيطانِ ليست حادثةً عابرةً، بل هي محاولاتٌ دؤوبة ومتكرِّرة، ففي أيِّ لحظةٍ شعرتَ بشيء من تلك النَّزغات، سواء أكانت وساوسَ خفيَّةً، أم تزيينًا للشَّرِّ، أم تثبيطًا عن الخير، أو حتّى استجابةً عارضةً لبعض

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/ 4535.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 229.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/ 427.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 436، والخازن، لباب التّأويل: 2/ 285، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 723، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/ 548، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/ 298.
(5) رضا، تفسير المنار: 7/ 427.

الإغواءات[1]، فإنَّ المُلتجأ هو اللّه؛ إذ هو وحدَه القادرُ على صَرْف الشَّرِّ، وحمايةِ النَّفسِ من آثاره.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾:

تحذيرٌ من اعتراء الغضب، وتنفيرٌ من الشَّيطان

يجوز أن يُقصَد بنزغ الشَّيطان اعتراءُ الغضبِ على سبيل الاستعارة، كما ورد عن الصِّدّيق رضي الله عنه قولُه: "وإنَّ لي شَيْطانًا يَعْتَرِيني"[2]، وفي ذلك إيغالٌ في التَّنفير من الشَّيطان، وتحذيرٌ بالغٌ منَ الانسياق وراءَ تأثيراتِه، والعملِ بمقتضى وساوسِه[3]، ممّا يُبيِّن جَسامةَ الخطرِ الكامنِ في لحظات الغضب والانفعال.

عمقُ التَّأثير الخفيِّ، وتجسيدُ الوسوسة في أبهى صور البيان القرآنيِّ

وإطلاقُ النَّزغِ في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ على وسوسة الشَّيطان هو من أرقى صورِ الاستعارة البيانيَّة؛ إذ شُبِّه حدوثُ الوسوسةِ الشَّيطانيَّة في النَّفس بنزغ الإبرة، أو نحوها في الجسد، بجامع التَّأثير الخفيِّ الذي لا يُرى، ولكن يُشعر به، وقد أضفى القرآنُ الكريم على هذه الاستعارة رُقيًّا وعُمقًا، حتّى شاعت بعد نزولِه، وأصبحت كأنَّها حقيقةٌ في وصف أثَرِ الوَسْوَسة وأبعادِها[4].

سرُّ تأكيدِ الفعل ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ بنون التَّوكيد:

تصويرُ عظَمةِ تأثيرِ النَّزغِ الشَّيطانيِّ

جاءت النّونُ في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ للتَّأكيد البليغ[5]؛ إذ تُضفي على الفعل معنى القوَّةِ والعظَمة، فيُصبح المقصودُ: أنَّ الشَّيطان ينخسكَ نخسًا بالغًا عظيمًا[6]، يتجاوز النَّخسَ العابرَ إلى أثرٍ عميق ومُؤثِّر.

دلالةُ كافِ الخطاب في ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾:

خطابُ الخصوصيَّة ورسالةُ العموم توجيهٌ إلهيٌّ له ﷺ وللأُمَّة

الكاف في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ مُرادٌ به النَّبيُّ ﷺ،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.
(2) أخرجه عبد الرّزاق في مصنفه، برقم: (21776).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 308.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 229، 230.
(5) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 43.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/ 204.

والمعنى: "وإمّا ينزغنَّك، ويَعرِضَنَّ لك يا أكملَ الرُّسل"[1]، ومع خصوصيَّة الخطاب له، فإنَّه يحمل في طيّاته توجيهًا عامًّا لكلِّ المكلَّفين؛ إذ إنَّ الاستعاذة باللّه تعالى - بالكيفيَّة التي أُشيرَ إليها في هذا السّياق العظيم - تُعدُّ لُطفًا إلهيًّا عظيمًا، يَحجبُ تأثيرَ وساوسِ الشَّيطان[2]، ويُحصِّنُ النَّفسَ من أن تنساق وراءَ نَزَغاتِه؛ لتبقى صافيةً مستقيمةً على نهج الحقِّ.

الاهتمامُ بالتَّوجيه الإلهيِّ للنَّبيِّ ﷺ في مواجهة نزغ الشَّيطان

دلالةُ تقديم المفعول (كاف الخطاب) على الفاعل ﴿نَزۡغٌ﴾:

قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ فعلٌ مضارع، ومفعولُه الكاف، وفاعلُه متأخِّرٌ عنه، وهو ﴿نَزۡغٌ﴾[3]، وفي تقديم المفعول في الجملة لفتُ الأنظارِ إلى الاهتمام البالغ بمَنْ يقع عليه النَّزغُ، ويُظهر التَّوجيهَ الإلهيَّ للنَّبيِّ ﷺ في مواجهة نزغات الشَّيطان.

النَّزغُ مصدرُه الشَّيطانُ لا غيرُه؛ حثًّا على التَّفرُّغ لمقاومته

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

تقدُّمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ الواقع حالًا مُقدَّمًا[4]؛ لتوكيد أنَّ النَّزغ لا يكون إلّا من الشَّيطان وحدَه؛ ليَحُثَّ على مقاومته والاستعانةِ بكلِّ وسيلةٍ لدَفْع شَرِّه الدّائم الذي يُفسِد ما بين النّاس[5].

نَزغُ الشَّيطانِ في تصويرٍ بيانيٍّ يكشفُ مصدرَه، ويُحذِّرُ من أثره

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ بيانيَّةٌ؛ إذِ انتُزِعَ من الشَّيطان كيانٌ آخرُ يُسمّى نازغًا، أو جُرِّدَ منه وصفُه الخاصُّ الذي يتمثَّل في تسويله، فصار ذلك الوصفُ ذاتُه نازغًا[6]، وهو تصويرٌ يبيِّن دِقَّةَ الإشارةِ إلى مصدر النَّزغ، وتفصيلُ ماهيَّتِه بما يُثير في

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 279.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 436.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/ 694.
(4) الإيجيّ، جامع البيان: 4/ 46.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/ 3044.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 609.

النَّفس إحساسًا بالتَّحذير والتَّبصُّر، ويجوز في ﴿مِنَ﴾ أن تكون لابتداء الغاية المكانيَّة(1)؛ لتشيرَ إلى أنَّ المعنى: إمّا ينزغنَّك نَزْغٌ صادرٌ من جهة الشَّيطان، يصرفُكَ عن التَّمسُّك بما أوصيتَ به من دَفْعِ السَّيّئة بالحسنى، ويغريك بالسَّير في طريق مخالف لها.

سرُّ التَّعبير بالشَّيطان دون إبليس:

النَّــزْغُ هـو وسْـوَسـةُ شياطينِ الإنس والجِنِّ وسواهم

استُعمل لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ولم يُستعمَل لفظ (إبليس)؛ لأنَّ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ اسمُ جنس، ومِن ثَمَّ فـ"كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ من الجِنِّ والإنس والدَّوابِّ شيطانٌ"(2)، والنَّزغُ قد يأتي من وسْوَسة أيِّ شيطانٍ، جِنًّا كان أو إنسًا، أو غيرَ ذلك، فاللَّفظُ اسمُ جنسٍ يَصدقُ في الواحد والجمع، والمُراد به هنا: المُتعدِّد، وليس مُقتصرًا على إبليس الذي هو اسمُ عَلَم خاصٍّ، إن ظهر في تسميته الإبلاسُ من رحمة اللّٰه، فلم يظهر في تسميته صفةُ الشَّيطَنة.

بلاغةُ إسنادِ ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ إلى المصدر ﴿نَزۡغٌ﴾ دونَ الشَّيطان:

بـلاغـةُ المجـازِ العقليِّ في إسناد النَّزغ، وجَعْلِه بمنزلة الفاعل مبالغةً

أُسْنِد النَّزغُ في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ إلى المصدر ﴿نَزۡغٌ﴾ بدلًا من الشَّيطان نفسه، كما ورد في بعض المواضع؛ ليجعل النَّزغَ ذاتَه، وكأنَّه فاعلٌ للمبالغة في صورة من المجاز العقليِّ، كتعبيرهم: (جدَّ جدُّه)، فإن حاول الشَّيطانُ صَرْفَكَ عمّا أوصيتَ به من الدَّفع بالتي هي أحسن؛ فالجأ إلى اللّٰه، واستعذْ به من شرِّه، وامضِ في طريقك بثبات، مُتجاوزًا تأثيرَه، دونَ أن تُطيعَه، أو تلتفتَ إلى وساوسه(3).

بلاغةُ جناسِ الاشتقاق في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ ﴿نَزۡغٌ﴾:

تـنـاغـمٌ لـغـويٌّ يُعمِّق الدَّلالة، ويُـحـذِّرُ مـن تأثير وساوسِ الشَّيطان

استُعمل الجَذْرُ اللُّغويُّ ﴿نَزۡغٌ﴾ في الفعل والفاعل في قوله تعالى: ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾، وهو ما يُدعى بجِناس الاشتقاق، وهو

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 165، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 297.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 90.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 200، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 297.

من فنون البديع، "فإنَّك لا تستحْسِن تجانسَ اللَّفظتَين إلّا إذا كان وقْعُ معنَييهما من العقل موقعًا حميدًا"[1]، وفيه تكرارٌ يُعزِّز المعنى، ويخلقُ تناغمًا في الصّياغة، ممّا يُعمِّق الدَّلالة على تأثير النَّزغ المتكرِّر من الشَّيطان، ويُكْسِب الجملةَ مسحةً تأكيديَّةً، ويُضيف للآية إيقاعًا لغويًّا جميلًا.

دلالةُ المجاز في فعل النَّزغ:

بين الإغواءِ والعجلةِ في تأثيراتِ الشَّيطان على النَّفس الإنسانيَّة

النَّزغُ هنا لا يُقصَد به المعنى الحرفيُّ الذي يُتَصَوَّر فيه الشَّيطانُ ينخس الإنسانَ بِعَصًا أو ما شابه، بل هو واردٌ على سبيل المجاز، فالمعنى المقصود هنا: هو أنَّ الشَّيطان يَستخفُّ الإنسانَ، ويُؤثِّرُ فيه بِخِفَّةٍ وعَجَلَةٍ، فيدفعُه إلى العَجَلة والغضب، ويتسلَّل إلى نفسه بإفسادها وتحميله على غيره[2]، وبذلك يتبيَّن أنَّ للنَّزغ في اللُّغة عدَّةَ معانٍ مجازيَّة، أحدها: الغضب، والثّاني: الوَسْوَسة وحديثُ النَّفس، والثّالث: النَّخْس، والرّابع: الفتنة، والخامس: الهمزات[3].

فائدة مجيء النَّزغِ مُنكَّرًا:

إن أصابك أدنى نزغٍ؛ فالتجِئ إلى المولى سبحانه

لمجيء النَّزغِ منكَّرًا في الجملة فائدةٌ، وهو أنَّ أصغر حركةٍ من الشَّيطان يمكن أن تصيبَكَ، فتكون الوسوسةُ أدنى ما يمكن أن يعرضَ لك من تأثيراته[4]، فيظهر كيف أنَّ أقلَّ نزغٍ من الشَّيطان يمكن أن يزعزعَ النَّفسَ، ويُثيرَ الشُّكوك، فعليك عندئذٍ الالتجاء إلى المولى سبحانه.

سرُّ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾:

مبادرةُ الاستعاذةِ هي دَرْبُ الوقايةِ من نَزَغات الشَّيطان وآفاتِ النَّفس

مجيءُ الفاءِ مع فعل الاستعاذة بقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾؛ للدَّلالة على المباشرة والتَّعقيب[5]، كأنَّما هي دعوةٌ حثيثة للمسارعة

(1) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 16.
(2) معمر بن المثنى، مجاز القرآن: 1/ 236.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 183.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/ 396.
(5) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 165.

إلى الاستعاذة باللّه عند أوَّل بادرة نزغ، فما إن يطرأ هاجسٌ على القلب إلّا وجَبَ أن يبادر المؤمن بتوجيه قلبِه إلى المولى سبحانه؛ ليقطعَ الطَّريقَ على تلك الوساوس التي إن لم تُقاوَم في مَهْدِها؛ تتحوَّل إلى فِكْرة، ثمَّ عزيمةٍ ففِعْلٍ، وإذا لم يتداركْها بسُرعة؛ تبدأ الزَّلَّةُ، ثمَّ تزداد سوءًا، وفي النِّهاية قد يفضي الاستمرارُ في هذا التَّهاونِ إلى الفِسْق، ومع مرور الوقت يُصبِحُ مُعرَّضًا لخطر شتى الآفاتِ التي تُؤثِّر على قلبه وعقله[1].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بقوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ دون (استعن):

الاعتصام الكاملُ والتَّوكُّلُ الحقيقيُّ في مواجهة شرِّ الشَّيطان

وُظِّفَ فعلُ الاستعاذةِ دونَ الاستعانة في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾؛ ليحملَ معنًى أسمى؛ إذ يُفهَم من الاستعاذة الاعتصامُ باللّه واللُّجوءُ إليه حمايةً من شرِّ الشَّيطان[2]، في حين أنَّ الاستعانة لا توازي هذا المعنى، بل تتوجَّهُ نحوَ طلبِ العَونِ فقط، بينما في الاستعاذة تكمُنُ القوَّةُ الحقيقيَّة في التَّوكُّل، والاحتماءُ الكاملُ باللّه وحدَه.

فائدةُ تعليم الاستعاذة عند نزغ الشَّيطان:

تجديدُ العصمةِ، وصقلِ النَّفس، والحمايةِ من وساوس الشَّيطان

تكمن فائدةُ الاستعاذةِ في تجديد عصمة النَّبيِّ ﷺ؛ إذ تكون الاستعاذةُ باللّه من الشَّيطان بمنزلة استمدادٍ للعِصْمة، وصقلٍ للنَّفس من أيِّ كَدَرٍ قد يلامسُها؛ إذ تحصِّنُ النَّفسَ، وتُبقيها في مأمنٍ من التَّأثيرات السَّلبيَّة التي قد تطرأ عليها، وإنَّ هذا الاتِّصالَ المباشرَ بين النَّبيِّ ﷺ وربِّه يحمل سرًّا عميقًا؛ إذ من خلاله تظلُّ نفسُ النَّبيِّ ﷺ طاهرةً بعيدةً عن أيِّ تلوُّثٍ، ويشارك في هذا الفضلِ المؤمنون الصّالحون الذين يسيرون على خطاه[3].

معنى فعل الاستعاذة:

معنى فعلِ الاستعاذة يكمن في مباشرة الأسباب التي بها يُدْفَع

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 332.
(2) الحداد، تفسير الحداد: 5/ 432.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 296.

مباشرةُ الأسباب التي بها يُدْفَعُ نـزغُ الشَّيطانِ ووساوسُهُ

نزغُ الشَّيطانِ ووساوسُه، فهي أمرٌ بالإقبال على ما يُهيِّئ الإنسانَ لدَفْعها، لا مجرَّدَ التَّلفُّظِ بها دونَ عملٍ، مثلُها في ذلك مِثْلُ الاستغفار، فهو ليس قولًا باللِّسان فحسب، بل دعوةٌ لمباشرة الأعمال والأسبابِ التي تقتضي حصولَ المغفرةِ، فكذلك الاستعاذةُ[1].

معنى السّين والتّاءِ في فعل الاستعاذة:

اسْتَجِر بالمَلِكِ الأعلى، واطلب منه الدُّخولَ في حمايته من شرِّ الشَّيطان

من معاني السّين والتّاء في صيغة (استَفعِل) الدَّلالةُ على السُّؤال والطَّلب[2]، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾: اطلُب مِنَ المَلِك الأعلى أن يُجيرَكَ، وتوجَّه إليه سائلًا الدُّخولَ في عصمته وحمايته، وجاء الأمرُ بهذه الصّيغة ليحملَ معنى المبادرةِ العاجلة إلى الاحتماء باللّه تعالى، عند تعرُّض الإنسان لنَزْغه؛ فليس لأحدٍ القدرةُ على إعاذَتِكَ من شرِّ الشَّيطان سوى اللّهِ سبحانه[3].

دلالةُ التَّعبير بالباء في قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾:

الاستعانةُ بالله والالتجاءُ إليه بالدُّعاء

الباء في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ دالَّةٌ على الاستعانة، فجاء الأمرُ الإلهيُّ بدفع وسوسةِ الشَّيطان بالالتجاء إليه سبحانه، والعَوْذُ باللّه، يعني: اللُّجوءَ إليه بالدُّعاء؛ طلبًا للعصمة، أو استحضارًا لما حدَّده سبحانه من حدود الشَّريعة[4]، ففيه استمدادٌ للقوَّة والحماية من اللّه وحدَه؛ إذ إنَّ الاستعانة به تجمعُ بين الدُّعاء والعملِ بما رسمه من منهج يُحصِّن النَّفسَ؛ ليظلَّ العبدُ في مأمن من نزغات الشَّيطان وكيده، واستُعمِل اسمُ الجلالةِ الدّالِّ على الذّات الإلهيَّة؛ لأنَّه يحمل في طيّاته دلالاتِ العَظَمَة والجلال والكمال المُطلق، ويؤكِّد أنَّه لا وليَّ ولا ناصر إلّا اللّه سبحانه[5]، كما أنَّه يعكس الحاجةَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 82، 83.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 47.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 190.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 230.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/ 204.

إلى القوَّة القاهرة والعِزَّة المطلقة، والحمايةِ الكاملة التي تتطلَّبها مواجهةُ وساوسِ الشَّيطان وكَيدِه.

دلالةُ وُرودِ فعلِ الاستعاذة بصيغة الأمر:

النَّزغُ الشَّيطانيُّ من الغوائل الصَّعبة، فلا يُتخلَّص من مضرَّتها إلّا بالالتجاء إلى الله

أورد فعلُ الاستعاذةِ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ مَزيدًا بصيغة الأمر؛ ليُضفيَ على الموقف رهبةً، ويُضخِّمَ من شأنه، مُشيرًا إلى أنَّ النَّزغ الشَّيطانيَّ يُعدُّ من الآفات العظيمة التي لا سبيل إلى النَّجاة من أذاها إلّا باللُّجوء إلى حِرز عصمة اللّه تعالى، حيثُ الأمانُ المُطلق، والحمايةُ التّامَّة[1]، كما أنَّ استعمال هذه الصّيغة تأكيدٌ لوعد اللّه، وضمانةٌ بأنَّ مَنْ يستعيذ به؛ يجده مَلاذًا وحِصنًا منيعًا؛ إذ إنَّ الأمر هنا يَحمِل في طيّاته طُمأنينةَ الوعدِ بالاستجابة، والخطابُ موجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ[2]؛ ليكون قدوةً للمؤمنين في لجوئهم إلى الحقِّ سبحانه؛ طلبًا للحماية من كيد الشَّيطان.

سِرُّ فصلِ جملة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

أمرناكَ بالاستعاذة بالله؛ لأنَّه يسمع دعاءَكَ، ويعلمُ ما في نفسك

فصلَ النَّظمُ الكريم جملةَ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عمّا سبقها؛ لأنَّها جاءت تعليلًا للأمر بالاستعاذة، فقد أمر باللُّجوء إليه سبحانه؛ لأنَّه السَّميعُ لكلِّ ما يُسمَع، العليمُ بكلِّ ما يُعلَم[3]؛ إيماءً إلى جلال صفات اللّه، وكمالِ إحاطته، فيطْمَئنُّ المستعيذُ بأنَّه في كنف مَن يسمع دعاءَه، ويعلم ما في نفسه.

دلالةُ التَّأكيد بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

توكيدُ صفتَي السَّمعِ والعِلْمِ جاء تطمينًا للرَّسول وللمؤمنين

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لإفادة التَّوكيد[4]؛ إذ أكَّدَت صفتَي (السَّمع) و(العِلْم) للّه تعالى بما لا يَدَع مجالًا للشَّكِّ، فهو السَّميعُ لكلِّ مسموع، يسمع استعاذتَكَ ودُعاءَكَ، وهو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 308.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 296.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 592.
(4) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2118.

العليمُ بكلِّ معلوم، يعلم نزغاتِ الشَّيطانِ ووساوسَه، وهو القادر على ردِّ كيدِه وتوهينِ أمرِه، وإعلاءِ نَصْرِ مَن يلجأ إليه مستعينًا بحِماه(1).

دلالةُ ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

توكيدُ المعنى وسُموُّ الدَّلالةِ في السَّمعِ والعِلْم الإلَهيَّيْن

﴿هُوَ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ضميرُ فصلٍ، وذِكْره يُضفي مزيدًا من توكيدِ النِّسبة واختصاصها(2)، ويحمل دلالةَ القَصْرِ، فيُفْهَمُ منه تخصيصُ السَّمعِ والعِلْم الكاملَيْن به سبحانه وحده(3)، فهو المُتفرِّد بهما في كمالهما وإحاطتِهما دون شريكٍ أو نظيرٍ، وضميرُ الفصل في الآية واردٌ لتقوية الحُكم وتوكيده، حُكمًا كنائيًّا يُشير إلى ما يلزم وصفُ السَّميعِ العليم، وهو قدرته سبحانه على المؤاخذة الدَّقيقة لِمَن يصدر عنهم أقوالٌ وأفعالٌ تؤذي النَّبيَّ ﷺ، أو ممَّن يَكيدون له، وهم الذين أُمِرَ ﷺ أن يدفع سيِّئاتهم بالحُسنى(4).

سرُّ اختيارِ وصْفَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ دونَ غيرِهما:

تعبيرٌ عن التَّضرُّع والتماسِ العونِ من القادر الذي يعلم كلَّ شيء ويسمعُ كلَّ همسٍ

اختار النَّظْمُ الكريم وصفَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ دونَ سواهما لما في هذَيْن الوصفَيْن من جلال يُناسب مقامَ العبدِ في تضرُّعه، ولسانُ حالِه يقول: (يا مَن أنتَ السَّميعُ لكلِّ ما يُسْمَع، والعليمُ بكلِّ خفيٍّ، أنتَ تسمع وسوسةَ الشَّيطانِ، وتعلمُ غرضَه الخبيثَ في تلويث القلوب، وأنتَ القادر على دَفْعِ شرِّه عنّي، فبفضلكِ ورحمتكِ اجعلني في عصمتك، وادفع عنّي كيدَه)؛ لذا كان ذِكْرُ هذَيْن الوصفَيْن أبلغَ وأولى في هذا المقام من أيِّ ذِكْرٍ آخَر(5)؛ لأنَّه يتناسب مع الحالة التي يمرُّ بها العبدُ من خوف وافتقار.

تأكيدُ حضور المعنى في القلب مع اللَّفظ في الاستعاذة

واختيارُ هذَيْن الوصفَيْن ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ ليُبيِّن أنَّ الكلام

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 190، 191.
(2) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 685.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 190.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 297.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 1/ 71.

اللِّسانيَّ وحدَه بلا حضور المعارفِ الحقيقيَّةِ في القلب لا يعود عليه بفائدةٍ تُذْكَر، وكأنَّ الحقَّ ﷻ يقول: اذكر لفظَ الاستعاذةِ بلسانك، فإنّي سميعٌ لما تقول، ولكن أحضِرْ معناها في ضميرك، فإنّي عليمٌ بما يختلج في نفسك[1].

رعايةُ اللهِ للنَّبيِّ ﷺ في السَّمع والعِلْم لمواجهة كيدِ الشَّيطان

واختيارُ وصْفَي: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ في رعاية اللّه وعنايته الخاصَّة، فهو يعلم ما يُبيِّتُ الشَّيطانُ من كيدٍ وعداوة له، فكان ذلك كنايةً عن دفاع اللّه عن رسوله، كما قال في قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: 48][2].

دلالةُ التَّعريف في قوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

تكرارُ التَّوصيفِ الإلـهيِّ في السَّمع والعِلْم اهتمامًا وتوكيدًا

مجيءُ وصفَي: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ معرفتَين؛ ليُفيدا التَّأكيدَ التّامَّ الذي اقتضاه الموقفُ؛ إذ يأتي الأمرُ بالاستعاذة بعد تكليف النَّفس بأشقِّ ما يمكن أن تواجهه من مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهو أمرٌ لا يقدر عليه إلّا الصّابرون المحظوظون، بينما يُثير الشَّيطان في قلب العبد أنَّه من العجز والذُّلِّ، فيدعوه إلى الانتقام والعداوة، فكان المقامُ هنا مقامَ تأكيدٍ قويٍّ، وتحريضٍ عظيم على التَّمسُّك بالصَّبر، والرُّجوعِ إليه سبحانه[3]، كما أنَّ هذَيْن الوصفَين هما تكرارٌ لما ورد في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: 200]، والنَّكرةُ إذا تكرَّرت؛ تعرَّفت، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزّمّل: 15 - 16][4].

دلالةُ إتباعِ صفةِ السَّمع بصفة العِلْم:

القولُ اللِّسانيُّ بدون المعارف القلبيَّة عديمُ الفائدة والأثر

جاءت صفةُ (العِلْم) تاليةً لصفة (السَّمع) في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لتكتملَ الدَّلالةُ الإلهيَّة الشّاملة؛ إذ إنَّ السَّمعَ وحدَه يَرْصُد

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/ 365.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 231.
(3) ابن القيّم، تفسير القرآن الكريم، ص: 685.
(4) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/ 431.

القولَ اللِّسانيَّ، ولكنَّ العِلْمَ يتوغَّل إلى أعماق القلوب، فيدرك ما تُضمِرُهُ النُّفوس، وما تنطوي عليه من معارفَ ونيّاتٍ، فالقولُ المُجرَّد من المعارف القلبيَّة الصّادقةِ يظلُّ خاويًا من الفائدة والأثر[1].

العليمُ بعد السَّميع في إحاطة إلهيَّة بسرائر الوسوسة ومكنونات النُّفوس

فإيرادُ صفةِ العِلْم بعد السَّمع؛ لتنسجم مع طبيعة الوسوسة، فهي من الأمور الخفيَّة التي تندسُّ في مكنونات النَّفس، ولا تُدرَكُ بالأصوات المسموعة وحدَها، فالوَسْوَسة ممّا يُعْلَم[2]، فبها حاجة إلى العلم الشّامل الذي يدرك المقاصدَ والنّيّات التي تخفيها القلوب، ولمّا كانت الاستعاذةُ تجمع بين القول اللِّسانيِّ والتَّضرُّع القلبيِّ[3]؛ جاء ذكر ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾؛ ليحفظَ ما يلفِظُ به اللِّسانُ، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ليحيطَ بما يختلج في أعماق القلوب.

بلاغةُ فاصلة الآية: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

اللهُ تعالى سميعٌ لكلامك عليمٌ بمرامك

تنبضُ فاصلة الآية: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ببلاغة راقية، فإنَّه (سَميعٌ) لكلامك، (عَليمٌ) بمقصودك ومرامك، في كناية مُدهشة عن يقين الاستجابة، وشمولِ العناية الإلهيَّة[4].

۞ المُتَشابهُ اللَّفْظيُّ:

دلالةُ الاتِّفاق والاختلاف مع الآية 200 من سورة الأعراف:

سياق آية (فُصّلت) يتطلَّب التَّوكيد؛ بينما سياق آية (الأعراف) لا يتطلَّب ذلك

في آية الأعراف: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: 200] ذِكر وصفَي السَّميع والعليم نكرتَيْن، أمّا في آية (فُصّلت)؛ فعرَّفَهما مع زيادة ضمير الفصل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فيُسأل عن الفَرْق في الموضعَين؟.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 436.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/ 205.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 308.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/ 215.

والجواب عن ذلك: أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تأكيدٌ بليغ، يستكمل المعنى، ويُضفي عُمقًا على الاستعاذة، فالآية في هذه السّورة جاءت لتتَّصل بما قبلها من تأكيدٍ، على أنَّ هذه الاستعاذة لا يُلقّاها إلّا الصّابرون، وما يلقّاها إلّا ذو حظٍّ عظيم؛ لذلك كان التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ غايةً في القوَّة؛ إذ أُضيف ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ لتعظيم المعنى في إبراز قدرة اللّه المُطلقة على السَّمع والعِلْم، وأمّا في سورة (الأعراف)؛ فقد اختُتمت الآية بعبارة: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: 200] دون هذا النَّوع من التَّأكيد البليغ؛ لأنَّ السّياق هناك يختلف؛ إذ لا يتطلَّب هذا التَّوكيدَ المبالغَ فيه، وجاءت الصّيغةُ فيها وفقًا للقياس البلاغيِّ؛ إذ تمَّ التَّعريفُ باللّه في الخبر دونَ الحاجة للزُّخرف البلاغيِّ المُضاف في (فُصّلت)[1].

تفرُّد صفاتِ الله بنفي الحياة عن الأصنام إلى تأكيد اختصاص السَّمع والعِلْم به وحدَه

في سورة (الأعراف) وصْفُ آلهةِ المشركين بأنَّها تماثيلُ جامدةٌ لا تملك قدرةً على الخَلْق أو السَّمع، فكانت الآيةُ تعبيرًا عن نفي أيِّ صفةٍ حيَّةٍ عن تلك الأصنام فنكَّرَهما؛ لأنَّه لم يتقدَّمه ما يوهِم صلاحيَّةَ شيءٍ من السَّمع والعلم لغيره تعالى ممّا عبدوه من دونه، فلا مُسوِّغ للتَّعريف والتَّوكيد[2].

أمّا في آية سورة (فُصّلت): ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فقد جاءت العبارةُ في سياق الرَّدِّ على الذين جحدوا عِلْمَ اللّه، وزعموا أنَّه لا يُدْرِكُ كثيرًا ممّا يعملون، فجاءت الآيةُ لتقرير الحقيقة المطلقة، مؤكِّدةً أنَّ اللّه تعالى هو المختصُّ بالعِلْم الكامل والسَّمع الشّامل، ولو قيل: (اللّهُ السَّميعُ العليمُ)؛ لكان في ذلك حصرُ الصِّفات باللّه وحدَه، ونفيُها عن غيره، وهو ما لا يتَّفق مع وصف

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 222.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 223.

المخلوقات التي أودعها اللّهُ شيئًا من السَّمع والعِلْم، كالإنس والجنّ والملائكة؛ فجاءت هذه الصّياغةُ الحكيمةُ؛ لتُبرزَ كمالَ اللّهِ تعالى في السَّمع والعِلْم[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

النَّزغ، والهمز، والمَسُّ:

النَّزغ إغواءُ الشَّيطان بالوسوسة والتَّحرُّك للشَّرِّ، والهمز والمسُّ دون ذلك

النَّزغ: "هو الإغواء بالوسوسة، وأكثر ما يكون عند الغضب، وقيل: أصله للإزعاج بالحركة إلى الشَّرِّ، ويُقال: هذه نزغة من الشَّيطان للخصلة الدّاعية إلى الشَّرِّ"[2].

أمّا الهمزُ؛ فهو "أن يهمز الإنسانَ بقول قبيح من حيثُ لا يسمع، أو يَحُثَّه، ويوسِّده على أمر قبيح، أي: يُغريه به"[3].

وأمّا المَسُّ؛ فمباشرةُ الجسم بصنوف الأذى الشَّيطانيِّ في خفاء، وهو هنا دونَ النَّزغِ الذي يكون نَخْسًا يحمل على الانبعاث بحميَّة إلى الشَّرِّ، غيرَ مُتروٍّ ولا دارٍ.

العَوذُ واللُّجوء:

اللُّجوء مُطلق قَصْدِ الاحتماء أو قضاءِ وطَرٍ، والعَوذُ واللَّوذُ خاصّان منه

اللُّجوء: مُطلقُ قَصْدِ المُعيَّن مكانًا كان أم شخصًا؛ لقصد الاحتماء أو قضاءِ وطَرٍ، ثمَّ تُنوسيَ الغرضُ، وأصبح يُطلق على مجرَّد الانضمام أو الإضافة.

أمّا العَوْذ - ويقال: العياذ، واللَّوذ، ويُقال: اللّياذ - فمنه، غيرَ أنَّ الأوَّل خُصَّ بطلب الكفاية من الضُّرِّ، والوقايةِ من الشَّرِّ، والثّاني بطلب الخير وتحصيل ما يُفيد، فالعَوْذ للرَّهبة، واللَّوذ للرَّغبة.

---

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 9/ 113.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 537.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 537.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ٣٧﴾ [فُصِّلت: 37]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعاقبُ اللَّيل والنَّهار من دلائل القُدرة والوحدانيَّة

بعد أن ذكر المولى ﷻ صفاتِه العليَّةَ بأنَّه السَّميع العليم؛ أشار إلى آياته العظيمة التي تدلُّ على وحدانيَّتِه، ومن أبرزها تعاقب اللَّيل والنَّهار وتباينُ هيئتِهما، وهذا التَّباين المستمرُّ يُظْهِر بجلاء قدرتَه المطلقةَ على البعث وتحقيق كلِّ مقدور، ممّا يشهد بوحدانيَّته الكاملة وعظمتِه الأبديَّة(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسْجُدُواْ﴾: (سجد) أصلٌ يدُلُّ على تَطامُن وذُلٍّ، يُقالُ: سَجَدَ؛ إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذَلَّ فقَد سَجَدَ، وأسجَدَ الرَّجلُ؛ إذا طَأطَأ رأسَهُ، وانحَنى، وسَجَدَ؛ إذا وضعَ جَبهتَهَ بالأرضِ(2)، وجَعلَ ذلك عبارةً عن التَّذلُّل للّه وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان والحيوانات والجمادات، والمَساجِدُ: مواضعُ السُّجودِ من الجَسَدِ والأرضِ، والواحِدُ: مسجِدٌ(3)، والإسجاد: إدامةُ النَّظر مع سُكون(4)، والمقصود بالسُّجود في الآية: وضعُ الجَبهةِ على الأرضِ إرادةَ التَّعظيم والخُضوع(5).

2) ﴿تَعْبُدُونَ﴾: (عبد) أصلٌ يدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ(6)، ومنه قولهم:

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 519.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سيده، المحكم: (سجد).
(4) ابن سيده، المحكم: (سجد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 228.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).

طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: سهلٌ مُذلَّلٌ؛ لكثرة وطءِ الأقدام له[1]، والعَبدُ: الإنسانُ، يُقالُ: فلانٌ عبدٌ للّه، أي: مملوكٌ له، ويُجْمَع على (عَبيدٍ) و(عِبادٍ)، وغَلَبَ الجمعُ الأوَّلُ على (عَبْدٍ) بمعنَى مملوكٍ، وهو ضِدُّ الحُرِّ، والجَمْعُ الثّاني على (عَبْدٍ) بمَعنَى: آدَميٍّ، وهو تخصيصٌ حَسَنٌ من الاستعمالِ العربيِّ[2]، والعُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّل، والعبادةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى[3]، والمُراد بالعبادة في الآية: الخُضوع والتَّعْظيم من قولٍ وفعلٍ وإخلاصٍ بِالقَلْبِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحَثُّ على صيانةِ الآدَميّينَ عن أن يَقعَ منهم سُجودٌ لِغَيرِه تعالى

يذكرُ اللّه تعالى بعضَ الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فيقولُ سبحانه: ومِن آياتِ اللّهِ الدّالَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه وقُدرتِه ورَحمتِه بعبادِه، وغيرِ ذلك مِن صفاتِ كَمالِه: اللَّيلُ والنَّهارُ في تَعاقُبِهما واختِلافِهما في الظَّلامِ والضّياءِ، والزّيادةِ والنُّقصانِ، والاستِواءِ وغيرِ ذلك؛ ومِن آياتِه الشَّمسُ والقَمَرُ في دَوَرانِهما المُستَمِرِّ بانتِظامٍ، وتَقديرِ مَنازِلِهما لِمَصالِحِ الأنامِ، وغيرِ ذلك مِن مَنافِعِهما وعَجائبِهما، لا تَسجُدوا - أيُّها النّاسُ - للشَّمسِ، ولا تَسجُدوا للقَمَرِ؛ فهما مُدَبَّرانِ مُسَخَّرانِ، واسجُدوا للّهِ وحْدَه الَّذي خلَقَهنَّ؛ إن كنتُم تَعبُدونَ اللّهَ، وتَذِلّونَ له بالطّاعةِ حَقًّا[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الآياتُ الكونيَّة شواهدُ على عَظَمَة الله، وحِصنٌ للمستعيذين به

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾ دالَّة على العطف، فهذه

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 7.
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (عبد).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 200.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 436، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 5/ 53، وابن عطيّة، المُحَرَّر الوجيز: 5/ 17.

الجملة معطوفة على جملة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فيكون المعنى: وإنَّ من آيات اللّه السَّميع العليم تلك الظَّواهرَ الكونيَّة العظيمة: اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، فتلك العوالِمُ الباهرة ليست إلّا شواهدَ على عظَمة اللّه، وجلالِ قدرته، فالعائذُ به يَلوذ بربِّ الأرباب، ومالكِ المُلْك، فلا ينالُهُ أذًى، ولا يصيبه مكروه[1]، ويجوز في جملة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أن تكون معطوفةً على جملة: ﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 9] من باب عطف القصَّة على القصَّة، في إشارة إلى ارتباط هذه الجملة بما سبقها، في بيان أنَّ الغاية من ذِكْر خَلْق العوالم وما فيها من آيات عظيمة، هي إظهارُها كدلائل قاطعةٍ على تفرُّد الحقِّ ﷻ بالألوهيَّة[2].

شواهد عظَمة الخالق في انتظام الكون وتوازنِ الطَّبيعة

ويجوز في الواو أن تكون استئنافيَّةً، وجملة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ كلام مستأنف مسوق لإيراد أربع آيات من آياته تعالى الباهرة[3]؛ لتكون شاهدةً على تنوُّع مظاهرِ عظمته في الكون، تتجلّى فيها عظَمةُ الخالقِ في انتظام الكون، وتوازن الطَّبيعة.

دلالةُ التَّعبير بـ(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾:

اللَّيلُ والنَّهار والشَّمس والقمر بعضٌ من دلائل عظَمة الخالق

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ لإفادة التَّبعيض[4]، أي: من بين آيات اللّه تعالى التي لا تُعدُّ، ولا تُحصَى، تأتي آيات اللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر[5]، فما هذه الآياتُ إلّا جُزءٌ صغير من آيات اللّه الكثيرةِ، الدّالَّةِ على عظَمته وجلاله في الكون الواسع، وفي هذا التَّبعيض نلمَحُ انتقالًا بديعًا من الاستدلال بالذَّوات المخلوقة، إلى الاستدلال بالأحوال المتغيِّرة لتلك المخلوقات، فيبدأ العَرْضُ ببعض

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 298.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 564.
(4) العثيمين، تفسير القرآن الكريم: (فصّلت)، ص: 198.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1321.

الأحوال السَّماويَّة العظيمة، وهي تتابُع اللَّيلِ والنَّهار، وطلوعِ الشَّمسِ والقمر، ثمَّ ينتقل بعد ذلك إلى ذِكْر بعضِ الأحوال الأرضيَّة[1]، ممّا يعكس تنوُّعًا جماليًّا في استعراض مظاهر عظَمة الخالق.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿ءَايَٰتِهِ﴾ جمعًا دون دلائله:

الآياتُ علاماتٌ دالَّـــةٌ عـلى وحدانيَّة الخالق في سياق عبادة المشركين

عبَّر النَّظمُ الكريم بالآيات جمعًا دون الدَّلائل بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾؛ لأنَّه أراد الإشارةَ إلى العلامات المُبيِّنة لوحدانيَّته[2]، وليس فقط إلى دلائله؛ تناسبًا مع سياق الآية الذي يتناول عبادةَ المشركين لغير الله تعالى، كعبادتهم للشَّمس والقمر، ولتكون الآياتُ شواهدَ واضحةً على خطئهم وعَظَمَةِ الخالق ووحدانيَّته.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾:

إبـرازُ عَـظَـمَـةِ الآياتِ الكونيَّة، وأهـمـيَّـتِـهـا في تنظيم الكون

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾؛ لإظهار الاهتمام، والتَّأكيد على عَظَمةِ هذه الآيات الكونيَّة، فهي تُمثِّل أظهرَ الكواكب، وأكثرَها تأثيرًا في العالم الأرضيِّ[3]، وفي التَّقديم بيانُ أهمّيَّتِها ودورِها البارزِ في حياة الإنسان وتنظيم الكون.

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتِهِ﴾:

تجلّي وحدانيَّةِ الخالقِ في آيات اللَّيل والنَّهار؛ فـهـي شـواهـدُ على عظَمة الله وتفرُّده

إضافةُ الآياتِ إلى الضَّمير العائد عليه سبحانه في قوله: ﴿ءَايَٰتِهِ﴾ تُشير بوضوحٍ إلى كونها دليلًا على وحدانيَّته ووجوده، فاللَّيلُ والنَّهار هما من آيات القدرة التي لا يمكن لأحدٍ غيرِ الله تعالى أن يخلقها؛ لتكون هذه الآياتُ شاهدًا على انفراد المولى سبحانه في صنع الكون، وتأكيدًا على تفرُّده بالأُلوهيَّة[4]، كما أنَّ في الإضافة تشريفًا إلهيًّا عظيمًا لهذه الآيات، وبيانًا لأهمّيَّتها الفائقةِ في حياة البشر[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 298.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 228.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1322.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 298.
(5) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 166.

سِرُّ تقديم اللَّيل على النَّهار في قوله: ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾:

ظُلمةُ اللَّيل عَدَمٌ، ونورُ النَّهار وجودٌ، والعَدمُ يسبق الوجود

في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ قُدِّم اللَّيلُ على النَّهار؛ للتَّنبيه على أنَّ الظُّلمة هي العَدَم، والنّورَ هو الوجود، والعَدَمُ سابقٌ على الوجود، وهذا التَّقديم يُشير إلى أنَّ هذه الظّواهرَ الكونيَّةَ ليست سوى دلائلَ على حدوث الأشياء في الكون بإرادة الخالق[1]، وتعكس التَّرتيبَ الطَّبعيَّ للأشياء في خلق اللّه تعالى.

سِرُّ تقديم ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ على (الشَّمس والقمر):

إلزامُ الحُجَّة، وبيانُ فسادِ مذهبِ العابدين للشَّمس والقمر دونَ اللَّيل والنَّهار

في تقديم ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ على (الشَّمس والقمر) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ بيانُ أنَّ الشَّمس والقمر آيتان من آياته تعالى، تمامًا كاللَّيل والنَّهار، فإذا لم تعبدوا اللَّيلَ والنَّهار على الرَّغم من إدراككم لِعظَمِهما، ودورِهما الأساسِ في حياة البشر، فكيف تقبلون بعبادة الشَّمس والقمر؟[2] ففي هذا التَّقديم إلزامُهمُ الحُجَّةَ، وبيانُ فسادِ مذهبهم.

دلالةُ المجاز في ذِكْر ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾:

إشـارةٌ إلى اختلاف النّور والظَّلام وتعاقبِهما لصلاح الكون وتوازنه

لا يُراد من ذِكْر ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ ما تدلُّ عليه حقيقةً ووضعًا، بل يُراد من ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ اختلافُهما، وتعاقبُ كلٍّ منهما للآخر، أمّا (الشَّمس والقمر)؛ فيُرادُ بهما نورُهما وإشراقُهما، وتقديرُ منازلِهما، واختلافُ سيرِهما في السَّماء، ممّا يُسهِم في بقاء صلاح الكون وتوازنِه[3].

دلالةُ الجمع بين ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ و(النَّهار) في قوله: ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾:

للجمع بين ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ في الآية دلالةٌ عميقة تكمن في أنَّ اختلافهما وتتابعَهُما يُظْهِرُ بجلاء قدرةَ المولى سبحانه على البعث

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 566، والبقاعيّ، نظم الدّرَر: 17/ 191.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 83.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 341، والمراغيّ، تفسير المراغي: 24/ 135.

وعلى إحياء الموتى، وعلى كلِّ شيء[1]، فهذا التَّعاقبُ المنتظمُ بين الظُّلمة والنّور يعكس النِّظامَ البديع الَّذي أودعه اللّهُ في الكون، ويُعَزِّز من فهمنا لكيفيَّة تسييره تعالى لأمور الخَلْق والتَّدبير بعظَمةٍ وحِكْمةٍ.

في اختلافهما دلالةٌ على قدرته على البعث وعلى كلِّ مقدورٍ

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ دون (الظَّلام والنّور):

رمزٌ للشُّموليَّة؛ فاللَّيل للسَّكن والرّاحة، والنَّهارُ للحركة والمعاش

استعمل السّياقُ الحكيم مُفردَتَي ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ دون (الظَّلام والنّور)؛ ليرمزَ إلى الشُّموليَّة الكاملة لكلٍّ من اللَّيل والنَّهار واختلافِهما، وما يكتنفُه هذا الاختلافُ من عِبَرٍ ودلالاتٍ، فاللَّيلُ يغمر العالَمَ، فتسكن فيه الحركاتُ، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها، والطّيورُ إلى أوكارها، وترتاح فيه النُّفوسُ من كَدِّ السَّعي والتَّعب، ثمَّ يأتي النَّهارُ كجيش يحمل بِشارةَ الصَّباحِ، ويهزمُ الظُّلمةَ، ويُمزِّقها، ويكشفُ العالمَ، فيُصبحُ النّاسُ مُبصرين[2]، فهما يتعاقبان دونَ انقطاع، فالشَّمسُ بضيائها وإشراقها، والقمرُ بنوره، وتقديرِ منازله في فَلَكِه، واختلافِ سيره في سمائه[3]، أمّا النّور والظَّلام؛ فقد يجتمعان في وقت واحد، وقد يكون الكهفُ مظلمًا، وهو في رابعة النَّهار، والغرض من ذكرهما الاستدلالُ على عظيم قدرته تعالى.

دلالةُ النَّهي في قوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾:

إعلانُ توحيد الخالق، وإفرادُ المُبدِع بالعبوديَّة

في قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾ يأتي النَّهي؛ ليدلَّ على اختصاص الحقِّ ﷻ وحدَه باستحقاق السُّجود والعبادة، باعتباره المنفردِ بالخَلْق والتَّدبير[4]؛ إذ إنَّ السُّجود رمزٌ للخضوع المُطْلق، فلا يجوز أن يوجَّه إلّا لِمَن أبدع هذا الكون، وأحكم نظامَه، ودلالةُ النَّهي هنا تنبثق بروعتها من كونها تحذيرًا يَشُعُّ بهدي التَّوحيد، فإن لم يكن نَهيًا للإقلاع لِمَن ضلَّ، وسجد للشَّمس والقمر؛ فهو نداءُ تحذيرٍ مُشرقٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 191، 192.
(2) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 1/ 203.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 182.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 5019.

لِمَنْ لم تزل خطاهم على طريق التَّوحيد، بألّا ينخدعوا بظلمات الشِّرك، ولا يتَّبعوا أولئك الذين أضاعوا البوصلة[1]، فسجدوا لآيات اللّه بدلًا من السُّجود للخالق نفسه.

تحذيرٌ من عبادة المخلوقات من الأصنام وسائر الأجسام

ومن دلالة النَّصِّ في قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ يتجلّى النَّهيُ البليغ عن الخضوع للأصنام والأجرام السَّماويَّة؛ ليُفهمَ منه تحذيرُ مَن صرفَ العبادةَ لغير اللّه تعالى[2]، فالآيةُ دعوةٌ واضحة للابتعاد عن تقديس أيِّ مخلوق مهما عَظُم شأنُه أو حَسُنَ حالُه.

سرُّ نهي العربِ عن السُّجود للشَّمس والقمر، مع أنَّهم لم يسجدوا لهما:

تحذيرٌ من آثار عبادة الأجرام السَّماويَّة السَّائدة في الأمم المجاورة

على الرُّغم من أنَّ العرب في زمن نزول القرآن الكريم لم يُؤثَر عنهم أنَّهم سجدوا للشَّمس أو القمر، فإنَّ عبادة الشَّمس في اليمن أيامَ سبأ تركت آثارَها في بعض القبائل؛ إذ وُجِدَ صنمٌ باسم (شمس)، وعبدةٌ لها حتّى سُمّوا (عبدَ شمس)، فجاء النَّهيُ عن السُّجود لهما؛ تحذيرًا من انتشار عبادةِ الشَّمس والقمر، التي كانت سائدةً في الأمم المجاورة، كالصّابئة ونحوِهم[3].

سرُّ التَّعبير بالنَّهي عن السُّجود دونَ العبادة في قوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾:

السُّجود نهايةُ التَّعظيم، ولا يليق إلّا بواجبِ الوجود، خالق الأكوان جلَّ وعزَّ

نهى تعالى عن السُّجود لغيره في قوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾ دون بقية العبادة؛ لأنَّه يُعَبِّر عن أسمى درجات التَّعظيم؛ إذ إنَّ السُّجود لا يليق إلّا بمَنْ خلقهما، وأوجدهما من العدم[4]، وهو اللّهُ ﷻ، فالسُّجودُ رمز للذُّلِّ والخضوع المُطلق، الذي لا يجوز أن يُتَوَجَّه به إلّا للمُعظَّم الأوحد، الذي لا شريك له في الألوهيَّة، وهو أخصُّ العبادات، فإنَّه لم يُعبد به أحدٌ سوى اللّه تعالى، فالرُّكوع والقيام قد يَحصُل لغيره تعالى، أمّا السُّجود؛ فهو كمالُ التَّذلُّل له وغايتُه؛ فيختصُّ به تعالى[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 300.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 166.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 299.
(4) الشّربينيّ، السّراج المُنير: 3/ 519.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 167.

دلالةُ التَّعبير باللّام في قوله: ﴿لِلشَّمۡسِ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِلشَّمۡسِ﴾ للتَّعليل[1]، وهي متعلِّقة بـ ﴿تَسۡجُدُواْ﴾؛ لتعليل النَّهي عن السُّجود لغير الله تعالى، فالسُّجود لا ينبغي إلّا للّه تعالى، فهو المُستحِقُّ الوحيدُ لهذا النَّوع من العبادة، وخُصَّت الشَّمس بالذِّكر كواحدةٍ من المخلوقات التي فُتِن بها النّاسُ، فسجدوا لها.

لا تجعلوا سجودَكم للشَّمس، فإنَّه لا ينبغي لسواه تعالى

سِرُّ إعادة حرف النَّفي في قوله: ﴿وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ تكرَّرت (لا)؛ لتكون أداةَ نفي قويَّة، فكان التَّكرار هنا تأكيدًا للنَّهي، وإفادة أنَّ النَّهي عن السُّجود لكلٍّ منهما مُنفصلٌ على حِدَته[2]، فلا يجوز السُّجود للشَّمس بمفردها، ولا للقمر كذلك، بل يتعزَّز المعنى بأنَّ النَّهي يشمل كلًّا منهما على حِدَة.

توكيدُ معنى النَّهي عن السُّجود لغير الله، وأنَّ كلَّ نهيٍ منفصل عن الآخر

سِرُّ ذِكْر فعل ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾ مع الشَّمسِ دونَ القمرِ:

سِرُّ ذِكْر فعل ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾ مع الشَّمس دون القمر، يكمن في عَظَمَة الشَّمس في قلوب أولئك الذين عبدوها، فقد كانت الشَّمسُ في عيونهم أعظمَ من القمر، وأشرفَ الآلهة التي يُقدِّسونها[3]؛ لذلك جاء النَّهيُ؛ ليكونَ تحذيرًا مباشرًا من السُّجود لأعظم تلك الأوثان في عقولهم.

تحذيرٌ من عبادة أعظم أوثانهم التي يُقدِّسونها

موقعُ جملة: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾ ودلالتُها:

جملة: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ﴾ في سياق الآية تأتي اعتراضًا بين جُملتَيْن؛ إذ تفصل بين ذِكْر الآيات الكونيَّة العظيمة من اللَّيل والنَّهار، وبين توجيه الخطاب للمُتكبِّرين الذين يعارضون هذه الآيات[4]، وهو اعتراضٌ يمثِّل دعوةً لتوجيه العبادة للّه وحدَه، ويُظْهِر

محطّة التوحيد بين الآيات الكونيَّة والتَّوجيه الإيمانيّ

(1) د، قباوة، المفصّل، ص: 1698.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 192.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 192.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 300.

تحذيرًا شديدًا من الغُرور والتَّكبُّر عن الخضوع لآيات اللّه الظّاهرة في الكون.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ﴾ حرف عطف[1]؛ إذ عطف هذه الجملةَ على جملة: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾[2]؛ لتفصلَ بين نهيٍ عن عبادة الكواكب، ونداءٍ إلى العبادة الحَقَّة التي تخصُّ اللّهَ تعالى وحدَه، كأنَّها جسرٌ يربط بين نفيٍ لركون الإنسان للأوثان، وطلبٍ له للانصياع إلى الَملِك الدَّيّان.

جسرٌ يفصل بين النهي عن الشرك، ونداءِ الخضوع المُطلق لله وحدَه

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ﴾:

لَمّا نهى تعالى عن السُّجود للشّمس والقمر؛ جاء الأمر بالسُّجود للّه تعالى؛ ليَظهرَ استحقاقُه الفائقُ لعبادته، فتأتي دلالةُ الأمر في قوله: ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ﴾؛ لتكون تعبيرًا عن التَّفرُّد الإلهيِّ الذي لا يُساويه شيء في جلاله وقدرته؛ إذ لا يستحقُّ السُّجودَ إلّا مَن هو أحقُّ بالعبادة وحدَه[3].

لا يستحقُّ السُّجود إلّا مَن هو أحقُّ بالعبادة، وذلكم اللهُ تعالى

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ بعد النَّهي عن السُّجود لهما:

وقوع قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ بعد النَّهي عن السُّجود للشَّمس والقمر يُفيد معنى الحصر؛ لأنَّ النَّهي في ذاته بمنزلة النَّفي، ويأتي إثباتُ السُّجودِ للّه وحدَه بعدَه؛ ليكون مُقابِلًا للنَّفي بالإيجاب، كأنَّه قيل: لا تسجدوا إلّا للّه، ممّا يوضِّح الحصرَ في العبادة، والتَّوجيه الفعليَّ لها فقط إلى اللّه تعالى؛ ليُفهمَ أنَّ السُّجود لا ينبغي أن يكون إلّا للّه وحدَه، دونَ غيرِه من الكواكب والأجرام[4].

السُّجود لا يكون إلّا لله الواحد القهّار، لا لغيره من الكواكب والأجرام

---

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 458.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 395.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 192.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 300.

تـوازنُ النَّفي والإثـبات بين السُّجود لله والسُّجود للكواكب

بلاغةُ جِناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾ ﴿وَٱسۡجُدُواْ﴾:

جناس الاشتقاق في الآية: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ يَظْهَر بوضوح في تكرار الجَذْر (سجد)، المُستعمل نهيًا وأمرًا؛ ليُظْهِرَ التَّوازنَ البلاغيَّ بين النَّفي نهيًا، والإثبات أمرًا، فالنَّهي عن السُّجود للشَّمس والقمر يُقابِل الأمرَ بالسُّجود للّه وحدَه، ممّا يُعزِّز المعنى، ويُؤكِّد الحصرَ في العبادة.

رمزُ الطّاعة الكاملة والخضوع التّامّ للمولى سبحانه

دلالةُ تكرار مادَّة السُّجود في الآية دونَ التَّسبيح وغيره:

تكرارُ مادَّة السُّجود في الآية ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ لا يحمل المعنى الحرفيَّ للسُّجود، وذلك بوضع الجبهة على الأرض فحسب، بل يتَّسع؛ ليشملَ معنًى أعمَّ وأشمل، وهو الخضوع التّامُّ والتَّذللُ للّه تعالى، فإنَّ السُّجود هنا قد يكون رمزًا للذُّلِّ والعبوديَّة الكاملة، كما يتَّضح من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرّعد: 15][(1)]، فهو دلالةٌ على الانقياد الكامل، والطّاعةِ المُطلَقة للّه تعالى، مع عدم انتفاء إرادة السُّجود الحقيقيِّ، فقد كانوا يسجدون لها سجودًا حقيقيًّا.

لام التَّعليل تأكيدٌ أنَّ العبادة لا تكون إلّا لله وحده

دلالة اللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾:

اللّام الدّاخلة على الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ تُفيد التَّعليل، مؤكِّدة أنَّ العبادة لا تكون إلّا للّه وحده[(2)]، فالإرادة في السُّجود موجَّهةٌ إلى الخالق الأوحد، الذي يستحقُّ الطّاعةَ والخضوعَ التّامَّ.

سرُّ التَّعبير باسم الجلالة (الله) دونَ (الرَّبّ):

سرُّ التَّعبير باسم الجلالة (اللّه) دون (الرَّبِّ) في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، يكمن في تأكيد أنَّ السُّجود لا يكون إلّا

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم: (فصّلت)، ص: 199.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1698.

اسجدوا لله الذي خلقهنَّ فهو المستحقُّ للسُّجود والتَّعظيم

لله وحدَه، فهو الأحقُّ بالتَّعظيم والخضوع؛ لأنَّه الخالق الأوحد للكون بكلِّ مظاهره العظيمة، من ليل ونهار، وشمسٍ وقمر[1]، فهو المُتفرِّد بالخَلْق والإبداع، والسُّجودُ عبادةٌ خالصة له، دونَ شريكٍ أو شبيه، فاختيارُه هنا يحمل دلالةً على تفرُّد الله بالكمال المُطلق، الذي لا يشوبه أيُّ نقصٍ أو تغيير، ولا تُقيِّده حدودُ الزَّمان أو المكان[2]، فهو ﷻ الذي لا يُشاركه أحدٌ في مُلكِهِ أو سلطانه.

دلالةُ التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾:

مدحٌ للخالق وإفرادٌ للمُلك والسُّلطان

أورِدَ الاسمُ الموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾؛ لأنَّه دالٌّ على المدح والتَّعظيم والانفراد بالخَلْق والإيجاد[3]، وليُلفتَ النَّظرَ إلى عظَمَة الخالق المبدع، فهو المستحقُّ وحدَه للسُّجود والتَّذلُّل، بما أبدعه من آيات كونيَّة شاهدةٍ على كمال قدرته، وعظيمِ سلطانه، كما أنَّ التَّعبير بالاسم الموصول يُشعر بعليَّة الخَلْق وسببيَّته في استحقاق السُّجود، فالخالق الذي أبدع اللَّيلَ والنَّهار، والشَّمسَ والقمرَ، بنظامٍ مُتقَنٍ، ودِقَّةٍ مُبهِرة، هو وحدَه الجديرُ بالخضوع والتَّذلُّل، وكأنَّ الآية تُعلن أنَّ السُّجود لا يكون إلَّا لِمَنْ صنعهنَّ، وأوجدَهُنَّ بحِكمةٍ وإبداعٍ.

دلالةُ التَّعبير بالخَلْقِ في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آياتٌ كونيَّةٌ عظيمةٌ لكنَّها مخلوقةٌ

اللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر من مخلوقات الله سبحانه، مهما عَظُمَت منافعُها، وتجلَّت في هذا الكون، فقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ ينسف أيَّ زعم لشراكتهما في ربوبيَّته تعالى[4]؛ إذ لا يليق بالمخلوق - مهما بلغ شأنُه - أن يُرْفَع إلى مقام العبادة، فالمخلوق عبدٌ خاضع لإرادة الخالق،

(1) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 89.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 193.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 166.
(4) القِنّوجي، فتح البيان: 12/ 255.

وفي ذلك تقبيحٌ بالغٌ لعابديها[1]؛ إذ كيف يَعبُد ما لا يَعي، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضَرًّا، فضلًا عن أن يكون شريكًا في الرُّبوبيَّة؟.

سرُّ التَّعبير بالصِّلة والموصول ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ دون الخالق:

الدَّلالة على العِلَّة؛ لأنَّ استحقاق السُّجود له تعالى مُتسبَّبٌ عن الخَلْق

جاء التَّعبير بالخَلْق في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾؛ ليُشعرَ بعِلّيَّة الخَلْق وسببيَّته في استحقاق السُّجود، فالخالقُ الذي أبدع اللَّيلَ والنَّهار، والشَّمسَ والقمرَ بنظام متقنٍ، ودِقَّة مُبهرة، هو وحدَه الجديرُ بأن يُسْجَد له، لا هذه المخلوقات، فإنَّها غيرُ مُستحقَّة للسُّجود[2]، وكأنَّ الآية تُعلن أنَّ السُّجود لا يكون إلّا لِمَنْ صنعهنَّ، وأوجدهنَّ بحِكمةٍ وإبداع.

بلاغةُ فاصلة الآية ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾:

إبطالُ الوساطة في العبادة، والنَّهيُ عن السُّجود لغير الله تعالى

معنى فاصلة الآية: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ هو أنَّ بعضهم كان يسجد للشَّمس والقمر مُتَّبعين مذهبَ الصّابئين في عبادتهم للأجرام السَّماويَّة، ويزعمون أنَّهم يقصدون بذلك السُّجودَ للّه وحدَه، فكان النَّهي هنا عن هذه الوساطة، والأمر بالانفراد بسجودهم للّه تعالى خالصًا؛ إذا كانوا فعلًا مخلصين في عبادتهم له بعيدين عن الشِّرك[3]، وتكمن بلاغةُ فاصلة الآية في إتمام المعنى بأسلوبٍ حاسم في تقريعه اللّاهين الغافلين[4]، وفيه تأنيبٌ وتسفيهٌ ببلاغةٍ وحكمةٍ، فإنَّ مَنْ يُقِرُّ باللّه تعالى، ويعبدُه، لا يليق به أن يسجد للشَّمس والقمر، بل يجب عليه أن يُخصِّص سجودَه للّه وحدَه[5]، بعيدًا عن أيَّة وساطةٍ أو شرك.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

استُعملت أداةُ الشَّرط ﴿إِن﴾، ولم تُستعمل (إذا) في قوله تعالى:

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 167.
(2) العثيمين، تفسير القرآن الكريم: (فصّلت)، ص: 200.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 201، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 566.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 611.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 4/ 423.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنَّ الأولى تفيد الشَّكَّ، أو عدمَ التَّحقُّقِ[1]، وهي أنسبُ في سياق تقريع المخاطَبين، وتشكيكِهم في صِدق عبادتهم للّه وحده؛ فالسّياقُ ليس لتقرير أمر واقع، أو لتحقُّق العبادة، بل هو للكشف عن التَّناقض بين دعواهم الإيمانَ باللّه، وبين أفعالهم التي يشوبها الشِّركُ؛ ولأنَّ (إذا) موضوعةٌ فيما يُرجى وقوعُه، أو يُتحقَّق حدوثُه.

موضعها البلاغيُّ بين الشَّكِّ والتَّقريع في كشف التَّناقض بين الدَّعوى والعبادة

دلالةُ تقديم المفعول ﴿إِيَّاهُ﴾:

قدَّم المفعول في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لتحقيق الحصر والتَّخصيص؛ إذ يُفيد هذا التَّقديم أنَّ العبادة لا تليق إلّا باللّه تعالى وحده، فمَنْ أخلص العبادة له سبحانه؛ كان لزامًا عليه ألّا يسجد لغيره بأيِّ حال؛ إذ إنَّ تخصيص العبادة المُطلَقة للّه يستلزم بالضَّرورة تخصيص أعظم مظاهرها وأخصِّها له وحده دون شريك[2].

بيانُ حصريَّة العبادة واستحقاق السُّجود لله وحده

دلالةُ التَّعبير بالإضمار دون الإظهار في ﴿إِيَّاهُ﴾:

من أصول الإيمان التَّوحيدُ الخالص الذي لا يشوبه شِركٌ، وأن يبلغ تعظيمُ اللّه في قلب العابد مبلغَ يقينِه أنَّ اللّه مُدبِّرُه، ويعلم خَلْقَه الذي خلَقَه عليه، فهو برحمته يسوق إليه ألطافَه، ويوصلُ إليه نِعَمَهُ، فالجدير بالعبد ليكون عابدًا له موصولًا بمَدَدِه وعَوْنِه وتوفيقه، أن يستشعر مراقبةَ اللّه له، ويقصدَه بالعبادة وحدَه، فالإضمار أدلُّ على الارتباط الباطن.

العبادة الحقَّة أساسُها الإيمانُ بالغيب، وخشيةُ الله ومراقبتُه

سِرُّ التَّعبير بالعبوديَّة دون السُّجود في قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾:

التَّعبير بالعبوديَّة في قوله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ بدلًا من السُّجود يحمل دلالةً شموليَّةً أوسعَ وأعمق، فالسُّجودُ وإن كان يُمثِّل أخصَّ صورِ العبوديَّة الظّاهرة، لكنَّه لا يشمل كلَّ مظاهرِ الطّاعة والانقياد،

شموليَّة الطّاعة ودلالةُ الإخلاص

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 75.

(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 389.

أمّا العبوديَّةُ؛ فهي تشمل السُّجودَ وسائرَ مظاهرِ الطّاعة القلبيَّةِ والعمليَّة، وفي كونها تمثِّل التَّذلُّل للمولى سبحانه محبَّةً وتعظيمًا[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

تعبدونه عبادةً متجدِّدةً لا تنقطع

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾؛ ليشيرَ إلى عبادةٍ متجدِّدة ودائمة، لا تقتصر على لحظةٍ عابرة أو زمن ماضٍ، بل تمتدُّ في الزَّمان، وكأنَّ الآية تخاطبهم بأنَّ عبادة الله ليست مُجرَّدَ فعلٍ مؤقَّت، بل هي حالةٌ مستمرَّة من التَّوجُّه الخالص، والانقياد التّامِّ له سبحانه.

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم: (فصّلت)، ص: 200.

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ٣٨﴾ [فُصِّلت: 38]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تنزيهُ المُقرَّبين للخالق بلا كللٍ أمامَ استكبارِ المعاندين وسجودهم للأجرام

لَمّا كانوا في أمر السُّجود للشَّمس والقمر، والسُّجودِ للّه خالقِهِنَّ بين طاعةٍ ومعصية، وكان دَرْءُ المفاسدِ مُقدَّمًا؛ سبَّبَ عن ذلك التَّعبير بأنَّ استكبارهم عن عبادته سبحانه بعد إقامة هذه الأدلَّة ينبغي ألّا يُتوَهَّم، وأنَّ المُقرَّبين المَرضيين عند ربِّك ينزِّهونه في الأحوال كلِّها، ولا يفترون[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على الامتناعِ وعَدَمِ الانقيادِ، يُقال: تَكَبَّرَ البَعيرُ: إذا امتنَعَ، ولم يَنقَد[2]، والكِبْرُ: التَّعاظُمُ والاتِّصافُ بِالعَظَمَةِ، ويُقال له أيضًا: التَّكَبُّرُ والاستكبارُ، وضِدُّهُ: التَّواضُعُ والتَّصاغُرُ، والـمُتَكَبِّرُ: المُتعالي والمُتعاظِمُ[3]، والمُراد بالاستكبارِ في الآية: المُبالغةُ في الكِبْرِ، أي: التَّعاظُمُ واحتقارُ النّاسِ[4].

2) ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: (سبح) أصلٌ يدُلُّ على جِنْسٍ من العبادَةِ، وأصلُه مِنَ السَّبْحِ، وهو: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، كقولهم: سَبَّحْتُ في الأرْضِ، أي: أبعَدْتُ فيها[5]، والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّقديسُ والتَّبرِئَةُ[6]، وهو بِمعنى قَوْلِ: سُبْحانَ اللهِ، ويُطْلَقُ أيضًا على التَّنَفُّلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194، 195.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 256.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح)، والخطّابيّ، غريب الحديث، ص: 685.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).

والتَّطوُّعِ بِالعِبادَةِ[1]، والمُرادُ في الآيةِ: كُلُّ ما يدُلُّ على تَنْزيهِ اللّٰه تعالى عمّا لا يليقُ بإثباتِ أضدادِ ما لا يليقُ، أو نفي ما لا يليقُ[2].

3) ﴿يَسۡـَٔمُونَ۩﴾: أصلُ السَّآمةِ: المَلَلُ والضَّجَرُ ممّا يَكْثُر لُبْثُه، فعلًا كان أو انفعالًا[3]، يُقالُ: سَئِمَ زيدٌ فُلانًا ومن فلانٍ[4]، وهي في الآية بمعنى: الضَّجرِ والمَلَلِ من الإعياءِ، أيْ: يَملّونَ، ويفتُرونَ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

استكبارُ الجاهلين عن عبادة الله تعالى وحدَه، لن يُنْقِص من مُلْكِه شيئًا

يقول اللّٰهُ تعالى: فإن استكبرَ هؤلاءِ المشركون الَّذين يعبدون هذه الكواكبَ، وأبَوا إلّا أن يسجدوا لها وحدَها دونَ اللّٰه، فاللّٰهُ لا يَعْبَأ بهم، فلَهُ عِبادٌ آخَرونَ هم الملائِكةُ الَّذين عِندَ رَبِّك - يا مُحمَّدُ - فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا، وهم لا يَمَلّونَ مِن ذلك[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

تفريعٌ على نهيهم عن السُّجود لغير الله، أو عدمِ الإقرار بما تشهد به الآيات

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ جاءت للتَّفريع على نهيهم عن السُّجود للشَّمس والقمر، والأمر بالسُّجود للّٰه وحده، والمعنى: إن أبَوا أن يستجيبوا لهذا الأمر الجليل، واستكبروا عنِ اتِّباعك، أو صمَّموا على الاستمرار في سجودهم لغير اللّٰه تعالى، أو إن استكبروا عن الإقرار بما تشهد به آيات اللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر من دلالات واضحة على تفرُّد اللّٰه بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة[7]، فَدَعْهم في استكبارهم، فقد قامت عليهم الحُجَّة، وبان الحقُّ الذي لا لبسَ فيه.

---

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سأم).
(4) السمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (سأم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 364، والمراغيّ، تفسير القرآن: 42/ 135، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 300.

دلالةُ التَّعبير بـ(إن) في قوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

أداة الشَّكِّ والظَّنِّ في مواجهة استكبار لا يُتصوَّر

(إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ حرفُ دالٌّ على الشَّرط[1] يحمل دلالة التَّردُّد والشَّكِّ والاحتمال، جاءت لتضع المخاطَبين أمام اختيارهم الحُرِّ بين الطّاعة والمعصية، ومع أنَّ الأدلَّة السّاطعة قد أُقيمت عليهم، فإنَّ التَّعبير بـ(إنْ) يشير إلى أنَّ استكبارهم في هذا السّياق لا ينبغي أن يُتصوَّر، أو يُتوهَّم بعد هذه البراهين الدّالَّة على وحدانيَّة اللّه تعالى[2].

سرُّ التَّعبير بالاستكبار دون الاستعلاء:

تتميمٌ للمعنى، وتسليةٌ للرَّسول، وذمٌّ لَمَن ترك السُّجود بأسلوب مؤثِّر

التَّعبير بالاستكبار دون الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ لأنَّه أراد أن يكون تكميلًا ثانيًا، وتسليةً للرَّسول ﷺ، ومِن ثَمَّ يقول له اللّهُ تعالى بأن يدعهم وشأنَهم، لكنَّها أيضًا تحتوي على ذَمٍّ لمن ترك السُّجود. فاستعمالُ عبارة الاستكبار في سياق الشَّرط أتى بدلًا من عدم السُّجود في السّياق نفسِه؛ إقامةً للسَّبب محلَّ المسبَّب؛ للتَّعبير عن علَّة ترْكِهم للسُّجود بأسلوب بليغ ومُؤثِّر[3].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

تعمُّد العناد والإصرار على رفض الحقّ من الله ورسله

استُعمِل فعلُ الاستكبار بدلًا من التَّكبُّر؛ لإظهار معنى التَّعمُّد، والإصرارِ على رفض الامتثال لأوامر اللّه ﷻ، وذلك بإعراضهم عن عبادته وتركِ طاعته، والتَّصدّي لدعوة رسُلِهِ إلى الإيمان به وتوحيده[4]، فالاستكبارُ يحمل دلالةً أعمق؛ إذ يُشير إلى محاولة التَّعالي المصطنع أمامَ الحقِّ، مع الإصرار على معاندة الدَّعوة إلى التَّوحيد، والاستكبار في حقيقته صورةٌ مضخَّمة للتَّكبُّر، والسّين والتّاء فيه للمبالغة، فالأصل فيهما إفادةُ الحُسبان والتَّوهُّم، فكأنَّهم

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 395.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 17/ 194.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 611.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 84.

حسبوا أنفسَهم أهلَ كبرياء عظيم، يتجاوز حدوده الطَّبيعية، نتيجةَ غلوِّهم في التَّكبُّر[1]، وتوهُّمهم العَظَمة التي لا تليق إلّا باللّه ﷻ.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ دون المضارع:

استكبارُهم في الماضي في سياق الشَّرط، تنزيلٌ له منزلةَ الأمر المتحقِّق

الفعل من قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ دالٌّ على المُضي[2]، وهي دلالةُ تحقُّق الفعل وثبوتِه، وإظهارُ استكبارِهم كواقعٍ قائم، لا موضعَ فيه للإنكار أو الشَّكِّ، بإصرارهم على موقفهم، وفي ذلك ملمحٌ بلاغيٌّ خفيٌّ، فإنَّ استكبارَهم هذا واقعٌ في سياق الشَّرط، فكأنَّه نزَّله هنا منزلةَ الأمر الواقع المتحقِّق.

دلالةُ التَّعبير بضمير الجماعة في قوله: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

شموليَّةُ استكبارِ المشركين جميعًا

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ يُشير إلى الجمع؛ ليشملَ جميعَ المشركين، فيُظهر بذلك أنَّ اللّه غنيٌّ عن عبادتهم جميعًا[3]؛ إذ لا يُنقِصُ من عَظَمته استكبارُهم أو إعراضُهم.

دلالةُ حذف متعلّق ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

استكبارٌ يتجاوز الامتناعَ إلى الامتثال للباطل

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعل ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ للإشارة إلى إطلاق دلالته على عدم الامتثال؛ إذ كان الظّاهر أن يُقال: استكبروا عن السُّجود أو عن العبادة، ولكنَّ العدولَ عن ذِكْرِه جاء ليكشفَ أنَّ استكبارهم لم يكن مُجرَّدَ رفضٍ للسُّجود أو العبادة للّه فحسب، بل تجاوز ذلك إلى عدم الامتثال لأمره حينما سجدوا لغيره تعالى[4].

غرضُ التَّعبير بالغَيبة في فعل الاستكبار:

تحقيرٌ واستنكار لإصرار المستكبرين على العناد والتَّجاوز

بعد أن خاطبَهم في الجملة السّابقة بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾، استعمل هنا طريقة الغيبة في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ لإظهار التَّحقير والإبعاد، وكأنَّهم لا يستحقّون شرفَ الخطابِ المباشر، ففي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 395.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(4) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 400.

هذا الانتقال البلاغيّ تعبيرٌ عن غضب اللّه واستنكارِه لسلوكهم، مع إيحاءٍ بأنَّ استكبارَهم قد أصبح أمرًا مفروغًا منه ومُتوقَّعًا[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّة، أي: لأنَّ الذين عند ربِّك...[2]؛ إذ تحمل الجملة تعليلًا لجواب الشَّرط المقدَّر، كأنَّ المعنى: فإن استكبروا عن السُّجود والطّاعة؛ فَدَعهم وشأنَهم، فإنَّ في مُلك اللّه تعالى مَن هم أحقُّ وأخلصُ في عبادته، وهم الذين عند ربِّك، يُسبِّحون له ليلًا ونهارًا بلا انقطاعٍ ولا فتورٍ[3].

دَعِ المستكبرين، ففي مُلك الله مَنْ هم أخلصُ في طاعته، لا يَفترونَ عن عبادته

سرُّ التَّعبير بالظَّرفية ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، ودلالةُ إضافتها:

الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ تُشير إلى الزُّلفى والمكانة الرَّفيعة، والكرامةِ العظيمة التي يحظى بها المؤمنون عند ربِّهم[4]، والقربِ من اللّه ﷻ، والتَّقديرِ الإلهيِّ للمؤمنين، ممّا يعزِّز شعورَ الطُّمأنينة والرِّضا في قلوبهم.

رفعةُ المقدار والحظوة الإلهيَّة والكرامة العظيمة

دلالةُ كاف الخطاب في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

تدلُّ كافُ الخطاب في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على خصوصيَّة المُقرَّبين من اللّه تعالى في درجة الرِّضا والكرامة، ممّا يعكس مكانتَهم الرَّفيعةَ والمميَّزة، ويَحظَون بالتَّقدير والعناية الإلهيَّة في كلِّ أحوالهم، ويبقى الكفّار عاجزين عن الوصول إلى مثل هذه المكانة، أو التَّقرُّب منهم بأيِّ وجه[5].

هم مُقرَّبون لديه في درجة الرِّضا والكرامة

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة دونَ اسم الجلالة (الله):

سرُّ التَّعبير بالرَّبِّ بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ بدلًا من الاسم الجليل

رتبةٌ عَليَّةٌ فيها البشارةُ للسُّعداء والنِّذارةُ للأشقياء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 8/ 298.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 355.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 201، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194، 195.

(اللّه)، يكمن في الإشارة إلى الإحسان والعناية الرَّبّانيَّة، ويمثِّل بشارةً للمؤمنين، ونِذارةً للكافرين[1]؛ إذ يتجلّى وصفُ الإحسان والرَّحمة في لفظ (الرَّبِّ)، ممّا يُبيِّن مدى القُرب والخصوصيَّة التي يتمتَّعُ بها المُقرَّبون من اللّه تعالى.

سرُّ إيثار التَّسبيح في قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾:

مقام التَّنزيه في بيان الإخلاص وإعلان التَّقديس

آثرتِ الآيةُ استعمالَ التَّسبيح في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ عوضًا من التَّحميد؛ لأنَّ السّياق يتحدَّث عن الشِّرك والسُّجود لغير اللّه تعالى، فجاء التَّسبيحُ ليُعبِّر عن تنزيه اللّه عن كلِّ نقص، ولإبعاده عن الشِّرك بما يليق بجلال عُلوِّه الأقدس وعزَّته الكبرى، دون أن يكون ذلك لأيِّ غرض آخر سوى الإخلاص التّامِّ في عبادته[2]، فكان المناسبُ هنا ذِكرَ التَّسبيحِ بمعنى التَّنزيه؛ لأنَّه موضعه، لا التَّحميدِ الذي يحمل معنى الثَّناء على النِّعَم.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يُسَبِّحُونَ﴾:

مواظِبون على التَّسبيح لا ينفكّون عنه لحظةً واحدة

التَّعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يحمل دلالةَ الاستمرار والتَّجدُّد؛ إذ يُشير إلى مواظبتهم الدّائمة على تسبيحه جلَّ ثناؤه من غير انقطاع أو فتور؛ إذ يستمدّون لذَّتهم وحياتهم من التَّسبيح، كما يُلْهَمُ الآدميّون النَّفَس.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

أقوامٌ مُعيَّنون مختصّون بتسبيحه تعالى وتقديسه مواظِبون على ذلك

تقديم الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يدلُّ على اختصاص فئة محدَّدة من الملائكة بالتَّسبيح المطلق للّه تعالى دونَ غيره من الأعمال؛ إذ إنَّ عملهم كلَّه مقصورٌ على هذه العبادة العظيمة، لا ينشغلون بسواها، ولا ينفكّون عنها طرفةَ عين؛ فلا يلحقُهمُ التَّعبُ؛ فالتَّسبيح لهم كالنَّفَس لبني آدم[3]، وإن كانت طوائفُ أخرى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195.

(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 5/ 54.

من الملائكة مكلَّفةً بأعمال أخرى، فإنَّ المراد في هذا المقام ذِكْرُ أولئك المواظبين على التَّسبيح دومًا، وأنَّ عملهم مقتصرٌ على التَّسبيح حسب[1].

سرُّ التَّعبير بالإضمار ﴿لَهُۥ﴾ دون الإظهار:

مَن عرف الله؛ اتَّقاه وخاف مقامه

لمّا جوزي أولئكمُ الملائكة الكرام بالتَّقريب؛ أداموا التَّسبيح مخلصين لله مُحبّين، واللّام حرف جر زائد للتأكيد، ولتقوية عبوديَّتهم بخالقهم وعبادتهم له، وإنَّما لم يقل هنا: يسبِّحون لله، كما جاء: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: 1]؛ للدَّلالة على أنَّه لا أحدَ يبلغ بعبادته أداءَ حقِّ اللّه عليه، ولا يَقْدُرُه قَدْرَه أداءً لحقِّه.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾:

ظرفيَّة الباء، ومشهد التَّسبيح، واحتضانُ الزَّمن المستمرِّ

حرف الباء في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة، كما هو شأنه في لسان العرب[2]؛ إذ يفيد التَّزامنَ مع الوقت؛ كنايةً عن دوام تسبيحهم لله تعالى باللَّيل والنَّهار، وتوالي الأيّام واللَّيالي[3]، ويُحتمل أن يكون حرفُ الباء في جملة التَّسبيح من الآية دالًّا على الإلصاق والتَّوكيد؛ ليُشيرَ إلى ارتباط التَّسبيح بزمانه اتِّصالًا وثيقًا، ممّا يُفيد الاستمراريَّة والدَّوامَ دونَ انقطاع[4].

دلالة (أل) في ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾:

الاستغراقُ الزَّمنيُّ في تسبيح الملائكة واستمراره

الألف واللّام في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ للاستغراق، "وذِكْرُ اللَّيل والنَّهار هنا لقصد استيعاب الزَّمان، أي: يسبِّحون له الزَّمانَ كلَّه"[5]، في إشارة إلى أنَّ الملائكة مستغرِقون في العبادة الوقتَ كلَّه من غير انقطاع في جميع لحظات اللَّيل والنَّهار، في أعلى درجات العبوديَّة والإخلاص.

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 144.
(2) السّامرائي، معاني النحو: 3/ 93.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195، والعثيمين، تفسير القرآن الكريم: (فصّلت)، ص: 204.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 24/ 167.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.

المعبود لا تخفى عليه خافيةٌ، والعباد لا يُراؤون بعبادتهم

سِرُّ تقديم اللَّيل على النَّهار:

يعلمُنا اللّهُ الالتذاذَ بذِكْره والاستئناسَ به، وأنَّ أدلَّ الأوقات على صِحَّة الحُبِّ وقوَّة اليقين ما استسرَّ به المَرْءُ وأخفاه، وأنَّ خُلوص العبد لربِّه مَجْلَبَةٌ لِنعمه عليه، وبذلك فلْيَتأسَّ أولو الهِمَم وذَوو العزائم، ومَن رام المنافسة على منازل القُرْب.

يُجدِّدون التَّسبيحَ والتَّنزيهَ مُستمرّين عليه في كلِّ وقتٍ

بلاغةُ الكناية في ذِكر اللَّيل والنَّهار:

لئن سأل سائلٌ عن وجه ذِكْر اللَّيل والنَّهار ظَرفًا لتسبيح الملائكة مع انتفاء ذلك الزَّمن بالنِّسبة إلى الملائكة في الملأ الأعلى؟ فالجواب عن ذلك: أنَّ قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إنَّما هو كناية عن استمرارهم في التَّسبيح، ودوامهم عليه[1]، زيادةً في مدحهم والثَّناء عليهم.

التَّسبيح ديدنهم الدّائم الذي لا ينفكّون عنه أبدًا

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ دالَّةٌ على العطف[2]، بعطف جملةِ نفي السّآمة والمَلل عن التَّسبيح، في إشارة إلى أنَّ هذا الفعل هو ديدَنهم الدّائمُ الذي لا ينفكّون عنه أبدًا[3]، ويجوز في الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ أن تكون دالَّةً على الحال[4]، في تعبير أدقَّ: عن الملائكة في حال تسبيحهم المستمرِّ دونَ سآمة أو مَلل، ويوضِّح مدى تفانيهم وإخلاصهم في العبادة، ممّا يجعل الإخبارَ عنهم بهذا الحال أكثرَ تأثيرًا وعمقًا، فشأنُ العمل الدّائم أن يسأم منه عامِلُه[5]، ممّا يعكس عجبَ حالِهم في عبوديَّتهم المستمرَّة للّه ﷻ.

تسبيحُهم الدّائم بلا سآمةٍ أو مَللٍ أمرٌ مُؤكَّدٌ

دلالةُ التَّعبير بالإضمار (هُمْ) عن الملائكة:

التَّعبير بالإضمار في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ عن الملائكة،

---

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 285، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 377.
(2) الخرّاط، المجتبى: 3/ 1125.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 513.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.

هو لتوكيد استمراريَّتِهم في التَّسبيح والتَّنزيه دونَ كللٍ أو ملل، وأنَّه هو عملُهم المستمرُّ(1)، كما أنَّه يُشير إلى تفرُّدهم واختصاصهم بهذه العبادة.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

دوامُ التَّسبيح وثباتُ التَّقديس

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ جملةٌ اسميَّة من المبتدأ والخبر(2)، تحمل دلالةً بيانيَّة رائعة على الدَّوام والثَّبات(3)، فهذا التَّقديم إظهارٌ لحالهم المستمرَّة التي لا تتغيَّر، فهُم على تسبيحهم دائمًا، لا يَمَلّون، ولا يتعبون، ممّا يعكس كمالَ إخلاصهم، وتمامَ استغراقهم في عبادة اللّه ﷻ.

دلالةُ التَّعبير بجملة ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ في ختام الآية:

لا يكلّون، ولا يملّون من عبادته وتقديسه، كما يسأم البشرُ أحيانًا

التَّعبير بقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ يحمل دلالةً بليغةً تُظهر تَفرُّدَ الملائكةِ في عبادتهم؛ إذ يُخبرنا النَّصُّ الكريم أنَّهم لا يصيبُهم المَلَلُ أو الكَلَلُ من عبادة اللّه تعالى، على عكس البشر الذين قد تعتريهم السَّآمةُ والمِلال أحيانًا(4)، مهما عَظُمَت همَّتُهم، وفي ذلك إظهارٌ لكمال طاعتِهم، وتمامِ إخلاصهم في عبادة ربِّهم.

سرُّ التَّعبير بنفي السَّآمة في قوله: ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾:

نفي البدايات قاضٍ على النِّهايات

السَّأمُ أوَّلُ مراحل الضَّجر؛ لأنَّه إحساسٌ في النَّفس لا يتَّجِهُ إلى الخارج، فلا يكون إلّا أثرًا على النَّفس، غيرَ مصحوبٍ بتذمُّرٍ ولا تسخُّطٍ، والمعنى: أنَّهم لم يفارقوا حُبَّهم للعبادة وإقبالَهم عليها، برغْمِ المداومة والتَّكرير، فهذا أدلُّ على امتلائهم بحبِّ اللّه وبعظمته وجلاله، وأنَّهم في عبادتهم مُؤيَّدون منه، وتفيضُ عليهم فيوضاتٌ، وتُجَدَّدُ لهم نِعَمُ تُمسُّكِهم بما هم فيه من قُرْبٍ ومناجاة وتسبيح.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 175.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 400.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 84.

خلودُ التَّسبيح وتجدُّده، ودوامُ العبادة، وكمالُ الإخلاص

دلالةُ المضارع في قوله: ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾:

دلالةُ المضارع في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ بيانٌ لحالهم المستمرَّة، التي لا يعتريها تبدُّلٌ، فهُم دائمون في تسبيحهم وعبادتهم دونَ انقطاع، والمعنى: أنَّهم على هذا الدَّوام المبارك لا يسأمون أبدًا، فلا يصيبهم فتورٌ أو مَللٌ في أيِّ وقت من الأوقات[1]، ممّا يعكس كمالَ استغراقِهم في عبادة اللّه ﷻ.

استكبارُ الأعداء وتسبيحُ الأولياء، والتَّناقضُ بين الجُحود والإخلاص

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ احتباكٌ، فقد ذُكِرَ الاستكبارُ أوَّلًا دلالةً على حَذْفِه في المقام الثّاني، وذُكِر التَّسبيحُ في المقام الثّاني دلالةً على حَذْفِه في الأوَّل، وسِرُّ هذا البناء البيانيِّ البديع: أنَّه جمعٌ بين تصويرِ أقبحِ صفاتِ أعداء اللّه تعالى - وهو استكبارُهم عن عبادته - وبين إبرازِ أحسنِ صفاتِ أوليائه[2]، وهو دوامُ تسبيحِهم وتنزيههم له؛ ليُظهِرَ التَّباينَ الكاملَ بين حال الفريقين في أجمل صورةٍ وأبلغ تعبير.

ذِكْرُ عبادة الملائكة تسليةٌ له ﷺ في مواجهة استكبار المشركين

الغرضُ من ذِكرِ الآية بمجموعها:

الغرضُ من قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ وطمأنتُه، فإنِ استكبر هؤلاء المشركون عن عبادة اللّه، فأوحشَ ذلك قلبَكَ - يا محمَّد - فاذْكُر عبادةَ مَن هم عند ربِّك من الملائكة، الذين يسبِّحون له ليلًا ونهارًا دونَ انقطاع ولا ملل، حتّى تستأنسَ بذِكْرهم[3]، وتعلمَ أنَّ للّه عبادًا مُخلصين لا يفتُرون عن تنزيهه وإجلاله، ويجوز أن يكون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 196.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 84.

الغرض من الآية إيضاحَ فداحةِ استكبارهم وحقارةِ موقفِهم، وهوانِ شأنِهم، وللتَّأكيد على أنَّ اللّٰه تعالى غنيٌّ عن عبادتهم، فهو لا يحتاج إلى طاعتهم وعبادتهم[1]، بينما يواصل الملائكةُ تسبيحَهم الدّائمَ بلا سآمةٍ أو مَلَلٍ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 17، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 354.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

آيـاتُ اللهِ تَتظاهرُ للعَبيدِ على إثباتِ التَّوحيدِ

لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى في السّياقِ السّابقِ آياتِ السّماءِ العلويّة ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾ [فصلت: 37] ذكَرَ هنا الآيةَ الأرضيَّةَ؛ ليستوعِبَ العِبادُ هَيْمَنةَ اللّهِ على الوجودِ عُلْويِّهِ وسُفْليِّه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَـٰشِعَةً﴾: (خشع) أَصْلٌ يَدُلُّ على التَّطامُنِ والتَّذلّل، يُقالُ: خَشَعَ، إذا تطامَنَ وطَأْطَأَ رأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشوعًا، وهوَ قريبُ المَعْنَى من الخُضوعِ، إلّا أنَّ الخُضوعَ في البَدَنِ والإقْرارَ بِالِاسْتِخْذاءِ، والخُشوعَ في الصَّوتِ والبَصَرِ كما في: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ [القلم: 43][2]، والمعنى المحوريُّ: هُبوطُ ما شأنِه الارتفاعُ والغِلَظُ، لِتَسيُّبِ أَثْنائِه[3]. قال الزَّمخشريُّ: "وأرضٌ خاشعةٌ: غير ممطورة"[4]. والمعنى هنا: يابِسةٌ.

2) ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: (هزّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على اضْطِرابٍ في شيْءٍ وحَرَكَةٍ. وهَزَزْتُ القَناةَ فاهْتَزَّتْ. واهْتَزَّ النَّباتُ، وهَزَّتْهُ الرّيحُ. وهَزَّ الحادي الإبلَ بِحُدائِه، واهْتَزَّتْ هيَ في سَيْرِها. وهَزيزُ الرّيحِ: حَرَكَتُها وصَوْتُها[5]. والهَزُّ: التَّحريكُ الشَّديدُ[6]. والمعنى المحوريُّ: تَحرُّكُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 567.
(2) ابنُ فارس، مقاييسُ اللُّغةِ: (خشع).
(3) محمد جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (خشع).
(4) الزمخشريّ، أساسُ البلاغةِ: 1/ 248.
(5) ابن فارس، مقاييسُ اللُّغةِ: (هز).
(6) الرّاغبُ، المُفرَداتُ: (هزز).

جِرْم الشَّيء حَرَكةً خفيفةً مُضطربةً أو مُتردِّدةً[1]. ومعنى ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: تحرَّكتْ بالنَّباتِ.

3) ﴿وَرَبَتۡ﴾: الرّاءُ والباءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ وكذلك المَهْموزُ منهُ يَدُلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهوَ الزّيادَةُ والنَّماءُ والعُلوُّ. تقولُ من ذلك: رَبا الشَّيْءُ يَرْبو، إذا زادَ. ورَبا الرّابيَةَ يَرْبوها، إذا عَلاها. ورَبا: أصابَهُ الرَّبْوُ؛ والرَّبْوُ: عُلوُّ النَّفَسِ، والرَّبْوَةُ والرُّبْوَةُ: المَكانُ المُرْتَفِعُ. ويُقالُ: أرْبَتِ الحِنْطَةُ: زَكَتْ، وهي تُرْبي[2]. والمَعْنى المِحوريُّ: نُموُّ الشَّيءِ مُستغلظًا مُرتفعًا. كالرّابيةِ ورَبْو الأرضِ[3]، والمعنى هُنا: زادتْ بِنَباتِها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الأرضِ آياتٌ للموقنين

يبيّن اللّهُ - سبحانه - آيةً من آياتِه الدّالةِ على وجوبِ إخلاصِ العبادةِ له فيقول: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾[4]؛ أيْ: ومِنَ الدّلائل على قُدرتِه تعالى على البَعثِ، وإحياءِ الموتى بعد بِلاها، وإعادتِها لهيئَتِها كما كانتْ من بعدِ فنائِها - أنّكَ ترى الأرضَ يابسةً غبراءَ لا نباتَ بها ولا زرعَ، فإذا نزل عليها الغيثُ من السّماءِ تحرَّكت بالنَّباتِ وانتفختْ وأخرجتْ ألوانَ الزَّرعِ والثِّمار، كما يُشاهَد ذلك من ارتفاعِ الأرضِ وانتفاخِها، ثُمّ تصدُّعها وتشقُّقها إذا حانَ ظهورُ النَّباتِ منها، وتراهُ يسمو في الجَوِّ ويُغطّي قِشرتَها، ثمّ تتشعَّبُ عُروقُه، وتَغلُظ سوقُه[5]. إنَّ الذي أحْيا هذه الأرضَ المَيتةَ بالإنباتِ لَمُحيي الموتى وباعثُهم للحسابِ والجزاءِ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا يُعجِزُهُ إحياءُ أرضٍ بعدَ موتِها، ولا إحياءُ المَوْتى وبعثُهم من قبورِهم[6].

---

(1) محمد جبل، المُعجَم الاشتقاقيّ: (هزز).
(2) ابنُ فارس، مقاييسُ اللغةِ: (ربو).
(3) محمد جبل، المُعجَم الاشتقاقيّ: (ربو - ربى).
(4) طنطاويٌّ، التّفسيرُ الوسيطُ: 12/ 355.
(5) المَراغيُّ، تفسير المَراغيِّ: 24/ 136.
(6) مركزُ تفسير، المُختَصَرُ في التَّفسيرِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها في ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

قَوْلُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ عَطْفٌ على قولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ [فُصِّلت: 37][1]، ودلالةُ العطفِ البلاغيّةُ: الرَّبطُ بين الآياتِ العُلويَّة البعيدةِ من جهةِ السّماءِ: (الليل، النّهار، الشمس والقمر)، وبين الآياتِ السُّفليَّة القريبةِ من جهةِ الأرضِ. وفي هذا العَطْفِ إدماجٌ بين الظَّواهرِ الكَونيَّةِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ لإظهارِ التّكامُلِ والتَّدرُّجِ في نظامِ الكونِ، فاللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقمرُ لها دورٌ في ضبطِ الزَّمانِ، وإمدادِ الطّاقةِ، وسائرِ ظُروفِ البيئةِ، التي تُؤثِّر في حياةِ الكائناتِ الأرضيَّة: النّباتِ والحَيَوان والإنْسان، فمعاشاتُ الأرضِ وأرزاقُها وأمطارُها وحيواتُها المُتجدِّدةُ بعد مَواتِها ترتبطُ ارتباطًا مُباشرًا بحوادثِ اللّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقمرِ، والعطفُ يُبرزُ هذا التَّكامُلَ والاندماجَ؛ للكشفِ عن نظامٍ ذي وحْدةٍ واحدةٍ في تكوينِه، وشديدِ الاندماجِ في أجزائِه وتركيبِه. وهذا الانتقالُ - المُبَرَّزُ بحرفِ العطفِ - من المظاهرِ السَّماويّةِ إلى الحوادثِ الأرضيّة يُعزِّزُ الغايةَ الإيمانيةَ وهي تحقيقُ السُّجودِ للّهِ وحدَهُ وإخلاص العبوديّة له وحْدَه؛ لأنّه إنباءٌ عن اتِّساعِ وشُمولِ صفةِ الخالقيَّةِ للّهِ سبحانه، لامتلاكِه وتصريفِه لمقاليدِ السَّمواتِ والأرضِ تصريفَ إحياءٍ وإمدادٍ وتجديدٍ وميلادٍ، فالعطفُ بين الجُملتيْنِ أظهرَ تَحكُّمَ اللّهِ سبحانه في كلِّ شيءٍ، من فوقِنا، ومن تَحتِنا، ومن حَولِنا، وجَلَّى لنا تنوُّعَ آثاره في ذلك بتعدُّدِ مخلوقاتِه وتكامُلِها العجيبِ رغم تبايُنِها الواسعِ.

حَيَواتُ الوُجودِ الأرضيِّ مُرتبطةٌ بحوادثِ الوجودِ العُلويّ

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ المُتعلّقِ بمحذوفِ خبرٍ مُقدَّمٍ للمُبتدأِ المُؤخَّرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 302.

(المَصدَر المُؤوَّل)[1]؛ للاهتمام والاختصاص والحَصر؛ أيْ: رؤيتك الأرضَ على حالِها المذكورِ - من آياته وحدَه لا تكونُ إلّا منه. والتَّقديم هنا يُعزِّزُ التَّشويقَ إلى مضمونِ هذه الآياتِ التي سيأتي تفصيلُها بعدُ، فتَتَشَوَّفُ لها النَّفْسُ. وتقديمُ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يسترعي انتباهَ السّامعِ تجاه ما سيُلْقَى عليه، بإعلامِه - أوّلًا - أنّه من الآياتِ العظيمةِ التي هي من دلائلِ أُلوهيَّةِ اللّهِ سبحانه، فيتلقّاها بالإجلالِ والتَّعظيم.

الآيـاتُ سابقةٌ إمكانَ العقولِ ومعهودَها؛ فهي مُتقدِّمةٌ واقِعًا ونظْمًا

معنى (مِنْ) ودلالتُها في: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

(مِنْ) في قولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تبعيضيّةٌ[2]؛ فرُؤيةُ الأرضِ خاشعةً ليست كلَّ الآياتِ، بل جزءٌ من آياتِ اللّهِ الكثيرةِ التي لا تُحصَى. فالتَّبعيضُ يُؤذِنُ ضِمْنًا بالكَثْرةِ والتَّنوُّعِ في آياتِ اللّهِ.

مـن طـلاقـةِ الـقُـدرةِ نَـشَـأَ إعجازُ الآياتِ

ويصحُّ أن تكون بيانيَّةً، على أنّ (مِنْ) تُبيِّنُ جِنْسَ المذكورِ لاحقًا: ﴿تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾، بكونِه من آياتِ اللّهِ ودلائِلِه على وحدانيّتِه؛ فهي تَبيينٌ للنَّوعِ المُندَرِجِ تحتَ جنسِ الآياتِ.

ويصحُّ أنْ تكونَ ابتدائيَّةً على معنى: أنّ رؤيتَكَ الأرضَ خاشعةً وإحياؤها بعدَ مواتِها ناشئٌ وصادرٌ - في عظمتِه ودلالتِه على الأُلوهيَّة - من جهةِ الآياتِ الرَّبّانيَّةِ الفَذَّة، كأنّه قيلَ: ذلك المذكورُ صادرٌ من جهةِ الإبداعِ الفَذِّ والإعجازِ العجيبِ المُعبَّر عنه بالآياتِ. وفي ذلك المعنى إشْعارٌ بتتبُّعِ الآياتِ؛ لأنّها بدايةُ اليَقينِ، والإيمانُ مُتحقِّقٌ من جهتِها.

غرضُ الجمعِ والإضافةِ في: ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

تـنـوُّعُ أفـرادِ الـجـنـسِ دلـيـلٌ على وسْعِ القُدرةِ وشُمولِها

جاءت كلمةُ: ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ بصيغةِ الجمعِ مع إضافتِها لضميرِ الجلالِ العائدِ على اللّهِ سبحانه، فالجمعُ يدلُّ على تنوُّعِ الآياتِ وكثرتِها، بما يدلُّ على شُمولِ القدرةِ وطَلاقتِها.

(1) صافي، الجدول: 12/ 314.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 168.

والإضافةُ إلى ضميرِ الجلالِ يدلُّ على المِلكيَّةِ والتَّفرُّد، فالآياتُ مِلْكٌ له وحدَه، وهو سبحانَه مُتفرِّدٌ بخَلْقِها وتجليتِها، وتعريفُ الآياتِ بالإضافةِ إلى ضميرِ الجلالِ تعظيمٌ لها وتنويهٌ بشأنِها، والغرضُ من ذلك التَّعظيمِ: أن يتلقّاها المُكلَّف بالقوَّة ويتفاعلَ معها بالعزمِ والجادَّةِ، ولا يخفى ما في الجمعِ والإضافةِ - معًا - من تعظيمِ وتفخيمِ خالقِها ﷻ[1]، كما لا يخفى أنّ في إضافتِها إلى ضميرِ الجلالِ التَّنبيهُ على مصدرِها، وأنّها آياتٌ ربّانيّةٌ إلهيّةٌ.

دلالةُ التَّوكيدِ في ﴿أَنَّكَ﴾:

استِحضارُ المسؤوليّةِ الشَّخصيّةِ في الخِطابِ بدلائلِ الإيمانِ والتَّوحيدِ

تصديرُ الجملةِ بالتَّوكيدِ في: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ لتحقيقِ مضمونِ الجملةِ وتعميقِ أثرِه في النُّفوسِ، تَنْبيهًا على أنَّ ذلك حقيقةٌ واقعةٌ، وهو أنّ كلّ مَنْ يصلحُ خطابه يشهدُ ويرى بحواسِّهِ الأرضَ خاشعةً، فلا مجالَ لإنكارِ ذلك أو دَحْضِه؛ فهو بمثابةِ تجربةٍ حِسّيَّةٍ ومتواترةٍ في عثومِ المُخاطَبين، وهذا التَّشديدُ الحاصلُ بالتَّوكيدِ تمهيدٌ للتَّغيُّر والتَّحوُّل الإعجازيِّ للأرضِ من الموتِ إلى الحياةِ. كأنّه يقولُ للمُخاطَب: تأكَّدَ عندكَ من خلالِ رُؤيتِك أنَّ الأرضَ يابسةٌ مَيّتةٌ، فاعتبِرْ كيف تحوَّلتْ من تلك الحالِ إلى حالِ الحياةِ والازدهارِ، فما تأكّدَ برؤيتِكَ ممّا لا مجالَ للرَّيبِ فيه هو حُجَّةٌ عليكَ إذا تنكّبْتَ موجِبَه مِنَ الإقرارِ بوَحدانيَّة اللّهِ وإخلاصِ العبوديّةِ له.

نُكتةُ إجراءِ الآيةِ على الخطابِ في ﴿أَنَّكَ تَرَى﴾:

الخِطابُ إشهادٌ من اللهِ للإنسانِ على قُدرتِه

إجراءُ الآيةِ على الخِطابِ في قولِه: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾؛ ولم يُخْلِها من الخطابِ كما أخلى نَظيرَها في قولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: 37] وذلك لِنِكاتٍ، منها:

أوّلًا: التَّفريقُ بين آياتِ السَّماءِ وآياتِ الأرضِ؛ فآياتُ السَّماءِ:

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 17/ 196.

﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ [فصلت: 37] جُرِّدتْ عن الخطابِ؛ لِبُعدها عن إمكانِ الإنسانِ، فهي عظيمةٌ عاليةٌ، ليست في متناوَلِه. وأمّا آياتُ الأرضِ: ﴿ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾؛ فاقترنتْ بصيغةِ الخِطابِ المُباشِرِ؛ لمباشَرَةِ الإنسانِ لها، وإمكانِه عليها وتأثيرِه فيها.

ثانيًا: تحقيقُ التَّناسُبِ مع مضمونِ الآيةِ، فالآيةُ جاءتْ بالخطابِ: ﴿أَنَّكَ﴾؛ لاشتمالِها على فِعلِ الرُّؤيةِ، وإذا كان ذلكَ كذلكَ، فلا بُدَّ من ذِكْرِ الرّائي المُشاهِدِ (فاعل الرُّؤية)؛ فجاءَ نَمَطُ الآيةِ على استحضارِه بالخِطابِ.

ثالثًا: إشهادُ الإنسانِ على تجاربِه التي يُلابِسُها ويُلامِسُها اقتضى توجيهَ الخطابِ إليه، ليكونَ ذلك أكثرَ إقناعًا له، وزيادةً للإيمانِ في قلبِه، واحتجاجًا عليهِ بما لا انقطاعَ له عن مُشاهدتِه ومعايشتِه والانخراطِ فيه، فهو احتجاجٌ عليهِ بما هو في نطاقِ حواسِّه، وذلك أبلغُ وأوْلَى أن يُساقَ على أسلوبِ الخطابِ من غيرِه.

رابعًا: تصديرُ المَشهدِ بالخطابِ فيه نوعُ تكريمٍ وتشريفٍ للإنسانِ بإشراكِه واستحضارِه فيما هو لصيقُ العِلمِ به، والقياسِ له، فالخطابُ شهادةٌ - ضِمنيّةٌ - من اللّهِ سبحانه لذلك الإنسانِ بأنّه يعلمُ ويُدرِكُ ويعقِلُ ما هو في حَيِّزِه ونطاقِه، فهو من أهلِ الرُّؤيةِ والعِلمِ والعقلِ، وهذه تزكيةٌ للإنسانِ تُحفِّزُ عزيمتَه على الاستجابةِ والامتثالِ، فالخطابُ جمعَ بين الاعتدادِ بِنَظَرِ الإنسانِ تشريفًا له بذلك، وبين الاحتدادِ والاشتدادِ عليه إذا هو لم يقبلْ، تخويفًا له أنْ يكونَ ذلك الإشهادُ بالخطابِ حُجَّةً ضِدَّه.

دِلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿تَرَى﴾:

الرّؤيةُ البصريَّةُ هي مفتاحُ اليقينِ والجزمِ

التَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ للدّلالةِ على استحضارِ المَشهدِ في الزّمنِ الحاضرُ، واستمرارِ حدوثِ الفِعلِ، ممّا

يوقِف السّامعَ أمامَ الآيةِ المذكورةِ كأنّها تحدثُ أمامَه الآنَ وهو يُباشِرُ الاطّلاعَ عليها ومُعايَنتها. وهذا يجعلُ هذه الظّاهرةَ أكثرَ تأثيرًا في المُخاطَبِ، ممّا يدفعُهُ إلى التَّأمُّل المَكرورِ والمُتجدِّد فيها. كما أنَّ التَّعبير بالمُضارعِ في رُؤيةِ الظّاهرةِ يَدلُّ على تَكرارِ الظّاهرةِ، فاستمرارُ الرُّؤيةِ مُشعِرٌ بتكرارِ المَرئيِّ. وهذا التَّكرارُ يُعزِّزُ اليقينَ في الحُدوثِ؛ أيْ: إنَّ هذا مَشهدٌ مَكرورٌ، فيستلزمُ الاستيقانَ في ثبوتِهِ واطِّرادِهِ، فيورثُ ذلك اليقينَ في قلبِ المُتَلَقّي؛ لِأنّه بصددِ آيةٍ مُتجدِّدةٍ، كلَّما طلبها وجَدَها! فأنَّى يغفُل عنها أو يتناساها فلا عُذرَ لَهُ.

مَرجِعُ الخطابِ في: ﴿أَنَّكَ تَرَى﴾:

مــن مـقــاصـدِ الخطابِ الإلهيِّ تعزيزُ مسؤوليّةِ الفردِ

الخطابُ في قولِهِ: ﴿أَنَّكَ تَرَى﴾ مُتوجِّهٌ لغيرِ مُعيَّنٍ، فيعود على كلِّ مَنْ تصحُّ منه الرُّؤيةُ[1]، ويدخلُ فيه الرَّسول ﷺ دُخولًا أوّليًّا. وجاءَ الخطابُ بالإفرادِ، ولم يَقُلْ: (أنّكم ترون) رغم أنَّ الخطابَ على العموم؛ لإشعارِ كلِّ فردٍ باستقلالِهِ في توجيهِ الخطابِ له، وذلك أبلغُ في التَّأثيرِ، وآكَدُ في تقريرِ مسؤوليَّةِ الفردِ وحسابِ كلٍّ عن نفسِهِ. وأيضًا: في سياقِ الشُّهودِ لمظاهرِ الوجودِ؛ فإنَّ الأمرَ يقتضي تدبُّرًا ذاتيًّا، وعِرفانًا شخصيًّا، وتقديرًا فرديًّا، ولذا كان إفرادُ الخطابِ أكثرَ ملاءمةً من الجمعِ؛ ليتفكّر كلُّ شخصٍ في هذه الآيةِ بنفسِهِ، إذِ التَّدبُّرُ وإعمالُ العقلِ هو في أصلِهِ وظيفةٌ فرديّةٌ، وخصلةٌ أُحاديَّةٌ.

معنى الرُّؤيةِ في: ﴿تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾:

رؤيــةُ الـبـصـرِ تـوطـئـةٌ لـرؤيـةِ البصيرةِ

الرُّؤيةُ في قولِهِ: ﴿تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾ يحتملُ أن تكون بصريَّةً؛ وهي المُتعدّية إلى مفعولٍ واحدٍ، و﴿خَٰشِعَةً﴾ حالٌ من المفعولِ؛ لأنَّ الآيةَ المذكورةَ من المُبصَراتِ، ويحتملُ أن تكون عِلميَّةً قلبيَّةً بمعنى: (ألم تعلم)؛ فتتعدَّى إلى مفعولَيْن[2]، فالمفعولُ الأوَّلُ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾،

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 12/ 377، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 302.

(2) درويش، إعراب القرآن: 8/ 565، والسّامرّائيّ، معاني النحو: 2/ 12.

والمفعولُ الثّاني: ﴿خَٰشِعَةٗ﴾؛ لأنَّ من النّاسِ مَن يقضي عُمُرَهُ كُلَّهُ ولا يرى أرضًا يبستْ ثمّ اخضرَّت - فهذا واردٌ في الإمكانِ - لكنَّه يُخْبَر فيعلَم علمًا قلبيًّا، فهذا تكون الرُّؤيةُ في حقِّهِ علميَّةً، وكذلك: ليس في الإمكانِ رؤيةُ جميعِ الأرضِ، فهناك قَدْرٌ في الرُّؤيةِ لم يُبْصَر مَقيسٌ على ما حصلَ برؤيةِ العينِ، فبعضُ الأرضِ مَرْئيٌّ بحاسَّةِ البَصَرِ، وبعضُها مَرْئيٌّ بعينِ البصيرةِ، قياسًا على ما أبصَرَتْ[1]. وعلى كلٍّ، فرؤيةُ العينِ يتركَّب عليها نظرُ العَقلِ واعتبارُ القلبِ، فالمقصودُ من رؤيةِ البصرِ إثارةُ رؤيةِ البصيرةِ، فهو نظرٌ وإبصارٌ يورثُ البصيرةَ والعِلمَ القلبيَّ، ولذلك عبَّرَ بالرُّؤيةِ دونَ العِلمِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَدخَلَ هذا العِلمِ رؤيةٌ بالعينِ الباصرةِ، والمُشاهَدَةِ النّاظِرةِ، وأمّا العِلمُ فلا يدلُّ على اقترانِهِ لرؤيةِ المُشاهَدة.

دلالةُ التَّعريفِ في: ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

تعريفُ الفردِ من الجنسِ هو تعريفٌ للعهدِ وليس للاستغراقِ

التّعريفُ في: ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قولِهِ: ﴿تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾؛ للعهدِ؛ أيْ: ذلك المَحلّ الذي تتَّجِهُ إليه رؤيتُك من الأرضِ. غير أنَّ تلك العهديَّةَ تحمِلُ معنى العمومِ الضِّمنيِّ؛ لأنَّ كلَّ أرضٍ تخضع لهذه الظّاهرة (التحوُّلُ من المواتِ إلى الحياةِ)، فالتّعريفُ بذلك للاستغراقِ، أو لتعريفِ الحقيقةِ السّاريةِ في جنسِ الأرضِ، وعلى ذلك فهناك مواضعُ لا تدخلُ تحتَ الرُّؤيةِ البصريَّةِ، وهو ما خرجَ من الأرضِ عن حيّزِ الإبصارِ، فهذا مَرْئيٌّ رُؤيةً قلبيَّةً عِلميَّةً قياسًا على المَشهودِ بالعينِ منها، ولذلك قال البقاعيُّ: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أيْ: بعضها بحاسَّة البَصَرِ، وبعضُها بعينِ البصيرةِ قياسًا على ما أبصرْتَه[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿خَٰشِعَةٗ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ تأتي كلمةُ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 196.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 196.

الجمادات خاشعةٌ قابلةٌ لإمدادِ الحياةِ

﴿خَٰشِعَةٗ﴾ على سبيلِ الاستعارةِ المَكْنيَّة، ووجْهُ الاستعارةِ تشبيهُ الأرض الجافَّةِ التي لا نباتَ فيها بإنسانٍ خاشعٍ مُتطامنٍ من التّذلُّل[1]؛ لأنَّ الخشوعَ يوحي بالسُّكونِ والإخفاض. ثم حُذفَ المُشبَّه به (الإنسان)، ورُمِزَ إليه بأحدِ صفاتِه (الخاشعة) على سبيلِ الاستعارةِ المَكْنيَّة[2]. وهذا التَّصويرُ يُبرز حالةَ الأرضِ قبل نزولِ المَطَرِ وتَشَرُّبَها بالماءِ، فهي قبلَ ذلك خافضةٌ لانكماشِها بالجفافِ، وساكنةٌ لخُلوِّها من حيويَّةِ الرّيِّ، فلا انفعال فيها بحركةِ الإنباتِ والإثمار.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾:

أوْلى بالإنسانِ أن يخشعَ ويحيا بإمدادِ الوحي، كما انفعلتِ الأرضُ لإمدادِ الغيثِ

في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾ جاءتْ كلمةُ ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ على سبيلِ الاستعارةِ المَكنيَّة[3]، فقد شُبِّهتِ الأرضُ بالحيوانِ الحيِّ الذي يَستجيبُ للماءِ بالحركةِ والنَّشاط، وكأنّها تهتزّ فرحًا واستبشارًا بعد نزولِ المَطَر. حُذفَ المُشبَّهُ به (الكائن الحيّ) ورُمِزَ إليه بصفةٍ من صفاتِه - وهي الاهتزازُ - ممّا يجعلُ الاستعارةَ مَكنيَّةً.

بلاغةُ الاستعارة: توحي الاستعارةُ بالحيويّةِ والنَّشاطِ الذي يدبُّ في الأرضِ بعدَ نزولِ الماءِ، مما يُبرزُ عَظَمَةَ قدرةِ اللهِ في إحياءِ الأرضِ المَيْتَة، وهذه الاستعارةُ تخلقُ صورةً حيّةً محسوسةً تجعلُ السّامعَ يتخيَّلُ الأرضَ وكأنَّها تستجيبُ بالحركةِ والنَّبْضِ لنزولِ الماءِ، ممّا يُعمِّقُ أثرَ الآيةِ في النَّفْس، فتجمعُ بين التَّجسيدِ والتَّشخيص، فتُضْفي على الأرضِ صفةَ الكائنِ الحيِّ المُتفاعِل[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَرَبَتۡ﴾:

علامةُ الحياةِ استمرارُ النُّموّ وظهورُ الانفعالِ

في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ جاءتْ كلمةُ (ربت) على سبيلِ الاستعارةِ المَكْنيَّة.

(1) ابن فارس، مقاييسُ اللُّغةِ: (خشع).
(2) القونَويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 168، ودرويش، إعراب القرآن: 8/ 565.
(3) درويش، إعراب القرآن: 8/ 565.
(4) درويش، إعراب القرآن: 8/ 565.

وإجراء الاستعارة: شُبِّهتِ الأرضُ بالكائنِ الحيِّ الذي ينمو ويزدادُ حجمُهُ (يربو)، وكأنّها بعد نزولِ المطرِ تنتفخُ وترتفعُ بما يَنبُتُ عليها من الزَّرعِ والنَّباتِ. فحُذفَ المُشبَّهُ به (الكائن الحي) ورُمز إليه بصفةٍ من صفاتِهِ؛ وهي (الربو): (الانتفاخ والارتفاع) على جهةِ الاستعارةِ المَكْنيَّة. وبلاغةُ الاستعارةِ في هذا الموضع يكتنفُها دلالاتٌ:

أوّلًا: التَّجسيدُ والتّشخيصُ: منحتِ الاستعارةُ الأرضَ صفاتِ الذّواتِ الحيّةِ، ممّا يُضفي على المشهدِ حيويّةً وانفعالًا واقعيًّا.

ثانيًا: الإيحاءُ بالنُّموِّ والخصبِ: تصويرُ الأرضِ بأنَّها (ربَتْ) يوحي بنُموِّ الزّرعِ وامتلاءِ الأرضِ بالحياةِ، وهو تعبيرٌ عن قوّةِ التّأثيرِ الإلهيِّ في إحياءِ الأرضِ المَيْتَة.

ثالثًا. التكامل مع ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾: الجمع بين الاهتزاز والربو يصوّر دورة حياةٍ كاملةٍ في الأرض، من الاستجابة الأولى لنزول المطر إلى الإثمار والنّماء.

رابعًا: من النّاحيةِ اللّفظيَّة: تُضفي الاستعارةُ بُعدًا جماليًّا على النَّظْمِ، حيث تجعلُ القارئَ يرى الأرضَ وكأنّها شخصٌ حيٌّ ينبضُ بالحياةِ. هذا الاستخدامُ البلاغيُّ يُعظِّم من أثرِ نزولِ الماءِ ويُجلّي قدرةَ اللّهِ تعالى في إحياءِ الأرضِ[1].

بلاغةُ موقعِ جُملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾:

الحقيقةُ الإيمانيّةُ مَنوطةٌ بالظّاهرةِ الكونيَّةِ

جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ - جوابًا عن سؤالٍ نشأ ممّا قبلَه، تقديرُهُ: كيف يُمكنُ أنْ يكونَ إحياءُ الأرضِ دليلًا على قُدرةِ اللّهِ على إحياءِ الموتى؟ أو: مَن الذي يملكُ القدرةَ على إحياءِ الموتى كما أحيا الأرضَ؟ فأُجيب: (إنّ الذي أحيا الأرضَ بعد موتِها هو ذاتُه القادرُ على إحياءِ المَوْتى)[2].

(1) درويش، إعرابُ القرآنِ وبيانُه: 8/ 565.
(2) صافي، الجدول: 12/ 314.

ويصحُّ كذلك أن تكون الجملة تعليلًا لحدوثِ الظّاهرةِ المذكورةِ وربطِها بالحقيقة الغَيبيّةِ (إحياء الموتى)، وهذا التَّعليل جاءَ في أبلغِ صورةٍ له؛ لأنّه علَّل الظّاهرة بالذّات العليّة، بما يذهبُ بالأذهانِ إلى وسْع صفاته وكمالِ قدرته سبحانه، والمعنى على التَّعليل: ذلك المذكور من ازدهار الأرضِ بعد جَدبِها إنّما كان مُمْكِنًا حصولُه رغمَ كونِه آيةً عظيمةً؛ لأنّ الذي أحياها هو اللّهُ الذي يُحيي الموتى كما أحياها[1].

ويصحُّ أنْ تكون الجملةُ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لكونها تأسيسًا لمعنًى جديدٍ، وتقريرٍ مُستقلٍّ للحقيقةِ الإيمانيّةِ بأنّ اللّهَ الذي أحيا الأرضَ قادرٌ على إحياءِ الموتى. فالغرضُ من الجملة هو التّوكيدُ والإعلانُ عن قدرةِ اللّهِ المُطلقةِ بشكلٍ عامٍّ، وليس فقط في سياقِ إحياءِ الأرضِ، والاستئناف الابتدائيّ يُقرِّر المعنى بأقوى أسلوبٍ، حيث تُطرح الحقيقةُ كقاعدةٍ مُستقلّةٍ يتأمَّلها المُخاطَبُ، كأنّه يتفرَّغ لها وحدَها، فليستْ مُرتبطةً بما قبلها مباشرةً بسؤالٍ مُقدَّرٍ أو تعليلٍ لما سبق، كما في وجهي الاستئنافِ البيانيِّ أو التَّعليليِّ[2].

بلاغةُ الإدماجِ:

ما تـراهُ الأعـينُ مَنوطٌ بحقائقَ لا تراها

وفي اقترانِ إحياءِ الأرضِ بإحياءِ المَوْتى إدماجٌ بديعٌ[3] يربطُ بين المَشاهِد الحِسّيَّةِ (إحياء الأرض) والحقائقِ الغيبيَّةِ (البعث). وهذا الإدماجُ بين المَشاهِدِ الحِسّيَّةِ والدليلِ الغيبيِّ يُعدّ جزءًا من منهجِ القرآنِ في الاستدلالِ، وهو من عاداتِ القرآنِ المُطَّردةِ، حيث يَعبُرُ بالمُخاطَبِ من مظاهرِ القُدرةِ الإلهيّةِ المشهودةِ إلى حقائقِ الغيبِ المَقيسةِ عليها؛ ليقْبَلَها ويُؤمنَ بها.

بلاغةُ حُسنِ التّخلُّصِ:

المَشاهِدُ الكونيّةُ مُقرِّرةٌ للحقائقِ الإيمانيّةِ

في الانتقالِ من تفصيلِ الحقيقةِ الحِسّيَّةِ إلى تقريرِ الحقيقةِ

(1) الخطيب، التّفصيلُ في الإعرابِ: 24/ 321.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 303.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 303.

الغَيبيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ - حسنُ تخلُّصٍ إلى الغرضِ الذي لأجلهِ سيقَ الكلامُ، وهو تقريرُ قدرةِ اللّهِ المُطلَقَةِ على إحياءِ المَوتى، وحصلَ تخلُّصُ النتيجةِ (الموضوع الثّاني - إحياء الموتى) من المُقدِّمةِ (الموضوع الأوّل - إحياء الأرضِ) في انتقالٍ سلسٍ متناغم من غيرِ فجأةٍ ولا غرابةٍ مع تماسكٍ بين الغَرَضيْن، فولّدَ تقرير الحقائقِ العَقَديّةِ من وصف المشاهد الكونيّة، بتدرُّجٍ مُحْكَمٍ، وانتقالٍ يخلو من الفَجْوةِ والتّكلُّف، ويقوم على الضَّرورةِ والمَنطِقِ.

نكتةُ استهلالِ الجملةِ بالتّأكيدِ في: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾:

القضايا الغيبيَّةُ تستلزمُ توكيدًا يُثبِّتُها في النُّفوسِ

استهلالُ الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ في ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾، ثمّ تأكيدُ الخبرِ بلامِ التّوكيدِ ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾، جاء ذلك التّوكيدُ مُناسبًا للمَقام، فالمقامُ هنا مقامُ استدلالٍ وإقناعٍ، وذلك يقتضي استعمالَ أدواتِ التّأكيدِ؛ لتثبيتِ المعنى في النُّفوسِ، لا سيِّما الحديث عن قضايا غيبيّةٍ مثل البعثِ.

وأيضًا: استعمالُ أسلوبي التّوكيدِ: (﴿إِنَّ﴾، واللام)؛ يندفع به الشَّكُّ والتَّردُّدُ والإنكارُ الحاصلُ في المخاطَبين، فيجعل المضمونَ قطعيًّا لا يقبلُ الجدالَ[1].

كذلك: ترسيخُ الحقيقةِ الإيمانيّةِ وتثبيتُها بتوكيدِ قدرةِ اللّهِ المُطلَقةِ في الشُّهودِ والغيبةِ؛ فجاء التَّوكيدُ في النَّظْم على أنّ ما يُشاهدونه من إحياءِ الأرضِ دليلٌ قطعيٌّ على قُدرةِ اللّهِ على إحياءِ الموتى.

دلالةُ تعريفِ المُسنَدِ إليه بالموصوليّة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾:

اللهُ هو الغايةُ المقصودةُ بالعِرْفانِ والبَحْثِ

تعريفُ المُسنَد إليه بالموصوليّة في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ له دلالاتٌ؛ منها، التّعظيمُ والتَّفخيمُ؛ فتعريفُ المُسنَدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 303.

إليه باسمِ الموصولِ بدلًا من الاسمِ الصَّريحِ (اللّه) يُبرزُ صفةً عظيمةً للّهِ تعالى مُرتبطةً بالفعلِ المشهودِ: إحياء الأرضِ.

هذا (إجراءُ صفةِ الإحياءِ على الذّاتِ) يُضفي على المُسنَدِ إليه جلالًا، ويجعلُ القارئَ يتأمَّلُ في هذه الصِّفةِ قبل الانتقالِ إلى النتيجةِ الكبرى (إحياء الموتى).

إبرازُ العلاقةِ بين الفعلِ والفاعلِ: فتركيبُ الموصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾ يُركِّز على وصفِ اللّهِ بفعلِه المشهودِ، وهو إحياءُ الأرضِ، ممّا يجعلُ السّامع أو القارئَ يُقرُّ بقدرةِ اللّهِ عن طريقِ ربطِ الفعلِ بالمصدرِ الفاعلِ (اللّه تعالى).

الإقناعُ والاستدلالُ: إظهارِ الفاعلِ بصفتِهِ المرتبطةِ بفعلٍ مشهودٍ ﴿أَحۡيَاهَا﴾ يجعلُ القضيّةَ الإيمانيّةَ (إحياء الموتى) أكثر إقناعًا؛ لأنّ السّامع يشهدُ إحياءَ الأرضِ، ويُقرُّ بأنّ الفاعلَ هو اللّه، فيطمئنَّ قلبُهُ إلى أنّ الفاعلَ قادرٌ على إحياءِ الموتى.

الربطُ بين المُقدِّماتِ والنَّتائجِ: تعريف المُسنَدِ إليه بالموصوليّةِ مُشعِرًا بتعليلِ الخبرِ (مُحْيي الموتى)[1] ممّا يجعلُ صلةَ الموصولِ ﴿أَحۡيَاهَا﴾ مُقدِّمةً منطقيَّةً للخَبَرِ في قولِه: ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾، فيخلقُ بذلك ترابطًا قويًّا بين الدّليلِ (إحياء الأرض) والنّتيجةِ (إحياء الموتى).

التّشويقُ والتَّنبيهُ: تقديمُ اسمِ الموصولِ يُثير انتباهَ المُخاطَبِ لاستشرافِ صلةِ الموصول (الفعل المرتبط به)، ممّا يدفعه إلى التَّدبُّر في فعلِ الإحياءِ ودلالتِهِ العظيمةِ على قدرةِ اللّهِ.

التَّخصيصُ: فاسم الموصولِ يُخصِّصُ الذّاتِ العليّةَ بمضمونِ الصِّلةِ: (صفةِ الإحياء)، فيتميَّزَ بها أكملَ تمييزٍ، تعيينًا لهذه الصّفةِ في سياقِ الحديثِ عن إحياءِ الأرضِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَحۡيَاهَا﴾:

في إيقاعِ الإحياءِ على الأرضِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ تبعيَّةٌ؛ فالفعلُ (أحيا) يدلُّ في الأصلِ على الإحياءِ الحقيقيِّ (للذّواتِ الحيَّةِ). فأثبتَ للأرضِ (وهي جماد) وصفًا من أوصافِ (الذّاتِ الحيّة) وهو (الإحياء)، فالمُشبَّهُ: الأرضُ الجافَّةُ. والمُشبَّهُ به: حيوانٌ (كائن حيّ) ميِّتٌ (محذوفٌ ذِكْرُه). وقرينةُ الاستعارةِ: فعل ﴿أَحۡيَاهَا﴾ الذي يوحي بأنَّ الأرضَ ميّتةٌ ثم عادتْ للحياةِ. وسببُ كونِها مَكْنيَّةً: حَذفُ المُشبَّه به

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 303.

(الكائن الحي) وتركُ لازِمِه وهو (الإحياء)، ممّا يجعلُ الاستعارةَ مَكنيَّةً، حيث يظهر أحد لوازمِ المُشبَّهِ به دون ذِكْرِهِ صَراحةً[1]. وتتجلَّى بلاغةُ الاستعارةِ في إعطاءِ المَشْهدِ حيويّةً وانفعالًا، بجعلِ الأرضِ الجافّةِ تبدو ككائنٍ حيٍّ يفقدُ الحياةَ ثمّ تعودُ إليه، الأمْرَ الذي يدفعُ إلى التّأمُّلِ في قدرةِ اللّهِ على إحياءِ المَوْتى، كما يُحيي الأرضَ المَيْتَةَ، فجمالُ الاستعارةِ مُتَعدٍّ إلى توثيقِ المقصودِ، وهو تقريرُ الحقيقةِ الغيبيّةِ بإحياءِ اللّهِ للموتى، فنزّل الأرضَ منزلةَ هؤلاءِ الأمواتِ في الإعادةِ بالاستعارة؛ ثمّ قاسَ إحياءَهم بعد موتِهم على صورةِ إنباضِ الأرضِ بحياةِ الإنباتِ بعد جَدبِها وإمساكِها.

المحسوساتُ مفاتيحُ الغيبيّاتِ

أثرُ قياسِ التّمثيلِ في البلاغةِ والإقناعِ:

مَن أحيا الأرضَ بعد بوارِها قادرٌ على إحياءِ الموتى

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ قياسٌ عقليٌّ مَبنيٌّ على التّمثيلِ[2]، يُقاسُ إحياءُ الموتى (الغائب) على إحياءِ الأرضِ (المشهود)، فكلاهما يدلُّ على قدرةِ اللّهِ المُطلقة؛ لأنّ مَن أمْكَنَ له إحياءُ الأرضِ بإثمارِها بعد بوارِها، فقدرتُهُ على إحياءِ البشرِ بعد موتِهم مُمكِنٌ كذلك. والمُشتركُ بينهما: نفسُ الفاعلِ (اللّه سبحانه) بصفتِهِ القادرةِ على الإحياءِ. وأركانُ قياسِ التمثيلِ في الآيةِ: الأصل (المقيس عليه): إحياءُ الأرضِ. الفرعُ (المقيس): إحياءُ الموتى. العلّةُ المُشتركةُ: قدرةُ اللّهِ على الإحياءِ. وبلاغةُ القياسِ: في ربْطِ ما هو محسوسٌ ومشهودٌ (إحياء الأرض) بما هو غَيْبيٌّ (إحياء الموتى)، مما يجعلُ الغيبَ أكثر قُربًا وإقناعًا للعقلِ، فيستحِثّ المُخاطَبَ بذلك على التَّفكُّرِ في قدرةِ اللّهِ الماثلةِ أمامَ عينيْهِ في مناظرِ الكونِ، ليستخلِصَ منها عقيدةَ الإيمانِ بالغيبِ (البعث) قياسًا على دليلٍ عقليٍّ صريحٍ. وهو تسلّلٌ بلاغيٌّ وانتقالٌ سَلِسٌ مَنْطِقيٌّ بين المحسوسِ والمعقولِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 303.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 303.

إحـيـاءُ الـلـهِ لـلـموتى يـقـينٌ جازمٌ لا قاطِعَ له ولا مُعطِّلَ

غرضُ مجيء خبرِ ﴿إِنَّ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ جاء التّعبيرُ بخبرِ ﴿إِنَّ﴾ على بناءِ اسمِ فاعلِ (محيي) بدلًا من التّعبير بالفعليّةِ (مضارعٍ أو ماضٍ)، ولهذا الغرضِ دلالاتٌ بلاغيّةٌ مُعتبَرةٌ:

منها: الدّلالةُ على الثُّبوتِ والاستمرارِ:

فإيثارُ اسمِ الفاعلِ ﴿لَمُحۡيِ﴾ بدلًا من الفعلِ (يحيي أو أحيا) يدلُّ على ثبوتِ صفةِ الإحياءِ للّهِ واستمرارِها.

ومنها: الدّلالةُ على التَّعظيمِ والتَّوكيدِ:

فاسمُ الفاعلِ أبلغُ وآكَدُ من الفعلِ في الدّلالةِ على تعظيمِ الصِّفةِ والذّاتِ التي تعلَّقتْ بها، إذِ التّعبير بالاسميّة دلّ على صفةٍ ذاتيّةٍ هي مصدرُ الفعلِ والحدوثِ، ممّا يُبرزُ جلالَ قدرتِهِ - سبحانه - على الإحياءِ.

ومنها: الإيجازُ والعمومُ:

فاسم الفاعلِ يدلُّ على وسْعِ الصّفةِ واستغراقِها؛ أيْ: إنّ اللّهَ قادرٌ على إحياءِ كلِّ ميّتٍ في أيّ وقتٍ ومكانٍ، سواء أكان مِنْ موتى البشرِ يومَ القيامةِ، أو الأرضِ بعد موتِها، وما في حُكمِها.

ومنها: التَّناسبُ مع لامِ التَّوكيدِ: فوجودُ لامِ التَّوكيدِ المُزحلقةِ إلى الخبرِ ﴿لَمُحۡيِ﴾ ناسَبَه التَّعبيرُ باسم الفاعلِ؛ لأنّ اسمَ الفاعلِ يحملُ معنى الاستمرارِ والثُّبوتِ، مما يُعزِّزُ التَّوكيدَ على قدرةِ اللّهِ.

ومنها: ربطُ المُشاهَدِ بالغيبِ: فالتّعبيرُ باسم الفاعل يجعلُ النّظمَ أكثرَ اتّصالًا بالحُجّةِ التي تعرضُها الآيةُ: فمَنْ كانَ دائمَ القُدرةِ على إحياءِ الأرضِ، فهو حتمًا مُحيِي الموتى.

(ال) في (المـوتى) جـنـسـيّـةٌ لـلاسـتـغـراقِ الحقيقيِّ

دلالةُ التَّعريفِ في: ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ في قولِه: ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾؛ أفادَ الاستغراقَ والعمومَ الحقيقيَّ؛ أيْ: إنّ اللّه يُحيي جميعَ الموتى من غيرِ استثناءٍ.

فيشمل كلّ مَن مات من الأحياءِ سابقًا، وكلَّ مَن سيموتُ لاحقًا، فيُحيي اللّهُ كلّ مَنْ دَخَلَ في حُكمِ الموتِ. وإطلاقِ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ على مَنْ سيموتُ - مَجازٌ مُرسَلٌ باعتبارِ المآلِ. والتَّعريف في ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ يُضفي قوّةً في تعيين تلك الفئةِ التي غشاها الموتُ، فيُلابِسها الفعلُ الإلهيُّ بالإحياءِ، فتزول عنها صفةُ الموتِ بتأثيرِ ذلك الفعلِ، ممّا يُعظّمُ أفعالَ اللّه في النّفوس.

موقعُ جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

ليس في الوجودِ شيءٌ إلّا عن القُدرةِ قد صدَرَ

جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تعليليّةٌ؛ لتقريرِ دليلِ الإمكانِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾؛ أيْ: ذلك الإحياءُ كما هو مُمكنٌ في الأرضِ بعد موتِها، فكذلك مُمكِنٌ في أمْرِ الإعادةِ الآخِرةِ يومَ القيامةِ؛ لأنّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وليس على شيءٍ يقدرُ، وشيءٍ لا يقدر! بل الأشياء كلّها متماثلةٌ في خضوعِها تحت قدرتِه[1].

المُتشابِهُ اللَّفظيُّ بين قولِه: ﴿تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ [الحج: 5]:

عبوديّةُ الإنسانِ وخــشــوعُــهُ تمهيدٌ لحياتِهِ الحقيقيّةِ

عُبِّرَ في سورةِ الحجِّ بالهُمودِ في قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ [الحج: 5]، وفي هذه السّورةِ بالخشوعِ في قولِه: ﴿تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾؛ لأنّ السّياقَ في سورةِ الحجِّ عن البعثِ، فعبَّر بما هو أقربُ إلى الموتِ فقال: ﴿هَامِدَةٗ﴾ [الحج: 5]؛ أيْ: يابسةٌ مُطمئنّةٌ ساكنةٌ سكونَ الميّتِ ليس بها شيءٌ من نَبْتٍ[2]. فالهمودُ قريبٌ من الخُمودِ. فهُمودُ الأرضِ: جفافُها وزوالُ نَبْتِها، وهمودُ النّارِ: خمودُها[3].

ولمّا كان السّياقُ هنا في الوحدانيّةِ والعُبوديَّةِ؛ عبَّر بما هو أقربُ إلى حالِ العابدِ، فقال: ﴿خَٰشِعَةٗ﴾؛ أيْ: يابسةٌ لا نباتَ فيها؛ فهي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 198.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 12.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 203.

بصورةِ الذَّليلِ الذي لا مَنَعَةَ عنده؛ لأنّه لا مانعَ من المشي فيها لكونها قاحلةً لا كِساءَ لها من الزَّرعِ والنَّباتِ، بخلافِ ما إذا كانتْ مُهتزّةً رابيةً مُتزخرِفةً تختالُ بالنَّباتِ[1]. ويكأنَّ التَّعبيرَ هنا بالخاشعةِ فيه إيماءٌ إلى أنّ عبوديّةَ الإنسانِ وخشوعَه هو تمهيدٌ لإحيائِه، كما أنّ خشوعَ الأرضِ وذِلَّتَها مَدعاةٌ لإحيائِها بالغيثِ والإنباتِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 196.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

آياتُ الكونِ لا يمكنُ تعطيلُها، وآياتُ الوحي لا يُمكنُ إبطالُ هداياتِها

لمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ آيةَ إحياءِ الأرضِ بعد موتها، وكانت تلك آيةً وجوديّة ومعجزةً كونيّةً لا يُستطاعُ خرقُها أو إيقافُ تجدُّدِها؛ ذَكَر هنا آياتِ إحياء القلوبِ، آياتِ الوحي والرّسالاتِ، مُتوعِّدًا أشدَّ الوعيدِ مَنْ يتوهَّمون خرْقها أو تعطيلَ هداياتِها بالإلحادِ فيها، فتوعَّدهم وهدَّدهم؛ لإثباتِ أنّ الآياتِ واحدةٌ في عِصمتِها وحِفظِها، سواء أكانت آياتِ الكونِ المنظورِ، أم آياتِ القرآنِ المَسْطورِ.

لمّا بيَّنَ في السّياقِ السّابقِ أنّ الدعوةَ إلى اللّهِ هي أحسنُ المناصب ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: 33]، ثمّ بيّن أنّ الدّعوة إلى اللّه تعتمِدُ على بيانِ آياتِ اللّهِ الكونيّةِ والرّساليّةِ التي هي دلائلُ توحيدِهِ، وبراهينُ وجودِه، أقْبَل هنا في هذه الآيةِ بالوعيدِ والتّهديدِ على مَنْ يُنازِع في تلك الآياتِ، ويحاولُ إلقاءَ الشُّبهاتِ فيها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُلۡحِدُونَ﴾: (لحد) أصلٌ يَدُلُّ على مَيْلٍ عن اسْتِقامَةٍ. يُقالُ: ألحدَ الرَّجُلُ، إذا مالَ عن طريقةِ الحَقِّ والإيمانِ(2)، والمعنى المحوريُّ: العدولُ - في الاستقرارِ - عن الوَسَطِ إلى الجانبِ مَيلًا عن الوَسَطِ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 568.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لحد).

كاللَّحدِ للمَيِّتِ[1]، واللَّحْدُ: حفرةٌ مائلةٌ عن الوَسَطِ، وقد لَحَدَ القبرَ وألْحَدَه: حفَرَهُ. ولَحَدَ بلسانه إلى كذا: مالَ. وألْحَدَ فلانٌ: مالَ عن الحقِّ[2]. والإلحادُ في الآيةِ يعني الميلَ بالآياتِ عن الصَّوابِ بإنكارِها أو تحريفِها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ما من عاملٍ إلّا وعملُه من اللهِ مَشهودٌ

جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بالتّهديدِ والوعيدِ لِمَنْ يَميلون بآياتِ اللّهِ عن وُجوهِها، فيُنزِّلونها على غيرِ منازِلِها، فتقول الآياتُ: إنّ الذين يَميلونَ عن الحقِّ في شأنِ آياتِنا بأنْ يُؤوِّلوها تأويلًا فاسدًا، أو يُقابلوها باللَّغو فيها وعدم التَّدبُّرِ لِما اشتملتْ عليه من توجيهاتٍ حكيمة. هؤلاء الذين يفعلونَ ذلك: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾؛ أيْ: ليسوا بغائبينَ عن عِلمنا؛ بل هم تحت بَصَرِنا وقُدْرتِنا، وسنُجازيهم بما يستحقّون من عقابٍ مهما ألحدوا ومالوا عن الحَقِّ والصَّوابِ[3]. أفمَنْ يُلقى في النّارِ لإلحادِهِ بالآياتِ، وتكذيبِهِ للرَّسولِ خيرٌ أمْ مَنْ آمَنَ بها، وجاءَ يومَ القيامةِ من الآمنين حين يجمعُ اللّهُ الخلائقَ للعَرْضِ عليه والحُكْمِ بينهم بالعدل؟ لا شكَّ أنّهما لا يستويان[4]. فلمّا تبيَّن الحقُّ من الباطلِ، والطَّريقُ المُنجي من عذابِهِ من الطريقِ المُهلِكِ قال: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾؛ أيْ: إنْ شئتُمْ فاسلكوا طريقَ الرُّشْدِ الموصلةَ إلى رضا ربِّكم وجنَّتِه، وإنْ شئتُمْ فاسلُكوا طريقَ الغَيِّ المُسْخِطةَ لربِّكم، الموصِّلة إلى دارِ الشّقاء؛ لأنَّهُ - سبحانه - بما تَعْمَلونَ بَصيرٌ يُجازيكم بحسبِ أحوالِكم وأعمالِكم، كقولِه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: 29][5].

(1) محمد جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (لحد).
(2) الرّاغب، المُفردات: (لحد).
(3) طنطاويّ، الوسيط: 12/ 357.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 137.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوْقِعُ جُمْلَةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾:

الإلحادُ في آياتِ اللهِ جنايةٌ تستحقُّ الوعيدَ

جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ[1] انتُقِل به من تقريرِ الآياتِ في قولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾ إلى تهديدِ مَن عَدَلَ عنها وألحد في مضامينِها ومقاصدِها، فنزَّلها على غيرِ منازلِها، ولم يستخلِص منها ما جُعِلَتْ له من تجليةِ الحقِّ، وتقريرِ الإيمانِ.

غرضُ التّصديرِ بالتّوكيدِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾:

توكيدُ الوعيدِ إيذانٌ بشدّةِ العقوبةِ

صدّر الاستئنافُ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ مؤكَّدًا؛ لتعزيزِ الوعيدِ الذي تضمَّنته الجملةُ، فيتأكّد للمخاطَبِ هَوْلُه. كما يدلّ التوكيد على غضبِ المُتوعِّد وجلالِه، فيُلْجَأُ السّامعُ للخشيةِ والتّعظيم والتّوقّي والاحترازِ. وتأكيدُ جملةِ التّهديدِ فرعٌ عن كثرةِ المُستحقّين له، فلأجلِ كثرةِ المتورّطين في الذّنبِ، يُساقُ لهم الإنذارُ مُؤكَّدًا؛ لأنّ الكثرةَ مانعةٌ من تناولِ الوعيدِ بقوّة وجدّة، وحاجبةٌ عن النّظر العاصِم منه، فيؤكَّد لهم ليناولوه بعزمٍ وحزمٍ من غيرِ استسهالٍ أو استقلالٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالموصوليّةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾:

الإلحادُ في الدّين يُفسِدُ المصيرَ كما يُفسِدُ القلوبُ والعقولُ

جاء التّعبيرُ بالموصولِ وصلتِهِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ لإجراءِ وصفِ الإلحادِ على ذواتِهم، فتركيبُ ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ يجمعُ بين الذّاتِ والفعلِ، فترتبطُ الجنايةُ في ذِهْنِ السّامعِ بهؤلاءِ الأشخاصِ، فيُربَط ذَمُّهم بعملِهم السَّيِّئ مباشرةً. ففي الموصوليّة - إذن - إظهارٌ لصفتِهم المذمومةِ (الإلحاد) على أنّها السِّمةُ البارزةُ لهؤلاءِ الأشخاصِ، ممّا يجعل ذَمّهم وتعريتهم أمام المُخاطَبين واضحًا. ولا يخفى ما فيه من التّشهير بهم والتّحذير منهم؛ لأنّ الموصولَ أظهرَ فئتَهم وعيّن جماعتَهم. كذلك

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 304.

أفادَ الموصولُ شموليّةَ الإدانةِ بدلالتِهِ على العمومِ، فيتّسع ليشملَ كلَّ مَنْ يَتَّصفُ بهذه الصِّفةِ (الإلحاد في الآيات)، فيجعل الحكمَ عامًّا لكلِّ مَنْ ينحرفُ عن آياتِ اللّهِ أو يحاولُ تحريفَها أو رَدَّها. كذلك: التّعبيرُ بالموصوليّةِ أشعَرَ بعليَّة استحقاقِ الوعيدِ، فصدورُ الإلحادِ منهم هو علّةُ ذلك التّهديدِ وسببُ استحقاقِ الوعيدِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾:

مَـنْ يستمرُّ في تـحـدّي الـحـقِّ تستمرُّ معاناتُهُ

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يدلُّ على استمرارِ الفعلِ وتجدُّدِهِ، تنبيهًا على أنّ الإلحادَ في آياتِ اللّهِ ليس حَدَثًا مُنقطِعًا؛ بل هو فعلٌ مُستمِرٌّ ومُتجدِّدٌ، يعبّر عن ديمومةِ حالِهِم ودَيْدَنِهم.

كذلك التّعبيرُ بالمضارعةِ في: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ يُظْهِرُ خُطورةَ الفعلِ، حيث إنّ الفعلَ المضارعَ يدلُّ على أنّ الإلحادَ يجري في الحاضرِ، وكأنَّ المشهدَ حيٌّ وماثِلٌ أمامَ السّامعِ، ممّا يزيد من وقْعِ الآيةِ وأثرِها التّحذيريّ.

كذلك: اقترانُ المضارعةِ بواوِ الجماعةِ ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ يوحي بشمولِ مدلولِ المضارعِ واتّساعِهِ لكلِّ مَن يتّصفُ بالإلحادِ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ، فهو ليس محصورًا في جيْلٍ معيّن؛ بل يتَّسعُ ليشملَ كلَّ مَنْ يتَّصفُ بتلك الجنايةِ.

كذلك المضارعةُ تدلُّ على الاستمرارِ في المُعانَدة، فهم مُستمرّون في إلحادِهم رغمَ وضوحِ الآياتِ وقيامِ الحجّةِ عليهم، فيتأكّد بذلك استحقاقُهم للعقوبةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يُلۡحِدُونَ﴾:

الاستعارةُ تمنحُ المعنـى المُـجـرَّدَ صـورةً حِـسّيَّةً ملموسةً

في قولِهِ: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، حيث صُرِّح بلفظِ الإلحادِ (وأصلُهُ: المَيْلُ أو الانحرافُ عن الشَّيءِ المستقيم)، وأُريد به المعنى المَجازيُّ، وهو الانحرافُ عن الحقِّ أو تحريفُ الآياتِ وتكذيبُها.

وجهُ الشَّبَهَ: الانحرافُ في الإلحادِ الحقيقيِّ (كالميلِ عن وسطِ الحُفرةِ)[1] يُقابله الانحرافُ المعنويُّ عن الحقِّ في الآياتِ. والقرينةُ: سياقُ الآيةِ الذي يدلُّ على عدمِ إمكانيّةِ الإلحادِ الحِسّيِّ في الآياتِ، ممّا يجعلُ المعنى مَجازيًّا بوضوحٍ. وأركانُ هذه الاستعارةِ كالآتي:

المُستعارُ منه (المُشبَّهُ به): الميلُ والانحرافُ الحِسّيُّ مثل المَيْلِ في القبرِ أو عن الطَّريقِ المُستقيم.

المُستعار له (المُشبّه): الميلُ والانحرافُ عن الحقِّ أو تحريفُ الآيات وتكذيبُها.

وجهُ الشَّبَهِ: الانحرافُ عن الاستقامةِ في الجانبِ الحِسّيِّ يُشبهُ الانحرافَ عن الحقِّ في الجانبِ المعنويِّ.

القرينةُ: السّياقُ الذي يجعل الإلحادَ بمعناه الحِسّيِّ غيرَ جائزٍ، فيؤول إلى المعنى المَجازيِّ (الانحراف عن آيات اللّه).

إجراءُ الاستعارة: شَبَّهَ المُنحرفَ عن آياتِ اللّهِ بمَنْ يميلُ عن الطَّريقِ المستقيم. حُذفَ المُشبَّهُ به (الميل الحسّي)، وصُرِّحَ بلفظِهِ ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيّة. وعليه: فقوله: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ مُستعارٌ للتَّعبيرِ عن الانحرافِ عن الحقِّ وتحريفِ الآياتِ[2].

دلالةُ ﴿فِيٓ﴾ في قولِهِ: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾:

الإلـحـادُ في آيـاتِ اللهِ ينالُ مـن جَـوهـرِهـا وعُمْقِها

حرفُ ﴿فِيٓ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ للظَّرفيَّة المَجازيَّةِ، وأفاد هنا: "تمكَّنَ إلحادُهم حتى كأنَّهُ مظروفٌ في آياتِ اللّهِ حيثما كانت أو كلَّما سمعوها"[3]. واقترانُهُ بالآياتِ له دلالاتٌ:

منها: الدّلالةُ على الإحاطةِ والتَّعلُّق: فالإلحادُ يقعُ ضمنَ مجالِ الآياتِ نفسِها، أيْ: إنَّهم يُمارسون الإلحادَ بالتّلاعُبِ بمعانيها أو

(1) الراغب، المفردات: (لحد).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 304.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 304.

إنكارِها أو تحريفِها، وذلك يُظهِرُ أثرَهُم العظيمَ في النَّيْلِ من جوهرِ الآياتِ ومَضامينِها.

ومنها: التَّعمُّقُ في الانحرافِ: استخدامُ ﴿فِيٓ﴾ يوحي بأنَّهم لا يكتفون بإنكارِ الآياتِ من الخارجِ؛ بل يتوغَّلون في داخِلِها ومضامينِها وباطِنِها بغرضِ التَّشكيك والتَّأويلِ الباطلِ، أو تحريفِ دلالاتِها، ممّا يزيدُ من شناعةِ فِعْلِهم، ويدلُّ على بذلِ المجهودِ الوافرِ من قِبَلِهم.

ومنها: التّخصيصُ والتّعيينُ: فحَرْفُ الظَّرفيَّةِ يُحدِّدُ السّياقَ والمجالَ الذي يحدثُ فيه الإلحادُ، وهو آياتُ اللّهِ، فتثبُتُ بذلك التُّهمةُ عليهم، ويتجلَّى عِظَمُ جنايتِهم، لاستهدافِهم كلامَ اللّهِ رأسًا.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾:

لا شيءَ يَخفَى على اللهِ مهما كـان الإنسانُ مُحتالًا في إخفائِه

في قولِه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ كنايةٌ عن كمالِ علم اللّهِ وشمولِه لكلِّ شيءٍ بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ. فهنا معنًى قريبٌ (مُصرَّح به): عدم خفائِهم على اللّهِ. ومعنًى بعيدٌ (المُكنَّى عنه): إحاطةُ اللّهِ التامَّة بأفعالِهم وأحوالِهم وظاهِرِهم وباطِنِهم، بما يستلزمُ عِلمَه المُطلَقَ الكاملَ.

وللكنايةِ هنا دلالاتٌ؛ **منها**: إظهارُ العلم الكاملِ؛ فتركيبُ: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ﴾ يوحي بأنّ اللّهَ يعلمُ أدقَّ تفاصيلِ أفعالِهم وأحوالِهم، فلا يقتصرُ على ظاهِرِها فقط، **ومنها**: التّهديدُ والوعيدُ: فالكنايةُ تُلمِح إلى أنّ أفعالهم مرصودةٌ ومحسوبةٌ، فيُضفي على النَّظْم إيقاعَ التحذيرِ والنّذيرِ، **ومنها**: الإشارةُ إلى استحالةِ الإخفاءِ: فالكنايةُ تحملُ دلالةً ضِمنيَّةً على أنَّ أفعالَهم مهما كانت خفيَّةً بالنسبةِ للنّاسِ؛ فهي مكشوفةٌ أمامَ اللّهِ، **ومنها**: التّلطيفُ والإيجازُ: فبدلًا من التّصريحِ بعلمِ اللّهِ الشّاملِ، جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ نفيِ الخفاءِ، مما يُضفي على النَّصِ بلاغةً وجمالاً في التّركيبِ.

بلاغةُ التّلطيفِ والإيجازِ في إيثارِ التّركيبِ:

استحضار ثبوت الكمال في صفة العلم في ذهن السّامع من طريق نفي ضدّه

في التَّعبيرِ بنفيِ الخفاءِ دون التّصريحِ بثبوتِ العِلْم في قولِه تعالى: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ مراعاةٌ للتّلطيفِ والإيجازِ؛ **فأمّا (التّلطيفُ)**: فلم يَقُلْ في السّياقِ الكريمِ: (نحن نعلمهم)، أو (نحيطُ بأفعالهم)، بالتّصريحِ بالثّبوتِ؛ بل جاء التّعبيرُ بنفيِ الخفاءِ ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾، وهذا الأسلوبُ أكثرُ لطفًا من التّصريحِ المُباشرِ؛ لأنّه يتركُ للسّامعِ مساحةً ذِهنيَّةً لاستحضارِ معنى العِلْمِ المُطلَق، ممّا يجعلُ الخطابَ أكثرَ تأثيرًا وإقناعًا دون مواجهةٍ صريحةٍ، بل يَكِلُه إلى استنتاجِه الذّاتيّ، فيَشعر السّامع برقابةٍ دقيقةٍ، ولكن بطريقةٍ غيرِ مُستثقَلةٍ ولا ممجوجةٍ، ممّا يُضْفي على النَّظْمِ خِفَّةً في هَيْبَةٍ، وجلالًا في سَعةٍ من المعنى.

تكاثُفُ معاني كمالِ العلمِ من طريق الإيجاز

وأمّا الإيجازُ: فالتّعبير بنفيِ الخفاء أخصرُ في اللفظ، وأوسعُ في المعنى؛ لأنّ نفيَ الخفاءِ يستلزمُ ثبوتَ الكمالِ في صفةِ العِلم، وليس إثباتُ العلم بمستلزِمٍ عدمَ الخفاءِ إلّا بالتّقييدِ بالكمالِ، فيجرّ ذلك القَيْدُ إلى إطالةٍ قد أغنى عنها وجازةُ التّركيب ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ﴾، فبدلًا من شرحٍ مُطوَّلٍ أو جملةٍ تحملُ تفاصيل عن علم اللّهِ، جاء التَّعبير بجملةٍ قصيرةٍ تُغني عن ذلك، ممّا يُحقّق بلاغةَ التّكثيف في المعنى باستخدامِ كلماتٍ قليلةٍ.

معنى النَّفي في ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ﴾:

استمرارُ النَّفي يُؤكّد المُراقبةَ الإلهيّةَ الدّائمة

معنى نفي خفائِهم في قولِه تعالى: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ هو نفيُ خفاءِ إلحادِهم، لا خفاءَ ذواتِهم؛ إذ لا غرضَ في العلمِ بذواتِهم، لأنّ التّكليفَ منوطٌ بالأفعالِ لا بالذّواتِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ﴾:

صيغة المضارع المنفي ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ﴾ أفادت النّفي المستمرّ للفعل،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 24/ 30.

فيدلّ على استحالة إخفاء أفعالهم عن اللّه سبحانه، وعلى ثبوت استمراريّة علم اللّه وإحاطته بكلّ شيء في كلّ زمان، مع دلالةٍ ضمنيّةٍ على عجزهم التامّ عن التستّر أو التّحايل.

إحاطةُ اللهِ في عِلْمِهِ داحضةٌ لكلِّ تسَتُّرٍ وخفاءٍ

معنى (على) في: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾:

حرف (على) في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ يُفيد الاستعلاءَ المجازيَّ، والتّعبير بـ ﴿عَلَيۡنَآۗ﴾ بدلًا من (عنّا) أو (منّا) يحمل دلالاتٍ بلاغيّةً دقيقةً؛ تعود إلى التّأكيد على الإحاطة الكاملة والهيمنة؛ فحرف الجرّ (على) يُفيدُ العلوَّ والاستعلاءَ المجازيَّ، فيشيرُ إلى أنَّ عِلمَ اللّهِ مُهيمنٌ ومُستعلٍ على كلِّ شيءٍ، وأنَّه لا يخفى عليه شيءٌ مهما حاولوا إخفاءَه، فكأنّه يقولُ: (لا شيءَ من أفعالهم يعلو على عِلۡمِنا بخفائِهِ وإفلاتِهِ، فلا استعلاءَ لهم على عِلۡمِنا وإحاطتِنا بخفاءٍ أو غيابٍ).

لا أحدَ بإمكانِهِ الخروجُ بالتّخفّي من وُسْعِ علمِ اللهِ

فمفهومُ التّركيبِ المَنۡفيّ المُتعدّي بحرفِ الاستعلاءِ، يدلُّ على هيمنةِ اللّهِ عليهم بالعِلۡم الكاملِ المُطلق، ونفي إمكان أن يقع من جهتهم هيمنةٌ على عِلم اللّه باستخفائِهم عن اللّهِ.

ولم يَقُلۡ: (عنّا)؛ لأنَّ التَّعديةَ بحرفِ المجاوزةِ، قد توحي بالابتعادِ أو الغفلةِ المُمكنةِ، أو الحَجۡبِ (وإنۡ لم يكنۡ ذلك جائزًا عن اللّهِ)، فإنّ ﴿عَلَيۡنَآۗ﴾ ينفي أيَّ احتمالٍ للخفاءِ، مع تأكيدِ الإحاطةِ المُطلقةِ والعلمِ المُهيمن.

ولم يَقُلۡ: (منّا)؛ لأنّه قد يوحي بالمشاركةِ أو النَّسب، وهو لا يليقُ في سياقِ الحديثِ عن اللّهِ وعلمِهِ المُطلَقِ.

الغرضُ من الاستفهامِ في: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ﴾:

الاستفهامُ التّقريريُّ يُحرِّكُ المُخاطَبَ إلى التَّفكُّرِ في مصيرِهِ

الغرضُ البلاغيُّ من الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ هو التّقريرُ والتَّوبيخُ مع إبرازِ المُفارقةِ بين حالِ الفريقيۡن، وحيثيّاتُ ذلك[1] من وجوه؛ وهي:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 568، وثناء الدين، التّفسير المظهريّ: 8/ 300.

أوّلًا: التّوبيخُ والإنكارُ؛ فالاستفهامُ يُنكرُ على المُكذِّبين والمُستهزئين بالآياتِ الذين لا يُدركون عاقبةَ أمرِهِم، فيضعهم أمام صورةٍ واضحةٍ لعاقبةِ الإلحادِ والكفرِ، وهي إلقاؤهم في النّارِ.

وثانيًا: إبرازُ المُفارَقة؛ فالاستفهام بما في حيِّزِه من التّخييرِ في قولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ يُظهِرُ الفرقَ الواسعَ بين حالِ مَنْ يُلقى في النّارِ، وهي حالةُ الهلاكِ والخِزي، وحالُ مَنْ يأتي آمنًا يومَ القيامةِ، فيُبرز الغِبطةَ والفوزَ للآمِنين، والخذلانَ للمُجرمين.

وثالثًا: التَّقريرُ والتَّأكيدُ؛ فالاستفهامُ في الآيةِ كما سيقَ للتّوبيخِ المُستلزمِ للإنكارِ فإنّه كذلك يتضمَّنُ التّقريرَ بأنّ مآلَ المؤمنين الفائزين خيرٌ من مآلِ الكافرين الهالكين، وهذا الأسلوبُ في إجراءِ الاستفهامِ يجعلُ المُستمعَ يُقرُّ بالحقيقةِ من تلقاءِ نفسِهِ؛ لاستنطاقِهِ بها طوعًا.

ورابعًا: الإلزامُ بالحُجَّةِ، فالاستفهامُ على هذا المعنى التّقريريِّ الإنكاريِّ يُلزِمِ المُخاطَبَ بإدراكِ العاقبةِ بنفسِه، حيث لا مجالَ للجوابِ سوى الإقرار بأنّ مَنْ يأتي آمنًا خيرٌ ممَّن يُلقى في النار.

وخامسًا: تحريكُ العواطف وتوجيهُ التَّفكيرِ؛ فالأسلوبُ المجازيُّ في الاستفهامِ هنا يُثير في نفس المُخاطَبِ التّفكيرَ في العاقبةِ التي ينتظرها كلُّ فريقٍ، الأمرُ الذي يدعوه إلى التّأمُّل واتّخاذِ القرارِ المستقيم.

معنى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿أَفَمَن﴾:

إظهارُ العلاقةِ السَّببيّةِ بين أفعالِهِم السَّيئةِ ومآلِهِم يومَ القيامةِ

حرفُ (الفاء) في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ يُفيدُ الرّبطَ والتّفريعَ، ويحملُ دلالاتٍ بلاغيّةٍ؛ **منها**: التّفريعُ على ما سَبَقَ؛ فالفاءُ تُفَرِّعِ هذا الاستفهامَ على الوعيدِ للذين يُلحدون في قولِه: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾[1]، فهي تربطُ حالَهم بمآلِهِم يومَ القيامةِ، حيث يُلقَى الكافرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 304.

في النّار بسببِ أفعالِه، **ومنها:** التّنبيهُ والتَّشويقُ؛ فدخولُ الفاءِ مع الاستفهام ﴿أَفَمَن﴾ يُثيرُ انتباهَ المُخاطَبِ ويُشوِّقُهُ إلى معرفةِ النّتيجةِ التي تترتَّبُ على أفعالِ هؤلاءِ. فهو يُلفتُ النّظرَ إلى المقارنةِ بين حالِ الفريقَيْن (أصحابِ النّارِ وأصحابِ الجنّةِ)، **ومنها:** إظهارُ النَّتيجةِ المُترتِّبةِ؛ فالفاءُ تُفيدُ أنَّ الجزاءَ (الإلقاء في النّارِ) هو نتيجةٌ حَتْميّةٌ لِما سَبَقَ ذِكْرُهُ من الإلحادِ والتَّحريفِ في الآياتِ، مما يُبرزُ عدلَ اللّهِ في الجزاءِ، **ومنها:** ربطُ السَّببِ بالنَّتيجةِ؛ فاستخدامُها هنا يوضِّح العلاقةَ بين الإلحادِ في آياتِ اللّهِ وبين العاقبةِ الوخيمةِ لِمَنْ يُلقى في النّار، ويُبرزُ أنَّ هذا الجزاءَ مُترتِّبٌ بشكلٍ مباشرٍ على أفعالِهم.

إبرازُ الصِّفاتِ والأفعالِ كأساسٍ للمصيرِ

دلالةُ الموصولِ وصلتُهُ في: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ﴾:

الاسمُ الموصولُ (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أفادَ العمومَ؛ فكلّ مَن يُلقى في النّارِ تنطبقُ عليه صفاتُ الكفرِ والإلحادِ.

وكلُّ مَنْ يأتي آمنًا يومَ القيامةِ تنطبقُ عليه صفاتُ الإيمانِ والعمل الصالح؛ فيكون مضمونُ الآية شاملًا لكلِّ البشرِ عبر العصورِ، وليستْ حالةً فرديَّةً أو زمنيَّةً.

وصِلَةُ الموصولِ: (الإلقاءُ في النّارِ، والأمنُ يومَ القيامةِ) خُصِّصَ به عمومُ الموصولِ في إفرادِه بصفاتِه المميّزةِ، فـ(من يُلقى في النار) يصفُ حالَ الكافرين المُذنبين الذين يُلقون في النّارِ جزاءً لأفعالِهم، و﴿مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾ يصفُ حالَ المؤمنين الذين يغشاهُمُ الأمنُ والسَّلامُ يومَ القيامةَ، وهذا التَّخصيصُ يُبرزُ المُفارقةَ بين الفريقَيْن.

واستُعملَ الاسمُ الموصولُ بدلاً من الاسم الصَّريح؛ مثل: (الكافر، والمؤمن)؛ لإجراءِ مضمونِ الصِّلةِ على الموصولِ، فيدفع المُخاطَبَ للتَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ في الصِّفاتِ الجاريةِ على كلِّ فريقٍ، ليتحقَّق بذلك التَّشويق والتدرُّج في التَّصوُّرِ.

تعليلُ الجزاءِ بناءً على الأفعالِ

وأيضًا جَعْلُ المُستفهَمِ عنه من الموصولِ وصلتِهِ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ يُشعِر بعلّيّةِ مضمونِ الصِّلةِ، وهو الجزاءُ الجاري على أفرادِ الموصولِ (مَنْ) بدخولِ النّارِ أو النَّجاةِ منها، فيبيّن أنَّ تلك العاقبةَ معلولةٌ بأفعالِهِم وصفاتِهِم؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ على تقديرِ محذوفٍ بعد همزةِ الاستفهامِ في: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾، والمعنى: (أيلحدون، فمَنْ يُلقى في النّار ...)؛ فالفاءُ عاطفةٌ الموصولَ على محذوفٍ مُقدَّرٍ هو عِلّةُ الجزاءِ الذي تضمَّنته جملةُ الصِّلةِ. فكأنَّ الجملةَ الموصولةَ أبرزتْ صفاتِهم وأفعالَهم كأساسٍ لِما لاقوْهُ من العاقبةِ والمصيرِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بما لم يُسمّ فاعلُهُ ﴿يُلْقَىٰ﴾:

الأهمُّ من إظهارِ الفاعلِ هو حالُهُم المُخزي والمصيرُ الذي ينتظرُهُم

التّعبيرُ بالمضارعِ على بناءِ ما لم يُسمّ فاعلُهُ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ يحملُ نكاتٍ بلاغيّةً؛ **منها:** إبرازُ المفعولِ به (المُلقَى في النّارِ)، فصيغةُ المبنيِّ للمجهولِ تُركّزُ على المفعولِ به (الشخص الذي يُلقى في النار)، حيث هو مناطُ الاهتمامِ؛ لتوفُّرِ الغرضِ عليه، ولا يخفى ما في هذا الاختزالِ التَّعبيريِّ عليه من تصويرِ حالِهِ المُفجعةِ والمصيرِ الرّهيبِ الذي ينتظرُهُ، بدلًا من إظهارِ الفاعلِ (مَنْ يُلقيه في النّارِ) لعدمِ تعلُّقِ القَصْدِ به.

ومنها: تصديرُ الشُّعورِ بالتَّعظيمِ والرَّهبةِ؛ فحذفُ الفاعلِ يوحي بالرَّهبةِ والتَّعظيمِ، إذْ إنّ المُخاطَبَ يدركُ أنّ الفاعلَ هنا هو اللّه، لكنَّ عدمَ التَّصريحِ بذلك يجعلُ الأمرَ أكثرَ هيبةً وإجلالًا، كأنَّ الجزاءَ يأتي من قوَّةٍ مُطلقةٍ لا يُمكن مقاومتُها.

ومنها: إفادةُ العمومِ والشُّمولِ؛ فالتّعبيرُ بالمبنيِّ للمفعولِ يوحي بشمولِ الحُكمِ، فيعمّ كلَّ مَنْ يستحقُّ الإلقاءَ في النّارِ نتيجةَ أفعالِهِ دونَ تخصيصٍ لفردٍ أو فئةٍ بعينِها.

ومنها: إفادةُ السُّرعةِ والتّلقائيَّةِ في الإلقاءِ؛ فبناءُ الفعلِ لغيرِ المعلوم يوحي بسرعةِ الإلقاءِ في النّارِ دونَ مُماطلةٍ أو استئذانٍ لهم، أو ترقُّبٍ لشيءٍ، كأنّ الأمرُ يتمُّ مباشرةً، وبحتميَّةٍ مُطلقةٍ.

ومنها: تصويرُ الفعلِ كأمرٍ مُحتّم؛ فالتّعبيرُ بصيغةِ المبنيِّ لغيرِ فاعلِهِ تجعلُ الإلقاءَ يبدو في وجدانِ السّامعِ المُتأمِّل كأنَّه أمرٌ حتميٌّ يجري بتقديرٍ إلهيٍّ لا مَفرّ منه، فهو أمرٌ حتميٌّ مَقضيٌّ، ولذلك أُشرِبَ بإيقاعِ الخفاءِ للفاعلِ والإبرازِ للمفعولِ.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾:

الكافرُ سيُغرِقُه العذابُ من كلِّ جانبٍ

حرفُ الوعاءِ ﴿فِي﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ يُفيد الظَّرفيَّةُ المُكانيّة الحقيقيّة؛ أيَ: إنّ الإلقاءَ مُتّجِهٌ داخلَ النّارِ نفسِها، فيُعطي ذلك تصوُّرًا حِسّيًّا عن إحاطةِ النّارِ بالكافرِ من كلِّ جانبٍ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾ [العنكبوت: 54]. ولا يخفى ما في ذلك من الإشارةِ إلى شدَّةِ العذابِ، حيث يُحتَجَزُ الإنسانُ مُحاطًا بالنّارِ بكاملِهِ وكاملِها، كأنّه يغرقُ فيها غَرَقًا، وكأنّها تُمسكُ به من كلِّ الجهاتِ، فلا مجال للهربِ أو النَّجاةِ.

كما يُصوِّر حرفُ الظَّرفيّة ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ إحكامَ الحبسِ والاحتجازِ مع الإهانةِ والإذلال لهم؛ إذ يقعُ إلقاؤها في باطنِها مباشرةً، وهذه الصّورةُ من الإحاطةِ الخانقةِ، والاحتجاز المُهين بتغييبهم داخلها - تجترُّ معها صورةً لازمةً عنها، وهي حتميّة ذلك المصيرِ واستبعاد الخلاص منه؛ لأنّ تغييبَهم في دَرَكاتِ النّارِ بما لا مَفرَّ لهم معه، يُشعِرُ بأنّهم في مصيرٍ دائمٍ، وبصددِ عقابٍ آبدٍ طويلٍ.

بلاغةُ أسلوبِ الاحتباكِ:

تعميقُ التَّفاوتِ بين مصيرِ المؤمنِ ومصيرِ الكافرِ

جرى قولُه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ على أسلوبِ الاحتباكِ، وهو نوعٌ من الإيجازِ تُحذفُ فيه بعضُ وحداتِ

التَّركيبِ، ومقاطِعِ متقابلة فيه (الحذفُ التّقابليّ) مع وجودِ ما يدلُّ عليها، لتحقيقِ الإيجازِ والاختصارِ دونَ الإخلالِ بالمعنى[1].

فيظهرُ الاحتباكُ ببلاغةٍ فائقةٍ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ في الحذفِ الأوَّلِ: في الجزء الأوّل ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾، لم يُذكر صراحةً أنّه يأتي خائفًا، ولكنّه مفهومٌ ضمنًا من السّياقِ؛ فالكلامُ على تقديرِ: (أفمَن يُلقى في النّارِ ويأتي خائفًا).

وفي الحذف الثّاني: في الجزء الثّاني ﴿أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ لم يُذكر صراحةً أنّه لا يُلقى في النّارِ، لكنّه يُفهم بالضّرورة من كونِه آمنًا؛ فالكلامُ على تقديرِ: (أم مَن يأتي آمنا يومَ القيامةِ ويدخلُ الجنّةَ).

فالحذفُ في كلٍّ من طرفي العبارةِ، مع الاكتفاءِ بما ورد في الطَّرفِ الآخر؛ للدّلالةِ على المحذوفِ: ﴿يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ يدلُّ على فقدانِ الأمنِ والخوفِ. و﴿يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾ يدلُّ على النَّجاةِ وعدمِ الإلقاءِ في النّارِ[2].

ويظهرُ أثرُ ذلك الاحتباكِ من النّاحيةِ البلاغيّةِ من حيثيّاتٍ عدّةٍ:

أوّلًا: الإيجازُ والإحكامُ: يُعطي التّركيب قوّةً بيانيّةً دونَ تطويلٍ.

ثانيًا: الإثارةُ والتّدبُّر: يُحفّز المُخاطَبَ على التّفكُّرِ لاستخراجِ المعاني المحذوفةِ.

ثالثًا: التَّقابلُ المعنويُّ: يُظهر التّباينُ بين الحالتيْن (الإلقاء في النّارِ والخوف، مقابلَ الأمنِ يومَ القيامةِ)، هذا الأسلوبُ يُجلّي التّفاوتَ الشَّديدَ بين مصيرِ الكافرِ والمؤمنِ بأسلوبٍ موجَزٍ ووافٍ.

نكتةُ تقديمِ إلقاءِ النّارِ على إتيانِ الأمْنِ:

ذُكِرَ الإلقاءُ في النّار أوّلًا والأمنُ ثانيًا في قولِه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾؛ لأنّه لمّا تقدّم ذِكْرُ الإلحادِ في الآياتِ، ناسَبَ أن يتّصلَ به من التّقرير مَن اتّصف

(1) السُّيوطيُّ، الإتقان: 3/ 204، وحبنَّكة، البلاغة العربيَة: 1/ 347.

(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّررِ: 17/ 199، وابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 305.

شتان بين مصيرين أحدهما في النار، والآخر في الجنة

به، فوَصَلَ الجنايةَ بجزائِها، ولذلك لم يكنْ التّركيبُ: (أم مَنْ يأتي آمنًا يوم القيامة، كمَن يُلقى في النّارِ)[1].

نكتةُ جعلِ الأمنِ في مقابلِ الإلقاءِ في النّارِ:

لا عيشَ من غيرِ أمنٍ

في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا﴾ "ذُكِر الإلقاءُ في النّارِ أوّلًا دليلًا على دخولِ الجنّة ثانيًا، وذُكِر الأمْنُ ثانيًا دليلًا على الخوفِ أوّلا"[2]؛ لأنّ الإلقاءَ في النّارِ مقصودٌ بذاتِهِ في إيقاعِ العذابِ، ولم يَذكرْ دخولَ الجنّةِ، وذَكَرَ الأمْنَ؛ لأنّ الأمنَ مقصودٌ لذاتِهِ في حقيقةِ العيشِ؛ فالأمْنُ هو الحالُ الحقيقيّةُ المقصودةُ لذاتِها للمُقامِ في الجنّةِ وفي كلِّ مقامٍ وحالٍ[3]. وأيضًا: ذِكْرُ الأمنِ وعدمُ ذِكْرِ دخولِ الجنّةِ في مقابلِ الإلقاءِ في النّارِ؛ لكون ذلك أحمَدَ وأمدحَ لحالِ المؤمنين؛ لأنّ مفهومَ الكلامِ: أنّ الآتي آمنًا خيرٌ ممَّن يُلقى في النّارِ، فكيف من يُكرَم ويدخل الجنةَ؟[4]، وأيضًا: لأنَّ الأمْنَ من العذابِ أعمُّ وأهمُّ من دخولِ الجنّةِ[5]؛ بل لابدّ أن يحصلَ الأمنُ أوّلًا من الإلقاءِ في العذابِ حتّى يحصلَ دخولُ الجنَّةِ، فكأنّه لمّا ذَكَرَ الإلقاءَ في النّارِ، ذَكَرَ بعدَه النّجاةَ منها، فعبَّرَ عن ذلك بالأمنِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالتّفضيلِ: ﴿خَيْرٌ﴾:

لا خيريّةَ في مَنْ يُلقى في النّارِ قطّ

التّعبيرُ بالتّفضيلِ ﴿خَيْرٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بديعٌ في إظهارِ المُفارَقةِ والتّناقُضِ بين حالِ الهلاكِ والعذابِ في النّارِ.

وحالُ الأمنِ والسّلامةِ يومَ القيامةِ، والمفارقةُ هنا ليستْ فقط في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 309.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 17/ 199.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 17/ 199.
(4) ثناء الله الهندي، التّفسير المظهريّ: 8/ 300.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 378.

المَصيرَيْن المُختلفيْن؛ بل في استحالةِ المُقارنةِ بينهما؛ لأنَّ الأمنَ يومَ القيامةِ هو الغايةُ الكبرى الحميدة، بينما الإلقاءُ في النّارِ عبارةٌ عن المُنتهَى الأفظعِ سوءًا.

وفي التّفضيل بـ﴿خَيْرٌ﴾ تقريرٌ ضِمنيٌّ بعدمِ المساواةِ، فكأنّ الآيةَ تسألُ سؤالًا استنكاريًّا، والإجابةُ الواضحةُ عليه ضِمنًا: لا يمكن أن يكون مَنْ يُلقى في النّار خيرًا أو حتى مساويًا لِمَنْ ينالُ الأمنَ والنَّجاةَ.

وفي التّفضيلِ بـ﴿خَيْرٌ﴾ توجيهٌ للعقلِ أن يتفكَّرَ ويختارَ الطريقَ الذي يُؤدّي إلى الأمنِ، ويُبْعِدُ عن الهلاكِ، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من تهييجِ وازعِ المسؤوليةِ عند المُخاطَبِ تجاهَ أفعالِه وما يترتَّبُ عليها من عواقب.

وأيضًا: هذا الأسلوبُ المُستعمَل في المفاضلةِ و﴿أَمْ﴾ المتّصلة في سياقِ التّخييرِ وطلب التّعيين فيه تحريكٌ للإقناعِ واليقينِ بأسلوبٍ غيرِ مباشرٍ، فبدلًا من التَّصريحِ بأنّ المؤمنَ في نعيمٍ والكافر في شقاءٍ، يُستخدم أسلوبُ المقارنةِ الحاصلُ بالاستفهامِ و﴿أَمْ﴾ المُتَّصلة، وأسلوب التّفضيل؛ لإبراز النتيجةِ بانتزاعٍ من الوجدانِ والعقلِ، وهو أقوم في تسجيلِ الحُجَّةِ وتكريمِ المُخاطَبِ واعتبارِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالإتيانِ في: ﴿يَأْتِيٓ ءَامِنًا﴾:

غاياتُ المؤمنين بالِغوها بسهولةٍ واختيارٍ طوعيٍّ

أصلُ فعلِ (أتى): المجيءُ بسهولة[1]، وبإعمالِ هذا الأصلِ في السّياقِ، فإنّ الإتيانَ في قولِه: ﴿يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ ينقلُ التَّصويرَ الحركيَّ للنّاجي الآمِنِ يومَ القيامةِ، فيُصوِّر المؤمنَ يومَ القيامة وهو يتحرَّكُ من موقفِ الحشرِ إلى موقفِ الأمانِ، وكأنّه يخطو نحو النِّعمةِ والطّمأنينة، وهذا يوحي بحالِ السُّهولة واليسر التي يتمتّع بها المؤمنُ في مقابلِ الفزعِ والرَّهبة التي يُعالجها الكافرُ.

(1) الرّاغب، المُفردات: (أتى).

الـــدّلالـــةُ على الاختيارِ والإرادةِ

وهذا اليُسر في المجيء لا يمكنُ إلّا أن يقع عن اختيارٍ وطواعيةٍ، فأوحى التّعبيرُ بالإتيانِ عن انتفاءِ القَسْرِ عليه، ويكأنّ ذلك إشارة إلى أنّ ذلك كان نتيجةً لاختيارِهِ السّليم وسعيِهِ طوعًا في الدّنيا بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ، بما يشيرُ إلى استحقاقِهِ تلكَ الحالَ وهو الإتيانُ آمنًا.

إظهارُ خصوصيّةِ المؤمنِ في الموقفِ العظيمِ

وصفُ المؤمنِ بالإتيان آمنًا يُظهِر خصوصيّةَ المؤمنِ رغمَ هولِ الموقفِ، فإتيانُهُ على حالِ الأمنِ حيث يُبعثُ الجميع ويُجمعون في موقفٍ رهيبٍ، وسطَ أهوالِ ذلك اليوم - يبرزُ خُصوصيّةَ حالِهِ إذِ اختير واصطُفي من بين هؤلاءِ للإتيانِ الآمِنِ.

دلالةُ اقترانِ الإتيانِ بحالِ الأمنِ في: ﴿يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾:

الإيمانُ هو شرطُ الأمـانِ والسّلامِ في الدّنيا والآخرةِ

كلمةُ ﴿ءَامِنٗا﴾ حالٌ من فاعل ﴿يَأۡتِيٓ﴾ في قوله: ﴿يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾، كأنّه قيل: (إتيانُهُ حاصلٌ على هيئةِ الأمْنِ)، والتّقييدُ بتلك الحالِ يدلّ على السّلامةِ الشّخصيّةِ للمؤمن، فهو يأتي سالمًا وآمنًا، دون خوفٍ أو عذاب، وفيه إشارةٌ إلى تمامِ نجاتِهِ وسلامته من كلّ أهوالِ الموقفِ.

دلالةُ القيدِ الظّرفيّ في قولِهِ: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

لا أمـانَ يـدومُ، إلّا أمـان يـومِ القيامة، لِمن كان مؤمنًا

تتأكّدُ حالُ الأمنِ وتستمرُّ بالقيدِ الظّرفيِّ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، الذي يدلُّ على أنَّ الإتيانَ على حالِ الأمنِ تُصاحبُ المؤمنَ من لحظةِ البعثِ وحتى موقف الحسابِ وما بعده، ممّا يدلّ على دوامِ النّعمةِ واستقرارِها.

موقعُ جملةِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ ممّا قبله:

حريّةُ الاختيارِ منـــوطـــةٌ بـمـسـؤولـيّـةِ الحسابِ

جملةُ ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ استئنافٌ تذييليٌّ[1] لإطلاقِ اختيارِهم فيما شاءوا من العملِ، بعد تخييرهم في تقريرِ الجزاءِ الأوفى من الجزاءِ الأدنى بطريقِ الاستفهامِ التّقريريّ الإنكاريّ، فأنتجَ ذلك من ذاك؛ لأنّ العملَ كيفما شاءوا لا يكون إلّا بعد توضيحِ كيفيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 305.

المصيرِ بإطلاعهم على احتمالاتِ العقوبةِ والوعيدِ التي يجترّونها بسوءِ أحوالِهم، فبنى الوعيد من خلالِ إيكالِهم إلى أعمالِهم على الوعيدِ من خلالِ تفصيلِ الجزاءِ لهم.

غرضُ فعلِ الأمرِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾:

الإغراءُ المُكنّى به عن التّهديدِ يزيدُ من وقْعِ التّهديدِ

مهما عمِلَ الإنسانُ، فلا مفرّ له من عاقبةِ أعمالِهِ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ مُستعملٌ في التّهديد، أو في الإغراءِ المُكنّى به عن التَّهديد(1)، فالفعلُ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ الذي هو في الأصلِ صيغةُ أمرٍ، لا يُرادُ به حقيقةُ الإذن أو الإباحة، وإنّما أُخرِجَ عن معناه الأصليّ إلى غرضِ التَّهديدِ؛ تحذيرًا للمُخاطَبين وتهديدهم بعواقبِ أفعالِهم الوخيمةِ، فلا يُفلحون مهما عملوا من أعمالٍ باطلةٍ. ودليلُ هذا الأسلوبِ شائعٌ في القرآن، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: 30]. وعلّة تخريجِ الأمرِ في: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ على المَجازِ لا الحقيقة: قرينةُ السّياقِ؛ لأنّه يتبعه في السّياقِ ما يدلّ على الجزاءِ والعقابِ، وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يعني: أنّ الأعمالَ مرصودةٌ ومحسوبةٌ.

أو يُرادُ من الأمرِ: الإغراءُ المُكنّى به عن التّهديد، فالإغراءُ هنا: تشجيعٌ ظاهريٌّ، ولكنّه في حقيقتِهِ توريةٌ عن التّهديدِ، كأنّ اللّهَ يتركُ لهم الخيارَ ظاهرًا ليختاروا ما يشاؤون من أعمالٍ، لكن مع علمِهم التّامّ بأنَّ العاقبة عليهم، فيكون إغراءً مجازيًّا يقود إلى التّهديدِ.

والمقصودُ بالإغراءِ هنا: هو تركُ المُخاطَبين كأنّهم في حالٍ من الحريّةِ المُطلقةِ مع تحمُّلهم لعواقبِ أفعالِهم، فيزيدُ ذلك الأسلوبُ من وقْعِ التّهديدِ عليهم؛ لأنّه أشْعرَ المخاطَبَ بظاهرِ الحريّةِ، لكنّه يُدرِكُ أنّ تلك الحريّةَ مآلُها الجزاءُ الرّهيبُ، فالإغراءُ والتّهديدُ هنا متلازمان، لاتّخاذِ الإغراءِ وسيلةً لتحقيقِ التّهديدِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 305.

وأيضًا: يصحّ أن يكون الغرضُ من الأمر هنا ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ التّحدّي لهم والاستنكار عليهم، كأنَّ اللّهَ يقولُ لهم: افعلوا ما يحلو لكم فأنتم في حُكمِهِ وتحت سيطرتِهِ، ولا يخفى ما فيه من إظهارِ عجزِهِم التّامِّ عن الخروجِ عن حُكْمِ اللّهِ.

وأيضًا: يصحُّ أن يكون الغرضُ من الأمرِ: الاستهزاءُ والتَّوبيخُ كأنَّه يُقالُ لهم: اعملوا ما شئتم، فمهما بلغتْ أعمالُكم من الكثرةِ في السّوءِ والشَّرِّ، فلن تُعجِزوا اللّهَ، ولن تضرّوا إلّا أنفسَكم.

موقعُ جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

جملة: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليليّةٌ لقولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾، والجملةُ التعليليّةُ هي قرينةُ التَّهديدِ المُرادِ من صيغةِ الأمرِ في: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾[1].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ على المبتدأ: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

أعمالُ الإنسانِ هي أحقُّ شيءٍ بعنايتِهِ ومُراقبتِه

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ الواقعُ خبرًا في قولِه: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لاختصاصِ أعمالِهم عنايةً واهتمامًا بها[2]؛ لأنَّها مناطُ الجزاءِ، فيتعلَّق التَّهديدُ بها؛ وفائدةُ هذا الاختصاصِ المُستفادِ من التّقديم: إشعارُ المُخاطَبِ بشدّةِ الإحاطةِ الإلهيّةِ بكلِّ تفاصيلِ أفعالِه، بما يُؤكِّدُ معنى التّهديدِ؛ فيعلم أنّه لا مجالَ للغفلةِ فيما يعملُهُ، ولا مجالَ للإفلاتِ من الجزاءِ على ما عَمِلَه.

أيضًا: في تقديم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾ مراعاةٌ للترتيبِ الواقعيِّ في المعنى؛ فالجملةُ تتطابقُ مع ترتيبِ الوقائعِ: العملُ أوّلًا، ثمّ مراقبةُ اللّهِ له للحسابِ والجزاءِ. وأيضًا: في تقديم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾ إظهارٌ للاهتمامِ بالفعلِ أكثر من الصّفةِ؛ ليتنبَّه المُخاطَبُ إلى أنّ الصّفةَ ﴿بَصِيرٌ﴾ تعلَّقت بأعمالِهِ خصوصًا، فيحمله ذلك على تجويدِ العملِ والتّوفُّر عليه إحسانًا وإتقانًا.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 309، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 15، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 569.

(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 17/ 200.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: 41 - 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القرآنُ تَذْكِرةٌ بجميعِ الآياتِ المنظورة والمسطورة

لّما هدّدهم في الآيةِ السّابقةِ على إلحادِهم في الآياتِ عمومًا؛ أتبعَ ذلكَ بالوعيدِ والتَّهديدِ على أخصِّ الآياتِ ومَجْمَعِها[1] لِمَنْ يكفرون بالذِّكْرِ الذي فيه تَذْكِرةٌ بجميعِ الآياتِ وهو القرآنُ العظيمُ الموصوفُ بالعِزَّةِ والعصمةِ من الباطلِ، وأنّه تنزيلٌ من مصدرِ الحكمةِ والحمدِ. فكأنّه جعلَ القرآنَ آيةَ الآياتِ، وجعلَ وصفَ القرآنِ بهذه الأوصافِ: (الذّكرُ، كتابٌ، عزيزٌ، لا يأتيه الباطلُ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ) بمثابةِ آياتٍ ودلائل مستقرّةٍ على العصمةِ والحفظِ ضدّ الكافرين به، فثبتَ في السّياقِ المناسبةُ والرّابطةُ بين أجزائِه، وهي تقرير الآيات - المنظورة والمسطورة، العامَّة والخاصَّة - بأسلوبٍ يُحقِّق عِصمتَها ضدَّ خروقات الكافرين بها، والمُلحدين فيها، والطّاعنين عليها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَزِيزٞ﴾: (عزّ) أَصْلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِنْ غَلَبَةٍ وقَهْرٍ[2]، والمعنى المحوريُّ: تماسكُ الجِرْمِ الرَّخو أو المُتَّشبِ حتى يبلغ الشِّدَّةَ والصَّلابةَ التّامَّةَ[3]، والعِزّة: حالةٌ مانعةٌ من الغَلَبَة، والعزيزُ: الذي يَقْهَر ولا يُقْهَر[4]. ومعنى العزيزِ هنا: المنيعُ مِن كلِّ مَنْ أراده بسوءٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 305.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عزّ).
(3) محمد جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (عزز).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عزّ).

مَنْ يكفرْ بالذِّكْرِ العزيزِ فقد أذلَّ نفسَه وسَفِهَها ونَساها

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنّ الذين كفروا بالقرآنِ - المُذَكِّر للعبادِ جميعَ مصالحِهم الدّينيّةِ والدُّنيويّةِ والأخرويّةِ، المُعلي لِقَدر مَنِ اتّبعه[1] - حين جاءهم على لسانِ رسول الله ﷺ خاسرون أو هالكون أو معذَّبون عذابًا شديدًا[2]. وإنّه لكتابٌ عزيزٌ منيع، لا يستطيعُ مُحَرِّف أن يحرّفه، ولا مُبَدِّل أن يبدِّله[3]. لا يتطرّق إليه الباطلُ من جهةٍ من الجهاتِ، أو ممّا فيه من الأخبارِ الماضيةِ والأمورِ الآتيةِ[4]، فلا يقربُهُ شيطانٌ من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، لا بسرقةٍ ولا بإدخالِ ما ليس منه به، ولا بزيادةٍ ولا نقصٍ؛ فهو محفوظٌ في تنزيلِه، محفوظةٌ ألفاظُه ومعانيه، قد تكفّل مَن أنزله بحفظِه[5]. تنزيلٌ من حكيم في خَلقِه وأمْرِه، وتشريعِه وتقديرِه، يضعُ كلَّ شيءٍ موضعه، ويُنزِلُه مَنازلَه، محمودٌ على كلِّ حالٍ، على ما له من صفاتِ الكمالِ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الكفرُ مجلبةٌ لكلّ إساءةٍ وذمٍّ

غرضُ افتتاحِ الجملةِ بالتأكيدِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

جاء افتتاحُ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ لتأكيدِ مضمونِ الجملةِ من المبتدأ وخبرِه المحذوف - اهتمامًا بشأنِ ذلك المضمون؛ أيْ: (إنّ الذين كفروا بالقرآنِ لمّا جاءهم يُلقَوْنَ في النّارِ، أو لا يَخفَوْن علينا، أو سنُعذِّبُهم، أو هالكون، أو سفهوا أنفسهم ...) أيًّا ما كان تقديرُ الخبرِ (فهو خبرٌ لا يكون إلّا مُسيئًا)[7]. وعِلّةُ

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 750.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 12/ 358.
(3) مركز تفسير، المختصر في التّفسير.
(4) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 5/ 73.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.
(6) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750، ومركز تفسير، المختصر في التفسير، ومجمع الملك فهد، الميسّر في التفسير.
(7) ابن عُثيمين، تفسير سورة فُصِّلت، ص: 243.

ذلك الاهتمام الذي سيق التّوكيدُ لأجْلِه: تثبيت الحقيقةِ في ذهنِ السّامع، فالكلامُ يتعلَّقُ بقضيّةٍ إيمانيّةٍ كبرى؛ وهي كفرُهم بالقرآنِ؛ فجاء التّوكيدُ ردًّا على هؤلاءِ المُكذّبين؛ ليُزيل أيَّ شكٍّ في أنّ هؤلاء الكافرين قد كفروا بالذِّكرِ رغم كونه كتابًا عزيزًا، ولا يخفى ما فيه من تأكيدِ ذمِّهم والتَّشنيعِ عليهم، وتأكيدُ مضمونِ الجملة من الاسمِ والخبرِ المحذوف يُؤكّد المفارقة والتناقضَ الذي تورّطوا فيه؛ ليستبشِعَ السّامعُ حالَهم، فهولاء تأكَّد كفرُهم بالذِّكرِ لمّا جاءهم رغم أنّه كتابٌ عزيز؛ فأيّ مفارقَةٍ تلك أنْ تعلّقَ كفرُهُم بما لا يوجد أولى وأحقّ من الإيمان به. وأيضًا التّوكيد هنا يستدعي التّنبيه على خطورةِ الجنايةِ التي ارتكبوها، وهي أنّهم كفروا بالذِّكرِ، فهذه جريمةٌ ليست عاديّةً، بل جريمةٌ يجب تناولُها بكلِّ تأكيدٍ وحَزْمٍ[1].

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ ﴿إِنَّ﴾ اسمًا موصولًا:

لا يكفرُ بالذِّكْر إلّا مُعانِدٌ مُستكبِرٌ

التّعبيرُ عن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الآيةِ باسم موصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلًا من اسم صريحٍ، يتناسبُ مع افتتاحيّةِ الآيةِ بالتّوكيد، فالموصولُ أفاد تسجيلَ الذَّمِّ على تلك الفئةِ المُتَّصفة بالكفرِ كجزْءٍ من هويَّتِهم وتكوين ذواتهم وأشخاصِهم. إجراء صفةِ الكفرِ عليهم من خلالِ استعمالِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يُشعِرُ بعلَّةِ استحقاقِهم لمضمونِ الخبرِ المحذوفِ وهو جزاؤهم على كفرِهم، ويُسرِّعُ من وتيرةِ ارتقابِ السّامعِ لِما سيُخبَر به عن هؤلاءِ، ففي استعمالِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تشويقٌ إلى استكشافِ خبَرِهم. كما أنّ الموصولَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه استحضارٌ للعلاقةِ بين هؤلاءِ والقرآنِ، فحين تسمعُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ تستحضر تشخيصًا للعلاقةِ بينهم وبين القرآنِ، كأنّها خصومةٌ متشخّصةٌ بين طرفيْن، وفي ذلك تجليةٌ لموقفِهم المُعانِد، وأنّه ليس كأيِّ إنكارٍ أو عِنادٍ.

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 200.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي: ﴿كَفَرُواْ﴾:

أعظمُ الكفرِ ما كان عن إحاطةٍ وعلمٍ وإصرارٍ وقصدٍ

التَّعبيرُ بـ﴿كَفَرُواْ﴾ ماضيًا في قولِه: ﴿كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ في الآيةِ يُفيد التّأكيدَ على وقوعِ الكفرِ بالفعلِ، ويُرسِّخُ لدلالاتِ: الجزْم والتّحقُّق، والاستمرارِ على فِعل الكفرِ كعادةٍ تكرَّرت منهم، والتّوبيخُ المُستلزِم لاستقباحِ إصرارِهِم، كما يُظهر أنّ هذا الفعل (صدور الكفر عنهم) كان عن إصرارٍ وجحودٍ، لا عن جهلٍ وغفلةٍ، فلا يُلتمسُ عُذرٌ لهم.

معنى الباءِ في: ﴿بِٱلذِّكۡرِ﴾:

كونُ القرآنِ ذِكْرًا يستوجبُ انفكاكَه عن الإنكار والكفر به

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلذِّكۡرِ﴾ هي باءُ التَّعلُّقِ والإلصاقِ، وهي تدلُّ على المُلابسةِ بين فعلِ الكفرِ وموضوعِه، وهو الذِّكْر (القرآن الكريم). وقد تُفيد السَّببيّةَ على معنى أنّهم كفروا بسببِ كراهةِ الذِّكرِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الزُّمر: 45]. وهذه الباء السَّببيّة تُضيف معنى خصومتهم مع القرآنِ، فكأنّهم لتلك الخصومةِ كفروا به وازدادوا عنه بُعدًا واستكبارًا.

معنى (ال) في (الذِّكْر):

القرآنُ هو مصدرُ الذِّكْرِ ومَنبَعُهُ

(ال) في كلمةِ (الذِّكر) هي (أل) العهديَّةُ، فالمقصودُ بها شيءٌ معروفٌ ومُحدَّدٌ عند المُخاطَبِ، والمقصودُ بـ(الذِّكر) القرآنُ الكريمُ الذي هو ذِكْرٌ خاصٌّ عظيمُ الشّأن، وليس أيّ ذِكْرٍ آخر. والاكتفاء بالتّعريف بـ(ال) فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا (الذِّكر) لا يحتاج إلى تعريفٍ إضافيٍّ، فلم يَقُلْ: (ذِكْرُ كذا أو كذا)؛ لأنّه مُتفرِّدٌ ومشهورٌ عند السّامعين، سواء آمنوا به أم كفروا، فـ(ال) العهدِ هنا تُشير إلى عَظَمَةِ وتفرُّدِ المعهودِ وهو القرآنُ العظيمُ.

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾ في: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾:

﴿لَمَّا﴾ هنا في قولِه: ﴿كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ ظرفُ زمانٍ

المسارعةُ في الكفرِ دأبُ المُجرمين في كلِّ زمانٍ

مُتعلِّقٌ بـ﴿كَفَرُواْ﴾ يُفيدُ التَّوقيتَ بمعنى (حين) أو (وقت)[1]. والمعنى: (كفروا بالذِّكرِ في الوقتِ الذي جاءهم فيه)؛ أيْ: بمُجرَّدِ وُصولِ الذِّكرِ إليهم كفروا به دونَ تردُّدٍ أو انتظارٍ للتَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ. فالتَّعبيرُ بـ﴿لَمَّا﴾ يُشعِرُ بالتّزامنِ الفوريِّ والارتباطِ الوثيقِ بين مجيءِ الذِّكرِ وكُفرِهِم به، فيدلّ على التّسرُّعِ والعنادِ في ارتكابِ الكُفرِ، وهذا يوضِّح أنَّ كفرهم لم يكنْ نتيجةَ تفكيرٍ أو تدبُّرٍ؛ بل كان موقفًا مباشرًا بمُجرَّدِ تلقّيهم الرِّسالةَ، وذلك يوحي بتفاعُلِهم اللّحظيّ السّلبيّ مع الذِّكر الحكيمِ، وهذا التّعاطي القاصرُ يُظهِرُ بشاعةَ فعلِهم ومدى سَفَهِهِم.

نكتةُ إيثارِ ﴿لَمَّا﴾ على (حين):

الكافرُ أسرعُ النّاسِ في مقابلةِ نعمةِ اللهِ عليهِ بالتمرُّدِ والتّنكُّرِ

إذا كانت ﴿لَمَّا﴾ ظرفًا بمعنى (حين)، فلِمَ لم يَقُلْ في السّياقِ الكريم: (كفروا بالذِّكرِ حين جاءهم)؟ ذلك أنّ ﴿لَمَّا﴾: تُفيد التّزامنَ مع الشَّرطيَّةِ الضِّمنيَّة، بمعنى أنّ الحَدَثَ الثّاني ﴿كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ وقعَ فورَ حدوثِ الحَدَثِ الأوَّلِ (جاءهم الذِّكْرُ)، فمجيءُ الذِّكرِ وقع أوَّلًا، وكفرُهُم وقع ثانيًا. فـ﴿لَمَّا﴾ تحملُ دلالةً فوريَّةً وسرعةً في وقوعِ الحَدَثِ الثّاني عند تحقُّقِ الأوَّلِ. ولذلك فهي تُصوِّر التَّزامنَ بين الحدثَيْن (التّلازم والاقتران الزّمنيّ)، وتدلّ على تسارعِ كفرِهم بمجرّدِ مجيءِ الذّكرِ إليهم، وهذا يعزّزُ صفةَ المسارعةِ في الكفْرِ التي تقرّر وصفَ المشركين بها في غيرِ آيةٍ. وينتج عن هذا التّزامُن العاجل معنيان بديعان: **الأوّل**: تعظيمُ جُرمِهم؛ فهم قومٌ سارعوا في الكُفرِ بالذِّكرِ بمُجرَّدِ مجيئِهِ دونَ تكرارِ المحاولاتِ في فهمِهِ وتقديرِه. وهذا يُؤكِّدُ عنادَهم وجحودَهم وأنّ لديهم إرادةً مقصودةً للكفرِ وسبْقَ إصرارٍ عليه، فقد جاءهم الذِّكرُ بوضوحٍ، ومع ذلك سارعوا في الكفرِ به دونَ تردُّدٍ أو تمهُّلٍ. **والثّاني**: إظهارُ نعمةِ اللّهِ عليهم

(1) الخطيبُ، التّفصيل: 24/ 324.

في مجيءِ الذِّكرِ إليهم، ومع ذلك لم يقدروا نعمةَ اللّهِ وقابلوها بالكُفرانِ، والتَّعبير بـ﴿لَمَّا﴾ يُعزِّز هذه المقابلةَ بين إنعامِ اللّهِ عليهم بالذِّكرِ، وتنكُّرِهم لهذا الإنعامِ بالكُفرِ.

وأمّا (حين)؛ فتدلُّ على مُجرَّدِ الوقتِ الذي وقعَ فيه الحَدَثُ دون عدم اقتضاءِ التّلازُمِ أو الفوريّةِ، كما أنّها تفتقر إلى الدّلالةِ الشَّرطيَّةِ التي في ﴿لَمَّا﴾. فلو قيل: (حين جاءهم)؛ لكان مُجرَّدَ تنبيهٍ على الإطارِ الزَّمنيِّ فقط، فلا تحمِلُ قوّةَ ﴿لَمَّا﴾ ودقّتَها في بيانِ سرعةِ التّزامنِ أو الرَّبط بين المجيءِ والكفرِ.

معنى الواوِ ودلالتُها في: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾:

عِزّةُ القرآنِ ذاتيّةٌ فيه لا تنفكُّ عنه بحالٍ

الواوُ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ هي الواو الحاليّةُ، ويصحُّ أن تكون الواوُ حاليّةً[1]، والواوُ الحاليّةُ تُفيد أمريْن: **الأوّل:** مُزامنة ما بعدها مع ما قبلها[2]؛ أي: الكتاب مُتَّصفٌ بالعِزَّة في الوقتِ الذي حصلَ فيه كفرُهُم، ومع ذلك كفروا، ولا يخفى ما فيه من تسجيلِ السَّفَهِ عليهم.

والثّاني: الواو الحاليةُ تُفيدُ أيضًا أنّ ما بعدها ثابتٌ ومُتحقّقٌ قبل حصولِ ما قبلها[3]، فالكتابُ عزيزٌ لا تنفكُّ عنه حالُ العِزَّةِ أبدًا، سواء كفروا أو لم يكفروا، من قبلِ حُصولِ ذلك منهم ومن بعده، وفيه إشعارٌ بأنّهم لا يضرّون بالكفرِ إلا أنفسَهم، وأنّ كفرَهم بالكتابِ لا يعودُ عليه بشيءٍ من النّقصِ أو التغيّرِ، فهو عزيزٌ كاملٌ أبدًا.

نكتةُ توكيدِ الجملةِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾:

توكيدُ الحقائقِ الإيمانيّةِ يُزعِجُ أسماعَ الكافرين

اكتنفَ جملةَ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أكثرُ من مُؤكِّد: (إنّ)، واسميّة الجملة، فلم يَقُلْ: (كان كتابًا عزيزًا أو صار كتابًا..)، ولامُ التَّوكيدِ

(1) الخطيب، التفصيل: 24/ 327.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 297.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 306.

المُزحلَقَةُ للخَبَرِ ﴿لَكِتَٰبٌ﴾، وهذه المُؤكِّداتُ جميعًا تُكثِّفُ التّوكيدَ وتَضُخُّه في جسمِ التّركيبِ كلّه؛ لتحقيقِ عَظَمَةِ القرآنِ الكريمِ، وتثبيتِ عِزَّتِه في أذهانِ السّامعين، والردِّ القويِّ على المُكذِّبين به، مع التَّأكيدِ على ثباتِ هذه الحقيقةِ واستمرارِها على مَرِّ الزَّمانِ. فالتّأكيد بـ(إنّ) أزالَ الشَّكَّ والتَّردُّدَ في ثبوتِ الحقيقةِ المُقرَّرَة في مضمونِ الجملةِ وأطاح بإنكارِ المُنكرين. واسميَّة الجملة أفادتْ ثبوتَ الحقيقةِ واستمرارَها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فهو ثابتٌ في عِزَّتِه لا يتغيَّرُ. واللّام المُزحلَقَةُ المُقترنةُ بالخبرِ في: ﴿لَكِتَٰبٌ﴾ أكّدتْ معنى الاختصاصِ والتَّعيين؛ أيْ: إنَّ هذا القرآنَ بعينِه هو الكتابُ العزيزُ الذي لا يُضاهيه شيءٌ، والجمعُ بين هذه الأدواتِ جميعًا يقطعُ كلَّ جدالٍ حولَ مكانةِ القرآنِ، وينفي تناولَه أو النَّظر إليه بشيءٍ من النَّقصِ أو الإخلالِ أو الاستدراكِ على تلك المكانةِ العظيمةِ.

الغرضُ من تنكيرِ: ﴿عَزِيزٌ﴾:

عِـزّةُ القرآنِ من عِزّةِ المولى ﷻ

تنكيرُ الخبرِ ﴿عَزِيزٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ يُفيدُ التَّفخيمَ والتَّعظيمَ والإطلاقَ في المعنى، يعني أنّ القرآنَ ذو عِزّةٍ مُطلقةٍ بلا حدٍّ ولا قيْدٍ؛ فهو عزيزٌ في كلِّ الجوانبِ: عزيزٌ في مكانتِه، عزيزٌ في إعجازِه، عزيزٌ في حفظِه من التّحريفِ، عزيزٌ في قوَّتِه على هدايةِ البَشَرِ، وفي استعلائِه على الباطلِ. وعِلَّةُ هذا التَّنكيرِ: فتحُ الآفاقِ أمامَ المُتلقّي للتّفكُّرِ في عِزَّةِ القرآنِ من زوايا مختلفةٍ ومُتعدِّدةٍ ومحاولة إحصائِها وانتزاعِها وتجليتِها، مع إشعارِ المُخاطَب بالتَّشويقِ نحو اكتشافِ أوجُه هذه العِزَّةِ، وإشعاره كذلك بالتّحدّي، فلكونِه عزيزًا صارَ لا يُستطاعُ الإتيانُ بمِثلِه ووقع به التَّحدّي؛ فهذه العِزَّةُ التي اتَّصف بها الكتابُ هي عِزّةٌ مُغايرةٌ للمعهودِ، فليستْ كأيّ عِزَّةٍ؛ ولذلك نكَّرها ولم يُعرِّفها.

موقعُ جملةِ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ ممّا قبلها:

جملةُ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في حُكمِ التَّعليلِ لما قبلها؛ أيْ: وإنّه

العزيزُ عَصيٌّ على أنْ يَنالَ أحدٌ منه بالباطلِ

لكتابٌ عزيزٌ؛ لأنّه منيعٌ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه. وقد تكون استئنافًا بيانيًّا على تقديرِ سؤالٍ: كيف كان كتابًا عزيزًا؟ فأُجيب: لا يأتيه الباطلُ. فالجملةُ تفسيرٌ لوصفِ الكتابِ بالعزّة[1]. وفُصِلتِ الجملةُ؛ لكونِها في موقعِ الصّفةِ لـ(كتاب) في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾[2].

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَّا﴾:

انتفاءُ الباطلِ عن القرآنِ أمرٌ دائمٌ لا يتغيَّرٌ

النَّفيُ بـ(لا) في قولِه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أفادَ النَّفيَ التّامَّ لوقوعِ الباطلِ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ في أيِّ زمانٍ وأيِّ مكانٍ. فـ﴿لَّا﴾ تُفيدُ النَّفيَ المُطلَقَ والدّائمَ، فهي تنفي الحدوثَ في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ[3]، فتدلّ - هنا - على نفيٍ مُتجدِّدٍ مُستمِرٍّ؛ أيْ إنّ انتفاءَ الباطلِ عن القرآنِ أمرٌ دائمٌ لا يتغيّر.

ولم يَنْفِ بـ(ما)، فلم يَقُلْ: (ما يأتيه الباطلُ)؛ لاحتمالِ أنْ يُفهم منها النَّفيُ على نحوٍ جامدٍ أو مُحدَّدٍ بإطارٍ زمنيٍّ دونَ الإشارةِ إلى الديمومةِ والاستمرار والاستقبال، فعادةً تُستعملُ (ما) للنّفي المُتعلّق بزَمَنٍ مُعيَّنٍ أو حالةٍ مُؤقَّتةٍ (ماضٍ أو حاضر)، وقد تقتصرُ على الماضي أو الحاضر فقط بحسبِ السّياقِ، فلو قيل: (ما يأتيه الباطل)، فقد يُفهم أنَّ النَّفي يتعلّقُ بزمنٍ مُحدَّدٍ دونَ الإشارةِ إلى الاستمرارِ أو المستقبل. فـ(ما) أقلّ قوّةً في التَّعميمِ والإطلاقِ الشّاملِ المُستقرِّ للنّفي. و(لا) أبلغ وأقوى في التَّأكيدِ على الاستمراريّةِ المُطلقةِ. نعم (ما) في بعضِ السّياقاتِ قد تدلُّ على الاستمرارِ، ولكن هذا يحتاج إلى قرينةٍ واضحةٍ لتحديدِ معنى الاستمرار، كما إذا جاءَ الفعلُ مع (ما) في صيغةٍ مثل (ما زال) أو (ما برح)، فهذا

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 17/ 201.

(2) الخطيب، التَّفصيل: 24/ 328.

(3) السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 206.

يُشيرُ إلى الاستمرارِ أو الاستمراريّة في الحالِ، فالاستمرارُ الذي أفادتْه احتاج إلى قرينةٍ أقوى مثل استعمالِها مع أفعالٍ تدلُّ على الاستمراريّةِ. وأمّا (لا) فهي تدلّ على النّفي المُطلَقِ الذي يُفهم معه الاستمرارُ بأدنى ملابسةٍ من مضمونِ السّياقِ دون توقُّفِ ذلك على أداةٍ خارجيّةٍ أو مساعِدةٍ تقترنُ بها لإفادةِ الاستمرارِ كما في: (ما). فالاستمرارُ في (لا) أقوى وأوضحُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالإتيانِ دونَ المجيءِ في: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾:

بئسَ مَنْ يَطلبُه الوحيُ ليهتدي، فيستنكر له ويُعرِض عنه

عبّر بالإتيانِ دون المجيءِ في قوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ - غالبًا - ما يستعملُ في المجيءِ بسهولة[2]، فيدلّ على الوصولِ السّهلِ دونَ جهدٍ كبيرٍ، بخلافِ المجيء الذي قد يدلُّ على التحرُّكِ الجادِّ الثّقيلِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: 22]؛ فالمجيءُ هنا يُعبِّر عن حركةٍ جادَّةٍ وثقيلةٍ ذاتِ هيبةٍ. واختيار (الإتيان) في الآيةِ يُفيد أنّ الباطلَ لا يستطيعُ أدنى صورِ الوصولِ إلى القرآنِ، سواء كان ذلك بمحاولاتٍ مُعقَّدةٍ وخبيثةٍ أو بمحاولاتٍ يسيرةٍ خفيفةٍ، أو لطيفةٍ خفيّةٍ، فاختيار (الإتيان) يجعلُ النّفي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ﴾ أشملُ وأدقُّ، لأنَّه ينفي أيسرَ صورِ التَّدخُّل، فمن بابِ أوْلَى نفيُ أعقدِها وأعسرِها، فالباطلُ لا يَتدخّلُ إلى القرآنِ ولا يتوصّل إليه بحالٍ.

نُكتةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ في ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾:

التّأكيدُ بالتّقديمِ على اختصاصِ القرآنِ بالنّفي

تقديمُ المفعولِ به (الهاء) في: ﴿يَأۡتِيهِ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ لاختصاصِ القرآنِ بالذِّكرِ والعنايةِ، فهو المستهدَفُ من النَّفي، فلا يصِلُ إليه الباطلُ بحالٍ، فلمّا كان المدارُ عليه في الحديثِ - قُدِّم ضميرُه.

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 191.
(2) الرّاغب، المُفردات: (أتي).

وأيضًا: تقديمُ المفعولِ به يجعلُ النَّفيَ أقوى وأبلغ، لأنَّ ترتيبَ الجملةِ يلفتُ الانتباهَ مباشرةً إلى الشّيءِ الذي يُنفَى عنه أيُّ احتمال (القرآن) قبل ذِكْرِ الفاعلِ ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾.

وفي تقديمِ المفعولِ كذلك: تقليلٌ من أهميَّةِ الفاعلِ ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ والالتفات إلى عَظَمَةِ المُستهدَفِ (القرآن)، فالفاعلُ هنا لا أهميّةَ له مقارنةً بالفاعلِ، فالباطلُ مهما كانت قوّتُه، فإنه يُذكَرُ لاحقًا ليُبيِّن أنّه عاجزٌ تمامًا أمامَ القرآنِ.

كذلك تقديمُ المفعولِ (الضمير) في: ﴿يَأْتِيهِ﴾ هو الأنسبُ مع السّياقِ؛ لأنّ السّياقَ يُقرّر أنّ القرآنَ هو محلّ الإعجازِ، والآيةُ تؤكِّدُ عِصمتَه المُطلقةَ؛ لذا فتقديمُ (ضمير المفعول) يتّسِق مع هذا الهدفِ، حيث يصبحُ الحديثُ مُركَّزًا عليه، فيقتضي ذلك تقديمُهُ.

وفي هذا التّقديمِ أيضًا: توجيهٌ للأذهانِ إلى النّتيجةِ بدلَ الفاعلِ، والنتيجةُ حاصلةٌ في الفعلِ والمفعولِ ﴿لَّا يَأْتِيهِ﴾، وحاصلُ تلك النّتيجةِ أنّ الباطلَ لا يستطيع التّأثيرَ على القرآنِ، فكأنّه قدَّم النّتيجةَ إسراعًا بها إلى الأسماعِ والقلوب؛ لأنّها الغرضُ والقصدُ.

غرضُ تعريف المُسنَد إليه ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ ومعنى (ال):

تعريفُ المُسنَدِ إليه أسهَمَ في تقويةِ معنى النَّفي

تعريفُ ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ في قولِهِ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ لإفادةِ الشُّمولِ والاستغراقِ لجميعِ أنواعِ الباطلِ، فـ(ال) فيه للجنسِ فتُفيد العمومَ، ممّا يُحقِّقُ نفيًا قاطعًا ومُطلقًا لأيِّ تأثيرٍ من أيِّ نوعٍ من أنواعِ الباطلِ على القرآنِ في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. ولو كان التعبيرُ: (لا يأتي باطلٌ) - بدون تعريف - لفُهِم منه أنّ بعضَ أنواعِ الباطلِ قد لا تأتيه، لكن ليس كلّ الباطلِ؛ فجاء التّعريفُ ليكون الحديثُ عن الباطلِ حديثًا عامًّا مُطلقًا لا يترك مجالًا لاستثناءِ أيِّ نوعٍ منه.

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾:

﴿مِنۢ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ابتدائيّةٌ تدلُّ على ابتداءِ الغايةِ

في المكانِ أو الجهةِ، أيِّ إنّ الباطل لا يمكنُهُ الوصولُ إلى القرآنِ أو التّأثيرُ عليه ابتداءً من الجهةِ الأماميّةِ (مجازًا: المستقبل أو الأمور المستقبلة). ولا من خلْفِه (كنايةً عن جهةِ الزّمانِ الماضي)، وكأنّ المعنى: أنّ الباطلَ لا يستطيعُ أن ينشأ أو ينطلق ليأتي القرآنُ من أيّ جهةٍ كانت.

القرآنُ مُستَغْلِقُ الجهةِ فلا خلاصَ لباطلٍ إليه

نكتةُ عدمِ إسقاطِ الجارِّ:

لم يَقُلِ البيانُ القرآنيُّ: (لا يأتيه بين يديه) بإسقاطِ حرفِ الابتداءِ؛ لأنّ ﴿مِنۢ﴾ تُضيفُ دلالةَ الامتناعِ التّامِّ عن الباطلِ من أيِّ جهةٍ، فالجمعُ بين ﴿مِنۢ﴾ و﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ يجعلُ النَّفيَ أكثرَ تأكيدًا وبلاغةً، وكأنّ ﴿مِنۢ﴾ تشيرُ إلى أصلِ الباطلِ أو بدايتِه، كأنّه لا يملِكُ حتّى نقطةَ انطلاقٍ.

الباطلُ هَشٌّ في أصلِه وضعيفٌ في مُنْطَلَقِهِ

الكنايةُ والاستعارةُ في: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾:

أوّلًا: الكنايةُ:

الكنايةُ هنا في تركيبِ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ و﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ للإشارةِ إلى معانٍ أعمق دون التّصريحِ المباشرِ، فقولُهُ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ كنايةٌ عن المستقبلِ أو ما سيحدث لاحقًا، ودلالةُ الكنايةِ هنا: أنّ الباطلَ لا يستطيعُ النّفوذَ إلى القرآنِ فيما يتعلّقُ بالأحداثِ القادمةِ أو ما سيحدثُ لاحقًا.

اجتراز الكنايةِ للاستعارةِ

وقوله: ﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ كنايةٌ عن الماضي أو ما حدث سابقًا. ودلالةُ الكنايةِ هنا: أنّ الباطلَ لم يأتِ القرآنَ في الماضي، ولن يُؤثِّرَ فيه أو يُشوِّهه من جهةِ ما مضى.

ويصحّ أنْ يكون قولُهُ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ كنايةً عن جميعِ الجهاتِ؛ أيّ: (جهات المكان، لا الزّمان كما في الكنايةِ

الأولى)؛ أيِّ: لا يتطرّق إليه الباطلُ من جميعِ جهاتِه[1]. وفي التركيبِ مجازٌ بحذفِ الغايةِ؛ أي: لا يأتيه من بين يديه إلى خلفه، ومن خلفِهِ إلى بين يديهِ[2]. وهذه الكنايةُ المكانيّةُ جاريةٌ على الحقيقةِ، والكنايةُ الزّمانيةُ الأولى جاريةٌ على الاستعارةِ[3]. وتصوّر الحقيقة في المكانيّة على النّحو التّالي: أنّ الكتابَ في جهةٍ ومكانٍ على الحقيقةِ، فلا يأتيه من جهةٍ من الجهات باطلٌ يزيدُ عليه أو ينقصُ منه، كأنّه قيل: مكانُ الكتابِ معصومٌ فلا تطالهُ يدُ الباطلِ.

ثانيًا: الاستعارةُ:

سبقَ القولُ إنّ الكنايةَ الزّمانيّةَ (الماضي والمستقبل) في: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ جاريةٌ على الاستعارة، فاستُعيرت ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ للإشارةِ إلى المستقبلِ، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ للإشارةِ إلى الماضي. وفي الأصلِ: ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ تعني الجهةَ الأماميَّةَ لشخصٍ، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ تعني الجهةَ الخلفيّةَ، لكنّ المعنى انتقل مجازًا إلى الزَّمنِ، حيث: ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: المستقبل (ما سيأتي أمامه)، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾: الماضي (ما ولّى وانقضى). وهذه الاستعارةُ تُضفي بُعدًا تصويريًّا قويًّا، حيث تجعلُ الزّمنَ وكأنّه شيءٌ محسوسٌ يُرى أمامَ الشّخصِ أو خلفَه، فقد جعلتِ الزّمنَ كأنّه مكانٌ له أمامٌ وخلْفٌ. ولا يخفى ما فيه من تعزيزِ عصمةِ القرآنِ عبر الزّمنِ كلّه ماضيه ومستقبله.

الاستعارةُ التّمثيليّةُ في التّركيبِ:

مَن أرادَ الحمايةَ والعصمةَ وجَدَها في حَرَمِ القرآنِ

في قولِهِ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ نفيٌ للباطلِ عن القرآنِ من جميع جهاتِهِ، فلا يُداخِله ولا يشتملُ عليه، لا في ظاهِرِهِ ولا في ضِمْنِهِ، فنفي إتيانِ الباطلِ عنه هو نفيٌ لوجودِهِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 378.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 152.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 172.

فيه، وليس نفيًا لادِّعاء الباطلِ عليه[1]. وانتفاءُ الباطلِ عن القرآنِ العظيم من جميعِ جهاتِه المُكنَّى عنها بـ(بين يديهِ ومن خلفِهِ) في ذلك استعارةٌ تمثيليّةٌ، فقد "شبّه الهيئةَ المُنتَزَعَةَ من جانب القرآنِ، بهيئةٍ مأخوذةٍ من شخصٍ حُميَ من جميع جهاته؛ أي: المكانيّة، فلا يُمكِنُ إيصالُ الضّررِ إليه من عدوِّهِ"[2]. أمّا على اعتبارِ أنّ ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ أيْ: أخبار الماضي قبله لا تُبطلُه، وأخبارُ المستقبلِ بعدَه لا تُبطلُه، فلا استعارةَ تمثيليّةَ حينئذٍ.

تعليلُ الكنايةِ في: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾:

مَن لا يُؤتَى من أمامِهِ وخلفِهِ، فهو من سائِرِ الجهاتِ غيرُ مُستَطاعٍ

سبقَ القولُ بأنّ قولَه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ كنايةٌ عن جميعِ الجهاتِ، وعلّةُ تلك الكنايةِ الواردةِ على استيعابِ الجهاتِ، مع أنّه لم يُذكر إلّا (القُدّام - من بين يديه، والخلْف - من خلفه)؛ لأنّ ما (قُدّام) أوضح ما يكون، وما (خَلْف) أخفى ما يكون، فما بين ذلك من بابِ الأوْلى، فكانت العبارةُ بذلك كنايةً عن استيعابِ الجهاتِ؛ لأنّ صفةَ اللّهِ (القرآن) لا وراءَ لها ولا أمامَ على الحقيقةِ، فليس وراءَ اللّهِ مَرمَى، ولا دونَ اللّهِ مُنتهى، ونحو ذلك هو ممّا تفهمُ العربُ المُرادَ منه مِنْ علم لسانِها دونَ لبْسٍ[3].

دلالةُ تكرارِ النَّفي: ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾:

مناعةُ القرآنِ ثابتةٌ لا تتفاوت في جميعِ مستوياتِ التّحدّي

إعادةُ حرفِ النَّفي (لا) في قولِه: ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ بدلًا من الاكتفاء بالنّفي الأوّل، والتّعبير بـ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ لتقرير نِكاتٍ جليلةٍ:

أوّلها: توكيد النَّفي واستقلاله لكلّ جهةٍ[4]، فكلّ جهةٍ من الجهات التي يُحتمَل أنْ يأتي منها الباطلُ مُنفصلةٌ ومُستقِلّةٌ في النّفي. وأمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 309.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 172.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 201.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 172.

التّوكيد: فإعادةُ النّفي مرّتيْن توكيدٌ له. ولو لم يتكرّر النَّفي؛ لفُهِم المعنى بصورةٍ إجماليّةٍ خاليةٍ من عنصري التّوكيدِ والاستقلالِ.

ثانيها: تكرارُ (لا) يُضفي تناغمًا صوتيًّا في طرفي التركيبِ، وهذا الإيقاعُ الصّوتيُّ يطبعُ أريحيّةً على النّظمِ، فيَسْري معناه إلى قلبِ السّامعِ بأيسرِ سبيلٍ.

ثالثها: تحقيق استقلالِ المعاني الكنائيّة المختصّة بكلّ طرفٍ، فـ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ له معنًى كنائيٌّ مُستقِلٌّ - كما سبق بيانُهُ - عن المعنى الكنائيِّ لقولِه: ﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾، فإعادةُ النَّفيِ ضروريٌّ لإبرازِ هذا الاستقلالِ المعنويِّ.

رابعها: إعادةُ النّفي توحي بأنّ محاولاتِ الباطلِ مع القرآنِ مُتكرّرةٌ ومستمرّةٌ عبر الزّمنِ، ويكأنّ تكرارَ حرف النّفي يُشير إلى هذا التّكرارِ في خصومةِ الباطلِ مع القرآنِ، وهذا التّكرارُ يعكسُ استمرار العصمةِ الإلهيّة للقرآنِ في مواجهة كلّ المحاولاتِ الفاشلةِ، ممّا يؤكّد أنّ النَّفيَ دائمٌ ومُتجدِّد، ولهذه النُّكتةِ أُعيد وتكرّر؛ ليتقرَّرَ أمانُ القرآنِ وصَوْنُه.

موقعُ جملةِ: ﴿تَنزِيلٞ﴾:

القرآنُ كاملٌ في مصدرِهِ وكاملٌ في جوهرِه

قولُه: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ إمّا أن يكون استئنافًا ابتدائيًّا، على تقدير مُبتدأٍ محذوفٍ خبرُهُ ﴿تَنزِيلٞ﴾؛ أيْ: هو تنزيل[1].

وإمّا أنْ يكون صفةً لـ(كتاب)، وتكون جملةُ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ معترضةً بينهما، أو صفة، والاعتراضُ إنّما هو عند مَن يمنع تقديم غير الصّريح من الصّفات على الصّريح. وكون هذه الجملة في موقع الصِّفة لـ(كتاب)، فهي بذلك تُفيد الفخامةَ الإضافيّةَ للكتابِ، كما أنّ الصّفتيْن السّابقتيْن (العزّة، وانتفاء الباطل عنه) مُفيدتان لفخامته الذّاتيَّةِ[2].

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 19.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 16.

وإفادةِ الجملة للفخامةِ الإضافيّةِ؛ أي: الكمال الخارجيّ للكتابِ فقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ بيانٌ لمصدر الكتاب؛ وهو وصفٌ له خارجٌ عن ذاتِه، وأمّا الفخامةُ الذّاتيّةُ فهي الكمالُ الذّاتيُّ الكائنُ في جوهرِ الكتابِ وهو كونه عزيزًا معصومًا من الباطلِ.

ويصحّ أن تكون جملة ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ تعليليّة للوصفين السّابقين (العزّة وانتفاء الباطل عنه)، كأنّه قيل: هو كتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل؛ لكونه تنزيلا من حكيم حميد(1).

غرضُ حذفِ المُبتدأِ في: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾:

مصادرُ الأشياءِ مُحدِّدَةٌ لِقيمتِها

على وجْهٍ: فإنّ قولَه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ خبرُ ابتداءٍ محذوفٌ على تقديرِ: (هو تنزيل). فحذفُ المبتدأ - على هذا الوجهِ - له أغراضٌ بلاغيّةٌ بديعةٌ، ولذلك لم يُصرّح به من هذه النِّكاتِ في حذفِ المبتدأِ وتصديرِ الخبرِ:

الإيجازُ في التّعبيرِ، لا سيّما إذا كان السّياقُ دالًّا على المحذوفِ. وفي حذفِ المبتدأ: إبرازٌ للخبرِ كصفةٍ تعظيميّةٍ، فاقتضى ذلك تصديرَه؛ ليترابطَ المُخاطَبُ مباشرةً بعَظَمَةِ الكتابِ كتنزيلٍ من اللّهِ الحكيمِ الحميدِ دونَ تشتيتِ الانتباهِ بتقديمِ المبتدأِ، كأنّ الهدفَ من الخطابِ هو تسليطُ الضوءِ على صفةِ التَّنزيلِ الإلهيِّ دون حاجةٍ إلى تمهيدٍ أو تقديمٍ، ففي حذفِ المبتدأ على هذا التّوجيهِ: إسراعٌ بإحضارِ الخبرِ إلى سمْعِ المُتلقّي؛ فعندما يسمعُ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ يستحضِر عَظَمَةَ المصدرِ الإلهيّ تأثّرًا به وتهيُّبًا منه. كما أنَّ الحذفَ هنا اقتضتْهُ مناسبةُ السّياقِ الذي توفَّر على تقريرِ عَظَمَةِ الكتابِ وإعجازِه، فاقتضى ذلك حذف المبتدأ؛ ليُضفي على الجملةِ وقْعًا خاصًّا يتناسب مع الحديثِ عن عَظَمَةِ الكتابِ ومصدرِه.

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 172.

هناك أيضًا فائدةٌ من حذفِ المبتدأ تعود على المحذوفِ ذاتِه، وهو إفساحُ المجالِ إليه من خلالِ إعمال الذّهنِ في تقديرِهِ ومحاولةِ الكشفِ عنه.

غرضُ تنكيرِ الخبرِ: ﴿تَنزِيلٌ﴾:

الأكناهُ المُدهِشةُ والعجيبةُ يزيدها الإبهامُ إدهاشًا وإعجابًا

تنكيرُ الخبرِ في قولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؛ لإفادةِ التّعظيمِ والتّفخيمِ، والدّلالةِ على فرادةِ النّوعِ، وأوْحديّةِ الأنموذجِ، كأنّ الآيةَ تقولُ: هذا تنزيلٌ ليس كأيِّ تنزيلٍ آخر؛ بل هو تنزيلٌ عظيمٌ مهيبٌ من عند اللّهِ الحكيمِ الحميدِ، فإيّاكم أنْ تُنْزِلوه على غيرِ منزلتِهِ، ففي التَّنكيرِ إعظامٌ يورثُ التّرهيبَ والخشيةَ. وفي التَّنكيرِ إبهامٌ مقصودٌ يورثُ الدَّهشةَ والاستعجابَ من كُنْهِه، كأنّه قيل: هذا تنزيلٌ لا يمكن إدراكُ كمالِهِ وجلالِهِ، وإنّما يُعرف بمصدرِهِ العظيمِ، فيكفيك منه ذلك.

معنى ﴿مِّنْ﴾ في: ﴿مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾:

سلامةُ المصدرِ دليلٌ على ضمانةِ الشَّيءِ ووثوقيّتِهِ

﴿مِّنْ﴾ في قولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابتدائيّةٌ؛ أيْ: هذا تنزيلٌ صادرٌ من اللّهِ سبحانه، فـ﴿مِّنْ﴾ هنا تدلُّ على مصدريَّةِ التَّنزيلِ. ويصحُّ أن تكون تعليليّةً، كأنّه قال: (هذا تنزيلٌ)، ثمّ علّل كونه تنزيلًا، بأنّه ﴿مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، فهو في معنى: هو تنزيلٌ موصوفٌ بذلك بسببِ عِلمِ وقوّةِ الحكيمِ الحميدِ. ويكأنّه علَّل بالحكمةِ والحمدِ اتصافَ الكتابِ بالتّنزيلِ. فكونه تنزيلًا مُسبَّبٌ عن صفتي الحُكمِ والحمدِ.

التّنزيلُ يحملُ صفاتِ مصدرِهِ الذي صدرَ عنه:

لم يَقُلْ: (تنزيل حكيم حميد)؛ لدلالة ﴿مِّنْ﴾ على وثوقيّة العلاقة بين القرآنِ المُنزَّلِ وبين اللّهِ المنزِّلِ، فالتنزيلُ يحملُ صفاتِ مصدرِهِ: الحكمةُ في التّشريعِ، والحمدُ في أثرِهِ على الخَلْقِ.

نكتةُ اصطفاءِ ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ للفاصلةِ:

اصطفاءُ ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وصفيْنِ للّهِ سبحانه في ختامِ الفاصلةِ؛

ملاحظةُ المطلعِ في الـخـتـامِ إحكامٌ في النّظمِ مُدهِشٌ

لتَناسُب ذلك الوصفيْن الجليليْن مع وصفي الكتابِ قبلهما في قولِهِ: ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾، فكونُهُ عزيزًا يقتضي صدورَه عن منيعٍ غالبٍ بالحُكْمِ والحِكمةِ، وكونُهُ مُنزّهًا عن الباطلِ واللغوِ يقتضي صدورَه عن حميدٍ قد حَمِدَ كتابَه بثناءِ الحقِّ وبراءةِ التُّهمةِ من الزَّيفِ. وأيضًا: فإنّ مُقتَضَى وصفي الحكيمِ الحميدِ منطبِعٌ في القرآنِ باشتمالِهِ على الأحكامِ والحِكَمِ، ولكونِ ذلك التّنزيلِ عائدًا بالحمدِ والثّناءِ والشّرفِ والذِّكْرِ المُعلَّى على هذه الأمّةِ، فهو مصدرُ حمْدِها بين الأممِ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبياء: 10]؛ أيْ: شرفُكُم ومحلُّ مَجدِكم والثّناء عليكم فأنتم به مَحمودون ومن غيره مَرذولون. فكأنّه أشارَ بالحكيمِ الحميدِ إلى انطباعِ آثارِ هذيْنِ الاسميْنِ في مضامين القرآنِ وعوائِدِهِ على خَلْقِه؛ فالقرآن حاكمٌ فيهم بالعدلِ والحِكمة، وهم محمودون بسببِهِ.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣﴾ [فصلت: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لا بدّ للحقّ حتَّى يتمكَّن من الابتلاءِ والمعاناةِ

لمّا وُصف الذِّكرُ بامتناعِ الباطلِ عنه، وامتناعه على لحوقِ النّقصِ به؛ توجَّه هنا إلى رسول اللّه ﷺ بالتّسليةِ والتّثبيت له[1]، بما يُصمِدُه أمام أقاويلِ قومِه وأباطيلِهم، فقدّم سببَ التسليةِ وهو عصمةُ القرآنِ من الأباطيلِ، ثمّ أتبعَه بالتَّسليةِ بخطابِ الرّسولِ، فذكَرَ امتناعَ القرآنِ من الباطلِ أوّلا، ثمّ ذَكَرَ ما يمتنع به الرّسولُ ويَعتزّ به أمامَ أقاويلِ الكَفَرَةِ بهذا الباطلِ ثانيًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاشـتراكُ في المُـصاب من دواعي التَّسلّي والتَّصبُّرِ

ما يُقال لك من التّوحيدِ وإخلاصِ العبادةِ للّه إلّا ما قد قيل للرُّسُلِ من قبلك؛ فإنّ الشّرائع كلّها مُتَّفِقةٌ على ذلك[2]. وكذلك ما يقول لك كُفّار قومِك إلّا مِثْلَ ما قيل للرّسلِ مِنْ كفّارِ قومِهم من الكلماتِ المُؤذيةِ، والمطاعن في الكتبِ المنزّلةِ[3]، فلمّا تشابهت قلوبُهُم في الكُفرِ؛ تشابهتْ أقوالُهُم، وقد صبرَ الرُّسلُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - على أذاهُم وتكذيبهم، فاصبرْ كما صبرَ مَنْ قبلَكَ. ثمّ دعاهم إلى التّوبةِ والإتيانِ بأسبابِ المغفرةِ، وحذَّرَهم من الاستمرارِ على الغَيِّ[4]، فقال: إنّ ربّك لذو مَغفرةٍ لذنوبِ التّائبين، وذو عقابٍ مُؤلمٍ لمَن أصرَّ على كُفْرِهِ وتكذيبِه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 202.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 260.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 239.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.
(5) مجمع الملك فهد، التّفسير المُيسَّر.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ ممّا قبلَها:

التّنازعُ بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ سُنَّةٌ وجوديّة

جملة ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ "جوابٌ لسؤالٍ يُثيرُهُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وما تخلَّل ذلك من الأوصافِ فيقول سائلٌ: فما بالُ هؤلاءِ طعنوا فيه؟ فأُجيب بأنَّ هذه سُنَّةُ الأنبياءِ مع أُممِهم لا يُعدَمون مُعاندين جاحدين يكفرون بما جاءوا به"[1]. فالقائلُ على هذا الوجهِ هم الكافرون؛ أيْ: ما يُقال لك من الكَفَرَة.. وبهذا الاعتبارِ فالكلامُ مَسوقٌ مساقَ الإخبارِ عن ديدنِ الكَفَرَةِ مع رسالاتِ اللّهِ سبحانه.

بلاغة الكناية:

في التماسِ السِّيَرِ وقايةٌ

وفي الإخبارِ بهذا المضمونِ الوارد في جملة ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ كنايةٌ عن تسليةِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنّه يلزمُ عن بيانِ أحوالِهم مع نظرائِهِ من الرُّسُلِ تسليتُه بسيرةِ إخوانِه، فيتقوَّى بهم ويتعزَّى، ولا يكترثُ بأحوالِ الكَفَرَةِ وأقاويلِهم[2].

دقيقة استظهار التَّعريض من الآية:

مَنْ عُدِمَ الخيرَ في الأخلافِ؛ وجَدَه في الأسلافِ

كما أنّ في جملة ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ استنهاضًا له على التَّصبُّر والتَّأسّي بأسلافِهِ المُرسلين كما صبروا وعَزَموا ولم يجزعوا ويَهِنوا، وهذا من طريقِ التَّعريضِ؛ فاجتمعَ في التَّركيب كنايةٌ وتعريضٌ، والتَّعريضُ أخفى؛ لثبوته من جهةِ المفهوم بالقرينةِ والإشارة، لا من طريقِ اللَّفظِ كما الكناية[3].

تخريجُ الجملةِ على الاستئنافِ:

تتبّعُ أحوالِ الأنبياءِ هو المقياسُ النّاجعُ من تحطيمِ الابتلاءِ

كما يصحُّ اعتبارُ جملةِ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 309، 310.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 310.
(3) يحيى بن حمزة، الطِّراز لأسرار البلاغة: 1/ 189 - 190.

استئنافيّةً[1] على اعتبارِ أنَّ القائلَ هو اللّه ﷻ[2]؛ أيْ: ما يُقال لك من اللّه وحيًا إليك وتنزيلًا عليك ليس بدعًا ممّا قيل للرُّسل من قبلك، فليس العيبُ منك في شيءٍ؛ بل هذا دأبُ الكافرين أبدًا مع وحي اللّهِ ورُسُله. وهذه الجملةُ على هذا المعنى يسوغُ إجراؤها على الاستئنافِ البيانيِّ كذلك كما المعنى الأوّل، فمجرى المَعنَيَيْن سائرٌ إلى نفْسِ المَصبِّ كما يظهرُ.

غرضُ التَّعبيرِ بأسلوبِ القَصْرِ في: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾:

حالُ أغلبِ الخَلْقِ الحَيْدَةُ عن الحقِّ

جاء التَّعبيرُ بأسلوبِ القَصْرِ (النّفي مع الاستثناء) في قولِه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ﴾ لتحقيقِ التَّثبيتِ والربْطِ على قلبِ النّبيّ ﷺ ، فالقصرُ يُفيد التَّأكيدَ بأنّ ما يواجهه النَّبيُّ من قولٍ أو إنكارٍ أو أذًى ليس بِدعًا؛ بل هو سُنَّةٌ ماضيةٌ مع الرُّسُلِ قبله، فلمّا كان المقامُ مقامَ تعزيةٍ وتسليةٍ ناسبَ إجراؤه على طريقةِ القَصْر؛ لأنّ مقصودَ العبارةِ التّحريرُ والتّخليص للمضمون، فهو جارٍ مجرى الحُكم القاطعِ والخبرِ الحاسم، فإن قيل: هذا توجيهُ القَصْرِ على أنّ القائلَ الكافرون، فما توجيهُ القصرِ على أنّ القائلَ اللّهُ؟ فالجواب: على معنى: (ما يقال لك من اللّه إلّا ما قد قيل للرسل)، ففائدةُ القصرِ هو تأكيدُ العنايةِ بسُنّةِ اللّه سبحانه في الوحي وتنزيل الكتبِ على رُسلِه، فالسّياقُ يتعلّق بتحقيقِ مكانةِ القرآنِ والتّأصيلِ لموجباتِ الإيمانِ به، بما يحملُهُ من أوصافِ الاستحقاقِ والتأهُّلِ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾؛ فجاء قولُهُ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ﴾ تحقيقًا لهذا المقام الرِّساليِّ، كأنّ اللّهَ يقول لنبيِّه: (ليس الكتابُ الذي نزلَ عليك بِدْعًا، فما قيلَ لك فيه قد قلناهُ من قبلك للرُّسُلِ بما أوحيناه إليهم من التّشريع

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 24/ 330.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 569.

والتّنزيلِ، فاستوثِق به - يا محمّد - واستمسك بالذي أوحي إليك، فأنَّى لهم أن يكفروا رغمَ اطِّرادِ هذه الحقيقةِ وثبوتِها؟! وأنّى لك أن تجزعَ منهم، وتلك حالُ أغلبِ الخَلْقِ حتّى مع مَن سبقوكَ من الرُّسلِ، فلم يسلموا من التَّكذيبِ والعداواة، فاصبر صبرًا جميلًا).

سِرُّ اصطفاءِ النَّفي والاستثناءِ (﴿مَّا﴾، ﴿إِلَّا﴾) طريقًا للقَصْر:

يُجتَلَبُ للمُعانِد والمُـرتـاب مـا لا يُجتَلَبُ لغيرِهما في الأُسـلـوبِ والخِطابِ

لم يَقُلْ في السّياقِ الكريم: (إنّما يُقالُ لك ما قد قيل للرُّسل)؛ بل آثَرَ النّفيَ والاستثناءَ طريقًا للقَصْرِ؛ لأنّه في مقامِ الاحتجاجِ وتحذيرِ الكافرين والتّعريضِ بهم في دأبِهم على حالِ العِنادِ، وهي حالٌ لهم مُطَّردةٌ في كلِّ جيلٍ ومع كلِّ رسولٍ، كأنَّما هي حالٌ يتوارثونها. وإذا كان ذلك كذلك فلا بُدَّ في تقريرِ المضمونِ من مواجهةِ المُنكِرين والمُرتابين مع إيلاءِ العنايةِ بصيانةِ قلوبِ الموحِّدين بتثبيتِهم، ودحضُ الإنكارِ والتّرديد يلزمُهُ اصطفاءُ النَّفي والاستثناءُ[1]؛ فهو أقوى من (إنّما) في شُمولِ القَصْرِ وتوكيده؛ فـ(إنّما) تُثبِتُ المعنى صراحةً وتنفي خلافه ضمنًا، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: 20]؛ فقصرُ الغيبِ على اللهِ ثبوتٌ صريحٌ من التَّركيبِ، ونفي علم الغيبِ عَمَّن عداه حاصلٌ ضمنًا، فالثبوتُ صريحٌ، والنّفيُ ضمنيٌّ؛ ولكن في أسلوبِ النَّفي والاستثناءِ يجتمعُ الإثباتُ والنَّفيُ صراحةً.

دلالةُ بناءِ الفعلِ بما لم يُسمّ فاعلُهُ ﴿يُقَالُ﴾ وبصيغةِ المضارِعِ:

يـمـوتُ فـاعـلُ الفظائعِ وتبقى أفاعيلُهُ شاهِدةً

بناءُ الفعلِ بما لم يُسم فاعلُه في قولِه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾؛ لتوجيهِ العنايةِ إلى مضمونِ القولِ لا إلى القائلِ؛ لإفادةِ أنّ ما يُقالُ للنّبيِّ ﷺ من تبيين أحوالِ المُكذِّبين ووعيدِهم بما يستحقّونه وبيان عاقبةِ أمرهم هو سُنّةٌ جاريةٌ لكلِّ الرُّسلِ مقولةٌ فيهم باطّرادٍ، فلا يهمّ القائل ما دام المقول هو المقصود، ففي ذلك البناءِ ﴿يُقَالُ﴾ تأكيدٌ على وحدةِ الرِّسالةِ بين عمومِ الرُّسلِ.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 250.

وصيَغَ ذلك بالمضارعِ لتكرارِهِ ولتجدُّدِهِ عبر الزّمنِ، فكلّما جاءَ رسولٌ قيْلَ له ذلك، وهذا التّوجيه مبنيٌّ على أنّ القائلَ هو اللّهُ سبحانه.

وأمّا على اعتبارِ أنّ القائلَ هم الكفّارُ؛ فبناءُ الفعلِ للمجهولِ فيه تقليلٌ من شأنِ الفاعلِ وعدمِ الاعتدادِ به؛ فأشارَ بذلك إلى أنَّهم (الكفار) غير مُهمّين في السّياقِ، وأنَّ العبرةَ لمضمونِ القولِ لا للقائلِ. كذلك في إبهامِهم ببناءِ الفعلِ للمجهولِ إيذانٌ بأنَّهم ليسوا حالةً فريدةً؛ بل معهودة مُتكرّرة، فطيُّهم يُغني عن إظهارِهم؛ لأنّ الفاعلَ أنموذجٌ مُتكرِّرٌ في الأجيالِ وحيواتِ الرُّسلِ ﷺ. كما أنّ جَعْلَ القائلِ مجهولًا فيه نوعُ تخفيفٍ على نفسيَّةِ النَّبيِّ ﷺ ، بإشعارِه أنّ ذلك الأذى القائلون به ليس موجَّهًا له وحده ﷺ ؛ بل هو جزءٌ من سُنَّةِ اللّهِ مع كلِّ الأنبياءِ، وفي ذلك تعزيزٌ لمفهوم الابتلاءِ المشتركِ الذي يُسلّي النّفْسَ ويُعزّيها ويُخفّف عنها. كما أنَّ إبهامَ الفاعلِ فيه إشارةٌ لعموم القائلين الذين يتعذَّرُ حصرُهُم في فئةٍ أو قومٍ بعينِهِم، فكلُّ مَن يُعادي الرُّسلَ داخلٌ فيهم.

سِرُّ تقييدِ الفعلِ بالجارِّ والمجرورِ، والمُرادُ بكافِ الخطابِ في: ﴿لَكَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ جاءَ مُقيَّدًا بالجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾؛ تحقيقًا للتَّخصيصِ والتَّوجيهِ، فقولُهُ: ﴿لَكَ﴾ يوضّحُ أنّ هذا القولَ موجَّهٌ خصّيصًا للنبيّ ﷺ ، وفي ذلك إظهارٌ لعنايةِ اللّهِ سبحانه برسوله الكريم؛ إذْ وجَّهَ إليه الخطابَ مباشرةً.

ضميرُ الخِطابِ يدلُّ على إقبالِ المُبَلِّغِ على المُبَلَّغِ في الحوارِ

كما أنَّ التَّقييدَ بلامِ الجرِّ وكافِ الخطابِ في: ﴿لَكَ﴾ فيه إشارةٌ إلى المُعاناةِ الشَّخصيَّةِ للرّسولِ ﷺ ، بجعلِ الأذى الذي يتعرَّضُ له من أقاويلِ المشركين شخصيًّا لصيقًا بذاتِهِ الشَّريفةِ.

وعلى اعتبارِ أنَّ القائلَ هو اللّه؛ فالتَّقييدُ بـ﴿لَكَ﴾ يُشعِرُ بإيصالِ الأُنسِ إلى قلبِ الرَّسولِ ﷺ وشخصِهِ، فيشعر بأنّ اللّهَ ظهيرٌ له قائمٌ عليه، فيتسلّى ويَتثبّتُ، فضلًا عمّا في ذلك من التَّشريفِ الظّاهرِ.

كما أنّ الخطابَ بـ﴿لَكَ﴾ فيه ربْطٌ للرَّسول ﷺ بسبيل الرُّسلِ السّابقين، كأنّه يقولُ له: (ألحقناك بفريقهم ونَظَمْناك في جماعتِهم، فلا عجبَ أنْ يُقال لكَ ما قيلَ لهم، فما جرى عليهم يجري عليكَ).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿قَدْ﴾:

التّقريبُ والتّوقّعُ تمهيدٌ لتحقيقِ المعنى وتثبيتِه

التَّعبير بـ﴿قَدْ﴾ في قوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ يُفيدُ التَّحقيقَ والتَّقريبَ والتَّوقُّعَ[1]؛ فأفادَ تحقيقَ الفعلِ في الزَّمنِ الماضي؛ أيِّ: ذلك المَقولُ للرُّسلِ حاصلٌ لا ريبَ فيه، وأفادَ كذلك التَّقريبَ، أيِّ: تقريب الحَدَثِ الماضي من الحاضرِ؛ أيِّ: ذلك الذي قيلَ للرُسلِ من قبلِكَ ليس بعيدًا عنك؛ بل هو مَسموعٌ متواترٌ قريبُ الحصول من زمانِك. والذي يُعزِّز إفادةَ ﴿قَدْ﴾ - هنا - لمعنى التَّقريب - دخول ﴿مِن﴾ الابتدائيّة على الظَّرفِ ﴿مِن قَبۡلِكَۚ﴾. وتُفيد أيضًا هنا معنى التوقّعِ؛ أيِ: القيلُ الموحَى إليك من اللّه، أو القيّلُ المؤذي من الكافرين إليك، حصولُ مثيلِه للرّسل قبلك، ووقوعه على غِرار ما وقع لهم، شيءٌ مُتوقَّعٌ لا استبعادَ فيه.

والجمعُ بين معاني التَّحقيقِ والتّقريب والتّوقّع بما أفادته ﴿قَدْ﴾ في هذا السّياقِ له آثارٌ معنويَّةٌ مقصودةٌ:

منها: التّأكيدُ على أنّ ما قيل للرُّسل السّابقين ليس مُجرَّدَ احتمالٍ أو ظنٍّ؛ بل هو أمرٌ وقع يقينًا في الماضي، ممّا يُظهِر أنّ ما يواجهه النّبيّ ﷺ هو جزءٌ من سُنّة اللّهِ الثّابتةِ، فالتّعبير بـ﴿قَدْ﴾ يُسهِم في تعزيزِ وترسيخِ سُنَّةِ اللّهِ في رُسُلِه، بما يُجلّيها ويُظهِرُها على أتمِّ ما يكونُ.

ومنها: تسريعُ إيصالِ المعلومةِ؛ فالتعبير بـ ﴿قَدْ﴾ يُسرِّع إيصالَ

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 3/ 309.

فكرةِ أنَّ الأذى الذي يُعانيه النّبيُّ ﷺ ليس بِدْعًا، فهو أمرٌ مُحقَّقٌ ومُطَّرِدٌ، ممّا يجعل النَّبيَّ يتلقّى الموقِفَ بجاهزيّةٍ أعمقَ وأسرعَ.

ومنها: أنّ التَّعبيرَ بـ﴿قَدْ﴾ كما أظهر سُنَّةَ اللّهِ الثّابتة أشدَّ الظُّهور، فإنّه يُجلّي الرَّحمةَ الإلهيَّةَ والعنايةَ الربّانيّةَ - تمامًا على التي هي أحسنُ - برسولِهِ ﷺ، إذ تحقيقُ المضمونِ بـ﴿قَدْ﴾ ما هو إلّا ضربٌ من ضروبِ التَّخفيفِ وإنزالِ المَرحَمَةِ والتّسليةِ والتّثبيتِ بقلبِ النّبيّ ﷺ، فحين يُخاطَب بقياسِ حالِهِ على حالِ الأخيارِ المُرسلين قبلَهُ، ويُساقُ هذا القياسُ مُحقَّقًا بـ﴿قَدْ﴾، فما هذا التَّحقيق إلّا لمزيدِ العنايةِ والرِّعايةِ.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾:

القدوةُ تحصلُ بالأُنموذجِ المعهودِ القريبِ

اقترانُ ﴿مِن﴾ بالظّرفِ في قولِهِ: ﴿لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؛ للدّلالةِ على عدمِ استغراقِ زمانِ القبليّة[1]، ففيهِ إشارةٌ إلى شيئَيْن: **الأوّل:** الرُّسل في الزَّمانِ القريبِ من النَّبيِّ ﷺ، وليس كلّ الرّسلِ في كلِّ زمنٍ؛ لأنّ القياسَ يحصلُ بالأُنموذجِ المعهودِ، لا بكلِّ أنموذجٍ، وألصقُ أنموذجٍ بالعهدِ: القريبُ، ولذلك حصلَ القياسَ في الآيةِ برسُلِ جزْءِ القبليَّة (القبليّةِ القريبةِ أو المُتأخِّرةِ في الزّمنِ)، لا كلّ زمنِ القبليَّةِ (القبليّة البعيدةِ أو الأوّليّةِ أو المُتقدِّمة).

الثّاني: الإشارةُ إلى أنّ للنبيّ ﷺ عِلْمٌ واطّلاعٌ على أحوال هؤلاءِ الرّسل؛ لأنّه لو قال بإسقاط الجارّ: (للرّسل قبلك)؛ لتناولِ ذلك الرّسل على الاتّساعِ، فيدخل كلّ زمان القبليّة الجامع لكلِّ الرُّسلِ، ويلزمُ عن هذا أنْ يقعَ القياسُ على رسُلٍ لا عِلْم للرّسول ﷺ بهم، ولا اطّلاع له على أحوالِهم؛ لأنّ الرُّسلَ منهم مَن قصَّ اللّهُ أحوالَهم عليه، ومنهم مَن لم يقصُصهم عليه، فلمّا كان القياسُ في الآية

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَر: 17/ 203.

محصورًا في جانبِ مَن قصّهم اللّهُ عليه دون غيرِهِم؛ لاقتضاء وقوعِ القياسِ في المعلوم - لم يستغرق زمن القبليّة؛ فأدخل ﴿مِن﴾؛ إشعارًا بأنّ النّبيّ ﷺ يعلمُهُم ويستظهرُ أحوالَهُم.

غرضُ إضافةِ الظَّرفِ لكافِ الخطابِ ﴿قَبْلِكَ﴾:

التَّقييدُ بـ(لك) يدلُّ على قصديَّةِ إيـصـالِ الـبـلاغِ للمُخاطَبِ

إضافةُ الظَّرفِ لكافِ الخطابِ ﴿قَبْلِكَ﴾ في قولِهِ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، ولم يقلْ: (من قبل)؛ لأنّ المُراد تعريفُ وتعيينُ تلك القبليّة بزمانِهِ ﷺ، واطّرادًا على نَسَقِ النَّظْمِ في الخطابِ، فقد قال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾، فإذا كان ذلك الشَّأنُ مَسوقًا ﴿لَكَ﴾، فلا بدَّ أن يكون ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ بالخطابِ كذلك. ويترتَّب على ذلك آثارٌ معنويَّةٌ؛ منها: الإشارةُ إلى التَّتابُعِ التّاريخيِّ والرِّساليِّ بالتّنصيصِ بواسطةِ كافِ الخطابِ على أنَّ النبيَّ ﷺ جزءٌ من هذه السلسلةِ وطرفٌ فيها.

وإشعارُ النَّبيِّ ﷺ بأنَّه طرَفٌ في تلك الحلْقةِ يستلزمُ إيناسَه والتَّخفيفَ عنه، ولو أزالَ كافَ الخطابِ لَغابَ هذا المعنى الذي فيه تمييزٌ واضحٌ لمقامِ الرّسولِ ﷺ بين عمومِ نُظرائِهِ من الرُّسلِ عليهم السلام.

موقعُ جملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ممّا قبلَها:

مَنِ اقتدى بأحدٍ في خِصالِهِ فقد اقـتـدى بِـهِ في مصيرِهِ وعاقبتِهِ

جُملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ تعليليّةٌ لمضمونِ السّياقِ قبلها على معنى: (ما يُقال لك إلّا ما قد قيل للرُّسل من قبلك، فاصبرْ كما صبروا؛ لِأَنَّ ربَّكَ لذو مغفرةٍ عظيمةٍ لأوليائِهِ وذو عقابٍ أليمٍ لأعدائِهم، فينصر أولياءَه وينتقمُ من أعدائِهم)[1].

ويصحُّ أن تكون استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن تقديرٍ لسؤال: (ثمّ ماذا؟)، فأُجيب: (إنّ ربّك لذو مغفرةٍ لأوليائِهِ وذو عقابٍ أليمٍ لأعدائهم، وقد نَصرَ بمُقتضَى ذلك مَنْ قبلَكَ من الرّسلِ - عليهم السلام - وانتقم من أعدائِهم وسيفعلُ ذلك بك وبأعدائِكَ أيضًا)[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 380.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 380.

وعلى اعتبارِ أنّ القائلَ هو اللّه سبحانه، فيصحّ أن تكون جملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ مُفسِّرةً للمَقولِ في: ﴿مَّا يُقَالُ﴾[1]، فتكون في موقعِ البَدَلِ من الموصولِ ﴿مَّا يُقَالُ﴾[2]؛ أيَ: ما يُقال لكَ من كونِ ربِّكَ ذي مغفرةٍ وذي عقابٍ أليمٍ هو عينُ ما قيل للرُّسُلِ من قبلِكَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾:

صـفـاتُ الـلـهِ ثابتةٌ لا يعتريها الأغيارُ

لم يَقُلْ في السّياقِ الكريم: (إنَّ ربَّكَ يغفرُ ويُعاقِبُ)، ولكنْ عبّر بالاسميّةِ في الآيةِ ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ﴾؛ لاعتباراتٍ بلاغيّةٍ ومعنويّةٍ أكثر ملاءمةً للسّياقِ.

الجملةُ الاسميّةُ (ذو مغفرةٍ ... ذو عقابٍ) تُفيدُ الثَّباتَ والديمومةَ؛ أيَ: إنّ المغفرةَ والعقابَ صفاتٌ ثابتةٌ للّه على وجهِ الدّوام. أمّا الجملةُ الفعليّةُ (يغفر ويعاقب) فتوحي بالتَّجدُّدِ والحدوثِ في أوقاتٍ مُعيّنةٍ، ممّا قد يُضعِف دلالةَ الثّباتِ.

التَّعبيرُ بالاسميّةِ مع أدواتِ التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ و(اللام) في ﴿لَذُو﴾ يُضفي قوّةً أكبرَ في إثباتِ المعنى وتحقيقِه، أمّا الفعليَّةُ فهي أقلُّ قوّةً في تحقيقِ هذا التَّوكيدِ.

التّعبيرُ بالاسميَّةِ أحسنُ في تحقيقِ الإيجازِ والشُّمولِ من الفعليَّةِ، فالجملةُ الاسميّةُ قصيرةٌ موجزةٌ، لكنَّها تحمل معنًى شاملًا: (اللّهُ ذو مغفرةٍ وذو عقابٍ بشكلٍ مُطلقٍ). أمّا الجملةُ الفعليَّةُ فقد تحتاجُ إلى تفصيلٍ وإطنابٍ أكثرَ لإيصالِ معنى الشموليّة، كأنْ يُقال: (إنّ ربّك يغفرُ لِمَنْ تابَ ويُعاقِبُ مَنْ كفر).

التَّناسبُ مع المقامِ: فالتَّعبيرُ بالاسميَّةِ بدلالتِهِ على الثّبوتيّةِ أوفقُ وأنسبُ مع طبيعةِ السّياقِ هنا؛ فالآيةُ تُقرِّرُ حقائقَ وسُنَنَ إلهيَّةً ثابتةً

---

(1) السّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 530.

(2) صافي، الجدول: 12/ 318.

تتعلّقُ بالمغفرةِ والعقابِ كصفتي (ذات) للّهِ سبحانه، فكان التّعبيرُ بصيغةٍ تُعزِّز هذه الثبوتيّةَ، والرّسوخ هو الأجدر.

أمّا التّعبيرُ بالفعليّة، فذلك إذا كان السّياق يتحدّثُ عن ورودِ المغفرةِ أو العقابِ في حالٍ مُعيّنةٍ، كقولِه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأحزاب: 24]، فيُراد حينئذٍ التّنبيهُ على وقوعِ الأفعالِ في أزمنةٍ مُعيّنةٍ، لا على ثباتِ الصِّفة.

اللهُ سبحانه هو صاحبُ صفاتِ الكمالِ والجلالِ المُختصِّ بها أصلًا

غرضُ التّعبيرِ بالخبرِ مُضافًا ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾:

الإشارةُ إلى المِلكيَّةِ الذّاتيّةِ، فجملة ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ تُفيدُ أنّ المغفرةَ مملوكةٌ للّهِ سبحانه، يمنحها لِمَنْ شاء ويُمسكها عمّن يشاءُ، فيدلّ التّعبيرُ على طلاقةِ المشيئةِ في الامتنانِ أو الحجْبِ. كما أنّ التّعبيرَ يوحي بسعةِ المغفرةِ وشمولِها، فكأنّها مخزونةٌ مكنوزةٌ عنده لا مُنتهى لها ولا حدَّ في جريانِها وفيضانِها على مَن يشاء سبحانه. بخلافِ (غفّار - غفور) التي تتعلّق بكثرةِ الفعلِ وتجدُّدِ الغفرانِ، دون تناولِ معنى المِلكيّةِ الذّاتيّةِ والاتّساعِ المُطلقِ. ويكأنّ تعبيرَ (ذو مغفرة) يُشير إلى شيئَيْن: الذّات العَليّة، والصِّفة؛ فيتصوّر المخاطَبُ هذيْن على سبيلِ الاستقلالِ المُتوالي؛ فـ(ذو) توحي بالذّات، وكلمةُ ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾ المُضافة إليها توحي بالصّفةِ مقترنة بهذه الذّاتِ. فيتوسّع المُخاطَب في تقديرِ صفةِ المغفرةِ وتعظيمها بتصوُّرِها في نِسبتِها إلى الذّاتِ وهي مملوكةٌ للّهِ ومُطلقةٌ في يدِ قُدرتِه، وليست مُجرَّدَ فعلٍ يصدر عن المشيئةِ، فـ (ذو مغفرة) تُعبِّر عن صفةِ الذّاتِ الثّابتةِ الدّائمة، و(غفّارٌ) و(غفورٌ) أقربُ إلى صفةِ الفعلِ منها إلى الذّاتِ[1].

لطيفةُ التّناسُبِ في ختمِ الآيةِ لمعناها:

نهايةُ الدّنيا بكلِّ ما فيها جزاءٌ بالمغفرةِ أو العقابِ

خَتْمُ الآيةِ بصفتي المغفرةِ والعقابِ يؤكّد أنّ اللّهَ يحكمُ ويجزي، ممّا ينفي العبثَ والعجْزَ والإهمالَ عنه سبحانه، فيغفر لِمَنْ تاب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 311.

ويُعاقب مَنِ استمرَّ على كُفرِهِ، ممّا يتلاءم مع مبدأِ الرَّدعِ للكافرين والتّثبيت للمؤمنين، فالتّنبيهُ على أنّ اللّهَ ذو مغفرةٍ يفيضُ على النبيّ ﷺ والمؤمنين بالأطمئنان أنّ اللّهَ يغفرُ للمؤمنين ويُجازيهم على إيمانهم وصبرِهِم، بينما ذِكْرُ العقابِ يُحذِّر الكفّارَ والمُكذِّبين، فيُسلّي النبيَّ ﷺ بأنَّ اللّهَ سيأخذُ حقَّه منهم، فالمغفرةُ تسليةٌ له في نفسِه، والعقابُ تسليةٌ له بغيرِه. وأيضًا: الختمُ بتلك الفاصلةِ يتناسبُ مع سياقِ السّورةِ العامِّ، فالسّورةُ تتناولُ تحدّياتِ الدَّعوةِ وتكذيب الكافرين للنّبيّ ﷺ ، وختمُ الآيةِ بذِكْرِ المغفرةِ والعقابِ يُشيرُ إلى المآلِ النّهائيّ لهذا الكفاحِ الرِّساليِّ المعصومِ.

نكتةُ اصطفاءِ ﴿أَلِيمٍ﴾:

عقابُ اللهِ على قَـدْرِه كـما أنّ رحمتَه على قَدْرِه

لم يقُلْ في السّياقِ الحكيم: (وذو عقابٍ شديدٍ) رغم تناسبِهِ مع إيقاعِ الفاصلةِ قبله ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؛ لعدمِ حصولِ المعنى من (شديد) بما يحصلُ من ﴿أَلِيمٍ﴾، فذلكَ أوفقُ مع المقامِ الذي يُقرِّرُ شموليّةَ العقابِ كما قرَّر شموليّةَ المغفرةِ، فكلمةُ ﴿أَلِيمٍ﴾ توحي بأنّ العقابَ يمتدُّ ليُؤلمَ النّفْسَ والجسدَ معًا، فيلزمُ عن ذلك شدّتُه وتأثيرُهُ العميقُ، بخلافِ وصفِ (شديد) الذي قد يُفهم منه أنّه خاصٌّ بشدّةِ العذابِ دونَ بيانِ أثرِهِ الحِسّيِّ والمعنويِّ، فالتّعبيرُ بـ ﴿أَلِيمٍ﴾ أوسع وأشمل[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 380.

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الباطلُ مَفضوحٌ بأهلِه

لَمّا ذَكَر في الآيةِ السّابقةِ ما يتَضمّن الإخبارَ عن تشابُهِ الكافرين في التَّقوُّلِ بالأباطيلِ، وكان من جملةِ تلك الأقاويل اقتراحُ الآياتِ عِنادًا وكفرًا؛ ذَكَرَ هنا في هذه الآيةِ جوابًا وردًّا على مُقترَحٍ وشُبهةٍ للمشركين في القرآنِ العظيم؛ فأشارَ - أوّلًا - إلى أقاويل الكفرةِ بالباطلِ عمومًا، ثمّ أتبعه بمثالٍ خاصٍّ على ذلك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡجَمِيّٗا﴾: (عجم) ثَلاثَةُ أُصولٍ: أحدُها يَدُلُّ على سكوتٍ وصَمْتٍ، والثّاني على صَلابةٍ وشِدَّةٍ، والثّالثُ على عَضٍّ ومَذاقَةٍ[1]، والمعنى المحوريُّ: امتساكُ الشّيءِ في ذاته - أو بين غيرِه - مُتداخلًا مُنضغِطًا شديدًا. كذلك النَّوَى في ثمرِه[2]، والعُجْمَةُ: خلافُ الإبانةِ، والإعْجامُ: الإبهامُ، والعَجَمُ: خلافُ العَرَبِ، والعَجَميُّ مَنسوبٌ إليهم، والأَعْجَمُ: مَن في لِسانِه عُجْمَةٌ، عربيًّا كان أو غيرَ عربيٍّ[3]، والمُراد بقوله: ﴿أَعۡجَمِيّٗا﴾؛ أيْ: بغيرِ لغةِ العربِ.

2) ﴿فُصِّلَتۡ﴾: (فصل) كلمةٌ صحيحةٌ تَدُلُّ على تمييزِ الشَّيْءِ من الشَّيْءِ وإبانتِه عنه. يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا. والفَيْصَلُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجم).
(2) محمد جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (عجم).
(3) الرّاغب، المُفردات: (عجم).

الحاكِمُ. والفَصيلُ: ولَدُ النّاقَةِ إذا افْتُصِلَ عن أُمِّه. والمِفْصَلُ: اللِّسانُ، لِأنَّ بِهِ تُفصلُ الأمورُ وتُمَيَّزُ[1]، والمعنى المحوريُّ: تميُّز الشيءِ عن غيره مع تمامٍ أو ما هو من بابِه: كتميُّزِ كلٍّ من عُضْويَ المفصلِ[2]، والمقصودُ بتفصيلِ الآياتِ هنا: تَبْيينُها وتفسيرُها.

3) ﴿وَقْرٌ﴾: (وقر) أصلٌ يَدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيْءِ[3]، والمعنى المحوريُّ: تجمُّعٌ بثقلٍ وتَمكُّنٍ في أثناءِ بَدَنٍ أو حَيِّزٍ: كالحَمْلِ الثَّقيلِ في الجَوْفِ[4]، والوَقْرُ: الثِّقلُ في الأُذُنِ؛ وهو المَعْنى المقصودُ في الآيةِ الكريمةِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الباطلُ مُبْعِدٌ لأهلِهِ في المكانةِ والمكانِ

يُخبرُ تعالى عن فضلِهِ وكرمِهِ، حيثُ أنزلَ كتابًا عربيًّا على الرّسولِ العربيِّ، بلسانِ قومِهِ، ليُبيِّنَ لهم، وهذا ممّا يوجِبُ لهم زيادةَ الاغتناءِ والاعتناءِ به، والتَّلقّي له والتَّسليم، وأنّه لو جعله قرآنًا أعجميًّا، بلغةِ غيرِ العربِ لاعترضَ المُكذِّبون ولقالوا: هلّا بُيِّنَتْ آياتُهُ ووضِّحت وفُسِّرت[5]، فنفقهه ونعلمه أأعجميٌّ هذا القرآنُ ولسانُ الذي أُنزِلَ عليه عربيٌّ؟ هذا لا يكون. قلْ لهم - أيّها الرّسولُ: هذا القرآنُ للذين آمنوا باللّهِ ورسولِهِ هُدًى من الضّلالةِ، وشفاءٌ لما في الصُّدور من الشُّكوكِ والأمراضِ، والذين لا يُؤمنون بالقرآنِ في آذانِهِم صَممٌ من سماعِهِ وتدبُّرِهِ، وهو على قلوبِهم عَمًى فلا يهتدون به، أولئك المشركون كَمَنْ يُنادَى وهو في مكانٍ بعيدٍ، لا يسمع داعيًا، ولا يُجيب مُناديًا[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(2) محمد جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (فصل).
(3) ابن فارس، مقاييسُ اللُّغةِ: (وقر).
(4) محمد جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (وقر).
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 751.
(6) مجمع الملك فهد، المُيسَّر في التّفسير.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾:

غايةُ الكافرِ إشباعُ هواه ولو خالفَ بداهةَ العقلِ وضرورةَ المَنطقِ

جملةُ ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ عطفٌ على جملةِ و﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾[1]. والعطفُ هنا يربطُ بين الجملةِ الشَّرطيّةِ والخبريّة، لتسجيلِ التّناقضِ والبلادةِ على الكافرين، فهو يجمعُ بين ثبوتِ الواقعِ وتقريرِ الحُجَّةِ في الجملةِ الخبريّة ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾، وبين افتراضٍ يُصوِّر اعتراضًا لما كان سيقولُه المُعانِدون لو وقع ذلك الافتراض بأن كان القرآنُ أعجميًّا. وبلاغةُ هذا العطفِ بين الجُملتيْن تَظهر في الانتقالِ من الثُّبوتِ الخبريِّ إلى الجدلِ والافتراضِ الشَّرطيِّ؛ لِكشْفِ اعتراضاتِ الكافرين وسوءِ فهمِهم وفضحِ تناقضِهم.

وبلاغةُ هذا العطفِ بين الجملةِ الخبريّةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ والجملةِ الشَّرطيّةِ ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ يَظْهرُ حُسْنُها في لُحمَةِ المُناسَبةِ البديعةِ الكائنةِ بين الجُملتيْن، حتّى بَدَتْ جملةُ ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ كأنَّها مُنتَزَعةٌ ومولَّدةٌ من جملةِ المعطوفِ عليه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾، فكأنّ المعنى: (وإنّه لكتابٌ عزيز، ومن مظاهرِ عِزَّته أنّه منيعٌ في بيانِه ولغتِه، ومن مُقتضياتِ تلك المناعةِ والعِزّةِ أنّه لم يكنْ أعجميًّا، ولو كان أعجميًّا لاعترضوا، فهم في جميعِ الأحوالِ مُجادِلون معترِضون)، فقولُه: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ هو افتراضٌ ناشئٌ لتأكيدِ عِزّةِ الكتابِ في لغتِه وبيانِه، وهو من تأكيدِ حُسْنِ الشَّيءِ بافتراضِ ضِدِّه؛ ليتجلَّى بالضِدِّ مَيْزَتُه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ (لو) في: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ﴾:

مَن كان غرضُهُ المَلهاةَ والهوى، فإرضاؤه غيرُ ممكنٍ

(لو) في قولِه: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ شرطيّةٌ امتناعيّةٌ امتناعَ الجوابِ لامتناعِ الشَّرطِ، فالتركيبُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 312.

جارٍ على سبيلِ الافتراضِ بطريقِ الشّرطِ؛ لإظهارِ الدّافعِ الحقيقيِّ من إنكارِ الكافرين، وأنّ إنكارَهُم ليس مَبنيًّا على قضيّةِ لغةٍ أو بيانٍ؛ بل على عنادٍ وكفرٍ، فاستعمالُ أسلوبِ الشَّرطِ هنا يُصوِّرُ واقعًا مُتكرِّرًا في أحوالِهم بطريقِ البناءِ المَنطقيّ المُتدرّجِ الذي يشتملُ عليه الشّرطُ من خلالِ قضيّةٍ عقليّةٍ من مقدّمةٍ ونتيجةٍ مفادُها: (لو تحقّق أيُّ افتراضٍ يوافقُ أهواءَهم، لابتدعوا اعتراضًا جديدًا)؛ فالبناءُ الافتراضيُّ الامتناعيُّ من الشّرطِ وجوابِهِ يكشفُ عدمَ صدقِ نواياهم وعدمَ افتقارِهم إلى حُججٍ مُتماسكةٍ، بما يُظهِرُ عمقَ عِنادِهم بالأسلوبيّةِ الحتميّةِ (أسلوب الشّرط)، ويُؤذِن باستحالةِ إرضائِهم، ويفضحُ تحاملَهم، ويؤكِّدُ صدقَ الرّسالةِ الإلهيّةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾:

اعتراضاتُهم قائمةٌ على العنادِ لا على طلبِ الهدايةِ أو السّعي وراء الحقِّ

التّعبيرُ بالماضي (جعلنا) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾، يُفيدُ التَّحقيقَ والتّوكيدَ، فيشير إلى افتراضِ أمرٍ مُحقَّقٍ، كأنّه قد وقعَ بالفعلِ، وهذا الاستعمالُ الماضي يعطي الفرضيّةَ وزنًا واقعيًّا، فيجعلها أكثرَ إقناعًا وتأثيرًا في إظهارِ تناقضِ المكذّبين.

استعمالُ الماضي يجعلُ الموقفَ كأنّه حدثَ بالفعلِ، ممّا يُعينُ السّامعَ على تصوّرِ الحالةِ بوضوحٍ، ليتبيّنَ بطلانُ اعتراضاتِهم وتناقضِهم.

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي يُلمِحُ إلى قدرةِ اللّهِ المُطلقةِ، وكأنّ هذا الاحتمال (الافتراضيّ)، لو شاء اللّهُ تحقيقَه كان مُمكنًا، ولكنّ حكمةَ اللّهِ قضتْ بجعلِ القرآنِ عربيًّا.

صيغةُ الماضي في: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ تُظهِر ثباتَ الموقفِ الإلهيِّ واستقرارَ الحكمةِ الإلهيّةِ تجاه لغةِ القرآنِ مقابلَ تناقضِ المُكذِّبين، واضطرابَ مواقفِ الكافرين الذين سيظلون يعترضون مهما كان الحالُ.

سرُّ إسنادِ الفِعْلِ إلى ضميرِ التّعظيم: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾:

ضميرُ التّعظيمِ في: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾، بدلًا من التَّعبيرِ بضميرِ المُفرَدِ

البرهانُ القرآنيُّ يجمعُ بين الحُجَّةِ العقليَّةِ والهيبةِ الإلهيّة

يدلُّ على أنَّ هذا الفعلَ (جعلُ القرآنِ أعجميًّا لو أرادهُ اللّهُ) ليس أمرًا عاديًّا؛ بل هو فعلٌ مُتعلِّقٌ بجلالِ اللّهِ وقدرتِهِ المُطلقةِ وحكمتِهِ الواسعةِ، فإسناد الفعلِ لضميرِ العَظَمَةِ، يُظهِر الكمالَ الإلهيَّ في إجراءِ الفعلِ لو كان، بما يستلزمُ تعظيمَ الفعلِ نفسه وتفخيم أمرِهِ.

وأيضًا الإسنادُ إلى ضميرِ العَظَمَةِ يلفِتُ إلى حكمةِ اللّهِ البالغةِ في الاختيارِ، فهذا الجَعْلُ لو حدث فهو ليس اعتباطيًا، وإنَّما نابعٌ من عِلْمِ اللّهِ الشّاملِ وحكمتِهِ البالغةِ في كلِّ فعلٍ يقعُ، فمِن ذلك تحصلُ العَظَمَةُ، والعَظَمَةُ تستلزمُ ذلك.

ولا يَخفى ما في الإسنادِ إلى ضميرِ العظمةِ ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ من تحشيةِ الرَّدِّ على الكافرين بأسلوبِ العظمةِ والهيبةِ، فيقع الاحتجاجُ عليهم بذلك الافتراضِ وهو يجمعُ بين الحُجّةِ العقليّةِ والهَيْبةِ الإلهيّةِ، وفي ذلك مِنَ التأثير ما يحمِل المُعانِدَ على النّظرِ والتّفكيرِ.

إسنادُ فعلِ الجَعْلِ إلى ضميرِ العظمةِ ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ يُعزّز شرفَ القرآنِ ومنزلَتِه، فهذا جَعلٌ عظيمٌ واقعٌ على القرآنِ ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾؛ فالضَّميرُ للذِّكر (القرآن)، وإذا كان ذلك كذلك، فهذا الجعلُ العظيمُ هو فعلٌ إلهيٌّ خاصٌّ ومُشرِّفٌ، سواء كان عربيًّا كما هو واقعٌ، أو أعجميًّا على سبيلِ الافتراضِ الواردِ. فضميرُ العَظَمَةِ متّسِقٌ مع عظمةِ القرآنِ ومقامِهِ الرَّفيعِ.

الغَرَضُ من تنكيرِ ﴿قُرۡءَانًا﴾:

عقلُ الكافرِ عقلٌ رافِضٌ للبرهانِ مُصادِرٌ على الحقيقةِ

تنكيرُ ﴿قُرۡءَانًا﴾ في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا﴾ يُفيدُ التّنويعَ والتَّعظيمَ؛ أيْ: تعظيم شأنِ القرآنِ بصفتِهِ ككتابٍ مُنزَّلٍ من اللّهِ، بغضِّ النَّظرِ عن لغتِهِ، ليدلّ على أنّه كتابُ هدايةٍ وإعجازٍ سواء أكان عربيًّا أم أعجميًّا.

ويصحُّ إجراءُ التّنكيرِ على غرضِ الإبهامِ المقصودِ، بمعنى: أنّ القرآنَ المُفترضَ كونُهُ أعجميًّا هو نوعٌ مُبهَمٌ؛ لأنّه ما زالَ في حيّزِ

الافتراضِ، وهذا الإبهامُ يُفيدُ في إظهارِ تناقُضِ الكافرين الذين يعترضون حتّى على ما لم يُحدَّد بِدِقَّة، ولا يخفى ما في هذا المعنى من التَّعريضِ والتَّهكُّم بعقولِهم.

وباعتبارٍ معنويٍّ آخرَ، فقد يُفيدُ التَّنكيرُ التّهويلَ والتّعجيزَ، بحيث يُضفي التَّنكيرُ على الافتراضِ قوّةً وتهويلًا، كأنَّ القرآنَ في أيّ صورةٍ (حتّى لو كان أعجميًّا) سيظلُّ فوقَ قدرتِهم على الإتيانِ بمثلِهِ، وفي ذلك دعوةٌ إلى إدراكِ عَظَمَةِ الوحي بدلًا من المُكابرة.

سِرُّ الوصفِ بـ ﴿أَعۡجَمِيّٗا﴾:

الافتراضُ إذا كان مُمكِنًا يسوغُ الاحتجاجُ به

الوَصْفُ بـ﴿أَعۡجَمِيّٗا﴾ في حيّزِ الشَّرطِ المُفترَض بـ(لو) في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ فيه إلماحٌ إلى استمرارِ صلاحيّةِ الرّسالةِ وشمولِها في ضوءِ ذلك الافتراضِ، فهو لم يَقُلْ: (ولو جعلناه قرآنًا أعجميًّا لم يكن هاديًا أو غير صالحٍ للبلاغ)؛ بل جاءَ باعتراضِهم الذي يحملُ سخريّةً مُبَطَّنةً منهم، وهو قولُهُم: ﴿لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾، وهذا الجوابُ كأنّه قال: (ولو جعلناه قرآنًا أعجميًّا لاعترضوا وجادلوا، لا لأجلِ أنَّه أعجميٌّ؛ بل لأجلِ عَمَى قلوبِهم واستمرائِهم العنادَ، ذلك أنّه قد جاءهم عربيًّا مُفصَّلًا ومُحكَمًا وعاندوا ولم يؤمنوا، فلو كان اعتراضُهم عليه لو كان أعجميًّا؛ لأجلِ ماهية اللُّغة وحقيقتِها؛ لكانوا قد آمنوا به وهو عربيٌّ بالفعل)، فثبت أنّ وصفَ ﴿أَعۡجَمِيّٗا﴾ الواردَ في الآيةِ على سبيلِ الافتراضِ إنّما هو وصفٌ نوعيٌّ، لا وصفٌ مانِعيٌّ، بمعنى أنّه لا يمنع من عالميَّةِ القرآنِ وإعجازِهِ وكمالِ هدايتِهِ وبيانِه لو كان. ولذلك يقولُ أبوبكرٍ الجَصّاصُ عن التّعبير بـ﴿قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾: "وهذا يدلُّ على أنّ نَقْلَه إلى لغةِ العَجَمِ لا يُخرِجُه ذلك مِنْ أن يكون قُرآنًا"[1]. ولذلك عبَّر بالقرآنِ دونَ غيرِهِ، للدّلالةِ على أنّ وصفَ العُجمةِ لو وقعَ له لم يكن مُؤَثِّرًا في

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 5/ 262.

كونِه قرآنًا، ولا في لوازمِ ذلك من استمرارِ إعجازِه ودوامِ هدايتِه. ويتأكَّد ذلك التّوجيهُ بقولِ الإمامِ الماتُريديِّ: "وفي هذه الآية دلالةٌ على أنّه لو أنزلَه بلسانِ العَجَمِ لكان قرآنًا، وأنّ اختلافَ اللِّسانِ لا يُغيّره ولا يُحوّله عن أن يكون قرآنًا - والله أعلم - فيكون دليلًا لقولِ أبي حنيفةَ - رحمه الله: إنّه إذا قرَأ بالفارسيّةِ في صلاتِه يجوزُ"[1].

دلالةُ اللّامِ في جوابِ الشَّرطِ: ﴿لَّقَالُواْ﴾:

لا ينتفعُ المُعانِدُ ببرهانٍ أبدًا

اللّامُ في جوابِ (لو) في قولِه: ﴿لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، لتأكيدِ الارتباطِ بين جملتي الشَّرطِ والجوابِ[2]، فاللّامُ تُقوّي العلاقةَ بين الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا﴾، والجوابُ ﴿لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، وفائدةُ ذلك: إظهارُ التّلازمِ بين افتراضِ وقوعِ الشَّرطِ واستمرارِ الكافرين في المكابرةِ (وهو مضمونُ الجواب).

لامُ الجوابِ هنا أفادتْ - أيضًا - التَّأكيدَ على وقوعِ الجوابِ، فدُخولُ اللّامِ على جوابِ الشَّرطِ ﴿لَّقَالُواْ﴾ يُؤكِّدُ حتميَّةَ وقوعِ هذا القولِ الافتراضيِّ لو تحقَّق الشَّرطُ؛ أيْ: إنّه إذا جُعِل القرآن أعجميًّا فإنّ الكافرين لن يتردّدوا في الاعتراضِ بمثلِ هذا القولِ، بما يُظْهِر إحاطةَ اللّهِ بدواخِلِهم وطوايا نفوسِهم.

وهذا التَّوكيدُ الحاصلُ في الجوابِ، والحاصلُ في العلاقةِ بين الشَّرطِ والجوابِ كذلك، أثرى البِنْيَةَ المعنويّةَ البلاغيّةَ في الجملة، فقد أفادَ تصويرًا يقينيًّا لحالةِ العِنادِ عند الكافرين، فاللّامُ في الجوابِ تُبيّنُ أنّ الاعتراضَ ليس مجرّدَ احتمالٍ ضعيفٍ؛ بل هو أمرٌ مُحقَّقٌ يُعبِّر عن طبيعةِ الكافرين المُعانِدَةِ، حيث يُظهِر النَّظمُ القرآنيُّ حالَهم وكأنّهم قد نطقوا بذلك بالفعلِ.

اللّامُ في: ﴿لَّقَالُواْ﴾ تُعزِّز النَّبْرَةَ البلاغيّةَ التي تُظهِرُ تناقضَهُم؛

(1) الماتُريديّ، تأويلاتُ أهل السُّنَّة: 9/ 90، والنَّسَفيُّ، مداركُ التَّنزيل: 3/ 239.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 92.

فهي تومِئ إيماءً تأكيديًّا إلى أنّ اعتراضَهم دَيْدَنٌ ثابتٌ، وطبْعٌ لا يتغيّر مهما كان شَكلُ القرآنِ في اللُّغةِ والبيانِ.

معنى ﴿لَوۡلَا﴾ في: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ﴾:

الاستغراقُ في الافتراضاتِ دليلٌ على سوءِ النّيّةِ في طلبِ الحقِّ

﴿لَوۡلَا﴾ في قولِه: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ حرفُ تحضيضٍ وتحفيزٍ وحثٍّ وتحريضٍ، وليست حرفَ امتناعٍ لوجودٍ بقرينةِ دخولِها على جملةٍ فعليّةٍ، بخلاف الامتناعيّةِ لوجودٍ؛ فهي شرطيّةٌ يتبعها جملةٌ اسميّة[1]. وهذا التّحضيضُ كناية عن الاعتراضِ والاستنكارِ الذي سيصدرُ منهم لو تحقَّقَ كون القرآنِ أعجميًّا، فالكافرون في قولِهم: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ لا يضعون شرطًا لحدوثِ شيءٍ، وإنّما يعترضون بأسلوبٍ استنكاريٍّ تحريضيٍّ، قائلين: (هلّا فُصِّلت آياتُهُ)؛ بمعنى: (لماذا لم توضَّح آياتُ القرآن بالتّفصيلِ التّامّ والإفصاحِ الكاملِ باللسانِ المُعرِبِ العربيّ).

دلالةُ التَّعبيرِ بما لم يُسمّ فاعلُهُ ﴿فُصِّلَتۡ﴾:

مصدرُ الحقِّ واضحٌ لِمَنْ صَدَقَ في طلبِهِ

التّعبيرُ بصيغةِ المَبنيّ لما لم يُسَمّ فاعلُهُ في قولِه: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾؛ للإشارةِ إلى عَظَمَةِ الفاعلِ، فالآياتُ لم تُفصَّل بفعلِ أحدٍ من البَشَرِ، وإنَّما بفعلِ جهةٍ أعلى وأعظمُ، وهو اللّهُ تعالى.

عدمُ التصريحِ بالفاعل هنا يجعلُ هِمَّةَ السّامعِ مُتوفِّرةً على الفعلِ ذاتِهِ (تفصيل الآياتِ) وعلى ماهيتِه وأهمّيتِه ونتيجتِه، وليس على الفاعلِ، تركيزًا على الفِعلِ والغايةِ، ولا يخفى ما في ذلك من تعظيمِ الفِعلِ نفسِهِ (تفصيل الآيات)، بما يدعو المُتلقّي إلى التَّفكُّر في مصدرِهِ وفاعِلِهِ.

تحقيقُ الإجمالِ الذي يُثيرُ التَّساؤلَ: فإيرادُ الفِعْلِ على تلك الصّيغةِ (المبني لِما لم يُسمّ فاعلُه) يترك شيئًا من الإجمال الذي

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/ 6735.

قد يدفعُ المُخاطَب للتّساؤلِ والتَّأمُّل: مَنِ الذي فَصّلَ هذه الآياتِ؟ وهذا يُؤدّي إلى إدراكِ أنّ المصدرَ هو اللّهُ تعالى، دون الحاجةِ إلى التَّصريحِ المُباشِرِ.

تصويرُ الاعتراضِ في صيغةٍ عامَّةٍ: فالكافرون هنا لا يعترضون على الفاعلِ بأسلوبٍ مباشرٍ، وإنّما يبتغون الفعلَ نفسَه (تفصيل الآيات)؛ لذا فإنّ صيغةَ المَبنيِّ لغيرِ المعلومِ تتناسبُ مع طبيعةِ كلامِهِم، حيث يتعلَّقُ بالفعلِ (التَّفصيل) وليس بالفاعلِ.

إظهارُ حُجَّتِهِم الواهيةِ: فالتّعبيرُ بهذه الصّيغةِ يُشير إلى أنّ الكافرين لم يعترضوا على الجهَةِ التي فصّلتِ الآياتِ (لأنّها معلومةٌ ومفهومةٌ لِمَنْ يُريد الحقّ)، وإنّما يتعنّتون في طلبِ مزيدٍ من التّفصيلِ رغم وضوحِ الآياتِ، ما يَظهر معه ضعفُ حُجّتِهِم.

سِرُّ التَّعبيرِ بنائبِ الفاعلِ جَمعًا مُضافًا: ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾:

كونُ القرآنِ آياتٍ يستلزِمُ اتّصافَه بالتّفصيلِ

التَّعبيرُ بنائبِ الفاعلِ ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ (جمعًا مُضافًا) في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾؛ للدَّلالة على أنّ الاعتراضَ ليس على آياتٍ عامَّةٍ؛ بل على آياتٍ تنتمي إلى القرآنِ تحديدًا، فيتعيّنُ بتلك الإضافة موضوعَ الإنكارِ والتَّعنُّت.

صيغةُ الجمعِ والإضافةِ إلى ضميرِ القرآنِ تُبيِّنُ أنّ الآياتِ ليستْ مُتفرّقةً أو مُبعثرةً؛ بل هي أجزاءٌ مُترابطةٌ تُشكِّلُ بناءً واحدًا مُتكاملًا، وهذا فيه إيماءٌ إلى أنّ التَّفصيلَ الذي يطلبونه لا ينفكُّ عن القرآنِ بحالٍ، لكنّهم ينظرونَ إليه بعينِ التّجزئةِ بدلًا من رؤيةِ الصّورةِ رؤيةً كاملةً وموضوعيّةً.

التّعبيرُ بالجمعِ ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بدلًا من المُفردِ (آية) يوضّح شمولَ الاعتراضِ على الافتراضِ؛ ليشمل كلَّ أجزاءِ القرآن. فكأنّهم يُنكرون تحقُّق التّفصيلِ في الآياتِ كلِّها، وليس على آيةٍ مُعيّنةٍ، بما يَعني أنّهم في حالةِ إنكارٍ شاملٍ للرّسالةِ.

التّعبير بـ﴿ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ جمعًا مُضافًا إلى الضّميرِ العائد على ﴿قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا﴾ يُظهِر ضعفَ حُجَّتِهم في طلبِهم التّفصيلَ، فكأنّ منطِقَهم مُؤذِنٌ بضعفِ حُجَّتِهم؛ لأنّ قولَهم: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ فيه اعترافٌ منهم بأنّ هذا القرآنَ - ولو كان أعجميًّا - واردٌ في تقاسيمِهِ وأجزائِهِ على نمطِ الآياتِ، ومن شأنِ الآياتِ: أنّها علاماتٌ جَليّةٌ وفصولٌ يَبِينُ بعضُها من بعضٍ[1]. فكأنّهم يشتهون تفصيلًا بحسبِ أهوائِهم، مع أنّ هذه الآياتِ قد جاءت - بالفعلِ - مُفصَّلةً من حيثُ الإعجازِ والدّلالة، فثبتَ أنّ استنكارَهم تعنتٌ مَحضٌ لا يقومُ على أساسٍ منطقيٍّ مُتماسِك.

توجيهُ القراءاتِ في: ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾:

قرئَ في المتواتر[2]: ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ﴾ بهمزتَين، الأولى للاستفهامِ الإنكاريِّ أو التَّعجيب، والثانيةُ من الكلمة[3]، يعني: لو نزَل بلغةِ العَجَمِ لأنكروا وقالوا: أقرآنٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ؟ لا يستويان[4].

وقُرئَ في المتواتر[5] كذلك: بهمزةٍ واحدةٍ على الخبرِ[6]، على معنى: (هلّا فُصِّلت آياته فيُجعَل بعضُها أعجميًّا لإفهامِ العَجَم، وبعضُها عربيًّا لإفهامِ العربِ)، فيكون معنى ﴿فُصِّلَتۡ﴾: نوِّعَت. أو المعنى مُتّجهٌ إلى التَّعجُّب من أجلِ ما فيه من الكلمةِ العجَميّةِ، كـ﴿سِجِّينٖ ۝٧﴾ [المطففين: 7]، و﴿إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: 31]؛ فقالوا: فيه أعجميٌّ وعربيٌّ، مُخَلَّطٌ من كلامِ العربِ وكلامِ العَجَم، وأيًّا ما كان؛ فالمقصودُ أنّ آياتِ اللّهِ ﷻ على أيِّ طريقٍ جاءتهم وجدوا مُتَعَنَّتًا يتعلّلون به؛ لأنّهم غيرُ طالبين للحقِّ، وإنّما يتّبِعون أهواءهم[7].

بلاغةُ قراءةِ ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾ بصيغةِ الخبرِ:

ورودُ إحدى القراءتَين بلفظِ الخبرِ ومعناها تعجُّبيٌّ إنشائيٌّ، بدلًا من وُرودِها بصيغةِ الإنشاءِ أو الاستفهامِ المُباشرِ للتَّعبيرِ عن اعتراضِهم التَّعجبيّ بقولِهم: ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (الآيات).
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 1/ 366.
(3) قراءة الجمهور ما عدا قُنْبُل وهشام ورؤيس، وكلٌّ على أصلِهِ في البَدَلِ، والتَّسهيل بينَ بينَ، وإدخال الألفِ بين الهمزتيْن وعَدَمِهِ.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 184.
(5) ابن الجزريّ، النشر: 1/ 366.
(6) قراءة قُنْبُل وهشام ورؤيس بخلف عنهم.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 184.

هذا الاعتراضُ بصيغةِ الخبرِ بدلَ الإنشاءِ يُفيد اليقينَ الذي يُقوّي إنكارَهم، فالتَّعبيرُ بصيغةِ الخبرِ يوحي بأنّهم يرون الأمر كأنّه حقيقةٌ مسلّم بها، وليس مجرّد تساؤلٍ أو تعجّب، ويكأنّهم في محاولةٍ لتعزيزِ اعتراضِهم وإظهارِه كأمرٍ واضحٍ لا يقبلُ النّقاشَ، فهم لم يتركوا مجالًا للنَّظر أو التَّفكير في حقيقةِ القرآنِ؛ بل غايةُ هِمّتِهم تصويرُه كشيءٍ مُتناقِضٍ بلا حاجةٍ إلى إثباتِ ذلك، وهذا يتّسِقُ ويتعاضدُ مع موقِفِهم الرّافضِ للقرآنِ، حيث إنّهم لا يبحثون عن الحقيقةِ؛ بل يسعون للتّشكيكِ فيها بأيِّ وسيلةٍ.

القراءةُ الخبريَّةُ تُظهِر استنكارَهم واستعجابَهم بمظهرِ الحقيقةِ الثّابتةِ

القراءةُ بصيغةِ الخبرِ تفضحُ محدوديّةَ عقولِهم، فاختيارُهُم الخبرَ بدلَ الإنشاءِ على قراءةِ ﴿أَعۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيّٞۗ﴾ يُعرّي قِصَرَ إدراكِهِم؛ فهم لم يفهموا أنَّ وجودَ ألفاظٍ أعجميّةٍ في القرآنِ لا يُخرِجُهُ عن كونِهِ عربيًّا، فهذا الاستنكارُ أو التَّعجّبُ يُبيِّنُ نظرتَهم السَّطحيّةَ للأمرِ، حيث لم يُدركوا أنَّ هذه الكلماتِ الأعجميَّةَ أصبحتْ جزءًا من اللُّغةِ العربيّةِ بالتّداولِ.

بلاغةُ قراءةِ ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ﴾ بصيغةِ الإنشاءِ:

الكافرُ جريءٌ في طرحِ باطِلِهِ

القراءةُ المُتواترةُ بصيغةِ الإنشاءِ (الاستفهام التَّعجُّبيّ الإنكاريّ) في قولِهِ: ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾، جاءت كذلك دونَ لفظِ الخبرِ، كما في القراءةِ الأُخرى، لإظهارِ موقفِ التّعجّبِ والإنكارِ مباشرةً بأسلوبٍ صريحٍ، حيث يُعبِّرون عن دَهشتِهم وإنكارِهم بطرحِ سؤالٍ تعجُّبيٍّ: كيف يمكن أن يكونَ القرآنُ أعجميًّا والمُنَزَّلُ إليه عربيًّا في آنٍ واحدٍ؟! فهذه الصّيغةُ الإنشائيّةُ تُجَلّي جُرأتَهُم الصَّريحةَ في الإنكارِ والاستهجانِ في هُجومِهم على القرآنِ، بحيثُ لا يجدونَ أيَّ غضاضةٍ في اجترائِهِم عليه، بما يُصوِّر تمحُّضهم في الكفرِ والعدوانِ.

صيغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ تجعلُ اعتراضَهم يبدو وكأنّه محلَّ تساؤلٍ وجَدَلٍ، وكأنَّهم أنفسهم يُشكّكون في مَنطقيَّةِ قولِهِم.

في القراءةِ بصيغةِ الخبرِ، يظهرُ الكافرون وكأنّهم يُروِّجون لاعتراضِهِم وإنكارِهِم كحقيقةٍ واقعةٍ لا تقبلُ الأخذَ والرَّدَّ. أمّا في القراءةِ الاستفهاميّةِ، فإنّ صيغةَ السّؤالِ تعكسُ مستوى شكِّهم واضطرابِهم، بما يُشعِر باضطرابِهِم وعدمِ تمكُّنِهِم من تقديمِ حُجَّةٍ واضحةٍ ضدَّ القرآنِ.

أسلوبُ الإنشاءِ أكثرُ قوّةً في التّعبيرِ عن التَّعنُّتِ

صيغةُ الاستفهامِ التَّعجُّبيّ أقوى في إيصالِ نبرةِ الاستنكارِ والتَّعنُّتِ مقارنةً بصيغةِ الخبر في القراءة الأخرى، فالكافرون - هنا - لا يصفون فقط موقفَهم؛ بل يُعبِّرون عن دهشتِهِم وكأنَّهم يريدون استنفارَ الآخَرين لمُشاركتِهِم هذا الموقفَ.

إثارةُ الحوارِ والرَّدُّ ضمنيًّا من خلالِ الصّيغةِ الإنشائيّةِ

صيغةُ الاستفهامِ التَّعجُّبيِّ تُهيِّئُ النّظمَ لفتحِ بابِ الحوارِ والرَّدِّ مع المُخاطَبِ؛ فالقرآنُ الكريمُ يأتي غالبًا بالاستفهامِ في سياقِ الاعتراضاتِ لإثارةِ الانتباهِ، ولإعدادِ الردِّ على الشُّبهاتِ. ويكأنّ صيغةَ الاستفهامِ ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾ تجعلُ السّامعَ يتساءل: هل يمكن أن يكون ذلك الإنكارُ منهم منطقيًّا أم لا؟! فهذا الأُسلوبُ يُشرِك السّامعَ في التّعاطي والتّفاعلِ مع استنكارِهِم، فقراءةُ الاستفهامِ تضعُ القارئَ أو السّامعَ في حالةِ دهشةٍ وتأمّلٍ، فيسألُ نفسَه: كيف يمكنُ الجمعُ بين الأعجميّةِ والعربيةِ؟ فينظرُ ويستنتجُ ويُجيبُ.

معنى الواوِ في: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾:

الكلامُ لا اعتبارَ له إذا حصلَ بلغةٍ لا تُفهِم المُخاطَبَ

الواوُ العاطفةُ في قولِه: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾ للمَعيّةِ؛ أيْ: كيف يجتمعُ لفظٌ أعجميٌّ والمُخاطَبُ به عربيًّا، لا يقعانِ معا ولا يقترنان. "كأنّهم يقولون: أَيُلقَى لفظٌ أعجميٌّ إلى مُخاطَبٍ عربيٍّ"[1].

بلاغةُ الطِّباقِ في: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾:

في قولِه: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾ طباقٌ بديعٌ بين اللّفظيْنِ[2]، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 314.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 572.

التّـلاقــي بين مُتناقضيْن غيرُ ممكِنٍ

الطّباقُ له مع كلّ معنى بلاغةٌ، فعلى تقدير المعنى: (أقرآنٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ)، فالطّباق يُقرِّر استحالةَ التّلاقي بين حالتيْن مُتناقضتيْن أنْ يكون الرَّسول عربيًّا يخاطِب قومَه بلغةٍ أعجميّةٍ لا يفهمونها. ومن بلاغةِ الطّباقِ - على هذا المعنى - أنّه يُظهِر حكمةَ اللّهِ في اختيارِ اللغةِ العربيّةِ لتكون لغةَ القرآنِ؛ لتأكيدِ المناسبةِ بين لسانِ الرّسولِ ﷺ ولسانِ قومِهِ، فلو كان القرآنُ أعجميًّا والرَّسولُ عربيًّا؛ لكان ذلك مانعًا من الإيمانِ وفهمِ الرِّسالةِ.

ومن البلاغةِ الفائقةِ للطِّباقِ في هذا الموضعِ أنّه يُلقي بالمَلامَةِ، ويسجِّلُ بالاحتجاجِ على الكافرين؛ لأنّ القرآنَ - في واقعِ الأمرِ - لم يأتِ أعجميًّا غامضًا؛ بل جاء بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، يخاطبهم بلغتِهم التي يُتقنونها، فلا عُذرَ لهم في عدمِ الفهمِ أو الإيمانِ، ومع ذلك جادلوا وأعرضوا، فمِنْ بلاغةِ الطِّباقِ أَنّه يوجِّهُ اللَّومَ إلى الكافرين أنفسِهِم على سبيلِ التَّعريضِ والتَّهكُّم، إذ إنَّ القرآنَ جاءَ بلُغتِهم وبما يفهمونه، ومع ذلك رفضوه، وأنّه لو كان أعجميًّا، لاعتذروا به في عدمِ الإيمانِ، لكنّ الحقيقةَ أنَّ حُجّتَهم واهيةٌ، وأنّهم مُنكِرون على كلِّ حالٍ.

وأمّا على معنى أنّهم أرادوا تبعيضَ القرآنِ إلى جزءٍ عربيٍّ يفهمُهُ العربُ، وجزءٌ أعجميٌّ يفهمه العَجَمُ، فالطِّباقُ - حينئذٍ - يأتي ليُؤدّي وظيفةً دلاليّةً وبيانيّةً تُظهر قوّةَ الحُجَّة القرآنيّة وتكشفُ عن تعنُّت المُعترِضين، فالطّباقُ يكشفُ عن تهافتِ قولِهم؛ فهم يُثيرون اقتراحًا عبثيًّا حول إمكانيَّةِ الجمعِ بين صفتي الغموضِ والوضوحِ (أعجميٌّ وعربيٌّ)، فيفتضح بذلك تناقُضُهم وعدمُ مَنطقيَّتِهم، لأنَّهم يرفضون الحقَّ بالاجتراءِ والافتراءِ، لا على أساسِ المَنْطِقِ السَّليم والعقلِ المُستقيم، في حين أنّ القرآنَ نزلَ بلسانِهِم الذي يفهمونَه، ومع ذلك لم يُؤمنوا ولم يستجيبوا.

قــوّةُ الـتَّـضـادّ التي في الطّباقِ ناجِزةٌ في إظهارِ الحقائقِ

على هذا المعنى - أيضًا - فالطِّباقُ بين (أعجمي) ﴿وَعَرَبِيٌّۗ﴾

يوضِّح الفرقَ الجوهريَّ بينهما، فلو كان القرآنُ أعجميًّا، لكان بعيدًا عن فَهمِهم، لكنّه نزلَ عربيًّا بلسانِهم ليُقيمَ عليهم الحُجَّةَ، فلا عُذرَ لهم في عدمِ الإيمانِ.

الطّباقُ هنا يُبيِّن الاضطرابَ النَّفسيَّ الذي يعاني منه الكافرون؛ فهم لا يملكون موقفًا ثابتًا تجاه القرآنِ، فالقرآنُ رغم نزولِه باللِّسانِ العربيِّ المُبينِ لم يُؤمنوا به، ولو جُعِل أعجميًّا، لاقترحوا تقسيمه إلى قسمَيْن: قِسم أعجميٍّ، وقِسم عربيٍّ، ولو كان ذلك، فهذا أدعى إلى رفضِهم، لأنّهم لم يُؤمنوا به وهو لغةٌ واحدةٌ، أفيؤمنون به وهو على لُغتَيْن؟ فهم يتحوّلون من سيِّئٍ إلى أسوأ، وليس لهم حالٌ ثابتةٌ أو قرارٌ واضحٌ؛ لأنّهم ارتضوا الكفرَ والجحودَ، فقدّموهما على أيِّ منطقٍ سليمٍ أو حُجّةٍ صادقةٍ.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الخبرِ ﴿هُدَى﴾:

التّأكيدُ بالتقديمِ على فضلِ المؤمنين

تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الخبرِ ﴿هُدَى﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدَى وَشِفَآءٞۚ﴾ أفادَ القصرَ والتّخصيصَ؛ أيْ: هدًى وشفاءٌ للذين آمنوا خاصّةً - وحدهم دون غيرِهم.

لا يلوذُ بهدايا القرآنِ إلّا أهلُ الإيمانِ

التّقديم في: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يلفتُ انتباهَ المُخاطَب إلى الفئةِ المُستهدفةِ بالحُكم، فيلاحظ الفئةَ المقصودةَ أوّلًا (الذين آمنوا) قبل ذِكرِ الأثرِ (الهدى والشِّفاء)؛ ترتيبًا للمعاني وفقَ الأهمّيَّة. وفائدة ذلك: التَّنبيهُ إلى أهميَّةِ الإيمانِ كشرطِ أساسٍ للانتفاعِ بالقرآنِ، كأنّه يُثير اهتمامَ المُخاطَبِ بمعرفةِ ما الذي يُميّز هذه الفئةَ.

إظهارُ العلاقةِ الوثيقةِ بين القرآنِ والمؤمنين

التّقديمُ يُجلّي العَلاقةَ القويّة والخاصَّة بين القرآنِ والمؤمنين، وكأنّ القرآنَ أُعدَّ خصّيصًا لهم؛ ليكون هدًى وشفاءً، ويتجلّى ذلك حتّى في صورةِ النَّظْم بمجاورِ ضميرِ القرآنِ ﴿هُوَ﴾ لجماعةِ المؤمنين ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ويكأنّ القرآنَ والمؤمنين في تجاورٍ دائمٍ لا شيءَ يفصلُ بينهما.

في التّقديمِ إيماءٌ إلى التّفريقِ بين المؤمنين وغيرِهم

من خلالِ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ يظهرُ التفاوتُ الكبيرُ بين المؤمنين وغيرِهم، فبينما ينتفع المؤمنون من القرآنِ لأنّه هدًى وشفاءٌ لهم، فإنَّ الكافرين (كما يُظهرُ السّياقُ في الآيةِ التّاليةِ) يُحرَمون من ذلك النَّفعِ؛ بل يكونُ القرآنُ عليهم عَمًى. وهذا معنًى لازمٌ عن استفادةِ التَّخصيصِ والحصرِ من التّقديمِ؛ لأنّه تبيّن أنّهم أهلُ الاستحقاقِ الحصريِّ للأثرِ النّفعيِّ الحاصلِ من القرآنِ (الهدى والشّفاء).

غرضُ تنكيرِ الخبرِ ﴿هُدَى﴾:

في هُدَى القرآنِ عطاءاتٌ لا تتناهى

تنكيرُ الخبرِ ﴿هُدَى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدَى وَشِفَآءٞۚ﴾ أفاد تعظيمَ الهدى في قدرِهِ المرصودِ لأهلِ الإيمانِ، وكأنّ الآيةَ تقول: إنّ القرآنَ هو هُدى عظيمٌ لا يُضاهيه هُدًى.

التَّنكيرُ يُفيدُ شمولَ الهدايةِ وعمومَها، فالقرآنُ ليس مُجرَّدَ هدايةٍ محدودةِ المجال في بابٍ واحدٍ؛ بل هو هُدًى شاملٌ في الدّين والدُّنيا في العقائدِ والأخلاقِ، وفي كلِّ ما ينفعُ الإنسانَ.

تنكيرُ ﴿هُدَى﴾ يُشيرُ إلى تنوُّعِ صورِ الهدايةِ التي يُقدِّمها القرآنُ للمؤمنين، فهي تختلفُ باختلافِ حاجاتِهم وظروفِهم، فتكون أحيانًا هداية للقلوبِ، وأحيانًا هداية للسّلوكِ، وأحيانًا هداية للحُجَجِ والبراهين، وكلّ امرئٍ يأخذُ منه نوعَ هدايةٍ غير النَّوعِ الذي يأخذُهُ شخصٌ آخر، بحسبِ تفاوتِ النّاسِ وتبايِنِهم في نوازعِهم وحاجاتِهم واستعداداتِهم.

التّنكيرُ يوحي بأنَّ القرآنَ يُقدَّم هُدًى مُتجدِّدًا ومُتغيّرًا بما يُناسب كلَّ موقفٍ أو زمانٍ أو مكانٍ، وكأنّ هدايتَه غيرُ محصورةٍ في قالبٍ جامدٍ؛ بل تتجدَّدُ حسبَ حاجةِ المؤمنين.

التَّنكيرُ قد يُفيد أنّ هذا الهُدى الذي يُقدّمه القرآنُ غيرُ مألوفٍ

وعجيب في تأثيرِهِ ونتائِجِه وعطاياه، فهو مختلفٌ عن أيِّ هدايةٍ أخرى عرفها النّاس، بما يشهد للقرآنِ بالفرادةِ والاستقلالِ.

التّنكيرُ في كلمةِ ﴿هُدَى﴾ يُثير فضولَ السّامعِ؛ ليبحثَ في عموم ذلك المعنى، ويستكشفَ ماهيّةَ هذا الهدى الذي يصفُهُ القرآنُ، فيحصل له بذلك حُسنُ التّفاعلِ مع القرآنِ، ويفتح له بابًا من أبوابِ تدبُّرِهِ وفقهِهِ.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَشِفَآءٌۚ﴾:

الـهُـدى شـفـاءٌ من مرضِ الكفرِ والجهلِ

العطفُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدَى وَشِفَآءٌۚ﴾ بين ﴿هُدَى﴾ و﴿وَشِفَآءٌۚ﴾ أفادَ الجمْعَ بين أثريْن مُتميِّزيْن للقرآنِ، لكلٍّ منهما وسْمٌ خاصٌّ. والعطفُ بين اللَّفظيْن كالجمعِ بين الوقايةِ والعلاجِ، فالهُدى يُمثِّل الوقايةَ من الانزلاقِ في مهاوي السّوءِ، والعِصْمةِ من الانجرارِ لجواذبِ الفتنِ. والشّفاءُ هو العلاجُ ممّا أصابَ وعابَ بالفعلِ من أمراضِ القلوبِ والأبدانِ. والعطفُ بالواوِ بينهما أفادَ استقلالَ الأثَريْنِ وتكاملَهما، فالهُدى والشِّفاء كلُّ واحدٍ منهما قائمٌ بذاتِهِ، ولكنَّهما يتكاملان معًا في وُرودِهما وتأثيرِهما؛ فالقرآنُ يهدي المؤمنَ أوّلًا، ثمَّ يشفيه من أمراضِهِ؛ فيكون أثره شاملًا.

وقدّمَ الهدى على الشّفاءِ؛ لأنّه كالبيانِ بين يدي المرضِ؛ فالمريضُ يستبينُ مَرَضَه أوَّلا ويتعلّم خُطّة العلاجِ ويسترشدها، ثمّ يتعاطى الدّواءَ ويستشفي به. أو أنّه أراد أنّ في الهُدى وقايةً وعلاجًا؛ فبالهُدى يحصلُ الشِّفاءُ، ولذلك قدَّمَه. فالشِّفاءُ هنا هو أثرٌ لاحقٌ للهدايةِ[1]. ففي الجمعِ بينهما إشارةٌ إلى كمالِ تأثير القرآنِ على الإنسانِ.

العطفُ بـ(الواو) دون غيرِها من الأدواتِ الأخرى، مثل (ثمّ) أو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 570.

(الفاء) يوحي بعدم التّقييدِ بزمنٍ مُعيَّنٍ أو ترتيبٍ مُحدَّدٍ، بما يعني أنّ القرآنَ يُقدِّمُ الهُدى والشّفاءَ معًا مُقترنيْن مُتجاوريْن ومُترابطيْن.

غرضُ التَّقديمِ في: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ على ﴿وَقۡرٞ﴾:

لـلآذانِ أمـراضٌ تـمـنـعُـهـا من سـمـاعِ الـحـقِّ والإصغاءِ إليهِ

تقديمُ شِبْهِ الجملةِ في قولِه: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ للاختصاصِ والاهتمامِ، إظهارًا للعنايةِ بالمحلِّ المُتأثِّر، وتقديمًا للمحلِّ المريضِ (الآذان) على سببِ المرضِ (الوقْر)، وهو تدرّجٌ منطقيٌّ؛ لأنّ الآذانَ سابقةٌ بظهورِها في الإدراكِ الحِسّيِّ؛ فهي عضوٌ ماديٌّ، وأمّا الوقر (الثِّقَل والصَّمَم) فأثرٌ معنويٌّ باطنٌ فيها، فبدأ بما هو أسبقُ في التَّصوُّرِ الحِسّيِّ، فضلًا عن كونِ الآذانِ أوعيةً ومحالًّا للوَقْرِ، والمحلُّ يسبِق الحالَّ. كذلك تقديمُ الجارِّ والمجرورِ فيه مناسبةٌ بلاغيّةٌ مع السّياقِ اللّاحقِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾؛ فجاءتِ العنايةُ بالمَحلِّ المُتأثِّرِ أوّلًا ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، ثمّ يُذكَر المُؤثِّر ﴿عَمًىۚ﴾.

تقديمُ الآذانِ ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ يوحي بثباتِ الوَقْرِ فيها واستقرارِه، فالوَقْرِ فيها ليس عرَضًا مُؤقّتًا، وهذا فيه إلماحٌ إلى شِدَّةِ إصرارِهِم على الكُفرِ، وبالغِ اليأسِ من تعافيهم وتغيُّر حالِهم.

في التّقديمِ كذلك تشويقٌ للمخاطَبِ أن يعرِفَ ماذا أصابَ تلكَ الآذانَ، فأيُّ آفةٍ من الآفاتِ لحقَتْها، فسرّع بالآذانِ في النَّظْم؛ ليخلُقَ في نفْسِ السّامعِ ترقُّبًا واستشرافًا لسببِ عطَبِ تلك الآذانِ وتعطُّلِ وظيفتِها عن سماعِ الحقِّ.

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ في: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾:

الـقـرآنُ مصدرٌ حـــيٌّ يـفـيـضُ بأسبابِ الحياةِ فـلا غِـنَـى لـحيٍّ عنه

في قولِه سبحانه: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ تشبيهٌ بليغٌ - جعل القرآن العظيم نفْس الهدى ونفْس الشّفاء[1]، وبلاغةُ هذا التَّشبيهِ تظهرُ في جَعْلِ القرآنِ ذاتِه هو الهُدى والشِّفاءُ، وليس مُجرَّد وسيلةٍ لهما، وهذا - واللّهِ - من أجَلِّ المعاني التي تدفعُ المؤمنَ دفْعًا

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 572.

على الاستمساكِ بهذا الكتابِ العظيمِ وتعهُّدِه أبدًا؛ لأنَّه حين يتناولُ هذا القرآنَ يكون تناول جوهرَ الهُدى والشّفاء؛ فالهُدى والشِّفاء وصفانِ ذاتيّان مُتأصِّلان فيه. فهذا التَّشبيهُ البليغُ يوقِف المؤمِنَ على حقيقةِ القوَّة الذّاتيّةِ للقرآنِ العظيم، فيتفاعل معه بناءِ على هذا التَّصوُّر.

التَّشبيهُ البليغُ هنا أيضًا والذي حُذفَ منه أداةُ التَّشبيهِ ووجه الشَّبهِ؛ ليتَحقّق للسّامعِ تمامُ الالتباسِ والامتزاجِ بين المُشبَّه (القرآن) والمُشبَّه به (الهدى والشِّفاء)، أفاد في الدّلالة على قطعيَّةِ حصولِ هذيْن الأثريْن بالقرآنِ، فالقرآنُ يوصِّلُ المؤمنين للهُدى والشِّفاءِ قطعًا وبيقين.

هذا التّشبيهُ البليغُ في التَّركيب يزيد من قوّة العلاقةِ بين المؤمن والقرآنِ؛ لأنَّه يجعلُ المؤمن يُدركُ أنَّ القرآنَ ليس مُجرَّد نصٍّ يُتلَى ويُكْتَب؛ بل هو مصدرٌ حيٌّ يفيضُ بالهدايةِ والشَّفاءِ اللذَيْن لا يستغني عنهما حيٌّ في حياتِه، فيتعلَّق به حينئذٍ تعلُّقَ الحريصِ على إدامةِ حياتِه وتجدُّدِها.

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ في: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾:

اختيارُ لفظِ (عمى) يزيدُ من بلاغةِ التَّشبيهِ ويعكسُ بالغَ الضَّررِ الذي أصابَهُم

في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ تشبيهٌ بليغٌ[1] كالذي في قولِه: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾، وبلاغةُ هذا التَّشبيهِ تظهرُ في تصويرِ مستوى الحِرمانِ الذي أصابَ الكافرين بتصويرِ أنَّ وعاءَ الهُدى والشِّفاء (القرآن) وكأنّه انقلبَ عليهم بسببِ كُفرِهم حتّى كأنّه هو ذاته صار حجابًا مانعًا لهم من استبصارِ مصدرِ الخيرِ ورؤيةِ الحقِّ.

فالتَّشبيهُ البليغُ يُصوِّرُ شِدَّةَ الأثَرِ السَّلبيِّ للقرآنِ على مَنْ يكفرُ به، فهُمْ لا يُحرمون الانتفاعَ به فقط؛ بل يلحقُهُم ضررٌ عظيمٌ عبّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 316.

عنه بالعَمَى الذي يستلزمُ الضّياعَ المَحْضَ والعجزَ التّامَّ في الرُّؤيةِ، وحتّى يزيدَ ذلك (التّشبيه البليغ) بلاغةً؛ قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ ليُشعرَ السّامعَ بثِقَل ذلك العَمَى وشدّة استحواذِهِ عليهم، وكأنّه ضررٌ مُسلّطٌ عليهم غالبٌ لهم لا فِكاكَ لهم منه.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ في لفظِ: ﴿عَمًىۚ﴾:

أمراضُ الحواسِّ لها نظائِرُها المُشابِهةُ في الطَّبائعِ والوجدانِ

أصلُ العَمَى: هو عدمُ البصرِ، وهو مُستعارٌ هنا لضدِّ الاهتداءِ (الضّلال) بقرينةِ مقابلتِهِ بالهُدى في قولِهِ: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى﴾، واستعارة العَمَى للضَّلالِ هي استعارةٌ تصريحيّةٌ شبّه ضلال الكافرين بالعَمَى بجامعِ الحرمانِ والحجابِ في كُلٍّ. فكما أنَّ الأعمى لا يستطيعُ رؤيةَ الطَّريقِ أمامَهَ، فإنَّ الكافرَ بسببِ ضلالِهِ وعنادِ قلبِهِ، لا يستطيعُ إدراكَ نورِ القرآنِ وهدايتِهِ.

غرضُ الاستعارةِ دونَ التَّعبيرِ بلفظِ (الضَّلال):

اجتماعُ الصَّممِ والعَمَى موجبٌ لضلالِ الأشياءِ وفواتِ المصالحِ

استعارةُ العَمَى للضَّلالِ في قولِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾، ولم يَقُلْ: (وهو عليهم ضلالٌ) لتقعَ المقابلةُ مع (الهدى) لفظيّةً صريحةً؛ لأنَّ في الاستعارةِ بلاغةٌ أكمل وأجمل:

فاستعارةُ لفظِ (العمى) الدّالِّ على فقدانِ البصرِ الحِسّيِّ ليُعبِّر عن فقدانِ البصيرةِ والإدراك، فيه تقريبٌ للحالِ المعنويِّ (الضلال) بتصويرِهِ بوصفٍ حِسّيٍّ (العمى)، فيجعل ضلالَ الكافرين كأنّه حالةٌ ملموسةٌ محسوسةٌ مُشاهَدةٌ. وهذا أبلغُ في ترسيخِ المعنى في الذِّهنِ.

القَصْدُ إلى تحقيرِ حالِ الكافرين، فالتَّعبيرُ بالعمى أفادَ في الدّلالة على ضلالِهم، وزادَ إليه الدَّلالة على تحقيرِهم؛ لأنّه صوَّر الكافرين وهم فاقِدون لأيسرِ أسبابِ الرُّؤيةِ والاهتداءِ (البصر والبصيرة معًا) والتي يسَّرها اللّهُ لعمومِ الخَلْقِ، ومع ذلك فقد حُرِموا منها وحُجِبوا عن استعمالِها، بما يُصوِّر حرمانَهم الشّديدَ الذي حطَّ من رُتبتِهم عن سائرِ الخلْقِ.

تعميقُ المعنى في الطّباقِ بين (العمى والهدى)، فهو يُصوِّرُ بُعد الفجوةِ بين الكافرين والمؤمنين في انتفاعِهم بالقرآنِ، وهذه الفجوةُ تجاوزتْ حدَّ النِّسبةِ بين الهدى والضَّلال؛ بل اتّسعتْ لتكونَ نِسبةً بين الهُدى والعمى، فمعنى ذلك أنَّه لا أمَلَ ولا رجاءَ في هدايةِ هؤلاء؛ لأنّ ضلالَهم ليس عرَضًا يقبلُ العلاجُ؛ بل صارَ مرضًا أصيلًا لبلوغِهم معه حدَّ العَمَى، فكأنَّهم ضلّوا ثمَّ انحجبوا عن الهُدى انحجابًا تامًّا بالعَمَى، فلا إمكانَ لعودتِهم إلى الهُدى مرّةً أخرى.

إجراءُ الاستعارةِ (مكنيّةً) في: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾:

العمى الحقيقي في غياب نور القرآن وأثره في النفوس

سبقَ إجراءُ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ في لفظِ ﴿عَمًىۚ﴾ بتشبيهِ ضلالِ الكافرين بالعَمَى، وهنا يصحُّ وقوعُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿عَمًىۚ﴾ مَكْنيّةً أيضًا، بتشبيهِ العمى بغيابِ نورِ القرآنِ عنهم، فإذا اعتبرنا أنّ الآيةَ تُلمِحُ إلى تصويرِ القرآنِ كضوءٍ ونورٍ كاشفٍ للطّريقِ، فغيابُ تأثيرِه على الكافرين شُبِّه بحالةِ العَمَى. وهنا حُذفَ المُشبّه به (غياب النّورِ) وضُمِّن في المعنى؛ فالاستعارةُ مكنيَّةٌ.

إجراءُ الاستعارةِ تمثيليّة في تركيبِ: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾:

العَمَى مانعٌ الإنسانَ من رؤيةِ الطَّريقِ القويم

يصحُّ توظيفُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في تركيبِ ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ بتشبيهِ الحالةِ الكليّةِ لضلالِ الكافرين وعدمِ اهتدائِهم بآياتِ القرآنِ بحالةِ العَمَى التي تمنعُ الإنسانَ من رؤيةِ الطّريقِ. فالتّمثيلُ هنا ليس مُقتصرًا على لفظٍ واحدٍ (العَمَى)، بل على هيئةٍ كاملةٍ (عدم الانتفاع بالقرآن - العمى)؛ فالتمثيلُ يشرحُ العلاقةَ بين حالَيْن وهيئتَيْن.

موقعُ جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ﴾ ممّا قبلها:

يا خسارة مَن لم ينتفع بالقرآن الكريم!

جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ: (فما جزاؤهم إذ لم يَنتفِعوا بالقرآنِ، ولم يَنفعْهُم

القرآنُ؟) فأجيب: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾. ويجوز أن تقع خبرًا ثالثًا عن ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ بكافِ البُعْدِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ الجمعيِّ الدّالِّ على البُعْدِ بالكافِ[2] في قولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ﴾ مع قُرْب العهدِ بالمُشارِ إليه وهو الموصولُ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإيذانِ ببُعدِ منزلتِهم في الشَّرِّ والعنادِ، وللمناسبةِ مع ندائِهم من المكانِ البعيدِ، فإنَّهم بندائهم من ذلك المكانِ صاروا بُعداءَ غُرباءَ، فناسبَ أنْ يُشارَ إليهم بما يُناسِبُ واقِعَهم في المآلِ[3]. كأنّه قال: (أولئك البُعداءُ عن الإيمانِ يُنادَون من مكانٍ بعيدٍ) فثبتَ لهم البُعدُ في الحالِ والمكانةِ، والإبعاد في المآلِ والمكانِ، وفي إشارةٍ إلى أنّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، فهم لمّا بعدوا عن الإيمانِ بالكفرِ، أُبْعدوا في النّداءِ كأنّهم يُنادون إلى الإيمانِ بالقرآنِ، من حيثُ لا يسمعون، لبُعْدِ المسافةِ، أو يُنادون في القيامةِ من مكانٍ بعيدٍ بأقبحِ الأسماءِ[4].

بلاغةُ التَّمثيلِ في: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾:

في تركيبِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ[5] - شبَّه حالَهُم في صَمَمِهم عن الحقِّ وانقطاعِهم عنه بالكليَّةِ من شدَّةِ إعراضِهم بحالِ مَنْ يُنادَى من مسافةٍ بعيدةٍ، فلا يسمعُ الصّوت؛ لِبُعده عن مصدرِ الصّوتِ وغيابِه عنه، فكذلك هؤلاء لمّا حصلَ الوَقْرُ في آذانِهم والعَمَى في بصائرِهم بَعُدتِ الشُّقَّةُ بينهم وبينَ القرآن، فلو ظلَّ القرآنُ يُتلَى عليهم ما آمنوا به؛ لاستحكامِ البُعدِ منهم

استغراقُ البعيدِ في الابتعادِ، يَزيدُه بُعدًا وغيابًا

مَن نودي من بعيدٍ لم يُسمَعْ، وإذا سمِعَ لم يَفهمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 316.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 92.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 17.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 240.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 203، وأبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 17، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 316، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 573.

كالمرضِ المُزمِنِ الذي لا بُرءَ منه، وهذا المعنى شبيهٌ بقولِ اللّهِ: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: 23]. ولا يخفى ما في هذه الاستعارةِ من حُسنِ مناسبةِ مضمونِها (التَّعبير بالنِّداء) مع حالِهم السّابقة ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾؛ فالنِّداءُ غير مسموعٍ لامتلاءِ آذانِهم بالوَقْرِ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكرى النُّبلاءِ باقيةٌ تُحمَدُ

لمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ مِثالًا على مُقترحهم وأنموذجًا من شُبَهِهم، وكان ذلك تفريعًا بالمِثالِ على عموم المضمونِ في قولِه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، فضربَ مثالًا بقيلٍ من تلك الأقاويلِ، ذكر هنا في هذه الآية مِثالًا برسولٍ من أولي العزم يُحتذَى به؛ ليتصبَّرَ الرّسولُ بطريقتِه، ويهتدي بهديِه، فذَكَر في الآيةِ السّابقة اقتراحَ قومِه عليه وجوابَ ذلك، وذكَرَ له في هذه الآيةِ مَنْ يتصبّر ويتسلّى بسيرتِهِ من إخوانِه المرسلين في مواجهةِ أماني قومِهِ وعِنادِهم الباغي، واقتراحهم الآثِمَ؛ فإنّ الإنسانَ يتسلّى بمَنْ شابَهَهُ في المُصابِ والكِفاح(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُرِيبٍ﴾: (ريب) أُصَيْلٌ يَدُلُّ على شكٍّ، أو شَكٍّ وخوْفٍ(2)، يُقال: رابَني كذا، وأرابَني، فالرَّيْبُ: أن تتوهّم بالشَّيء أمرًا مّا، فينكشف عمّا تتوهّمه، والرَّيْب والرّيبةُ: الشَّكُّ والظِّنَّةُ والتُّهمةُ(3)، و﴿مُرِيبٍ﴾ هنا اسم فاعل؛ أيْ: موقِع في التُّهمَةِ ومورِدٍ للشَّكِّ وباطلِ الظَّنِّ(4). والمُرادُ هنا: قد بلغ بهم الشَّكُّ إلى الرَّيْبِ الذي يُقلِقُهُم، فلذلك كذَّبوه وجَحَدوه(5).

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 208.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ريب).
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 209.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 751.

في القدوة الصّالحة إمدادٌ مُستمِرٌّ بالعزيمة والصّلابة

المَعْنى الإجْماليُّ:

يَبيّن اللّهُ - سبحانه - زيادةً في تسليةِ رسولِهِ ﷺ أنَّ اختلافَ الأُمَمِ في شأنِ ما جاء به الرُّسل شيءٌ قديمٌ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾؛ أيْ: ولقد آتينا نبيّنا موسى - عليه السلام - التّوراة؛ لتكونَ هدايةً ونورًا لقومِهِ، فاختلفوا في شأنِ هذا الكتابِ، فمنهم مَنْ آمن به، ومنهم مَنْ صدَّ عنه[1]. فلا تأسَ على ما فعلوا معك، واسلُكْ سبيلَ أولي العزم من الرُّسلِ، فقد أوذوا فصبروا، وكان النَّصرُ حليفَهم، والتَّوفيق أليفَهُم، وكتب اللّهُ لهم الظَّفَر والفوزَ على أعدائِهِم، وأهلكَ اللّهُ القومَ الظّالمين. ثمّ أخبرَ سبحانه أنّه أخّر عذابَهم إلى حينٍ، ولم يُعاجلْهم بالعقابِ على ما اجترحوا من تكذيبِ الرسولِ وجَحْدِهِم بكتابِهِ[2]. وإنّ اللّه تعالى لولا حلمه وكلمته السّابقة بتأخيرِ العذابِ إلى أجلٍ مُسمًّى لا يتقدَّم عليه ولا يتأخَّر؛ لفُصِلَ بينهم بإهلاكِ الكافرين في الحالِ. وإنّ المشركين لفي شَكٍّ من القرآنِ شديد الرّيبةِ[3]، كما كان قومُ موسى مُرتابين في نُبوَّتِهِ وكتابِهِ كذلك.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

المِثالُ أبلغُ المقالِ وأوضحُهُ

موقعُ جملةِ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ ممّا قبلها:

جملةُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ لبيانِ أنّ الاختلافَ في شأنَ الكتبِ عادةٌ قديمةٌ للأُمم غيرَ مُختصٍّ بقومِهِ ﷺ، وذلك على منهاجِ قولِهِ تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[4]، فالآيةُ تسليةٌ للرّسولِ ﷺ بجعلِ موسى عليه السلام مَثَلًا

(1) طنطاويّ، الوسيط: 12/ 360.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 141.
(3) مجمع الملك فهد، التّفسير المُيسَّر.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 382.

له يَقيس عليه[1]؛ أيِّ: كما آتينا موسى الكتابَ فاختلفوا فيه، فقبله بعضُهم وردَّه الآخرون، فكذلك آتيناكَ هذا الكتابَ فقبِله بعضُهُم وهُمْ أصحابُك، وردَّه الآخرون[2]. فالجملةُ الكريمةُ مِثالٌ واقعيّ مُفصِّلٌ لإجمالِ قولِه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾.

ويصحّ أن تكون الجملةُ اعتراضًا[3] بين قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾، وقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لتسجيل أنّ دأْبَ الكافرين واحدٌ في كلِّ زمنٍ، وتقريرِ أنّ دأْبَ المُرسلين واحدٌ في امتحانِهم باختلافِ أقوامِهم عليهم.

ويصحُّ أن تكون الجملةُ معطوفةً على مُقَدَّرٍ مفهومٍ من مضمونِ السّياقِ قبلها؛ أيِّ: آتيناك الكتابَ فاختُلف فيه من قومِكَ، وآتينا موسى الكتابَ فاختُلف فيه كذلك، فأنتم سواءٌ فلا تحزنْ، فما أنتَ بخلافِ موسى، ولا قومك بخلافِ قومِه[4].

دلالةُ الاستهلالِ بالقَسَمِ في: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

مقامُ التّسليةِ والتّثبيتِ من دواعي التّوكيدِ والقَسَمِ

اللّامُ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ﴾ لامُ جوابِ القَسَمِ الدّالَّة على حذْفِه، والتَّقديرُ: (واللّهِ لقد آتينا)، ويصحّ أنْ تكونَ اللامُ لتوكيدِ الإثباتِ، فالجملةُ مُؤكَّدةٌ بها كتوكيدِ القَسَم، وليستْ بقَسَمٍ[5]. وعلى كُلٍّ فتصديرُها بالقَسَمِ أو التَّوكيد فقط، مع التَّحقيقِ بـ(قد) - يدلُّ على إبرازِ كمالِ العنايةِ بمضمونِ الجملة، وفيه إشارةٌ إلى أنّ مقامَ التّسليةِ والتّثبيتِ لقلبِ الرّسولِ ﷺ حريٌّ بأنْ يُؤكَّد ويُقْسَم عليه؛ لأنّه كإيداعِ الحُجّةِ في قلبِهِ لينشرِحَ بها ويوقِن، والاحتجاجُ له بموسى كمثالٍ يَقيسُ عليه يقتضي تأكيدًا وجزْمًا.

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 314.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 570.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 317.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 17/ 208.
(5) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 181.

التَّصديرُ بالقَسَمِ أو التَّوكيدِ المُحقَّقِ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾ يدحضُ أيَّ شكٍّ وإنكارٍ لهذهِ الحقيقةِ (مضمون الجملةِ)، فقد كان فريقٌ من أهلِ الكتابِ يقولون تشكيكًا وإضلالًا: (لو كان نبيًّا ما اختَلَفَ النّاسُ عليهِ)[1]؛ فجاء التّوكيدُ دحضًا لتلبيسِهِم.

تصديرُ الجملةِ بالقَسَمِ واللّامِ؛ لإظهارِ عَظَمَةِ الحَدَثِ، وهو إيتاءُ موسى الكتابَ، وما ترتَّبَ عليه من اختلافِ قومِهِ عليه.

الاستهلالُ بـ﴿وَلَقَدۡ﴾ فيه تنبيهٌ على استمرارِ ظاهرةِ اختلافِ الأقوامِ على أنبيائِهِم، كسُنَّةٍ كونيّةٍ طرديّةٍ في تاريخِ الرّسالاتِ، وهذا يُفيدُ في إبرازِ طبائعِ الأكثريّةِ البشريّةِ في التّفاعلِ مع الحقائقِ الإلهيّةِ.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ونكتةُ التَّعبيرِ بِهِ:

(ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعَهْدِ، والمُرادُ: التّوراة. وسَمَّى التّوراةَ كتابًا؛ لكونِها كانت ألواحًا مكتوبةً، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 145][2].

معنى الفاءِ في: ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾:

الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ للتّعقيبِ والتّفريعِ، ومعنى التَّعقيبِ: أنّ اختلافَ النّاسِ في الكتابِ جاءَ مباشرةً عقبَ إنزالِ اللّهِ تعالى الكتابَ على موسى عليه السلام، فالاختلافُ لم يكن أمرًا بعيدَ الوقوعِ أو مُتراخيًا؛ بل حَدَثَ بشكلٍ مُتَّصِلٍ بزمنِ إنزالِ الكتابِ.

امتحانُ النّاسِ بنزولِ الوحي لَزِمَ عنه اختلافُهُم فيه

ومعنى التَّفريعِ: أنّ اختلافَهَم تفرّعَ عن إنزالِ الكتابِ؛ أيْ إنّ الاختلافَ جاءَ كنتيجةٍ مُترتّبةٍ على هذا الحَدَثِ (إنزال اللّهِ الكتابَ على موسى عليه السلام).

دلالةُ التَّعبيرِ بما لم يُسم فاعلُهُ: ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ على بناءِ ما لم يُسَمّ فاعلُهُ في قولِهِ: ﴿فَٱخۡتُلِفَ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 208.

(2) ابن عُثيمين، تفسير سورة فُصِّلت، ص: 771.

فِيهِۚ﴾، ولم يَقُلْ: (فاختلفوا فيه)؛ للتّقليلِ من شأنِ الفاعِلين، والإلماح إلى ذمِّهم، فلا يستحقّون ذِكْرًا ولا تصريحًا. وتقرير الاختلافِ كسُنَّةٍ وظاهِرةٍ مُطَّرِدَةٍ بغضِّ النَّظَرِ عن فاعليها، فالغرضُ مُتّجِهٌ إلى الاختلافِ وعواقِبِه، وليس على الأشخاصِ المُختلفين أنفسِهم. ولفائدةٍ بديعةٍ؛ وهي تعميمُ مدارِ الاختلافِ ليشملَ المُختلفين في زمنِ موسى المُعاصِرين له، والمُختلفين على مِلَّتِه مِنْ بعدِ وفاتِهِ. وبناءُ الفعلِ للمجهول يوحي كأنّ الفِعلَ يحدثُ من تلقاءِ نفسِه، ليتقبّلَ أولو الألبابِ (الرُّسلُ وأتباعُهُم) الاختلافَ عليهم وعلى الحقِّ الذي معهم - بصدرٍ واسعٍ وصبْرٍ جميلٍ، ويعلموا أنّ اختلافَ النّاسِ في الحقِّ ظاهرةٌ مُستمرّةٌ ومعهودةٌ في الطّبائعِ البشريَّةِ، فهو ممّا يُرتَقَبُ ويُتوقَّعُ أبدًا؛ لأنّه من لوازِمِ الامتحانِ والابتلاءِ في هذه الدُّنيا.

الاختلافُ ظاهرةٌ مرذولةٌ مكرورةٌ تُعيقُ الاستفادةَ من الوحي

معنى (في) ودلالتُها في: ﴿فِيهِۚ﴾:

تصويرُ شدّةِ الاختلافِ ووَقْعِهِ ويكأنّ الكتابَ أُشْرِبَ باختلافِهِم، فتسرَّب اختلافُهُم لِنواحٍ عديدةٍ منه؛ فاختلفوا في نصوصِهِ، وفي تفسيرِهِ وفي تطبيقِهِ، وهَلُمَّ جَرّا.

تعديةُ الاختلافِ بحرفِ الظَّرفيَّةِ يُفيدُ تعمُّقَ اختلافِهم وتجذُّره، فلم يقعِ اختلافُهم حول شيءٍ خارجيٍّ عن الكتابِ؛ بل أصابَ صميمَ الكتابِ في مضامينِهِ ومُحكماتِه وثوابتِهِ وواضِحاتِه؛ ليدلَّ على أنَّ الكتابَ - رغم وضوحِهِ - صارَ وِعاءً ومُستودَعًا لِنزاعِهِم بسببِ التَّأويلِ أو التّحريفِ أو الهوى والجهلِ.

المُختلِفون في الكتابِ ألحقوا بهِ التَّشويهَ الذي لبَّس على الأجيالِ حقائِقَه

التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ فيه دلالةٌ على أنّهم أوقعوا لوازمَ ومُقتضياتِ هذا الاختلافِ في الكتابِ، فجعلوا في الكتابِ ما ليس منه، وخلطوه بالزّيفِ والباطلِ والتّزويرِ وتحريفِ الكَلِمِ عن مواضِعِهِ، كأنّما جعلوه وعاءً وظرفًا مُشتمِلًا على أباطيلِهِم، بما يُحمِّلهم المسؤوليّةَ ويورِّطهم في التُّهمةِ والإدانةِ.

إمهالُ النّاسِ بتأخيرِ الحسابِ فرصةٌ لهم لتكرارِ النَّظرِ في حججِ الرُّسلِ

موقعُ جملةِ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾:

جملةُ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾، وواوُ العطفِ جاءتْ هنا رابطةً جامعةً بين الإنعامِ والفضلِ في إيتاءِ موسى الكتابَ، وبين الحكمةِ الإلهيةِ في تأجيلِ مؤاخذتِهم وحسمِ الاختلافِ بينهم إلى يومِ القيامةِ.

أقضيةُ اللهِ في الخَلْقِ جاريةٌ على مُقتضى الرّحمةِ والحكمةِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (لولا):

(لولا) في قولِه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ حرفُ امتناعٍ لوجودٍ؛ أي: امتناع الجوابِ لوجودِ الشَّرطِ[1]، فوجودُ الشَّرطِ (الكلمة التي سبقتْ من اللّه) منع حدوثِ الجوابِ (القضاء بينهم). فاستعمالُ (لولا) أفادَ في إظهارِ الرحمةِ والحكمةِ الإلهيّةِ، ولفْتِ الانتباهِ إلى حتميَّةِ السُّنَنِ الإلهيَّةِ التي تربطُ الحوادثَ بالنِّظامِ المُحكَمِ والتَّدبيرِ المحسوبِ والتّقديرِ الدَّقيقِ.

أحكامُ اللهِ وسُنَنُهُ في خلقِهِ تجري بكلمةٍ

غرضُ التَّنكيرِ في: ﴿كَلِمَةٌ﴾:

التّنكيرُ في لفظِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ من قولِه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أفادَ تعظيمَ الكلمةِ وتفخيمَها؛ فهي كلمةٌ عظيمةٌ ترهبُ منها النُّفوسُ، وترغبُ بها كذلك؛ لأنّ الكلمةَ هي تأخيرُ الحسابِ إلى يومِ المَعادِ[2]، فإذا كانت كذلك ففيها الفُسْحةُ للمُكذِّب أن يفيءَ ويستقيمَ وينظرَ في الكتاب نظَر الحقِّ، فيُقْبِل ويرغَب. وفيها التّرهيبُ له من أنْ يُلاقي مصيرَه على حالِ التّكذيبِ، وكذلك المُصدِّق، فإنّ الاختلافَ في الكتابِ يعني أنّهم اختلفوا حوله بالتَّصديقِ والتّكذيبِ، فالمُصدّق بسببِ إمهالِ الكلمةِ يزدادُ يقينًا وبصيرةً فيه، وهذا ترغيبٌ، ويحترز من أن يُدرِكَهُ ميقاتُ الكلمةِ وقد فُتِنَ أو زاغَ. وهذا ترهيبٌ.

ويصحُّ أن يكونَ التَّنكيرِ في الكلمةِ؛ للتنويعِ في الماصَدَق، فالكلمةُ

(1) درويش، إعراب القرآن: 8/ 575.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 533.

هي تأجيلُ العقوبةِ إلى يومِ الحسابِ، وهي الوعدُ بتوفيتِهم أقدارَهم حتّى تمامِ آجالِهم، والأمرانِ متلازمانِ.

سِرُّ وصفِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ بالجملةِ: ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾:

كلماتُ اللهِ في خلقِهِ من أسبابِ رحمتِهِ بهم

وصفُ الكلمةِ بالأسبقيّةِ في قولِهِ: ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ يدلُّ على لازميَّتِها وأزليَّتِها، فاللّازميّةُ تعني عدَمَ خرقِها بالخُلْفِ والتَّبديلِ. وأزليَّتُها تعني أنّ الخلْقَ مرحومين بها من قبلِ خَلقِهِم، ففيه تنبيهٌ على كمالِ عنايةِ اللّهِ بالنّاسِ، فكأنّه ادّخر لهم سببَ رحمتِهِم من قبلِ أن يوجدوا كمَنْ يدَّخر لعيالِهِ الزّادَ والإمدادَ من قبلِ أن يولدوا؛ فالكلمةُ هي سببُ رحمتِهِم التي عصمتهم من تعجيلِ العذابِ لهم، وهذا أحضُّ لهم على الأخْذِ بأسبابِ الرَّحمةِ بتعجيلِ التَّوبةِ والخروجِ من الاختلافِ على رُسُلِ اللّهِ وكُتُبِه، فكأنّه بسببِ هذه الكلمةِ لم يُعجِّلْ لهم العذابَ؛ ليُعجّلوا بالتَّوبةِ.

دلالةُ تقييدِ الأسبقيَّةِ بقولِهِ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

الكلمةُ من اللهِ سلطانٌ نافِذٌ لا رادَّ له ولا مُعقِّبَ لحُكمِهِ

تقييدُ الأسبقيّةِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ: ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لتعظيمِ الكلمةِ وتفخيمِ شأنِها، بالدّلالةِ على مصدرِها، فهي من الرَّبِّ ﷻ وحده، ليستْ من أحدٍ من الخَلْقِ، وفي ذلك كنايةٌ عن سلطانِ تلك الكلمةِ في النّفاذِ والفوقيَّةِ على عمومِ الخَلْقِ، فلا أحدَ منهم بإمكانِهِ اعتراضُها أو تعطيلُها أو التّأثيرُ فيها بأيِّ وجْهٍ.

والتّعبيرُ بوصفِ الرُّبوبيَّةِ دون غيرِهِ في قولِهِ: ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ يوحي بأنّ هذه الكلمةَ تحملُ معاني اللُّطفِ والتّدبيرِ والرَّعايةِ من اللّهِ تجاه خلقِهِ، وأنَّ المقصودَ الأصليَّ منها هو رحمةُ الخَلْقِ وإطماعهم في عفوِ اللّهِ بإفساحِ الفرصةِ لهم بالتّداركِ واليقظةِ قبلَ الأجلِ والحسابِ، فالغرضُ منها الإشفاقُ عليهم قبل تهديدِهِم، والتّرغيب لهم قبل وعيدِهِم.

وأضاف الرُّبوبيّةَ لكافِ خطابِ النَّبيِّ ﷺ تشريفًا له وتعزيزًا

لتثبيتِهِ وتسليتِهِ[1]. وفي إضافةِ الرُّبوبيَّةِ لضميرِ الرّسولِ ربطٌ للإحسانِ والرَّحمة برُتْبَتِهِ الرِّساليّةِ ووظيفتِهِ النَّبويّة، فمن مُقتضياتِ الرّسالةِ سبْقُ الكلمةِ بالإمهالِ؛ لئلّا يكون للنّاسِ على اللّهِ حجّةٌ بعد الرُّسُلِ. وفي إضافةِ الرُّبوبيّةِ إليه ﷺ إشارةٌ إلى أنّه أَمَنَةٌ لقومِهِ من تعجيلِ العقوبةِ لهم وإنْ كفروا واختلفوا عليه وجادلوه، فما كان اللّهُ ليُعذّبَهم وهو فيهم.

رحماتُ اللهِ تمنعُ أقضيةَ السّوءِ عن خَلْقِهِ

فائدةُ لامِ الجوابِ في: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾:

اللّامُ الواقعةُ في جوابِ الشَّرطِ في قولِهِ: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ تُفيد أمرَيْن:

الأوّلُ: تأكيدُ الارتباطِ بين جملتي الشَّرطِ والجواب؛ فاللّام تُؤكِّدُ التّرابُطَ الوثيقَ بين الامتناعِ عن القضاءِ (الجواب) ووجودِ الكلمةِ الإلهيّةِ السّابقةِ (الشّرط). فهي (اللام) تُشدِّدُ على أنّ هذا الامتناعَ مُرتبطٌ تمامًا بإرادةِ اللّهِ[2] وتقديرِهِ[3].

الثّاني: التّأكيد على وقوعِ الجوابِ. فاللّامُ الدّاخلةُ على جوابِ الشَّرطِ ﴿لَقُضِيَ﴾ تُفيدُ التَّأكيد على حدوثِ القضاءِ بينهم لو تحقَّق الشَّرطُ المذكورُ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا يدلّ على أنّ القضاءَ كان أمرًا مُحقَّقًا لا محالةَ لولا المانعُ الإلهيُّ.

عدمُ نسبةِ ما هو مظنّةُ الشَّرِّ إلى اللهِ من لوازمِ الأدبِ معه

دلالةُ التّعبيرِ بما لم يُسَمّ فاعلُهُ في: ﴿لَقُضِيَ﴾:

التّصريحُ بالفعلِ دونَ إظهارِ الفاعلِ ببناءِ الفعلِ لما لم يُسمّ فاعله، يوجِّه عنايةَ المُخاطَبِ إلى فعلِ القضاءِ نفسه، وليس إلى مَن يقوم به، للإشارةِ إلى أنّ هذا الفعلَ ناجزٌ ومُحقّقٌ لا محالةَ لو لم تسبقْ كلمةُ اللّهِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 318.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 208.
(3) ابن جُزَي، التّسهيل: 2/ 242.

عدمُ ذِكرِ الفاعلِ يوحي بأنّ الفاعلَ معلومٌ بداهةً، وهو اللّه ﷻ، لكنّ إبهامَه هنا يزيدُ من الهيبةِ والرَّهبةِ منه ﷻ، بقرينةِ قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فإذا كانتِ الكلمةُ سبقتْ من ربِّك، فإنّ القضاءَ بينهم هو من الرَّبِّ سبحانه كذلك.

عدمُ التَّصريح بالفاعلِ في: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ جرى على عادةِ القرآنِ في التَّكنيةِ عن الشرِّ والمكروهِ بعدمِ التّصريحِ بالفعلِ ببناءِ الفعلِ لما لم يُسَمّ فاعِلُه، ولمّا كان القضاءُ بينهم وعيدًا لهم، كان شرًّا استحقّ إبهامَ فاعِلِه؛ للتّنبيه على أنّهم يستحقّون ما فعلوه هم بأنفسِهم من التّكذيبِ والظُّلم، كما في قولِه سبحانه: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجنّ: 10]، فقالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ﴾ [الجن: 10]، وفي الخيرِ صرَّحوا بالفعلِ: ﴿أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10][1].

غرضُ إضافةِ الظَّرفِ إلى الضَّمير في: ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

قضاءُ اللهِ بين عبادِهِ مُستغرِقٌ لقضايا النّزاعِ بينهم

إضافةُ الظَّرفِ (بين) إلى الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يحملُ دلالاتٍ بلاغيّةً معنويّةً بديعةً:

أوّلًا: تأكيدُ شموليّةِ القضاءِ لجميعِ المختلفين، فإضافةُ الظّرفِ إلى الضَّميرِ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ تعني أنَّ القضاءَ كان سيتمُّ داخل دائرة المُختلفين أنفسهم؛ أيْ إنّ كلّ مَن وقَع في الاختلاف سيكون مشمولًا بهذا الحُكمِ الإلهيِّ دونَ استثناءٍ.

ثانيًا: التّنبيهُ بالظّرفِ المُضاف إلى ضميرِ الجمعِ إلى التّفرقة التّامَّة الفاصلةِ بين أطرافِ الاختلافِ من المُصدِّقين والمُكذِّبين، بحيث يحصل التَّمييز بين المُحِقّين والمُبطِلين، وهذا يُعزِّز من فاعليَّةِ القضاءِ المذكورِ بتحقيقِه الفصلَ التّامَّ وعدمَ الالتباسِ في الحُكمِ الإلهيِّ.

(1) ابن عُثيمين، تفسير سورة فُصِّلت، ص: 275.

ثالثًا: التَّعبير بالظَّرفِ المُضافِ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يُشعِرُ باحتدامِ النّزاعِ وقوّتِه بين طرفي الاختلاف (المؤمن والكافر)، فهذا النِّزاع لم يكن مُجرَّدَ اختلافٍ عاديٍّ؛ بل كان اختلافًا جوهريًّا وحادًّا، يستلزم قضاءً فاصِلًا.

رابعًا: التَّنبيهُ بالظّرفِ المُضافِ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ على أنَّ الاختلافَ كان سببًا في استحقاقِ القضاءِ بين المُختلِفين، فكون الظَّرفِ مُضافًا إلى الضَّمير يدلُّ على أنّ السَّببَ الرَّئيسَ لاستحقاقِ القضاءِ هو ما كان يجري بينهم من تنازعٍ واختلافٍ حول الحقِّ، وهذا مُؤذِنٌ بضرورة التّأمُّل والانتباه والنَّظرِ في عواقبِ الاختلافِ في الدّينِ.

مرجعُ الضَّميرِ المُضافِ إليه الظَّرفُ في: ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

المُنكِرُ أحوجُ إلى القضاءِ والفَصْلِ من المُثبِتِ المُقِرّ

الضّميرُ في قولِه: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يحتملُ أن يعود على جميع المُختلفين في الكتابِ، وهذا يشملُ المؤمنين والكافرين؛ أيَ إنّ القضاءَ لو وقعَ، لفُصل بينهم بالحُكمِ العادلِ، سواء بمجازاةِ المؤمنين أو بمعاقبةِ الكافرين. وهذا المعنى هو الأظهرُ؛ لانسجامِهِ مع سياقِ الاختلافِ العامِّ في الآيةِ.

ويمكنُ حملُ الضَّميرِ على الكافرين وحدهم؛ أيَ إنّ القضاءَ كان سيأتي بالفصلِ بينهم بتعجيلِ العقوبةِ عليهم، لكنّ الكلمةَ الإلهيّةَ سبقتْ بإمهالِهم. وهذا التَّفسيرُ سائغٌ لغويًّا، لكنّه أضيقُ من الاحتمالِ الأوَّلِ.

والأرجحُ أن يعودَ الضَّميرُ على جميعِ المُختلفين؛ لأنّ السّياقَ يتحدَّثُ عن الاختلافِ في الكتابِ، وهذا الاختلافُ لا يقتصرُ على الكافرين فقط؛ بل يشملُ المؤمنين أيضًا الذين تمسَّكوا بالحقِّ، والكافرين الذين جحدوه؛ لكن إذا نظرنا إلى القضاءِ بمعنى العقوبةِ والعذابِ، فيمكنُ تخصيصُهُ - حينئذٍ - بالكافرين؛ لأنَّ المؤمنين لا يستحقّون العقوبةَ.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾:

القضاءُ شاملٌ عـــامٌّ لجميعِ صنوفِ النّاسِ

على اعتبارِ عودِ الضَّميرِ في: ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾ على فئةِ الكافرين فقط، ففي التّركيبِ إيجازٌ بالحذفِ على تقديرِ: (لقُضي بينهم وبين المؤمنين)، ولكثرةِ جريانِهِ على الألْسُنِ حُذِف لظهورِهِ، فإنّه يكثر أن يُقال: (بين كذا وبين كذا)، كما قال سبحانه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: 54][1]؛ أيْ: على وجودِ طرفيْن في البينيّةِ. وبهذا يتبيَّن أنّ إعادةَ الضَّميرِ في ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾ على جميعِ المُختلفين مؤمنين وكافرين، أجودُ وأحسنُ؛ لإغنائِهِ عن تقديرِ محذوفٍ.

المَجازُ في الظّرفيَّةِ:

القـضـاءُ بين المُتنازعين يُفرِّقُ بينهم في المكانِ والمكانةِ

الظّرفيَّةُ في قولِهِ: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ مجازيّةٌ، فـ(بين) ظرفُ مكانٍ يدلُّ على المُباينةِ والمُفارَقةِ والمفاصَلةِ بين شيئَيْن في المكانِ. والظّرفيّةُ هنا ليست مكانيّةً حسّيَّةً، فلا تشيرُ إلى موضعٍ أو مكانٍ؛ بل تُشير إلى علاقةِ الفصلِ والحُكم بين المُختلفيْن، فالمباينةُ في أصلِها معنويّةٌ وليستْ حِسّيَّةً، إلّا أن يُقال: إنّها تؤول إلى الحِسّيَّةِ في المكانِ، بفصلِ المؤمنين عن الكافرين في الموضعِ والمكانِ، فالمؤمنون إلى الجنّةِ والكافرون إلى النّارِ، ولكن هذا مُعتبرٌ وصحيحٌ باعتبارِ المآلِ، وأمّا قبل ذلك فالقضاءُ بينهم حاصلٌ من قبلِ تحقُّقِ هذه الأيلولةِ المكانيّةِ.

وأيضًا: المقصود بـ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ هو الفصلُ في أمرِهم بالحُكمِ الإلهيِّ، وليس أنّ هناك مكانًا مُعيَّنًا وقع فيه القضاءُ. فالظَّرفُ هنا يُستعملُ بمعنى الفصلِ بينهم في الاختلافِ؛ أيْ: تحديد المُحِقِّ والمُبطِلِ، وليس تحديدَ موقعٍ مكانيٍّ.

نكتةُ إيثارِ ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾ على (عليهم) في التّعبيرِ:

المؤمنُ يُقضَى لـه، والكافرُ يُقْضَى عليهِ

التّعبيرُ بـ ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾ بدلًا من (عليهم)، فيه تصويرٌ مجازيٌّ للقضاءِ وكأنّه شيءٌ يجري داخلَ نطاقِهم، مما يجعلُ الفصلَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 318.

بينهم أمرًا حتميًّا ومُؤثرًا فيهم جميعًا. المجازُ هنا يُشبّه النِّزاعَ بين المُتخاصمِيْن بمكانٍ يحيطُ بهم، والقضاءُ الإلهيُّ يتدخَّل داخلَ هذا النّزاعِ للفصلِ بينهم.

وأيضًا التَّعبيرُ بـ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾ بدلًا من (عليهم) يُعزِّز من عودِ الضَّميرِ على المُختلفين جميعًا، لا على الكافرين وحدهم؛ لأنّ قوله: (عليهم) يوهِم أنَّ القضاءَ خاصٌّ بالكافرين وحدهم؛ لأنّ القضاءَ للمؤمنين يكون لهم لا عليهم، ففيه أُنسٌ وتقويةٌ، لا تسلّطٌ وغلبةٌ. وأمّا ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾ فتجري على الفريقيْن، فهي أوسعُ في المعنى.

بلاغةُ الاستعارةِ في الظَّرفيَّةِ المَجازيّةِ في: ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾:

معاني الأحكامِ تـؤولُ إلى رُتَـبٍ حسّيّةٍ وجزاءاتٍ ماديّةٍ

في قولِه: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ الأصلُ في الظَّرفِ (بين) أن يدلّ على مكانٍ حِسّيٍّ يفصلُ بين شيئَيْن، كما يُقال: (جلستُ بين زيدٍ وعمرٍو).

في الآية في قوله: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ ليس المقصودُ مكانًا حقيقيًّا، وإنّما الفصل والحُكم بينهم في أمرِ الاختلاف، فكأنّ الاختلاف بينهم مُجسَّدٌ في صورةِ شيءٍ له حيّزٌ مكانيٌّ، وعليه: فقد تمَّ تشبيهُ النِّزاعِ والاختلافِ بين النّاسِ بشيءٍ له مكانٌ محدّدٌ، ثم حُذف المُشبَّهُ به (المكان الحسّي) ورُمز له بالظّرفِ ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾، وهذا ما يجعلُهُ استعارةً مَكنيّةً.

ولو قيل: (لقُضيَ في ساحةِ نزاعِهم) أو (لقُضي في موضعِ خلافِهم)؛ لكانت استعارةً تصريحيّةً، حيث يُصرَّح بالمُشبَّه به، لكن هنا تمّ الاكتفاءُ بالظَّرفِ ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾، ممّا يجعلُها استعارةً مكنيّةً، لأنَّ المُشبَّه به (المكان الحقيقيّ) غير مذكورٍ، وإنّما أُشير إليه ضمنيًّا بالظّرفِ.

الاستعارةُ التَّمثيليّةُ في تركيبِ: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾:

كـلُّ معـنًى له آثـارُهُ المُتجسِّدةُ في عالَمِ الشّعورِ والإحساسِ

جملةُ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ بأكملِها يمكن أن تُؤخذَ كاستعارةٍ تمثيليّةٍ، حيث يُشبّه حال المختلفين بحالِ خصومٍ في محكمةٍ بانتظارِ الحُكَمِ

العادلِ. فيمكن تخيُّل النّزاعِ والاختلافِ بينهم على هيئةِ خصومةٍ أو محكمةٍ يُنتظر فيها القضاءُ النهائيُّ، فكأنّ الآيةَ تُصوِّرُ ذلك الحالَ، وكأنّ هناك ساحةَ خصومةٍ وفصلٍ بين المختلفين بحكمٍ قاطعٍ.

هذا التّصويرُ يُشْبِهُ الأحوالَ الدُّنيويّةَ التي يُفصل فيها بين الخصوم بالقضاءِ، لكنّه هنا جارٍ في الفصلِ الإلهيِّ بين المُختلفين في الدُّنيا.

ومع ذلك فالأقوى بلاغيًّا هو اعتبارُ الظَّرفيّة في: ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾ استعارةً مَكنيَّةً، حيث صوّر النِّزاعُ بشيءٍ له مكانٌ، بينما الجملة كلّها (مجموع التّركيب) لا تخرجُ عن معناها الأصليِّ؛ بل تظل دالّةً على الحُكمِ الإلهيِّ.

وتظلُّ الاستعارةُ التَّمثيليّةُ مُمكنةً لِمَنْ ينظرُ إلى الآيةِ على أنَّها مشهدٌ تمثيليٌّ كاملٌ للفصلِ بين المُتخاصمين، خاصّةً إذا استحضر تشبيه حالِهم بحالِ المُتخاصمين في ساحةِ القضاءِ.

نكتةُ الإخبارِ عنهم بالشَّكِّ دونَ الإنكارِ أو الكفرِ:

الــشَّــكُّ بـريـدُ الكفرِ

جاء التَّعبيرُ عنهم بالشّكِّ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ﴾ للدّلالةِ بالأدنى على الأعلى في الحُكم؛ لأنّه إذا كان من أحوالِهم الشكُّ في الإيمانِ، وكان ذلك كُفْرًا، فأوْلَى منه في تقرير كفرِهم: حالُ تيقُّنِهم من الكفرِ؛ فلئلّا يُتوهّم أنّ الشَّكَّ في الإيمانِ والاستمرارَ عليه ليس مُؤثّرًا في حقيقةِ الإيمانِ بالانتفاءِ والزّوالِ؛ خصَّهُ بالذِّكْرِ؛ للتّنبيهِ على أنّ كلًّا من شكِّ الكافرِ أو يقينِه في إنكارِ قضايا الإيمانِ - يتساويان في المآلِ مِنْ نفي الإيمانِ وثبوتِ عدمِه[1]. فعبَّرَ بالشَّكِّ دونَ الكفرِ أو الإنكارِ صراحةً؛ ليُنَبِّهَ على أنّ الشَّكَّ في بابِ الاعتقادِ كالإنكارِ الجازمِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 246.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 180.

شَكُّ الكافرِ مُتجذِّرٌ فيه كالطّبْعِ والجِبِلَّة

المجازُ في وصفِ الشَّكِّ بالمُريبِ:

وصفُ الشَّكِّ بكونه مُريبًا في قوله: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ هو من وصفِ المعاني بصفاتِ العُقلاءِ والأعيانِ والذَّواتِ، فهو من المجازِ العقليِّ بإسنادِ ما هو لصاحبِ الشَّكِّ (الذّات) إلى الشَّكِّ نفسِه (المعنى)؛ لقصدِ المُبالغةِ بأنِ اشتُقَّ له من اسمِه وصفٌ، كأنّه قال: (كانوا في شَكٍّ مُشكِّكٍ) كقولِهم: (ليلٌ أليَل)؛ أيْ: مُتكاثِف الظُّلمةِ، فظلامُهُ ليس كسائرِ الظُّلماتِ[1].

الشَّكُّ ينخرُ في النَّفسِ حتّى يؤذيَها كما لو كان إنسانًا يُؤذي

الاستعارةُ في وصفِ الشَّكِّ بالمُريبِ:

ويصحُّ إجراءُ التَّركيبِ: ﴿شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ على الاستعارةِ بجَعْلِ الشَّكِّ كالإنسانِ، ثم ينسَبُ إليه ما هو من خواصِّ الإنسانِ وهو الإرابةُ، فيكون قد شبَّهَ الشَّكَّ بإنسانٍ يصحُّ أن يكون مُريبًا على وجهِ الاستعارةِ المَكنيَّةِ التَّخييليَّةِ[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الشَّكُّ والرَّيبُ:

الرّيبُ: هو الشَّكُّ المصحوبُ بالقَلَقِ والاضطرابِ، ولذا جعله ابنُ فارسٍ مدلولًا به على الشَّكِّ والخوفِ، فهو شكٌّ يُخيفُ ويُقْلِق. فهو أخصُّ من مُطلَقِ الشَّكِّ؛ إذ إنَّ فيه قلقًا مع الشَّكّ، والغالبُ أنَّ الرِّيبةَ لا تأتي إلّا في الأمورِ المُهمّة التي يُكتَرَثُ لها، وذلك أنّ الأمرَ المشكوكَ فيه قد يكونُ مُهمًّا، فيورِثُ الشَّكَّ فيه انزعاجًا فيكون رَيْبًا. أو لا يكون مُهمًّا فلا يُقَدِّمُ الشَّكُّ فيه ولا يُؤَخِّر[3]. والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمَأْنينةِ[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 594، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 318.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 591.
(3) ابن عُثيمين، تفسير سورة فُصِّلت، ص: 276.
(4) المُنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/ 486.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أفعالُ اللهِ قائمةٌ على صراطٍ مستقيمٍ وقانونٍ قويمٍ

لمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ اختلافَ النّاسِ في شأنِ الأنبياءِ والوحي، وأنّه لا مانعَ لهم من المؤاخذةِ والحسابِ إلّا أن يبلغوا الأجلَ المُسمَّى لذلك؛ ذَكَرَ هنا في هذه الآيةِ القانونَ العامَّ والأصلَ الثّابتَ الذي ينبني عليه الحسابُ والجزاءُ وهو قولُهُ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾: (عبد) أصلانِ صحيحانِ، كأنَّهما مُتضادّانِ، الأوَّلُ يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ، والآخَرُ على شِدَّةٍ وغِلَظٍ[1]. والمعنى المحوريُّ: حَصْرٌ شديدٌ للشّيئِ يجعلُهُ رقيقًا رَخْوًا ناعمًا غيرَ صُلبٍ ولا خَشِنٍ[2]، ومن ذلك: العُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّلِ، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنّها غايةُ التّذلّلِ، ولا يستحقّها إلا مَن له غايةُ الإفضالِ، وهو اللّه تعالى[3]. ومن ذلك: (العِبادُ) و(العَبيدُ) جمع (عبْد)، والمعنى في الآيةِ واضحٌ.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

اللهُ غنيٌّ لا يتأثّر بالمنافع ولا بالمضارّ، إنّما يتأثّر المخلوقُ

من عمِلَ عملًا صالحًا فأطاعَ اللّهَ وآمنَ برُسُلِهِ ولم يُكذِّبْهم، فثوابُ ذلك راجعٌ إليه، ونفْعه خاصٌّ به[4]؛ فاللّهُ لا ينفعُهُ العملُ الصّالحُ من أحدٍ، ومَنْ عَمِلَ عملًا سيّئًا فضررُ ذلك راجعٌ إليه، فاللّهُ لا تضرُّهُ معصيةُ أحدٍ من خَلْقِهِ، وسيُجازي كلًّا بما يستحقُّهُ، وما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(2) محمد جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (عبد).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (عبد).
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 262.

ربُّك - أيُّها الرَّسولُ - بظلّامٍ لعبيدِهِ، فلن ينقصَهُم حسنةً، ولن يزيدَهُم سيّئةً[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ﴾ ممّا قبلها:

مَن علِمَ أنّ عَملَه لنفسِهِ اجتهدَ فيه

جملةُ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ تذييليّةٌ تُفيد التّوكيدَ والتّقريرَ للمعنى السّابقِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[2]. وهذا التّذييلُ أفاد التّعليلَ والتّوكيدَ والبيانَ.

فجملةُ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ في موقعِ التّعليلِ الضِّمنيّ لحكمةِ الاختلافِ الذي وقعَ في بني إسرائيلَ حول كتابِ موسى، وكذلك لحكمةِ تأخيرِ القضاءِ بينهم، كأنّه علّلَ ذلك بقولِه: إنَّ الاختلافَ لا يضرُّ إلا مَن أساء، ومَن عمل صالحًا فنفعُ عملِه لنفسِه.

والتَّذييلُ بالجملة أفادَ التَّوكيدَ أيضًا لمضمونِ جملةِ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ قبلها، فبعد ذِكْرِ الشَّكِّ والاختلافِ؛ جاء هذا البيانُ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ليُؤكِّدَ أنَّ وقوعَ الاختلافِ بين النّاسِ في الرِّسالاتِ، لن يمرّ عبثًا دون قضاءٍ وإنْ تأخَّر القضاءُ ليوم الحسابِ لكلمةٍ سبقتْ من ربِّك، بل هو خاضعٌ لسُنَّة الجزاءِ الإلهيِّ العادلِ، فمَن عمِلَ صالحًا من أولئك المُختلفين فصدَّق وآمنَ فلنفسِه، ومَنْ أساءَ بتكذيبِه للوحي والرَّسول فعلى نفسِه وِزْرُها، الكلّ سيُحاسَب: المؤمنُ والكافرُ.

وهذه الجملةُ التَّذييليَّة ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في موقع البيانِ أيضًا، فيصحّ أنْ نجعلها استئنافًا بيانيًّا وقع جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ افتُرِضَ وُرودُهُ في ذهنِ السّامعِ بعد قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ

(1) مركز تفسير، المُختصَر في التّفسير.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 17، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 382، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 318.

﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾، كأنّه قيل: (ما مصيرُ المختلفين؟ وما قاعدةُ الجزاءِ عند اللّهِ؟)، فجاء البيانُ بهذه القاعدةِ العامّة: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

معنى ﴿مَّنۡ﴾ في: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾:

تحديدُ الجزاءِ خاضعٌ لاختيارِ العَبْدِ

﴿مَّنۡ﴾ في قوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ شَرطيّةٌ أو موصولةٌ، فباعتبارها شَرطيّةً، فالفاءُ في قوله: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ هي الرّابطةُ للجزاءِ بالشَّرط، وباعتبارها اسمَ موصولٍ، فالفاءُ لِعطْفِ مدخولِها وهو ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ على صِلةِ الموصولِ في قولِه: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، أو الفاء زائدةٌ لِتأكيدِ إلحاقِ مدخولها: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ بجملةِ الجزاءِ، لِشبَهِها بها، لِكونِ الموصولِ مُضمَّنًا معنى الشَّرطِ، وباعتبارِها زائدةً تكون جملة ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ مُستأنفةً ممّا قبلها مع تمامِ المناسبةِ واتِّصال المعنى[1].

غرضُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ: ﴿مَّنۡ عَمِلَ﴾:

الشَّرطُ يُؤكِّد على أهمّيةِ العملِ الصّالحِ كخيارٍ يُسْتَنْهَضُ العبدُ إليه

التَّعبيرُ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لإظهارِ الكلامِ في صورةِ الوعدِ الذي يتحقَّقُ باستيفاءِ شَرْطِه من العملِ، وأكثر ما يُحفِّزِ النّفوسَ، ويبعثُها على المَنْشَطِ والتّرقُّبِ والجاهزيّةِ في كلِّ وقتٍ هو أنْ ترتبِطَ بموعودٍ يؤزّها إلى العملِ بمُقتضاه، والقيامِ بشرطِهِ من الهدايةِ والإخلاصِ.

الغرضُ من تنكيرِ: ﴿صَٰلِحٗا﴾:

لا حقيرَ ولا صغيرَ في العملِ الصّالحِ، وإنْ قلّ في عينِ العاملِ له

﴿صَٰلِحٗا﴾ في قولِهِ: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ مفعولٌ به، أو صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُهُ: (عمل عملًا صالحا)[2]، والتّنكير فيه؛ للاتّساعِ في أبوابِ الصلاحِ فهي كثيرةٌ لا تكادُ تنحصرُ؛ فالتنكيرُ

(1) السَّمين، الدُّر المَصون: 6/ 276، ودرويش، إعراب القرآن: 4/ 308، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 6/ 261.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 575.

إذن للشُّمولِ والعموم. وقد يكون للتَّنويعِ، وهو لا يخرجُ عن المعنى السّابقِ؛ فالمُرادُ هو شمولُ أنواعِ العملِ الصّالح جميعًا. والتّنكيرُ - أيضًا - يسوغُ فيه معنى التّقليلِ، فكلُّ عملٍ صالحٍ وإنْ قلَّ لا يضيعُ سُدًى؛ بل لا بدّ أن ينتفع به الإنسانُ وإن صَغُر، ولم يَقُلْ: (مَنْ عملَ العملَ الصّالح)؛ لأنّ في التَّنكيرِ إيجازًا دونَ إخلالٍ بالشُّموليَّةِ ودون زيادةٍ في الألفاظِ.

ما من عمل إلّا وله عاقبةٌ ونتيجةٌ من جنسِهِ

عِلّةُ اقترانِ الجوابِ بالفاءِ:

اقترنَ جوابُ الشَّرطِ بالفاءِ وجوبًا في قولِهِ: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ لكونِ الجوابِ جملةً اسميّةً، فلا تصلحُ أن تكون شرطًا، وكلُّ جوابٍ لم يصلح أن يقع موقعَ الشّرطِ، وجبَ اقترانُه بالفاءِ. والفاءُ هنا في الجوابِ في قولِه: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أفادَ بأنّ ما بعدها مُسبَّبٌ عمّا قبلها[1]؛ أيْ: فنفْعُ عمله لنفْسِه. فعملُهُ الصّالحُ سببٌ في منفعتِهِ نفْسَه. وفي هذا الموضعِ تحديدًا: ليست هذه مهمّةَ الفاءِ فحسب؛ بل تفيدُ - أيضًا - في تعيينِ الجزاءِ وإيضاحِ المعنى، لأنّ حذفها يؤدّي إلى الإلباسِ وعدم اكتمالِ المعنى؛ لأنّه لو قيل بحذفِ الفاءِ: (مَنْ عَمِلَ صالحًا لنفسِهِ) لكان (لنفسه) مُتعلّقًا بـ ﴿صَٰلِحٗا﴾، وبقي الكلامُ غيرَ تامٍّ، فلمّا جيءَ بالفاءِ اتّضح القصدُ وتمَّ المعنى[2].

معنى اللّامِ ودلالتُها في: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

الحسابُ والجزاءُ قائمٌ على الفرديَّةِ، فكلٌّ مرهونٌ بعملِهِ

اللّامُ في قولِهِ: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ حرفُ اختصاصٍ أفاد معنى المِلْك والاستحقاق، كأنّه قال: ثوابُ العملِ الصّالح لَه استحقاقًا وامتلاكًا، كما يُقال: الغلامُ له والعبدُ له، أو اللّامُ للتَّعليلِ؛ أيْ: فلأجْلِ نفسِه؛ أيْ: لِنَفْعِها. أو للعاقبةِ والصَّيرورةِ باعتبارِ أنّ نَفْعَ النَّفسِ بالعملِ الصّالحِ أو إضرارها بضدِّهِ قد لا يكونُ غرضًا

(1) ابن يعيش، شرح المُفصّل: 5/ 111.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 106.

للفاعلِ، وهو المؤمن أو الكافر، فيكون النّفعُ أو الإضرارُ مُترتّبًا عن فعلِ الفاعلِ لا مُعلَّلًا به[1].

معنى (على) ودلالتُها في: ﴿فَعَلَيۡهَاۗ﴾:

السّيّئةُ حِمْلٌ ثـقـيـلٌ عـلى النّفْسِ

(على) في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وفي التَّعبير بـ(على) في جانبِ الإساءةِ تصويرُ معنى الخصومةِ بين المُسيءِ ونفْسِه، كأنّه بإساءتِه قد استعلى على نفْسِه بالخصومة فأَوْبَقَها وأرداها، فكان بذلك هو عليها، وكانت هي تحتَه مهزومةً مقهورةً[2]. وفي التّركيب: استعارةٌ تمثيليّةٌ، بتشبيهِ حالِ المُسيءِ مع نفسِه، بحال مَنِ استعدى نفْسَه فهزَمَها بجنايةِ السّوءِ وأمْكَن منها به. وفي ذلك تشبيهٌ للسّوءِ بأداةٍ مؤذيةٍ أمْكَنَها في نفسِه للاعتداءِ والإيذاء، فصارت ثابتةً عليها كما يثبتُ السّلاحَ القاتلُ على رقبةِ الضحيّة فيحزّها، وذلك التّشبيهُ استعارةٌ مَكنيَّةٌ، كأنّه قيل: (يفتك نفسَه بالإساءة فتْكَ السّلاحِ بمَنْ أصابَه).

بلاغةُ الطِّباقِ مع العدولِ في النَّظْمِ:

الـحـسـنـةُ يُـثـابُ عليها بـعـمـلِ القلبِ والـجـوارحِ، والسّيئةُ بعملِ الـجـوارحِ فحسب

الطِّباقُ في قولِه: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾... ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ﴾ يحملُ قيمةً بلاغيّةً بديعةً؛ حيث جاء قولُهُ: ﴿عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ في مقابلةِ ﴿أَسَآءَ﴾، ولم يَقُلْ: (عَمِلَ سيّئًا)، وهذا العدولُ في النَّظْمِ يُضيفُ للطِّباقِ معنًى أوسعَ وأدقَّ من مُجرَّدِ التَّضادِّ الظّاهريِّ.

فالطّباقُ هنا يُقرِّرُ المسؤوليّةَ الفرديّةَ وشموليّةَ الجزاءِ باستيعابِ الطَّرَفَيْنِ المُتقابلَيْنِ في عملِ الخيرِ أو عملِ الشَّرِّ، فمَنِ اجتهدَ في الخيرِ؛ فهو لنفسِه، ومن أهملَ أو أساءَ؛ فهو على نفسِه.

ولو قيل: (مَن عَمِلَ صالحًا فلنفسه، ومَنْ عَمِلَ سيّئًا فعليها) لأوهَمَ أنَّ الإساءةَ مُنحصرةٌ في قصدِ العملِ السَّيِّئِ وملابستِه. لكنِ

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 217، 259.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/ 6261.

استعمال ﴿أَسَآءَ﴾ بدلًا من (عمل سيِّئًا) يُفهم منه أنّ الإساءةَ أوسعُ من عملِ السّوءِ؛ فقد تقعُ الإساءةُ بالتَّركِ كما تقعُ بالفعلِ، فمجرَّدُ تركِ العملِ الصالحِ يُعدُّ إساءةً، وليس فقط فعلُ الشَّرِّ والتلبُّسُ بالسّوءِ؛ أيْ إنّ الإنسانَ قد يكون مُسيئًا بالإهمالِ والتَّقصيرِ بتركِ العملِ الصّالحِ، لا بارتكابِ المعاصي فحسب. وهذا من دِقَّةِ التَّعبيرِ القرآنيِّ، حيث لا يَستخدِم الطّباقَ لُمجرّدِ الزَّخرفةِ الصّوريَّةِ في ظاهرِ التَّركيبِ؛ بل لتحقيقِ غاياتٍ بلاغيّةٍ وفكريّةٍ دقيقةٍ.

الطّباقُ بين ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ و﴿أَسَآءَ﴾ يُشوِّقُ السّامعَ ويُنهضُه للاستشراف والتّساؤلِ: لماذا لم يَقُلْ: (مَن عَمِلَ صالحًا ومَنْ عَمِلَ سيِّئًا؟)، لماذا استعملَ ﴿أَسَآءَ﴾ بدلًا من (عمل سيّئًا)؟ فيتكشّف له أنّ الإساءةَ ليست مجرّد عملٍ سيّئٍ، بل قد تكون تركًا للخير أيضًا.

وقد يكون العدولُ في قولِه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (ومَن عملَ سيّئًا)؛ لتقرير أنّ ثوابَ العملِ الصّالحِ يتحقّق بتحقُّقِ النّيّةِ إليه، وأمّا السّيّئةُ فلا تُكتب سيئةً بمجرَّدِ انتوائها والهَمِّ بها إلّا بفعلها، فإنْ لم يفعلها لم تُكتب، فكان التّعبيرُ بالعملِ في قولِه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ إشارةً إلى معنى القصدِ والهمِّ والعزمِ والإرادةِ والنّيَّةِ، وكان قولُهُ: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ إشارةً إلى حصولِ السَّيئةِ بالفعلِ، وليس مُجرَّد تحقُّقِها في عمَلِ القلبِ الذي هو القصدُ والهمُّ. فبيَّنَ بذلك أنّ الحسنةَ يُثاب عليها بعملِ القلبِ (قصدًا ونيّةً) وبعملِ الجوارحِ، وأمّا السَّيئةُ فيُجازَى عليها بعملِ الجوارحِ فحسب.

موقعُ جملةِ ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ ممّا قبلَها:

جزاءُ اللهِ للنّاسِ يـنـبـنـي عـلـى كمالِهِ في الذّاتِ والصِّفاتِ

جملة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ مُقرِّرٍ لمضمون ما قبله، كأنّه قيل: (مَنْ عملَ صالحًا فلنفسه، ومَن أساءَ فعليها، وما ربّك بتاركٍ مُجازاةَ أحدٍ أصلًا، خيرًا كان أو شرًّا، وما ربّك بظلّامٍ

للعبيدِ)(1). ويصحُّ أن تكون الواوُ للاستئنافِ، والجملةُ تذييلٌ تنبني عليه قاعدةُ الجزاءِ في قوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، فالجملةُ كالأصلِ الثّابت الّتي تنطلقُ منه هذه القاعدةُ(2).

دلالةُ النَّفي بـ (ما):

كلُّ (ما) في القرآنِ حجازيَّةٌ لا تميميَّةٌ

(ما) النّافيةُ في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ هي الحجازيّةُ تعملُ عملَ (ليس)، وكل (ما) في القرآن فهي حجازيّةٌ(3). وهي تفيدُ نفي الحالِ عند الإطلاقِ، وإذا قُيِّدتْ فهي بحسبِ ذلك التَّقييد، ولذا فهي تُفيد هنا نفيَ الاستقبالِ، واستمرارَ النَّفي، فنَفْيُ الظُّلمِ عن اللّهِ مُستمرٌّ دائمٌ(4).

الغَرَضُ من الإضافةِ في: ﴿رَبُّكَ﴾:

الخطابُ بالرّبوبيّةِ لا يخلو أبدًا من إيناسِ المُخاطَبِ وتطمينِهِ

التعبيرُ بالربوبيّةِ مع إضافتِها لضميرِ خطابِ الرّسولِ ﷺ جريًا على نَسَقِ النَّظْم في السّياقِ السّابقِ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ [فُصِّلت: 38]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، وجميعها في مقام تسلية رسول اللّه ﷺ وتثبيته، فقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ تعزيزٌ لهذه التّسلية مع ما فيها من التّشريفِ والإكرامِ الظّاهرِ لشخصِ النّبي ﷺ والتّنويهِ بمقامِه.

طمأنةُ الرّسول بأنّ دعوتَه قائمةٌ على العدلِ المُطلَقِ

التّعبيرُ بقولِه: ﴿رَبُّكَ﴾ فيه ربطٌ للرِّسالة والنّبوّة بمبدأ العدلِ في الجزاءِ، فكأنّه - سبحانه - يقولُ لرسولِه ﷺ: رسالتُكَ قائمةٌ على العدلِ، فلا ظُلمَ في شرعِ اللّهِ. وهذا مفهومٌ من الإضافةِ إلى ضميرِه ﷺ.

إقناعُ المُكذِّبين بعدالةِ الجزاءِ الإلهيِّ؛ لأنّ ربَّ محمّدٍ ليس بظلّامٍ

إضافةُ (ربّ) إلى النَّبيِّ ﷺ تلفتُ الانتباهَ إلى أنّ الأمرَ قاطعٌ محسومٌ: هذا هو الربُّ الذي أرسلكَ، وهو المُنَزَّه عن الظُّلم، فلا مجالَ لاعتراضِ المُعانِدين على عدالةِ الجزاءِ.

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 210.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 12/ 382.
(3) ابن عُثيمين، تفسير سورة فُصِّلت، ص: 280.
(4) السّامرّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 252.

تأكيدُ العلاقةِ بين الرُّبوبيَّةِ والتَّدبيرِ العادِلِ

الخطابُ بالرُّبوبيَّة في قولِهِ: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ تعني التَّدبيرَ والرِّعاية، فمِنْ كمالِ الرُّبوبيّةِ أن يقعَ الحُكمُ بالعدلِ، فلا يظلمُ اللّهُ أحدًا؛ فاختيارُ ﴿رَبُّكَ﴾ بدلًا من (اللّه)، أو (الرحمن) يلْفِتُ إلى أنّ الذي يُدبِّرُ الأمرَ ويُربّي الخلقَ لن يكون ظالمًا لهم.

معنى الباءِ في: ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ صلةٌ زيدتْ لتأكيدِ استحالةِ الظُّلم في حقِّ اللّهِ، فالباءُ مُؤكِّدةٌ لنفي الخبرِ عن اللّهِ سبحانه، وما أكثر ما يقترنُ خبرُ (ما) - في القرآنِ - بالباءِ الزّائدةِ للتَّأكيد[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ: (ظلام):

وُرودُ النّقصِ على الذّاتِ الكاملةِ بالِغٌ وعظيمٌ

صيغةُ (ظلّام) في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ هي صيغةُ نِسبةٍ لا صيغةُ مبالغةٍ، وهناك وجهٌ حسَنٌ أشار المُفسِّرون إليه[2]، وهو أنّ اللّهَ سبحانه يُحسُن أن ينتفي عنه الظّلمُ والنَّقصُ على جهةِ المبالغةِ والتّكثيرِ؛ لأنّ كلَّ نقصٍ في حقِّهِ سبحانه - مهما صغُر - هو بالنّسبة إلى ذاتِهِ العَليّةِ بالغٌ وعظيمٌ؛ فالصِّفاتُ على قَدْرِ الذّواتِ، فالتحاقُ النَّقصِ به بأيّ وجهٍ من الوجوهِ هو أعظمُ وأبلغُ في القدحِ والذمِّ مِنْ أعظم وأشدِّ أنواعِ النَّقائصِ التي تلتحقُ بسواه، فثبتَ أنّ كلَّ نقصٍ في حقّ اللّهِ ولو كان ضيئلًا هو أبلغُ ما يكون وأعظمُ ما يكون؛ ولتلك العِلّة وهذا الأصلِ نفى اللّهُ عن نفسِهِ الظّلمَ ولو في مثقالِ ذرّةٍ، ولو في القِطْميرِ والنَّقيرِ والفَتيلِ؛ لأنّ ذلك كلَّه في حقِّهِ وبالنّسبة لذاتِهِ العَليَّةِ هو من أبلغِ وأشنعِ ما يكون. فثبَتَ بذلك أنّ نفيَ الظُّلم عن اللّهِ ببناءِ المبالغةِ؛ لتقريرِ هذا المعنى الشّريفِ الذي يزيدُ من إجلالِ العبيدِ لمقامِ الرَّبِّ الحميدِ ﷻ.

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 254.

(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 210، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 319.

سِرُّ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ: ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾:

العبيدُ مقهورون لا يملكون اعتراضًا ولا حيلةً

قُيّد نفيُ الظُّلم بالعبيدِ في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ لأنَّ العبيدَ هم أحوجُ ما يكونُ إلى عدلِ اللّه، فلو لم ينتفِ الظُّلمُ عن اللّهِ - وحاشاه - لهلكوا وضاعوا، ولعلّ هذا هو سِرّ التّعبيرِ بـ(العبيدِ) دون (العباد)، وهو إبراز شدّةِ ضعفِهم؛ لشدّةِ احتياجهم لعدلِ اللّهِ وانتفاءِ الظّلمِ عنه سبحانه. فعبّر اللّهُ عنهم بأضعفِ حالاتِهم، في مواجهةِ كمالِه سبحانه وانتفاءِ النّقصِ عنه، كأنّه قال: العدلُ أنفعُ ما يكون للعبيدِ لأنّهم أحوجُ ما يكونون إليهِ[1]. وفي التّعبيرِ بالعبيدِ إيماءٌ لطيفٌ: وهو أنّ أكثر مَن يقعُ عليه الظُّلم من النّاس هم العبيدُ؛ لضَعفِهِم وقلّةِ حيلتِهِم وعدمِ اعتراضِهِم على الظّلم، فمَنْ يظلمُهُم هو في مأمَنٍ منهم في الغالبِ والعادةِ، فكأنّ اللّهَ الجليلَ يقول: إنّ اللّهَ لا يظلمُ أحدًا من خلقه أبدًا ولو كانوا عبيدًا ضعفاءَ لا ينهضون لمعارضةِ مَنْ يظلمُهُم، فالتّعبيرُ بالعبيدِ فيه تعضيدٌ وتقويةٌ للمبالغةِ في نفيِ الظُّلمِ عنه سبحانه.

وقيل: مدلولُ (عبيد) هو مدلولُ (عباد) سواء، وحَسُنَ مجيءُ (عبيد) هنا لاطّرادِ الفواصلِ، فالفواصل قبله: ﴿حَمِيدٖ﴾، ﴿بَعِيدٖ﴾، والفاصلة بعده: ﴿شَهِيدٍ ٤٧﴾ [فصلت: 47][2].

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 1/ 461، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 230، والبقاعيّ، نَظْمُ الدَّرر: 17/ 210.

(2) السَّمين، الدُّر المَصون: 3/ 274، 275.

الجُزْءُ
الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

﴿۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧﴾ [فصلت: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مـيـقـاتُ يـوم الـحـسـابِ والـجـزاء مـردُّه إلى الله تعالى، لا إلى غيره

بعد أنْ بيَّنت الآيةُ السّابقةُ أنَّ اللّه سيحاسب النّاسَ يوم القيامة على ما عملوا من حسناتٍ وسيِّئاتٍ حسابًا عادلًا، لا يشوبُه شيءٌ من الظُّلم؛ ناسب أن تُجيب هذه الآيةُ عن السُّؤال - الَّذي سأله بعضُهم عن موعد هذا اليوم وتوقيته - ببيان أنَّ اللّه تعالى اختصَّ نفسه بعلم عدَّة أمورٍ لا يحيط بها أحدٌ غيرُه، منها يومُ القيامة الَّذي تُجزى فيه كلُّ نفسٍ بما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، من غير ظلم أو افتراءٍ[1]، فاتِّصافُه تعالى بالجزاء، وأنَّه حكَمٌ عدلٌ ليس بظلّامٍ للعبيد، باعثٌ على أنْ تتشوَّق النُّفوس لمعرفة الوقت الَّذي يقع فيه هذا الجزاء[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرَدُّ﴾: (ردد) أصلٌ واحِدٌ، وهو رَجْعُ الشَّيءِ، تَقولُ: رَدَدْتُ الشَّيءَ أَرُدُّه رَدًّا[3]، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيء بذاته، أو بحالةٍ من أحواله، فمِن الرَّدِّ بالذّات قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومن الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قوله: ﴿يَرُدُّوكُم عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149]، ومِن هذا الرَّدُّ إلى اللّه تعالى، نحو قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: 36][4]، ومعنى (الرَّدِّ) في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 314، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 5.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 412.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رد).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 59، والراغب، مفردات القرآن: (رد).

الآية: "الإرجاعُ، وهو مستعملٌ لتفويض علم المذكور في الآية إلى الله والتبرُّؤ من أنْ يكون للمسؤول عِلمٌ به، فكأنَّه جيء بالسُّؤال إلى النَّبيِّ ﷺ، فردَّهُ إلى الله"[1].

2) ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾: (ثمر) أصلٌ واحِدٌ، وهو شَيءٌ يَتولَّدُ عَن شَيءٍ مُتَجَمِّعًا، فالثَّمَرُ مَعروفٌ، يُقالُ: ثَمَرَةٌ وثَمَرٌ وثِمارٌ وثُمُرٌ، والشَّجَرُ الثّامِرُ: الَّذي بَلَغَ أوانَ يُثْمِرُ، والمُثمِرُ: الَّذي فيهِ الثَّمَرُ[2]، والثَّمَرُ: اسمٌ لكلِّ ما يتطعَّم من أحمال الشَّجر، واحدته: ثَمَرَة، والجمع: ثِمار وثَمَرات، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 22]، وقوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: 99][3].

3) ﴿أَكۡمَامِهَا﴾: (كمم) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على غِشاءٍ وغِطاءٍ، مِن ذَلِكَ الكُمَّةُ، وهيَ: القَلَنْسوةُ، والكُمُّ: كُمُّ القَميصِ، يُقالُ مِنهُ كَمَمتُهُ، أي: جعَلْتُ لَهُ كُمَّيْنِ، والكِمُّ: وِعاءُ الطَّلْعِ وما يُغَطّي ثَمَرَهُ، والجَمْعُ: أكمامٌ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾، وقال: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾ [الرحمن: 11][4]، وأكمام النَّخلة: ما غَطَّى جُمّارَها من السَّعَف واللّيف، وكلُّ ما أخرجَتْهُ النَّخلة؛ فهو ذو أكمام[5].

4) ﴿شُرَكَآءِي﴾: (شرك) أصلانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ على مُقارَنَةٍ وخِلافِ انفرادٍ، ومنه: الشِّرْكَةُ، وهو أن يَكونَ الشَّيءُ بَينَ اثنَينِ لا يَنفرِدُ بِهِ أحَدُهُما، يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ؛ إذا صِرْتَ شَريكَهُ، وأشرَكْتُ فُلانًا؛ إذا جَعَلْتَهُ شَريكًا لَكَ، قالَ الله جَلَّ ثَناؤُهُ في قِصَّةِ موسَى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 32][6]، وجمعُ الشَّريكِ شُرَكاءُ، والشُّركاء في الآية: الأصنامُ، وُصِفوا بالشُّركاء لاعتقاد المخاطَبين ذلك[7].

5) ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾: (أذن) أصلانِ أحَدُهُما: العِلْمُ، تَقولُ العَرَبُ: قَد أذِنْتُ بِهَذا الأمْرِ، أي: عَلِمْتُ، وآذَنَني فُلانٌ: أعْلَمَني، والمَصدَرُ الأَذْنُ والإيذانُ، وفَعَلَهُ بِإذْني، أي: بِعِلْمي، ويَجوزُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 25 (بتصرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمر).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (ثمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كم)، والراغب، مفردات القرآن: (كم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كمم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 151.

بِأَمْري[1]، والإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64]، أي: بإرادته وأمره، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 166][2]، وقولُه: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ معناه: أَخْبَرْناكَ وأَعْلَمْناكَ[3].

6) ﴿شَهِيدِۭ﴾: (شهد) أصلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلام، مِن ذَلِكَ الشَّهادَةُ، يُقالُ: شَهِدَ يَشهَدُ شَهادَةً[4]، والشَّهيدُ يقال لِلشَّاهِدِ، والمُشاهِدِ للشَّيء، قال تعالى: ﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق: 21]، أي: من شهد له وعليه، وقال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: 41][5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كُلُّ ما يُقال عن المستقبل مِن باب الحدس والتَّخمين، لا مِن باب العلم واليقين

تُقرِّر الآيةُ أنَّ العلم بجواب السّائلين عن ميقات يوم القيامة وموعده الدَّقيق يرجع إلى الله تعالى وحدَهُ، وليس إلى أحدٍ غيرِه، فلا يمكن لأحد معرفةُ ذلك اليوم، ولا يستطيع بشرٌ - مهما كان - التَّنبُّؤَ بموعدِه؛ لأنَّ الله تعالى اختصَّ نفسَه بعلمه، واختصَّ نفسَه كذلك بعلم ما يقع في المستقبل مِن أحداثٍ، كموعد خروج الثِّمار من أكمامها؛ لأنَّه الخالق لها، وكذلك نوع ما تحمل كلُّ أنثى، أذكرٌ هو أم أنثى؟ أناقصٌ أم كامل؟ وموعد وضعها وولادتها، فمهما ارتقى العلمُ؛ فهو لا يستطيع الجزم بالمواقيت الدقيقة لتلك الأمور، وكلُّ ما يقولُه بعضُ النّاس عن المستقبل؛ فهو من باب الحدس والتَّخمين، لا من باب العلم واليقين[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (أذن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 7.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (شهد).
(6) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 350.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

الحديثُ عن الحساب والجزاء يثير التَّساؤل عن ميقاته

جاءت جملة: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لشبه كمال الاتِّصال الَّذي تُجيب فيه الجملةُ المفصولةُ عن سؤال يثيره قولُه تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: 46] عن موعد ذلك وميقاته، فتأتي الجملة الثانيةُ لتوضِّح أنَّ الموعدَ الدَّقيقَ لساعة الحساب والجزاء مردُّه إلى اللّه لا إلى أحدٍ سواه، ولتُفصَل عن الأولى كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال[1].

سرُّ تقديمِ شبه الجملة: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

علمُ السّاعةِ مُفوَّضٌ إلى الله تعالى لا إلى الرسول ولا إلى غيره

(إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ لانتهاء الغاية[2]، وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ على الفعل ومعموله؛ للدَّلالة على اختصاص اللّه تعالى بعلم وقتِ السّاعة الَّتي يقوم فيها النّاس للحساب والجزاء، وموعدها لا يتعدّاه ذلك إلى أحدٍ غيره، ولو كان رسول اللّه، وهو قصرٌ إضافيٌّ يفيد القلب، والمعنى: "إلى اللّه تَعالَى يُفَوَّضُ عِلْمُ السّاعَةِ لا إلَيَّ"[3].

دلالةُ التَّعبير بالضَّمير بدلًا من الاسم الظاهر:

اختصاصُ الله تعالى نفسَه بعلم الساعة فيه مصلحةٌ أكيدةٌ تعودُ على خلقِه

الضَّميرُ في ﴿إِلَيۡهِ﴾ يرجع إلى اسم الجلالة المُعبَّر عنه بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]، أوثِرَ التَّعبير به جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظاهر الذي سبق ذِكرُهُ بالضَّمير، ولما يفيده البيانُ بالضَّمير من استحضار المُتحدَّثِ عنه وتعيينه تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى غيره، والمعنى: "إلى

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 314، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 5.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 412.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 5.

ربِّك المُحسنِ إليك يرجع علم السّاعة لا إلى أحد غيره"[1]، يُزاد على ذلك أنَّ عود الضَّمير على اسم الرَّبِّ الذي يعني: "المتكفِّل بمصالح خَلقِه"[2]، فيه دلالةٌ على أنَّ اختصاص اللّه تعالى نفسَه بعلم موعد السّاعة وزمانها فيه مصلحةٌ أكيدةٌ تعود عليهم، تتمثَّل في إثارتهم إلى الاستعدادِ الدّائم لها، ومِن ثَمَّ يفوزون فيها، وينجون من أهوالها.

بلاغةُ الرَّدِّ بطريق الأسلوب الحكيم:

الاستعدادُ للساعة أولى بالاعتناء من السؤال عن وقتها

سبق القولُ بأنَّ قوله تعالى: ﴿۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ يعدُّ ردًّا على سؤال المشركين لرسول اللّه عن وقت الحساب وزمانه، وقد اتَّبع البيانُ القرآنيُّ في الجواب عن هذا السُّؤال طَريقَ الأُسلوبِ الحَكيمِ، الَّذي يعني: "تلقّي المخاطَب بغير ما يترقَّب بحمل كلامه على خلاف مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه الأولى بالقصد، أو السّائل بغير ما يتطلَّب بتنزيل سؤالِه منزلةَ غيرِه؛ تنبيهًا على أنَّه الأولى بحاله أو المهم له"[3]، والمعنى: الأجْدَرُ أن تَعْلَموا ألّا يَعْلَمَ أحَدٌ مَتَى السّاعَةُ، وأنْ تُؤْمِنوا بِها، وتَسْتَعِدّوا لَها، ومِثْلُهُ قَولُ النَّبيِّ ﷺ عندما سَألَهُ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمينَ: مَتَى السّاعَةُ؟ فقالَ لَهُ: «ماذا أعْدَدْتَ لَها؟»[4]، أيْ: استِعْدادُكَ لَها أوْلَى بِالاعتِناءِ مِنْ أنْ تَسألَ عَن وقْتِها[5].

نكتةُ إيثارِ فعل الرَّدِّ مضارعًا مبنيًّا للمفعول:

كلُّ مَنْ يُسأل عن موعد السّاعة سَيَرُدُّ أمرَها إلى الله تعالى

عبَّر النَّظمُ الكريم عن إرجاع العلم بأمر السّاعة إلى اللّه تعالى بالفعل ﴿يُرَدُّ﴾ مضارعًا؛ لِما يفيده المضارعُ من الدَّلالة على تجدُّد الرَّدِّ إلى اللّه؛ كلَّما تجدَّدَ السُّؤالُ، وتكرَّر، وأوثِرَ التَّعبيرُ به مبنيًّا لغير الفاعل؛ للدَّلالة على عموم الرَّدِّ وشموله كلَّ مَن يُسأل عن ذلك،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 212، بتصرف.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (رب).
(3) القزويني، الإيضاح: 2/ 94.
(4) البخاري، صحيح البخاري، باب مناقب عمر بن الخطاب: حديث رقم: (3485).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 5.

ما يعني: أنَّ كلَّ مجيب - مهما أوتي مِن النُّبوَّة أو العلم - سيردُّ على السُّؤال عن موعد السّاعة بأنَّ العِلمَ بها مردُّهُ إلى اللّه تعالى[1]؛ لأنَّه لا علم لأحدٍ به غيرُه.

سرُّ إيثار لفظ العِلم معرَّفًا بالإضافة:

عِـلـمُ الـلـه بـالـسّـاعـة لا يـقـتـصـر على معرفة وقتها، بل يشمل كلَّ ما يحدث فيها

آثر النَّظمُ التَّعبير عن نائب الفاعل بلفظ العِلم دون وقت أو غيره ممّا يهتمُّ الناس بالسُّؤال عنه، فقال: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾، دون (وقت السّاعة)؛ للإشارة إلى سَعة علم اللّه تعالى وإحاطته بكلِّ ما يتَّصل بها[2]، من ميقاتٍ، ومكانٍ، ونَفْخٍ في الصّور، وبعثٍ، وحسابٍ، وجزاءٍ، وجنَّةٍ، ونارٍ، وغير ذلك ممّا ذكره القرآن، وممّا لم يذكرْهُ، ما يعني: أنَّ عِلمَ اللّه تعالى بها ليس مقصورًا على وقتها، ولكنَّه شامل كلَّ ما يحدث فيها، "فلا يُمكن أن يُسأل أحدٌ سواه عنها، ويخبر بما يغني في تعيين وقتها وكيفيَّتها وصنعتها، وكلَّما انتقل السّائل من مسؤول إلى أعلم منه وجدهُ كالَّذي قبلَهُ، حتى يصلَ الأمرُ إلى اللّه تعالى ... فاستئثارُه بعلمها دالٌّ على تناهي علمه، وحجْبُه له عن كلِّ مَن دونَهُ دالٌّ على تمام قدرته"[3].

(ما) بين النَّفي والموصوليَّة:

مَردُّ وقتِ خروج الـثَّـمـرات من أكمامِها أيضًا إلى الله، لا إلى أحدٍ غيره

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ﴾ يمكن أن تكونَ نافية، والمعنى: "لا يعلم أحدٌ في أيِّ وقت من الأوقات الماضية أو الكائنة أو الآتية يَتِمُّ خروج الثَّمرات من أكمامِها، فإنَّ (ما) النّافية لا تدخل إلّا على معناه الحلول"[4]، ويحتمل أن تكونَ موصولةً معطوفة على ﴿ٱلسَّاعَةِۚ﴾[5]، والمعنى: أنَّ مردَّ العلم بالسّاعة والعلمِ بخروج الثَّمرات من أكمامها إلى اللّه تعالى، لا إلى أحدٍ غيره.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 212.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 314.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 212.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213، بتصرف.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 74.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تَخۡرُجُ﴾ مضارعًا:

استحضارُ صورة خروج الثَّمرات كأنَّها بادية تتجلّى فيها وجوه الإعجاز بأنواعه

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن بروز الثَّمرات وظهورها بالفعل: ﴿تَخۡرُجُ﴾؛ لدلالته - بمعناه وجرسه - على الصُّعوبة الَّتي توضِّحُ بعضَ وجوه الإعجاز الإلهيِّ في هذا الأمر، وأنَّه أمرٌ ليس بالسَّهل أن يَعلمَ النّاسُ زمانَهُ، أو يقدروا عليه، على الرَّغم من إلْفِهم له، وتكرارِ حصولِه أمام أعينِهم، وأوثِرَ التَّعبيرُ بفعل الإخراج مضارعًا؛ لما يفيده مِن استحضار الصّورة[1] المُتَحَدَّث عنها - أيًّا كان زمانها - كأنَّها باديةٌ حاضرةٌ، تتجلَّى فيها وجوهُ الإعجاز بشتَّى أنواعه، وللدَّلالة أيضًا على تجدُّد الجهل واستمراره مع تجدُّد خروج الثَّمرات من الأكمام في كلِّ زمان ومكان.

دلالةُ التَّعبير بحرف الجرِّ:

علمُ اللهِ تعالى يستغرق كُلَّ أنواع الثِّمار بلا استثناء

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن ثَمَرَٰتٖ﴾ يجوز أن تكون استغراقيَّة[2] تفيد تأكيد نفي علمِ أيِّ أحدٍ بوقت خروج كلِّ أنواع الثِّمار مِن أكمامها[3]، ويمكن أنْ تكونَ بيانيَّة[4]، عُبِّر بها لبيان ما يخرُج، ولا يمكن لأحدٍ غيرِ اللّه تعالى أن يعلمَ وقتَهُ ولا نوعه، وهو الثَّمرات.

سرُّ تنكير ﴿ثَمَرَٰتٖ﴾ وجمعها:

اجتماعُ التَّنكير والجمع يؤكِّد عمومَ اللَّفظ وشمولَهُ كلَّ الأنواع

أوثرَ تنكيرُ المجرورِ: ﴿ثَمَرَٰتٖ﴾ وجمعه؛ لِما يفيده التَّنكير والجمع من تأكيد عموم اللَّفظ وشموله كلَّ أنواع الثِّمار، الصَّغيرِ منها والكبيرِ، والقليلِ والكثيرِ، والمفرد والمتعدِّد، والصّالح والفاسد، والفواكه والحبوب وغيرها[5] ممّا يخرج مِنَ الأكمام.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 74.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 621.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات الواردة في: ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾:

قراءةُ الجمع تفيد الكثرةَ والتَّنوُّع، وقراءة الإفراد تشمل الجنسَ بكلِّ أنواعه

قَرَأَ أبو جَعفَرٍ، ونافِعٌ، وابنُ عامِرٍ وحَفصٌ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ على الجَمْعِ، وقَرَأَ باقي العشرة بالإفرادِ[1]: ﴿مِن ثَمَرَتٍ﴾، وإذا كانت قراءةُ الجمع تدلُّ على كثرة الثِّمار وتنوُّعها؛ لتشملَ الصَّغير والكبير، والقليل والكثير، والصّالح والفاسد، والحبوب والثِّمار - كما سبق - فإنَّ قراءة الإفراد تشمل جنس الثَّمرةِ بكلِّ أنواعها وأحجامها على اختلاف الزَّمان والأوان أيضًا[2].

معنى ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾:

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ يمكن أن تكون ابتدائيَّةً[3]، والمعنى: يعلم خروج الثَّمرة ابتداءً مِن كمِّها، ويجوز أن تكون بيانيَّة[4] عُبِّرَ بها لبيان ما تخرج منه الثَّمرات، وهو الأكمامُ، ولتأكيد نفي العلمِ بموعد خروجِ الثَّمرة من كِمِّها[5].

سرُّ إيثارِ لفظ الأكمام جمعًا مُعَرَّفًا بالإضافةِ:

بعضُ الثِّمار يخرج من كِمٍّ واحدٍ، وبعضُها يخرج مِن عدَّة أكمام

عبَّر النَّظمُ عن المكان الَّذي تخرج منه الثَّمرات بقوله: ﴿أَكْمَامِهَا﴾، ومعناه: "كلُّ ما غَطَّى الثَّمارَ مِنَ الأوعية"[6]، وأوثِرَ التَّعبيرُ عنه بلفظ الجمع؛ للدَّلالة على إمكان تعدُّد الأكمام للثَّمرة الواحدة، فبعضُ الثِّمار يخرج مِن كِمٍّ واحد، وبعضُها يخرج من عدَّة أكمام، وفي إضافة الأكمام إلى ضمير الثَّمرات دلالةٌ على أنَّ كلَّ نوعٍ من أنواع الثِّمار له أكمامُهُ الخاصَّة، الَّتي لا يشترِكُ فيها مع غيره، أو لا ينازع فيها غيرَهُ.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 130، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 314، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 17.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 17.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 576.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 74، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 17.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 6.
(6) ابن القيم، زاد المسير: 4/ 55، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.

سرُّ تقديم الرِّزق على الخلقِ:

يُلحظ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ تقديمُ العلم بما يتَّصل بالرزق على العلم بما يتَّصل بالخلق حملًا وولادةً؛ لأنَّه الأليق والأهمُّ[1]، ويمكن أن يكون الغرضُ الإعلامَ بإحاطة اللّه تعالى بأرزاق الناس وأرزاق أولادهم من قبل الحمل والولادة، ويجوز أن يكونَ الغرض دفعَ توهُّم سهولة الوقوف على موعد خروج الثَّمرات مِن أكمامها؛ نظرًا لممارسة النّاس زراعةَ الحبوبِ والثِّمار ورعايتَها ومتابعتَها، واطِّلاعِهم على مراحل نموِّها أكثر من اطِّلاعهم على مراحل الحمل والولادة، فقدَّم نفْيَ ما يُظَنُّ علمُهم به على نفي ما يقلُّ إحاطتُهم بأمره.

عـادةُ البيانِ القرآنيِّ تقديمُ الأهمِّ على المُهمِّ، وما يَشْغَلُ النّاسَ على غيره

وجهُ العطف بالواو:

الواو في قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾، وأوثِرَ عطفُها بالواو الَّتي تفيد الاشتراكَ في الحُكم؛ للدَّلالة على أنَّ العلمَ بما يخصُّ حملَ الأنثى من النّاس والحيوان وغيرهما مردُّه كذلك إلى اللّه تعالى، لا إلى أحد غيره، فلا يستطيع أحدٌ من النّاس - مهما أوتي من النُّبوَّة أو العلم - أن يجزم بموعد حمل الأنثى، والَّتي تُلَقَّح، والتي لا تُلَقَّح[2]، ووجهُ العطف بينهما - بالإضافة إلى ما سبق - أنَّهما مِن الأمور الَّتي تقع في المستقبل[3]، والَّتي لا يستطيع أحدٌ التَّنبُّؤَ بها، شأنُهما شأنُ السّاعة الَّتي لا يعلمُها إلّا اللّهُ.

كلُّ الأمور الَّتي تقع في المستقبل مردُّ العلم بها إلى الله، لا إلى غيره

نكتةُ تكرار (ما):

أعاد النَّظمُ التَّعبيرَ بحرف النَّفي: (ما) في قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ مع قربِ العهد به؛ للاهتمام بنفي كلِّ واحد من هذه الأمور

تكرارُ النَّفي مع كلِّ مذكورٍ أقوى في التَّأكيد مِنْ نفي الجميع بحرفٍ واحدٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 6.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 571.

المستقبَلة نفيًا مستقلًّا[1]، يتأكَّدُ به أنَّ مردَّ العلم بكلِّ واحدٍ منها على وجه الخصوص إلى اللّه تعالى، لا إلى غيرِه.

دلالةُ التَّعبير بالفعل: ﴿تَحۡمِلُ﴾ مضارعًا:

استحضارُ الصّورة يدعم عدمَ العلم بموعد الحَمْلِ ونتيجته

عبَّر النَّظمُ عن فعل الحمل بصيغة المُضارع، فقال: ﴿تَحۡمِلُ﴾؛ لِما يفيده التَّعبير بِهِ مِن الدَّلالة على تجدُّد علمه سبحانه وإحاطته التّامَّة بكلِّ ما يتجدَّد حملُهُ في أرحام الإناث على اختلاف أنواعهن، سواء أكنَّ مِنَ البشر أم مِن غيرِ البشرِ، ولو قيل: (ما حملت كلُّ أنثى)؛ لفُهِمَ أنَّ ذلك العلم كان فيما مضى، ولا ينسحب على ما هو آتٍ، يُزاد على ذلك ما يفيدُهُ المضارع مِن استحضار صورةِ الرَّجل والمرأة، وهما في حالةٍ مِنَ القلق والتَّرقُّب ينتظران نتيجة التَّلقيح، ليعرفا هل تمَّ الحملُ أم لا؟ ممّا يدعمُ جهل النّاس بموعدِهِ وحقيقتِهِ، ويُقَوّي ردَّ العلمِ به إلى اللّه تعالى وحدَهُ.

معنى ﴿مِنۡ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أُنثَىٰ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد استغراقَ النَّفي، وتأكيد شمول المعنى انتفاء العلم بحمل كلِّ الإناث عن كلِّ أحدٍ غيرِ اللّه ﷻ.

سرُّ إيثار لفظ الأنثى نكرة:

كلُّ الإناثِ في عدم العلم بحملهن سواءٌ

أوثِرَ تنكيرُ الاسم المجرور في قوله: ﴿مِنۡ أُنثَىٰ﴾؛ لِما يفيدُهُ التَّنكير مِن عمومِ الاسم الواقع في سياق النَّفي وشموله كلَّ أنثى أيًّا كانت وأين كانت، وأنَّه لا يمكن لأحد - مهما وصلت إمكاناتُهُ، وما كان لديه من أجهزة - أن يجزمَ بحصول الحمل أو عدم حصولِهِ، أو يتحكَّم في كون الجنين كاملًا أو ناقصًا، أو ذكرًا أو أنثى، فاللّه تعالى وحده هو الَّذي ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ [الشورى: 49 - 50].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.

الوضعُ والولادةُ أيضًا من الأمور المستقبلة الَّتي لا يعلمها إلّا اللهُ

وجهُ العطف بالواو:

جاءت جملة: ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ معطوفةً على ما قبلَها بالواو الَّتي تفيد الاشتراك في الحكم؛ لِما سبق بيانُهُ من أنَّ جميعَ ما ذكرَتْهُ الآيةُ هو مِنَ الأمور المستقبَلَةِ الَّتي لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، فلا يمكن لأحد غيرِهِ أن يحدِّد بدقَّة ميعاد وضع الأنثى حملَها؛ لأنَّ ذلك يختلف من واحدة لأخرى، أمّا ما يقولُهُ الأطبّاء في عصرنا؛ فما هو إلّا مِن باب الحدس والتَّخمين والأخذ بالنَّتائج العلميَّة، ومع ذلك يحصل الوضعُ والولادةُ كثيرًا في أوقاتٍ غيرِ مُتوقَّعة، ولم تكن في الحسبان.

الـوضـعُ ليس كالحملِ يحدثُ في لـحظةٍ، بل يـطـولُ زمـانُ انتظارِهِ

نكتةُ العدولِ إلى النَّفي بـ (لا):

عدل النَّظمُ عن النَّفي بـ (ما) إلى النَّفي بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَضَعُ﴾: "لأنَّ الوضع ليس كالحمل يقع في لحظةٍ، بل يطول زمان انتظارِهِ"[1]، فكان تغييرُ حرف النَّفي إلماحًا إلى ذلك ودلالةً عليه، ويرى ابن عاشور لذلك العدول فائدةً نحويَّةً؛ إذ يقول: "وعُدِلَ عَن إعادَةِ حَرْفِ (ما) مَرَّةً أُخْرَى؛ لِلتَّفادي مِن ذِكْرِ حَرْفٍ واحِدٍ ثَلاثَ مَرّاتٍ؛ لِأنَّ تَساوِيَ هَذِهِ المَنْفِيّاتِ الثَّلاثَةِ في عِلْمِ اللَّه تَعالَى، وفي كَوْنِ أزْمانِ حُصولِها سَواءٌ بِالنِّسبَةِ لِلحالِ ولِلاستِقبالِ، يَسُدُّ عَلَينا بابَ ادِّعاءِ الجُمهورِ الفَرقَ بَينَ (ما) و (لا) في تَخليصِ المُضارِعِ لِزَمانِ الحالِ مَعَ حَرْفِ (ما)، وتَخليصِهِ لِلاستِقبالِ مَعَ حَرفِ (لا)"[2]، ويُفهم من كلامِهِ - رحمه اللّه - أنَّ النَّفي بالحرفين المذكورين يفيد امتداد علم اللّه تعالى وحدَهُ بهذه الأمور إلى قيام السّاعة.

دلالةُ التَّعبير بفعل الوضع مضارعًا:

عبَّر البيانُ عن فعلِ الوضع بصيغة المُضارع، فقال: ﴿تَضَعُ﴾؛ لما يفيده التَّعبيرُ به من الدَّلالة على تجدُّدِ علم اللّه سبحانه وإحاطته

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 6.

التّامَّة بكلِّ ما يتجدَّد وضعه مِن أرحام الإناث على اختلاف أنواعهن، سواءٌ أكنَّ مِنَ البشر أم مِن غير البشرِ، ولو قيل: (وما وضعت)؛ لفُهِمَ أنَّ ذلك العلم كان فيما مضى، ولا ينسحب على ما هو آتٍ، يُزاد على ذلك ما يفيده التَّعبيرُ بالمضارع من استحضار صورة المرأة، وهي في حالة القلق والتَّرقُّب؛ بسبب آلام الوضع والمخاض، لتعرف ويعرفَ المحيطون بها هل سيكون جنينُها حيًّا أو ميِّتًا؟ خديجًا أو تامًّا؟ ناقصًا أو كاملًا؟ ذكرًا أو أنثى؟ حسنًا أو قبيحًا؟ وغير ذلك، ممّا يؤكِّد ردَّ العلم بأمور الوضع أيضًا إلى اللّٰه وحده.

استحضار صورة الوضع يقوّي ردَّ العِلم بأحوالِه أيضًا إلى الله تعالى

بلاغةُ القصر بطريق النَّفي والاستثناء:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا، أو إضافيًّا بغرض القلب، تمَّ فيه نفيُ العلم بموعد خروج الثَّمرات من أكمامها، ونفي الإحاطة بحمل الإناث ووضعها عن أيِّ أحد نفيًا قاطعًا، ثمَّ إثبات كون ذلك بعلم اللّٰه تعالى، ليتأكَّد بهذه الطريقة أنَّ علمَ هذين الأمرين وغيرهما مِنَ الأمور المستقبلة مقصورٌ على اللّٰه تعالى لا يتعدّاه إلى أحدٍ آخر، وأوثِرَ النَّفي والاستثناء طريقًا للقصر؛ لأنَّه يمتاز عن غيره مِن الطُّرق بكونهِ يُستعمل عندما يكون الكلام موجَّهًا إلى مُخاطَبٍ منكرٍ للأمر أو شاكٍّ فيه، فيستلزم ذلك تأكيد المعنى من خلال النَّفي أوَّلًا والاستثناء ثانيًا؛ تحقيقًا للغرض المنصوب له البيان هنا، وهو تأكيدُ مردِّ علم السّاعة إلى اللّٰه تعالى، وأنَّ الأولى مِنَ السُّؤال عن موعدها الاستعدادُ لها بالإيمان وعمل الصالحات.

تأكيدُ علمِ الله تعالى بالأمور المستقبلة بعد نفيه عن غيره نفيًا قاطعًا

مزيَّةُ التَّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ يمنح الأسلوب مزيَّةَ الإثارة والتَّشويق إلى الجار والمجرور الَّذي يأتي بعدها، والَّذي يُبَيِّنُ المرجعَ الذي يُرَدُّ إليه موعدُ خروج الثَّمرات مِن أكمامها، ويردُّ

التَّشويقُ إلى معرفة مرجعِ العلم بالأمور المستقبلة ليَثْبُتَ في نفوس المتلقّين

إليه أيضًا كلُّ ما يتعلَّق بها، والأمر نفسُهُ فيما يتعلَّق بحمل الأنثى ووضعها، فإذا ورد قولُهُ: ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾؛ ثبت في النُّفوس، وتأكَّد لديها أنَّه لا علمَ لأحد غير اللّه تعالى بهذين الأمرين، وكلِّ ما هو على شاكلتهما؛ لأنَّ المعنى إذا أُلقي على سبيل التَّشويق؛ تطلَّعت النَّفس إلى معرفته على سبيل التَّصريح، فتتوجَّه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا أُلقي تمكَّن فيها فضل تمكُّن، وكان شعورُها به أتمَّ[1].

معنى الباء في ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ حرف جرٍّ يفيد الملابسة[2]، والمعنى: لا تضع حملًا حيًّا أو ميِّتًا إلّا حال كونِهِ متلبِّسًا بعلم اللّه تعالى وحدَهُ، ومن ادَّعى علمًا به؛ فليخبر بأنَّ ثمرة الحديقة الفلانيَّة والبستان الفلانيِّ والبلد الفلانيِّ تخرج في الوقت الفلانيِّ، أو لا تُخرج العام شيئًا أصلًا، والمرأة الفلانيَّة تحمل في الوقت الفلانيِّ، وتضع في وقت كذا، أو لا تحمل العام شيئًا، ومِنَ المعلوم أنَّه لا يحيط بهذا علمًا إلّا اللّه سبحانه[3].

سرُّ إيثارِ لفظ العلم دون غيرِهِ:

مَنْ حاز العِلمَ؛ حازَ المشيئةَ والإذنَ والأمرَ، وليس العكس

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بمفردة العلم الموضوع لإدراك حقائق الأشياء[4] في قوله: ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ دون (مشيئته، أو إذنه، أو أمره)؛ للدَّلالة على التَّمكُّن المفضي إلى أن يكونَ قيامُ السّاعة، وخروج الثَّمرات من أكمامِها، وحملُ الأنثى ووضعها بأمر اللّه تعالى وإذنه ومشيئته، فالعِلمُ مِن الأسباب المهيِّئة لذلك، ومَن حازه؛ حازَ المشيئة والإذن والأمر، وليس العكس.

(1) القزويني، الإيضاح: 3/ 196.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 6.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (علم).

توجيهُ العطف بالواو:

إثبـاتُ وقـوعِ السّاعة بذِكر بعض ما يلقاه الكـافـرون في يومها

الواو في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ "عطفٌ على الجملة قبلها، فإنَّه لمّا تضمَّن قوله: ﴿۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ إبطالَ شبهتِهم بأنَّ عدم بيان وقتها يدلُّ على انتفاء حصولِها، وأتبع ذلك بنظائر لوقت السّاعة ممّا هو جارٍ في الدُّنيا دومًا؛ عاد الكلامُ إلى شأن السّاعة على وجه الإنذار مقتضيًا إثبات وقوع السّاعة بذِكر بعض ما يلقونه في يومها"[1].

بلاغةُ التَّعبير بلفظ (يَوۡمَ):

التَّذكيرُ بيوم القيامة يحمل النّاسَ على تقوى الله وتلقّي أوامِره بالسَّمع والطّاعة

قولُهُ: (يَوۡمَ) ظرفٌ متعلِّقٌ بمحذوف، تقديرُهُ: اذكر يوم، فهو مفعول به، وفي البيان به دلالةٌ على أنَّ التَّذكير بذلك اليوم الهائل ممّا يضطرُّهم إلى تقوى اللّه ﷻ، وتلقّي أمرهِ بسمع الإجابة والطّاعة، ويمكن إعرابُهُ ظرفًا لمضمر قد حُذِفَ؛ للدَّلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه؛ لكمال فظاعةِ ما يقع فيهِ من الطّامَّةِ التّامَّةِ والدَّواهي العامَّة، كأنَّه قيل: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ يكونُ من الأحوالِ والأهوال ما لا يفي ببيانِهِ نطاقُ المقال[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾:

نداءُ المشركين يومَ القيامةِ كنايةٌ عن الخطاب العلنيِّ أمام الناس أجمعين

قوله: ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ جملةٌ في محلِّ جرٍّ بالإضافة إلى (يَوۡمَ)، وهي تتكوَّن من فِعلِ النِّداء، وفاعله الضَّمير المرفوع العائد إلى ﴿رَبُّكَ﴾ [فصلت: 46] في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]، وفيها عبَّر النَّظم بالفعل: ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾؛ للكناية عن أنَّ اللّهَ سبحانَهُ سيُخاطب المشركين يوم القيامة مخاطبةً علنيَّةً[3] أمام النّاس، يطالبهم فيها أن يأتوا بشركائِهم ليشفعوا لهم، وينقذوهم مِن عذابِ هذا اليوم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 7.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 93.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 7.

دلالةُ التَّعبير بفعل النِّداء مضارعًا:

يــومُ القيامةِ يـجـتـمـعُ على المشركين نوعان مِــنَ الألــم، أحدُهما حسّيٌّ، والآخرُ نفسيٌّ

أوثِرَ التَّعبيرُ بفعل النِّداء مضارعًا؛ لما يفيدُهُ مِن استحضارِ صورة المشركين في ذلك اليوم الشَّديد الهائل، وقد ناداهم اللّه تعالى، وسألهم مُتَهَكِّمًا موبِّخًا عن الشُّركاء الَّذين اتَّخذوهم مِن دونه، فيجتمع عليهم بذلك نوعان مِنَ الألم: أحدهما حسّيٌّ، ويتمثَّل في أهوال يوم القيامة وشدائدِه، والآخر نفسيٌّ، ويتمثَّل في سخريَّة اللّه منهم، وتقريعه لهم، ومطالبتهم على الملأِ بأن يأتوا بالشُّركاء الَّذين اتَّخذوهم مِن دونِه؛ لينقذوهم مِن عذابِ ذلك اليوم وعقابه.

مرجعُ الضَّمير المنصوب في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ ودلالته:

الـتَّـعـبـيرُ عن المشركين بضمير الـغـائـب فيه تـحـقـيرٌ لـهـم وازدراءٌ لشأنهم

الضَّميرُ المنصوب: (هُمْ) في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ "عامٌّ في كُلِّ مَن عَبَدَ غيرَ اللّه، فيَدخُلُ فيهِ عُبّادُ الأوثانِ"[1] دخولًا برهانيًّا، وفي التَّعبير عنهم بضمير الغائب دونَ الاسم الظّاهر تحقيرٌ لهم، وازدراء لشأنهم، وإلماحٌ إلى أنَّه لا حضورَ لهم، ولا اعتدادَ بوجودِهم.

الغرضُ مِن الاستفهام بـ ﴿أَيْنَ﴾:

تنبيهُ المشركين إلى أخطائهم، وإثــارتُــهــم للتَّراجع عنها

﴿أَيْنَ﴾ اسم استفهام، أوثِرَ التَّعبيرُ بِهِ للإنكار على المشركين وتوبيخهم على اتِّخاذهم آلهةً من دون اللّه تعالى، ولتعجيزِهم عن الإتيان بهم؛ ليخلِّصوهم مِن هول يوم القيامة وعقابه، ويزادُ على ذلك ما يمتاز به أسلوبُ الاستفهام من تنبيهِ المشركين وإثارتهم إلى ضرورة الاستعداد للرَّدِّ على هذا السُّؤال واستحضار الإجابة عنه، ما يدفعهم إلى الإقلاع عن الشِّرك قبل أن يقفوا هذا الموقف؛ لأنَّه إذا كان الاستفهامُ "في مثل هذا يُفسَّر بالإنكار؛ فإنَّ الَّذي هو مَحْضُ المعنى: أنَّه ليَتَنَبَّه السّامعُ حتى يَرجِعَ إلى نفسِه، فيخجلَ، ويرتدعَ، ويعيا بالجواب"[2].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 315.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 119.

توجيهُ جمع شركاء:

التَّعبيرُ عن المُستَفهَمِ عنه بلفظ الجمع في قوله: ﴿شُرَكَآءِى﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الكفّار كانوا يشركون بالله تعالى آلهةً كثيرة ومتعدِّدة، ولا يكتفون بإلهٍ واحدٍ، ما يعني: أنَّ غايتَهم كانت الإشراكَ بالله تعالى من غير قصدٍ إلى إلهٍ بعينِهِ لمزايا فيه، أو لسماتٍ يختلف بها عنِ اللّهِ جلَّ في علاهُ، كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغة الجمع في سياق الاستفهامِ الإنكاريِّ يدلُّ على عجز جميع الشُّركاء عن فعل أيِّ شيءٍ للمشركين يومَ القيامة.

جميعُ الشُّركاءِ عاجزون عن فعل أيِّ شيءٍ للمشركين يومَ القيامة

نكتةُ الإضافةِ إلى ياء المتكلِّم:

أضافَ المولى سبحانه المُستَفهَمَ عنه إلى ضميرِهِ في قوله: ﴿شُرَكَآءِى﴾؛ جريًا على زعم الكفّار بأنَّ آلهتَهم شركاءُ للّه، وفي الإضافة تهكُّمٌ وتقريعٌ وتنديمٌ[1] لهم، على جعلهم ما لا يستحقُّ شركاءَ للّه تعالى، والمعنى: أين "الذين زعمتم أنَّهم يشفعون لكم في هذا اليوم، ويحمونكم مِن العقاب واللَّوم؟"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل القول ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجمع:

أخبر النَّظمُ عمّا سيجيبُ به المشركون عنِ السُّؤال بالفعل: ﴿قَالُوٓاْ﴾ الموضوع لإبراز ما يُتَصَوَّر في النَّفس[3]؛ للدَّلالة على أنَّهم - يوم القيامة - عرفوا حقيقةَ هذهِ الآلهة، وندموا على اتِّخاذها شركاء للّه غاية النَّدم، ما يعني: أنَّ قولَهم سيكون ممزوجًا بالحسرة والألم حين لا ينفع النَّدم، وعبَّر به ماضيًا مع أنَّ القول سيحدث مستقبلًا؛ للدَّلالة على أنَّه حاصلٌ - لا محالة - وأنَّ على المتلقّي أنْ يعدَّه كالخبر الذي وقع، وحصل، وفي إسناده إلى ضمير الجمع إلماحٌ

سيندمُ المشركونَ على شركِهم بالله يوم لا ينفع النَّدم

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 204، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 214.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 214.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (قول).

إلى أنَّ المشركين كلَّهم سيسارعون إلى قول ذلك في آنٍ واحدٍ، ولن يتأخَّرَ أحدٌ منهم، أو يُكابرَ في الاعتراف به.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اعترافٌ في السِّرِّ والعلن، ممزوجٌ بالحسرة والخجل

قولُهُ: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ جملةٌ مكوَّنة من فعل الإذن، والفاعل (نا) العائد إلى المشركين، ومفعوله (كَ) المُخاطَب به ربُّ العزَّة سبحانه، وهي في محلِّ نصب مقول القول، أوثِرَ التَّعبيرُ فيها بفعل الإذن، الَّذي يعني: الإعلام والإخبار - كما سبق بيانه - للدَّلالة على أنَّ قصدَهم: "أعلمناك سابقًا بألسنة أحوالِنا، والآن بألسنة مقالِنا، وفي كلتا الحالتين أنت سامعٌ لذلك؛ لأنَّك سامعٌ لكلِّ ما يُمكن أن يُسمع، وإن لم يسمَعْهُ غيرُك"[1]، "وصيغَةُ الماضي في: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إنشاءٌ، فهو بِمَعنى الحالِ مِثلَ: بِعتُ، وطَلَّقتُ، أي: نَأذَنُكَ، ونُقِرُّ بأنَّهُ ما مِنّا مِن شَهيدٍ"[2]، أي: إنَّ التَّعبيرَ بالماضي فيه دلالةٌ على تحقُّق قولهم: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ ممزوجًا بالحسرةِ والنَّدم من غير شكٍّ أو ريبٍ.

فـائـدةُ الإعـادةِ توبيخُ الجاني، وتمهيدٌ لنفي الشَّهادة

ولمّا كان قولُهُ: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إخبارًا بإيذان كان منهم، فهذا يقتضي أنَّه تعالى قد سأل عنهم بمثل هذا السُّؤال قبل ذلك، وأنَّهم أجابوه بمثل هذا الجواب، ثمَّ أعادَهُ، فما فائدةُ الإعادة؟ والجواب في وجوه: **أحدها:** أنَّه مِن عادة الموبِّخ أن يعيدَ كلمة التَّوبيخ تشديدًا على الجاني وتقبيحًا لجنايته، **وثانيها:** أنَّ قولَهم لا يعني أنَّه قد سبق منهم الإيذانُ بمثله، لكن هو إيذانٌ بلسان الحال مِن مضمرات البال، **وثالثها:** أنَّه توطئةٌ للإخبار، وتمهيد لقوله: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾[3].

وجهُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ هي النّافيةُ العاملةُ عمل (ليس) أوثِرَ النَّفي بها؛ لأنَّ مِن خصائصِها نفيَ الجمل الاسميَّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 622.

والفعليَّة، وهي آكدُ في النَّفي مِن (ليس)، وأوسع استعمالًا منها أيضًا[1]، والنَّفي بـ ﴿مَا﴾ أنسبُ هنا؛ لأنَّها تفيد - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - نفْيَ كونِهم شهداءَ على وجود شركاء للّه تعالى نفيًا قاطعًا لا حدودَ له.

المشركون ينفون كونَ أحدٍ منهم شـهـيـدًا على وجــود شـركـاء لله نفيًا قاطعًا

فائدةُ التَّعبير بشبه الجملة: ﴿مِنَّا﴾:

قولُهُ: ﴿مِنَّا﴾ جارٌّ ومجرورٌ في محلِّ رفع خبر مُقدَّم، والضَّمير المجرور فيه يعود إلى المشركين، وفي التَّعبير بهما دلالةٌ على أنَّهم لا يشهدون أنَّ للّه تعالى شريكًا، والمعنى: "لَيسَ أحَدٌ مِنّا يَشهَدُ بأنَّ لَكَ شَريكًا، فالمَقصودُ: أنَّهُم في ذَلِكَ اليَومِ يَتَبَرَّؤونَ مِن إثباتِ الشَّريكِ للّه تَعالَى"[2]، ويمكن أن يكونَ الغرضُ مِنَ التَّعبير بالجار والمجرور نفْيَ كونِهم يُشاهدون (أي: يبصرون) الشُّركاءَ يوم القيامة، والمعنى: "ما مِنّا مِن أحَدٍ يُشاهِدُهُم؛ لأنَّهُم ضَلّوا عَنهُم، وضَلَّت عَنهُم آلِهَتُهُم، لا يُبصِرونَها في ساعَةِ التَّوبيخ"[3]، وقيل: إنَّ الضَّمير المجرور في ﴿مِنَّا﴾ يعود إلى الأصنام، ما يعني: "أنَّ اللّه يُحْيِيها، ثُمَّ إنَّها تَقولُ: ما مِنّا مِنْ أحَدٍ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ ما أضافوا إلَيْنا مِنَ الشَّرِكَةِ، وعلى هَذا التَّقْديرِ فالمَعنَى: أنَّها لا تَنفَعُهُم، فكَأنَّهُم ضَلّوا عَنهُم"[4].

المـــشـــركـــون والأصـــنـــامُ سـيــنــكــرون الشِّركَ بالله يوم القيامة

سرُّ تقديم شبه الجملة ﴿مِنَّا﴾:

يحكي النَّظمُ تقديمَ الجار والمجرور: ﴿مِنَّا﴾ على المبتدأ المجرور لفظًا في ﴿مِن شَهِيدٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اهتمامَ يوم القيامة منصبٌّ على نفي وجود أحدٍ منهم يشهد أنَّ للّه شركاءَ.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن شَهِيدٍ﴾ حرفُ جرٍّ، عبَّر به المشركون

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 55، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 572.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 55، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 572.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 55، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 572.

بقصد تأكيد نفي وجود شهيد مِن بينهم[1]؛ لدلالتِها على استغراق كلِّ أحدٍ منهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بكلمة: ﴿شَهِيدٍ﴾:

سيـنـفـي المشـركـون يـوم القيامة مشاهدتهم الشُّركاء وشهادتهم لهم

كلمة ﴿شَهِيدٍ﴾ في قول المشركين المحكي: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ "يَجوزُ أن تَكونَ بِمَعنَى المشاهِدِ، أيِ: المُبْصِرُ، والمعنى: ما أحَدٌ مِنّا يَرَى الَّذينَ كُنّا نَدْعوهُم شُرَكاءَكَ الآنَ، أي: لا نَرَى واحِدًا مِنَ الأصنامِ الَّتي كُنّا نَعْبُدُها ... ويَجوزُ أنْ يَكونَ الشَّهيدُ بِمَعنَى الشّاهِدِ، أي: ما مِنّا أحَدٌ يَشهَدُ أنَّهُم شُرَكاؤُكَ، فيَكونُ ذَلِكَ اعترافًا بِكَذِبِهم فيما مَضَى"[2]، ولا مانع من أنَّهم يوم القيامة سينفون الشَّهادة والمُشاهَدَة.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المبالغة:

سيـدَّعـي المشركون يوم القيامة جهلَهم بحقيقة الآلهة الَّتي كانوا يعبدونها من دون الله

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن شهادة الكافرين الَّتي أكَّدوا نفي حصولها منهم، بصيغة المبالغة في قولهم: ﴿شَهِيدٍ﴾ الموضوع للعلم ببواطن الأمور وظواهرها[3]؛ لإثبات جهلهِم بحقيقة هذه المعبوداتِ، وأنَّها لا تصلح أن تكونَ شريكة للّه؛ لأنَّه لا يوجد منهم "مطَّلعٌ على ما يريد من غير خفاء، بحيثُ لا يغيب عن علمِه شيءٌ، فيخبر بما يخبر به على سبيل القطعِ والشَّهادة، فآلَ الأمرُ إلى أنَّ المعنى: لا نعلم، أي: ما كنّا نسمّيهم شركاء؛ لأنَّه ما مِنّا مَن هو محيط العلم"[4].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرَّدّ والإرجاع والعَوْد والأوْب:

لم يعرف أحدٌ موعدَ السّاعة في الماضي، ولن يحيط به أحدٌ في الحاضر أو المستقبل

الرَّدُّ: صرفُ الشَّيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال: رَدَدْتُه فارتَدَّ[5]، والإرجاعُ: الإعادةُ إلى ما كان منه البدءُ، أو تقديرُ البَدْءِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 25/ 1.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 59، والراغب، مفردات القرآن: (رد).

يقال: رَجَعَهُ رَجْعًا وأرجعه: أعاده[1]، والعَوْدُ: هو تَثْنِيَةُ الأَمْرِ عَوْدًا بَعْدَ بَدْءٍ[2]، أو: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[3]، والأَوْبُ: رجوعُ الشَّيء إلى مستقرِّه، كما يؤوب النَّحل[4]، ولمّا كان الحديث عن موعد السّاعة وميقاتها؛ ناسب التَّعبير بفعل (الرَّدِّ) دون غيرِه من هذه المرادفات؛ لدلالته على الصَّرف التّامِّ، وهو ما يمتاز به عن المفردات المذكورة، ما يعني: أنَّ العلم بموعد السّاعة وميقاتها مصروف إلى اللّه تعالى أوَّلًا وأخيرًا، ولم يعرفْ أحدٌ به في الماضي، ولن يحيط به أحدٌ في الحاضر أو المستقبل.

الوضع والولادة:

آلامُ الوضعِ ومعاناتُهُ تثير المرأةَ والمحيطين بها إلى معرفة موعدِه بدقَّة

الوضعُ: يَدُلُّ على الخَفْضِ لِلشَّيءِ وحَطِّه، يقال: وضَعْتُهُ بِالأَرْضِ وضْعًا، ووضَعَتِ المَرأةُ ولَدَها[5]، والولادةُ تُطلق على: وضع الوالدة ولدَها[6]، ولأنَّ التَّعبير جاء في سياق بيان الأمور المستقبلة التي لا يعلمُها إلّا اللّه؛ كان التَّعبير بمفردة (الوضع) أنسبَ؛ لأنَّه يشير إلى ترقُّب الأمِّ والمحيطين بها نزول الجنين، ورغبتهم في معرفة موعده المحدَّد، حتّى تُسَلّيَ المرأةُ نفسَها بقربه حين تشتدُّ عليها الآلام، وتعاودها الأوجاع، وتسيطر عليها حالةٌ نفسيَّةٌ تجعلُها راغبةً في وضعه بأيِّ شكل، ومع ذلك لا يستطيع أحدٌ أن يخبرَها بالوقت الدَّقيق لخروج الجنين من بطنها تمامًا، كما لا يستطيع أحدٌ معرفةَ الوقت الدَّقيق لوقوعِ السّاعة وقيامِها.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 39.
(2) الفراهيدي، العين: (عود).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (عود).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أوب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (ولد).

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٤٨﴾ [فصلت: 48]

الآلهةُ المزعومة لن تنفع المشركين بشيءٍ يوم القيامة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد أن وضَّحتِ الآيةُ السّابقة أنَّ مرَدَّ العلم بالساعة إلى اللّه وحده، وأنَّ الكفّار سيندمون فيها على اتِّخاذهم شركاءَ من دونه، وسينفون شهادتهم وعلمهم بحقيقة هؤلاء الشُّركاء؛ ناسب أن تعطفَ هذه الآيةُ على جهلهِم ما يفيد عجزَ تلك الآلهة المزعومة عن أن تفعل لهم أيَّ شيءٍ في هذا اليوم، أي: "لمّا قرَّر جهلهم؛ أتبعه عجزهم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَلَّ﴾: (ضلل) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعنًى واحِدٍ، وهو ضَياعُ الشَّيءِ وذَهابُهُ في غَيرِ حَقِّهِ، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لُغَتانِ، وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصْدِ ضالٌّ[2]، ويُطلق الضَّلالُ على كلِّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، ومن معانيه: الضّياعُ والخسرانُ والغياب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ٤٧﴾ [القمر: 47]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ١﴾ [محمد: 1]، أي: خسروها، ولم يحصلوا على ثوابها[3]، ومعنى ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: غاب عنهم.

2) ﴿يَدْعُونَ﴾: (دعو) أصلٌ واحِدٌ، وهو أن تُميلَ الشَّيءَ إلَيكَ بِصَوتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنكَ، تَقولُ: دَعَوتُ أدعو دُعاءً[4]، والمعنى المحوريُّ: جَذْبُ الشيء، أو محاولة ضمِّه إلى حيِّز أو أمر، وكلُّ ما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 300، والراغب، مفردات القرآن: (ضل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

عُدّيَ بـ (إلى) أو باللام؛ فهو مِن الدَّعوة إلى دين أو عمل، وبعضُ ما هو بهذا المعنى مُعَدًّى بنفسه[1]، ومن معانيه: العبادةُ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ [الأنعام: 71]، أي: أنعبدُ، وقال: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ [الحج: 13]، أي: يعبد، وقال أيضًا: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾ [فصلت: 48]، أي: يعبدون[2].

3) ﴿مَّحِيصٍ﴾: (حيص) أصلٌ واحِدٌ، وهو المَيلُ في جَورٍ وتَلَدُّدٍ، يُقالُ: حاصَ عَنِ الحَقِّ يَحيصُ حَيْصًا؛ إذا جارَ[3]، ومعناه المحوريُّ: ضيقُ الفتحة في الشَّيء، أو بين الشَّيئين ضيقًا شديدًا، كالعين الحوصاء يحيد جفناها، أو أحدهما عند مُؤَخِّرها، فيكادان يتضامّان، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١﴾ [النساء: 121]، أي: لا يجدون مكانًا (مَأوًى أو طريقًا) يحيدون عنها إليه، ولو كان ضيّقًا[4].

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

تبيّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ الآلهةَ الَّتي عبدها المشركون مِن دون الله أعجزُ مِن أن تدفع عنهم شيئًا مِن عذاب الآخرةِ وهَولِها، وأنَّهم لن يجنوا مِن وراء عبادتِهم لها سوى الخسرانِ والعذاب، الَّذي لن يجدوا مكانًا يهرُبون إليه؛ ليُنجيَهم منه[5].

لن يجد الكفّارُ يومَ القيامة مكانًا يهرُبون إليه؛ لينجيَهم من عقاب شركهم بالله

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

الواو في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾؛ استكمالًا لبيان ما سيحدثُ للكفّار يوم القيامة الَّذين سألوا

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دعو).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 601.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيص).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حوص).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 364، بتصرف.

رسولَ اللّه عن موعده، فأخبرهم القرآنُ بأنَّ مردَّ العلم به إلى اللّه، ووضَّح لهم ولغيرهم أنَّ المشركين سيتبرَّؤون فيه من أصنامِهم، وينكرون اتِّخاذَها آلهةً مِن دون اللّه، ولن يجدوها معهم تنفعُ، أو تشفعُ، والمعنى: "قالوا ذَلِكَ، ولَم يَجِدوا واحِدًا مِن أصنامِهِم"[1].

لن يجد الكفارُ مِنَ الأصنام يوم القيامة نصرًا ولا شفاعةً

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الضَّلال مادَّة وصيغة:

عبَّر النَّظمُ عن غياب الأصنام الَّتي كان يعبدها المشركون عن الحضور يوم القيامة بالفعل: ﴿وَضَلَّ﴾؛ لِما لكلمة الضَّلال من أثر شديدٍ يدفع المتلقّي إلى النُّفور ممّا يكون سببًا فيه؛ لدلالتها على التّيه والتَّخبُّط وعدم الاهتداء، وأوثِرَ التَّعبيرُ به ماضيًا؛ لِما يفيدُهُ من تحقُّقِ الفعل وتأكيد حصولِه من غير شكٍّ أو ريب، والمعنى: "لَمْ يَجِدوا ما كانوا يَدعونَهُم مِن قَبلُ في الدُّنيا، قالَ تَعالَى: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: 28]، فالمُراد بِهِ هُنا: غَيْبَةُ أصنامِهِم عَنهُم، وعَدَمُ وُجودِها في تِلكَ الحَضرَة، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَن كَونِها مُلقاةً في جَهَنَّمَ، أو بَقِيَت في العالَمِ الدُّنيَوِيِّ حينَ فنائِهِ"[2]، ويمكن أن يكونَ التَّعبيرُ بفعل الضَّلال كنايةً عن أنَّهم لم يجدوا من تلك الأصنام نَصرًا ولا شفاعةً[3]؛ بسبب عجزِها، أوغيابها عن المشهدِ الأخرويِّ بعد تحطُّمِها في الدُّنيا.

وجهُ التَّعبيرِ بشبه الجملة:

ضررُ اتِّخاذ المشركين آلهةً مِن دونِ اللّه عاد عليهم بالخيبةِ والعذاب، لا على غيرهم

﴿عَنۡهُم﴾ جار ومجرور متعلِّقانِ بالفعل ﴿وَضَلَّ﴾، والضَّمير فيه يرجع إلى المشركين، وفي التَّعبير به زيادة في حسرة الكافرين وحزنهم، ببيان أنَّ ضررَ اتِّخاذهم آلهةً مِن دون اللّه تعالى عاد عليهم بالخيبة والعذاب لا على أحدٍ غيرهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 315.

دلالةُ التَّعبير باسم الموصول:

الآلهةُ المزعومة لا تعقل أو في حكم ما لا يعقل

عبَّر النَّظمُ عن المسند إليه باسم الموصول الموضوع لغير العاقلِ، فقال: ﴿مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾؛ لأنَّ تلكَ الآلهةَ لا فعلَ لها في الحقيقةِ؛ لكونها ممّا لا يعقل أصلًا كالأصنام، أو مِمّا هو في حكم غير العاقل، ممّا لا يستطيعُ فعلَ شيءٍ[1]، وفيه تشنيعٌ لفعلهم، وتقبيحٌ لصنيعهم؛ بسبب عبادتِهم آلهةً لا تضرُّ، ولا تنفع، وتركهم عبادةَ اللّٰهِ القدير.

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الكينونة مادَّة وصيغة:

عبادةُ الأصنام تغلغلت في كينونة المشركين وترسَّخت

وعبَّر النَّظمُ الكريم في جملة الصِّلة بالفعل: ﴿كَانُواْ﴾ ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجمع العائد إلى المشركين؛ للدِّلالة على أنَّهم أقاموا على عبادة الأصنام طيلةَ حياتِهم حتّى تغلغلت في كينونتِهم، وصاروا لا يستطيعون التَّخلُّص منها، أو الانفكاك عنها، وأنَّهم مع وصولهم في عبادتها والإخلاص لها تلك الدَّرجة لم يجنوا مِن ورائها إلّا الضَّلال والخذلان والعذاب.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿يَدۡعُونَ﴾ مضارعًا:

عبادةُ الأصنام كانت عادةً مِن عادات المشركين وطقسًا من طقوس حياتهم

كما عبَّر النَّظمُ عن عبادة المشركين للأصنام بالفعل: ﴿يَدۡعُونَ﴾ مضارعًا؛ لِما يفيده التَّعبيرُ به مِنَ الدَّلالة على تجدُّدِ عبادتهم لها، واستمرارهم عليها، حتى صارت عادةً مِن عاداتهم، وطقسًا من طقوس حياتِهم، بجانب ما يفيدُه المضارع مِن استحضار صورة المشركين، وهم يتوسَّلون إلى تلك الأحجار، ويبتهلون، آملين في جلب المنفعةِ ودفع المضرَّة، ومع ذلك لم تجلب لهم نفعًا، ولن تجلبَهُ، ولم تدفع عنهم ضُرًّا، ولن تدفعَهُ.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ هي البيانيَّة المؤكِّدة عبادةَ المشركين للأصنام مِن دون اللّٰه، قبل موتِهم وبعْثِهم للقاء اللّٰهِ سبحانه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف: ﴿قَبۡلُۖ﴾:

قوله: ﴿قَبۡلُۖ﴾ ظرف زمان، يُراد به: مدَّة حياتِهم في الدُّنيا، عُبِّر به زيادةً في التَّحسير والتَّنديم؛ لأنَّهم أفنوا أعمارَهم في عبادة ما لا يضرُّ، ولا ينفعُ.

موقع ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ الإعرابيُّ ودلالته:

حالُ الكافرين قبل لقاء ربِّهم كانوا دائمين على عبادة الأصنام

قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقانِ بمحذوف حال مِنَ الضَّمير المرفوع في ﴿يَدۡعُونَ﴾، وفيه دلالةٌ على أنَّ الكفار - قبل أن تنتهي أعمارُهم، ويلقوا ربَّهم - كانوا مقيمين دائمًا على عبادة الأصنام مِن دونِ اللّهِ ﷻ، وأنَّهم لم يفكِّروا في الإقلاع عنها في وقتٍ من الأوقاتِ، ما يجعلهم جديرين بالعذاب الَّذي أعدَّهُ اللّهُ لهم.

توجيهُ العطفِ بالواو:

يجتمعُ على المشركين يوم القيامة ألمُ الخذلان وألمُ العذاب في النّار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّواْ﴾؛ لعطفِ ما بعدها على جملة: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾، عبَّر بها البيانُ القرآنيُّ؛ للدَّلالة على أنَّ المشركين أيقنوا أنَّهم مِن أهل النّار، ولا محيص لهم عنها، عند ما لم يجدوا آلهتهم حاضرةً أمامَهم، تجلبُ لهم النَّفع، وتدفع عنهم العذاب والضُّرَّ، فاجتمع عليهم بذلك نوعان من الألم، أحدهما نفسيٌّ: وهو ألمُ الخذلان، والآخرُ حسّيٌّ: وهو ألمُ العذاب في النّار، فبلغ عقابهم قمَّته، ووصل ذروته، والمعنى: (وإذ لَم يَجِدوا ما كانوا يَزعُمونَهُ؛ فقَد عَلِموا أنَّهُم لا مَحيصَ لَهُم)"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الظَّنِّ مادَّة وصيغة:

ظَنُّ الكافرين أنَّهم معذَّبون يصل إلى حدِّ اليقين

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بفعل الظَّنِّ ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم﴾؛ للدَّلالة على "أنَّهم لمّا كانوا عريقين في الجهل وسوء الطَّبع؛ كانوا يتوقَّعون أن يظفروا بهم، فيشفعوا لهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.

فلذلك عبَّر بفعل الظَّنِّ"[1]، ويمكن أن يكون التَّعبيرُ به جريًا على عادة العرب في التَّعبير بالظَّنِّ عن اليقين؛ للدَّلالة على الرُّجحان أو كونهِ واقعًا - لا محالة - والمعنى: "أيقَنوا أنَّهُم لا مَحيصَ لَهُم، أي: لا مَلجَأ لَهُم مِنَ العَذابِ الَّذي شاهَدوا إعدادَهُ"[2].

علَّةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾:

لا مكانَ يهرَبُ إليه المشركون مِن عذاب يوم القيامة

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ هي النّافية العاملة عمل ليس، وأوثِرَ النَّفي بها؛ لأنَّ مِن خصائصها نفْيَ الجمل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النَّفي مِن (ليس)، وأوسع استعمالًا منها أيضًا؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجمل الاسميَّة فحسب[3]، والنَّفي بـ ﴿مَا﴾ أنسب هنا؛ لأنَّها تفيد - بمعناها ومبناها المختوم بحرف المدِّ - نفي وجود مكانٍ يهرب إليه الكفّار من عذاب الله يوم الحساب نفيًا قاطعًا لا حدودَ له.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجار والمجرور: ﴿لَهُم﴾، وسرُّ تقديمه:

التَّعجيلُ بمساءة المشركين، وزيادةُ تحسيرِهم

اللّام في قوله: ﴿لَهُم﴾ حرف جرٍّ يفيد الاختصاصَ، والضَّمير المجرور فيه يعود على المشركين، وفي التَّعبير بهما دلالةٌ على اختصاص المشركين الَّذين عبدوا آلهةً من دون الله سبحانه بعدم وجود مكان يلجؤون إليه؛ ليحميَهم مِنَ العذاب الَّذي أُعِدَّ لهم على وجهِ الخصوص، وفيه تأكيدٌ لتيقُّنهم أنَّهم معذَّبون - لا محالة - وقُدِّم الجارُّ والمجرور على المسند إليه؛ تعجيلًا لمساءتهم وزيادة في تحسيرهم.

معنى ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّحِيصٍ﴾ هي البيانيَّةُ الَّتي تفيد تأكيدَ نفي المكان الَّذي يحيصُ إليه المشركون، كي ينجوا من عذاب النّار الَّذي أعدَّه اللّهُ تعالى خصّيصًا لهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 216.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.

تـنـكـيرُ الاسـم الواقع في سياق النَّفي يـدلُّ على عـمـومـهِ كـلَّ الأماكن

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿مَّحِيصٍ﴾ مادَّة وصيغة:

قولُه: ﴿مَّحِيصٍ﴾ مَصدَرٌ ميميٌّ، أوِ اسمُ مَكانٍ مِن: حاصَ يَحيصُ؛ إذا هَرَبَ، والمعنى: ما لَهُم مَفَرٌّ مِنَ النّارِ[1]، أوثِرَ التَّعبير به - لأنَّه يُصوِّر بمعناه ومبناه - الذُّعر والنُّفور الَّذي أصاب المشركين يوم الحساب، ودفعهم إلى البحثِ عن مكان يهربونَ إليه، لينجوا من العذابِ الَّذي لاحت بوادرُه، ولكنَّهم لم يجدوا، فأيقنوا أنَّهم معذَّبون - لا محالة - وأنَّ الآلهةَ الَّتي عبدوها مِن دونِ اللّٰه لن تغنيَ عنهم شيئًا، وأوثِرَ التَّعبير به نكرةً؛ لما يفيدهُ تنكير الاسم الواقع في سياق النَّفي من العموم والشُّمول المفيد انعدامَ كلِّ الأماكن؛ تحقيقًا للغرض الَّذي تقصد الآية إلى ترسيخهِ، وهو أنَّ كونَ علم السّاعة مردُّه إلى اللّٰه لا يعني تكذيبَ الرَّسول المُنذر بوقوعها، والَّذي استدعى بيانَ ما سيحدث للمشركين فيها.

۞ الفُروقُ المعجميّة:

المَحيص والمَفَرّ، والمَهْرَب:

المـحـيـصُ يـدلُّ عــلى الـفــرار المـمزوجِ بالذُّعر والـنُّـفـور، وهـو ما لا يتحقَّقُ في غيره دائمًا

المحيصُ هو: المكان الضَّيِّق الذي يلجأ إليه النّاسُ خوفًا ونفورًا من الخطر، أو رغبةً في النَّجاة مِنَ الهلاك[2]، والمَفَرُّ: هو المكان الَّذي يفرُّ إليه الإنسانُ خوفًا وبدون تَسَتُّر[3]، والمَهْرَبُ هو المكان الَّذي يَجِدُّ المرءُ في الذَّهاب إليه مذعورًا، أو غير مذعور[4]، ويعدُّ التَّعبيرُ بمفردة الـ ﴿مَّحِيصٍ﴾ أنسبَ للسّياق؛ لدلالته على الفرار المزوج بالذُّعر والنُّفور، الَّذي قد لا يوجد في مفردتَي المهرب والمفرِّ، ولاتِّساقه مع غرض التَّهويل والتَّخويف الرادع عن الشِّرك باللّٰه وتكذيب الرَّسول الَّذي ردَّ العلمَ بميقات السّاعة وموعدها إلى اللّٰه جلَّ في علاه؛ زيادةً في التَّرهيب والإنذار.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حوص) بتصرف.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (هرب)، بتصرف.

﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ [فصلت: 49]

❁ مناسبة الآية لما قبلها:

طَبْعُ الإنسانِ بعامَّة والكفّار بخاصَّة متبدِّلُ الأحوالِ متغيِّر المنهج إلّا مَن عصم الله

بعد أن بيَّنت الآيةُ السّابقةُ يأسَ الكفّار مِن النَّجاة من عذاب الآخرة؛ بسبب عجز الآلهة الَّتي كانوا يعبدونها من دون اللّه عن إنقاذهم؛ ناسب أن توضِّحَ هذه الآيةُ "أنَّ طَبْعَ الإنسانِ بعامَّة والكفّار بخاصَّة في جَميعِ الأوقاتِ مُتَبَدِّلُ الأحوالِ مُتَغَيِّرُ المَنهَجِ، فإن أحَسَّ بِخَيرٍ وقُدرَةٍ؛ انتَفَخَ، وتَعَظَّمَ، وإن أحَسَّ بِبَلاءٍ ومِحنَةٍ؛ ذَبُلَ ويأسَ"[1]، ويمكن أن يُقال: "لمّا دلَّ اتِّباعُهم للظَّنِّ - حتّى في ذلك اليوم الَّذي تنكشِفُ فيه الأمور، وتظهر عظائم المقدور - على أنَّهم في غاية العراقة في الجهل والرُّسوخ في العجز؛ أتبع ذلك الدَّليلَ على أنَّ ذلك طبعُ هذا النّوع، فلا يزال متبدِّل الأحوال متغيِّر المناهج، إن أحسَّ بخير؛ انتفخ عِظَمًا، وتطاول كِبرًا، وإن مُسَّ ببلاءٍ؛ تضاءلَ ذُلًّا وامتلأ ضعفًا وعجزًا؛ لأنَّ حال هذا النّوع بعيدٌ مِنَ العِلم، عريقُ الصِّفات في الجهل والشَّرِّ إلّا مَن عصمَهُ اللّه"[2].

❁ شرح المفردات:

1) ﴿يَسۡـَٔمُ﴾: السَّآمَةُ: الملالةُ ممّا يكثر لبثُهُ، فعلًا كان أو انفعالًا، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ٣٨﴾ [فصلت: 38]، وقال أيضًا: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾[3]، "وحقيقتُهُ عدمُ الصَّبر على استمرار أمر"[4].

2) ﴿مَّسَّهُ﴾: (مسس) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ بِاليَدِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 572.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 216.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (سأم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سأم).

يقال: مَسِسْتُهُ أَمَسُّهُ، ومَسَسْتُ أَمُسُّ، والمَمْسوسُ: الَّذي بِهِ مَسٌّ، كَأَنَّ الجِنَّ مَسَّتْهُ، والمَمْسوسُ مِنَ الماءِ: ما نالَتْهُ الأيدي[1]، ومن معانيه: الإصابةُ، قال تعالى: ﴿مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: 95]، أي: أصابتهم الشِّدَّة والرَّخاء، فجعل المسَّ هنا موضعَ الإصابةِ؛ ليدلَّ على قصر مدَّة ما أصابهم مِن ذلك، وتعرف به أنَّ مدَّة المكروهِ والمحبوب في الدُّنيا قصيرةٌ، وقال أيضًا: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: 48][2].

3) ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾: (يأس) كَلِمَتانِ: إحداهُما اليَأسُ، وهو: قَطْعُ الرَّجاءِ والطَّمع، يُقالُ: يَئِسَ يَيْأَسُ ويَيْئِسُ، على يَفْعَلُ ويَفْعِلُ[3]، ويقال: يَئِسَ واستَيأَسَ، مثل: عجب، واستعجب، وسخر، واستسخر، قال اللّٰه تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80]، وقال: ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ [الممتحنة: 13]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود: 9][4].

4) ﴿قَنُوطٌ﴾: (قنط) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ على: اليَأْسِ مِنَ الشَّيْءِ أو مِنَ الخَيرِ، يُقالُ: قَنَطَ يَقْنِطُ قُنوطًا، وقَنِطَ يَقْنَطُ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ [الحجر: 55]، وقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: 56]، وقال أيضًا: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 53][5].

المعنى الإجماليُّ:

الإنسانُ في حالِ الإقبال يطلبُ الزِّيادة، وفي حال الحرمان يصيرُ آيسًا قانطًا

توضِّحُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ "الإنسان في حال الإقبال، ومجيء المُرادات لا ينتهي قطُّ إلى درجة إلّا ويطلب الزّيادة عليها، ويطمع بالفوز بها، وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيسًا قانطًا، فالانتقال

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسَ).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 435.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسَ).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (يأس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قنط)، والراغب، مفردات القرآن: قنط.

من ذلك الرَّجاء الَّذي لا آخر له إلى هذا اليأسِ الكلّي يدلُّ على كونه متبدِّلَ الصِّفة مُتَغَيِّرَ الحال"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في الآية:

اليأسُ والقنوطُ في الشَّرِّ سمةٌ متأصِّلةٌ في الإنسان، وعادةٌ متجذِّرةٌ فيه

جاءت جملة: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ مفصولةً عمّا قبلها، لإحدى صور كمال الانقطاع، وهي الصّورة الَّتي لا يوجد فيها علاقةٌ بين المسند والمسند إليه في الجملتَين، حيث تتحدَّث الجملة الثّانية عن سمةٍ متأصِّلةٍ في الإنسان، وعادةٍ من عاداته، بينما تتحدَّث الجملةُ الأولى عن شعور الكافرين وتيقُّنهم من عدم وجود مكان يهربون إليه من عذاب جهنَّم، ما يعني أنَّ جملة: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ "اعتراضٌ بَينَ أجزاءِ الوعيدِ، والمَعنَى: وعَلِموا ما لَهُم مِن مَحيص، وقَد كانوا إذا أصابَتهُم نَعماءُ؛ كَذَّبوا بِقيام السّاعَة، فجُملَةُ: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَنُوطٞ﴾ تَمهيدٌ لِجُملَة: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾"[2]، ويمكن أن يكونَ الفصلُ لشبه كمال الاتِّصال الَّذي تُجيب فيه الجملة الثانية عن سؤالٍ خاصٍّ أثارته الجملة الأولى في نفس المتلقّي، تقديرُهُ: هل اعتقادُ المشركين أنَّ ما لهم من محيصٍ يوم القيامة راجعٌ إلى عادتهم وطبيعتهم عندما يمسُّهم الشَّرُّ؟ فتأتي الجملة الثّانية؛ لتُجيب بأنَّ ذلك من طبيعة الإنسان بصفة عامَّة، إلّا مَن رحم الله تعالى.

سرُّ النَّفي بـ ﴿لَّا﴾:

عدمُ المللِ مِن دعاء الخيرِ حالُ الإنسان في كلِّ أوقاته

استعمل النَّظمُ الكريمُ أداة النَّفي: ﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ﴾؛ ليشمل الماضي والحاضر والمستقبل، ولو قال: (لم يسأم)؛ لاقتصر على الماضي فقط، والمرادُ: بيان أنَّ هذا حالُ الإنسانِ في كلِّ أوقاته.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 572.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 9.

الإنسانُ في العادة يحبُّ الإلحاحَ على الله في تحقيق ما يراه خيرًا يعود عليه

نكتةُ الفعلِ: ﴿يَسْـَٔمُ﴾ مضارعًا:

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الفعل المنفي: ﴿يَسْـَٔمُ﴾ بصيغة المضارع؛ لِما يفيده من الدَّلالة على نفي السَّآمة والملل مِن دُعاء الخير نفيًا متجدِّدًا على مرِّ الزَّمان، فطبيعةُ الإنسان وعادتُه أنَّه يحبُّ الإلحاحَ على اللّٰه تعالى في تحقيق ما يرى فيه مصلحةً له، أو خيرًا يعود عليه، سواءٌ أكان هذا الخيرُ بطريقةٍ مباشرةٍ أم غير مباشرة.

بلاغةُ الاستعارةِ في نفي (السأم):

حبُّ الإنسان لطلب الخير والاستزادة منه لا يُمَلُّ ولا ينقطعُ

في قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ استعارةٌ؛ لأنَّ مَعناهُ: لا يَكْتَفي، "فَأَطلَقَ على الاكتِفاءِ والاقتِناعِ السَّآمَةَ، وهيَ: المَلَلُ، على وجْهِ الاستِعارَةِ، بِتَشْبيهِ استِرْسالِ الإنسانِ في طَلَبِ الخَيرِ على الدَّوام، بِالعمل الدّائم الَّذي شَأْنُهُ أن يَسأمَ مِنهُ عامِلُهُ، فنَفْيُ السَّآمَةِ عَنهُ رَمزٌ للاستِعارَةِ"[(1)]، ما يعني أنَّه استعارَ عدم السَّآمة لعدم الاكتفاءِ وعدم الاقتناع، استعارةً تصريحيَّة تبعيَّة، تبيِّن، وتوضِّح تعلُّقَ الإنسان بالخير، وحبَّه للاستزادة منه، بدون مَلَلٍ وانقطاعٍ.

نوع (أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ودلالتها:

للجِبِلَّةِ الإنسانيَّةِ أثرٌ قويٌّ في اتِّصاف الإنسان بما ورد في الآية إلّا من عصمه الله

(أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يمكن أن تكونَ لتعريف العهد، ويكون المراد الإنسانَ المُخْبَرَ عَنهُ بِأنَّهُ لا يَسأمُ من دُعاءِ الخَيرِ وما عُطِفَ عَلَيهِ هو صِنْفُ النّاسِ الَّذينَ جَرَى ذِكْرُ قَصَصِهم قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ، وهُمُ المُشْرِكونَ، ويجوز أن تكونَ لتعريف الجنس، ويكونَ المُرادُ: جنسَ الإنسان بصفة عامَّة، ويدخل فيه المشركون دخولًا برهانيًّا، وأيًّا كان نوع اللام؛ "فمَحْمَلُ الكلام يُرْشِدُ إلى أنَّ إناطَةَ هَذِهِ الأخبارِ بِصِنْفٍ مِنَ المُشرِكينَ أو بِمُشْرِكٍ مُعَيَّنٍ بعنوان ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يومِئُ بِأنَّ لِلْجِبِلَّةِ الإنسانيَّةِ أثَرًا قَوِيًّا في الخُلُقِ الَّذي مِنهُ هَذِهِ العَقيدَةُ إلّا مَن عَصَمَهُ اللّٰه بِوازِعِ الإيمانِ"[(2)].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 9.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 9.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ هي البيانيَّةُ الموضِّحةُ ما لا يسأم الإنسانُ مِن فِعله، ولا يملُّ مِن تَكراره، وهو: الدُّعاء بزيادة الخير، والإكثار منه، ويمكن أن تكونَ السَّببيَّةَ الموضِّحةَ أنَّ الإنسانَ لا يصيبه أيُّ شيءٍ من الملل أو السَّآمة بسبب إكثاره من طلبِ الخيرِ، وأنَّه يتحمَّل في سبيل تحصيله كلَّ شيء.

نوعُ كلمة: ﴿دُعَآءِ﴾ ووجه إضافتها:

بين الإنسان والخير ارتباطٌ يدفع إلى تحمُّل الآلام البدنيَّة والنَّفسيَّة في سبيل تحصيله

كلمةُ ﴿دُعَآءِ﴾ تعني: الطَّلب، وهي في قوله تعالى: ﴿دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مصدرٌ مضافٌ إلى مفعوله، عَبَّر به النَّظمُ؛ لأنَّه يدلُّ - بمعناه ومبناه المشتمل على ألف المدِّ في وسطه - على مبالغة الإنسان في طلب الخير، ويؤكِّد أنَّ طمعَهُ في حوزِهِ والإكثار منه لا حدود له، وجيء به مضافًا إلى مفعوله للإشعار بأنَّ ثمَّةَ ارتباطًا وثيقًا، وتلاصقًا شديدًا بين الطَّلب والخير، وأنَّ هذا الارتباطَ هو الَّذي يثير الناس إلى تحمُّل المصاعب والآلام البدنيَّة والنَّفسيَّة في سبيل تحصيل أكبر قدر منه، والمعنى: "لا يملُّ الإنسان من طلب الخير طلبًا عظيمًا، وذلك دالٌّ - مع شرهه - على جهله، فإنَّه لو كان عالمًا بأنَّ الخير يأتيه، أو لا يأتيه؛ لخفَّفَ عن نفسهِ من جهده في الدُّعاء"[1].

كلمة: ﴿دُعَآءِ﴾ بين التصريحيَّة والمكنيَّة:

التَّعبيرُ المجازيُّ يُبرز شغفَ الإنسان بالخير وتطلُّعَه إلى تحصيله

الدُّعاءُ: أصلُهُ الطَّلَبُ بِالقَولِ[2]، وهو هُنا مَجازٌ في الطَّلَبِ مُطلَقًا، حيث شُبِّه الحرصُ على تحصيلِ الخيرِ وجمعه بالطَّلب بالقول، بجامع سرعة التَّحصيل وكثرته، ثم استُعير الثاني للأوَّل على سبيل الاستعارة التصريحيَّة، ويَجوزُ أن يَكونَ التَّعبيرُ استِعارَةً مَكنيَّةً، شُبِّهَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 216.

(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 219.

فيها الخَيْرُ بِعاقِلٍ يَسألُهُ الإنسانُ أن يُقْبِلَ عَلَيهِ[1]، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ به، ورُمِزَ إليه بشيءٍ مِن لوازمِه، وهو الدُّعاء على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وأيًّا كان نوع الاستعارة؛ ففيها إبرازٌ لقيمة الخير، وبيانٌ لمدى شغف الإنسان به، وتطلُّعه إلى تحصيله، وعدم الاكتفاء منه بأيِّ مقدار.

نوع (أل) في ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ ودلالته:

الإنسانُ يحرصُ على الدُّعاء بكلِّ أنواع الخير

(أل) في ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ لتعريف الجنس الدالَّة على أنَّ الإنسان يحرص على طلب الخير بجميع أنواعِه، فهو يحرص على كلِّ ما فيه نعمةٌ وسعةٌ، سواء أكان ذلك مالًا أم عقارًا أم أزواجًا وأولادًا، أم غير ذلك، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «لَو كانَ لابنِ آدَمَ واديانِ مِن مالٍ؛ لابتَغَى ثالِثًا، ولا يَمْلَأُ جَوْفَ ابنِ آدَمَ إلّا التُّرابُ، ويَتوبُ اللّه على مَنْ تابَ»[2].

توجيهُ العطف بالواو:

مِنْ عجيبِ فعل الإنسان سرعةُ تَقَلُّبِه بين الحالة وضدِّها

الواو في قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ لعطفِ ما بعدها على جملة: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أُوثِرَ عطفُهما بالواو الَّتي تفيد المصاحبة؛ للإشارة إلى سرعة تقلُّبِ الإنسانِ وعجيب تحوُّله مِنَ النَّقيض إلى النَّقيض، ومِنَ الحالة إلى ضدِّها؛ تأكيدًا لجهله، وبيانًا لقِلَّةِ صبرِه وعظيم ضَجَرِه.

دلالة (إنْ) الشَّرطيَّة:

الحالاتُ التي يمسُّ فيها الشَّرُّ الإنسانَ قليلةٌ ونادرةٌ

عبَّر النَّظمُ في قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ بحرفِ الشَّكِّ (إنْ) أداةً للشَّرط؛ للدَّلالة على نُدرة الحالات الَّتي يمسُّ الشَّرُّ فيها الإنسانَ وقلَّتِها[3]، وأنَّه - مع كثرة أحوال المعافاةِ والإقبالِ، ونُدرة أحوال الإعراض والإدبار - يملأ اليأسُ قلبَهُ، ويسيطر القنوطُ على انفعالاتهِ؛ إذا أصابه شيءٌ من الشَّرِّ أو الضُّرِّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 10.

(2) البخاري، الجامع الصحيح: باب ما يتقى من فتنة المال، حديث رقم: 6072.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 11.

نكتةُ إيثارِ فعل المَسِّ ماضيًا، ومرجع الضَّمير فيه:

ما ينزل مِن البؤسِ بالإنسان لا يدوم طويلًا، وسرعان ما يزول

قولُه: ﴿مَّسَّهُ﴾ فعلٌ ماضٍ، وفاعلُه: ﴿ٱلشَّرُّ﴾، وضميرُه المنصوب يعود إلى: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ عبَّر به النَّظمُ بدلًا مِنَ الفعل: أصاب؛ للدَّلالة على قِصَرِ مُدَّة ما يصيب الإنسانَ من الشَّرِّ، وأنَّ أيّامَ عافيته أكثرُ وأطولُ من أيّام بلائهِ وشدَّتهِ، وفي التَّعبير به ماضيًا دلالةٌ على أنَّ ما ينزل به مِن بؤسٍ أو حزنٍ لا يدوم طويلًا، وينقضي على وجه السُّرعة، وفي إسنادهِ إلى ﴿ٱلشَّرُّ﴾ دلالةٌ على أنَّ "هذا النَّوع قليلُه وكثيرُه يحدث بغتةً، ويأتي من جهة لا يتوقَّعُها الإنسانُ"[1]، وفيه ما لا يخفى من تعليم النّاسِ التَّأدُّبَ مع الله تعالى، وعدم إسنادِ الشَّرِّ إليه.

نوع (أل) في ﴿ٱلشَّرُّ﴾ ودلالته:

الإنسانُ يضجر مِنَ الشَّرِّ بجميع أنواعه ومقاديره

(أل) في ﴿ٱلشَّرُّ﴾ لتعريف الجنس، عُرِّفَ بها للدَّلالة على ضيق الإنسان وتبرُّمه مِنَ الشَّرِّ بجميع أنواعه ومقاديره وأزمانه، فهو يضجرُ إذا أصابَهُ شرٌّ مطلقًا، سواء أكان قليلًا أم كثيرًا، قصيرًا أم طويلًا، وسواء أكان في المال أم في الولد أم في الصِّحَّة أم في أيِّ ناحية مِن نواحي الحياة.

بلاغةُ المجاز في ﴿مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾:

إبرازُ الشَّرِّ في صورة العاقل الذي يقصد إخراج الإنسان من الغفلة وإعادته إلى الجادة

في جملة: ﴿مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ استعارةٌ، شُبِّه فيها الشَّرُّ بعاقل يقصد الإنسانَ ليصيبَهُ، ويُنْزِلَ به بعضَ الآلام التي تنبِّهه من الغفلة، وتعيدُه إلى جادَّة الطَّريق، أو ترفع من درجاتِه عند الله، ثم حذف المشبَّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو فعل المسِّ على سبيل الاستعارة المكنيَّةِ التي تُخرج الشَّرَّ مِن دائرة الأمور المعنويَّة، وتبرزه في دائرة الأمور الحسّيَّة الَّتي تؤلم الإنسان، وتذيقُهُ بعض ما يدعوه إلى التَّفكُّر والتَّراجع، أو التَّفكُّر والرِّضا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 216.

بلاغةُ المقابلة في الآية:

إبراز حرصِ الإنسان على الاستزادةِ من الخير وانصرافه عن الشَّرِّ

قابل النَّظمُ الكريم بين معنيَين في قولهِ تعالى: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ ومعنيين ضِدَّيهما في قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، وهي مقابلةٌ تبرز لهفةَ الإنسان وحرصَهُ على الاستزادة من الخير بكلِّ أنواعه، وانصرافَه عن الشَّرِّ وعدم رغبته فيه بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وتوضِّح أنَّ "هَذا الخُلُقَ أَمْرٌ مُرْتَكِزٌ في نَفسِ الإنسانِ، وهو التَّوجُّهُ إلى طَلَبِ المُلائِمِ والنّافِعِ، ونِسيانُ ما عَسَى أن يَحِلَّ بِهِ مِنَ المُؤلِمِ والضّارِّ، وبِذَلِكَ يَأنَسُ بِالخَيرِ؛ إذا حَصَلَ لَهُ، فيَزْدادُ مِنَ السَّعْيِ لِتَحْصيلِهِ، ويَحْسَبُهُ كالمُلازِمِ الذّاتيِّ، فلا يَتَدَبَّرُ في مُعْطيهِ حَتَّى يَشكُرَهُ، ويَسألَهُ المَزيدَ تَخَضُّعًا، ويَنسَى ما عَسَى أن يَطرَأ عَلَيهِ مِنَ الضُّرِّ، فلا يَستَعِدُّ لِدَفْعِهِ عَن نَفسِهِ بِسُؤالِ الفاعِلِ المُختارِ أن يَدفَعَهُ عَنهُ، ويُعيذَهُ مِنهُ"[1].

معنى الفاءِ:

سرعانُ ما يتحوَّل الإنسانُ إلى اليأس والقنوط عندما يصيبه مكروهٌ

الفاء في قوله: ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ هي الداخلةُ على جواب الشَّرط، والَّتي تربط بين جملتيه برباط السَّببية، وهي - مع ذلك - تفيد معنى التَّعقيب والإسراع، ما يعني: سرعةَ تحوُّل الإنسان إلى اليأس والقنوط عندما يصيبه أيُّ شيء من الشَّرِّ أو الضُّرِّ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَيَـُٔوسٞ﴾ مادة وصيغة:

يصير الإنسانُ كأنَّه عريقٌ في اليأس بمجرَّد أن يصيبه شيءٌ مِنَ الإعراض أو الإدبار

اليأسُ معناه: انقطاعُ رجاءِ الإنسان، وذهاب طمعه في حصول الميؤوس منه، وهو فعلٌ قلبيٌّ يصيبُ الإنسانَ الَّذي قلَّ إيمانُه عندما ينزل به شيءٌ يكرهه، أوثِرَ التَّعبيرُ عنه بصيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿فَيَـُٔوسٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه يصير عريقًا في اليأس[2]، بمجرَّد أن يصيبَهُ شيءٌ مِنَ الإعراض أو الإدبار، وكأنَّ حياتَه كلَّها كانت شرًّا وإدبارًا، ولم يرَ فيها خيرًا قطُّ، "وذَلِكَ من خلق قلَّة صبر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 9، 10.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 216.

الإنسان على ما يتعبه، ويشقُّ عليه، فيضجر؛ إن لحقَهُ شرٌّ، ولا يوازي بين ما كان فيه من خيرٍ، فيقول: لئن مسَّني الشَّرُّ زمنًا؛ فلقد حلَّ بي الخيرُ أزمانًا، فمِن الحقِّ أن أتحمَّل ما أصابني، كما نعمتُ بما كان لي من خيرٍ، ثم لا ينتظر إلى حين انفراج الشَّرِّ عنه، وينسى الإقبال على سؤالِ اللّه أن يكشفَ عنه الضُّرَّ، بل ييأس ويقنط غضبًا وكبرًا، ولا ينتظر معاودةَ الخيرِ ظاهرًا عليه أثر اليأس بانكسار وحزن"[1].

وجهُ التَّعبير بـ ﴿قَنُوطٌ﴾ مادة وصيغة:

التَّعجيبُ مِن حال الإنسان إذا أصابه شيءٌ من الشَّرِّ أو الضُّرِّ

القُنوطُ هو: اليأسُ مِنَ الخَيرِ مع انكسارٍ وتضاؤلٍ، وهو انفعالٌ ناتجٌ عن اليأس ومُتَرَتِّب عليه[2]، أوثِرَ التَّعبير عنه أيضًا بصيغة المبالغة؛ للدَّلالة على أنَّ الإنسان يصير عريقًا في الانكسار والتَّضاؤل بمجرَّد أن يصيبَهُ شيءٌ من الشَّرِّ، وكأنَّ حياته كلَّها كانت شرًّا، ولم يصبْهُ شيءٌ مِنَ الخيرِ مطلقًا، ما يثير العجب والاندهاش من ذلك التَّحوُّل الغريب الَّذي أصابه.

براعةُ إتباع اليأس بالقنوط:

يتأثَّر الإنسان بما يمسُّه من الشَّرِّ تأثُّرًا قلبيًّا، وتأثُّرًا انفعاليًّا

إتْباع ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ بـ ﴿قَنُوطٌ﴾ الَّذي هو: تَجاوُزُ إحْساسِ اليَأْسِ إلى ظاهِرِ البَدَنِ بِالانكِسارِ، وهو من شِدَّةِ يَأْسِه، تحصل به مُبالَغتانِ في التَّعْبِيرِ عَن يَأسِه، بِأنَّهُ اعتِقادٌ في ضَميرِهِ وانفِعالٌ في سَحَناتِهِ، فالمُشرِكُ يَتَأصَّلُ فيه هَذا الخُلُقُ، ويَتَزايَدُ باستِمرارِ الزَّمانِ، والمُؤْمِنُ لا تَزالُ تَربِيَةُ الإيمانِ تَكُفُّهُ عَن هَذا الخُلُقِ حَتَّى يَزولَ مِنهُ، أو يَكادَ"[3]، بجانب أنَّ فيه مبالغةً من طريقين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التَّكرير[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 10.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 315، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 10.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 11.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 205.

سرُّ البدء بصفة القلب:

اليَأسُ مِن صِفَةِ القَلبِ، وهو أن يَقطَعَ رَجاءَهُ مِنَ الخَيرِ، والقُنُوطُ: أن يَظهَرَ عَلَيْهِ آثارُ اليَأْسِ، فيتضاءلَ، وينكسرَ، وبَدَأَ بِصيغَةِ القَلبِ؛ لأنَّها هيَ المُؤَثِّرَةُ فيما يَظْهَرُ على الصّورَةِ مِنَ الانكِسارِ[1].

القلبُ هو المؤثِّر فيما يظهرُ على صورةِ الإنسانِ من فرحٍ أو انكسارٍ

بلاغةُ التَّعبير بأسلوب الشَّرط:

أوثِرَ التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ بأسلوب الشَّرط؛ لِما يمتازُ به من بيانِ المعنى وإيضاحه، وتنبيه المتلقّي وإثارته إلى ترقُّب جملة الجواب، فإذا وردَت؛ ثبت معناها في النُّفوس، واستقرَّ في العقول، وشُحذت همَّة الإنسان إلى ألّا يكون مِنَ النَّوع الذي يظهر عليه اليأسُ والضَّجر؛ إذا أصابه شيء مِن الشَّرِّ، بل يتحلّى بالصَّبر والرِّضا، ويحرص على الدُّعاء والابتهال إلى الله تعالى، حتى يرفعَ ما نزل به من الضُّرِّ، أو يخفِّفَ عنه ما أصابه من الشَّرِّ.

جملةُ الجوابِ تشحذُ همَّةَ الإنسانِ إلى ألّا يكون يؤوسًا قنوطًا

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السَّأم واليأس والقنوط والملل والضَّجر:

السَّأمُ: الملَلُ ممّا يكثر لبثُهُ، فعلًا كان أو انفعالًا، و"القنوط أشدُّ مُبالغَةً من اليَأْسِ، أمّا اليَأْسُ؛ فقد يكون قبل الأمل، وقد يكون بعده"[2]، والمَلَل: أن تملَّ شيئًا، وتُعرِضَ عنه[3]، والضَّجر: القلق والتَّبرُّم من الغَمِّ[4]، ولمّا كان الحديثُ عن حرص الإنسانِ على ما فيه مصلحتُهُ؛ ناسب التَّعبير بـ ﴿يَسۡـَٔمُ﴾ المنفي؛ لإفادته نفي إصابة الإنسان بأيِّ قدر من الملل، أو الضَّجر، أو القنوط في الأقوال والأفعال عندما يدعو بالخيرِ، وهو أكثرُ هذه المفردات مطابقةً للواقع والحقيقة.

نفيُ السَّأمِ يناسب حرصَ الإنسانِ على تحصيل الخيرِ بدون ضجرٍ في الأقوال والأفعال

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 315.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 245.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ملل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ضجر).

المسّ واللَّمس والإصابة:

أصلُ المسِّ: جسُّ الشَّيء باليد أوالحَجَر أوغيرهما، ومن معانيه: الإصابةُ، وهو يدلُّ على قِصَر مدَّة الشِّدَّةِ أو الضُّرِّ، واللَّمس يكون باليد لتعرُّف الخشونة أو اللّين أو غير ذلك[1]، والإصابة: النُّزول بالشَّيء واللَّحاق به، خيرًا كان النّازل أو شرًّا، ويكثر استعمالُهُ في الشَّرِّ[2]الَّذي تطولُ مدَّته، ولمّا كان الحديثُ عن عدم تحمُّل الإنسان ما يصيبه من الشَّرِّ أو الضُّرِّ؛ ناسب التَّعبير بفعل (المَسِّ)؛ لأنَّه أكثرُ دلالةً على ذلك لقصر مدَّته، ولتنوُّع آليّاته وأشكاله، بخلاف اللَّمس الذي لا يكون إلّا باليد، والإصابةُ التي يمكن أن يطولَ أمدُها، ويكون في التَّعبير بها نوعٌ من التماس العذر للضاجرين المُتَبرِّمين.

المَسُّ أقصرُ مدَّةً و أكثرُ تنوُّعًا من اللَّمس والإصابة

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 435.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وصب).

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٠﴾ [فصلت: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ خُلُقٍ آخرَ مِن أخلاقِ الإنسانِ

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ طَبْعَ الإنسانِ بصفةٍ عامَّة والكفار بصفة خاصَّة أنَّه متبدِّلُ الحال متغيِّرُ المنهج، فإن أحسَّ بخير؛ انتفخ، وتعظَّم، وإن أحسَّ ببلاء؛ ذبل، ويأس؛ ناسب أن تبيِّن هذه الآية خُلُقًا آخَرَ فيه، وهو أنَّهُ إذا زالَ عَنْهُ كَرْبُهُ، وعادَتْ إلَيْهِ النِّعْمَةُ؛ نَسيَ ما كانَ فيهِ مِنَ الشِّدَّةِ، ولَمْ يَتَفَكَّرْ في لُطْفِ اللّٰه بِهِ، فبَطِرَ النِّعْمَةَ(1)، وأنكر الحساب، وتدلَّل على اللّٰه بمكانته ومنزلته في الدُّنيا.

تأكيدُ جهلِ الإنسانِ وغلبةِ الأفكارِ الرَّديئةِ على عقلِهِ

ويُمكن أن يُقال في وجه المناسبة: "لمّا دلَّ ما سبق على عظيم جهل الإنسان، وغلبةِ الأفكار الرَّديئة على عقله؛ أتبعه - تأكيدًا لذلك - ما يدلُّ على أنَّ حالَهُ بعد هذا اليأس الذي قطع فيه بلزوم الشَّرِّ وامتناع حصول الخير، أنَّه لو عاودته النِّعمة بغتة من وجه لا يرجوه، وليس له دليلٌ ما على دوامها وانصرامها؛ لعاد إلى البطر والكِبر والأشر، ونسي ما كان فيه من الشِّدَّة"(2).

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذَقۡنَٰهُ﴾: (ذوق) أصلٌ واحِدٌ، وهو اختِبارُ الشَّيءِ مِن جِهَةِ تَطَعُّمٍ، ثُمَّ يُشتَقُّ مِنهُ، فيُقالُ: ذُقْتُ المَأكولَ أذوقُهُ ذَوقًا، وذُقتُ ما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 11.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 217.

عِندَ فُلانٍ: اختَبَرتُهُ[1]، فالذّوق: وجود الطَّعم بالفم، وأصلُه فيما يقلُّ تناولُهُ دون ما يكثر؛ لأنَّ ما يكثر منه يقال له: الأكلُ[2]، والذَّوق: مباشرة الحاسَّة الظّاهرة أو الباطنة، ولا يختصُّ ذلك بحاسَّة الفمِ في لغةِ القرآن، ولا في لغةِ العرب، قال تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝﴾ [الأنفال: 50]، وقال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝﴾ [ص: 57]، وقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝﴾ [النحل: 112]، فقد جمعَ الذَّوق واللِّباس؛ ليدلَّ على مباشرة الذَّوق وإحاطته وشموله[3].

2) ﴿ضَرَّآءَ﴾: (ضرر) ثَلاثَةُ أُصولٍ: أحدُها: خِلافُ النَّفْعِ، يُقالُ: ضَرَّهُ يَضُرُّهُ ضَرًّا، ثُمَّ يُحْمَلُ على هَذا كُلُّ ما جانَسَهُ، أو قارَبَهُ[4]، والضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نفسه لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمّا في بدنِه لعدم جارحة ونقص، وإمّا في حالة ظاهرة من قلَّة مال وجاه، وقوله: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: 84] محتملٌ لثلاثتها، والضَّرّاءُ يُقابل بالسَّرّاء، والضُّرُّ بالنَّفع، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ [هود: 10][5].

3) ﴿قَآئِمَةً﴾: (قوم) أصلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما على انتِصابٍ أو عَزْمٍ، يُقال: قامَ قيامًا؛ إذا انتَصَبَ، والقيامَةُ أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دُفْعَةً واحدة، أُدخل فيها الهاءُ تنبيهًا على وقوعها دُفْعَة وفجأة، والقيامَةُ: قيام السّاعة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الروم: 12]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [المطففين: 6]، وقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: 36][6].

4) ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾: (حسن) أصلٌ واحِدٌ، ضِدُّ القُبْحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ وامرَأَةٌ حَسناءُ وحُسّانَةٌ[7]، والحُسنُ: عبارةٌ عن كلِّ مبهجٍ مرغوبٍ فيه[8]، ومعناه المحوريُّ: نَقاءُ الشَّيء ورقَّته بخروج الخَشن أو الغليظ الَّذي يخالطه، فيَشوبُ رِقَّتَهُ، والحسنى هي: التي تَفْضُل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (ذوق).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 24.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرَّ).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (ضرَّ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم)، والراغب، مفردات القرآن: (قوم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (حسن).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (حسن).

سواها في الحُسن، أطلقَتْ على الجنَّة في قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، وعلى كلِّ ما فاق في الحسن، كقوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 137]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 180][1].

5) ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾: (نبأ) قياسُهُ: الإتْيانُ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنْبَأُ مِن أَرْضٍ إلى أَرْضٍ: نابِئٌ، وسَيْلٌ نابِئٌ: أَتَى مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ومِنْ هَذا القياسِ النَّبَأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يَأْتي مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ[2]، والنَّبَأُ: خبرٌ ذو فائدة عظيمةٍ يحصل به علمٌ أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر: نَبَأٌ، حتى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة، وحقُّ الخبر الذي يُقال فيه: نَبَأٌ، أن يتعرّى عن الكذب، كالتَّواتر وخبر اللّٰه تعالى وخبر النَّبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

6) ﴿غَلِيظٖ﴾: الغِلْظَةُ ضدُّ الرِّقَّة، يقال: غِلْظَةٌ وغُلْظَةٌ، وأصلُهُ أن يُستعمل في الأجسام، لكن قد يُستعار للمعاني كالكبير والكثير، قال تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: 123]، أي: خشونة، وقال: ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: 24]، وقال أيضًا: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: 73][4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا جزاءَ للاغترارِ بِنِعمِ الله تعالى إلّا العذابُ الغليظ يومَ القيامة

تبيِّن الآيَةُ الكريمة أنَّ هَذا الَّذي صارَ آيسًا قانطًا لَو عاودَتْهُ النِّعْمَةُ والدَّوْلَةُ[5]، وزالَ عَنْهُ كَرْبُهُ؛ لنَسيَ ما كانَ فيهِ مِنَ الشِّدَّةِ، ولَم يَتَفَكَّرْ في لُطْفِ اللّٰه بِهِ، ولَبَطِرَ النِّعْمَةَ، وقالَ: قَدِ استَرْجَعْتُ خَيراتي بِحيلَتي وتَدبيري، وهَذا الخَيرُ حَقٌّ لي، حَصَلْتُ عَلَيهِ، ثُمَّ إذا كانَ مِن أهلِ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ)، وابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (نبأ).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (غلظ)، وابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 316.

الشِّرْكِ؛ تَراهُ إذا سَمِعَ إنذار النَّبيِّ بِقيام السّاعَةِ، أو هَجَسَ في نَفسِهِ هاجِسُ عاقِبَةِ هَذِهِ الحَياةِ؛ قالَ لِمَن يَدعوهُ إلى العَمَلِ لِيَوم الحِسابِ، أو قالَ في نَفسِهِ: ما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَةً، ولَئِنْ فرَضْتُ قِيامَ السّاعَةِ على احْتِمالٍ ضَعيفٍ، فإنّي سَأجِدُ عِنْدَ اللّه المُعامَلَةَ بالحُسْنَى؛ لأنّي مِن أهلِ الثَّراءِ والرَّفاهيةِ في الدُّنْيا، فكَذَلِكَ سَأكونُ يَوْمَ القِيامَةِ[1]، كما توضِّح الآيةُ أنَّ اللّه تعالى سيخبر هؤلاء الكفار المغرورين بكلِّ أعمالهم يوم القيامة، وسيُذيقُهم عليها العذابَ الغليظَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل في الآية:

الواو في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، عَبَّر بها النَّظم لبيان حال ذلك الإنسان - الَّذي كان آيسًا قانطًا - عندما تعاودُهُ النِّعمة، ويزول ما نزل به من شرٍّ، ويذيقُه اللّه تعالى شيئًا من رحمته.

معنى اللام في ﴿وَلَئِنْ﴾:

قسمُ الله علامةٌ علــى غـضـبـهِ وعــدم رضاه عـمَّـن يـجـحد نعمَهُ، أو يَغْتَرُّ بها

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ هي الموطِّئة للقسم على أنَّ حالَ ذلك الإنسان عندما تعاودُه النِّعمة، ويتذوَّق شيئًا من لذّاتها هو الاغترار والجحودُ وإنكارُ فضل اللّه في اختصاصهِ بها، ونسبةُ التَّسبُّب فيها إلى نفسه، ولا يخفى أنَّ قسمَ اللّه تعالى علامةٌ على غضبِه وعدم رضاه عمَّن يفعلُ ذلك.

دلالةُ (إنْ) الشرطيَّة:

مَـنْـحُ الآيـسِ القـانـطِ فرصةً ثانيةً ليس أمرًا مُسَلَّمًا به

التَّعبيرُ بِحرف الشَّكِّ: (إنْ) أداةً للشَّرط في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾، فيه دلالةٌ على أنَّ معاودة التَّفضُّل على الإنسان بالنِّعمة بعد يأسه وقُنوطه قد يحصلُ مِن "جهةٍ لا يرجوها على سبيل الاختبار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 11، 12.

والبغتة"[1]، فليس منحُ الآيسِ القانطِ فرصةً ثانيةً أمرًا مُسَلَّمًا به، ولكنَّه راجعٌ لمشيئة الله تعالى وإرادته.

بلاغةُ جملةِ الشَّرط:

في تعبير النَّظم بأسلوب الشَّرط - عمّا يحصُل من الإنسان الَّذي أصابه اليأسُ والقنوط عندما تعاوده النِّعمة - نوعٌ من الإثارة والتَّشويق إلى الفعل وجوابِهِ؛ تحذيرًا للنّاس بصفة عامَّة، وللمشركين بصفة خاصَّة من أن يكونوا من هذا النّوع الجاحدِ نِعَمَ الله تعالى، المغرورِ بها.

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الإذاقة ماضيًا:

الإنسانُ الجاحدُ يصيبُه الغرورُ مع عدم تَيَقُّنه من دوام النِّعم واستمرارها

قولُه: ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ جملةٌ في محلِّ جزم فعل الشَّرط، وهي مكوَّنة من الفعل: (أذاقَ)، والفاعل: ضميرُ المتكلِّم العائد إلى الله: (نا)، والمفعول الأوَّل هاء الغائب العائد إلى الإنسان، وفيها عبَّر النَّظم بفعل الإذاقة الَّذي يُستعمَل فيما يقلُّ تناوله[2]؛ للدَّلالة على قِصَر مدَّة النِّعمة، وعدم القطع بدوامها، يقوّيه التَّعبير بالماضي المؤكِّد سرعة الانتهاء، وقلَّة مدَّة البقاء، وفيه دليلٌ على اتِّصاف الإنسان بالغرور والجحود، مع عدم وجودِ برهانٍ لديه على بقاءِ النِّعمةِ، وعدمِ انصرامِها[3].

نكتةُ التَّعبيرِ عن فعل الإذاقةِ بصيغة التَّعظيم:

إذاقةُ النّاس النِّعَمَ من جليل تدبير الله وعظيم تقديره

أسنَد البيانُ القرآنيُّ فِعلَ الإذاقة إلى ضمير الحقِّ سبحانه بصيغة التَّعظيم في قوله: ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك من جليل تدبير الله وعظيم تقديره[4]، وأنَّه لا يحدث خبطَ عشواء، وإنَّما يحدث لحكمةٍ وفائدةٍ يريدُها المولى سبحانه وتعالى.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 217، 218.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (ذوق).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 217.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 218.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ نكرةً:

نِعمُ اللهِ تعالى مِن آثار رحمته بخلقه

عبَّر النَّظمُ الكريم عن النِّعمة بلفظ: ﴿رَحۡمَةٗ﴾، تعظيمًا للنِّعمة، وإكرامًا للإنسان الذي اختصَّه اللّهُ بها، ببيان أنَّها مِن آثار رحمةِ اللّه تعالى به[1]، وجيءَ بها نكرةً لِما يفيده التَّنكيرُ من عموم الرَّحمة وشمولها كلَّ أنواع النِّعم، كالصِّحَّة بعد المرض، أو الغنى بعد الفقر، أو السَّعة بعد الضيق، و غير ذلك[2].

بلاغةُ المجاز في جملة: ﴿أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ﴾:

إبـــرازُ غـفـلـةِ الإنـسـان وبيانُ انـشـغـالـه بـالـنِّـعـمـة عن شـكـر المُـنْـعِـم المُتفضِّل

في قوله تعالى: ﴿أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّهت فيها الرَّحمةُ وهي أمرٌ معنويٌّ بالحلوى التي يتلذَّذُ الإنسانُ بتذوُّقها، ثم حذف المشبَّه به، ورُمز إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو فعل الإذاقةِ على سبيل الاستعارة المكنيَّة الَّتي تُبرز غفلةَ الإنسان، وتبيِّن انشغالَهُ بالنِّعمة، والتَّلهّي بها عن شكرِ المُنعم، الَّذي تفضَّل بها عليه.

فائدةُ التَّعبير بشبه الجملة: ﴿مِّنَّا﴾:

كـلُّ الـنِّـعم مِن عند الله ابتداءً، وإنْ حصلَتْ مِن جهةٍ لا يتوقَّعُها الإنسانُ

(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنَّا﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الابتداء، والضَّمير المجرور فيه يعود إلى المنعم سبحانه، والتَّعبير بهما يدلُّ على أنَّ كلَّ النِّعم مصدرُها اللّهُ ﷻ، ويؤكِّد أنَّه هو الَّذي يذيقُها للإنسان، حتّى وإن حصلت من جهةٍ لا يرجوها النّاسُ، ولا يتوقَّعونها.

دلالةُ التَّعبير بالجار والمجرور في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

لا بدَّ للإنسان أن يُخْتَبَرَ بالعقاب والإكـــرام وما بينهما

التَّعبيرُ بحرف الجرِّ والظَّرف المجرور في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ﴾ يدلُّ على انفصال النِّعمة الَّتي أذاقها اللّه للإنسان عن الضُّرِّ الذي مسَّه، مع قرب زمانها منه؛ ليكونَ قد جُمع له مباشرةُ الأحوال الثَّلاثة: العقاب، والإكرام، وما بينهما من الوسط الَّذي بين حالتي الرِّضا والسُّخط[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 315، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 218.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 205، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 5.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 218.

توجيهُ التَّعبير بلفظ: ﴿ضَرَّآءَ﴾ مادَّة وصيغةً:

التَّعبيرُ بلفظ: ﴿ضَرَّآءَ﴾ الموضوع لخلاف النَّفع يدلُّ - بمعناه ومبناه المشتمل على حرف المدِّ في وسطه - على إصابته بمحنة كبيرة وشدَّةٍ عظيمة[1]، لم يكن في طاقتِهِ أن يتخلَّص منها؛ لولا عونُ اللّه ورحمتُه، يقوّيه التَّعبيرُ به نكرةً دالَّةً على التَّعظيم.

ليس في طاقة الإنسان أن يتخلَّص من المِحَن والابتلاءات إلّا بعون الله

سرُّ إيثارِ التَّعبير بفعل المسِّ ماضيًا:

قولُه تعالى: ﴿مَسَّتْهُ﴾ جملةٌ في محلِّ جرٍّ صفة لـ ﴿ضَرَّآءَ﴾، وأوثِرَ التَّعبيرُ فيها بفعل المسِّ ماضيًا؛ للدَّلالة على قِصَر المدَّة الَّتي ابْتُلي فيها الإنسانُ بالضَّرّاء التي أصابته، وبها يتجلَّى لطفُ اللّه تعالى به، وإنعامُه عليه، ورحمتُه له.

الابتلاءُ بالضَّرّاء لا يدوم طويلًا

معنى اللّام في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

اللام في: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هي المُؤكِّدة الداخلةُ على جواب القسم، الذي قام مقام جواب الشَّرط لتقَدُّم القسمِ على الشَّرط، والتَّعبيرُ باللّام المؤكِّدة فيه دلالةٌ على أنَّ هذا الجاحدَ جازمٌ بما يقول، معتقدٌ له تمام الاعتقادِ.

الإنسانُ الجاحدُ جازمٌ بما يفتريه معتقدٌ له تمام الاعتقاد

دلالةُ فعل القول المضارع:

أوثِرَ التَّعبيرُ بفعل القول مضارعًا في جملة: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ لدلالتهِ على تجدُّد صدور هذا القول و أمثاله من الإنسان، كلَّما أذاقه اللّه تعالى نعمةً من نعمه، الَّتي لا تُحصى، ولا تُعدُّ، يُزاد على ذلك ما يفيده التَّعبيرُ بالمضارع من استحضار الصّورة المُتَحدَّث عنها في ذهن كلِّ واحدٍ من المُتَلَقّين، لينظرَ في نفسهِ إن كان كذلك، أو غيرَ ذلك.

الجاحدُ يتجدَّدُ جُحودُه كلَّما أذاقه اللّه تعالى نعمةً من نعمه

بلاغةُ التَّوكيدات في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

جاء جوابُ القسم: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ مشتملًا على اللّام في أوَّل

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 218.

المضارع، ونون التَّوكيد الثَّقيلة في آخره، ولام الاستحقاق في ﴿لِي﴾؛ للإبلاغ في التَّأكيد والجزم بأنَّ مَنْ كان مِنَ المسارعين في اليأس والقنوط لن يتردَّد في نسبة النِّعم إلى نفسه، ولا يُشَكُّ في أنَّه يَنْسى فضلَ اللّه عليه، "بمجرَّد ذوقه تلك الرَّحمة، على أنَّها ربَّما كانت بلاءً عظيمًا؛ لكونها استدراجًا إلى الهلاك"(1).

مَــنْ يسـرع في اليـأس والقنوط؛ لن يتردَّد في نسبة النِّعم إلى نفسِه

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

التَّعبيرُ باسم الإشارة الموضوعِ للقريب: ﴿هَٰذَا﴾، والعائدِ إلى النِّعمة الَّتي أذاقها اللّه للإنسان بعد الضَّرّاء الَّتي مسَّتْه، فيه دلالةٌ على تعظيمِهِ لها، ولهفته عليها، وحبِّه الجارف لتملُّكها وبقائها بحوزته، حتى لا تذهبَ إلى أحدٍ غيرِه.

حبُّ الإنسانِ للنِّعم سببٌ في تعظيمِه لها وحرصِه على حَوْزها

معنى اللّام في ﴿لِي﴾ ومرجع الضَّمير فيه:

اللامُ في قولِه: ﴿لِي﴾ هي لام الاستحقاقِ أو الاختصاص، وضمير المتكلِّم فيه يعود للإنسان المُنْعَم عليه، وفي التَّعبير بهما دلالةٌ على أنَّ ذلك الإنسان يرى أنَّ النِّعمة الَّتي ذاقها هي "حقُّه وصل إليه؛ لأنَّه استوجبه بما عنده من خيرٍ وفضلٍ وأعمال برٍّ"(2)، والمعنى: "هذا مختصٌّ بي؛ لما لي من الفضل، لا مشاركةَ لأحدٍ معي فيه، مع أنَّه ثابتٌ لا يتغيَّر انتقالًا من حالة اليأس إلى حالة الأمن والبطر والكِبر والأشر، على قُرب الزَّمن من ذوقِ المِحن، وينسى أنَّها من فضل اللّه ليقيِّدها بشكرها، ويطردها بكفرها"(3).

الإنسانُ يفسِّر الإنعامَ عليه بأنَّه دليلُ حبِّ اللهِ له وبرهانُ رضاه عنه

التَّعبيرُ بقوله: ﴿هَٰذَا لِي﴾ يرسمُ أمام القارئِ والمتلقّي صورةً تخييلية لذلك الإنسان، وقد أحاط النِّعمة بذراعيه، وضمَّها إلى صدره، وأخذ يوجِّه كلامَهُ إلى المحيطين به، الحاضرين هذا المشهد،

في التَّعبير تصويرٌ لمشهد الاختصاص بالنِّعمة المستلزم الحفاظ عليها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 218.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 205 بتصرف.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 218.

قائلًا: هذا لي، هذا لي؛ ليرسَخَ في عقولهم أنَّه ذو فكر نابه، وعقل نابغ، ورأي سديد، وأنَّ ذلك كلَّهُ كان وراء حوزه لهذه النِّعمة، أو أنَّها منحةٌ خاصَّةٌ له، يجبُ عليه أن يحرصَ عليها، وألّا يُفرِّطَ فيها.

توجيهُ العطف بالواو:

كلامُ الإنسانِ عن استحقاقهِ النِّعم يأتي مصحوبًا بطول الأمل وإنكار السّاعة

الواو في جملة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾؛ لعطف ما بعدها على قوله: ﴿هَٰذَا لِي﴾؛ إذ هي مِنَ الكلام الذي يقولُه الإنسانُ عندما يذيقُه اللّهُ من رحمته، وفي عطفِها بالواو التي تُفيد المُصاحبةَ دلالةٌ على أنَّ كلامَهُ عن استحقاقِهِ تلك النِّعمة يأتي مصحوبًا بطول الأمل وإنكار السّاعة، ورفْضِ ما فيها من بعْثٍ وحساب، "سواء عبَّر عن ذلك بلسان قالِه، أو بلسان حالِه؛ لكونِهِ يفعل أفعال الشّاكِّ فيها، كما كان قطع الرَّجاء مِنَ الخيرِ عند مباشرتِه للشَّرِّ، لكنَّه هنا قال على سبيل التَّقدير والفرض لدفعِ مَنْ يعظُهُ؛ مُحَقِّقًا لدوام نعمتِهِ"[1].

نكتةُ النَّفي بـ (ما):

الإنسانُ المخدوعُ بكثرة النِّعم ينفي قيام السّاعة نفيًا قاطعًا لا حُدودَ له

(ما) في جملة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ هي النّافيةُ العاملةُ عملَ ليس، أوثِرَ النَّفي بها؛ لأنَّ مِن خصائصِها نفيَ الجُمل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النَّفي من (ليس)، وأوسع استعمالًا منها، كما سبق بيانه، والنَّفي بـ (ما) أنسبُ هنا؛ لأنَّها تدلُّ - بمعناها ومبناها المختومِ بألف المدِّ - على أنَّ ذلك المغرورَ بكثرة النِّعم ينكر قيامَ السّاعة، وينفي ما فيها مِن بعثٍ وحسابٍ وعقابٍ نفيًا قاطعًا لا شكَّ فيه.

سرُّ التَّعبيرِ بفعل الظَّنِّ مُضارِعًا:

عندما يغترُّ الإنسانُ بالنِّعم لا يستجيب لِمَن يذكِّرُه بالآخرة أيًّا كان

آثرَ البيانُ التَّعبيرَ عن رؤية هذا الإنسانِ لقيام السّاعة بفعل الظَّنِّ - الدّال على تَيَقُّنِهِ ممّا يقولُ، وعدم شكِّه فيه - مضارعًا في قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد ظنِّه واستمرار اعتقاده عدمَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 218.

قيام السّاعة، مهما جزم بها غيرُه، أو ذكَّره بوقوعِها أحدٌ، أو حدَّثَتْه عنها نفسُهُ.

نوعُ (أل) في ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾، ودلالتها:

(أل) في قوله: ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ لتعريف العهدِ، والمقصودُ بها: القيامةُ، الَّتي هي - لعظمها - المستحِقَّةُ أن تختَصَّ باسم ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾[1].

دلالةُ التَّعبيرِ عن القيام بصيغة اسم الفاعل:

طولُ أملِ الإنسانِ في الحياة ينحدرُ بِهِ إلى نفي ثُبوت قيام السّاعة

قولُه تعالى: ﴿قَآئِمَةً﴾ الخبرُ الثاني لفعل الظَّنِّ، وعبَّر عنه النَّظمُ بصيغة اسم الفاعل؛ لما يفيده من الثُّبوت والدَّوام، الدّال على أنَّ الإنسانَ المخدوعَ بكثرة النِّعم ينحدر إلى نفي ثبوت قيام السّاعة، والمعنى: ما أظنُّ السّاعة ثابتًا قيامُها[2]، ولا مُحَقَّقًا وقوعُها، ما يدلُّ على "أنَّهُ شَديدُ الرَّغبَةِ في الدُّنيا عَظيمُ النُّفرَةِ عَنِ الآخِرَةِ"[3].

توجيهُ العطف بالواو:

جاء قولُه: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ معطوفًا على ما سبقه بالواو؛ لأنَّه تَتِمَّةُ الكلامِ الَّذي يقولُه الآيسُ القانطُ عندما يذيقُه اللّٰهُ تَعالَى بعضَ النِّعَم.

معنى اللّام في ﴿وَلَئِنۡ﴾:

المغرورُ بالنِّعم يجزم بأنَّ منزلتَهُ في الآخرة ستكون مثلَ منزلتِهِ في الدُّنيا

اللّام في قوله: ﴿وَلَئِنۡ﴾ هي الموطِّئةُ للقسم الصادر مِنَ الإنسان الَّذي كان آيسًا قانطًا، وفي تعبيرِهِ باللام المؤكِّدة والقسم دلالةٌ على ثقته التّامَّة في حصول المُقْسَم عليه، ويقينِهِ البالغِ في إكرام اللّٰه تعالى له في الآخرة، وإنزالِهِ منزلةً مماثلةً للمنزلة التي كان عليها في الدُّنيا، وذلك بافتراض حصولِ البعثِ الَّذي ينكره وينفيه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 219.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 219.
(3) الرازي، فتوح الغيب: 27/ 752.

دلالةُ (إنْ) الشَّرطيَّة:

جيءَ في حِكايَةِ قَوْلِه: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ بـ (إنْ) الشَّرطيَّةِ الَّتي يَغْلِبُ التَّعبيرُ بها في الشَّرْطِ المَشكوكِ وُقوعُه؛ لأنَّهُ جَعَلَ رُجوعَهُ إلى اللّه أمرًا مَفروضًا ضَعيفَ الاحتِمالِ[1].

نكتةُ إيثارِ فعل الإرجاع مبنيًّا للمفعول:

عُبِّر بفعل الإرجاع مبنيًّا لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قولِه: ﴿رُّجِعْتُ﴾؛ لكونه أمرًا فرَضيًّا، أي: على سبيل الفرض بِقَسْر قاسر ما[2]، وليس على سبيل التَّأكيد والجزم.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾:

فطرةُ الإنسان تنطق بأنَّ الرُّجعى إلى الله لا إلى سواه

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الانتهاء[3]، وفي التَّعبيرِ به دلالةٌ على أنَّ الرُّجعى والمصير يكون إلى اللّه لا إلى غيره، وأنَّ الإنسان بفطرتِهِ يعرف هذا، لكنَّ الكافرَ ينكره، ويجزم بعدم وقوعِه، وإذا قالَهُ؛ يقوله على سبيل الافتراض والشَّكِّ.

سرُّ إيثار لفظ الرُّبوبيّة وإضافته إلى الياء:

المغرورُ يرى أنَّ إحسانَ الله إليه في الدُّنيا دليلٌ على عُلوِّ منزلته في الآخرة

في تعبير الإنسان عن اللّه تعالى بعنوان الرُّبوبيَّة - الدّال على الإحسان والرِّعاية، مع إضافته إلى ضمير المتكلم العائد إليه في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ - دلالةٌ على إقراره بأنَّ اللّه تعالى هو الذي أحسن إليه بالخير والنَّعيم الَّذي يرفل فيه في الدُّنيا، وأنَّه أيضًا يرى أنَّ إحسانَ اللّه إليه في الدُّنيا دليلٌ على تقديرِهِ له وعلوِّ منزلته عنده، وأنَّ منزلته في الآخرة ستكون أفضل من منزلتِهِ في الدُّنيا، إنْ كان ثَمَّ بعثٌ وحسابٌ.

بلاغةُ التَّأكيدِ:

جاء قوله: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ مؤكَّدًا بخمسة مؤكِّدات،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 12.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 219.
(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 385.

أوَّلها: ﴿إِنَّ﴾، وثانيها: تقديم الخبر ﴿لِي﴾، وثالثها: التَّعبير بالظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾، والرّابع: اللام في قوله: ﴿لَلۡحُسۡنَىٰ﴾، أمّا الخامس؛ فهو كلمة: (الحُسْنَى) الدالَّة على الكمال، ووجْهُ الإكثار مِنَ المؤكِّدات هو الدَّلالةُ على أنَّ مَنْ يقولُهُ جازمٌ بوصول الثَّواب إليه، ومتأكِّد من حصوله عليه؛ إنْ بعثه اللّه تعالى للحساب والجزاء[1].

المغرورُ جازمٌ بوصول الثَّوابِ إليه ومتأكِّدٌ من حصولِهِ عليه

فائدةُ التَّعبير بشبه الجملة: ﴿لِي﴾:

قولُه: ﴿لِي﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ رفع خبر ﴿إِنَّ﴾ المُقدَّم، واللام فيه هي لام الاستحقاق أو الاختصاص، وضمير المتكلِّم يعود لَمَن ينكر البعث والحساب، وفي تعبيره بهما تقويةٌ للمعنى وتأكيدٌ لاعتقاده أنَّ اللّه سيخُصُّهُ بالحُسنى في الآخرة؛ لأنَّه يستحقُّها، ولا يستحقُّها أحدٌ غيره، كما خصَّه في الدُّنيا بنِعَمٍ لم يذُقْها أحدٌ سواه.

المغرورُ يظنُّ أنَّ اللهَ سيخصُّه بالحسنى في الآخرة، كما خصَّه بالنِّعم في الدُّنيا

نكتةُ التَّعبير بالظَّرف ومرجع الضَّمير فيه:

قولُه: ﴿عِندَهُۥ﴾ ظرفُ مكانٍ، والضَّمير المجرور فيه عائدٌ إلى ﴿رَبِّيٓ﴾، وفي التَّعبير بهما تقويةٌ للمعنى وتأكيدٌ لجزم المتكلِّم بوصول الثَّواب إليه في الآخرة؛ لدلالة الظَّرف " على أنَّ تِلْكَ الخَيْرَاتِ حاضِرَةٌ مهيَّأةٌ لَهُ عِندَ اللّهِ، كَما تَقولُ: لي عِندَ فُلانٍ كَذا مِنَ الدَّنانيرِ، فإنَّ هَذا يُفيدُ كَونَها حاضِرَةً عِندَهُ"[2].

يظنُّ المغرورُ أنَّ الخيراتِ والنِّعمَ حاضرةٌ مهيَّأةٌ له عند الله

دلالةُ التَّعبير باللام:

اللّامُ في قوله: ﴿لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ هي المزحلقةُ الّتي تفيد تقويةَ المعنى، وتأكيد المتكلِّم استحقاقَهُ الحسنى في الآخرة؛ قياسًا على استحقاقِهِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 753، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 316، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 219.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 753.

إحسانَ اللّهِ إليه في الدُّنيا، فهو يعتقد "أنَّ ما أصابه مِن نعيم الدُّنيا لاستحقاقِه له، وأنَّ نعيمَ الآخرةِ كذلكَ"[1].

سرُّ إيثار لفظ (الحُسْنَى) معرَّفًا:

المـغـرورُ بالنِّعم يجزم باستحقاقهِ الحسنى في الآخرة؛ لأنَّه يرى نفسه أهلًا لها

(الحُسْنَى) صِفَةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ، أي: الحالَةُ الحُسنَى، أوِ: المُعامَلَةُ الحُسْنَى، والأظهَرُ أنَّ (الحُسْنَى) اسمٌ لِلإحسانِ الكَثيرِ أخْذًا مِن صيغةِ التَّفْضيلِ[2]، وأيًّا كان موقعُها الإعرابيُّ؛ ففي تعبيره بها بصيغة اسم التَّفضيل دلالةٌ على اعتقاده وجزمه باستحقاق "الحالة والرُّتبة البالغة في الحسن حدًّا لا يوصَف؛ لأنَّه يرى نفسه أهلًا لذلك، والدَّليل على تأهُّله له ما هو فيه الآن مِنَ الخير، ونسي ما يشاهده غالبًا من أنَّ كثيرًا من النِّعم يكون للاستدراج، ومِن أنَّ كثيرًا من النّاس يكون في غاية النِّعمة، فيصبح، وقد أحاطت به كلُّ نقمة، فهو بين أمنيتين، في الدُّنيا بقولِه هذا، وفي الآخرةِ يقول: يا ليتني كنتُ ترابًا"[3].

معنى الفاء في ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾:

سيعلمُ الكفّارُ يوم القيامة أنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ ممّا يعملون

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ تدلُّ على تسبُّب ما بعدها عمّا قبلها، ما يعني: أنَّ شكَّ ذلك المغرور في وقوع الحساب وحصول العقاب الذي أخبر به جميعُ الأنبياء والمرسلين تَسَبَّبَ عنه قولُه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾[4]، ويُمكن أن تكونَ لتفريع ما بعدها على جُمْلَةِ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾، وما اتَّصَلَ بها، أي: فلَنُعلِمَنَّهُم بما عَمِلوا عَلَنًا يَعلَمونَ بِهِ أنّا لا يَخْفَى عَلَينا شَيءٌ مِمّا عَمِلوهُ وتَقْريعًا لَهُم[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 18، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 5، والزمخشري، الكشاف: 4/ 205.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 12.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 219.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 219.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 12.

معنى اللام في: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾:

اللّام في: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ هي الموطِّئة للقسم، الدالّ على تأكيدِ إحاطة اللّه بما يعمَلُه النّاسُ بصفة عامَّة، والكافرون بصفة خاصَّة، وتقويةِ أنَّ اللّه سيخبرهم به في الآخرة؛ "ليظهر لهم أنَّهم مستحقّون للإهانة، لا الكرامة، كما توهَّموا"[1]، وفيه أيضًا تحذيرٌ للكُفّار مِنَ الاغترارِ بِنِعَم اللّه، وذلك دليل الاستحقاق والمحبَّة؛ لأنَّ الإنعامَ في الدُّنيا ليس دليلًا على الرِّضا، والحرمانَ فيها ليس دليلًا على الغضب.

الإنـــعـــامُ في الــدُّنــيــا لــيــس دلــيــلًا عــلى رِضــا اللّه، والحرمانُ فيها ليس دليلَ غضبِه

دلالةُ التَّعبير بفعل الإنباء مضارعًا مسندًا إلى ضمير العظمة:

عبَّر النَّظمُ عن الإخبار بفعل الإنباء، الموضوع للخبر ذي الفائدة العظيمة في قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها ستكون "تنبئةً عظيمةً بخير الوصف فيها، مستقصاةً على سبيل العدل"[2]، وأوثِرَ التَّعبيرُ عنه بصيغة المضارع لوقوعهِ في المستقبل، وأُسنِد إلى ضمير العظمة؛ لتأكيد حصولهِ يومَ القيامة من غير شكٍّ أو ريبٍ.

الإنباءُ في الآخرة سيكون إنـبـاءً عظيمًا يستقصي كلَّ الأعمالِ على سبيل العدلِ

بلاغةُ توكيد فعل الإنباء باللّام والنّون:

جاء فعلُ الإنباء مؤكَّدًا بلام القسم في أوَّلِه، ونون التَّوكيد الثَّقيلة في آخره؛ لتأكيد إخبار الكافرين بكلِّ ما عملوا، وجميع ما اقترفوا من شركٍ باللّه، وإنكارٍ للبعث، وكفرٍ بالنِّعم، وعدِّها دليلًا على الرِّضا، واتِّخاذها سببًا للاستمرار في التَّكذيب والكفر، وغير ذلك ممّا يُقصد منه التَّقريعُ والتَّأنيبُ.

سـيـتـمُّ إخـبـار الكافرين أنَّهم اتَّـخـذوا الـنِّـعـم سببًا للاستمرار في الـتَّـكـذيـب والكفر

علَّةُ التَّعبير بالموصول وصلته:

كان مُقتَضَى الظاهر أن يُعبَّر بالضَّمير، فيُقال: (فَلَنُنَبِّئَنَّهُم بما عَمِلوا)، ولكنَّ النَّظم عَدَلَ إلى التَّعْبيرِ بِالمَوصولِ وصِلَتِه،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 5.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 220.

فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لِما تُؤذِنُ بِهِ الصِّلَةُ مِن عِلَّةِ استِحقاقِهِمُ إذاقَةَ العَذابِ[1]، ما يعني: أنَّه وضع اسم الموصولِ موضعَ الضَّمير؛ تصريحًا بالعموم، وبيانًا لعلَّةِ الكفرِ الموجِبةِ إذاقتَهم العذابَ[2].

الكفرُ بالله تعالى هو السَّبب الرَّئيس في إذاقة الكافرين العذابَ يوم القيامة

سرُّ التَّعبيرِ بفعل الكفر ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجماعة:

عبَّر النَّظمُ بفعلِ الكفر ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على ضلاعتهم في أعمال الشِّرك، واجتماعهم عليها، ودعوتهم الآخرين إليها.

معنى الباء في ﴿بِمَا﴾:

الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ حرف جرٍّ يفيد الإلصاق أو التَّعدية، وهي تدلُّ على أنَّ الإنباءَ سيشمل كلَّ الأعمال الَّتي عُرِف عن الكافرين القيامُ بها، وأخذها النّاسُ عنهم.

(ما) وما بعدها بين الموصوليَّة والمصدريَّة:

(ما) في قوله: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ يمكن أن تكونَ موصولةً، والمعنى: بالَّذي عملوا، ويمكن أن تكون مصدريَّة، والمعنى: بعملهم، وسواء أكانت موصولةً أم مصدريَّةً ففي التَّعبير بها مع الفعل الماضي المسند إلى ضمير الجماعة: ﴿عَمِلُواْ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللّٰه تعالى لن يدعَ من عملهم قليلًا ولا كثيرًا، صغيرًا ولا كبيرًا، إلّا أخبرهم به، وأنَّهم سيرون عيانًا ضِدَّ ما ظنّوه في الدُّنيا مِن أنَّ لهم الحسنى[3].

سيرى الكافرون عيانًا في الآخرة ضدَّ ما ظنّوه في الدُّنيا

توجيهُ العطف بالواو:

جاء قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ معطوفًا على: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ بالواو الَّتي تفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّ الأمر لن يتوقَّفَ على مجرَّد إخبار الكافرين بأعمالهم، وإنَّما سيذيقهم اللّٰهُ تعالى العذابَ الغليظَ؛

سيجمع الله على الكافرين ألمَ التَّقريع والتَّأنيب وألمَ العذابِ الغليظ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 12.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 220.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 220.

عقابًا لهم على فعلِها، فيجتمع بذلك عليهم الألمُ النَّفسيُّ المتمثِّلُ في التَّقريع والتَّأنيب، والألمُ الحسّيُّ المتمثِّلُ في العذاب الغليظ.

معنى اللام في ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾:

لا شكَّ في إذاقة الكافرين العذابَ الغليظَ على أعمالهم

اللّام في: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ هي لام التَّوكيد الدالَّة على عدم الشَّكِّ أو الرَّيب في أنَّ الله تعالى سيذيق الكافرين العذابَ الغليظَ في الآخرة؛ جزاء كفرهم به، وإشراكِهم معه، وعقابًا لاغترارهم بما أنْعَمَ عليهم، وفضَّلهم به على غيرهم.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإذاقة مضارعًا:

سيذوقُ الكفّار العذابَ الغليظَ بعد إقامة الحجَّة بموازين القسط الوافية لمثاقيل الذَّرِّ

عبَّر النَّظمُ بفعل الإذاقة مضارعًا مسندًا إلى ضمير المتكلِّم المعظم نفسه، في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾؛ لكونِ هذه الإذاقة ستحصل في المستقبل بعد أن تقومَ قيامة الكافرين، وبعد "إقامة الحجَّة عليهم بموازين القسط الوافية لمثاقيل الذَّرِّ"(1).

بلاغةُ المجاز في لفظ الإذاقة:

ابتداءٌ مُطمِعٌ وانتهاءٌ مُؤيِسٌ

في التَّعبير بفعل الإذاقةِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، شُبِّهت فيها الإصابةُ بالإذاقة، بجامع الإحساس بالشَّيء، ثم حُذِفَ المشبَّه بعد تناسي التَّشبيهِ، واشتُقَّ منه (نُذيقُ) بمعنى: نُصيب، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تقصد إلى إطماع الكافرين في "أنَّها إصابَةٌ خَفيفَةٌ، كَإصابَةِ الذَّوقِ باللِّسانِ، وهَذا تَجريدٌ لِلمَجازِ، كَما أنَّ وصفَهُ بِالـ ﴿غَلِيظٍ﴾ تَجْريدٌ ثانٍ، فحَصَلَ مِن ذَلِكَ ابتِداءٌ مُطْمِعٌ وانتهاء مؤيس"(2).

بلاغةُ توكيدِ فعل الإذاقة باللام والنون:

إذاقةُ الكافرين العذابَ الغليظَ أمرٌ مؤكَّدٌ لا شكَّ فيه

جاء فعلُ الإذاقة مؤكَّدًا باللام في أوَّلِه، ونون التَّوكيد الثَّقيلة في آخره، فقيل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾؛ تأكيدًا وتقويةً لإذاقة الكافرين العذابَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 220.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 13.

الغليظَ؛ جزاءً لما عملوا، وعقابًا لما اقترفوا من الشِّرك باللّه، وإنكار البعث، والكفر بالنِّعم، وعدِّ اختصاصهم بها دليلًا على الرِّضا، واتِّخاذها سببًا للاستمرار في المعاصي، وغير ذلك ممّا يُعَدُّ تنبيهًا لهم، وتهديدًا وتحذيرًا من البقاء على ماهم فيه.

دلالةُ التَّعبير بالضَّمير: (هُمْ):

ضميرُ الغائب: (هُمْ) في جملة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ يعودُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، عبَّر به النَّظمُ الكريم؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الذي سبق ذكره قريبًا بالضَّمير، ولما يفيده التَّعبير به هنا من تأكيد تعذيبِ الكافرين العذابَ الغليظ تأكيدًا يحول دون صرف الحديث عنهم إلى غيرهم، والمعنى: لنذيقنَّ الذين كفروا مِن عذابٍ غليظ.

معنى ﴿مِّنْ﴾:

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هي البيانيَّة الَّتي تؤكِّد أنَّ اللّه سوف يُذيقُ الكفّار العذابَ الغليظ جزاءً للأعمال الَّتي ارتكبوها والنِّعم الَّتي جحدوها، ليبصروا "عكس ما اعتقدوا فيها، من أنَّهم يستوجبون عليها كرامةً وقربى عند اللّه"[1].

سيبصرُ المغرورون في الآخرةِ عكس ما اعتقدوا فيه كرامةً وقربى عند الله

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿عَذَابٍ﴾:

جيءَ بالاسم المجرور: ﴿عَذَابٍ﴾ نكرةً منوَّنًا؛ لما يفيده التَّنكير من التَّعظيم والتَّهويل الدالِّ على أنَّه عذابٌ لا يُقادر قدرُه، ولا يُبْلَغ كنهُه[2]، ولا تفي العبارةُ بحقيقتهِ، ولتذهب النُّفوس فيه كلَّ مذهب، وترتدع عمّا هي فيه من غيٍّ وضلالٍ.

عذابُ الكافرين لا يُقادر قدرُه، ولا تفي العبارةُ بحقيقتِه

نكتةُ وصف العذاب بالغليظ:

وصف البيانُ الكريم الـ ﴿عَذَابٍ﴾ بـ ﴿غَلِيظٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ للدّلالة على أنَّه مِنَ الشِّدَّة والقوَّة

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 205.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 18.

عذابُ الكافرين مـن الـشِّـدَّة والـقـوَّة بحيث لا يـمـكـنـهـم الـتَّـخـلُّص عنه والنَّجاة منه

بحيث "لا يدع جهة من أجسامهم ولا قواهم إلّا أحاط بها، ولا تقوى على دفعه قواهم"[1]، كما أنَّه لا يمكنهم التَّفصّي، أي: التَّخلُّص عنه، والنَّجاة منه[2].

بلاغةُ الاستعارة في وصف العذاب:

تـشـبـيـهُ شـدَّة العذابِ وقسوته بالوثاق الغليظِ في الإحـاطـة والإحكام

في التَّعبيرِ عن صفة العذاب بـ ﴿غَلِيظٍ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، شُبِّه فيها شِدَّةُ العذابِ وقسوتُه بالوثاق الغليظ في الإحاطة والإحكام وعدم القدرة على التَّخلُّص منه، أو الفكاك عنه، ثم استُعير الغِلَظُ للشدَّة والقسوة على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة[3]، التي تُبرز فظاعةَ عذابِ الكافرين وما فيه من إهانةٍ بالغةٍ على الأعمال التي ظنّوا أنَّها سببُ عزِّهم وكرامتِهم؛ إن رجعوا إلى اللّٰه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 220.

(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 404.

(3) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 404، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 5.

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد أن حكتِ الآيةُ السّابقةُ أقوالَ الَّذي أَنْعَمَ اللّهُ تعالَى عَليهِ بَعدَ وُقوعِهِ في الآفاتِ؛ ناسَبَ أن تحكيَ هذه الآيَةُ أفْعالَهُ أيضًا[1].

تكرارُ الحديث عن تقلُّبات الإنسان بقصد دعوته إلى التَّراجع عن الكفر إلى الإيمان

ويمكن أن يُقالَ في المناسبة بينهما: "لَمّا بَيَّنَ جهلَ الإنسان في حالات مخصوصةٍ، باليأس عند مسِّ الشَّرِّ، والأمن عند ذوق النِّعمة بعد الضُّرِّ؛ بيَّن حالَهُ عند النِّعمة مطلقًا، ودعاءه عند الشَّرِّ، وإن كان قانطًا؛ تكريرًا لتقلُّب أحواله، وتناقضِ أقواله وأفعاله؛ ليكونَ ذلك داعيًا له إلى الرُّجوع عن الكفرِ إلى الإيمان[2].

التَّذكيرُ بضربٍ آخر من ضروب طغيان النَّفس الإنسانيَّة

ويمكن أن تكونَ هذه الآيةُ وصفًا وتَذكيرًا بِضَربٍ آخَرَ مِن طُغيانِ النَّفسِ الإنسانيَّةِ غَيرِ خاصٍّ بِأهلِ الشِّركِ، بَل هو مُنبَثٌّ في جَميعِ النّاسِ على تَفاوُتٍ، إلّا مَن عَصَمَ اللّه، وهو تَوْصيفٌ لِنَزَقِ النَّفْسِ الإنسانيِّ، وقِلَّةِ ثَباتِهِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡرَضَ﴾: (عرض) بِناءٌ تَكْثُرُ فُروعُهُ، وهيَ مَعَ كَثْرَتِها تَرْجِعُ إلى أصْلٍ واحِدٍ، وهو العَرْضُ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ[4]، وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ [السجدة: 22]، وقال أيضًا: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: 63]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 573.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 220، 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).

وربَّما حذف (عَنْهُ) استغناءً عنه نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: 48]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: 23][1].

2) ﴿وَنَـَٔا﴾: (نأي) كَلِمَتانِ: إحداهما: النَّأْيُ، وهو البُعْدُ، يُقالُ: نَأى يَنْأى نَأْيًا، وانتأى: افتَعَلَ مِنهُ، والمُنْتَأى: المَوضِعُ البَعيدُ[2]، والمعنى المحوريُّ: صرفٌ وإبعادٌ بقوَّة، كما يصرف النُّؤْيُ ماءَ المطر عن الخباء، وكما يُنْثَر الدَّمعُ عن الخَدِّ، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 26]، أي: ينهون النّاس عن اتّباعه واتّباع القرآن، ويبعدون هم أيضًا عنه، ويقال لمن تباعد، وانصرف تكبُّرًا: نأى بجانبه، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: 83][3].

3) ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: (جنب) أصلانِ مُتَقارِبانِ أَحَدُهُما: النّاحيَةُ، ومنهُ: الجنبُ للإنسان وغيره[4]، وأصلُ الجَنْبِ: الجارحةُ، وجمعه جُنوبٌ، قال تعالى ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ﴾ [التوبة: 35]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: 16][5]، وقوله: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ معناه: تكبَّر وتباعد[6].

4) ﴿عَرِيضٍ﴾: (عرض) بِناءٌ تَكْثُرُ فُروعُهُ، وهيَ معَ كَثرَتِها تَرجِعُ إلى أَصْلٍ واحِدٍ، وهو العَرْضُ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ[7]، وإذا استعمل العرض فيما لا يكون عريضًا على الحقيقة؛ فإنَّما يراد به: الكثرة والتَّمام، مثل قوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، أي: كثير، ولم يقل: طويل؛ لأنَّ العرض أَدَلُّ على الطول والتَّمام[8].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تُبَيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ مِن خصال الإنسان وصفاته أنَّه "إذا أصابَتْهُ السَّرّاءُ؛ طَغا،

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نأي).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نأو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (جنب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جنب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(8) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 354.

إنسانٌ سريعُ الجحودِ عند النَّعماء، سريعُ الجزع عند الضَّرّاء

وتَكَبَّرَ، ونَسيَ شُكْرَ رَبِّه، نِسْيانًا قليلًا أو كَثيرًا، وشُغِلَ بِلَذّاتِه، وإذا أصابَتْهُ الضَّرّاءُ؛ لَم يَصبِر، وجَزِعَ، ولَجَأَ إلى رَبِّهِ يُلِحُّ بِسُؤالِ كَشْفِ الضَّرّاءِ عَنْهُ سَريعًا"[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ معطوفًا على ما سبقه بالواو؛ لما بين الجملتَين من تناسُبٍ في كونهما مبيِّنتين تقلُّبَ أحوال الإنسان، وتناقضَ أقوالهِ وأفعالهِ، ودالَّتين "على حالِه عند مسِّ النِّعمة من جهة يتوقَّعُها، وحاله عند مسِّها بالشَّرِّ بغتة من غير توقُّع؛ تأكيدًا لبيان جهله"[2]، و"تَعَرُّضًا لِفعْلِ اللّه وتَقْديرِه الخَلَّتَيْنِ السَّرّاءِ والضَّرّاءِ، ونقدًا لِسُلوكِهِ في الحالَتَيْنِ وتَعْجيبًا مِنْ شَأْنِه"[3]، فيما يُعرف بلاغيًّا بالتَّوسُّط بين الكمالين.

سرُّ إيثار (إذا) الظرفيَّة أداة للشَّرط:

نِعَمُ الله تعالى تَغْلِبُ نِقَمَهُ على الدَّوام

(إذا) في قوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾ ظرفٌ لِما يُستقبل مِنَ الزَّمان، تضمَّن معنى الشَّرط، والأصل معه أن يكونَ الشَّرط مقطوعًا بحصوله[4]، ومِن ثَمَّ ففي التَّعبير به "دلالةٌ على غلبةِ نِعَم اللّه تعالى في الدُّنيا لنقمه"[5]، ودلالةٌ على تحقُّق غرورِ الإنسان عند الإنعام عليهِ بنِعَم يتوقَّعها، وتحقّق جزعه وقلَّة صبرِه عندما يمسُّه الشَّرُّ من جهةٍ لا يتوقَّعُها.

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الإنعامِ ماضيًا:

عبَّر النَّظمُ الكريم بفعل الإنعام ماضيًا مسندًا إلى ضمير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(4) القزويني، الإيضاح: 2/ 117.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.

المولى ﷻ بصيغة التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْنَا﴾؛ لتعظيم الفعل والمفعول، وللدَّلالة على تحقُّق الإنعام والإحسان وحصولِهما على وجه التَّمام والكمال، الَّذي يستدعي شكرَ اللّٰه سبحانه، والاعتراف بفضلِه، لا الإعجابَ بالنَّفس والغرورَ بالنِّعمة.

نِعَمُ اللهِ تستدعي شكرَهُ والاعترافَ بفضلِه، لا الإعجابَ بالنَّفس والغرورَ بالنِّعمة

معنى ﴿عَلَى﴾:

﴿عَلَى﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الاستعلاءَ، وهو أوَّل معانيه[1]، وفي تعدية فعل الإنعام إلى مفعولِه: ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بـ ﴿عَلَى﴾، دلالةٌ على أنَّ نِعَمَ اللّٰهِ تعالى تغمرُ الإنسان غمرًا، وتُغطّيه مِن مفرق رأسِه إلى أخمصِ قدميه.

نِعَمُ اللهِ تعالى تغمرُ الإنسانَ مِن مفرق رأسِه إلى أخمص قدميه

نوع (أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ ودلالتها:

(أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يمكن أن تكونَ للعهد، والمرادُ به: ذلك الإنسان الَّذي كان آيسًا قانطًا عند ما مسَّه شيءٌ مِنَ الشَّرِّ، والَّذي سبق حديث السّورة عنه، ويمكن أن تكونَ لتعريف الجنسِ، ويكونَ المرادُ: جنسَ الإنسان، ويدخل فيه المغرورون مِنَ المشركين وغيرهم دخولًا أوَّليًّا برهانيًّا.

سرُّ إظهارِ لفظ: ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ دونَ إضمارِه:

كان مِنَ المُمكن أن يأتيَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بإضمار الاسم المجرور، فيُقال: (وإذا أنعمنا عليه؛ أعرض ...)، كما سبق إضمارُهُ في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾، ولكنَّ النَّظمَ الكريم عدل عن الإضمار إلى التَّعبيرِ بالاسم الظّاهر، فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ لبُعدِ ما بين الضَّمير ومرجعه هنا، وللتَّعجيب مِن شأن ذلك الإنسان المتقلِّب، ونقد سلوكِه في الحالتَين[2]، وللإشارة إلى عدم وجودِ أحدٍ مِن مخلوقات اللّٰه يشبهه في سرعة التَّقلُّب وكثرة التَّحوُّل.

التَّعجيبُ مِن شأنِ الإنسان المُتَقَلِّب، ونقد سلوكِهِ في الحالتَين

---

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 477.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإعراضِ ماضيًا:

الإنسانُ يتعمَّدُ تَرْكَ شكرِ الله تعالى على النِّعَم

جيء بجواب الشَّرط: ﴿أَعْرَضَ﴾ الموضوع للانصراف عن الشَّيء ماضيًا؛ للدَّلالة على تعمُّد ذلك الإنسان ترْكَ شكرِ اللّه تعالى على ما أنعم به عليه[1]، والمعنى: "انحرف عن سواء القصد إلينا عنّا، في جميع مدَّة النِّعمة - بما أفهمه الظَّرفُ - فلم يقيِّد تلك النِّعمة بالشُّكر بعد ما رأى من حلالنا، قاطعًا بأنَّ تلك النِّعمة خيرٌ محضٌ ظاهرًا وباطنًا، فهو يستديمها، وربَّما كانت بلاءً؛ استدراجًا وامتحانًا[2].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الإعراض:

تصويرُ الطَّريقةِ الَّتي يتعامل بها الإنسانُ مع نِعَمِ الله عليه

قولُه: ﴿أَعْرَضَ﴾ معناه: انصرفَ، وهو هنا دالٌّ على الغفلةِ عن شكر المُنعِم، أو تعمُّد ترك شكرِه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة[3] التي شُبِّه فيها التَّغافلُ عن شكر اللّه على نعمِهِ بالإعراض والانصراف، ثمَّ حُذِفَ المشبَّه بعد تناسي التَّشبيه، ثم استُعير الإعراض للغفلة، واشتُقَّ منه ﴿أَعْرَضَ﴾ بمعنى: غفل أو تعمَّد، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تُصَوِّر الأسلوبَ الَّذي يتعاملُ به الإنسانُ مع نِعَمِ اللّه الَّتي يتفضَّل بها عليه، ويختصُّه بها دون غيره من الخلقِ.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الإعراضِ:

الإعراضُ عن شكرِ المُنعِم هو قصدُ المغرور وغايته

جاء التَّعبيرُ بفعل الإعراض خاليًا من ذكرِ متعلَّقه؛ إذ المعنى: أعرضَ عن ذكرنا، أو شكرنا، أو دعائنا[4]، وفي حذفهِ دلالةٌ على عموم المعنى وشمولهِ كلَّ ما يُفهمُ منه ردُّ الفضلِ في الإنعام إلى اللّه تعالى، وأيضًا للدَّلالة على أنَّ الإعراضَ نفسَهُ هو قصدُ الإنسان وغايتُه، وفيه مِنَ الذَّمِّ والتَّعجيب ما لا يخفى[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 410.

توجيهُ العطفِ بالواو:

جاء قولُه: ﴿وَنَـَا بِجَانِبِهِۦ﴾ معطوفًا على فعل الإعراضِ بالواو الَّتي تفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الإنسان لم يكتفِ بالإعراض، وإنَّما جاء بما هو أقوى منه، وهو النَّأي بالجانب، ويمكن أن يكون الإعراضُ مِن صفة المؤمن، والنَّأي مِن صفة الكافر، أو هو قدر مشتركٌ بين الجميع(1).

لم يكتفِ المغرورُ بالإعراض، وإنَّما جاء بما هو أشدُّ منه

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل النَّأي ماضيًا:

جيءَ بفعل النَّأي ماضيًا في قوله: ﴿وَنَـَا بِجَانِبِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على تَعَمُّد ذلك المغرور النَّأي، كما تعمَّدَ الإعراض، وللإشارة إلى أنَّه ذهب فيه مذهبًا بعيدًا، والمعنى: "أبعد إبعادًا شديدًا، بحيث جعل بيننا وبينه حجابًا عظيمًا حال كونه مال"(2).

المغرورُ بالنِّعَمِ يتعمَّد النَّأْي كما تعمَّد الإعراض، ويذهب فيه مذهبًا بعيدًا

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بفعل (النأي):

النَّأْيُ معناه: البُعْدُ، وهو هُنا مُسْتَعارٌ لِعَدَمِ التَّفَكُّرِ في شُكْرِ المُنْعِم، ما يعني: أنَّه شُبِّه عدم التَّفكير في شكر اللّه بالبُعد، ثمَّ حُذف المشبَّه بعد تناسي التَّشبيه، ثمَّ استُعير النَّأي لعدم الشُّكر، واشتُقَّ منه (نأى) بمعنى: لم يشكر على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تصوِّر حالةَ جحودِ الإنسان وتَنَكُّرِهِ للمُنْعِم ﷻ.

تصويرُ حالةِ جحود الإنسان وتَنَكُّرِهِ للمُنْعِم سبحانه

معنى الباء في ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ للتَّعْدِيَة، والمَعْنَى: أبعَدَ جانِبَهُ، أي: ولَّى مُعْرِضًا غَيْرَ مُلْتَفِتٍ بِوَجْهِهِ إلى الشَّيءِ الَّذي ابتَعَدَ هو عَنْهُ(3).

دلالةُ التَّعبير بلفظ الجانب:

التَّعبيرُ بلفظ الجانب فيه وجهان: أحدهما: أن يوضعَ جانبُهُ

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 410.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.

المغرورُ ينأى بنفسِهِ عن شكر المُنعم، أو يعطي النِّعمَ جانبَه وينصرف عنها

موضعَ نفسِهِ، أي: يُنَزَّلُ مكانُ الشَّيء وجِهتُه منزلةَ الشَّيء نفسِهِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن: 46]، ومنه قول الكُتّاب: حضرةُ فلانٍ ومجلسه، وكُتِبَت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون نفسه وذاته، فكأنَّه قال: ونأى بنفسه، كقولهم في المتكبِّر: ذهب بنفسِهِ، وذهبت به الخيلاءُ كلَّ مذهبٍ، وعصفت به الخيلاءُ، والثّاني: أن يرادَ بجانبِهِ: عِطفَهُ، ويكون عبارة عن الانحرافِ والازورارِ، كما قالوا: ثنى عِطفَه، وتولّى بركنه[1].

بلاغةُ المجازِ في لفظ الجانب:

قد يُعبَّر بالجانب ويرادُ به النَّفسُ أو الذّاتُ

إذا كان المرادُ بالجانبِ: نفسَ الإنسان وذاتَهُ، كما سبق بيانُهُ، ففي التَّعبيرِ مجازٌ مرسلٌ علاقتُهُ الجزئيَّة؛ إذ عبَّر بالجزءِ، وهو الجانب، وأراد الكلَّ، وهو النَّفس أو الذات، وخُصَّ الجانبُ بالذِّكر دون بقيَّة الأعضاء؛ لما له مِن أهميَّة في هذا الأمر؛ جريًا على عادةِ النّاس وأعرافهم في التَّعامل فيما بينهم، فمِن الرّاسخ الثّابت أنَّ تلقّي المخاطَبِ بالوجه فيه دلالةٌ على الإقبال عليه والاهتمام بشأنِهِ، والإشاحة بالوجه عنه وتلقّيه بالجانب؛ فيه برهانٌ على عدم الاكتراثِ به، وشدَّة الإهمالِ له، ما يدلُّ على إهمالِ ذلك الإنسان نعمةَ اللّهِ وتكبُّره عن شكرِ اللّه الَّذي تفضَّل عليه بها.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾:

التَّلقّي بالجانب فيه كنايةٌ عن التَّكبُّرِ والإعجابِ بالنَّفس

يمكنُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ كنايةً عن عدم اهتمام ذلك المغرور بما أنعمَ اللّهُ بِهِ عليه، وعدم الفرح أو السُّرور بتلك النِّعم، وعدِّها شيئًا سهلًا بسيطًا لا يحتاج إلى ابتهاجٍ أو فرح، وهذا المعنى لا يمنع أنَّه يُعطيها جانبَهُ في الحقيقةِ[2] والواقع؛ كبرًا منه وغرورًا؛ لِما هو معروف مِن أنَّ الكنايةَ لا تمنع مِن إرادة المعنى الحقيقيِّ، والمرادُ:

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 206.
(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 404.

"مال بشقِّه؛ كنايةً عن تكبُّره وإعجابه بنفسه وزهوه، وتصويرًا له بمَن كلَّمتَهُ، فازورَّ عنك، والتوى، وأبعدَ في ضلالِه، وغوى"[1].

توجيهُ العطفِ بالواو:

جاء قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو﴾ معطوفًا على ما قبلَهُ بالواو؛ للتَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ تتطابق الجملتان في كونِهما خبريَّتين توضِّحان حالتين متضادَّتين من حالات الإنسان؛ تعجيبًا مِن شأنه، وتحذيرًا من السَّير على منهجِهِ؛ إذ توضِّح الجملةُ الأولى حالَ الإنسانِ عند الإنعام عليهِ بالخير، وتوضِّح الثانية حاله عند مسِّه بالشَّرِّ، أو "توضِّح الجملة الأولى حالَهُ عندما يمسُّه شيءٌ بغتةً، وتوضِّح الثانية حاله عندما يَمَسُّه شرٌّ يتوقَّعُه"[2].

سرُّ إيثار الظَّرف (إذا) على (إنْ):

ابتلاءُ الإنسان بالشَّرِّ أمرٌ مقطوعٌ بحصولِهِ

عبَّر النَّظمُ بـ (إذا) أداةً للشَّرط؛ "للتَّنبيه على أنَّ مثلَهُ يحقُّ أن يكون ابتلاؤه بالشَّرِّ مقطوعًا به"[3]، و"ليدلَّ على أنَّه لزيادة جهلِهِ على الحدِّ؛ يلزم الكِبرَ، وإن كان يتوقَّع الشَّرَّ، ولا يزال حالُهُ حالَ الآمن إلى أن يخالطَهُ، وحينئذٍ تنحلُّ عراه، وتضمحلُّ"[4].

دلالةُ التَّعبير بفعل المسّ مادّة وصيغة:

الشَّرُّ الَّذي يمسُّ الإنسانَ ممّا يحدث عادةً، ويتقلَّب فيه النّاسُ بين عشيَّةٍ وضحاها

قولُه: ﴿مَسَّهُ﴾ فعلٌ ماضٍ، وفاعلُهُ: ﴿ٱلشَّرُّ﴾، وضميرُهُ المنصوب يعود إلى: ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وعبَّر به النَّظمُ بدلًا من الفعل: أصاب؛ للدَّلالة على قِصَرِ مُدَّة ما يصيب الإنسانَ مِنَ الشَّرِّ، وأنَّ أيامَ عافيتِهِ أكثرُ وأطولُ من أيّام بلائهِ وشدَّتهِ، وفي التَّعبير به ماضيًا دلالةٌ على أنَّ ما ينزل به من بؤسٍ أو حزنٍ على الرَّغم من تحقُّق وقوعه، فإنَّه لا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221، 222.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 242.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 222.

يدوم طويلًا، وينقضي سريعًا؛ لأنَّه ممّا يحدث عادة[1]، ويتقلَّبُ فيه النّاسُ بين عشيَّةٍ وضحاها.

الشَّرُّ قد يكون متوقَّعًا وقد يكون غيرَ متوقَّع

نوع (أل) في ﴿ٱلشَّرُّ﴾ ودلالته:

(أل) في قوله: ﴿ٱلشَّرُّ﴾ يجوز أن تكون لتعريف الجنس، والمعنى: إذا أصابه أيُّ قَدْرٍ من الشَّرِّ، قليلًا كان أو كثيرًا، صغيرًا كان أو كبيرًا، مرضًا كان أو فقرًا إلى آخره، ويمكن أن تكونَ لتعريف العهد، والمعنى: إذا أصابَهُ شرٌّ مُتَوَقَّعٌ معروفٌ، يَظُنُّ أنَّه لا بدَّ أن يصيبَهُ لسببٍ مِنَ الأسباب.

الشُّرور والأضرار تُسند للإنسان بسوء تصرُّفه، ولأنَّه يقع فيها بجرأته

وجهُ عدمِ إسناد مسِّ الشَّرِّ إلى الله تعالى:

عَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عَن إسنادِ إصابَةِ الشَّرِّ إلى اللّه؛ تَعْليمًا للأدَبِ مَعَ اللّه، كَما قالَ خليلُ الرَّحمن إبراهيمُ عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾ [الشُّعَراء: 78]، ثُمَّ قالَ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠﴾ [الشُّعَراء: 80]، فلَم يقل: وإذا أمرَضَني، وفي ذَلِكَ سِرٌّ، وهو أنَّ النِّعَمَ والخيرَ مُسَخَّرانِ لِلإنسانِ في أصلِ وضعِ خِلقَتِه، فهُما الغالِبانِ عَلَيه؛ لأَنَّهُما مِن مَظاهِرِ ناموسِ بَقاءِ النَّوعِ، وأمّا الشُّرورُ والأضْرارُ؛ فإنَّ مُعظمَهما يَنْجَرُّ إلى الإنْسانِ بِسوءِ تَصَرُّفِهِ وبِتَعَرُّضِهِ إلى ما حَذَّرَتْهُ مِنهُ الشَّرائِعُ والحُكَماءُ المُلْهَمونَ، فقلَّما يَقَعُ فيهما الإنسانُ إلّا بِعِلمِهِ وجُرأتِهِ[2].

معنى الفاء:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ هي الدّاخلة على جواب الشَّرط، والَّتي تربطُ بين جملتَيه برباط السَّببيَّة، وهي - مع ذلك - تُفيد معنى التَّعقيب والإسراع، أي: إنَّ الإنسانَ عندما يمسُّه شيءٌ خفيفٌ من الشَّرِّ يجزع، فلا يصبر، ولا يتحمَّل، ويهرع إلى الدُّعاء والإلحاح على اللّه؛ راجيًا أن يرفعَ ما مسَّه من الشَّرِّ على وجه السُّرعة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.

وجهُ التَّعبير بلفظ (ذو):

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بلفظ (ذو) في قوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ﴾، ولم يقل: فداعٍ؛ "لِما تُشْعِرُ بِهِ كَلِمَةُ (ذو) مِن مُلازَمَةِ الدُّعاءِ لَهُ وتَمَلُّكِهِ مِنهُ"[1]، بجانب "المبالغة في ذمِّه بكثرة الإلحاح، وملازمته له عند نزول الشَّدائد به فقط"[2]، "فقد كان ينبغي له أن يشرعَ في الدُّعاء عند التَّوقُّع بل قبله؛ تعرُّفًا إلى اللّٰه تعالى في الرَّخاء ليعرفه في الشِّدَّة، وهو خُلُقٌ شريفٌ، لا يعرفه إلّا أفراد خصَّهم اللّٰهُ بلطفه، فدلَّ تركُهُ على عدمِ شكرِه؛ لما مضى، وخفَّة عقله لما يأتي، ومفاجأته للزوم الدُّعاء عند المسِّ على عدم صبرِه، وتلاشي جلدِه، وقلَّةِ حيائِهِ"[3].

على الإنسانِ ألّا يتركَ الدُّعاءَ في جميع الأوقات، لا أن يتذكَّره عند الشَّدائد فقط

وجهُ تنكيرِ لفظ ﴿دُعَآءٍ﴾:

كلمةُ ﴿دُعَآءٍ﴾ تدلُّ بمعناها ومبناها المشتمل على ألف المدِّ في وسطها على مبالغة الإنسان في التَّضرُّع إلى اللّٰه، وإكثارِه من استعجال الإجابة عندما يمسُّه شيءٌ من الشَّرِّ، كثرةً لا حدودَ لها، وأوثِرَ التَّعبيرُ به نكرةً مُنوَّنةً لما يفيده التَّنكيرُ والتَّنوينُ من التَّعظيم والتَّفخيم، المؤكِّدِ شدَّةَ جزعِهِ وقلَّةَ صبرِه.

الإكثارُ مِنَ الدُّعاءِ واستعجالِ الإجابة يدلُّ على جزعِ الإنسانِ وقلَّة صبره

سرُّ الوصفِ بلفظ ﴿عَرِيضٍ﴾ دلالة وصيغة:

وصف النَّظمُ دعاءَ الإنسان عندما يمسُّه الشَّرُّ بقوله: ﴿عَرِيضٍ﴾؛ للدَّلالة على كثرة الدُّعاء وتكرارِه بلا حدودٍ؛ لأنَّ معناه: "طويل أيضًا، فاستغنى بالصِّفة الواحدة عن لزيمتها؛ إذ العرضُ يقتضي الطّول ويتضمَّنه، ولم يقل: (طويل)؛ لأنَّ الطَّويل قد لا يكون عريضًا، فـ ﴿عَرِيضٍ﴾ أدلُّ على الكثرة[4]، يقوّي ذلك المعنى مجيءُ الصِّفة بزنةِ (فعيل) الَّتي هي إحدى صيغ المبالغة، مع التَّنكير والتَّنوين[5].

التَّعبيرُ بالعرضِ دون الطّول يدلُّ على كثرة الدُّعاء وتكراره بلا حدود

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 410.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 222.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 23.

(5) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 405.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿عَرِيضٍ﴾:

إبـرازُ الدُّعـاء في صــورة الـشَّيء المحسوس الَّذي له عرضٌ وطولٌ

في وصف الدُّعاء بكونِه عريضًا استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّه فيها الدُّعاءُ المُتَكَرِّرُ المُلِحُّ فيهِ بِالثَّوْبِ أَوِ المَكانِ العَريضِ[1]، ثم حُذِفَ المشبَّه به، ورُمز إليه بشيء مِن لوازمِه، وهو العَرض على سبيل الاستعارة المكنيَّة التي تبرز كثرةَ الدُّعاء وديمومتَهُ، وتحيل الدُّعاء من أمر معنويٍّ إلى أمرٍ حسّيٍّ له عرضٌ وطولٌ، وكان مِن الممكن أن يُستَعار له الطّول، لكنَّ استعارةَ العرض أبلغُ؛ لأنَّه إذا كان عرضُه كذلك؛ فما ظنُّك بطوله؟ والطّول أطولُ الامتدادين، فإذا كان عرضه بهذه المثابة؛ فناهيك بطوله[2].

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

على الإنسانِ أن يـتـأدَّب مع الله وألّا ينسبَ الشَّرَّ إليه

في الآيةِ الكريمةِ لونٌ مِن ألوانِ البديع هو: الاحتباكُ؛ إذ اجتَمَعَ في الكَلامِ مُتَقابِلانِ، فحُذِفَ مِن كُلٍّ مِنهُما مُقابِلُهُ؛ لِدَلالَةِ الآخَرِ عَلَيهِ[3]، فقد ذكرَ الإنعام أوَّلًا دليلًا على الانتقام ثانيًا، وذَكر الشَّرَّ ثانيًا دليلًا على الخير أوَّلًا، والتَّقدير: وإذا أنعَمْنا على الإنسان بالخير؛ أعرض، ونأى بجانبه، وإذا مسَّه الشَّرُّ انتقامًا؛ فذو دعاءٍ عريضٍ، وسرُّه: تعليمُ الأدب بنسبة الإنعام دون الشَّرِّ إليه سبحانه، وإن كان الكلُّ منه[4].

توجيهُ متشابهِ النَّظم:

القنوطُ واليأسُ عند مسِّ الشَّرِّ شأنُ الكافرين، والـدُّعـاءُ شأنُ المسلمين

تحدَّثت السّورةُ عن حال الإنسانِ إذا مسَّه الشَّرُّ في موضعين: **أوَّلهما**: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾، **والآخر**: قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾، وممّا يُلحَظ عدمُ ذِكر لجوء الإنسان إلى الدُّعاء في الموضع الأول،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 9.
(3) الزركشي، البرهان: 3/ 129، بتصرف.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 222.

وذِكر لجوئهِ إليه في الموضع الثاني، والسِّرُّ في ذلك - واللّه أعلم - أنَّ الآية الأولى تتحدَّث عن حال المشركين عندما يمسُّهم الشَّرُّ؛ إذ ينصرف هؤلاء إلى أصنامِهم[1]، بينما الآيةُ الثّانيةُ تتحدَّث عن حال المسلم عندما يبتليه اللّهُ بشيءٍ مِن الشَّرِّ، بقصد اختباره، أوتنبيهه من غفلته، أو إفاقته من الانشغال بالنِّعمة عن المنعم، "فلعلَّ هذا شأنُ بعضٍ غيرِ البعضِ الّذي حُكيَ عنه اليأسُ والقُنوطُ، أو شأنُ الكلِّ في بعضِ الأوقاتِ"[2].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإعراض والإحجام والإدبار:

الإعراضُ: التَّولّي وإبداء العَرْضِ استغناءً[3]، والإحجامُ: ضَرْبٌ مِنَ المَنعِ والصَّدِّ، يُقالُ: أحجَمتُ عَنِ الشَّيءِ؛ إذا نَكَصْت عَنهُ[4]، والإدبار هو: التَّولّي والذَّهاب[5]، ولمّا كانت الآية تتحدَّث عن حال الإنسان عندما تمسُّه نعمةٌ يتوقَّعها؛ ناسب البيان بفعل (الإعراض)، الدّالِّ على الكِبر والغرور والتَّعالي على شكرِ اللّه؛ لأنَّه يرى نفسه مستحقًّا لها، أو مستغنيًا عنها، بخلاف الإحجام والإدبار اللَّذَيْنِ قد لا يتحقَّق فيهما ذلك، أي: إنَّهما قد يحصلان لأسباب منطقيَّة.

الإعـراضُ دالٌّ علـى الكِـبر والغـرور، أمّـا الإحـجامُ والإدبـارُ؛ فقد يخلوان مِن ذلك

النَّأي والبُعد:

النَّأْيُ: يكون لما ذهب عنك إلى حيثُ بلغ، وأدنى ذلك يقال له: ناء، والبُعد: تحقيقُ الخروج والذَّهاب إلى الموضع السَّحيق، فالنَّأيُ هو: أوَّلُ البُعد، والبُعدُ هو: الَّذي يكاد يبلغ الغايَة[6]، ولأنَّ المُعرِضَ عن شكر النِّعمة لا يبتعد عنها؛ لأنَّ ابتعاده يُنقِصُ من كِبره، ويقلِّل

النَّأْي أدلُّ على تـكبُّر الإنسان وكمال اغتراره، بخلاف البُعد الَّذي قد يخلو منهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 10.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 19.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (عرض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دبر).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 23، والعسكري، الوجوه والنظائر، ص: 351.

من غروره، وكان التَّعبيرُ بفعل (النأي) الدالِّ على أوَّل البُعد هو الأنسبُ لحاله، وأدلُّ على كمال اغتراره وسوء طويَّته؛ لأنَّ الإعراضَ عن الشَّيء القريب، يعني التَّرفُّع عنه وعدم الحاجة إليه حقيقة أو تظاهرًا، بخلاف البُعد أو الابتعاد الَّذي قد لا يوحي بذلك.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٢﴾ [فصلت: 52]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تحذيرُ المشركين مِنَ الكفر بالقرآنِ ومعاداة الرَّسول

بعد أن ذكَرَ النَّظمُ الكريمُ الوعيدَ العَظيمَ على الشِّرك، وبَيَّنَ أنَّ المُشْركِينَ يَرْجِعونَ عَنِ القَولِ بِالشِّركِ في يَومِ القيامَةِ، ويُظْهِرونَ مِن أنفُسِهِمُ الذِّلَّةَ والخُضوعَ بِسَبَبِ استيلاءِ الخَوفِ عَلَيهِم، وبَيَّنَ أنَّ الإنسانَ جُبِلَ على التَّبَدُّلِ، فإن وجَدَ لِنَفسِهِ قوَّةً؛ بالَغَ في التَّكَبُّرِ والتَّعَظُّمِ، وإن أحَسَّ بِالفُتورِ والضَّعفِ؛ بالَغَ في إظهارِ الذِّلَّةِ والمَسكَنَةِ؛ ناسب أن يذكُرَ عَقيبَهُ كَلامًا آخَرَ يوجِبُ على هَؤُلاءِ الكُفّارِ ألّا يُبالِغوا في إظهارِ النُّفْرَةِ مِن قَبولِ التَّوحيدِ، وألّا يُفْرِطوا في إظهارِ العَداوةِ مَعَ الرَّسولِ[1].

توجيهُ الرَّسول إلى الإعراض عن المشركين دليلٌ على تناهي غضب الله عليهم

و يمكن أن يُقالَ في وجه المناسبة: "لَمّا ذكر ﷻ من أحوالِهم المندرجة في أحوالِ هذا النَّوعِ كلِّه ما هو مكشوف بشاهد الوجود، من أنَّه لا ثبات لهم لا سيَّما عند الشَّدائد؛ إعلامًا بالعراقة في الجهل والعجز، دلَّ على الأمرين معًا بما لا يمكن لعاقلٍ دفعُه، من أنَّهم لا يجوزون الممكن، فيعدّون له ما يمنعُهُ على تقدير وقوعه، فأمره ﷺ أن يذكر ذلك إيذانًا بالإعراض عنهم، دليلًا على تناهي الغضب"[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شِقَاقِۭ﴾: (شقق) "أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على انصِداعٍ في الشَّيءِ، ومِنَ البابِ: الشِّقاقُ"[3]، وهو الخِلافُ والمخالفة، وكونك في شِقٍّ غير

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 573.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 223.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقَّ).

شِقِّ صاحبك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: 35]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: 137]، أي: مخالفة وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، أي: صار في شقٍّ غير شقِّ أوليائه[1]، ويمكن أن يكونَ بمعنى: العداوة، قال: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: 32]، أي: عادوه[2].

2) ﴿بَعِيدٍ﴾: (بعد) أصلانِ: أحدهما: خِلافُ القُرْبِ[3]، وليس لهما حدٌّ محدود، وإنَّما ذلك بحسب اعتبارِ المكان وبغيره، ويُقال في المحسوس، وهو الأكثر، وأيضًا في المعقول نحو قوله تعالى: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾ [النساء: 167]، وقوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ٤٤﴾ [فصلت: 44][4]، ووقع صفة للإيغال في الضَّلال، ونحوه من المفارقة على غيرِ رَشَدٍ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ٢٧﴾ [ق: 27]، وقال أيضًا: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٍ ٥٣﴾ [الحج: 53][5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنكارٌ صادرٌ عن غيرِ نظرٍ، صار به الكافرون في شقاقٍ بعيدٍ

توجِّهُ الآيةُ رسولَ اللّه ﷺ إلى تحذير الكافرين من أنَّ ما هم عَلَيهِ مِن إنكارِ صِدقِ القُرآنِ لَيسَ صادِرًا عَن نَظَرٍ وتَمحيصٍ يُحَصِّلُ اليَقينَ، وإنَّما جازَفوا بِهِ قَبلَ النَّظَرِ، فلَو تَأمَّلوا؛ لاحتَمَلَ أن يُنْتِجَ لَهُم التَّأمُّلُ أنَّهُ مِن عِندِ اللّه، وألّا يَكونَ مِن عِندِه، فإذا فُرِضَ الاحتِمالُ الأوَّلُ؛ فقَد أقحَموا أنفُسَهم في شِقاقٍ قَويٍّ[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصل الآية:

بيانُ حقِّيَّة القرآن وصِدقِه وصِدقِ مَنْ جاء به

جاء قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ مفصولًا عمّا قبله؛ لاختلاف الجملتَين

(1) الراغب، مفردات القرآن: (شق).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 267.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعد).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (بعد)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 257.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بعد).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 16.

خبرًا وإنشاء، فيما يُعرف بكمال الانقطاع، ويمكن أن تكونَ جملة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا مُتَّصِلًا بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: 41]، إلى قَولِهِ: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝٤٥﴾ [فصلت: 45]، فهَذا انتقالٌ إلى المُجادَلَةِ في شَأنِ القُرآنِ رَجَعَ بِهِ إلى الغَرَضِ الأصليِّ مِن هَذِهِ السّورَةِ، وهو بَيانُ حَقّيَّةِ القُرآنِ وصِدقِه، وصِدقِ مَن جاءَ بِهِ[1].

الغرضُ مِنَ الأمرِ بالقولِ ودلالته:

تتميمُ الوعيدِ وتنبيهُ الكافرين إلى ما هم فيه من الضَّلال البعيد

قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ فعلُ أمرٍ يُقصد منه توجيهُ النَّبيِّ ﷺ إلى حثِّ الكافرين واستدعائِهم لإعمال النَّظر في "دَلائِلِ صِدقِ القُرآنِ، مِثل إعجازِهِ وانتِساقِهِ وتَأييدِ بَعضِهِ بَعضًا، وكَونِهِ مُؤَيِّدًا لِلكُتُبِ قَبلَهُ، وكَونِ تِلكَ الكُتُبِ مُؤَيِّدَةً لَهُ"[2]؛ تتميمًا للوعيد، وتنبيهًا على ما هم فيه مِنَ الضَّلال البعيد[3].

بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزة:

إعادةُ القلوبِ القاسية والعقولِ المنكرة إلى جادَّة الطَّريق

الهمزةُ في قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ للاستفهام التَّقريري القاصد إلى تقرير المشركين وإثارتهم إلى التَّفكُّر في أمر القرآن، والابتعاد عن الكفر به من غير بيِّنةٍ أو دليلٍ على أنَّه من عند غير اللّه، وأنَّ محمَّدًا ﷺ افتراه من تلقاء نفسه، وأوثِرَ التَّعبيرُ بالاستفهام؛ ليعمَلَ التَّقريرُ والتَّنبيهُ عملَهما في القلوب القاسية، والعقول العنيدةِ المُنكِرة، فيُعيداها إلى الطَّريقِ القويم، والصِّراطِ المُستقيم.

دلالةُ التَّعبير بفعل الرؤيةِ ماضيًا:

كونُ القرآنِ مِن عند الله حقيقةٌ لا تقبل الشَّكَّ أو الجدالَ

عبَّر النَّظمُ بفعل الرُّؤية في قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، ومعناه: "أَخْبِروني عَن حالِكُم إن كانَ هَذا القُرآنُ مِن عِندِ اللّه"[4]، وأوثِرَ التَّعبيرُ به؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 16.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 16.
(3) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 405، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 6.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 316.

للدَّلالة على أنَّهم مطالبون بالإخبار المبنيِّ على أدلَّةٍ واضحة وضوحَ الأشياءِ المرئيَّة بالعين، الَّتي لا يخالجها نوعٌ من الشَّكِّ أو زيغ البصرِ، وجيء به ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجمعِ بقصد إثارتِهم لفعل ذلك، واستفزازِهم جميعًا للتَّحقُّق والتَّثبُّت، وفيه مِن الثِّقة في القرآن ما لا يخفى.

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة:

استنزالُ طائرِ المُشركين حتى يُقبِلوا على التَّأمُّل في دلائلِ صِدقِ القرآنِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بـ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة الَّتي مِن شأنِها أن تَدخُلَ على الشَّرْطِ المَشْكوكِ فيهِ؛ إرخاءً لِلعِنانِ مَعَهُم؛ لاستِنزالِ طائِرِ إنكارِهِم، حَتَّى يُقبِلوا على التَّأمُّلِ في دَلائِلِ صِدْقِ القُرْآنِ، وقد أَلْقَى القُرآنُ بَينَهُم هَذا التَّشكيكَ تَغليبًا، ومُراعاةً لاختِلافِ دَرجاتِ المُعانِدينَ، ومُجاراةً لَهُمُ لادِّعائهم أنَّهُم لَم يَهتَدوا؛ نَظَرًا لِقَولِهِم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: 5](1).

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الكون الماضي:

ليس في قدرة أحدٍ غيرِ الله أن يُنزِلَ القرآنَ بكينونتِهِ هذهِ أو يوحيَ به

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ في جملة الشَّرط بفعل الكونِ الماضي، فقال: ﴿إِن كَانَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ "مغالبتَهم للقرآن بالإعراض عن السَّماع باللَّغو حال قراءتِهِ مِن الصَّفير والتَّصفيق وغير ذلك، ليس صادرًا منهم عن حجَّة قاطعة في أمرِهِ، هم معها على يقين، بل هو عن خفَّةٍ وعدمِ تأمُّل"(2)؛ لأنَّ التَّدبُّر والتَّأمُّل سيُفضي حتمًا إلى أنَّ القرآنَ بتكوينه المشتمل على الوعد والوعيد، والبوارق والصَّواعق، والغيبيّات الماضية والآتية ليس في قدرة أحدٍ غيرِ اللّه تعالى أن يُنزِلَهُ، أو يوحيَ به.

معنى ﴿مِنۡ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الابتداءَ، والمعنى:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 16.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 223.

تحقَّقَ لكم، وتبيَّن لديكم أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ الله تعالى ابتداءً، وليس مِن عند أحدٍ غيره.

وجهُ التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿عِندِ﴾:

التَّعبيرُ بظرف العنديَّة المُضاف إلى اسم الجلالة العلم في قوله: ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾ فيه تفخيمٌ للقرآن وإعلاءٌ لمكانتِه وتأكيدٌ؛ لأنَّ مُنْزِلَهُ والموحي به هو اللهُ سبحانه.

سرُّ التَّصريحِ بالاسم الأعظم:

تحذيرُ المشركين مِن تكذيب بيانٍ يَظهَر بوضوحٍ أنَّه من عند الله

التَّعبيرُ باسم الجلالةِ الأعظم: ﴿ٱللَّهِ﴾، والذي يُعَبَّرُ به في مواضع التأليه والتَّعظيم في قوله تعالى: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فيه تربيةٌ للمهابة، وبثٌّ للرُّعب في قلوب المشركين، وتحذيرٌ لهم من تكذيب بيانٍ يَظهر بوضوحٍ من كينونته وإعجازه وأعاجيبه أنَّه مِن عند الله جلَّ شأنه، فالمعنى: "مِن عند الله الَّذي له الإحاطة بجميع صفات الجلال والجمال، والَّذي لا يُغالَب"[1].

توجيهُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

الكفرُ بالقرآن أمرٌ في غاية البُعد، ولا يكون إلّا عنادًا واستكبارًا

﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم﴾؛ للتَّراخي الرُّتبيِّ، عُبِّر به؛ للدَّلالة على أنَّ الكفرَ بالقرآن في غاية البُعدِ، ولمّا كان مقصودُ السّورة دائرًا على العِلم؛ نبَّه على ذلك بأداة التَّراخي مع الدَّلالة على أنَّ ذلك ما كان منهم إلّا بعد تأمُّل طويل، فكانوا معاندين حتّى نزلوا بالصَّفير والتَّصفيق مِن أعلى رتبِ الكلام إلى أصوات الحيوانات العجم[2]، وفي التَّعبيرِ به أيضًا دلالةٌ على أنَّ الكُفْرَ بما هو مِن عِندِ الله أَمْرُهُ أخطَرُ مِن كَونِ القُرآنِ مِن عِندِ الله[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 223.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 223.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 16.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الكفر ماضيًا مجموعًا:

المشركون كفروا بالقرآن مع وضوح الأدلَّة ووجود البراهين على صِدقهِ

عبَّر النَّظمُ عن إنكار الكافرين صِدقَ القرآن، وتكذيبهم مَن جاء به، على الرَّغم من وجود الدَّلائل على صِدقه، بفعل الكفر ماضيًا، مسندًا إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾؛ للتَّشنيع بفعلهم، والتَّعجيب من إنكارهم وكفرهم بعد ظهور الأدلَّة على صِدق القرآن، وأنَّه مِن عندِ اللّه، ولا طاقةَ لأحد مِن البشر أو غيرهم على افترائِهِ، أو الإتيان بمثلِه، وبعد أنِ استنزل القرآنُ طائِرَهم، فخاطب عقولَهم، وسعى في تليين قلوبهم، والمعنى: "كفرۡتُم به بعدَ إمعانِ النَّظر فيه، والتَّحقُّق من أنَّه حقٌّ، فكنتُم بذلك في شقاقٍ هو في غاية البُعد مِنَ الملاءمَةِ لِمن لم يزل يستعطفكم بجميل أفعالِهِ، ويردُّكم بجليل أقوالِه، وآمن به غيرُكم؛ لأنَّه من عند اللّه"(1).

معنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾ ومرجع الضَّمير فيه:

الباءُ في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ يمكن أن تكونَ للإلصاق، ويمكن أن تكونَ للتَّعدية، والضَّمير المجرور فيه يرجع إلى القرآن الكريم، الَّذي سبق تسميتُهُ ﴿بِٱلذِّكۡرِ﴾ [فصلت: 41] في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ [فصلت: 41]، وفي التَّعبير بهما تأكيدٌ لكفر مشركي مكَّة بالقرآنِ، وتقويةٌ لإنكارهم كونَهُ مُنَزَّلًا مِن عندِ اللّه على رسولِه ﷺ.

بلاغةُ الاستفهام بـ ﴿مَنۡ﴾:

لا يوجدُ أضلُّ مِمَّن وضع نفسَهُ في شقٍّ غيرِ شقِّ اللهِ ورسولِه

﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَضَلُّ﴾ اسمُ استفهام قُصِد به النَّفي، والمعنى: لا يوجد أضلُّ مِمَّن هو في شِقاقٍ بَعيدٍ(2)؛ لأنَّهم كفروا بالقرآن مع تعاضُد موجبات الإيمان به(3)، وأوثِرَ التَّعبيرُ عن هذا المعنى بالاستفهام؛ لما يمتاز بِهِ من تنبيهِ المخاطَبين إلى ضرورة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 224.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 16.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 6.

التَّفكُّر والتَّدبُّر فيما يُطرح عليهم مِن خلال السُّؤال؛ ليقفوا مع أنفسِهم، ويتراجعوا عن غيِّهم.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أَضَلُّ﴾ مادَّة وصيغة:

المشركون وصلوا في الضَّلال مَبْلَغًا فاقوا بِهِ مَنْ سبقهم

قولُه: ﴿أَضَلُّ﴾ اسمُ تفضيلٍ، أوثِرَ التَّعبيرُ به عن خطأ الكافرين في إنكارهِم صِدْقَ القرآن، وتكذيب كونهِ مِن عند اللّه؛ لدلالتهِ على التَّخبُّط والتّيه وعدم الهداية، ما يعني: أنَّهم بالغوا في تكذيبِ القرآن، وذهبوا في ذلك مذهبًا بعيدًا لم يصل إليه غيرُهم، وأنَّ ما ذهبوا إليه ليس مِنَ الصَّواب، ولا يتَّصل به مِن قريبٍ ولا بعيدٍ، وأوثِرَ التَّعبيرُ عنه بصيغة اسم التَّفضيل؛ للدَّلالة على مزيد ضلالِهم وبُعدِهم في غيِّهم[1]، ووصولهم فيه مبلغًا فاق الكافرين السّابقين.

معنى (مِنْ):

(مِنْ) في قولهِ: ﴿مِمَّنْ﴾ هي البيانيَّة المؤكِّدة عدمَ وجودِ أحدٍ أضلَّ مِنَ المشركين الذين كفروا بالقرآن مع تأكُّدهم من أنَّه وحيٌ مِن عند اللّه، أنزله اللّهُ على رسوله.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الموصول وصلتهِ:

مـشـاقـةُ الـلـهِ ورسـولـهِ أصلُ الضَّلال وسببُه الرَّئيسُ وموجبُ العذاب الأوَّلِ

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (من أضلُّ منكم)، لكنَّ البيان عدل عن التَّعبير بالضَّمير إلى التَّعبير باسم الموصول وصلته، فقال: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ بيانًا لحالهِم وصفتهِم[2]، ولِما تَأْذَنُ بِهِ الصِّلَةُ من تَعليلِ أنَّهُم أضَلُّ الضّالّينَ بِكَونِهِم شَديدي الشِّقاقِ، وذَلِكَ كِنايَةٌ عَن كَونِهِم أشَدَّ الخَلْقِ عُقوبَةً؛ لِما هو مَعلومٌ مِن أنَّ الضَّلالَ سَبَبٌ لِلخُسرانِ[3].

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 405.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 206.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 17.

فائدةُ التَّعبيرِ بضمير الفصل:

جاء البيانُ بضمير الفصل: ﴿هُوَ﴾ بين المبتدأِ والخبرِ في قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؛ لتأكيد أنَّ ذلك الكافر الَّذي أنكر القرآن بعد أن ثبت لديه أنَّه مِن عند اللّه قد بالغ في مشاقَّة اللّه ورسوله، وذهب فيها مذهبًا بعيدًا من غير أدلَّة داعمة، ولا براهين مساندة، وأنَّ حاله لن يكونَ غيرَ ذلك، ولا يمكن وصفُه بشيءٍ آخر.

معنى ﴿فِي﴾:

إحاطةُ الشِّقاق بالكافرين تشبه إحاطةَ الظَّرف بالمظروف

أوثِرَ التَّعبيرُ بحرف الجرِّ المفيد للظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العداوةَ والشِّقاقَ قد استبدَّ بهؤلاءِ الكفّار، وأحاط بهم إحاطةً تُشبِه إحاطةَ الظَّرف بالمظروف والوعاء بما فيه، ما يعني أنَّ مَنْ يفعلُ ذلك مُغْرِقٌ في الشِّقاق، مُبالِغٌ في العداوة.

وجهُ التَّعبير بمفردة: ﴿شِقَاقٍ﴾:

إنكارُ صِدق القرآنِ معناهُ إعلانُ معاداةِ اللهِ ورسولِه

آثَرَ البيانُ التَّعبيرَ بكلمة: ﴿شِقَاقٍ﴾؛ ترهيبًا مِن تكذيب القرآن، والقول بأنَّه ليس مِن عند اللّه؛ إذ يدلُّ التَّعبيرُ به على أنَّ مَنْ يفعل ذلك قد جعل مِن نفسِه عدوًّا للّه سبحانه، وخصمًا لرسوله ﷺ، وأنَّه معدودٌ في شقٍّ غيرِ شقِّهما، وسائرٌ في طريق غيرِ طريقهما، ومِن البدهي أنَّه لا طاقة لأحدٍ مِن البشر أيًّا كان على تحمُّل النَّتائج المترتِّبة على معاداة اللّه تعالى، وعصيان رسوله في الدُّنيا والآخرة، وفي التَّعبير به نكرةً منوَّنًا دلالةٌ على تعظيم الشِّقاق وتفخيمه.

بلاغةُ المجازِ في كلمة: ﴿شِقَاقٍ﴾:

الشِّقاقُ بئرٌ عميقٌ ألقى الكفّار بأنفسهم في أعماقِه، وصاروا لا يستطيعون الخروج منه

التَّعبيرُ بلفظ الـ ﴿شِقَاقٍ﴾ مجرورًا بحرف الظَّرفيَّة فيه استعارةٌ مكنيَّة، شُبِّه فيها الشِّقاقُ ببئرٍ عميقٍ، ألقى الكفّارُ بأنفسِهم في أعماقِه، وصاروا لا يستطيعون الخروجَ منه، ثم حُذف المشبَّه به، ورُمِزَ إليه بشيءٍ مِن لوازمِه، وهو الظَّرفيَّة، على سبيل الاستعارة

المكنيَّة التي تُبرز عمقَ العداوة، وتُصَوِّرُ شدَّةَ الخصومةِ المترتِّبة على الكفر بالقرآن، وتكذيب كونهِ من عند اللّه.

سرُّ وصف الشِّقاق بالبعيد:

الشِّقاقُ فراقٌ لا رجاءَ معه في العودة والدُّنوّ

قولُهُ: ﴿بَعِيدٍ﴾ صفةٌ لـ ﴿شِقَاقٍ﴾، أوثِرَ الوصفُ به؛ تقويةً للتَّرهيب من الكفر بالقرآن، وتأكيدًا للتَّحذير من تكذيبه؛ لما فيه من الدَّلالة على أنَّ مَن فعلَهُ قد أوغل في الشِّقاق والضَّلال، وذهب فيهما مذهبًا لا يمكن معه العودةُ إلى طريق الهدى والرَّشاد، فـ "الضَّلالُ أصلُهُ عَدَمُ الاهتِداءِ إلى الطَّريق، والبُعْدُ مُناسِبٌ لِلشِّقاقِ؛ لأنَّ المُنشَقَّ قَد فارَقَ المُنشَقَّ عَنهُ، فكانَ فِراقُهُ بَعيدًا لا رَجاءَ مَعَهُ لِلدُّنوِّ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في وصف: ﴿بَعِيدٍ﴾:

إبرازُ قوَّةِ الشِّقاق وشدَّته

الـ ﴿بَعِيدٍ﴾ في الأصل: الواسِعُ المَسافَةِ، عبَّر به هنا عن: الشَّديد في جنسه[2]، على سبيل الاستعارةِ الَّتي شُبِّهَت فيها الشِّدَّة في الشِّقاق بالبُعد في المسافة، ثم حُذِفَ المشبَّهُ بعد تناسي التَّشبيه، ثم استُعير البعيدُ للشَّديد استعارةً تصريحيَّةً، تبرز قوَّةَ الشِّقاق وشدَّته.

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

ذِكرُ المضارِّ أصدعُ للقلب وأنفعُ في الوعظ

في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ احتباكٌ؛ إذ ذكر النَّظمُ القرآنيُّ الكفرَ أوَّلًا دليلًا على الإيمان ثانيًا، والضَّلالَ ثانيًا دليلًا على الهدى أوَّلًا، والتَّقدير: قل أرأيتم إن كان من عند اللّه؛ لهداكم، مَنْ أضَلُّ مِمَّن هو في شقاق بعيد، فآمِنوا، وسِرُّه أنَّ ذِكرَ المَضارِّ أصدعُ للقلبِ، وأنفعُ في الوعظ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 17.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 17.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 224.

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

البُشرى بظهور الـدَّلائـل على وحدانيَّة الله وقدرته، وحَقّيَّة مـا جـاء بـه الرَّسول

بعد أن أمرَ اللَّهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أنْ يَقولَ لِلمُشركِينَ ما فيهِ تَخويفُهُم من عَواقِبِ الشِّقاقِ، على تَقْديرِ أنْ يَكونَ القُرآنُ من عِندِ اللَّه، وهُم قد كَفَروا بِهِ؛ ناسب أن يَعِدَهُ في هذه الآية على سَبيلِ التَّسْلِيَةِ والبِشارَةِ بِأنَّ اللَّه سَيَغْمُرُ المُشْرِكينَ بِطائِفَةٍ من آياتِهِ يَتَبَيَّنونَ بِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللَّه حَقًّا، فلا يَسَعُهُم إلّا الإيمانُ بِهِ، وسَتَظهَرُ دَلائِلُ حَقّيَّتِهِ في الآفاقِ البَعيدَةِ عَنهُم وفي قَبيلَتِهِم وأنفُسِهِم، فتَتَظاهَرُ الدَّلائِلُ على أنَّهُ الحَقُّ، فلا يجدون إلى إنْكارِها سَبيلًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأٓفَاقِ﴾: (أفق) أصلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على تَباعُدِ ما بَيْنَ أطرافِ الشَّيءِ واتِّساعِه، وعلى بُلوغِ النِّهايَة، ومِن ذَلِكَ الآفاقُ: النَّواحي والأطرافُ، وآفاقُ البَيتِ مِن بُيوتِ الأعرابِ: نَواحيهِ دونَ سَمكِه، يُقالُ: أفَقَ الرَّجُلُ؛ إذا ذَهَبَ في الأرضِ[2]، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾، أي: في النَّواحي، وواحِدُهُ أفق، قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧﴾ [النجم: 7]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣﴾ [التكوير: 23][3].

2) ﴿يَكۡفِ﴾: (كفي) أصلٌ يَدُلُّ على الحَسْبِ الَّذي لا مُسْتَزادَ فيه، يُقالُ: كَفاكَ الشَّيءُ يَكْفيكَ، وقد كَفى كِفايَةً؛ إذا قامَ بالأمْرِ، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي، والجَمْعُ كُفًى، ويُقالُ: حَسْبُكَ زَيْدٌ من رَجُلٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 18.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفق).

(3) الراغب، مفردات القرآن: (أفق)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أفق).

وكافيكَ[1]، والكِفايَةُ: ما فيه سدُّ الخَلَّة وبلوغ المراد في الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]، وقال: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر: 95]، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النساء: 79] معناه: اكْتَفِ باللّٰهِ شهيدًا[2].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الـدَّلائـلُ على قُدرة اللهِ وحقّيَّة الـقـرآنِ بـاديـةٌ في الآفـاقِ وفي أنفسِ المُشركين

في هذه الآيةِ يبشِّرُ اللّٰهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ، ويَعِدُه قائلًا: سنُطلع النّاس على دلائل وحدانيَّتنا وقدرتنا في أقطار السَّموات والأرض، من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ، وليلٍ ونهارٍ، ورياح وأمطار، وزرع وثمار، ورعد وبرق وصواعق، وجبال وبحار، وسنطلعهم على آثار قدرتِنا في أنفسِهم عن طريق ما أودعنا فيهم من حواسَّ وقوًى وعقل وروح، وعن طريق ما يصيبهم من خير وشرٍّ، ونعمة ونقمة، وغير ذلك ممّا يدلُّ على وحدانيَّة اللّٰه تعالى، وقدرته، وعلى صحَّة دين الإسلام الَّذي جاء به الرَّسول ﷺ، ثمَّ توبِّخ الآيةُ الكافرين على عنادِهم مع ظهور الأدلَّة على أنَّ ما جاء به الرَّسول من عند ربِّه هو الحقُّ المبين[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في الآية:

جاءت جملةُ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ مفصولةً عن قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾، وهذا ما يُعرف بلاغيًّا بشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانية عن سؤال أثارتْهُ الآية الأولى في نفس المتلقّي عن الكيفيَّة الَّتي سيَرى بها الكفّارُ أنَّ ما أُرسل به الرَّسولُ هو الحقُّ، فتأتي الآية الثّانية؛ لتبيِّن أنَّ اللّٰه تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفا).

(2) الراغب، مفردات القرآن: (كفى).

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 366، 367.

سيُريهم ذلك في الآفاق وفي أنفسِهم، ومِن ثَمَّ تفصلُ عنها، كما يُفصلُ الجوابُ عن السُّؤال، "والتَّعليلُ راجِعٌ إلى إحالَتِهِم على تَشكيكِهِم في مَوقِفِهِم لِلطَّعْنِ في القُرآنِ، وقَد سَكَتَ عَمّا يَترَتَّبُ على ظُهورِ الآياتِ في الآفاقِ وفي أنفُسِهِمُ المُبَيِّنَةِ أنَّ القُرآنَ حَقٌّ؛ لأنَّ ما قَبْلَهُ مِن قَولِهِ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ يَنبئُ عَن تَقديرِهِ، أي: لا يَسَعُهُم إلّا الإيمانُ بِأنَّهُ حَقٌّ، فمَن كانَ مِنهُم شاكًّا مِن قَبلُ عَن قِلَّةِ تَبَصُّرٍ؛ حَصَلَ لَهُ العِلمُ بَعدَ ذَلِكَ، ومَن كانَ إنَّما يَكْفُرُ عِنادًا واحتِفاظًا بِالسّيادَةِ؛ افتَضَحَ بُهتانُهُ، وسَفَّهَهُ جيرانُهُ"[1].

معنى السّين:

السّين في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ حرفُ استقبالٍ، يدلُّ على تأكيد إراءتهم الدَّلائل الدّامغة على صِدق الرَّسول فيما جاء بِهِ، في المستقبل القريب، وليس البعيد.

دلالةُ فِعل الرُّؤية مضارعًا معظَّمًا:

إراءةُ المشركين وغيرِهم الدَّلائلَ والآيــاتِ أمـرٌ سهلٌ على اللهِ جلَّ في علاه

جيءَ بفعل الرُّؤية مضارعًا، فقيل: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾؛ لأنَّ الإراءة ستكون في المستقبل، وأسندَ إلى ضميرِ الحقِّ بصيغة التَّعظيم؛ للإشارة إلى سهولتِهِ على اللّه، وقيام اللّه تعالى على ذلك بنفسهِ، ما يؤكّد وقوعَه، وينفي عنه الاحتمالَ والشَّكَّ[2].

مرجعُ الضَّمير في: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ودلالته:

إراءةُ الآيـاتِ ستـكـون لـلـمشـركين والـنّــاس أجمعين

الضَّميرُ المنصوب: (هُمْ) في ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ عائدٌ إلى الكفّار الَّذين أُمِر النَّبيُّ ﷺ بمخاطبتِهم في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، والمعنى: سنُري الكافرين - الَّذين ينكرون أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللّه - الدَّلائلَ والآيات في الآفاق وفي أنفسِهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 18.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 224.

على أنَّ ما جاء به الرَّسولُ حقٌّ، ويمكن أن يُرادَ به: الناس أجمعون، ويدخل فيهم الكافرون دخولًا أوَّليًّا.

دلالةُ جمعِ الآيات:

قولُهُ: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ مفعولٌ ثانٍ لفعل الإراءة، أوثِرَ التَّعبيرُ به جمعًا؛ للدَّلالةِ على كثرة الآياتِ وتنوُّعها؛ لتشمَلَ الدَّلائِلَ الخارجَةَ عَنِ القُرآنِ، وما يَشمَلُ آياتِ القُرْآنِ، فإنَّ مِن جُمْلَةِ مَعنَى رُؤيَتِها: رُؤيَةَ ما يُصَدِّقُ أخبارَها، ويُبَيِّنُ نُصحَها إيّاهُم، بِدَعوتِها إلى خيرَيِ الدُّنْيا والآخِرَةِ[1]، والقصدُ مِن تكثير الآيات وتنويعها تبشيرُ الرَّسول والمؤمنين وتثبيتُهم، وإلجامُ الكافرين، وقطعُ الشَّكِّ في نفوسهم، وكفُّهم عن الجدال والمراء في شأن ما جاء بِهِ الرَّسولُ ﷺ، كما ستوضِّح الآيةُ فيما بعد.

الآيـاتُ الـدّالّـةُ عـلى حـقّيَّـة ما جاء به الرَّسولُ كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ

سرُّ تعريفِ الآيات بإضافتها إلى ضمير التَّعظيم:

جيء بالمفعول الثّاني لفعل الإراءة مضافًا إلى ضمير الحق سبحانه بصيغة المتكلِّم المُعَظِّم نفسَه، فقيل: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ لتعظيم الآيات وتفخيمها[2]، والدَّلالة على أنَّها مِن عند اللَّه، الَّذي لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، والمُطَّلِعُ على ما يدور في نفوس خلقهِ وعقولهم، ويدخل فيهم منكرو الرِّسالة دخولًا أوَّليًّا.

عـظـمـةُ الآيـات تُـسـتَـمـدُّ مـن عظمةِ الله الَّذي أضـافـهـا إلى نفسه

معنى ﴿فِي﴾:

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ جارٌّ ومجرور في محل نصب حال من الآيات، والتَّعبير فيه بحرف الجرِّ المفيد للظَّرفيَّة دالٌّ على أنَّ الآياتِ المُتحدَّث عنها ستتخلَّل "النواحي عمومًا في مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، وفيه أيضًا دلالةٌ على أنَّها كائنةٌ - لا محالة - وحقٌّ لا يحوم حوله ريبةٌ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 18.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 224.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 7.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡأٓفَاقِ﴾ جمعًا:

الآيات والدَّلائل ستعمُّ الكونَ كلَّه، ولن تقتصرَ على ناحية مكَّة وما حولها

عبَّر النَّظمُ الكريم بالاسم المجرور جمعًا، فقال: ﴿ٱلۡأٓفَاقِ﴾، والمراد به: نواحي الكون كلِّه، وجهاته الشَّرقيَّة والغربيَّة والشَّماليَّة والجنوبيَّة، والقصدُ مِن ذلك أن تَعُمَّ الدَّلائلُ والآياتُ العالمَ كلَّهُ، وألّا تقتصرَ على ناحية مشركي مكَّة وما حولها، فيكون ذلك أدعى للتَّصديق، وأقوى في البرهنة على أنَّ ما جاء به الرَّسولُ حقٌّ، وأنَّه مِن عند اللّه ﷻ، والمقصود بها: ما أخبرهم به النَّبيُّ ﷺ مِن الحوادث الآتية، وآثار النّوازل الماضية، وما يسَّر اللّه له ولخلفائه مِنَ الفتوح والظُّهور على ممالك الشَّرق والغرب على وجهٍ خارقٍ للعادة[1]، وقيل: ما في أقطار السَّمواتِ والأرضِ من الشَّمسِ والقمرِ والنُّجوم وما يترتَّب عليها مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والأضواءِ والظِّلالِ والظُّلماتِ ومن النَّباتِ والأشجارِ والأنهارِ[2].

توجيهُ العطفِ بالواو:

ذِكر الآفاق أوَّلًا؛ لأنَّه أقربُ إلى الكمال، وعطف عليه النَّفس؛ لأنَّه محسوسٌ

جاء قولُه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ معطوفًا على ﴿ٱلۡأٓفَاقِ﴾ بالواو؛ للدَّلالة على أنَّ الآياتِ لن تكونَ في آفاق الكونِ فقط، وأنَّها ستشمل أنفس المشركين، وما هو قريب منهم، أومحيطٌ بهم، وهو معطوف على ما قبله "عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ، أي: وفي أُفُقِ أنفُسِهم، أي: مَكَّةَ وما حَولَها على حَذْفِ مُضافٍ"[3]، وثنَّى بالأنفس؛ لأنَّها "لمّا كان الإيمانُ بالغيب هو المعتبر، وكلُّ ما كان أقرب إليه؛ كان أقربَ إلى الكمال، وكانت آياتُ الآفاق أقربَ إلى ذلك؛ بدأ بها، ثم قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾"[4]؛ لأنَّها المحسوسة.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 75.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 19.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 19.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 225.

لطيفةُ تَكرارِ حرفِ الجر:

أعاد النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بحرف الجرِّ المفيد للظَّرفية، مع إمكان الاكتفاءِ بالأوَّل، فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، ولم يقل: (في الآفاق وأنفسهم)؛ لتأكيد أنَّ الله تعالى سيريهم آياتٍ ودلائلَ تؤكِّد صِدقَ ما جاء بِهِ الرَّسول ﷺ في أنفسِهم أيضًا؛ ليكون شعورُهم بغيرها أتمَّ، وتصديقُهم لجميع الآيات وما تدلُّ عليه أقوى وأوجب.

دلالةُ لفظِ الأنفس جمعًا وتعريفًا بالإضافة:

سيرى كلُّ منكرٍ هـذه الآيـات في نفسِهِ، ويتأكَّد منها بنفسه

قولُه تعالى: ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ معناه: "ما ظهر فيما بين أهلِ مكَّة وما حلَّ بهم، أو ما في بدن الإنسان مِن عجائبِ الصُّنع الدّالَّة على كمال القدرةِ"[1]، وقيل: ما في أنفسِهم مِن لطيفِ الصُّنعة وبديعِ الحكمةِ في تكوينِ الأجنَّةِ في ظلماتِ الأرحام وحدوثِ الأعضاءِ العجيبةِ والتَّركيباتِ الغريبةِ[2]، وأيًّا كان المرادُ؛ ففي التَّعبير به جمعًا مضافًا إلى ضمير المشركين أو النّاس أجمعين؛ دلالةٌ على أنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ المُتَحَدَّث عنهم سيرى هذه الآياتِ في نفسهِ، وسيتأكَّدُ منها بنفسهِ، وليس بواسطة أحدٍ آخر.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ حرفُ جرٍّ يدلُّ على أنَّ الغايةَ مِن إراءتهم هذه الآياتِ الكثيرةَ والمتنوِّعةَ هي أن يتَّضح لهم بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ حقٌّ لا يقبل المِراء.

دلالةُ الفعل ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ مضارعًا:

الآيـاتُ ستظهرُ متتابعةً بعضُها في إثرِ بعضٍ إلى قيام السّاعة

أوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل: ﴿يَتَبَيَّنَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذه الآياتِ والدَّلائل ستكون مِن الوضوح والبيان بشكلٍ لا تحتاج إلى إعمال فِكرٍ أو كدِّ ذهنٍ، وجيء به مضارعًا دالًّا على الاستمرار

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 75.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 19.

التَّجدُّدي؛ للإشارة إلى أنَّها ستظهرُ متتابعةً، بعضُها في إثر بعضٍ إلى قيام السّاعة[1].

دلالةُ التَّعبير بالجار والمجرور:

اللامُ في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ حرفُ جَرٍّ يفيد الاختصاص، والضَّمير المجرور فيه يعود إلى المشركين أو إلى النّاس أجمعين، وفي التَّعبير بهما دلالةٌ على أنَّ هذه الآيات مسوقةٌ؛ ليتبيَّن المشركون بصفة خاصَّةٍ والنّاسُ بصفةٍ عامَّة صِدقَ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ، وحَقّيَّةَ ما بُعِثَ به.

بلاغةُ التَّوكيد في المصدر المؤول: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ ومرجع الضَّمير فيه:

الآياتُ الَّتي سيظهرها اللهُ في الآفاق وفي النُّفوس ستقتلع الشَّكَّ مِن جذوره

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ مصدر مؤول في محلِّ رفع فاعل ﴿يَتَبَيَّنَ﴾، والضَّمير المنصوب فيه يعود إلى القرآن أو إلى الرَّسول ﷺ أو إلى التَّوحيد أو إلى اللّه[2]، ويجمع كلَّ ذلك أن يُقال: عائدٌ إلى ما جاء به الرَّسول أو إلى الدّين، وأيًّا كان مرجعُ الضَّمير؛ فمجيءُ فاعل ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ مؤكَّدًا بـ(إنَّ) والجملة الاسميَّة وتعريف الخبر فيه دلالةٌ قاطعةٌ على حقّيَّة ما جاء به الرَّسولُ ﷺ، وأنَّ الآياتِ التي سيُظهرُها اللّهُ تعالى ستقتلع الشَّكَّ مِنَ الجذور، والرَّيبَ من الأعماق، ولن يبقى أمامَ الناس إلّا التَّصديقُ والإيمانُ؛ إن كانوا من ذوي العقول الرّاجحةِ، والقلوب الصّافيةِ.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

ما جاء به الرَّسول هو الحقُّ الكاملُ في الحقّيَّة

تعريفُ الخبر في قوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ بـ(أل) يجعل المصدر المؤول مِن باب قصر الموصوف على الصِّفة قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، أو قصرًا إضافيًّا غرضُه القلبُ، وطريقُه تعريف الطَّرفين، وفيها قُصِرَ فيه ما جاء به الرَّسول ﷺ على كونِه الحقَّ "الكاملَ في الحقّيَّة الَّذي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 226.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 75.

تطابقه الوقائعُ، وتصادقه الأحوالُ العارضةُ والصَّنائعُ، فيجتمعون عليه، ويُقبلون بكلِّ قلوبِهم إليه، فلا يأباهُ في جزيرة العرب إنسانٌ، ولا يختلف فيه منهم اثنان، ثم ينبثّون في أرجاء الأرض بطولها والعرض، فيظهر بهم على سائر الأديان، ويَبيدُ على أيديهم أهل الكفران، في سائرِ البلدان، ويزول به كلُّ طغيان، فيكون ظهورُهم عظةً لهم، ولكلِّ مَن يأتي بعدَهم، يوجب الثَّبات في محال الزلزال"[1].

بلاغةُ الاستفهام بالهمزة:

تحقيقُ تَيَقُّنِ النَّبيِّ بكفالةِ ربِّه، وعدم الالتفات لِتَكذيب المشركين

الهمزةُ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾؛ للاستفهام التَّقريريِّ؛ تَحقيقًا لتيقُّن النَّبيِّ ﷺ بكَفالَةِ رَبِّه، بحيثُ كانَتْ ممّا يُقَرَّرُ عليها؛ كِنايَةً عَنِ اليَقينِ بها، والمعنى: تَكْفيكَ شَهادَةُ رَبِّكَ بِصِدْقِكَ، فلا تَلتَفِتْ لِتَكْذيبِهم، ويمكنُ أن يكونَ الاستفهام إنكاريًّا؛ إنكارًا لِعَدَمِ الاكتِفاءِ بالقَسَمِ بالله، وهو كِنايَةٌ عَنِ القَسَمِ، وعَن عَدَمِ تَصديقِهِم بِالقَسَمِ، فيَكونُ مَعنَى الآيَةِ قَريبًا مِن مَعنَى قَولِهِ تَعالَى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [الرَّعد: 43]، وقَولِهِ تَعالَى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾ [العنكبوت: 52][2]، والمعنى: أو لم يَكفِهِم أنَّ رَبَّكَ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ[3]؟.

دلالةُ التَّركيبِ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾:

الهمزةُ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ﴾ للاستفهام، كما سبق بيانُه، والواو حرف عطف على مُقَدَّرٍ يقتضيه السّياق، تقديرُهُ: ألم يغنِهم، ولم يكفِهم، و(لَمْ) حرف جزم، و﴿يَكۡفِ﴾ فعلٌ مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف الياء، والباء حرف جرٍّ، و(رَبِّكَ) مجرور لفظًا مرفوع محلًّا، والمفعول به محذوفٌ، و(أنَّ) وما في حيِّزها بدلٌ مِن (رَبِّكَ)؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 227.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص: 20.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 574.

فهو مرفوعُ المحلِّ مجرور اللَّفظ[1]، وهذا البناءُ التَّركيبي معناه: ألم يغنِ عن الآيات الموعودة الدّالَّة على صحَّة ما أُرسلت به، أنَّ ربَّك - أيُّها الرَّسول الكريم - شهيدٌ على كلِّ شيء، وعلى أنَّك صادق فيما تبلِّغه عنه[2].

دلالةُ المضارع المجزوم: ﴿يَكۡفِ﴾:

عبَّر البيانُ الكريمُ بفعل الكفاية الموضوع للقيام بالأمر وسدِّ الخَلَّة وبلوغ المراد[3]؛ للدَّلالة على أنَّ شهادةَ اللّهِ بحَقّيَّة ما جاء به الرَّسولُ وصدقِهِ فيها الغناء والكفاية، ولا يُحتاج معها إلى أدلَّة وبراهين لإثبات ذلك، وجيء به مضارعًا، فقيل: ﴿يَكۡفِ﴾؛ للدَّلالة على امتداد هذه الكفايةِ وصلاحيَّتها في الحال والاستقبال.

شَهادةُ اللهِ بحقّيَّة ما جاء به الرَّسولُ فيها الغناءُ والكفايةُ

معنى الباء في ﴿بِرَبِّكَ﴾:

الباءُ في: ﴿بِرَبِّكَ﴾؛ لتأكيد كفايةِ شهادة اللّه، وتقوية عدم الاحتياج إلى شيءٍ آخر.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيّة، والسِّرُّ في إظهاره:

كان مقتضى الظّاهر أن يُعَبَّر بالضَّمير، فيُقال: (أولم يكفِ به؟)، أو (أولم يكفِ بنا؟)، ولكن النَّظم الكريم عدل إلى التَّعبير باسم الجلالة بعنوان الرُّبوبيَّة، الدّالِّ على رعاية اللّه تعالى لمصالح خلقِهِ، قائلًا: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾؛ للإشارةِ إلى ضرورة الاكتفاء باللّه تعالى شهيدًا، لما هو معهودٌ عنه مِنَ القيام بأمور خلقهِ على أفضل حال، ورعايتِهِ لمصالحهم على خيرِ وجهٍ، والمعنى: أولم يكفِ بربِّك المُحسن إليك بهذا البيان المعجز للإنس والجنِّ شهادةً بأنَّه

مُنشئُ الآياتِ هو الرَّبُّ المهيمنُ المُطَّلعُ على كُلِّ شيءٍ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 19، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 7، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 8.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 367.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفا)، والراغب، مفردات القرآن: (كفى).

من عنده[1]، يقول الآلوسيُّ: "وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ﴾ مضافًا إلى ضميرِه ﷺ، وإيثاره على (أولم يكفِ به) إشعارٌ بأنَّه ﷺ وأتباعه من كلِّ العارفين هم الَّذين يكفيهم شهودُهُ على كلِّ شيء دليلًا، وأنَّ ذلك لهم نفس عنايته تعالى وتربيته من دون مدخل لتعلُّمهم فيه"[2]، وأظهرَ الاسمَ الجليل في موضع الإضمارِ؛ "للإشعار بالعِلّيَّة وأنَّ هذه الآيات إنَّما صلحت للدَّليل على حَقّيَّةِ المطلوب؛ لأنَّ مُنْشِئَها مَنْ هو على كلِّ شيءٍ مهيمِنٌ مُطّلِعٌ"[3].

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

تثبيتُ النَّبيِّ والمؤمنين وتسليتُهم في مقام التَّكذيب والتَّشكيك

في التَّعبيرِ باسم الرَّبِّ الجليل مضافًا إلى ضمير المخاطَب في قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ التفاتٌ مِنَ الغيبة إلى الخطاب، حيث كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (أولم يكفِ بربِّهم؟)، لكنَّ البيانَ عدل عن التَّعبيرِ بضمير الغيبةِ العائد إلى المشركين إلى ضميرِ خطاب الرَّسول ﷺ؛ لتشريف النَّبيِّ وتكريمه، مع تثبيته وتثبيت المؤمنين معه وتسليتهم في مقام التَّشكيك والتَّكذيب للدّين.

بلاغةُ حشد التَّوكيدات:

إظهارُ آياتِ الله في الآفاق وفي أنفسهم سيراه النّاسُ ويشاهدونه

قولُه: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ مصدر مؤول في محل رفع بدل من (رَبِّكَ)، جيء به مؤكَّدًا بـ(إنَّ)، والجملة الاسميَّة، وحرف الاستعلاء، والتَّعبير بما يفيد الاستغراق والشُّمول في: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لتأكيدِ أنَّ "هذا الموعودَ مِن إظهار آيات اللّه في الآفاق وفي أنفسِهم سيرونه، ويشاهدونه، فيتبيَّنون عند ذلك أنَّ القرآنَ تنزيلُ عالمِ الغيب، الَّذي هو على كلِّ شيء شهيدٌ، أي: مطَّلِعٌ مهيمنٌ، يستوي عنده غيبُه وشهادتُه، فيكفيهم ذلك دليلًا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 228.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 9.

(3) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 628.

على أنَّه حقٌّ، وأنَّه من عنده، ولو لم يكن كذلك؛ لما قَويَ هذه القوَّة، ولما نُصِرَ حاملوه هذه النُّصرة"[1].

لا يَشِذُّ عن عِلم الله وإحاطته أيُّ شيء

معنى ﴿عَلَىٰ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الاستعلاء، وهو أصلُ معانيه، وفي التَّعبير به دلالةٌ على هيمنة اللّه الكاملة واطِّلاعه الشّامل[2] على ما جاء به الرَّسول وإحاطته بصدق ما يقوم بإبلاغهِ للنّاس، وعدم شذوذ شيء مِن ذلك عن علمه.

نكتةُ التَّعبير بلفظ: ﴿كُلِّ﴾:

التَّعبيرُ عن الاسم المجرور بـ ﴿كُلِّ﴾ فيه دلالةٌ على الشُّمول واستغراق كلِّ الأشياء، والمعنى: لا يغيب عنه شيءٌ مِنَ الأشياء، لا هذا القرآن ولا غيره[3].

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿شَيۡءٍ﴾:

اللّهُ تعالى شهيدٌ على الحادث والقديم، والقليل والكثير، والصَّغير والكبير

كما عبَّر النَّظمُ بلفظ: ﴿شَيۡءٍ﴾ مضافًا إلى ﴿كُلِّ﴾؛ للدَّلالة على إحاطةِ اللّه واطِّلاعه على كلِّ الأشياء ما صغُر منها وما كبُر، وما هو حادثٌ، وما هو قديمٌ[4]، وما هو قليلٌ، وما هو كثيرٌ، ويدخل فيها ما جاء به الرَّسولُ وما يفعله معه المشركون دخولًا أوَّليًّا.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿شَهِيدٌ﴾ مادَّة وصيغة:

نصرةُ الله تعالى للنَّبيِّ ﷺ ومَن معه كائنةٌ لا محالة

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الخبر بلفظ: ﴿شَهِيدٌ﴾ بصيغة فعيل؛ للتَّأكيد والإبلاغ في شهادةِ اللّه تعالى واطِّلاعه على كلِّ شيءٍ يحدث من المشركين ومِن غيرهم، والمعنى: "ألم يُغنِهم عن إراءة الآيات الموعودة المبيِّنة لحقِّيَّة القرآن، ولم يكفِهم في ذلك أنَّه تعالى شهيدٌ على جميع الأشياء، وقد أخبر بأنَّه مِن عنده ﷻ، وفي العدول إلى

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 207.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 207.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 228.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 411.

هذه العبارة فائدتان: **إحداهما**: تحقيقُ إنجاز ذلك الموعد كأنَّه مُشاهَدٌ، بذكرِ الدَّليل القاطع على الوقوع، **والأخرى**: الدَّلالة على أنَّ هذه الإراءةَ قد تمَّت بالنِّسبة لإثبات حقّيَّة القرآن؛ لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّه تعالى على كلِّ شيء شهيدٌ، وعَلِمَ أنَّ القرآن معجزٌ مِن عنده؛ علم أنَّ جميع ما فيه حقٌّ وصدقٌ"[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 6، 7.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾

[فصلت: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ السَّبب فيما ذكرته السورةُ مِن أحوال المشركين المعاندين

بعد أن بيَّنت السورةُ الكريمةُ أحوالَ الكفار المعاندين، وذكرت إلحادَهم في آيات ربِّ العالمين، وتشكُّكَهم فيما جاءهم به الرَّسولُ الأمينُ؛ ناسب أن تُبيِّن هذه الآيةُ "أنَّ أحوالَهُمُ المَذكورَةَ فيها ناشِئَةٌ عَن إنكارِهِمُ البَعثَ، فكانوا في مَأْمَنٍ مِنَ التَّفْكيرِ فيما بَعدَ هَذِهِ الحَياةِ، فانحَصَرَت مَساعيهم في تَدبيرِ الحَياةِ الدُّنيا، وانكَبّوا على ما يَعودُ عَلَيهِم بالنَّفعِ فيها"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِرۡيَةٖ﴾: (مري) أصلانِ صَحيحانِ يَدُلُّ أحَدُهُما على مَسْحِ شَيءٍ واستِدرارٍ، والآخَرُ على صَلابَةٍ في شَيءٍ[2]، ومعناه المحوريُّ: مائعٌ أو رقيقٌ غزير مُحتَوًى، يُستَخرج بحيلةٍ للاستخراج، مَسْحٍ أو نحوه، ومنه المِرْية بالكسر والضَّمِّ: الشَّكُّ والجدال، من احتواء الباطن على رقَّة ورخاوة، وهو ضعفٌ وعَدَم تميُّز حدودٍ، وامترى فيه: شَكَّ، وكذلك: تمارى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [هود: 109]، وقال أيضًا: ﴿بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾ [الحجر: 63][3].

2) ﴿مُّحِيطُۢ﴾: (حوط) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهو: الشَّيءُ يُطيفُ بالشَّيءِ، فالحَوطُ من حاطَهُ حَوطًا[4]، ومنه: حوَّط على الشَّيء، وحيَّط عليه: أقام عليه حائطًا، قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 21.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مري).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (مرى).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).

29]، والإحاطة بالشَّيء استُعمِلت كنايةً عن العِلم بالشَّيء مِن جميع جوانبِه، وعن حفظه، وعن التَّمكُّن منه والقدرة عليه وإهلاكه، يُقال: حاطه: حفظه، وتعهَّده، ويُقال أحاط بالأمر: أحدق به من كلِّ جوانبه حفظًا أو علمًا أو تمكُّنًا وقدرةً، قال تعالى: ﴿أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١﴾ [الكهف: 91]، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ [البروج: 20][1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أعمالٌ تُحصى وعقابٌ آتٍ

تنبِّهُ الآية الكريمة إلى أنَّ القَومَ في شَكٍّ عظيمٍ وشُبهةٍ شَديدَةٍ مِنَ البَعثِ والقيامَةِ، وأنَّ ذلك هو السَّبب الذي جعلَهم يلحدون في آياتِ اللّه، ويكذِّبون رسولَهُ المُكَرَّم ﷺ، ومِن ثمَّ يتوعَّدهم اللّهُ تعالى بإحصاء أعمالِهم ومعاقبتِهم عليها العقابَ اللّائقَ المُستَحقَّ في الدُّنيا والآخرة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿أَلَآ﴾:

التَّنبيهُ لما تتضمَّنه الآيةُ الكريمةُ من حقائقَ وتحذيراتٍ

﴿أَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ حرف استفتاح، عبَّر به النَّظمُ في مفتتح الآية التي تُعَدُّ تذييلًا للسورة الكريمة، لتنبيه المتلقّين وجذب انتباههم لما تتضمَّنه الآية بجملتيها الأولى والثّانية[3] من حقائقَ وتحذيراتٍ.

بلاغةُ التَّوكيد في الجملة:

استدعاءُ النَّظر لما يحويه الكلام من المعاني والجزئيّات

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ مؤكَّدًا بإنَّ والجملة الاسميَّة، مَعَ أنَّ المُخاطَبَ بِهِ لا يَشُكُّ في ذَلِكَ؛ لِقَصْدِ الاهتِمام واستِدعاءِ النَّظَرِ لاستِخراج ما يحويه مِنَ المَعاني والجُزئيّاتِ[4]

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حوط).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 574.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 24، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 317، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 21.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 21.

الدالَّة على أنَّ الكفّار في شكٍّ دائمٍ مِن لقاء اللّه، وإنكارٍ شديدٍ للبعثِ والحسابِ.

مرجعُ الضَّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ ودلالته:

مَـنْ يُـكَـذِّبُ الـرَّسـولَ فيما جـاء بـه يَـشُـكُّ في لـقـاء الـلـه والرُّجعى إليه

الضَّمير المنصوب في: ﴿إِنَّهُمْ﴾ راجعٌ إلى الكفّار، كما عاد إليهم الضَّميرُ المنصوب في جملة: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾، والمعنى: إنَّ هؤلاء الكفارَ - المكذِّبين ما جئت به - في شكٍّ دائمٍ وإنكارٍ مستمرٍّ للقاء اللّه والرُّجعى إليه.

معنى ﴿فِي﴾:

الـشَّـكُّ في لقاء الـلـه يُـحـيـط بـالـكـافـريـن إحـاطـةَ الظَّرف بالمظروف

التَّعبيرُ بالحرفِ المفيد للظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ دالٌّ على تمكُّن الشَّكِّ مِنَ الكفار وتغلغله في نفوسِهم، وإحاطته بهم كما يحيط الظَّرفُ بالمظروف[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿مِرْيَةٍ﴾ نكرة:

شـكُّ الكافرين في لقاءِ اللهِ لا يُقادَر قدرُه، ولا تفي به العبارةُ

أوثِرَ التَّعبيرُ بالمجرور: ﴿مِرْيَةٍ﴾ نكرةً مُنَوَّنًا؛ لِما يفيدُهُ التَّنكير والتَّنوين مِنَ التَّعظيم والتَّفخيم معنًى وجرسًا، والمعنى: إنَّ القومَ في شَكٍّ عظيم لا يُقادر قدرُهُ، وشُبْهَةٍ شَديدَةٍ لا تفي العبارةُ بوصفها مِنَ البَعْثِ والقيامَةِ[2].

نوعُ المجازِ وبلاغته في قوله: ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾:

تـصـويـرُ الـشَّـكِّ عـلى أنَّـهُ حُـفـرةٌ عـمـيـقـةٌ ألقى الـكـفـارُ فيها بأنفسهم

التَّعبيرُ بلفظ ﴿مِرْيَةٍ﴾ مجرورًا بحرف الظَّرفيَّة فيه استعارة مكنيَّة، شُبِّه فيها الشَّكُّ والجدال بحفرة عميقةٍ، ألقى الكفارُ بأنفسهم في أعماقِها، وصاروا لا يستطيعون الخروجَ منها، ثم حُذِفَ المشبَّه به، ورُمِز إليه بشيءٍ مِن لوازمِه، وهو الظَّرفيَّة، على سبيل الاستعارة المكنيَّة الَّتي تُبرز عمق شكِّ المشركين في لقاء اللّه، وبلوغهم في التَّكذيب بقضيَّة البعث والحساب والجزاء مبلغًا كبيرًا.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 21.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 574، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 20.

معنى ﴿مِّن﴾:

بيانُ ما يَمتري فيه الكُفّارُ ويشكّون

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ هي البيانيَّة الَّتي توضِّحُ ما يشكُّ فيه الكافرون، وتبيِّن ما ينكرونه إنكارًا شديدًا، ويُمارون، وما يقف وراء إلحادِهم في آيات اللّه وتكذيبِ الرَّسول فيما جاءهم به، ويرى ابنُ عاشور أنَّها: ابتِدائيَّةٌ، تَعَدَّى بِها فعلُ الشَّكِّ إلى الأمرِ المَشكوكِ فيه، بِتَنزيلِ مُتَعَلِّقِ الفِعلِ مَنزِلَةَ مَثارِ الفِعلِ بِتَشبيهِ المَفعولِ بِالمُنشَأ، كَأنَّ الشَّكَّ جاءَ مِن مَكانٍ هو المَشكوكُ فيه، وفي تَعليقِهِ بِذاتِ الشَّيءِ مَعَ أنَّ الشَّكَّ إنَّما يَتَعَلَّقُ بِالأحكام مُبالَغَةٌ على طَريقَةِ إسنادِ الأُمورِ إلى الأعيانِ، والمُرادُ أوصافُها، فَتَقديرُ ﴿فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾: في مِرْيَةٍ مِن وُقوعِ لِقاءِ رَبِّهِم وعَدَمِ وُقوعِهِ، كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البَقَرَة: 23]، أي: في رَيْبٍ مِن كَوْنِهِ مُنَزَّلًا[1].

وجهُ التَّعبير بالمصدر: ﴿لِّقَآءِ﴾:

التَّعبيرُ عن البعث الَّذي يمتري فيه الكافرون بمفردة: ﴿لِّقَآءِ﴾ مضافًا إلى اسم الرَّبِّ سبحانه في قوله: ﴿لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ يدلُّ على إنكارهم فكرةَ البعثِ من أساسها، وامترائِهم في حصول اللِّقاء نفسه، ما يعني: إنكارَ كلِّ ما يترتَّب عليه من حشر وحساب وعقاب وجنَّة ونار ونعيم وعذاب، وغير ذلك ممّا تحذِّرهم منه السورةُ الكريمة، ويحذِّرهم منه أيضًا رسولُ اللّه ﷺ.

دلالةُ تعريف ﴿لِّقَآءِ﴾ بالإضافة:

اقتضت حكمةُ اللهِ أن يكون البعثُ وما يترتَّبُ عليه وسيلةً لتربية خلقِهِ وتقويمهم

جيءَ بما يَمتري فيه الكافرون مضافًا إلى اسم الرَّبِّ سبحانه في قوله: ﴿لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ حكمةَ اللّه اقتضَت أن يجعل من البعث وما يترتَّب عليه من حساب وجزاء وسيلةً لتربية خلقِه بصفة عامَّة، وتربية الكفّار وإعادتهم إلى طريق الجادَّة والصَّواب بصفة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 22.

خاصَّة؛ لإحاطته بتكوينِهم وعلمه بما يُصلحهم، ويُقيمهم[1]، وذلك مِن كمال إحسانه إليهم، وحرصه عليهم.

علَّةُ إيثارِ اسم الرُّبوبيَّة مضافًا إلى الضَّمير:

مِــن كـمـال إحـسـانِ الـلـه إلى الـنَّـاس خلقُهم ورزقُهم لـلـحـسـاب والجزاء بالثّواب والعقابِ

جيء باسم الرَّبِّ سبحانه مضافًا إلى ضمير الكافرين في قوله: ﴿رَبِّهِمۡۗ﴾؛ للإلماح إلى كمال إحسان اللّه تعالى إلى الكافرين بخلقهم ورزقهم للحساب والجزاء بالثّواب والعقاب، كما هو شأن كلِّ حكيم فيمَن تحت أمره[2]، وللإشارة إلى أنَّ كفرَهم بلقائهِ وشكَّهم فيه جحودٌ منهم لهذه النِّعَم، وتنصُّلٌ مِن شكرها، وفيه أيضًا تعريضٌ بخُبثهم وسوءِ طويَّتهم.

بلاغةُ التَّعريض في الجملة:

الأولى بالكفّار أن يَشُكّوا في حصول البعثِ، لا أن يجزموا بعدمِه

عبَّر البيانُ الكريم بالشَّكِّ عن جَزْمِ الكافرين بِعَدَمِ وُقوعِ البَعْثِ؛ لأنَّ جَزْمَهُم خَلِيٌّ عَنِ الدَّليلِ الَّذي يَقتَضيه، فكانَ إطلاقُ الشَّكِّ عَلَيهِ تَعريضًا بأنَّ الأولَى بِهِم أن يَكونوا في شَكٍّ على الأقَلِّ[3]، لا أنْ يكونوا جازمين بعدم الحصول.

وجهُ تكرار ﴿أَلَآ﴾:

الـلـهُ تـعـالى قـادرٌ عـلى كلِّ شيءٍ، بـمـا في ذلك البعثُ وما يترتَّبُ عليه

أعاد النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بحرف الاستفتاح ﴿أَلَآ﴾ مع قُرب العهد به وجواز الاكتفاء بالسّابق، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾؛ للتَّنبيه والتَّأكيد على كمال قدرة اللّه على كُلِّ شيءٍ، ويدخلُ فيه البعثُ وما يترتَّبُ عليه دخولًا أوَّليًّا برهانيًّا[4].

بلاغةُ التَّوكيد في الجملة:

تأكيدُ إحاطةِ اللهِ واطِّلاعه عـلى أقـوال المـشـركـين وأفعالهم

جاء قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ مؤكَّدًا بإنَّ، والجملة الاسميَّة، والباء، والتَّعبير بما يفيد الاستغراق والشُّمول في: (كُلِّ شَيۡءٖ)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 229.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 22.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 229.

وتقديم الجار والمجرور على الخبر؛ لتأكيدِ إحاطةِ اللّه بكلِّ شيء، وتقوية اطِّلاعه على كلِّ شيء من أقوال المشركين وأفعالهم، ما من شأنِهِ أنْ يبثَّ الرُّعبَ في قلوبهم، ويردَعَهم عن التَّكذيب بلقائِهِ.

نكتةُ التَّعبير بالضَّمير:

عبَّر النَّظمُ الكريم عن المولى سبحانه بالضَّمير، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾، ولم يقل: (إنَّ ربَّهم)؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظاهر الَّذي سبق ذِكره بالضَّمير، ولما يفيده البيانُ به مِن استحضار المتحدَّثِ عنه وتعيينه تعيينًا يحول دونَ صرفِ الحديث عنه إلى أحدٍ غيره، والمعنى: "إنَّ ربَّهم المحسن إليهم بكلِّ شيء محيطٌ"[1].

معنى الباء:

الباء في قوله تعالى ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ حرف جرٍّ يفيد الإلصاقَ أو التَّعدية، وفي التَّعبير به تأكيدٌ وتقويةٌ لإحاطة اللّهِ تعالى بالأشياء كلِّها، وعدم استثناء أيِّ شيءٍ منها.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ (كُلِّ) مضافًا إلى ﴿شَيۡءٍ﴾:

اللّهُ تعالى يحيط بجملة الأشياءِ وتفاصيلها، كلّيّاتها وجزئيّاتها

التَّعبيرُ عن الاسم المجرور بـ (كُلِّ) دالٌّ على الاستغراق والشُّمول، وفي إضافتهِ إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ تأكيدٌ لإحاطتهِ تعالى بجُملة الأشياء وتفاصيلها، كلّيّاتِها و جزئيّاتِها، أصولِها وفروعِها، غيبتِها وشهادتِها، ملكِها وملكوتِها[2]، بحيثُ لا يخرج عن إحاطته سبحانه أيُّ شيءٍ منها، مهما كان دقيقًا أو صغيرًا، ويدخل في ذلك مِرْيتُهم في لقائه من باب أولى[3].

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿مُّحِيطُۢ﴾ مادة وصيغة:

في الإخبارِ عن اللّهِ بقوله: ﴿مُّحِيطُۢ﴾ دلالةٌ على أنَّه عالِمٌ بِجَميع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 229.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 229.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 207.

اللهُ تعالى يعلمُ بواطنَ الكفّار وظواهرَهم، وسيجازيهم الجزاءَ اللّائقَ بأفعالِهم

المَعلوماتِ الَّتي لا نِهايَةَ لَها، فيَعلَمُ بَواطِنَ هَؤُلاءِ الكُفّارِ وظَواهِرَهُم، وسيُجازي كُلَّ أحَدٍ على فِعلِهِ بِحَسَبِ ما يَليقُ بِهِ[1]، وفيه تهديدٌ للكافرين وتحذيرٌ شديد مِنَ الاستمرار على ما هُم فيه من الحادٍ في آيات اللّه، وتكذيبٍ لما جاء به الرَّسول الكريم، وغير ذلك مِنَ الأحوال الَّتي اشتملت عليها السّورة، وفيه كذلك ردعٌ لهم عن التَّكذيب بلقاء اللّه ﷻ.

بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿مُّحِيطٌ﴾:

إذا كان علمُ الله محيطًا؛ فكيف تكون الإحاطةُ المُسندة إليه سبحانه؟.

في التَّعبير بِالـ ﴿مُّحِيطٌ﴾ مَجازٌ عَقْليٌّ؛ لأنَّ المُحيطَ بِكُلِّ شَيءٍ هو عِلْمُهُ، فأُسنِدَتِ الإحاطَةُ إلى اسْمِ اللّه؛ لأنَّ (المُحيطَ) صِفَةٌ مِن أوصافِهِ، وهو العِلْمُ، والعدولُ عن الحقيقةِ إلى المجاز أقوى في تحقيق الغرضِ المنصوبِ له البيان؛ لأنَّ مَن كان علمُهُ محيطًا؛ فكيف تكون الإحاطةُ المسندةُ إلى ضميره سبحانه؟

(1) الرازي، فتوح الغيب: 27/ 574.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

سُورَةُ الشُّورَىٰ

التّعريف العامّ بالسّورة.

سورة الشّورى كلّها مكّيّة

سورة الشّورى كلّها مكّيّة عند جمهور العلماء(1)، وقد استثنى بعضهم منها آياتٍ؛ لرواياتٍ تفيد أنّ هذه الآيات نزلت في المدينة، أو نزلت في الأنصار، قال السيوطي: "بدلالةِ ما أخرجه الطَّبرانيُّ والحاكِمُ في سَببِ نُزولها فَإنَّها نَزَلت في الأنصارِ"(2)، وهذه الرّوايات ليست في موضع اتّفاقٍ على صحّتها، ووجه ابن عاشور كونها نزلت في مكة مع أنها نزلت بسبب الأنصار، أنها نزلت فيمن أسلم منهم قبل الهجرة في بيعة العقبة(3).

ترتيب النزول وترتيب المصحف وعد الآي:

هي السّورة الثّانية والأربعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، جاءت بين سورتيّ فصّلت والزّخرف، وهي الثّانية والسّتّون في ترتيبها النّزوليّ، نَزَلَتْ بين السّورتيْن السّابقتيْن(4)، فسورة الزّمر والحواميم السّبعة بعدها قد تتابعت في ترتيبها المصحفيّ وفي ترتيبها النّزوليّ كذلك.

وَهي خمسونَ وثلاث آيات في الكوفيٍّ، وخمسون في عدد الباقينَ، وسبب اختلافهم فيها عائدٌ لاختلافهم في فواصل ثلاث آيات منها(5).

فضائل السورة:

عند البحث والتّحقيق في آثار فضلها نجد أنّها تدخل في السّور

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 23.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 64، وينظر الطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم: (12384)، والحاكم، المستدرك على الصحيحين، حديث رقم: (3720).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 23.
(4) دروزة، التفسير الحديث: 4/ 435.
(5) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 221.

المثاني، التي قال فيها الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[1].

اسم السّورة الكريمة ومناسبة تسميتها:

سـورةُ الشّـورى اشـتـهـرت بـهـذا الاسم وذُكر لها أسماء أخرى

وردت تسميتها بسورة (الشّورى) و(حم عسق) في كتب السّنّة والتّفسير، فقد ذكر البخاريّ تسميتها بهذيْن الاسميْن[2]، وذكر التّرمذيّ تسميتها بسورة (حم عسق)[3]، ولعلّ السّبب في ذلك ورود هذه الأحرف في أوّلها، وذكر بعضهم تسميتها بسورة (عسق) بِدونِ لفظ (حم) لقصد الاختصارِ[4]، ولم يثبت شيءٌ من ذلك عن النبي ﷺ.

وقد حاول البقاعيّ الرّبط بين أسمائها ومقصدها، فقال: "الاجتماع على الدّين، الذي أساسه الإيمان، وأمُّ دعائمه الصّلاة، وروح أمره الألفة بالمشاورة، المقتضية لكون أهل الدين كلّهم فيه سواء، كما أنّهم في العبوديّة لشارعه سواء، وأعظم نافع في ذلك الإِنفاق، والمواساة فيما في اليدّ، والعفو والصفح عن المسيء والإِذعان للحقّ، والخضوع للأمر، وإن صعب وشقّ، وذلك كلّه هو الدّاعي إليه هذا الكتاب الذي هو روح جسد هذا الدين، المعبّر عمّا دعا إليه من محاسن الأعمال، وشريف الخلال بالصّراط المستقيم، وتسميتها بالشّورى واضح المطابقة لذلك لما في آياتها، وكذلك بالأحرف المقطعة"[5].

ويمكن أن يُضاف أن التسمية ليست مجرد اختيار عابر، وإنما

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: (187)، والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم: (2415)352.

(2) البخاري، صحيح البخاري: باب: تفسير سورة حم عسق: (الشورى): 4/ 1819.

(3) التّرمذي، سنن التّرمذي: بابٌ: وَمِنْ سورَةِ حم عسق: 5/ 377.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 23.

(5) البقاعي، مصاعد النّظر: 2/ 450 - 451.

هي تعبير خالص عن محورها وهدفها الأسمى؛ ذلك أن السورة تقوم على قاعدة أساسية، وهي أن الإسلام يعنى بحرية التشريع، وضرورة الاعتماد على الوحي الإلهي، لتحقيق وحدته، ونهضة أمته، ونبذ أسباب الفرقة والخلاف. فالسورة تركز على الأركان الثلاثة للوحْي؛ الموحي، والوحي، والموحَى إليه، لتؤكّد أن كل حكم يَنزلُ على الأمة، إن لم يُردَّ إلى نصٍّ صريح، فهو يخضع للقياس والاجتهاد.

المحور العام للسورة:

محور السّورة يقوم على بيان أثر الاستجابة للوحي الإلهيّ في تحقيق وحدة الأمّة

إنّ محور هذه السّورة يقوم على ضرورة التّأكيد على أنّ في اتّباع الوحي الإلهيّ تحقيقًا لوحدة الأمّة ونبذًا لفرقتها، فالسّورة اعتنت بشكل لافتٍ بالوحي الإلهيّ من خلال أركانه الثّلاثة: الموحي، والوَحي، والموحَى إليهم.

فالوحي هو الأساس الذي يُبنى عليه كل محاور السورة، وهو المصدر الذي يُرجع إليه في حكم الأمور، وهو الذي يُعطي الحق والنجاة، ولذلك فإن إتباع الوحي هو سبيل الوحدة والاتفاق، كما تؤكد السورة.

أما الشورى فهي الوسيلة التي تتناغم مع هذا الوحي، وتُعد البناء العملي لتحقيق التوافق، إذ تقتضي أن يكون القرار مبنيًا على التشاور والاستعانة بالله، حفاظًا على الوحدة، ودرءًا للخلاف والتنازع، بما يُحقق توفيق الله للأمة ومعيته لها، ويُعزز من الإيمان بالله وبأوامره.

وفي سياق ذلك، تتكرر مفردات الحق والحكم، حيث يُفهم أن الحق هو المرجع في الحكم، وأن الحكمة تستمد من الوحي، وأن من يتبع الحق ويعمل به، يَجِد التوفيق في حياته، ويصل إلى مَصير الخير.

أما الرجوع فهي مفتاح التذكر، كيف أن الأمة إذا ما رجعت

إلى نصوص الوحي، وعملت بالشورى، استطاعت أن تتجنب المصائر السيئة، وتحقق السلامة، وتُسلم زمام الأمور إلى من يرشدها إلى الخير.

فالربط بين هذه المفردات يدور حول أن الوحي هو مصدر الحق والحكمة، وأن الشورى أداة التنفيذ، لتحقيق الوحدة والتوفيق، والاستعانة بالله، وتذكّر الأمة بما أُمروا به، ليكون مصيرهم في الدنيا والآخرة خيرًا، وفق ما رسمه الله لعباده من منهج سامٍ يرتكز على الإيمان والعمل الصالح، ليحقق لهم النجاح والاستمرار.

أمّا مقصد السّورة: فيتجلّى في الدَّعوة إلى الاجتماع على الدّين الحقِّ، المستنِدِ على أساس متينٍ من الإيمان، وتتصدَّر الصَّلاةُ أبرزَ دعائمِه. وروحُ هذا الدّين تتمثَّل في تعزيز الأُلفة والتَّرابط من خلال المُشاورة، التي تجعل أهلَ الدّين شركاءَ في الالتزام به، كما أنَّهم متساوون في العبوديَّة لله سبحانه، مطيعون لأوامره، مُذعِنون لحقائقِه[1].

قال الفيروزاباديّ: "معظم مقصود سورة الشّورى هو: بيان إثبات القرآن في اللّوح المحفوظ، وإثباتِ الحُجّة والبرهان على وجود الصّانع، والرّدّ على عبّاد الأصنام"[2]. وقد اشتملت هذه السّورةُ على موضوعات متعدّدةٍ متشابكةٍ، قد تصل إلى اثني عشرَ موضوعًا، على أنَّه يُمَكِن أن يُرَدَّ بعضُ هذه الموضوعات إلى بعضٍ عندَ التَّأمُّل.

موضوعات السورة وخصائصها:

مَـدارُ الـسّـورةِ يـدور حـولَ ضرورة الامتثال لما في القرآن

موضوع هذه السّورة لا يخرج عن موضوعات السّور المكّيّة في بيان أصول الاعتقاد، ويمكن عرض ذلك من خلال ما يأتي:

أولاً: عرضت السورة لقضايا التوحيد مجتمعة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم

(1) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/ 450، 451.
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 421.

بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾.

ثانيًا: اعتنت السّورة الكريمة ببيان وحدانيّة اللّه تعالى وتنزّيهه عن الشّريك، وذكر بعض صفاته تعالى، ومنها: العزيز، الحكيم، العليّ، العظيم، الغفور، الرّحيم، قدير، السّميع، البصير، عليم، القويّ، الشّكور، الخبير، البصير، الوليّ، الحميد، الحكيم، وبينت أفعاله تعالى وما هو من اختصاصه تعريفًا لهم به.

ثالثًا: عرضت السورة بعض آياته ﷻ الدّالّة عليه في الكون.

رابعًا: اعتنت السّورة الكريمة كذلك ببيان طبيعة هذا الوحي الذي أنزله اللّه تعالى لعباده، واعتنت ببيان كيفيّات بعض هذا الوحي، وأنواعه.

خامساً: اعتنت السورة كذلك ببيان طبيعة الموحَى إليهم وانقسامهم من حيث الاستجابة لهذا الوحي، مبيّنة جزاء كلّ فريقٍ منهم.

سادسًا: بينت السورة أثر الاستجابة للوحي الإلهيّ في تحقيق وحدة الأمّة، وأنّ الإعراض عنه من شأنه أن يؤدّي للفرقة، فبيّنت أوّلًا أنّ التّنوّع والاختلاف سنّة إلهيّة، وبيّنت أنّ المرجعيّة لهم عند وقوع هذا الخلاف هو بالعود إلى الوحي، وبيّنت لهم بعض أسباب الفرقة.

سابعًا: حذرت السورة من الإعراض عن الاستجابة لهذا الوحي حتّى لا يقع على من يعرض العقاب، وأن تبيّن للأنبياء والدّعاة الذين يبلّغونهم هذا الوحي أنّ عليهم البلاغ فقط، وأمّا النّتائج فهي عند اللّه وليست بأيديهم(1).

الخصائص الموضوعيّة لسورة الشّورى:

أولاً: تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال، فلا يوجد سورة من أخواتها الحواميم أو غيرها من السّور، التي اُستهلّت بالأحرف المقطّعة تشبه في مطلعها هذه السّورة الكريمة بأحرفها المقطّعة وبحديثها عن الوحي: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى: 1 - 3].

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 21 - 22.

تـمـيّـزت سـورة الــشّــورى بـخـصـائـص أفـردتـهـا عـن غيرها من السّور

ثانياً: تميّزت السّورة الكريمة بموضوعات لم ترد في غيرها من السّور، مثل الحديث عن محو الله للباطل، وعن سنّة الله تعالى في بسط الرّزق لعباده في الأرض، وعن تنزيل الغيث من بعد ما قنط النّاس منه، وعن إسكان الرّيح وإبقاء الفلك رواكد على ظهر البحر، وعن أنّه شرع لنا من الدّين ما وصّى به الأنبياء السّابقين، وعن أنّ أمر المؤمنين مبنيٌّ على الشّورى بينهم، وعن أنّه تعالى هو من يهب البنات والبنين أو يزوّجهم ذكرانًا وإناثًا، وعن أنّ من يصبر ويغفر فإنّ ذلك من عزم الأمور، وعن أقسام الوحي، وغير ذلك.

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بذكرها بعض أسماء ليوم القيامة من مثل: (يوم الجمع)، و(يوم القيامة)، و(السّاعة)، و(يومٌ لا مردّ له من الله)، و(الآخرة).

الخصائص الأسلوبيّة لسورة الشّورى:

أولاً: تفرّدت السّورة الكريمة بأنساق تعبيريّة فريدة كثيرة خاصّة بها، ولعلّ منها قوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: 6]، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7]، ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: 11]، ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ [الشورى: 13]، ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: 16]، ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: 21]، ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: 38]، ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ [الشورى: 45]، وغيرها.

ثانيًا: تكرّرت فيها كلمة (الوحي) ومشتقّاتها ستّ مرّات[1]، فضلًا عن الحديث عن الوصيّة والتّشريع ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾

(1) الآيات: 3، 7، 13، 51(2)، 52.

[الشورى: 13]، وتكرّرت فيها صفة العلم للّه تعالى أربع مرّات[1]، وتردّدت فيها لفظة (الكتاب) حيث وردت أربع مرّات[2]، ووردت لفظة القرآن مرّة واحدة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: 7]، وكلّ ذلك مرتبطٌ بمحورها العامّ.

ثالثًا: تفرّدت السّورة الكريمة بصيغ واشتقاقات لم ترد في غيرها من السّور، مثل: ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾، ﴿شُورَىٰ﴾، ﴿۞شَرَعَ﴾، ﴿شَرَعُواْ﴾، ﴿يُسْكِنِ﴾، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾، ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾، ﴿دَاحِضَةٌ﴾، ﴿رَوْضَاتِ﴾، ﴿يُحَآجُّونَ﴾، ﴿ٱسْتُجِيبَ﴾، ﴿يُمَارُونَ﴾، ﴿يَهَبُ﴾، ﴿ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾، ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾، وغيرها.

رابعًا: تفرّدت هذه السّورة بلفظة لم يرد لها من جذرها أيّ اشتقاقٍ آخر في القرآن الكريم وهي﴿رَوَاكِدَ﴾في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: 33]، وقد جاءت في سياق عرض آيات اللّه في الكون وهو محورٌ فرعيٌّ مرتبطٌ بالمحور الرّئيس للسّورة الكريمة.

مُناسبَةُ مَطْلَع السّورة لخواتيمها:

افتُتِحَت سورةُ الشّورى بعد الحروف المقطّعة بقول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ وهو ملائم لما ذكره اللّهُ تعالى في خاتمة السّورة نفسها بقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: 52][3]، فاشترَكا في ذِكْرِ الوَحْي إلى النَّبيِّ ﷺ.

ومِن أوجه التَّناسُب بين المُفتتح والخاتمة: أنَّ اللّه سبحانه قال في طالعة السّورة: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾، وقال في آخرها: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: 53].

ومنها أيضًا: قولُه سُبْحانَه في أوَّلها: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقال في آخرها: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: 53]، والذي تصير إليه الأمور هو العليُّ العظيم.

ومنها أيضًا: أنَّ اللّه سبحانه قال في أوائلِ السّورة: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾، وقال في أواخِرها: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: 52]، فالذي يهديه اللّهُ تعالى يُدخله في رحمتِهِ[4].

(1) الآيات: 12، 24، 25، 51.
(2) الآيات: 14، 15، 17، 52.
(3) السّيوطيّ، مراصد المطالع، ص: 63.
(4) السّامرائيّ، التّناسب بين السّور، ص: 55، 56.

مناسبة سورة الشّورى لما سبقها:

سـورة فصّلت متّصلة تمامًا بسورة فصّلت مضمونًا وأسلوبًا

إن التتابع بين سورتي فصلت والشورى يعبر عن تكامل عميق فهما تشيران إلى أن اللّه هو الحاكم، وأن التوحيد واتباع الوحي أساس النجاح، مع إظهار أن الشورى - التي تتطرق إليها سورة الشورى - هي جزء من منهج اللّه في تشريع الأحكام، وأنها وسيلة لتحقيق الوحدة والإصلاح، وهو مضمون ينسجم مع سياق سابقتها في بيان الأدلة على وحدانية اللّه، وضرورة الرجوع إليه، والتوكل عليه.

وفيما يُعنى السياق في سورة فصلت بتثبيت أن الحق من عند اللّه، وأن القرآن حق، وأن على البشر أن يتبعوا الهدى، يأتي التتابع في سورة الشورى ليؤكد أن هذا العلم والعقيدة لا يُحاسب الإنسان عليها وفق مجرد الفرض أو الإيجاب، وإنما وفق نظام شامل ومُحكم فيه علم اللّه بكل شيء، والكون كله يسير وفق نظام دقيق ومتكامل، حيث إن اللّه تعالى هو الذي يُنظم الأمر، ويُعطي كل شيء قدره، وأن الاختلاف الطبيعي بين الناس، والانتكاسات البشرية، كلها من سياسة اللّه الحكيمة التي تتناسب مع علمه بالحكمة، وتحقق المصلحة، ولا تتعارض مع عدله ورحمته.

وبذلك، يظهر أن مناسبة السورتين هي في إبراز أن التصور العقائدي لا يقتصر على الإدانة والتثبيت النظري، بل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بوعي الإنسان لطبيعة هذا النظام الكوني، وأن كل ما يُعانيه الإنسان من ابتلاءات واختلاف، لا يخرج عن إطار علم اللّه، وأن هذا العلم يضعه في سياق من العدالة والكمال، التي لا تتعارض مع حريته ومسؤوليته[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 298 - 299، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 20 - 21.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشّورى: 1 - 2]

مناسبة السّورة لما قبلها:

يُحيل تعاقبُ السّور مصيرَ الأمم على مقتضى علم الله الأزليّ

لمّا تضمَّنت سورةُ غافر بيانَ حالِ المعاندين والجاحدين، وأُعقِبت بسورة فُصِّلت بيانًا لحال كفّار العرب في ذلك كحال مَن تقدَّمهم، وإيضاحًا لآيات الكتاب العزيز وعظيم برهانه؛ أُتْبِعَت السّورتان بما اشتملت عليه سورةُ الشّورى؛ من أنّ ذلك كلّه إنّما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة؛ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾، وقولِه ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، وقولِه ﷻ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: 14]، وقولِه سبحانه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ [الشورى: 15]، وبناءُ هذه السّورة على ذلك، مع ما جاء فيها من التّرهيب والتّرغيب، وأخذها بشيء من طريق الدّليل، وهذا هو وجه المناسبة بين السّورتين، ومدارُ آي السّورة يُظْهِرُ وجهَ اتِّصالها بما قبلها، والتِحامها بما جاوَرها(1).

المَعنى الإجماليُّ:

الحـروفُ المُقَطَّعة في أوائل السّور إشارةٌ إلى التَّحدّي بالقُرآن الكريم

تُشير الحروفُ المُقطَّعة في طالعةِ هذه السّورةِ - كغيرها من نظائرها المبدوءةِ بهذه الحروف - إلى إعجاز القُرآن الكريم؛ حيثُ تُمَثِّل تلك الحروفُ طرفًا من التَّحدّي الذي وُجِّه للمُشْركين، فقد عجَزوا عن أن يأتوا بمِثْل هذا الكِتاب رغم أنَّه مؤلَّفٌ من الحروف الهجائيَّة التي تستَنِدُ إليها لُغَتُهُم العربيَّة، وهذا العَجْزُ - ولا سيَّما من قوم كانوا يُعْرَفون بفَصاحَتِهم وبَلاغَتِهم - يُؤَكِّد أنَّ القرآن الكريم ليس من تأليفِ بَشَر، بَل هو وحيٌ من اللّهِ سُبْحانَه(2).

(1) ابن الزّبير، البرهان، ص: 298.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/ 160، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/ 79.

أقوال العلماء في الحروف المقطَّعة:

الحروف المقَطَّعة من المتشابه إلى التَّحدّي

اختُلِف في الحروف المقطّعة التي جاءت في أوائل تسع وعشرين سورةً اختلافًا كبيرًا، ورغمَ تعدّد أقوالِ المفسِّرين في تفسير هذه الحروف المُفْتَتَح بها أوائلُ تلك السّور؛ إلّا أنَّ هناك محلًّا متَّفقًا عليه بين أهل العلم في هذه الحروف؛ وهو أنَّ أهل الإسلام أجمعوا على أنَّ لهذه الحروف معنًى، وأنَّها ذُكِرت لحِكَم، أدرك منها مَنْ أدركَ، وفاتَ مِنْها عَمَّن خَفيَتْ عنهُ. وقد توقَّف في تفسيرِها جماعةٌ من أهل العِلْم، على رأسِهم: الخلفاء الرّاشدون رضوان اللّه عليهم، وغيرُهم من الصَّحابة والتّابعين وأتباعهم، ولم يثبت عن النَّبيِّ ﷺ في تفسيرِها شيءٌ يُعوَّل عليه[1]، ولذا عدَّها كثيرٌ من أهل العلم من المتشابِهِ الذي يجبُ الإمساكُ عن بيانِ معناه، قال السّعديّ: "وأمّا الحروف المقطَّعة في أوائل السّور؛ فالأسلم فيها السُّكوت عن التَّعرُّض لمعناها من غير مستند شرعيٍّ، مع الجزم بأنَّ اللّه تعالى لم يُنَزِّلْها عبثًا، بل لحكمَةٍ لا نعلَمُها"[2].

واجتهد جماعةٌ في بيان معناها، فقال قومٌ: هي قَسَمٌ أقسمَ اللّهُ تعالى بها لشرفها وفضلها؛ وهي من أسمائه، وقال آخرون: إنَّها أسماءٌ للقرآن، وقال جمعٌ: إنَّها أسماء للسّور[3]. واختار بعض أهلِ العِلْم أنَّ الحكمةَ من هذه الحروف المقطَّعة الإشارةُ إلى حروفِ الهجاء؛ وذلك أنَّ القُرآن مُؤَلَّف من الحروف التي منها كلامُ العرب؛ ليكون في تلك الحروف إيماءٌ إلى عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، مع أنَّه مؤلَّف من حروفِهم التي يستعملونَها[4].

(1) بشير، الصّحيح المسبور: 1/ 94.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 151.

(3) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص: 231، والبغويّ: معالم التّنزيل: 1/ 44، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 7، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 13، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 166، والسّيوطيّ، الإتقان: 2/ 11.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/ 160.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ من الإعراب، ودلالتها:

تعدُّد أوجه الإعراب توسيعٌ للدّلالةِ

اختُلف في إعراب هذه الحروف تبَعًا لتقدير معناها، فذهب جمعٌ من أهل العِلْم إلى أنّهما اسمان للسّورة، وجنَحَ آخرون إلى أنَّهما اسم واحد وآيةٌ واحدة، وحقُّه أن يُرْسَم متَّصلًا، كما في ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: 1]، إلّا أنَّه فُصِل بينهما في الرَّسم؛ ليكونَ مفتَتَحُ هذه السّورة على وِفاقِ مُفْتَتَح أخواتها من آل حاميم. وعلى القولِ الأوَّل: هما خبرانِ لمُبْتَدَأ محذوفٍ. أو أنَّ ﴿حمٓ﴾ مبتدأ و﴿عٓسٓقٓ﴾ خبره. وعلى القولِ الثّاني: الجميعُ خبرٌ واحِدٌ[1]، وتقدير المبتدأِ في جميع ذلك: هذه[2]. وفي إعرابها أقوال أخرى كثيرةٌ[3].

وهذا الخلافُ في إعراب هذه الحُروف يوَسِّع من الدّلالة؛ إذْ إنَّ تعدُّد الاحتمالات الإعرابيَّة يُشير إلى غِنى المعنى القرآنيِّ، ممّا يَجْعَلُ القارئَ يتوقَّف متأمِّلا دقَّةَ التَّركيب اللُّغويّ وسعةِ أُفُقِه ودلالاتِه.

سرُّ اختصاصِ السّورة دون الحواميم بـ ﴿عٓسٓقٓ﴾:

شِدَّة الطَّعن في القرآنِ الكريم؛ اقْتَضَت المبالغة في التَّحدّي بالمُعارضة

اختُصَّت هذه السّورة بذِكْر ﴿عٓسٓقٓ﴾ بعد ﴿حمٓ﴾، دونَ باقي سور آل حاميم؛ لأنَّ أهلَ الكُفْر أظهروا شدَّةَ الطَّعن في القرآنِ الكريم عندَ نزوله، فكان التَّحدّي لهم بالمُعارضة أقْوى. ولذا زيدَ في تَحَدّيهم بمزيدٍ مِن حروف التَّهجّي.

وقد جاءت على نحوٍ يُبايِنُ ما عَهِدوه مِن اتِّصال تلك الحروفِ، فالميمُ لَم توصل بالعَيْن كما وُصلت بالرّاءِ في طالعةِ سورةِ الرَّعد، وكما وُصلت بالصّاد في طالعةِ سورةِ الأعْرافِ، وكما وُصلت العَيْن بالصّاد في مُبتدَأِ سورة مَرْيَم؛ لأنَّ ما بعدَ الميم في السّور الثَّلاث

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 12.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/ 23.
(3) السَّمين، الدّرّ المصون: 1/ 79، 81.

المذكورَةِ - الرَّعْد والأعرافِ ومريمَ - كان حرفًا واحِدًا؛ فاتِّصالُه بما قَبْلَه أنسبُ. أمّا في هذه السّورة - الشّورى - ؛ فإنَّ ما بعدَ الميمِ ثلاثَةُ أحرفٍ، وهي تُشْبِهُ كلمةً مُسْتَقِلَّة، ممّا يجعَلُ الانفصالَ أوْلى[1].

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الفصلَ هنا بينَ الحروف المُقَطَّعة؛ لكونهما اسمَيْن للسّورة؛ ولذا فُصِلا في الخَطِّ، وعُدّا آيتين[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 26.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 727.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الشّورى: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اتّحاد الهدف ووحدةُ الغرضِ أمارةُ التّناسب

لمّا كانت هذه الحروفُ ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ﴾ مشيرةً إلى الاجتماع؛ قال اللّهُ سُبۡحانَه عَقِبَها: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ إشارةً إلى الإيحاء العظيم الذي أَعۡلَمَه اللّه تعالى لرَسولِه ﷺ في أوَّل سورة فُصِّلت، مُنَبِّهًا إلى أنَّ الإله الحقَّ هو إلهٌ واحدٌ لا شريك له، وما دلَّ عليه آخرُها من أنَّه لا يقال له إلّا ما قد قيل للرُّسل قبلَه، ومن أنَّه سبحانه يجمع أُمَّته عليه السلام على هذا الدّين الحقِّ؛ وذلك بما يُظۡهِر لهم مِن الآيات الواضحة والبراهين الباهرة، التي تتجلّى في الآفاق وفي أنۡفُسِهم، بالإضافة إلى شهادته ﷻ بإعجاز القرآن الذي لا يقدر الإنسُ والجنُّ أن يأتوا بمثلِه ولَو كانوا مُجۡتَمِعين[1].

شَرۡحُ المُفۡرَداتِ:

1) ﴿يُوحِيٓ﴾: أصل الوحي الإشارة، يقال: وحيتُ إليه بطرفي؛ أي: أشرت، ثُمَّ صار يُطلق على كلِّ شَيۡءٍ دللت بِهِ من كتاب أو إشارَة أو رِسالَة، قال ابن فارس: "كلّ ما ألقيته إلى غَيۡرك حتّى عَلِمَهُ؛ فَهوَ: وحي، كَيفَ كانَ"[2]. وقد جاء الوحي في القرآن على أوجه؛ **الأوّل**: الإرسال، قال: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ [النّساء: 163]، وقولِه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19] أي: أُرسِل به إليَّ. **والثّاني**: الإلهام، قال اللّه: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: 111] أي: ألهمتُهم الإيمانَ، ومثله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النّحل:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 181، 182.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 621.

68]. **والثّالث**: الإشارة، قال اللّه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11] أي: أومأ، ودليل هذا، قولُه: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: 10]، والرّمز: تحريك الشّفتين والحاجِبَين والعينين. **والرّابع**: الأمر، قال اللّه: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [فصلت: 12] أي: أمر أهلها بما يصلح الأمر به. **والخامس**: الوسوسة، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: 121]؛ أي: يوسوسون إليهم، ومثله: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأنعام: 112](1).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الـوحـيُ إلى الأنبياءِ رسالَةٌ إلهيَّةٌ جامعةٌ

جاء النَّظم القرآنيُّ في مفتتح هذه السّورة العظيمةِ بالإشارةِ إلى ما سبق أنّ أوحاه اللّه تعالى إلى الأنبياء والمرسلين مِن قبلُ، والخطابُ لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، فاللّه تعالى كما أوحى إليه هذه السّورة العظيمةَ الشَّأنِ، الشَّريفةَ المقصدِ، يوحي إليك غيرَها مِن القرآنِ، ويوَحي إلى الذين مِن قبلك، فالجميعُ مِنَ اللّه تعالى؛ حملًا للخَلْق على دعوة التَّوحيد والعدل، وإثبات الرِّسالة، فالذي أوحى بهذه السّورة وأخواتها في القرآن الكريم هو اللّه - ﷻ وتباركت أسماؤه - العزيزُ في مُلكه فلا يَغْلِبُه غالبٌ، الحكيمُ في صُنعه، وهو العليُّ ذاتًا وصفاتٍ، صاحبُ العظَمةِ والأمرِ(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ﴾ عمّا قبلَهُ:

اتِّـفـاقُ رسالة الأنـبـيـاءِ على الـدَّعـوة إلى التَّوحيد

فُصل قولُ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعه استئنافًا نحويًّا، والغرض مِنْهُ: تحقيق أنَّ مضمونَ السّورةِ موافقٌ لِما في سائرِ الكتبِ المنزَّلةِ على الرّسلِ

(1) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 491، 492، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 621، 622.
(2) حجازي، التّفسير الواضح: 3/ 355.

السّابقين في الدَّعوةِ إلى توحيد الله سُبحانَهُ والدّلالة عَلى الحقِّ، أو تحقيقُ أنَّ إيحاءَها مثلُ إيحاءِ الكتب المتقدِّمة بعدَ تنويهها بذكرِ اسمِها والتَّنبيه على فخامةِ شأنِها[1].

دلالة التَّعبير باسم الإشارة (ذلك):

الإيماءُ إلى عُلوِّ رُتْبَةِ الوحيِ الإلهيِّ

اسمُ الإشارة (ذلك) مِن قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ دالٌّ على البُعْدِ، وهو يرجع إلى الإيحاء، والتَّقدير: مثلُ ذلك الإيحاء الذي أوحيَ بهِ إلى الأنبياءِ قبلَك؛ يوّحَى إليكَ به؛ لاتِّفاق الوحي المُنَزَّل على الدَّعوة إلى التَّوحيد. وفي التَّعبير باسْمِ الإشارة الدّالِّ على البُعْد إيماءٌ إلى رِفْعَة الوحي الإلهيِّ وشرفه وعظيمِ مقامِه وبُعْدِ منزلتِه في الفَضْلِ[2].

بيان التّشبيه وغرضُه في ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾:

ظُهورُ وحيِ الله تعالى إلى أنبيائِه ورُسلِه

الكافُ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ حرف دالٌّ على التَّشبيه، والمعنى: مثلُ وحيه إليك، وحيُه إلى الذين من قبلكَ، والغرض من التَّشبيه: إثباتُ التَّسوية؛ أي: ليس وحيُ الله سبحانه إليك إلّا على سُنَّة وحيِهِ إلى الرُّسل قبلك، فليس وحيُه إلى الرُّسل من قبلكَ بأَبْيَنَ ولا أوضحَ من وحيه إليك[3]. وفي جَعْلِ مضمونِ السّورةِ أو إيحائها مُشَبَّهًا به من تفخيمِها ما لا يخفى[4].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل ﴿يُوحِيٓ﴾:

تشويقُ الأذهانِ إلى الوحيِ المذكورِ

صُدِّرت الآية الكريمة بالجارِّ والمجرور ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مقدَّمًا على الفعل ﴿يُوحِيٓ﴾ من قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾؛ للاهتمام بالمُشار إليه، وتهييجِ الفُضول إلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 21.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 26، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 575.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 21.

معرفته، وحيثُ لم يتقدَّم في الكلام ما يجوز أن يكون مشارًا إليه بـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ فإنَّ المُشار إليه يكون مقدَّرًا معلومًا من الفعل الذي بعدَ اسم الإشارة؛ وهو المصدر المستفادُ مِن الفعل، والمعنى هنا: كذلك الإيحاء يوحي إليك اللّٰهُ، فلفظ "الإيحاء": مستفادٌ من الفعل ﴿يُوحِيٓ﴾، وهذا استعمالٌ شائع في مثل هذا التَّركيب، قال ابن عاشور: "أحسِب أنَّه من مبتكرات القرآنِ؛ إذْ لم أقِف على مثلهِ في كلام العرَبِ قبلَ القُرآن"(1).

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿يُوحِيٓ﴾:

تجدُّد الوحي على رسول اللّٰه ﷺ مُدَّةَ حياته، تَيئيسٌ للمُشركينَ

عُبِّر بالفعل المضارع ﴿يُوحِيٓ﴾ من قول اللّٰه سُبْحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾؛ لما يُفيده الفعل المضارع من التَّجدُّد والاستمرار، وهو في الآيةِ دالٌّ على أنَّ إيحاء اللّٰه تعالى للنَّبيِّ ﷺ متجدِّد لا ينقطع في مدَّة حياته الشَّريفة، والقصد من ذلك: تيئيس المشركين، بخلاف قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52]، وقولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ لأنَّه لا غرضَ في إفادة معنى التَّجدُّد في هذين المَوْضِعَيْن(2)، فصيغَةُ المُضارع هنا دالَّة على استمرار الوحي، وأنَّ إيحاءَ مثلِهِ دأبُه وعادَتُه(3).

توجيهُ القراءاتِ المتواترة في ﴿يُوحِيٓ﴾:

التَّكامل الدّلاليُّ للقراءاتِ القُرآنيَّة

قرأ جُمهور القُرّاء ﴿يُوحِيٓ﴾ بكسر الحاء، بصيغة المضارع المبنيِّ للفاعلِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ ﴿يُوحَىٰٓ﴾

بفتح الحاء، بالبناء للمَفْعول(4). فأمّا قراءة الجمهور فظاهرةٌ؛ فإنَّ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعلٌ للفعلِ ﴿يُوحِيٓ﴾. وأمّا قراءة ابن كثير بالبناء للمفعولِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾؛ فإنَّ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ يكونُ مرفوعًا على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 27.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 208.
(4) ابن زنجلة، السّبعة، ص: 580، والدّاني، التّيسير، ص: 194، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 367.

أنَّه فاعلٌ لفعل محذوفٍ دلَّ عليه المذكور قبلُ، والتَّقدير: أوْحى اللّهُ. ولا يجوز أن يكون فاعلًا للفعل ﴿يُوحَىٰ﴾. ويحتَملُ أن يكون الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ مرفوعًا بالابتداء، والخبرُ محذوفٌ يُفْهَم مِنَ السّياق، والتَّقدير: اللّهُ العزيز الحكيم هوَ الموحي[1]. والمَعْنيان متآيلان.

سرُّ تقديم الوحيِ إلى النَّبيِّ ﷺ على الوحي إلى مَن قبلَهُ:

بيانُ رفعةِ شأنِ النّبيِّ ﷺ

آثَر النّظمُ الكريم في الآيةِ تقديمَ ذِكْرِ الوحيِ إلى رسولِنا الكريمِ مُحَمَّد ﷺ على مَن سبقه من الرّسل عليهم الصّلاةُ والسّلام، وإن كانوا متقدِّمينَ عليهِ زمنًا؛ لإفادَةِ الاهتمام بالمُقَدَّم؛ تفخيمًا لشأنه، وترفيعًا لقَدْرِه ﷺ.

بلاغة الإدماجِ في الآية:

التّنويه بشأنِ الأنبياءِ السّابقين

الآية مسوقةٌ لبيانِ الإيحاء إلى النَّبيِّ ﷺ، فتكون جملةُ ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ من قبيل الإدماج[2]؛ وهو أن يُضمِّنَ المُتكلِّمُ كَلامًا ساقَه لمعنًى، مَعنًى آخَرَ، بشَرطِ ألّا يُصَرِّحَ به، ولا يُشعِرَ في كَلامِه بأنَّه مَسوقٌ لأجْلِه[3]، والغَرضُ من الإدماج في الآية التَّنويهُ بشأن الرُّسل السّابقين، والإشارةُ إلى أنَّ الوحي المُنَزَّلَ على النَّبيِّ ﷺ موافقٌ للوحيِ المنَزَّل عليهم في أصل الدّيانة.

الغرض من التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

طيُّ أسماء الرّسل دالٌّ على العمومِ مع الإيجازِ

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ مع صلتهِ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ لإرادة الشُّمول، إذِ الأسماءُ المَوْصولَةُ مِن ألفاظِ العُموم، فقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ يشمَلُ جميعَ الأنبياء السّابقين. والتَّعبيرُ به يُعطي المعنى كاملًا مع الإيجازِ والاختصار؛ إذ عدُّهُم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 28.
(3) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 305.

بأسمائهم ممّا لا يُناسِب المقامَ هاهُنا؛ إذ كان ذِكْرُهم على وجهِ الإدْماج لا بالأصالَةِ.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾:

دفعُ توهُّم النَّقص في الوحي إلى الأنبياءِ السّابقين

﴿مِن﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ حرفُ جرٍّ أفاد التَّوكيد؛ لأنَّ الغالب على ﴿مِن﴾ إذا دخلت على (قبلُ) و(بعدُ) دلالَتُها على التَّقوية والتَّوكيد، ووجهُ التَّوكيد هنا هو أنَّه لمّا أُخِّر ذِكْرُ الوحي إلى الأنبياء عن الوحي إلى النَّبيِّ ﷺ تعظيمًا لقَدْرِه ﷺ؛ رُبَّما أَوْهَم ذلك نقصًا في المُؤَخَّر؛ فدُفِعَ ذلك بالتَّوكيد. وفي هذا معنًى آخرُ؛ وهو أنَّ الرُّسل لمّا كانوا بعضَ مَن تقدَّم في بعض أزمنةِ الماضي؛ أُدْخِلَ حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾؛ فقال سُبْحانَه: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾[1].

الغرض من الإضافة في ﴿قَبۡلِكَ﴾:

تعظيمُ قدرِ النّبيِّ ﷺ

يُعبِّر السّياق القُرآنيّ في ﴿قَبۡلِكَ﴾ من قول اللّه سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ بإضافة (قبل) إلى ضمير الخطابِ (الكاف) المرادِ به النَّبيُّ ﷺ؛ لإفادة التّخصيص، وبيانِ عظَمة النّبيِّ ﷺ ورفْعَة قَدْرِه، وفيه إيماءٌ إلى وحْدة الرّسالة الإلَهيَّة واستمرارِها، والتّأكيد على امتدادِ الوحيِ؛ ببيان أنّ رسالتَه متناسبةٌ مع دعوة التّوحيد التي جاءت بها الرّسالاتُ المتقدِّمة.

موقع ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ممّا قبله على القراءَتَيْن ودلالتُه:

زيادة التَّشويق في التَّأخير

الاسمُ الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾ على قراءةِ الجُمهور ﴿يُوحِيٓ﴾ فاعل مَرْفوعٌ، وأُخِّر لِما في التّأخير من التَّشويقِ إليهِ[2]. وعلى قراءة ابن كثير ﴿يُوحَىٰٓ﴾، إمّا أن يكون فاعلًا لفعل مُضْمَرٍ تَقْديرُهُ: أَوْحى[3]، أَوْ أن يكون مرفوعًا على الابْتِداءِ، والتَّقْديرُ: اللّهُ العَزيزُ الحَكيمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 239.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 21.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 322.

الموحي، و﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ خبرانِ. وجملة ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لوقوعها جوابًا عن سؤالٍ يُفهَم من الجملة قبلَها، والتّقدير: مَنِ الموحي؟ فجاء الجواب: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1]. ويجوزُ أن يكون ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صِفتَيْن، والظَّرف: خبر[2]، أو أن يكون الاسمانِ مرفوعَين على البدليَّة[3].

دلالَةُ التَّعبير بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ شأنِ الوحي بذِكْرِ الاسمِ الأحسَنِ

آثَر النَّظْمُ القُرآنيُّ التّعبيرَ بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دونَ سواه من الأسماء؛ لجمعه صفاتِ الجلالِ والجمال والكمال، ولِما لهذا الاسْم مِن تفرُّد، فلا سَمِيَّ له فيه، كما قال اللّه تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]، فإنَّ معناهُ - في أحد الأقوال - هل تعرف أحدًا غيرَه يُسمّى (اللّه)؟[4] فكان في التَّعبير به تعظيمٌ لشأن الوحي الذي أوحاه اللّهُ تعالى إلى نبيِّه ﷺ، وإلى الأنبياء قبلَه.

سرُّ إيثارِ الاسمين الكَريمَيْن ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

مناسبةُ خِتام الآيةِ لمَضْمونِها

ذُيّلتِ الآيةُ الكريمة بالاسمَين الكريمَين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ بعد ذكر الوحي؛ لِما قد دلَّ عليه اسْتِقْراءُ القرآنِ الكريم، من أنَّ اللّهَ سُبحانه إذا ذَكَر تَنْزيلَه لِكِتابِه؛ أَتْبَعه بعضَ أسمائِه الحسنَى وصِفاتِه العُلْيا[5]. وقدِ اختير الاسمانِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لِما يتضمّنان من صفتي العِزَّة والحِكْمَة، وهما وصفانِ لهما مزيدُ اختصاصٍ بالغرض المقصود؛ من أنّ اللّه ﷻ يختارِ لرسالتِه ووحيِه من يشاء، فهو العزيزُ المنيع الذي لا يُغالَبُ، المُتَصرِّفُ بما يريد، فلا يَصُدّه أحدٌ، وهو سُبحانهُ الحكيمُ؛ المبدِعُ لمحكوماتِه، فلا يفعل إلّا ما فيه الحكمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 28.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 208، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 322.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 8/ 483.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 141.
(5) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 38.

البالغة، وهو الذي يُحَمِّلُ كلامَه معانيَ لا يَبلغُ إلى مثلِها غيرُه. وهذا مِن مُسْتَتْبَعات الغرضِ الذي صُدِّرت السّورةُ به؛ وهو الإيماءُ إلى تحدّي المعاندين بأن يأتوا بسورة مثلِ سوَرِ القرآن(1).

نُكتةُ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾:

الإتقانُ والإحكام ناشئانِ عن العِزَّة

قُدِّم اسْمُ اللّهِ تَعالى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على اسمِه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ من بابِ تَقْديمِ السَّبَبِ عَلى المُسَبَّب؛ وذلكَ لأنَّه سبحانه عزَّ فحَكَمَ، وهو كَتَقْديمِ العَليمِ على الحَكيم؛ لأنَّ الإحْكامَ والإتْقانَ ناشِئانِ عَنِ العلم(2).

دلالةُ بناء الاسمَين الكريمَيْنِ على زِنَةِ (فعيل):

اللهُ ﷻ شديدُ العِزَّة عظيمُ الحكمَةِ

في بِناءِ اسْمَي اللّهِ تَعالى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ علَى أمثلَةِ المبالغَةِ، دِلالَةٌ على شدَّةِ العِزَّة وعظيمِ الرَّحْمَةِ، إذِ العِزَّةُ والحِكْمَةُ مِن أوصافِ اللّهِ تَعالى، وأوصافُه سُبْحانَهُ لا مُنْتَهى لِكَمالِها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 27.

(2) الأبياريّ، الموسوعة القرآنية: 2/ 183.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾

[الشّورى: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لله تعالى الخَلْقُ كلُّه والأمرُ كلُّه

لمّا ذكر اللّهُ سبحانه أنّه صاحِبُ الوحيِ بالشّرائعِ إلى أنبيائه ورسلِه قديمًا وحديثًا؛ أعقبَهُ بتعليلِ ذلك، مبيِّنًا أنّه صاحبُ المُلك العامِّ؛ فقال ﷻ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1].

وفيه وجهٌ آخرُ للتّناسب؛ وهو أنَّ اللّه سُبحانه لمّا ختم الآية السّابقة باسْمَيْه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أتبعَهُ بما يُقرِّر هذَينِ الوصفَين؛ وذلك لأنَّ مَن كانَ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ تتحقَّقُ له العِزَّة الكاملة والحكمةُ الشّاملة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾: (علو) تدلُّ تصريفاتُها على السُّموِّ والارْتِفاع، لا يخرُج شَيْءٌ من اشتقاقاتِها عن هذا الأصلِ. ومِنْ ذَلِكَ: العَلاءُ والعُلُوُّ، وهو الرِّفعةُ[3]. و﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ هنا بِمَعْنى: العالي؛ الذي لَيْسَ فَوْقه شَيْء، وهو الشّريف الرّفيعُ القَدْرِ، العليُّ المتعالي الأعْلى[4]، فاسمُ اللّه تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ جامعٌ لعُلوِّ الذّاتِ، وعُلوِّ القَدْرِ، وعُلوِّ القهرِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سبحان مَن لا يخرج عن تدبيره شيءٌ!

أفادت هذهِ الآيةُ الكريمَةُ أنَّ للّهِ تَعالى وحدَه ما في السّماوات وما في الأرض، فهُما بما فيهما تحتَ قبضتِه وفي مُلْكِه خلقًا وتدبيرًا،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 241.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 26.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(4) الخليل، العين: (على)، وابن فارس، جمهرة اللغة: (علا).
(5) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/ 55.

وله التّصرُّف فيها إيجادًا وإعدامًا، فقدرتُه كاملةٌ نافذة، وهو العليُّ العظيم، المتفرِّدُ بعُلوِّ الذّاتِ وعُلوِّ الصِّفات قَدْرًا وقَهْرًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ممّا قبلها، ودلالتها:

تقريرُ مضمونِ الجُملة المتقدِّمة تقويةً وتوكيدًا

فُصل قولُ اللّه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ عمّا قبلَه؛ لوقوعِها تقريرًا لِما قبلَها بمنزلَةِ التّوكيد لها، ووجهُ ذلك أنَّ الآية السّابقة خُتِمَت بذِكْر اسمي اللّه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، وأعقبه ببيانِ عُموم مُلكه في هذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ مَن كان ما في السّماوات وما في الأرض مُلكًا له؛ تتحقَّق له العزَّة الكاملة، والحكمةُ الشّاملة؛ وذلك لِما يقتضيه خَلْق ما في السّماواتِ والأرضِ من إتقان نِظام الكونِ أجمعَ، فمَجيءُ الجُملة تقريرًا لمعنَى الجملة التي قبْلَها أبعدَها عن العَطْفِ[2].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

اختصاصُ اللهِ تعالى بمُلك ما في السّماوات وما في الأرض

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاصِ، فمِلْكيَّةُ السّماواتِ والأرض وما فيهما خاصٌّ باللّه تعالى وحدَه، لا يُشارِكُه في ذلك أحدٌ. وهذا التَّقديم يُناسِب سياقَ التّوحيد والتّنزيه الذي جاءَت الآياتُ لتقريرِه. ولو جاءَ النَّظمُ القرآنيُّ على خلاف ما جاء عليهِ بأنْ قيل: (ما في السّموات وما في الأرض له)؛ فإنَّه يكون إخبارًا مجرَّدًا عن إرادة الحَصْر، فلا يَمْنَعُ أن يكونَ لغيرِه شركَةٌ فيه، إلّا أنَّ البيانَ القرآنيَّ آثَر العدولَ عن التَّرتيب الأصليِّ للجُمْلَة، إلى تَقْديمِ ما حقُّه التَّأخير؛ للقطع بتفرُّد اللّه ﷻ بالملك، فلا مُلكَ إلّا له[3].

---

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 356.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 27، والدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 181.

(3) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 129.

بيانُ إحاطةِ مُلكِ الله تعالى

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

﴿مَا﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ اسم موصولٌ بمعنى: (الذي)، وهو من الألفاظ الدّالَّة على العُموم. وعُبِّر بالاسم الموصول وصِلَته دونَ التَّنصيص على أفراد ما في السَّماوات وما في الأرض؛ لتَعذُّر ذِكْر الأفراد لعدَمِ تَناهيها، فكانَ التَّعبيرُ بالموصول وصلته دالًّا على الإحاطةِ والعُموم، مع الاختصارِ والإيجاز. والاسم الموصول (ما) يختَصُّ غالبًا بما لا يَعْقِل أو لصفاتِ العقلاء[1]، وعُبِّر به في الآية مع أنَّ الذي في السَّماوات والأرض وما بينهنَّ منه العاقلُ وغيرُ العاقل؛ تغليبًا لغير العقلاء لكثرتِهم.

إظهارُ عُمومِ مُلكِ اللهِ سُبْحانَه

بلاغة التَّعبير بالطِّباق بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ طباقٌ؛ وذلك لإظْهارِ عُموم مُلك اللّهِ تَعالى لجميعِ ما في السَّماواتِ وما في الأرض، وليَدْخُلَ في ذلكَ ما بينَ السَّماواتِ والأرْضِ؛ لأنَّهما طَرفانِ قَد ذُكِرا، فَكانَ ما بَيْنَهُما مَقْصودًا؛ إذْ مِنَ القَواعِدِ المُقَرَّرةِ: أنَّ البَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفَيْنِ.

التَّنبيه بالخَفيِّ عن الظّاهر والأظهرِ

معنى ﴿فِي﴾، ودلالتُها في الآية الكريمَةِ:

﴿فِي﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وما في الظَّرف قَد يَخْفى علمُهُ والاطِّلاعُ عليْه، فبَيَّن اللّهُ تَعالى مُلكَهُ لِما في السَّماوات وما في الأرض؛ تَنْبيهًا على ما هوَ أظهَرُ مِنْ ذَلِكَ مِمّا هو ظاهِرٌ في العُلوِّ أو بيِّنٌ على الأرْض. ويجوزُ أن تكونَ ﴿فِي﴾ الدّاخِلَةُ على ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُسْتَعملَةً في مَعْنَيَيْن؛ بِمَعْنى الظَّرفيَّة، وبِمَعْنى (على)؛ لأنَّ ما على الأرضِ شديدُ الصِّلة بها حتّى كأنَّهُ فيها.

---

(1) ابن فارس، الصّاحبي، ص: 125، وأبو حيّان، التّذييل والتّكميل: 3/ 128.

معنى الواوِ ودِلالَتُها في ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

العُلوُّ والعظَمَةُ دليلُ العِزَّةِ والحكمَةِ

الواوُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وقُصِد بهذا العطفِ تقريرُ ما قرَّرتْهُ الجملةُ المتقدِّمةُ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ مَنِ اتَّصف بالعَلاء والعظَمة لو لم يكن مُتَّصفًا بالعِزَّةِ؛ لتَخَلَّفَ عَلاؤُه وعَظَمتُه. ثُمَّ إنَّه لا يكون إلّا متَّصفًا بالحِكْمَة؛ لأنَّ عَلاءَهُ يقتضي ترفُّعَهُ عَنْ سفاسفِ الأمورِ صفاتٍ وأفعالًا[1].

الغرضُ من التَّعبير بالجُملَةِ الاسميَّة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

اخْتِصاصُ الله سُبْحانَهُ بالعُلوِّ المُطْلق والعظَمَة الكامِلَة

التَّعبير بالجملةِ الاسميَّة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ للدّلالةِ على ثُبوت العُلوّ والعظَمةِ للّه تعالى، ولهذا أُكِّد هذا المَعْنى بتعريفِ جُزْأي الجملة لإفادة معنى القَصْرِ، أي: لا عَليَّ ولا عظيمَ غيرُه؛ لأنَّ مَن عَداهُ لا يَخْلو عنِ افتقارٍ إليه؛ فلا عُلوَّ له ولا عظَمةَ، وهذا القصْرُ قصرُ قلْبٍ؛ ردًّا على زعْمِ المُشْركين عُلوّ آلهتِهم[2].

سِرُّ اصطفاءِ الاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ واقْتِرانهما ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

تناسُبُ مقاطِع آي القُرآن لمَضامينِها

خُتمت الآيةُ الكريمةُ بِاسمي اللّه تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ وذلك مناسبٌ لسياق الحديث عن الوحي الإلهيِّ، فاسمُ اللّهِ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ يُشير إلى عُلوِّ اللّه سُبحانَهُ في ذاته وصفاتِه، إظهارًا لرِفْعَة مصدَرِ الوحي، واسمهُ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ يدلُّ على عظَمةِ اللّه المُطْلَقَة؛ ممّا يجعل الوحيَ حقيقًا بالإذعانِ لَهُ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 29.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 29.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 29.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الشّورى: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إظهارُ عظَمَةِ المَلَكوتِ الإلهيِّ في الكَوْنِ

لمّا كان قول اللّهِ تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُفْهِمًا عظيمَ مُلك اللّهِ سبحانه، وجليلَ قدرتهِ؛ وذلك من حيثُ كثرةُ ما في الأكوانِ مِنَ الأجسامِ والمَعاني التي هي لجلالتِها وفخامَتِها وعِظَمِها لا تُحْتَمَل؛ قال مبيِّنًا لذلكَ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾: (فطر) تدلُّ تصريفاتُها على خروجِ شيءٍ أو نفاذه أوَّلَ أمْرِه، شاقًّا ما فوقَه بضغطٍ أو نحوِه، فهو يبايِنُ الشَّقَّ بأنَّه أخصُّ منه؛ إذِ التَّفطُّر: تَشَقُّقٌ بقَيْدِ الأوَّليَّة[2]، ولذا يَرِدُ في عباراتِ أهلِ العِلْم تفسيرُ التَّفطُّر بالتَّشقُّق؛ لاشْتِراكِهما في أصْلِ المَعْنى، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأهُم[3] والمرادُ بالتَّفَطُّرِ في قول اللّهِ تَعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ التَّشقُّق والتَّصدُّع.

2) ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: (سبح) تدور تصريفاتُها على أصلين؛ أحَدُهُما: ضربٌ من ضُروب العبادَةِ، والآخرُ: نوعٌ مِنَ السَّعْيِ. فمنَ الأوَّل: السُّبْحَةُ؛ وهيَ الصَّلاةُ، وتختصُّ بصلاة النَّفل دونَ الفرضِ، فيُقال:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 243.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فطر).

(3) الجوهريّ، الصحّاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فطر).

سُبْحَةُ الضُّحى، أي: نافلَتُها، ولا يُقال: سُبحةُ الظُّهرِ مُرادًا بها الفرضُ، ومن هذا الأصلِ أيضًا: التَّسْبيحُ؛ وهو تَنْزيهُ اللّه سُبحانَهُ مِنْ كُلِّ سوءٍ، وأصلُ التَّنْزيهِ: التَّبْعيدُ. وقد يُطلق التَّسْبيح مرادًا به معنًى أعمُّ، فيدخلُ فيه جميعُ العباداتِ قولًا كانت أو فعلًا أو نيّةً، قال: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصّافات: 143][1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قُــرْبُ تـفـطُّـرِ الـسَّـمـاواتِ وتسبيحُ المَلائكةِ مـظـهـرٌ مِـن مظاهِرِ عظَمةِ الرَّبِّ ﷻ

يُبَيِّن اللّهُ سُبحانَهُ في هذه الآيَةِ عظَمَةَ شأنِه وجلالِ قُدْرَتِه؛ إذْ تكادُ السَّماواتُ تتشقَّق من فوقِها - كلُّ واحدةٍ فوقَ التي تليها - مِن هول عظَمةِ الرَّحمن سُبحانَهُ. كما يذكُرُ سُبْحانَه أنَّ المَلائكةَ يُسَبِّحون بحمد ربِّهم ويُنَزِّهونه عن كلِّ نقصٍ، ويسألونهُ المَغْفِرَةَ لأهلِ الإيمان من عبادِه في الأرضِ. ألا إنَّ اللّه تَعالى هو الغفورُ الرَّحيم بعبادِهِ المُؤْمنينَ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قولِه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

تقريرُ مضمونِ الجُملةِ المتقدِّمةِ تقويةً وتوكيدًا

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا نحويًّا تقريرًا لمضمونِ الجملة قبلَهُ، وهي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، فكانت بمنزلةِ التَّوكيد للجملة قبلَها، وذلك ممّا يُبْعِدها عن العطفِ[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تَكَادُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ عظمةِ اللهِ تـعـالى وجليلِ قُدْرَتِه

اختير الفعلُ ﴿تَكَادُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾؛ للإشارة إلى اقتراب حدوثِ التَّفطُّر، ممّا يُبْرِز عظمةَ اللّه تعالى وقُدْرتَه مع بقاء السَّماوات ثابتاتٍ بأمره وإذنه. وعُبِّر

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات: (سبح).
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 483.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 29.

عن الفِعْلِ بِصيغَةِ المُضارع ﴿تَكَادُ﴾؛ للإيماء إلى استمرار خضوع المخلوقات لجلالِ اللّه تعالى الدّائم، وإثارةِ الخُشوع والرَّهبة في نفوس المُتَلَقّين أمامَ هيبَتِه ﷻ، مُصَوِّرًا هذا الحدثَ العظيمَ - وهو قُرْبُ التَّفطُّر - كأنَّه أمرٌ مُتجدِّدُ الحدوث، مُسْتَمِرُّ الوقوعِ.

دلالة التَّعريف والجمع في لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

بيانُ عظَمةِ الهيبَةِ الإلَهيَّة

جاء لفظُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ معرفًا بـ (أل) ومجموعًا؛ للإشارة إلى السَّماوات التي عرفوها، وقصدًا إلى المبالغة، وإظهارًا لعظَمة الحَدَث؛ وللتَّأكيد على أنَّ التَّأثير لا يقتصر على واحدة منها، بل يشملها جميعًا، كما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "تكاد كلُّ واحدة منها تَنْفَطِر فوقَ التي تليها من قول المُشْركينَ: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ [البقرة: 116]"[(1)]، وهذا التَّعبير يدلُّ على عظَمة الهَيْبَة الإلهيَّة، وهو أنسَبُ للسّياق الذي يَصِف عُلوَّ اللّهِ تَعالى وتنزُّهَه عن جميع ما لا يليقُ به.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ و(ينفَطِرن):

التَّكامُل الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرآنيَّة

في قول اللّه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ قراءتان؛ فقَد قرأ الجمهورُ ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ بياء ثُمَّ تاءٍ، والطّاء فيه مشدَّدة، وقرأ أبو عمرٍو وشعبةُ ويعقوبُ: (يَنْفَطِرْنَ) بياء ثُمَّ نونٍ ساكنةٍ، مع طاءٍ مكسورةٍ مخفَّفة[(2)]. و﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ على قراءة الجمهور مُطاوِعُ الفعل (فَطَّر) الذي هو تكريرُ الشَّقِّ، وهو دالٌّ على التَّكثير، و(يَنْفَطِرْنَ) مُطاوِعُ الفعلِ (فطَرَ) إذا شَقَّ، وهو نظيرُ قَوْلِه: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ [المزمل: 18][(3)]. وليس المراد من الفعلِ على القراءتين المَذْكورتَيْن قبولَ أثرِ الفاعل؛ لأنَّه لا فاعلَ هُنا للشّقِّ، وإنَّما المراد الخبرُ بوقوعِ الفعل، فلا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 4.

(2) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 412، والدّاني، التّيسير، ص: 157، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 319.

(3) ابن خالويه، الحُجّة، ص: 239، وابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 640، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 30.

يُنظر هنا لِما يُقْصَدُ غالبًا في مادَّة التَّفعُّل من تكرير الفِعْلِ، فكانَتِ القراءتان مستويَتَيْنِ في البلاغة[1].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾:

وفـرَةُ المَعاني لتعدُّد معاني الحُروفِ

﴿مِن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الابتداءِ، وذلك إنْ جُعِل الضَّمير في ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ راجعًا إلى السَّماوات، ويكون ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ متعلِّقًا بالفِعْل ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، والمعنى: أنَّ انْشِقاقَهُنَّ يحصُل من أعلاهُنَّ. ويجوزُ أن تكون ﴿مِن﴾ صلةً يُراد بها التَّوكيدُ، كما هو الشَّأنُ في دخولها على الظّروفِ، والمقصودُ: تأكيدُ الفوقيَّة، وذلك إذا جُعِل الضَّميرُ راجعًا إلى الأرضِ من قولهِ تعالى: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على تأويل الأرض بـ (أرضين)؛ بالنَّظر إلى أجزاء الكرة الأرضيَّة، أو بتأويلِ الأرض بسُكّانها، من باب: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82][2].

بيانُ مرجع الضَّمير في ﴿فَوْقِهِنَّ﴾، ودلالتِه:

تعدُّد المعاني وثراؤُها بتعدُّدِ مرجع الضَّمير

الضَّمير في ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ يحتمِلُ في رجوعِه أوجهًا؛ **أحدُها**: أنه عائدٌ على السَّماوات، والمعنى: يَبْتَدِئُ انفطارُهُنَّ مِنْ جهةِ العُلوِّ، فـ ﴿مِن﴾ لابتداءِ الغاية متعلِّقة بما قبلَها؛ إذ إنَّ أعظمَ الآيات وأدلَّها على عظمَةِ اللّه سُبحانَهُ وجلالَهُ فوقَ السَّماواتِ، ولذا قال سُبحانَهُ: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾[3]. **ثانيها**: أنَّ الضَّمير راجعٌ إلى الأرَضين؛ لتقدُّم ذِكرِ الأرض قبلُ في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. **ثالثُها**: أنَّ الضَّمير يعودُ على فِرَقِ الكفّارِ والجماعاتِ المُلْحِدين، قالَهُ الأخفش الصّغير، وأنكره مَكّيٌّ؛ وعلَّل ذلك بعدم جواز رجوع الضَّمير المؤنَّث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 30.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 30.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 209.

على العقلاء مِنَ الذُّكور، وأجابَ السَّمينُ الحلبيّ عن هذا الاعتراضِ؛ بأنَّ مرادَ الأخفش الحَمْلُ على المعنى، وأنّ الضّمير يرجع إلى الفِرَق والجماعات[1]، فأُنِّث الضَّمير بهذا الاعتبارِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ التَّفطُّر حاصلٌ مِن أجلِ أقوالِ تلك الفرقِ والجَماعاتِ[2]. وعلى هذا الوجه؛ كان مقتضى الظّاهر أن يَرِد النَّظم القرآنيُّ: (من تحتهنّ)، أي: من الجهة التي جاءت منها الكلمةُ، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ آثرَ المبالغةَ في ذلك، فجُعِلت مؤثِّرة في جهة الفوق، كأنّه قيل: (تكادُ يتفَطَّرن من الجهة التي فوقَهُنَّ، وتفطُّر ما تحتَهُنَّ أولى وأشدُّ)[3].

معنى الواوِ ودِلالَتُها في ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾:

بيانُ عظَمةِ اللهِ سُبْحانَه وأثَرُ ذلكَ في المَخْلوقاتِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ يجوز أن تكونَ عاطفةً الجملةَ بعدَها على جملة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾؛ وذلك لإفادتها تقريرَ معنى عظَمة اللّهِ وجلالِه، المدلولِ عليهما بقولِه سُبحانَهُ قبلُ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾[4]. ويجوزُ أن تكون الواوُ للاستئناف[5]، والجملةُ بعدَها مستأنَفَةٌ يُراد بها بيانُ أثرِ العظَمةِ الإلَهيَّةِ في الملائكةِ تسبيحًا وتحميدًا.

دلالَةُ تعريفِ لَفْظِ (الملائكة) وجمْعِها:

خُضوعُ الملائكَةِ للهِ سُبْحانَه

جاءَ لفظُ (الملائكة) من قول اللّه تَعالى: ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ معرَّفًا بـ (أل) الجنسيّةِ المفيدة للاستغراقِ. ويجوز أن تكون (أل) للعَهْدِ العِلْميِّ، والمقصودُ بهم: حملةُ العَرْش. والأوَّل أشمَلُ وأعمُّ؛ لاندراج الثّاني تحتَهُ، على أنَّ القول بلام العَهْدِ ضربٌ مِن ضُروب دَعْوى الخصوصِ المفتقِرَة إلى دليلٍ ظاهر. وجيء بِلَفْظِ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 540.
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2683، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 13.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 209.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 31.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 11.

(الملائكَة) مجموعًا؛ للدّلالة على اشتراك الملائكةِ كُلِّهم في تَسْبيح اللّه تَعالى والاستغفارِ لأهلِ الأرضِ.

دلالة التَّعبير بالمُسْنَد فعلًا مُضارعًا:

تَسْبيحُ الملائكَةِ عبادَةٌ دائِمَةٌ

جاء المُسْنَدُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ فعلًا؛ للدّلالة على تقويَة النِّسبة وتأكيدِها، وذلك لتَكَرُّرِها، ووجهُ ذلك: أنَّ التَّسبيح المُسْتَفادَ من ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ مسندٌ إلى (الملائكة)، ومُسندٌ إلى الضَّمير (الواو)، فكانت النِّسبة مكرَّرةً ممّا يقتضي توكيدَ حصولِها؛ اهتمامًا بمضمونِ الجملةِ، وإبرازًا لمظهرٍ من مظاهِر العظَمة الإلهيَّة في تسبيح الملائكَةِ له. وعُبِّر عَنْ فعلِ التَّسبيح بصيغةِ المُضارِعِ؛ لإفادَةِ التَّجدُّد الاستمراريّ، وذلك يقتَضي أنَّ تسبيحَ الملائكَةِ عبادَةٌ مستمرَّةٌ دائمةٌ.

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾:

الجمعُ بين التَّنزيهِ والتَّعظيمِ

الباء في ﴿بِحَمۡدِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ مفيدةٌ معنى الملابسةِ والمُصاحَبةِ، أي: يُسبِّحونَ تَسبيحًا مُصاحِبًا الثَّناءَ على اللّه تَعالى بما هو أهلُهُ، فجمَعوا بينَ تنزيهِ اللّه تَعالى عمّا لا يليقُ به، وبين وصفِه بالكَمالاتِ، وحُذِف مفعولُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ لدلالة المُتَعلّق بِهِ عليهِ، والمَعْنى: يُسبِّحونَ اللّهَ ويَحمَدونَه. وفي هذا تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ أعرَضوا عن تَسبيحِ ربِّهم وحمْدِه، وشُغِلوا بتَحميدِ الأصنامِ التي لا نِعمةَ لها عَلَيْهِم، ولا تَنفَعُهم ولا تَضُرُّهم[1].

الغرضُ مِن إضافةِ الحمد إلى الرُّبوبيَّة:

الإشادَةُ بنِعْمَةِ الخَلْقِ والتَّدبير

أُضيفَ الحمْدُ إلى اسم اللّه تعالى (الرّبّ) في قوله سبحانَهُ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ دون الأُلوهيَّةِ؛ للتَّنبيه على تعلُّقِ الحَمْد بنِعْمَةِ الخَلْقِ والتَّدبير والرِّعاية التي هي من مقتضيات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 33.

الرُّبوبيَّة، فتنزيهُ الملائكةِ لربِّهم سُبحانَهُ ووصفُهُم له بالكمالاتِ ناشِئٌ مِن معرفتِهم بعظمَةِ اللّه سُبحانَهُ وجلالِه.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

بيانُ وظيفةِ المَلائكَةِ عليهم السلام

الواوُ في ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُمْلَة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، وبين الجُمْلَتَيْن توسُّطٌ بينَ الكمالَيْن؛ لاشْتِراكِهما في الخبريَّة، ولِما بينَهُما من التَّناسُب في اللَّفظ والمعنى، فأمّا التَّناسُبُ في اللَّفظ فاتِّحادُ المسندِ إليه فيهما، وهو واوُ الجماعَة العائِدَةُ إلى (الملائكة)، والتَّعبير بالفعلِ المُضارع فيهما. وأمّا التَّناسب المعنويُّ؛ فلاتِّحادِهما في الكلامِ عَن وظيفَةِ المَلائكة عليهم السلام. والغرضُ مِن الخبر عن الملائكةِ بالاستغفارِ لأهلِ الأرض بيانُ أنَّهم مِن عالَم الخَيْر والهُدى؛ فهم يحرِصون على حصولِ الخير لأهل الأرض، وعلى هِدايَتِهم إلى الحقِّ والإيمانِ باللّه سُبحانَهُ[1].

دلالَةُ التَّعبير بالمُضارع في ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

دوامُ طلبِ المَلائكةِ المغفرةَ لأهْلِ الأرْضِ

عُبِّر عن فعلِ الاستغفارِ بصيغة المضارع بـ (يستغفرون) في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّد الاستمراريِّ في طلَب الملائكةِ المَغْفِرةَ والرَّحمةَ لأهلِ الأرض.

معنى اللّام ودلالَتُها في ﴿لِمَن﴾:

استِغْفارُ المَلائكة خاصٌّ بأهلِ الإيمانِ

اللّام في ﴿لِمَن﴾ مِنْ قولِ اللّه جل جلاله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ دالَّةٌ على الاختصاصِ، وذلك يُفيدُ أنَّ استغفارَ الملائكة مختصٌّ بأهل الأرضِ، وهم أهل الإيمان دونَ غيرِهم، كما جاء توضيحُهُ في موضعٍ آخرَ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ [غافر: 7]. ويجوز أن يكونَ الاستغفارُ عامًّا، ويكونَ لأهْلِ الكُفْر بمعنى ترك المُعاجَلَة بالعُقوبَة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 34.

الغرض من التَّعبير بالاسم الموْصول (مَنْ):

اخْتِلافُ مَعْنى الاسْتِغفارِ باخْتِلافِ مُتَعَلّقِه

(مَنْ) في ﴿لِمَن﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ اسمٌ موصولٌ بمَعْنى: الذي، وهو مِنَ الألفاظ الدّالَّة على العُموم، فيكون ظاهِرُ الآيةِ مُفيدًا استغفارَ الملائكةِ لجَميع مَن في الأرض، إلّا أنَّه عمومٌ في العقلاء؛ لاختصاصِ (مَنْ) بهم في الأصل. أمّا الاستغفارُ لأهلِ الإيمانِ فمُطْلَقًا، وأمّا لأهل الكُفْر فبِتَأخيرِ مُعاجلَتِهم بالعقوبة[1]. ويجوز أن يكون (مَنْ) شاملًا للعُقلاءِ وغيرِهم، مِن باب تغليبِ العُقلاء لِشَرَفِهم. أمّا العقلاءُ مُؤْمنينَ وكُفّارًا فعلَى النَّحو المُتَقَدِّم. وأمّا غيرُهم مِنَ الحيوانِ؛ فبِتَرْك شُمول العقوبةِ لأهلِ الأرضِ لَهُم.

معنى ﴿فِي﴾ ودِلالَتُها:

إبْرازُ الصِّلة بينَ عُمّارِ السَّماء وسُكّانِ الأرضِ

حرف ﴿فِي﴾ مِن قول اللّه سُبحانَه: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهو هنا يُشير إلى شِدَّة الارتباطِ بالأرض ولُصوقِهم بها؛ لكَوْنِهم لا يعيشونَ إلّا فيها. وفي التَّعبير بـ (مَن في الأرض) شمولٌ وعمومٌ لكُلِّ مَن يعيشُ فيها، ولو نُصَّ على أنواعِهم لطالَ الكَلامُ. كما أنَّ التَّعبيرَ عنهم بـ (مَن في الأرض) يُحَسِّن المعنى؛ إذ يكون بينَ ﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ هاهُنا وبينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ في صدر الآية: طِباقُ إيجاب؛ وذلك ممّا يُبْرِزُ الصِّلة بين عُمّار السَّماء - وهُم الملائكَةُ - وسُكّانِ الأرضِ.

موقع جملة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ممّا قبلها، ودلالتُها:

إبْطالُ وهْمِ المُشْركينَ في انْتِفاعِهِم بشُركائِهِم شفاعةً وتقريبًا

جملة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مستأنفةٌ لا محلَّ من الإعراب[2]، وهي واقعة تذييلًا للجملة قبلها: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لقصد دَحْض وهْمِ أهل

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 245.

(2) الصّافي، الجدول: 25/ 19.

الشِّركِ أنَّ شركاءهم يشفعونَ لَهُم، ولذا جيء بالجملةِ بأسلوبِ القصرِ، قصرِ قلبٍ[1]. وفي هذه الجملة إيماءٌ إلى أنَّ اللّه سُبحانهُ يقبلُ استغفارَهُم، ويزيدُهُم على ما طلبوه من المغفرةِ رحمَةً[2].

معنى ﴿أَلَآ﴾ ودلالتُها:

تنبيهُ القُلوبِ علـى سـعَـةِ مـغـفِـرَةِ الـلـهِ تَعالى ورَحْمَتِه

صُدِّرت جملةُ التَّذييلِ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بحرف الاسْتِفْتاحِ ﴿أَلَآ﴾؛ لإرادة التَّنبيه على ما يَرِد بعدَها، وتوكيدِهِ وتَقْوِيَته[3]، وفي التَّعبير بِهِ نفيٌ لِلغَفْلَة عن حقيقةٍ جليلةٍ، وهي اختصاصُ اللّهِ سُبحانَهُ بالمغفرةِ والرَّحمة. كما أنَّ فيه تنبيهًا لِلمُتلقّين على هذا الأمر؛ ليكونَ استقبالُهم له استقبالَ المُصَدِّق الموقِنِ. ويؤيِّدُ هذا المعنى الإتيانُ بـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدَة.

الغرضُ من التَّعبير بالجُملة الاسميَّة:

عُبِّر بالجُملة الاسميَّة: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ للدّلالَة على الثُّبوت والدَّوام، وأنَّ اللّه سُبْحانَه مُتَّصف بصِفَتَي المغفِرَة والرَّحمة على وجْهِ الدَّوام والاسْتِمْرارِ.

دِلالَةُ تَظافُرِ المؤَكِّدات:

تهيئَةُ السّامعِ وتنبيهُهُ لتَلَقّي عَظائِم الأمورِ

أُكِّد قولُ اللّه سُبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بجملةٍ من المُؤكِّداتِ؛ وهي حرفُ الاستفتاح ﴿أَلَآ﴾، وحرف التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾، وتعريفُ جُزأي الجملة، وضميرُ الفصلِ، واسميّةُ الجملةِ. وهذا الحَشْدُ للمؤكِّداتِ دليلُ أهميَّة القَوْلِ، وفيه إبرازٌ لجَلالة المَعْنى. فبدأت الجملَةُ بحَرْفِ الاستفتاحِ لتَهْيِئَة السّامع بتَنْبيه عقله وقَلْبه، ثُمَّ قوّيَ الخبرُ بـ ﴿إِنَّ﴾، ثُمَّ جيء بجُزْأي الجملة معرَّفين لإفادَة القصرِ، وقوّيَ هذا القَصْرُ بضمير الفصلِ، وصيغ ذلك كلُّه بجملةٍ اسميَّة تُفيد الدَّوام والاستمرارَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 34.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 22.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 34.

دلالة التَّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

الاسم الأحسنُ (الله) جامع لصِفاتِ الكَمال والجَلال والجمالِ

جاء الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهَ﴾ مسندًا إليه في قَول اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لتعظيم الأمر وبيان جلالته؛ إذ إنَّ اسمه تعالى ﴿ٱللَّهَ﴾ فيه من الجلال والجمال والكمال ما لا منتهى له. وفي التَّعبيرِ به حملٌ على لزوم الحمد وإدامة الشُّكر للّهِ سُبحانَهُ، الذي له الإحاطة بصفات الكمالِ، فلهُ جميعُ العظمة[1]. والتّعبير بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ ملائمٌ معَ ما في الآية مِنَ القَصْرِ؛ إذ إنَّه لا يقدِر على المغفرَةِ والرَّحمة إلّا الذي اتَّصف بكمال العظَمَةِ، وصفات الكمالِ.

دلالةُ خَتْمِ الآيَةِ بالاسْمَيْنِ الكريمَينِ واقترانِهما:

رَحْمَةُ اللهِ سُبْحانَه سبقَتْ غضبَهُ

خُتمت الآية الكريمة بذِكْر الاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وذلك أنَّهُم استوجبوا بادِّعائهم - أن اللّهَ تعالى اتَّخذ ولدًا - صَبَّ العذابِ عليهم، إلّا أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ صرفَهُ عنهم؛ لأنَّ رحمتَهُ سُبحانَهُ سبقَتْ غضبَهُ، والآيةُ واردة لإرادةِ التَّنزيه بعد إثبات مُلك اللّهِ تَعالى وعَظَمَتِه[2]. والخَتْمُ بهذَيْن الاسمينِ الجَليلَيْن مناسِبٌ لمَطْلَعِ الآية ومضمونِها، فالغفورُ: كَثيرُ السَّتْرِ على المُذْنبين، والرَّحيم: واسعُ إيصالِ الرَّحمةِ إلى عِبادِه[3]. والاقْترانُ بينَ المَغْفرةِ والرَّحمة فيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّه تعالَى يقبلُ مِنَ الملائكة استغفارَهُم، ثُمَّ يُفيض على العبادِ بالزّيادة عَلى مَطْلوبِهم مِنْ رَحْمَتِه الواسعَة[4].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّفطُّر والتَّشقّق:

الفعلُ (يتفطَّر) أصلُهُ دالٌّ عَلَى فَتْح شَيْءٍ وإبرازِه[5]. وأمّا الشَّقُّ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 246.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 13.
(3) وقد ورد في القرآن الكريم الاقترانُ بين الاسمين الجليلين في: (73) موضعًا.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 22.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).

فأصلُهُ: الصَّدع البائِنُ، وقيل: غير البائن، وقيل: هو الصّدعُ مطلقًا، وهذا شقيقُ هَذا؛ إذا انْشَقَّ نصفينِ.

فالفطر: هو الشِّقُّ الذي يكون بالطّول، والشَّقُّ يكون على أيِّ جِهَةٍ. كما أنَّ الانفطارَ هو شقوقٌ غيرُ منتظمة، بينَما الشُّقوق تدلُّ على أمورٍ منتظمَة، فبينَ الفطر والشَّقّ عموم وخصوصٌ.

فالانْفِطارُ في السَّماء الذي هو مِن علامات السّاعة، يحدثُ أوَّلًا ثُمَّ يعقبُه الانْشِقاقُ، ويُستأنَسُ لهذا المَعْنى بِأنَّ سورة الانْفِطار جاءت متقدِّمةً في ترتيبِ المُصحف قبلَ سورَةِ الانْشِقاق(1).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فطر).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾ [الشّورى: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استيعابُ حالِ العِبادِ معَ حُجَجِ اللهِ تعالى وبَراهينِه

لمّا ذكر اللّهُ تَعالى ما هو بمنزلَةِ الحُجَّة والبُرْهان على أنَّ له ملكَ السَّماوات والأرض، وعَلِمَ ذلك أهلُ الإيمانِ فاسْتَغْفرت لهُم الملائِكَةُ؛ ذكَر سُبْحانه حالَ ضدِّهم مِمَّن لم يُبْصِر الحُجَّة والبرهان، فإنَّ اللّه حَسْبُهم، وما النَّبيُّ ﷺ عليهم بوكيلٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: (ولي) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَى القُرْب، ومنهُ: الوَلْيُ وهو القُرْبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعْدَ ولْي، أي: بَعْدَ قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَليني، أي: يُقاربُني. ومِنْهُ المَوْلَى، وهوَ يُطْلَقُ على معانٍ، مِنْها: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنّاصِرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعْنَى القُرْبِ كما هوَ بيِّنٌ. ومنه الوِلاية: أي: الاجتماع في النُّصرة. وقال سيبَوَيْهِ: الوَلاية، بِالفَتْحِ المَصْدَرُ، والوِلاية، بِالكَسْرِ، الاِسْمُ مِثْلَ الإمارة والنِّقابة[2]. و"أولياء" في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ بمعنى: شركاءَ وأندادٍ[3].

2) ﴿حَفِيظٌ﴾: (حفظ) تدل تصريفاتُها على مُراعاةِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا. والحفيظُ: المُوكَّل بالشّيء يحفَظُه. والتَّحفُّظ: التَيَقُّظُ وقِلَّةُ الغَفْلة[4]. والحفيظُ مِن أسماءِ اللّهِ تعالى له مَعْنَيانِ؛ أحدُهُما: أنَّه قد حَفِظَ على عبادِهِ ما عَمِلوهُ من خيرٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 31.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 245.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).

وشَرٍّ وطاعَةٍ ومَعْصيَةٍ. والآخَر: أنَّه سُبْحانَه الحافِظُ لِعبادِهِ مِن جميعِ ما يَكْرَهونَ[1].

3) ﴿بِوَكِيلٍ﴾: (وكل) تدلُّ تصريفاتُها على اعْتِمادِ غَيْرِكَ في أمْرِكَ. ومِنْهُ التَّوكّل؛ وهو إظْهارُ العَجْزِ في الأمْرِ، والاعْتِمادُ على غَيْرِكَ[2]، والوكيل: فعيل بمعنى مفعولٍ؛ وهو الموكول إليهِ عمَلٌ في شيءٍ أو اقتضاءُ حَقٍّ. ومعنى قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: لستَ بموَكَّلٍ بِهِم أو بِمَوْكولٍ إليكَ أمرُهم، وإنَّما عليك البلاغُ والإنْذار[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

البلاغُ للرَّسول ﷺ، والحِسابُ على اللهِ تَعالى

بيَّن اللّٰهُ سُبْحانَه أنَّ الذين اتَّخَذوا مِن دونِه آلهَةً يعبدونَها ويتولَّوْنَها، أنَّه هو الحافِظُ لأفعالِهم وسَيُجازيهم بها يومَ القيامةِ. وأوضَحَ ﷻ أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليس مسؤولًا عن حفظِ أعمالِهم أو مُحاسَبَتِهم، وإنَّما دَوْرُهُ البَلاغُ والإنذار، أمّا الحسابُ فهو على اللّٰه تَعالى[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾:

ذِكْرُ أهلِ العَمى عَـنِ الـبَراهـيـنِ الإلهيَّة بعدَ ذِكْرِ أهلِ البَصيرَةِ

الواوُ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ من قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جملة ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[5]، وذلك لِما بينَ الجُمْلَتَيْنِ مِن التَّوسُّط بين الكمالَيْنِ لاتِّحاد الجُمْلَتَيْنِ في الخبريَّة، ولِما بينَهُما من التَّناسب في اللَّفظ والمَعْنى، فأمّا اللَّفْظُ فاشْتِراكُ الجُمْلَتَيْنِ في الاسميَّة، وأمّا في المَعْنى؛ فلأنَّ اللّٰهَ سُبْحانَهُ لمّا ذكَر ما هو بمنزلَةِ الحُجَّةِ والبُرْهان، وأنَّ أهلَ

(1) القحطانيّ، الثّمر المُجتبى، ص: 41.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 14.
(4) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 483.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 31.

الإيمانِ عَمِلوا بمُقْتَضاها، فاسْتَغْفَرَت لَهُمُ الملائكَةُ؛ ذكَرَ ما يُقابِلُ ذلكَ، وهُمُ الذين لَم يُبْصِروا ذلك البُرْهانَ، فلم يعمَلوا بمقتضاهُ[1].

الغرض مِنَ التَّعبير بالاسمِ المَوْصولِ (الذين):

الإشارَةُ إلى عِلَّة الحُكْمِ

عَبَّر النَّظم القُرآنيُّ عن المُشْركين بالاسْم المَوْصولِ (الذين) وصِلَتِه، فقال اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ إيماءً إلى عِلَّة الحُكْم، وتشنيعًا لفَظيعِ صُنْعِهم؛ وهوَ اتِّخاذُهُم أولياءَ مِن دونِ اللّه تَعالى.

دلالَةُ التَّعبير بالماضي، وبيانُ مَرْجِع الضَّمير في ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

اسْتِحقاقُهُم العقابَ بسبَبِ تَحَقُّقِ جُرْمِهِم

عبِّر النَّظمُ الكريم في جملةِ الصِّلةِ بالفِعْلِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق الفعل وثبوتِه، فقد وقَع اتِّخاذُهُم الأولياءَ مِنْ دونِ اللّهِ تَعالى وتحقَّق، وذلك يقتضي رُسوخَ الشِّرْكِ في نُفوسِهِم. والتَّعبيرُ بالماضي يُمَهِّد إلى اسْتِحْقاقِهِم العقابَ بسبب تحقُّقِ جُرمِهم. وضميرُ الجمعِ (الواو) في قول اللّه سُبحانه: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ راجعٌ إلى ما دلَّ عليه الاسمُ الموصول (الذين)؛ وهم أهلُ الشِّركِ الذين جَعلوا للّه تعالى أندادًا يعبدونهم من دونه[2].

الغرض مِن تقديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

الخَلْقُ كُلُّهم تحتَ قَهْرِ اللهِ سُبْحانَه وسُلطانِه

قَدّم البيانُ القرآنيُّ شِبْهَ الجملة ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المفعولِ به ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، مِن قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ إشارةً إلى تَحْقيرِ ما اتَّخذوه مِنَ الأولياء ابتداءً؛ فما اتَّخذه المُشْرِكون من الأندادِ هي دونَ اللّهِ تعالى في القَدْرِ والمَنْزِلَة؛ إذْ كُلُّ ما سِوى اللّهِ سُبْحانَه هو تحتَ قهرِه وسُلْطانِه، وما كانَ كذلك؛ تضاءلَت رُتْبَتُه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 31.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 210.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 247.

دلالةُ تَنْكيرِ المفْعول به ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، وجمعِهِ:

تَحْقيرُ ما عَوَّلَ عليهِ أهلُ الشِّرك

جاءَ المَفْعولُ بِهِ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ مُنكَّرًا؛ لإرادة التَّحقير، وذلك لأنَّ المُتَّخَذين أندادًا - وهم الجِنُّ والأصنام[1] - مبنى حالِهم عَلى التَّحقير والازدراءِ. وورد مجموعًا بالنَّظر إلى أفرادِ المُشْركينَ، والمَعْنى: كلُّ واحدٍ مِنْهُم اتَّخذ مِن دونِ اللّه وليًّا؛ بناءً على قاعدَةِ: مُقابلَةِ الجَمْع بالجَمع تقتَضي القِسْمَةَ آحادًا. أو أنَّ الجمعَ بالنَّظر إلى تعدُّد ما كانوا يَدْعونَهُ مِن دونِ اللّه سُبْحانَه، فيكون هذا بيانًا لحالِ آلِهَتِهِم، مِن سُقوطِها عَن منزلةِ الوَلايَة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بِالأوْلياءِ دونَ الأرْبابِ:

حَقارَةُ ما يَعْتَمِدُ عليهِ المُشْرِكونَ

عبَّر القرآنُ الكريمُ عمّا اتَّخذه المشركون أندادًا بالأولياء، في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، دونَ وصْفِهم بالأرْبابِ؛ تقليلًا مِن شأنِ هَؤُلاءِ الأولياء، ولِصدْقِ لَفْظِ الأولياء على كُلِّ قريبٍ يُتَّخَذ نصيرًا وعَوْنًا مِن دونِ اللّهِ سُبحانَهُ، وإنْ لَم يُصرَف لَهُ شيءٌ مِنَ العِبادَةِ.

دلالَةُ التَّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجُمْلَةِ الاسميَّة:

فَظاعَةُ جُرْمِهم؛ اقْتَضى تَرْهيبَهُم وتَخْويفَهُم

جاءت الجملةُ في قولِ اللّهِ سُبحانه: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ مصدَّرةً بالاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لأنّه لمّا كان ما فعلوه عظيمَ البَشاعَة؛ اشتدَّ التَّشوُّف إلى جَزائِهم عليه، فأخبر عنهُ سُبْحانَه مُعبِّرًا بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ الجامع لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ؛ ليكون ذلك أدخَلَ في التَّرْهيب والتَّخويف. وعُبِّر بالجملة الاسْميَّةِ للدّلالة على ثُبوت اتِّصاف اللّهِ تَعالى بالحِفْظِ، فَهو ﴿حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أيْ: رقيبٌ وشَهيدٌ، إن شاء بَقَوْا على كُفْرِهِم، وجَزاهُم عليه

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 226.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 197.

بما أعدَّه للكافِرين، وإن شاء تابَ عليهم، ومحا ذلك عَيْنًا وأثرًا، فلم يُعذِّبْهم ولم يُعاقِبْهُم ولم يُعاتِبْهُم، وإن شاء محا عينَهُ وأبقى أثرَهُ؛ ليُعاتِبَهُم عليه[1].

دلالةُ التَّعبير بلَفْظِ ﴿حَفِيظٌ﴾:

سعَةُ إحاطَةِ اللهِ تعالى بالعِبادِ وأعمالِهم

عُبِّر بلفظ ﴿حَفِيظٌ﴾ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ تهديدًا ووعيدًا لكُلِّ مَن اتَّخذ مِن دونِ اللهِ تَعالى أولياءَ. ولفظُ ﴿حَفِيظٌ﴾ على زِنَة (فعيل)؛ وهو صيغَةُ مبالغَةٍ من (حافظٍ)، وصيغةُ المبالغةِ تدلُّ على الاسْتِمْرارِ والدَّوام وثبات الصِّفة[2]، وتفيدُ قوَّةً في الصِّفةِ، وسعةً فيها، وكثرةً في أفرادِها. ونُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ وهي دالَّةٌ على الكثرةِ؛ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ ذكرَ الكثرةَ في معْبُوداتِهم بأنَّهم اتَّخذوا أولياءَ؛ فناسبَ ذلك أن يُقابل تلك المعبودات المتعدِّدة بصيغةِ المُبالغة الدّالة على الكثرةِ والإحاطةِ لِمَعْبوداتِهم وأعْمالِهم، فهو سبحانه رقيبٌ عليهم، لا يَفوتُهُ شيءٌ من ذلكَ، وإذا كان حفيظًا عليهم، حافِظًا لَهمْ مراقبًا؛ فلا بَدَّ أن يُحْصيَ عليهم أعمالَهُم ويجازيَهُم عليها[3].

معنى (على) ودِلالَتُها في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

اطِّلاعُ اللهِ سُبْحانَهُ عَلى أعْمالِ العِبادِ يَقْتَضي مُجازاتَهُم عَلَيْها

(على) في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستعلاءِ؛ وذلك يقتضي سعةَ اطِّلاعِ اللّه تعالى على أعمالهم، وأنَّه مُحيطٌ بها، لا يفوتُه منها شيءٌ[4]، والمُسجِّلُ لها؛ ليُجازيَهُم عليها يومَ القيامَة.

معنى الواوِ ودِلالَتُها في ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم﴾:

الواوُ في قول اللهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ عاطفَةٌ الجملة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 247.

(2) السّامرائيّ، صيغ المبالغة وطرائقها، ص: 234.

(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 5/ 64.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 210.

تسلية النّبيّ ﷺ بأنّ عصيان المدعوّين لا يضرّه

بعدَها على جملةِ: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ وذلك لِما بينَهُما مِن التَّوسُّط بينَ الكمالَيْنِ؛ إذْ قَدِ اشْتَركتا في الخبريَّة، وبينهما تناسُبٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ، فأمّا اللَّفْظيُّ: فاتِّحادُهُما في الاسميَّة، وتطابُق متعلّق الخبرِ فيهما وهو (عَلَيۡهِمۡ). وأمّا المعنويُّ: فلأنَّ الجُملَتَيْنِ سيقتا لبيانِ ما يُقابَلُ به أهلُ الشِّرك؛ جزاءً على شِركهم واتِّخاذهمُ الأندادَ مِن دونِ اللّه سُبحانه.

وفي عطفِ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ على الجملةِ قبلَها تأكيدُ اختصاصِ اللّهِ وحدَهُ بالحِفْظِ والإحْصاءِ لأعمالهم. والمعنى: أمّا أنتَ فلستَ بَوكيلٍ عليهِم، ولم يوكِّلوكَ لتَحْصيلِ منافعِهم، وإذا كان كذلكَ؛ فلا تَبِعَةَ عليكَ مِنْهُم ولا تقصيرَ؛ لانتفاءِ سَبَبَيِ التَّقصير؛ إذ لستَ في مقام الحفيظِ ولا الوكيل عليهم[1].

الغَرَضُ من النَّفْيِ بـ (ما):

ما عَلى الرَّسولِ إلّا البلاغُ

جاء نفيُ وصفِ الوكيلِ عنِ النَّبيِّ ﷺ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾؛ لإرادة تأكيدِ نفي الملامَةِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، ورفع التَّبِعَةِ عنهُ ﷺ جَرّاءَ عدمِ اسْتِجابَتِهِم للتَّوحيد، وذلكَ لأنَّ في (ما) مَعْنى التَّأكيد، كما قالَ سيبَوَيْه: "وإذا قالَ: (لقَدْ فَعَلَ)؛ فإنَّ نَفْيَهُ: (ما فَعَلَ)؛ لأنَّه كأنَّه قالَ: (واللّهِ لَقَدْ فَعَلَ)، فقالَ: (واللّهِ ما فَعَلَ)"[2]، فَهيَ آكَدُ في النَّفْيِ مِنْ (لَمْ)[3]. وكذلك النَّفْيُ بـ (ما) يَرِدُ غالِبًا في سياق المُحاجَّة، كأنّه قيل: أنتَ وكيلٌ على إيمانِهم، فجيءَ بالنَّفْيِ إبطالًا لذلك، والمعنى: لستَ عليهم بوكيل، فلا تخشَ أنْ نسألك عَنْ عدم اهْتِدائِهم؛ لأنَّ الذي عليكَ هوَ البَلاغُ[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بضَميرِ الخِطاب ﴿أَنتَ﴾:

جاء المسندُ إليهِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 427.

(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 569.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 34.

ضميرَ خِطاب ﴿أَنت﴾، مُرادًا به النَّبيُّ ﷺ؛ تشريفًا لَهُ بالخطاب، وإعلاءً لقَدْرِه العَظيم، وإظهارًا لاختصاصِه بمُهِمَّة البلاغ دونَ سِواها، ورفعَ التَّبِعَةِ عنهُ ﷺ بِسبَبِ عدمِ استجابتهم للحَقِّ(1).

تَشريفُ النَّبيِّ ﷺ، وبيانُ عُلوِّ قَدْرِه

الغَرَضُ من تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِم﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قولِ اللّه سُبْحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ لإرادة الاهتمام بنَفْي كونِه ﷺ حفيظًا على المُشْرِكين، وللدّلالة على القَصْرِ، وهو قصرُ قَلْبٍ، فقد نُزِّلَ الرَّسولُ ﷺ منزلَةَ مَن يَظُنُّ أنَّه وكيلٌ على إيمانِهم، ونتجَ من هذا التَّنزيلِ تعريضٌ بأهلِ الشِّرك، بأنَّهم لا يَضُرّون النَّبيَّ ﷺ، إذا لم يتّبعوهُ ويُصَدِّقوه(2).

التَّعريض بالمُشْرِكين بأنَّ وبالَ ضَلالِهِم راجِعٌ إليهم وحْدَهُم

مَعْنى الباءِ ودِلالَتُها في ﴿بِوَكِيلٍ﴾:

الباء في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ يُراد بها تأكيدُ نفي كونِ النَّبيِّ ﷺ وكيلًا على هؤلاءِ، وهذا التَّأكيدُ واردٌ لقَصْدِ العِنايَة بمَضْمونِ الجُمْلَة؛ إذْ مِنْ طريقَةِ القُرآن أنَّ الجُمَلَ التي يَحْتاجُ سياقُها إلى توكيدٍ شديد؛ يأتي اسْتِعْمالُها منفيَّةً بـ (ما) ثُمَّ تُعقبُ بالباء؛ زيادَةً في التَّوكيد، وتقويةً للكلامِ(3).

زيادَةُ الاهتمامِ بِمَضْمونِ الجُمْلَةِ

دلالةُ تنكيرِ (وكيل):

جاءَ لفظُ (وكيل) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ مُنَكَّرًا؛ لإفادة العموم والشُّمول؛ لأنَّه نكرةٌ في سياق النَّفي بـ (ما)، وذلك ممّا يدلُّ على العموم، فيكون المَعْنى نفيَ أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ الوَكالَةِ، سواءٌ أكانت عامَّةً أم خاصَّةً، والمرادُ: لستَ مسؤولًا على إجبارهم على الإيمانِ أو مُحاسبتِهم، وإنَّما وظيفَتُك البلاغُ والإنذارُ لا غير(4).

عُمومُ النَّفي وشُمولُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 35.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 255.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 14.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشّورى: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ البِشارَةِ والنِّذارة

لمّا كان الإيحاءُ المَذْكورُ أوَّلَ السّورةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ يُراد به البُشْرى؛ إذ هي الأمرُ المَقْصودُ أصالةً، وأعقبَهُ بنَفْيِ الوكالةِ عن النَّبيِّ الكريم ﷺ، إذْ ما عليهِ إلّا البلاغُ بالبِشارَةِ والنِّذارة[1]؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ البِشارةَ والنِّذارة، فالبِشارةُ في إيحاءِ القُرآن الكريم إليهِ، والنِّذارةُ في تخويفِ العِبادِ من سخَطِ اللّه تعالى وغضبِه، وتخويفِهمُ اليومَ الآخِرَ، فقال سُبْحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾: (أم): تَدور اشْتِقاقاتُها على تَضامِّ شيءٍ أو أشياءَ متجانِسَةٍ، بمعنى: لحاقِ بعضِها ببعض في حيّز يُحيط بظاهِرها بلُطْف. ومنه سُمّيت الوالدَةُ: أُمًّا؛ لأنَّ أولادها مرتبطونَ بها، وهي أصلهُم ومَجْمَعُهم؛ لأنَّهم كانوا في بَطْنِها[2]. والقُرى: جمعُ قريَةٍ، وتدلُّ تصاريفُها على الاجتماعِ، ومنه القَريةُ، فإنَّها إنَّما سُمّيت بذلك لاجتماعِ النّاس فيها[3]. وهذا التَّركيب "أمُّ القُرى" يُراد به: مكَّة المكرَّمة، وقيل لها ذلكَ لأنَّها أصلُ القُرى؛ لكونِ الأرضِ دُحيت مِن تَحْتِها[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 248.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قري).
(4) الأنباريّ، الزّاهر: 2/ 101.

2) ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾: اليوم: هو المُدَّة الممتدَّةُ مِنْ طُلوعِ الفَجْرِ - وقيل: مِن طلوع الشَّمس[1] - إلى غُروبِ الشَّمْسِ، وقَدْ يُطْلَقُ على ما يَعُمُّ اللَّيْلَ والنَّهارَ[2]، ويُطلق على مُدّةٍ مِن الزَّمانِ أيًّا كان مقدارُها[3]. فأمّا الإطلاق الأوَّل؛ فَكالوارِدِ في قول الله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: 18]، وكالذي في قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 183 - 184]. وأمّا الإطلاق الثّاني؛ فكالوارِدِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [آل عمران: 41]؛ فإنَّ المُراد باليَوْمِ ما يَعُمُّ اللَّيْلَ كذلِكَ، كما دلَّت على ذلك آيةُ سورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: 10]. وأمّا الإطلاقُ الثّالث؛ فَكالوارِدِ في قوله ﷻ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ [البقرة: 254]. والمرادُ باليَوْمِ في ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾: مُطْلَقُ الوقت؛ وحقيقتُهُ: المُدَّةُ الممتَدَّة من مَبْدَأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الجنَّةِ في الجنَّة، وأهلِ النّار في النّارِ. والجَمْع: تدور مادَّتُهُ على تضامِّ الشَّيءِ. و﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ هو يوم القيامَةِ[4]، وسُمّي بذلك لأنَّ الله تعالى يجمَعُ فيه الخلائقَ للحساب.

3) ﴿رَيۡبَ﴾: (ريب) تدلُّ تَصْريفاتُها على شَكٍّ، أو هوَ: الشَّكُّ مَعَ تُهَمَةٍ، ويُطلَق على الشَّكِّ معَ خوفٍ، يُقال: رابَهُ الأَمْرُ؛ إذا أَدْخَلَ عَلَيْهِ شَكًّا وخَوْفًا، وأصلُ الرَّيْبِ: أَنْ يَنْزِلَ بالقارِّ السّاكنِ ما يُزْعِجُه ويَسوءُه[5]. والرَّيب في قولِ الله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ الشَّكُّ، والمعنى: لا شكَّ فيه.

4) ﴿فَرِيقٞ﴾: (فرق) تَدورُ اشْتِقاقاتُها على تمييزِ بينَ شيئين، ومنهُ: الفِرَقُ، وهو الفِلْقُ من الشّيءِ إذا انفلقَ، كما قال الله سُبحانه: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشّعراء: 63]. والفِرقَةُ: طائفَةٌ مِنَ النّاسِ، والفَريقُ: بمعناهُ، ويكون الفريقُ مِنَ النّاسِ

(1) ذكره الرّاغب في المفردات: (يوم)، وجعل القِنَّوْجِيُّ في فتح البيان: 1/ 47 هذا المعنى عُرفيًّا، وبدء اليوم من طلوع الفجر معنًى شرعيًّا، واستدرك السّمين في الدُّرِّ المصون: 1/ 52 على الرّاغب في جعلِهِ مَبْدَأَ اليومِ طلوعَ الشمسِ، فقال: "وهذا إنَّما ذكروهُ في النَّهارِ لا في اليَومِ".

(2) الفَيّوميُّ، المصباح المنير: (يوم).

(3) الرّاغب، المفردات: (يوم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (جمع).

(5) ابن دُريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ريب).

وغيرِهم[1]. والفريقُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ الجماعَةُ المُنْفَرِدَةُ عن غَيْرِهم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ غايَةٍ مِنْ غاياتِ إنْزالِ القُرآنِ الكَريمِ

يَذْكُر اللّهُ سُبحانَهُ أنَّه أوحى إلى نبيِّهِ مُحَمَّد ﷺ قرآنًا عربيًّا، كما أوحى إلى الأنبياءِ مِنْ قَبْلِه؛ ليكونَ هذا القُرآن وسيلَةً لنِذارَةِ أهلِ مكَّةَ – أمِّ القُرى – ومَن حولَها مِن سائر الأقوام. ويُنذرَ بهِ أيضًا العذابَ الحاصلَ يومَ القيامةِ، الذي لا شَكَّ في وقوعِه؛ حيثُ ينقسِمُ النّاس فيه إلى فَريقَيْنِ؛ فريقٍ نالَ رِضا اللّهِ تَعالى فاسْتَقَرَّ في الجنَّة، وهُم أهلُ الإيمانِ الذين اتبَّعوا الرَّسولُ ﷺ، وفَريقٍ آخرَ كَفَر باللّه ﷻ وعصى رسولَهُ ﷺ، فأُدْخِل النّارَ المُسْتَعِرَةَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

التَّناسبُ اللَّفظيُّ والمعنويُّ لآيِ القُرآنِ الكريمِ

الواوُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُمْلَة: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكمالَيْنِ؛ وذلكَ لاتِّحادِهما في الخبريَّة، ولِما بينَهُما من التَّناسُب اللَّفظيِّ والمَعْنَويِّ، فأمّا اللَّفْظيُّ: فاشتراكُهما في الفعليَّةِ؛ لتعلُّق (كذلك) في الآيتينِ بمَحْذوفٍ هو مفعولٌ مطلق، وأمّا التّناسب المعنويُّ؛ فبالنَّظر إلى المُغايرة بين الجملةِ المَعْطوفَةِ والجُملة المعطوفِ عليها، وذلك لِما اشْتَمَلَت عليهِ الجُمْلَةُ المعطوفَةُ من بيانِ كونِ الموحَى بهِ إلى النَّبيِّ ﷺ قرآنًا عربيًّا، وما تضَمَّنَتْهُ الجُمْلَةُ المَعْطوف عليها مِن كونِ الموحَى إليهِ مِن جنسِ ما أوْحى بهِ إلى الأنبياءِ قبلَهُ[4].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (فرق).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 483.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 35.

الغرَضُ مِن التَّعبير باسْمِ الإشارَةِ، وبيانُ المُشار إليهِ:

بيانُ عُلوِّ شأنِ القُرآن الكريمِ وسُموِّ قَدْرِه

اسْمُ الإشارة (ذلك) من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ دالٌّ على البُعْد، وفي اسْتِعْمالِه إيماءٌ إلى رِفْعَةِ شأنِ الوَحْي المُنْزَلِ على النَّبيِّ الكريم مُحَمَّدٍ ﷺ وعظيم مكانَته، والمُشارُ إليه هو الوحيُ المتقدِّم في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾؛ وإنَّما كُرِّر ليُبْنَى عليه بيانُ الوَحْي، وأنَّه قرآنٌ عربيٌّ؛ وذلك لِما حالَ بينَهُما من الفَصْل، وأصلُ النَّظم: كذلك يوحي إليك اللّهُ العزيزُ الحكيم قرآنًا عربيًّا. معَ ما في التَّكرار من التَّأكيد؛ تقريرًا لذلك المَعْنى أتمَّ تقريرٍ[1].

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، وإسْنادِهِ إلى ضميرِ العظَمَة:

أعظَمُ الوَحْيِ ما أوحاهُ اللهُ تَعالى إلى نبيِّه محمَّدٍ ﷺ

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن فعل الإيحاءِ بالفِعْلِ الماضي ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ للدّلالة على تحقُّق وقوع فعل الإيحاءِ وتحقُّق نزول الوحي؛ ليكونَ ذلك أبْيَنَ في تفخيم شأنِه. وأُسْنِد فعلُ الإيحاء إلى ضميرِ العظَمة (نا) في ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ للدّلالَةِ على عظَمَة الموحي سبحانه، وجلالةِ الموحَى به، وهو القرآنُ الكريم، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ شريعتَهُ ﷺ هي الشَّريعة المُعْتَنى بِها غايةَ الاعْتِناء[2]. وفي هذا الإسنادِ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التَّكلُّم[3]؛ إذ مُقْتَضى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وكذلك أوحى إليكَ قرآنًا عربيًّا)؛ لتقدُّم ذِكْرِ الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) في الجُمْلَة قبلَهُ: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾، وأوثِر الالتفاتُ إلى التَّكلُّم لأنَّه أدخَلُ في بيانِ العظَمةِ والجلالِ لمنزلَةِ الوَحْيِ الإلهيِّ.

الغرضُ مِن تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المَفْعولِ ﴿قُرۡءَانًا﴾ في قولِ اللّهِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 35.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 22.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 35.

تَعْظيمُ شأنِ النَّبيِّ ﷺ، وبيانُ رِفعَةِ قَدْرِه

تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ لإرادة الاهتِمامِ بالمُقدَّم وهو النَّبيُّ ﷺ؛ تعظيمًا لقَدْرِه، وبيانًا لرِفْعَةِ شأنِه، لا لإرادَةِ القَصْرِ والاخْتِصاص؛ إذِ الذي أوحاهُ اللهُ تَعالى إلى نبيِّه ﷺ ليس مُخْتَصًّا بالقرآن الكريم، فإنَّ السُّنَّة الشَّريفةَ وحيٌ ثانٍ[1]. وفي التَّعبير بلفظ القرآنِ على المَقْروءِ مبالغةٌ في اتِّصافه بالمَقروئيَّة؛ لكثرةِ ما يُقْرَأ، وما كَثُرَت قِراءَتُه إلّا لمكانِهِ مِنَ الحُسْنِ والفائِدَةِ، فكانَ هذا الاسمُ مُشْتَمِلًا على معنى الكمالِ من بينِ سائِرِ المَقْروءات[2].

الغرضُ مِن تنكيرِ المُعولِ بِه، وسِرُّ تَقْييدِهِ بالوَصْفِ ﴿عَرَبِيًّا﴾:

تعظيمُ القُرآنِ الكريمِ وتفخيمُ شَأْنِه

نُكِّر لفظُ القرآنِ من قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ تعظيمًا وتفخيمًا لشأن القرآنِ الكريم؛ إذْ هو الكتابُ الجامِعُ لكُلِّ حِكْمَة[3]. وقُيِّد المفعولُ به ﴿قُرْءَانًا﴾ بالوصْفِ ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ ليكونَ ذلك أليقَ بحالِ المُنْذَرين به وأنسَبَ، لما اقْتَضَتْهُ الحكمَةُ الإلَهيَّة مِن اختيارِ العرَب ليكونوا أوَّل مَن يتَلَقّى الإسلامَ وينشرُه بين سائرِ الأُمَم، ولو روعيَ فيه جميعُ الأُمم المخاطَبَةِ بدعوةِ الإسلام؛ لَلَزِمَ منه أن ينزل بلُغات لا تُحْصى، فلذا اختارَ اللّه سُبْحانه لهذا القرآنِ أفضلَ اللُّغات، واختار إنزالَه على أفضلِ البَشَرِ ﷺ[4]. وفي وصفِ القرآن بكونِه عربيًّا إيماءٌ إلى فصاحة ألفاظِه وإبانَتِها؛ وهو ما يدُلُّ عليه أصلُ لفظِ (عرب) المفيدِ الإفصاحَ والبيانَ[5].

معنى اللّامِ ودِلالَتُها في ﴿لِّتُنذِرَ﴾:

بيانُ سبَبِ الإيحاءِ وغايَتِه

اللّامُ الدّاخلة على الفِعْلِ الإنذار ﴿لِّتُنذِرَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّعليلِ، وبعدها

---

(1) حكمي، معارج القبول: 3/ 1225.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 35.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 249.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 36.
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عرب).

(إن) مضمرَةٌ تنصِبُ الفِعْلَ المضارِعَ بعدَها، وتُسبك معه بمصدرٍ، والتقدير: لإنذارِ أُمِّ القُرى. واللّامُ هُنا تدلُّ على الإفصاح عن سبب الإيجادِ وإرسال النَّبيِّ الكريم ﷺ. فكان قوله: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ خطابًا لِلرَّسولِ ﷺ، والمعنى: أوحينا إليكَ أيُّها النَّبيُّ الكريمُ قُرآنا عربيًّا لإنذارِ أمِّ القُرى ومَن حَوْلَها[1].

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المُضارِع (تنذر):

تجدُّدُ الإنذارِ بتجدُّدِ نُزولِ الوَحْيِ

عُبِّر عن الإنذارِ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارع (تنذر)؛ لإفادَةِ اسْتِمْرارِ الإنذارِ وتجدُّدِه بتجَدُّد نزولِ الوحي. واختيرت مادَّة الفعلِ (نذر)؛ لدِلالتها على الإعلامِ المَقْرونِ بالتَّخويف، وذلك ملائمٌ لحالِ المُنْذَرين من أهلِ مكَّة ومَن حولَها؛ إذْ هُم المَقْصودونَ بالرَّدِّ عليهم لإنكارِهم رسالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ[2].

دلالةُ حذفِ المُضافِ في ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾، ونُكْتَةُ تَخْصيصِها بالإنْذارِ:

عمومُ النِّذارة والبِشارَةِ لِجَميعِ المُكَلَّفينَ

في قول الله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ حذفُ مضافٍ، والتَّقدير: لتُنْذِرَ أهلَ أمِّ القرى، فيكون من إيجازِ الحَذْفِ، وقرينَةُ الحذفِ: ما تقرَّر من أنَّ الأبنيةَ لا تُنذَرُ[3]. ويجوز أن يكونَ مجازًا مرسلًا، بعلاقةِ المحلّيَّة؛ فقد ذُكِرَ المَحلُّ - وهو أُمُّ القرى - ، والمرادُ الحالّون بها وهُم أهلُها. وتخصيصُ أمِّ القُرى ومَن حولها بالذِّكر في الإنذار؛ لكونِهم أقربَ النّاسِ إلى النَّبيِّ ﷺ، كما قال اللّهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشّعراء: 214]. والاقتصارُ على إنذارِ أُمِّ القرى ومَن حولَها لا يَقْتَضي تخصيصَ إنذارِ الرَّسولِ ﷺ بأهل مكَّة ومَن حولها، ولا تخصيصَ الرَّسولِ ﷺ بالإنذار دونَ التَّبشير للمؤمنين؛ لأنَّ تعليل الفعلِ بعِلَّةٍ باعثِه لا يستلزم أن يكون الفعلُ المُعلَّل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 36.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 583.

مخصَّصًا بتلك العِلَّة ولا بمتعلّقاتها؛ إذ قد يكون للفعل الواحد عِللٌ باعثَة؛ وإلّا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ أُرْسِل إلى النّاس كافَّة، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28][1]. والاقتصارُ على ذِكر النِّذارة اكتفاءٌ، وإلّا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يُنْذِر ويُبَشِّر، واقتُصِر على ذِكْر النِّذارة هاهنا لكونِها أنسبَ لمَقام التَّهديد الذي سيقَت الآياتُ لَهُ.

دلالَةُ العَطْفِ في ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾:

إبْطالُ وهْمِ اليَهودِ وغيرِهم مِن أصنافِ الكَفَرةِ

جاء قول اللّهِ تعالى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ معطوفًا على لفظِ (أهل) المحذوفِ، والتَّقديرُ: ولتنذر مَنْ حول أمِّ القرى[2]. وأفادَ هذا العطفُ على أنَّ أهل مكَّة ومَن حولها هم المخاطبون بالدّين ابتداءً[3]، أو يكون المقصود بـ ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ جميعَ الأرض التي مكَّة هي أمُّها وأصلُها، وفيه الرَّدُّ على زعم طائِفَة مِنَ الكفّارِ - يهودًا وغيرَهُم - الزّاعمين أنَّهُ رَسولٌ إلى العَرَبِ وحدَهُم، جاعلين (مَنْ حَوْلَها) القُرى المُحيطَة بها؛ وهيَ جَزيرَةُ العَرَبِ[4]. وفي هذا العطفِ إيماءٌ إلى التَّدرُّج في الإنذارِ، فيُبْدَأُ في الإنذارِ بِأُمِّ القُرى، ثُمّ يَعُمُّ الإنذارُ الأرضَ.

الغرضُ من التَّعبير بالاسمِ المَوْصولِ (مَن):

عمومُ الوحيِ والرِّسالةِ لأهلِ الأرضِ كلِّهم

(مَنْ) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ اسمٌ موصولٌ، وعُبِّر به لإفادَةِ العُموم والشُّمول، قصدًا إلى التَّنصيص على بُلوغِ الإنذارِ لكُلِّ فردٍ مِنَ الأفرادِ المَوْجودين حولَ أمِّ القُرى؛ وهُم أهلُ الأرضِ جميعًا[5]. وفي الإتيانِ بالاسمِ الموصولِ (مَن) - مع ما تضمَّنه من معنى الشُّمول والعمومِ - تصحيحٌ للنّظم على طريقة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 36.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/ 39.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 36.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 249، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 583.

(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 142.

العرب، وذلك لأنّ ﴿حَوۡلَهَا﴾ ظرفٌ، وهو لا يستقيم عطفُه على ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وإن كان مِن حيثُ المعنى يصحُّ، إلّا أنّه لو عُطِف ﴿حَوۡلَهَا﴾ - وهو ظرفٌ - على ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ لَلَزِم أن يكونَ ﴿حَوۡلَهَا﴾ مفعولًا به؛ لِعَطْفِه على المفعولِ بهِ ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وهذا لا يجوزُ في العربيَّةِ؛ لأنَّ فيهِ إخراجَ اللَّفظِ عَنِ الظَّرفيَّة، واستعمالُهُ لَم يَرِد إلّا مُلازمًا لَها، غيرَ متصَرِّف فيه بغَيْرِها[1].

دلالَةُ التَّعبير بالظَّرف المُضافِ ﴿حَوۡلَهَا﴾:

التَّأكيدُ على عُمومِ الرِّسالة الإسلاميَّة لأهْلِ الأرْضِ

جاء التّعبيرُ بالظَّرف ﴿حَوۡلَهَا﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾، وهو ظرفٌ لا يتصرَّف، والعاملُ فيه فِعْلٌ مُضْمَرٌ، تقديرُه: ومَن استقَرَّ حولها[2]، وإضافتُه إلى الضَّمير يُفيد العمومَ والشُّمول، فيَعمُّ جميعَ البِقاع الكائنة حولَ مكَّة المُكرَّمة؛ فيكون في الآيةِ دليلٌ آخَرُ - يُضاف إلى دلالة الاسمِ المَوْصول (مَن) - على عموم رسالَةِ النَّبيِّ ﷺ لأهل الأرض كُلِّهم.

معنى الواوِ ودِلالَتُها في ﴿وَتُنذِرَ﴾:

المُبالغَةُ في إنذارِ العِباد عُمومًا وخُصوصًا

الواو في قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَتُنذِرَ﴾ عاطفةٌ ما بعدَها على قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وفي العطفِ تخصيصُ يومِ القيامة بالذِّكر؛ تخويفًا للنّاس منهُ وترهيبًا لهم مِن عذابِه، وزيادةً في التَّهويل، وبيانًا لعظَمةِ ما يقع فيه مِن أحداثٍ، فإنذارُ أمِّ القُرى عامٌّ، وإنذارُ النّاسِ يومَ القيامة خاصٌّ[3].

دلالَةُ تَكرارِ فعلِ الإنذارِ:

تفخيمُ شأنِ اليومِ الآخِر وتهويلُ أمرِه

كُرِّر فعلُ الإنذار (تنذر) في قول اللّه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾، مع تقدُّم ذِكْرِه قبلُ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 583.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 322.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 15.

﴿حَوۡلَهَا﴾؛ زيادةً في الإنذارِ ومبالغةً فيه، وبيانًا لعظمَةِ أهوالِ ذلك اليومِ؛ لأنَّ إفرادَهُ بالذِّكر يدلُّ على تهويلٍ وتفخيم[1]. وفي إفرادِ يوم القيامةِ بالذِّكرِ مقرونًا بفعل الإنذار مكرَّرًا ردٌّ على المُشْرِكين في إنكارِهِم ذلك اليومَ، ولذا قال بعدَهُ: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾، كما أنَّ في ذِكْرِ يوم القيامةِ توطِئَةً لذِكْرِ أحوالِ النّاس في ذلك اليومِ العَظيم في قول اللّه تَعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾.

بلاغَةُ الاحتباكِ في الآيَةِ:

الحذفُ أبلَغُ في إفادَةِ التَّخويفِ والتَّهويلِ

فعلُ الإنذارِ في قول اللّه تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ يتعدّى إلى مفعولَيْن، وقد اقْتُصِر في كلِّ جُملة مِنْ جُملتَي الآية بمفعولٍ واحدٍ، وطوي الآخَرُ، ففِعْلُ الإنذارِ الأوَّلُ في ﴿لِّتُنذِرَ﴾ ذُكر المفعولُ الأوَّل وحُذف الثّاني؛ والمَعْنى: لِتُنْذِرَ أهلَ أُمِّ القُرى العذابَ، واقْتُصِر في (تُنْذِر) الثّاني على المفعول الثّاني؛ إذِ التَّقديرُ: تنذر النّاسَ يومَ الجَمْع[2]. فكان ما أُثْبِت في كلٍّ منهما دليلًا على ما حُذِف في الآخَر، وهو المسمّى احتباكًا أو حَذفَ التَّقابل؛ فقد ذُكِر المُنْذَرون أوَّلًا دلالةً على إرادتهم ثانيًا، وذُكِر المُنْذَر بهِ وهو يوم الجمعِ ثانيًا دلالة على المُنْذَرِ بِهِ من عذاب الأمم أوَّلا، ليذهب الذِّهْنُ في المحذوفِ كلَّ مذهب، فيكون أدخَلَ في التَّهويلِ والتَّخويفِ[3].

الغرَضُ مِن الإضافَةِ في ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾:

سَبْقُ الإنكارِ يَقْتَضي زيادةَ التَّهْديدِ

أُضيفَ ﴿يَوۡمَ﴾ إلى ﴿ٱلۡجَمۡعِ﴾ في قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾؛ لإثارة الرَّهبة والجلالِ في النّفوس؛ وليشملَ جميعَ ما يُمكن أن يُنْذَرَ به ممّا يقعُ في يوم الجَمْع؛ من الحساب والجزاءِ، وانقسامِ النّاس فريقين، واجتماعِ الأرواحِ بأجسادها، واجتماعِ أهل الأرض بأهل السَّماء،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 15، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 37.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 27.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 250.

واجتماعِ النّاسِ بأعمالِهِم التي عملوها في الدُّنيا[1]. وفي الإضافةِ أيضًا زيادةٌ في تقريعِهم والتَّنْكيلِ بِهِم وتَهْديدِهِم، لِما تقدَّم مِن إنكارِهم لِهَذا اليوم، كما حكى اللّهُ تعالى عَنْهمُ في موضعٍ آخر: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام: 29][2].

الغَرَضُ مِن جملة ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾، وبيانُ موقعِها:

ظُهورُ أدِلَّةِ يوم القيامَةِ ظُهورًا لا لَبْسَ فيهِ

جملةُ ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ مِن قول اللّهِ تَعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ وقعَت اعتراضًا لتَقْريرِ ما قبلَها[3]، ومَعْنى ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾: أنَّ أدلَّتَهُ تنفي الشَّكَّ في وقوعِه، فنُزِّل ريبُ المُرْتابين منزلةَ العدَمِ؛ لأنَّ موجِبات اليقينِ بوُقوعه بيِّنة، وظَرفيَّة الرَّيب المَنفيِّ في ضمير اليوم هوَ مِنْ باب إيقاع الفِعْلِ ونحوه على اسم الذّات، والمقصودُ: إيقاعُه على بعضِ أحوالِها التي يدلُّ عليها السّياقُ والحالُ، والمعنى: لا ريبَ في وُقوعِه[4].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿لَا﴾ النّافيَةِ للجِنْسِ:

يـومُ القيامَةِ حقٌّ ثابِتٌ، وهو مِـن مُقْتَضيات الحِكمَةِ الإلهيَّة

آثَر البيانُ القرآنيُّ في التَّعبير عن نفي الرَّيْبِ من قول اللّهِ تَعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ الإتيانَ بـ ﴿لَا﴾ النّافية للجنسِ؛ لنَفْيِ ما يمكن أن يختلج في النّفس من شكٍّ أو وهمٍ في تحقُّق وقوع ذلك اليوم؛ إذ مِن كمالِ عدل اللّه تَعالى أن يجمعَ النّاس، ثُمَّ يُجازيهم على ما كان مِنْهُم؛ لأنَّه قد رَكَز في فطرة كلِّ أحدٍ أنَّ الحاكِمَ إذا اسْتَعْمَل عبيدَهُ في شيءٍ، ثُمَّ صدرَ بينهم ظُلْمٌ، فإنَّه يتعيَّن عليهِ وفق مقتضياتِ السّياسة أن يَجْمَعَهُم؛ ليحقِّق العدْلَ بينَهُم وإلّا عُد سفيهًا غيرَ حكيمٍ، فما الظَّنُّ بأحْكَمِ الحاكمينَ ﷻ[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 324.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 44، والماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 53.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 23.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 38.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 250.

تقليلُ اللّفظِ إيجازًا واختِصارًا

الغرَضُ مِن حَذْفِ خبَرِ ﴿لَا﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، فقد حُذِفَ خبرُ لا النّافية للجنسِ؛ لظهور ما يدلُّ عليه، والمعنى: لا رَيْبَ كائنٌ في وُقوعِه[1] وتحقُّقِه ومَجيئِه. فكان في هذا الحَذفِ تأديَةٌ للمَعْنى، مع طيٍّ ما لا يتوقَّف المَعْنى عليهِ مِنَ اللّفظ إيجازًا.

بيانُ أصْنافِ النّاسِ يومَ القيامَةِ ومآلاتِهم

موقعُ جملةِ ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ ممّا قبلَها، ودِلالَتُه:

الجملة ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ مستأنفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، وعُطِف عليها جُمْلَة ﴿وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾؛ فصار مجموعُ قولِ اللّه تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ واقعًا جوابًا عَنْ سؤالِ سائلٍ عن شأن هذا الجمعِ، أي: ما شأنُ هذا الجمعِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾، أو لسُؤالِ سائلٍ: ما حالُ هذا الجَمعِ؟ وهذا إذا حُمِلَ لفظُ ﴿ٱلۡجَمۡعِ﴾ على معنى: المَجْموعينَ، فجاء الجواب: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: فريقٌ مِنْهُم في الجنَّة وفريق مِنْهُم في السَّعير[2].

دُخولُ الجنَّة فضلٌ، وصَلْيُ النّارِ عدلٌ

دلالَةُ تَنْكيرِ لفظِ ﴿فَرِيقٞ﴾ في المَوْضعَيْن:

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿فَرِيقٞ﴾ مُنَكَّرًا في المَوْضِعَين؛ للدّلالَةِ على التَّعظيم والتَّحقير، فالفريقُ الأوَّلُ: فريقٌ عظيمُ الشّأن جليلُ القَدْرِ، ومآلُهُ الجَنَّة. والفريقُ الآخَرُ: فريقٌ حقيرُ المكانة سافِلُ المَنْزِلَة، مآلُهُ جَهَنَّم. وسَوَّغ الابتداءَ باللّفظ مُنَكَّرًا وقوعُه في سياق التَّفصيل والتَّقسيم لأصنافِ النّاس في الآخِرَة[3]؛ ففريقٌ مِنَ المَجْموعينَ هُم أهلُ فُرْقَة؛ تَدارَكَهُم اللّه تعالى بأنْ جَعَلَهُم أهلَ جَمْعٍ في الجنَّة فضلًا منهُ ومنَّةً، وفريقٌ آخَرُ خَذَلَهُم اللّهُ سُبْحانَه، فازْدادوا فُرْقَةً في السَّعير؛ عدلًا مِنْهُ ﷻ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 8، والسّمين، الدّرّ المصون: 1/ 83.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 37.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 334.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 251.

دِلالَةُ العَطْفِ في قوله: ﴿وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾:

الجَزاءُ مِن جِنْسِ العمَلِ

الواوُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جملةِ ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ﴾؛ لِما بينَهُما من التَّوسُّط بين الكمالَين؛ إذِ الجُملَتان اشتركَتا في الخبريَّة، وبَيْنَهُما تناسبٌ في اللَّفظ، وهو كونُهما جملتَيْنِ اسْميَّتَيْن، واتَّحد فيهما المسنَدُ إليهِ ﴿فَرِيقٌ﴾، وبينَهُما تناسُبٌ في المعنى؛ وهو التَّضادُّ، فالجملة الثّانية ﴿وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ واردةٌ لبيانِ مُقابلِ الفريقِ الأوَّلِ في قولِه: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ﴾، فكما كانوا في الدُّنيا فريقَيْن؛ فريقًا في راحةِ الطّاعة ولذَّة العبادة، وفريقًا في ظُلمة الشِّرك ومَرارة الجَحْدِ والشَّك؛ كانت عاقِبَتُهم في الآخرة أن يكونوا فَريقَيْن[1].

معنى ﴿فِي﴾ ودِلالَتُها:

اسْتِقْرارُ كُلِّ فريقٍ فيما يَليقُ بأعمالِه

﴿فِي﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الظَّرفية، وهي في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ تدلُّ على التَّمكُّن والاستقرارِ التّامِّ، فأهلُ الإيمانِ والعمَلِ الصّالح مُتَمَكِّنون في الجنَّة على وجهِ التَّنعُّم، مستقرّون فيها بالخُلود الأبديِّ، وأهل الكُفْر مُتَمَكِّنون في النّار على وجهِ العَذاب، باقون فيها أبدَ الآبِدينَ.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾:

إظهارُ تبايُنِ المَصيرَيْن؛ مصير أهلِ الإيمانِ ومَصيرِ أهلِ الكُفْرانِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ طباقُ إيجابٍ بين كَلِمَتَي ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾؛ حيثُ يُمَثِّلان مَعْنَيَيْنِ مُتَضادَّين، والغرضُ من هذا الطِّباق بيانُ انْحصارِ الجزاء والمآل في ذلك اليومِ في هَذَين المكانَيْن؛ فالنّاسُ بعد جَمْعِهم في المَوْقف ثُمَّ تفرُّقِهم بعدَ الحِسابِ؛ إمّا أن يكونَ مآلُهم الجنَّةَ، وإمّا أن يكونَ مآلُهم النّار[2].

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 343.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 15.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ [الشّورى: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَشيئةُ اللهِ تَعالى غالبَةٌ، لا يَخْرُج عنها شيءٌ

لمّا ذكَر اللّهُ تعالى تقسيمَ النّاس في مآلِهم في الدّار الآخِرَةِ إلى فريقٍ في الجنَّة وفريقٍ في السَّعير؛ اقتضاءً لمشيئَتِه وتَدْبيره وحِكْمَتِه؛ جاءَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُؤَكِّدًا أنَّ هذا التَّقسيمَ إنَّما هو بحسَبِ حِكْمَتِه سُبْحانَه، ولو شاءَ ﷻ لجَعلَهُم أمَّةً واحدَةً على الحقِّ، غيرَ أنَّه لَم يشأ ذلكَ كونًا، بَل قدَّر اختلافَهُم ليتَحَقَّق وعدُه ووعيدُهُ، وتَظْهَرَ آثارُ طاعَتِه ومعصيَتِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةً﴾: (أم) تدلُّ تصريفاتُها على تَضامِّ شيءٍ أو أشياءَ مُتَجانِسَةٍ، بمعنَى: لَحاقِ بعضِها بِبَعْضٍ في حيِّزٍ يُحيط بظاهِرِها بِلُطْف[1]، ومنه الأُمُّ؛ فإنَّ العرَبَ تسمّي كلَّ شيءٍ يُضَمُّ إليه سائرُ ما يليهِ أُمًّا[2]. وذكر ابنُ قُتيبة أنَّ الأصلَ في الأُمَّةِ الجماعَةُ والصِّنْفُ مِنَ النّاس[3]. وتَرِدُ الأمَّة في القرآنِ الكريم على خمسَةِ معانٍ؛ هي: الجماعة، والمِلَّة، والزَّمن، والإمامُ، والصِّنْفُ[4]. والأُمَّة في قوله تعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بمعنى: الجماعَةِ والصِّنْفِ مِنَ النّاسِ، أي: لجعلَهُم جماعَةً واحدةً على الحقِّ.

2) ﴿نَصِيرٍ﴾: (نصر) تَدورُ حول معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه، بما

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(2) الخليل بن أحمد، العين: (أم).
(3) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 248.
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 143، 144.

فيهِ زيادةٌ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[1]، ومِنْهُ سمّيَ المَطرُ نَصْرًا[2]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخصم عَلَيْهِ في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النّاصر وغلَبَته[3]، ومِنْهُ قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ والكُفْرُ في ميزانِ المَشيئَةِ الإلهيَّة

يوَضِّح اللّهُ تَعالى أنَّه لو شاء لجعل جميعَ الخَلْقِ أُمَّةً واحدة على هُدًى ودينٍ حقٍّ، لكنَّ حِكْمَتَه اقْتَضَت أن يختارَ مَن يشاء من عباده ليُدْخِلَهُم الجنَّةَ؛ لِما قَدَّموه من إيمانٍ وعمل صالِح. أمّا الظّالمون الذين أشْرَكوا وكَفروا بالحقِّ، فلَن يَكونَ لَهُم يومَ القِيامَة وليٌّ يتولّى شُؤونَهُم، أو نصيرٌ يُنْجيهم من عَذاب اللّهِ سُبحانَهُ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ ودِلالَتُها في ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

طَمْأنَةُ قلبِ النَّبيِّ ﷺ والمؤْمِنين

الواوُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدَها على جملة: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾، والغرضُ من هذا العطفِ: إفادَةُ أنَّ كونَهُم فريقَين في الدّار الآخرة أمرٌ قدَّره اللّهُ سُبحانه؛ بأنْ أوجَدَ أسبابَه بِحِكْمَتِه الباهرة، ولو شاء سُبْحانَه لقَدَّر أسبابَ اتِّحادهم على الهُدى، فكانوا في الآخِرَة سواءً في الجنَّة. وهذه الجُمْلَةُ مَسوقَةٌ لغرضِ تسليَةِ النَّبيِّ ﷺ وأهلِ الإيمان على تَمَنّيهم أن يكونَ النّاس جميعَهُم على الهُدى والحقِّ ويكونَ جميعُهُم في الجنَّة[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/ 79، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصر).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(3) الفيّومِيّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 486.
(4) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 483.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 38.

الغرَضُ مِن التَّعبير بالجُملة الشَّرطية:

لا يكونُ في الوُجود شَيْءٌ إلّا بِمَشيئَةِ اللهِ تَعالى

آثَر النَّظمُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بالجُمْلَةِ الشَّرطيَّة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ لإفادة شدَّةِ الارتباطِ بين الشَّرط والجزاءِ؛ إذْ إنَّ (لو) حرفُ شرطٍ غيرُ جازمٍ، يُفيد امتناعَ وقوعِ الجزاءِ لامْتِناع وقوعِ الشَّرط - على المشهورِ -[1]، وذلك يقتضي تحقيقَ التَّعلُّق بينَ مَضْمونِ الشَّرط ومضمونِ الجَزاءِ، والشَّرطُ أدَلُّ وأقوى مِنَ الإخْبارِ المَحْضِ؛ لِما فيه من ربط النَّتيجة بسبَبِها، فانتفاءُ المَشيئَةِ المخصوصةِ أدّى إلى انتفاء جَعْلِهِم أمَّةً واحدَةً على الحقِّ؛ بحيثُ لا يوجد بينهم خلافٌ مطلقًا[2].

دلالَةُ إسنادِ الفِعْلِ إلى الاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

اخْتِصاصُ اللهِ تَعالى بالمَشيئَةِ الكامِلَةِ النّافِذَةِ

جاء فعلُ المَشيئَةِ ﴿شَآءَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُسْنَدًا إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لتَأكيدِ انْحِصارِ المشيئَةِ النّافذةِ الكاملةِ، وأنَّها ليست إلّا للّه تَعالى. فالمَشيئَةُ تتعلّق بعِلْمِ اللّه تعالى، ولذا ناسبَ إسنادَها إلى الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾، وهو الاسم الجامعُ لجميع صفات الجلالِ والجمال والكمال، فهو سُبْحانَه لو شاءَ جَعْلَهُم مُتَّحدينَ؛ لفعَل، ولكنه لم يُرِدْ ذلك لحكمةٍ يعلمُها هو سُبحانَهُ، ففي علمه الأزليّ: أنَّ فريقًا منهم يختارُ الكُفْرَ، ولو جاءَتْهُم كلُّ آيَةٍ[3].

دلالَةُ حَذْفِ مَفْعولِ فِعْلِ المَشيئَةِ:

الحذفُ إيجازًا وتشويقًا

حُذِفَ مفعولُ المشيئةِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، وحَذْفُهُ بعد الشَّرط شائعٌ في كلام العرب[4]، وقصدُهم مِن ذلك: البيانُ بعد الإبهامِ، فيَحذِفونَ المفعولَ في الشَّرط؛ لدِلالة

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 597.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 244.
(3) لجنة من علماء الأزهر، التّفسير الوسيط: 3/ 1230.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 87.

الجزاء عَلَيْهِ[1]. فقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّـهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ولو شاء اللّهُ سُبحانَهُ جَعْلَهُم أمَّةً واحدة؛ لجَعلَهُم كذلكَ. وهذا الحَذْفُ يَبْعَثُ في النَّفْسِ تشويقًا لمعرفة الجوابِ، فإذا جاء الجوابُ؛ وقع على نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ لَهُ، فيتمكَّنُ مِنها غايةَ التَّمكُّن.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾:

شاءَ اللهُ تَعالى اخْتِلافَ النّاسِ وتَبايُنَهُم

اللّامُ في ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً﴾ هي لامُ الجَوابِ[2]، تربِطُ جملةَ الجواب بجُمْلة الشَّرط؛ لإفادة توكيد الجوابِ، وتأكيدِ صلةِ السَّببيَّة بين المشيئَةِ الإلَهيَّة وما يريد اللّهُ تَعالى وقوعَهُ، والمعنى: لو شاء اللّهُ تعالى هدايتَهُم لهَداهُم، بأن يقذِفَ في قلوبِهم الإيمانَ، أو بأنْ يَجْعَلَهُم مُسْتَعِدّين للإذْعانِ للحقِّ والإقرارِ بهِداياتِ الرُّسل وما جاؤوا به من الهُدى والحقِّ، ولكنْ شاء اللّهُ سُبحانَهُ اختلافَهُم وتبايُنَهُمْ[3].

دلالَةُ التَّعبير بالجَعْلِ مادَّةً وصيغةً:

إظهارُ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ الكامِلَةِ

جاء التَّعبيرُ بالجَعْلِ، ولَم يأتِ النَّظم القرآنيُّ هنا بلفظِ الخَلْقِ؛ لأنَّ اللّه تعالى خَلَقَهُم بإرادَته وحِكْمَته، أي: أوجدَهم مِنَ العدَمِ[4]، إلّا أنَّه لَم يشأ أن يجعلَ اتِّفاقَهُم واجتماعَهُم على ملَّةٍ واحدَةٍ في الهُدى والضَّلال، فالجَعْلُ تكوينٌ آخرُ بعدَ الخَلْقِ. وعُبِّرَ عَنْ فِعْلِ الجَعْلِ بصيغَةِ الماضي في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ لإفادَةِ التَّحقُّقِ والوقوعِ، وفيه إبرازُ القدرةِ التّامّة واليقينيَّة للّه سُبْحانَه.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بـ﴿أُمَّةً﴾، ودلالةُ تَقْييدِها بالوَصْفِ:

دفعُ توهُّمِ المَعْنى غيرِ المُراد

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿أُمَّةً﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

(1) بهاء الدّين السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 374، 375.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 309.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 7/ 187.
(4) الرّاغب، المفردات: (جعل).

﴿لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ لدِلالَتِها على الاجْتِماعِ؛ لأنَّ الأُمَّة كلُّ جماعَةٍ يجمَعُهُم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحد، أو زمان واحدٌ، أو مكان واحدٌ، سواء أكان ذلك الأمرُ الجامِعُ تسخيرًا أو اخْتيارًا[1]. ووُصِفَتِ الأمَّةُ بـ ﴿وَٰحِدَةٗ﴾؛ لدفع توهُّم أن يكون المرادُ مِنَ الأمَّة القَبيلَة، لأنَّ الأمَّة قد تُطْلَقُ على مَن يَجْمَعُهُم نسبٌ مُتَّحد. والوحدة هنا ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يُرادُ بها الاتِّحاد والتَّماثل في الدّين[2].

معنى الواو في ﴿وَلَٰكِن﴾ ودلالتُها:

التَّوافقُ اللّفظيُّ والمعنويُّ بينَ الجُمَلِ

الواوُ في ﴿وَلَٰكِن﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُملة ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَين؛ لاشتراك الجُملتَين في الخبريَّة، وما بينَهُما من التَّناسُب اللَّفظيِّ؛ إذِ الجملتانِ فعليَّتانِ، وقد اتَّحدا في المسنَدِ إليه، وهو اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ سُبْحانَه، وبينهُما تناسُب معنويٌّ، وهو تعلُّق الجملةِ الثّانيةِ بما قبلَها؛ استدراكًا لمَضْمونِها.

دلالةُ التَّعبير بـ (لكن):

المشيئةُ الإلَهيَّة قائمَةٌ على الحِكْمَةِ والعَدْلِ

(لَكِن) في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاسْتِدْراكِ على مضمونِ الجُملة قبلَها ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ لبيانِ انْتِفاء مشيئة اللّه تعالى في اجتماع النّاس على دينٍ واحدٍ، فهو سبحانه يُدخل في رحمتِه مَن يشاء أن يُدْخِلَهُ فيها، ويدخل من يشاءُ في عذابه أن يُدْخِلَهُ فيه، ولا ريبَ في أنَّ مشيئَتَهُ تعالى لكلٍّ من الإدْخالَيْن تابعةٌ لعملِ كلٍّ مِنَ الفريقَيْن[3].

دلالَةُ التَّعبير بالفعل المُضارِعِ ﴿يُدۡخِلُ﴾:

تجدُّدُ فَضلِ الله تَعالى واستِمرارُ هِدايَتِه

عُبِّر عن الإدخالِ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُدۡخِلُ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى:

(1) الرّاغب، المفردات: (أمة).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 300.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 15.

﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ للدّلالَةِ على تجدُّد فَضْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ واسْتِمْرارِه؛ بهدايَةِ خَلْقه وحَمْلِهم على الطّاعَة، وذلكَ بتَيْسير سَبيلِ الوُصولِ إليه[1]، فإنَّ مِنْ كمالِ عدلِ اللّهِ سُبحانَهُ أنْ أقام الحُجَّة على خَلْقه بإرسالِ الرُّسل وإيضاحِ طريقِ الهُدى والحق، كما قال اللّه سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ:

الإدْخالُ في الرَّحْمَةِ تابِعٌ للمَشيئَةِ

عُبِّر بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿مَن﴾ في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ﴾؛ لإفادةِ عُموم مَن شاءَ اللّهُ تَعالى أنْ يُدْخِلَهُ في رَحْمَته؛ لأنَّ الأسماءَ المَوْصولَة مِنَ الألفاظِ المُفيدةِ العمومَ والشُّمولَ. وفي التَّعبير بالمَوْصول توطئَةٌ إلى التَّقييد بجُمْلَة الصِّلة ﴿يَشَآءُ﴾؛ لبَيان أنَّ سببَ الإدخالِ في الرَّحمة هو مَشيئَتُهُ سُبْحانَه، المَبْنيَّةُ على كمالِ العَدْلِ وتَمام الفضْلِ وواسِعِ الحِكْمَة.

بلاغَةُ المجازِ في الآيةِ:

إحاطَةُ الرَّحمَةِ بأهْلِ الإيمانِ في الجَنَّة

في قول اللّه تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ مجازٌ مرسل، علاقتُه: الحاليَّة؛ أُطْلِق الحالُّ وأريد المَحلُّ وهو الجنَّة التي هي مُستقَرُّ الرَّحمة، فالرَّحمةُ لا يحِلُّ فيها العبادُ؛ لكونِها مَعْنًى مِنَ المَعاني، وإنَّما يُحَلُّ في مكانِها وهو الجنَّة، كما قال اللّهُ تَعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [الأنبياء: 75][2]، ونُكْتَةُ التَّعبير بالمَجاز: الإيماءُ إلى كَوْنِهم مُحاطينَ بالرَّحمة من كُلِّ جانبٍ، حتّى كأنَّهُم داخلَها، كما يُشير إليه حرفُ الظَّرفيّة ﴿فِي﴾.

دلالَةُ الواوِ والتَّعبير بالجُمْلَةِ الاسميَّة:

سياقُ الإنْذار يَقْتَضي زيادَةَ التَّرهيب والتَّخويف

الواوُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدَها على جُمْلَةِ ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ﴾، جيءَ بها لبيانِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 77، والبِقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 162.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 75.

حال الفريق المقابِل لأهل الرَّحمة. وعُبِّر في قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بالجُملَة الاسْميَّة للدّلالةِ على الثّبوت واللّزوم والاستمرارِ؛ زيادةً في التَّخويف والتَّرهيبِ؛ لأنَّ السّياق في الإنذارِ، كما قال اللّه سُبحانهُ قبلُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾. وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مخالفةٌ لمقتضى الظّاهِر؛ إذ مقتضى الظّاهر أنْ يَرِدَ النَّظم القُرآنيُّ: (ولكن يدخل من يشاء في رحمته، ويدخل من يشاء في غضبه)، ولكنْ عُدِل عن ذلك إلى ذِكْرِ الظّالمين، تسجيلًا عليهم باسْمِ الظّلم، ومُبالغَةً في الوعيدِ؛ وبيانًا لعلَّةِ استحقاقِهم العذابَ، فيكون ذلك أردَعَ لكلِّ ظالمٍ.

بلاغةُ التَّعبير بالكِنايَةِ في ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

استِحْواذُ البُؤْسِ والشَّقاءِ على الظّالِمينَ

نفيُ الوليِّ والنَّصير في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ كنايَةٌ عن حالِ البُؤسِ والضَّعف الذي استحوَذَ عَلَيْهِم؛ حيثُ إنَّهم غارقون في شقاءٍ مقيمٍ ومغلوبيَّةٍ تامَّةٍ؛ فهم مفتقِرونَ إلى ناصرٍ يرفعُ عنهم العذابَ وويلاتِ الهلاك، ولكنْ لا نصيرَ لَهُمْ[1].

بلاغةُ الاحْتِباكِ في الآيةِ:

براعَةُ الحَذْفِ في البيانِ القُرْآنيّ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ احتباكٌ، وهو المُسمّى بحذف التَّقابل أو الحذف المقابليّ؛ وذلك لأنَّه حُذف من كُلِّ جملةٍ ما أُثْبِت مقابِلُها في الجُمْلَةِ الأخرى، وبيانُ ذَلِك: أنَّ ذِكْرَ الرَّحمة في قولِه: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يقتَضي إرادةَ مقابِلها في الجملةِ الثّانية، وأنَّ اللّه يُدْخِلُ الظّالمينَ في لَعْنَتِه أو غضبِه. وذِكْرُ الظُّلم وما قُرن معَهُ يَقْتَضي إرادةَ ضدِّها مع الجملة الأولى[2]، والتَّقدير: يُدْخِل مَن يشاءُ من أهلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 39.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 253.

العَدْلِ والقِسط في رحمته، ولَهُم وليٌّ يتولّاهم ونصيرٌ ينصرُهُم؛ وهو اللّه سُبْحانَه. فيكون تقديرُ نظم الآيةِ: ولكنْ يُدْخِلُ مَن يشاء مِن أهل العدل والقِسْط في رَحْمَتِه، ولَهُم وليٌّ ونصير، والظّالمون يُدْخِلُهم في لَعْنَتِه وغَضَبِه وما لَهُم مِن وليٍّ ولا نصيرٍ.

الغَرَضُ مِن تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾:

نفيُ مُطْلَقِ الانْتِفاعِ عنِ الظّالمين

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُم﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ على المبتدأ ﴿وَلِيٍّ﴾[1] - فإنَّه مجرورٌ لفظًا مرفوعٌ محلًّا - ؛ لإفادة الحَصْر والاختصاص، فقُصِرَ نفيُ استحقاقِهم للوليِّ والنَّصيرِ، والمرادُ نفيُ انتفاعِهم مطلقًا بمَن يدفَعُ عنهم شيئًا من العذابِ قبلَ وقوعِه، أو يرفَعُه عنهم بعدَ وُقوعِه، وليس المرادُ إثباتَ المُعِين والمُغيثِ مثلًا؛ لكونِهما وصفَيْن مغايِرَيْنِ للوليِّ والنَّصير، فإنَّ هذا لا يفهَمُهُ عربيٌّ، وإنَّما المقصودُ مِن قَصْر نفيِ استحقاقِهم الوليَّ والنَّصيرَ نفيُ مطلقِ النَّفي وعُمومِه.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالَتُها في ﴿مِّن وَلِيٍّ﴾:

بَشاعَةُ الظُّلم وفَظاعَتُه

﴿مِّن﴾ في قول اللّه تَعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ يُراد بها تأكيدُ النَّفي والتَّنصيص على عُمومِه وشُمولِه[2]، فَنَفْيُ الوليِّ والنَّصير عامٌّ في كلِّ أفرادِهما المندرجَة تحتَهُما، إلّا أنَّ هذا العمومَ ظاهِرٌ من دونِ حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾، فَيحتمل تخصيصه، لكنَّ دخولَ ﴿مِّن﴾ أفادَ النَّصَّ على العموم، فنفَتِ الآيةُ الوليَّ والنَّصير عن الظّالمين نفيًا مُطْلَقًا لا استثناءَ فيهِ ولا تخصيصَ. والمبالغةُ في هذا النَّفي يَقْتَضي عِظَمَ ظُلْمِهم وفظاعتَهُ وشناعتَهُ.

الغَرَضُ مِنَ التَّنكير والمُبالغةِ في ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم

(1) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 183.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/ 64.

مِـن طَـرائـقِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ مراعاةُ التَّناسُبِ في اللَّفْظِ والمَعنى

﴿مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ لإفادةِ العُمومِ، وذلك لأنَّهما في سياقِ النَّفيِ بـ ﴿مَا﴾، وقد تقرَّر أنَّ النَّكرة في سياقِ النَّفيِ يدلُّ على العمومِ والشُّمولِ، وقوَّى هذا العمومَ دخولُ ﴿مِّن﴾[1]. وعُبِّر في لَفْظَي ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾ بزِنَةِ (فعيل)، وهي مِن أوزانِ المُبالغَةِ؛ لإفادَةِ القوَّةِ في الوصفِ، ولفظُ ﴿وَلِيٍّ﴾ هو الغالبُ في الاستعمالِ القُرآنيِّ، ولم يَرِد اسمُ الفاعلِ منهُ إلَّا في موضعٍ واحدٍ، في سورة الرَّعد، في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرّعد: 11]، وإنَّما عُبِّر فيها باسمِ الفاعلِ؛ لتُناسِبَ رُؤوسَ الآيِ قبلَها وبعدَها.

وجاء لفظُ ﴿نَصِيرٍ﴾ في الآيةِ بزِنَةِ (فعيل) لقُربِهِ من لفظِ ﴿وَلِيٍّ﴾، فاقْتَضى التَّناسبُ بين اللَّفْظَين مجيئَهما بزِنةٍ واحدةٍ، على ما في لفظِ ﴿نَصِيرٍ﴾ وكونِه رأسَ آيةٍ من التَّناسبِ بين الفواصلِ[2]، فإنَّ قبلها قولُه سبحانه: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، وبعدَها قوله ﷻ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

دلالَةُ الجَمْعِ بينَ نفيِ الوليِّ ونفيِ النَّصير:

حـالُ الـظّـالِمينَ مَـبْـنـيَّـةٌ على الخِذْلانِ التّامِّ

جمَعَ اللّهُ ﷻ بينَ نَفْيِ الوليِّ ونفيِ النَّصيرِ عن الظّالمين في قولِه تَعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ لدَفْعِ طَمَعِهِم في وُجودِ مَن يتولّى أُمورَهُم، ووُجودِ من يَدْفَعُ عنهم العذابَ، فحالُهم مبنيَّةٌ على الخِذْلانِ التّامِّ، فليسَ لَهُم مَن يُصلح أمورَهم في ذلك اليوم، ولا مَن يَنْصُرُهُم مِنَ الهَوان[3]. وفي هذا الجَمْعِ احتِراسٌ؛ لأنَّ نفيَ الوليِّ لا يَقْتَضي نفيَ كلِّ نصيرٍ، وهذه نُكْتَةُ عدمِ الاقتصارِ على نفيِ الأعَمِّ[4]. ولمّا كان نفيُ الوليِّ غيرَ مستلزمٍ نفيَ النَّصيرِ وُسِّطت (لا) بين المَعْطوفَيْنِ لتأكيدِ النَّفيِ[5].

---

(1) سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 228.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 554.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 253.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 695.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 153.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾ [الشّورى: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ حَقارَةِ شَأْنِ الظَّالِمِينَ

لمّا نفى اللّهُ سُبۡحانه عن الظّالمين وُجودَ أيِّ وليٍّ أو نصيرٍ يَقۡدِرُ على نَفۡعِهِم أو يدفَعُ العذابَ عَنۡهُم؛ فقال ﷻ: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ بيَّن أنَّهم من الحَقارة في القَدۡرِ بحيثُ لا ينبغي الاهتمامُ بِشأنِهم وإنذارِهم، فقال سُبۡحانَه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾؛ للانتقال إلى بيانِ فَظاعَةِ حالِهِم في اتِّخاذ الأولياءِ مِن دونِ اللّه سُبۡحانَه[1].

❁ شَرۡحُ المُفۡرَداتِ:

1) ﴿دُونِهِۦٓ﴾: (دون) تدُلُّ تَصريفاتُها عَلى مُداناةٍ ومُقاربَةٍ، يُقال: هَذا دونَ ذاكَ، أيۡ: هو أقۡرَبُ مِنۡهُ[2]، ويُقالُ لِلقاصِرِ عَنِ الشَّيۡءِ: دونٌ، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: 118]، أي: مِمَّن لَم تَبۡلُغ مَنۡزِلَتُه مَنۡزِلَتَكُم في الدّيانة، وقولُ اللّه سُبۡحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48]، أي: ما كانَ أقَلَّ مِن ذلكَ، وقيل: ما سِوى ذَلِكَ، والمَعۡنيانِ مُتَلازِمان[3]. ويَرِدُ (دون) بِمَعۡنى (غير)، ومنهُ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾.

2) ﴿أَوۡلِيَآءَۖ﴾ ﴿ٱلۡوَلِيُّ﴾: (ولي) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعۡنَى القُرۡب، ومِنۡهُ: الوَلۡيُ وهو القُرۡبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعۡدَ ولۡيٍ، أي: بَعۡدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 39.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دون).
(3) الرّاغب، المفردات: (دون).

قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَليني، أي: يُقارِبُني. ومِنْهُ المَوْلَى، وهوَ يُطْلَقُ على معانٍ، مِنْها: المُعْتِقُ، والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنّاصِرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعْنَى القُرْبِ كما هوَ بيِّنٌ[1]. ومنه الوِلاية: أي: الاجتماع في النُّصرة. قال سيبَوَيْهِ: الوَلاية بِالفَتْحِ المَصْدَرُ، والوِلاية بِالكَسْرِ الاسْمُ، مِثْلَ الإمارة والنِّقابة[2]. و"أولياء" في قول اللّهِ تَعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ بمعنى: شركاءَ وأندادٍ[3]. والوليُّ مِن أسماء اللّه تعالى: هو الذي يتولّى أمورَ الخَلائق، وهو المالكُ المُدَبِّر، وهو الذي صَرَفَ للخَلْقِ ما ينفَعُهُم في دُنْياهُم وأُخْراهُم[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّـفْـرِيـقُ بـينَ أوْلياءِ الرَّحْمَن وأوْلـــيـــاءِ الشَّيْطانِ

ذَكر اللّهُ تعالى أنَّ المُشْرِكين الظّالمينَ اتَّخذوا أولياءَ مِن دونه يتَوَلَّوْنَهم، لكنَّ اللّهَ وحدَهُ هو الوليُّ الحقُّ الذي يتولّى عبادَه المُؤْمنين بالرِّعاية والتَّأييد، ويُخْرِجُهم مِنْ ظُلُمات الكُفْر إلى نورِ الإيمانِ، ويُعينُهُم في جميع شُؤونِ حَياتِهم، وهو سُبْحانَهُ القادرُ على إحياءِ المَوْتى عندَ البَعْثِ، ولا يُعْجِزُه شيءٌ؛ إذْ هو سُبحانَهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَمِ﴾ ودِلالَتُها:

نَـكـارَةُ فِـعْـلِ المُـشْـركـينَ في اتِّـخـاذِهِـم الأولياءَ من دونِ اللهِ تعالى

﴿أَمِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾، حرفٌ يُفيد الإضرابَ الانتقاليَّ، كأنَّ المعنى: اتْرُك العنايةَ بشأنِهم وإنذارِهم، ولنرجِعْ إلى بشاعَةِ حالهم في اتِّخاذهم أولياءَ من دون اللّه سُبحانَهُ. وبعد ﴿أَمِ﴾ تُقدَّرُ همزَةٌ هيَ للاسْتِفْهام الإنكاريِّ. فيكونُ المعنى: بل أَتَّخذوا مِن دون اللّهِ أولياءَ، أي: جاؤوا بمنكرٍ عظيمٍ لَمّا اتَّخذوا هؤلاءِ الأولياءَ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 245.
(4) القحطانيّ، الثّمر المجتبى، ص: 134.
(5) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 483.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 39.

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ الماضي ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، وبيانُ مرجِعِ الضَّميرِ:

سَعْيُ المُشْرِكين الحَثيثُ في مُخالفَةِ فِطَرِهِم والمَيْلِ إلى الشِّرك

جاء التَّعبيرُ بفِعْلِ الاتِّخاذ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ ماضيًا؛ للدّلالة على تحقُّق الوُقوعِ، وفيه إيماءٌ إلى تكلّف المشركين ومبالغتهم في التّمسّك بمَن هم دونَ اللّهِ تعالى، كما تدلُّ عليه صيغةُ الافتعال في ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾؛ وذلك لأنّ اتّخاذ الشّيء لا يكون إلّا بشدّة الحرص والسّعي الباعث على تحصيله، فهم قد عالجوا فِطَرَهم الشّاهدةَ بذلك، بشهادة أوقات الاضطرار حتّى لَفَتوها عنه سُبْحانَه[1]، ولذلك جاءَت صيغةُ (الاتِّخاذ) في الخطابِ القرآنيِّ عن الشَّياطين ومَن يوالَى مِن دون اللّهِ؛ تقبيحًا لَهُم وتشنيعًا علَيْهِم؛ لِما في مولاتِهم من الرَّغبة والحِرص مَظِنّة النَّفْع. وضَميرُ الجماعةِ (الواو) في ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ عائدٌ إلى كُفّار مكَّة الذين اتَّخَذوا آلهةً فعَبَدوها من دون اللّهِ[2]، ويجوز عودُهُ إلى عموم المشركينَ المتَّخِذين أولياءَ مِنْ دون اللّهِ سُبحانَهُ.

الغرَضُ من تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

حَقارَةُ مَعْبوداتِ المُشْرِكينَ، وانحِطاطُ أقْدارِها

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿أَوۡلِيَآءَۖ﴾ مِنْ قول اللّه تَعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾؛ للإشارة ابتداءً إلى انحطاط قدرِ الأولياء الذين اتَّخَذهم المُشْرِكون، وفيه مبالغَةٌ في الإنكارِ عَلى إشْراكِهِم باللّهِ تَعالى، واتِّخاذِهِم مِنْ دونِه جَماداتٍ عجزَت عن تحصيلِ المَنافع لأنفسها أو دفعِ المضارِّ عَنْها، فضلًا عن أن يكون ذلك لِغَيْرِها[3].

مَعْنى الفاءِ ودلالَتُها في ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾:

ضَلالُ المُشْرِكينَ في موالاتِهِم غيرَ اللهِ سُبْحانه

الفاء في ﴿فَٱللَّهُ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ رابطةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 253.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 59.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 150.

لجوابِ شَرْطٍ مقدّرٍ دلَّ عليهِ مقامُ إنكارِ اتِّخاذهم أولياءَ من دون اللّه تَعالى؛ ذلك لأنَّ إنكارَ ذلكَ يستلزِمُ أنَّ أولياءَهم ليسَت حقيقةً بالولايَةِ، وأنّهم ضلّوا في اتِّخاذِهم إيّاها أولياءَ، فترتَّب عليهِ تقديرُ شرطٍ، تقديرُهُ: إن أرادوا وليًّا بحقٍّ؛ فاللّهُ هو الوليُّ[1]. ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ تعليليَّةً سببيَّة داخِلَةً على السَّبب؛ لكونِ ذِكْره مسبَّبًا عن ذِكْرِ السَّبب، فانْحِصارُ الوليّ في اللّهِ تعالى سببٌ لإنكار اتِّخاذ الأولياءِ مِن دونِه[2].

الغَرَضُ مِن حَذْفِ فعلِ الشَّرط:

أحَقّيَّةُ اللهِ تَعالى بالولايَةِ الكاملةِ

حُذِف فعلُ الشَّرط مِنْ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾؛ وهو ممّا يَجوزُ حَذْفُه مع أداتِهِ إذا دلَّ عليه دليلٌ[3]، والدّليل هنا: سياقُ الآياتِ الكريمة، فكأنَّه قيلَ بعدَ إنكارِ كلِّ وليٍّ سواهُ: إن أرادوا وليًّا بحقٍّ؛ فاللّهُ ﷻ هو الوليُّ بالحقِّ، لا وليَّ سِواه[4]. وحُذف إيجازًا واقتصادًا في اللَّفظ؛ لِظُهور مَعْنى المَحْذوفِ، وإبرازًا لأحقيَّة اللّهِ تَعالى بكلِّ ولايَةٍ.

دلالَةُ التَّعبير بالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾:

تَأكيدُ نَفْيِ الوِلايَةِ عَنِ المُشْرِكينَ

جاءت جُمْلَةُ جوابِ الشَّرطِ في قول اللّهِ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ اسميَّةً؛ لإفادة الدَّوام والثّبات؛ تأكيدًا لنَفْيِ الولايةِ عَنِ المُشْرِكين، وإفادةِ ثُبوتِ الولايةِ لَهُ ﷻ. ووجهُ التَّأكيدِ هاهُنا: وُرودُ الجُمْلَةِ ردًّا على زَعْمِ المُشْرِكين اتِّخاذَهم مِن دونِ اللّهِ أولياءَ.

دلالةُ التَّعبير بالاسْمِ الأحسَنِ (اللّه):

مقامُ الرَّدِّ على مَزاعِمِ المُشْركينَ يَقْتَضي الزَّجْرَ والتَّخويف

جاء التَّعبيرُ عن المُسْنَدِ إليه بالاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾؛ لاخْتِصاصِهِ بالرَّبِّ المعبودِ بالحقِّ، وما

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 40.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 291.
(3) ابن الشّجريّ، الأمالي: 1/ 341، وابن عصفور، المقرّب: 1/ 276، وابن مالك، التّسهيل، ص: 238.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 40.

يتضمَّنه هذا الاسمُ مِن معاني الجلال والجمالِ والكَمال، وهذا أنسَبُ لَمَقامِ الرَّدِّ على المُشْركينَ في زَعْمِهِم وُجودَ وليٍّ ينفَعُهم من دونِ اللّه تعالى. فكانَ التَّعبيرُ بالاسمِ الأحسن أدخلَ في التَّخويف والزَّجر. وفيه تربيَةُ المَهابَةِ في نُفوسِ المُخاطَبين، بخلاف اسْمِ (الرَّبِّ) فإنَّه دالٌّ على التَّربية والإنعامِ والإحْسانِ.

بلاغَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ، ودِلالَةُ ضَميرِ الفَصْلِ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾:

بيانُ كمالِ ولايَةِ اللهِ تَعالى

في قولِ اللّه سبحانه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، وذلكَ بتَعْريفِ طَرَفَي الإسْنادِ؛ فالمُسْنَدُ إليه (اللّه) وهو أعرَفُ المَعارف، و﴿ٱلْوَلِيُّ﴾ معرَّف بـ (أل) وهو المَقْصورُ، فقُصِرَتِ الولايَةُ الحقَّةُ الكامِلَةُ عَلى اللّهِ سُبْحانه[1]، فكأنَّ ولايَةَ غيرِه بالنِّسْبَةِ إلى وِلايَته سُبْحانَه غيرُ موجودَةٍ. وأفادَ ضميرُ الفَصْلِ في قوله: ﴿هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ تأكيدَ القَصْرِ وتقويَتَهُ لا إنشاءَ القَصْرِ؛ إذِ القَصْرُ مُسْتفادٌ من تعريفِ طَرَفَي الجُمْلَة، ولا يجتَمِعُ في الجُمْلة طَريقانِ مِن طُرُقِ القَصر. ونُكْتَةُ تأكيدِ القَصْرِ: التَّذكيرُ باخْتِصاص الولايَةِ باللّهِ تَعالى، وهذا مَسوقٌ إلى النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين تسليَةً وتثبيتًا، وتعريضًا بالمُشْركين؛ فإنَّ حالَهُم لا يَخْلو من أن يَسْمَعوا هذا الخِطاب[2].

بلاغَةُ الإدْماجِ في قولِه: ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

إبطالُ الأولياءِ مِن دونِ اللهِ هدمٌ لعَلائقِ الشِّرك

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾، وجيءَ به إدماجًا لإعادَةِ إثْباتِ البَعْثِ والنُّشورِ؛ ترسيخًا لعِلْمِ أهلِ الإيمان، وإبلاغًا لَمسامِعِ المُنْكِرينَ لَهُ؛ وذلك لأنَّهم لَمّا اتَّخذوا أولياءَ من دونِ اللّه تَعالى؛ كان ذلكَ إنْكارًا ضِمْنيًّا للبعث، فأبطلَ اللّهُ سُبْحانَه اعتقادَهُم إلهيَّةَ غيرِ اللّه سُبْحانَه، وأتْبَعَهُ بإبْطالِ ما هو مِن مُتَعَلّقاتِ شِرْكِهم، وهو نَفْيُ البَعْثِ والنُّشورِ[3].

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح: 26/ 86.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 40.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 40، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 211.

دلالةُ تقديمِ المسندِ إليه على المسنَدِ الفِعْليِّ ﴿يُحۡيِ﴾:

التَّأكيد على إحياءِ اللهِ تَعالى المَوْتى

قُدِّم المسنَدُ إليهِ (هوَ) على المسنَدِ الفعليِّ ﴿يُحۡيِ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ تأكيدًا لِمَضْمونِ الجملةِ، ووجهُ التَّأكيد ما في الجُمْلَةِ من تَكرار النِّسْبَةِ؛ إذْ أُسْنِدَ فعلُ الإحياءِ إلى الضَّمير البارزِ المُنْفَصِل (هوَ)، وأُسندَ أيضًا إلى الضَّمير المُسْتَتِر فيه، فكانت النِّسبةُ مكرَّرةً، وهذا يَقْتَضي توكيدًا وتقويةً لِمَضْمونِها؛ لجلالَةِ مَعْناها. وفي تقديم المُسْنَدِ إليه لفتُ انتباهِ المُخاطَب للخبر المسوق إليه، وتهيئَةُ نفسِه لقَبولِه وتصديقِه.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يُحۡيِ﴾:

إحياءُ اللهِ تَعالى المَوْتى يومَ القيامَةِ أمرٌ متحقّقُ الوُقوعِ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُحۡيِ﴾ من قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّد والاستمرار؛ إذِ الفِعْلُ المُضارع يدلُّ على هذا، وأفادَ ذلك في الآيةِ الكَريمَة أنَّ إحياءَ اللّهِ تعالى الموتى أمرٌ مستمِرٌّ ومتجدِّد. فإنَّ العبادَ قبلَ خَلْقِهم يوصَفونَ بالمَوْت، وخَلْقُهُم إحياءٌ لهم، كما قال اللّه سُبحانه: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: 28]. وإذا أُريدَ بالمَوْتى في آية الشّورى مَن ماتَ بعدَ حياتِه، وبالإحياءِ: الإحياءُ الحاصِلُ يومَ القيامة؛ فإنَّ في التَّعبير بالفعل المُضارع تصويرًا للإحياءِ في صورة الحاصلِ وقتَ الخِطاب، مبالغَةً في إثباتِ وُقوعِهِ وتحقُّقِه.

دلالَةُ تَعْريفِ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

شُمولُ قُدْرَةِ الله تعالى في إحياءِ المَوْتى

لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ معرفٌ بـ (أل) الجنسيّة الاستغراقيَّة، المفيدة الشُّمولَ والعُموم، فيشمل جميعَ المَوْتى من غيرِ استثناءٍ؛ إذْ قُدْرَةُ اللّهِ سُبحانَهُ مطلقة شاملةٌ إحياءَ كُلِّ مَن نُزِعَت منهُ الحياة[1]، بل يدخلُ فيه من لم يَحْيَ بعدُ؛ فإنَّ من لم يَحْيَ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (موت).

يَصِحّ وصْفُه بالموت، كما دلَّ عليه قولُ اللّه سُبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، وإحياءُ هذا يكونُ بخَلْقِه. كيف لا يكون ذلك وهو باعثُ الحياة، فأمرُ الإعادة أهونُ عليه، ومن كان ذلك شأنُه كان أحقّ بالولاية والعبوديّة.

مَعْنى الواوِ ودِلالَتُها في ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾:

إثباتُ صِفَةِ القُدْرَةِ لله تَعالى اسْتِدْلالًا على إحياءِ المَوْتى

الواوُ في ﴿وَهُوَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ عاطفةٌ الجُمْلَةَ بعدَها على جُمْلَةِ ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكَمالَيْنِ؛ لاتِّحادِهما خبرًا، وبينَهُما تناسُبٌ في اللَّفظ، وهو اشتراكُهُما في الاسميَّة، واتِّحادُ المُسْنَدِ إليهِ فيهما، وبينَهُما تناسُبٌ في المَعْنى؛ وهو انْدِراجُ مَعْنى الأولى في الثّانية. وجُمْلَةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ فيها إثباتُ صِفَةِ القُدْرَةِ الكامِلَةِ للّه تعالى، فالجُمْلَةُ واردةٌ موردَ الاسْتِدْلالِ على إمكانِ البَعْثِ المَذْكورِ في الجُمْلَةِ قبلَها، ويُفيدُ الاستدلالُ نفيَ الإلَهيَّة عن أصنامِهم؛ لأنَّ مَن لا يَقْدِرُ على كلِّ شيءٍ لا يَصْلُحُ للإلهيَّة، والغَرَضُ مِن هذا: تعريضٌ بإبلاغِه إلى مسامِعِ المُشْرِكين[1].

الغَرَضُ مِن تقديمِ الجارِّ والمَجْرورِ في ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ﴾:

تأكيدُ عُمومِ قُدْرَةِ الله تَعالى وسَعَتِها

جاءَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى الاهْتِمامِ؛ تَأْكيدًا لِمَعْنى عُموم قُدْرَتِه تَعالى، ويَلْزَمُ من تَقْديمه أيضًا تَأْخيرُ ﴿قَدِيرٌ﴾، وذَلِكَ أنسَبُ لِفَواصِلِ الآيِ؛ إذ آخِرُ الآيَةِ قبلَها: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وهذه الجملة تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرى المَثَل، والقصد مِنْها: التَّأْكيدُ على قُدْرَةِ اللّه تعالى، وفي هذا التَّذييل وعدٌ للمُصَدِّقين، ووعيدٌ وتَرْهيبٌ للمُشْرِكينَ المُكذِّبينَ[2].

(1) ابن عاشور التّحرير والتّنوير: 25/ 40.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 261.

مَعْنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودِلالَتُها في ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ من قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ حرفُ جَرٍّ دالٌّ على الاستعلاءِ، والاستعلاءُ يَقْتَضي الإحاطَةَ والتَّمكُّنَ والقُدْرَة، فيكون قولُهُ سُبْحانَه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ دالًّا على القُدْرَةِ الكامِلَةِ الشّامِلَة، وأنَّه سُبْحانَهُ قادِرٌ على التَّصرُّف وعلى إيجادِ الأعْيانِ المُتَصَرَّفِ فيها وإيجادِ عَوارِضِها[1]. وهذه الجُمْلَةُ في خاتِمَةِ الآيَةِ هيَ من باب التَّعميم بعدَ التَّخصيص[2]، فإحْياءُ المَوْتى مندرِجٌ تحتَ قُدْرَةِ اللّه تَعالى على كُلِّ شيءٍ، وعديمُ الإحاطَةِ لا يكونُ ربًّا ولا إلَهًا[3].

الإحاطَةُ بالمَخْلوقاتِ عِلْمًا وقُدْرةً دليلُ الرُّبوبيَّةِ الحَقَّة

دلالةُ لفظِ ﴿كُلِّ﴾ والغَرَضُ مِنَ الإضافَةِ في ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

﴿كُلِّ﴾ من قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ اسمٌ يدلُّ على الاسْتِغْراقِ والإحاطَةِ بالأفرادِ والأجزاء، وهيَ أقوى صيَغِ العُموم؛ لصِحَّة دُخولِها على العاقِل وغيره. وقد أُضيفَتْ إلى لَفْظ ﴿شَيۡءٖ﴾، وهي مِن أعمِّ الألفاظِ الدّالَّة على جميعِ المَعاني. وفي إضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى النَّكرة مبالَغَةٌ في الدّلالة على العُموم، فكانت الإضافَةُ دالَّةً على إحاطَةِ قُدْرَةِ اللّه تَعالى المُطْلَقَة، وتقريرًا لاتِّساعِها، وتأكيدًا لسياقِ المَعْنى.

التَّأكيدُ عَلى سَعَةِ قُدْرَةِ الله تَعالى وعُمومِها

الغَرَضُ مِنَ التَّعبير بصيغَةِ ﴿قَدِيرٌ﴾:

جاء التَّعبيرُ عن القدرةِ بصيغَةِ ﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن (فَعيل)؛ وهيَ مِنْ أوزانِ المبالغَةِ، وتدلُّ على الاستمرارِ والدَّوام وثباتِ الصِّفة[4]، وجيء بها مُنَكَّرةً؛ دِلالَةً على العُموم والإطلاقِ، وإظهارًا لاتِّساع القُدْرَةِ وإحاطَتِها بجميعِ المَخْلوقاتِ، فهو الحَقيقُ بأنْ يُتَّخذ وليًّا، دونَ مَن لا يَقْدِرُ على شَيْءٍ[5].

مَن عَظُمَت قُدْرَتُه واتَّسعت؛ كان حقيقًا بأنْ يُتَّخذَ وليًّا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 4.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 205.
(3) العمرانيّ، الانتصار: 1/ 53.
(4) السّامرائيّ، صيغ المبالغة، ص: 234.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 211.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشّورى: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

وُجوبُ الاحْتِكامِ إلى الشَّرعِ المُنَزَّلِ

لَمّا وصف اللّهُ ﷻ نفسَه بالوحدانيَّة، وقَصَر الولايةَ الكاملةَ عليه، وكذا إحياءَ المَوْتى والقُدرةَ المُطْلَقَة على كُلِّ شيء، وكان أهلُ الإسلام كلُّهم مُقِرّين مُصَدِّقين بذلكَ كُلِّه؛ ناسَب أن يُبَيِّن لَهُم أنَّ ما يَدْخُلُه التَّنازُعُ يجبُ ردُّه إلى اللّهِ تَعالى، فما حَكَمَ بِهِ كتابُ اللّهِ ﷻ وسُنَّةُ رسولِه ﷺ وشَهِدا له بالصِّحّة فهو الحقُّ، وما عدا ذلك فَهو الباطِل[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾: (خلف) تَدورُ اشْتِقاقاتُها على كَوْنٍ أو بقيَّةٍ بعدَ ذاهِبٍ أو وراءَهُ في ظَهْرِه. ومِنْهُ قولهم: خلفَ فلانٌ فلانًا؛ إذا جاء بعدَهُ، كما قال اللّه تَعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ [الأعراف: 169]، ومن هذا البابِ: الاختلافُ؛ وهو عدم الاتِّفاق على رأيٍ أو حُكم، وسمّيَ اختلافًا؛ كأنّ كلَّ واحدٍ من المختلِفين يذهب إلى ما جعلَهُ غيرُهُ خَلْفَهُ[2]، ومنه قول اللّهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾.

2) ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ﴾: (حكم) تدلُّ اشتقاقاتُها على المَنْع[3]، وقيَّده الرّاغبُ بكونِه مَنْعًا للإصلاحِ[4]. ومِنْهُ حَكَمَةُ الدّابة؛ لأنَّها تَمْنَعُها من مخالفة الرّاكب[5]. والحُكم في الآية يعني: المَرَدَّ والمَرْجِع، وهو لا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 454، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/ 530.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(4) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(5) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (حكم).

يكون إلّا للّه تعالى، ليس لأحد سواه، وهو يَرجِعُ إلى مَعْنى القضاءِ؛ وسُمّي القضاءُ حُكمًا؛ لأنّ فيه منعَ الظّالِمِ من الظُّلْم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حَسْمُ النِّزاعِ بِحُكْمِ الشَّرع

يُبَيِّن اللّهُ تعالى أنَّ كُلَّ ما يَخْتَلِفُ فيه النّاسُ من أمرٍ يتعلّق بدينِهِم؛ فَإِنَّ الحُكْمَ فيهِ عائِدٌ إلى اللّهِ ﷻ وحدَهُ، في كتابِهِ العَزيز وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ. ذلكم اللّهُ ربّي الذي عليهِ وحْدَهُ أتوكَّل في جميع شُؤوني، وإليهِ وحدَهُ أنيبُ وأفْزَعُ في كُلِّ أُموري[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودِلالَتُها في ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾:

اخْتِلافُ الفَريقَيْنِ في أُصولِ العَقائدِ الدّينيّة

الواوُ في ﴿وَمَا﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدها على الجملِ التي قبلها؛ إذ إنَّ الكلام موجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ وإلى أهل الإسلام. والواوُ عاطفةٌ فعلَ أمْرٍ بالقَوْلِ، والتَّقدير: وقُلْ: ما اختلفتُمْ فيه مِنْ شيءٍ فحُكْمُهُ إلى اللّهِ. وحَذْفُ القولِ كثيرٌ في القرآن الكريم إذا دلَّت القرائنُ عليه؛ وذلك لأنَّ مادَّة الاختلافِ التي دلَّ عليه فعلُ ﴿ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾ مُنبئَةٌ بأنَّه بين فريقَيْنِ، وحالُ الفَريقَيْنِ تومِئُ إلى أنَّ الاختلافَ حاصلٌ في العقائدِ التي أنكرها الكافرونَ، مِنَ التَّوحيد والبعثِ والنَّفع والإضرارِ[3].

الغَرَضُ مِنَ التَّعبيرِ بـ(ما)، ودِلالَتُها:

وُجوبُ رَدِّ جميعِ المُتَنازَعِ فيهِ إلى حُكْمِ الله تعالى

(ما) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾ يجوزُ أن تكونَ شَرْطيَّة، وهي في محلِّ رفع مبتدَأً، وذلك يُفيدُ تقييدَ الجُملة وربطَ الشَّرط بجوابه؛ وهو ممّا يُثير في نفس المخاطَب توقُّعَ حصولِ الجَواب؛ وهوَ وجوبُ الرَّدِّ إلى اللّهِ سُبحانَهُ ورَسولِهِ ﷺ عِندَ حصولِ الاخْتِلافِ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حكم).
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 483.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 41.

ويجوزُ أن تكون (ما) موصولَةً، وذلك أنَّ (ما) إن جاء بعدها فعلٌ ماضٍ - كما في هذه الآية - جازَ عندَ سيبوَيْهِ أن تكون موصولَةً أو أن تكونَ شرطيَّةً[1]. وفي كونِها مَوْصولَةً تأكيدٌ للإحاطَةِ والشُّمول مع الإيجازِ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ من الألفاظِ المفيدةِ العمومَ. وفيه إبهامٌ جاءَ بيانُهُ في جملة الصِّلة؛ وهوَ أنَّ الذي وقَعَ فيهِ اختلافُكُم بيانُهُ خاصّ باللّه تعالى ورسولِهِ الكريم ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بالاختلافِ مادَّةً وصيغةً:

الاخْـتِـلافُ ممّا قَـدَّرَ اللهُ تَعالى وُقوعَهُ كَوْنًا

عُبِّر بالاختلاف في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾ دونَ فعلِ التَّنازع؛ فلم يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (وما تنازعتم)؛ لأنَّ الاختلافَ أعمُّ وأشمَلُ من التَّنازع، وذلك لأنَّ الاختِلافَ يَرِدُ غالبًا بلا مُنازَعة، بخلافِ المُنازَعة؛ فهي اختِلافٌ فيما يُنكرُ مَعَ مُعاداةٍ ومُخاصَمةٍ[2]، فاختارَ النَّظمُ القرآنيُّ اللَّفظَ الأعمَّ، وليكونَ حسمًا لمادَّةِ النِّزاع قبلَ وقوعِها. واختارَ البيانُ القرآنيُّ التَّعْبيرَ بالفِعْلِ الماضي في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾ مرادًا به الاسْتِقْبالُ؛ للإيماءِ إلى تحقُّقِ الوقوعِ، فكما لا شكَّ في حدوثِ الفعلِ المادي الذي تَمَّ ووقعَ، كذلك لا شكَّ في وقوعِ هذا الاختلافِ؛ فهو حاصلٌ لا محالةَ، وهو ممّا شاءَ اللّهُ تعالى وقوعَهُ كَوْنًا. ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ بالفعلِ الماضي مَعْنى المُضيِّ، أي: ما وقَعَ فيهِ الاختلافُ قَطْعًا؛ فيُرجَعُ فيهِ إلى حُكْمِ اللّهِ تعالى.

ولا مانِعَ مِن إرادةِ المَعْنَيَيْنِ معًا؛ حَمْلًا للَّفْظِ على حقيقتِهِ ومجازِهِ، عِنْدَ مَن يُجوِّز حملَ اللَّفظِ المشتَرَكِ على معنَيَيْهِ أو معانيه، وهو الصَّحيحُ المختارُ.

مَعْنى ﴿مِن﴾ ودِلالَةُ تنكيرِ لَفْظِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

رَدُّ المُخْتَلَفِ فيهِ إلى حُكْمِ الشَّرع عـامٌّ في كُـلِّ خلافٍ

﴿مِن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ بيانيَّةٌ؛

(1) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/ 240.

(2) الرّاغب، المفردات: (اختلف)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 64.

وذلك لتقدُّم (ما) وهي مبهَمَةٌ، سواءٌ حُمِلَت على مَعْنى الشَّرطيَّة أو الموصوليَّةِ. ونُكِّرَ لفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ للدّلالة على العموم والشُّمولِ لوقوعِهِ في سياقِ الشَّرطِ. وإذا حَمَلْنا (ما) على الموصوليَّةِ؛ فإنَّ العمومَ مستفادٌ مِنْها، و﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيانٌ وإيضاحٌ. فيكونُ رَدُّ حُكمِ المختلَفِ فيه أيًّا كانَ إنَّما هو إلى اللّهِ تَعالى(1).

معنى الفاءِ في ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾:

رَبْطُ الجَوابِ بِشَرْطِهِ؛ تهيئةً لِلمُخاطَبِ وتَنْبيهًا لَهُ

الفاءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ رابطَةٌ لجوابِ الشَّرطِ، إن جُعِلت (ما) شرطيَّة. وإن جُعِلت (ما) اسمًا موصولًا مبتدأً؛ فالجُملَةُ الفعليَّة ﴿ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ صِلَتُها، والجملة الاسميَّة: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ خبرُها، وإنَّما ساغ اقتران الخبر بالفاءِ؛ لأنّ الموصولَ يُشْبِهُ الشَّرط في العمومِ. وعلى الاعْتِبارَيْنِ فالجُمْلَةُ الاسميَّة مستأنفَةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ(2).

دلالَةُ التَّعبير بالمَصْدَرِ (حكمه):

التَّأكيدُ عَلى وُجوبِ التَّحاكُمِ إلى الشَّرعِ عندَ وُجودِ الاخْتِلافِ

جاء التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ الصَّريح (حُكْمُهُ) في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ ليدلَّ على الحدث مُجرَّدًا عن الزَّمن؛ إذْ ليس في صيغة المَصْدَر ما يدلُّ على مُضيٍّ ولا استقبالٍ، فالمَصْدَرُ يقوم بنفسِه في المعنى. والتَّعبيرُ في هذا السّياق بالمصدر الصّريح لكون الحدثِ ممّا يجب إيقاعُهُ، وهو الاحتكام إلى الشَّرع المُنَزَّل. فكانت جملةُ ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ جملةً خبريَّة في اللَّفظ، والمراد بها الأمر، أي: فاحتَكِموا فيه إلى اللّهِ تعالى. وفي التَّعبير عن الأمر بالخبر إيماءٌ إلى التَّأكيد على امتثالِه أشدَّ تأكيدٍ وأبلَغَهُ.

معنى ﴿إِلَى﴾ ودِلالَتُها في ﴿إِلَى ٱللَّهِۚ﴾:

﴿إِلَى﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ حرفٌ دالٌّ على

(1) سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير، ص: 230.

(2) الدّرّة، تفسير القرآن وإعرابه: 8/ 949.

انتهاءِ الغايَةِ، وهي هنا للانتهاءِ المجازيِّ، والمرادُ بها التَّمثيلُ، فقد مُثِّلَ تأخيرُ الحُكْمِ إلى حلول الوقت المعيّن له عِنْدَ اللّهِ سُبحانَهُ، بسيرِ السّائرِ إلى أحدٍ ينزِلُ عِنْدَهُ[1]، وفيه إبرازُ المَعْنَويِّ في صورةِ المَحْسوسِ، وذلكَ أعلَقُ بالذِّهن وأثبَتُ.

تَرْسيخُ المَعاني بإخْراجِها في صورَةِ المَحْسوساتِ

موقِعُ جُمْلَةِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ ممّا قبلَها:

الجملةُ في قول اللّهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ واقعةٌ موقعَ مقولٍ لقَوْلٍ محذوفٍ، دلَّ عليه قولُهُ سُبحانَهُ قبلُ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾، فتكونُ بذلكَ كلامًا مُسْتَأنفًا؛ إذِ الإنذارُ يَقْتَضي كلامًا مُنْذَرًا به. ويجوز أن تكونَ الجملةُ مُتَّصلة بجملةِ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ تتمَّةً للكلام الموجَّه من اللّهِ ﷻ، ويكون في قوله: ﴿رَبِّي﴾ التفاتٌ مِن الخِطاب إلى التَّكلُّم، والأصلُ: ذلكُمُ اللّهُ ربُّكم. وتكون جملتا ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ مُعْتَرِضَتَيْنِ[2]. وفي هذا الالتِفاتِ إظهارٌ للقُرْبِ والاختصاصِ.

في الالتفاتِ إيماءٌ إلى مَعْنى القُرْبِ والاخْتِصاصِ

الغرضُ مِنَ التَّعبير باسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾:

عُبِّر باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، وهو دالٌّ على البُعْدِ؛ لإرادةِ التَّعظيم والتَّفخيم والدّلالةِ على شرفِ القَدْرِ ورِفْعَةِ المَنْزِلةِ، والمعنى: ذلكمُ اللّهُ العظيمُ. ويلزَمُ من هذا تعظيمُ حُكْمِهِ، فالمعنى: اللّهُ العظيمُ في حُكْمِه هو رَبّي الذي توكَّلت عليه، فهو كافيني مِنْكُم[3]. وكذا فيه إيماءٌ إلى تعظيمه من حيثُ اتِّصافُه بما تقدَّم من الأوصافِ، مِن كونه تَعالى هو يُحْيي المَوْتى، وكونه سُبْحانَه على كلِّ شيءٍ قدير، وكونه ﷻ الحَكَمَ فيما اختلفوا فيه؛ فإنَّ الحُكمَ يرجِعُ إليه وحْدَهُ[4]. وفي التَّعبيرِ باسم

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ وعظمَةُ حُكْمِهِ وتَشْريعِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 41.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 42.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 42.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 17.

الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ إيماءٌ إلى بُعْدِ ذاته سُبحانَهُ عن ممثالَةِ الذّاوتِ، وبُعْدِ صفاتِهِ عن ممثالةِ أوصافِ المخلوقينَ(1).

سِرُّ الجمعِ بين الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ وبينَ اسم (الرَّبِّ):

دِقَّةُ البيانِ القُرآنيِّ في رَبْطِ مَطالِعِه بِمَقاطِعِهِ

جُمِعَ بين الاسْمِ الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ وبين اسم (الرَّبِّ) في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾؛ للجَمْعِ بينَ وصْفَي الأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة؛ ليكونَ الثّاني دليلًا على الأوّل، فاللّهُ ﷻ مستحِقٌّ العبادةَ لكونِهِ منفردًا بأوصافِ الرُّبوبيَّة. وفي اجتماعهما أيضًا: ربطٌ للجُمْلَةِ بمَطْلَعِ الآية ومَقْطَعِها؛ فإنَّ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ له تعلُّق بمطلع الآية مِن جهة أنَّ الاختلافَ المَذْكورَ في قوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾ يَرْجِعُ أغْلَبُهُ إلى أمرِ العِبادَةِ، واسم ﴿ٱللَّهُ﴾ تعالى أنسبُ لِهَذا المَعْنى؛ إذْ مَعْناهُ: المألوهُ المَعْبودُ بحقٍّ. واسمُ اللّهِ (الرَّبِّ) يتعلَّق بمقطع الآية؛ فإنَّه يدلُّ على طلبِ الرِّعاية والأوبة للّه تَعالى، وإجابَتُها مِن أفعالِ اللّهِ تعالى، وأفعالُه سُبْحانه من أفراد ربوبيَّته ﷻ.

الغرَضُ مِنَ التَّعبير بلفظِ الرُّبوبيَّة مُضافًا إلى ياءِ المتُكَلِّم ﴿رَبِّي﴾:

انفرادُ اللهِ تَعالى بالرُّبوبيَّة دليلُ اسْتِحْقاقِهِ الأُلوهيَّة

أُضيفَ اسمُ اللّهِ تعالى (الرَّبِّ) إلى ضَميرِ المتكلِّم في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾؛ لإرادةِ تشريف المضافِ إليهِ؛ وهو النَّبيُّ ﷺ، فكان في الإضافة إيماءٌ إلى رفعةِ قَدْرِهِ ﷺ وسموِّ شرفِهِ؛ لإفاضة اللّه تعالى عليه مِن مَعاني التَّربية والإحسانِ، والتَّعهُّد والرِّعاية. وقُدِّم الاسمُ الأحسَنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ الواقعُ مُسْنَدًا إليهِ على المُسْنَدِ ﴿رَبِّي﴾؛ تقريرًا وتأكيدًا لمعنى الأُلوهيَّةِ واهتمامًا بها؛ لأنَّ النِّزاعَ بين الأنبياءِ وأُمَمِهم كانت حولها، ثُمَّ أُخْبِرَ بلفظِ الرُّبوبيَّة؛ لتنزيلِ الخبرِ منزلةَ الدَّليلِ على استحقاقِ اللّه تَعالى الألوهيَّةَ، وهو انفرادُهُ بالرُّبوبيَّةِ.

موقِعُ جملةِ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ ممّا قبلَها:

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في موقعِ رفعٍ خبرٌ ثالثٌ للمُبْتَدَأ

(1) العزّ بن عبد السّلام، الإشارة والإيجاز، ص: 443.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾[1]. وفيه دلالةٌ على قوَّةِ توكُّلِ النَّبيِّ ﷺ واعتمادِه على ربِّهِ سُبحانَهُ في جميع أمورِه؛ إقرارًا بأنَّ اللّهَ تَعالى هو الرَّبُّ الكاملُ في رُبوبيَّتِه.

عِظَمُ تَوكُّلِ النَّبيِّ ﷺ

الغرَضُ مِن تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

قَصْرُ التَّوكُّلِ والإنابةِ عَلى اللهِ تَعالى

قُدِّم الجارُّ والمجرور في الموضِعَيْنِ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ للدّلالة على القَصْر والحصر؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخير يُفيدُ ذلك، والمَعْنى: لا أتوكَّل إلّا عليه، ولا أُنيب إلّا إليه[2]، ومقامُ التَّوحيد يَقْتَضي هَذا الأسلوبَ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾، والمُضارِع ﴿أُنِيبُ﴾:

كمالُ العَبْدِ بكَمالِ تَوكُّلِه وإنابَتِهِ

إيثارُ التَّعبير بالفعلِ الماضي عن فِعْلِ التَّوكُّل في قول اللّه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، وبالفعل المُضارع عن فِعْلِ الإنابةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾؛ لأنَّ التَّوكُّل أمرٌ واحدٌ مستمرٌّ، فناسبَهُ المُضيّ، ولأنَّ الإنابةَ مُتَعَدِّدة متجدِّدة بحسَب تجدُّد موادِّها، فناسبَها المُضارعُ[3].

وهذانِ الأصلانِ كثيرًا ما يَقْرِن اللّهُ تعالى بينَهما في القرآنِ الكريم؛ لأنَّه يحصل بمَجْموعِهما كمالُ العَبْدِ، وبِفَوْتِهما أو فوتِ واحِدٍ منهُما يفوتُه الكَمالُ، كَما قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: 5]، وقال سُبْحانَهُ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: 123][4].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإنابة والرّجوع:

بَيْنَ الرُّجوعِ والإنابةِ عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ

الرُّجوع: هو المَصيرُ إلى المَوْضِعِ الذي قَد كانَ فيه قبلُ[5]. والإنابَةُ:

(1) صافي، الجدول: 13/ 23.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 53.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 54.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 753، 754.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.

هيَ الرُّجوع عن مُنْكَر[1] أو الرُّجوع إلى الطّاعة[2]، أو هي الرُّجوع إلى مُنْتَهى القَصْدِ، كما قال اللّهُ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كأنَّ اليومَ الآخِر هو مُنْتَهى قَصْدِهِم؛ لأنَّه لا منزلَ لَهُم بعدَها[3].

وبِهَذا يتبَيَّن؛ أنَّ بَيْنَ الرُّجوع والإنابةِ عُمومًا وخُصوصًا وجْهيًّا؛ فيشتركانِ في محلٍّ، وينفَرِدُ كُلٌّ مِنْهُما في محلٍّ آخرَ، فمحَلُّ الاتِّفاقِ: الرُّجوع عن المُنْكَرِ إلى الطّاعة، لِمَن كان حالُه عَلى الاستقامَةِ ثُمَّ عدَلَ عنها لعارِض، فرُجوعُه إلى الطّاعَةِ: رجوعٌ وإنابة. وينفَرِدُ الرُّجوع فيمن كان حالُه على الانْحِرافِ، ثُمَّ استقامَ مُدَّةً، ثُمَّ رجع إلى ما كان عليه مِنَ المُنْكَرِ، فهَذا رجوعٌ لا إنابةٌ. وتَنْفَرِدُ الإنابَةُ فيمَن حالُه على غيرِ الاسْتِقامَةِ، ثُمَّ تابَ ولَزِمَ الطّاعة، فهذا مِنْهُ إنابَةٌ لا رُجوعٌ.

(1) أبو حيّان، تحفة الأريب: (نوب).

(2) حموش، التّفسير المأمون: 6/ 681.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهُما:

الالتجاء إلى الله تعالى وحدَه متبوع ببيان أسبابه وجدواه

لمّا ذكر النَّظمُ الجليل في الآية السّابقة أنَّ النَّبيَّ ﷺ وصف اللّه تعالى بصفات الكمال، من الإحياء والإماتة، والحُكم بين المختلفين، وأنَّه هو ربُّه وحدَه، لا تلك الآلهةُ الَّتي تدْعون من دونه، وحصر توكُّله عليه في جميع شؤونه؛ أتبعه ببيان الأسباب الَّتي تحمله على الالتجاء على اللّه تعالى وحده، فقال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فخالقُ العوالم جميعًا جديرٌ بأن يُعتَمد عليه، ويُستعان به(1).

ومن المناسبة: أنَّه لمّا أُخبِرَ عن اللّه تعالى بأنَّه على كلِّ شيء قدير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشّورى: 9]؛ أتبعه بخبر ثانٍ عن الضَّمير، فإنَّ خلْقَ السَّماوات والأرض من أبرز آثار صفة القدرة المنفرد بها(2)، ثمَّ أتبع ذلك بما يتسبَّب عنه؛ فلمّا ثبت أنَّه تعالى هو خالق السَّماوات والأرض، وأنَّه لا خالق سواه، وما أتبعه من ذِكر التَّزاوج والتَّناسل وبثِّ المخلوقات؛ أتبع ذلك بما هو كالنَّتيجة ببيان الدَّليل، فلمّا انفرد تعالى بالخلق؛ أتبعه بأنَّه المنفرد بالرِّزق، فقال: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾(3).

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 21.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 43.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 256، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 48.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَاطِرُ﴾: (فطر) أصلٌ يدلُّ على فتح شيء وإبرازه، وعلى خروج الشَّيء أو نفاذِه أوَّلَ أمره، بأن يَشُقَّ ما فوقه، ومن معنى الأوَّليَّة والبَدْء يأتي معنى الخلق؛ لأنَّه بدءُ الوجود، وفَطَر اللهُ الخَلْقَ: خَلَقَهم، وابتدأ صَنْعة الأشياء، وهو فاطرُ السَّماواتِ والأرض، فالفَطْرُ: الابتداءُ والاختراعُ، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كنت لا أدري ما فاطِرُ السَّماوات، حتَّى أتاني أعرابيّان يختصِمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها، أي: أنا ابتدأتها[1]، والمراد به في الآية الكريمة: مبتدؤُهما بالخَلق والإخراج من العدم[2].

2) ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: (ذرأ) أصلٌ يدلُّ على بذر الشَّيء وزَرْعه، وذَرَأ اللّه الخلق يذرؤهم، أي: خَلَقَهُم، وذَرَأْنا الأرضَ، أي: بَذَرْناها، ويدلُّ الأصل على نشر أشياء دقيقة وانتشارها، فاللهُ تعالى أنشأ الخلق ونشرهم في الأرض بتناسلهم، ومنه: الذُرّيَّةُ، وهي نَسْلُ الثَّقَلَيْنِ، والجمع: الذَّراريُّ[3]، والمراد به في الآية الكريمة: تكثيرُ الخَلْق والذُّرّيَّة[4]، أي: لتكثروا أنتم، وتكثر الأنعامُ[5].

3) ﴿مَقَالِيدُ﴾: (قلد) أصلٌ يدلُّ على حوزِ الشَّيء بحبس شديد، والمقاليد: هي الخزائن، سُمّيت بذلك؛ لأنَّها تُحصِّن الأشياء، أي: تحفظُها، وتحوزها، والعرب تقول: أقلد البحر على خلق كثير؛ إذا أحصنهم في جوفه[6]، والإقليد: المفتاح، والمِقلادُ: الخزانة، ويجمع على: مَقاليد، وأَقْلَدَ البحر على خلق كثير أي: ضمَّ عليهم، والقَلْدُ: جَمْعُ الشَّيْءِ القَليل إلى القَليل حتّى يَجْتَمِعَ، والمِقْلَدُ: الوِعاءُ[7]، والمراد به في الآية الكريمة: مفاتيح السَّماوات، فكلُّ شيء في السَّماوات والأرض؛ فاللهُ تعالى هو خالقُه، وفاتحُ بابِه[8].

---

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فطر).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 256.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذرأ).
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 395.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذرأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلد).
(7) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قلد).
(8) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 361.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

موجِدُ الخَلْق على نظام الزَّوجيَّة؛ إلهٌ واحد فردٌ لا شبيهَ له

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّ اللّه تعالى هو خالق السَّماوات والأرض بقدرته ومشيئته وحكمته، وقد جعلكم أزواجًا، فزوَّجكم من أنفسكم؛ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذُّرّيَّة، ويحصل لكم من النَّفع ما يحصل، وجعل لكم من جميع أصناف الأنعام نوعين ذكرًا وأنثى؛ لتبقى، وتنمو لمنافعكم الكثيرة، فجعل ذلك لأجلكم، ولأجل النِّعمة عليكم، وبهذا التَّزويج يبثُّكم ربُّكم، ويكثِّركم، ويكثِّر مواشيكم نسلًا بعد نسل من النّاس والأنعام، وإنَّ اللّه تعالى ليس يشبهه شيءٌ، ولا يماثله خَلْق من مخلوقاته ذاتًا وصفاتٍ وأسماءً وأفعالًا، فليس كمثله شيء؛ لانفراده وتوحُّده بصفات الكمال من كلِّ وجه، ومن صفاته أنَّه يسمع جميعَ الأصوات، باختلاف اللُّغات، وأنَّه بصير يرى كلَّ شيءٍ، فيرى دبيب النَّملة السَّوداء، في اللَّيلة الظَّلماء، على الصَّخرة الصَّمّاء[1]، وإنَّ اللّه تعالى الذي فطر السَّماوات والأرض، هو مالكُهما وما فيهما من خير، وبيده مفاتيح الرَّحمة والأرزاق، وهو تعالى يوسِّع الرِّزقَ على مَن يشاء من النّاس، وهو الَّذي يُضيِّق على مَن يشاء، حتّى يكون بقدر حاجته لا يزيد عنها، وكلُّ هذا تابع لعلمه وحِكمته، فهو تعالى يعلم أحوالَ عباده، فيعطي كلًّا ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئتُه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع الخبر ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للمتقدِّم:

خَلْقُ السَّماواتِ والأرض أثَرٌ من آثار كمال القَدَر

أورد النَّظمُ الجليل قولَه جلَّ شأنه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خبرًا ثانيًا عن الضَّمير المتقدِّم ذِكْرُه في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾ [الشّورى: 9]، وقولُه تعالى ذِكره بينهما: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 507، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 754.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 754، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 484.

فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ
١٠﴾ [الشّورى: 10] اعتراضٌ؛ إذ لمّا ذكر أنَّه على كلِّ شيء قدير؛ بيَّن أنَّ
مِن آثار قدرته خَلْقَ السَّماواتِ والأرض(1).

بلاغةُ انتقاءِ مفردة ﴿فَاطِرُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اللـه تعالى موجِد الأشياء من العدم

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بفَطْرِ السَّماوات والأرض في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لدلالة الفطر على ابتداء الخَلْق من العدم، فالفَطْرُ هو الابتداءُ والاختراعُ(2)، فعبَّر بذلك؛ للدَّلالة على أنَّه هو الَّذي بدأ خلْقَهما، وأخرجَهما من العدم(3)، وجيء به على صيغة اسم الفاعل؛ للدَّلالة على ثبوت هذا الوصف له تعالى، فهو متَّصف بهذا الوصف الدّالِّ على تفرُّده بالألوهيَّة.

موقع جملة ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ النَّحويُّ:

نظام الزَّوجيَّة حالٌ عجيب من أحوال خَلْق الأرض

أورد النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ حالًا من الضَّمير في اسم الفاعل ﴿فَاطِرُ﴾؛ وذلك لأنَّ مضمون الجملة - وهو خَلْق المخلوقات بنظام الزَّوجيَّة - يبيِّن حالًا من أحوال فَطْرِ السَّماواتِ والأرض، فإنَّ خَلْق تلك المخلوقات الحَيَّة من الإنسان والأنعام من أعجب أحوال خَلْق الأرض(4).

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿جَعَلَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تكوينُ نظام الزَّوجيَّة من النَّفس الواحدة

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بفعل الجعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ وذلك لدلالة الجَعْل على "إيجاد شيء من شيء، وتكوينه منه، نحو: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النّحل: 72]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 43، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 411.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (فطر).
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 17/ 256.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 43، 44.

[النّحل: 81]"[1]، فعبَّر به للدَّلالة على أنَّ الأزواج قد أوجِدت من الأنفس، وعبَّر بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على أنَّ تلك النِّعمة قد تحقَّقت، فهي موجبةٌ للشُّكر والامتنان والاعتراف بالتَّوحيد[2].

معنى اللّام في ﴿لَكُم﴾ ودلالة التَّعبير بها:

غـايـةُ إيـجـاد الأزواج إدامـةُ الحياةِ امتنانًا على النّاس

عبَّر النَّظمُ الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ بحرف الجرِّ (اللّام) الدّالِّ على التَّعليل[3]؛ ليؤدّيَ معنى: أنَّ غاية الخَلْق بتلك الصِّفة كان من أجل المُخاطَبين؛ إذ بالزَّوجيَّة تصلح الحياةُ، وتدوم.

معنى ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِّنْ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، وهي هنا ابتدائيَّة، أي: إنَّ الزَّوجيَّة صدرت من الأنفس.

فائدة ذِكْر قيدِ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

الـتَّـزويـجُ من الجنس الواحد نظامٌ متقن من أنظمة الخَلْق العجيب

قيَّد النَّظمُ الجليل الجَعْلَ بشِبه الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ إيجاد الأزواج كان من جنس المخاطَبين[4]، وهذا من تمام النِّعمة وكمالها؛ إذ لو جُعِل أحدُ الزَّوجين من نوع آخر؛ لفاتَ نعيمُ الأنسِ[5]، ويوحي لفظ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ أيضًا بوحدة الزَّوجين في الغاية والهدف من وجودهما ابتداءً، ثمَّ تزويجهما؛ ليُؤدّيا يدًا بيد مهمَّةَ عمران الأرض، وإصلاحها.

التَّجانسُ باعثُ المحبَّة والالتئام وسبيلُ الدَّوام

وفي تحديد الجنس بالنِّساء الأزواج استعارةٌ، والمعنى: خلق لكم من جنسكم لا من جنس غيركم، فإنَّ التَّجانس شرطُ التَّضامِّ، وباعثُ المحبَّة والالتئام، ويجوز أن يكون المَعْنى: خَلَق لكم من أنفسكم

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 256.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 44.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 24.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 44.

أزواجًا، فإنَّ حوّاء خُلِقت من ضِلَع آدمَ، وسائرَ النِّساء خُلِقنَ من نُطَف الرِّجال[1].

غرضُ تنكير ﴿أَزْوَاجًا﴾:

كثرةُ الأفراد والمخلوقات تقضي بكثرة الأزواج

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الأزواج بصيغة التَّنكير في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَاجًا﴾؛ للدَّلالة على التَّكثير، أي: "جعل لمجموعكم أزواجًا، فللذُّكور أزواجٌ من الإناث، وللنِّساء أزواجٌ من الرِّجال، وذلك لأجل الجميع؛ لأنَّه بذلك الجَعْلِ حصلت لذَّةُ التَّأنُّس ونعمةُ النَّسل"[2].

نُكْتَةُ ترتيب القيود: ﴿لَكُم﴾ ثمَّ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ثمَّ ﴿أَزْوَاجًا﴾:

المقصودُ بالإنعام بالتَّزويج المخاطَبون

رتَّب النَّظمُ الجليل قولَه جلَّ شأنه: ﴿لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ترتيبًا بارعًا؛ فقدَّم شِبهَ الجُملة ﴿لَكُم﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المذكور في مضمون الخطاب إنَّما هو لأجل المخاطَبين، فيُقدَّم الامتنانُ على ذِكر المُمتنِّ به؛ تنبيهًا على فخامة النِّعمة ووجوبِ شُكرِها، ثمَّ ذكر بعدَه القيد: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ لأنَّ كونَ الزَّوجِ من الجنس ذاته والنَّوعِ نفسِه أهمُّ من التَّزويج، ثمَّ أعقب ذلك بقوله: ﴿أَزْوَاجًا﴾، وهو المقصود بالخطاب والامتنان، فأخَّره تشويقًا لذِكره.

بلاغةُ واو العطفِ، ودورُها الوظيفيُّ في الإيجاز:

خَلْقُ أزواجِ الأنعام كخَلْق الأزواج في النّاس

عطف النَّظمُ الجليل جَعْلَ الأنعام أزواجًا على جَعْلِ النّاس في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَاجًا﴾، والتَّقدير: وخلق أيضًا للأنعام من أنفسها أزواجًا[3]، وهذا العطف أفاد الإيجازَ، بالاعتماد على المذكور في السّياق سابقًا.

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 207.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 44.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 582.

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

عرَّف النَّظمُ الجليل الأنعامَ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾، وهي هنا لتعريف الجنس، فيشمل الحُكمُ جميعَ الأنعام.

توجيهُ تخصيصِ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ بالذِّكر:

سياقُ الامتنانِ أدعى لذِكر الأنعام دونَ الوحوش

خصَّ النَّظمُ الجليل ذِكْرَ الأنعامِ من الدَّوابِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ وذلك؛ لأنَّ الأنعام من تمام معيشة الإنسان[1]، ففائدةُ "ذِكْرِ أزواج الأنعام دونَ أزواج الوحش: أنَّ في أنواع الأنعام فائدةً لحياة الإنسان؛ لأنَّها تعيش معه، ولا تنفر منه، وينتفع بألبانها وأصوافها ولحومها ونسلها وعملها من حمل وحرث، فبجعْلِها أزواجًا حصل معظمُ نفعِها للإنسان"[2].

سرُّ تَكرار لفظ الأزواج:

المراد بالأزواج الأصنافُ والأنواعُ

المُراد بـ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾، أي: أصنافًا، جمع صنف، بمعنى: النَّوع، نوعِ الإبل، ونوعِ البقر، ونوعِ الضَّأن، ونوعِ المعز؛ لأنَّ الأزواج قد يُراد بها الأصناف[3].

فنُّ الجناس في لفظ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

التَّنبيهُ على عِظَم تلك النِّعمة، وتنبيهُ الأفهام على جليل الامتنان

كرَّر النَّظمُ الجليل لفظَ الأزواج في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾، وهو جناس تامٌّ، فائدتُه: التَّنبيهُ على عِظَم تلك النِّعمة، وتنبيهُ الأفهام على جليل الامتنان، فضلًا عمّا فيه لذَّةٌ في الأسماع بتكرير الألفاظ ذاتها.

نُكْتَةُ تقديم ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ على المفعول به:

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 286.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 44.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 207.

الأنعامُ هي محلُّ الإنعام بتكثيرها بالزَّوجيَّة

به في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ لأنَّ المقصود من الامتنان هو الأنعام التي وقع التَّزويج فيها، فتقديمُها لأنَّها الأهمُّ في السّياق.

تكثيرُ الذُّرّيَّة ونشرُها نعمةٌ جليلةٌ ومنَّةٌ بليغة

بلاغةُ اختيار الذَّرء مادَّةً وصيغةً:

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالذَّرْء في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾؛ للدَّلالة على البثِّ والانتشار والتَّكثير، فالذَّرءُ يدلُّ على تكثير الخَلْق وبثِّهم في الأرض، ويشير إلى توالي الأجيال على مرِّ الزَّمان، والمعنى: يكون لكم في الأزواج من البشر نطفٌ وجمالٌ وولادة، وفي الأنعام غذاءٌ وشرابٌ وأكلٌ، وغيرُ ذلك ممّا لكم فيه من المنافع، ولا تزالون في هذا الوجه من الخَلْق والتَّزاوج نَسْلًا بعد نسل وجيلًا بعدَ جيل[1]، ومن هنا فصَوْغُه على هيئة المضارع لإفادة التَّجدُّد والاستمرار، وهذا أنسبُ في مقام الامتنان[2].

تغليبُ العاقل المخاطَب على غيره إيجازٌ بديع

بلاغةُ التَّغليب في ضمير المخاطَب:

غلَّب النَّظمُ الجليل الخطابَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾، وذلك بتغليبه مخاطبةَ العقلاءِ على غيرهم، والمُراد به النّاسُ والأنعام جميعًا، وتغليبِه ضميرَ الخطاب على ضمير الغائب[3]، وإنَّما غلَّب مخاطبةَ النّاس على غيرهم لاعتبارين، الأوَّل: اعتبارُ مكانةِ العقل، والثّاني: لكون الخطاب في مبتدأ الآية جيء به للنّاس[4]، ففيه تغليبان، **الأوَّل**: تغليب المخاطَبين على الغائبين، والغائبون هم الذين لم يكونوا زمان التَّنزيل، وسيوجدون إلى يوم القيامة، وعلَّة هذا التَّغليب الخطاب، **والتَّغليب الثّاني**: هو تغليب العقلاء على غيرهم، وعلَّته العقل[5]، وهذا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 45.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 582، وابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 245.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 21.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 69.

من براعة التَّغليب؛ إذ تضمَّن تغليبيْن في لفظ واحد، وإنَّما غلَّب الضَّميرَ هنا؛ لأنَّ اللُّغة العربيَّة لم تضع ضميرًا يجمع بين العقلاء وغيرهم، كأن يقال: يذراكِ بكسر الكاف على أنَّه خطاب لجماعتهم[1].

بلاغةُ حرف الظَّرفيَّة:

الـزَّواج سبيلُ الاستيلاء على القلوب

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ الدّالِّ (في) على الظَّرفيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾؛ لأنَّه لمّا كان الأزواج في غاية المحبَّة للزَّواج بحيثُ إنَّه مستولٍ على القلوب، كأنَّه محيط بهم، فقال: ﴿فِيهِۚ﴾، أي: في ذلك التَّزاوج بحيثُ يجعلكم مولَعين به[2].

التَّزويج سببٌ للتَّكثير

وعبّر بالظَّرفيَّة أيضًا؛ لأنَّه جعل التَّزويج ظرفًا للتَّكاثر ومنبعًا له[3]، والظَّرفيَّة هنا مستعارةٌ لمعنى السَّببيَّة، فشَبَّه السَّببَ بالظَّرف من حيثُ إنَّ السَّبب يحتوي على مسبِّباتِه، كما أنَّ المنبع يحتوي على مائه[4]، والتَّشبيه بالمنبع يُشْعِر بأنَّه مدخول في ﴿فِيهِۚ﴾ استعارَةٌ مكنيَّة، ولفظةُ (في) قرينةٌ تخييليَّة، أو لفظةُ (في) استعارَةٌ تبعيَّة[5].

تعيينُ مرجع الضَّمير في ﴿فِيهِۚ﴾:

التَّكثيرُ واقع بالتَّزويج، وبجَعْل الله تعالى له

أعاد النَّظمُ الجليل الضَّميرَ المجرور بالظَّرفيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ على مصدر من الكلام السّابق، وهذا المصدر يصحُّ أن يؤخذَ من قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾، فيقدَّر بالجَعْل، أي: يذرؤكم في هذا الجَعْل، فهو كما تقول: كلَّمتُ زيدًا كلامًا أكرمتُه فيه[6]، ويصحُّ أن يؤخذ من مدلول السّياق، فقدَّره الرّازيُّ بالتَّدبير، وهو التَّزويج المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾، فجعل النّاس والأنعام أزواجًا، فكان بين ذكورهم وإناثهم التَّوالدُ والتَّناسل[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 45.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 257.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 582.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 45.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 207.
(6) ابن جزيّ، التسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 245.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 582.

بلاغةُ جملة ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ في السّياق:

تمام القدرة والنِّعم المذكورة تدلُّ على إله متفرِّد بالذّات والصِّفات

عبَّر النَّظمُ الجليل بقوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ بعد ذكرِ خَلْقِه المخلوقاتِ الدّالَّةَ على كمال عظمته، وبيانِ أنَّه خَلَق الأزواج؛ ليبيِّن هنا نفيَ مماثلته لمخلوقاته، فهو الفرد الصَّمد تعالى أن يكون له شيءٌ يماثله، فضلًا عن أن يكون له زوج، فهو الواحد الأحد الفرد الصَّمد[1]، وهذه الجملةُ هي كالنَّتيجة لما ذُكِر من النِّعم العِظام، فإنَّ تلك النِّعم تُبيِّن أنَّ الله تعالى واحد، لا يماثله شيءٌ في التَّدبير والإنعام[2].

فائدة استعمال ﴿لَيۡسَ﴾:

التَّعدُّد في الإلهيَّة منتفٍ على وجه التَّأكيد

آثَر النَّظمُ الكريم النَّفيَ بـ ﴿لَيۡسَ﴾ الداخلة على الجملة الاسميَّة المصدَّرة في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾؛ لأنَّ المراد "نفيُ التَّعدُّد عنه سبحانه مطلقًا على سبيل المبالغة والتَّأكيد، فثبتَ حينَئِذٍ أن لا موجودَ سواه، ولا تحقُّق لغيره"[3]، فالنَّفي بـ ﴿لَيۡسَ﴾ أفاد تأكيدَ النَّفي والمبالغةَ فيه.

نوع الكاف ودلالتُها في الآية:

الإلهُ العظيم ليس له مثيلٌ بوجه من الوجوه

عبَّر النَّظمُ الجليل بكاف التَّشبيه في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، وأدخلها على لفظة (مثل) التي توافقها في المعنى؛ تأكيدًا لنفي المماثلة[4]، وحسَّنَ الجمعَ بينهما أنَّ الكاف حرفٌ والمِثْلَ اسمٌ، فلا يُسبِّب ذلك ثِقلًا في اللَّفظ، وأفاد تأكيدُ نفي المماثلة تعليمَ المسلمين كيفيَّةَ إبطالِ مماثلة الأصنام للّٰه تعالى[5]، فالمقصود هو نفيُ التَّشبيه والمماثلة، وإنَّما لم يقل: (ليس كاللّٰه شيء)، أو: (ليس

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 45 - 46.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 286، وينظر: الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 26.
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 395.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 46.

مثلَهُ شيءٌ)؛ لأنَّه أراد تقديمَ ذلك النَّفي مع الدَّليل والحُجَّة عليه، فقولُك: مِثلُ فلانٍ لا يكذب، فليس المراد نفيَ صفةِ الكذب عن شخصٍ يماثله، بل الجملةُ تبرئة له هو ببُرهانٍ كلّيٍّ، بمعنى أنَّ من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كاذبًا؛ وذلك لوجود التَّنافي بين طبيعة هذه الصِّفات وبين ذلك الكذب، فالآيةُ تقول: مِثْلُه تعالى لا يكون له مِثلٌ، بمعنى أنَّ مَن كانت له تلك الصِّفات الحسنى لا يمكن أن يكون له شبيهٌ[1].

بلاغةُ الكناية في جملة: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾:

أفـادت الكـنـايةُ إثـبـاتَ الـشَّيء ببيِّنة

لما أُريد نفيُ (مِثله) تعالى بطَريق بُرهانيٍّ؛ سُلِك في نفيه مسلكَ الكناية، كما قالوا في المدح بالجود عَلى وجه المُبالَغَة: (مِثْلك لا يبخل، وغيرُك لا يجود)، لا يريد بهما نفيَ البُخل عن شخص يماثل الممدوح، ولا سلبَ الجود عن شخص يغاير الممدوح، وإنَّما يُريدونَ بالأوَّل نفيَ البُخل عن نفس الممدوح، وبالثّاني إثباتَ الجود له، وحَمْلُ الجملةِ على الكناية لا يُبقي فرقًا بين قوله: (ليس كاللّه شيء) وبين قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ إلّا ما تُعطيه الكنايةُ من فائدتها، وهي إثباتُ الشَّيء ببيِّنة؛ فيكونان كأنَّهما عبارتان معتقبتان عَلى معنًى واحد، وهو نفيُ المماثلة عن ذاته تعالى[2].

وجه التَّعبير بلفظ (مثل):

نفيُ المماثلة نفيٌ للنَّفس والصِّفة والصّورة

المرادُ بالمِثل في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ النَّفسُ، وهو أصله وحقيقتُه في اللُّغة، من قولهم: مَثُلَ الرَّجلُ يَمْثُل؛ إذا قام، وانتصب، والعربُ تُقيم المِثل مقامَ النَّفس، فتقول: مِثلي لا يقول هذا، أي: أنا، ويجوز أن يكون المِثل بمعنى الصِّفة: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾ [البقرة: 214]، أي: صفتهم، فمِثل

(1) دراز، النّبأ العظيم، ص: 167، 168.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 208، 209.

الشَّيء: صفتُه وصورتُه[1]، ممّا يعني أنَّ نفيَ المماثلة نفيٌ للنَّفس والصِّفة والصّورة.

دلالةُ نفي المماثلة:

لا شـيءَ في الـوجـود مِـثْـلُ الله تعالى ذاتًا وصفاتٍ

دلَّ نفيُ المماثلة في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ أن يكون في الموجودات شيء مِثْل اللّه تعالى في ذاته ولا في صفاته، فأبطلت كلَّ ظنونِ النّاس، وما نسبوه إلى اللّه تعالى من البنات والابن والشَّريك، وبذلك كان مناسبًا لوقوعه عقبَ قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾، كما أنَّها تنفي عنه كلَّ ما ثبتَ للمخلوقات من الزَّوجيَّة والنُّمو والموت، وغيرِه من عوارض الأحياء والأشياء[2].

بلاغةُ تقديمِ شبه الجملة على المسند إليه:

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة على المسند إليه في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾؛ وذلك لأنَّ "المراد نفيُه، فأولاه النّافي دلالةً على شدَّة العناية بنفسه"[3].

غرض تنكير ﴿شَيۡءٞۖ﴾:

دلالـة التَّنكير عـلى العـمـوم والشُّمول

آثَر النَّظمُ الكريم تنكيرَ لفظِ شيء في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾؛ وذلك لما في التَّنكير مِن دلالة على العموم والشُّمول، "أي: ليسَ مثلَه في شأن من الشُّؤون التي مِن جملتها هذا التَّدبيرُ البديعُ"[4]، فليس يُشبهه تعالى، ولا يماثلُه شيءٌ من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لانفراده وتوحُّده بالكمال من كلِّ وجه[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 258، 259.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 47.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 257.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 754.

نوع الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾:

نفيُ المماثلة لا ينفي صفاتِ الكمال

عطف النَّظمُ الجليل إثباتَ صفةِ السَّمع والبصر على جملة نفي المماثلة في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾؛ وذلك لإبطال تعطيل الصِّفات اتِّكاءً على نفي المماثلة على وجه المبالغة، فأثبت تعالى لنفسه صفات الكمال تفهيمًا للعباد وتبيينًا لهم[1]، وقرَّب المعنى بنوع ظهور، فذكر ما يُعقلُ مِن الأوصاف، وأتى بأوضحَ ما نُحِسُّه من أوصافنا، وأظهره مع استلزامه لبقيَّة الصِّفات[2].

بلاغةُ جملة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾:

كمال السَّمع والبصر دليلٌ على كمال العِلْم وإحاطتِه

عبَّر النَّظمُ الجليل بالجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾؛ للدَّلالة على تأكيد المعنى، والمبالغة في ثبوت مضمونها، فاللّه تعالى هو الَّذي له العِلْم البليغ بكلِّ ما يُسمَعُ، ويُبْصَر[3].

نُكْتَةُ تقديم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾:

السَّمع متعلِّق بالأقوال، وهي أكثر من الأفعال المتعلِّقة بالأبصار

قدَّم النَّظمُ الجليل صفةَ السَّمع على البصر في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾؛ وذلك لأنَّ السَّمع يتعلَّق بالأقوال، والبصر يتعلَّق بالأفعال، فهو تعالى السَّميع للأقوال، والبصير بالأفعال[4]، والأقوال أسبق من الأفعال.

غرضُ اقترانِ صفتَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾:

السَّمع والبصر آصَلُ طرائقِ العِلْم

أقرن النَّظمُ الجليل بين صفتَي السَّمع والبصر في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾؛ وذلك للمبالغة في صفة العلم[5]، فإنَّ السَّمع والبصر هما أبلغُ وسائل العِلْم، فجمع بينهما للمبالغة في وصفه تعالى بالعلم عن طريق جمع وسائله.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 260.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 260.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 332.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.

الإثباتُ بعد النّفي لرفع توهُّم انتفاء الصّفات المشتركة مع المخلوقات

بلاغةُ الجمع بين جملتي النَّفي والإثبات:

جمع النَّظمُ الجليل بين جملة النَّفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، وجملةِ الإثبات: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾؛ إذ لمّا نفى مماثلتَه تعالى للأشياء؛ أتبعه بإثبات صفات الكمال، وجاء ذلك "تنبيهًا على أنَّ نفي مماثلة الأشياء للّه تعالى لا يُتَوهَّم منه أنَّ اللهَ منزَّهٌ عنِ الاتِّصاف بما اتَّصفت به المخلوقاتُ من أوصاف الكمال المعنويَّة، كالحياة والعِلْم"[1].

المنفردُ بالخلق منفردٌ بالرِّزق

موقعُ جملة ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾ ممّا قبلها:

افتتح النَّظم الجليل الآية بالجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وهي بمنزلة النَّتيجة لما تقدَّم؛ لأنَّه لمّا بيَّن أنَّه تعالى منفردٌ بالخَلْق؛ كان مترتِّبًا على ذلك ونتيجةً عنه أن يكون منفردًا بالرِّزق[2].

مالكُ أسباب الخيرات هو المقتدر على التَّصرُّف فيها

نوع اللّام ودلالتُها في قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وهي هنا للمِلك، أي: الَّذي يملك مفاتيحَهما؛ للدَّلالة على أنَّ مَن يملك المفاتيح فهو يملك الخزائن[3]، فالجملة إخبارٌ يكمل التَّنزيهَ في الآية السّالفة، وتقريرٌ بأنَّه تعالى ليس كمثله شيء كغيره في هذا أيضًا، بل كما كان أنَّ له ما في الخافقين، وهو مخترعُهما، فلهُ مفاتيح خزائنهما[4].

علَّة تقديم شبهِ الجملة:

قدَّم النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة على المسند إليه في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ وذلك للدَّلالة على الاختصاص، أي: له وحدَه لا لغيره[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 48.
(3) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 282.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 261، 262.
(5) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 286.

بلاغة استعمالِ مفردة ﴿مَقَالِيدُ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ ﴿مَقَالِيدُ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه يملك شأن كلِّ شيء، كالمطر والنَّبات والجواهر المستخرجة من الأرض، وغيرِ ذلك، والذي يملك مفاتيحَ ذلك فهو يملك الخزائن[1]، فالمفاتيحُ الخزائن، وخزائنه مقدوراته[2]، وإنَّما ذكر المقاليد دون أن يقول: (له الملك)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّه يملك مفاتيح السَّماوات والأرض، وكلَّ شيء فيهما على وجه التَّفصيل لا على وجه الإجمال، وهذا أبلغ في سياق الامتنان والتَّعظيم.

مالكُ المفاتيح هو المالك لما حوت على وجه التَّفرُّد

غرض جمع ﴿مَقَالِيدُ﴾:

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بجمع المقاليد في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنَّ تلك المقاليد كثيرة، وللدَّلالة على أنَّه تعالى يملكها جميعًا، وأنَّ غيره من آلهة المشركين لا تملك من شأنها شيئًا.

جميع خزائن المُلك بيد المليك المقتدر

بلاغةُ الكناية عن الخيرات بالمقاليد:

كنّى النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ عن خيرات السَّماوات والأرض وما فيها من نِعَم، فشبَّه الخيراتِ بالكنوز، وأثبت للخيرات مفاتيح، كما للكنوز مفاتيح، والمراد بيان أنَّ اللّه تعالى وحده المتصرِّف بما ينفع النّاسَ من الخيرات[3].

كلُّ الخيرات بيد الله تعالى ينفق منها كيف يشاء

موقع جملة بسطِ الرِّزق وتقديره:

ساق النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ لبيان مضمون قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[4]، فالإخبار عن التَّصرُّف بخيرات السَّماوات والأرض يراد منه بيانُ أنَّه وحده الَّذي يرزق العبادَ والخلائق.

مالكُ الملك هو متولّي رزقِ عبادِه من ملكه

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 282.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 262.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 49.

(4) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 282، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 49.

فائدة التَّعبير بالمضارع ﴿يَبۡسُطُ﴾:

الـــــرِّزقُ أمـرٌ متجدِّد لا يقتصر عـلى زمــان أو مكان

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن بسط الرِّزق في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ وذلك لتجدُّد بسطِ الرِّزق ودوامِه، فالرِّزقُ أمرٌ متجدِّد لا يقتصر على زمان أو مكان، وتقديره أبدًا بيد اللّه تعالى.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿يَبۡسُطُ﴾:

بـسـطُ الـــرِّزقِ دليلٌ على سَعته وكثرته

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ البسط في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على توسعته؛ لأنَّ البسط يقتضي المدَّ والسَّعة[1]، فشبَّه توسيعَ الرِّزقِ بشيءٍ يُبْسَط، فيمتدُّ، والجامع بينهما الاتِّساع.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾:

عرَّف النَّظمُ الجليل الرِّزقَ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ للدَّلالة على الجنس، فيستغرق كلَّ أنواع الرِّزق وأشكاله وأحجامه.

نوعُ اللّامِ في ﴿لِمَن﴾ ودلالتُها:

مراعاةُ الحكمةِ المطلقة في توزيع الأرزاق لا يَقْدر عليه إلّا العليم الخبير

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وهي هنا للتَّعليل، أي: " يوسِّعُ لمن ينبغي له التَّوسيعُ، ولو ضَيَّق له؛ لفسد"[2]، أي: يوسِّع رزقَهُ على بعض عباده؛ لأنَّهم يصلح لهم ذلك.

سرُّ إيثار الموصول (مَنْ) دون (ما):

الـــرِّزقُ بـرهـانٌ لـلإنـسـان على الخالق الرّازق

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول الدّالِّ على العاقل في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وإن كان تعالى يرزق كلَّ المخلوقات؛ وذلك لأنَّ سَعة الرِّزق مُساقةٌ حجَّةً ودليلًا على تفرُّده تعالى بالرِّزق، والإنسان هو المخاطَب بالتَّكليف والتَّوحيد، فكان توسيعُ الرِّزق على أهل العقل حُجَّةً بيِّنةً، وعِظَةً قائمة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 49.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 17/ 211.

نُكْتَةُ التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَشَآءُ﴾:

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن المشيئة بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ مشيئتَه تعالى المتعلِّقة بالرِّزق وتوسيعاته دائمةٌ متجدِّدة.

دلالةُ واو العطف في قوله: ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾:

توسيعُ الرِّزق وتضييقُه من كمال قدرة الخالق الجليل

عطف النَّظمُ الجليل تقديرَ الرِّزق على بسطه في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ للدَّلالة على كمال قدرته، فهو "يوسِّعُ، ويُضيِّقُ حسبما تقتضيهِ مشيئتُه المؤسَّسَةُ على الحِكَمِ البالغةِ"[1].

بلاغة استعمال مفردة (يَقْدِر) دون (يُضيّق):

التَّقديرُ تضييقٌ بحكمة ودراية وبمقدار مخصوص

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ التَّقدير دونَ التَّضييق في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ لأنَّ التَّضييق عامٌّ، أمّا التَّقدير؛ فهو تضييق بتقدير، ومعنى التَّقدير: أنَّه يجعله "على مقدارٍ مخصوص ووجهٍ مخصوص حسبما اقتضت الحكمة"[2]. فلفظ (التَّقدير) يتضمَّن التَّضييقَ مع دلالته على كونه تضييقًا بمقدار معلوم.

نُكْتَةُ حذفِ متعلِّق ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾:

حَذَف النَّظمُ الجليل متعلِّقَ فعلِ التَّقدير في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾، فلم يقل: (ويقدِر على مَن يشاء)؛ وذلك لطلب الإيجاز بالاعتماد على المفهوم من السّياق، وفي الإيجاز تنزيهٌ له تعالى عن التَّفصيل في وجوه التَّضييق في مواطن الإنعام، والمنِّ، وسَعة الرِّزق.

بلاغةُ المقابلة بين البسط والقدر:

موَسِّعُ الأرزاق ومُقدِّرُها هو الإلهُ المتفرِّدُ بالخَلْق

جمع النَّظمُ الجليلُ بين لفظَي البسط والتَّقدير في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ على سبيل المقابلةِ؛ إظهارًا لكمال ربوبيَّته تعالى، فهو الذي يملك شأنَ الرِّزق توسيعًا وتقديرًا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.
(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).

بسطُ الرِّزق وتقتيرُه ناشئ عن عِلم الله بما يَصْلُح للعِباد

علّة فصلِ جملة: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾:

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا، فلمّا ذكر البسطَ والتَّقدير في الرِّزق؛ أتبعه ببيان سببه وعِلَّته، وذلك لأنَّ اللّٰه تعالى "عليم بكلِّ ما يفعله من توسعةٍ على من يوسِّع عليه، وتقتيرٍ على مَن يقتِّر عليه، ومَن الذي يُصْلِحه البسطُ في الرِّزق، ومَن الذي يُفسده، ومَن الَّذي يصلحه التَّقتيرُ، ومَن الَّذي يُفسده، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك، فيفعل كلَّ ذلك على مقتضى حكمته الكاملة، وقدرته الواسعة، وعلمه المحيط"[1].

علَّة تقدير الرِّزق وتوسيعه عِلْمُ الله بما يَصْلح لعباده

بلاغة التَّوكيد في جملة الفاصلة:

سيقت جملة الفاصلة: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ لبيان علَّة توسيع الرِّزق وتقديره، وجيء بها مؤكَّدة؛ لأنَّ ظاهر النّاس، وهم يأتون بالمعاصي، ويجاهرون بها عملُ مَن يظنُّ أنَّ معاصيَه تخفى عن اللّٰه تعالى، فأكَّده ردًّا لهذا الوهم والظَّنِّ[2].

نوع الباء ودلالتُها في ﴿بِكُلِّ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، وهي هنا للإلصاق، فعِلْمُهُ تعالى متَّصلٌ بكلِّ شيء، ولا ينفكُّ شيءٌ عنه.

دلالة استعمال أداة العموم (كلّ):

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ العموم (كلّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ لتأكيد إحاطة علمه تعالى بكلِّ شيء[3]، ونفي خروجِ شيء عن حيِّز علمه.

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 23.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 263.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.

فائدة التَّعبير بالشَّيء وتنكيره:

أحاط عِلْمُ الله بكلِّ شيءٍ إحاطةً لا يخرج عنها شيءٌ

عبَّر النَّظمُ الجليل عن الشَّيء بالتَّنكير في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ وذلك لدلالة النَّكرة على العموم، فاللهُ تعالى يعلم كلَّ شيء، لا يخفى عنه منها خافية، وإنَّما عبَّر بلفظ (الشَّيء) دونَ أن يقول: (بكلِّ أحدٍ)؛ وذلك لأنَّ لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ هو أعمُّ دلالةً، فيدخل فيه النّاسُ وغيرُهم، فتكون الدَّلالة أشملَ، والمرادُ تأكيد شمول علمه تعالى.

براعةُ إضافة لفظ العموم (كل) للفظ ﴿شَيۡءٍ﴾:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ العموم إلى لفظ الشَّيء المنكَّر الدّالِّ على العموم في قوله جلَّ شأنه: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾؛ وذلك للمبالغة في كمال علمه وسعة إحاطته[1].

توجيهُ تخصيص صفة ﴿عَلِيمٞ﴾ بالذِّكر:

عِلْمُ الله تعالى متعلّق بخفايا ما يصلح لعباده

خصَّ النَّظمُ الجليل ذِكْرَ صفةِ العِلْم في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، بعد ذِكْر الرِّزق وتوسيعه وتقديره على عباده؛ وذلك للدَّلالة على أنَّه "يفعلُ كلَّ ما يَفعلُ على ما ينبغي أن يُفعلَ عليه"[2]، فتوسيع الرِّزق ليس جهلًا أو عبثًا، بل هو مندرج تحت عِلْم الله تعالى، وكذلك التَّقدير، ولمّا كانت أقدارُ الغِنَى والفقر خفيَّةً على حسب مشيئته تعالى؛ عبَّر بالعِلم للدَّلالة على أنَّه تعالى يعلم استحقاقات العباد وما يصلح لهم، وهي قد خفيت على أغلب النّاس[3].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الخلق والفطر والذرء:

الخَلْقُ: "التَّقْدير، يُقال: خلقتُ الأديمَ؛ إذا قدَّرته خُفًّا أو غيره"[4]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.

(3) المهايميّ، تبصير الرّحمن: 2/ 244.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

الفطر إظهارُ المخلوق من عدم، والخلقُ إيجاد شيء من شيء، والذَّرءُ نشرُ المخلوق

ويُستعمل في إيجاد الشَّيء من الشَّيء، نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1][1]، فهو تقديرُ شيءٍ وإيجادُه من مادَّة حاصلة، كتقدير الخُفِّ من الأديم.

أمّا الفَطْرُ؛ فهو "إظْهار الحادِث بإخراجِهِ من العَدَمِ إلى الوُجود، كَأنَّهُ شقَّ عَنهُ، فَظهر، وأصل الباب الشَّقُّ، ومع الشَّقِّ الظُّهور، ومن ثمَّ قيل: تفطَّرَ الشَّجرُ؛ إذا تشقَّق بالورق، وفطرتُ الإناء: شققتُه، وفطر اللّهُ الخَلْق: أظهرهم بإيجاده إيّاهُم، كَما يظْهر الوَرق؛ إذا تفطَّر عنه الشَّجرُ"[2]، وفَطْرُ اللّهِ الخلقَ: "هو إيجادُه الشَّيء وإبداعُه على هيئة مترشِّحة لفعل من الأفعال، فقولُه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرّوم: 30]، فإشارةٌ منه تعالى إلى ما فَطَرَ، أي: أبدع، وركز في النّاس من معرفته تعالى"[3]، فالفَطْر: إظهارُ المخلوق من العدم على هيئة مناسبة لما أُريد له.

أمّا الذَّرْءُ؛ فهو "إظهار اللّه تعالى ما أبداه، يقال: ذَرَأ اللّهُ الخَلْق، أي: أوجد أشخاصَهم"[4]، أي: أظهرهم بالإيجاد بعد العَدَم[5]، فهو إظهارٌ بعد الفَطْر والخَلْق، فالذَّرءُ: هو إيجادُ الشُّخوصِ ونَشْرِهم وتكثيرهم.

وعبَّر في الآية بالفطر؛ للدَّلالة على أنَّه تعالى أوجد السَّماواتِ والأرضَ لغاية وهيئة موافقتَين لما أراد لهما، وأنَّه أوجدَهما من العَدَم.

التقدير والتَّضييق:

القدر رزقٌ على قَدْرٍ مناسب، فهو تضييق مخصوص، والتَّضييق فقرٌ صريح

التَّقدير من القَدْر، وأصله يدلُّ على مبلغ الشَّيء وكُنهه ونهايته، والقدر: مبلغ كلِّ شيء، وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطَّلاق:

(1) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 133، 134.
(3) الرّاغب، المفردات: (فطر).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذرأ).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 138.

7]، فمعناه: قُتِّرَ، وقياسُه: أنَّه أُعطيَ ذلك بقَدرٍ يسير[1]، وقَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: ضيَّقْتُه، كأنَّما جعلتُه بقَدَر، بخلاف ما وصف بغير حساب[2].

أمّا التَّضييقُ؛ فأصلُه يدلُّ على خلاف السَّعة[3]، ويُستعمل في الفقر والبخل والغَمِّ، يقال في الفقر: ضاقَ، وأضاقَ، فهو مُضيقٌ، واستعمال ذلك فيه كاستعمال الوسع في ضدِّه[4]، فالتَّضييقُ يدلُّ على الفقر، كما أنَّ التَّوسيع يدلُّ على الغنى.

أمّا التَّقدير؛ فهو تضييق مخصوص، وهو أن يكون بقَدْر مُعيَّن مناسب له، ولا يقتضي الفقر، وعبَّر في الآية بالتَّقدير؛ لأنَّه تعالى يرزق على مقدار معلوم مناسب.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).

(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضيق).

(4) الرّاغب، المفردات: (ضيق).

المحتويات

